تاريخ العلاقات الدولية

فى العصور الحديثة

دكتور

جلال يحيى

١٩٨٢



دار المعارف

تاريخ العلاقات الدَّولِيَة

في العصور الحديثة

دكتور

جلال يحيى



دار المعارف

مقدمة

كنت قد ذكرت فى مقدمة المجلد الاول من هذه المجموعة ، كيف أن المكتبة العربية عامة ، والمكتبة التاريخية خاصة ، تفتقر إلى كثير من المراجع التى يصعب على قراء اللغات الأجنبية الإستغناء عنها . وفى ميدان التاريخ الحديث والمعاصر ، والتاريخ الاوروبى منه ، علينا أن نعترف بضرورة إعتمادنا على ما كتبه الأساتذة المتخصصون فى هذا الفرع ، ومعظمهم من الأوروبيين .

ولقد شعرت بهذا النقص فى المكتبة العربية ، وفى ميدان عملى ، رغم نقل بعض الكتب إلى العربية . وزاد شعورى بمسئوليتى ، وبأن أقدم للقارىء العربى مادة يقرؤها زملاؤه فى كل مكان من العالم ؛ فكان أن إخترت هذا الكتاب،وهو موسوعة فى ثمانية مجلدات ، كتبها عدد من الأساتذة المتخصصين : جانشوف Francois-L. Gonshof الأستاذ بجامعة جاند فى بلجيكا عن فترة العصور الوسطى ، وزيلر Gaston Zeller الاستاذ بجامعة باريس ، عن العصور الحديثة فى جزئين ،وهما موضوع هذا المجلد الآن ، وفوجييه André Fugier ، الأستاذ بجامعة ليون ، عن فترة الثورة الفرنسية والإمبراطورية النابوليونية ، ورنوفان Pierre Renouvin ، الأستاذ بجامعة باريس ، وعضو المجمع ، والمشرف على الموسوعة ، وذلك عن فترة القرن التاسع عشر ، وفى مجلدين ، وعن أزمات القرن العشرين فى مجلدين آخرين .

وبعد تعريب المجلدات التى كتبها الأستاذ العلامة بيير رنوفان ، الخامس والسادس فى المجموعة عن القرن التاسع عشر ، والسابع والثامن عن أزمات القرن العشرين ، أعود الآن إلى المجلدين الثانى والثالث ، عن تاريخ العلاقات الدولية فى العصور الحديثة وهما المجلدين اللذين قام بكتابتهما الأستاذ جاستون زيلر ، لكى

أقوم بتعريبها ، استكمالا للجهود السابق ، وتعميما للفائدة . وليس لى فضل فيها سوى نقلها إلى العربية . ولقد التزمت بما كتبه المؤلف ، وإن كنت قد قسمت الباب الأول إلى بابين ،وحولت بعض أجزاء الفصول الكبيرة إلى فصول مستقلة، داخل نفس الفصل . الذى تحول إلى باب .

والأستاذ جاستون زيلر معروف فى ميدان البحث التاريخى ، وهو من رجال المدرسة التحليلية . والكتاب ، فى طبعته الفرنسية ، ينقسم إلى مجلدين (الثانى والثالث من المجموعة) ، ويحملان عناوين ثانوية : I — من كرستوف كولومب إلى كرومويل ، و II — من لوى الرابع عشر إلى ١٧٨٩ ؛ تحولا فى هذا الكتاب إلى قسمين . ويضم القسم الأول ثلاثة أبواب : عن القرن السادس عشر، وعن منافسات الدول العظمى ،وعن القرن السابع عشر، حتى عام ١٦٦٠. أما القسم الثانى فيضم بابين إثنين : عن القرن السابع عشر ، بعد عام ١٦٦٠ ، وعن القرن الثامن عشر . أى أن هذا القسم يضم ما يسمى بعصر لوى الرابع عشر، والقرن الثامن عشر ؛ وأن كان القرن الثامن عشر قد تقلص فى حجمه ، مادامت أطرفه ، فى بدايته ونهايته ، قد إقتطعت منه : فترة ١٧٠٠ — ١٧١٥ لكى تضم إلى عصر لوى الرابع عشر ، وفترة ١٧٨٩ — ١٨٠٠ ، وهى جزء أساسى فى فترة الثورة الفرنسية التى لها مجلد خاص ، مع الإمبراطورية النابوليونية ، فى هذه المجموعـــة .

ولقـد قام المؤلف ، فى القسم الأول من هـذا الكتاب ، بتقسيم أوربا إلى قطاعات جغرافية كبيرة ؛ ثم ترك هذا التقسيم فى القسم الثانى منه ، أى بعد عام ١٦٦٠ ؛ ذلك أن الأهمية بدأت تتركز منذ ذلك الوقت حول عدد صغير من الدول العظمى ، والتى كانت تقوم بالدور الدبلوماسى والعسكرى ، وزاد أفول نجم الدول الأقل أهمية ، وبتزايد مستمر ؛ أو وصلت إلى الظروف التى إعتاد

الناس فى منتصف القرن العشرين أن يصفوا بها الدول التابعة . وكانت هذه بنوع خاص هى حالة هولندا، وحالة البرتغال ،والتى كان لكل منها دوراً فى غاية الأهمية، فى الفترة السابقة .

أما كلمة «السيطرة» Prépondérance فقد إستخدمت لكى تمثل الموقف المسيطر لدولتين عظمتين فى أوربا ، فى القرن السادس عشر ، والنصف الأول من القرن السابع عشر : فرنسا وإسبانيا . وأخذت هذه الكلمة معناها الأكثر قوة فى عصر لوى الرابع عشر .

وفى الفترة السابقة ، كانت ملكية فيليب الثانى ، قد أظهرت قوة ضخمة ، على البر وعلى البحر ، حتى يمكننا أن نفسب إليها بسهولة أهداف « السيطرة » . وكان إسم ملك إسبانيا ، والبرتغال ، وممتلكاتها فيما وراء البحار ، قد رن فى جميع أنحاء أوربا ، وكإسم لأمير ليس له منافس ؛ وفى وسعه أن يفرض رغباته على جميع أنحاء العالم . ولكن إسبانيا كانت ، من جهة النظر الأوربية ، على حافـــة القارة ؛ وكان عدد سكانها لايزال غير كاف ، وبشكل لا يسمح لقوتها بأن تكون اكثر من تهديد معلق فوق رؤوس خصومها كما ظهر فى مرحلة الأرمادا .

ولسوف نصل إلى مستوى جديد من العظمة ، مع فرنسا فى عهد لوى الرابع عشر . ولقد تطلب الأمر مجهودات حروب وفاقات عديدة ، من أجل وقف مجهودات توسعها ، ثم إجبارها على التراجع . وظلت طوال فترة نصف قرن كاملة هى مركز السياسة ، فى نفس الوقت الثقافة ، الأوربية . وظل إهتمام أوربا مركزاً ، وبقلق شديد ، على كل ما تقوم به . ولذلك فإننا سنبدأ بأن نركز حول فرنسا كل ما نرغب فى أن نشرحه بشأن أوربا الغربية ، وأوربا الوسطى . وبعد ذلك تظهر أمام لوى الرابع عشر ، شخصية كبيرة ثانية ، هى شخصية شارل الثانى عشر ، والتى سوف تعطينا مركزاً ثانياً للإهتمام ، فى شمال

شرق القارة . وسوف نشاهد ، مع شارل الثانى عشر ، زيادة قوة السويد ، مرة ثانية ، حتى القمة ، ثم إنهيارها ؛ وذلك فى الوقت ، الذى يرتفع فيه أحد القادمين الجدد ، وهو دولة روسيا ، ببطء ، ويفرض نفسه على إنتباه العالم المتحضر . أما الضوء الذى إقتصدناه بكل كرم ، من مقدرات فرنسا ، والسويد ، وروسيا ، فإننا سنوجهه صوب مصائر الدول الأقل أهمية .

ومع ذلك فإننا نجد إنجلترا ، بين هذه الدول الأخيرة . وكانت إنجلترا قد تمكنت ، خلال هذه الفترة ، من أن تحتل مكاناً تتزايد أهميته ، حتى أنها أصبحت ، شيئاً فشيئاً ، هى الدولة المسيطرة على غرب أوربا ، وعلى البحار . ولذلك فإننا سوف نهتم بها ، وأكثر من غيرها ، وبخاصة فى الوقت الذى يقترب فيه عصر لوى الرابع عشر من النهاية . ولكن عظمتها الجديدة لن تسجل إلا على هامش جارتها . ولسوف تمثل العقبة الكؤود التى ستصطدم بها دولة لوى الرابع عشر ، حين يختل توازنها .

وفى الوقت الذى تأخذ فيه إنجلترا ، كقوة إقتصادية فى المكان الأول ، فى الصعود ، يمكننا أن نظهر أهمية الإقتصاد فى تاريخ العلاقات الدولية فى هذا العصر : فلقد ظهرت القوة التجارية لإنجلترا على أنها القاعدة القوية لذلك الدور المتزايد الذى سوف تلعبه فى الشئون السياسية .

وعلينا أن نشير إشارة عابرة — وإن كانت معلومة لها أهميتها بالنسبة لمن يقوم بدراسات وأبحاث — إلى أرشيف الأرشيفات ، أو دور الوثائق ، ومع الخطوات التى نتقدم بها ، وفى بعض الحالات فجأة ، إبتداء من بعض الأوقات ، تصبح أكثر وفرة ، وتمنح مادة أكثر لمن يرغب فى الإفادة منها . وبالنسبة لفرنسا بنوع خاص ، كانت بداية حكم لوى الرابع عشر هى الفترة التى بدا فيها تنظيم حفظ الوثائق الدبلوماسية ، ولذلك فإن الدراسات التفصيلية أصبحت أكثر عدداً ،

وأصبحت فى الغالب مليئة بالتفاصيل . ولذلك فإنه اصبح من الصعب الوصول إلى الكمال. أما فيما عدا ذلك ، فلا يمكن للتاريخ الدبلوماسى أن يدعى انه يمثل أكثر من مظهر واحد من مظاهر التاريخ العام للعلاقات الدولية ، كما نعالجه هنا .

وأرجو أن اكون موفقاً فى إختيار هذا الكتاب ، وموفقاً فى نقله إلى القارىء العربى ، فى روحه وإتجاهاته .

وعلى الله قصد السبيل ؟

الاسكندرية فى أول نوفمبر ١٩٨١ .

دكتور

جلال يحيى

القسم الأول

من كرستوف كولومب الى كرومويل

البَابُ الأَوّلُ

القرن السادس عشر

الفصل الأول

المميزات العامة

كان عصر النهضة عصر تجديد، ويمثل نقطة بداية لإنطلاقة كبيرة. وكانت العلاقات بين الشعوب والدول حتى ذلك الوقت محدودة. تقريباً، على الجوار؛ ولكنها إمتدت بعد ذلك عبر العالم، ودخل الاوروبيون، الذين بدأوا فى غزو البحا، فى علاقات مع أجزاء كانت غير معروفة لهم سابقاً من العالم، أو يعرفون القليل عنها، فى الامريكتين، وإفريقية الإستوائية والجنوبية، وأقصى الشرق الآسيوى. وسرعان ماتصبح شبكة الإتصالات الدولية مستعدة لضم العالم كله.

١ ـ المسيحية والامم: نمو الاتجاهات القومية:

إن مايميز هذه الفترة بشكل رئيسى فى غرب أوربا، والذى سيظل طوال العصور الحديثة فى مركز هذه الدراسة، هو أولا مايمكننا أن نسميه بنمو الإتجاهات القومية.

فتفتت الوحدة المسيحية، تحت تأثير حركة الإصلاح الدينى، يظهر على أنه السبب أو النتيجة لذلك، حسب وجهة النظر التى نقتنع بها. فالمسيحية لم تعد، إلا فيما يتعلق بعلاقاتها مع الإسلام، سوى مجرد كلمة. وإن مايهم وحده بعد ذلك، هى هذه الدول العديدة والمختلفة. والتى أصبحت تقتسم المجتمع المسيحى فيما بينها وأصبحت كل دولة من هذه الدول، تتطابق مع أمة، والتى كانت رغبتها فى البقاء ورغبتها فى الحياة تشتمل على مظاهر الانانية الجماعية، والتى يمكن تشبيهها بتلك التى خلق من أجلها القرن التاسع عشر، عند نهايته، كلمة الإتجاهات القومية.

وتحت الشكل اللغوى ، نجد أن الإتجاه القوى يتقابل فى كل مكان وفى كل البلاد نجد أن اللغة اللاتينية ، والتى كانت هى اللغة العالمية ، تفقد مكانتها . ونجد لها من يعمل على تجريدها حتى بين رجال الحركة الإنسانية، والكتاب،والشعراء . ولقد قال رونسار Ronsard «إنها جريمة فى حق صاحب الجلالة أن تتخلى عن لغة البلاد ، الحية والمزدهرة ، لكى نحاول أن نخرج من القبر أى أثر للأسلاف...» . وفى روما ، تسبب شارل الخامس ، فى عام ١٥٣٦ ، فى نوع من الفضيحة ، حين ألقى خطابة باللغة الاسبانية أمام مجمع من الكرادلة والسفراء برئاسة البابا . وظهر إرزم الكبير ، والذى رفض دائماً بالنسبة لنفسه أن يستخدم لغة حية ، على أنه معزول عن عصره ، وعلى أنه متخلف .

ومن ذلك التعلق العام الذى أظهرته الشعوب بلغاتها القومية ، نجد أن رجال حركة الإصلاح الدينى ، وأولهم لوثر ، قد إستخدموا هذه اللغات كوسائل لهم . وتعمدت الكنائس الجديدة عدم إستخدام اللغة اللاتينية وهذا الاتجاه القوى اللغوى يترجم — أو يدعم — إتجاه الانغلاق على النفس الذى ظهر فى نفس الفترة عند معظم شعوب الغرب .

وكان التطور واضحاً بنوع خاص فى الشئون الاقتصادية وفى هذا الميدان علينا أن نذكر إنجلترا قبل غيرها . فلم يحدث فى أى وقت أن أفكار سيطرة الدولة على الاقتصاد كانت لها سيطرة على التشريع التجارى بمثل هذه القوة . وكانت القواعد الأساسية للتشريع والتى تستوحى من هذه الأفكار تتمثل فى إجبار التجار الأجانب على إعادة إستخدام أسعار مبيعاتهم فى شراء السلع الوطنية ، وفى منع التجار الانجليز من إستخدام السفن الاجنبية من أجل الإستيراد أو التصدير ، مادامت هناك سفن متوفرة للبلاد . وإضطر التجار الفرنسيون ، الذين وجدوا أن الضرائب كانت تفرض عليهم فى أشكال متنوعة حين يتاجرون مع

جيرانهم ، إلى أن يفضحوا الأمة الأنجليزية ، وعلى أساس انها أقل الدول ضيافة فى أوربا .

وكانت السياسة الإقتصادية لإسبانيا فى عهد الملوك الكاثوليك تستوحى من تفكير مشابه لذلك . ومنذ قبل إكتشاف العالم الجديد ، لم يكن يسمح للأجانب بالحضور والشراء فى موانيها إلا فى المنتجات الزراعية أو الحرفية للبلاد . وكان هناك منع عام فى هذه الفترة على تصدير الذهب والفضة . وهذا المنع سوف يجدد مرات عديدة حين يبدأ وصول الثروات المعدنية للعالم الجديد . وسينتج عن ذلك حركة تهريب مستمرة عبر جبال البرانس .

وهذا الإتجاه القومى الذى يتزايد ، يمكنه أن يتحول بسهولة إلى تعصب . وكان هذا هو الحال فى بداية الحكم الإسبانى لشارل الخامس . فلقد غضب الناس من هــــذا العدد الكبير من الفلمنكيين الذين كان الملك الشاب قد أحضرهم معه ، وإتهموهم بنهب الميزانية ، وبالتالى تكليفهم أعباء ضرائبية أثقل .

وعلينا أخيراً أن نذكر أبناء البندقية ، والذين كانوا من بين الأكثر إرتباطاً بحماية مصالحهم المـــادية انانية . ولقد عملوا بكل الوسائل من أجل الإحتفاظ بالاجانب بعيدين عن أعمالهم ، سواء التجارية أو الصناعية ، وكانوا يعاقبون بشدة اولئك الذين ، من البنادقة ، كانوا يفشون اسرار صناعاتهم ، وبخاصه صناعة الزجاج ، وكانوا يمتنعون عن كل ما يدل على التضامن مع الأمم الأخرى، وكان ما لا يجرؤ غيرهم ربما على الإعتراف به ، يعلنونه بصوت عال ، حينما كانوا يتهمون بالبرود تجاه الحركة الصليبية ، وبالتودد الكبير للأتراك : « إننا بنادقة أولا ... Siamo Veneziani poi Christiani » . ولذلك فإن تموين البندقية كان يعتمد إلى حد بعيد على حسن نية موظفى السلطان فى تركهم حبوب جنوب شرق أوربا تمر ، رغم المنع الرسمى .

٢ ـ التقاليد الدولية والقانون الدولى :

ولقد إدعو لفترة طويلة — ولايزال البعض يدعى حتى الآن — أن القانون الدولى يرجع إلى بداية العصور الحديثة : وهكذا يرجعون ميلاده عند بعض الكتاب ، وبعض أصحاب النظريات ، وعند ذلك الذى يعتبر أشهرهم ، بداية القرن السابع عشر ، وهو جروسيوس Grotius الهولندى ، مؤلف « من الحرب المشروعة إلى السلم» De Jure belli ac Pacis ، والذى كان مرجعاً لفترة طويلة . ولكن ذلك ليس حقيقيا ، إذ أن العصور الوسطى قد عاشت بدون مبادىء قانونية فى هذا المجال . وفى كل العصور ، كانت العلاقات بين الدول ، سواء فى حالة الحرب ، أو فى حالة السلم ، تخضع لعدد من القواعد التى تقبلها الامم المتحضرة . وفى أوربا ، أعطوا لهذه القواعد شكلا محدداً ، ولم يقننوها ، إلا إبتداء من القرن السادس عشر (١) . فكان عمل جروسيوس وسابقية إذن ، فى أساسه ، يتمثل فى وضع قانون مكتوب ، مكان قانون تقليدى . وكان هذا التطور يظهر على أنه يشبه إلى حد بعيد ، ذلك الذى حدث ، حوالى نفس الفترة ، للقانون المدنى ، فى عدد كبير من البلاد .

ولنوافق إذن ، مع مؤرخى القانون الدولى ، على أن هذا القانون قد حصل ، فى عصر النهضة ، على بعض الخصائص الاساسية التى كانت تنقصه . فالتنظيم

---

(١) وعلينا أن نستثنى من ذلك بعض الفصول ، التى تتعلق بالعمل فى الموانى فانها كانت ، منذ ماقبل قبل نهاية العصور الوسطى ، موضوعاً لكتابات جزئية . ففيما يتعلق بالسواحل المسيحية لحوض الغربى لبحر المتوسط ، كانت هناك مجموعة تسمى « قنصلية البحر » تعتبر مرجعاً فى هذا الميدان . وكانت كذلك « تقاليد أوليرون » تسود فى كل سواحل فرنسا المطلة على الخليج . وكانت قد طبقت ، بأشكال مختلفة شيئاً ما ، وبأسماء « تقاليد أمستردام » ، و « تقاليد ويسبى » ومن جانب بعض دول الشمال .

التسلسلي للعالم ، وتحت السلطة المزدوجة للبابا وللامبراطور ، لم تترك إستقلالا كافياً للدول ـ حتى من الناحية النظرية ـ تمكنهم من الإعتراف بخضوعهم للقانون، حتى وأن كان الجميع قد وافق على مبادئه باختيارهم . وهذا الشرط الضروري إكتمل إبتداء من الوقت الذي ترك فيه عملياً مبدأ الوحدة المسيحية القديم . وإستمر رجال القرن السادس عشر يتحدثون في بعض الحالات ، وبحكم العادة ، عن « الجمهورية المسيحية » . ولكنهم كانوا ، بالفعل ، لا يعتقدون في ذلك .

وكان القانون الدولي المطبق في عصر النهضة قانوناً تصعب معرفته، بسبب كونه قانوناً غير مدون ، وكذلك بسبب كونه لم يخضع لدراسة منظمة . وعلينا أن نشير هنا إلى ما كان يميزه بشكل خاص عن معتقدات وتطبيقات عصرنا (١) .

ففي وقت السلم ، كانت المعاملة الخاصة بالاجانب تستوحي من ليبيرالية واسعة . وكان الإسباني فرانشيسكو دي فيتوريا Francisco de Vittoria ، رجل الدين والقانون الشهير ، قد أعطى صدى للافكار التي كانت واسعة الإنتشار ، حين درس أن حق الذهاب والعودة من دولة لدولة أخرى ـ وهو ما سماه « حق الإتصال » ـ كان موروثاً في نفس وجود المجتمعات الإنسانية : فليس على أية دولة أن تغلق حدودها في وجه أولئك الذين يرغبون في عبور حدودها ، سواء أكان ذلك من أجل السفر ، أو من أجل القيام بنشاط « غير مؤذ » .

أما في وقت إعلان الحرب ، فغالباً ما تؤخذ الإجراءات ضد رعايا الدولة المعادية . ففي فرنسا ، يمكن أن يواجههم قرار طرد ، وفي عام ١٥٢٨ ، ثم في عام ١٥٤٢ ، أجبرت حكومة فرانسوا الأول رعايا الإمبراطور الذين يقطنون

---

(١) لا تزال المادة لم تخضع لدراسة كافية ، الأمر الذي يدفعنا إلى أخذ أمثلة من الدول الكبرى الغربية فقط

المملكة على أن يتزوجوا بفرنسيات فى مدة شهر ، إذا لم يكونوا يرغبون فى أن يطردوا . وفى عام ١٥٥١ رأى رعايا الإمبراطورية ، فى نفس الوقت الذى طلب إليهم فيه ترك البلاد ، أن ممتلكاتهم قد صودرت . وردت الحكومة الامبراطورية على ذلك باتخاذ إجراءات مشابهة ضد الفرنسيين المقيمين فى الأراضى المنخفضة .

وإحدى الميزات الأكثر وضوحاً لمجتمع الدول الأوروبية تتمثل فى قلة أهمية الحدود ، باستثناء أوقات الحروب . وكانت أقل فى عددها بكثير عنها فى الوقت الحاضر . وفى كل وقت ، كانت هناك حواجز ضرائبية تمبر ، ومكوس تدفع ، بالنسبة للتجارة والسلع المتنقلة ، وكذلك بالنسبة للمسافرين . ولكنه لم يكن هناك شىء مميز يدل على العبور من دولة ذات سيادة إلى دولة أخرى . وإذا كان الأمر يتعلق بالأفراد أو بالسلع ، فإن الضرائب المدفوعة كانت لها نفس الصفة ، وكان المندوبون المكلفون بتحصيلها يشبهون أولئك الذين نقابلهم فى أى مكان آخر : وكذلك فإن العلامات التى كانت تحدد الدول لم تكن مختلفة . وكان الخط الذى يحدد الحدود نفسها يبقى هنا وهناك ، غير محدد . وفيما بين مملكة فرنسا والإمبراطورية ، كانت هناك أكثر من منطقة سيادة متنازع عليها ، وكانت نظم الحدود التى توضع من وقت لآخر تحتاج باستمرار إلى إعادة النظر فيها ، وإلى مراجعتها .

وهذه الحدود ، والتى كانت غالباً غير محددة ، وغير مرسومة بوضوح . كانت تبدو على أنها بداية ومقدمة للحدود المعروفة الآن . ولم يكن هناك شىء يعوق تلك التيارات المختلفة للاتصال ، والتى كانت تدفع إليها ، ومن آخر أوربا إلى طرفها الآخر ، الرغبة فى زيادة سوق ، أو الاشتراك فى عملية حج إلى مكان مشهور ، أو الوصول إلى جامعة لها شهرتها . ولذلك فإن معاملة الأجانب كانت تستوحى ، وعلى الأقل فى أوقات السلم ، من إتجاه متحرر إلى درجة كبيرة .

ومع ذلك فإن أعباء كثيرة كانت تفرض عليهم : ففى فرنسا — وحيث كانوا قد سموا فى الماضى « بالأغراب » — كان أشد هذه الأعباء ثقلا هو بلا شك ما ينتج عن قانون الأغراب Ubaine ، فكان ميراث من يتوفى أثناء إقامته فيها يصادر ، ولصالح الملك . وكانت قيمة بعض الضرائب ، وبعض الرسوم ، أعلى بالنسبة للأغراب عنها بالنسبة لأبناء الإقليم . ووجدوا أنه من الطبيعى أن يدفع الأجنبى بعض السلع وبعض الخدمات أغلى من غيره : وكان هذا المبدأ هو الذى يؤثر ، فى فرنسا فى القرن السادس عشر ، فى رسوم البريد الناشئة :

وكان التجار الأجانب يخضعون لمراقبة خاصة . وفى بعض الحالات لنظام استثنائى . فكانوا لا يقبلون فى هذا المكان إلا فى أعداد محدودة ، ويحرمون فى مكان آخر من مثل هذا النشاط أو ذاك . وكان العداء الذى تظهره لهم بعض المدن المتاجرة يعتبر إمتداداً لذلك العداء الذى كانت المدن من قبل ذلك تظهره فيما مضى لكل غريب Forain أى لكل من لم يكن من عندهم . ومع ذلك ، فلم يكن هذا العداء يظهر باستمرار : فلم نلاحظه إلا فى فترات الصعوبات الإقتصادية . ففى فرنسا ، أثناء حكم لوى الحادى عشر ، وعند نهاية القرن الخامس عشر ، حاولوا على العكس من ذلك أن يجذبوا الأجانب ، وأعطوهم كل أنواع الإعفاءات والميزات : وفى كثير من المدن ، وحتى فى كل أراضى إقليم مثل لا نجدوك ، ألغى قانوا الأغراب (مصادر ميراث المتوفى الاجنبى فى صالح الملك) . وحين جاءت أزمة القرن السادس عشر ، لم يتحدث الناس سوى عن الإحتفاظ بهم بعيدين ،ورعاية مصالح الوطنيين على حسابهم . وكانت بعض توصيات مجلس طبقات الأمة Etats - Generaux فى عام ٥٦٠ و ١٥٧٠ لها لون واضح من التعصب .

وفى كل البلاد ، وفى المراكز الكبرى للتبادل ، كان الأجانب ، حين يصبح

عددهم كبيراً ، يتجمعون فى أوطان أو أمم ، كانت تعيش حياتها الخاصة بها ، وعلى هامش الدولة المستضيفة لها . وكانوا يشكلون جمهوريات صغيرة ، تحت إشراف أحد « القناصل » ، الذى كانوا ينتخبونه أو تعينه حكومة بلادهم . وسنتحدث عن ذلك فيما بعد ، حين نتحدث عن النظم القنصلية .

وتقاليد الحرب ، التى نعرفها من التواريخ والمذكرات ، تثير دهشتنا ولقلة إنسانيتها بنوع خاص .

فكان من الممكن إعدام الاسرى وكان هذا يحدث فى أغلب الأحيان ، وعلى الاقل بالنسبة لأولئك الذين كانوا لا يأملون فى الحصول على فدية محترمة لهم . وكان من الضرورى ، من أجل أن يحصل المدافعون عن أحد الأماكن ويسلمون على الإبقاء على حياتهم ، أن يوافق رئيسهم على شروط التسليم . وحين يتنازل المنتصر عن ممارسة كل حقوقه بأكملها ، فإنه لا يحتفظ بالاسرى ؛ بل يرسلهم إلى بلادهم، بعد أن ينزع سلاحهم ، إلا إذا ما كانت لديه سفن يجدفون عليها . وكان الاسبانيون يجبرونهم على القسم بعدم العودة لحمل السلاح فى أثناء الحرب القائمة . وعند أواسط القرن ، ظهرت ممارسة « الحرب الطيبة » . فإذا ما إتفق الجيشان المتواجهان على التعامل بها ، فإن الاسرى لا ينفذ فيهم الإعدام ؛ وحسب الحالة ، فإنهم إما أن يفك أسرهم ببساطة ، أو يتم تبادلهم بين الطرفين ، وبأعداد متساوية ؛ وتوضع فئات محددة لمستوى الفدية ، التى كانت تتسبب فى أنواع مختلفة من المساومات . ويبدو أن هذه « الحرب الطيبة » قد مارسها أولا السويسريون ، حين كانوا يواجهون الألمان . ولا نعثر على أمثلة لها فى فرنسا إلا فى أثناء حكم هنرى الثانى .

وفى مناطق المعارك ، كانت أقسى أنواع العنف تستخدم ضد الأهالى الذين يسكنوها ، وضد ممتلكاتهم . وكانت الأوامر تصدر ، فى بعض الحالات ، بعدم

ترك أى شىء يسمح للعدو بأن يتزود به : فكانوا يأخذون المواشى ، ويحرقون المحاصيل ؛ وكان ذلك نظاماً عند الألمان : فكانت كل فرقة من فرق الجيش تضم ضابطاً يسمى رئيس الحريق Branbmister .ولم يكن للضحايا ، بعد نهاية الحرب، أى حق بطبيعة الحال ، فى أى نوع من أنواع التعويض ؛ وكان فى وسعهم ، على الاكثر ، أن يلتمسوا بعض الإعفاءات من الضرائب .

وإذا كانت حدود المعركة تتغير ببطء ، فإن ذلك كان يسمح للأهالى غير المسلحين بأن يصالحوا خصماً مهدداً : فكانوا يخرجون لمقابلته ويعرضون عليه الأموال . وكان هذا هو أساس نشأة « معاهدات الفردة » أو « الجزية » التى كانت تعقد بين القادة وبين ممثلى سكان القرى أو المدن . ومها كانت شروطها فإن هذا النوع من الاتفاقيات كان ينتج عنه وضع الخاضعين تحت حماية من يطالبهم بالأموال .

وحين تؤخذ المدينة عنوة ، كانت تنهب ، فى غالب الأحيان . وكان الأمل الموجود عند المحاصرين، فى الحصول على الاسلاب ، لا يمكن أن يخيب دون خطر كبير على الطاعة وعلى النظام وكان المشاة هم الذين يقع على كاهلهم عبء عمليات الحصار ،ويخدمون الجيوش ،ويقومون بعمليات الحمل والجر، وكانوا يعرضون خدماتهم على من يدفع أكثر ؛ وستكون مهمتهم بالنسبة إليهم غير مجدية إذا ما فقدت تلك الميزات الخاصة بالاسلاب .

وفى دول مختلفة ، كان جنود المشاة من الاجانب . وكان هناك نوع من السوق الدولى للجنود ، يمكن لكل أمير أن يتزود منه . وكان أحسنهم هم السويسريون : وكانت سمعتهم فى هذا الميدان ترجع إلى زمن سابق . وابتداء من الربع الثانى للقرن السادس عشر ، بدأ الألمان فى منافستهم ، وكان حبهم للنظام ،ومنافساتهم فيما بينهم، تظهرهم أقل تطرفاً من غيرهم بالنسبة لأجورهم.

وكانت جيوش الامبراطورية تأخذ فرسانها الخفيفة من المجر. وكان سادة البندقية، ولنفس الغرض، يستقدمون الرجال من ألبانيا. وبعد نهاية فترة الحروب الإيطالية، أصبحت الجيوش تضم أعداداً أقل من العناصر الأجنبية. ومع ذلك، فإن فرنسا، فى أثناء الحرب الدينية، كانت لاتزال تطلب فرسانا من ألمانيا. وظلت تحتفظ، طوال العهد القديم، (أى حتى نشوب الثورة الفرنسية بفرقة من السويسريين فى خدمتها.

وكانت للحرب البحرية تقاليدها الخاصة. وكانت أهم خصائصها هي ممارسة حق الإنتقام بواسطة «الخطابات المبصومة». وكان الملك هو الذى يقدم هذه الخطابات، ومن حق المستفيد بها أن يستخدم كل الوسائل الموجودة لديه من أجل أن يعوض نفسه عن الاضرار التى تكون قد وقعت له بواسطة رعايا دولة أخرى. فمن حقه أن يمارس ضدهم حرب «السباق البحرى» Course وهذا الذى يقوم بالسباق البحرى Corsaire يعتبر على أنه متحارب، وهو محمى، نظرياً، وعلى الأقل من العقوبات التى قد تنزل بقاطع الطريق البحرى Pirate.

وإلى جانب قانون الحرب، كان قانون المحايدين يمثل دائماً جزءاً هاماً فى القانون الدولى. وكانت فكرة الحياد مألوفة عند رجال عصر النهضة، ولكن مضمونها لم يكن هو نفس المضمون الذى نعرفه الآن وكان على المحايدين بطبيعة الحال ألا يتدخلوا بأى شكل فى العمليات الحربية. ولكنه لم يكن ممنوعاً عليهم تقديم خدمات للمتحاربين، مثل تزويدهم بالمواد الغذائية. ومن الواجب علاوة على ذلك، عدم قصر خدماتهم على طرف واحد فقط من الطرفين المتحاربين. فذكرت خطابات الحياد التى منحها فرانسوا الأول لدوقيات اللورين، فى عام ١٥٢٨ وبشكل واضح: «فإذا كان هذا هو ما يقومون به لطرف، فعليهم أن يقوموا به للطرف الآخر، حتى تتم المحافظة على المساواة». ولذلك فإنهم إذا كانوا

يرغبون فى التعامل مع أحد المتحاربين ، فعليهم أن يحافظوا على سلامة الميزان مع خصمه . وعلى العكس من ذلك ، كان من حقهم المعترف به ، وبالإجماع ، عدم التعرض للمقاساة من أضرار الحرب . وكانو يميلون إلى قبول فكرة أنه من المشروع بالنسبة لأحد الجيوش أن يستعير إقليم محايد ، بشرط عدم المحاربة فيه وعدم البقاء فيه لفترة طويلة دون ضرورة حتمية ، وعدم طلب أى شىء من الأهالى الذين يسكنونه إلا نظير دفع ثمن مناسب . وهكذا تظهر شيئاً فشيئاً ملامح تلك النظرية التى سيسميها رجال القانون بعد ذلك «حق العبور بدون ضرر». ومع ذلك فإن هذا المبدأ لم تتم الموافقة عليه فى كل مكان . فكان فالكانتونات السويسرية كانت ترفضه . وحينما وافق ملك فرنسا على طلب كونت بورجاندى باعلان الحياد ، حرم اتفاق عام ١٥٢٢ ، والذى تجدد مرات عديدة أثناء ذلك القرن ، وسميا حق العبور .

وتمت التجارة فى وقت الحرب بنوع من الحياد الدائم . فليس فقط أن غير المتحاربين كانوا يستمرون فى القيام بأنشطتهم فى حرية ؛ ولكن الحال كان يصل أحياناً إلى أن أعلان الحرب لا يتسبب فى قطع العلاقات التجارية . وكانت بعض التعاملات تبدو على أنها على درجة من الأهمية ، ودرجة من الحيوية ، تجعلهم يترددون فى قطعها . وفى بعض الحالات كان الملك يقنع بأن يمنح ، ونظير المال ، تصريحات لبعض الخاصة . وفى حالات أكثر ، كان التصريح بالاتجار عاماً . وعلى الأقل لا يمكننا أن نميز إلا فيما بين السلع : فالغلال ، ومواد المدافعية ، والذخائر كان لا يمكن تصديرها . وتحدثوا فى ذلك العصر عن الهدنة التجارية أو هدنة « اتصالات » ففيما بين فرنسا وانجلترا كانت هناك هدنة « صيد » مصحوبة فى غالب الأحيان بهدنة تجارية : إذ أن الصيد كان نشاط اقتصادى آخر يصعب التفكير فى منعه .

٣ ـ السفارات الدائمة :

وإتجهت سرعة العلاقات بين الدول الغربية الكبرى نحو الزيادة بدرجة أن أجهزة الحرب والدبلوماسية فى هذا المجال إضطرت ، من أجل قيامها بواجباتها ، إلى أن يصيبها بعض التغيير . فمنذ نهاية القرن الخامس عشر ، يحدثنا التاريخ عن وجود جيوش دائمة ، وسفارات دائمة .

ولن نقوم هنا برسم خطوط التطور صوب الجيوش الدائمة فكانت لها أصولها عند نهاية العصور الوسطى ، وتدخل من ناحية أخرى فى التاريخ الداخلى لكل دولة . يكفينا ذكر كلمة عن هذا التقارب الموجود بين هاتين المنظمتين .

وكانت طريقة السفارات الدائمة قد ولدت فى إيطاليا ، ثم إنتشرت بعد ذلك فى كل الغرب . وكانت الدول الإيطالية العديدة فى القرن الخامس عشر تفصل بينها منافسات ، وبشكل جعلها تشعر بالحاجة لمراقبة بعضها بعضاً باستمرار . وكانت أقل محاولة من جانب إحدى هذه الدول لتغيير الوضع القائم ، فى صالحها ، تقسبب فى عداء بقية الدول . وعاشوا فى حالة من التوتر الدائم . وعملت الدبلوماسية فى نشاط مستمر من أجل التوفيق بين المعاهدات والمحالفات وبين موقف متحرك ومتغير بإستمرار . ونتجت عن ذلك الحاجة إلى تعيين سفراء فى مراكز ثابتة . وأصبح هذا التقليد عاماً تقريباً فى كل شبه الجزيرة حوالى عام ١٤٨٠ .

وحين عبر شارل الثامن جبال الألب من أجل الحصول على تاج نابولى ، سرعان ما تشبه بالأمراء الإيطاليين ، والذين كان يحاول خطب ودهم . فترك لنفسه ممثلا لدى كل منهم . وفى العام التالى ، وحين نشأ التكتل ضده ، تدخلت دولا أخرى ، إسبانيا ثم الإمبراطورية ، فى إيطاليا . وأخذت كل منهما ،

بدورها ، تلعب اللعبة الدبلوماسية ، على الطريقة الايطالية . ولم يبق الكرسى البابوى متخلفاً عن ذلك لوقت طويل ففى عهد البابا ليون العاشر ، وفى وقت عصبة كامراى ، كان هناك مندوبون دائمون للبابوية فى العواصم الكبرى ، إلى جانب السفارات الدائمة . أما إنجلترا ، والتى لم تكن لها مصالح فى إيطاليا ، فإنها لم تطبق هذا التقليد الجديد إلا بعد فترة من الوقت،ولم تقرر ذلك إلا بعد وصول شارل الخامس إلى العرش فيمكننا إذن أن نقرر أن إبتداء عهد السفارات الدائمة قد حدث فى هذا الوقت ، وقبل الربع الثانى من القرن ، بقليل .

ويصعب علينا أن نؤكد أن كل المراكز كانت ، منذ هذه الفترة ، مشغولة بطريقة مستمرة ، إما لأن الوثائق تنقصنا ، وإما لأنه كانت هناك حلول من أجل الإستمرار . ولكن حدث أن بعضها ، من وقت لآخر ، قد ظل شاغراً ، وإن لم يكن ذلك إلا لفترة مؤقتة .

وعلينا أن نحدد أن لفظ السفير لم يكن مستخدماً بشكل عام . وفى بداية الفترة كان ينافسه لفظ « خطيب » أو « واعظ » Orateur الذى كان قد ساد أثناء العصور الوسطى . ثم إحتفظ به بعد ذلك للمندوبين غير العاديين ، والكبار الشخصيات الذين سيمدون فخامتهم فى العواصم الاجنبية ، مكلفين ببعض المهمات التى لها طابع المراسم ، مثل حملهم التهانى بمناسبة الأحداث السعيدة ، من زواج أو ميلاد . أما المندوبون المرسلون إلى مركز ثابت فانهم يحملون لقب « مقيم » Resident . وكانت الإحترامات الواجبة لهم ، والهيبة التى تحيط باشخاصهم ، لا يمكن موازنتها بتلك التى كانت للسفراء الحقيقيين . فكانوا شخصيات من درجة أقل ؛ وكان دورهم يقتصر على الملاحظة والابلاغ ، بشكل أساسى . والفرق بين هؤلاء وأولئك يشبه ذلك الموجود بين المندوبين Nonces والقاصدين Iégats الرسوليين : فكان القاصد الرسولى يمثل شخص البابا ،

ويتحدث ويتفاوض بإسمه ، ومزود بسلطات تامة ، أما المندوب البابوى فعليه أن يرجع باستمرار إلى روما .

ولم يصل التنظيم الدبلوماسى الحديث فى أى مكان إلى نفس الدرجة التى صل إليها فى البندقية . وكان له هناك ، فى حقيقة الأمر ، تقاليد موجودة منذ وقت بعيد . وكان تمثيل الجمهورية فى الخارج يعبر على أنه من أكبر خدمات الدولة : ولم يكن حق من يقع عليه الإختيار له أن ينسحب منه . وإتخذت الإجراءات من أجل إبعادهم عن الإنحرافات التى قد تعرضهم لها مناصبهم : فكان عليهم ، مثلا ، أن يتعهدوا بأن يسلموا للمجلس الكبير ، عند عودتهم ، كل الهدايا التى يكونوا قد إستلموها وكانت الرسائل التى يبلغون بها حكومتهم يوماً بيوم ، والتقارير الأكثر دراسة ، والاحسن كتابة ، والتى كانوا يقرأونها أمام مجلس الشيوخ بعد إتمام مهمتهم ، تعتبر مصدراً وثائقياً من الدرجة الأولى بالنسبة لتاريخ السياسة الأوربية ، وبالنسبة للحياة الدخلية فى الدول المختلفة .

ولقد أشادوا فى بعض الأحيان ببداية الدبلوماسية الدائمة على أنها تمثل تقدماً فى حياة العلاقات الدولية . ويمكننا أن نجد كثيراً هذا الموضوع عند المؤرخين الإنجليز : فالإحتفاظ بمندوبين مستعدين دائماً للتفاوض يؤدى إلى إضعاف ميل الحكومات إلى الالتجاء إلى الأسلحة دون سبب سريع ، وكل زيادة للروح القانونية تتضمن وتترجم بتراجع إستخدام القوة الغاشمة . ومثل وجهات النظر هذه تشتمل على كثير من التفاؤل . فالنظام الجديد ليس له بالتأكيد مجرد النتائج السعيدة فقط ولنوافق على أنه قد ساعد ، فى بعض الحالات ، على سيادة التفاهم المشترك بين الدول ، ولكن ماذا نقول عن المساوىء الناتجة عن ضيق التفكير ، والشكوك ، وأخطاء بعض الدبلوماسيين ! إننا نرى

أن بعض الخلافات غير المسيئة تتضاعف بواسطة بعضهم ، فى الوقت الذى كان دورهم يحتم تسويتها ودياً .

وفى نفس الوقت كان عـلى « المقيمين » الأوائل ، فى بعض الأحيان ، أن يبذلوا جهداً من أجل القضاء على عدم الثقة التى كانت تنتج عن وجودهم وبدا أمام بعض الحكومات التى تشك فيهم أنه ستنتظم حولهم ، كضيوف غير مرغوب فيهم ، مراكز مؤامرات ، وحتى مراكز تجسس . وأعلن فرد يناند الكاثوليكى أنه لا يرغب فى إستضافتهم . وإقترح هنرى السابع ، وهو على فراش الموت ، وحسبما ذكر أحد كاتبى تاريخ حياته ، أن يمنع إقامتهم فى إنجلترا وهناك أسباب أخرى عملت على أن تؤخر إلى فترة طويلة زيادة عدد السفارات الدائمة . فالدول الصغيرة - مثل البرتغال واسكتلندا - لم تكن ترغب فى تحمل نفقات بعثات كانت فائدتها المباشرة غير واضحة أمامهم . ولذلك ، فإن معاملة المثل لم تكن تراعى بشكل دائم . وكان لفرنسا . فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، مقيمين فى كوبنهاجن وفى كراكوفيا ، دون أن ترى الدانمرك وبولندا ضرورة وجود ممثلين لها فى باريس . وفى نفس الفترة ، بينما كانت البندقية وإسبانيا وفرنسا ممثلة بشكل دائم فى القسطنطينية ، كانت البعثات العثمانية لدى هذه الدول المسيحية مؤقتة وإستثنائية .

وكان بلاط فينا لا يرغب فى زيادة عدد السفراء الرسميين . وكان ممثله فى عواصم الشرق ، فى كراكوفيا والقسطنطينية ، شخصيات بمستوى أقل ، وكانوا يحملون لقب « مندوب » Internonce .

وعند الأتراك ، أخيراً ، نجد أن هذا المنع قد ظل لفترة طويلة موجوداً ضد السفراء الأجانب وكانوا يرون فيهم جواسيس لهم ميزات . وكانوا يراقبون حركاتهم عن قرب ، وكانوا فى أوقات الصعوبات ، يعاملونهم على

أنهم رهائن فلقدقبض على جيروم لاسكى Jérome Laski ،سفير ملك الرومانيين ، فى عام ١٥٤٠ ، بعد إستقباله الأول مباشرة . وإحتفظ به السلطان سليمان قريباً منه ، وأثناء تنقلاته خلال كل فترة حملته على المجر ، ولم يطلق سراحه إلا بعد ما يزيد على عام ، وحين عاد إلى بودا .

٤ ـ القناصل والقنصليات :

رغم أن النظام القنصلى كان موجوداً منذ فترة بعيدة ، إلا أنه كان لايزال غير كامل التحديد .

وكان له ، من حيث المبدأ ، صفة تجارية أساسية ، وكان من يحملون لقب قنصل هم من التجار ، يختارون بواسطة زملائهم ، ويعينون بواسطة الملك أو بواسطة ممثل معتمد له . ولكنه كان يحدث لهم ، فى بعض المدن ، وفى بعض الظروف ، أن يضطروا إلى القيام بدور المندوب الدبلوماسى . وكانت هذه الحالة واضحة بشكل خاص فى الامبراطورية العثمانية وحيث لم تحتفظ الدول المسيحية ببعثة نظامية دائمة إلا فى وقت متأخر . وكانوا يمارسون سلطات قضائية ومالية فى نفس الوقت . ولذلك فإنه من الممكن إعتبارهم كرؤساء لهذه الجمهوريات الصغيرة التى تكونها هـذه المجموعات الصغيرة من أبناء أوطانهم المقيمـين إلى جوارهم . وكانت سلطتهم لا تمـارس إلا عليهـم ، وإلا فى حالة حصول رعايا أجانب آخرين على حق رعايتهم لهـم . وكانوا حريصـين ، فى علاقاتهم مع السلطات المحلية ، على إحترام الحقوق التى اعترفت بها لهم المعاهدات أو التقاليد الدولية .

وكان مركز القناصل يبدو متغيراً إلى حد بعيد من بلد آخر . وسنعود لذكر ما يحدث لهم فى البلاد الاسلامية . أما فى أوربا ، فلا يمكننا أن نتحدث بثقة نسبية عنهم سوى في ليون وأنفرس .

والحالة فى أنفرس كانت إمتداداً لما كانت بروج قد عرفته فى أثناء القرن الخامس عشر . فكان هناك « رعايا » للبرتغال ، ولاسبانيا ، وألمانيـــا العليا ، وجنوا ، وفلورنسا ، وتوسكانيا ، والبندقية . وفى ليون إتسع هذا النظام فى نفس الوقت الذى تأكد فيه إزدهار الأسواق ، أى قرب نهاية القرن الخامس عشر . وكان الإيطاليون هم أول من وصل،وظل عددهم هو الأكثر من غيرهم . وكان النظام الموضوع من أجل الاحتفالات الرسمية ، وحيث يحضر القناصل ، يضع قنصل توسكانيا فى المقدمة ، ثم قنصل جنوا ، فقنصل فلورنسا ، فقنصل ميلانو ، ثم الألمان (ألمانيا العليا وألمانيا السفلى) ، ثم أضيف إليهم السويسريون عند نهاية القرن .

وكانت بعض المدن المتاجرة لا تقبل بسهولة وجود موظفين ومسئولين أجانب يتولون القضاء داخل أسوارها ، وإعتبرتهم منافسين ، ومضايقين لها . ففى بوردو مثلا ، عارض الأميرال دى جويان De Cuyenne وجودهم حتى منتصف القرن السابع عشر .

وكان لملك فرنسا قناصل فى عدد من المدن الأسبانية ، والبرتغالية ، والإيطالية وكان مركزهم القانونى غير ثابت ، حتى أن فليب الثانى ، حين أصبح ملكاً للبرتغال فى عام ١٥٨٢ وفى نفس الوقت ملكاً لإسبانيا ، وبدلا من أن يعطى إعترافه بالقناصل الموجودين ، قام بتعيين غيرهم ، ولم يكونوا من الفرنسيين.وكان هذا سبباً فى نشأة الخلافات مع حكومة هنرى الثالث ،وبخاصة من أجل مركز لشبونة .

وقرب هذا الوقت ، بدأوا فى فرنسا فى بيع مناصب القناصل ، كما كانوا يبيعون غالبية المناصب العامة . ومنذ ذلك الوقت كان الملك،عندما يعطى موافقة على تعيينهم ، يتأكد فقط من شخصية المشترين ومن قدراتهم .

٥ ـ الجمارك :

كانت مسيحية العصور الوسطى تمثل، فى نظر العصور الحديثة، وحدة إقتصادية كبيرة . ولم تكن حدودها السياسية تتمشى مع حدودها الجمركية . وعاش الناس تحت نظام حرية عامة للتبادل . وحتى فى إثناء عصر النهضة كان مبدأ التبادل intercursus كثيراً ما تثيره الحكومات وكانت الحرب توقف تطبيقه ، ويعاد العمل به وقت السلم ، وفى بعض الأحيان باعلان رسمى .

فهل معنى ذلك أن نقول أن حرية التبادل كانت كاملة ؟ لم يكن هناك مبدأ ، وحتى إذا ما كان الامر مقبولا بشكل عام، فإنه كان يخضع لبعض حالات المنع ، والتى لم تكن تمثل إستثناء من القاعدة . فكان منع الاستيراد أو التصدير ، هنا وهناك، يصيب هذه السلعة أو تلك، والتى كان إقتصاد الاهالى يخشى من منافستها ، أو التى كان يرغب فى الاحتفاظ بها للسوق الوطنى . وكان هذا ، مثلا ، هو حالة الحبوب . فخوفاً من المجاعة ، كانت غالبية الدول لاتترك القمح يخرج منها إلا بتصريح خاص ، وصالح لمحصول واحد فقط . ولكن المنع ، فى مجموعة ، كان لا يمثل إلا إستثناءات .

وفى بداية العصور الحديثة ، بدا أن التبادلات قد أصبحت مهددة فكانت الدول العظمى المركزية قد نشأت . وتطلبت الشهية المتزايدة للأموال منها أن تفرض الضرائب على الاشكال المختلفة لانشطة رعاياها ، وكانت فى أولها التجارة مع الخارج ، والتى كانت مورداً رئيسياً للنظام الرأسمالى النقدى .

وكانت عملية تنظيم الانظمة الجمركية المتكاملة ، والمتشابهة ، مع تعريفات مختلفة ، فى مجموعها ، من نتاج القرن السادس عشر . ويعنى هذا أنه لم تكن هناك ضرائب جمركية قبل ذلك ، ولكن حددها ، الذى كان نسبيا قليل الإرتفاع ، وخصائصها التى كانت غالباً محلية ، كانت تسمح بعمل تمييز واضح بين هـذه

الضرائب فى القرن الخامس عشر . والسادس عشر، وحتى الخاصة بالقرن الثالث عشر ، وبين الضرائب التى ستقوم دعائمها المتتالية والمتزايدة ببناء سور حقيقى وقوى حول الدول العظمى الغربية .

وكانت الرسوم الجمركية قد فرضت ، وجمعت ، قبل غيرها عند حدود البحر ، وفى الموانى . ويبدو أن الكثير من بينها ، إن لم تكن غالبيتها ، كان سببها وهدفها هو إما تغطية مصاريف المحافظة على منشآت الموانى ، وإما ضمان الحماية للتجار والسفن فى المياه الإقليمية من قطاع الطرق البحرية pirates . فيمكننا إذن أن نضمها إلى العوائد péages . وفى موانى انجلترا ، وحيث كانت متعددة وقديمة بشكل خاص ، كان من الصعب التمييز بينها . هذا علاوة على أن كلمة coutumes التى سوف تستخدم عــبر القرون لتمييز الجمارك الانجليزية customs ، قد إستمر استخدامها فى فرنسا ، خلال كل القرن السادس عشر ، لبعض العوائد المحلية .

وبدت إنجلترا ، التى تميزت بحالتها الجزرية، على أنها قد سبقت كل الدول الأخرى فى هذا الميدان . ولفترة طويلة ، ظل لكل ميناء نظامه الخاص . وكانت الإجراءات الأولى للتوحيد بين هذه النظم ترجع إلى عهد الملك هنرى الثامن : فظهرت تعريفة عامة فى الربع الثانى من هذا القرن . ثم أكمل النظام فى عهد مارى تيودور . عن طريق إنشاء ضرائب جديدة ، وعن طريق نشر تعريفة جديدة ، فى عام ١٥٥٨ ، وبعد فقد كاليه ، كانت أكــثر إرتفاعاً من التعريفة السابقة .

وفى إسبانيا ، كانت الرسوم الجمركية عند نهاية العصور الوسطى تحمل إسم « العشور » dimes ، مثل الضرائب الكنسية تماماً ولكنهم أخذوا فى نفس الوقت فى إستخدام كلمة « ديوان » douane ، التى أخذوها من الشرق التركى أو العربى .

فأصبحوا يقولون « عشور الديوان » diezmos de aduana ويمكننا أن نرجح بدرجة أكثر أن أصل هذه الكلمة قد أخذ من كلمة « عدوة » العربية ، والتى تدل على الثغور البحرية ، والبرية والتى لاتزال تستخدم فى المغرب الأقصى حتى اليوم. إلى جانب « عشور البحر » التى كانت تجبى فى الموانى ، والتى كانت بلا شك الأكثر قدماً ، كانت هناك عشور الثغور البرية التى تدفع عند الحدود البرية . وكانت تفرض بلا تمييز على كل السلع ، عند الخروج وعند الدخول. ولذلك فانها كانت تمثل بالفعل نوعاً من العشور مفروضاً على التجارة الخارجية . وإبتداء من عهد « الملوك الكاثوليك » خضعت الواردات والصادرات لمعاملات مختلفة وإستمرت عملية التعديلات فى الضرائب والتعريفات . وظهرت سنة ١٠٥٨، والتى تمثل أزمة مالية حادة ، على أنها كانت فى إسبانيا ، وكما كانت فى إنجلترا (كان فيليب الثانى Philippe II فى هذا التاريخ ملكاً لإسبانيا ولإنجلترا) فى غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ النظام الجمركى .

ولم تحذ فرنسا حذو إنجلترا وإسبانيا إلا مع بعض التأخير . وكانت قد وجدت نفسها مشغولة بمشكلات وصعوبات لم تعرفها أى من جارتيها ، نتيجة لطول حدودها البرية ، وسهولة عبورها . ولقد قنعت لفترة طويلة بفرض الضرائب على الصادرات فقط ، ولم تكن هذه الضرائب تدفع عند الخروج من المملكة ، ولكن فى أماكن شحن السلع : وعند الاقتراب من خط الحدود ، لم يكن على التجار سوى أن يظهروا إيصالات ما دفعوا الحرس « الموانى والممرات » . وظهرت أول ضرائب على الواردات فيها عند نهاية القرن الخامس عشر ، أو بداية القرن السادس عشر . وكانت تدفع على السلع ذات القيمة المرتفعة . وعلى التوابل ، والحراير ولنفس السبب — صعوبة تنظيم الدفع وعمليات الإشراف — كانت هذه الضرائب لا تدفع إلا فى بعض الموانى ، أو بعض المدن ؛ والتى كان من اللازم

المرور فيها . ولم تعمم هذه الضرائب إلا فى عام ١٥٨١ . ولذلك فإن فرنسا لم يصبح لها نظاماً جمركياً من طراز حديث إلا عند نهاية القرن السادس عشر فقط وعند هذا الوقت دخلت كلمة Douane ، والتى كانت مستخدمة فى ليون منذ عام ١٥٤٤ ، فى اللغة المستخدمة .

وعند نهاية تطور الضرائب الجمركية،فى هذه الدول الثلاث،تغيرت صفاتها . فمن مجرد حاجة ضرائبية ، أصبحت وسيلة لسياسة إقتصادية معينة.وسيلة تكتشف شيئاً فشيئاً مرونتها الكبيرة . ففى مواجهة التجارة الأجنبية لم يكن هناك مجرد موقفين ممكنين فقط : فتح الباب ، أو إغلاقه . فلقد تمكنوا ، بواسطة للتعريفات الجمركية ، من تركه نصف مفتوح ؛ وأصبح فى وسعهم بنوع خاص أن يفتحوه على مصراعيه فى وجه بعض السلع ، وإقفاله تماماً فى وجه غيرها .

وفى مجال العلاقات الدولية ،كانت النتيجة الرئيسية لسياسة الحواجز الجمركية هى أنه ، بدلا من نظام الإمتيازت التى تمنح للتجار ، وغالباً ما تكون بدون معاملة المثل ، وبالتالى يمكن سحبها ، سيأخذ مكانها نظام الإتفاقيات الثنائية ، والإتفاقيات المعقودة بين الدول فى شكلها العادى . وستكون شروطها ، فى غالب الأحيان ، هى التوازن بين الميزات التى يمنحها هذا الطرف أو ذاك ، ومعاملة المثل لتجار الدولتين . وهكذا فإن الشئون التجارية ستأخذ مكاناً تتزايد أهميته فى الدبلوماسية . وسيزداد عدد معاهدات التجارة . وسيتفاوضون فيها على قيمة الضرائب وفئاتها ، ووسائل الدفع،وحالات الإعفاء،وتخزين البضائع،وسلطات القناصل ، إلى غير ذلك . وفى حالة قطع هذه التعهدات ،سنجد أنفسنا أمام حرب تعريفات جمركية .

وفى خارج هذه الدول الكبرى الغربية الثلاث،لم يظهر النظام الجمركى فى القرن السادس عشر إلا فى الأراضى المنخفضة ، والأقاليم المتحدة . وبعد عام ١٥٧٢ ؛

أصبحت الرسوم الجمركية تؤخذ من التصريحات المعطاة من جانب حكومة بروكسل ، تظير المال ، تهرباً من القاعدة التى كانت تمنع كل تجارة مع الأقاليم الثائرة . وجد الهولنديون ، والذين كان مطبقاً لديهم منعاً مماثلا ، أن من مصلحتهم أن يستخدموا نفس الطريقة من أجل تمويل خزائنهم . وفى هاتين الدولتين، عمموا ، فى أثناء القرن السابع عشر، تلك الضرائب التى كانت تجمع بهذه المناسبة، وستأخذ بدورها صفة جمركية بحتة .

أما الإمبراطورية ، فإنها لم تعرف جمارك الدولة ، وظل كل سيد إقليم حراً فى تنظيم مرور السلع كما يرغب . هذا علاوة على أن الضرائب التى كانت تدفع عند حدود الأقاليم كانت لاتختلف أبداً عن الرسوم : وظلت نفس الكلمة Zoll تدل على الواحدة ، وعلى الأخرى .

وفى بولندا لم تطرح مسألة إنشاء شبكة مستمرة من الجمارك ، ورجع ذلك لعدم إتمام بناء الدولة ، ولطول الحدود البرية الكبيرة ، وكانت الرسوم تجمع فقط عند الدخول والخروج من المدن التجارية القريبة من نهاية الأراضى . وكما كان عليه الحال فى الامبراطورية ، وفى أوربا الشرقية بشكل عام ، فإن الوضع كان تقريباً هو إستمرار لنفس نظام العصور الوسطى .

الفصل الثاني

الأعضاء الرئيسيون فى المجتمع الدولى وأسس سياستهم الخارجية

كانت خريطة أوربا ، فى بداية العصور الحديثة ، تمثل بعض أنواع التبسيط بالنسبة للفترة السابقة، فقلت حدة ذلك التفتيت الذى كان يعود إلى الماضى الإقطاعى. ومال التطور العام صوب انشاء الوحدات القومية الكبرى ، المؤسسة على الوحدة المشتركة للأصل ، واللغة والحضارة . وكان هذا تجديداً نسبياً ، بلاشك، ولكنه كان تجديد لا شك فيه . ولكى نقدر على تمييز هذه التكوينات السياسية المستديمة ، عن غيرها الكثير ، والذى كان فى بعض الحالات بسيطاً ، كما حدث قبل ذلك ، فعلينا أن نرجع إلى آخر من إختفى من بينها : دولة بورجاندى المتناقضة ، التى أنشأتها أسرة حاكمة من أصل فرنسى ، على هامش دولة فرنسا والإمبراطورية المقدسة ، دون أصول تاريخية ، أو جغرافية ، أو بشرية. فالدول القومية فى القرن السادس عشر كانت على النقيض منها تماماً .

١ ـ الدول القومية الكبرى :

كانت الدول الثلاث القومية الأولى ، والرئيسية ، قد نشأت فى الغرب . وكانت هذه الدول الثلاث مرشحة للسيطرة على أوربا : وهى فرنسا ، وإسبانيا ، وإنجلترا ، وسيمارسون هذا الدور بالتناوب خلال القرون التالية .

وكانت فرنسا ، بدون أى شك هى الدولة الأكثر تقدماً على طريق الوحدة الوطنية . وكانت وحدتها المعنوية قد تكونت ببطء فى القلوب أثناء فترة حرب المائة عام . أما عن وحدتها الإقليمية ، فإنها إجتازت فيها مرحلتين هامتين توحيد

مدن السوم ودوقية بورجاندى عند موت شارل الجسور (١٤٧٧ ، وتوحيد كونتية بروفانس عندموت شارل صاحب آنجو (١٤٨١) وكانت الحدود القديمة « للأنهار الأربع » (الأسكوت ، والميز ، والساؤون ، والرون) قد تم التوسع فيها وراءها فى الجنوب ، وعلى نهر الرون . وفى الشمال ، وعلى نهر الاسكوت ، كان الإحتفاظ بها لايتم إلا بصعوبة ؛ ولم تحتفظ إلا بوجود نظرى . وكانت كونتيات الفلاندر وآرتوا لا تزالان خاضعتين للحقوق الفرنسية ، ولكنهما كانتا قد أصبحتا عملياً مستقلتين ، وفى أيدى أسرة هابسبورج بورجانديا .

وأخذت إسبانيا ، ببطء ، مكان الدول الإسبانية التى كانت موجوده أثناء العصور الوسطى . وكانت الوحدة قد مهد لها زواج فرديناند صاحب أرجوانه بإيزابيلا ملكة قشتالة . ولكن فرديناند لم يكن ملكا فى قشتالة ،إلا بصفته زوجاً لإيزابيلا ، وحتى موتها فى عام ١٥٠٤ . وفى أراجونه ، كان يحكم فعلا بمفرده . وسيصبح شارل الخامس ، أو شار لكان ، حفيدهما ، ووريثهما المشترك ، أول من يلقب « بملك إسبانيا » . وفى النهاية الجنوبية لشبه الجزيرة ، كان هناك آخر مظهر للحكم الإسلامى ، وهو سلطنة غرناطة ، التى كانت تدفع الجزية لقشتالة . وكانت الخلافات الداخلية بين أمير غرناطة وبين منافسيه هى التى سهلت عملية الغزو وقام « الملوك الكاثوليك » ضد المسلمين بحرب إستمرت عشر سنوات . وبعد ملقة ، الثغر الرئيسى الذى تم إحتلاله فى عام ١٤٨٦ ، سلمت غرناطة ، العاصمة ، وآخر معاقل المسلمين فى الاندلس فى عام ١٤٩٢ . وزاد عدد سكان قشتالة بما يتراوح بين ٣٠٠،٠٠٠ و ٤٠٠،٠٠٠ مسلم ، تحويلهم رسمياً ، وتنصيرهم ، قبل نهاية القرن ، وأصبحوا يسمون « الموريسكيون » وبقيت مملكتا البرتغال ، ونافار ، وحدهما ، خارج الوحدة الأيبيرية .

وفى إنجلترا ، كانت لحرب المسـائة عام نفس النتائج التى حدثت فى فرنسا :

قد تمت عملية الوحدة المعنوية للأمة. ولكن مجموع الجزر البريطانية لم يكن قد خضع بعد لنفس السيطرة . ففي الغرب ، كانت الروابط التي تربط إمارة ويلز بالمملكة ، غير وثيقة وفيما قبل ذلك ، كانت مشكلة ويلز مصدراً لمشغولية مستمرة بالنسبة للحكومة الإنجليزية. وكان إرتقاء الملك هنري السابع (تودور) العرش قد سهل أمر الوصول إلى حل : ولن يحصلوا عليه بشكل نهائي إلا بعد نصف قرن ، وعن طريق قانون الإتحاد في عام ١٥٣٥ . أما بالنسبة لأيرلندا فإن حالتها كانت هي حالة إحدى المستعمرات ، التي يسكنها أهالي من جنس مختلف ، وشديدي العداء لسادتهم ، والذين كانوا يخشون دائماً من وجود روح الثورة عندهم ؛

٣ - الامبراطورية والبابوية :

أما عن الامبراطورية والبابوية ، واللتان كانتا ، خلال العصور الوسطى قد إحتلتا لوقت طويل المركز الأول على المسرح الدولي ، فإنهما لم تعدا تمارسان نفس السلطة العالمية ، ولم يعد لهما نفس الإشعاع . وكان أحد المظاهر الرئيسية والمؤكدة لفقدهما منزلتهما النسبية ، هو أنهما فقدتا صفتهما « فوق الوطنية » Supra — National .

ولم تعد الإمبراطورية هي الإمبراطورية الرومانية المقدسة : بل أصبحت ، عند نهاية القرن الخامس عشر الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية Heiliges romisches Reich Deutscher Nation . ولم يعد المنتخبون يختارون رؤسائهم إلا على الأسر الألمانية ، ودائماً نفس الأسر . ولم تعد صلاحية إنتخابات فرانكفورت تعتمد بعد ذلك على تصديق الكرسي البابوي. وكان شارل الخامس هو آخر من يستلم التاج من أيدي البابا . ولم تعد منطقة توسع السلطة الامبراطورية تتعدى بعد ذلك ، بالعمل إن لم يكن بالقانون ، الأقاليم الجرمانية

نفسها . وحصلت الأراضى المنخفضة، ودوقيات اللورين،فى إثناء هذا القرن على إمتيازات جعلت روابطهما بالامبراطورية مجرد خيال . وإنسحبت الكانتونات السويسرية منذ عام ١٤٩٩ : ولم يعد ينظر إليها إلا على أساس أنها من الأصدقاء ، ومن « الأقرباء « Verwandte . ومع ذلك فإن الإمبراطورية ظلت تحتفظ، فى الأسرة الدولية ، بأولوية شرفية ، لم يكن فى وسع أحد أن يناقشها فيها . وفى كل مكان ، كان ممثلوها يتقدمون كل ممثلى الملوك الآخرين . ولفترة من الوقت ـ وإن كان وقتا قصيراً لأن فرانسوا الأول سيعمل على التجديد فى هـذه النقطة ـ كان الامبراطور وحده هو الذى يلقب بصاحب « الجلالة » .

وفى روما ، أصبح أعضاء مجلس الكرادلة لاينتخبون سوى إيطالى للجلوس على كرسى القديس بطرس ، الكرسى البابوى : وكان آخر أجنبى تولى هـذا المنصب ، فى عهد شارل الخامس ، هو واعظه الفلمنكى أدريان السادس وبسلوكهم فى الشئون الايطالية أصبح البابوات يسوون أنفسهم بمستوى الأمراء الزمنيين . ومع ذلك ، فإن هذا ينقص من قدر البابوية ، وإمتيازاتها ، والتى كانت فريدة فى نوعها . ولا يمكن مقارنة غيرها بها . وكان كل الملوك والأمراء المسيحيون — وسرعان ما يتعلق الأمر فقط بالملوك الكاثوليك ـ يقدمون لهـا ، وقت وصولهم إلى السلطة ، مظاهر الطاعة ، أى مظاهر الخضوع . وظلت معظم الدول ـــ والإمبراطورية المقدسة جانباً ، وكذلك فرنسا ـــ تدفع لها « نقود القديس بطرس » . وتخلت عن أن تتقدم رسمياً بادعاءاتها الخاصة بملكية التيجان وأصبحت لاتصدر أحكام الحرمان إلا ضد كبار الهراطقة . ولكنها أكدت ، على العكس من ذلك ، سيادتها على الأراضى التى لم يتم إكتشافها ، وحقها فى تقرير مصيرها . والتجأت إلى وسائل قليلة القيمة للاحتفاظ بسلطتها السيادية الشرعية أمام الرأى العام . فكانت ترغب فى أن تميز أمام العالم أجمع هؤلاء الأمراء الذين كان من

الواجب إتخاذ جدارتهم مثلا عاماً ؛ وكانت تهديهم ، كوسام ، جوهرة ، قامت بمباركتها ، وهي التي كانت تسمى « بالوردة الذهبية » . وكان إختيارها يقع ، في كل عام ، على شخصية جديدة ، أحد الملوك ، أو أحد أمراء الأسر المالكة : وكانت لها في غالب الأحيان صفة سياسية : فلقد إستلم شارل الثامن هذه الوردة الذهبية وقت إعداده حملته ضد نابولى ، ومانيويل صاحب البرتغال حين قدم للبابا كل الأقاليم التي غزاها فيما وراء البحار ؛ ومارى ستيوارت،أرملة فرانسوا الثانى ، حين كانت ترغب في الذهاب إلى مملكة إسكتلندا .

وإذا كانت ألمانيا موجودة كمجموعة من الدول ذات الاستقلال الذاتى والمرتبطة ببعضها برباط إتحادى غير وثيق فإن إيطاليا لم تكن سوى تعبير جغرافى . فالوحدة ، هنا ، كان لا يمكن تصورها إلا تحت إدارة الكرسى البابوى . ولكن الدول المختلفة في شبه الجزيرة كانت كلها متفقة على رفض ذلك . ورغم وجود هذه الفكرة المسبقة للاستقلال ، فلم تكن بينهم أفكار عامة مشتركة . وكانت الطموحات المتنافسة تجعلهم دائما مشتبكين مع بعضهم ، وبخاصة الأربعة دول الكبرى من بينهم : في الشمال جمهورية البندقية ودوقية ميلانو ، وفي الوسط الدول الخاضعة للكنيسية ، وفي الجنوب مملكة نابولى . وكانت البندقية تحكم مجموعة من الممتلكات ، قريبة وبعيدة ، تمثل بقايا إمبراطورية بحرية ونجح دوق ميلانو في فرض سيطرته على جنوا ، التي لم تعد تحتفظ من عظمتها السابقة إلا بقوة مالية إستثنائية . وكانت مملكة نابولى في أيدى أحد فروع أسرة آنجو وكانت كل من صقليه وسردينيا خاضعة خضوعاً مباشراً لتاج أرجوانه .

٣ ـ بقية الدول :

وفي هذا العصر ، كما هو الحال في التاريخ المعاصر ، يمكننا أن نميز ، سياسياً وإقتصاديا ، بين نوعين من الدول الأوربية . الأول أكثر تقدما على طريق التنظم

والثروة ، والثانى متأخر عنه بشكل واضح . وهذا التناقض يتضح ، فى الشرق ، بإستمرار وجود نظام الإقتصاد الأسروى ، وقلة قيمة الملكية العقارية ، وقوة نظام السادة الذى بقى تقريبا كما هو ؛ وفى الغرب بنشاط كبير فى ميدان التبادل ، وبازدهار الرأسمالية ، وبنمو النظام الملكى المطلق .

ووضعت الرأسمالية ونظام الحكم المطلق فى أيدى ملوك الغرب وسائل قوية للعمل فى الخارج : خزائن ممتلئة ، وجيوش من المرتزقة دائما مستعدة للحرب ، ومدافع يتزايد عددها باستمرار . وكانت الروح القومية قد نمت بدرجة تضمن التمازج الداخلى فى البلاد تجاه الأجانب . وفى الشرق ، وفيما وراء ألمانيا أخذت التكوينات السياسية نمطاً آخر . نظام ملكى إنتخابى فى أغلبها — وعلى أى حال محدد إلى درجة كبيرة بالسلطات المعترف بها لطبقه النبلاء — وحيث كانت « مجالس الطبقات » تقود الدولة كما ترغب ، وحيث كان الملك يجد صعوبات كبيرة فى جمع الضرائب ، وليست له قوات دائمــة ، ولا مدفعية ، أو بعض قطع بسيطة منها . وكانت الصدامات المسلحة تأخذ أكثر منها فى أى مكان آخر شكل المنافسات بين الأمراء أو الأسر الحاكمة . وكانت الأمة فى غالبية الأحيان لا تشترك فيها ، إلا إذا كان الأمر يتعلق بصد الأتراك .

ونلاحظ كذلك نقطة أخرى للتميز عن الغرب عند إقترابنا من موسكوفيا ومن الامبراطورية العثمانية .فحينما نتحدث عن« التابع» Vassal وعن«الصاحب» Suzerain نعبر عنهما خطأ ، نتيجة للخلط بين الألفاظ ، فعلاقات التبعية لاترجع أبداً إلى النظام الاقطاعى . وهما يحتفظان بالشكل الموروث عن الأجداد للجزية التى يدفعها الأمير الأقل قوة للأمير الأكثر قوة . والجزية المفروضة عند الأتراك على الدولة المهزومة تمثل نوعاً مع الغرامة الحربية الدائمة . وهذا الأمر لايستتبع

بالضرورة وجود شروط سياسية معها . ومها وصل بها الحال ، فإنها تعتبر نظام حماية من بعيد .

وكانت بولندا هي الدولة الرئيسية في الشرق . وكان ملك بولندا يحمل في غالب الأحيان ، وعلاوة على لقبه ، لقب جراندوق ليتوانيا ، الذي كان يحصل عليه عن طريق الإنتخاب وكانت دانزيج جمهورية لها إستقلال ذاتي.ولكنها مرتبطة بدولة بولندا ، وتخضع لحمايتها ، ولكن إتساع أراضي هذه الدولة — والتي كانت تمتد من سواحل بحر البلطيق حتى سواحل البحر الأسود — كان لا يتناسب مع القوة الفعلية لها.فالأمير الذي كان يحكم في كراكوفيا لم يكن سوى مندوب مفوض للنبلاء الذين ينتخبونه . ولم يكن له من وسائل الحكم ما يزيد عما كان لملك فرنسا في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر .

وحصلت ممالك المجر وبوهيميا ، بعد مجموعة من الأسر الحاكمة الأجنبية ، الواحدة والأخرى بالتتالي، على ملوك وطنيين . ولكن التطور الذي ظهر لم يستمر لفترة طويلة فعند موت جورج بوديبراد George Podiebrad في بوهيميا عام ١٤٧١ ، وكذلك عند موت ماتياس كورفان Mathias Corvin في المجر في عام ١٤٩٠، إنتخبوا أحد أبناء ملك بولندا لهذا المنصب.وأسرة جاجيالون Jagellon الجديدة حين تختفي ، بعد نصف قرن ، ستترك مكانها ، في براغ ، وفي بودابست، لأسرة أجنبية أخرى ، هي أسرة هابسبورج Habsbourg النمسوية .

وملك الدانمرك ، الذي كان محدد السلطة كذلك بواسطة الدايت ، وحيث كانت الطبقات العليا هي التي تحكم ، كان له ثلاثة تيجان : الدانمرك ، والسويد ، والنرويج . وهنا سنسجل الروح القومية أحد الإنتصارات:فتنفصل السويد نهائياً عن الدانمرك في بداية القرن السادس عشر .

وفي أقصى الحدود الشرقية للقارة الأوروبية ، كانت الحدود مع آسيا متحركة،

وغير ثابتة . فكانت تتراجع فى أقاليم روسيا المقبلة ،وتتقارب فى البلاد الدانوبية.
وكان آخر المغول الذين أقاموا فى روسيا،الكبتشاق Kiptchak من فصيلة «الخصلة الذهبية » ، قد فقدوا قوتهم فى نفس الوقت الذى فقدوا فيه وحدتهم . وإنفصلت « خانات » كثيرة عنهم،وبخاصة خانات القرم ، والتى كانت مسيطرة على السواحل الشمالية للبحر الأسود ، وخضعت للقسطنطينية :ودفعت الجزية للسلطان .وظلت الدولة الموسكوفية — إذا كان فى وسعنا أن نعطى هذه التسمية لمجموع السادة الذين خضعوا لموسكو — دولة قارية تماما . وفى الشمال ،كانت ممتلكات السويد، (فنلندا ، وكاريليا ، وإنجريا) تتصل بممتلكات الجماعة التيوتونية (ليفونيا ، وإستونيا ، وكورلاند) : وكانت تشكل حلقة حول شرق بحر البلطيق . وفى الجنوب كانت روسيا القياصرة تنتهى عند بداية أوكرانيا البولندية وأقاليم الإستبس، التى كان يسكنهم أهالى يحبون الحرب ،ومستقلين ،وشبة متنقلين ،وهم القرزاق.

وتقدم الأتراك بسهولة أكثر على القارة — وحيث قابلتهم دول ذات مساحة صغيرة ،وبدون وسائل دفاع — عن تقدمهم فى البحر المتوسط ،وحيث كان عليهم أن ينازعوا دولة البندقية موقعاً بعد آخر.وعلى الدنيستر والدانوب الأدنى،كانت إمارات الأفلاق و البغدان تمثل مواقعاً أمامية لبولندا . وفيما وراء نهر الساف ، كان الدفاع عن العالم المسيحى يقع على كاهل المجر،الذين كانوا يحتفظون ببلجراد. ولم يبق أى شيء من الدولة الصربية الكبيرة التى كانت موجودة فى القرن الرابع عشر . وفى دلماشيا ، وفى إستيريا ، أصبح الغزاة على إتصال بالبنادقة .

وكانت الإمبراطورية العثمانية محددة من الشمال الشرقى بالخانات الروسية التتارية ،والشرق بايران ، وكانت هناك خانات أخرى ، إسلامية ، من أصل مغولى ، أو تركى مغولى ، منتشرة فى آسيا الوسطى . وكانت الهند عبارة عن عدد كبير من الإمارات المتجاورة . ففى الشمال ، وحيث ساد الإسلام ـ زاد إنتشاره

فى أثناء القرن الخامس عشر ـ كانت الدولة الرئيسية هى تلك التى كانت عاصمتها دلهى . ولكنها لم تكن سوى ظل لتلك الإمبراطورية التى كانت قد مدت سيطرتها فى القرون السابقة حتى أقاليم البنغال والدكن .وإنفصلت عنها أقاليم كثيرة ، محليا. وفى الجنوب ، كانت السيطرة لمملكة نارسينج Narsingh الهندية ـ وهو الإسم الذى أعطاه البرتغاليون لإمارة فيجايانا جار Vijayanagar التى كانت مزدهرة إقتصاديا ، ولها قوة عسكرية نسبية .

وكان هناك عالم يختلف تماما عن العالم المسيحى والعالم الاسلامى يبدأ فيما وراء بامير والتبت.وكانت ديانة بوذا Bouddha ،وفى نفس الوقت تأثير الحضارة الصينية تعطيه نوعاً من الوحدة . وعاشت الصين ، تحت حكم أسرة مينج Ming ، فى هدوء ، وفى حماية ذلك الحائط الكبير ، الذى كانوا قد بنوه منذ عصور قديمة ضد هجمات المغول ، والذى إستمر فى حمايتهم من الهجمات . وكانت اليابان مقسمة بصراعات داخلية بين كبار السادة ولم تكن السلطة المركزية مطاعة.وكانت تمارس بدلا من الإمبراطور وفى مكانه ، ولكن بموافقته ، عن طريق ما يشبه الوصى ، أو الوزير،أو حاجب القصر.وتمكن هؤلاء الحجاب من أسرة أشيكاجا Ashikaga من أن ينشئوا أسرة حاكمة فعلية ، ظلت تحكم حتى عام ١٥٧٣ .

٤ ـ عوامل سياسة الدول :

من بين العوامل التى تؤثر على السياسة الخارجية الدول ، هناك عوامل عامة، ودائمة لا نعالجها هنا : إنها العوامل المرتبطة بالجغرافيا . وهناك عوامل أخرى، ترجع أصولها إلى الأحوال السكانية (الديموجرافية) أو الإقتصادية ،ولها طابع شبه دائم ؛ فيمكن أن يحدث لها تغير ، من فترة لأخرى ، له مدى معين . وهذه العوامل هى التى سنحاول إلقاء الضوء عليها . فالعامل المالى ، له أهميته الكبيرة ؛ ولكنه يخضع خضوعاً كبيراً للعوامل السابقة ، حتى أنه يبدو فى غالبية الأحيان

على أنه مجرد نتيجة لها ، ولذلك فإنه لا يتطلب تنميات طويلة . وعلى العكس من ذلك ، فيجب علينا ألا نهمل شرح العامل النفسى ، وهو أكثر العوامل تغيراً .

وفى الفترة التى ندرسها ، نجد أن كل الدول التى تلعب دوراً على المسرح الأوربى ، وباستثناء البندقية والكانتونات السويسرية ، هى دول ملكية . ونجد أن الملك ـ أو « الأمير » حسب قول مكيافيللى ـ كان لا يفرق بسهولة بين مصالح الدولة ومصالحه الشخصية . وكان يعتقد ـ أو يجعلونه يعتقد ـ أنه من الواجب أن تقدم مشغوليات هيبته الشخصية ، وسمعته ، بتوجيهه فى عملية إختيار أهداف ووسائل سياسته الخارجية . وإذا ما كان شاباً عند وصوله إلى السلطة ، فإنه كان يشعر بأنه مضطر إلى إظهار ما يدل على كفاءته وكان مقياس الكفاءة عند الأمراء وعند عدد من كبار القوم ، هى الطريقة التى يسلكها فى الحرب ولذلك فإن السؤال الوحيد الذى كان يطرح نفسه كان هو : ضد من نقوم بالحرب ؟ ولذلك فإن تغيير الحكم كان فى غالب الأحيان حدثاً فى غاية الأهمية : وتجد كل إتجـــاهات السياسة الخارجية نفسها مرتبطه به . وكانت الزيجات بين الأمراء ، هى كذلك ، وفى بعض الحالات ، تأثيراً حاسماً : وكانت تستخدم فى حالات كثيرة من أجل بدء أو تدعيم تحالف . ولم توجد فترة لم يستخدم فيها هذا التقليد . وكان رجال الدولة لا يجدون وسيلة أكثر ضماناً من أجل التوحيد بين بلدين من عقد الروابط بين الاسرتين الحاكمتين فى كل منهما ، واللتين كانتا تمثلانهما فى أعين الأجانب . وكانت القلة البسيطة من بين معاهدات الصلح هى التى لا تشتمل على شروط تتعلق بالزواج . ومن هو ، أو هى ، ذلك أو تلك الأبن أو الإبنة للملك الذى لم يتفق على خطوبته أو خطوبتها ، مع الخارج ، ولاسباب سياسية ، وهم لا يزالون فى سن الصبا ؟

ويظهر دور كل العوامل المختلفة من العرض التالى . وفى هذا الفصل سنحاول فقط إعطاء الميزات العامة لمجموع سياسة كل من الدول الرئيسية ، الأمر الذى لن

يمنعنا من العودة بعد ذلك إليه بالتفصيل . وستكون هذه طريقة لمعالجة النقص فيما يتعلق بتوزيع الموضوعات التي تعالجها ، وحتى نتمكن من إظهار الاستقلال النسبي لعدد معين من القطاعات الجغرافية التي تميزت بوضوح .

فعند نهاية القرن الخامس عشر كان لفرنسا ميزات واضحة على جيرانها القريبين منها . فليس فقط أنها كانت ، بسكانها الذين بلغ عددهم أربعة عشر أو خمسة عشر مليوناً ، أكثر سكاناً . بل إن مواردها كانت ، علاوة على ذلك ، تغطى إحتياجاتها. وكانت لا تعتمد على أحد فى أمور تموينها . وكان العمل الوطنى على درجة من الانتاجية ، وكان الرخاء عاماً . حتى أن النظام الملكى لم يجد صعوبة فى جمع الضرائب ولم يتراجع عن رفع معدلاتها ،ولا عن تنويع أشكالها .وإذا ما أخذنا بما ذكره أحد الملوك الأجانب ، مثل الإمبراطور مكسمليان **Maximilien** فإنه كان فى وسع ملك فرنسا أن يعمل فى رعيته ما يرغب .

وعند موت الملك لوى الحادى عشر ، بدأ أن الهدف الأول للسياسة الملكية كان هو أن ينازعوا أسرة هابسبورج فى ذلك الجزء من ميراث بورجانديا ، والذى كان قد ضاع منهم فى عام ١٤٧٧ وبقرار غير متوقع ، فضل شارل الثامن أن يدخل إلى المغامرات فى إيطاليا . وتحت تأثير مجموعة النبلاء ، الذين كانوا يتطلعون إلى الملذات ، وإلى الحروب ، عمل خلفائه على التشبه به . ومع ذلك ، ففى هذا الوقت كانت حدود العالم المعروف قد أخذت فى التراجع للوراء ،وفتحت إمكانيات جديدة أمام الحاجة إلى التوسع ، والتى كانت الأمة تميل إليها . ولكن فرنسا أصمت أذنيها عن نداءات تجارها وبحارتها ، وأهملت هذه الفرص فى عهد ملوك الفالوا . وهذه الأفضلية لشئون القارة ستستمر كأحدى المظاهر الواضحة لعملها الخارجى طوال فترة التاريخ الحديث .

وبمجرد مرور نشوة الحروب الأولى فى إيطاليا ، فرض إنشاء إمبراطورية

إسبانية ألمانية على الفرنسيين أن يدخلوا فى صراعات طويلة ، هجومية ودفاعية فى نفس الوقت ، وبعيدة تماماً عن كل مشروع من مشاريع المصلحة الوطنية . ولم ينتج عن تفكك إمبراطورية شارل الخامس ، تحريرهم من كل خطر ، إذ أن هابسبورج مدريد كان لهم فى ذلك الوقت قوة لا مثيل لها ، فى الوقت الذى رأى الفرنسيون فيه قوتهم تضعف بشكل خطير ، نتيجة للحرب الأهلية . وسيكون كل طموحهم هو أن يواجهوا هذا الجار المهدد ، ويستمر ذلك لعدة أجيال . ولن يظهروا بعد ذلك ، ونتيجة لذلك ، إلا بعض نيات للبدء فى الحرب من أجل الأراضى المنخفضة ، والتى كان نفعها ، وضرورتها ، لا تغيب على السياسات المستنيرة ، مثل سياسة هنرى الرابع .

وإسبانيا ، كان سكانها يمثلون تقريبا فى عددهم نصف سكان فرنسا . ومع ذلك فإنها لم تكن تنتج ما يكفى غذاءها . وكان عليها أن تلتجىء لموارد قمح صقلية ، وغالباً ما كانت تستهلك فائض الإنتاج الفرنسى . وقبل شارل الخامس ، لم تكن تشكل دولة ، ولكن رابطة ، أو مشروع لدولة . ووجدت بعض الصعوبة فى أن توفق بين مطالب سياستين ، متجهتين إلى إتجاهين مختلفين . وبينما كانت قشتالة تنظر صوب المحيط ، لمسرح للأحداث الكبرى ، وصوب إفريقية ، وحيث كانت الحروب مستمرة ضد المغاربة ، كانت أراجونا تتجه صوب البحر المتوسط ، ومشغولة بالاحتفاظ بسيطرتها على صقلية ، التى كانت تمثل مخازن حبوب شبه الجزيرة ، وتعارض فرنسا فى مشروعاتها الإيطالية . ومع ذلك فإن طموحاً مشتركاً دفع « الملوك الكاثوليك » إلى الاستيلاء على نافار ، والتى كان إستقلالها يشكل ثغرة فى حاجز جبال البرانس ، والتى كانت الأطماع الفرنسية تحيط بها .

ومنذ الوقت الذى تم فيه الإتحاد المتناقض للامبراطورية المقدسة مع المملكة الإسبانية ، أصبح من الممكن القيام بسياسة قوة حقيقية . وكان توارد الثروات

من العالم الجديد يعطى وسائل العمل اللازمة لذلك. ولم يقم شارل الخامس بعملية إختيار بين البحر المتوسط وبين القارة ؛ بل وجه بجهوده على التوالى من هذا القطاع إلى ذلك. أما فيليب الثانى، الملك الكاثوليكى بمعنى الكلمة، ووارث تلك الإمبراطورية التى أصبحت فى ذلك الوقت تمتد إلى الأراضى المنخفضة، وإلى جزء من إيطاليا، فإنه رسم سياسته الخاصة بالقوة حسب رغبته ورضى أن يلعب دور الرئيس الزمنى للعالم الكاثوليكى. ولكنه كان يحتاج إلى أن يعاونه الكرسى البابوى فى ذلك. ولكن بابوات القرن السادس عشر، والذين كانوا كلهم من الإيطاليين، وبشكل لا يجعلهم يتمكنون من التغلب على تلك العداوة الغريزية التى أصبح بنو وطنهم يشعرون بها تجاه السيطرة الإسبانية، لم يظهروا أى ميل لهذا الاتجاه التسلطى (الإمبريالى) الجديد. ومن ناحية أخرى، ورغم ذهب أمريكا وفضتها، كانت الخزائن الملكية فى مشكلات لا تنقطع، الأمر الذى يمكن بالترجيح تفسيره بتبذير الملك، وبعدم كفاءة الإدارة وإنحرافات القائمين عليها. والتاريخ المالى لفترة حكمه تميز بمجموعة من الأفلاسات الجزئية.

ويمكن الشعور بدور إنجلترا من ضعف قوتها السكانية والمالية. فعدد سكانها الذى زاد من أربعة ملايين نسمة فى أول القرن، وصل إلى ما يقل عن خمسة ملايين قرب نهايته. ولم يكن لدى ملكها، كما كان عليه الحال بالنسبة لملك فرنسا، أن يطلب الأموال من رعاياه كلما رغب فى ذلك : إذ أن البرلمان كان يصوت على الضرائب، ويقيم حراسة جيدة حول المصروفات العامة. ولذلك فإن الحرب كانت بالنسبة إليه موضوعاً كمالياً لا يمكنه أن يسمح لنفسه به إلا فى الظروف الاستثنائية، وبموافقة الأمة. وهكذا كانت فرص الدخول إلى حرب لا تأتى كثيراً. ومنذ أن إنخفضت حدة العداوة مع فرنسا، أصبحت الصعوبات مع جارتها الإسكتلندية هى التى تمثل طريق التاريخ الخارجى لإنجلترا. وفى لندن، كانوا

يرغبون فى إقامة إتحاد بين المملكتين . وبدا أنهم قد قاربوا من الوصول إلى ذلك حين كانت مارى ستيوارت ، ومنذ ميلادها ، قد خطبت إلى من سيصبح إدوارد السادس ولكن تمسك أسرة ستيوارت بالكاثوليكية كان يمثل عقبة أمكن التغلب عليها مؤقتاً . وعملت فرنسا ، نتيجة للتقاليد ، ونتيجة لعدائها للاصلاح الدينى ، على إثارة روح الإستقلال عند الإسكتلنديين . وفى مثل هذه الظروف ، مالت إنجلترا إلى الابتعاد عن الصدامات التى حدثت فى غرب أوربا . ومارست فى عهد هنرى الثامن حياداً مطبقاً . وعمل الملك على القيام بدور الحكم ، بأخذه موقف ، إذا ما تطلب الأمر ذلك ، فى صالح أقل الخصمين حظاً . وفكرة التوازن ، التى كانت توحى باتخاذ مثل هذه السياسة ، وجدت صيغتها فى عهد اليزابيث فذكروا أن دولة إنجلترا يمكن تشبيهها بعمود الميزان والذى كانت كفتيه تحملان على التوالى فرنسا وإسبانيا وبينما كان النظريون يفكرون بهذه الطريقة، أخذت الأمة المتاجرة، والتى كانت ترغب فى ذلك الوقت فى التوسع ، موقفاً واضحاً : فاندفعت فى الصراع ضد إسبانيا والتى كانت السيدة المطلقة والغيورة عن العالم الجديد . وفى هذا الوقت ، وفى السنوات الأخيرة من القرن ، وجدت مشكلة إسكتلندا حلا لها . وعلى الأقل كانت فى سبيلها إلى الوصول إلى مثل هذا الحل مادامت الملكة اليزابيت لم يكن لها وريثاً مباشراً . فعند موتها ، فى عام ١٦٠٢ ، يعود التاج بطبيعة الحال إلى إبن إبنة عمها ، مارى ستيورات ، إلى جيمس الرابع ، ملك اسكتلندا .

وحصلت الأسرة المالكة النمسوية على عظمتها الفائقة فى فترة من الزمن نتيجة لسياسة الزيجات . وإذا كانت ، بتزويجها عادة أبنائها وبناتها ، لم تقم إلا بما قامت به كل الأسر الحاكمة الأخرى ، فعلينا أن نعترف بأنها كانت محظوظة بشكل خاص. فإحدى الزيجات سمحت لها بأن تحصل، عند نهاية القرن الخامس عشر ، على الجزء الأكبر من ميراث بورجانديا ، وزيجة أخرى سمحت لها ، فى أثناء القرن السادس

عشر، ونتيجة لمصاهرة تاج إسبانيا، بالأولوية المطلقة فى الغرب. وأصبحت المصالح الكثيرة التى كان عليها بعد ذلك أن تدافع عنها، موجودة من كل جانب. ونجحت فى التوفيق بينها، بطريقة أو بأخرى. وسارت على سياسة تمثل الهيبة الإمبراطورية، وأنانية الأمراء. وحين كانت تدخل الحرب ضد الأتراك، كانت تقوم بالدفاع عن حدود الامبراطورية، وعن حدود البلاد التى يتصل إمراؤها بها أسرويا فى نفس الوقت، والتى سيضاف إليها فى وقت قريب ممالك المجر وبوهيميا. وإذا كانت فى الغرب تحارب فرنسا، فإن ذلك كان يرجع إلى عدم رغبتها فى التخلى عن الحقوق القديمة للامبراطورية على إيطاليا، وإلى رغبتها فى نفس الوقت فى تأكيد إدعاءاتها على كل ميراث بورجانديا. وتمكنت، خلال ما يزيد على نصف قرن، من أن تقوم بدور يتناسب مع قوتها الإقليمية ومع طموحها، نتيجة لسيادتها على الأراضى المنخفضة الغنية. وبعد عام ١٥٥٦، أى بعد تنازل شارل الخامس وتقسيم إمبراطوريته، وحرمانها من الموارد التى كانت تحصل عليها منها، وكذلك من ذهب أمريكا تخلت عن الاحتفاظ بدورها فى مجموعة الدول الكبرى. فانغلقت على نفسها. وفى خلال نصف قرن آخر لم تعد تشغل نفسها إلا بمصالحها، وبمصالح الإمبراطورية فى أوربا الوسطى.

وكانت إحدى نقط الضعف عند أسرة هابسبورج أنه لم يكن فى وسعها، فى صراعها مع فرنسا، أن تعتمد على ألمانيا. وكان الفرنسيون والألمان قد إحتفظوا بعلاقات ودية تقليدية فيما بينها. ولم يكن هناك، فى ذلك الوقت، ما يعارض هذه السياسة. وكان رؤساء «الأقاليم» الذين يتحدون السلطة الإمبراطورية يتجهون بطبيعة الحال صوب التحالف مع فرنسا. وكان هذا، بنوع خاص، هو وضع منتخب البلاتينات. وكانت زيجات شارل السابع، ولوى الحادى عشر قد ساعدت على توثيق روابط القربى بين أسرة فالوا وأسرة ويتلسباخ Wittelsbach. وكانوا

يسمون أنفسهم بأبناء العمومة . وفى عام ١٤٩٢ ، أصبح منتخب البلاتينات ، صهر ملك فرنسا ،وحليفه ، وضيفه ، علاوة على ذلك وقبل منتصف القرن،وحين تبدأ فى الإمبراطورية فترة الحروب الدينية، ستجد فرنسا أن أعداد أصدقائها قد زادت . وستزداد أواصر العلاقات مع أمراء الجزء الغربى من ألمانيا ، والذين إنضموا إلى حركة الإصلاح الدينى ، فى البلاتينات ، وهيس ، وفرتمبورج .

الفصل الثالث

مشكلات البحر : المحيط

ينفتح التاريخ الحديث بالرحلات الكبرى للكشوف الجغرافية ، ولذلك فإنه سيكون من الطبيعى أن نبدأ دراستها بفهم تلك المشكلات المختلفة التى طرحت نفسها ، بين الدول ، نتيجة لضم العالم المعروف حينئذ لإمريكا من ناحية ، والجزء من الشرق الأقصى من ناحية أخرى .

١ ـ رحلات الكشوف الكبرى وأصولها :

لقد كتبوا كثيراً ، وناقشوا عن أصول الرحلات البحرية الكبرى ، وعن دوافع المستكشفين . وإن ما كان يوجههم ، لم يكن بالتأكيد هو الفضول والرغبة فى زياده نصيب المعارف الانسانية ، رغم أنه يجب علينا ألا ننقص من أهمية هذا العامل ، وفى عصر النهضة ، لذلك التعطش العام للمعرفة وللفهم ، وهو الذى يجعلنا مدينين لهم فيه باختراع الطباعة . ومن وقت بعيد ، كانوا قد قدموا الرغبة فى أن يجدوا طريقاً ، يبعد عن سيطرة المسلمين ، ويسمح لهم بالوصول إلى البلاد التى تنتج التوابل ، والمنتجات الثمينة ، وحتى المواد النادرة ، وذلك فى وقت لم يكن الأوربيون قد تعلموا فيه بعد إستخدام المشروبات الكحولية من أجل فتح شهيتهم حين تكسل أو ترهق . ولقد تم إثبات ، رغم كل ما قد كتب فى هذا الموضوع ، أن تجارة التوابل ، عن طريق المحيط الهندى ، والبحر الأحمر ومصر ، والتى كان يقوم بها وبشكل تقليدى البحارة العرب ، والتى تستمر فى البحر المتوسط بواسطة البنادقة ، لم تتوقف ، ولم تتهدد حتى أبداً

بشكل جاد فى أثناء القرن الخامس عشر، وأن الإمكانيات للتزود منها لم تكن أبداً أقل من الإحتياجات . وكان فى وسع الخوف ، الذى تتفاوت درجة تبريره ، من أن تتوقف هذه التجارة فى يوم من الايام ، أن يلعب دوراً :ولكنه لم يكن وبكل تأكيد هو الدور المقرر الحاسم .

وإن ما نتفق عليه اليوم حين نتحدث عن السبب الأول لهذه العملية التى لم تسبقها غيرها ، هو شيء يختلف عن الجوع الإفتراضى للتوابل ، هو ما نسميه . وبكلمة تستحق أن تظل وتبقى ، « **التعطش إلى الذهب** » .

وكان هناك مرض إقتصادى دفين قد أصاب الغرب عند نهاية القرن الخامس عشر . وكانت زيادة المبادلات ، والتى سهلها ذلك الهدوء النسبي الذى كان يسود العلاقات بين الدول منذ نهاية حرب المائة عام ، قد إصطدمت الآن بنقص متزايد فى المعادن الثمينة . وظهر أن الموارد المعدنية لأوروبا لم تعد كافية : وأصبحت الطلبات عليها تزيد باستمرار على العرض . وفى ألمانيا ، وهى بلاد المعادن قبل غيرها ، بدأوا فى إستغلال جديد للمناجم التى كانت قد أهملت وتخلوا عنها منذ عهد الرومان . وفى فرنسا ، شجع لوى الحادى عشر عملية التنقيب ، وأخذ العمال يبحثون عن التبر فى رمال أنهار جبال البرانس . وفى إيطاليا ، وبخاصة فى جنوا ، زاد إهتمامهم بالتبر ، والذى كان يصل من المناطق السودانية بالقوافل إلى موانى مصر أو بلاد المغرب . وكانوا مشغوفين بمعرفة موطنه الأصلى ، بالتحديد ، وذهب بعض الرحالة من أجل ذلك صوب وسط إفريقية : مثل مالفانت Malfante الذى ذهب ، فى أثناء إحدى الرحلات عبر الصحراء ، حتى توات ، ولكنه ، وبسبب التكتم الشديد للأهالى ، لم ينجح فى أن يحدد أن الذهب يجمع من منطقة تقع إلى الجنوب من ذلك ، وعلى شواطىء نهر السنغال .

وكان كريستوف كولومب Christophe Colomb ، هو أيضاً ، من أبناء جنوا وكان فى شبابه يعمل فى خدمة شركة كبيرة، هى شركة سنتريون Centurione - للأصواف والحراير - وهى نفسها التى كانت قد دفعت مصاريف الرحلة السالفات . ولذلك فإنه قد عاش فى ذلك الوسط الذى كانت تشغله بنوع خاص مسألة المعادن النفيسة . ولا شك فى أن تفكيره قد إنشغل منذ وقت مبكر بتلك المسائل التى كانوا يطرحونها بهذا الشأن ، وأنه كان ، منذ وقت إقامته الاولى فى البرتغال ، من ١٤٧١ إلى ١٤٨٤ ، مهتماً بنوع خاص بالبحث عن الذهب ، وبامكانيات إكتشاف مناجم جديدة له عبر العالم .

ومنذ خمسين عام قبل ذلك ، كان البرتغاليون قد عملوا على غزو ، ومحاولة تنصير الأقاليم الافريقية القريبة منهم . وكانوا قد تمكنوا ، منذ عام ١٤١٥ ، من إحتلال سبتة على الساحل الشمالى لإفريقية ، وفى الغرب . وقاموا فى عام ١٤١٨ بلاحتلال ماديرا ، ووصلوا فى عام ١٤٣٤ إلى رأس بوجادور ، وعملوا من عام ١٤٢١ حتى عام ١٤٥٣ على إخضاع جزر الخالدات (آزور) ، ثم وصلوا إلى الرأس الأخضر فى عام ١٤٤٥ ، وإحتلوا جزر الرأس الأخضر فى عام ١٤٥٦ ، ووصلوا إلى خليج غينيا فى عام ١٤٧٠ . ورغم أن البرتغاليين قد إدعوا أن أهدافهم كانت دينية وعسكرية ، وتتلخص فى محاربة الإسلام ، ونشر الدين المسيحى ، فإن العامل الإقتصادى لم يكن مختفياً ، وزاد ظهوره مع الأيام . وسرعان ما قام البرتغاليون بتنظيم التجارة مع الاقاليم التى خضعت لهم ، أو التى إستكشفوها . فنظموا تجارة الرقيق السود ، التى أصبحت لشبونة سوقاً كبيراً لها ، وبعض التوابل الإفريقية ، كما أدخلوا زراعة قصب السكر فى ماديرا ، وأصبحوا منذ منتصف القرن الخامس عشر يبعون العسل الأسود الناتج عنه فى كل من لشبونة ، وبروج ، وأنفرس .

وحصل البرتغاليون فى عام ١٤٥٥ ، وبمرسوم من البابا ، على ميزة إحتكار الذهاب والتردد على هذه المناطق والإتجار معها . وطرحت مسألة نفسها نتيجة لذلك، وستزيدها الرحلات التالية أهمية ضخمة ،وهى مسألة معرفة ملكية الأراضى الجديدة ، المكتشفة أو التى سوف تكتشف .

ثم حدث ، فى عام ١٤٨٤ ، أمر إنشاء ، وإلى الجنوب أكثر من ذلك ، وعلى ساحل جامبيا ، مركز المينا ، أو ميناء سان جورج ، وحيث سيتم شراء التبر من الأهالى الذين يحصلون عليه فى الأنهار القريبة ؛ وفى عام ١٤٨٧ تمكنت الحملة التى يقودها بارثوميو دياز ، والذى وصل إلى أقصى القارة ، وحتى رأس العواصف الشهير ، وبعد أن مر بعدها ، من أن يسميها رأس الرجاء الصالح . وعندئذ ، ومع فاسكو داجاما ، بدأ ذلك الإلتحام مع المحيط ، والذى أوصل البرتغاليين إلى الهند بطريق لم يتبعه أحد من قبل . وعاد الفضل فى ذلك إلى الملك مانيويل المحظوظ (١٤٩٥ - ١٥٢١) ، وإلى حد كبير : فكان قد أعد لذلك باستخدامه لجنة تضم العلماء ، وهى مجموعة الرياضيين ، والتى كان الملك السابق قد أمر بتكوينها . ومع ذلك فقد كانت الوسائل متواضعة : أربع سفن ذات حمولة متواضعة ، وعليها ما يقرب من مائة وخمسين بحاراً. وعبروا حول إفريقية عن طريق ساحل ناتال (وأعطى هذا الإسم نتيجة لوقوفهم فيه فى عيد الميلاد) . ثم توقفوا فى موزمبيق ؛ ثم فى ممبسة ، قرب زنجبار ، وحيث قاموا بانشاء أعمدة من الأحجار تحمل شعار الملك ، والتى كانت تدل على عملية الاستيلاء التى تمت بإسمه .وأخيراً ، وإلى الشمال أكثر من ذلك ، وفى مالندى ، تمكنوا من إصطحاب أحد الربابنة العرب ، وكان ملاحاً قديراً ، وحاذقاً فى استخدام الإصطرلاب ، وتمكنوا نتيجة لذلك من الوصول بعد ثلاثة أسابيع إلى قاليقوط ، فى ٢٠ مايو ١٤٩٨ . وقاموا ، وغماً عن معارضة السلطان المحلى ، والذى كان يخشى من عداء

زبائنه العاديون ، وهم العرب له ، بشحن السفن بالتوابل وبمنتجات البلاد ، ثم لم يتأخروا عن أخذ طريق العودة . وهكذا دخل الطريق البحرى إلى الهند فى التاريخ .

ولقد تم إكتشاف أمريكا فى خلال السنوات العشر التى تفصل بين رحلة بارثلوميو دياز وبين رحلة فاسكو داجاما . وكانت الأحداث قد أعدت ببطء كريستوف كولومب للدور الذى سيقوم به . فباقامته فى البرتغال ، تعرف على بعض التقاليد شبه الخرافية ، والتى تتحدث عن وجود جزيرة أسمها أنتيلا ، بعيداً .وفى بحر جزر الخالدات ،كانوا يرون أن البرتغاليين فى الأزمان السابقة، الذين كانوا مضطرين إلى ترك بلادهم ، يجدون ملجأ لأنفسهم فيها . وعرض على ملك البرتغال أن يجهز حملة من أجل العثور على هذه الجزيرة . ولكنهم وجدوا أن شروطه كانت باهظة ، وأخرجوه من حضرة الملك . وأدى ذلك إلى ذهابه إلى إسبانيا . سعياً وراء حظه . وذهب لمقابلة الملكة فى قرطبة ، وحصل على حق عرض مشروعاته على لجنة تتشكل من البحارة ومن العلماء . ولكنهم إضطروه إلى الإنتظار سنوات عديدة،ولكى يعطوه فى النهاية إجابة سلبية .وبعد هذا الفشل، فكر فى إحدى اللحظات فى الإتجاه إلى ملك فرنسا ، الأمر الذى كان بلا شك يؤدى إلى تغيير مجرى التاريخ بالنسبة لدول غرب أوربا إذاما كان قد نفذ ما فكر فيه ، واستمع إليه أقوى ملك فى غرب أوربا فى ذلك الوقت ـ وهذا يمثل موضوعاً يجبر المؤرخ على التوقف ، ولكى يتمعن .

وتقرر المصير بشكل آخر . فكان كولومب قد تعرف فى ذلك الوقت على بينزون Pinzon الذى سيصبح شريكه وزميله فى رحلته ، وكان بحاراً مغامراً وغنياً . فعاد إلى بالوس بسرعة ، وأخذ فى أن يعد معه لذلك المشروع الكبير . ثم ذهب لمقابلة الملكة فى سانتا فى،وتحت أسوارغرناطة ، التىكانوا قد بدأوا فى

عملية حصارها . ولما كان قد أنقص من مطالبه ، وقام شريكه فى نفس الوقت بضمانه ، إنتهى به الأمر إلى أن يحصل من إيزابيلا وفرديناند على وعد باعطائه ثلاث سفن (كارافيل) ، ولقب أمير البحر (أميرال) ، وتفويضه السلطة التى يحتاج إليها من أجل أن يتصرف باسمها . وسبق إتفاق سانتا فى (١٧ أبريل ١٤٩٢) ببضعة أسابيع فقط السفر من بالوس .

وإتجه الأسطول الصغير (ثلاث سفن كارافيل) - والتى كان طول أكبرها ٣٤ متراً - صوب جزر كناريا ، قبل أن يدخل فى عرض المحيط . وبعد ما يقل عن شهر وصلوا إلى الأرض،وليس فى فوريدا إذا ما كانوا قد إتبعوا باستمرار خط العرض الذى كان كولومب قد إختاره ،ولكن فى إحدى جزر البهاما ، وبعد أن كان خط الملاحة قد إنحرف صوب الجنوب أكثر بطلب من بينزون . وكانت المسافة المقطوعة تزيد عن طول المسافة التى قدرها كولومب بالنسبة لموقع أنتيلا : الأمر الذى أدى إلى موافقته على حجج بينزون ، والذى كان ، منذ الإقلاع ، يفكر فى الوصول إلى شيبانجو التى تحدث عنها ماركو بولو ، أى إلى اليابان . ولا شك فى أنه لم يكن سعيداً أمام هذه الحفنة شبه المهجورة من الجزر ، والتى كان قد نزل إليها . ولم يتمكن من الحصول على إجابة مرضية عن أحد أسئلته الأولى التى طرحها على الوطنيين بشأن وجود الذهب فى البلاد . وبعد أن إنضم إلى وجهة نظر بينزون ، بدأ فى إستكشاف ما إعتقدوا أنه كان أرخبيل اليابان . ووصلوا ، من جزيرة لأخرى ، إلى كوبا ، ثم إلى هاياتى ، التى سموها « هسبانيولا » . وكان عليهم بعد ذلك أن يعودوا إلى إسبانيا وكانت رحلة العودة ، فى شهر يناير ١٤٩٣، صعبة للغاية ؛ ولم يصلوا إلى بالوس إلا بعد مرورهم ، مجبرين ، على جزر الخالدات ، ثم على لشبونة .

وأخذ كولومب يتحدث، فى ذلك الوقت فقط ، عن « الهند » ،ويدعى أنه

إكتشف طريقاً جديداً يوصل إليها وقام الملكان الكاثوليكيان بتجسيد هذا التفسير حينما أسموه « نائبنا وحاكم الجزر المكتشفة فى بلاد الهند « en las Indias وبعد وقت طويل،وحين يتأكدون من أن أهالى القرن الخامس عشر قد أخطأوا ، سيتحدثون كذلك عن «الهند الغربية »،لتمييزها عن الهند الفعلية ، الهند الموجودة فى الشرق .

وبعد وصوله بقليل ، أخذ كولومب فى الإعداد لرحلة جديدة،حصل بالنسبة لها على التأييد الكامل من الملك والملكة . وأقلع فى العام التالى ، على رأس أسطول كامل ، يضم ثلاث سفن كبيرة ، وإثنتى عشر كارافيل ، عليها مايتراوح بين ١٢،٠٠٠ و ١٥،٠٠٠ رجل . ووصل إلى هسبانيولا ، بعد أن كان قد شاهد فى مروره جزراً أخرى كثيرة ، ومن بينها جزيرة جواديلوب . وكان مضطراً إلى الاستمرار فى التنقل ، مادام مشغولا دائما بالبحث عن المعدن النفيس. وأخذ فى إستكشاف كوبا ، والتى جعلته أبعادها المتسعة يعتقد أنه قد وصل إلى حافة القارة الآسيوية . وحينما عاد إلى إسبانيا ، فى عام ١٤٩٦ ، أى بعد عدة سنوات ، لم يكن معه شيئاً من الذهب .

ويمكننا أن نوقف هنا تاريخ هذه الرحلات : فلن تعلمنا الكثير هذا علاوة على أن الكثيرين من غيره كانوا قد أخذوا ، فى ذلك الوقت ، فى إكتشاف البحار ، وبعد ذلك أراضى العالم الجديد . وكانت الملكة قد تراجعت عن وعودها السابقة ، وأعلنت حرية الملاحة والتجارة فى البلاد التى إكتشفت أخيراً . ورأى الناس أعداداً كبيرة من السفن تسير فى أعقاب كولومب . وكانت تلهب خيالاتهم خرافة تتعلق بوجود أحد البلاد المليئة بالذهب ، وهى الالدورادو Eldorado الشهيرة . والتى تذكر الروايات أنها موجودة فى مكان ما فى الجنوب .

وفى أثناء ذلك الوقت ، قابل البرتغاليون أنباء اكتشافات كولومب بمشاعر مضطربة . وأعلن الملك يوحنا عاليا ، وكان حانقا من تركه جيرانه يأخذون هذه الفرصة العظيمة التى كانت قد عرضت عليه من قبل ، وبمجرد معرفته بنتائج الرحلة الأولى ، أن الأراضى الجديدة تدخل فى نطاق المنطقة التى احتفظت بها المراسيم البابوية للبرتغال . واتخذ حتى موقفاً معادياً ، وأعد أسطولا من أجل منع سفن قشتالة من الوصول إلى الهند . ولكن الملوك الكاثوليك ، لم يتركوا هذه المواقف تؤثر عليهم . وكانوا يعرفون ، من وقت طردهم المسلمين من غرناطة ، أنه يمكنهم الاعتماد على تأييد البابا . وبناء على طلبهم ، منحهم البابا اسكندر السادس مرسوماً مشابهاً لذلك الذى يستند اليه البرتغاليون (٩ مايو ١٤٩٣) . ولكن هذا المرسوم كتب فى تسرع ، حتى أنهم إضطروا ، ومن أجل مواجهة الاحتجاجات البرتغالية المباشرة ، إلى أن يتبعوه ، بعد شهر ، بمرسوم آخر ، مكتوب بأسلوب مختلف قليلا ، ويحمل تاريخاً سابقاً للأول ، أى ٤ مايو ، ثم بعد خمسة أشهر ، وبعد بحث معمق ، بمرسوم ثالث ، عدل قليلا من المرسومين السابقين (٢٦ سبتمبر) . وبالاجمال ، فإن الباب أعطى قشتالة كل الأراضى الواقعه فيما وراء خط يرسم من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى ، ويقع على بعد مائة فرسخ إلى الغرب من جزر الخالدات والرأس الأخضر ولكن يوحنا الثانى لم يقبل القرار البابوى إلا بتحفظ . واستمر فى محادثاته المباشرة مع مدريد ، وحصل على أن تزاد مسافة المائة فرسخ إلى مسافة ٣٧٠ فرسخاً إلى الغرب من الجزر البرتغالية : وكان الرقم الجديد يمثل نصف المسافة ، كما قدروها فى ذلك الوقت ، بين هذه الجزر وبين الأراضى التى اكتشفت حديثاً . وكانت هذه هى المادة الرئيسية فى معاهدة توردسيلاس Tordesillas التى عقدت فى ٧ يونيو ١٤٩٤ . وستكون من نتائجها أن تعطى البرتغاليين ملكية البرازيل . والذين كانوا لا يعرفون

فى ذلك الوقت وجودها ، والتى قام أحد البرتغاليين ، وهو كابرال Cabral ، باكتشافها عن طريق الصدفة فى عام ١٥٠٠ .

وسمحت إتفاقيات ١٤٩٣ و ١٤٩٤ بالتحدث عن تقسيم العالم بين البرتغاليين والاسبانيين . وإذا ما أخذناها من الناحية اللفظية ، فإنها لم تحدد سوى مصير الجزر ، وحتى القارات التى سوف تكتشف . ولكن الحكومتين بقتا عليها نتائج ، بأن كل منها كانت ، فى قطاعها ، مالكة وصاحبة سيادة على البحار ، مثلها فى ذلك مثل الأراضى وكما كان البرتغاليون يحتفظون لأنفسهم باحتكار الملاحة والتجارة على سواحل إفريقية ، إدعى الاسبانيون بإحتفاظهم بها لأنفسهم فيما وراء حد الـ ٣٧٠ فرسخ . وإمتنعت الدول الأخرى عن الاحتجاج . وكانت الدولة الوحيدة من بينها ، والتى تقدر فى ذلك الوقت على إسماع صوتها هى فرنسا ، ولكن شارل الثامن كان مشغولا تماماً فى إيطاليا ، وبشكل لايسمح له باشتراك فى مثل هذه المناظـــرة

ومع ذلك ، فبعد بضع سنوات ، وحين علموا بظهور المعدن النفيس فى العالم الجديد ، تحركت الشعوب بطرقها الخاصة . فمن كل الموانى المطلة على المحيط ، إندفعوا صوب السفن الآتية من أمريكا وعليها شحناتها من المعان النفيسة . وأصبحت المناطق المحيطة بجزر الخالدات أماكن الالتقاء الرئيسية لقطاع الطرق البحرية والقراصنة ، من فرنسيين ، وإنجليز ، وبطبيعة الحال من المغاربة من ميناء سلا ، وكانوا الأكثر جرءة من بين كل سكان شمال إفريقية . ومن ناحية أخرى ، قام بعض التجار المغامرين ، بعدم الاعتراف بالمواقع ، وإتجهوا صوب العالم الجديد . وكان الناس قد تعرفوا عليهم منذ وقت بعيد فى موانى نورماندى ، مثل دييب وهونفلير ، وحيث كانت العلاقات مربوطة مع السكان من الأهالى فى البرازيل حتى قبل وصول البرتغاليين . أما أولئك الذين صمموا على إرتياد

هذه المناطق ، فانهم قاموا بذلك على مسئوليتهم الخاصة . وفى عام ١٥١٦ أصدر الملك مانويل البرتغالى أمراً بالبحث عن الاماكن التى تقوم بحركة التهريب، وباعدام كل الفرنسيين الذين يدجدون بها .

ومع ذلك ، فلم تحدث حركات إنتقام رسمية : فلم يرغب فرانسوا الأول فى إغضاب ملك البرتغال ، والذى كان فى وسع معونته له أن تكون ذات قيمة ضد عدوهما المشترك ، ملك إسبانيا . ولذلك فإن رعاياه قد إضطروا إلى الاعتماد على أنفسهم فقط . وقام آنجو Ango الشهير ، أكثر أصحاب السفن فى دييب ثروة بإدارة العمليات . ولكن الملك منحه شرف إعطائه « خطابات مبصومة » فى عام ١٥٣٠ . ونصت مقدمة الوثيقة على أن ملك فرنسا كان يعطى ملك البرتغال لقب الصديق والحليف. وهكذا فإن معاهدة تحالف رسمى (ليون، ١٤ يوليو ١٥٣٦) قد ربطت بينهما خلال سنوات طويلة . ولم يفكر ملك فرنسا أبداً فى أن يقطع العلاقات مع لشبونة . وأصدر حتى أمراً ، فى عام ١٥٢٧ ، يمنع على رعاياه الذهاب إلى البرازيل والى الأراضى الاخرى التى إكتشفها البرتغاليون . ولقد جددها هنرى الثانى بمجرد إعتلائه العرش ، وانتهى الأمر برجال دييب الى أنهم قد فقدوا الأمل ومع ذلك فإنهم كانوا قد أنزلوا خسائر فادحة بتجارة البرتغال . وسيطر القصص على مغامرات آنجو ، وظلوا يروون لفترة طويلة أن قد ذهب ، فى أحد الأيام ، إلى حد قيامه بحصار ميناء لشبونة بسفنه وعالج كريفيون Crignon ، عالم الخرائط ، والدراسات الانسانية ، والشاعر ، هذا الموضوع ، وقال عن البرتغاليين ، فى عام ١٥٣٥ : « أنه من حسن حظ هؤلاء الأهالى أن ملك فرنسا يستخدم حيالهم كل هذه النيات الحسنة وحسن المعاملة . إذ أنه إذا ما أراد أن يرخي العنان قليلا للتجار الفرنسيين ، فانهم كانوا فى أقل من أربع أو

خمس سنوات سيصلون له على صداقة ، ويضمنون له خضوع أهالى هذه الأراضى الجديدة » .

ولم يشعر فرانسوا الأول باستعداده لإظهار مخالبه إلا إذ كان عليه أن يواجه مشكلات مع اسبانيا . ونسبوا اليه ، فى عام ١٥٤١ ، هذه الجملة البليغة رداً على سفير شارل الخامس : « أن الشمس تشرق على كما تشرق على كل الآخرين . أننى أرغب فى أن أرى تلك الفقره من وصية آدم التى حرمتنى من نصيبى فى أقتسام العالم » وحين وعد الامبراطور ،فى معاهدة كريبى (١٥٤٤) بعدم اثارته المشكلات ضده فى ممتلكاته فى الهند ، حصل فى نظير ذلك على الحق ، للسفن الفرنسية ، « بالذهاب للمتاجرة فى جزر الهند » . ولقد أثير الموضوع من جديد فى أثناء المفاوضات التى سبقت عقد معاهدات كاتو (١٥٥٩) وفرنان (١٥٩٨) ولكن نص هذه المعاهدات لايشتمل على أى أثر لذلك . ويبدو أن الحل الوسط الذى عاشوا عليه خلال مايزيد على قرن من الزمان كان فى شكل مجرد اتفاقية شفهية . ولقد تفاهموا على أنه فيما وراء حد معين ، ومتميز عن ذلك الحد الذى كان قد رسم فى توردويسلاس ، لن يكون فى وسع السفن الفرنسية أن تغامر دون أن تصبح مهددة بأن تعامل على أنها سفن معادية . وفى أثناء ذلك الوقت فان الأعمال العدوانية التى ترتكب تجاهها لن تستتبع قطع علاقات السلم بين التاجين . وكانت التحديدات التى فكروا فيها تستند فى نفس اوقت على خط الطول الذى يمر بجزر الخالدات ، وعلى مدار السرطان . وهى الخطوط التى تسميها وثائق النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وبداية القرن السابع عشر « بخطوط السلم » أو « خطوط الصداقة » .

ومنذ قرون . كانت توابل الشرق الاقصى تصل الى موانى العالم الأوربى بواسطة العرب . وكانت سفنهم تذهب لاحضارها من الهند ، ومن سواحل

مالابار ، وتحملها إلى مصر عن طريق البحر الأحمر ، أو تحملها إلى موانى الشام عن طريق الخليج وكان الهدف الرئيسى للبرتغاليين هو أن يأخذوا مكان التجار العرب . ومنذ عام ١٤٩٩ ، كان الملك مانويل ،وهو يكتب للبابا،قد أسمى نفسه « سيد غينيا ، وملاحة وتجارة ، إثيوبيا ، وبلاد العرب ، والهند » . لقد كانت عملية كبيرة .

ولقد بدأت عملية مطاردة السفن العربية منذ الرحلة الثانية لفاسكو داجاما ، فى سنوات ١٥٠٢ — ١٥٠٣ وإستخدموا العنف ضد الأمراء ، مثل الزامورين فى قاليقوط ، ومع كل الأمراء الذين رفضو أن يقطعوا علاقاتهم مع عملائهم التقليديين . ولذلك فإن أول مركز تجارى برتغالى قد أسسه فاسكو داجاما على مسافة كبيرة صوب الجنوب ،فى كوشين ، ودائماً على ساحل مالابار (أو ساحل التوابل) . وكانت ضرورات الصراع الموجود هى التى إضطرت البرتغاليين إلى إستخدام وسائل الارهاب الذى وصل إلى درجة كبيرة من القسوة. ووصل بهم الحال إلى تعذيب الأسرى .

وتم فى عام ١٥٠٥ تعيين أول نائب للملك ، وهو فرانشيسكو دى ألميدا Francisco de Almeida ،لكى يمارس السلطة فى كل الموانى التى أنشئت حديثاً . كوشين ، وقاليقوط ، وكانانور ، فى بلاد الهند ، وكلوة ، وسوفالا فى إفريقية . وبدا تحت إدارته الصراع الحاسم مع المصريين، والذين شعروا بضرورة التدخل من أجل الاحتفاظ بهذه التجارة التى كانوا يربحون منها مثلما يربح العرب. وقام أسطولهم ، بالتعاون مع أسطول أحد أمراء الهند،فى عام ١٥٠٧ ، بمفاجأة أسطول بقيادة إبن نائب الملك ، وانزل به هزيمة فادحة . وقام ألميدا بعد عامين بالانتقام من ذلك ، وحطم الأسطول المصرى أمام ديبو ، إلى الشمال من ساحل مالابار .

ويعتبر الفرنسو دى البوكيرك Alfonso de Albuquerque ، (١٥٠٩ — ١٥١٥) ، خليفة ألميدا ، على أنه المؤسس الحقيق للامبراطورية البرتغالية فى آسيا . ولقد أمضى وقته فى الدفاع عن الغزوات التى تمت وفى الاستعداد للقيام بغزوات جديدة . وكان ، منذ عهد ألميـــدا ، قد تميز بوضعه مشروعاً شجاعاً للاستيلاء على جزيره هرمز ، كميناء هام للتجارة العربية داخل الخليج الفارسى : وقام بالاستيلاء عليها ، دون حصوله على أوامر بذلك ، وحصل على خضوع السلطان المحلى ، ولكنه إضطر إلى أن ينسحب منها بسرعة ، حتى لا يتخلى عنه رؤساؤه ، الذين رأوا أن هذا الموقع كان بعيداً جداً عن الهند ، ومن المحال أن يدافعوا عنه .

وإنتقل معه مركز الممتلكات البرتغالية من كوشين إلى جوا ،فى جزيرة قريبة من الساحل ، والتى تم إنشاء قلعة قوية فيها فى عام ١٥١٠ . ولم يتم ذلك دون عناء . ذلك أن الغزاة طردوا فى أول الأمر من الجزيرة ، ولم يعودوا إليها إلا بعد معركة راح فيها الكثير من القتلى ، وإستخدمت فيها أقصى درجات القسوة والبشاعة . وإفتخر البوكيرك فى إحدى رسائله للملك مانويل : « لقد أحرقت المدينة ، وقتلت الجميع بالسيف .... ولم نعط الحياة لأى مسلم ، وكنا نملأ بهم المساجد ، ثم نشعل فيها النار » .

وبعد أن ضمن ملكية جوا ، قام البوكيرك بإخضاع ملقا ، ذلك الموقع القوى ، الذى إنتصر عليه نتيجة لإستخدامه المدافع ، وحيث وضع أسس إنشاء قلعة جديدة . وحين عاد صوب الغرب ، أخذ فى مهاجمة عدن ، التى تتحكم فى مدخل البحر الأحمر . ولكن هذا الموقع كان محصناً ، وتمكن من رد الهجمات . وعلينا أن نذكر ، فى هذا القطاع ، أن البرتغاليين كانوا يستندون إلى سوقوطرة ،

التى كانوا قد إحتلوها فى عام ١٥٠٩ ، ولم ينزلوا إلى عدن إلا الفترة قصيرة من الوقت فقط ،فى عام ١٥٥١ .

وإنتهى التاريخ العسكر لألبو كيرك فى نفس المكان الذى كان قد بدأ فيه ، أمام هرمز . وكان قد أصبح حراً ، هذه المرة ، فى حركاته ، وأجبر السلطان على أن يعترف بخضوعه لملك البرتغال وأصبح لؤلؤ الخليج الفارسى برتغاليا ، لفترة تزيد على قرن من الزمان .

وكانت الإقامة فى « جزر التوابل » من عمل الخلفاء المباشرين لألبوكيرك . وأصبحت ترنات ، فى شمال الأرخبيل ، أو موقع برتغالى . ولم يصلوا إلى جاوا وسومطرة إلا فيما بعد . ومنذ ذلك الوقت ، ضمنت البرتغال لنفسها السيطرة على المحيط الهندى . وإقتصرت غزواتهم على نقط الإرتكاز البسيطة هذه . وكان من النادر أن تستند الامبراطوريات إلى هذا الدعم القارى البسيط . وكان من النادر كذلك أن تسيطر دولة على هذه الدرجة من الصغر على مثل هذه الامبراطورية الشاسعة .

٣ ـ الغزو الاسبانى فى العالم الجديد :

وكان للامبراطورية الاسبانية فى أمريكا طبيعة مختلفة تماماً . فالسيطرة على الطرق المؤدية إليها لم تطرح مشكلات تتعلق بملكيتها . وكان يكفى ، من أجل إبعاد المنافسين الممكنين ، الاحتفاظ بقوة بحرية قوية . وبدأ الغزو إبتداء من القواعد التى إحتلوها فى أول الأمر فى جزر الأنتيل ، هسبانيولا (هاياتى) ، ثم من كوبا . هذا علاوة على أن الأنظار لم تركز بشدة على القارة المجاورة إلا بعد مضى ما يقرب من عشرين عاماً ، وبعد أن تاكدوا من أن الكنوز موجودة فيها بالفعل . وظهرت المؤسسات الأولى على سواحل خليج داريان . وفى عام

١٥١٣ إكتشف بالباو Balbao ، وهو يعبر برزخ بنما ، المحيط الهادى ، وأسماه « بحر الجنوب » .

وبدأوا فى الإتصال بقبائل المايا على ساحل المكسيك ؛ منذ عام ١٥١٨ . ومنذ العام التالى، نزل فرناند كورتيز Fernand Cortez ،ونظم معسكراً محصناً فى نفس المكان الذى ستنشأ فيه من بعد مدينة فيراكروز، ثم بدأفى غزو إمبراطورية الأزاتكة . وكان جيشه يتكون مما يقرب من ثلاثمائة من الاسبانيين ، وألف وثلاثمائة من الوطنيين . وسيتضخم عدده فى أثناء السير بتلك المجموعات التى أخذت من القبائل المحررة من سيطرة الأزاتكة . وميزت القسوة الفائقة ، والتى تهدف إرهاب الأهالى ، مرور البيض فى المدن الرئيسية التى قابلتهم على الطريق . وتم دخول مكسيكو دون مقاومة . ولم تبدأ المشكلات إلا بعد ذلك . وكانت شراهية الجنود ، الذين يبحثون عن المعادن النفيسة ، تدفعهم إلى استخدام أشد انوع القسوة . وانتهى الأمر إلى نشوب ثورة عامة بعد ذلك . وأخليت العاصمة من القوات ، ولم يتمكنوا من اعادة احتلالها الا فى عام ١٥٢١ ، وبعد حصار دام لمدة ستة أشهر . وانتظمت حولها ، ومن أحد البحار حتى البحر الآخر ، مستعمرة اسبانيا الجديدة . وعملت ثرواتها الضخمة على أن تجتذب اليها سريعاً اعداداً كبيرة من المهاجرين . وكان التمركز على الساحل الشمالى لخليج المكسيك قد حدث فى وقت متأخر . واصطدم المحتلون الأوائل بعداء الوطنيين . ولكنهم راحوا ضحية الحيات بنوع خاص ولم يتمكنوا من أخذ فلوريدا إلا ابتداء من عام ١٥٦٥ ، وبعد طرد مستعمرة صغيرة للهيجنوت الفرنسيين ، كانت قد قامت فى العام السابق ، وتحت اشراف أحد قباطنة ديبب ، وهو ريبو Ribaut بالإقامة هناك .

وفى الجزء الجنوبى من القارة ، تطلبت عملية غزو امبراطورية الانكا ، وهى

أكثر إتساعاً وأكثر تدعيما فى بنيانها من امبراطورية الأزانكة ، بجهودات أطول أمداً ، ولقد حاول بيزارو pizerro ، الذى عاد اليه فضل الانتصار عليها، القيام بحملة أولى فى عام ١٥٢٤ ، ولكنه لم يتمكن إلا فى عام ١٥٣٣ فقط ، وبعد أن كان قد ذهب لكى يحصل من اسبانيا على تشجيعات وتأييد شارل الخامس ، من أن يقوم بتنفيذ مشروعه . ولم تكن وسائله تزيد عن تلك التى كانت موجودة عند كورتيز . وإستخدم ، هو كذلك ، الإرهاب . وقاموا بالقاء القبض على الرئيس الإسمى ، أو على « الإنكا الكبير » بطريق الغدر، ثم حكموا عليه بالإعدام ونفذوا فيه الحكم . وكانت البلاد التى قاموا بغزوها تشتمل على الأراضى الحالية لجمهوريات الاكوادور ، و بيرو ، وبوليفيا ، والجزء الشمالى من شيلى ، وعلى جزء من الأرجنتين . وكانت العاصمة كوزكو Cuzco كبيرة البعد عن الساحل ، فابدلها بيزارو بمدينة جديدةهى كويدادذى لوس رايس Ciudad de los Reyes والتى سوف تسمى ليما ، فيما بعد .

واستمرت عملية الغزو ، كما حدث فى المكسيك ، عن طريق حملات متتالية توجهت ضد الأهالى المجاورين . وفى المنطقة التى تقع إلى الجنوب أكثر من ذلك تمكنت قبائل أروكانز Arraucans من أن يهزموا القوات الاسبانية، وحتى نهاية القرن . أما السهول الشرقية ، والتى لم تكن توجد فيها معادن نفيسة ، فانها لم تكن كبيرة الإغراء بالنسبة للبيض . وكان التوغل فى هذه المناطق بطيئاً . وعلى مصب ريو دى لا بلاتا ، الذى وصلوا اليه فى عام ١٥٣٥ ، أقاموا مركزاً أسموه بوينس آيرس ، وكان ضعيفاً . وظلت مدينة « الصعود » التى أسست بعد عامين من ذلك ، وفى داخل الأرض وعلى نهر باراجواى ، ما يقرب من نصف قرن وهى مركز المؤسسات الإسبانية . أما مدينة بوينس آيرس الجديدة ، والتى ولدت فى عام ١٥٨٠ ، فإنها لن ترتفع إلى المكان الأول إلا بعد .

وعلى الساحل الشمالى ، والذى ظلوا يعرفونه منذ الفترة الأولى للكشوف باسم « الأرض الثابتة » . لم ينزل الاسبانيين . إلا فى فنزويلا . وأقاموا هناك إحدى المؤسسات فى عام ١٥٢٧ . ولما كانت البداية صعبة فإن شارل الخامس تفاوض فى عام ١٥٣٠ مع الألمان من أسرة فلسر Welser ، وكانوا من كبار رجال الأموال فى أوجزبورج ، ومنحهم حق إستغلال هذه البلاد : وكان الألمان يتمتعون بسمعة أنهم متخصصون فى إستغلال المناجم ، وهو أحد الفروع الرئيسية للعمل الصناعى فى بلادهم ، وإعتقدوا أنهم سوف ينجحون أكثر من غيرهم فى عملية التنقيب اللازمة . والواقع أن جماعة فلسر أصابتها كل خيبة أمل ممكنة ، ولم تجد المعدن إلا بكميات ضئيلة . ولذلك فانها تخلت عن فنزويلا فى عام ١٥٥٦ .

وفى أمريكا الشمالية ، ظل الجزء الأكبر من القارة ، بالفعل بعيدا من سيطرة الغزاة الإسبانيين ، ولقد أفاد منافسوهم من ذلك ، وكانت فرنسا قد ظلت تظهر اللامبالاة بشكل غريب وعلى الأقل عند الأوساط الحاكمة ، تجاه تلك المنافسات الأولى التى كانت تهدف العالم الجديد . وكانت قد تركت الايبيريين يقتسمون تلك القارة ، التى كان بحارتها أول من وضعوا أقدامهم عليها . ولكنها خرجت من عدم حركتها فى عام ١٥٣٥ . وكان هذا نتيجة تغير مفاجىء كانت أصوله مرتبطة بتطور الحالة فى أوربا . ففرانسوا الأول ، الذى كان قد صمد منتصرا أمام هجمات الدولة الاسبانية الألمانية ، بدأ فى فقد الثقة فى المستقبل . وأصبح يعقد أهمية أقل عما كان عليه الحال فى الماضى بالنسبة للضمان الذى تعطيه له ، وضد شارل الخامس ، صداقته مع البرتغال ، وكان قد قلل من تشدده ضد النورمانديين ، الذين كانوا ، بذهابهم للتجارة على سواحل البرازيل ، يثيرون الصعوبات مع حكومة لشبونة ، وفى عام ١٥٣٤ ، وبعد أن كان قد حصل من البابا على بضعة

ضمانات تتعلق بتطبيق مرسوم عام ١٤٩٣، أرسل جاك كارتيه Jacques Cartier البحث عن إكتشاف الذهب فى المناطق القريبة من جزيرة « الأرض الجديدة » (نيوفوندلاند) ، ومر كارتيه على مصب نهر سان لورانس ، وأعلن خضوعه لسيادة الملك ، سيدة . ولا يبدو أن شارل الخامس قد أزعجه ذلك وربما رجع ذلك إلى أنه فى حقيقة الأمر لم يبلغه أحد بذلك . ولم تعط الرحلة الثانية لكارتيه ، فى عام ١٥٣٥ ، أى ضجة أكثر مما أعطته الرحلة الأولى . وكانت حملة عام ١٥٤١ وحدها ، والتى اشترك فيها روبرفال Roberval مع كارتيه ، هى التى تسببت فى احتجاجات وتهديدات . والواقع أن الأمر كان يتعلق ، هذه المرة بالبدء فى عملية إحتلال . ودون تمكنه من أن يحصل على تأييد البابا وملك البرتغال ، وجد شارل الخامس أن أحدا لا يستمع اليه ، ولن يتأخر به الحال إلى أن يعرف أن المحاولات الفرنسية قد إنتهت ، فى نهاية الأمر ، إلى الفشل .

ولم يكن الانجليز قد دخلوا بعد إلى ميدان التنافس مع الإسبانيين ، وكانت تجارتهم البحرية قليلة الأهمية ، وكان بحارتهم أقل بأسا من البحارة الفرنسيين . وكانوا طوال الوقت يعملون فى قطع الطرق البحرية ، وفى القرصنة ، إن كانت قرصنة محدودة على البحار المجاورة . ولم تكن تجارة الدول الاستعمارية الجديدة تقاسى منهم إلا حين كانت تستخدم مياه أنفرس . وبدأوا ، قرب منتصف القرن ، فى خرق قرارات المنع البرتغالية على طول سواحل غينيا . وشجعهم على ذلك وجود الاتحاد المؤقت بين تاج إنجلترا ، وتاج إسبانيا ، فى عهد حكم مارى تيودور Mary Tudor ، ثم جاء عهد اليزابيث Elisabeth مع الحملات الكبرى عبر المحيط . وكانت الحملات الأولى ، وهى حملات هوكينز Hawkins ، قد أفادت من عدم مبالاة ، وحتى من مشاركة الإسبان، إذ أن هدفهم كان يتركز فى مجرد أن يحضروا إلى جزر الهند الغربية زنوجا كانوا قد جمعوا من إفريقية ، أو أخذوهم من

تجار برتغاليين . ولكنهم كانوا يعودون من هناك بكل أنواع السلع ، وأعطت حكومة فيليب الثانى أمراً بعدم قبول السفن الانجليزية فى الموانى الأمريكية، وسافر هوكينز ، الذى لم يكن يرغب فى أن ينفذ رغباتهم ، مرة ثالثة ومع سفن عديدة مسلحة من أجل الحرب ، وبعد أن هاجمه عند سان جان دوللوا ، قرب فيراكروز نائب الملك فى المكسيك ، فقد جزءاً من أسطوله (٢٠ سبتمبر ١٥٦٨)، وأمام إعتراضات سفير فيليب الثانى . أجابت الملكة اليزابيث فى كلمات مشابهة للكلمات التى كان فرانسوا الأول قد إستخدمها من قبل . « يجب أن يكون إستخدام البحر والجو مشتركا بالنسبة للجميع .... » ، وبحرية تعبير من كان قد إنشق على الكنيسة ، أضافت أنها لاتعترف للاسبانيين بأى حق خاص بالملكية . ينتج عن تلك الهبة التى أعطاها لهم « أسقف روما » ، وقرب هذا الوقت أخذ الملك دون سباستيان Don Sebastien ، ملك البرتغال، موقفا مهددا . فاضطروا إلى الدخول فى مفاوضات . وفى نظير فتح ماديرا وجزر الخالدات للتجارة الانجليزية، حصلت البرتغال على إعتراف رسمى باحتكارها للتجارة الإفريقية .

ووصلت منتجات مناجم بيرو بالبحر ، وعبرت على ظهر البغال برزخ بنما لكى تصل إلى السفن الراسية فى خليج المكسيك وفى عام ١٥٧٢ ،قام أحد زملاء هوكينز ، وهو دريك Drake ، بمفاجأة ، عند مخرج ميناء نومبر دى ديوس ، قافلة ذاهبة إلى أوربا ، واستولى عليها ؛ وتمكن من أن يحضر إلى إنجلترا كل أسلابه ، ولكن هذا النجاح لم يتكرر ، فقد كان على الاسبانيين ، منذ ذلك الوقت، أن يحسنوا عملية رقابتهم ، ولكن دريك عاد من جديد ، فى عام ١٥٧٧ صوب الغرب ، ووصل إلى سواحل بيرو . عن طريق مضيق ماجلان . ونشر الرعب فى ليما ، واستكشف كاليفورنيا ـ وزالوا يناقشون لمعرفة ما إذا كان يهدف أمر الاستيلاء عليها باسم الملكة ـ ، وعبر المحيط الهادى ، وحمل سلطان ترنات ،

وهو أحد سلاطين جزر ملقة ، يقبل الحماية الإنجليزية ، وعاد منتصراً بعد أن كان قد قام بالسفر حول العالم (١٥٨١) . وفى هذه الفترة ، تدهورت العلاقات بين إنجلترا وبين أسبانيا ، وكانوا يسيرون صوب القطيعة . فلم يعد هناك مجال لاحترام ذلك التصور القانونى والتى كانت الأحداث البحرية ، نتيجة له . تهدد العلم بالخطر ، وخاصة إذا مانشأت هذه الأحداث فيما وراء « الخطوط » . ولم يتردد القراصنة الإنجليز فى الذهاب ومهاجمة السفن قرب السواحل الاسبانيـة . وقاموا بذلك ، وبدون أى تحرج خلال تلك الفترة التى كانت الحرب فيها معلنة ، منذ عام ١٥٨٥ وحتى عام ١٦٠٤ . وفى أثناء ذلك الوقت إستمر دريك فى القيام بهجماته الشجاعة على المنشآت الموجودة فى أمريكا ، ومات وهو يقوم بذلك ، فى عام ١٥٩٥ ، عند بورتو بيللو (برزخ بنما) .

ولم يكن فى وسع القرصنة ، على المدى البعيد ، أن تكتفى لإرضاء طموحات شعب فى كامل النمو من أجل القوة . وقبل نهاية القرن ، سنجد أن روح الاستعمار قد بدأت فى الظهور ففى عام ١٥٨٣ أقام همفرى جيلبرت Humphrey Gilbert فى الأرض الجديدة أول مجموعة من المهاجرين ، وفى عام ١٥٨٥ . أسس والتر راليه Walter Raleigh . وقرب فلوريدا الإسبانية ، « مزرعة ، أولى لفرجينيـا . وأسماها كذلك تيمنا بالملكة ، العذراء . ولقد هجروها بعد ثلاث سنوات . وكانت الثانية ، والتى أنشئت فى عام ١٦٠٧ . وعاصمتها جيمس تاون ، هى التى ستصبح أساسا « لإنجلترا الجديدة » .

وفى نفس هـذه الفترة ، ولدت « فرنسا جديدة » ، عند مصبات نهر سان لورانس . وكان ذلك نتيجة لتلك التنمية التى حدثت لتجارة فراء الكاستور . والتى كان أهالى روان ، وديب ، وسان مالو ، يزداد إهتمامهم بها منذ عام ١٥٨٠ . وشهدت السنوات الأخيرة من القرن محاولات عديدة للتوطن هناك ونجح إثنان

بعد أن كان غيرهم من النورمانديين قد فشلوا . ويعود إلى دى مونس de Monts أمر إنشاء بورت رويال ، فى أكاديا عام ١٦٠٥ ، وإلى صامويل شامبلان Samuel Champlain أمر إنشاء كويبك فى عام ١٦٠٨.

٣ — خطوات التوسع البرتغالى :

رغماً عن أن البرتغاليين والاسبانيين كانو ، بطريقة ما ، قد إقتسموا العالم ، إلا أنهم لم ينجحوا فى إبعاد أسباب سوء التفاهم من بينهم ، وفى عام ١٥٢١ وضع الوفاق بينهم فى موضع الإختبار نتيجة لوصول ماجلان Magellan إلى الهند الشرقية . وكان السؤال الذى طرحه هذا الحدث . بالضرورة ، هو السؤال الخاص بحق البرتغاليين فى إمتلاك جزر التوابل . ومادامت الأرض كروية — وكان ماجلان قد أثبت ذلك — فإن طريقة التقسيم التى كانت قد إتبعت فى توردسيلاس ظهرت على أنها غير صالحة . وكانوا قد إختاروا أحد خطوط الطول لكى يحددوا الممتلكات الخاصة بكل من البرتغال وإسبانيا ؛ ولكن الأمر كان يحتاج لخطين. وأكد ملك البرتغال أن ملقة توجد إلى شرق خط الطول هذا، بينما أكد ملك أسبانيا أنها كانت تقع إلى غربه . وكان كل منها على صواب ، وبدا الخلاف على أنه لا يمكن إيجاد حل له. ودعوا إلى عقد مؤتمر عن علماء الخرائط الجغرافية ، والربابنة إلى تقرير هذا الأمر ، ولكن المؤتمر فشل وبدأت العمليات الحربية قرب المناطق المتنازع عليها ؛ فتم الاستيلاء على تيدور وفقدها، بواسطة البرتغاليين وعندئذ إضطر شارل الخامس الذى كان مشتبكا مع فرنسوا الاول فى أوروبا ، إلى أن يتنازل . وكانت أخته قد تزوجت ملك البرتغال الجديد، يوحنا الثالث . ولم تكن الدوطة قد دفعت بعد . وفى نظير تنازله عن مطالباته ، إستمر يوحنا الثالث ، طبقا لمعاهدة لبريدا (٢٣ ابريل ١٥٢٩) ، فى ملكيته لملقة . وهكذا كسبت البرتغال .

وبعد ذلك ، تسببت إقامة الاسبانيين فى الفلبين ، نتيجة لحملة لوبيز دى ليجازبى Lopez de Legazpi ، والتى كانت قد حضرت عن إسبانيا الجديدة (١٥٦٥) ، فى نشأة صدام سريع مع البرتغاليين الموجودين فى إندونيسيا، ومع ذلك فإن غزو الأرخبيل لم يكن أكثر بطءا . ولم تحتل جزيرة لوسون ، أكبر الجزر ، والأكثر وقوعا إلى الشمال ، مع مانيلا ، العاصمة المقبلة . إلا فى عام ١٥٧١ . وحاول اليابانيون بلا جدوى أن يستولوا على مانيلا فى عام ١٥٨١ . ومنذ ذلك الوقت نشأت العلاقات التجارية . وعن طريق الفلبين ، بين إسبانيا الجديدة وبين الصين ، التى أصبحت الحراير الواردة منها تحمل بسفينة سنوية عبر المحيط الهادى حتى ميناء أكابولكو .

وفى هذه الفترة . فى النصف الثانى من القرن ، إتجه التوسع البرتغالى بنوع خاص صوب إفريقيا . فأصبحت أنجولا مستعمرة حقيقية . وفى منطقةموزمبيق، بدلوا المجهودات من أجل التوغل فى داخل البلاد ، بحثا عن مناجم الذهب . وفى المغرب ، كانت القوات البرتغالية أقل نجاحا ، ذلك أنها إضطرت ، تحت ضغط المغاربة ، إلى إخلاء المواقع التى كانت قد إحتلتها فى أثناء القرن الخامس عشر ، وفى بداية القرن السادس عشر ، الموقع بعد الآخر ، وفى عام ١٥٥٠ ، وبعد فقد أصيلة ، لم يبق لها سوى ثلاث مواقع سبته . وطنجة ، ومزغان . أما الحملة الكبيرة التى أرسلوها إلى هناك فى عام ١٥٧٨ فإنها إنتهت بكارثة عندالقصرالكبير، وحيث قتل الملك دون سباستيان . (موقعة الملوك الثلاث) .

ومن الجانب الآخر من المحيط ، فإن عملية إستكشاف البرتغال لم تبدأ بالكاد إلا بعد تأسيس باهيا ، فى عام ١٥٤٩ ، ومجىء الجزويت (اليسوعيين) الذين أحضرهم أول حاكم عام . وحتى ذلك الوقت ، كان الموجودين الوحيدين من الجنس الأبيض هناك هم من صدرت ضدهم أحكام القانون العام . واستمرت

بعض السفن الفرنسية فى الإتجار مع الوطنيين : ورغم المطاردة التى كانوا يقومون بها حيال هذه السفن ، فانهم لم ينجحوا أبداً فى منعها .

وفى عام ١٥٥٥ قامت مجموعة صغيرة من المغامرين بقيـــادة الشيفالييه دى فيلجانيون de Villegagnon بالإقامة فى خليج ريو دى جانيرو . ونجحوا فى الإقامة هناك مدة خمس سنوات : « جزيرة الفرنسيين » ، التى لم تسقط ، فى عام ١٥٦٠ ، إلا بعد عملية حصار منظمة. وسيبدأوا فى إقامة العاصمة قرب هذا المكان ، إبتداء من عام ١٥٦٧ .

وفى الهند ، لم يكن للبرتغاليين علاقات مع دول الجنوب لفترة طويلة . وكانت الأحداث الكبرى التى هزت شمال ووسط شبه القارة - غزو بابر وإنشاء امبراطورية المغول — لم تؤثر عليهم . ومع ذلك فإن الفرصة سنحت لهسم للافادة من ذلك . ذلك لأن تهديد الغزاة كان هو السبب الذى دفع أحد السلاطين المحليين إلى أن يسمح للبرتغاليين بالإقامة فى ديو (١٥٤٦) . وستكون ديو أكثر ممتلكاتهم وقوعاً فى الشمال . وكانت أكثر الممتلكات التى ينازعونهم فيها : ففى مرتين ، وفى خلال فترة ثلاثين عاماً ، وصلت الأساطيل العثمانية من البحر الأحمر ، وحاولت طردهم منها ، ولكن بلا جدوى . وفى جوا ، من ناحية أخرى ، كان عليهم أن يواجهوا الهجمات الآتية من الداخل : وفى عام ١٥٦٩ قام هذا الموقع بدفع هجمات جيش هندى زاد عدده على مائة ألف رجل .

وفى الصين ، إصطدمت عملية التوغل البرتغالية بعقبات ، لم تتمكن من التغلب عليها إلا بكل صعوبة . وكانت التجارة الصينية نشطة فى ملقـة ، التى كانت خاضعة من قبل لامبراطورية « إبن السماء » . وكانوا يجدون هناك الفلفل ، وكذلك المعادن والاحجار النفيسة . والبرتغاليون ، منذ أن أصبحوا على إتصال

بالتجار الصينيين ، لم يفكروا إلا فى منازعتهم هذه التجارة ، والتى كانوا يعلمون أنها مربحة تماماً .ولذلك فإن «رحلات الصين» كانت قد بدأت منذ عهد ألبوكيرك وصرحوا فى عام ١٥١٧ لأحد القباطنة البرتغاليين بإقامة مستودع فى إحدى جزر خليج كانتون . ولكن التجربة لم تكن موفقة ، نتيجة للاهانات ثم أعمال العنف التى كان القادمون الجديد مسئولين عنها . ودعت بكين البرتغاليين إلى الإبتعاد ، وأجبرت على ذلك ، تحت التهديد ، فى عام ١٥٢١ . ونتج عن ذلك وجود حالة حرب فعلية بين الجانبين مدة عدة سنوات . ولم يعد هناك مكاناً إلا لتجارة تتم فى السر مع المقاطعات الواقعة فى أقصى الجنوب ، ونتيجة لمشاركة كبار رجال الصين المحليين هناك . ثم إمتدت هذه الحركة التجارية ، شيئاً فشيئاً ، إلى كل الصين الوسطى . وقرب عام ١٥٤٠ شارك أهالى كانتون أنفسهم فى هذه التجارة ، رغم منعها رسمياً .

ومن مثل هذه العلاقات الضعيفة ، تنشأ بالضرورة حوادث . فهنا ، وهناك ، كانوا يطردون التجار البرتغاليين . ومع مضى الوقت ، وفى ظروف غير معروفة تماماً ، نجحوا فى أن يقبلوا هناك . وإستخدموا جزيرة صغيرة ، تسمى ماكاو ، كقاعدة لهم . وفى عام ١٥٥٧ ، أقاموا فيها ، نظير دفعهم مبلغاً سنوياً ، وبدأت إحدى المدن فى الظهور ، شيئاً فشيئاً . وبعد عشرين عام من ذلك ، حصلوا على تصريح بالإقامة لمدة ثلاثة أسابيع متتالية ، فى كل عام ، فى كانتون . وأخذت الإمبراطورية فى الانفتاح ، بدرجة أقل أمام بعثات التنصير . وكان الجزويت الإيطاليون هم أول من دخل إلى كانتون ، بعد التجار . ولكنهم لم يتمكنوا ، خلال نصف قرن ، من الخروج منها . ولم يتمكن بعضهم ، إلا إبتداء من عام ١٥٨١ فقط من النجاح فى توسيع ميدان عملهم . ونتيجة لحكمة وإصرار الآب ريتشى ، الذى كان قد أنشأ إحدى البعثات فى نانكين فى عام ١٥٩٥ ، تـوج

النجاح بجهوداتهم فى آخر الأمر. وفى عام ١٦٠١ قابل الامبراطور الأب ريتشى رسمياً . وسرعان ما حظى بثقته ، وسيتمكن بعد ذلك من الاستمرار فى القيام بعمله ، فى العاصمة ، وعند وفاته ، فى عام ١٦١٠ ، كان هناك عدة مئآت من الكنائس المسيحية فى الصين .

أما اليابان ، والتى كانت أكثر بعداً ، فإنها لم تدخل فى منطقة عمل البرتغاليين إلا قبل أواسط القرن بقليل . وكان بحارتها لا يغامرون كثيراً بالملاحة فيما وراء مضيق فرموزا ، ولم تكن لديهم فرصة للاتصال بالبرتغاليين ، ومن جانبهم ، قام البرتغاليون ، بعد أن تعرفوا على ريوكيو ، بالوصول إلى أولى جزر الارخبيل اليابانى فى عام ١٥٤٣ . ولم يقابل الجزويت ، الذين كان التجار قد مهدوا لهم الطريق ، أى عداء ، من حيث المبدأ : وأفادوا حتى من ذلك الفضول الذى أثاره كل ما كان البيض يحملونه من جديد . وتمكنت الفترة التى قضاها فرانسوا إجزافييه Francois - Xavier — على قصرها ، مادام قد وصل فى عام ١٥٤٩ ، وتوفى فى عام ١٥٥٢ — من أن تثبت هناك مسيحية وطنية . وسار العمل ، الذى واصله غيره من بعده ، فى طريق سليم ، حتى أن البعض تنبأ ، منذ عام ١٥٨٠ ، وبتفاؤل ، بتحول اليابان إلى المسيحية ، ولم يكن فى وسع أحد أن يعرف ما سيأتى به المستقبل القريب . ففى عام ١٥٨٧ ، وضعوا ديانة «ياسو» (المسيح) على القائمة ، ودعوا كل رجال بعثات التنصير إلى السفر فى فترة عشرين يوماً . ولم تكن هذه إلا البداية . ففى عام ١٦٠٤ ، صدرت الأوامر ، وفجأة ، بالقضاء على المسيحية ، وبتعقب من تحول إليها ، وطردهم ، وحتى تعذيبهم .

أما السيطرة البرتغالية فى المحيط الهندى ، فانها لم تصبح مهددة ، بطريقة فعالة ، إلا قرب نهاية القرن ، وذلك بواسطة القادمين الجدد ، الهولنديين . أما مع

الاسبانيين ، فقد كان هناك وفاق واضح ، ولكنه وفاق سطحى ، جاء بعد حصول فيليب الثانى . فى عام ١٥٨٠ ، على تاج البرتغال . ولم تستمر المنافسة القديمة بينهما إلا فى اليابان، وبنوع خاص فى ميدان بعثات التنصير . وكان الفرنسيسكان ، الذين أتوا من الفلبين ، يمثلون ، وفى مواجهة الجزويت ، والذين كانوا هناك منذ بعض الوقت ، رأس حربة التجارة الإسبانية .

وفى عام ١٥٨٤ ، حرم فيليب الثانى على رعاياه الثائرين فى الاقاليم المتحدة الوصول إلى لشبونة وإلى بقية الموانى البرتغالية الأخرى . وبعد عشر سنوات من ذلك ، قاموا فى أمستردام بتنظيم أولى الحملات لكى تذهب وتأتى بالتوابل مباشرة من الهند . وفى خليج غينيا ، قام رجال هذه الحالة باحتلال جزيرة سان تومى ، والتى كانت مركزاً للسيطرة البرتغالية فى إفريقية وفى السنوات التالية تمكن الهولنديون من تثبيت أقدامهم فى سومطرة ، وحيث لم يكن للبرتغاليين أية منشأة . وقاموا ، من هناك ، بحرب عنيفة ضد السفن الاسبانية والبرتغالية ، وإلى حد أنهم قد أبعدوهم بشكل كامل تقريباً من الجهات القريبة من جزر التوابل . وفى عام ١٦٠٢ ، تم تأسيس شركة قوية للهند الشرقية فى أمستردام ، وذلك عن طريق إنضمام شركات مختلفــة لبعضها ، كانت حتى ذلك الوقت تتنافس فيما بينها .

أما الإنجليز ، فقد أغرتهم هذه التجربة الهولندية ، وما كانت تحققه من أرباح طائلة . فاقلعوا بدورهم على طريق المحيط الهندى ، ولما كانت البرتغال قد إنضمت إلى إسبانيا ، لم يكن فى وسعهم أن يتصوروا ابقاءهم تحت سيطرة عدوهم الرئيسى ، ملك إسبانيا، من أجل تموينهم بمنتجات المستعمرات . وأصابوا فى أول الامر نجاحاً يقل عن نجاح الهولنديين : وكانت حملاتهم الأولى ، فى

عام ١٥٩١ وعام ١٥٩٦ ، فاشلة . ومع ذلك ، فإن لندن أصبحت لها شركتها الخاصة بالهند الشرقية ، قبل أمستردام ، فى عام ١٦٠١ . وفى عام ١٦٠٥ ، تم تأسيس أول منشأة إنجليزية فى بانتام ، فى جزيرة جاوة ، وستملأ المنافسة بين الشركتين ، الهولندية والانجليزية ، سنوات القرن السابع عشر .

٤ ـ ذهب وفضة أمريكا فى أوربا :

بحث البرتغاليون عن طيب خاطر أعمال بحارتهم وجنودهم فى أثناء القرن السادس عشر . وعلينا أن نذكر جيداً أن هذه الأعمال كانت مصحوبة ، خلال بعض الوقت ، بسلوك لا إنسانى ، كان مشيناً لكل الأوربيين ، وبخاصة فى آسيا . وحصل البرتغاليون بنوع خاص ، وعلى كل البحار ، ونتيجة الطريقة التى كان البحارة البرتغاليين يعاملون بها خصومهم ، سواء أكانوا من القراصنة أو لم يكونوا ، على سمعة أنهم أكثر المتبربرين من بين الشعوب المتحضرة . ولذلك فإن كلمة «مغامرات» تصلح لعملياتهم أكثر من كلمة «غزوات» وهى العمليات التى قامت بها هذه المجموعة الخارقة للعادة ، من ذلك الشعب الصغير ، والذى تمكن رغم قلة عدده ـــ يزيد قليلا على مليون من الأهالى فى ذلك الوقت ـــ من أن يجعل إسمه معروفاً ، ومهاباً ، فى فترة نصف قرن ، وحتى نهاية العالم المسكون .

وعلينا أن نلاحظ هنا ، من ناحية أخرى ، أن الاتجاه التجارى الماركانتيلى الذى كان يوجه الغزاة الأول ، لم يكن يستبعد الرغبة فى العمل من أجل مجد المسيحية عن طريق كسب أنصار جدد لها . ويمدح أحد الإسبانيين من هذه الفترة فاسكو دا جاما وأتباعه على أنهم قد فتحوا أمام المسيحيين طرق البحر ، وأمام الكفار طرق السماء . وهذا المدح لا ينطبق إلا على المجهود الذى بذل

فى البلاد غير الإسلامية . ونعرف أنه يصعب على الوعظ المسيحى أن يتوغل فى العالم الاسلامى : وهدف المجهود البرتغالى مجرد أن يقطع علاقات المسلمين ببلاد التوابل . وفى بلاد الهند الشرقية والغربية لم تواجه عملية التنصير بعقبات مشابهة ؛ فاستمروا فى القيام بطريقة تلقائية ، وفى غالب الأحيان عن طريق الإرغام ، وفى أشكال مختلفة تبعاً للمناطق . ومنذ عام ١٤٩٩ أعطى مرسوم بابوى لملك البرتغال ملكية Patronat كل الأقاليم الافريقية التى أقام البرتغاليون فيها . إمتد هذا الإمتياز فى عام ١٥١٤ إلى تلك الأقاليم التى تقع فيما وراء رأس بوجادور ونون ، وحتى الهند ، ثم إلى كل الأقاليم التى سوف يتم غزوها بعد ذلك وكانت فترة الازدهار الكبير فى عمليات التنصير هى فترة أواسط القرن ، وحين قامت جماعة الجزويت بأخذ هذه العملية فى أيديها .

وسمحت إقامة البرتغاليين خلف بلاد الإسلام بدخول إحدى البلاد ، التى لم يكن العالم يعرف الكثير عنها ، إلى مجتمع الدول المسيحية ، وبعد إنقطاع منذ قرون ، حتى أن العصور الوسطى إعتقدت أنه يمكن إعتبارها بلاد « يوحنا الراعى » الشهيرة فى القصص : وهى الحبشة . وكانت كنيسة إتيوبيا تمثل جزءاً من الكنيسة القبطية ، وكانت قد إنفصلت بأهلها على هضاب الأمهرة المرتفعة . وكانت كثيرة الإصطدام بعداوة الأهالى المجاورين وحين إنتشرت أنباء نجاح البرتغاليين فى المحيط الهندى ، أرسل النجاشى سفيراً إلى لشبونة لكى يقترح تحالفاً ضد المسلمين . ولم يجب أحد على هذا العرض ، خاصة وأن البرتغاليين كانوا يهتمون بالبحر قبل أى شىء آخر ، ولم يكن للحبشة واجهة على البحر . ومع ذلك فإن العلاقات التى بدأت فى عام ١٥٢٠ لم تنقطع ، وفى عام ١٥٤١ جاءت قوات برتغالية لمعونة الأحباش ضد السلطان المجاور ، فى الصومال . كما أن الكرسى البابوى فى روما إهتم بهؤلاء المسيحيين الذين يعيشون فى عزلة : ألم

يكونوا يقبلوا ، فى مثل هذه العزلة ، أن ينضموا إلى روما؟ وحصل بعض الجزويت البرتغاليين ، الذين إختيروا للعمل هناك ، على إذن بالإقامة . وسيقوموا خلال فترة ثلاثة أرباع قرن بالوعظ من أجل المذهب الكاثوليكى . واعتقدوا فى قرب نجاحهم ، ولكن الموقف تغير فجأة ، فى عام ١٦٢٣ ، وأجبروهم على ترك البلاد .

ولقد أعطى التوسع الأوربى ومنذ بدايته — التوسع الأيبيرى — نتائجه الأكثر أهمية، فى ميادين أخرى ، وبخاصة فى الميدان الإقتصادى .

فمن جانب الهند الغربية ، إحتاج المعمرون من وقت مبكر للأيدى العاملة السوداء من أجل العمل فى مزارع قصب السكر والقطن . وكانت تجارة الرقيق الأسود موجودة قبل فترة الاكتشاف الكبرى ، ويمارسونها إما عن طريق المسلمين فى الأندلس وإما عن طريق البنادقة ، الذين كانوا يزودون بعض بلاد البحر المتوسط بالعبيد القادمين من منطقة النيجر عبر الصحراء وبلاد شمال افريقية . ولكن البرتغاليين أعطوا هذه التجارة توسعاً لم تشهده من قبل . فاصبحت جزيرة سان تومى ، على ساحل جامبيا ، بالنسبة اليهم ومنذ بداية القرن ، المركز الرئيسى لتجارة العبيد . وخلال فترة من الوقت ، كانوا ينقلون الزنوج إلى جزر الأنتيل فقط : أما فى البرازيل ،فقد فضلوا فى أول الأمر استخدام الأيدى العاملة من الوطنيين . ولكن سرعان ما تأكدوا ، فى كل مكان ، من ضعف المقاومة الجثمانية عند الهنود الحمر . وساد الاعتقاد فى أن عمل أحد الزنوج يساوى عمل أربعة من الهنود . ولذلك فإن تجارة الرقيق قد ازدهرت منذ قبيل وسط القرن . وحينئذ بدأت تلك العملية الضخمة لنقل السكان ، وهى من أكبر العمليات التى ذكرها التاريخ ، وكانت عبارة عن نقل مستمر للدماء خلال عدة قرون بين إفريقية وأمريكا .

ومن الرجال نحو الآن إلى السلع وإلى النقود . ولما كانت تجارة التوابل قد غيرت طريقها صوب لشبونة ، فإن نشاط البندقية قد أصيب إصابة خطيرة . وأدى ذلك إلى أن تموت ، شيئاً فشيئاً ، تلك التيارات التجارية التى كانت البندقية تشعها ، عبر جبال الألب ، صوب وسط القارة وقرب عام ١٥٤٥ ، وحين بدأ فى بيرو إستغلال مناجم بوتوسى ، وهى أكبر وأغنى مناجم عرفها العالم ، بدأت كميات الفضة التى تصل إلى إسبانيا ، فى الإنتشار سريعاً فيما وراء حدودها . وبعد أن كانت أوربا قد إشتكت من نقص المعادن النفيسة ، أصبح لديها أكثر مما تحتاجه . وقاست بدرجة أكبر من زيادة وفرة هذه المعادن عما قاسته من نقصها . وكان الارتفاع العام للاسعار ، والذى نتج عن ذلك ، وبدرجات متفاوتة ، مصدر خوف للدول وللأفراد أثناء كل النصف الثانى من القرن السادس عشر .

وكانت قوة الشراء ، التى ليس لها مثيل ،والتى حصل عليها سكان شبه جزيرة أيبيريا ، وبصفتهم مسيطرين على سوق الذهب والفضة فى نفس الوقت الذى يسيطرون فيه على سوق التوابل ، يجذب اليهم السلع من كل البلاد . وأصبحت شبه الجزيرة مركزاً يستهوى كل التجارة الاوربية . وعمل إرتفاع الأسعار فى نفس الإتجاه . إذ أنه كان ، بطبيعة الحال ، قد بدأ فيها : أما فى البلاد الأخرى ، فانه كان أقل وضوحاً ، وكان أكثر تأخراً ، زمنيا ،بنوع خاص . ونتج عن ذلك إختلاف واضح بين الأسعار التى يمارسون بها البيع والشراء فى الدول المختلفة . وكان الأمر ملموساً بصفة خاصة فى شرق وفى شمال القارة ، إذ أن موجة إرتفاع الأسعار كانت تنتشر ببطء ابتداء من الجنوب الغربى . وهذا يشرح ، جزئياً على الأقل ، تلك الأهمية التى حصلت عليها ، قرب نهاية القرن ، تجارة البلاد المطلة على بحر البلطيق مع اسبانيا ودول البحر المتوسط ، وبخاصة تجارة الحبوب .

وهذه التجارة سوف يستولى عليها الهولنديون فى نفس الوقت الذى يستولون فيه على تجارة التوابل .

ولم تكن التجارة مع البلاد البعيدة تشتمل على مزايا فقط. ذلك أن الآسيويين كانوا من المغرمين بجمع الكنوز وبدا ، فى الربع الأخير من القرن ، أن الشرق الأقصى كان قد أصبح ، وعلى حد قول أحد المؤرخين ، مقبرة أو مدفن المعادن النفيسة . فتلك العملات التى كانت ترسل إلى الفلبين لدفع أثمان المشتروات التى تتم على القارة — وبخاصة من الحرير — لم تكن ترجع أبداً . وبعد فترة من الزمن ، وفى السنوات الأخيرة من القرن ، اضطر فيليب الثانى إلى أن يحد من تصدير المعدن الأبيض ، والذى كان هو المعدن الوحيد تقريباً الذى يستخدم فى التبادل مع آسيا .

الفصل الرابع

مشكلات البحر المتوسط

إن إسبانيا ، التى كانت فى طريقها إلى الحصول على الطرق الرئيسية فى المحيط ، هى كذلك إحدى الدول العظمى الرئيسية التى تهتم بالصراع الذى يحدث فى البحر المتوسط . ولكنها لم تكن الدولة الأولى ، وعلى الأقل فى بداية القرن . وكانت قواتها البحرية مشغولة إلى درجة كبيرة فى أماكن أخرى ، وبشكل لا يسمح لها بأن تمارس فى البحر المتوسط عملا حاسماً ، ولذلك فإن الدور سوف يتم بين البندقية والعثمانيين ، وهو الدور الذى يتوقف عليه مصير السواحل ، والجزر ، وإلى درجة ما ، مصير أوربا كلها .

١ ـ البندقية والدولة العثمانية :

كانت البندقية تتمتع بأولوية ، وبدون نقاش ، فى ميدان الشئون البحرية ، وبعدد سفنها ــ الحربية وسفن النقل ــ التى كان فى وسعها أن تصففها ، كانت تتفوق ، وبكثير ، على منافستها القديمة ، جنوا ، وعلى عدوتها فى كل وقت ، الإمبراطورية العثمانية . وفى بحر إيجه ، وعلى القارة ، وفى المورة ، كان قد وصل بها الأمر إلى موقف الدفاع عن نفسها،وأخذت فى التراجع والانسحاب ، خطوة بعد خطوة . ولكنها كانت لاتزال صامدة فى بحر الادرياتيك ، وكانت تحتفظ بكل المواقع الهامة على الساحل الشرقى ، من سبالاتو وزارا حتى الجزر الإيونية.وكانت تشعر ، هناك ، بأنها فى أملاكها فكانت أشياءها ، « وخليجها » . وكانت تدعى أنها تحكم هناك ، وبمفردها . وكان هذا هو ما يدل عليه ذلك الإحتفال التقليدي « لتزاوج » الدوج مع البحر . ذلك أن كل دوج جديد

منتخب كان يركب سفينة فخمة ، يجهزها على حسابه ، ويذهب بهما إلى نهاية ممر الليدو ، والذى يؤدى إلى أعالى البحر ، وهناك يلقى بين أمواج البحر خاتما ، أو حلقة ، من الذهب ، قائلا هذه العبارة : « إننا نتزوج بك . أيها البحر ، كدليل على السيطرة الفعلية والدائمة » . وكان البنادقة يسمحون لأنفسهم حتى بأن يثبتوا سيطرتهم عن طريق إجبار السفن ، التى تغامر بالدخول إلى بحر الأدرياتيك دون الحصول على تصريح منهم ، بفرض الضرائب عليها . وكان جيرانهم الذى يمكننا أن نذكر من بينهم ، وفى أول مكان ، جمهورية راجوزة المستقله والصغـــيرة ، ينحنون ، رغما عنهم ، أمام هذا الطغيان الشامل .

وكانت البندقية ، القابعة وراء المياه الضحلة . تقاسى من مشكلات التموين التى كان من نتائجها أن تضعها تحت رحمة أعدائها ، وكانت ممتلكاتها القارية — أو على الأرض الصلبة — قليلة الإتساع ، ولم تكن تكفى ، ومن بعيـد ، باعطائها الحبوب التى كان شعبها الكبير يحتاج إليها . ورغم الغزوات العثمانية ، فإنها لم تكف عن إحضارها ، وبالتفضيل « من جنوب روسيا ، أو من البلاد البلقانية . وكان منع التصدير ، فى وقت الحرب ، يهددها بخطر المجاعة . وكان هذا هو سبب الحذر الكبير الذى كان البنادقة يظهرونه فى علاقاتهم مع القسطنطينية ، وحيث كانوا يحتفظون بأحد القناصل ، « البايلى » ، والذى كان يعتـــبر ممثلا دبلوماسيا دائما لهم هناك ، ولم يكن الاغراء يؤثر فيهم لكى تسيطر عليهم فكرة الحروب الصليبية ؛ فلم يعد لهذه الفكرة قواعد عندهم ، وكان أولئك الذين لايحبونهم يتهمونهم بأنهم قد إتفقوا مع العثمانيين (الكفار) . وكان الكرسى البابوى هو أولهم ، أو من بين الأولين منهم ، الذين وجهوا إليهم هذا الإتهام . وكانت هناك . فى حقيقة الأمر ، أسبابا خاصة للحنق منهم : إذ أنه فى منطقـــة رومانا ، المجاورة لممتلكات البندقية ، كان البابا يشكو باستمرار من اعتداءاتها ، وعلى حساب حقوق سيادته .

وكان لعثمانيون أكثر تعودا على القيام بالحرب على البر من قيامهم بها على البحر ، وكانت جيوشهم أكثر تفوقا من أساطيلهم ، وكانت أكثر تدريبا ، وأكثر تزودا بالمدفعية ، ولذلك ، فإن تقدمهم فى البحر المتوسط كان أكثر بطءا من تقدمهم على القارة ، وعند نهاية القرن الخامس عشر ، وفى الوقت الذى كانوا قد وصلوا فيه إلى نهر الساف والدانوب ، وإستلوا فيه على البانيا ودلماشيا ، وكانوا يحاولون فيه الاستيلاء على السواحل القريبة ، من البنادقة . كانوا لم يسيطروا بعد إلا على جزء صغير من الجزر (كانت ناكسوس، وأندروس تابعة لأسر من البندقية ، وكانت خيوس تابعة لأسرة من جنوا) . أما الجزر الأخرى الأكثر وقوعا إلى الجنوب . فكانت لاتزال مسيحية . فكانت رودس تابعة لجماعة فرسان القديس يوحنا ، وقبرص وكريت تابعة للبندقية . وإذا ماقاموا ببعض الحملات البحرية ، فإن الروح التى تحركهم كانت هى روح القراصنة أكثر من كونها روح الغزاة ؛ فكانوا يهتمون بالقيام بحملات سريعة على المناطق الساحلية ، وبنوع خاص فى إيطاليا ، والتى كان يمكن العودة منها بالغنائم والأسلاب . وكانت الأقاليم التى يمثلونها فى أوروبا درجة من الثروة وبشكل لايجعلهم يشعرون بضرورة العمل على زيادة عدد هذه الاقاليم أو زيادة مساحتها ، وكان الانكشارية ، الذين يمثلون العصب الأساسى فى قواتهم المسلحة، جنود لهم مطالبهم ، ولايعملون إلا بالغزو والسلب ، وكان بقاءهم بدون عمل ينمى فيهم غرائز اضطراب خطيرة . وعلاوة على ذلك ، فقد كانت هناك الاحتياجات الداخلية للدول ، كما كانت هناك الميول الخاصة بكل سلطان ، أو بكل صدر أعظم ، والذى كان يقرر مايلزم بالنسبة للسياسة الخارجية ، وفى إتجاه السلم أو الحرب .

والإمبراطورية العثمانية ، رغم العداء ، من حيث المبدأ ، والذى كان يضمره

لها العالم المسيحى ، نجحت فى أن تقبل فى مجتمع الدول الأوروبية . فدخلت الدول العظمى ، الواحدة بعد الأخرى ، فى علاقات معها ،من أجل المحافظة على مصالحها الخاصة . والكرسى البابوى ، والذى كان فى منتهى القسوة مع البنادقة ، لم يحرم نفسه مع ذلك ، وحين كانت الفرصة تسنح ، من أن يستوحى من سلوك هذه الدول وقام كل من إنوسنت الثامن ، وإسكندر السادس بتحييد السلطان بايزيد بكل حكمة . باستقبالهم فى روما أخاه جم ، والذى كان فيما مضى منافساً خطيراً له، والذى لم يكن قد تخلى عن كل أطماعه فى السلطنة . ولما كان بايزيد يخشى من رؤية عودته فى الشرق ، فانه حصل من البابا على أن يحتفظ به عن قرب . ودفع معاشاً سنوياً للاحتفاظ به . وبهذه الطريقة تمكننا من أن نرى ، فى عام ١٤٩٠ ، ولأول مرة ، سفيراً عثمانيا يستقبل فى الفاتيكان ولم يتوقف أسكندر السادس فى هذا الطريق . بل لقد وصل به الأمر إلى أن يوصى السلطان بمصالح ملك نابولى، والتى كانت مشروعات شارل الثامن تهددها .

أما الفرنسيون فانه لم يعد لهم ، فى البحر المتوسط ، ذلك المكان الذى كانوا يحتلونه وقت الحروب الصليبية . وكانوا قد تركوا قوتهم البحرية تنهار . وإضطر شارل الثامن ، من أجل أن يتمكن من تموين جيشه فى نابولى ، إلى أن يستعير بعض السفن من أبناء جنوا ، ومن البرتغاليين . أما التجارة البسيطة التى كانت موجودة مع الخارج فى موانى لانجدوك وبروفانس فإنها كانت فى أيدى البنادقة . أما أيج مورت ، فإنها بدأت فى فقد مكانتها ، وفى صالح مرسيليا ، التى كانت قد إنضمت إلى المملكة منذ وقت قريب .

٢ـ مصر وشمال إفريقية ـ الجهاد البحرى :

بينما كانت المحيطات تنفتح أمام الغزاة الجدد ، إستمر البحر المتوسط فى أن

يكون ، كما كان دائماً ، صلة ربط بين سكان السواحل المطلة عليه ومركزاً كبيراً للمبادلات الدولية . ومع ذلك فإنه مال، أكثر مما سبق ، إلى أن يصبح ميداناً للمعارك . وكان إندفاع نشاط رجال الجهاد البحرى من شمال إفريقية يساعد على تقليل أهمية الأنشطة السلمية .

وكان رجال شمال إفريقية قد إحتفظوا دائماً فى موانيهم ، وبخاصة فى بجاية ، بسفن خفيفة ، كانت مهمتها أن تقوم بإبعاد سفن المسيحيين ، ومحاربتهم . ولقد زاد عدد رجال البحر ، والجهاد البحرى بنوع خاص عند السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، كنتيجة لسقوط غرناطة . وكان أولئك المغاربة الذين إختاروا أن يتركوا الأرض الاندلسية قد التجئوا إلى السواحل القريبة منهم . وإستمر الكثيرون من بينهم فى الكفاح ضد العدو التقليدى ، وذلك بتعقب سفنه التى تسافر فى البحر ، وبمحاولة إنقاذ الباقين من بينهم ، والذين خرجوا من ديارهم، وتعقبهم الاسبان فى سفنهم . وقاموا علاوة على ذلك بتنظيم هجمات على سواحل شبه الجزيرة الايبيرية (١) . وحين قام بعض رجال الجهاد البحرى ، من أصل عثمانى ، بتدعيم تمركزهم فى الجزائر ، فى عام ١٥١٦ ، التجأ اليهـــم الكثير من البحارة ورجال الجهاد البحرى من الموانى والسواحل المجاورة . ونشأت دولة جديدة قوية بامكانياتها البحرية،وأنشأت أسطولا جعل منها دولة عظمى بحرية ، فى البحر المتوسط . ولقد طلبت وحصلت على إنضمامها إلى الدولة العثمانيـة ، وأصبحت الصف الأول فى خط النار للدولة العثمانية فى الحوض الغربى للبحر

---

(١) لزيادة الاطلاع أنظر : د. جلال يحيى : المغرب الكبير ، الجزء الثالث ، المجلد الأول ، الباب الأول .
الإسكندرية ، الدار القومية ، ١٩٦٦ .

المتوسط . وظلت فى هذا الاتحاد معها ، ومن أجل الجهاد ، مدة ثلاثة قرون ، حتى وإن كانت سيادة السلطان العثمانى قد أصبحت أسمية فى بعض الفترات .

وكان ظهور هذه الدولة على السواحل الإفريقية ،وبصفتها قوة بحرية ، يثير خوف وحقد المتطرفين من بين المسيحيين . فبعد أن طردوا المسلمين من الاندلس وجاء رد الفعل هذا ، وجدوا أن أمن ملاحتهم قد إضطرب فى البحر المتوسط . وإنتشرت الهجمات والضربات فى كل مكان . وزاد عدد الأسرى من المسيحيين فى مدن طرابلس ، وتونس ، والجزائر . وكانت على هؤلاء الأسرى أن ينتظروا قيام أقربائهم بدفع الفدية المحددة لكل منهم ، أو أن يقوم رجال الدين ، من آباء الرحمة ، بالمجىء والقيام ببعض عمليات الشراء الجماعية من بينهم . أما الأسرى من المسلمين ، فكانوا يجبرون على التجديف فى سفن الدول المسيحية ، وكانت كل دولة تحتفظ بعدة آلاف منهم ، وترفض مبادلتهم بالأسرى المسيحيين، إذ أنهم كانوا لا يمكن الإستغناء عنهم بالنسبة لهذه الأساطيل .

وفى الوقت الذى كان العالم المسيحى يشعر فيه بضرورة الوصول إلى وحدة كلمته ، وإتحاد قواته ضد المسلمين ، كان يجد نفسه منقسما على بعضه ، وأكثر من أى وقت مضى . أما أولئك الذين كانوا ، فى الماضى ،يقدمون للحملات الصليبية أكبر عدد من الجهود ، فانهم كانوا يقيسون قوتهم ضد بعضهم فى حروب لا تنتهى من أجل السيطرة على إيطاليا . ولذلك فإن البندقية لم تتمكن من أن تعتمد على أية معونة حين هاجمها العثمانيون فى عام ١٤٩٨ . وكان من الضرورى أن يتوغل الغزاة ويصلون حتى أسوار البندقية ، لكى توافق روما على أن يصيبها القلق . وعندئذ صدر النداء التقليدى بضرورة القيام بحرب صليبية ، وتجاوبت أصداءه نواحى العالم الغربى المسيحى .وكان ملك واحد وهو ملك فرنسا ،هو الذى إنتهى

به الأمر إلى الاستجابة لهذا النداء . وفى عام ١٥٠١ ، شارك الأسطول الذى أرسله لوى الثانى عشر فى الهجوم الفاشل على ميتيلين ، عاصمة جزيرة ليسبوس . وكانت هذه هى المحاولة الأخيرة للقيام بحرب صليبية ، قبل عصبة ١٥٧٠ وموقعة ليبانتو . وكذلك فى عام ١٥١٦ وعد فرانسوا الأول البابا ليون العاشر بالقيام بحملة صليبية . وقاموا باستعدادات ضخمة فى ممتلكات روما . ولكن الظروف المضطربة فى ذلك الوقت شلت كل نية حسنة للعمل .

وحتى ذلك الوقت ، كان العثمانيون يشتبكون فقط ، وفى البحر المتوسط ، مع البنادقة ، ومع ممتلكاتهم . وكانت الحرب التى إنتهت فى عام ١٥٠٣ قد أعطتهم مودون ، وكورون ، وهما قاعدتين هامتين فى شبه جزيرة المورة . ولكنهم سيتجهون فى عهد سليم الأول (١٥١٢ — ١٥٢٠) صوب الجنوب . وسيحصلون هناك على نجاح ضخم : بغزو مصر ، وفرض حمايتهم على الجزائر .

وكانت حكومة مصر مستقلة ، وتحت حكم سلاطين المماليك . وكان العثمانيون والمماليك قد تواجها من قبل ، فى عام ١٤٨١ ، وفى عام ١٤٩١ ، ولكن بدون نتيجة حاسمة . وبدأ الصراع النهائى فى عام ١٥١٦ . ومات السلطان الغورى فى موقعة مرج دابق التى فتحت أمام العثمانيين أقاليم الشام . ولم تعد هناك مقاومة ممكنة من جانب المماليك إلا قرب القاهرة . وأصبحت مصر ، وأقاليمها التابعة لها من أقاليم الدولة العثمانية (١) . كما خضعت بلاد العرب ، والحجاز ، مع مدن مكة

---

(١) لزيادة الاطلاع أنظر :

د. جلال يحيى : مصر الحديثة . الجزء الاول (١٥١٧ — ١٨٠٥) .

الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٦٨ .

والمدينة ، لسيادة السلطان . وأصبح السلطان العثمانى يعين أحد الباشاوات ، من إستانبول ، لحكم مصر .

وأصبحت سواحل البحر المتوسط عثمانية ، فى ثلثيها : ومن بين كل البلاد الإسلامية ، وإحتفظ المغرب وحده ، وبكل غيرة ، باستقلاله . وكان المغرب منقسما على نفسه إلى إمارات وسلطنات . ولكن سرعان ما يقوم بتوحيد بلاده تحت حكم أسرة جديدة أتت من الجنوب ، وهى أسرة الشرفاء السعديين .

وكان البرتغاليون قد وضعوا أقدامهم فى المغرب منذ أواسط القرن الخامس عشر . وكانوا قد إحتلوا أولا سبته ، المواجهة لجبل طارق ، ثم أصيلة ، وطنجة، والعرايش . وفى السنوات الأولى من القرن السادس عشر ، استقروا فى مواقع مختلفة على سواحل المحيط الأطلسى ، وحيث نشأت ، من بعد مدن أغادير ، وموجادور . وكان إنشاء قلعة فى آسفى ، فى عام ١٥٠٧ ، يمثل نهاية نجاحهم . أما أولئك الاسبانيين الذين نزلوا بعدهم على سواحل المغرب ، فإنهم إستمروا لعدة سنوات أخرى . وكانوا مرتبطين معهم بمعاهدة ١٤٩٧ ، فلم يتدخلوا فى المغرب ، الذى احتفظ به جيرانهم لأنفسهم ، ولكنهم تدخلوا إلى الشرق أكثر من ذلك . وكانت مليلة ، منذ عام ١٤٩٧ ، هى أول مركز **Presidios** إفريقى لهم . ثم كان بعد ذلك المرسى الكبير فى عام ١٥٠٥ ، ووهران فى عام ١٥٠٩ ، وبجاية وطرابلس فى عام ١٥١٠ . ولكى يرهبوا رجال الجزائر قاموا فى عام ١٥١٥ ببناء قلعة فى الجزيرة الصغيرة القريبة من الساحل ، والتى تتحكم فى مدخل الميناء ، ووضعوا حامية إسبانية فيها . وعندئذ دعا أبناء الجزائر ، ورجال الجهاد البحرى ، المجاهد البحرى عروج لتولى السلطة فى الجزائر . وكان عروج من

رؤساء البحر المجاهدين ، وكانت قاعدته فى جزيرة جربة ، على الساحل التونسى ، وكانت له مراكز فى جيجلى ، فى المغرب الأوسط .

وبضربة سريعة ، قام عروج بالاستيلاء على تلمسان ، عاصمة سلطنة صغيرة فى الداخل ، وقرب حدود المغرب الأقصى، بعد أن كانت قد قبلت الحماية الاسبانية عليها . ولكنه قتل فى معركة مع حامية وهران الاسبانية قرب تلمسان . وتولى أخوه خير الدين ، المعروف بأسم بربا روسا (أى ذى اللحية الحمراء) السلطة من بعده . ولكى يتمكن من الوقوف فى وجه الاسبانيين، إستنجد بالدولة العثمانية، وعلى أساس إتحاد الجزائر معها فى جهـــادها الاسلامى ضد الدول المسيحية . وحصل على لقب بكلربيك (أى بيك البكوات) ، الذى جعله ممثلا للسلطان فى كل أقاليم شمال إفريقية . وكانت الصعوبات تواجهه فى أول الأمر . ولكنه تمكن فى عام ١٥٢٠ . من أن يحرر مدينة الجزائر بجيش أتى به من الداخل ثم أعاد المدينة إلى سلطته فى عام ١٥٢٥ . وفى عام ١٥٢٩ فشلت أساطيل شارل الخامس فى منع الجزائريين من الاستيلاء على الجزيرة الصغيرة المواجهة للساحل ، وهدم الحصن الذى بنى عليها . وكان هذا الفشل الذريع من جانب الاسبان لا يمكن علاجه .

وبينما فشل الامبراطور بهذه الطريقة فى إحتواء وفى ضرب قوة أخطر رجال الجهاد البحرى فى شمال إفريقية ، نجح على العكس من ذلك فى تدعيم السيطرة الاسبانية على شبه الجزيرة الإيطالية لفترة طويلة .

وكان مصير جنوا هو الذى قرر الأمر . فكانت جنوا ، كدولة فقدت قوتها ، لا تزال تحتفظ بأساطيلها ، التى كان فى وسعها أن تعاون أولئك الذين كانوا يرغبون فى تدعيم الموقف فى الحوض الغربى للبحر المتوسط . ومنذ عام

١٤٩٩ ،كانت هذه الجمهورية قد دخلت فى مجموع عملاء، أو حتى التابعين لفرنسا .
وحين قام الاسبانيون بالاستيلاء عليها ، فى عام ١٥٢٢ ، قام أمير البحر الشهير ،
أندريا دوريا Andria Doria ، بالعمل لحساب فرانسوا الأول ، مع السفن
التابعة له . واستمر لمدة ست سنوات فى خدمة المصالح الفرنسية فى إيطاليا :
فكان يحارب ضد الاسبانيين ، دون أن يتوقف عن محاربة أعدائه التقليديين ،
رجال الجهاد البحرى فى شمال إفريقية . ثم ترك نفسه ، فى عام ١٥٢٨ ،
يخضع لإغراء عروض شارل الخامس : ودخل فى خدمته . ونتيجة لتأييد
وتدعيم السفن الحربية الخاصة بجنوا ، أصبحت الأساطيل الاسبانية تسيطر منذ
ذلك الوقت على كل الطرق البحرية المؤدية إلى إيطاليا .وكان هناك جيش فرنسى ،
بقيادة لوتريك Lautrec يحتفظ بنابولى المحاصرة ولكنه إضطر إلى الإنسحاب ،
وأنزل به خسائر فادحة فى أثناء عملية التقهقر .

وكان تحول أندريا دوريا يمثل منعطف واضح فى تاريخ الحروب الإيطالية .
وسمح دوريا لفرانسوا الأول بالبقاء فى بعض مواقع شبه الجزيرة . وقال
براتوم Bratôme : « ما دام فى خدمته ، فإن الملك كان سيد البحر ، بنفس
درجة سيادة الامبراطور ، ومنذ ذلك الوقت ، وربما بدرجة أفضل : إذ أن
من لا يسيطر على جنوا ، ويسود على البحر لا يمكنه أبداً أن يحكم إيطاليا » .
ولكى يعيدوا إصلاح الأوضاع التى تأثرت ، كان من الضرورى أن يجدوا فى
مكان آخر تلك القوات البحرية التى لم تكن موجودة عند المملكة ، ولم يكن فى
وسعهم أن يلتجئوا إلا القسطنطينيه أو إلى الجزائر : فالبندقية التى كانت أراضيها
فى فريول ، تجاور أراضى الهابسبورج ، لم يكن فى وسعها أن تخاطر بإغضاب
الامبراطور . وكانت هناك بعض إتصالات قد تمت بين فرنسا وبين السلطان .

وزادت فى عددها بعد عام ١٥٢٩ . ورأى خير الدين باشا فى نفس الوقت بدأ مفاتحات معه ، من جانب الدبلوماسية الفرنسية : ووافق فى عام ١٥٢٤ على عقد هدنة لمدة ثلاث سنوات . وفى العام التالى ، حصل السفير جان دى لا فوريست Jean de La Forest على الوعد ، الذى طال إنتظاره ، بتعاون العثمانيين وأتباعهم من رجال شمال افريقية ضد الاسبانيين . ومن ناحية أخرى ، لم يكن هناك تحالف رسمى . فكانوا لا يرغبون فيه ، من هذا الجانب أو ذاك ، والأسباب معنوية ، يسهل معرفتها ؛ وكان من الواجب عدم وجوده أبداً . ولكن هذا الأمر لم ينقص من ضخامة هذا النجاح بالنسبة للفرنسيين ، حتى فيما يتعلق بأنهم من يصطدموا بعد ذلك بعداوة الأساطيل الإسلامية ، وبأنهم سيحصلون على تأييد هذه الأساطيل لهم فى الوقت المناسب . وسترى ، فى أثناء الحرب الجديدة بين فرنسا والإمبراطورية ، والتى بدأت فى عام ١٥٣٦ ، ولأول مرة ، أن السفن الفرنسية تشترك مع سفن رجال البحر الجزائريين فى الهجوم على جزر البليار وعلى سواحل إسبانيا .

وكان السلطان العثمانى ، سليمان ، قد عين خير الدين قبطان باشا أى قائداً عاماً على أمراء البحر فى الامبراطورية العثمانية ، وذلك وقت زيارته لإستانبول فى عام ١٥٣٣ . وتبعاً لتوجيهات خير الدين باشا ، زادت قوة الاسطول العثمانى . وكان أمله الكبير يتمثل فى أن يسيطر على تونس ، وتمكن من تحقيقه فى عام ١٥٣٤ . وكان الموقع فى منتهى الأهمية ، وكان رد الفعل مباشراً ، وقبل أن يمر عام على ذلك ، قام شارل الخامس على رأس حملة أعادت سلطان بنى حفص المعزول إلى سلطنته . وتركت حامية إسبانية فى حلق الواد . لكى تدافع عنه . وكان هذا النجاح الكبير هو أول نجاح يحرزه الامبراطور على رجال البحر فى شمال إفريقية . ولم تسنح له أية فرصة لقياس قوته بقوة العثمانيين أنفسهم .

٣ ـ العثمانيون والاسبان :

عرفت القوة العثمانية ، فى عصر السلطان سليمان ، نشاطاً لم تعرفه من قبل . وكبداية العملية ، قام السلطان الجديد باستيلاء على رودس . وتمكن بمساعدة سفن الأسطول المصرى من أن يسيطر على عاصمة جماعة الفرسان بعد حصار دام مدة ستة أشهر (١٥٢٢) . ووجدت الجماعة ملجأ ، ونتيجة لكرم شارل الخامس ، فى إحدى الجزر شبه المهجورة ، والتى كانت تابعة لمملكة نابولى ، فى مالطة ، وحيث ظلت موجودة لفترة تقرب من ثلاثة قرون . وفى أثناء السنوات التالية ، وبينما كانت جيوش سليمان تغزوا المجر ، وعبرت مرتين الحدود النمسوية ، إمتنعوا عن القيام بأية مشروعات جديدة على البحر . وبعد ذلك ، وإبتداء من عام ١٥٣٧ ، إنتهت فترة العمليات الكبرى على القارة ، ونشطت جبهة البحر من جديد . ومرة جديدة نجد أن الدولة العثمانية تحاول التوسع على حساب البندقية . وتتمثل المرحلة الرئيسية للمعركة فى لقاء ، عند مدخل خليج آرتا ، وأمام قلعة بريفيزا (٢٧ سبتمبر ١٥٣٨) بين القوات العثمانية وقوات شمال إفريقية من جانب ، وقوات البندقية التى تساعدها بعض وحدات من البابوية والامبراطورية ، من جانب آخر . وكان إندريا دوريا هو قائد المسيحيين وإضطر إلى أن ينسحب من أمام خصمه العنيد ، خير الدين باشا ، وإضطر البنادقة إلى التفاوض فى عام ١٥٤٠ ، وتخلوا عن المواقع الأخيرة التى كانت قد بقت لهم فى الأرخبيل (باتموس ، سيا ، باروس وغيرها) ، وفى المورة (نوفلى ومونمفاسيا) .

وفى هذا الوقت كان فرانسوا الأول قد تصالح مع شارل الخامس ، أو إعتقد فى ذلك على الأقل . وإحتفظ بنفسه ، وبمملكه ، بعيدا عن هذا الصدام بين العثمانيين والبنادقة ، ، إن لم يكن ذلك يهدف التدخل كوسيط بينهما . ولكنه وجد نفسه ، منذ عام ١٥٤٢ ، فى حرب مرة أخرى ، وللمرة الرابعة . وكانت هذه فرصة تسمح

لأصدقائه الجدد بأن يظهروا ماهم قادرون عليه . وفى العام الأول ، قاد خير الدين باشا بعض السفن الحربية إلى ساحل بروفانس . ثم قام جيش وأسطول عثمانيين ، ودائماً تحت قيادة خير الدين باشا ، فى شتاء ١٥٤٣ — ١٥٤٤ ، بالاشتراك فى الاستيلاء على نيس ، والتى كانت تابعة لسافوا ، ثم جاءوا للاقامة فى طولون . وظلت المدينة ، التى كانت قد أخليت مسبقاً من كل سكانها ، تحت تصرفهم خلال بضعة أشهر ، أمام دهشة كل العالم المسيحى . وتم التوصل إلى الصلح فى عام ١٥٤٤ ، ولم تتجدد مثل هذه الظاهرة الخاصة برفقة الأسلحة الفرنسية والعثمانية بعد ذلك .

وفى إفريقية، إستمر الصراع بين الاسبانيين وبين رجال المغرب الإسلامى . وحاول كل من الخصوم أن يسجل ، بدوره ، بعض النقاط . فالامبراطور،وبعد إعادة غزو تونس ، إعتقد فى أنه من الممكن فصل خير الدين باشا عن السلطان سليمان ، ووضع إتفاق إسبانى إفريقى فى مواجهة تفاهم فرانسوا الأول مع سليمان . وتفاوض بطريق غير رسمى فى هذا الاتجاه ولمدة عدة سنوات . وحين تبين عدم جدوى مجهوداته ، قرر أن يفيد من الصلح المعقود مؤقتا على القارة من أجل العمل على الاستيلاء على مدينة الجزائر . ولكن العملية التى بدأت فى الخريف ، فشلت (١٥٤١) . وبعد عشر سنوات ، كانت مسألة إفريقية ، أو المهدية . وكان هذا الموقع الحصين من الساحل التونسى فى أيدى طرغوت ، أحد أمراء الجهاد البحرى ، والذى كان يتخذ جزيرة جربة ، مثله فى ذلك مثل عروج ، قاعدة له . وكان حظ أندريا دوريا هنا أحسن منه فى تونس : فاستولى على الموقع بسرعة . ولن يمر وقت طويل قبل أن يقوم باخلائه ، وهدمه، بأمر من شارل الخامس . وفى العام التالى سيتمكن خليفة خير الدين باشا من إخضاع حاكم تلمسان،للجزائر ، بعد أن كان يدفع الجزية لاسبانيا . وتمكن من الاستيلاء على بجاية فى

عام ١٥٥٥ وقضى على أحدا لجيوش الاسبانية عند مستغانم فى عام ١٥٥٨ :

وظلت فرنسا فى عهد هنرى الثانى ، وكما كانت عليه فى عهد فرانسوا الأول ، مرتبطة بالصداقة مع الدولة العثمانية . ورغم أنها كانت ، وللمرة الأولى منذ بداية القرن ، قد أخذت فى بناء عدد كبير من السفن ، إلا إنها استمرت فى الاستعانة بالأساطيل العثمانية . وكانت الحروب الجديدة ضد شارل الخامس ، وهى الأخيرة ، والتى بدأت فى عام ١٥٥٢ بالاستيلاء على ميتز وتول وفردان ، تشتمل على مجموعة من العمليات فى البحر المتوسط وكان هناك عدم تجاوب فى أثناء العام الأول منها : ذلك أن الأسطول الفرنسى المكلف بالتعاون مع العثمانيين عند سواحل إيطاليا ، وأخذ فى البحث عنهم لفترة طويلة . ثم تقابل معهم بعد ذلك عند الجزر الايونية ، قرر أن يقضى فصل الشتاء فى جزيرة خيوس . وفى عام ١٥٥٣ توجهت كل القوات التى أعيد تجميعها صوب جزيرة كورسيكا ، وكانت من أملاك جنوا ، والتى تم الاستيلاء عليها فى مدة شهر . وكانت هذه العملية تدل على نجاح «عمليات مشتركة» ، ومع ذلك فإن طرغوت كان يشكو من أنه لا يقدر على القيام بالعمليات كما يرغب ، وكان قد أصبح قبطاناً باشا بعد خير الدين . وحين عاد إلى الظهور من جديد ، فى عام ١٥٥٥ ، إنسحب بعد بضعة أسابيع . وكذلك فى عام ١٥٥٨ ، وللمرة الأخيرة قبل عقد الصلح ، حضر اسطول عثمانى هام فى زيارة ودية لميناء طولون ، ولم يقم بأية عملية حربية .

ومع صلح كاتو كامبريسيس (١٥٥٩) إنتهت مرحلة من مراحل تاريخ البحر المتوسط وتاريخ القارة الاوربية . واضطر الفرنسيون إلى إعادة كورسيكا لجنوا وأصبح الاسبانيون هم سادة شبه الجزيرة . وكانوا يسيطرون ، فى غربها ، على كل المواقع البحرية الهامة : صقلية وسرديفيا ، ومملكة نابولى ، ومراكز توسكانيا . وكانوا قد أصبحوا أحراراً فى حركاتهم بعد الصلح ، وفى وسعهم بدء الهجوم

ضد البلاد الإسلامية العثمانية . وجاء دورهم لدفع قواعدهم إلى نقاط أبعد ، وفى إتجاه السواحل المعادية لهم .

وقام فيليب الثانى بالبدء فى إستعداداته منذ اليوم التالى للتوقيع على الصلح . وكان قد قلق من التهديد الذى يحوم حول نابولى. وكان فرسان القديس يوحنا قد قاموا ، فى عام ١٥٥١ ، بصد إحدى الهجمات . ولكنهم فقدوا طرابلس . والتى كان شارل الخامس قد أعطاها لهم ، فى نفس الوقت الذى أعطاهم فيه مالطة . وعين السلطان سليمان ،طرغوت باشا والياً على طرابلس. فقام فيليب الثانى بإرسال أسطول ، فى عام ١٥٦٠ ، ضد طرابلس ، وكان يضم سفناً اسبانية ، وبابوية ، ومن جنوا ، وفلورنسا ، ونابولى ومالطة . ومع ذلك فإن الأمر لم يتطور إلى ما هو أبعد من ذلك ، خاصة وأنهم وجدوا أن طرابلس تتمتع بنظام دفاعى قوى . فعادوا بعد ذلك صوب جربة ، والتى نزلوا إليها دون عناء كبير . وجاء الاسطول العثمانى فجأة : فقضى على الغزاة ، وهم متفرقون ، قضاءاً تاماً .

وبدا أن الملك الكاثوليكى كان يرغب فى الإفادة ، ويتعلم من هذه الكارثة : فأعطى كل عنايته ، ولفترة من الوقت ، لعملية إنشاء السفن . وقام فى عام ١٥٦٤ بالإستيلاء على الجزيرة الصغيرة المواجهة لميناء الحسيمة . وفى العام التالى ، وجه الاسطول العثمانى هجوماً جديداً على مالطة ، وتمكن من الاستيلاء على بعض المواقع فيها، ولكن سرعان ماظهر أسطول أسبانى، وأجبر العثمانيين على الانسحاب . وإنتشر فى هذا الوقت إسم دى لافاليت، رئيس جماعة الفرسان ، وكان فرنسيا ، وهو الذى أشرف على عمليات الدفاع . ووجه السلطان سليمان جهوده إلى ما بقى من جزر الارخبيل فى ملكية أسر البندقية ناكسوس وأندروس) أو أسر جنوا (خيوس) ، وضمها إلى السلطنة. ثم أرسل أسطوله إلى بحر الادرياتيك، بوحيث

قام بهجمات عديدة على سواحل نابولى ، وإن كانت الخسائر قد ظلت بسيطة .

ولقد قام سليم الثانى ، إبن السلطان سليمان وخليفته ، بتحويل مجهوده صوب قبرص ، القريبه منه . وفتح بذلك أزمة خطيرة بالنسبة للدولة العثمانية .ذلك أن البندقية لم تكن وحدها فى هذه المرة ، بل لقد كانت متحالفة مع إسبانيا ، خاصة وأن ثورات الموريسكيين الأخيرة كانت تلتقى تشجيعاً من إستانبول . حقيقة أنه كان هناك شك ،وحتى آخر وقت،فى إمكانيه إتمام الوفاق بين هاتين الدولتين ، اللتين كانت مصالحهما تتعارض فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، واللتين كانت كل منهما تنظر إلى الأخرى بعدم ثقة واضحة . وكتب سفير فيليب الثانى فى باريس فى بداية المفاوضات أن الفرنسيين كانوا يأملون فى عدم نجاح المفاوضات ، وكانوا يعتقدون أن البنادقة سيكونوا من كبار الأغبياء إذا ما وقعوا على مثل هذه الإتفاقية،وإذا لم يحافظوا على كامل حريتهم من أجل الإتفاق مع عدوهم الكبير ، الدولة العثمانية .وأن كل الفرنسيين كانوا يحاولون عرقلة أعمال « العصبة » ولكن المجهودات المستمرة من جانب البابا نجحت فى أثناء ذلك الوقت فى التغلب على كل الصعوبات ،وتم عقد ميثاق «العصبة المقدسة» فى روما يوم ٢٠ مايو ١٥٧١ . وكانت مفتوحة ، لكى ينضم إليها الجميع . ولكن غالبية الدول أجابت سلبياً على نداء بيو الخامس ، الذى إنضمت سفنه ، وحدها لسفن الإسبانيين والبنادقة .

وكانت الحرب قد بدأت منذ صيف عام ١٥٧٠ .وإستمر حصار فماجوستا ، وهو أقوى موقع فى جزيرة قبرص . لمدة عام كامل (من أغسطس ١٥٧٠ حتى أغسطس ١٥٧١) . وبينما كانوا لا يزالون يناقشون فى روما ، وقبل أن يتفقوا على شروط العمل الذى سيقومون به ، أسرع أحد الأساطيل بالقيام بمظاهرة عدائية فى بحر إيجه . وكان تحت قيادة مارك انطوان كولونا ، أحد سادة روما ،

ولكن شرف قيادة الأسطول الكبير ، الأرمادا ، الذى كان يتم إعداده ببطء فى صقلية عاد إلى أمير من أمراء إسبانيا ، وهو دون جوان صاحب النمسا ، وهو أخ غير شقيق لفيليب الثانى وأن يكون عليه أن يذهب للبحث عن العثمانيين فى داخل بحارهم . ذلك أن العثمانيين ، وبصفتهم أصحاب سيادة على البحر ، كانوا قد تقدموا حتى بحر الادرياتيك ، وأخذوا فى مهاجمة السواحل والجزر الموجودة هناك . ثم أمرهم ، قائدهم، على باشا ، باعطائهم فترة راحة عند مدخل خليج كورنت ، حين وصلت الأساطيل المتحالفة . وفى هذا المكان وقعت موقعة ليبانتو الحاسمة (٧ أكتوبر ١٥٧١) . وكانت نصرا مدوياً للدول المسيحية ، ولكنها كانت قد وقعت فى وقت متأخر وبشكل جعلهم يفشلون، مع قدوم الشتاء ، فى التمكن من إستغلالها . هذا علاوة على أن قبرص كانت قد وقعت ، فكان من الضرورى إعادة غزوها ، وكان هذا الأمر يتطلب التفكير . ولقد فكروا فى ذلك أثناء كل فصل الشتاء . وفى الربيع ، قرروا العودة للسفر فى إتجاه الشرق . ولكن العمليات كانت غير منظمة ، ولم تعط أية نتيجة ، خاصة وأن العثمانيين تهربوا من الدخول فى معارك . وفى عام ١٥٧٣ كان البنادقة قد فقدوا الأمل، ووافقوا على صلح مهزومين : فتخلوا فى نفس الوقت عن قبرص ، وعن المواقع التى كان العثمانيون قد أخذوها منهم ، فى ألبانيا وعلى سواحل دلماشيا .

ولم يتخل فيليب الثانى عن الصراع . ولكنه أعطاه هدفاً آخر، لم يكن قد تخلى عنه ، بينما كانت « العصبة المقدسة » مستمرة فى مداولاتها : وهو غزو تونس . وفى عام ١٥٦٩ ، كان الجزائريون تحت قيادة العلج على ، بكلربيك افريقية الجديد . قد أفادوا من الصعوبات التى تواجه خصمهم الكبير، والذى كان مشغولا بثورات الموريسكيين ، لكى يطردوا من تونس ذلك الأمير الذى كان تحت الحماية الإسبانية ، ويتركوا حامية لهم هناك . وعند نهاية عام ١٥٧٣ وصل دون جوان

على رأس أسطول ، واحتل تونس . وهذه المرة ترك فيها حامية إسبانية ، كما هو الحال فى حلق الواد . ولكنهم لم يحسبوا حساب العثمانيين، واعتقدوا أنهم مشغولين بالعمل على التخلص من الضربات التى كانت قد نزلت بهم فى ليبانتو . وفى صيف عام ١٥٧٤ . وقبل أن يكون دون جوان قد استعد للمعركة ، حضر أسطول ، مع جيش ، واستولى على تونس وعلى حلق الواد . وكانت أوربا ، فى دهشتها ، تنتظر رد فعل إسبانى سريع . ولكن فيليب الثانى كان يختلف عن شارل الخامس . وكان من أولئك الذين يستسلمون حين يكون الحظ فى غير جانبهم ؛ وسيظهر ذلك أكثر من مرة . وفقد الغرب المسيحى تونس ، وبشكل نهائى .

ومنذ ذلك الوقت . ولفترة طويلة ، لم تعد القوات البحرية التى تبحث عن بعضها البعض ، تسير فى البحر المتوسط . واتفق الخصمان الكبيران ، العثمانيون والاسبانيون . على وضع حد لهذا الصراع الذى لا يعطى شيئا ، والذى كلف كل منها من الخسائر أكثر مما أعطاه من انتصارات . وتم عقد هدنة فى عام ١٥٧٧ . وسيجددونها مرات عديدة حتى عام ١٥٩٣ . واستمر البابوات ، بمفردهم ، فى التفكير فى حملات صليبية . وافتخر البابا جريجورى الثامن فى بعض اللحظات، بأنه سيحصل على معونة إيران الرهيب .

وفى خلال كل هذه الفترة ، استمرت فرنسا فى رعاية الصداقة العثمانية ، ومن أجل المزايا الكبيرة لمصالحها التجارية . وكانت قد تبرأت من كل تضامن مع إسبانيا ، ورفضت فى عام ١٥٧٠ الإشتراك فى سياسة الحملة الصليبية . واعتقدت حتى فى أنه يمكنها الإفادة من المخاوف التى تسببت فيها معركة ليبانتو فى إفريقية . لكى تعرض على الجزائريين ملكا ، هو دوق آنجو ، أخو الملك . ولكن رفض إستانبول جعل المشروع يولد ميتا . وأصبحت العلاقات مشدودة بعد عام ١٥٨٥ ، بعد انتصار العصبة ، وسيطرة العناصر الموالية لإسبانيا على الحكومة . وفى ذلك

الوقت بدأ الجزائريون فى مهاجمة سواحل بروفانس . وأصبحت الملاحة على درجة من الصعوبة حتى أنها توقفت بشكل نهائى تقريبا - وعندما إنتهى عهد العصبة ، تغير الموقف من جديد : ورأينا ، فى عام ١٥٩٥ ، ونتيجة لنداء هنرى الرابع ، أن سفن أمراء البحر الجزائريين كانت تقوم بداوريات أمام مرسيليا لتمنع الاسبانيين من الوصول اليها .

وفى هذا التاريخ عادت العمليات الحربية من جديد ، من جانب العثمانيين ، على القارة ، وفى البحر المتوسط فى نفس اوقت . ولم تكن تمثل عمليات كبيرة ، بل كانت هناك هجمات على سواحل نابولى تتبعها عمليات إنتقام إسبانية على سواحل المورة ، وكان بحر الإدرياتيك قد وجد من يدافعون عن المسيحة بحرارة أكثر من البنادقة . وذلك فى مجموعة من الأهالى السلاف قرب سواحل دلماشيا . والذين كان الغزو العثمانى قد طردهم حتى إستيريا ، وحيث تركزوا حول ميناء سيجنا . فعاشوا على القرصنة ، وبدأوا بمطاردة العثمانيين ، ثم قاموا ، بعد حرب ١٥٧٠ — ١٥٧٣ بمحاربة البناقة كذلك . وقاموا . فى عام ١٥٩٦ بالاستيلاء على قلعة كليسا من العثمانيين ، مما تسبب فى إنتشار ضجة كبيرة فى أوربا . أما البندقية ، التى كانت تخشى دائما من غضب السلطان ، فإنها ساعدت العثمانيين من أجل إستعادة كليسا ، وذلك بحراستها السواحل لهم ، فكانت هذه فرصة جديدة يقوم فيها أعداؤها بفضح إشتراكها مع المسلمين .

٤ — التبادل التجارى :

من الناحية السياسية ، لم تشهد وضعية البحر المتوسط سوى عدد بسيط من التعديلات فى أثناء القرن السادس عشر . وعلى العكس من ذلك فإننا ، إذا ما نظرنا إلى المبادلات التجارية . وطبيعتها ، وأهميتها وبخاصة نوعية أولئك الذين كانوا

يسهمون فيها، نجد أن هذه اللوحة تمثل تناقضاً واضحا بين بداية ونهاية هذا القرن .

وحين بدأت العصور الحديثة ،كانت البندقية هي دائما ملكة البحر المتوسط . وكانت تجارة شرق البحر المتوسط فى شبه إحتكار بين أيديها . وكانت سفنها هى التى تذهب لإحضار التوابل من الاسكندرية ، وتذهب لإحضار الحراير والمنسوجات القطنية ، ومنسوجات الوبر وشعر الماعز والسجاجيد وغيرها من قبرص، ومن موانى الشام وآسيا الصغرى . وكانت تحمل إليها منتجات الصناعة الغربية ، ومنسوجات الفلاندر وفلورنسا ،التى كانت تصل اليها عن طريق البحر ، والمعادن والأدوات المصنوعة من ألمانيا ، والتى كانت تصل إليها عبر جبال الألب ، وتخزن فى حوانيتها فى حى الألمان ، والذى أسموه ، وعلى مثال الفنادق الشرقية ، فندق الالمان Fondaco dei Tedeschi . وهنا وهناك،فى موانى شرق شرق البحر المتوسط ، كان التجار البنادقة يكونون جاليات ، لا تخضع للتشريعات الإسلامية ، وتخضع لادارة قناصلهـــا . وفى الاسكندرية ، وحيث كانوا قد تمتعوا من وقت طويل بوضعية متميزة ، لأنهم كانوا يحضرون إلى هناك لكى يأتوا بتوابل الشرق الاقصى ، تخلوا تقريباً عن هذا المكان بعد فتح عام ١٥١٧ .

أما منافسوهم ، أبناء جنوا ، فلم تكن لهم إلا علاقات متباعدة مع شرق البحر المتوسط. فكانت بيرا، وهى إحدى ضواحى إستانبول، لاتزال مع ذلك تحتفظ ، وإلى جانب جالية البندقية ، بجالية من أبناء جنوا ، وكذلك جالية من فلورنسا . أما أبناء كتالونيا فإنهم كانوا لا يوجدون فى الغالب إلا قرب مصر وقرب سوريا . أما فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، فإننا نجد ، على العكس من ذلك ، أن أبناء جنوا وأبناء كتالونيا ، كانوا يسيطرون على الطرق التجارية : فكانوا يقتسمون حركة تجارة الحبوب مع صقلية ، وكذلك منسوجات فلورنسا . أما الفرنسيون فانهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت يقومون بدور له أهمية إلا مع مصر. وتدهورت

أحوال ميناء إيج مورت ذلك الميناء الهام فى الماضى على البحر المتوسط ، وكل يوم أكثر من اليوم السابق : فردمت الممرات المائية الموصلة اليه ، وبطريقة لا يمكن إصلاحها . أما مرسيليا ، ذلك الميناء الكبير فى المستقبل ، والذى لم يكن قد إنضم إلى فرنسا إلا من وقت قصير ، فانه كان ينمو ببطء . وكانت علاقاته مع الخارج ، فى غالبيتها ، فى أيدى أبناء جنوا وأبناء البندقية .

وكانت البندقية ، وعن طريق ممتلكاتها الجزرية ، وكحطام إمبراطورية ، كانت قد إمتدت فى الماضى حتى داخل البحر الأسود، وعن طريق قبرص وكريت تحتفظ مع شرق أوروبا ، بنوع خاص بتجارة ليست هى تجارة عبور . فكانت لقبرص مزارع هامة للقصب ، وكان السكر الذى تصدره ينافس سكر جزر الخالدات فى كل القسم الشرقى من القارة. وكانت كريت ، التى كانوا يسمونها فى ذلك الوقت « كنديا » ، على إسم عاصمتها ، تفتج بنوع خاص الأنبذة الحلوة،والتى كانت لها سمعة ضخمة فى الغرب . وكان أشهر هذه الأنبذة هو مالفوازى ، وهو تحريف لإسم مونفازيا ، ذلك الميناء الصغير فى أقصى الجنوب الشرقى للمورة وحيث كانوا يزرعون نفس الكروم : وكانت مونفازيا من جانب آخر لا تزال من الممتلكات الخاصة بالبندقية وكانت موانى أخرى ، مثل نوفلى،فى قاع الخليج ، تستخدم كمحطة للسفن التى تذهب إلى القسطنطينية . وأخيراً ، وعند مدخل،وعلى ساحل بحر الادرياتيك ، كانت هناك سلسلة مستمرة من المواقع التابعة للبندقية : من الجنوب صوب الشمال ، زانتى . وسيفالونيا ، وكورفور ، أكبرها ، ثم إلى الشمال أكثر من ذلك المدن الألبانية مثل دورازو ، واسكو دار ، وأخيراً الجزء الأكبر من ساحل دلماشيا ، مع كاتارو ، ومصباتها فى سبالاتو وزارا .

وعلنا أن ننتقل الآن إلى سنوات ١٥٧٣ ، وفى الوقت الذى توقفت فيه العمليات الحربية نتيجة لعقد الهدنة ، فأخذت تجارة شرق البحر المتوسط فى

الإزدهار من جديد . وعلينا أن نتحدث عن ذلك من فرنسا بنوع خاص . إذ أن ساعة مرسيليا كانت قد حانت . وحتى ذلك الوقت كانت تجارتها ، والتى كانت متواضعة للغاية ، لاتزال فى أساسها فى أيدى الأجانب . وحتى فى عام ١٥٧٢ لاحظ سفير الملك فى جنوا أنها كانت مدينة فقيرة للغاية . « أولئك الذين يسيطرون على طرقها هم من الأجانب ، من جنوا ، ومن ميلانو ، ويعودون إلى بلادهم بعد أن يكونوا الثروات ، ويأتى غيرهم لأخذ مكانهم » . وكانت تجارة مرسيليا قد سجلت نجاحها الأول مع شمال إفريقية . وكان الإخوة لينش Lenche ، من أصل كورسيكى ، قد حصلوا من حكومة الجزائر ، فى عام ١٥٥٢ ، على إمتياز صيد الأصداف على بعد ٢٠٠ كيلو متر تقريباً إلى الشرق من عنابة . وكانوا قد بنوا هناك مركزاً على شكل قلعة ، ستسمى فيما بعد « قلعة فرنسا » Bastion de France . وبعد قليل ، ظهرت مؤسسة أخرى مشابهة ، أبعد منها بقليل ، فى ميناء القال ، والتى كانت منذ فترة طويلة سوقاً للأصداف . وكانت الأصداف تلقى تقديراً كبيراً من الآسيويين ، وبخاصة الهنود ، وتمثل عنصراً هاماً للتبادل فى أيدى التجار الذين كانوا يحصلون على توابل الشرق الأقصى . وفى وقت قصير ، تمكن صائدى الأصداف أن يجدوا إلى جوارهم بعض التجار ، الذين نجحوا ، رغم المنع الرسمى ، فى تصدير الحبوب من شمال إفريقية . وفى عام ١٥٧٦ ، نشأ على الساحل التونسى مركزاً فرنسياً آخر ، هو مركز رأس العبيد . وبعد ربع قرن من ذلك ، تسببت زيادة التعصب فى بلاد المغرب العربى ، فى عام ١٦٠٤ ، فى تحطيم وتخريب المراكز الثلاث .

وفى إتجاه شرق البحر المتوسط ، وقرب عام ١٥٦٠ ، لم تكن أكثر من خمس أو ست سفن تذهب إلى هناك كل عام . ولقد عملت حرب قبرص ، وبقضائها على حركة البنادقة ، لفترة من الوقت ، على أن تعطى أبناء مرسيليا الفرصة ، التى

كانوا مستعدين لها . فوصلوا فى أعداد لا بأس بها إلى هـذه الموانى ، مسلحين بالميزات التى كان شارل التاسع قد حصل عليها فى ذلك الوقت من السلطان العثمانى . ودخلوا بهدوء فى أماكن منافسيهم ، وعملوا على أن يحلوا محلهم فى الاسواق التى كانت البندقية تسيطر عليهم منذ أجيال . وإن تزايد أرقام رسوم الدخول التى تدفع فى مرسيليا تدل على الأهمية الخاصة لسنوات ١٥٧٠ . وفى شرق البحر المتوسط ، وأكثر من موانى شمال إفريقية ، سيعمل الفرنسيون باستمرار على الإفادة من العلاقات الودية التى يحافظ عليها الولاء مع الأقاليم الاسلامية .

ونعرف الاسباب السياسية لهذه العلاقات الودية . وكانت ترجع أساساً إلى عدم الثقة ، وحتى الحقد الذى كان يشعر به المسلمون تجاه السياسة الكاثوليكية المتعصبة للمملكة الإسبانية . وهذه العلاقات الدبلوماسية وجدت إلى جانبها الآن ، وفى خط مواز لها ، ذلك المنح لإمتيازات من كل الأنواع ، وخاصة فى الميدان التجارى ، والتى تسببت فى نشأة كلمة « الامتيازات الأجنبية » Capitultion . ومنذ القرن السابق ، كانت هناك بعض التسهيلات التى منحت من أجل الإقامة أو التجارة فى موانى الدولة العثمانية ، وكان شرطها الأساسى الحصول على وثيقة يقدمها السلطان ، وتكتب فيها الإمتيازات المعترف بها لرعايا هذه الدولة أو تلك وكان الفرنسيون قد قنعوا بتلك التى كان قد منحهم إياها ، وتمثلا بسلاطين إستانبول ، سلاطين المماليك فى مصر : وكان آخرها هو « خطى شريف » فى عام ١٥٢٨ كان يجدد الأكثر منها قدماً . وعلى نفس نمط هذه الوثائق ، قام سليم الثانى ، فى عام ١٥٦٩ ، بالتوقيع على « إمتيازات » ، وحسب طلب السفير الذى أرسله شارل التاسع ، ولجميع أنحاء الامبراطورية العثمانية ، من أجل تسوية الخلافات التجارية (١) . وفيما بين هذه الميزات التى منحتها هذه الوثيقة الشهيرة ، كانت هناك

(١) أن معاهدة « الامتيازات » الشهيرة لعام ١٥٣٥ يمكنها أن توضع بكل امكانية =

واحدة تذكر أن فرنسا سيكون من حقها وحدها حق تمثيل مصالح الأجانب الذين يكونون من دولة ليس لها إمتيازات — ولم يكن هناك حتى ذلك الوقت دولة لها هذا الحق إلا البندقية وجنوا — ويقومون بالتجارة فى هذه الموانى . ولذلك فإن « راية » فرنسا سوف ترفع منذ ذلك الوقت على أكبر عدد من السفن المسيحية التى تسير فى البحار العثمانية .

وعلينا أن نشير إلى تحول جديد ، قرب هذا الوقت ، فى تاريخ توابل الشرق الأقصى . وكان البنادقة ، قبل منتصف القرن ، قد تغلبوا على الأزمة التى نتجت عن اقفال السوق المصرى . وكانوا قد نجحوا فى إعادة فتح طريق قديم للحركة التجارية ، لم يكن تحت رحمة البرتغاليين، إذ أنه كان يأتى من إيران ، ويصل عبر العراق ، إلى حلب وبيروت . وكانوا قد تمكنوا من الاستمرار فى تموين أوروبا الوسطى ، فى الوقت الذى كانت فيه التوابل البرتغالية تصل من اشبونة إلى انفرس ومن انفرس إلى أو جزبورج، تأتى وتنافس التوابل التى كانت تصل عبر جبال الألب . وحينما حدث ، فى عام ١٥٨٠ ، أن سقطت البرتغال فى أيدى فيليب الثانى ، قام السيد الجديد بتضحية مصالح البلاد شيئاً ما . وفى نفس الوقت حدث نوع من الإرتخاء فى الرقابة البرتغالية لطريق المحيط الهندى : وبدا أن هذا الشعب الصغير قد تعب من حراسة المناطق القريبة من البحر الأحمر . وعادت الحياة من جديد إلى الطريق القديم الخاص بالتبادل ، وساعد ذلك على عودة إزدهار الإسكندرية .

وبعد الفرنسيين، أى فى الربع الأخير من القرن ، قام منافسون آخرون بالسفر فى البحار التى كانت من قبل محجوزة لتجارة البندقية، وهم الانجليز والهولنديون .

= فى مصاف الخرافة التاريخية. وأن النص الموجود فى فرنسا لا يحمل أى توقيع . ولاشك فى أنه كان مجرد مشروع وجد بين أوراق السفير لافوروست . ولم تذكره أية وثيقة أخرى .

ولما كانوا قد أتوا من قواعد بعيده ، فانهم كانوا فى حاجه إلى قواعـد للتزود منها وهم فى طريقهم إلى شرق البحر المتوسط . وظهر ميناء جـديد فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، كان يعطيهم التسهيلات اللازمة للرسو ، وللتخزين : وهو ليفورنو ، الذى أنشاه كوزمودى ميديتشى ، وهو أول ذلك الخط الذى حمل لقب دوق توسكانيا العظيم . وفى سنوات ١٥٦٠ حصلت ليفورنو على المكانة الأولى على الساحل الايطالى للبحر المتوسط ، وورثت بذلك بيزا . وكان نظامها الحر قد جذب اليها الأجانب من كل ناحية ، وبخاصة اليهود الذين كانوا من أصل أسبانى أو برتغالى ، والذين كانوا قد طردوا من شبه جزيرة أيبيريا .

وكان الانجليز قد ظهروا فى البحر المتوسطفىالقرن السابق.وكانوا يحضرون لشراء العنب المجفف من موانى الارخبيل ، وكانت هذه السلعة لازمة لصناعة فطائرهم ؛ كما كانوا يشترون الأنبذة الحلوة من كريت . وفى النصف الأول من القرن السادس عشر كان هناك قنصلا لانجلترا فىخيوس . وأصبح لهم قنصلا آخر هناك ، فى عام ١٥٠٣ ، فى القسطنطينية ، وآجر فى كنديا فى عام ١٥٣٠ . ولكن الحركة التجارية ظلت حتى توقفت تماماً عند منتصف القرن : وكانت آخر رحلة مسجلة قد تمت فى عام ١٥٥٣ . وكانت غودة العلاقات التجارية ، بعد عشرين عام من ذلك ، بطيئة . وتم ذلك فى نفس وقت نهـــاية حرب قبرص : فكان البريطانيون ، مثلهم فى ذلك مثل جيرانهم الفرنسيين ، قد أنتهزوا فرصة . غياب البنادقة المؤقت . ونصل إلى اللحظة الحاسمة ، وهى وقت وصول أثنين من تجار لندن إلى القسطنطينية ، من طريق بولندا والبلقان ؛ وقد حصلا فى عام ١٥٨٠ من السلطان أحمد الأول على امتيازات تشبه امتيازات الفرنسيين . ويمكننا أن نلاحظ بسهولة تلك الحجج التى تقدموا بها : فأكدت بلادهم أنها كانت ، وأكثر من أى وقت مضى ، العدو الرئيسى لاسبانيا ، وأنه سرعان ماتدخل الحرب

ضدها ، وأنها كانت من جانب آخر من أكبر الدول المنتجه للتصدير ، ذلك المعدن الذى كانت يزداد احتياج السلطنة العثمانية اليه . منذ الهزيمة التى كانت قد لحقت بها فى ليبانتو ، والتى اجبرتها على زيادة صناعتها للمدافع .

ومنذ ذلك الوقت أذن سيتاجر الانجليز فى الشرق تحت علمهم الخاص بدولتهم . وسيكون لهم بدورهم جاليات وقناصل فى الموانى الرئيسية . وستبدأ منافسه قوية بينهم وبين اعدائهم على المستوى الدبلوماسى وعلى مستوى الأعمال . واجبرتهم الامتيازات الجديدة التى منحت للفرنسيين فى عام ١٥٨١ على استخدام علم منافسيهم . ولكنهم شعروا بأنهم على درجة من القوة تساعدهم على عدم الخضوع لذلك ، وظلت احتجاجات الفرنسيين فى القسطنطينية بدون صدى . ولم يتمكن هنرى الرابع ، وقت تجديد الامتيازات الثانى فى عام ١٥٩٧ ، إلا من الحصول على الميزة التى كانت قد تأكدت من قبل . وتأكد من جديد حق الانجليز رسمياً من جانب السلطان فى عام ١٦٠٠ . وجاءت مرحلة أخيرة عن هذا التنافس الانجليزى الفرنسى فى شرق البحر المتوسط فى عام ١٦٠٤ : فنجح الفرنسيون فى جعل العثمانيين يصدرون حكما على ادعاءات منافسيهم ، وذلك بواسطه الامتيازات الجديدة التى منحوها لهم . ولكننا وصلنا فى هذا الوقت إلى نقطة لم تعد فيها للنصوص قيمة كبيرة أمام حالة فعلية تم قبولها لفترة طويلة من الزمن . وتمتع الانجليز منذ ذلك الوقت ، وبتأييد من الحكومة العثمانية ، وبدون معارضة ، بكل الميزات التى كانت تفيد منها فى الماضى تجارة البنادقة وتجارة الفرنسيين . ومنذ عام ١٥٨٢ ، احتفظت الملكة اليزابيث بسفير دائم فى القسطنطينية ، مثلما فى ذلك مثل ملك فرنسا . وقرب هذا الوقت ، ظهر قناصل انجلترا فى الاسكندرية ، والقاهرة ، ودمشق ، وحلب ، وطرابلس ، والجزائر .

ووصل الهولنديون إلى البحر المتوسط بعد فترة قصيرة من وصول الانجليز . وكان ظرفا خاصاً هو الذى جذبهم إلى هناك فى سنوات ١٥٨٨ — ١٥٩٠ . فكانت صقلية منذ بضعة قرون تمثل مخزن غلال الحوض الغربى للبحر المتوسط . وكانت اسبانيا ، مثلها فى ذلك مثل إيطاليا ، تتزود فيها ؛ ويفسر لنا هذا الأمر تشدد سياسة أراجونه فى عدم ترك فرنسا تسبقها إلى إيطاليا فى اثناء حروب النصف الأول من القرن . ولكن سوق القمح فى صقلية قلت أهميته شيئاً فشيئاً ، ولأسباب غير واضحة تماماً . فلم يكن السكان قد قل عددهم — سكان يعملون فى غالبيتهم فى الزراعة — ولكن على العكس من ذلك زاد عددهم . ولكن الأحوال الجوية كانت سيئة فى فترات عديدة ؛ رغم أن أحداً لم يتحدث عن تغيرات طويلة فى المناخ . ومهما كانت أصول هذه الأزمة ، فإنها وصلت إلى درجة من الحده اجبرت المشترين العاديين لقمح صقلية على التزود به من مكان آخر . وهكذا اضطر دوق توسكانيا ، ونتيجة لعدم تمكنه من الاتجاه إلى العثمانيين ، كما كانت قد فعلت جمهوريه البندقية فى هذا الموقف ، إلى أن يدخل فى محادثات مع التجار الهولنديين ، والذين كانوا وحدهم هم القادرين على أن يحضروا إلى البحر المتوسط الحبوب من البلاد المطلة على بحر البلطيق ، وكانت غالبيتها تأتى من بولندا ، وكانت أهم ميزانها ، بالنسبه لهذا المضارب بالغريزة مادام من أسرة ميديتشى ، هى أنها لم تكن مرتفعة الثمن . ووصلت السفن الهولندية الأولى المحملة بالحبوب الآتية من الشمال فى دانزيج ، ولوبيك وحتى فى هامبورج ، إلى موانى ليفورنو فى عام ١٥٨٢ ، ولم يكن ذلك إلا البداية فلم يكن عددهم يزيد على ثلاثين سفينة فى العام الأول ، ومنذ عام ١٥٨٢ سيصل عددهم إلى ما يقرب من المائة :

وأصيبت أسبانيا ، فى نفس الوقت الذى أصيبت فيه ايطاليا من جراء عملية وقف صادرات صقلية . ولم يكن فى وسعها أن تلتجىء إلى الهولنديين ، الذين

كانوا بالنسبة إليها رعايا ثائرين. ولذلك فإنها إلتجأت مباشرة إلى بولندا. وكتب فيليب الثانى خطاباً إلى زميله، الملك سيجسموند الثالث، طالباً فيه امتياز التصدير. ووصله الرد، المشين، يذكر أن الاسبانيين لا يمتلكون اسطولا على درجة من الأهمية يسمح لهم باستيراد كل ماتنتجه بولندا. فكان عليه إذن أن يقنع بما يمكنه أن يقوم به تجار الهانسا ومع ذلك، فعلينا أن نعترف أن الهولنديين، ونتيجة لحركة تهريب منظمة، قد أسهموا رغم كل شيء بنصيب فى تموين شبه الجزيرة الايبيرية.

وتعلم الهولنديون، مثلهم فى ذلك مثل الانجليز، كيف يتعاملون عن طريق ليفورنوا. ولن ينسو ذلك. وفى السنوات الأولى للقرن السابع عشر، ستأخذ التوابل البرتغالية، عن طريقهم، نفس طريق القمح. وسرعان مايصلوا إلى أبعد من ذلك، وحتى موانى شرق البحر المتوسط. وسيطلبون فى أول الأمر، مثل غيرهم، حماية الراية الفرنسية. ثم تصبح « جمهورية الأقاليم المتحدة » فى عام ١٦١٢ على درجة من القوة والأهمية فى الخارج بشكل يسمح لها بأن تحصل بدورها على امتيازات.

وكان الانجليز والهولنديون بطبيعة الحال منافسين للفرنسيين، ولابناء مرسيليا. ومع ذلك فإن السيطرة الفرنسية ظلت موجودة فى شرق البحر المتوسط فى عصر هنرى الرابع، فى الوقت الذى أدت فيه الاضطرابات التى قامت بها العصبة فى اعطاء نتائجها. وأصبحت هناك جاليات فرنسية فى ذلك الوقت فى كل الموانى الهامة. وكان ملك فرنسا يحتفظ بعدد من القناصل أكبر من عدد قناصل شركة شرق البحر المتوسط الانجليزية. وكان هناك قناصل فرنسيين موجودين فى تونس وفاس فى عام ١٥٧٧ وفى الجزائر فى عام ١٥٧٩. ولمرتين فى أقل من عشر سنوات، ونتيجة لتغير حكم السلاطين فى القسطنطينية، تجددت الامتيازات التى كان سليم الثانى قد أعطاها، وأكدها مراد الثالث من بعده، وزادت درجة

تحديدها ، فى عام ١٥٩٧ بواسطة محمد الثالث وفى عام ١٦٠٤ بواسطة أحمد الأول. واعطت امتيازات عام ١٦٠٤ ، ولأول مرة ، للفرنسيين الاعتراف بحق الحماية ، والذى كانوا يمنحونه لأنفسهم منذ وقت طويل ، على رجال الدين اللاتينيين فى الأراضى المقدسة . ومنذ ذلك الوقت لن يتوقف سفير ملك فرنسا عن التدخل فى الاصطدامات التى كانت تقع بين ممثلى الكنائس المستقلة — اليونانيين ، والأرمن ، والأقباط ، والقساطره ، والجريجوريين،والمارونيين — وبين الفرنسيسكان والذين كانوا مكلفون من جانب روما بحراسه الأماكن المقدسة .

الفصل الخامس

مشكلات البحر : البلطى

بدأت سواحل بحر البلطيق ، مثلها فى ذلك مثل سواحل البحر المتوسط ، عند بداية القرن السادس عشر ، على أنها تحدد عالم صغير مغلق ، تسيطر عليه قوة عظمى ، إقتصادية وسياسية فى نفس الوقت . فكانت الهانسا الجرمانية تتمتع فى الشمال بمكانة تشبه تلك التى كانت تحظى بها جمهورية القديس مرقس (البندقية) فى الجنوب .

وتاريخ هذين البحرين المغلقين — وهما مغلقين بكيفية غير متساوية ، إذ أنه يسهل إقفال بحر البلطيق بسهولة أكثر ، وبكثير من مضيق جبل طارق — يمثل فى هذه الفترة تشابهاً غريباً . فنرى من هذا الجانب ومن ذاك ، وفى الربع الأخير من القرن ، أن الدول المسيطرة قد أبعدت، أو على الأقل نزلت إلى المرتبة الثانية ، بواسطة قادمين جدد ، هم الهولنديون والانجليز ، الذين بدأوا عملية غزو أسواق الجنوب الشرقى ، والشمال الشرقى للقارة ، والتى كان الغربيون لا يصلون إليها فى ذلك الوقت إلا بصعوبة . ومن هذا الجانب ومن ذاك ، كذلك ، كانت الفترة الحاسمة هى فترة سنوات ١٥٧٠ : فكان مؤتمر ستيتن Stettin يمثل تاريخاً هاما بالنسبة لقطاع بحر البلطيق كما كان غزو العثمانيين لقبرص يمثل هذه الأهمية بالنسبة لقطاع البحر المتوسط .

١ ـ الهانسا وضعفها :

كانت هناك مراحل بسيطة ، إذا ما قيست بالمستوى الأوربى ، تكون

التاريخ السياسى لبحر البلطيق . ولذلك فإننا نتحدث أولا عن الاقتصاد. أى أننا سنبدأ بالهانسا، وبصفتها القوة الوحيدة فى هذه الفترة والتى كان لعملها الإقتصادى طبيعة دولية واضحة .

وكانت طبيعتها الجرمانية واضحة إلى درجة أنها كانت لم تعد تشتمل إلا على مدن تخضع اسمياً للامبراطورية المقدسة ، مدن « ويندیه » كما كانوا يسمونها فى هذا العصر ، وذلك بإستخدام كلمة تميز تماماً ، وعن طريق التناقض ، فى الماضى، بينها وبين المدن التى كان سكانها من أصل سلافى أو صقلبى . وكانت لوبيك هى أكثرها أهمية ، وكانت تعتمد فى الخارج على أنها عاصمة هذه الرابطة أو العصبة. ويمكننا أن نذكر إلى جانبها أسماء ستراتسوند ، وروستوك ، وفيسمار ، ولونبرج وأخيراً دانزج وهامبورج ، واللتان سنهتم بهما تنوع خاص. أما كولونيا فإنها لم تحافظ على مكانتها إلا فترات قصيرة .

وكانت سفن الهانسا هى التى تحمل من الغرب تلك المنتجات التى كانت الدول المطلة على بحر البلطيق تحتاجها ، وكان الملح يحتل المكان الأول من بينها . وكانت البحار الشمالية أقل ملوحة نسبياً من غيرها ؛ كما أن درجة الحرارة المنخفضة لم تكن تسمح بإستغلالها الملح الموجود بها بشكل مربح . فكان من الضرورى إذن الإلتجاء إلى السواحل الضحلة المليئه بالملح فى فرنسا ، من وقت لآخر إلى ملاحات البرتغال . وكان الملح الذى يستخرج من خليج بورنيف معروفا فى كل أوربا الشمالية ، حتى إن الملح الفرنسى كان يباع ، فى البلاد المطلة على بحر البلطيق وكذلك فى إنجلترا ، بإسم « ملح الخليج » . وكانت الأنبذة الفرنسية ، مثلها فى ذلك مثل الملح ، تشحن وتصدر صوب بلاد الشمال على سفن الهانسا . وكانت المنسوجات هى أكثر المنتجات الصناعية الغربية

وأهمها . وفى الإتجاه الآخر ، كانت المواد الأولية التى تأتى من غابات الشمال هى التى تخدم التبادل بشكل رئيسى — أخشاب من أجل صناعة الصوارى وبناء السفن ، وكذلك القار ، والمواد اللزجة ، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك الجلود وكذلك الفراء .

وكانت الهانسا ، فى فترة عظمتها ، وحتى صوب نهاية القرن الخامس عشر ، تمتلك مراكز هامة فى نوفجورود فى روسيا ، وفى برجن فى النرويج ، وفى بروج وفى لندن. وكان تجارها قد حصلوا هناك على إمتيازات عديدة،سجلت فى الوثائق التى كان الملوك يؤكدونها أو يجددونها من وقت لآخر .

وكانت هذه الإمتيازات تعادل ، فى بعض الحالات ، حق إحتكار فعلى ؛ فإشتملت على الحق الكامل فى القيام بعمليات التوريد أو التصدير عن طريق البحر . وكان هذا بنوع خاص هو حالة لندن : فكان مركز تجار الهانسا،الذين يسيطرون على أحد الأحياء الذى يستخدمونه للتخزين ، قد تدعم بواسطة هنرى السابع فى عام ١٤٩٨ رغم حركة متعصبة من جانب الرأى العام .

ولكن إزدهار الهانسا أصيب بدرجة واضحة،قرب هذه الفترة،نتيجة لإغلاق مركزها فى نوفجورود . وفيما بين الروس والألمان لم تكن العلاقات سهلة فى أى وقت من الأوقات . وكانت عدم الثقة سائدة من هذا الجانب ومن ذاك ؛ وكانوا يتهمون بعضهم بسهولة بسوء النية، كما كانت أحداث متتالية تساعد على الاحتفاظ بروح العداء . ونتيجة لأن جمهورية نوفجورود كانت تحصل على رخائها من الأجانب ، لم يحاول أبنائها قطع علاقاتهم بهؤلاء الأجانب. ولكن حينما قام القيصر إيوان الثالث بالاستيلاء عليها وضمها للدولة الموسكوفية،الغيت هذه الاتجاهات : فقاموا بطرد تجار جامعة الهانسا فى عام ١٤٩٤ . ومنذ ذلك الوقت تحولت

التجارة مع الدولة الموسكوفية إلى مدن الجماعة النيوتونية ، مع مدن ريفال ، ودوريات ، وريجا ، التى كانت تشارك فيها منذ وقت طويل. وأفاد الهولنديون من ذلك . وكانوا قد قاموا بإتصالات مباشرة ، أنشئوها منذ بعض الوقت، بين موانيهم وبين موانى ليفونيا أو إستونيا ، وزادت منافساتهم التجارية مع رجال الهانسا .

وفى أثناء ذلك الوقت زاد ظهور العداء الذى كان موجوداً بين الدانمارك وبين المسيطرين على البلاد المطلة على بحر البلطيق ، وأدى الأمر إلى وقوع إشتباكات بينهم . وكان إتحاد التيجان الثلاثة للدانمرك ، والسويد والنرويج ، والذى تحقق فى إتحاد كولمار فى عام ١٣٩٧ ، قد ظل ضعيفاً . وأظهر السويديون بنوع خاص عدم إستعدادهم الكامل لإحترامه . وكان كل تغيير فى الحكم يؤدى إلى وقوع أزمة . وهكذا لم يتمكن يوحنا الثانى ، ملك الدانمرك فى عام ١٤٨١ من أن ينتخب فى السويد قبل عام ١٤٩٧ . وجاءت بعد ذلك ثورات جديدة لكى تعمل على إفشال سلطته . وينتج عن ذلك عمليات حربية ، إشترك فيها رجال ومدن الهانسا إلى جانب السويديين . وكانت الدانمرك تسيطر على الأراضى الواقعة على جانبى مدخل بحر البلطيق ، وتشرف بهذه الطريقة على كل المواصلات مع الغرب . وقام يوحنا الثانى برفع تعريفة الرسوم ، الأمر الذى أدى إلى اغضاب جيرانه . وكان قد وجد الإمكانيات اللازمة لبناء أسطول ، يسمح له بقياس قوته بقوة رجال الهانسا . وقامت سفنه بإحراق ضواحى لوبيك ، وتمكن فى العام التالى من فرض شروطه على خصومه فى صلح مالمو : وأصبح على رجال الهانسا أن يدفعوا غرامة حربية ، وأن يتعهدوا بعدم تأييد السويديين فى ٢٣ أبريل ١٥١٢ .

وصحب وصول كريستيان الثانى ، ابن يوحنا الثانى ، إلى الملك فى عام١٥١٣ نفس الصعوبات . ومن أجل تأديب رجال الهانسا ، الذين حاولوا تأييد ثورات السويد ، شعر الملك الجديد بضرورة الحصول على تحالف الهولنديين . وكانت هذه النية هى التى قربت بينه وبين الإمبراطور مكسيمليان . وحصل على يد حفيدته ، ايزابيلا ، أخت شارل الخامس ، مع دوطة ضخمة . وكان الإمبراطور لا يمتلك نقوداً ، الأمر الذى أغضب كريستيان ، وجعله يمارس عمليات إنتقام على سفن الأراضى المنخفضة حتى يحصل على جزء من قيمة هذه الدوطة . وفى العام التالى تمكن أخيراً من أن يتوج نفسه ملكاً على السويد .

وعندئذ توجهت طموحاته إلى إتجاه الجنوب ، صـــوب دوقيات شلزفج وهولشتاين ، اللتين كانتا فى الماضى مناطق نفوذ دانمركية . وإلتجأ إلى نسيبه، شارل الخامس ، الذى كان قد وصل إلى عرش الإمبراطورية منذ بعض الوقت . فمنحه قراراً عاما أكد فيه الحقوق التى كان الملوك السابقين له قد مارسوها بالأقدمية فى الإمبراطورية . وفى هاتين الدوقتين ، وكما كان عليه الحال فى الدانمرك ، كان الملك يصل إلى الحكم عن طريق الانتخاب . وفى الماضى ، كان الملك يوحنا قد إنتخب بالاشتراك مع أخيه فردريك . وعند موته،ظل فريدريك وحده دوقا . وحين علم بإتفاق إبن أخيه مع الإمبراطور ، وبما يحمله ذلك من تهديد ، نجح فى مواجهة ذلك عن طريق إختياره وقت مناسب لإشعال نار الثورة بين نبلاء الدانمرك : وبعد طرد الرعايا لكريستيان ، قاموا بإنتخابه فى مكانه .

ويعتبر عام ١٥٢٣ بدء لأزمة طويلة ، سيقوم فيها السويديون ، الذين كانوا يرغبون في الحصول على إستقلالهم ، بجنى ثمارها . وقاموا بالثورة نرة جديدة

فى عام ١٥٢١ ، وكانوا قد صمموا على جعل جوستاف فازا ، وهو الرئيس الذى كان قد أوصلهم إلى النصر، يتولى الملك و تمكنوا من أن يقضوا نهائياً على السيطرة الدانمركية. وكان أهالى لوبيك، الذين كانوا يخشون من سياسة كريستيان التوسعية ، قد أرسلوا اليهم سفنا ، ومواد تموين ، وبعض المحاربين . وتدخل سفراء الهانسا من أجل التوسط ومن أجل تسهيل إعادة إقامة العلاقات السلمية بين ملك الدانمرك وملك السويد الجديد وفى أثناء ذلك الوقت تحول عدد من المخلصين لكريستيان وإشتغلوا بأعمال القرصنة : وإحتاج الأمر إلى سنوات طويلة لتنظيف بحر البلطيق منهم . وإستقر أقواهم وتمركز فى أوديسى ، فى جزيرة جوتلاند ، وهى قلعة قديمة للهانسا ، كانت قد تخربت منذ فترة ، وحينما قام رجال لوبيك بالاستيلاء على أوديسى ، وبإعادتها للدانمرك ، حصلوا على جزيرة بورنهولم الكبيرة لمدة خمسين عاما .

٢ ـ تدخل الدول الغربية :

أخذ كريستيان، فى الأراضى المنخفضة التى كان قد التجأ اليها ، فى الإستعداد لفترة طويلة لإعادة غزو مملكته . وفى عام ١٥٣١ ، نزل إلى أوسلو على رأس عشرة آلاف رجل وسرعان ما ظهر أسطول دانمركى ومن سفن الجامعة الهانسية أمام المدينة ، بينما تدخل السويديون عن طريق البر . وسرعان ما جاء حل وسط يوقف هذه العمليات الحربية : فوافق كريستيان على الإعتراف بمملكة فريدريك، بشرط أن يعلن أبنه كوارث للتاج . ولكن موت هذا الأخير فى العام التالى جعل هذا الإتفاق كأن لم يكن . ولم يكن فى وسع كريستيان أن يعود إلى الحرب ؛ إذ أن فريدريك ، الذى تراجع فى وعده ، قد قبض عليه وإحتجزه أسيراً حتى وفاته . وفى نفس الوقت كان الهولنديون ، مثلهم فى ذلك مثل كريستيان ، هم

المنهزمين فى هذه المغامرة ؛ إذ أنه ، كعقاب لهم على المعونة التى قدموها ، منعوا منذ عام ١٥٢٣ من عبور المضيق المؤدى إلى بحر البلطيق ؛ ومنذ هذا الوقت إضطرت سفن عديدة إلى البقاء بدون عمل ، ودفعت الرغبة فى إنهاء هذا الوضع والحاكمة ، الجديدة للأراضى المنخفضة ، ماريا صاحبة المجر إلى أن تترك مصير كريستيان للقدر،وتتفاوض مع فريدريك.وأظهر الدانمركيون إستعدادهم لإعادة فتح المضايق المؤدية إلى بحر البلطيق : وعقدت معاهدة بهذا الشأن فى جاند بعد وفاة فريدريك بوقت قصير (١٥٢٣) .

وكان من نتيجة تقارب الدانمرك مع الأراضى المنخفضة عودة حدة العداء مع الهانسا . وحاولت لوبيك ، التى كانت فى ذلك الوقت تحت حكم وولنفيفر Wullenwewer ، المهيج الشعبى أن تسيطر على المملكة المجاورة ، حتى تتمكن من أن تسوى مسألة مدخل بحر البلطيق لصالحها ، وتضمن السيطرة النهائية على بحر البلطيق ، وعلى حساب الهولنديين . وضد كريستيان الثالث ، ابن وخليفة فريدريك ، أيدت لوبيك بعد ذلك أنصار كريستيان الثانى ، الذى كان لا يزال فى السجن ، وأرسلوا القوات إلى هولشتاين ، ثم إلى الجزر ، من أجل دفع الفلاحين إلى الثورة . وقاموا بإحتلال كوبنهاجن نفسها. وإنتهت المحاولة بالفشل نتيجة لتدخل السويديين . وكان جوستاف فازا يخشى بنوع خاص من عودة كريستيان الثانى . ورغم ما كان يحتفظ به لأصدقائه رجال الهانسا ، من صلات ود ومعونة سابقة ، إضطر إلى أن يقف فى وجههم فى هذه المرة . ورأت لوبيك نفسها محاصرة فى عام ١٥٣٤ بأسطول دانمركى . ومنحه كريستيان الثالث الصلح ؛ ولكنه إحتفظ حول نفسه بعدد كبير من أمراء شمال المانيا ، الذين كانوا يخشون عدوى الآراء الديمقراطية ، وصمموا على عدم ترك السلاح قبل أن ينتصروا على وولنفيفر . وحينما تحطم أسطول لوبيك فى نهاية الأمر فى معركة

سويندبورج فى ٥ يونيو ١٥٣٥ بواسطة القوات المتحدة للدانمرك ، والسويد ، وشليزنج هولشتاين ، إضطر وولنفيفر إلى التخلى عن السلطة . وكان هذا ، فى نهاية الأمر ، هو الصلح بين الدانمركيين ورجال لوبيك فى ١٤ فبراير ١٥٣٦ .

وتحطمت القوة السياسية والعسكرية للهانسا بشكل نهائى ، ولن تتأخر قوتها الإقتصادية عن أن تتأثر بدورها . وسينتج عن التدخل السويدى أخطر النتائج بالنسبة لمصير بحر البلطيق . فساعد أولا على زيادة نمو عمليات القرصنة، وأصبح على رجال جامعة الهانسا أن يدافعوا عن أنفسهم أمام هذا الخطر الجديد ولكنهم كانوا غير مستعدين لذلك كل الإستعداد ؛ فلم يكن هؤلاء التجار يستندون إلى قوات بحرية لها أهميتها ؛ وبنوع خاص لم تكن السفن التى يستخدمونها للحراسة مسلحة بالمدفعية الضرورية لحماية النقل بطرق فعالة : ولم يتأخر الهولنديون ، الذين إضطروا إلى الدخول إلى هذه الحرب ، من الإفادة من تفوقهم الواضح عليهم فى هذا الميدان . ومن جانب آخر ، كان وقت تفوق الدانمرك قد إنتهى . فكان الدانمركيون فى الماضى يعلنون بسهولة أنهم أصحاب وسادة بحر البلطيق، كما كان يفعل البنادقة فى بحر الإدرياتيك . وإستمروا لفترة طويلة يحددون تعريفات ورسوم البضائع كما يرغبون على من يعبر المضايق . أما الآن فإنهم سيجدون أنفسهم مرتبطين بإتفاقيات دولية .

أما كريستيان الثالث فإنه بعد أن إستعاد عاصمته من كونت أولدنبرج ، وهو حليف لرجال مدن الهانسا وإستمر فى الحروب ، أخذ فى الإعداد وبالإتفاق مع خصومه السابقين للقيام بالحرب ضد الأراضى المنخفضة . وكانوا يستمرون فى تلقيبه هناك ، وتتيجة لولائه لشارل الخامس « بدوق هولشتاين الذى يسمى نفسه ملك الدانمرك » . وأرسل ضدهم شارل إيجمونت ، دوق جيلدر ؛ ثم أصبح،

بعد التوقيع على معاهدة مونتفلو فى ١٩ نوفمبر ١٥٤١ ، يعمل ضد الامبراطور وبصفته حليفا لفرانسوا الأول ،والذى عقد معه فى العام التالى اتفاقيات تجارية. وفى عام ١٥٤٣ قام اسطول دانمركى مع اسطول فرنسى بمظاهـــرة بحرية ضد سواحل زيلندا ، وذلك فى الوقت الذى قام به فان روسم ، ماريشال جيلدر ، بريا ، بقيادة جيش من الفرنسيين والدانمركيين وأبناء مقاطعة جيلدر .

وسيكون من نتائج تدخل الدولة الغربية فى ذلك الصراع اعادة إقامة ما يمكن تسميته « بنظام تعاقدى » للمرور فى المضايق . وعملت معاهدة إسبير ، الذى فرضها شارل الخامس على الدانمرك فى ٢٣ مايو ، ١٥٤٤ ، وقبل عقد صلح كريبى مع فرانسوا الأول بقليل ، على تعديل المضايق ، وذلك بإعلانها أن هذه المضايق لا يمكن إغلاقها فى وجه أى شخص ، وبتقريرها التعريفـات التى تفـرض على سفن كل دولة . وهكذا سيتمكن الهولنديون ، وتحت ضمانة الدول الموقعة على المعاهدة ، من عودة الظهور فى بحر البلطيق . ولن يتعارض أى شىء بعد ذلك عملية نمو تجارتهم .

٣ ـ ليفونيا والروس :

وتنتقل الآن إلى الشاطىء الشرقى لبحر البلطيق ،وحيث تأخذ مسألة ليفونيا المكان الأول بين الأحداث بعد منتصف القرن .

وكانت الممتلكات المختلفة للفرسان المحاربين تشتمل أولا على ليفونيا نفسها ، مع مركز ريجا الكبير ، ثم إستونيا إلى الشمال، وكورلاند إلى الجنوب . وكانت تتبع فى نفس الوقت كل من الامبراطورية المقدسة ومن كنيسة روما . ولكـن هذا الرباط المزدوج كان قد أصبح غير محكم بدرجة كافية ، ولن يجد أحد أن من مصلحته توثيق عراه . وفى أثناء بعض الوقت إنضم هؤلاء الفرسان المحاربون

إلى جيرانهم الفرسان التيوتون . ثم إستعادوا استقلالهم منذ عام ١٥٢٥ وحين قام البرت صاحب براندبورج ، والسيد الأعظم للجماعة التيوتونيه، بإعتناق مذهب لوثر وأعلن نفسه دوقا على بروسيا تحت السيادة البولنديه . وكانت أيامهم قد أصبحت معدودة ، وكانوا قد تأثروا بأراء الاصلاح ، كما كانوا معرضين من الخارج ، وبدون دفاع ، لمشروعات الدولة الموسكوفية التى كانت تتوسع بقوة فى ذلك الوقت .

وكان للهدف الأول لأمراء موسكو، ومنذ الوقت الذى ضموا فيه جمهورية نوفجورود ، هو نارفا : وكانت إستونيا وحدها هى التى تفصل بينها وبين البحر الحر . ومنذ عام ١٤٩٢ ، وفى مواجهة قلعة نارفا ، على النهر الذى تسيطر على مصباته . بنى إيوان الثالث قلعة أخرى اسماها بإسمه ، وهى ايفانجورود . وبدأ الهجوم فى عام ١٥٠١ . ولكنه هزم وصده السيد الأكبر للجماعة . ولم يكن ذلك إلا فاتحة لعمليات ذات مدى أوسع ستكون ، بعد خمسين عام من ذلك ، من المظاهر الأساسية لحكم إيوان الرهيب (١٥٣٣ — ١٥٨٤) .

وبدأ إيوان الحرب فى عام ١٥٥٨ ، وبعد ان كان قد حاول بلا جدوى ارهاب خصومه : فكانت الجماعة قد رفضت دفـــع الجزية التى طلبها منها نظير الاعتراف بسيادته على مدينة دوربات ، والتى كانت فى الماضى تابعة لأمراء من الروس ومنذ حملته الأولى تمكن من إحتلال نارفا ، وكانت الميناء الرئيسى لدخول السلع الآتية من الغرب . وكان رجال الهانسا هم أول من ظهر قلقهم . وبناء على طلبهم قام دايت الامبراطورية بالتشاور فى هذه المسألة : وقرر اتخاذ إجراءات للقيام بعملية حصار اقتصادى . وفى جميع أنحاء بحر البلطيق زادت عمليات القرصنة بشكل واضح ضد السفن الروسية . وأظهر البولنديون بنوع خاص شدة بأسهم . وسرعان ما أخذ السويديون والبولنديون فى الدفـــاع عن

مصالح الفرسان الذين كانوا أشد أعداء الروس، وقاموا بعمليات البعض على حدود فنلندا، والآخرين فى ليتوانيا. وتمكن جوستاف فازا من اعادة غزو جزء من إستونيا. أما سيجسموند اغسطس، ملك بولندا، فانه كانت له قوة عسكرية تسمح له بفرض شروطه: فسيمتنع عن الدفاع عن البلاد إلى أن يعترفوا له بحق الحماية (١٥٥٩) عليها. وبعد ذلك بقليل الغى إيوان المدنة، التى كان قد وافق عليها نتيجة مضايقة جيرانه من التتار له. وتمكن من انزال هزيمة ساحقة جديدة بالتيوتونيين. وأفاد البولنديون من ذلك لكى يطالبوا بالسيادة الكاملة على ليفونيا. وأضطر السيد الأعظم للجماعة إلى أن يوافق على ما كان لايقدر ان يتفاداه: فأنزل شاراته، واعترف بإتحاد ليفونيا مع دوقية ليتوانيا العظمى. وتبع المثل الذى كان البرت صاحب براندبورج قد اعطاه من قبل، وحصل على تنازل على لقب اقطاع مؤقت فى كورلاند، سيحوله بالتالى إلى دوقية وراثية تحت سيادة بولندا فى عام ١٥٦١.

وسرعان ما سيظهر، من آخر، تقارب وثيق بين بولندا وليتوانيا: كنتيجة للخطر الذى شعروا به بطريقة متوازية فى كل من كراكوفيا وفى فيلنا. وفى مجلس عقد فى لوبلين، فى عام ١٥٦٩، قرر ممثلوهم ان الدولتين لن يشكلا منذ هـذا الوقت إلا «جسما واحدا، لا يقبل التقسيم، ومتماثل، وجمهورية واحـــدة ومشتركة»، مع ملك واحد ودايت واحد. ولقد إستمر «اتحادلوبلين» لمدة قرنين من الزمن.

وفى أثناء ذلك الوقت، كان إيوان قد رد على هذا التكتل البولندى السويدى بالاتفاق مع الدانمرك وأبناء لوبيك، والذين كانت مصالحهم قد اضيرت بالسياسة السويدية التى إتجهت صوب منع كل تجارة بحرية مع نارفا حتى تحتفظ بالمكاسب لنفسها. ونتجت عن ذلك حرب بحرية، أسماها أبناء السواحل

المجاورة بحرب السنوات السبع (١٥٦٣ — ١٥٧٠) ؛ وشارك فيها بخسارة عديدون فى بحر البلطيق ، بعد أن تحولوا فجأة إلى قراصنة ، وقاست من ذلك كل الدول التى كانت سفنها تدخل إلى بحر البلطيق ، وبدرجات متفاوتة . ولقد قاق الفرنسيون ، بنوع خاص ، من قطع المواصلات مع نارفا . وكتب شارل ذى دينزاى ، سفير فرنسا فى كوبنهاجن ، إلى شارل التاسع : « إنكم لا تجهلون أبداً كيف أن التجارة مع موسكوفيا ، التى تتم فى مدينة نارفا ، مربحة لرعايانا » . وكان دينزاى ، الذى أقام فى منصبه فى كوبنهاجن منذ عام ١٥٤٨ ، قد عقد علاقات وثيقة مع بلاط أمراء بلاد بحر البلطيق ، وحصل على نفوذ واضح . وقام مرات عديدة بعرض وساطة ملك فرنسا ، التى إنضم إليها بعد ذلك الامبراطور وملك ساكس . ولم ينجح فى جعل المتحاربين يوافقون عليها إلا فى شهر سبتمبر ١٥٧٠ .

وإنعقد عندئذ فى ستيتن مؤتمر أوربى حقيقى . ولم يشترك الروس فيه . ولكنا نرى فيه ، وعلاوة على الوسطاء ، ممثلين لانجلترا ، واسكتلندا ، وأسبانيا ، وبراندبورج ، وساكس الخ . . . وستعمل المعاهدات التى تم التوقيع عليها فى ستيتن فى شهر ديسمبر ١٥٧٠ ، وبعد ثلاثة أشهر من التفاوض ، على فتح عهد جديد بالنسبة للدول المطلة على بحر البلطيق . وأصبحت حرية الملاحة على مياهه ، والتى أعلنت رسمياً ، كـأول عنصر من عناصر القانون العام الاوربى . وعلى القارة ، من جانب آخر ، خرجت الدولة المطلة على بحر البلطيق من منطقة النفوذ الجرمانى : فتركت استونيا للسويد ، وليفونيا لبولندا . وتأكدت حقوق الامبراطورية من جديد ، ولكن من ناحية الشكل فقط : وإن نتحدث عنها بعد ذلك . أما فيما يتعلق بالدانمرك ، فإنها إذا كانت قد حصلت على حق الاحتفاظ بجزيرة أوسل ، التى كانت قد إحتلتها قبل الحرب ، فانه كان عليها فى نظير ذلك

أن تعفى السفن السويدية من دفع الرسوم عند عبورها المضيق . وبالاجمالى ، فان السويديين والبولنديين كانوا هم المنتصرون . ولكن « السيطرة على بحر البلطيق » والتى كان كل من الحلفاء يحلم بها ، لم تصبح لأى أحد .

واضطر الروس إلى أن يقنعوا بالتوقيع على هدنات . ولم يعترفوا بطبيعة الحال بهذه الوضعية الجديدة . واعتقد إيوان أنه وجد الوسيلة التى تضمن له الحصول على الميراث الجرمانى : فأقام ماجنوس صاحب الدانمرك ، وأحد أبناء كريستيان الثالث ، والمتزوج إحدى قريباته ، على أنه « ملك ليفونيا » . أما خصومه ، المنكبين ، فإنهم إمتنعوا عن محاربته ، ووافقوا على عقد هدنة جديدة معه ، إستمرت لمدة سبعة أعوام . وحين عادت العمليات الحربية من جديد ، فى عام ١٥٧٨ ، سقطت مملكة فازا تحت ضربات البولنديين . ولم يعد الأمر يتعلق بمسألة ليفونيا وحدها ، بل كذلك بمسألة ليتوانيا . وسوف نشرح ذلك فى فصل آخر . ولنقل من الآن أنه منذ عام ١٥٨٢ ، إضطر إيوان ، الذى هزم ، إلى أن يتخلى عن كل إدعاءات على البلاد المطلة على بحر البلطيق . وفى هذا التاريخ ، ستكون روسيا قد رأت ، ولمدة قرن ، إغلاق النافذة الضيقة التى كانت قد نجحت فى فتحها على بحر البلطيق .

٤ — إنتقال مراكز التبادل صوب الغرب :

لم يبق لنا ، فى القطاعات الأخرى الخاصة ببحر البلطيق ، إلا أن نتبع ، خلال هذا الجزء الأخير من القرن السادس عشر ، مصير الهانسا ، ثم مصير بولندا .

فمنذ بعض الوقت ، إتجه مركز الأنشطة التجارية إلى أن ينتقل صوب

الغـــرب ، وفى صالح الدول المنافسة للهانسا فى نفس الوقت ، أى فى صالح الهولنديين والانجليز ، وفى صالح هامبورج ، الميناء الأكثر وقوعاً إلى الغرب فى مجال الهانسا . ويمكننا أن نرى فى ذلك نتائج الصعوبات التى كثرت فى الشرق أمام الهانسا ، والضعف المستمر لقواتها فى مواجهة المنافسين الذين تزيد عددهم باستمرار .

ويرجع إزدهار ميناء هامبورج ، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، بنوع خاص إلى مجىء الانجليز . وكان دورها حتى ذلك الوقت بسيطاً . وكانوا يصنعون فيها أنواعا لها شهرتها من الجعة ، وكانوا يرون فيها قطعاً من النسيج الخام آتية من إنجلترا . ولكن هامبورج أصبحت مركزاً كبيراً للتجارة البحرية ، إلى درجة أنها أصبحت تنافس لوبيك ، مركز الهانسا . ذلك أن الاضطرابات التى وقعت فى الأراضى المنخفضة دفعت بالشركة الانجليزية الخاصة «بالتجار المغامرين» إلى البحث عن قاعدة أخرى غير أنفرس من أجل عملياتهم على القارة . فأقاموا فى هامبورج فى عام ١٥٦٧ . وإنتقلت إليها «محطة» التجارة الانجليزية رسمياً بعد عامين ، وستبقى فيها لمدة عشرين سنة . ولكن الرأى العام الألمانى ، وتحت تأثير هذه الوطنية الاقتصادية التى تلاحظ مظاهرها فى هذه الفترة ، وفى أكثر من دولة ، وقف بقوة ضد الانجليز . ولم ينجح هؤلاء الأخيرون فى تجديد إمتيازاتهم ، بعد العشر سنوات الأولى . ومع ذلك فانهم عاندوا وأصروا على البقاء . ولم يقبلوا ما لا بد منه إلا بعد عشر سنوات أخرى ، كانت الملكة اليزابيث قد أيدت بلا جدوى فيها طلباتهم المقدمة إلى الامبراطور . ولذلك فانهم نقلوا ، فى عام ١٥٨٧ ، «محطة المنسوجات» إلى ستاد ، الميناء الأمامى لهامبورج . ثم مرت عشر سنوات أخرى . وهذه المرة خضع الامبراطور نفسه لضغط الرأى العام ، وأعلن طردهم من أراضى الرايخ .

ولقد غضبت الملكة إليزابيث من ذلك . وفى عام ١٥٩٨ ، منعت نهائياً كل نشاط لتجار الهانسا فى الأراضى البريطانية . وكان مركزهم الموجود فى لندن ، والمسمى « ساحة الصلب » ، قد أقفل مرة أولى فى عام ١٥٥٩ ، ومرة ثانية فى عام ١٥٧٨ . وبدأ هذا الاجراء ، الآن ، على أنه لا يمكن الرجوع فيه ، ونقلت محطة المنسوجات إلى هولندا ، فى ميناء ميدلبورج ، وحيث ظلت حتى عام ١٦١١ .

وفى أنفرس ، أقفلت مؤسسة رجال الهانسا — والذين كان الفلنكيون يسمونهم بالأوسترليخ — بعد أخذ الاسبان لهذه المدينة فى عام ١٥٨٤ . فاضطروا إلى الانتقال إلى أمستردام ، ، أى عند منافسيهم : ولا شك فى أنهم لم يجدوا الترحيب الكافى بهم . وفى سنوات ١٥٩٠ فقدوا كذلك الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها فى الدانمرك . ولذلك فإن تراجعهم كان عاماً ، عند نهاية القرن . وسيزيد ذلك الأمر فى أثناء القرن السابع عشر ، وفى نفس الوقت الذى ستستمر فيه الأنشطة البحرية للهولنديين فى النمو .

وكانت بولندا حتى ذلك الوقت دولة قارية بشكل رئيسى . وكانت واجهتها البحرية محدودة على ذلك القطاع الواقع بين مصب نيمن،وبين مصب الفسيتولا. وكانت الطرق الرئيسية لتجارتها هى تلك الطرق التى كانت تأتى من ألمانيا العليا وتصل إلى أوكرانيا والبحر الأسود وأصبحت فى النصف الثانى من القرن السادس عشر إحدى الدول الرئيسية من ذلك العالم الصغير المحيط ببحر البلطيق . وكان إستيلاؤها على هذا الاقليم الصغير المطل على البحر ، والمسمى ليفونيا ، يدل على تغير هام فى إتجاهها العام ، والذى كان من أسبابه الرئيسية البحث عن تصدير الحبوب عن طريق البحر .

وكانت سهول بولندا ، وخاصة الجنوبية ، دائماً من بين كبار منتجى الحبوب . وفيما مضى ، وفى القرون الأخيرة من العصور الوسطى ، كانت فى حالات كثيرة تزود بالقمح مناطق الغرب الأكثر تحولا إلى الصناعة ، مثل الاراضى المنخفضة . وصوب أواسط القرن السادس عشر ، مالت هذه التجارة صوب توسع كبير . ذلك أن القمح والحبوب التى كانت تنتجها كانت تتحمل بسهولة كل منافسة مع حبوب أية دولة أخرى . فكانوا ، أولا ، يستخدمون فى هذه المناطق التى تشتمل على ممتلكات كبار السادة ، أيدى عاملة من التابعين ، وكانت بالتالى رخيصة .ومن ناحية ثانية ، ، وكان الارتفاع العام فى الأسعار، الناتج عن وصول المعادن النفيسة من أمريكا ،قد إنتشر ببطء من الجنوب الغربى صوب الشمال الشرقى ، وشعروا به بعد وقت فى هذا الطرف البعيد من القارة . ولقد رأينا أن دول الحوض الغربى للبحر المتوسط قد أصبحت ، منذ سنوات ١٥٨٧ ، من كبار المستهلكين ، وأصبحوا يتموّنون عن الهولنديين . ولذلك فإن دانزيج لن تتأخر عن أن تظهر فى الخارج على أنها أهم موانى بحر البلطيق وأصبحت ثلاثة أرباع تجارة بحر البلطيق تتم فيها . وعلينا أن نلاحظ ، من ناحية أخرى ، أن عدد السفن البولندية التى كانت تشترك فى هذه الحركة كان بسيطاً للغاية .

وكان سوق الحبوب وكذلك تجارة بحر البلطيق فى ذلك الوقت ، وبشكل عام ، فى أيدى الهولنديين والانجليز . وأعطى الهولنديون أنفسهم الدور الرئيسى فى تموين أوروبا الغربية ودول البحر المتوسط . أما الانجليز الذين وصلوا حتى البحر الأبيض وتوغلوا فى روسيا من الشمال — وسنعود إليهم — فانهم أنشأوا ، فى عام ١٥٧٩، ومن أجل تجارة بحر البلطيق ، شركة الأراضى الشرقية Eastland Co. ، على غرار شركة موسكوفيا . وكان مركز هذه

الشركة فى دانزيج فى أول الأمر ؛ ثم انتقل فى عام ١٥٨١ ، وبعد نشأة الصعوبات مع حكومة بولندا ، إلى مينا الينج المجاور .

وكان أبناء دانزيج ، الفخورين بازدهار مدينتهم — يسمونها بزهوه بندقية الشمال » — يظهرون روح إستقلال ، تجعل علاقاتهم صعبة مع بولندا . وكان إنضمامهم إلى حركة الاصلاح الدينى قد جعلهم يشعرون بوضوح بكل ما يفصل بينهم وبين جيرانهم ، وإدعوا ، فى أثناء حرب ليفونيا ، أنهم يعترفون بمزايا الحياد ، وحينما إلتجأ إليهم القراصنة ، معرضين إياهم لعمليات إنتقام من جانب الأجانب الذين كانوا يقاسون من أعمال القراصنة ، أساءوا معاملتهم . وأخذ البولنديون فى إظهار إحتقارهم ، وفى تهديدهم . ومع ذلك فإن الصدام لم ينشأ إلا بعد نهاية الحرب ، حين رفضوا ، فى عام ١٥٧٦ ، الاعتراف بأنيين باتورى ، الملك الذى كان قد إنتخب أخيراً . وإضطر هذا الملك إلى أن يحاصر مدينتهم ، حتى يرجع إليهم صوابهم ، دون أن يخشى من ظهور أسطول دانمركى .

وبعد ذلك ، وفى عام ١٥٩٥ ، إفتخر فيليب الثانى ، ملك إسبانيا ، بأنه قد حصل من الملك سيجسموند ، الخاضع لنفوذ اليسوعيين (الجزويت) ، على قاعدة بحرية فى بحر البلطيق ، يمكنه أن يقوم منها وبفاعلية بعملياته الحربية ضد تجاره الهولنديين والانجليز : ولكن المشروع فشل نتيجة لمقاومة الأوساط ذات المصلحة فى تصدير الحبوب .

وكان تحالف السويد وبولندا ، الذى أعطى أمثلة على قوته أثناء حرب ليفونيا ، قد أعطى ميزات كثيرة للدولتين ، اللتين فكرتا ، مرات عديدة ، فى إقامة إتحاد أسروى . ولم يتحقق ذلك — وبطريقة ضعيفة ومؤقتة — إلا قرب نهاية القرن السادس عشر .

وعند أصول مشروعات الاتحاد يوجد زواج أحد إخوة أيريك الرابع ، ملك السويد ، والذى أصبح هو نفسه ملكاً فى عام ١٥٦٨ باسم يوحنا الثالث . وكانت زوجته ، كاترين جاجيلون إحدى أخوات سيجسموند أغسطس . ونلاحظ ، منذ وصوله إلى العرش ، إنزلاقاً فى الاتجاه صوب روما . وسمحوا لليسوعيين (الجزويت) بالاقامة فى السويد . وفى اليوم التالى لعقد صلح ستيتن فكر الملك فى التخلص من أسطوله ، وبثمن بخس ، وهو الأسطول الذى كان يرغب فى الحصول عليه كل من ملك إسبانيا ، وملكة انجلترا ، وأمير أورانج ؛ وأظهر أنه يفضل إعطاءه لفيليب الثانى . ولكن المفاوضات لم تصل إلى ما هو أبعد من ذلك ، إذ أن هذا الملك الأخير رفض أن يدفع الثمن المطلوب . ولكن البابا جريجورى الثالث عشر كان يعقد آمالا كبار على ذلك التقارب بين إسبانيا إسبانيا والسويد . ولم يكن يوحنا الثالث يرغب فى تثبيط همته ، وكان علاوة على ذلك يتمتع بلا مبالاة فى الشئون الدينية . وحاول فى عام ١٥٧٤ ، وبتأييد من روما ، الحصول على تاج بولندا ، والذى كان ذهاب دوق آنجو قد تركه خالياً : ولكن ترشيحه فشل أمام فرص إيتين باتورى .

وكانت مسألة عودة السويد إلى المذهب الكاثوليكى مطروحة بوضوح فى هذه الفترة . وإذا كان الأمر لا يتعلق إلا بملكها ، فان الاصلاح المضاد كان سيحصل على ذلك النجاح الكبير الذى كان يبحث عنه بلا جدوى منذ أن كانت الملكة اليزابيث قد غيرت فى إنجلترا ما كانت مارى تيودور قد قامت به . ولكنه [illegible] حساب لمقاومة الشعب السويدى ، الذى كان [illegible] عام ١٥٧٨ ، سافر أحد السفراء من [illegible] جريجورى الثالث عشر على ذلك بإرسال الأب بوسيفينو ، وهو من اليسوعيين . [illegible]

بعد شهر يحمل القرار : بعد أن استمع إلى اعتراف الملك ، وأعلن القداس فى حضوره ، ومنحه البركة . فسادت الفرحة فى الفاتيكان ، ولكنها كانت لوقت قصير : إذ أن يوحنا الثالث ، خشى من النتائج الممكنة لسلوكه ، فطلب مهلة قبل إعلان تحوله ، واستند إلى ضرورة تهيئة الرأى العام لذلك، ثم تهرب، فى نهاية الأمر.

وبعد أن كان تاج السويد هو الذى حاول بلا جدوى أن ينضم إلى بولندا ، نجد أن تاج بولندا ، عند نهاية القرن ، هو الذى يحاول أن يضم نفسه إلى السويد .

وبعد المملكة الضعيفة لهنرى صاحب فالوا ، أخو ملك فرنسا ، وبعد مملكة إيتيين باتورى ، أمير ترانسلفانيا ، والتى سنعود إليها فى أحد الفصول التالية ، إنتخب البولنديون ، فى عام ١٥٨٦ ، سيجسموند فازا ، إبن يوحنا الثالث ، وكاترين جاجيلون ، وبالتالى وريث الأسرتين ، ملكاً عليهم . وكان قد نشأ وتربى فى ديانة والدته ، وسيظهر أنه كاثوليكى متعصب . ولذلك فإنهم لقبوه « بملك اليسوعيين » . ونظراً لحالة التفكير الموجودة فى السويد ، فإنه إصطدم بمقاومة شديدة حين حاول ، عند وفاة والده فى عام ١٥٩٢ ، أن يحصل على تاج السويد . ونزل ضده أحد أعمامه ، وبصفته مرشحاً وطنياً ، ومن أنصار لوثر المخلصين . وحاربه سيجسموند فى معركة داخل الأراضى السويدية . ولكنه هزم ، واضطر إلى الإقلاع على إحدى السفن . وأخذ منافسه ، بمعونة مجلس التاج ، تاج السويد باسم شارل التاسع فى عام ١٥٩٩ .

ومن هذه العلاقة الضعيفة ، التى كان فى وسعها فى أن تحدد مصير بولندا لوقت طويل ، لم يبق أى شىء — سوى ربما تلك المشاعر بالضغينة بين البولنديين والسويديين ، ونقل عاصمة بولندا من كراكوفيا إلى وارسو ، الأمر الذى رجع إلى رغبة سيجسموند فى تقريب مكان إقامته الرئيسى من شواطىء بحر البلطيق .

الباب الثاني

منافسات الدول العظمى

مقدمة الباب الثانى

علينا أن نحتفظ ، فى كتابتنا ، بالمكان الأولى ، والأكثر إتساعاً ، لتاريخ الغرب . ففى هذا المكان ، وفى ذلك الوقت ، كما حدث فى أوقات أخرى ، تقرر مصير العالم المتحضر .

ومنذ قرون ، كان إنتباه أوربا القلقلة يلتفت صوب الشرق ، وحيث كانت تنشب ، من وقت لآخر ، حركات للغزو . وحتى فى أثناء القرن الخامس عشر ، إرتجف أمام العثمانيين . وظل الخطر موجوداً ، وإن كان فى مجموعة أقل خطراً مما كان عليه فى فترات أخرى . فلقد تعود الناس عليه . ولم تعد الدول الغربية تشعر بأنها تتعرض له بطريق مباشر . وبدورها ، قامت هذه الدول بالخروج من حدودها ، وحاولت أن تجد ، قريباً أو بعيداً عنها ، تلك المناطق التى تصلح لتوغلها بطريقة مناسبة .

ولقد رأينا ما كانت البحار تمثله من إجتذاب ، إبتداء من البحار الأكثر بعداً ، وبامكانية غزو ثرواتها الذهبية ، ثم البحار الأكثر قرباً بعد ذلك ، والتى كانت معروفة من وقت بعيد ، وتسير فيها السفن ، وحيث كانت المواقع التى يحتلها أبناء السواحل المجاورة قد شهدت هجمات ، وغزوات ، قام بها منافسون جاءوا من الغرب .

وكانت لمحاولات التوسع على القارة نتائج أقل إتساعاً ، وأقصر عمراً ، ولكنها جعلت عدداً أكبر من الدول تشتبك مع بعضها فى حروب . وتسببت فى صدامات دموية ، ولا تنتهى .

وتحتل فرنسا دائماً المكان الاول فى هذه الصدامات . وتتسبب فى نشأة منافسات بين الدول العظمى ، وتقوم لفترة طويلة بتحريك العوامل الدبلوماسية والعسكرية : فكانت مبادراتها هى التى تقرر الحرب أو الصلح . وهذا ، فى نظرنا ، سبباً هاماً يدفعنا إلى دراسة هذه الفترة بانتباه خاص .

الفصل السادس

التفـــوق الفرنسى

عند حدود المملكة التى وصلت إليها ممتلكات لوى الحادى عشر ، ــ بورجانديا ، وبيكارديا ، وبروفانس ــ ظلت دولتا خارج الدول القومية العظمى التى تكونت ، دولتان متسعتان ، وغنيتان ، وكانتا الأكثر قوة فى التصنيع فى ذلك الوقت : الأراضى المنخفضة ، وإيطاليا . وسوف تتجه حركة المد فى الغزو ، والخاص بالأمة الفرنسية ، صوب هذين الاتجاهين . وسوف تصر بالنسبة لإيطاليا ، بشكل واضح ، ولن تترك هذا الاتجاه ، إلا بعد نصف قرن من المحاولات ، ، ورغماً عنها .

١ ــ مسألة بريتانى كمقدمة للحروب :

كانت إيطاليا فى سنوات القرن الخامس عشر تمثل نوعاً من أنواع الممالك ، ويرجع ذلك لفضيلة واحدة تتمثل فى نبوغها وحضارتها . ولم يكن شرق القارة ، مثله فى ذلك مثل غربها ، يتمكن من التهرب من الإلتفات إليها . ففى بولندا ، وفى كراكوفيا ، تم بناء قصر واويل فى عصر سيجسموند الأول بمعماريين من فلورنسا . وفى موسكوفيا البعيدة ، وحيث لم يكن الفن القوطى قد تمكن من الوصول ، قام فنانون وفنيون إيطاليون ، إستدعاهم إيوان الثالث ، بالعمل فى الكرملين .

وإن ما كان يثير الأطماع فى شبه القارة ، لم يكن يتمثل فى إشعاع فنها ، ولا فى الاتجاه الانسانى الذى توطن فيها ، ولا حتى تلك الثروات التى كانت مكدسة فى مدنها . بل كان يتمثل فى أنها ، على العكس من الدول المجاورة لها ، لم

تكن قد دخلت بعد فى طريق الوحدة . وظلت منقسمة على نفسها ، وبعمق . فكان فى وسع كل واحد أن يجد لنفسه فيها أصدقاء ،وحلفاء ولذلك فإنها كانت تمثل أرضاً جيدة لمنافسات الدول العظمى ، وفريسة مغرية لذلك الذى تحركه روح الغزو والسيطرة .

وكانت فرنسا قد جربت قوتها على مسرح صغير . وكانت فى نفس الوقت أو على التوالى تصطدم بعداوة الأسرة الحاكمة فى النمسا ، والأسرة الحاكمة فى اسبانيا ، وفى إنجلترا ، ونجحت فى الانتصار عليها . ورغم أن مسألة وراثة بريتانى ترجع إلى التاريخ الداخلى لفرنسا ، أكثر مما ترجع إلى تاريخ علاقاتها بالدول الأخرى — خاصة وأن دوق بريتانى كان قد ظل نظرياً تابعاً لملك فرنسا — إلا أنه علينا أن نقف هنا قليلا ، إذ أن هذه الحالة تمثل من بعض أوجهها المثل الواضح للأزمات التى ستدفع الدول العظمى ، فى خلال القرن السادس عشر والقرون التالية ، إلى أن تتواجه مع بعضها وعلى أكبر المسارح .

ولقد كانت هناك أسباب جادة تدفع بالسياسة الفرنسية إلى أن تنظر إلى ناحية بريتانى قبل أن تعلن إهتمامها بإيطاليا . فكانت هناك أسباب سياسية فى أول الأمر : إذ أن الأمر كان يتعلق بإقليم كان كثيراً ماخدم ،خلال الحروب مع انجلترا ، كباب لدخول العدو . وكذلك أسباب إقتصاديه : إذ أن أبناء بريتانى كانوا قدأعطوا أنفسهم خلال النصف قرن الأخير دور الوسطاء البحريين ، وسطاء بين الدول العظمى الغربية ، وهو نفس الدور الذى سيقوم به الهولنديون فيما بعد . ويذكر لنا أحد المؤرخين ، قبيل ضم الإقليم للمملكة . « إن أبناء بريتانى فى خدمة كل العالم ، ويعملون فى الوساطة والنقل البحرى . ويؤجرون سفنهم للسفر فى أى إتجاه ، ويسعى كل من الفلمنكيين ، والانجليز ، والباريسيين ،

وأبناء تولوز ، وروان ، وبوردو ، وقشتالة ، والبرتغال ، إليهم ومن أجل خدماتهم » .

وتمثل مسألة بريتاني نفس المصالح المعقدة والمتداخلة مثل الحروب الإيطالية ، وإن كان ذلك بدون تنوع الارتباطات : فهي في نفس الوقت خاتمة الحروب الانجليزية ، ومقدمة الحروب بين فرنسا وبين الاسرة الحاكمة في النمسا .

وكان مكسميليان آل هابسبورج ، سيد الأراضي المنخفضة ، والامبراطور المقبل ، قد فعل كل شيء ، بعد وفاة لوي الحادي عشر ، من أجل خلق المشكلات لآن دي بوجيه ، الوصية باسم أخيها شارل الثامن ، وذلك بأمل إضعاف فرنسا ، وإستعادته لدوقية برجانديا . وخرج في عام ١٤٨٦ للحرب ، ولكنه إنهزم في آرتوا . وعلى هذا الأساس ثار الفلنكيون ضده ، وحصلوا على تشجيع لهم من باريس . ونتيجة لنداء مكسميليان ، إلتف حوله البريتون — في شكل عصبة إقطاعية وتكتل في نفس الوقت — وذلك مع كل أعداء ملك فرنسا . وكانت أول حرب في بريتاني ، وقعت في عام ١٤٨٧ ، وسميت « بالحرب المجنونة » . أرسل ومكسميليان الف وخمسمائة رجل للهجوم على سان مالو . وعبر كذلك بضع مئات من المتطوعين الانجليز إلى القارة ، رغم المنع القاطع من جانب هنري السابع ، الذي كان خجولا من الفرنسيين ، وبعد أن كانوا قد عاونوه على إستعادة عرشه . وإنهزم جيش البريتون مع أنصاره في عام ١٤٨٨ ، هزيمة ساحقة . ومع ذلك ، فإن معاهدة فرجيه لم تفرض أي إلتزام على الدوق فرانسوا الثاني إلا فيما يتعلق بعدم تزويج إبنته دون حصوله على موافقة الملك : شرط هام ، إذ أن مكسميليان كان قد تقدم لطلب يد الوارثة .

وتوفي الدوق ، بعد التصديق على المعاهدة مباشرة ، وأصبحت مسألة بريتاني أكثر إشتعالا عما كانت عليه في أي وقت مضى . واضطر هنري السابع ، رغم

مجهوداته من أجل البقاء على الحياد ، إلى أن يستجيب لنداءات رعاياه ، الذين كانوا قد ظلوا من أنصار الفرنسيين ، والذين طالبوا بضرورة مساعدة البريتون . فأرسل حملة صغيرة ، عسكرت فى مورليه ، وكونكارنو . وكان هناك بعض الألمان ، ولكن بأعداد أقل ، يتبعون الانجليز عن قرب ، وكذلك بضعة آلاف من الاسبانيين الذين كان فرناند صاحب أراجونه قد أرسلهم ، وكانوا يأملون فى إفشال مجهودات فرنسا التى كانت تنازعهم روسيليون ، وكرداني . وفى عام ١٤٨٩ ، تعهد ملك انجلترا ، وملك رومانيا ، بمعاهدة فرانكفورت بعدم ترك أى أحد يتعرض لاستقلال بريتاني . وفى العام التالى ، تم عقد التحالف مع « الملوك الكاثوليك » . وأخيراً ، تم عقد الزواج الذى كان مشروعه موجوداً منذ وقت طويل ، بين مكسميليان وبين آن صاحبة بريتاني : واحتفل بعقده فى رين ، ويتوكيل ورأى الفرنسيون فى ذلك نقضاً لمعاهدة فرجيه . ولذلك فإن الحرب بدأت وعاد ظهور الجنود البريطانيين بعد أن كانوا قد ركبوا سفنهم ، وجاءت الأنباء عن وصول قوة من الألمان ، ولكنها لم تصل فى الوقت المناسب . وكان الاستيلاء على رين ، بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، يتوج انتصار الفرنسيين . واضطرت الدوقة الصغيرة إلى ترك زوجها البرجاندى وإلى قبول خطيبها الفرنسى — الملك — الذى تقدم لها فى ظروف غير متوقعة . وبمعاهدة لونجية ، فى عام ١٤٩١ ، تم اتحاد الإقليم مع مملكة فرنسا ، وبشكل نهائى . ومنذ هذا الوقت لم تطرح مسألة بريتانى على الصعيد الدولى .

٣ — التدخل الفرنسى فى ايطاليا (الحروب الايطالية) : —

كان لوى الحادى عشر قبل موته قد وعد بتزويج وريثه من مارجريت النمساوية ، أبنه مارى صاحبة بورجنديا ، ومكسيميليان . وهذا الاتحاد ، الذى لم يتم ، كان سيعطى مملكة آرتوا وفرانش كونتيه ، أجزاء هامة من ميراث

بورجنديا . وعادت الخطيبة الشابة إلى بروكسل . ولما كانوا قد تباطئوا فى إعادة الأقاليم التى كانت الدوطة الخاصة بها ، والتى كانت قد تم إحتلالها مقدماً . فإن مكسمليان قد إضطر إلى العودة لأخذ هذه الممتلكات بالقوة .

وبدا أن الحرب سوف تنشأ . ولكن شارل الثامن ، بعد أن بلغ سن الرشد كانت له مشروعات أخرى : فكان يرغب فى الذهاب لمحاربة المسلمين ، ويبدأ ذلك بالإستيلاء على مملكة نابولى ، وبصفتها موقعاً متقدماً فى إتجاه الأراضى المقدسة . وإستند إلى حقوق ، تزيد أو تقل درجة صحتها،وجدها فى ميراث أسرة أنجو ، كذرائع له . وكان مضطراً ، من أجل السير فى هذه السياسة ، إلى تصفية المشكلات السابقة . وقام بذلك على خطوات ثلاث ، وبواسطة ثلاث معاهدات ، تتالت فى أقل من عام واحد . فمعاهدة إيتاب (٣ نوفمبر ١٤٩٢) أعادت العلاقات الودية مع إنجلترا . وكان هنرى السابع، بالإتفاق مع مكسميليان، قد أرسل بعض القوات لمحاصرة بولونيا . ولكنه إحتاج إلى المال : فجعله شارل الثامن يفك هذا الحصار نظير تعهده له بأن يدفع له تلك المبالغ التى كانت حكومة بريتانى ستقدمها له . وكانت لمعاهدة برشلونة (١٩ يناير ١٤٩٣) نفس النتائج من ناحية جبال البرانس . وكانت فرنسا تدير كونتيات روسيليون وكردانى ، الذى كان أحد ملوك أراجونه فى الماضى قد رهنها، عند لوى الحادى عشر وكضمان لسلفة ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه ذهب ، وأعادها شارل الثامن دون أن يطالب بإعادة دفع المبلغ المقترض . وأخيراً كانت هناك معاهدة سنلى (٢٣ مايو ١٤٩٣) التى جعلت مكسميليان ينهى الحرب.ولقد حاول ملك الرومانيين أن يهيج الرأى العام فى ألمانيا وفى الأراضى المنخفضة ، ضد ذلك الذى كان قد أخذ منه زوجته ولكنه فشل فى أن يجد الرجال والأموال. وكان سعيداً لأن شارل الثامن تنازل رسمياً عن دوطة مارجريت .

وهكذا أصبح الجو مهيئاً، وأصبح فى وسع الملك أن يتفرغ للاعداد لمشروعه. وبدأ أن كل شيء كان يعمل فى صالحه . فكان البابا أنوسنت الثامن قد جدد طلباً سابقا لبابا سابق لدى لوى الحادى عشر ، طالبا تدخله ضد ملك نابولى ، وبصفته من التابعين المناوئين . وكان ضمان تأييد الكنيسة للمشروع أمراً كبير الأهمية : حقيقة أن أنوسنت الثامن توفى ، وأن خليفته ، إسكندر السادس بورجيا سيأخذ موقفا مختلفا تماما. فكان دبلوماسيا بطبيعته، وكان ينوى إستخدام التهديد الفرنسى كوسيلة تسمح له بفرض رغباته على ملك نابولى ، وإن كان قد إقتصر على مجرد التهديد . أما شارل الثامن فإنه لم ير ما هو أبعد من التشجيعات التى كان الكرسى البابوى يرسلها إليه. وبعد موت ملك نابولى فى شهر يناير ١٤٩٤ ، إتفق خليفته مع إسكندر السادس،فقام هذا الأخير بالتوصية رسميا بإلغاء الحملة ولكن الفرصة كانت قد أفلتت .

ومنذ أن تحرك الجيش فى شهر سبتمبر فى ١٤٩٤ أعطى شارل الثامن لنفسه ، رسميا وعلنيا ، لقب « ملك صقلية وبيت المقدس » والذى كان ملوك نابولى من أسرة آنجو يحملونه . ونتيجة لتأثير الفزع الناتج عن تلك المدفعية التى لم يكونوا قد رأوا مثلها مع أحد الجيوش المحاربة ، كان التقدم سهلا وسريعا. وتقدم الجيش بدون مقاومة تقريبا ، ووصل إلى نابولى قبل نهاية شهر فبراير ١٤٩٥ . وعجز البابا عن مقاومة مروره ، ولكنه كان قد إستمر فى إظهار عدم موافقته على العملية وكان شارل الثامن قد حصل من الوارث الأخير للامبراطور البيزنطى فى القسطنطينية ، من أسرة باليولوج ، على تنازل عن حقوقه ، نظير دخل لمدى الحياة ؛ وأصبح من حقه إذن أن يحمل التاج الامبراطورى وفى نفس الوقت تاج نابولى . ويفسر لنا هذا الأمر هذين الإحتفالين اللذين شاهدهما أبناء

نابولى يوم ١٢ مايو ١٤٩٥ ، والذين نتج عنها إتهامه ، من جانب معظم المعاصرين بجنون العظمة ، وهم يجهلون ما كانوا يشاهدون .

وبعد ثمانية أيام إضطر الجيش إلى التقهقر ، ولم يترك فى نابولى إلا حامية بسيطة . وكان قد أصبح مهددا بالقضاء عليه ، وكأنه فى مصيدة . وتمكن الغزو الفرنسى من أن يحقق الوحدة المعنوية لإيطاليا . فكانت البندقية والكرسى البابوى على علاقات سيئة ببعضهما منذ وقت طويل ، وإضطرا إلى التصالح . أما الإمبراطور ، والملوك الكاثوليك ، فإنهم وعدوا بالعمل سويا من أجل المحافظة على السلم ، أى من أجل طرد أولئك الذين جاءوا من أجل الحرب . وإشتركت كل الدول والامارات الايطالية تقريبا ، وبإستثناء فلورنسا التى كانت حليفة تقليدية لفرنسا ، الواحدة بعد الأخرى ، فى عصبة البندقية . وعسكر جيش المتعاهدين ، والذى كان فى غالبيته من البنادقة ، فى سهل نهر بو . وبعد معركة فورنو العنيفة فى ٦ يوليو ١٤٩٥ ، نجح الفرنسيون رغم كل شىء فى التخلص من أعدائهم ، وفتحوا لأنفسهم ممرا صوب الشمال .

ولقد رفض شارل الثامن الاعتراف بأنه كان قصير النظر ، وأخذ فى الاستعداد للانتقام . وفى هذه المرة سيكون معه فرديناند صاحب أراجونه ، الذى إستهوته فكرة تقسيم مملكة نابولى إلى قسمين . وتفاوض معه فى عام ١٤٩٧ . وإستمر فى إستعداداته حتى توفى فجأة . وكما كان خياليا ومغامرا ، كان خليفته لوى الثانى عشر حريصا ويحسب حسابا لكل شىء . ومع ذلك ، فإنه سيتبع نفس الطريق الملىء بالمفاجآت . ذلك أن إيطاليا التى رأى أعوان شارل الثامن منها بعض الأجزاء كان من الصعب نسيان ذكرياتها . وكانت فكرة العودة إليها تستهويهم . ولا شك فى أنهم ضغطوا على الملك الجديد حتى يقودهم اليها مرة أخرى .

وكان لوى الثانى عشر من سلالة فيسكونتى ، والذين كانت أسرة سفورزا قد أخذت منهم الملك فى أواسط القرن الخامس عشر ؛ فكان من حقه أن يتقدم ببعض الادعاءات بشأن ميلانو . ومنذ وصوله إلى العرش اسمى نفسه « ملك فرنسا ودوق ميلانو » . وكان ذلك يحمل ، ضمنا ، اعلان الحرب على لودفيج سفورزا ، الدوق الحاكم هناك . وبطريق مباشر لم تكن المخاطر كبيرة . ذلك أن البنادقة ، جيران ميلانو ، كانوا أعداءا لهذه الدوقية : وتمكن ملك فرنسا من ضمان معاوناتهم بالمعاهدة التى عقدها معهم فى لوسرن فى ١٦ مارس ١٤٩٩ . ومن جانب آخر ظهر أن الوفاق مع فرديناند صاحب أراجونه كان قويا . وتأكد ذلك فى معاهدة ماركوس فى ٥ أغسطس ١٤٩٨ . وكان من الضرورى فقط عمل حساب للموقف العدائى من جانب مكسميليان . ذلك أن لودفيج سفورزا كان قد حصل على تأييد ذلك « الامبراطور المفلس » والذى كان نظريا صاحب السيادة عليه ، وذلك بجعله يتزوج إبنة أخيه ، بيانكا سفورزا ، والتى كانت دوطتها الملكية تصل إلى ٤٠٠٫٠٠٠ دوق ، وجعل نفسه بهذه الطريقة عولا له . ولكن مكسميليان كان بعيداً ، وكان منذ عام ١٤٩٥ قد أظهر أكثر من مرة ما يدل على ضعفه . وكان قد بدأ عمليات حربية ضد الفرنسيين على حدود برجنديا ، ولم يحصل منها إلا على الهزائم . وفى مدة شهرين (أغسطس — سبتمبر ١٤٩٩) قامت قوات ملك فرنسا بغزو كل أراضى ميلانو . أما لودفيج سفورزا فإنه لم يحصل إلا على ثلاثمائة جندى ألمانى ، فإلتجأ إلى الأراضى النمسوية ، وتمكن من الحصول على قوات أخرى فى الأشهر الأخيرة من السنة ، وإستخدم بعض السويسريين ، ثم بدأ الهجوم فى أثناء الشتاء . وتمكن من إستعادة أراضى ميلانو فى شهر فبراير عام ١٥٠٠ ، ثم فقدها فى شهر أبريل . وفى هذه المرة وقع الدوق فى الأسر : وسيموت فى فرنسا بعد سنوات صعبة كأسير . أما جمهورية

جنوه ، والتى كان مصيرها مرتبطاً بأراضى ميلانو ، فإنها قبلت ، وبحرية نسبية، سلطة ملك فرنسا .

وفى اليوم التالى لهذا النجاح، عاد لوى الثانى عشر من جديد لمشروعات شارل الثامن المتعلقة بنابولى . وكان قد حصل على رد إسكندر السادس عن طريق منحه الهدايا لابنه المفضل قيصر بورجيا . وبدأوا يتحدثون بطريقة جدية عن حملة صليبية. وبدأ هذا الملك المسيحى على أنه الأمير الوحيد الذى يقدر على بذل مجهود فعال ، والوحيد الذى يمكن أن يعهدوا إليه بإدارة مثل هذا المشروع . ولكى يضمن معونته ، أعطاه البابا سلطة مطلقة ضد ملك نابولى ، الذى أتهم فى ذلك الوقت بأنه يعمل فى صالح المسلمين . وكان ملك فرنسا قد قام بالاتفاق مع الاسبانيين بوضع مشروع للغزو المشترك، وذلك فى معاهدة غرناطة فى ١١ نوفمبر عام ١٥٠٠ . وفى الصيف التالى،وبينما كانت القوات البحرية تستعد للاقلاع صوب الشرق ، قام جيش فرنسى وجيش آخر إسبانى بالاستيلاء على مملكة نابولى. ولكن هذا الإحتلال الثانى كان قصير الأمد ، مثله فى ذلك مثل الإحتلال الأول. فوقعت أحداث ، ثم إصطدامات ، بين الجيشين . ولما كانت الحكومتان قد فشلتا فى التفاهم على شروط التقسيم ، فإن حلفاء الأمس وجدوا أنفسهم إبتداء من وسط عام ١٥٠٢ فى حالة إعتداءات مستمرة .

وإضطر الفرنسيون الموجودين فى نابولى إلى أن ينسحبوا ويتجهوا صوب الشمال. ولقد قاوموا لمدة بضعة أشهر فى جايتا . وفى هذا الوقت توفى البابا إسكندر السادس وكانت الإمكانيات الجديدة التى قد تحدث تجبرهم على البقاء لأشهر طويلة قرب روما ، خاصة وأن الكاردينال جورج دامبواز ، المستشار الرئيسى لملك لوى الثانى عشر ، كان يعتقد أن فى وسعه التأثير على الإنتخابات البابوية القادمة .

وفى شهر ديسمبر إنهارت هذه الآمال ، وعاد النشاط العسكرى إلى منطقة جايتا التى ظهر فيها تفوق بايار . وتمكن الإسبانيون ، الذين كانوا يتمولون من نابولى ، من الإنتصار . وفى الأيام الأولى من شهر يناير عام ١٥٠٤ إنسحبت حامية جايتا من مواقعها ، بعد أن سمحوا لها بالرجوع إلى فرنسا عن طريق البحر . وكان هذا نهاية السيطرة الفرنسية فى بلاد نابولى أما مملكة الصقليتين ، التى أعادوا إنشائها فى صالح المنتصرين ، فإنها ستصبح من الممتلكات الإسبانية لفترة تزيد على قرنين ، وحتى عام ١٧١٣ .

٣ ـ الخلاف بين فرنسا والبابا :

فيما بين عامى ١٥٠٤ ، ١٥٠٨ عرف الغرب بضع سنوات من السلم ، إستمرت خلالها الدبلوماسية فى العمل .

وبدأت جولة فيما بين لوى الثانى عشر ومكسميليان ، ولعب فيها فيليب الجميل ، إبن الإمبراطور ، وسيد الأراضى المنخفضة ، دوراً هاماً . وكانت سياسته سلمية تحت تأثير مستشاريه البلجيكيين . وأظهر ذلك فى أول الأمر تجاه إنجلترا : فوضع بذلك حداً لذلك الخلاف الذى كان قد إستمر بين البلدين لعدة أعوام . ودل على التكامل بينهما تلك الإتفاقيات المتتالية الخاصة بالمدفوعات فى عام ١٤٩٩ ثم فى عام ١٥٢٣ والتى كانت تنص على الحرية والأمن الخاص بالتبادل من كلا الجانبين . وكان فيليب قد أعاد العمل بها بمعاهدة ١٤٩٦ . وكان يحلم من الجانب الفرنسى ، بأن ينهى بطريقة مشابهة على ذلك التوتر المستمر والذى كان قد نشأ نتيجة لسوء التفاهم بين الملك والإمبراطور . وبناء على توجيهاته ، قرر مكسميليان أن يسير على طريق التقارب رغم أنه كان لا يزال يشك فى لوى الثانى عشر وعلى أساس أنه يرغب فى أخذ الإمبراطورية منه (أو

كان على الأقل يتهموه بذلك حتى يحاول التأثير فى الرأى العام فى المانيا) . وتم وضع اتفاقية فى ليون فى شهر أغسطس فى عام ١٥٠١ ، تلتها معاهدة وقع عليها كاردينال دامبواز بإسم ملكة فى ترانت يوم ٣ أكتوبر ١٥٠١ . ورسم ذلك أمر أعطاء ميلانو لشارل ، ابن فيليب الجميل ، الذى سيتزوج بإبنه لوى الثانى عشر الوحيدة ، وبشرط ألا يكون لها أخ : ولكن الملك كان يأمل فى أن يولد له ابن . وتعهد مكسميليان بأن يعطى لشارل مباشرة مرسوماً بحكم ميلانو . ولكنه أصر على ضرورة بقاء هذه التسوية سرية . ولما فشل فى الحصول على مثل هذا الوعد ، ترك المعاهدة بدون تنفيذ .

ولذلك فإن فيليب الجميل قد إضطر إلى بدء مجهوداته من جديد . وعادت المفاوضات ، وانتهت فى عام ١٥٠٤ بمعاهدة بلوا ، واضيفت برجنديا إلى دوطة كلود ، أبنة لوى الثانى عشر ، وكان مرسوم حكم ميلانو سيمنح فى فترة ثلاثة أشهر لخطيبها ، أو إلى الملك فى حالة حصوله على ابن ذكر . وجاء تغيير آخر فى السياسة الفرنسية لكى يلغى كل نتائج هذه المفاوضات الطويلة . ذلك أن لوى الثانى عشر قرر أن يتخلى عن الأمل فى الحصول على ابن ، وحاول أن ينظم أمر خلافته ، فأعلن خطوبة ابنته كلود إلى أقرب أقربائه ، وهو الذى سيرثه من بعده : فرانسوا صاحب انجوليم : وكان ذلك يعتبر الغاء لتعهدات بلوا . وثار مكسميليان لذلك ، وأخذ فى الاستعداد العسكرى ؛ وحين توفى فيليب الجميل فجأة ، فى شهر سبتمبر ١٥٠٦ ، حول إنتباهه صوب الأراضى المنخفضة . وكانت العملية هامة ، إذ أنه فيليب ، الذى كان يحصل على حقوقه عن طريق والدته ، لم يكن يمارس أقل سلطة على ميراث بورجنديا . وسيتغير الموقف بشكل تام . فكان حفيدة ، شارل لا يزال قاصراً ، وكان الأمر يتطلب وضعه تحت الوصاية . ونجح فى أن يحصل على هذه الوصاية من مجلس طبقات الأمة . وأرسل ابنته مارجريت

أرملة دوق سافوا ، إلى بروكسل، لكي تمثله هناك . وقامت مارجريت، التي كانت مخلصة تماماً لوالدها، بتأييد مشروعاته إلى حد بعيد، مع آخر رعاياه من الفلمنكيين.

وكانت الحاكمة الجديدة للأراضي المنخفضة لا تقل عن أخيها فيليب في الرغبة في السلم ، سواء كان ذلك بالضرورة ، أو نتيجة لميلها الشخصي . وكانت فكرتها تتمثل في أن تعمل على ربط الملك والإمبراطور وتشركهما في عمل مشترك ، وهو القيام بحملة صليبية . وعلى هذا الأساس بدأت المحادثات مع كاردينال امراز في كامبراي . وسرعان ما تحدثوا عن البنادقة الذين كانوا على علاقات وثيقة مع العثمانيين ، في الوقت الذي كانوا لا ينفذون فيه مصالح ، ولا يعترفون فيه بحقوق الكرسي البابوي في إقليم رومانا . وانتهى الأمر بالاتفاق على ضرورة إعطائهم درساً . وكان مكسيمليان على علاقات حذره معهم بشأن ممتلكاته على سواحل بحر الادرياتيك ، وبنوع خاص بشأن كونتية جورتس ، وحين ذهب إلى إيطاليا ، في الوقت الأخير، بقصد الذهاب لتتويج نفسه في روما، نشبت عمليات عدوانية ، وسقطت تريستا وفيومي في ايدي البنادقة ،وكانت الهدنة التي اضطر إلى التوقيع عليها قد تركتهم سادة لهذه المواقع .وبدت هذه المناسبة فرصة مواتية للانتقام . ولذلك فإنه كان على ملك فرنسا أن يعيد احتلال ذلك القطاع من أراضي ميلانو الذي كان قد دفع ثمناً له ، في عام ١٤٩٩ ، حياد البندقية . وستحصل البابوية على اعادة فرض سيادتها على مدن رومانا التي كانت قد إنتزعت منها في القرن الماضي . وستعطي مملكة نابولي ميناڤي برنديزي وترانت اللذين كانا قد تم التخلي عنهما في عام ١٤٩٥ وقت انشاء عصبة البندقية . وكان هذا هو محتوى الفقرات السرية التي تم الاتفاق عليها في كامبراي في ١٠ ديسمبر ١٥٠٨ ؛ أما المعاهدة المعلنة فإنها لم تتحدث الا عن تعاون من أجل الدفاع عن المسيحية ضد العثمانيين .

ووافق البابا يوليوس الثاني ، بعد تفكير عميق . وكان لا يوافق على وجود

الفرنسيين فى شبه الجزيرة : وكان قد أظهر ذلك حين ذهب إلى جنوه ، لوى الثانى عشر وقمع حركة استقلال ، وكان البابا من مواليد جنوه . ولكن الأمر كان يتعلق فى ذلك الوقت بإعادة سلامة أراضى البابوية ، وبمعاقبة البنادقة ، والذين كان غرورهم وإهاناتهم قد فاقت الحدود : ومن أجل هذا الهدف راقق على المخاطرة بأن يأتى إلى إيطاليا ، ومرة جديدة ، بنيران الحرب وأصدر قراراً بحرمان البندقية ، التى إستسلمت بسرعة : وهزمت قواتها المرتزقة فى أول معركة عند أجناديل فى ١٤ مايو ١٥٠٩ . ولم تتشبث البندقية بموقف معين ، بل دخلت بسرعة فى محادثات مباشرة مع روما ، وحصلت فى مدة تقل عن شهرين بعد ذلك على وعد بإلغاء الحرمان : وأعادت بمعاهدة ١٢ فبراير ١٥١٠ معظم المدن التى كان يطالب بها الكرسى البابوى مثل رافينا وريمينى وغيرها . ولم يكن يهمها بعد ذلك أن يحضر مكسميليان ، والذى كان قد تأخر ، ويظهر من جديد فى إيطاليا مع جيشه ، ويلهث فى محاولته أخذ بادوا . ومنذ هذه اللحظة تم إنقاذ الجمهورية . وصدر لها القرار البابوى برفع الحرمان فى ٢٤ فبراير ١٥١١ . وأنهى يوليوس الثانى أعماله بقلب الأوضاع وأخذه موقفاً ضد حلفاء اليوم السابق ، وإتهمهم بالوحشية والبربرية . ولقد قرر هذا البابا « الإيطالى » ، أن الوقت قد حان لكى ينتهى مع الأجانب . وكان الأجانب الأكثر تهديداً لإيطاليا هم الفرنسيين . وعمل على أن يثير ضدهم كل جيرانهم . وسيقوم أحد هؤلاء الجيران بالدخول إلى هذه اللعبة دون أى تحفظ ، ويمنحه تأييداً كبيراً : وكان هذا يتمثل فى كانتونات سويسرا .

ولعب السويسريون خلال عدة سنوات الدور الرئيسى والذى لا يشرحه قربهم من ميدان العمليات العسكرية إلا بشكل جزئى . وكانت مسألة ميلانو تهمهم بشكل خاص ، إذ أنهم كانوا يستوردون من لومبارديا جزءاً هاما من القمح الذى يحتاجون اليه ، وكانت لهم مع فرنسا ، التى كانت تجند لديهم قواتها من المشاة ،

علاقات حسنه منذ وقت بعيد . وكانوا قد أصبحوا حتى حلفاء لها بمعاهدة ١٦ مارس ١٤٩٩ . ولكن لوى الثانى عشر كان ملكا مقتصدا ، وبذل مجهودا من أجل الإستغناء عنهم ، وذلك عن طريق تنظيمه لقوات من « المغامرين » (أى من المشاه) من الفرنسيين ؛ ونتج عن ذلك فتور فى العلاقات بين الجانبين . وأخيرا فإن كانتونات سويسرا لم تكن ترغب فى رؤية ميلانو تقع فى أيدى دولة عظمى ، يصعب عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضدها إذا ما هاجمت تموينهم . وحاول يوليوس الثانى أن يغير من هذا التفكير الجديد مع أخطر عدو يمكن لفرنسا أن تجده فى سويسرا ، مع ماتياس شينر ، أسقف سيون ، الذى سيصبح كاردينالا . وتم عقد ميثاق فى عام ١٥١٠ ، ولمدة خمسة أعوام : فكلما أصبحت الكنيسة أو رئيسها أو أراضيها مهددة ، سترسل الكانتونات للبابا ستة آلاف رجل .

وحاول لوى الثانى عشر أن يحارب هذا العمل المهدد من جانب دبلوماسية البابا بنفس طريقته ، وبمعونة رجال الدين فى فرنسا ، وعن طريق مجمع بيزا ، وهو مجمع بدون وجود البابا فيه ، والذى سيتقرر فيه ، وضد البابا أمر اصلاح الكنيسة . وحصل بسهولة من رجال الدين الفرنسيين ، والذين كانوا غاليين إلى حد بعيد ، على ذلك التأييد المعنوى الذى كان فى حاجة اليه . وفى نفس الوقت إستدار صوب الامبراطور ، وقام بالاتفاق معه ، ونشر فى ميلانو قرارا يستدعون فيه إلى بيزا ، يوم أول سبتمبر ١٥١١ ، ممثلى الكنيسة العالمية ، وتبعا للصيغة التى اتفقوا عليها وهى دفى رئيسها وفى أعضائها» . وكان هذا سلاحا خطيرا . وأداره البابا ضد خصومه ، بإستدعائه مجمعا آخر ، وكان عليه أن يجتمع فى اللاتيران . وفى هذه المعركة الغريبة للمجامع سيكون البابا هو الذى سينتصر ، خاصة وأن ملوك اسبانيا وانجلترا كانوا قد رفضوا ان يتبعوا لوى الثانى عشر ومكسميليان . أما المجمع الذى أشرف عليه خصوم روما فأن وجوده سيكون ضعيفا ، وتنقل

على التوالى ، وبسبب عداء الأهالى أو الضرورات العسكرية ، من بيزا إلى ميلانو ثم إلى أوستى ، وبعد ذلك إلى ليون . وعلى العكس من ذلك كان مجمع اللاتيران الذى رأسه يوليوس الثانى يمثل انتصارا فعليا لسياسته .

وبعد بضعة اسابيع من الافتتاح علم الناس ان « عصبة مقدسه » قد تكونت ، وانها تضم الكرسى البابوى ، والبندقية ، وأسبانيا ، من أجل الدفاع عن وحدة الكنيسة وسلامة الممتلكات البابوية فى ٥ أكتوبر ١٥١١ : وأعلنت أنها مفتوحة لكى ينضم إليها كل الملوك المسيحيين ، وانضمت اليها انجلترا هنرى الثامن ، وعملوا على الحصول على انضمام مكسميليان عن طريق مصالحته مع البندقية . وفى خلال ذلك الوقت عرف البابا وحلفائه أوقاتاً عصيبة . فلقد حدث هجوما فرنسياً مفاجئاً فى وسط الشتاء ، وأدى إلى انتصار كبير فى رافنا على قوات البندقية والقوات الأسبانية والبابوية فى عيد الفصح عام ١٥١٢ . وعندئذ حان وقت السويسرين . ووصلوا وبلغ تعدادهم ١٨٫٠٠٠ رجل ، بينما كانت اعداد الفرنسيين قد ضعفت نتيجة لانسحاب بعض الالمان من صفوفهم ، وعودتهم إلى ألمانيا . وكان عدم التناسب بين القوات الموجودة من الجانبين قد وصل إلى حد يجعل المقاومة بدون جدوى . وبعد الاستيلاء على بافيا ، لم يعد على السويسرين إلا أن يطردوا أمامهم حرس المؤخرة من الفرنسيين . وانتهز أهالى جنوه فرصة هذه الاحداث ، وقاموا بالثورة ، وحرروا أنفسهم . وكان نهاية شهر يونيو عام ١٥١٢ هو نهاية الحكم الفرنسى فى ايطاليا ، لفترة من الزمن .

وكان مكيافيللى ملاحظاً ومنتبها كثيرا وقد تأثر كثيراً بأحداث عام ١٥١٢ وفى مقالته عن « صورة لفرنسا » التى كتبها فى ذلك الوقت ، ذكر أن الفرنسيين لم يعد عليهم أن يخشوا أى شىء على الانجليز ، اعدائهم السابقين ، ولا من الاسبانيين ، ولا من الفلمنكيين ، بل عليهم على العكس من ذلك أن يحترسوا من السويسريين ، الذين

يمكنهم أن يهاجموهم فى أى وقت ، والذين لهم مشاه منقطعى النظر .

وأصابت هيبة فرنسا ضربه شديدة . اما الامبراطور فإنه تمكن من جانبه من ان ينسحب من هذه المغامرة دون خسارة كبيرة . وعمل على التقرب من البابا قبل نهاية مجمع اللاتيران الذى اشترك فيه سفيره . وأفاد من الظروف الموجودة لعقد علاقات وثيقة مع ليون العاشر .

وفى وقت وفاة يوليوس الثانى فى ٢٠ فبراير ١٥١٣ ، كانت الوضعية السياسية قد تغيرت تماماً . فكان لوى الثانى عشر قد أصبح معزولا . اما الامبراطور فإنه دخـــل فى صفوف خصومه السابقين ، وتفاوض مع ملوك اسبانيا ، وانجلترا وكذلك مع البابا . وتحت تأثير إبنته ، مارجريت النمسوية ، علم انه هو أيضاً ، له «ميراث» يطالب به ، وهو ميراث أدواق برجنديا ، ميراث الشجاع . ولقد وعد بتأييد هنرى الثامن ، الذى كان يرغب فى التدخل فى فرنسا من أجل توسيع رأس جسر كاليه . ولذلك فأن جيشاً مشتركا من الانجليز وقوات الامبراطورية جاء يهدد إقليم بيكاردى . وبينما كان مكسيليان ، كما هو الحال دائما ، غير قادر على أن يعمل بقوة ، وترك جنوده بدون تعبئه على الحدود ، تمكن الانجليز الذين انتصروا فى جينجات من أن يستولوا على تورناى ، وبدأوا فى حصار ترواان . اما فرديناند صاحب أراجونه ، فأنه غزا مملكة نافار وحيث كان هناك صراع على السلطة منذ سنوات بين الفرنسيين وبين الاسبانيين . وفشل جيش فرنسى ذهب إلى ماوراء البرانس امام بامبيلونه ، وإضطر إلى الانسحاب .

وفى اثناء ذلك الوقت ، لم يكن لوى الثانى عشر قد قبل أمر فقد أراضى ميلانو . ومرة جديدة ، عبرت قواته جبال الألب ، ومرة جديدة ، نزل السويسريون من جبالهم ، ومسحوا سهل البو ، وطردوا الفرنسيين بعد معركة سريعة أمام نوفسار فى شهر يونيو ١٥١٣ . ولم يقتصروا على ذلك . بل قاموا بهجوم آخر

صوب الغرب فى إتجاه ديجون . واضطر القائد الذى يدافع عن ديجون إلى أن يتفاوض بسرعة مع السويسريين . ولكن الشروط التى كتبت لم يصدق عليها الملك . ومن حسن حظ فرنسا أن هذا التكتل كان غير مترابط بطريقة فعالة ، وترك نفسه يتفكك بسهولة أثناء عام ١٥١٤ ، العام الأخير من حكم الملك . وقام البابا الجديد ، ليون العاشر ، بعقد الصلح ، نظير تعهد لوى الثانى عشر بالتخلى عن المجمع . أما فرديناند فإنه سقط تحت إغراء امكانية إعطاء ميلانو لأحد احفاده ، الذى سيتزوج إحدى أميرات فرنسا . وأخيرا فإن هنرى الثامن ، والذى كان فى حاجة إلى المال ، قد حصل على مبالغ كبيرة من أجل الخروج من الحرب : فسيحصل من ملك فرنسا على معاش سنوى، وفى نظير ذلك يعطيه يد أخته مارى . واضطر مكسيميليان ، الذى أصبح معزولا ، إلى إستدعاء قواته . وكان السلم قد عاد منذ وقت قصير حين توفى لوى الثانى عشر ، فى أول يناير ١٥١٥ .

٤ — موقعة مارينيان (١٥١٥) والسلم :

قامت فرنسا ، فى عهد شارل الثامن ، ولوى الثانى عشر ، بتنفيذ سياسة لها إتجاه توسعى . وهى تحمل، بطريق غير مباشر ، مسئولية ذلك الاتجاه التسلطى (الامبريالى) الجديد ، الذى سيثير الفوضى فى الغرب ، والتى ستكون هى نفسها فريسة له ، وهو الاتجاه التسلطى لشارل الخامس . والواقع أن الإتحاد بين الامبراطورية وإسبانيا سوف ينتج عن زواج عقد ، فى عام ١٤٩٤ ، وتحت تأثير النجاح الأول لشارل الثامن فى إيطاليا . وكان « الملوك الكاثوليك » قد وجدوا أنه من الأوفق الاتحاد بطريق وثيق مع مكسيميليان ، وقررا أن يتزوج إبنهما ووريثهما ، جوان ، إبنة الامبراطور ، وان تتزوج إبنتهما ، جوانا ، فيليب الجميل ، إبن مكسيميليان . ولكن جوان توفى فى عام ١٤٩٧ دون أن يترك وريثاً . ولم يكن له سوى أخوات : فورثته جوانا . وولد من هذا الزواج إبناً ، هو

شارل . ومنذ مولده كان من السهل التنبؤ بأنه سيحمل فى يوم من الأيام ، وفى نفس الوقت ، تاج الإمبراطورية وكذلك تاج قشتالة وأراجونة . وسوف يتم ذلك فى عام ١٥١٩ ، وفى الوقت الذى تكون فيه الشعوب قد نعمت بمزايا السلم .

وفى السنوات السابقة ، كانت المجهودات السلمية لمرجريت النمسوية تلغيها الاتجاهات المشتعلة والكثيرة المطالب ليوليوس الثانى . ومنذ عام ١٥١٣ ، كان يحتل عرش القديس بطرس البابا ليون العاشر ، وكان رجلا مختلفاً تماماً ، وأكثر مرونة وبكثير ، وأكثر واقعية . وتوقفت السياسة البابوية عن عملية النفخ فى النيران الموجودة فى إيطاليا ، وأثبتت حكمتها فى إتفاقها مع تلك الرغبة القوية للتوسع التى كانت تحرك الفرنسيين .

وكان فرانسوا الأول ، منذ وصوله إلى العرش ، قد قاد بدوره جيشاً عبر الجبال . أما السويسريين ، الذين إستدعاهم مكسميليان سفورزا ، فإنهم لم يتمكنوا من وقفه عند ماريفيان ، فى ١٤ سبتمبر ١٥١٥ . وللمرة الثالثة فى خلال فترة خمسة عشر عاماً ، شهدت ميلانو الدخول المنتصر للغزاة . وعندئذ قرر ليون العاشر ، الذى أسف على أنه قد أخذ موقفاً مع فرديناند ومكسميليان فى صالح حقوق سفورزا ، على أن يذهب لمقابلة المنتصرين ، وأن يتفاهم معهم . وكانت مقابلة بولونيا،فى شهر ديسمبر ١٥١٥ تثبيت للعالم أن الحرب قد إنتهت فى إيطاليا . وبدأوا فى العمل من أجل تحقيق المشروع العظيم ، الخاص بالحملة الصليبية . وقطع فرانسوا الأول على نفسه تعهدات رسمية فى هذا الشأن .وفى نفس الوقت كانت المسألة المثيرة بشأن العلاقات بين كنيسة فرنسا ، وبين الكرسى البابوى ، والتى كانت معلقة منذ بضعة أجيال ، موضوعاً لتسوية من حيث المبدأ ، ستخرج منها الكونكوردات .

ولم يكن الناس قد تحدثوا فى أى وقت مضى عن السلم بمثل هذه الآمال الكبار ،

كما حدث فى السنوات التى جاءت بعد ماريفيان . وعند كل المتحاربين بالأمس ، لم يكن هناك موضوع سوى الإتحاد من أجل الحروب الصليبية . وكرر البابا النداءات . وأخذ فى إعداد أسطول ، وفى جمع الأموال ، ووضع خطة لحملة بواسطة مجلس كرادلة . وإعتقد أنه على وشك النجاح ؛ ولكن سرعان ما إضطر إلى الاعتراف بأنه قد أخطأ . ذلك أن كل أمير وجد أسباباً جيدة لتأجيل إتخاذ القرار الخاص بمشاركته التى كان البابا قد طلبها : أما ملك فرنسا ، من ناحيته ، فكان لا يلتفت سوى لألمانيا ، وحيث كانت مسألة خلافة مكسميليان على العرش لا تتأخر كثيراً عن طرح نفسها . ومع ذلك ، ومن أجل عدم رغبته فى جعل الرأى العام يفقد الأمل ، أعلن أنه ، فى حالة إنتخابه ، سيكون قبل مضى ثلاث سنوات فى القسطنطينية ، أو تكون حياته قد إنتهت .

وطلب ليون العاشر عقد هدنة لمدة خمس سنوات . وذهب غيره إلى ما هو أبعد من ذلك . وفى إنجلترا ، كان هنرى الثامن ووزيره ، الكردينال ولسى ، يحلمان بالوصول إلى سلم عام ، يكونون هم محكمين من أجل الوصول اليه،وبدرجة أحسن من تحكيم البابا ، إذ أنه لم تكن لهم مصالح فى إيطاليا . وعملت الظروف على التقارب بين ملك فرنسا وملك إسبانيا : فكان فرديناند قد توفى فى عام ١٥١٦ ، وقام خليفته ، وهو حفيده شارل آل هابسبورج ، بالاتفاق مع فرانسوا الأول من أجل إعلان دفن كل الخلافات السابقة ، وذلك فى معاهدة نيون فى ١٨ أغسطس عام ١٥١٦ . أما مكسميليان ، فإنه ، برغبته أو رغماً عنه ، قد تبع هذه الحركة ،ووافق على أن يوقع مع ملك فرنسا على إتفاقية يضمنان بها ممتلكات الواحد والآخر من بينهما (معاهدة كامبراى ، فى ١١ مارس ١٥١٧) . وكانت ، كمقدمة للحملة الصليبية المقترحة ، عبارة عن إنهاء عام لمشاكل الماضى . وكذلك إنجلترا ، فانها قامت من ناحيتها بتقديم نصيبها من أجل إقامة السلام . وكان

وولسى الطموح يرغب فى أن يكون الحجز الذى يقدمه ، هو حجر قمة العقد ، وجاءت معاهدة لندن ، فى ٤ أكتوبر ١٥١٨ ، لكى تكون فى أساسها تسوية مع فرنسا ، تسوى الخلافات السابقة ، وتعيد تورناى ، وتعد باعطاء ولى عهد فرنسا يد مارى تيودور ، إبنة هنرى الثامن . ولكنهم أسموه ، وبكل تفخيم « السلم الدائم » ، تشبيها بذلك الصلح الذى عقده فرانسوا الأول مع الكانتونات السويسرية ، فى ٢٧ نوفمبر ١٥١٦ . وكان عليه أن يظل مفتوحاً لكى ينضم اليه كل الأمراء الآخرين ممن لهم رغبة صادقة فى السلم .

ونظر البابا بنوع من الحقد لهذه المحاولة الانجليزية ، التى حرمته من ميزة تهدئة أوربا ، ولكنه مع ذلك لم يقدر إلا على أن ينضم اليها ، بالاتفاق مع شارل ، ملك اسبانيا الجديد . وفى نفس الوقت ، توفى مكسميليان ، فى شهر يناير ١٥١٩ .

الفصل السابع

امبراطورية شارل الخامس

كان انتخاب شارل ملك أسبانيا للامبراطورية ، فى ٢٨ يونيو ١٥١٩ ، ضربة شديدة للشعوب ، ولآمالها العامة. وسرعان مايؤدى ذلك إلى قلقلة الهدوء . وعلينا أن نعترف بأنه إذا كان ملك فرنسا قد نجح فى انتخابات فرانكفورت ، وبدا فى احدى اللحظات أن إمكانيات ذلك كانت كبيرة ، فإن ذلك كان سيؤدى إلى فائدة كبيرة بالنسبة للسلم . ولم يكن من السهل عليه بعد ذلك أن يتهرب من مشروع الحملة الصليبية . وكان هذا سيؤدى بطبيعة الحال إلى أن تنتهى الحروب الإيطالية تلقائيا . وكانت فرنسا ستستمر فى ممارسة تفوقها ، والذى كان يضمنه لها كبر حجم سكانها ، وضخامة امكانياتها المالية ، وتقدمها على طريق الوحدة ، ومركزية السلطة المطلقة .

١ - شارل الخامس :

كان الرجل الذى نجح فى هذه المهمة الضخمة ، ولكى يحكم إسبانيا ، والعالم الجديد ، والامبراطورية ، بلاشك على مستوى هذه المسئولية . وكانت له الميزات التى تتطلبها ممارسة هذه السلطة العليا . عزيمة قوية ، يحركها ذكاء كبير ، وعناية ضخمة فى القيام بواجباته ، ويساندها الشعور بالواجب وبالمسئوليات . ومع ذلك فإن فترة حكمه التى بلغت أربعين عاما سوف تنتهى بفشل مزعج .

وربما كان من الصعب تفادى الفشل . ومع ذلك فإنه لم يرجع إلى شخصية شارل الخامس فى مجموعه . ورغم أنه كان قد أمضى شبابه فى أوربا التى كانت قد تأثرت بروح النهضة ، فإنه كان قد ظل من رجال العصور الوسطى . ولم يكن

قد فهم تماما معنى العصر الحديث . وبينما تزايدت وتكاثرت الدولة التى نشأت طبقا لمبدأ القوميات ، ظل مخلصا للمثل الأعلى الذى يتمثل فى اتجاه عالمى كان قد إنتهى . واستمر فى التحدث عن الجمهورية المسيحية ، وعن حروبه الصليبية ، لأمراء كانت لهم مشغوليات أخرى ، ومختلفة تماماً عن ذلك ، ولم يكتشف معنى ذلك التناقض الخطير بالنسبة لهذه المغامرة التى كان قد دخل فيها : اعادة إقامة ذلك الصرح شبه المهدم — الامبراطورية المقدسة — والتى كان ظلها وحده يكفى لإثارة كل جيرانها . وكان عليه أن يواجه تلك الاتهامات التى وجهت إليه بأنه يرغب فى الوصول إلى ملك العالم . ولقد اعاد إليه ذلك روح وإتجاه أسلافه الكبار ، مثل برباروسا وفريدريك الثانى .

وكان عليه أن يواجه عقبة بعينها ، لم يكن فى وسعه أن يتنبأ بها ، من بين كل العقبات التى ستواجهه : أنها هرطقة الاتجاه الجديد الذى كان لوثر قد أعد له . وكانت هذه الحركة الخاصة بالاصلاح الدينى لاتزال فى بداياتها الأولى فى الوقت الذى وصل فيه إلى ألمانيا . ولكنها انتشرت بسرعة ، وعملت على نشر الفرقة داخل كل البلاد . وكانت نيات الكرسى البابوى فى الماضى قد عملت على شل الكثير من طموحات الامبراطورية . ولم يكن أحد يفكر فى أنها سوف تظهر من جديد على ارضية الدفاع الدينى فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه فى مسألة إيطاليا . وكان ذلك يمثل وضع العقبات فى طريق كل المجهودات التى تبذل من أجل التقارب بين المسيحيين . وكان الباباوات قد فقدوا ذلك المعنى الهام للمصالح العامة للعالم المسيحى ، والذى كان يمثل بدرجة كبيرة شخصية الامبراطور . ولم يكن ليون العاشر ، الذى توفى فى عام ١٥٢٢ ، وبعد أن كان قد أصدر قراراً بالحرمان ضد لوثر بقليل ، استثناءاً للقاعدة . وكان هناك الكثير ، على طريقته ، من رجال عصر النهضة ، والبعض منهم قد تأثر بإتجاه إرزم ، وكانت

غالبيتهم العظمى تخضع للمشغوليات الزمنية . وكانوا يظهرون الإحتقار تجاه ذلك المجمع العام الذى فرضته الظروف الخطيرة فى ذلك الوقت ، والذى طالما طالب الامبراطور بعقده ، وأن كان يمكنه أن يقف فى وجه اتجاهاتهم المطلقة ، وعملوا على تأجيل انعقاده من عام لعام آخر . ومن ناحية أخرى ، ظلوا مخاصين لخطهم السياسى العام ، وأظهروا عداوتهم لإتساع السيطرة الامبراطورية على شبه الجزيرة الإيطالية ، كما كانوا قد اظهروا نفس العداء فيما مضى تجاه السيطرة الفرنسية وأخيرا ، وعلى ميادين المعارك فى ايطاليا وفى الاراضى المنخفضة ، سوف يصطدم شارل الخامس بالفرنسيين ، الذين كانوا مهددين بطريق مباشر بوحدة ألمانيا وإسبانيا تحت نفس الصولجان . ولن يلتفت إلى قوة حركتهم صوب الغزو ، ولا لهيبة ملوكهم .

وكان الصراع ضد فرنسا تحت حكم فرانسوا الأول ، ثم هنرى الثانى ، يمثل الخطر الأساسى بالنسبة لحكمه فى الخارج . وكانت الاهداف المباشرة لهذا الخطر تتمثل من ناحية فى اراضى اقليم ميلانو ، والتى كانت خاضعة فيما مضى للامبراطورية ، ومن ناحية أخرى فى دوقية برجنديا ، وبصفتها ذلك الجزء الذى فضل من ميراث شارل الجسور . وكان هذا الخطر يشتمل على ما لا يقل عن خمسة حروب متتالية ، تفصلها فترات هدنه ، تطول أو تقصر ، وتبدو فيها مظاهر التصالح .

وبدأ الخصمان فى الدخول فى العمليات الحربية فى عام ١٥٢١ . وانتهت المعركة الأولى بعد أربع سنوات بإنتصار صاخب للامبراطورية ، أعتقدوا فى أنه كان انتصارا حاسماً .

وكان عام ١٥٢٠ هو عام الدبلوماسيين . وكان فرانسوا الأول قد تقابل

مع هنرى الثامن . وأعطوه كل المظاهر الممكنة للصداقة بينهما . ولكن الانجليز قاموا ، بعد بضعة أيام من ذلك ، بمقابلة أخرى مع شارل الخامس ، وتبادلوا معه نفس الكلمات الحلوة كما أن فرانسوا الأول لم ينجح فى الحصول على ارتباط أقوى من ذلك مع البابا ليون العاشر ، وكان نجاحه الوحيد يتمثل فى علاقاته مع الكانتونات ،فحصل منهم على اعتراف بحقوق سيادته على ميلانو وعلى جنوه ، وعلى تعهد بمعونته بالدفاع عن نفسه بتزويده بالجنود .

وبدأت العمليات العسكرية فى فصل الربيع ، وعلى كل الجبهات فى نفس الوقت . وعلى جبهة الأراضى المنخفضة ، وفيما عدا محاصرة ميزيير التى ظهرت فيها كفاءة بايار . لم تكن هذه العمليات سوى هجمات ، وحملات للنهب . وعلى جبهة البرانس كان موضوع الصراع مركزا حول ملكية نافار . ومنذ عام ١٥١٢ كان الاسبانيون يحتلون ذلك الجزء من نافار الذى يقع فيما وراء الجبال . وحاول ألبرت وأسرته بذل مجهود أخير للتمركز هناك بجيش ملكى . ولكنهم لم ينجحوا إلا لوقت قصير . وعلى الجبهة الايطالية ، لم تبدأ التحركات حتى ذلك الوقت ، إذ أن رجال الامبراطورية لم يكونوا قد استعدوا بعد . وكانت الرغبة فى الدخول إلى الحرب لاتزال غير ثابتة حتى أنهم قد إتفقوا منذ أواسط فصل الصيف ، على البحث عن شروط حل وسط . وناقش مستشار فرانسو الأول ، مع مستشار شارل الخامس سويا فى كاليه ، وفى حضور وولسى كممثل لهنرى الثامن ، وكوسيط ، ولكن بلا جدوى . ولكن الأوامر لم تصدر بوقف العمليات . وتوغلت قوات الامبراطورية فى إيطاليا ، وأصطحبت معها فرانسوا فورزا ، الذى أعادوا تنصيبه فى ميلانو . وأكد شارل الخامس بذلك أنه كان الاكثر قوة . وسرعان ما وقف إلى جانبه ملك انجلترا والبابا ، وتم عقد تحالف انجليزى امبراطورى ضد فرنسا فى بروج فى ٢٥ أغسطس ١٥٢١ . وفى

كالية ،وبمجرد قطع المفاوضات ، تحول هذا التحالف إلى عصبة ثلاثية مع الكرسى البابوى فى ٢٤ نوفمبر .

وتمكن الفرنسيون من اتمام أخذ أراضى ميلانو بعد هزيمة جيش لوتريك ومعه السويسريين فى لا بيكوك فى ٢٩ أبريل ١٥٢٢ . ودخلوا إلى هناك فى عام ١٥٢٣ ، ووصلوا حتى أسوار ميلانو ، ثم أعيد اخراجهم منها فى العام التالى . اما الانجليز، الذين نزلوا بعد ذلك فى كاليه، فأنهم عملوا مع قوات الإمبراطور فى إقليم آرتوا ، ووجهوا رأس حربة فى إتجاه باريس ، ثم قاموا بعد ذلك بالتراجع صوب الحدود . وفى عام ١٥٢٤ وقع هجوم على جنوب فرنسا بقوات إسبانية ألمانية ، وبقيادة أحد الخونة الفرنسيين الذين انضموا إلى الاعداء . ورأت مرسيليا العدو يعسكر تحت أسوارها لفترة بضعة أيام . وحينما إنتهى الخطر ، قام الملك بنفسه بقيادة جيشه ، وعبر جبال الألب مرة جديدة ، وهجم على ميلانو وإستقر فيها . ولكن قوات الإمبراطور لم تجبر على إخلاء إيطاليا وظلت فى أماكن عديدة منها ، وكانت بافيا هى مركزها الرئيسى والذى حاصره فرانسوا الأول إبتداء من شهر أكتوبر. وهنا وقعت كارثه ٢٥ فبراير ١٥٢٥ : ذلك أن جيش انقاذ أتى من الشمال، وهاجم الفرنسيين والسويسريين من الخلف ، وقضى عليهم ،وكان الملك نفسه من من بين الأسرى .

وبدا أن فرنسا قد أصبحت تحت رحمة الغزاة . فما هو السبب الذى لم يدفعهم للإفادة من هذا الموقف؟ لقد كان السبب ماليا قبل أى شىء: فلقد كان شارل الخامس مضطر إلى الاسراع فى تسريح جنوده لأنه لم يكن لديه وسائل دفع مرتباتهم . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن استعدادات العثمانيين على حدود المجر كانت تدل على قرب هجومهم من الشرق : فأصبح الهدف الأول إذن يتمثل فى عقد إتحاد بين الأمراء المسيحيين من أجل القيام بحرب مقدسة .

أما عن الصعوبات التى واجهت المفاوضات التى بدأت فى مدريد فإن موقف انجلترا كان له وزنه .وكانت السياسة الانجليزية قد وجدت طريقها : فهى ترفض قيام أى سيطرة معينة على كل أوربا . فأصبح هنرى الثامن . وولسى فاتوين للغاية بالنسبة لشارل الخامس ،وذلك بسبب ضخامة إنتصاره .وتراجع فى مسألة زواجه من مارى تيودور ، التى كانت قد تقررت فى عام ١٥٥١ ، وفى الوقت الذى كانوا قد قطعوا فيه العلاقات مع فرنسا . هذا علاوه على أن المالية الملكية لم تكن فى حالة تسمح لها بدفع مبلغ الـ ٦٠٠ر٠٠٠ دوقى التى كانوا قد وعدوا بها كدوطة للأمير . ووافقوا إذن على حل الإمبراطور من إرتباطه ؛ الأمر الذى سيسمح له بالتزوج بعد وقت قصير بإحدى الأميرات البرتغاليات والتى سوف يحصل هذه المره على دوطتها مباشرة ،وكانت تبلغ هذه المرة مليون دوقى .وفى نفس الوقت، إستمعوا إلى إقتراحات الوصية . لويز دى سافوا ، والده فرانسوا الأول ، التى كانت قد اتجهت منذ الأيام الأولى صوب لندن . وفى معاهدة مور فى ٢٠ أغسطس ١٥٢٥ سيبيع هنرى الثامن تحالفه : ذلك أنه سوف يتسلم ولمدى الحياة ٢٠٠ر٠٠٠ جنيه ذهبى فى العام .

أما أسير مدريد فإنه قاوم لفترة طويلة ، وحاول بعد ذلك أن يلعب بلا جدوى مسرحية التنازل عن العرش لإبنه ، ثم وافق بعد ذلك على شروط شارل الخامس : التخلى عن كل مطالباته فى ميلانو وبقية الأقاليم الإيطالية ، والتخلى عن كل تورناى ، وكذلك عن السيادة الفرنسية على الفلاندر وعلى آرتوا ، وأخيراً على إعادة برجنديا ، وهذه الفقره الأخيرة أثارت نفسه . فرغم القسم المتبادل على ضرورة التصديق على معاهدة مدريد فى شهر يناير ١٥٢٦ ، لم ينفذ ذلك إلا شفاهة . واحتج على ذلك سرا ، وأمام بعض الشهود ، وعلى أساس استخدام العنف معه لإستخلاص هذا القسم . وأعلن بمجرد عودته لفرنسا بأنه

سينفذ كل شروط المعاهدة . ما عدا هذا الشرط . وعلينا أن نلاحظ بأن هناك الكثيرون الذين كانوا يوافقون على هذا الخط فى خارج فرنسا : فكان وولسى قد نصحه رسميا بعدم التخلى عن برجنديا . ويفسر ذلك لنا السهولة التى جمع بها تحالفا جديدا ، وهو التحالف المتمثل فى عصبة كونياك فى شهر مايو ١٥٢٦ ، والذى ضم خصوم السيطرة الإمبراطورية على إيطاليا ، وهم البابا ، وجمهوريات البندقية وفلورنسا ، ودوق ميلانو . ودعى كل الأمراء المسيحيين الدخول فى هذه العصبة ، وحصل ملك انجلترا على لقب « حامى » العصبة .

واعتقد فرانسوا الأول ان مجرد التهديد ببدء الحرب من جديد سيكفى لإجبار الإمبراطور على التفاهم . وفى الوقت الذى إستمر فيه فى التفاوض ، ترك حلفاءه الإيطاليين يقومون بالعمليات العسكرية بدونه . ولكن حادثا غير متوقع ، وله أهميته ، اعطاه الدافع للتدخل المباشر : ذلك أن عصابات تتشكل فى غالبيتها من الألمان ، من أنصار لوثر ، أجبروا رئيسهم على قيادتهم للزحف على روما ، واستولوا عليها ونهبوها ، ، وقاموا فيها بكل المساوىء ، فى شهر مايو عام ١٥٢٧ . ونتج عن ذلك تأثير مباشر لعملية نهب روما أثر فى قرارات ملك فرنسا . وأعطى درس بافيا القاسى نتائجه . فتردد الملك ، وعهد إلى الدبلوماسيين بالوصول إلى حل . وطلب النصح من مجمع النبلاء . وفجأة حصل على ضمانات من جانب انجلترا ، عن طريق تدعيم تحالفه مع هنرى الثامن (اتفاقيات ويستمنستر وإيميان فى ٣٠ أبريل و ١٨ يوليو ١٥٢٧) . وقرر فى شهر يناير ١٥٢٨ أن يرسل إلى الإمبراطور بإعلان الحرب . وعندئذ إنفجر غيظ شارل الخامس ووصف تصرف الملك ، حين رفض التصديق على تعهدات مدريد ، بأنه كان جبانا وسىء النية . وأجاب الفرنسيون على ذلك بأن شارل كان كاذباً : وجاء ذلك من مجموعة ساعدت على إظهار المسألة فى شكل تحدى واضح . وتوقع

الجميع وقوع معركة بين الملك والامبراطور ، وتحدثوا عن ذلك لمدة أشهر . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وأخذت الحرب نفس الطريق الذى كانت الحرب السابقة قد سلكته : فكانت مسارحها الرئيسية هى أراضى ميلانو ومملكة نابولى . ولكن إيطاليا كانت تمثل أرضاً غير ثابتة من ناحيه ملكيتها . فحدثت عمليات إنسحاب ، مثل عملية إنسحاب قائد جنوا البحرى ، أندريا دوريا ، وقام اسطوله ، مع اسطول البابا كليمنت السادس، بإجبار الفرنسيين على التوقف . أما مرجريت النمسوية، والتى كانت تتحدث بإسم الاراضى المخفضة التى كانت ترغب فى السلم ، فإنها كانت قد بدأت المحادثات مع لويز دى سافرا ، ومهدت محادثاتها لصلح كامبراى أو « صلح السيدات » فى ٥ أغسطس ١٥٢٩ . ولم يكن هناك أى ذكر لمسألة برجنديا ، ولذلك فإن السياسة الفرنسية كانت قد وصلت إلى هدفها الرئيسى . ولكن معاهدة مدريد تأكدت فى كل كل فقراتها وشروطها الأخرى : فكان من الضرورى التخلى من جديد عن كل الممتلكات الايطالية ، وأصبحت الفلاندر وآرتوا خارج سيادة ملك فرنسا ، والمملكة ، وبشكل نهائى ، ويدل هذا على أن نتائج بافيا لم تكن قد محيت . وتفاوض هنرى الثامن منفرداً مع شارل الخامس ، وعلى أساس الوضع القائم .

وبدأت فترة هدوء تقرب من سبعة أعوام ، إبتداء من عام ١٥٢٧ . وساد السلم الامبراطورى فى كل الغرب . وأصبح شارل الخامس فى أوج قوته . وبعد أن تصالح مع البابا ، استلم من يديه ، فى بولونيا ، تاج ملوك لومبارديا . وتاج إقليم رومانا فى عام ١٥٣٠ . وكان مصمماً على أن يكون ملكاً لاسبانيا قبل كل شىء آخر، فساعد على انتخاب اخته ، فرديناند ، ملكاً على الاقاليم الرومانية، وتخلى له عن إدارة بعض أقاليم الأسرة .

حقيقة أن فرديناند كان فى حاجة إليه من أجل دفع هجمات جيوش السلطان سليمان العثمانى . وكان من الضرورى تغطية فينا ، التى إنقذت بالكاد فى المرة الأولى فى عام ١٥٢٩ . وكانت حملة عام ١٥٣٢ ، والتى تولى القيادة فيها الإمبراطور بنفسه ، حاسمة . وسوف يبتعد الخطر العثمانى عن الحدود الألمانية لعدة أجيال .

٣ - الحرب من أجل ميلانو - الحرب الثالثة ومعاهدة كريبى :

كان ملك فرنسا ، بتزوجه من إليانورا ، أخت شارل الخامس ، قد بدا على أنه قد أصبح تحت سيطرة خصمه ، الذى كان صاحب الفكرة الأولى لهذا الزواج (والذى نصوا عليه من قبل فى معاهدة مدريد) والذى كان يرى فيه ضماناً لحسن العلاقات بينهما . ولكن ملك فرنسا لم يكن مستعداً فى نفس الوقت للموافقة على خضوع فرنسا للدولة الإمبراطورية،وسرعان ما بدأ يفكر فى مشروعات للانتقام. وتمكن من ترتيب أموره المالية . وتمكن من إنشاء وسائل جديدة للحرب ،برية وبحرية. وجدد تحالفه مع هنرى الثامن،فى مقابلته معه فى بولونيا ؛ فى شهر أكتوبر ١٥٣٢ ، وزاد من إتصالاته الدبلوماسية مع الخصوم الدائمين لأسرة هابسبورج : السلطان العثمانى ، والأمراء المسيحيين فى ألمانيا ، ومنتخب ترنسلفانيا ، الذى كان يحكم بموافقة العثمانيين على جزء من المجر . وكان البابا كليمنت السابع لا يزال يتردد بين الخصمين، فبمجرد أن قام بمقابلة مع الإمبراطور وأعطاه وعوداً بشأن المجمع ، وافق على تقارب مع ملك فرنسا ، وأرسل إليه إبنة أخيه ، كاترين دى ميدسيس،التى وعدوا بها الإبن الثانى لفرانسوا الأول . وكانت أعياد مرسيليا فى شهر أكتوبر ١٥٠٣ وتملأ صدر شارل الخامس بالحقد . وفى نفس الوقت جاءت هزة أولى من ألمانيا تعلن أن عصر الحروب الأهلية لن يتأخر كثيراً . وعمل دوق بافاريا ، وكان عدواً لأسرة هابسبورج ، على أن يستخدم ضد جيرانه تلك القوى

المعادية ، والتى كانت حركة الإصلاح الدينى قد تسببت فى نشأتها فى أنحاء الإمبراطورية . وتفاهم مع حاكم هيس ، وكان من أنصار لوثر ، من أجل إعادة دوق فرتمبورج إلى عرشه ، بعد أن كان قد أخذ منه هذا العرش فى عام ١٥٢٢ وأعطى لفرديناند آل هابسبورج وتمكن بمعونة فرنسا من أن ينشىء جيشاً تمكن من هزيمة القوات النمسوية ، ومن إعادة فرتمبورج إلى أميرها الشرعى .

وفى أثناء ذلك الوقت لم يتخل الإمبراطور عن الخط الذى كان قد رسمه لنفسه . فأخذ فى الإستعداد للذهاب ومحاربة رجال شمال إفريقية ، مقدراً أن الظروف كانت تجبره على ذلك . أما فرانسوا الأول ، والذى كان يخشى من هجوم الرأى العام عليه ، فإنه إمتنع عن التدخل . وبعد نهاية حملة تونس بقليل ، توفى فرانسوا سفورزا دون أن يترك وريثاً . فأعيد فتح مسألة ميلانو ، وإتخذت ذريعة للعودة إلى العمليات العسكرية : فطالب فرانسوا الأول بالدوقية لأبنه دوق أورليان ، وقبل أن يدخل فى حرب ضد الإمبراطور عمل على تسوية مشكلة كانت تشغله منذ بضعة سنوات ، وهى مسألة العلاقات مع سافوا .

وكان أدواق سافوا يعتبرون على أنهم « حراس جبال الألب » ، وكانت دولتهم تشتمل على بيدمونت ، والفالية ، وعلى أراضى الفود ، وجنوا وكونتية نيس : فكانت تقف إذن على طول الحدود بين فرنساوإيطاليا ، وفى فترات الحرب ، لم تكن هذه الدولة تبحث عن أمنها ، كما كانت تفعل دوقيات اللورين ، بإتخاذها موقف حياد قانونى يضمنه المتحاربون. ورغم تحركات الإمبراطورية؛ فإن هذه الدولة كانت تقف دائماً إلى جانب الاكثر قرباً منها ، والأكثر قوة من جيرانها ، أى إلى جانب الفرنسيين . وكان الدوق فيليبون قد إرتبط بمعاهدة مع

لوى الثانى عشر . وقام الدوق شارل الثانى بالسير على نفس الطريق ، وإن كان قد إبتعد عنه فيما بعد ، ولقد أكد رغبته فى عدم الدخول فى حرب مع شارل الخامس، الذى لم يكن له سيادة عليه ، وإن كان قد أصبح نسيبه بعد أن تزوج إحدى الأميرات البرتغاليات ، وفى عام ١٥٢٣ ، رفض إعطاء مدينة نيس لتكون محل مقابلة بين كليمنت السابع وبين فرانسوا الأول ، حتى لا يغضب الامبراطور .

وإعتبرت هذه المسألة على أنها إهانة للملك : ومنذ هذا الوقت قرر أن يستخدم القوة . أما شارل الثانى فإنه بعد ، أن شعر بالتهديد ، لم يكن حراً فى التراجع ، حتى يتمكن من المحافظة على مصالحه . وكانت الظروف فى غير صالحه بشكل عام . فكان منذ سنوات فى صراع مع جنيف ، التى فقد كل سيطرة له عليها . وأخذ هذا الصدام ، الذى زاد خطورة نتيجة لانتشار حركة الاصلاح الدينى ، شكل أزمة حادة . وإستعد أبناء ، برن لمعاونة جنيف حتى تحصل على إستقلالها الكامل . ودخلوا إليها فى شهر فبراير ١٥٣٦ ، فى نفس الوقت الذى أمر فيه فرانسوا الأول قواته بالزحف صوب بورج وشامبيرى . وجاء كالفن إلى هناك فى الصيف التالى . وبمجرد إتمام عملية غزو سافوا ، أعطى الملك نفسه لقب دوق سافوا، مستنداً فى ذلك إلى إدعاءات لقانون الوراثة من جانب والدته، لويز دى سافوا .

وأعلن شارل الخامس إستعداده للدفاع عن تابعه . فرد على ذلك بعملية غزو إقليم بروفانس . ولكنه إصطدم بعقبات ضخمة فى تلك الأقاليم التى كان خصمه قد أخلاها ، وبشكل أجبره على العودة إلى الحدود بعد بضعة أسابيع . وظهر أن قوات الامبراطورية كانت أكثر حظاً على حدود الأراضى المنخفضة ، فوصلت تقريباً أمام بيرون . ولم يكن هنرى الثانى يقدر على معونتهم على السيطرة

على الموقف ، إذ أنه كان قد إبتعد عن شئون القارة نتيجة للإنقسام الدينى الذى جاء بعد حادثة طلاقه ، وتزوجه من جديد . ولم يكن فرانسوا الأول قد بذل مجهودات كافية معه للحصول على تعاونه فى هذه المرة ، فظل فرانسوا الأول وحيداً . ويبدو أن إستيلاء على سافوا كان قد أعطاه ثقة فى نفسه بدرجة لم تحدث من قبل . وشعر فى ذلك الوقت ، ومهما حدث ، أن طريق جبال الألب سوف يظل مفتوحاً أمام قواته . وكان فى وضعية تسمح له بالتفاوض مع شارل الخامس على قدم المساواة .

ولما كانت القوات متعادلة على مسرحى العمليات، فإن وقف العمليات الحربية جاء على التوالى بالنسبة للشمال فى شهر يوليو ١٥٣٧ ، ثم بالنسبة للجنوب الشرقى فى شهر نوفمبر . ولم يكن هناك إنتصار لهذا الجانب أو ذاك . وكان كل من الطرفين قد شعر بالارهاق . وكانت لكل منهما مشغوليات دينية خطيرة . ولذلك فإن البابا وجد أن الفرصة مواتية من أجل التدخل. وكان ما إقترحه بطريق مباشر فى بداية عام ١٥٣٨ ، هو إطالة فترة الهدنة المزدوجة التى عقدت فى العام السابق ، وكان ذلك تمهيداً للدخول فى مفاوضات أوسع . وحصل من الملكين ، فى نيس ، فى ١٨ يونيو ١٥٣٨ —واللذين كانا من ناحية أخرى يتفاوضان عن طريق أشخاص آخرين، كما لو كانا يخشيان من أن يتقابلا — على هدنة لمدة عشر سنوات. وكانت فكرة الصلح قد إزدادت فى أثناء هذا الوقت . وفى الشهر التالى ، ذهب كل من الملك والامبراطور ، برغبتهما ، إلى المقابلة التى إتفقا عليها فى ١٤—١٦ يوليو .

ولقد عامل كل منهما الآخر معاملة الصديق ، وتحدثا عن القيام بحملة صليبية ضد العثمانيين ، أو ضد أنصار لوثر . ووضعا أسس حل وسط فيما يتعلق بمسألة

ميلانو : وسيتزوج الإبن الاصغر للملك ، دوق أورليان ، إبنة الامبراطور ، أو إحدى بنات أخواته ، والتى ستحل معها إقليم ميلانو ، كدوطة لها . وبدا هذا التصالح على أنه قد تم . كما تم عقد زيجة أخرى : وهى زواج فيليب ابن الامبراطور من مرجريت إبنة فرانسوا الأول . وفى خلال عامين تقريباً ، سيسود الإعتقاد فى أن السلم مضمون . وحين سمح لشارل الخامس بعبور فرنسا والذهاب لمعاقبة ثورة نشبت عند أهالى جاند ، تم استقباله رسمياً فى باريس فى شهر يناير ١٥٤٠ .

ولكنهما كانا فى حقيقة الأمر غير متفقين . ذلك أن فرانسوا الأول كان يرغب فى الاحتفاظ بإقليم سافوا ، وكان شارل الخامس ينوى عدم ترك الاقليم . فلذلك فإن الاتفاق بينهما سيصل إلى أزمة . ذلك ان الامبراطور قد أعطى منذ شهر أكتوبر ١٥٤٠ حكم ميلانو لإبنه فيليب وعرض على ملك فرنسا أن يعيد إليه اقليم الفلاندر بدلا من اقليم ميلانو . فوجد فرانسوا الأول أن آماله قد خابت ، وكان شديد التعلق بإيطاليا . وأخذوا فى الاستعداد من جديد لكى يقوم السلاح بإيجاد حل لهذا الخلاف ، وذلك فى الوقت الذى كان الامبراطور يقود فيه بنفسه حملته الفاشلة ضد مدينة الجزائر .

ومادام الفرنسيون قد تركزوا بقوة على جانبى جبال الألب ، فان حرية حركة القوات الامبراطورية فى ايطاليا قد اصبحت محدودة . وسينتقل مركز الصراع إلى حدود اللورين وحدود الأراضى المنخفضة . وستثير شئون ألمانيا الانتباه بنوع خاص . فلكى يعمل على فشل الامبراطور فى بلاده نفسها ، ان يقوم فرانسوا الأول بتوجيه النداء إلى أمراء الدول البروتستانتية المتجمعين منذ عام ١٥٣٨ فى عصبة سمالكالد ، ولكنه سيوجه نداء إلى أحد الكاثوليك ، وهو ويليام دي لا مارك دوق كليف وبرج ، والذى كانت له قوات كبيرة على الراين الادنى

وكان جاراً مباشراً للأراضى المنخفضة : وكان قد أستولى على دوقية جلدر ، وهى احدى الاقاليم السابقة لبرجنديا ، والتى كان صاحبها قد تخلى له عنها حتى ينقذها من أطماع شارل الخامس . ووقع ويليام على معاهدة تحالف مع فرانسوا الأول فى ١٧ يوليو ١٥٤٠ ، واتفقا على زواج الدوق بإحدى الأميرات الفرنسيات . وكان ملك فرنسا قد أصبح على علاقة نسب مع هنرى الثامن ، الذى كان قد تزوج منذ بعض الوقت بالأميرة آن . فأخذوا يتحدثون فى ذلك الوقت فى نشأة عصبة جديدة ، معادية لآل هابسبورج ، ينضم إليها الامراء الرئيسيون من عصبة سمالكالد .

وفى ذلك الوقت عقد فرانسوا الأول فى فونتنبلو معاهدة تحالف أخرى يوم ٢٩ نوفمبر ١٥٤١ ، مع الملك كريستيان الثالث ، ملك الدانمرك . وتم اعلان الحرب على الامبراطور فى الصيف التالى . وهذه المرة ، سيكون هنرى الثامن مشتركا فى الحرب ، ولكن فى غير الجانب المتوقع . فكان قد طلق آن ، واتفق مع شارل الخامس منذ ١١ فبراير ١٥٤٣ . ووصل شارل الخامس من اسبانيا لكى يقود قواته . وبدأ فى أول الأمر بمهاجمة أضعف خصومه ، وهو دوق كليف : فهزمه ، وأجبره على عقد الصلح ، على أن يتنازل له عن جلدر . ثم إلتفت إلى الفرنسيين الذين كانوا يبذلون مجهوداتهم حول لكسمبورج . ورغم التعاون الالمانى الانجليزى — وان كان الانجليز لايتحركون أمام بولونيا — كان النجاح موزعاً بين الجانبين . فكانت جيوش فرانسوا الأول قد فشلت أمام بربيفيان ؛ واحتلت لكسمبورج بشكل مؤقت . ولم يتأكد تفوق الامبراطور إلا فى عام ١٥٤٤ ، حين حصل فى دايت سبير ، وعلى وعد من كل رعاياه الألمان ، بما فيهم أنصار لوثر ، بأنهم سيعاونونه ضد ملك فرنسا ، صديق وحليف المسلمين إلى

حد استقبالهم فى ميناء طولون . ودخل إلى اقليم شمبانيا ووصل إلى شاتو تيرى.
ورأى الملك أن عاصمته قد أصبحت مهددة ، فأسرع بالتفاوض فى كريبى فى ١٨
سبتمبر ١٥٤٤ .

ومع ذلك فإنه لم يتفاوض على أنه مهزوم : إذ أن القوات الامبراطورية
كانت قد نزلت بها هزيمة ساحقة فى ايطاليا ، فى كريزول يوم ١٤ ابريل وعادوا
إلى إرتباطات عام ١٥٣٨ . وكان الحل الوسط الذى فكروا فيه له نفس الطبيعة ،
ولكن الشروط جاءت مختلفة قليلا . فـــإذا ما كان دوق أورليان سيتزوج إبنه
الامبراطور نفسها ، فإنه سيستولى على الأراضى المنخفضة وعلى فرانش كونتيه ؛
وإذا ما تزوج من ابنة فرديناند ، فإن اراضى ميلانو ستكون هى دوطته
وسيكون على شارل الخامس أن يختار فى فترة أربعة أشهر فيما بين هذين الحلين .
وهذه المرة ، إنتهج فرانسوا الأول ، وبدون تحفظ ، سياسة المصالحة : ويمكنه
إذا ما تطلب الأمر أن يتخلى عن ايطاليا . وتعهد بشروط سرية ، تم التوقيع
عليها فى ميدون يوم ١٩ سبتمبر ، حتى على أن يعطى معونته للإمبراطور ضد
« الهراطقة الألمان . . . » .

وكان المصير يختلف عن ذلك : فى العام التالى ،وقبل أن يقوم شارل الخامس
بالتقرير بين «البديلين»، توفى الأمير الشاب فجأة فى ٨ سبتمبر ١٥٤٥ وتطلب الأمر
إعادة النظر فى المسألة ، من جديد . أما مسألة إعادة بيدمونت وسافوا ، المرتبطة
بالزواج ، فإنها تأجلت إلى أجل غير مسمى .

٣ ــ تحالف هنرى الثانى مع أمراء الاصلاح الدينى :

إذا كانت فترة السلم قد امتدت لفترة سبعة أعوام فإن ذلك كان نتيجة الملل

الذى أصاب الطرفين ، كما كان يرجـــع إلى أسباب خارجة عن ذلك الصراع الموجود فى إيطاليا . ذلك أن شارل الخامس كانت تضايقه إزدياد خطوره المسألة الدينية . وفى عام ١٥٤٦ قررت عصبة سمالكالد العودة لحمل السلاح . وهزمت قواته فى موربرج فى ٢٤ أبريل ١٥٤٧ ، ووقع أكبر أعوانه ، وهما منتخب هيس ومنتخب ساكس ، فى الاسر . أما المجمع الذى كان الجميع ينتظرونة فإنه أنعقد أخيرا فى عام ١٥٤٥ . وكان انتقاله المفاجىء إلى بولونيا قد أدى إلى إساءة العلاقات ، وإلى ما يشبه الصدام ، مع الكرسى البابوى . وأخيرا فإن النظام « الإنتقالى » ، والذى قام على أساس حل وسط ، وفرضه الامبراطور على الألمان الكاثوليك والبروتستانات فى نفس الوقت فى عام ١٥٤٨ ، فإنه كان يتطلب تطبيقاً عددا ، الأمر الذى كان يستتبع رقابة بشكل مستمر .

أما فرانسوا الأول ، فإنه كان قد تدخل قبل وفاتـه ، فى حرب سمالكالد وقدم تشجيعات ومعونات للبروتستانتيين ، ورجع ذلك بدون شك إلى أن وعود معاهدة كربى كانت شديدة الوطأة عليه، أكثر من كون علاقاته مع انجلترا كانت صعبة . أما هنرى الثامن فإنه بعد أن أخذ بولونيا ، فإنه أظهر رغبته فى عدم تركها نظير حصوله على السلم . ولقد استخدمت كل الوسائل لإغرائه على تركها . وقاموا بتجميع اسطول ضخم عند مصب نهر السين ، تمهيدا لعملية نزوله فى انجلترا ، ولكن هذا الأسطول عاد إلى الميناء بعد اشتباكات صغيرة قرب جزيرة وايت . وأخيرا جاءت معاهدة أردز فى ٧ يونيو ١٥٤٦ ، ونصت على اعادة بولونيا ، وان كانت قد أخضعت ذلك لدفع مبلغ ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ذهب على ثمانى سنوات . هذا علاوة على أن الصلح قد اصبح ضعيفاً نتيجة لولاء فرنسا لتحالفها مع اسكتلندا ، رغم الوعود المكتوبة فى المعاهدة . وقامت أسرة جيز، التى كانت صاحبة نفوذ كبير منذ وصول هنرى الثانى إلى الحكم ، بإنهاء

ذلك الموضوع حين تفاوضت بشأن زواج فرانسوا، ابن الملك بمارى ستيوارت، التى كانت والدتها من هذه الأسرة ، والتى كانت معروفة ، منذ ميلادها ، بأنها ستكون ملكة . ولذلك فإننا نصل منذ عام ١٥٤٨ ، إلى تجدد العمليات العسكرية مرة أخرى . وقامت بعض القوات الفرنسية ، التى نزلت فى اسكتلندا ، بتحويل ذلك الصراع إلى أرض انجلترا نفسها . واضطرت حكومة إدوارد السادس — وكان هنرى الثامن قد توفى قبل فرانسوا الأول بقليل — وهى غير قادرة على أن تحصل على دعم من شارل الخامس ، إلى أن تتفاوض فى بولونيا فى ٢٤ مارس ١٥٥٠ : وتنازلت عن مطالبها بفترة ثمانية أعوام قبل أن تعيد هذا الموقع لفرنسا وقنعت بتعويض يبلغ ٤٠٠،٠٠٠ جنيه ؛ ودخل الاسكتلنديون طرفاً فى هذا الصلح .

وعند ذلك الوقت فقط سيبدأ عقد التحالف ، والذى كان فى دور الاعداد منذ سنوات ، بين ملك فرنسا وبين البروتستانتيين فى ألمانيا . وبدأت الحادثات، وكانت سرية للغاية ، وانتهت بمؤتمر لوشو بين سفير فرنسا وبين رؤساء العصبة الجديدة التى تكونت ضد الإمبراطور . وتم التصديق على معاهدة لوشو ، التى عقدت فى ٥ أكتوبر ١٥٥١ ، بواسطة هنرى الثانى فى شامبورفى شهر يناير ١٥٥٢ . ونصت هذه المعاهدة على تعاون عسكرى لم تكن شروطه محددة : فالأمراء يثقون فى أن حليفهم القوى والكبير (ملك فرنسا) سيقوم بإمدادهم فى الوقت المناسب ؛ وتعهدوا بأن « يسيطروا » ، وذلك بصفة الإحتياط ، على مدن كامبراى ، وميتز ، وتول ، وفردان والتى كانت خاضعة للإمبراطور .

ومنذ الصيف السابق كانت العمليات العسكرية قد بدأت من جديد فى إيطاليا ، وحيث كان الملك قد أخذ تحت حمايته أوكتافى فارنيز ، دوق بارما ،

والذى كان البابا يوليوس الثالث يهدده . وجاءت القوات الإمبراطورية لكى تنضم لقوات البابا وتحاصر بارما . وكانت الأزمة ، فى هـذا المـكان ، قصيرة المدى : ففى شهر ابريل ١٥٥٢ ، تخلى يوليوس الثالث عن إدعاءاته ، بمعاهـدة قام الإمبراطور بالتصديق عليها بعد خمسة عشر يوماً . وكان هذا هو الوقت الذى أعطى فيه هنرى الثانى الإشارة لبدء الجيش « برحلة ألمانيا » . وكان على هذا الجيش أولا أن يعبر دوقيات اللورين ، وهى دول « محايدة » . وكانت الدوقة كريستين ، ابنة اخ شارل الخامس تقوم بالوصاية فى نانسى بإسم ابنهـا القاصر : فأبعدت عن السلطة ، وأرسل الأمير الصغير إلى فرنسا ، لـكى يشرف على تربيته أحد المربين الفرنسيين . وبعد تول ، احتلوا ميتز ، بموافقـة سكانها ؛ ثم توغلوا إلى داخل الألزاس . أما الألمان ، الذين بدأوا عملياتهم الحربية فى نفس الوقت ، بقيادة منتخب ساكس ، فإنهم عملوا بسرعة فائقة ،وفاجأوا الإمبراطور الذى كان فى التيرول ، دون وسائل دفاع تقريباً . وأصبحوا الآن فى وضع يسمح لهم بأن يفرضوا عليه رغباتهم ؛ وبدأت محادثات مع ممثليهم ، إنتهت بعقد معاهدة باسو فى ٢ أغسطس ١٥٥٢ . وحين وصل الملك إلى ويسمبورج ، عرف بأنهم لا يحتاجون إليه فى ألمـــانيا . فـكان عليه إذن أن يعود بجيشه إلى فرنسا ، عن طريق بلاد السار ، مستولياً فى مروره على فردان . ولـكن الحرب لن تتوقف هنا ؛وكانت قد بدأت من أجل إمداد الالمان ، وستستمر بدون نوم حتى عام ١٥٥٨ .

وستميز عملية هامة نهاية هذا العام : وهى عملية حصار ميتز من أكتوبر إلى ديسمبر ١٥٥٢ . ولقد حاول شارل الخامس أن يستعيد هيبته ، التى أصيبت بكل قاسى بأحداث الربيع ، وذلك بمنازعته الفرنسيين أهم مدن الإمبراطورية التى كانوا قد إحتلوها . ولقد انتهت هذه العملية بفشل ذريع .

وكان فى منتهى الارهاق والتعب حين وصل تحت أسوار متز فى شهر أكتوبر ، وكان قد اصابته الشيخوخة قبل أوانها — وكان قد ولد مع ميلاد القرن ، أى أنه لم يزد على الخمسين بكثير — وأصابته هناك ضربة لن يشفى منها . وقال المؤرخين المعاصرون أن « الشتاء قد هزمه » . وكان قد إصطدم بتبلد الجنود ، رغم كونهم ممتازين ، فيما مضى ، وأصابهم الملل من الحرب ، وأصبحوا لا يبالون بمصير الحرب الذى عجزوا عن فهم أهدافه : ولقد فشل حتى فى أن يجعلهم يتركون الخنادق من أجل محاولة القيام بهجوم ولذلك فإنه إعتزل معنوياً ، وقرر عدم إستخدام القوة من أجل تغيير المصير المحتوم . وسرعان ما سينسحب إلى الاراضى المنخفضة ، والتى كانت عزيزة على نفسه منذ ذكريات الصبا ، وذلك لكى ينهى ويضع حداً لتلك العمليات التى انتهت بالفشل ، والتى كانت تؤثر على هيبته . وكانت المشكلات التى طرحتها عملية تنازله عن العرش على درجة من التعقيد حتى إنها إحتاجت إلى أربع سنوات أخرى ، بعد إنهاء الإستعدادات للتنازل ، حتى يتمكن مع التوقيع الرسمى على الوثائق . ويبدأ ، وهو دائماً فى بروكسل ، فى القيام بالاحتفالات اللازمة لذلك .

وفى أثناء هذه السنوات التى قضيت فى الانتظار ، ظلت الأعين فى كل أوربا مركزة حول الأراضى المنخفضة ، وحيث شعروا بأن احداثاً هامة كانت تتبلور هناك . وكانت هذه هى الفترة الذى عرفت فيها أنفرس ، ذلك المركز التجارى للبلاد ، أوج عظمتها . ورغم أنه لا يمكننا وضع العلاقات بشكل واضح بين الاحداث المختلفة ، فإن علينا أن نتوقف هنا قليلا .

وكانت ثروات أنفرس وعظمتها ، وبصفتها مركزا رئيسياً ، مع ليون ، للتجارة الدولية فى الغرب ، قد بدأت بعد السنوات الأولى من القرن بقليل ،

حين أدت الزيادة المستمرة لحمولة السفن إلى سرعة تدهور ميناء بروج ، والذى كان مربوطاً بطريقة سيئة بالبحر . وكان تفوق المصب المجاور ، والذى كانت تطهره تماماً تيارات المياه الخارجة من نهر الإسكوت ، وتجعله دائماً مفتوحاً للحركة ، قد تأكد فى الوقت الذى أصبحت فيه نتائج الطرق البحرية الجديدة ، ثم بدء المبادلات مع الهند الشرقية والهند الغربية ، ملموسة وذات تأثير . وكان البرتغاليون ، بنقلهم من لشبونة إلى أنفرس ، ومنذ سنوات ١٥١٠ ، علية بيع التوابل ، قد أسهموا بدرجة كبيرة فى تأكيد رخاء هذا الميناء ، وذلك فى الوقت الذى قام فيه الانجليز ، من جانبهم ، بنقل مركزهم الخاص بتجارة الصوف إلى هناك . وفى أواسط القرن ، كانت كل بلاد أوربا ممثلة هناك ، بواسطة منتجاتها الرئيسية سواء أكانت من الزراعة أو من الصناعة : ألمانيا بمنسوجاتها الصوفية المخلوطة بالقطن وبخاماتها المعدنية وخاصة النحاس ، الذى يضاف إليه نحاس المجر ؛ ودول بحر البلطيق بأخشابها ؛ وبولندا بحبوبها ؛ وفرنسا بملحها وبقية منتجاتها ، وكذلك الممتلكات البابوية .

وكما هو الحال فى ليون ، فى نفس الفترة ، زادت تجارة الفضة فى خط متوازى مع تجارة السلع . وأصبحت بورصة أنفرس ، والتى بنى لها مبنأ هاماً فى عام ١٥٣١ ، تحتل فى سوق رؤس الأموال مكانة قريبة من مكانة ليون . ومع مرور الوقت ، أخذت أهمية أكثر منها ، بسبب تجمع تجارتها البحرية ، من جميع أنحاء العالم فيها . وأصبح لأكبر البيوتات التجارية فى القارة ، وبخاصة فى ألمانيا ممثلين فيها . ومن كل مكان ، كانوا يستوثقون فيها عن قيمة العملة فى الأراضى المنخفضة ، ووجدت المضاربات على العملات فيها تسهيلات إلى أبعد حد . وزاد الدور الدولى لأنفرس نتيجة لكون تجارة السلع ، مثله فى ذلك

مثل تجارة الفضة ، كانت بشكل رئيسى فى أيدى الاجـانب ، خاصة وأن البحرية الخاصة بالأراضى المنخفضة كانت قليلة فى عدد سفنها . وفى بداية الثلث الثانى ، كان بحارة بريتانى هم الذين يقومون بدور الوسيط فى العادة بين أنفرس وبـين عملائها فى أوربا الغربية . ثم بدأت ، قرب عام ١٥٤٠ ، فترة البحرية الهولندية ، التى رأيناها ، قرب نفس الفترة ، تحل شيئاً فشيئاً ، ونسبياً فى بحر البلطيق محل منافسيها من رجال جامعة الهانسا . وأن كان ذلك لم يمنع رجال الهانسا من أن يجدوا بعد ذلك مرات عديدة تلك الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها بشكل تقليدى فى أنفرس ، ومن أن يبنوا فيها ، ابتدا من عام ١٥٣٨ ، مركزا جديدا .

وكتب هنرى بيرين عنـــد معالجته للقرن السادس عشر : « أن الأراضى المنخفضة لا تمثل أكثر من ضواحى هذه المدينة الفريدة » . وعلينا أن نلاحظ ، مع ذلك ، أن الاطماع الاجنبية قد بدأت فى تلك الفترة فى تهديد أنفرس ، بينما بدأت منافسة بشأنها فى الميدان الدبلوماسى والعسكرى بين دول أوربا الغربية وكان الفرنسيون ، وخاصة حينما كانوا يفكرون فى نقل حدودهم صوب الشمال ، لا يصلون بأنظارهم إلى مثل هـذا البعـد . ذلك أن بـلاد الفسالون ، مع مصباتها البحرية ، كانت لا تزال بعيـدة عن أيديهم : فلن يستولوا على كاليه إلا فى عام ١٥٥٩ ؛ أما دنكرك ، والتى كانوا يحتلونها مؤقتاً ، فإنهـا ستصبـح أسبانية لفترة تزيد على قرن من الزمان . ولن تخامر فكرة تحرير الاراضى المنخفضة وحتى مصب نهر الإسكوت أذهان بعض رؤسائها إلا فى فترة لاحقة . وسيكون ذلك فى الوقت الذى تنتهى فيه أهمية أنفرس .

٤ — استمرار الحرب بين فرنسا وأسبانيا :

فى المرحلة الاخيرة من هذا الصراع الكبير الذى كان قد بدأ فى عام ١٥٢١

لانجد فى مواجهة الدولة الفرنسية سوى دولة إسبانيا . فألمانيا قد رجعت إلى عزلتها تحت إمبراطورها الجديد ، فريدريك الأول . أما الأراضى المنخفضة ، والممتلكات الايطالية لشارل الخامس فإنها انتقلت إلى ابنه ، ملك أسبانيا . وكان الفرنسيون مرتبطين بدرجة كبيرة بإيطاليا ، حتى أنهم أصبحوا لا يفكرون فى ترك هذا الميدان للأسبانيين ، وبنفس درجة تصميمهم فيما مضى على عدم تركه لرجال الامبراطورية .

ولم تكن تسوية مسألة بارما ، فى عام ١٥٥٢ ، قد أتت بصلح دائم ، أو حتى لوقت طويل . ذلك أنه فى وقت حصار ميتز ، أتت قوات أسبانية من نابولى لإمداد قوات الامبراطورية فى إقليم ميلانو . وكان هدفهم هو سيينا ، تلك الجمهورية الصغيرة التى كانت قد خضعت فيما مضى لشارل الخامس ، والتى كان الفرنسيون ، بعد أن كانوا قد حرروها ، قد تعهدوا بإحترام إستقلالها . ولم تكن القوات الفرنسية موفقة : ذلك أن القائد الفرنسى الذى حوصر فيها قد أضطر إلى التسليم بعد عمليات دفاع إستمرت فترة ثمانية أشهر ، فى شهر أبريل ١٥٥٥ . وسلمت سيينا إلى أسرة ميديسيس . وعلى حدود بيكارديا تم الوصول إلى توازن نسبي بين القوات الموجودة . فكان هناك إنتصار وفشل لكل من الجانبين . وبعد وساطة البابا وانجلترا ، بدأت محادثات الصلح ، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة ، وأن كان العام التالى قد شهد الاتفاق على هدنة لخمسة سنوات ، فى ٥ فبراير ١٥٥٦ . وكان هذا هو الوقت الذى أتم فيه شارل الخامس كل إجراءاته ، وترك فيه بلجيكا إلى ماجسته الصغير حيث يتوفى بعد عامين من ذلك .

وكانت شئون ايطاليا هى التى تسببت فى فشل هذه الهدنه . ففى هذا العالم الصغير ، والذى كانت عواطفه متحركة ، جاءت عملية وصول البابا بول الرابع ،

وكان فى الأصل من نابولى ، إلى الكرسى البابوى ، وكان عدوا معلنا لاسبانيا ، يمثل عاملا جديداً للهياج وإثارة المشاعر فى عام ١٥٥٥ . وأفادت الدبلوماسية الفرنسية من ذلك . وجعلت الكرسى البابوى يوافق على تكوين عصبة هجومية دفاعية ، يمكن لكل الأمراء أصدقاء فرنسا الدخول إليها فى ١٥ ديسمبر ١٥٥٥ . وفكروا منذ الأيام الأولى فى عملية غزو مملكة نابولى . وأسرع فيليب الثانى بأخذ المبادره . وفى شهر سبتمبر ١٥٥٦ إنتشرت قواته فى كل إقليم روما . وعندئذ كلف هنرى الثانى الدوق دى جيز ، الذى كان قـــد إنتصر فى ميتز ، بقيادة جيش لإنقاذ البابا . وتم إنقاذ روما ، وبدأ بعدها الزحف صوب نابولى . ولكنه إضطر بعد ذاك إلى العودة إلى فرنسا :ذلك أن جيشاً بقيادة دوق سافوا ، إمانويل فيليبرت ظهر إلى الشمال ، وهجم فى اتجاه باريس ، وإستولى على سان كانتين فى شهر أغسطس ١٥٥٧ .وإذا كان الاسبانيون قد تمكنوا من إنتهاز فرصة إنتصارهم لتمكنوا من كسب الحرب . ولكن صعوبات ضخمة كانت تجبرهم على البقاء فى أماكنهم ، وأجبرتهم بعد ذلك على العودة إلى الاراضى المنخفضة . وتمكن سكان باريس من أن يتنفسوا الصعداء . ومع ذلك فإن فرنسا لم تتمكن من أن تمحوا تماماً هزيمة سان كانتين ، كما كانت قد فشلت فى الماضى فى أن تمحى آثار هزيمة بافيا .

وتمكن فيليب الثانى ، الذى زوجته والدته من مارى تيودور،من أن يحصل من انجلترا ، التى عادت إلى المذهب الكاثوليكى ، على أن تتدخل إلى جانبه فى شهر يونيو ١٥٥٧ . وحين وصل دوق دى جيز من إيطاليا بجيشه ، وكأن سليما تقريباً ، اتجه صوب كاليه واستولى عليها بعد بضعه أيام ،فى شهر يناير ١٥٥٨ . وسمح هذا الانتصار الكبير ببدء مفاوضات الصلح فى ظروف مشرفة . وكان هنرى الثانى قلقاً من توغل أفكار الإصلاح الدينى فى مملكته ، فأظهر نيته لتصفية

الصعوبات الخارجية حتى يكرس كل وقته للصراع ضد الهرطقة فى الداخل . وكان هذا إتجاهاً دينياً يجبر فيليب الثانى على التعاطف معه . ومع ذلك فإن الدبلوماسية الاسبانية لم تقم بأى شىء من أجل تمهيد الطريق ، بل ظهرت على العكس من ذلك على أنها متشددة . ولم تؤد تبادل وجهات النظر الأولى إلا لعقد هدنة فى شهر أكتوبر ١٥٥٨ ؛ ولكن روح التسامح التى اظهرها الفرنسيون انتهت بالتغلب على كل الصعوبات ، وتم عقد الصلح فى ٣ أبريل ١٥٥٩ فى كاتو ، قرب كامبراى .

وكان هنرى الثانى قد أعلن كذلك ، فى عام ١٥٥٢ ، وقت سفره فى « رحلة المانيا » أنه سيجبر الامبراطور على الاعتراف بحقوقه فى أقاليم ميلانو ونابولى ، وفى نفس الوقت بحقوقه فى الفلاندر وآرتوا . وكان عليه أن يقلل من غلواء هذه التصريحات الكبيرة ، والتى كانت سابقة لأوانها ، فى كاتو . ففيما يتعلق بآرتوا وبالفلاندر ، تأكدت نصوص مدريد بنصوص كامبراى . ولم تطرح مسألة نابولى وميلانو التى كانت فى أيدى الاسبانيين . أما مابقى من الأرض المفتوحة فى ايطاليا فأنهم تخلوا عنها . وأما سافوا وبيدمونت ، والتى كانت محتلة منذ عام ١٥٣٦ ، فإنها عادت إلى ايمانويل فيليبرت ، أميرها الشرعى ، بإستثناء موقعين استراتيجيين . وأما جزيرة كورسيكا التى كانوا قد أخذوها فى عام ١٥٥٣ من ابناء جنوا ، فإنها عادت إليهم . وبطبيعة الحال جاءت زيجة ملكية لكى تتوج أعمال الدبلوماسيين . ذلك أن فيليب الثانى ، الذى كان أرملا منذ بضعة أشهر نتيجة لوفاة مارى تيودور ، سيتزوج الأبنة الكبرى لهنرى الثانى . وكانت هذه هى الشروط الأساسية للمعاهدة . وكانت تطلب الكثير من فرنسا ، ولا تعطيها شيئاً — سوى السلم ، الذى كان ملكها فى أشد الحاجة اليه . ويقولون بأن كثير من الفرنسيين لعنوه من أجل عقده مثل هذا الصلح . وبعد قرن من

ذلك ، سيتحدث فوبان ، وبكل قسوة ، عن صلح كاتو هذا « الذى لا يشرف هنرى الثانى،والذى أعتبر دائماً على أنه أشد صلح عقد حتى ذلك الوقت خجلا » .

ونصت معاهدة خاصة مع انجلترا ، والملكة اليزابيث ، تم التوقيع عليها فى كاتو ، على ترك كاليه مؤقتاً لفرنسا : وكان ذلك سيكلفها ٥٠٠,٠٠٠ جنيه إذا مارغبت فى البقاء هناك بعد فترة الثمانية سنوات . الامبراطورية ، التى لم تكن ممثلة فى مؤتمر الصلح ، فلم يتم عقد معاهدة معها . وستظل فرنسا تمتلك ميتز ، وتول ، وفردان ، وبدون سند موثق وقانونى ، حتى عام ١٦٤٨ .

وهكذا تنتهى تلك الفترة الطويلة من تاريخ الغرب ،والتى كانت تسمى فى بعض الأوقات،إستناداً إلى أحد مظاهرها الرئيسية،بأنها فترة الحروب الايطالية . ولم تكن أسبانيا ، وبصفتها دولة ، هى التى لعبت فيها الدور الرئيسى .ومع ذلك ، فانها كانت هى الدولة التى حصلت من هذا الصراع على أكبر المزايا . فلقد عملت على توسيع نفوذها ، أو سيطرتها ، على الجزء الاكبر من إيطاليا ؛ وإستولت على نافار ؛ وورثت الاراضى المنخفضة ، التى تحررت من كل إدعاءات أجنبية . أما بالنسبة لفرنسا،وبصفتها صاحبة المصلحة الرئيسية فى تلك الصدمات التى تملأ هذه الفترة،فأنها خرجت منها بأجزاء فقدتها،وبمكاسب . ولكن الاستيلاء على كاليه ، واحلال ميتز ، وتول ، وفردان ، لم تكن تعوض إلا بشكل غير كامل التخلى عن ايطاليا ، بالإضافة إلى التخلى عن الفلاندر وآرتوا .

الفصل الثامن

التفوق الاسبانى

يمثل الجزء الثانى من القرن السادس عشر ، وبعد ذلك التحول الكبير فى عام ١٥٥٩ ، خصائص مختلفة تماماً عن خصائص الجزء الأول . ذلك أن منافسات الدول ، التى إستمرت فى وضع الدول الكبرى فى مواجهة بعضها ، قد زادت تعقيداً ، بتلك العدواة الشديدة ، والتى كان لايمكن القضاء عليها بين الكاثوليكية ومذاهب الاصلاح . أما الشراهية من أجل الإستحواذ على أراضى جديدة ، فإنها فقدت من أهميتها ، وزادت أهمية المشاعر الدينية ، وإحتلت المكان الاول . ومع ذلك فسيكون من المغالاة أن نقول بأن الأتجاه الدينى هو الذى أصبح يتحكم فى غيره . ولكنه كان على الأقل يفرض شكله الخارجى عليها . وحتى إذا كانت هناك مشغوليات أخرى تدور فى أذهان الرجال ، فإن هذه الإتجاهات الدينية كانت تعطى لونها لنياتهم ، ولدوافعهم .

١ ـ الصدامات الدينية بين الكاثوليكية ومذاهب الاصلاح :

ليس هناك ما يدعو إلى أن ننظر إلى كل المشكلات ، وبدون تمييز بينها ، من وجهة نظر التعارض بين المعتقدات . ومع ذلك ، فإن الكثيرين من المؤرخين البروتستانتيين قد مالوا ، فى حالات كثيرة ، صوب المغالاة فى تأثير الإصلاح الدينى على العلاقات الدولية . حقيقة أن الإصلاح الدينى قد عمل على تغيير الحياة الداخلية للأمم ، وعلى الأقل البعض من بينها ، ولكنه لم يغير بدرجه ملموسة طبيعة علاقاتها ، وإتجاهات سياساتها الواحدة تجاه الآخرين ، ولا معنى واتجاه التطور الذى كان موجوداً منذ نهاية العصور الوسطى .

والحالة الوحيدة لعلاقات أوربا المسيحية مع العالم الإسلامى يمكنها أن تكفى الشعور بذلك . فالانقسامات التى حطمت بشكل نهائى،فى بداية العصور الحديثة، حركة مد الحملات الصليبية لم تولد من الصدامات الدينية الكبيرة فى أثناء القرن السادس عشر . بل لقد زاد فقد حدتها ، وتدعمت . وكانت فيما مضى ، وتحت التأثير المتزايد للاتجاهات القومية ، قد أصبحت لا يمكن العودة إليها . ولا شك فى أن شيئاً لم يكن قد أتى لكى يقلل من تلك المعارضة الأساسية الموجودة بين الصليب والهلال . ولكن أبناء المسيحية إنتهى بهم الأمر إلى أن تعودوا جيرة المسلمين لهم . أما فكرة الحرب المقدسة ، حتى إذا ما كان يمكنهـا من وقت لآخر أن تدفعهم إلى الطرق المؤدية إلى الشرق ، فإنها لم تعد قادرة على أن تخلق حركات حقيقيه وفعلية بين الجماهير .

وإذا ما تركنا المشكلة الكبرى للحملات الصليبية جانباً ، فإن هناك بعض المشكلات ، من بين تلك التى كانت تطرح نفسها أمام رجال القرن السادس عشر، والتى كان فى وسع أحكامهم عليها أن تكون مختلفة عما كانت عليه ، إذلم يكن ذلك الاتجاه العدائى بين المعتقدات قد أثر فى صيغتها .

وإذا كانت أوربا قد أفلتت ، مرتين ، من أن تخضع لسيطرة الأسرة النمسوية الحاكمة ، فإن ذلك كان يرجع ، وإلى حد كبير ، إلى حركة الإصلاح الدينى . ففى وقت شارل الخامس ، تم الاحتفاظ بقوة أسرة هابسبورج دون إنتصار ، نتيجة لتوسع إتجاه أنصار لوثر فى ألمانيا ، ثم نتيجة للحروب الأهلية ، التى إضطر الإمبراطور إلى أن يضع كل قواته فى مواجهتها . وفى وقت فيليب الثانى ، سيتأثر مستقبلها بانشقاق الأراضى المنخفضة،الذى نشأ عن تلك المقاومة المريرة لأنصار كالفن للاتجاه المطلق لذلك « الملك الكاثوليكى » .

وهذه ظواهر واضحة ، لمن يفكر فيها . وكيف يمكننا أن نقول بأن شكل أوربا الغربية سيكون ، بدون حركة الإصلاح الدينى ، عند نهاية القرن السادس عشر ، هو نفس الذى رأيناه قد تشكل بالأحداث ، وأخذت فيه حركة الإصلاح الدينى مكاناً بارزاً ؟

ومع ذلك ، فمن هو الذى يمكنه أن يؤكد أنه بدون لوثر ، وبدون عصبة سمالكالد ، وعصبة عام ١٥٥٢ ، كان يمكن لشارل الخامس ألا ينهزم ؟ لقد كانت الدولة الفرنسية ، وهى الدولة الأولى فى كل أوربا ، قبل أن يظهر ، مصممة تماماً على أن تستمر فى الصراع ضده ، وإلى أطول وقت ممكن ، لكى تمنعه من تحقيق طموحاته . وكانت إنجلترا بدورها لا توافق على توسعه بدون حدود . أما ألمانيا الأمراء ، والأقاليم ، والمدن الحرة ، فإنها قد أظهرت تمسكا كبيرا بحرياتها حتى أنها كانت ستحمل السلاح لكى تدافع عنها . ولم تقم حركة الاصلاح الدينى إلا بوضع بطاقة جديدة فى لعبة خصوم أسرة هابسبورج . وحالة الأراضى المنخفضة فى النصف الثانى من القرن ، تتضمن تفسيرا من نفس النوع . والثورة ، قبل أن ترفع علم الدين ، كانت لها طبيعة وطنية بحتة . وهنا أيضا ، هب الكاثوليك والبروتستانت من أجل الدفاع عن حرياتهم . وإذا ما كانت المسألة العقائدية لم تأخذ ، مع الزمن ، تلك الأهمية ، لما تم بطبيعة الحال ذلك الإنقسام بين أقاليم الشمال وأقاليم الجنوب . وفى هذه الحالة ، ليس هناك من سبب لإفتراض أن عمل الثوار ، مؤيدا بفرنسا — فرنسا التى لا تكون قد شلتها الحروب الدينية — لن يحصل على النتائج التى كان من الواجب أن يحصل عليها فى نهاية الأمر الهولنديين وحدهم ، أى الاستقلال . وبالنسبة لاسبانيا ، كانت الكارثة ستكون إذن أكثر خطورة . وإذا كانت قد نجحت فى الإحتفاظ بسيطرتها على جزء من رعاياها فى الأراضى المنخفضة ، وهم سكان

الأقاليم الجنوبية ، فإن ذلك يرجع إلى أنها قد إستندت إلى حجة الخطر البروتستانتي .

وعلى العكس من ذلك ، فإذا كان شارل الخامس قد خشى إلى أبعد درجة من حركة الاصلاح الدينى ، فإن الإضطرابات التى تسببت فى نشأتها فى تفكير الناس كانت فى بعض الحالات فى مصلحته . فعند الفرنسيين ، ضعفت الرغبة فى المقاومة فى بعض الأوقات نتيجة لفكرة وجود تفاهم بين الملوك الكاثوليك ضد الهرطقة . وظلت هذه الفكرة موجودة وقت ذلك التقارب الذى ظهر فى سنوات ١٥٣٨ — ١٥٤٠ ، وإنتصرت هذه الفكرة فى اليوم التالى لحرب جديدة . وتأكدت فى البروتوكول السرى لعام ١٥٤٤ ، وتمكن الامبراطور من ان يستعد وهو فى منتهى الأمان ، من أجل الصراع الحاسم مع أنصار لوثر فى ألمانيا .

وهكذا نجد أن « الثورات الدينية » فى القرن السادس عشر لم تكن فى مصلحة دولة واحدة معينة ، وبشكل كامل ، ولا مجموعة من الدول ، على حساب غيرها . وإذا ما نظرنا إليها من إرتفاع ، ومن بعد ، نجد أنها قد قامت فقط بإدخال عامل جديد فى تعارض المصالح بين الدول . وجعلت الصدامات التى تستمر ، أو التى سوف تنشأ بعد ذلك ، وفى غرب أوربا ، أكثر تعقيدا .

٣ — نتائج الصدامات الدينية :

كان للإمبراطورية الإسبانية الألمانية ، التى ولدت فى عام ١٥١٩ ، فرصا قليلة لكى تعمر لفترة طويلة ، فكانت توحد بين دولتين لم تكن بينهما مصالح مشتركة من أى نوع ، لا سياسية ولا إقتصادية ؛ وبين شعبين ستعمل الظروف على الفصل بينهما بهوة سحيقة : فكان الأول هو الذى أخرجه أول مصلح دينى وإنضم ، جزئيا ، إلى المذهب الجديد ، وظل الثانى محافظا على ولائه ، وبإخلاص

المذهب الكاثوليكي . وعند نهاية الحكم ، لم يكن الإسبانيون مكروهين فقط في ألمانيا على أساس كونهم أنصار روما . بل لقد حملوا كذلك ثقل العداء الناتج عن الاتجاهات المطلقة في حكم الامبراطور . وتلك الأمة ، التي كانت غيورة على «الحريات الجرمانية» ، فضحت ، وبكل إحتقار «العبودية الإسبانية» التي تهددها . وكانت ترتعد أمام فكرة أن تخضع ، وفي شخص الملك فيليب ، لملك آخر جاء من إسبانيا ، أجنبيا ، أكثر من والد ، بالنسبة إليهم ،في لغته وفي عاداته . وكان الاتجاه القومي الألماني ، الذي كان لوثر قد أسهم إلى درجة بعيدة في تنميته ، قد رفض إستمرار مثل هذه التجربة ، التي كان قد عاشت لوقت طويل .

ولم يكن مجرد الشعور بهذا الاتجاه العدائي المتزايد فقط هو الذي جعل شارل الخامس يقرر تقسيم دولته ، حينما بدا له أن الوقت المناسب قد حان من أجل تحقيق الرغبة القوية التي كان يظهرها منذ وقت طويل من أجل التحرر من السلطة . بل لقد كانت هناك كذلك دوافع سياسية . فرغم معارضة أخيه ، ملك الرومان ، فانه قد تم التوقيع في عام ١٥٥١ على إتفاقية أسروية ، إحتفظت بتاج إقليم رومانا لفيليب : ولكن يكون مكسميليان ، ابن فرديناند ، في الامبراطورية ، سوى خليفة إبن عمه . وعاش الامبراطور ، منذ عام ١٥٥٣ ، في بروكسل ، في شبه عزلة ، حينما وقع حادث مفاجيء أجبره على الرجوع فيما قررته إتفاقية عام ١٥٥١ . ذلك أن وفاة ادوارد السادس الشاب جعل تاج انجلترا يذهب إلى أخته ، ماري تيودور . وكانت هذه الأخيرة ، التي تربت في كنف الديانة الكاثوليكية ، ترغب في ان تتزوج بأمير ، يمكنه أن يفيدها ويعضدها في مجهودها من أجل ارجاع بلادها إلى مذهبها السابق . ورأى شارل الخامس ، حين عرض عليها إبنة فيليب ، ميزة الحصول بسهولة أكثر على تنازل هذا الأخير عن الامبراطورية : فلا شك في أن تاجاً ملكيا ثانيا كان يكفيه .

أما الملكية الشابة ، والتى كانت تظهر كل ثقة وتقدير فى ابن الخال هذا ، الذى إختارته كحام ومرشد لها ، فإنها وافقت بسرعه عليه . وبدا أن فيليب كان قانعاً تماما بالا يحكم بلاد سادت فيها اتجاهات الهرطقة ، ولم يكن قد حظى فيها بأى تجاوب .

وبعد أن إنتهت مراسم التخلى عن العرش ، تأخرت عملية نقل سلطة الامبراطورية ، بطلب فرديناند نفسه ،ولم تحدث إلا فى شهر مارس ١٥٥٨ ، وقبل بضعة أشهر من وفاة اخيه فى ملجئه الإسبانى .

وفى الوقت الذى تنازل فيه الامبراطور عن العرش ، والذى كان يتم فيه التفاوض فى كاتو ، كان الموقف العام فى غير صالح المذهب الكاثوليكى . وبدا أن كل أمل قد فقد فى إرجاع المنشقين إلى حظيرة الكنيسة بالوسائل السلمية . ولم يكن من الممكن المناقشة مع ممثليهم فى مجلس منتخب بحرية : فالمجمع الذى سيعود إلى عقد جلساته فى ترانت ، والتى كانت قد إنقطعت منذ ما يقرب من عشر سنوات ، لن يشتمل إلا على الكاثوليك . أما فى الامبراطورية ، وفى الدايت الذى إجتمع فى أوجزبرج برئاسة فرديناند فى عام ١٥٥٥ ، فإن الأقلية من أنصار لوثر قد تمكنت من الحصول على إعتراف بالمساواة فى الحقوق وأما فى انجلترا ، فإن اليزابيت ستعمل على عودة إحياء مذهب هنرى الثامن الانجليكانى ، وتغرسه بشكل نهائى . وفى فرنسا ، وأخيرا ، فإن الهيجينوت ، والذى استمر نفوذهم يقوة فى المجتمع وفى الدولة ، قد إستعدوا لاستخدام القوة من أجل ان يحصلوا ، وبواسطة وصاية على العرش ، وعلى صيغة شرعية .

وظلت إسبانيا ، وحدها من بين كل الدول العظمى القومية ، بعيدة عن هذه العدوى . وكانت هى التى خرجت منتصرة من الحروب الإيطالية . والآن ،

وبعد أن إنفصلت عن الإمبراطورية ، أصبح فى وسعها أن تكرس كل مجهوداتها من أجل الدفاع عن مصالحها الخاصة،وتركز كل قواتها على المسارح التى تختارها وتطبقها فى عمليات أخرى خلاف محاربة الألمان الهراطقة أو الثائرين . وكانت قوية بوحدتها المعنوية ، التى كانت مدعمة بتلك الثروات التى كانت تأتى إليها من أمريكا ، وبهؤلاء المشاة المنقطعى النظير ، ولم يكن أحد من خصومها له نفس حجمها .

وسيمارس التفوق الاسبانى عملياته فى عالم دائم الغليان ، وتشعله فى كل فترة نيران الحروب الأهلية وفيما وراء الحدود ، كانت الروابط تعقد بين الأقليات المضطهدة ، أو الأغلبيات التى تمارس إضطهاد غيرها . وشعر رجال الاصلاح فى فرنسا أو فى الأراضى المنخفضة أنهم أكثر قربا من أبناء مذهبهم من الانجليز أو الألمان عنهم مع أبناء وطنهم من الكاثوليك . ولم يترددوا فى طلب معونتهم ، فى نفس الوقت الذى أرسل فيه الكاثوليك فى إنجلترا أو إسكتلندا نداءات لفرنسا أو لاسبانيا ومع ذلك ، فإن المواقف التقليدية بين الدول وبعضها لم تتغير بشكل كبير . فلم تتزعزع إلا بالكاد،ولوقت قصير . ولن تتأخر الدوافع السياسية،والتى كانت فى إحدى اللحظات قد مرت إلى الخط الثانى ، عن أن تتقدم من جديد على الدوافع الدينية .

وهكذا نجد ، أن كل تاريخ أوروبا الغربية،فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، قد خضع لسيطرة الصناعات الدينية . ومن المؤكد أن شخصيه أقوى ملوك هذا العصر قد لعبت فيه دوراً كبيراً . وعلينا أن نتعرف بسرعة على شخصية فيليب الثانى ، حتى نتمكن من فهم تاريخ هذه الفترة .

فلم يكن فيليب الثانى ، على خلاف والده الذى كان يحبه ولكنه لا يشبهه ، من الملوك المحاربين . فلن يقوم أبداً بالقيادة الفعلية لأحد الجيوش ، ولن يظهر

فى ميادين الحرب . وكان ملكا من طراز جديد ، ملكا محبا للإدارة . وفى قصر الاسكوريال ، الذى بناه ، والذى سكنه إبتداء من عام ١٥٦٨ ، والذى لن يتركه تقريبا إلا عند وفاته ، أى لفترة تقرب من ثلاثين عاما ، كان يمضى وقته فى الكتابة ، وفى تحرير الأوامر ، وإعطاء التعليمات ، وتوجيه الأسئلة . وفى الخارج ، كان يعمل بنوع خاص عن طريق الدبلوماسية . ولم يلتجىء إلى السلاح إلا فى حالات إستثنائية . ولم يقرر الالتجاء إليها إلا حينما يجد أنه ليس فى وسعه التصرف بطريقة أخرى ، دون أن يخسر هيبته ، وبعد أن يكون قد تردد لوقت طويل . وكان مسالما فسموه فيليب الحذر ، وبخاصة فى إنجلترا .

وفى البداية ، لم تنقصه الأسباب بطبيعة الحال لكى يأخذ موقف ويعلن عن نفسه أمام أعين أوربا أنه بطل المذهب الكاثوليكى . فتوفيت مارى تيودور بدون أولاد فى عام ١٥٥٨ ، فانفصلت الوحدة بين تاجى إسبانيا وإنجلترا . وفكر فيليب لفترة من الوقت فى إعادة هذه الوحدة عن طريق زواجـــة من اليزابيث . فطلب من أجل ذلك تصريحا من الكرسى البابوى ، إذ أن الملكة الجديدة كانت أخت زوجته . أما هذه الأخيرة ، فإنها حاورت ، كما ستفعل طول حياتها ، وفى كل الظروف . وكانت مصممة تماما على الاحتفاظ بحريتها ، ولكنها مع ذلك إمتنعت عن تثبيط عزيمة هذا المتقدم لها ، القوى : فكانت تعمل على تأجيل ذلك الحكم الذى لن يتأخر عن أن يقع على رأسها ، من روما ، حين تأخذ جانب رجال الاصلاح . وفى أثناء ذلك الوقت ، هل سيقوم فيليب بتأييد ملكة إسكتلندا ، التى كانت فى صراع من رجال الاصلاح الدينى ، والذين كانت قواتهم تتزايد فى كل يوم ؟ ذلك أن مارى ستيوارت التى تزوجت من الابن الأكبر لهنرى الثانى ، سوف تصبح ملكة على فرنسا ، فى نفس الوقت

الذى كان فيه الفرنسيون والاسكتلنديون مرتبطين سويا برباط تحالف . وقام بالمناورات ، وبدون حذق ، من أجل جعل النفوذ الاسبانى يأخذ مكان النفوذ الفرنسى فى إسكتلندا . وحين عادت مارى ستيوارت أرملة فرانسوا الثانى ، إلى إسكتلندا ، قامت لفترة من الوقت بدور فى تنفيذ مشروع تزويجها من إبنها دون كارلوس ، وكان متخلفا .

وبدت السنوات الأولى التى تلت صلح عام ١٥٥٩ مباشرة على أنها سوف توجه سياسة للدول الغربية المختلفة فى إتجاه مخالف تماما عن ذلك الذى ستسلكه فى نهاية الأمر . ففى مؤتمرات كاتو ، قامت حكومات فرنسا وإسبانيا بتبادل الوعود بقيام وفاق تام ضد الهرطقة . ونسجت خيوط تقارب بين التاجين، وتقرر أمر زواج ملك إسبانيا باليزابيث دى فالوا ، إبنة هنرى الثانى . وكان هذا يمثل نوعا من قلب نظام التحالفات الممكنة . فإسبانيا بعد أن إعتقدت فى أنها تسيطر على السياسة الانجليزية ، هل ستقوم بإدخال فرنسا فى لعبتها ؟ أنهم لن يسيرون طويلا فى هذا الطريق . فلا شك فى أن الملكة الجديدة لانجلترا قد تأكدت بسرعة من النيات الفعلية لكل من مدريد وروما ،فوافقت أولا على أن تساعد الهيجينوت الفرنسيين الذين كانوا قد حملوا السلاح ضد شارل التاسع: فبمعاهدة تم التوقيع عليها فى هامبتون كورت فى ٢٠ سبتمبر ١٥٦٢ مع ممثليهم ، قامت بتسليم ميناء الهافر الذى كان يعتقد فى إمكانية إستخدامه كرهينة من أجل إستعادة كاليه . ولكن جنودها لن يبقوا هناك فترة طويلة . فستقوم القوات الملكية بطردهم من هناك فى العام التالى . وستقوم ، بعد ذلك بقليل ، بالتوقيع على صلح تروا ، فى ١٢ أبريل ١٥٦٤ .

أما الصداقة الجديدة بين باريس ومدريد فانها لن تعمر بعد فقدان الأمل فى بعض المشروعات التى كانت كاترين دى ميديسيس قد تقدمت بها فى مقابلة

بايون مع ممثلى ملك إسبانيا فى شهر يونيو ١٥٦٥ . وستتواجه الدولتان للمرة الأولى فى إحدى المعارك الاستعمارية . فكان الهيجينوت الفرنسيون قد ذهبوا ، تحت قيادة الأميرال دى كولينى ، لكى ينشئوا مستعمرة قرب فلوريدا ، وسموها كارولينا ، تيمنا باسم شارل التاسع ، وبعد ما يقل عن العامين ، قامت جماعة من الاسبانيين بتخريب المستعمرة ، والقضاء على كل سكانها : ورفض فيليب الثانى أن يتبرأ من المسئولين عن هذه المذبحة . وزاد التشبث الاسبانى من مهاجمات كاترين وابنها لهذه السياسة الاسبانية . وسرعان ما يصل هذا التوتر فى بلاط فرنسا إلى حد التفكير فى الحرب. ولن تقع الحرب. ولكن موضوع الصداقة مع إسبانيا، سيكون قد إنتهى ؛ هذا علاوة على أنه لم يكن فى حقيقة الأمر سوى واجهة ، تخفى شيئا آخر .

٣ - إنجلترا بين فرنسا وإسبانيا (الأرمادا) :

كانت المنافسة البحرية والتى نتج عنها إكتشاف أمريكا وإستغلال ثرواتها فى بداية هذا القرن ، بعيدة عن الأسباب العميقة لذلك التعارض بين فرنسا فى عهد آخر ملوك أسرة فالوا ، وإسبانيا فى عهد فيليب الثانى ،وهو التعارض الذى سرعان ما يؤدى إلى صدام مسلح . وكان الفرنسيون قد نجحوا فى أن يحولوا لصالحهم ، وعن طريق التجارة ، جزءا من أمواج هذا الذهب والفضة الذى كان يصل إلى شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكانت إقتصاديات هاتين الدولتين قد أصبحت متكاملة إلى حد بعيد ، وكانت إسبانيا ، والتى سوف تزداد مساحتها بعد قليل بضمها للبرتغال ، والتى كانت على نفس درجة فقرها فى الحبوب ؛ ترحب كل ترحيب بالحبوب الفرنسية كلما كانت فرنسا تسمح بتصديرها . وكانت تستوعب جزءا من إنتاج الأقمشة فى نورماندى وبريتانى،والذى كانت تتزود به ، مع كل أنواع الأشياء العادية ؛ وتزود بها صادراتها صوب العالم الجديد . ولما كانت لا تمتلك

الكثير الذى يمكنها أن تقدمه فى نظير ذلك ، وكانت ، فى نفس الوقت ، كل عملية لتصدير المعادن النفيسة ممنوعة ، فإن ذلك أدى إلى نمو كبير لحركة سرية الذهب والفضة ، عن طريق البحر حين يكون ذلك ممكناً ـــ وإن كانت الموانى تخضع لمراقبة دقيقة ـــ وغالباً عن طريق ممرات جبال البرانس .

وكانت السياسة ، فى هذا العصر ، تزيد فى أهميتها على الاقتصاد. ونتيجة لتقدم حركة الاصلاح الدينى، طرحت مسألة الأراضى المنخفضة وتبعيتها لآل هابسبورج. وزاد عدد الفرنسيين الذين فكروا فى إمكانية الافادة من هذه الوضعية . وقام البعض منذ عام ١٥٧٠ ، بالتحدث عن ذلك صراحة . وفى هذه الفترة ، كانت سياسة فرنسا ، وسياسة إنجلترا ، وهما تعلمان مصلحتها المتشابهة من أجل العمل على إضعاف النظام الملكى فى إسبانيا ، قد عملتا أثناء فترة قصيرة فى هذا الاتجاه .

وكانت الاضطرابات التى ظهرت فى الأراضى المنخفضة ، والتى نتجت عن تمسك الأهالى « بحرياتهم التقليدية » ، والتى كان يهددها نظام الحكم المطلق لفيليب الثانى ، قد أخذت صفات سياسية ودينية فى نفس الوقت إبتداء من عام ١٥٦٦. وكان الرجال الذين إنضموا إلى حركة الاصلاح كثيرين فى أقاليم الشمال ، وإشتركوا بنشاط فى حركة المعارضة ، وأعطوها معان جديدة ، شيئاً فشيئاً ، أما جيرانهم فإنهم لم يتأخروا عن الشعور بإغراء التدخل وبدرجات متفاوتة ، فى هذا الصراع ، وفى عام ١٥٦٧ وصل جيش ارسله فيليب الثانى ، تحت قيادة احسن جنرالاته ، وهو دوق البا . وظهرت بذلك ، امام الجميع ، خطورة الموقف . وتلت ذلك فترة قصيرة من الارهاب . واكد أمير اورانج ، وكان من انصار كالفن ، انه رئيس المعارضين ، او حتى الثوار . وتمكن فى العام التالى من ان يحصل على بضعة آلاف من المرتزقة الألمان ، الذين كان اخاه ، لوى دي

ناسو ، قد جمعهم له . وهكذا بدأ الأجانب يتدخلون فى الموضوع ، وبشكل يجعل قمع الحركة أكثر مرارة .

وبدأت المشاعر فى التحرك ، فى فرنسا وفى إنجلترا . وأصبحت المشاعر من أجل أمير أورانج واضحة وصريحة . ولكنها كانت تخضع لخوف الحكومات من قوة إسبانيا . واستمرت اليزابيث فى أظهار ودها لفيليب وكان لها كثير من الأعداء فى الداخل وبشكل يمنعها من أن تخاطر فى مشكلات خارجية . ورغم مصالح بعض رعاياها فى الأراضى المنخفضة ، بخاصة فى أنفرس ، و « المراكز » — أى أنها كانت بالنسبة لها سوقاً مميزاً — التى تعاملت فى الأصواف الانجليزية على القارة ، فانها لم تجرؤ على تشجيع الثائرين بشكل صريح ولكن أعمال القرصنة من جانب الانجليز أسهمت فى زيادة خطورة الصعوبات الاقتصادية التى كان الاسبانيون يقاسون منها . وساءت العلاقات بين الطرفين ، وبشكل حاد ، فى عام ١٥٦٨ . وكان رفض ترك السفير فى مدريد يقيم شعائر القداس فى داره على طريقة رجال الاصلاح الدينى قد أدت إلى سحبه ولم ترسل إنجلترا سفيراً آخراً بدلا منه . وبعد ذلك قام الانجليز بعمليات انتقام : فأعلنوا إلغاء الاتفاقيات التجارية الموجودة ، وقاموا بالاستيلاء على السفن الاسبانية فى بحر المانش . وتميزت الفترة الخاصة بالتوتر ، والتى نتجت عن ذلك ، بتزايد واضح فى العلاقات التجارية بين إنجلترا والأراضى المنخفضة وبخاصة نتيجة لنقل « مركز » الأصواف من أنفرس إلى هامبورج . وبدأ حتى أن صداماً سيكون قريباً حينما تهدد عرش اليزابيث فى عام ١٥٧٠ بإحدى الثورات ، وتحدثوا فى مدريد عن إرسال مدد للثوار . وكانت هذه فرصة فريدة أمام عمليات القرصنة . وقام الانجليز بها بكل حماس فى خليج المكسيك . وكان رجال البحر من هولندا وزيلندا ، والذين كانوا يحاربون الإسبانيين بطريقتهم ، يلتجئون إلى موانى

السواحل الجنوبية لانجلترا . ونتيجة لطلب دوق ألبا ، وافقت اليزابيث بعد ذلك على طردهم من هناك فى عام ١٥٧١ .

وكانت العودة الاجبارية لهؤلاء الخارجين على القانون ، هى بداية إنطلاقة الثورة المسلحة ضد إسبانيا . وبدأ أن المنطقة تصل إلى مشارف أزمة ضخمة . وعندئذ حدث تحرك فى فرنسا . فتحت تأثير الاميرال دى كولينى ، الرئيس الكبير لحزب الهيجونوت ، فكر شارل التاسع ، وإن كان ذلك مع تردد كبير ، فى أن يقوم بالحرب فى الأراضى المنخفضة . فغض عينيه عن تلك الاستعدادات العسكرية التى كانت تتم علانية قرب الحدود الشمالية ، وقابل لوى دى ناسو ، أخا أمير أورانج ، وتبادل معه الوعود . وتركت الملكة إليزابيث نفسها تدخل فى العملية ، رغم مقاومة أوساط رجال التجارة ، الذين كانوا يخشون من إمكانية إستيلاء فرنسا على الأراضى المنخفضة وكانت تخشى ، قبل كل شىء ، من أن يقدم دوق ألبا وعوداً للكاثوليك الانجليز ، بتأييدهم ، وكانوا أنصار مارى ستيوارت . ولذلك فإنها وافقت على أن تعقد فى بلوا ، مع شارل التاسع ، وفى ١٩ أبريل ١٥٧٢ ، معاهدة تحالف دفاعى ، مضافاً إليها نصوص تجارية . وقامت جماعات من المتطوعين الفرنسيين ، وبموافقة الحكومة الضمنية ، بالذهاب إلى جبهة هاينو وبالعمل مع قوات لوى دى ناسو . ولكن كاترين دى ميديسيس فقدت صوابها ، إذ أنها كانت تخشى من القوات الاسبانية . وعملت على أن تمنع حدوث القطيعة بكل وسيلة ممكنة . ولكى تحتفظ بإبنها على حافة الهاوية ، لم تجد لذلك من وسيلة سوى ان تدفعه إلى القيام بمذبحة عامة البروتستانتيين ، الذين كانوا قد حضروا إلى باريس من أجل الاشتراك فى حفلات زواج إبنتها الاخيرة بملك نافار . وكان هذا اليوم كافياً لإشهاد العالم على أن فرنسا أن تتدخل في الأراضي المنخفضة .

وكانت اليزابيث قد ترددت لفترة طويلة فى أخذ موقف. وكانت حركة الإلتفاف المفاجئة التى قامت بها فرنسا بعد يوم ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ تفرض عليها ضرورة الحذر . ولذلك فإنها عقدت إتفاقية ، مع دوق ألبا ، فى ٥ أبريل ١٥٧٣ وكانت لها طبيعة تجارية بنوع خاص . وإن كان ذلك لم يمنع، من جانب آخر ، من تجديد المعاهدة الإنجليزية الفرنسية ، بعد وصول هنرى الثالث إلى العرش .

وبعد هذه الخطوة غير الموفقة فى عام ١٥٧٢ ، ترك الأجانب ، من جديد ، أيدى فيليب الثانى حرة للعمل فى الأراضى المنخفضة . وهذه الحرب التى إمتدت شيئاً فشيئاً إلى كل الأراضى المنخفضة ، إحتفظت بطبيعتها، كحرب أهلية . وكانت العصابات التى تجند فى ألمانيا تستمر فى الإشتراك فيها ، من وقت لآخر . أما فرنسا فإنها شغلت كل يوم بدرجة أكبر ، بالإضطرابات الداخلية فيها . أما إنجلترا فى عهد اليزابيث ، فإنها ظلت على تحفظها ، وإكتفت بأن ترسل إلى الثوار بعض المعونات .

وعلينا أن نحاول شرح طبيعه إنجلترا فى هذا الوقت ، فكانت تتكون فى غالبيتها العظمى من الفلاحين ، ومن مربى الخراف والنساجين ، ولم تكن قد أظهرت بعد تطلعها إلى آفاق بعيدة ، ولا للميل إلى المغامرات . ولم تكن قد أسهمت إلا بقدر بسيط فى رحلات الكشوف الجغرافية التى وقعت فى أوائل القرن ، وكان جون كابوت قد قام بمجرد التعرف على منطقة لبرادور فى عام ١٤٩٩ : وكان مع ذلك من أصل إيطالى ، وعمل فى خدمة هنرى السابع .

ولذلك فإن حب الإنجليز للبحر ليس مرتبطاً بحالة بلادهم الجزرية ، أو على الأقل أنه لا يترتب عليها بالضرورة.وكان من الضرورى من أجل شعورهم بذلك فى أثناء القرن السادس عشر ، أن تعمل عمليات الغزو الإسبانية والبرتغالية

على هز تفكيرهم ، وإلى أن تثير الثروات المعدنية للعالم الجديد شهواتهم . وظهر ذلك فى أول الأمر مع نمو عمليات القرصنة .

وفى أثناء القرن السالف ، وأثناء حرب المائة عام ، كان القراصنة الانجليز ينشرون الذعر على سواحل فرنسا وبريتانى . ووصل نطاق عملياتهم إلى سواحل شبه جزيرة أيبيريا حين بدأت الثروات المعدنية للعالم الجديد فى عبور المحيط . أما الاضرار التى نتجت عن عملياتهم للاقتصاد الإسبانى فإنها ستكون عند أصول بداية العداوة ، والتى ستزيد المسألة الدينية بشكل متزايد من خطورتها ، حتى ينتج عنها، فى الربع الأخير من القرن ، حرباً معلنة بين مملكة اليزابيث ومملكة فيليب الثانى ، ومنذ عام ١٥٦٣ ، كانت مطالب الحكومات ذات المصلحة تعلمنا أن ٤٠٠ سفينة من سفن القراصنة كانت موجودة فى بحر الشمال وفى الخليج الإنجليزى ؛ وكانت قد أتلفت ، فى عام واحد ، ما يزيد على ٧٠٠ سفينة فرنسية ، وفلمنكية وإسبانية. وكانت السفن التابعة للدولتين الأخيرتين هى الأكثر عدداً.ولم يكف فيليب الثانى عن الشكوى ، بالطرق الدبلوماسية . ولم يقتصر من جانب آخر ، على الشكوى وعلى التهديد . فلكى يجعلهم يستمعون إليه بطريقة أفضل ، قام فى بعض الحالات بالاستيلاء على السفن الإنجليزية التى كانت موجودة فى موانى شبه الجزيرة . وفى وقت إعلان الحرب ، تحول كل هؤلاء القراصنة إلى حركة السباق البحرى . أو الجهاد البحرى Coursaires : أى أنهم سيحظون بحماية القانون الدولى ، فى حالة وقوع أية حادثة . وفى عام ١٥٨٨ ، سيتكون الأسطول الذى تجمع على السواحل البريطانية ، ولكى يواجه الارمادا ، فى غالبيته العظمى من سفن هذا السباق البحرى .

وفى هذا النصف الثانى من القرن السادس عشر ، تحول المحيط الأطلسى كله إلى ميدان القراصنة ، وكان الرأى العام يهتم بعملياتهم ،وحصل أشجعهم على شعبية

واضحة عند الأهالى وكانت الحكومة تتبرأ منهم حين تصلها إحتجاجات رسمية . ولكنها لم تفكر فى عرقلة عملياتهم. وحدث أن الملكة نفسها قدمت الأموال لدريك، حتى تحصل على نصيب من الغنائم التى كان يعود بها ومنحته درجة فارس رسمياً بمناسبة سفره حول العالم .

وكانت القرصنة ، فى النصف الثانى من القرن ، تمهد الطريق أمام المستكشفين وأمام التجار . وكانت هناك طرقاً لا تزال غير معروفة فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية . فقام الانجليز بالمغامرات هناك . وإنتهى شانسيلور ، الذى كان يبحث عن طريق إلى الشمال الشرقى ، بالوصول ، فى عام ١٥٥٣ ، إلى قاع البحر الابيض . أما فروبيشر ، الذى إتبع الطريق إلى الشمال الغربى ، فإنه إصطدم فى ١٥٧٦ بأراضى الاسكيمو المغطاة بالثلوج ، أما هدسون فإنه إكتشف ، فى عام ١٦٠٩ ، ذلك الخليج الواسع الذى سيحمل إسمه إلى الإزدهار . وجاءت عملية إنشاء وتكوين الشركات المختصة بالتجارة البعيدة فى نفس هذا الوقت ، أو فى السنوات التالية مباشرة لهذه المحاولات . وكانت هناك أولا ، وفى عام ١٥٥٥ ، الشركة الموسكرفية ، والتى أنشأها التجار المغامرون ، وحصلت من الملكة على حق إحتكار التجارة البعيدة ، فى أوربا ، وخارج أوربا . وأدى نجاحها ، فى عام ١٥٧٩ ، إلى إنشاء شركة مشابهة من أجل تجارة بحر البلطيق ، وهى إيستلاند كومبانى Eastland Co ، والتى كان مركزها فى أول الأمر فى دانزيج . ثم كان ظهور شركة شرق البحر المتوسط أو شركة الليفانت Levant Co فى عام ١٥٨١، والتى كانت موجهة للعمل فى البحر المتوسط ، وأخيراً شركة الهند الشرقية فى عام ١٦٠٠ ، وهى التى ستنازع البرتغاليين والهولنديين أسواق توابل الشرق الأقصى .

وكان الأجانب حتى ذلك الوقت هم المسيطرون على التجارة الخارجية

لانجلترا : ولكن دورهم سيختفى،أو سيطر ذون،وحتى السنوات الأولى من القرن، كان أسطول البنادقة الذى يذهب فى كل عام إلى بروج ، يتوقف لبضعة أيام فى ساوثهامبتون . ولكن الصعوبات التى نشأت مع الدوق دفعت هنرى الثامن ، فى عام ١٥٣٤ ، إلى التدخل من أجل إبطال هذه العادة . والواقع أن العملية لم تتم بطريقة مفاجئة ، ومن وقت لآخر ، وخلال خمسين سنة أخرى، كانت سفن البندقية تصل فى بعض الحالات إلى السواحل الانجليزية . ولن يتخلصوا كذلك إلا بعد بضع الوقت من رجال الهانسا الذين كانوا يقيمون عندهم ، فى قلب لندن . ولن يحدث ، وكما رأينا ، إلا فى عام ١٥٩٣ ، أن أوامر الملكة قد صدرت من أجل إغلاق مركزهم بشكل نهائى .

وهكذا ظهر البحارة الانجليز ، وفى خدمة التجار الانجليز ، فى كل مكان ، عند نهاية القرن السادس عشر، سواء أكان ذلك فى البحار القريبة ، أو فى البحار البعيدة وهذه الدفعة النشطة البحرية والمفاجئة أعطت بصمانها على «عصر اليزابيث» فى المجالات الإقتصادية وإن ما يساعد بنوع خاص على شرح هذا الصدام الكبير، والذى نضج خلال وقت طويل ، مع إسبانيا ، لم يكن يتمثل فى ذلك الإنضمام الأخير من جانب الأمة الانجليزية إلى المذهب الانجليكانى، كما كان يتمثل فى نمو ذلك التفكير الماركانتيلى والرغبة فى التوسع ، التى نتجت عنه . وربما كان رجال الدين يعظون ، من فوق منابرهم ، ضد الديانة الكاثوليكية الرومانية ، وضد من يؤمن بها ، إذا ما كانت المنافسات بين المصالح ، فى المدينة ، وعلى جوانب التاميز وفى كل موانى المملكة ، تجد أصداءاً لها ، وطويلة المدى ، على المحيط وعلى كل السواحل .

أما فرنسا فإنها بدت ، وبصورة متزايدة ، على أنها مشغولة بالحروب الدينية ، ولذلك فإن العداء الانجليزى الإسبانى كان هو الذى يسيطر على الجزء الأخير من القرن.

وكانت السياسة الخارجية للملكة إليزابيث فى بعض الحالات مترددة بنفس درجة تردد سياسة منافسها الكبير ، فيليب الثانى . ويمكن تفسير هذا التردد بطبيعة الملكة نفسها ، وكذلك بالظروف الخاصة التى كانت تحكم فى أثنائها . وكانت مجبرة على أن تواجه أعداء كثيرين فى الداخل، وبخاصة الكاثوليك، فاضطرت إلى أن تحاور ، وتخفى سياستها خلال سنوات طويلة ، قبل أن تؤكد شخصيتها وتؤكد ما ترغب فيه . وبعد عام ١٥٧٢ ، وكما لو كانت آسفة على أنها قد شجعت بدون حذر الأطماع الفرنسية فى الأراضى المنخفضة ، فإنها قد إنتهجت سياسة وساطة بين فيليب وبين رعاياه الثائرين . وأصرت خلال سنوات على أن تقترح وساطتها على مدريد . وكان فيليب لا يرفض مثل هذا الأمر . ولكنه طالب بخضوع الثوار بدون قيد ولا شرط : الأمر الذى أدى إلى فشل هذه المحاولة . كما أن الاتفاقيات التجارية السابقة تجددت بمعاهدة ٥ أبريل ١٥٧٣ . وكذلك فإن مسائل الخلافات الأخرى ، والتى تتعلق بنوع خاص بالأراضى المنخفضة ، سويت باتفاقيات ١٥٧٤ و ١٥٧٥ . ومع ذلك فإن العلاقات الدبلوماسية العادية لم ترجع إلا فى عام ١٥٧٨ ، وبعد عشر سنوات من القطيعة .

ولقد كان إستمرار تضامن المصالح الفرنسية والانجليزية ، وفى مواجهة إسبانيا القوية الغاية ، وكذلك صعوبة التوفيق بينها،لها دورها خلف مشروعات الزواج التى تفاهمت عليها دبلوماسية الدولتين خلال فترة عشرين عاماً . وكانت هذه القصة الطويلة قد بدأت قبل وقوع مذبحة البروتستانتيين فى باريس . وكان الأمر يتعلق فى ذلك الوقت بزواج هنرى الثالث المقبل من اليزابيث . ولكن الشاب تهرب ، فلم تستمر المسألة لوقت طويل . ومن بعده ، جاء دور أخيه الثانى، دوق أليفسون ، أولا ، ثم أخاه الثالث ، دوق آنجو ، وفى نفس المحاولة . ومع هذا الأخير سارت المسألة — أو المسرحية — إلى حد بعيد . وكان لاغراء

اليزابيث دوراً فى إطالة أمد المشروع . ولكنها شعرت بأن رعاياها كانوا لا يوافقون على زواجها من فرنسى (حريصين فى ذلك على العداء التقليدى أكثر من عدواتهم للمذهب الكاثوليكى) ، فعملت على تضييع الوقت .

واستمرت المسألة بهمة خاصة فى سنوات ١٥٧٦ — ١٥٧٨ . وكان دون جوان النمسوى ، الأخ غير الشقيق لفيليب ، والذى كان قد تعين حاكما عاما على الأراضى المنخفضة ، يرغب فى الحصول على وريث فى انجلترا ، حتى يتمكن من عزل الملكة الهرطيقة ، ويضع فى محلها سجينتها ، مارى ستيوارت . ولكن الأمر زاد إضطراباً نتيجة لتجدد الاطماع الفرنسية فى الأراضى المنخفضة . وقام دوق آنجو بعمل حساباته ، وعرف أن فى وسعه أن تكون فرصته أفضل لكى توافق لندن عليه ، إذا مانجح فى أن ينشىء لنفسه إمارة مستقلة . وقام بالمناورات فى بروكسل حتى يقبل . وجاء مع هذا إعلان العودة إلى سياسة نشطة فى الأراضى المنخفضة ، وإلى سياسة كولينى . وكان الوقت قد أحسن اختياره : ذلك أن مجلس طبقات الأمة فكر ، ولكن يتحاشى انفصال الاقاليم البروتستانتية ، فى أن يستدعى شخصية محايدة ، أمير أجنبى . وأعطى الاتفاق السرى الذى عقده دوق آنجو معهم لقب « حامى حريات الأراضى المنخفضة » . وتضايقت اليزابيث من ذلك كثيراً ، خاصة وأن حزب الحرب الذى كان عدده يتزايد باستمرار ، كان يدفعها إلى التدخل فى كل مكان تكون فيه حركة الاصلاح الدينى فى خطر . واضطرت فى عام ١٥٧٧ ، رغم معاهدة بلوا إلى أن تترك المتطوعين والذخائر تذهب إلى لاروشيل ، التى كانت فى خطر ، وكذلك اضطرت إلى إمداد جيش منتخب البلاتينات ، جان كازيمير الذى كان يعمل من إنقاذ الهيجونوت الفرنسيين . ووعد جان كازيمير ، بعد أن حصل على معونات من انجلترا ، بالتدخل فى الأراضى المنخفضة .

وقام دوق آنجو ،فى عام ٥٧٨ ،وبالاتفاق مع مجلس طبقات الأمة بالدخول إلى مونس مع فرقة صغيرة من المتطوعين . ولكنه إضطر ، نتيجة لنقص الأموال ، إلى التخلى سريعاً عن المشروع . وتمكن جان كازيمير ، من ناحيته ، من الوصول حتى جاند ؛ ولكنه إضطر كذلك إلى التقهقر بعد أن إنتهت المعونة الانجليزية . وكانت المعارك قد وصلت إلى نقاط أكثر تقدماً ، وإن كانت قد إنتهت كذلك إلى الفشل .

ولم تتأخر الازمة التالية كثيراً . ذلك أن ويليام أورانج ، الذى كان من أكبر أعوان الدعم الفرنسى ، حصل من مجلس طبقات الأمة على تصريح بالتفاهم مع أخى الملك . ووعده ، بمعاهدة شهر سبتمبر ١٥٨٠ ، بأن يعترف به « كأمير وسيد » على الأراضى المنخفضة ، وبأن يشارك فى تكاليف حملته . وإذا كانت المغامرة قد فشلت ، فإن ذلك كان يرجع إلى غروره وعدم توفيقه . إذ أن اليزابيت كانت تأمل ، هذه المرة ، فى نجاحه . وبعد أن نزل فى زيلاند مع بعض القوات ، وأقام فى أنفرس ، فى القصر الملكى ، لم يوافق على أن يحكم . تحت سيطرة مجلس طبقات الأمة وقرر ، بعد بضعة أشهر ، أن يحاول القيام بمحاولة لاستخدام القوة ، ولكى يستولى على السلطة التى كانوا يرفضون إعطائه إياها ، ودون اية نتيجة سوى التسبب فى نشوب ثورة يضيع فيها جزء من هؤلاء الأهالى ، وتجبره على الهروب من البلاد . وسيموت ، نتيجة لمرضه ، فى العام التالى .

وقبل بداية هذا الحكم الذى كان يقل عن عام (فبراير ١٥٨٢ - يناير ٥٨٣) كان أمر الإنفصال قد أصبح نهائياً بين أقاليم الجنوب ، والتى كان أغلب سكانها من الكاثوليك ، والتى تصالحت مع إسبانيا ، وبين أقاليم الشمال ، والتى أسمت نفسها « الأقاليم المتحدة » . وأعلنت إستقلالها . وفى أثناء ذلك الوقت لم يكف ويليام أورانج عن التفكير فى وضع أمير فرنسى على رأس هذه الدولة . ونتيجة

لجهوداته ، تمت إتصالات مع دوق آنجو . ولم تغير وفاته ، فى ١٠ يوليو ١٥٨٤ ووفاة دوق آنجو ، والذى سبقه ببضعة أسابيع ، عن موقف مجلس طبقات الامة فارسلوا وفد إلى ملك فرنسا نفسه ، عاوضاً عليه لقب «الامير صاحب السيادة» . ولكن هنرى الثالث ، الذى كان يتهم فى كل يوم من جانب العصبة بأنه شريك وحليف للهجينوت ، لم يكن حرا فى قبول مثل هذا العرض .

وبعد أن تراجع الفرنسيون ، إضطر الهولنديون إلى الإتجاه صوب إنجلترا . وكانت استعادة الاسبانيين لميناء أنفرس ، وبعد حصار استمر لفترة تقرب من عام ، قد انتهى بالتغلب على تردد اليزابيت . وكانت المعاهدة التى وافقت فى آخر الأمر على أن تعقدها مع مجلس طبقات الامة ، فى ٢٠ أغسطس ١٥٨٥ ، تجعلها تتعهد بأن ترسل اليهم جيشاً يظل هناك حتى نهاية العمليات العسكرية . ومع ذلك ، فإن معونتها لن تكون مجانية : فسيضعون فى أيديها عددا من موانى زيلاند كضمان للنفقات التى ستكون قد قامت بها من أجل حرية هولندا . وكان الجيش الانجليزى الذى نزل هناك عند نهاية السنة يبلغ ستة آلاف جندى ، وألف فارس . وحصل قائده ، ليستر ، من مجلس طبقات الأمة ، على لقب « حاكم وقائد عام » . ولكن سرعان ما ظهر أنه غير موفق ، مثله فى ذلك مثل دوق آنجو ، من قبل . ولم يعط تعاونه مع الهولنديين أية نتيجة ، خاصة وأن حرص الملكة لم يساعد على احتفاظ هذا الجيش بقوته كاملة . وضاعت عزيمة ليستر ، وعاد الى انجلترا منذ نهاية عام ١٥٨٧ ، وانتهى التدخل الانجليزى بفشل ذريع .

ولم تحدث القطيعة بين لندن ومدريد ، والتى كانت منذ فترة طويلة فى الافق ، إلا فى عام ١٥٨٥ . ومع ذلك فإن احداث الاراضى المنخفضة لم تكن هى سببها الرئيسي .

فلقد كان فيليب مصمماً ، منذ عام ١٥٧٩ ، على أن يسلك طريق الحرب . ولكنه كان يوجه ذلك ضد انجلترا ، التى كانت قد غيرت مذهبها الكاثوليكى . وكان حامى المذهب الكاثوليكى قد أصم أذنيه عن نداءات جريجورى الثالث عشر ، الذى كان يدعوه إلى انتهاز فرصة قيام الثورة فى أيرلندا ، لكى يرسل معونات مسلحة إلى الثوار . ولم يكن يعلم إلا بضم البرتغال المجاورة ، وهى دولة كاثوليكية .

وكان موت الملك دون سباستيان ، الذى قتل فى موقعة الاباطرة الثلاث ، فى المغرب الاقصى ، قد طرح مسألة خلافته على العرش . وكان الوريث الوحيد المباشر ، وهو أحد أعمام الملك المتوفى ، وكان شيخاً قد توفى بعد عامين من الحكم . ولذلك فإن فيليب الثانى،الذى كان ابنا لأميرة برتغالية ، أخذ فى المطالبة بحقوقه فى هذا العرش . فأرسل جيشاً إلى لشبونة ، وجعل الكورتيز يعلنه ملكا على البرتغال فى عام ١٥٨٠ . ومن ذلك الوقت ستصبح كل المستعمرات الاسبانية ، والمستعمرات البرتغالية ، امبراطورية واحدة . وسيصبح اسطول فيليب الثانى مكلفاً بمسئوليات جديدة ، وذلك فى الوقت الذى سيفتح فيه كل العالم المعروف فى ذلك الوقت لمشروعات خصومه . وكانت سنوات ١٥٨٠ وما تلتها هى العصر الذهبى للقرصنة الانجليزية . وابتداء من عام ١٥٨٥ ، وحين تبدأ أخيرا العمليات الحربية بشكل رسمى ، سيقوم القراصنة ، الذين كانوا لا يزالون يحملون المطابات المبصومة ، بمهاجمة سواحل شبه جزيرة أيبيريا نفسها . وفى الوقت الذى سيأخذ فيه فى انشاء الارمادا الكبيرة ابتداء من عام ١٥٨٨ ، سيقوم فيه دريك بالهجمات حتى قادس ، ويدخل إلى الميناء ، وسيحرق كل السفن التى سيجدها متجمعة هناك .

وكان غزو البرتغال قد أثار قلق كل من باريس ولندن. وقام دون أنطونيو، المطالب بعرش البرتغال، وأكثر أقرباء الملك المتوفى، بالالتجاء إلى إنجلترا، وحيث قاموا بتشجيعه وأعطوه مخصصات بسيطة. وفى فرنسا كان هنرى الثالث مشغولا بعداوات العصبة، فلم يتمكن من التدخل. ولكنه سمح لوالدته بأن تطالب بحقوقه فى ذلك التاج المتنازع عليه، وقام بتسليح أسطول سيذهب إلى جزر الخالدات ويعمل مع خصوم فيليب من البرتغاليين. ولكن الحملة البحرية، فى عام ١٥٨٢، إنتهت بالفشل.

وبعد أن إستقر فيليب تماماً فى لشبونة، وحقق بذلك إحدى طموحاته الغالية، وجد أن الفرصة قد حانت من أجل أن يستخدم قوته ضد الهراطقة الخارجيين، الموجودين فى إنجلترا، والموجودين فى فرنسا. وقام فى شهر يناير ١٥٨٥ بعقد إتفاقية سرية، هى معاهدة جوانفيل، مع دوق دى جيز، أى مع رئيس العصبة. وفى أثناء الصيف التالى، إختمرت فى ذهنه فكرة أرسال قوة بحرية، قوية، لغزو إنجلترا. وعلت الصرخات فى اسبانيا ضد القراصنة: فأصبحت الأمة إذن مستعدة لدعم المجهود الذى سيطلب إليها تقديمه من أجل عقاب القراصنة. ولكن فيليب، على عادته، لم يسرع بالعمل. فعندما إتهم سفيره، ميندوزا، بالاتصال بالمتآمرين ضد الملكة، وطرد من إنجلترا، بدأ الملك استعداداته فى كل موانى شبه جزيرة أيبيريا. وسيستمر فى ذلك خلال عدة سنوات.

ولم تلعب عملية إعدام مارى ستيوارت، والتى حدثت قبل إتمام الاستعدادات، ذلك الدور الذى نسبوه إليها فى غالب الأحيان، ولكنها كانت فرصة فريدة من أجل الدعاية، دون أن يكون من نتائجها تأكيد القرار، الذى كان قد إتخذ من قبل. ولن نتوقف عند هذه المرحلة المأسوية من العلاقات بين انجلترا

واسكتلندا . ذلك أن أصولها ترجع إلى فترة عشرين عاماً سابقة ، وحين قامت الملكة الشابة ، التي هربت من بلادها الثائرة ، باللجوء دون حذر عند جيرانها . وكانت قد أصبحت ، منذ ذلك الوقت، مركزا لكل المؤامرات التي كان الكاثوليك يقومون بها ضد حكومة إليزابيث ، وحتى ضد شخصها . وكانت فرنسا قد إمتنعت ، وبكل حذر ، عن الاشتراك فيها . ولكن إسبانيا كانت أيديها دائماً هناك . وأسهمت بذلك بنصيب كبير ، في الوصول إلى هذه النتيجة . وسلمت ماري ستيوارت إلى الجلاد في شهر فبراير ١٥٨٧ . وسينظر إليها كل العالم الكاثوليكي ، وعلى أنها شهيدة لعقيدتها . وكانت بدرجة أكثر من ذلك ضحية لقلة حذرها، وضحية لمولدها : اذ أنه من الواجب ألا ننسى أنها كانت ، وبصفتها الحفيدة الصغرى لهنري السابع ، هي الوارثة لتاج انجلترا ، اذا لم تنجب اليزابيث مولوداً .

وكانت الأرمادا الاسبانية في عام ١٥٨٨ مستعدة للإقلاع : وكانت هناك مائة وثلاثون سفينة ، بقيادة دوق ميدينا سيدونيا ، تغطي في بحر المانش عمليات الإنزال . كانت هناك سفن مسطحة ، قد تجمعت على سواحل زيلندا ، لكي تنقل الجيش إلى إنجلترا . وكان الاسطول الانجليزي ، له نفس هذا الحجم تقريباً . وكانت هناك بعض عمليات العصابات قد سبقت بعشرة أيام ذلك اللقاء التاريخي بين الأسطولين قرب كاليه . وكان التفوق الاستراتيجي للانجليز ، والذي ساعده في لحظة معينة شبوب عاصفة ، قد أدى إلى إنزال هزيمة ساحقة بالقوات المعتدية في ٥ أغسطس ١٥٨٨ .

أما اليزابيث فانها لم تعتقد في أنه يمكن لهذا الإنتصار أن تكون له نتائج عسكرية . ومع ذلك . فإنها لم ترفض في العام التالي لدريك أمر قيادة حملة موجهة ضد لشبونة : وعادت الحملة دون أن تنجح في الإنتصار على البرتغاليين .

٤ ـ فيليب الثانى وفرنسا حتى صلح فرنان :

منذ قبل مسألة الأرمادا ، مال الصراع الذى إستمر فى الاراضى المنخفضة إلى أن يصبح العامل ، وربما الأكثر أهمية فى التاريخ الدولى لأوروبا . وكان فيليب الثانى قد إنتهى من إخضاع البرتغال . وكانت لديه القوات والأموال . وقام ممثله فى بروكسل ، اسكندر فارنيز ، دوق بارما بمحاربة الإنفصال ، مستخدماً فى ذلك القوة . وبعد إتمام إخضاع جاند ، بدأ فى مهاجمة أنفرس ، والذى عمل حصارها على شد أعصاب الرأى العام لمدة تقرب من عام (سبتمبر ١٥٨٤ — أغسطس ١٥٨٥) . وكان قد أنفرس أمراً مؤثراً على الاتجاه الاقتصادى للدولة الهولندية . ذلك أن الميناء الكبير لنهر الاسكوت أتم ، بعد أن عاد إلى إسبانيا من جديد . فقد الدور المتفوق الذى كان له فى أثناء الثلاثة أرباع قرن السابقة . وشلت حركة تجارته الخارجية . وإنتقلت أهم وظائفه إلى موانى هولندا وزيلندا ، أى إلى فليسنج وإلى أمستردام ، وحيث ذهب أكبر رجال الأعمال من الفلمنكيين والاجانب ، باحثين عن ملجأ لهم . وفى خلال العشرين سنة التالية ستتضح الخطوط العامة لشكل المستقبل التجارى والمالى لجمهورية الأقاليم المتحدة .

فنجد أولا ، أن العلاقات بين الدول المطلة على البحر المتوسط قد أخذت أهمية جديدة ، ورأينا ذلك فى فصل سابق . ثم قامت السفن الهولندية بعملية غزو الأسواق الآسيوية . وفى هذا المجال كان التطور أكثر بطأ . ولم تغلق موانى شبه الجزيرة الأيبيرية نفسها فى وجه الإنفصاليين من الاراضى المنخفضة مع أول يوم فكان الإسبانيون والبرتغاليون فى ذلك الوقت فى حاجة شديدة إلى حبوب بحر البلطيق ، وبشكل لا يسمح للحكومة باتخاذ إجراءات متشددة . ولكن التسهيلات التقليدية التى كانت تعطى لتجارة الأراضى المنخفضة أخذت تقل شيئاً فشيئاً . وحينما تقرر فى آخر الأمر أن يمنعوا سفن هولندا وزيلندا من

الدخول إلى ميناء لشبونة ، تنظمت عملية التهريب على نطاق واسع للغاية ، وبصورة لم تحدث من قبل، حتى أن الحركة لم تتوقف أبداً. وفى السنوات الأخيرة من القرن ، شاهد المحيط الهندى بدوره ظهور الأساطيل الهولندية . وقامت أربع سفن بالرحلة إلى جزر التوابل منذ عام ١٥٩٥ . وقامت عشرون سفينة أخرى بإقتفاء أثرها فى عام ١٥٩٨ . ثم قرر التجار ، فى عام ١٦٠٢ ، وتلبية لطلب مجلس طبقات الأمة ، أن يتجمعوا سوياً ، كما كان التجار الانجليز قد فعلوا : وكان هذا هو الميلاد القوى لشركة الهند الغربية ، والتى كانت قاعدتها هى ميناء ميدلبيرج .

وعند نهاية القرن السادس عشر ، وبداية القرن السابع عشر ، تمكنت الأقاليم المتحدة، والتى كانت غنية بتجارتها التى أصبحت عالمية ، من أن تؤكد مكانتها كقوة إقتصادية قادرة على أن تتنافس مع الدول الأكبر منها . وعلى المستوى السياسى ، ظلت علاقاتها مع إسبانيا ومع الأراضى المنخفضة الاسبانية هى علاقة الدول المتحاربة ، وإستمرت بينها العمليات العسكرية ، من هذا الجانب ، ومن ذاك . والشأت هناك ، وفيما بين فرنسا ، والمانيا ، وانجلترا ، منطقة حساسة بشكل خاص على القارة ، بدا فى بعض الأوقات أن مصير أوربا الغربية بأجمعها سوف يتقرر فيها . ويمكننا أن نتأكد من ذلك بسهولة حين ندرس تفاصيل هذه الفترة غير المحددة ، والتى يسميها الفرنسيون عصر هنرى الرابع ، والتى تتميز عند جيرانهم بوقوع تغيير مزدوج فى الحكم : ذلك أن فيليب الثانى ، الذى توفى فى عام ١٥٩٨ ، ترك مكانه لإبنه ، فيليب الثالث ، وفى إنجلترا ، قام جيمس الأول ، إبن مارى ستيوارت، وكان ملكا على إسكتلندا، بإحتلال عرش قاتلة أمه، اليزابيث، آخر ملوك أسرة تيودور .

وكان كل من الخصمين ، واللذين كانت قواتها البحرية قد تواجهت فى عام

١٥٨٨ ، لا يميل إلى الحرب ، ويتميز بالحذر ، وبشكل جعل مسألة الأرمادا لا تعطى نتائج عسكرية تالية عليها. وكان فيليب الثانى قد قبل الفشل الخاص بمشروعه العظيم ، بتواكل ذلك الشخص المسيحى، وذلك ارجل الذى كان فى خريف الحياة. ولم يحاول أن يسعى إلى إنتقام. ولكنه وجد على الأرض الفرنسية فرصة للعمل من جديد من أجل إسبانيا ، ومن أجل الدين . ففى شهر أغسطس ١٥٨٩ . أدت وفاة هنرى الثالث إلى تسليم المملكة لأحد الهراطقة — من أنصار مذهب الاصلاح الدينى . فانضم جزء كبير من الرأى العام إلى العصبة وفهموا فى مدريد أن الوقت المناسب قد حان وأصبح يسمح بالتدخل . وقامت القوات الاسبانية بعبور حدود الأراضى المنخفضة ، وإنضمت عند روان إلى قوات العصبة ، ثم نجحت فى إدخال بعض الامدادات إلى العاصمة . وقامت قوات اخرى ، وصلت بالبحر، بالتدخل فى إقليم لانجدوك ، وفى بريتانى . وكانت فكرة فيليب الثانى تتلخص فى أن يضع على عرش فرنسا إبنته التى كانت قد ولدت له من زواجه باليزابيث دى فالوا ، اى إبنة اخ الملك المتوفى .

وكان فى وسع مثل هذا المشروع أن ينجح ، ولكن بشرطين : الأول هو أن يقبله الكرسى البابوى ، ويدافع عنه ، ولكنهم كانوا فى روما لا يهتمون بزيادة قوة إسبانيا على حساب فرنسا ، والثانى هو أن يتزوج الأميرة الاسبانية احد الأمراء الفرنسيين ، ولكن فيليب الثانى كان يرغب ، رغم ذلك ، فى زواجها من أحد امراء آل هابسبورج . وكان ذلك اكثر مما كان فى وسع المشاعر القومية ان تتحمله . فاجتمع مجلس طبقات الامة ، إجتماعاً خاصاً بهذه المناسبة، ورفضوا القرار الذى كان يهمس به فى الآذان، وقضوا على آمال إسبانيا ببدئهم المفاوضات مع هنرى الرابع . وبما دامت مجموعة نافار قد إلاضرت ، فإن

الأمر كان هو الفشل بالنسبة لفيليب الثانى . وبدأت العداوه الفرنسية الاسبانية تأخذ كل قوتها من جديد .

وبمجرد أن أتم هنرى الرابع تتويجه ، بدأ فى الاستعداد للحرب ، التى أعلنها فى شهر يناير ١٥٩٥ . ولقد إستمرت لمدة ثلاثة أعوام ، وكانت مسارحها هى حدود بيكاردى وبورجنديا : إذ أن فيليب لم يكن قد تخلى عن ذلك الأمــل القديم ، والذى كان عند والده ، ويتمثل فى إعادة التكوين الكامل لميراث شارل الجسور . ومنذ العام الأول ، وفى معركة فونتين فرانسيز ، تمكن الجيش الملكى من تحرير بورجنديا . وفى عام ١٥٩٧ ، بدا أمام الفرنسيين ، أن فقد إميان يمثل حادثاً خطيراً ، وأنه أصبح يهدد عاصمتهم ، ولكنها لم تكن أكثر من مجرد عملية الاستيلاء على إحدى المدن . وأدت الاجراءات السريعة التى قام الملك باتخاذها إلى منع العدو من إستغلالها ، ونجت باريس من الخوف . كما أن إعادة الاستيلاء على هذا الموقع ، وبعد حصار دام مدة ستة أشهر ، تم الاحتفال به كنصر حاسم . وجاء الصلح بعد ذلك بقليل . وكانت معاهدة فرنان (٢ مايو ١٥٩٨) هى عبارة عن إعادة كتابة لمعاهدة كانو ، ومع ذلك فإن ملك اسبانيا قد حصل على بعض الميزات التى لم تكن موجـودة فى المعاهـدة الأولى : الإعتراف بحقوق الوراثة فى دوقية بورجنديا ، ولكن حدتها قلت ، وتم تحييدها عن طريق تعهد بعدم محاولة الحصول عليها إلا عن طريق القضاء .

وفيما بين انجلترا واسبانيا ، عادت العمليات الحربية من جديد فى عام ١٥٩٦ . وكانت اليزابيت ، فى الوقت الذى كان هنرى الرابع يقوم فيه بعملية اعادة غزو مملكته واسترجاعها من العصبة وتخليصها من اسبانيا ، قد أرسلت اليه بعض المعونة ، من الرجال والأموال ، وكانت الملكة ضد الكاثوليكية ، وثارت نتيجة لاتفاق هنرى الرابع مع الكاثوليك . ولكنها عادت الى التحالف

مع فرنسا نتيجة لكون الاسبانيين قد استولوا على كاليه ، والتى كان التخلى عنها ، منذ أربعين عام مضت ، قد رفض تماماً من جانب كل الرأى العام . ولكن التعهدات التى وافقت عليها فى معاهدة جرينيتش (مايو ١٥٩٦) كانت مدروسة جيداً : فاشترت ، بابخس ثمن ، وعداً بأن ملك فرنسا لن يوقع على الصلح قبل أن يتشاور معها ومع الأقاليم المتحدة وشهد نفس العام مجىء الغزاة البريطانيين إلى قادس ، وبقائهم خمسة عشر يوماً فيها وداخل اسوارها . حتى يتمكنوا من نهبها وإحراقها . وطالت فترة الضعف التى يمثلها حكم فيليب الثانى للبلاد . وأمام إهانات الرأى العام له ، قام الملك العجوز بانتفاضه أخيرة : فرأى أنه مضطر إلى إعادة بناء أرمادا جديدة . وحاول الإنجليز ، أن يأتوا ويحرقوا ما يقوم به ، ولكنهم فشلوا ،وبدا هو على أنه قد إنتصر . وتجددت المحاولة مرة جديدة فى عام ١٥٩٧ . وأسرعوا بتسيير الأرمادا . ولكن وحداتها توقفت فى منتصف الطريق .

وتسبب صلح فرنان ، الذى عقد رغم تعهدات عام ١٥٩٦ ، فى غضب الانجليز . ووجهوا إتهامات كثيرة إلى هنرى الرابع . ونشأت حوادث فى البحر . وظلت العلاقات سيئة بين الدولتين خلال السنوات الأخيرة من حكم الملكة اليزابيث . وكانوا قد تفاهموا بالكاد على مسألة الأراضى المنخفضة . وفى أثناء محادثات بشأن هذا الموضوع ، فى عام ١٦٠١ ، حددت الملكة أن على الدولتين ، وقد إتفقا على إخراج هذه البلاد من تحت السيطرة الاسبانية ، أن تمتنعان ، تقسيمها ، عن إدعاء حقوق فيها ، كلياً وجزئياً . ولم يكن الوقت قد حان بعد لكى يسمح للفرنسيين بالتمكن من التفكير فى الاشتراك فى مثل هذا التصريح . وعند وصول جيمس الأول إلى العرش ، كاف سولى بالذهاب وبتهنئة الملك الجديد ، وبأن يعرض عليه فى نفس الوقت إقامة تحالف وثيق ضد إسبانيا : ولكنه لم يحمل معه فى عودته من لندن سوى ألفاظ منمقة .

وفى المجموع ، فإن فيليب الثانى قد فشل فى كل مكان فى سياسته الخاصة بمحاربة الإصلاح الدينى وتدعيم المذهب الكاثوليكى . فانجلترا ، التى كانت تمثل هدفه الأول ، ظلت مخلصة لمبدأ الاصلاح . وحصل الهيجونوت الفرنسيون ، فى نفس عام عقد صلح فرنان ، على وضعية تحميهم من الإضطهاد ، بمنشور نانت . وفى الأراضى المنخفضة ، التى تم تقسيمها نهائياً إلى قسمين ،لم يعد المذهب القديم يسيطر إلا على نصف البلاد . وكان فيليب الثانى يعتقد ، مثل والده ، فى أن الله قد إختاره لكى يقوم بعمل ضخم وكان فشله أقل كالا ، وبقليل ، عن فشل شارل الخامس .

وإذا ما فكرنا فى الأمر جيداً ، فإن السيطرة الإسبانية لم تنجح فى البقاء فى جزء من الأراضى المنخفضة إلا نتيجة للسياسة الفرنسية والسياسة الانجليزية ، ونتيجة لعدم بلورة رغباتهما ، وبنوع خاص نتيجة لتعارضهما المستمر مع بعضهما . ولم يكن هناك ما يعادل تردد فيليب الثانى سوى تردد اليزابيث ، وآخر ملوك أسرة فالوا . وإذا كانت شعوب الغرب قد تمكنت من أن تهرب ، أثناء النصف الثانى من القرن السادس عشر ، من تلك الصدامات الدولية الكبرى التى كانت قد شهدتها خلال الفترة السابقة ، فإن ذلك كان يرجع إلى التردد ، وإلى عدم إتساع الاهداف ، ووضوحها .

٥ ـ هنرى الرابع وسافوا وألمانيا :

لم يمثل صلح فرنان ، مثل صلح كاتو ، نهاية فترة . ولم يكن يحمل وعوداً بالتصالح . وفكروا فى عمل تحالف أسروى جديد بين الاسرتين الحاكمتين . ولكن الأمر لم يتحقق ، إذ أن فيليب الثانى إدعى أنه يضع به شرطاً لاعلان الحرب على الهولنديين . ومن جانب آخر لم يدخل فيه حلفاء فرنسا . ولذلك فإن العمليات العسكرية قد إستمرت بعد عام ١٥٩٨ على مياه المحيط وفى الأراضى

المنخفضة . وسينتهز هنرى الرابع الفرصة لكى يسوى مع دوق سافوا خصومة قديمة .

ولم تكن ممتلكات سافوا قد عادت بسهولة ، ولا كاملة ، لأميرها الشرعى فى عام ١٥٥٩ واحتاج إيمانويل فيليبرت لمفاوضات طوال سنوات عديدة حتى يحصل من أبناء بيران على إعادة التنازل له عن إقليم شابليه (معاهدة لوزان ١٥٦٤) . واضطر إلى أن يتنازل لهم بشكل نهائى عن إقليم الفود ، وذلك فى نفس الوقت الذى ظلت فيه جنيف مرتبطة فيه مع بيرن باتفاقية توحد بين سكان المدينتين ، وتدافع عنها ضد تهديد هذا الأمير . وفى عام ١٥٧٣ أعطاه هنرى الثالث مجاناً اقليم بينيرول ، والذى عاد إليه من بولندا عبر البندقية ثم إلى بيدمونت . إبنه شارل إيمانويل الأول . فانه غضب من فرض فرنسا حمايتها على بيرن وجنيف ، فانضم إلى معسكر فيليب الثانى . وإنتهز فى عام ١٥٨٨ فرصة وقوع الإضطرابات التى قامت بها العصبة ، واستولى على سالوس ، والتى كانت ، مفتاحاً ، آخر لإيطاليا ، والتى كان الفرنسيون يعتقدون أهمية كبرى على إمتلاكهم لها . أما الاسبانيون ، فانهم ، عند تفاوضهم فى فرثان ، لم يرغبوا فى مناقشة هذه المسألة ، وتعطيل الوصول إلى الصلح . وقرر الطرفان طرح هذا الموضوع على وساطة البابا . ولكن البابا تخلى سريعاً عن مهمته ، واستمرت المفاوضات المباشرة التى تلت ذلك لفترة سنوات عديدة .

وأظهر شارل ايمانويل ، الذى أتى بنفسه إلى باريس ، عدم قدرته لوقت طويل على إتخاذ قرار ، وكان يتوقف مرة عند هذا الجزء ومرة أخرى عند جزء آخر . وتوصلوا أخيراً إلى إتفاق من حيث المبدأ ، وعاد إلى بلاده ، ثم بدأ فى التسويف ، وأخذ يطالب بمهلة جديدة ولكى يخيفه ، قرر الملك أن يذهب إلى ليون ، ويقيم فيها مع قواته ، ظهراً إستعداده لاستخدام القوة إذا ما دعت

الضرورة لذلك . وكانت بعض الصعوبات قد ظهرت داخل المملكة ، فشجع ذلك الدوق على عدم عقد الصلح . ووجد فجأة أن بلاده قد تم غزوها ، وأن مدينة شامبيرى قد تم إحتلالهـــا . فتطلب الأمر الالتجاء إلى وساطة روما . ونتيجة لمعاهدة ليون ، التى عقدت فى ١٢ يناير ١٦٠١ ، تنازل هنرى الرابع عن سالوس ، ولكنه حصل على تنازل عن برليس ، وبوجى ، وفالورمى ، وجيكس ، وكل ممتلكات سافوا فيما وراء نهر الرون : واحتفظ الدوق بحقه فى جسر على النهر ، وبطريق تمكنه من الاتصال بحرية مع فرانش كونتيه . وكان قرار الملك — الذى إنتقده بمراره أنصار الغزوات الإيطالية الذين كانوا لايزالون موجودين — يأخذ أهميته حين نلقى عليه الأضواء بالجمل التى ذكرها بعد وقت قصير لوفد جاء له من بريس : « إنه من المعقول أنكم ، مادمتم تتحدثون بطبيعة الحال باللغة الفرنسية ، تصبحون رعايا لملك فرنسا . إننى أفضل اللغة الاسبانية تظل للاسبانيين ، واللغة الألمانية الألمان ، ولكن كل اللغة الفرنسية يجب أن تكون لى » . ولأول مرة فى تاريخ فرنسا نرى بهذه الطريقة تقديم نظرية القومية المبنية على أساس اللغة . ولفترة طويلة ، من ناحية أخرى ،وحتى عصر لوى الرابع عشر على الأقل ، سيظل هذا التأكيد دون إعطاء صدى له .

وفى العام التالى ، سيحاول شارل إيمانويل أن يعيد هيبته ، التى أصيبت ، وذلك عن طريق سيطرته ، بالقوة ، على جنيف . وكانت الهزيمة التى وقعت له كافيه لإجباره على الاعتراف ، فى آخر الأمر ودون تحفظ ، باستقلال الجمهورية .

وفيما بين فرنسا واسبانيا ، عادت العلاقات التجارية ، والتى كانت قد إنقطعت لفترة عدة سنوات ، وبسرعة ، خاصة وأن شبه الجزيرة كانها كانت فى حاجة إلى منتجات الصناعة الفرنسية ، وفى حاجة أكثر من ذلك إلى الحبوب الفرنسية ، بينما كان الفرنسيون يشعرون بإنجذاب صوب شبه الجزيرة ، نتيجة للمعادن

النفيسة ، التى إستمر ورودها إلى هناك : وكتب أنتوان دى مونتكريستيان ، حين تحدث عن الاسبانيين والبرتغاليين فى رسالته عن « الإقتصاد السياسى » فى عام ١٦١٢ ، هذه الجملة المعبرة تماماً عن الفترة السابقة : « فمنذ أن وجدوا ذلك المورد من الذهب ، الذى يقودنا إليهم ، أشبعنا الجوع الذى كانوا يشعرون به للخبز ، وحصلنا منهم على علاج لذلك الجوع للذهب والفضة ، والذى كان يعذبنا كثيراً » . وتحدث بعد ذلك عن المزايا التى أفادت بها فرنسا من سكان اقليم بيارن على الحدود الإسبانية ، وبكل تحديد ، وعن الفترة التالية لمعاهدة فرنان : « ولقد جاءت فرنسا ، من جديد ، لكى تغرق إسبانيا بالقمح ، والمنسوجات ، والقصدير والآلات » .

أما ذلك الإتجاه العدوانى الذى ظل موجوداً رغم ذلك بين الحكومتين ، فإنه تسبب فى نشوب أزمة قصيرة ، فى عام ١٦٠٩ . ذلك أنهم قد إتهموا فرنسيى لاروشيل بالعمل كوسطاء فى التجارة التى كانت تتم ، سراً ، بين الهولنديين . وبين سادتهم السابقين : وهذه العادة التى تعودوا عليها ، لن يتخلوا عنها حتى حصار عام ١٦٢٧ . وبعد أن إتخذ فيليب الثالث إجراءات إنتقامية ، بدأت حرب تعريفات جمركية ، بدت على أنها مقدمة لقطع العلاقات بين الطرفين ، وصحبتها حرب دعاية . ويبدو أن البروتستانتيين ، والذين كان عددهم كبيراً بين التجار ، قد أسهموا فى إثارتها وفى تغذيتها . وكان أهالى بيارن على علاقات دائمة مع إسبانيا ، ولعبوا فى هذه الحرب دوراً أساسياً . وبدا أن الموقف قد أصبح مشدوداً للغاية . وبعد إعادة تكوين القوات المسلحة الفرنسية ، أصبح فى وسع هنرى الرابع أن يبدأ من جديد الصراع فى الأراضى المنخفضة من أجل الفلاندر وآرتوا . ولكنه إستمع فى آخر الأمر إلى صوت الحكمة . وإنتهى الصدام فى العام التالى نتيجة لوساطة إنجلترا .

أما جيمس الأول ، فإنه بدأ حكمه ، بدوره ، بعقد الصلح مع إسبانيا ،وكان مجرد صلح على أساس احتفاظ بالوضع القائم ، مثل صلح فرنان (١٦٠٤) . وكان وصول أحد ملوك أسرة ستيوارت إلى الحكم ، يعنى فى آخر الأمر الوحدة مع إسكتلندا . وسيظل الهدوء الناتج عن ذلك مسيطراً على الأمة لفترة طويلة . وظهرت روح المصالحة بين الملوك وسادت على كل الميادين . واستمر التجار الفرنسيون فى الشكوى من تلك المعاملة التى كانوا يلقونها فى إنجلترا ، ووصفوا هذه البلاد بأنها لم تكن مضيافة.وجاءت معاهدة عام ١٦٠٦ ، مع ضماناتها الجديدة ، تمثل تقدماً واضحاً على معاهدة ١٥٧٢ .

أما فى الأراضى المنخفضة ، فإن فيليب الثانى كان قد إفتخر ، قبل موته بقليل ، بأنه كان قد أخضع الهولنديين لطاعته ، وذلك بإنشائه دولة بورجندية متميزة عن الدولة الاسبانية وكان قد جعل من إبنته إيزابيلا ، ومن زوجها الأرشيدوق ألبرت ، أمراء أصحاب سيادة ، على هذه الدولة الجديدة . ولكن سرعان ما سيحكم الأرشيدوقات (كما يسموتهم فى بلجيكا) تحت سيطرة ملك إسبانيا . ولن يجد الهولنديون أقل إغراء لترك أسلحتهم ، من أجل الانضمام إليهم . وستنزل بهم الهزائم على البر . وعلى العكس من ذلك ، فإنهم سيتمون أمر حصولهم على السيطرة على البحر ،ويقومون بشل حركة المبادلات بين إسبانيا وبين جزر الهند الغربية . ولذلك فإن فيليب الثالث قرر ، فى عام ١٦٠٦ ، ضرورة إقتراح هدنة ، وبدء محادثات من أجل الصلح . وعقدت المؤتمرات فى لاهاى ، واشترك فيها ممثلون عن فرنسا وعن إنجلترا . وإنتهت بالتوقيع ، فى ٩ إبريل ١٦٠٩ ، على هدنة لمدة إثنتى عشر عاماً .

أما ألمانيا ، فإننا لم نتحدث عنها منذ عام ١٥٥٥ ، أى منذ صلح أوجسبورج . وبعد أن كانت ، مع لوثر ، قد أشعلت النيران فى العقيدة المسيحية ، بدت على

أنها لاتهتم بذلك الحريق الذى أشعلته . والذى إستمر فى إلتهام الأقاليم المحيطة بها . ولقد ظلت ، على الأقل ، تقف على الحياد . ولم تكن تدخلاتها فى الخارج تتمثل إلا فى إرسال المرتزقة للاطراف المشتبكة فى هذا الصراع . وكان البروتستانت فى فرنسا وفى الاراضى المنخفضة هم المستفيدين من ذلك فى غالب الاحيان .

وكانت التدخلات الالمانية فى فرنسا قد بدأت أثناء الحرب الاهلية الثانية . ففى عام ١٥٦٧ ، قام منتخب البلاتينات ، وهو من أنصار كلفن ، بإرسال جيش صغير لإنقاذ كونديه . ومن جانبه ، قبل منتخب ساكس ، وهو من أنصار لوثر ، ونتيجة للعداء الموجود مع أنصار كلفن ، بقيادة بعض القوات فى خدمة شارل التاسع . وفى عام ١٥٦٩ ، إستجاب أمير ألمانى آخر ، أقل أهمية ، وهو دوق وولف جانج ، لنداء الهيجونوت . ولقد مات فى بداية الحملة ، ولكن قواته إشتركت فى موقعة مونتكونتور . ولقد أظهر أحد أبناء المنتخب فى البلاتينات ، وهو جان كازيمير ، أنه متحمس بنوع خاص لفكرة أبناء مذهبه الدينى فى الخارج . وقبل أن يصل بالحملة التى ذكرناها إلى الاراضى المنخفضة ، كان قد قام بقيادة جيش صغير فى فرنسا ، وحتى نهر اللوار ، وحصل ، بعد أن تم التوقيع على صلح بوليه (١٥٧٦) على ثمن كبير للمعونه التى قدمها . ووقعت حركة أخرى للغزو الالمانى ، والذى كان يثير خوف الاهالى إلى أقصى درجة ، فى عام ١٥٨٧ ، وتحت قيادة أحد قواد جان كازيمير . ولم تعمل ، أكثر من سابقاتها ، على تغيير التوازن بين القوات ، بين الطرفين المشتبكين فى هذا الصراع .

أما فى داخل ألمانيا ، فإن الهدنة التى بدأت مع إتفاقية عام ١٥٥٥ ، قد إستمرت ، وبدرجات متفاوته ، حتى السنوات الاولى من القرن السابع عشر . وقد تسببت بعض المراحل فقط فى جعل الناس يعتقدون فى أنها لن تكون دائمة .

وكانت أكثرها وضوحاً ترجع ، فى عام ١٥٨٢ ، إلى تحول كبير اسافقة كولونيا المنتخب إلى مذاهب الإصلاح الدينى ورغم التعهدات المقطوعة فى أوجسبورج ، فإن بعض الأمراء البروتستانتيين قد مالوا صوب العمل من أجل علمانية هذه الأسقفية ، وأملاكها . ورأى فيليب الثانى أن كولونيا كانت قريبة للغاية من أراضيه المنخفضة ، وبشكل لا يسمح له بالبقاء على الحياد فى ذلك الصراع الذى سينشب بين أنصار وخصوم ذلك الأسقف ، الذى صدر ضده قرار كنسى بالحرمان . وطبقاً لأوامره، قام دوق بارما، حاكم الاراضى المنخفضة بإرسال قواته إلى ألمانيا . ونتيجة لمعونتهم ، ظلت أسقفيه كولونيا فى أيدى الكاثوليك .

وبعد هذا النذير ، ظل الهدوء مسيطراً على ما وراء الراين لسنوات عديدة ، ولفترة تزيد على حياة جيل وهذه هى الفترة التى عرفت فيها أسواق فرانكفورت ، وفى نطاق الاقتصاد الدولى ، العصر الأكثر إزدهاراً فى حياتها . وكانت أهميتها تشبه أهمية أسواق ليون فى بداية القرن . وكان هناك بينهما ، علاوة على ذلك ، أكثر من وجه للتشابه . ففى هذه المدينة الاخرى التى تقع عند ملتقى المواصلات — النهرية والبرية — كان للأجانب مركزاً متفوقاً . فكان هناك الملنكيون والفالون ، الذين إضطروا إلى ترك بلادهم بسبب الدين ، واليهود الذين خضعوا للاحتقار العنصرى ، والذى لم يكن موجودا فقط فى شبه الجزيرة الايبيرية ، والايطاليون الذين كانوا يبيعون الحرابر أو منتجات البحر المتوسط . وبعد ليون ، وبعد أنفرس ، أصبحت فرانكفورت مركزا كبيرا لتجارة الفضة . ومن هنا إستمر ظهور هذا الاستعداد الرأسمالى الذى يميز الاقتصاد الالمانى فى النصف الأول من القرن .

ومنذ بداية القرن السابع عشر ، وفى هذه البلاد المنقسمة على نفسها ، ولكن التى كان يمكنها أن تعتقد فى أنها قد وجدت ، وبشكل نهائى ، توازنها ،

ستطالب روح التشيع والاقليات بحقوق لها ، وتبدأ أحداث دموية فى الوقوع من جديد .

ذلك أن دوق كليف قد توفى فى عام ١٦٠٩ ،دون أن يترك وريثا مباشرا ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه امارته فى كليف ، وبرج ، وجوليـــير ، قد انتشرت فيها مذاهب الاصلاح الدينى . وكان كاثوليكيا ؛ ولكن أكثر أقربائه قرباً له كانوا من البروتستانتيين . وزاد خوف الامبراطور رودلف الثانى : فقرر فرض الحجز على هذه الدوقيات باسم الإمبراطورية ، ودعا البروتستانتيين إلى أن يقدموا له وثائق ملكيتهم، وأمر باحتلال قلعة جوليير،من باب الاحتياط . وعندئذ قرر هنرى الرابع ، وكان مخلصاً للتقليد الفرنسى الخاص بالتحالف مع رجال الإصلاح الدينى فى ألمانيا ، أن يتدخل . وكان هذا القرار ملىء بالمخاطرات ، إذ أن ملك اسبانيا كان يهتم بطبيعة الحال بتلك البلاد التى كانت مجاورة للأراضى المنخفضة . وكان من الممكن أن ينتج عن ذلك صدام مع آل هابسبورج ، ومن الفرعين . ويبدو أن الملك كان قد قبل هذه الامكانية . وعقد فى شهر فبراير ١٦١٠ اتفاقيات مع « الاتحاد الايفانجيلى » وهى رابطة أو عصبة بروتستانتية كانت قد تشكلت أخيراً ، وذلك كمظهر لتحدى النيات التى كان الامبراطور قد أظهرها . وبدأ فى تجميع قواته فى فصل الربيع ، فى شمبانيا ، وبيكاردى ، ودوفينيه واستعد لكى يذهب بنفسه ويأخذ قيادة الجيش الذى سيقوده إلى ألمانيا ، حين وقعت حادثة اغتياله ، فى ١٤ مايو ١٦١٠ .

وسرعان ما انفرجت الازمة : فلن تكون هناك ، فى ذلك الوقت،أية امكانية للقيام بحرب ضد اسبانيا . وعملت حكومة الوصية على العرش ، مارى دى ميديسيس ،على إنقاذ الموقف ،عن طريق ارسالها فرقة صغيرة من الجند تستولى ، باسم البروتستانتيين ، على موقع جوليير ، والذى يوافق الامبراطور ، وفى

نظير بعض الضمانات ، على تركه فى صالح الكاثوليك . ومع ذلك فإن مسألة كليف لم تتم تسويتها . ولذلك فإنها ستشغل الرأى العام الألمانى ، ولعدة سنوات ، ولن تجد حلا لها الا فى عام ١٦١٤ .

٦ – الكنيسة واليسوعيون :

إن التعبير الذى إستخدمناه ، وهو « التفوق الاسبانى » ، لكى نميز به التاريخ السياسى لأوروبا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ، له بعض الأصداء فى الميدان الروحى . ففى نفس الوقت الذى غرست فيه السيطرة السياسية لإسبانيا فى إيطاليا ، تأكد نفوذ « جماعة اليسوع » التى تكونت فى إسبانيا ، وجمعت أول رجال لها من اسبانيا ، وبقوة ، فى روما، وفى كل الأقاليم الكاثوليكية الرومانية .

وكانت إسبانيا هى ، وحدها فى الغرب ، التى قامت برد هجمات الهراطقة . ولم يكن عليها ان تبذر طاقتها فى صراعات عقائدية . فقام احد ابنائها ببلورة فكرة إنشاء ميليشيا تذهب إلى كل البلاد وتنتشر فيها وتحض العزائم وتطالب باعطاء المثل على ساحة معركة العقيدة ووجدنا عند إيجانس دى ليولا Ignace de Loyola وانصاره تلك العزيمة المناضلة التى كانت قد حركت ، ولمدة قرون ، عزيمة الحرب عند المغاربة ، وجيوش إعادة غزو reconquista شبه الجزيرة الأيبيرية .

ولقد قام بعض المؤرخين ، الذين ارادوا ان يشرحوا دور اليسوعيين ، بالتحدث عن صبغ الكنيسة فى القرن السادس عشر ، بالصبغة الإسبانية : وعلينا ان نأخذ هذا الموضوع مع بعض الحذر . فربما كانوا يرغبون أولا فى التحدث بنوع خاص عن الصبغة الإيطالية . ذلك ان مجمع ترانت هو الذى اعطى للكنيسة إتجاهها الجديد . وكان الايطاليون ، من بين الآباء المجتمعين فى هذا المجتمع ، هم الأكثر عددا عن غيرهم ، وبكثير . وإذا كان التأثير الاسبانى على درجة من

الوضوح ، فإن التأثير الإيطالى هو الأكثر وضوحا ، وبكثير . ومع كل ذلك ، فإن الواحد لايبعد الاخر وهما يذوبان فى صورة لمجموع . مركبة ، واكثر صدقا: وكان من الطبيعى أن تظهر الكنيسة ، بعد حركة الإصلاح الدينى ، وقد إنقطعت صلتها بجزء كبير من البلاد الجرمانية، كما كانت صلتها قد إنقطعت قبل ذلك بالبلاد السلافية واليونانية ، وبصورة متزايدة ، على انها لاتينية فى مجموعها ، وليس فقط فى رئيسها(علينا أن نلاحظ أن البابوات كلهم ،منذ عام ١٥٢٢ ،كانوا ايطاليين). ولكن كذلك فى اعضائها ، وفى روحها .

وإذا كانت ، جماعة اليسوع ، ترتبط ، فى اصولها ، باسبانيا ، وان قادتها الأوائل ، مثل الأب لينز Lainez ، وسان فرانسوا بورجيا Saint François Borgia ، كانوا ، مثل مؤسسها ، اسبانيين ، فإنها لم تتأخر عن أن تصبح دولية فى تجنيدها لرجالها ، وبنفس طريقة كل الجماعات الدينية .وكانت ،قبل أن تثبت نفسها على خط سير معين للكنيسة،عن طريق هذا البابا أو ذاك ، قد ذهبت تبحث بنفسها عن نصائح لمانى روما وكانت مرتبطة بحكم تكوينها بخدمة الكرسى البابوى، فاستمرت فى إعلان نفسها انها تابعة للبابا ،وانها تابعة لروما ومن هنا نشأت تلك المقاومة التى واجهتها فى طريقها ،فى فرنسا بنوع خاص وحتى فى اسبانيا . وكان فيليب الثانى يدعى انه يسيطر على كل رجال الدين الموجودين فى مملكته . ولكن اليسوعيين،أولئك القادمين الجدد، لم يربطوا انفسهم بأى رباط قانونى مع كنيسة اسبانيا . وقاموا ، علاوة على ذلك ، بالدفاع عن اتجاه السلطة المطلقة لروما . وكان عليهم أن يحاربوا ، كما حدث فى فرنسا ، قبل أن يوافقوا على وجودهم.وكما حدث فى فرنسا ، فإنهم انتصروا . اذ ان زملاءهم تمكنوا من أن يحصلوا سريعاً على ود الطبقات العليا ...

ب - وكانت احسن الأراضى صلاحية لعمل اليسوعيين،هى بطبيعة الحال تلك البلاد

التى كانت تشتمل على هراطقة، كان عليهم أن يحاربوهم، وأن يعلموهم ، وبخاصة ألمانيا. واظهر هابسبورج فيينا ترحيبا بهم اكثر من هابسبورج مدريد فاستدعى ملكهم اليه الأب كانيسيوس Caoisius ، وهو أب من أصل هولندى ، وكان إجناس قد جعله ، راعيا إقليميا ، للجماعة على ألمانيا العليا . ولمدة أربعين سنة ، سيقوم كانيسيوس بالتنقل فى ألمانيا فى كل إتجاه ، من أجل القيام بواجبات عمله ، وحظيت الجماعة بنفس الترحيب فى بافاريا ، عند أسرة ويتلباخ وكانت الكلية التى أنشأتها فى عام ١٥٥٦ فى مدينة إينجولستات الجامعية تبشر بأن تصبح ، وبسرعة ، أكثر شهرة من غيرها من الكليات فى كل ألمانيا . وجاء اليها أمراء يعدون للحكم ، لكى يدرسوا فيها ، مثل أمير باد ، ودوق بافاريا ، وحتى أحد أمراء هابسبورج، وهو الارشيدوق فرديناند صاحب ستيريا ، والذى سيصبح فيما بعد الامبراطور فرديناند الثانى . وفى ألمانيا الشمالية كانت القاعدة الرئيسية لعمليات اليسوعيين هى جامعة كولونيا . وكانوا قد وضعوا وثبتوا أقدامهم هناك بقوة ، منذ منتصف القرن .

ولم يكونوا قد توغلوا بعد فى إنجلترا حين قامت الملكة اليزابيث بارجاع بلادها إلى المذهب البروتستانتى . ومن أجل المهمة الخطيرة التى كانت تنتظرهم من هذه الناحية ، بدأوا بالتمركز ، وبقوة ، فى الأراضى المنخفضة ، وحيث دخلوا فى أول الأمر إلى جامعة لوفان . وكان هناك الكثيرون من الكاثوليك الإنجليز الذين كانوا قد إلتجئوا إلى لوفان. وكان أحدهم ، وهو أحد رؤساء اكسفورد ، ويليام آلين William Allen ، قد أسس فى دواى ، فى عام ١٥٦٨ ، وهى مدينة جامعية أخرى ، وبمساعدة أحد الأساتذة من هذه المنطقة ، كلية من اجل إعداد دعاة، كان اخوانهم فى المذهب ، والمضطهدين ، فى حاجة إليهم، وأصبحت دواى بدورها مركزاً كبيراً يلتجىء إليه الكاثوليك الإنجليز على القارة ، وأصبحت

«كليتها الانجليزية» جديرة بالإسم الذى أطلقوه عليها، وهو «سمنار الشهداء». وإنتهت أهمية تلك المستعمرة، والتى تزايدت بسرعة، إلى إثارة ردود فعل عدائية من جانب الأهالى الكاثوليك ومن جانب السلطات، حتى أن آلين إضطر، فى عام ١٥٧٨، إلى أن ينقل مؤسسته إلى ريمس، حتى تكون تحت حماية رئيس الاساقفة، وكان من أسرة جيز. وفى نفس العام، تم انشاء «سمنار» انجليزى فى روما، وعلى طراز الكلية الجرمانية التى أنشأها ايجناس فى عام ١٥٥٢؛ واستدعى جريجورى الثالث عشر اليسوعيين حتى يقوموا بالإشراف عليه. ولكى يزودوا هذا «السمنار» بما يلزمه من دارسين، أنشؤوا، بعد بضع سنوات، أحد الدور، فى سان أومير، وحيث كان الشباب الانجليزى يحصل على تعليمه الأول. وحين عادت كلية ريمس، فى عام ١٥٩٨ إلى دواى، أقاموا هناك، وحصلوا سريعاً على كل السيطرة عليها. ومنذ ذلك الوقت عملت المؤسستان وفى اتحاد وثيق. وكان اليسوعيون هم روح «المؤامرة» الكبرى الكاثوليكية، التى وقعت فى سنوات ١٥٨٢ — ١٥٨٣ بين فيليب الثانى، وجريجورى الثالث عشر، وهنرى دى جيز، والتى تسببت فى القطيعة بين انجلترا واسبانيا، فى عام ١٥٨٤.

وحين نزلوا إلى بولندا، فى عام ١٥٦٥، كان الموقف خطيراً، وبدا أن حركة الإصلاح الدينى كانت على وشك الانتصار فأقاموا فى أول الأمر فى المنطقة التى كانت أكثر تعرضا للخطر من غيرها. قرب بروسيا اللوثرية. وكانت كليتهم الأولى هى كلية برونزبرج، والثانية هى كلية بولتوسك. ونتيجة لتأييد الملك، تمكنوا بسرعة من أن يصبح لهم وجود فى كل الأقاليم. وامتلأت المناصب الكبرى فى الدولة بتلاميذهم السابقين، وإنتصرت الكاثوليكية بشكل نهائى إبتداء من فترة حكم سيجسموند الثالث،

وكان اليسوعيون لا يقصرون وسائل عملهم على مجرد الوعظ ، والتعليم . ففى كل مكان كانوا يتمكنون من الوصول إليه ، كانوا يصبحون هم المستشارون المسموعى الكلمة عند الملوك ، فى النمسا ، وفى بولندا . وكان مجهودهم يسعى إلى محاربة مجهودات حركة الإصلاح الدينى . وعلى طول الحدود التى كانت تفصل بين العالم الكاثوليكى ، وبين العالم الذى تحول إلى مذهب الإصلاح الدينى ، ومن دواى إلى فيلنا ، وعبر إينجولستات وبراغ ، أصبحت كلياتهم تشبه قلاع خط ضخم من أجل التنمية ، يحاصر المواقع التى كان العدو يحتفظ بها . وبقوة دافعهم ، لم تفكر المسيحية المناضلة إلا فى إستخدام قوتها ضد نفسها . وكانوا ملتفتين ، قبل كل شىء آخر ، ويعتنى الإنتباه من أجل الدفاع عن نفسهم ضد مذاهب الإصلاح الدينى ، أى من أجل الإحتفاظ بالأشكال التقليدية للمسيحية ، فصرفوا إهتمامهم ، وبشكل متزايد ، عن الخطر الإسلامى ، الذى كان يهدد أرض المسيحية ، وحضارتها ، وروحها العامة ؛ وإنتهى بهم الأمر إلى العمل على إختفاء الروح الصليبية .

الفصل التاسع

شرق أوربا ، وآسيا

كان دخول الموسكوفيين فى حياة أوربا أحد المظاهر الهامة لتاريخ العلاقات الدولية فى عصر النهضة . ولقد إزدادت أهمية روسيا باستمرار منذ عهد إيوان الثالث ، وكان لها دوراً هاماً فى علاقاتها مع بولندا ، ومع المغول . وزادت أهمية المجر نتيجة للصراع بين العثمانيين وبين النمسويين ؛ واستدعى الأمر تدخل شارل الخامس فى هذا الصراع . واستمر توسع روسيا فى عهد إيوان الرهيب ، فى إتجاه الشرق ، والشمال ، والجنوب . أما بولندا فإنها مرت بأزمات تتعلق بالأسرة الحاكمة فيها ، وخضعت لتهديدات من جانب الموسكوفيين ، ومن جانب السويديين . وعلينا أن نختم هذا الفصل بشرح العلاقات التى كانت موجودة بين العثمانيين وبين فارس ، ونلقى كذلك نظرة سريعة على ما كان يحدث فى بقية الدول الآسيوية ، مثل امبراطورية الهند ، والصين ، واليابان ، والهند الصينية وبورما ؛ ولا ننسى القارة الافريقية ، وبخاصة إثيوبيا فى هذا القرن .

١ - روسيا فى عهد إيوان الثالث : بولندا والمغول :

كانت البلاد الروسية تحتل مكاناً غير محدد بشكل ثابت ، على حدود آسيا : ولم يكن ذلك فقط لأنها كانت ولفترة قرون ، فريسة للمغول ، ولكن أيضا لكون الأوربيين الذين غامروا بالوصول إليها شعروا بأنهم كانوا يتوغلون فى عالم يختلف عن عالمهم . ومنذ العصور القديمة ، ومنذ بطليموس ، كان الرأى العام يعتقد أن تانايس ، أى نهر الدون ، كان يفصل بين القارتين . وكتب أحد الألمان ، وهو البارون هربرستاين ، والذى ذهب إلى موسكو فى مأموريات

عديدة ، وصفاً لهذه البلاد ، فى منتصف القرن السادس عشر ، قائلا : « إذا مارسمنا خطاً مستقيماً من مصبات تاناييس إلى منابعه ، فسينتج من ذلك أن تكون موسكو فى آسيا ، وليس فى أوربا » . ومال البعض إلى أن ينقلوا الحدود التقليدية حتى نهر الفولجا . أما حدود الاورال وبحر قزوين فإنها لم تأخذ أهميتها قبل القرن السابع عشر .

وكان حكم إيران الثالث، أو إيوان الكبير (١٤٦٢-١٥٠٥) هو الذى فرض القوة الموسكوفية على إنتباه جيرانه . وكان إيوان الثالث هو أكبر «بجمع» للأراضى الروسية . التى كانت قد تقسمت فيا مضى فى صالح كبار السادة ، أو وقعت فى أيدى الأجانب . وكان عصر « الخصلة الذهبية » — هؤلاء المغول الذين كانوا قد سيطروا خلال قرون عديدة على شرق وجنوب روسيا — قد إقترب من نهايته . وكانت خانات كيبجاق ، والتى كانت قد إنحسرت فى أراضى الفولجا والأورال، قد تحطمت فى عام ١٤٨١ . وفى نفس العام،انتصرت حملةالموسكوفيين ضد قازان ، ووضعت بذلك نهاية للجزية السنوية التى كانوا يدفعونها لخانها .

وفى وسط سهول روسيا ، كانت هناك مجموعة من الإمارات المستقلة ، تحيط بموسكو . فأخذ إيوان فى مهاجمة تلك الموجودة منها إلى الشمال ، وحيث كانت تمر الطرق الموصلة إلى بحر البلطيق ، مثل إمارة بوسكوف ، والتى كانت تجاور أراضى ليتوانيا ، وإمارة ياروسلاف ، وتيفر،وفياتكا وغيرها ، وأجبرها على الإعتراف بسلطته ، وفى عام ١٤٩٢ — ولقد أشرنا إليها عند حديثنا عن بحر البلطيق — قام ببناء قلعة إيفانجوورود ، على الضفة اليمنى لنهر تاروفا ، وفى مواجهة القلعة التى كانت تحمى حدود جماعة الفرسان التيوتونيين . ولقد قام السويديون بالاستيلاء عليها ، وهدموها ، بعد أربع سنوات .

وكان إيوان يلقب نفسه حتى ذلك الوقت، وكما كان أسلافه يلقبون أنفسهم،

بلقب أمير موسكو الكبير . ولكنه سوف يغرس فى روسيا لقب « القيصر » :
وكان ذلك نتيجة لزواجه ، فى عام ١٤٧٢ ، وبعد إغراء أحد التجار الإيطاليين
المقيمين فى موسكو له على ذلك ، بإبنة أخ آخر إمبراطور القسطنطينية ، زوى ،
المسماة صوفيا، باليولوج وسرعان مايدخل فى شعار أسرته ذلك النسر ذا الرأسين،
والذى كان لأباطرة بيزنطة ولم تبق سوى خطوة بسيطة من ذلك إلى أن يطمع ،
أو حتى يطالب ، بميراث باليولوج .

ولم يكن إيوان قد وصل بعد إلى درجة من القوة تكفى له لكى يأخذ مثل هذه
الخطوة .فاكتفى بأن يعدل من التقاليد الموجودة فى الكرملين .فعزل نفسه بدرجة
أكثر عن رعاياه ،وانتهج طريقة جديدة للحياة، وأخذ فى إرتداء الملابس الفخمة ،
وأصبح يستعرض نفسه على العرش حين كان يستقبل ، مثلا ، السفراء الأجانب ؛
إذ أنه تم فى هذا الوقت أمر قيام سادة روسيا بتبادل السفارات مع الدول الغربية .
وبعد زواجه ، ونتيجة له ، دخل فى علاقات من هذا النوع مع الأمراء الايطاليين
قبل غيرهم . وفى نفس وقت حضور صوفيا باليولوج ، حضرت جالية بأكملها
من الإيطاليين واليونانيين وأقامت فى موسكو . واختار القيصر من بين هؤلاء
المهاجرين، والذين انقطعوا عن علاقاتهم بالغرب ، سفراءه الأول ، وهم أولئك
الذين أرسلهم ، ابتداء من عام ١٤٧٤ ، وبخاصة بعد عام ٤٨٠ ، ولكى يعلن
تحرره النهائى من السيطرة المغولية ، وأرسلهم إلى البندقية وميلانو ، وروما ،
ونابلى . وأرسل معهم بعض الموسكوفيين ، حتى يتعلموا مهنة الدبلوماسية إلى
جانبهم .وسرعان ماأظهروا إصرارهم الكامل على كل ما يتعلق بالإحترام الواجب
لسيدهم . ففى ميلانو ، فى عام ١٤٩٣ ، رفض سفير القيصر أن يحضر حفل
زواج بونا سفورزا على مكسميليان ، حتى لايقابل ممثلى الإمبراطورية ،وأسبانيا،
وفرنسا .

وهكذا يمكننا أن نقول بأن الغربيين قد بدأوا فى التعرف على روسيا والروسيين فى نفس الوقت الذى كانوا قد بدأوا فيه بالدخول فى علاقات مع الأمريكتين . وكان إكتشاف إمبراطورية القياصرة قد تم فى نفس وقت إكتشاف إمبراطورية الأزاتك ، وإمبراطورية الإنكا .

وليس من حقنا أن نتكلم،منذ هذا الوقت ، عن إمبريالية (تسلطية)روسية. ومع ذلك ، فإنه الوقت الذى تبلورت فيه ، بين رجال الدين وبخاصة فى الأديرة فكرة ، روما ثالثة ، عليها أن تحتل ذلك المكان الذى كانت تحتله القسطنطينية من قبل : وهذه روما الثالثة ستكون بطبيعة الحال هى موسكو . وكانت مثل هذه الأفكار تعمل بنوع خاص على تقوية الاتجاهات الموجوده عند الحكومة فى إتجاه السلطة المطلقة . ولن تتأثر السياسة الخارجية بذلك إلا بعد فترة طويلة .

ولم تكن لدى إيوان طموحات للتوسع صوب الجنوب . وكان حتى قد تحالف مع مينجلى جيرامى ، خان القرم . وكان قد استعان بهذا الأمير التتارى من أجل القيام ، فى الشرق ، بمحاربة بقايا الخصلة الذهبية ، وفى الغرب ، بمحاربة ليتوانيا وبولندا . أما إذا مانسبنا اليه أمر المطالبة بميراث أباطرة بيزنطة ، فإن ذلك سيكون سبقاً للزمن.ولاشك فى أنه كانت هناك خلفيات سياسيةفى موضوع زواجه بصوفيا باليولوج . ولكن هذا كان يمثل فقط ، من جانبه ، طموحا لكى يحصل من البابا على لقب ملكى ، ومن جانب البابا ، رغبة لكى يكسب إلى فكرة الحرب الصليبية أميراً تأكدت قوته بكل وضوح . ولكن فكرة الحرب المقدسة لم يكن لها إغراء عند إيوان . فلقد حاولت بلا جدوى الدبلوماسية البابوية ، ودبلوماسية البندقية ، وهما أول من كان ممثلا فى موسكو ، أن تتعاونا فى مجهوداتها من أجل كسبه ، ملوحين أمام أعينه بذلك الميراث الكبير الذى كان له الحق فيه ، نتيجة لزواجه ; ولكنه كان لايفكر إلا فى ليتوانيا . وكان مصمما على إلا يسىء علاقاته

بالعثمانيين ، والذين كانت الكثير من المصالح المشتركة تقربهم الواحد من الآخر. فأولا ، كان خان القرم ، حليفه ، تابعا للباب العالى . وبعد ذلك كانت التجارة الروسية مستمرة فى استخدام موانى كافا وآزوف ، وحيث كانت الجلود تتم مبادلتها بالمنسوجات والتوابل . ولن يقوم إيوان ، ولاخلفائه فى القرن السادس عشر، بتهديد الإمبراطورية العثمانية، وذلك رغم الكلمات المنمقة ، وحتى الوعود ، بالمساعدة ، والتى كانوا لايضنون بها على روما ، ولا على البندقية ، حسب إحتياجات سياستهم فى ذلك الوقت .

ولذلك ، فإن أوربا لن تكون فى حاجة ، إلى تعديل الفكرة التى كانت قد بنتها لنفسها عن الروس طوال العصور الوسطى : كأنصاف مقبررين ، يصعب تصور أنهم من المسيحيين . وفى الخطابات ، التى أرسلها شارل الخامس ، إلى ملك بولندا ، ومنحه بها قلادة « الفراء الذهبية » ، مدحه كذلك لكونه قاد المعركة « ضد أقسى أعداء الدين ، مثل الموسكوفيين ، والتتار ، والعرب والأتراك » .

وفى هذه الفترة ، لم تكن طموحات ومجهودات إمبراطورية القياصرة موجهة إلا صوب بحر البلطيق ، وفى إتجاه ليتوانيا . وكانت فترة حكم إيوان تمهد لتلك الصراعات التى خلال أجيال عديدة . ستجعل الروس يقفون فى مواجهة البولنديين والسويديين . ولقد رأينا فيما سبق كيف كانت مشكلة بحر البلطيق تطرح نفسها. وعلينا الآن أن نتحدث عن ليتوانيا .

وكانت إمارة ليتوانيا تشتمل،علاوة على ليتوانيا نفسها ، على روسيا البيضاء كلها ، وإقليم الدنيبر ، مع كييف . وكانت تخضع فيما مضى لسادة كييف ، فطالب بها إيوان ، الذى أعلن أنه خليفتهم . ومنذ أواسط القرن الخامس عشر كان هناك إتحاد شخصى يربطها بمملكة بولندا . ومع ذلك فإن سكانها كانوا

يشعرون بأنهم أكثر قربا من الروس ؛ إذ أنهم كانوا فى غالبيتهم ، يدينون بالمذهب الأرثوذكسى . أما الكاثوليك ، فرغم تمتعهم بود السلطات البولندية ، فإنهم كانو أقلية . وفى عام ١٤٩٢ ، وعند وفاة الملك كازيمير الرابع جاجيلون ، خلفه إبنه الأكبر ، جان البيرت ، على بولندا ، بينما خلفه إبناً آخر ، وهو الإسكندر ، بعد انتخابه ، غراندوقا على ليتوانيا . ووجد إيوان الثالث فى ذلك فرصة سانحة للتدخل دون أن يصطدم بالبولنديين بطريق مباشر . وترك الغراندوق أن يختار بين تحالفه معه أو عدائه له . وإختار اسكندر الجانب الأكثر ضمانا : فتزوج إبنه جاره القوى . وبهذه الطريقة حصل إيوان ضمنا على تأييد جزء من نبلاء ليتوانيا له وحين أصبح ، بعد ذلك ، واثقا من الانتصار ، نادى بحمل السلاح ، فى عام ١٤٩٩ . وتوفى جان البيرت بعد ذلك بعامين ، وأصبح الاسكندر ملكا على بولندا . وتم عقد هدنة لمدة ستة سنوات ، تركت فى أيدى روسيا بعض أجزاء من الاقليم (١٥٠٣) .

وفى أثناء ذلك الوقت لم تكن روسيا معزولة ، رغم التنبؤات التى كانوا يضمرونها لها فى أوربا كلها تقريبا . وبدأ تقارب وثيق منذ قبيل نهاية القرن الخامس عشر ، بين فيينا وموسكو . وكانت المفاتحات التى تقدم الامبراطور بها قد لقيت ترحيبا ، إذ أنها كانت ناتجة عن مشاعر معادية لبولندا . وفى عام ١٤٩٩ ، تعهد كل من إيوان ومكسميليان ، على أن يحاربا ، ولمدى الحياة ، الملك كازيمير جاجيلون وأبنائه . ووعد القيصر بمساعدة الإمبراطور على أن يسيطر على المجر ووعد الإمبراطور بمساعدة القيصر على إعادة غزو « الامارة الكبرى » السابقة لكييف ، والتى كانت « ميراثا » له . ومع ذلك فإن هذا التحالف الأول بين النمسا وروسيا قد ظل شكلياً ، خاصة وأن مكسميليان الذى كان مشغولا للغاية فى الغرب ، لم يتمكن من تنفيذ تعهداته . ولكن ذلك لم يمنع من ناحية أخرى

من أن يتسبب هذا التحالف فى دفع آل جاجيلون إلى البحث عن تأييد فرنسا : فأصبح لوى الثانى عشر ، فى عام ١٥٠١ ، حليفا للملك جان ألبيرت .

وكان حكم باسيليوس الثالث (١٥٠٥ — ١٥٣٣) إستمرارا لحكم والده إيوان الثالث فخضعت إمارات جديدة شبه مستقلة ، أو مستقلة ، مثل جمهورية بوزكوف بنوع خاص ، لسلطة موسكو . ونشبت الحرب من جديد ، مرتين ، فى عام ١٥٠٧ وفى عام ١٥١٢، من أجل ليتوانيا . وكان كل قطع جديد للعلاقات مصحوبا بمحادثات مع مكسميليان . وكان القيصر يطلب معونة مباشرة . ولكن الامبراطور كان يرغب ، قبل أن يتم الاتفاق ، فى أن يدخل فى العملية كريستيان الثالث ، ملك الدانمرك ، والحليف الطبيعى للروس ضد السويديين. ولكن ملك الدانمرك لم يأخذ أى قرار . وأخيرا ، تم فى عام ١٥١٤ التوقيع على معاهدة مع الامبراطور فى موسكو . وقبل التصديق عليها ، وقعت حادثتان دفعتا بمكسميليان إلى التبرؤ من السفير المسئول عن التوقيع فكانت هناك أولا تلك الهزيمة الكبيرة التى وقعت لجيش باسيليوس فى أوركزا. ثم جاء بعد ذلك التقارب بين جاجيلون والهابسبورج ، والذى تم الوصول اليه بعد مساومات طويلة .

وكانت أسرة هابسبورج تطمع ، منذ وقت طويل ، فى تاجى المجر وبوهيميا ، والذين كانا فى أيدى أسرة جاجيلون ، مثلهم فى ذلك مثل تاج بولندا. وكان هذا هو السبب الرئيسى لعدائهم تجاه بولندا . وكان مكسميليان قد حصل بالدبلوماسية ، على نجاح يقربه من هدفه بشكل واضح . فكان لاديسلاس ، ملك بوهيميا والمجر ، وأخو سيجسموند ، قد قبل الزواج الثنائى بين أولاده وبين أحفاد الامبراطور . وكانت المسألة ، بالنسبة اليه ، هى ضمان أساسى ضد أطماع الروس . ولكنها كانت لها واجهة أخرى ، إذ أنه سيكون

من نتائجها ، بعد فترة قصيرة ، تحول التاجين إلى الأسرة المالكة النمسوية . وتم التوقيع الوثيقة الهامة التي قررت ذلك ،في حضور ملك بولندا ، في مؤتمر فيينا، (١٥١٥) : ولما كان الامبراطور قد وصل إلى هدفه ، فإنه وعد بعدم مساعدة روسيا ، بطريق مباشر أو غير مباشر . وسيكون عمله ، إبتداء من هذه اللحظة ، هو مجرد عمل الوسيط .

وعلينا أن نتذكر أنه لم تكن هناك مسألة مطروحة ، في الغرب ، سوى مسألة السلام، إلا فيما يتصل بالمسلمين . وكان التفاؤل يرفرف على بلاط الملوك واعتقد البابا ليون العاشر ، ونتيجة لتقارير خاطئة ، أن باسيليوس كان يوافق على إعادة توحيد الكنائس . وعملت دبلوماسيته على منافسة الدبلوماسية الامبراطورية في العثور على حل للمشكلة البولندية الروسية . وكانت هناك صعوبا في هذا السبيل. إذ أن الروس والبولنديين لم يكونوا قد استعدوا بعد لترك السلام . وكانوا يبحثون عن حلفاء في كل مكان ، ولم يقم باسيليوس بمجرد ارسال نداء إلى الدانمرك ، وإلى جماعة الفرسان التيوتون : بل لقد طلب علنا العون من العثمانيين . وفي أثناء هذا الوقت تم عقد هدنة ، لمدة عام ، عند نهاية عام ١٥١٨ وعن طريق وساطة مكسميليان . وتجددت بإتفاق مباشر في العام التالي . وكان الأمر يحتاج إلى استخدام القوة من جديد حتى يوافق سيجسموند على التخلي عن سمولنسك . واستمروا في المعيشة تحت نظام الهدنات القصيرة الأمد . وكانت الهدنة التي تم التوقيع عليها في موسكو ، في عام ١٥٢٦ ،أمام ممثلي البابا كليمنت السابع، وشارل الخامس ، وأخيه فرذيناند ، أطول أمداً من الهدنات السابقة لها: فكان عليها أن تستمر لمدة خمس سنوات ، وبعد أن تجددت عدة مرات، لن يطعن أحد فيها ، أو يخرقها ، ابتداء من عام ١٥٣٧ ، وعلى الأقل حتى نهاية القرن . وكان النجاح النهائي للروس ، ماداموا قد احتفظوا بسمولنسك .

وكانت فترة حكمة مليئة بالاحداث ، وحتى بالمخاطر . فكان عليه أن يواجه . إلى الشرق وإلى الجنوب ، أعداء آخرين ، يخشى جانبهم حتى وأن كانوا أقل تزوداً بالأسلحة الحديثة . ذلك أن تتار القرم كانوا قد غيروا المعسكر الذى ينتمون إليه . فكان السلطان قد عفا عنهم ، وكانوا من ناحية أخرى قد كسبهم إلى جانبه ذهب البولنديين . ومنذ ذلك الوقت ، سيصبحون الخصوم الدائمين للروس . وكانت للخان الجديد ، ابن منجيلى جيرى ، طموحات واسعة . فكان متأثراً بذكرى القوى التى كانت، فيما مضى ، لقبائل الخصلة الذهبية . وقام بمساعدة خان قازان ، فى عام ١٥٢١ ، بهجوم ثنائى على موسكو . وتمكن الجيشان المتحدان من أن ينتصرا على الروس ، على نهر أوكا ، وقريبا من العاصمة بشكل أجبر باسيليوس على التخلى عنها . وتخربت كل البلاد المجاورة . ولم يتجنبوا ما هو أفظع من ذلك إلا نتيجة لقيام خان استراخان، والذى كان معاديا لخان قازان، بتهديده من الخلف ، وباجباره على الإنسحاب ومع ذلك فان محمد جيرى قد حصل من مجلس من الرؤساء المحليين على وثيقة تعترف بمبدأ دفع الجزية ، والتى كانت لم تدفع منذ وقت طويل . وبعد أن عاد القيصر إلى عاصمته ، عمل على تناسى هذا الموضوع. وسيعمل على إنشاء مجموعة كاملة من المواقع الحصينة ، على نهر أوكا ، ضد التتار .

وبعد أن إطمأن ، بهذه الطريقة على الناحية الجنوبية ، قام بالهجوم على الشرق ضد بقايا مجموعات الخصلة الذهبية . ولأول مرة ، وقعت مدينة قازان فى أيدى الروس فى عام ١٥٣١ .

٢ ـ العثمانيون والمجر والنمسا :

فى الوقت الذى تم فيه طرد المغول بشكل نهائى إلى آسيا ، بدأ العثمانيون فى

تقدمهم فى أوربا . وكانوا قد سيطروا على كل البلاد البلقانية منذ نهاية القرن الخامس عشر ، وسيعملون بعد ذلك على التوغل حتى قلب القارة .

ولقد إستمرت حركة الدفع العثمانى بشكل رئيسى فى إتجاه الدانوب الأوسط. وكانت أقل أهمية من ذلك بكثير عند حدود بولندا . وكان « الهوسبودار » أو أمراء الأفلاق والبغدان قد قللوا من قوة وعنف التوسع العثمانى فى اتجاه بولندا ، وذلك باعترافهم بتبعيتهم للسلطان . وأدى ذلك بهم إلى أن يعيشوا فى سلام مع العثمانيين . كما أنهم قضوا بذلك على بعض الاتجاهات التى كان يظهرها لهم باستمرار جيرانهم الأقوياء ، ملوك المجر وبولندا ، من أجل إخضاعهم لهم. وكان البولنديون إيجابيين أكثر من غيرهم فى هذا الاتجاه . فقام أحد أمراء البغدان المشهورين، وهو إتيين الكبير ، والبطل القومى الرومانى ، بعد اشتباكات متتالية مع الغزاة المسلمين والمسيحيين ، بكسب إنتصار كبير فى بوكوفين ، على جيوش كازيمير جاجيلون، ووضع بذلك حداً لحكمه الطويل (١٤٩٧) . وانضم منذ ذلك الوقت ، وبشكل نهائى وكامل ، للتحالف مع العثمانيين ، وأوصى خلفاءه ، عند موته ، بانتهاج نفس الطريق . ومعنى ذلك أن سيادة ملك بولندا . وكانت أقل إثارة للمتاعب ،وأقل ثقلا. فشعر « الهوسبودار » بأنهم نسبياً أكثر حرية فى حركاتهم ، ماداموا يدفعون المبالغ المفروضة.والتى يطالبهم بها السلطان العثمانى ، لكى يعترف بسلطتهم .

أما على حدود المجر ، فإن الحرب كانت شبه مستمرة ، ولكنها كانت تتم ، من هذا الجانب ومن ذاك ، بقوات بسيطة ، وتقطعها من وقت لآخر ، فى عام ١٥٠٣ ، و١٥١٤ ، هدنات تطول مدتها أو تقصر . وأخذت قوة جديدة تماماً ، وعنيفة ، بعد وصول السلطان سليمان الثانى ، أو سليمان الكبير ، إلى الحكم ، فى

عام ١٥٢٠ . وكان الاستيلاء على بلجراد ، وهى مفترق طرق متقدم الدفاع عن المجر ،فى شهر أغسطس ١٥٢١ ، يفتتح سلسلة من الحملات التى ستوصل العثمانيين، فى فترة تقل عن عشر سنوات ، إلى أبواب فيينا .

واختار سليمان الوقت أحسن إختيار . فكانت المسيحية فى الغرب منقسمة على نفسها مع بدء المنافسات بين فرانسوا الأول وشارل الخامس ، ولم تكن فى حالة تسمح لها بامداد المجر . أما المانيا ، فانها كانت غارقة فى مشكلاتها الدينية ، ولم تكن قادرة ، هى الأخرى ، على أن تقوم بأى شىء من أجلهم . فلم يحصلوا على أى معونة سوى بعض المبالغ المالية التى جمعها الكرسى البابوى . وبدأ فى عام ١٥٢٥ أمر الاستعداد من أجل العمل الحاسم . أما الفرنسيون ، والذين كانوا قد إنهزموا فى بافيا ، فقد كان من حقهم أن يأملوا فى إنتصار المسلمين . وجاء السلطان سليمان لكى يقود ، عند نهر الساف ، جيشاً يتكون من مائة ألف مقاتل ، وثلاثمائة مدفع . أما القوات التى كان فى وسع الملك الشاب ، لوى الثانى ، ملك المجر ، أن يواجهه بها ، فإنها كانت تنقص من قوته بمقدار الثلثين . ولذلك فإن موقعة موهاك كانت هزيمة ، وكارثة للمجريين : فلقد قضى تماماً على الجيش، وقتل الملك ، آخر سرة جاجيلون ، فى ٢٠ أغسطس ١٥٢٦ . ودخل السلطان إلى بودا. ثم إنسحب. مع غالبية جيشه لكى يذهب ويواجه ، فى الأناضول،تهديداً من جانب شاه الفرس .

وطبقا لترتيبات عام ١٥١٥ كان تاجى بوهيميا والمجر يعودان إلى نسيب الملك لوى ، وهو الارشيدوق فرديناند ، أخ شارل الخامس . ولكنهما كانا بالانتخاب . وكان من نتائج إضطراب الأحوال فى البلاد عمل إنتخابات ثنائية . وبينما قام دايت برسبورج بانتخاب فرديناند ، قام دايت آخر إنفصالى بانتخاب جان زابوليا ، وكان أميرا قويا . وحمل زابوليا لقب كبير أمراء ترانسلفانيا ،

وكان عبارة عن حاكم عام ، مزوداً بسلطات إستثنائية واسعة : خاصة وأن ترانسلفانيا كان يسكنها أهالى من المجر ومن الساكسون ، والرومانيين ، وتتمتع بشبه إستقلال داخلى ؛ وكانت مضطرة طوال كل القرن الخامس عشر إلى الدفاع عن حدودها الجنوبية ضد غزوات الأتراك . ولم تكن قوة زابوليا تتمثل فقط فى تعبيرة عن روح الاستقلال للأمة المجرية تجاه النمسا . بل كان يتمتع بحكم مسبق عليه من جانب السلطان ،ومن جانب كل أعداء آل هابسبورج الآخرين ، وخاصة ملك بولندا وملك فرنسا وكان قد إستلم ، منذ عام ١٥٢٨ ، معاشا من فرانسوا الأول ، وتعهد بمعاهدة بالدخول فورا فى عمليات عسكرية ضد الإمبراطورية . ولكنه إضطر ، فى أثناء ذلك الوقت ، إلى ترك عاصمته لمنافسه . وبعد هزيمته ، وتخلى جزء من رجاله عنه ، إضطر إلى أن يلتجىء إلى داخل ترانسلفانيا ، ولم يجد له وسيلة أخرى لإعادة الأوضاع بالنسبة إليه إلا عن طريق الاتفاق مع السلطان سليمان . فذهب لكى يقدم له الولاء ، بنفسه ، وتعهد بأن يدفع له الجزية ولقد تمكن بمساعدته من العودة إلى بودا ، وحيث توج نفسه بتاج القديس إيتيين ، فى عام ١٥٢٩ .

وفى نفس العام ، وصل العثمانيون أمام فيينا : حدث ضخم ، سيهتز له كل العالم المسيحى ، ولكن دون أن يقدر على التدخل إلا بصلواته . ثم إبتعدوا عنها ، بعد شهر ، بعد أن تحطمت كل هجماتهم أمام نيران المدفعية النمسوية . وسيسمح هذا الإنذار لفرديناند ، والذى كان قد أصبح ، برغبة أخيه ، ملكا على الرومان ، بأن ينتصر على قلة إكتراث الألمان : فقرر دايت روتيسبون بأعداد قوات الامبراطورية وقام شارل الخامس من جانبه ، وكان فى ذلك الوقت على علاقة سلم مع فرنسا ، بإحضار قوات من إسبانيا ،وإيطاليا ، والأراضى المنخفضة . وحين بدأت العمليات الحربية ، بعد إنتهاء الهدنة القصيرة ، كان

مستعداً لاقفال طريق فيينا ، فى وجه المهاجمين ، وبقوات أكبر جيش كان قد قام بقيادته حتى ذلك الوقت . ويبدو أن سليمان قد شعر بضخامة هذه القوة الموجودة أمامه . وبعد أن توقف لمدة خمسة وعشرين يوما أمام جانز الصغيرة ، فى وادى راب ، قرر أن يعود أدراجه ، وعاد إلى المجر فى شهر أغسطس ١٥٣٢ . وكان ذلك مكسبا كبيراً لهيبة الإمبراطور : فكان فى وسعه ، ودون الدخول فى عمليات عسكرية ، أن يدعى أنه قد إنتصر إنتصاراً حاسماً . ولكن سيكون على ألمانيا ، ولمدة تزيد على قرن من الزمان ، أن ترتعد من الخطر العثمانى .

ولقد كان على المجر ، وبحكم موقعها ، كخط أول للعالم المسيحى وللعالم الاسلامى فى نفس الوقت ، أن تصبح ميدانا مستديما للمعارك الحربية .

وإضطر فرديناند إلى التفاوض مع سليمان ، وعلى أساس الوضع القائم (١٥٣٣) : أى أنه قد تخلى عن أمر الدخول إلى بودا . وأفاد ، فى عام ١٥٣٨ ، من الصعوبات الداخلية التى كانت تحيط بزابوليا ، وجعله يوقع على إتفاقية سرية (معاهدة فاراد) التى كانت ، فى حالة تطبيقها ، ستسوى خلافاتها ، دون إراقة دماء جديدة : فكان على زابوليا أن يحتفظ بكل المجر الشرقية ، مع بودا ، ولكن لمدى الحياة وبعد موته ، تعود مملكته إلى فرديناند أو لخلفائه . ولكنه توفى فى عام ١٥٤٠ وتسبب هذا الموت فى أزمة جديدة . فكان قد تزوج ، قبل وفاته بقليل ، بايزابيلا ، إبنة سيجسموند ، ملك بولندا ؛ وكان قد حصل منها على إبن ، وصممت أرملته على أن تحمى ، بمساعدة الأتراك ، حقوق إبنها الوليد وأسرع سليمان بالاعتراف بملكية جان سيجسموند . وسرعان مايقوم بدفع جيوشه حتى بودا ، ويقضى تماما على القوات الامبراطورية التى كانت تحاصرها . ثم إستند إلى الخطر الدائم الذى تتعرض

له العاصمة ، ووضع فيها حامية ، وعين فيها أحد الباشوات ، يقوم بإدراتها باسمه (١٥٤١) . وإبتداء من هذا الوقت ، نشأت مجر ثالثة ، مجر عثمانية ، داخله بين مجر آل هابسبورج المضغوطة حول بريسبورج ، كعاصمة لها ، وبين مجر زابوليا ، والتى كانت ترانسلفانيا تمثل أهم جزء فيها. وستظل هذه الأوضاع الجديدة موجودة حتى نهاية القرن التالى .

وفى أثناء ذلك الوقت لم تكن الآمال من أجل عودة الوحدة قد إنتهت تماماً . فكان الأهالى ، وهم مهزمون ، يرغبون فى التخلص من السيطرة العثمانية . فقام الكردينال مارتينوى ، المشرف على تربية الملك الصغير ، والمكلف من جانب السلطان سليمان بالحكم فى فترة سنه القاصر ، بالعمل سراً فى صالح فرديناند . حقيقة أن آل هابسبورج ، والذين عملت ضدهم أحداث ألمانيا ، قد أظهروا عدم مقدرة تامة فى مواجهة العثمانيين . وفشلت ، فى عام ١٥٤٢ ، تلك العمليات العسكرية التى بدأت فى إتجاه بودا ، والتى كانت قد تكلفت الكثير ، وكان فشلها ذريعاً . وكانت نتيجتها الوحيدة تتمثل فى التسبب فى حركة رد فعل عنيفة عند الخصوم ، الذين قاموا بالاستيلاء على مدينتين هامتين ، جران وشكسفهرفار . وبهدنة لمدة خمس سنوات ، تم التوقيع عليها فى عام ١٥٤٥ ، إضطر فرديناند إلى أن يعد السلطان بجزية سنوية تبلغ ٣٠٠٠٠ دوقى . وتفاهم مع مارتينوى على حل وسط جديد ، يجدد إتفاق فاراد : فسيتزوج جان سيجموند إحدى بناته ، ويستلم ، فى نظير التاج ، مكافأة تعويض تليق بأمير ، ولكن رغم سرية هذا الاتفاق ، فإن سليمان قد علم به بسرعة . ولما كان لايقدر على التدخل فى ذلك الوقت ، لأنه كان فى حرب مع الفرس ، فإنه إكتفى بفضح خيانة مارتينوزى ، ورصد ثمنا للحصول على رأسه .

ومع ذلك ، فقد تنفذ الإتفاق فى عام ١٥٥١ ؛ وإستولى النمسويون على

ترانسلفانيا ، التي انسحبت منها الملكة إيزابيلا مع ابنها . وبعد ذلك ، وبتحريض من الباشوات ، إشتعلت نيران الحرب شيئاً فشيئاً في جميع أنحاء المجر . ولم يعد السلطان سليمان من فارس ، ولم يتم عقد الصلح إلا في عام ١٥٥٣ وعن طريق التهديد بالتدخل من جديد ، أجبر فرديناند على إرجاع جان سيجسموند . واضطر فرديناند إلى الموافقة ، بعد تردد طويل . وفي عام ١٥٥٦ ، وفي الوقت الذي تنازل فيه شارل الخامس عن العرش ، كانت مملكة زابوليا قد أعيد إنشاؤها . وتم في نفس الوقت عقد هدنة جديدة مع العثمانيين ، لمدة ثمانية سنوات ؛ وتجددت بعد ذلك في عام ١٥٦٢ : وأكدت التعهد بدفع الجزية ، وضمنت للعثمانيين بقاء كل الأماكن التي فتحوها خلال السنوات الأخيرة ، في أيديهم .

أما مكسميليان الثاني ، إبن وخليفة فرديناند ، فإنه في نفس الوقت الذي إحتفظ فيه بالسلم من جانب العثمانيين ، عمل على محاربة الإنفصاليين في ترانسلفانيا ، وكان حظه هناك أحسن من حظ والده . ذلك أن جان سيجسموند قد هزم ، واضطر إلى الموافقة على شروط هدنة زاتمار ، في عام ١٥٦٥ . فكان عليه أن يتخلى عن لقب الملك ، وعن جزء من مملكة المجر الشرقية ؛ ولم يعد له سوى ترانسلفانيا يحكمها ، وبصفته أحد رعايا الملك الامبراطور . وكان لهذا الحدث نتائج هامة فقد غضب السلطان سليمان ، واستعد لاعطاء درس جديد لآل هابسبورج . وعاد إلى الظهور في المجر ، وحيث لم يكونوا قد شاهدوه منذ عشرين عاما . ولكنه توفى أمام مدينة زيجت الصغيرة ، في عام ١٥٦٦ . ووقفت العمليات الحربية فجأة . ولذلك فإن اتفاقية زاتمار سوف تطبق ، واحتفظت ترانسلفانيا وبأميرها الذي انتخبه المجلس . ولكنها ظلت داخل الوحدة المجرية ، وعلى الأقل بشكل رمزي ، وتبعا للولاء الواجب لآل هابسبورج ، والذين سيكونون

وحدهم ، منذ ذلك الوقت هم ملوك المجر . وتأكد هذا الاتفاق النهائى بين الأسرتين فى سبير ، عام ١٥٧٠ .

أما من جانب العثمانيين ، فانه قد تم عقد هدنة جديدة ، ولمدة ثمـــانية سنوات ، فى أدرنه ، فى عام ١٥٦٨ . وسيعملون على تجديدها مرات عديدة حتى عام ١٥٩٢ . ولم تمنع حالة السلم الباشوات من القيام ، من وقت لآخر ، بهجمات اعتبرها الجانب الآخر على أنها أعمال عصابات تستدعى القمع بالسلاح ، واعتبروها أنفسهم عمليات تأديب للعصابات التى كانت تأتى من عند الخصوم ، وتعمل على النهب والتخريب . وبدأت من هذه الفترة عملية تنظيم « الحدود » ، والتى سوف تستمر لمدة طويلة ، ومنذ الربع الأخير من القرن السادس عشر ، وعهدت النمسا بعملية حمايه الحدود إلى جنود — فلاحين ، Granzer ، زودت كل منهم بقطعة من الأرض ، وفرضت عليهم بعض الإلتزامات العسكرية وكان هذا التنظيم يهم كل المنطقة الواقعة بين الساف والدراف .

٣ – روسيا فى عهد إيوان الرهيب :

كان العمل الأساسى ، الخارجى ، للقيصر إيوان الرابع ، أو إيوان الرهيب (١٥٥٣ — ١٥٨٤) يتمثل فى توسيع حدود إمبراطوريته ، بضمه إليها بلاد الفولجا الوسطى ، والسفلى ، وتوسيع حدوده الشرقية حتى الأورال .

وكان الهدف الرئيسى هو ، من جديد ، قازان ، وخاناتهـا . وتتالت ثلاث حملات فى هذا الإتجاه . وأخيراً ، وفى عام ١٥٥٢ ، وهو العام الذى فشل فيه شارل الخامس أمام ميتز ، استولى إيوان على الموقع وبعد ذلك بقليل بدأ العمل فى بلاد بشكير . وبعد أربع سنوات من ذلك ، سقطت استراخان بدورها ، وقاموا بضم أراضيها . وهكذا وصلوا إلى سواحل بحر قزوين ، بينما إقتربوا ، فى الشمال من جبال الأورال . وكانت هذه فترة حاسمة بالنسبة للتكوين الإقليمى

للإمبراطورية : فزادت مساحتها بنسب هائلة ،وانفتحت أمامها ، وإلى الشرق ، كل الإمكانيات .

ولم تبدأ حرب ليفونيا ، والتي تحدثنا عنها في الفصل الخاص ببحر البلطيق إلا بعد ذلك . وكسب إيوان في أول الأمر . ولكن جسامة المجهود الذي بذله في هذه الناحية ، وطول أمده ، كان يشجع تتار القرم الذين كانوا قلقين من تزايد قوة الموسكوفيين ، على العمل ضدهم . وكان إيوان نفسه ، قد أسهم ، من ناحية أخرى ، على زيادة مخاوفهم . فكان قد قام « في مرتين ، بقيادة قواته ضد الخان : وكانت مجرد عمليات إستطلاع هجومي ، وأن كانت الثانية من بينها لم تتوقف إلا تحت أسوار آزوف . وزاد القلق في إستانبول ، وحيث كانوا يعتبرون خان القرم على أنه خاضع لهم . ولذلك فإن السلطان سليم ، إبن وخليفة سليمان ، قام بوضع مشروع لمنازعة القيصر في قازان واستراخان . وفي المرة الأولى ، في عام ١٥٦٩ ، قام العثمانيون والتتار بمحاصرة استراخان ، وأقاموا مواقع متقدمة لهم حتى نهر الدون . ثم قام جيش ، يزيد عدده على مائة ألف رجل ، في عام ١٥٧١ ، وبقيادة خان القرم ، بعبور الحدود عند أوكا . ومرة جديدة — وهي آخر مرة — تم غزو موسكو ، ونهبها وحرقها ؛ ولم ينج منها سوى الكرملين . وكانت لهذا الحدث نتائج بدرجة أنهم ظلوا ، بعد إنسحاب الغزاة ، يتهمونهم بقتل ٣٠٠،٠٠٠ شخص ، وبأسر ١٣٠،٠٠٠ أسير .

أما في قطاع بحر البلطيق ، وكذلك في إتجاه البحر الاسود ، فإن الجزء الإخير من حكم إيوان لم يشتمل على مكاسب . فكان عليه ، في عام ١٥٨٢ بنوع خاص ، أن يتخلى عن فتوحاته في ليفونيا ، وأن يعيد بولوتسك إلى ليتوانيا . ثم إضطر ، في عام ١٥٨٣ ، إلى أن يتخلى للسويديين عن إستونيا ، وكذلك عن كثير من المدن التي كانت فيها مضى روسية ، حول خليج بوثنيا .

وعند نهاية حكمه، كان لايزال هناك إذن الكثير مما يجب القيام به ، إلى الشمال ، وإلى الجنوب ، حتى تتمكن روسيا من أن تفرض نفسها على أوروبا كدولة عظمى من الدرجة الأولى . وكان إيوان قد حطم نفسه أمام عقبات ، سيتمكن بطرس الأكبر ، بعد قرن من الزمان ، من التغلب عليها. وعلى العكس من ذلك ، إنفتحت إمكانيات جميلة أمامها ، من ناحية الشرق ، ناحية آسيا .

وقرب الأورال ، وفيما بين كاما وهو أحد فروع الفولجا ، ودفينا ، عاشت أسرة من كبار الملاك ، وهي أسرة ستروجانوف ، والتي كانت قد بدأت ، بعد عام ١٥٥٨ ، في استغلال بعض الملاحات ، وبعض مناجم الحديد . ولقد عمل افراد هذه الأسرة ، شيئاً فشيئاً ، على مد عمليات إستكشافهم إلى ما وراء الأورال ، وتمكنوا ، بموافقة القيصر ، من القيام بعمليات إستعمار في المنطقة الواقعة بين أوب وإرتيش . ولكي يتمكنوا من حمايتها ، قاموا ببناء المواقع المحصنه ، وعهدوا بالدفاع عنها إلى عناصر من القوزاق الذين كانوا يبحثون عن أرض لهم . وقام أحد رؤساء القوزاق الذي دخل في خدمتهم ، وهو إيرماك ، بعمليات غزو وعمليات إستعمار ، في نفس الوقت . وأصبحت سيبير ، عاصمة التتار السابقة ، والواقعة على نهر أرتيش ، والتي استولوا عليها من الخان الذي كان يحكم المنطقة حتى ذلك الوقت ، بدون أهمية ، وأخذت توبولسك مكانها في عام ١٥٨٧ . ولكنها أعطت على الأقل إسمها لروسيا الآسيوية ، والتي ستسمى ، منذ ذلك الوقت ، بسيبيريا . وبعد عشرين عام أخرى ، ستنشأ ، فيما وراء نهر أوب ، مدينة تومسك ، من موقع معسكر للقوزاق ، تحيط به الأعمدة .

وإذا كانت آسيا تحتل المكان الأول في تطور السياسة الخارجية لموسكو عند نهاية القرن السادس عشر ، فإن روابط جديدة بدأت تنعقد ، في نفس هذه

الفترة ، مع أوربا الغربية . ويبدو أن أيوان قد فهم ، وقبل بطرس الأكبر ، أنه ، من أجل أن يتمكن من قياس قوته بقوة الدول الغربية ، عليه أولا أن يتعلم منهم . فحصل على معدات حربية من ألمانيا ، وحاول أن يستخدم منها بعض التقنيين ، ولكنه لم ينجح فى ذلك . وفتح البلاد ، وأكثر ممن سبقه ، لكل الأجانب الذين كان لديهم أى شىء يأتون به .

وكان الانجليز هم أول من وصل ، من حيث العدد . وكانت صدفة ملاحتهم على سواحل البحر الأبيض هى التى دفعت السفن التى كان شانسيلور يقودها ، باحثاً عن ممر شمالى شرقى ، إلى أن يلقى مرساه ، فى عام ١٥٥٣ ، على بعد أربعة كيلو مترات من ذلك المكان الذى سوف تنشأ فيه ميناء أركانجاسك فيما بعد . وذهب رئيس الحملة إلى موسكو ، وقوبل فيها أحسن إستقبال ، وكتب القيصر إلى الملك أدوارد السادس يعد رعاياه بالحرية الكاملة فى التجارة . وسرعان ما أنشئت الشركة الموسكوفية ، وحصلت على إمتيازات عديدة : فحصلت على حق التجارة حتى آخر حدود روسيا ، وحتى خارج هذه الحدود ، فى بخارى وفى فارس . وكان ايوان يمنى نفسه لفترة طويلة بأمل الوصول إلى وفاق سياسى فى نظير ذلك ، ووفاق عسكرى ، ضد بولندا . ولكن القيصر إكتشف بعد ذلك ، وعام ١٥٦٩ ، أنه قد سخر به ، ومع ثورة غضبه ، أرسل خطاباً مليئاً بالاهانات إلى الملكة اليزابيث . وإذا كان الإنجليز قد رأوا تقليل إمتيازاتهم ، وإذا كان عليهم أن يقتسموا هذه الامتيازات مع الهولنديين ، الذين ظهروا بدورهم فى البحر الأبيض ، فإن هذا لم يمنع من إستمرار سيطرتهم على سوق روسيا . ولقد استمر إيوان ، وحتى وفاته ، مصراً على الوصول إلى مثل هذا التحالف ، والذى كانت لندن لا ترغب فيه . ولقد سرت الاشاعات ، فى أحد الأوقات ، حتى بأنه قد رشح نفسه لطلب يد الملكة العذراء ،

ولم تضع الحكومة الانجليزية أية صعوبة من أجل الاعتراف له بلقب القيصر، والذى كان قد صمم على الاعتراف به رسميا . أما فى العواصم الأخرى، وخاصة فى كراكوفيا، فإنهم كانوا أكثر ترددا . وكان ملك بولندا هو آخر من وافق على الاعتراف بذلك . وكانت إدارته السياسية فى معركة دائمة مع الكرملين، إذ أنها كانت لا توافق على استخدام تلك الصيغ المتميزة، والتى كانت موسكو تعطيها كل أهمية، لاعتبارات تتعلق بالهيبة . ومن جانب الامبراطور، لم تكن الاعتراضات أقل قوة . ذلك أن الموسكوفيين قد بدوا وكأنهم منافسين لمركز الأولوية بين الدول . واقترح رودلف الثانى، فى عام ١٥٧٦، أن يلقبه بلقب « قيصر الشرق » ; وانتهى به الأمر إلى أن يوافق على صيغة « قيصر كل الاقاليم الروسية » . وفى روما، وحيث كانوا يحتفظون بكل الآمال المتعلقة بالمستقبل الدينى لروسيا، وجدوا أنه من السياسة أن يوافقوا على أن يعاملوه على أنه ملك . وهكذا نجد أن دولة روسيا كانت تقوم بتقدم واضح أمام الرأى العام . وإن كان هذا لا يعنى، من ناحية أخرى، أنها كانت ستحصل لسفرائها على المكانة العامة التى كانت تدعيها لهم .

وفى بولندا، كان من نتيجة هذا النشاط المتزايد للجيران الموسكوفيين دفع المملكة إلى الاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع آل هابسبورج . وبنوع من الحذر، لم تتدخل، فى أواسط القرن، فى مسألة المجر، رغم نداءات جان زابوليا، ثم نداءات أرملته، إيزابيلا جاجيلون . وقام سيجسموند أغسطس، والذى تزوج من أحد بنات ملك الرومان، بعقد معاهدة مع فينا فى عام ١٥٤٩ . وسيصبح الميل صوب النمسا منذ ذلك الوقت أحد العوامل الدائمة فى سياسة بولندا. وستجد فى معارضتها مجهودات فرنسا، التى تبحث عن خصوم للاسرة النمسوية الحاكمة، حتى آخر حدود أوربا، والتى ستكون دبلوماسيتها، منذ عهد فرانسوا الأول وباستمرار، موجودة فى كراكوفيا، وكذلك عند أمير ترانسيلفانيا، وعند السلطان .

وفى عام ١٥٧٢ ، أصبحت بولندا مركز اهتمام أوروبا فلقد توفى سيجسموند أغسطس ، آخر أسرة جاجيلون . ولأول مرة ، لن يعتبر الولاء لأسرة حاكمة على أنه كان لتصحيح مبدأ الانتخاب،والذى كان قد دخل بشكل نهائى فى التقاليد، والذى سيظهر النبلاء إصرارا كبيرا عليه ، ماداموا يقومون بدور رئيسى فى الدايت . وعندئذ تقع أولى الأزمات التى ستهز البلاد من فترة لأخرى ، وعند وفاة كل ملك، مثيرة بذلك أطماع القوى المجاورة ، والتى قد تؤدى إلى المساعدة على إعلان الحرب الأهلية .وحول ذلك التاج المنشود ، كان هناك دائما الفرنسيون والنمسويون فى مواجهة بعضهم بعضا . ولما كان البابا جريجورى الثالث عشر يرغب فى الحصول على مساعدة الامبراطور من أجل القيام بحملة صليبية ، فإنه عمل على تأييد ترشيح أحد أبنائه . ولكن كثيرا من البولنديين كانوا معادين للأرشيدوق : وكانوا يخشون من أن تسلم بلادهم لأسرة هابسبورج ، كما حدث فيما مضى بالنسبة لبوهيميا والمجر . ويساعد هذا التفكير على شرح نجاح المرشح الفرنسى ، وهو أخو شارل التاسع ، هنرى صاحب فالوا ، دوق آنجو . وكان الموسكوفيون كذلك فى العملية ، ولكنهم كانوا فى الصف الثانى . وكان مؤتمر ستيتن ،ولقد رأينا ذلك عند شرحنا لمشكلة بحر البلطيق ،قد رغب فى جعلهم يدفعون ثمن العنف الذى قاموا به تجاه الفرسان،والمعتبرين بأنهم مقدمة الحضارة المسيحية ، وهو العنف الذى جعل أوربا تأخذ منهم موقفاً . فتم نتيجة لذلك ترشيح فيدور ، ابن إيفان الرهيب ، ولكن هذا الترشيح لم يجد له مؤيدين فى الدايت .

أما الفرنسى،والذى انتخب فى ١١ مايو ١٥٧٣ فانه وصل إلى بولندا دون حماس فى شهر يناير التالى . ولم يبق هناك سوى فترة خمسة أشهر . وما أن علم بوفاة أخيه الأكبر ، شارل التاسع ، حتى هرب لكى يذهب ويستلم ميراثه .

وتخلى عن المملكة ، دون أن يتخلى عن التاج . واعتقد أن فى وسعه أن يحكم من بعيد ، وأن يعمل ، بمعونة الحزب القوى ، فى أن يحصل على تصريح بذلك من الدايت . وتناقش البولنديون ، وتخاصموا بشأنه لفترة تزيد على العام . وأخيرا إنتصر خصومه . وأعلن أن العرش خاوى ، وقرروا إجراء إنتخابات جديدة .

وقامت أسرة هابسبورج ، مرة ثانية ، بأخذ مواقعها . وكان غياب فرنسا يزيد من فرص نجاحها . وكان الامبراطور مكسميليان الثانى نفسه مرشحا . وحاول التفاهم مع موسكو . وأخذ إيوان فى المساومة : فكان يوافق على أن يتركه يحكم فى كراكوفيا ، أو على الاقل أن يعين أرشيدوقا هناك ، ولكن بشرط أن يذهب ابنه فيدور ، لكى يحكم فى فيلنا وبدا هذا الحل لمسألة ليتوانيا مغريا ، مادامت السياسة البولندية تكون نجحت بشكل نهائى . ومنذ أن كان قد تم التوقيع على إتفاقية بين البولنديين والليتوانيين ، فى دايت لوبلين فى عام ١٥٦٩ (إتحاد لوبلين) فإن الدولتين لن يكون لهما ملك واحد فقط ، بل سيكونان «جمهورية مشتركة» ، ولها دايت واحد . وفى أثناء ذلك الوقت لم يتم الاتفاق النمسوى الروسى . وفشلت النمسا فى فرص مرشحها ، رغم الإستفتاءات العديدة التى تمت فى صالحها ، وبعد تطورات طويلة ، وبداية حرب أهلية كان المنتصر هو منافس ثالث ، إيتيين باتورى ، أمير ترانسيلفانيا والذى كانت الدبلوماسية العثمانية تؤيده علنا : وبزواجه بآن جاجيلون ، أخت سيجسموند أغسطس ، أعاد باتورى العلاقات الأسرويةالمقطوعة . وفى إمارته فى ترانسيلفانيا ، كان قد خلفه منذ بعض الوقت جان سيجسموند زابوليا : وسيضع أحد أخوته بدلا منه هناك .

ولقد عمل كل من الروس والنمسويين على الاحتفاظ له بلقب التابع والخاضع للسلطان ، ولكن باتورى أظهر أنه ملكا كبيرا . ونجح فى أثناء حكمه لمدة عشر

سنوات (١٥٧٦ — ١٥٨٦) على أن يصل بالقوة العسكرية لبولندا إلى مستوى لم تكن قد وصلت إليه من قبل . وكان فى وسع جيرانه أن يتأكدوا من أن وقت تقسيم بولندا لم يكن قد حان بعد . ومنذ وصوله إلى الحكم ، إستعد الملك الجديد للحرب ضد إيوان الرهيب ، الذى كان قد قام بعقد تحالف ضده مع الإمبراطور . وكان يرغب أشد الرغبة فى أن يوثق صلاته بجان الثالث ، ملك السويد ، الذى كان مهتما مثله بطرد الروس من سواحل بحر البلطيق . ولكنهما لم يصلا إلى تفاهم مشترك . ولذلك فإنهما سيقومان بالحرب على إنفراد ،وكل منهما لصالحه، وكل منهما يراقب الاخر ، ويغير منه .

ولقد انهزم السويديون فى أول الأمر ، ثم تمكنوا بقيادة أحد الفرنسيين المهاجرين ، وهو بولنتوس دى لاجاردى ، من تحرير إستونيا ، ومن الاستيلاء على نارفا وإيفانجورود . وتمكن باتورى ، فى ثلاث حملات متتالية ، من أن يصل حتى أسوار برسكوف ، وحيث تبقى قواته مشغولة بعمليات الحصار لفترات طويلة قبل الهجوم النهائى . وفى ذلك الوقت ، وصوب نهاية عام ١٥٨٠ إضطر إيوان إلى أن يتراجع بإستمرار أمام البولنديين والسويديين ، وقنع بتقديم التنازلات الضرورية لكى يحصل على السلم . وكتب إلى البابا ، وأبلغه برغبته الكبرى فى أن يشارك فى الحملة الصليبية ، وطلب إليه أن يجبر جيوشه بفرض الصلح على خصمه ملك بولندا ، وصديق المسلمين . وقبل جريجورى الثالث عشر دور الوسيط ، محتفظا دائما بأمل خفى فى العمل من أجل توحيد الكنائس . وأعطى فى هذا السبيل سلطات كاملة لأحد اليسوعيين ، وهو الأب بوسيفينو ، والتى كانت مواهبه الدبلوماسية قد برزت مع نتائج بعثته الأخيرة إلى استوكهولم : وكان الملك جان الثالث قد تعهد بين يديه فى عام ١٥٧٨ بإعتناق المذهب الكاثوليكى .

ولم يكن البولنديون قد إرتاحوا أبدا للعلاقات بين روما وموسكو. ووافقوا ، وبشكل إستثنائي هذه المرة على أن يعبر ممثل البابا أقاليمه أماباتورى، والذى كان يشعر كذلك بالحاجة فى السلم ، فإنه قابله فى معسكر بوسكوف ، ولم يعارض فى بدء المحادثات . وانعقد المؤتمر فى شهر ديسمبر عام ١٥٨١ فى أيام — زابولسكى ، وهى قرية صغيرة قريبة من بوسكوف . أما السويد، فإنها لم تمثل فى المؤتمر ، ونتيجة لطلب إيوان . ولقد ناضل الروس بمرارة حتى لايتخلوا عن كل ليفونيا . ولكنهم إضطروا فى آخر الأمر إلى ذلك : فكان عليهم أن يقنعوا بالاحتفاظ بمدينة بولتسك ، تلك القلعة الأخيرة التى كان البولنديون قد إحتلوها، وبإنقاذ بسكوف ، التى كانت لاتزال صامدة .

وكانت هدنة إيام — زابولسكى قد عقدت لفترة عشر سنوات (١٥ يناير ١٥٨٢) . وبعد ذلك ، ذهب الأب بوسيفينو إلى موسكو لكى يحصل على شكر القيصر ، ويذكره بما ينتظره العالم المسيحى منه . وإعتذر إيوان مدعيا ضرورة إعادة بناء قواته المسلحة . أما فيما عدا ذلك ، فإنه إشترك فى مناقشة عامة ، وفى حضور عدد كبير من السادة ، عن أصول المذهب اليونانى ، وأولوية البابا فى التقدم على غيره ، وعن بعض التقاليد الرومانية : وبطبيعة الحال لم يؤد ذلك إلى أى شىء . وتم عقد الصلح فى العام التالى مع السويد . وكان هذا الصلح بالنسبة لإيوان يعنى التخلى : فلقد فقد إستونيا وإينجريا .

٤ — بولندا والسويد وموسكو :

لقد توفى كل من إيوان الرهيب وإيتيين باتورى ، وهما أقوى شخصيتين إحتلتا منذ وقت طويل مسرح أوروبا الشرقية ، الواحد بعد الثانى بفترة عامين . وطرحت مسألة خلافتهما على العرش مشكلات ستؤثر بدرجة كبيرة على العلاقات الموجودة بين الدولتين .

وعند موت إيوان فى شهر مارس ١٥٨٤ ، طالب إبنه فيدور بالسلطة . وكان غير قادر ، ومتخلف ، وسيحكم تحت وصاية زوج أخته ، بوريس جودونوف . وعلاوة على ذلك لم يكن له ولدا ، وأصبحت الأسرة مهددة بأن تختفى معه . وفى ذلك الوقت فكر باتورى فى مشروع عجيب : توحيد الأمة الروسية مع الأمة البولندية ، واللتين كانت خلافاتها فى صالح المسلمين ، وإعطاء ملك واحد للدولتين ، سيكون بطبيعة الحال ، وفى هذه الظروف ، هو ملك بولندا . وصفق الكرسى البابوى لهذا المشروع : إذ أن هذا الاتحاد سيكون فى صالح المذهب الكاثوليكى . ولكن الدهشة كانت كبيرة فى موسكو . ولما كانوا يشعرون بالضعف ، ومشغولين بنوع عام بالحصول على تحديد هدنة إيام — زابولسكى ، فإنهم لم يرفضوا المفاتحات البولندية بشكل قاطع . وحين توفى باتورى بدوره ، فجأة ، وله من العمر ستة وخمسون عاما ، فى شهر ديسمبر ١٥٨٦ ، إستحوا من المثل الذى كان قد أعطاه لكى يظهروا المميزات التى تنتج عن إتحاد التاجين ، وطرح ترشيح فيدور خلفا له على بولندا .

وكان على القيصر أن يواجه وكمنافسين له ، إبن ملك السويد ، الذى هو فى نفس الوقت ابن أخت آخر أمير من جاجيلون ، والأرشيدوق مكسيمليان ، من آل هابسبورج أخو رودولف الثانى . وهكذا سنجد أن الجيران الكبار لبولندا ، روسيا ، والسويد ، والنمسا سيتنافسون على تاجها . ولكن الشعور القومى كان معاديا للروس بدرجة كبيرة لاتسمح لفيدور بأية فرصة . ومن الناحية العملية ، كان التنافس محصورا بين السويديين والنمسويين . وكانت أزمة عام ١٥٨٧ مشابهة فى تطوراتها لأزمة عام ١٥٧٥ ، وأن كانت أكثر خطورة منها . ففيما سبق لم يضطر باتورى إلى إستخدام القوة ضد منافسه ، الأمبراطور مكسيمليان ، والذى أنهت وفاته هذا الموضوع . أما هذه المرة، فإن

السويدى سيجسموند فازا قد انتصر على منافسه النمسوى ، ونتيجة لتأييد جزء من الديت له . وأجبره على التخلى عن كراكوفيا ،ودفعه حتى إلى سيليزيا،واشتبك معه فى معركة حاسمه ، وأسره فيها . ونتيجة لوساطة البابا سيكست الخامس ، تم عقد إتفاق فى عام ١٥٨٩ ، نص على تحرير مكسميليان ، وعلى شرط أن يتخلى عن لقب ملك بولندا .وبعد فترة من الوقت ساعد زواج سيجسموند من إحدى الآرشيدوقات على إعادة العلاقات الودية بين الدولتين .

ولقد فضل البولنديون على اتحادهم مع روسيا ، اتحادهم مع السويد . إذ أن سيجسموند ، ابن الملك جان الثالث هو — كما نعلم — الوريث الشرعى لتاج السويد ؛ وكان تتويجه فى بولندا يعنى تدعيم ذلك الحاجز الذى يقف فى وجه الاطماع الروسية فى البلاد المطلة على بحر البلطيق.ولكن الأمر غير المتوقع ، هو أن هذا الملك الجديد ، الذى تربى فى ظل مبادىء المذهب الكاثوليكى ، سيواجه فى يوم ما بصعوبات ضخمة من أجل أن يقبله رعاياه السويديون ، والذين كانوا مرتبطين بمذهبهم الجديد بنفس درجة إرتباطه بالمذهب القديم . ولقد قام بعض المؤرخين البروتستانتيين بالإشارة إليه ، ودون مغالاه ، على أنه « فيليب الثانى البولندى » . وعلينا أن نشير على أى حال ، إلى أن غيرته الدينية ، كانت بالنسبة للخارج ، مثل غيره ملك اسبانيا ، وتميل إلى محاربة مذهب الإصلاح ، أكثر من ميلها إلى محاربة الاسلام . وقام فى عام ١٥٩٢ بعقد إتفاق مع العثمانيين سمح لهم بضمان كل حرية عمل فى المجر . وكان والده قد توفى ؛ ووجد نفسه ملكا للسويد . ومن الاتصالات الأولى ، طرحت المسألة الدينية ، وكانت تشتمل على خلافات . وعمل سيجسموند على كسب الوقت ، وقام بحملة ضد الروس الذين كانوا يهددون إستونيا . ولكن البولنديين ، الذين رأوا أن مصالحهم لا تتأثر فى هذه المنطقة ، رفضوا معونته . ولذلك فإنه إضطر

إلى عقد الصلح منذ عام ١٥٩٥ ، وتخلى بذلك عن الأقاليم التى كانت السويد قد حصلت عليها منذ عشر سنوات ونتج عن ذلك أن زادت خطورة الازمة الداخليه ، وتحولت إلى حرب أهلية ، ونزل الملك فى كالمار مع جيوشه ، ولكنه إنهزم ، واضطر إلى إعادة عبور البحر فى عام ١٥٩٨ . وقرر الريجسداج خلعه وعين عمه شارل وصيا على العرش . وبعد فترة سيحول شارل لقبه من وصى إلى ملك .

وكانت بداية الحكم الطويل لسيجسموند الثالث فى بولندا تشتمل على حادث له أهمية خاصة بالنسبة لمستقبل العلاقات مع روسيا . فالكنيسة الارثوذكسية لبولندا قررت ، وبعد مفاوضات طويله قام بها رئيس أساقفة كييف ، أن تنضم إلى حكومة الكرسى البابوى . وتم التوقيع على عقد الاتحاد فى روما عام ١٥٩٥ ، ونشر فى مجمع برست فى شهر اكتوبر عام ١٥٩٦ . وستزداد الخريطة العقائدية للبلاد تعقيدا بتلك المعارضة التى نشات بين «الاتحاديين» وبين « الانفصاليين » ، وكلهم من المذهب اليونانى ، وكان هؤلاء الأخيرون قد ظلوا مخلصين لتلك البطريركية التى كانت قد أنشئت حديثاً فى موسكو ، بموافقة بطريرك القسطنطينية .

وفى خلال السنوات الاولى من القرن السابع عشر ، ستقل القوة الروسية ، وذلك فى الوقت الذى ستزداد فيه قوة بولندا تأكدا ، وتحاول أن تخرج فيه عن حدودها . وسمحت الظروف بإعطاء الفرصة لسيجسموند الثالث لكى يعود إلى المشروعات الطموحة التى كان باتورى قد فكر فيها صوب نهاية حكمه . وبدت روسيا ، والتى كانت قد دخلت فى فترة الإضطرابات ، على أنها الفريسة الأولى .

وبينما كان بوديس جودونوف يحكم ، وقد أصبح قيصراً بعد وفاة فيدور فى عام ١٥٩٨ ، ظهر له أحد المنافسين إدعى أنه إبناً لإيوان ، ونجا من عملية اغتيال سابقة حاول أن يقوم بها ضده مغتصب العرش . وجاء « ديمترى المزيف » هذا — والذى لم يكن من السهل معرفة أصله — إلى سيجسموند ، بحثا عن التأييد . ولكى يحصل لنفسه على امكانيات نجاح أكبر ، فإنه تحول سرا إلى الكاثوليكية ، أمام أحد مندوبى البابا . وبدأ فى عملية استعادة امبراطوريته ، مع بعض فصائل الفرسان من المغامرين البولنديين ومن القوازق ، والتى انضم اليها بعد ذلك بعض التتار ، وكانوا يعملون فى السلب والنهب . ورحبت أغلبية الروس بهذا الوريث القيصرى ، والذى يمثل الاسرة الشرعية . ورغم هزائمه العسكرية ، فإنه كاد ينتصر فى الوقت الذى اختفى فيه جودونوف فجأة فى عام ١٦٠٥ : ودخل موسكو بين تهليل الأهالى .

ولقد ظل سيجسموند ، وبكل حكمة ، بعيدا عن هذه المسألة، وبعد ذلك طالب بثمن الخدمات التى قدمها لديمترى . فطالب بالحصول على تحالفه ضد السويد ، وكذلك بالتخلى له عن الاقاليم التى كانت فى الماضى تابعة لليتوانيا . ولكنه فقد كل فرص نجاحه حين صمم على تسميته باسم « الأمير العظيم » وليس باسم « القيصر الذى لايهزم » . وفى أثنا ذلك الوقت ، فقد ديمترى هيبته أمام رعاياه حين تزوج احدى البولنديات، وكانت كاثوليكية . وجاءت أعداد ضخمة من البولنديين مع القيصره الجديدة . للاحتفال بتتويجها . وكان وجودهم فى العاصمة ،وبداية ظهور الشكوك فى ثقة العلاقة الودية بين القيصر وبين اليسوعيين، كافية لغضب الرأى العام ، وفى الإسهام فى ضمان نجاح احدى المؤامرات: فإغتالوا ديمترى فى قصره يوم ٢٧ مايو ١٦٠٦ .

وكان وصول الأمير باسيليوس شويسكى ، رئيس المتآمرين إلى الحكم

يتضمن معنى الوصول إلى حالة من الفوضى ستستمر لمدة سبع سنوات . وظهر أحد المنافسين بسرعة ، ولعب بدوره نفس الدور الذى كان « ديمترى المزيف » قد لعبه من قبل : وتوصل إلى تحالف مع القوزاق ، الذين سيفيدون من هذه الظروف لإشباع غرائزهم فى السلب والنهب . وإستلم ملك بولندا من جانبه ، مفاتحات من إحدى مجموعات السادة التى وافقت على أن يكون إبنه ، لاديسلاس ملكا عليهم ولكنه كان دائما حذرا ومترددا . ولم يقرر أى شىء فى هذا الموضوع إلا فى عام ١٦٠٩ . أما شويسكى فإنه إضطر ، ولكى يواجه حركة الغزو ، إلى أن يلقى بنفسه بين ذراعى ملك السويد ، وحصل منه على فرقة من خمسة آلاف جندى . وبينما كان سيجسموند يحاصر سمولنسك ، تمكن أحد قواده ، وبمساعدة القوزاق ، من أن ينتصر انتصارا حاسما على الجيش الروسى السويدى فى كلوشينو فى شهر يوليو ١٦١٠

وبعد أن قام الروس بعزل شويسكى ، وعاد حلفاؤه إلى السويد ، أصبح الطريق مفتوحاً أمام الاطماع البولندية . وقام احد ممثلى سيجسموند بالتوقيع مع موسكو على اتفاقية وعدت بتقديم التاج إلى لاديسلاس ، وبشرط أن يتحول إلى المذهب الارثوذكسى . وكان هذا منعطفاً غير متوقع . فرفض سيجسموند التصديق عليها ؛ وكان يرغب فى أن يكون ، هو نفسه ، القيصر . وفى أثناء ذلك الوقت دخلت قوات بولندية ، وكانت تصحبها من جديد بعض قوات من القوزاق ، إلى داخل مدينة موسكو . ولم تكن علاقاتهم مع الأهالى جيدة لفترة طويلة . وفى عيد الفطاس ، فى ربيع عام ١٦١١ ، قامت هذه القوات بإستخدام كل العنف فى القضاء على حركة تهديد بقيام ثورة ، واحرقوا نصف المدينة . ومنذ ذلك الوقت ، لم يكن من الممكن طرح مسألة وجود ملك بولندا . وشحن الشعور القومى ضد الغزاة ، وضد الأعداء الدائمين . وتبلور الموقف فى

ضرورة تخليص موسكو، وبدأوا فى تنظيم المقاومة . وحين حاول سيجسموند، فى آخر الأمر أن يسيطر على الموقف ، ويعيد إبنه ، أجبرته العداوة التى قابلها على أن يسرع بالعودة إلى بلاده .

وكان السويديون ، هم كذلك قد قدموا مرشحا من جانبهم ؛ هو أحد ابناء ملكهم . وكانوا قد نزلوا من جديد ، وتقدموا حتى نوفجورود ، بينما كان البولنديين والقوزاق لايزالون يسيطرون على موسكو وعندئذ ، وفى شهر يوليو عام ١٦١٣ ، اجتمع مؤتمر من ممثلين ورؤساء من جميع انحاء روسيا ، وأعلنوا اختيارهم للشاب ميخائيل رومانوف وكانت الحامية الأجنبية فى الكرملين قد إضطرت إلى التسليم ، وإلى الإنسحاب . وسيعمل القيصر الجديد ، والذى سيؤسس أسرة حاكمة جديدة ، على تجميع الروس حوله ، وعلى تحرير البلاد بشكل نهائى من الغزاة .

وهكذا نجد أنه فى شرق أوربا وفى غربها ،فى المجر وفى الاراضى المنخفضة. إنتهت حرب لم تكن تؤدى إلى شىء، عند بداية القرن السابع عشر، وإنتهت بهدنة طويلة المدى .

وكانت هناك مصالح عديدة متداخلة فى منطقة حدود المجر والدولة العثمانية . وستكون أسباب العمليات الحربية ، والتى ستنشأ بدافع من رئيس وزراء محب للحرب. وتبدأ فى عام ١٥٩٢ بين جيوش السلطان مراد الثالث(١٥٧٤-١٥٩٥) وجيوش الامبراطور رودلف الثانى (١٥٧٦ - ١٦١٢) . تعتمد على خريطة لتنافس بولندى نمسوى حاد فى الأقاليم الدانوبية . وذلك فى الوقت التى كانت البابوية تعمل فيه ، وبلاجدوى ، على تجميع مجموعة من المحالفات الكاثوليكية ضد الاسلام .

ولقد رحب البولنديون بالإقتراحات الرومانية . وأكدوا أنهم كانوا

مستعدين للبدء فى الحروب المقدسة ، ولكنهم كانوا يخشون من أن يتحملوا كل أعبائها ، وطالبوا بالحصول مسبقا على اشتراك اسبانيا فيها . ولكن فيليب الثانى كان مشغولا للغاية بشئون فرنسا ، وظل يطلب المهلة بعد المهلة . وتم فى عام ١٥٩٦ مناقشة المسألة مرة جديدة فى دوايت وارسو ، وفى حضور مندوب عن البابا ، ودائما دون التوصل إلى نتيجة . ذلك أن فيليب كان يحاول فى ذلك الوقت أن يقبض ثمن المعونة التى سيقدمها. وكان الثمن الذى يطالب به هو تأييد البولنديين له ضد انجلترا وضد الاقاليم المتحدة .

وكانت المملكة البولندية فى ذلك الوقت تهتم بنوع خاص بالاقاليم الدانوبية. وكانت فى صراع أزلى مع التتار الذين كانوا يهاجمون ويخربون حدودها الجنوبية الشرقية ، فأفادت من تدخل هؤلاء فى البغدان ، لكى تتوغل بدورها هناك ، وتنصب أحد رجالها كأمير هناك . وسرعان ماحصل هذا الأخير على عداوة جاره،ميخائيل الشجاع، أمير الافلاق ، وعميل النمسا . وسرعان مانشبت الحرب بينهما .

وفى أثناء ذلك الوقت كانت العمليات العسكرية فى المجر قد انعطفت بطريقة تتمشى مع مصالح النمسويين إبتداء من عام ١٥٩٥،حين قام سيجموند باتورى، أمير ترانسيلفانيا ،بالتخلى عن التحالف الذى كان قد أصبح تقليديا مع العثمانيين، وتقرب من أسرة هابسبورج ، بالمعاهده التى تم التوقيع عليها فى براغ ،وتزوج إحدى بنات عم الامبراطور . وكان الانتصار الكبير للقوات النمسوية فى المجر يرجع إلى معونة قوات باتورى لها .

وفى السنوات الأخيرة من القرن جذبت إنتصارات ميشيل الشجاع (١٥٩٣ — ١٦٠١) إنتباه أوروبا إلى الأفلاق ، بنفس الطريقة التى كانت انتصارات إيتيين الكبير ، منذ مائة عام ، قد جعلت العالم يعرف اسم البغدان .

ولكى لايخضع لمطالب السلطان ، إدعى إنه يدفع له ديوان اسلافه ، ثم قام ميشيل بعد ذلك بعقد تحالف مع سيجسموند باتورى ، ثم بعد ذلك بقليل بإعلان الحرب ضد العثمانيين . ولقد عمل البابا كليمنت الثامن على تشجيعه ، وأقام احدى الصلوات فى روما فى عام ١٥٩٥ عند وصول الاخبار بإستعادته لبوخارست ، العاصمة ، وبأنه قام بطرد قوات الصدر الأعظم إلى ماوراء نهر الدانوب . ولقد تدخل بعد ذلك فى الشئون الداخلية لترانسيلفانيا ، وحيث كان سيجسموند باتورى قد تنازل عن العرش ، وحيث كان احد الاحزاب النمسوية وأحد الاحزب العثمانية مشتبكين مع بعضها ، وتمكن فى عام ١٥٩٩ من غزو الامارة . وعندئذ ، تمكن سيجسموند من أن يحصل على تدخل من جانب بولندا . وكان البولنديون يطمعون دائما فى السيطرة على اقاليم البغدان، وكانوا قد حاولو استغلاهم الاحداث الأخيرة فى صالحهم . ولكنهم ، قبل أن يتموا تكوين جيشهم ، شاهدوا سحق هذا الجيش . وتمكن ميشيل من أن يلقب نفسه بلقب « أمير الافلاق ، والبغدان ، وترانسيلفانيا » فى عام ١٦٠٠ ، وبدأ بعد ذلك الحرب ضد البولنديين ، الذين كانوا قد دخلوا إلى البغدان باتفاق مع سيجسموند باتورى. ولم ينجح إلا نتيجة لمساعدة القوات الألمانية التى كان الامبراطور قد أرسلها اليه ، ثم اختلف مع باستا ، قائد قوات الامبراطور والذى إدعى ضروره ممارسته للقيادة كاملة . وتمكن هذا الأخير من اغتياله فى شهر أغسطس عام ١٦٠١ . وعندئذ عادت ترانسيلفانيا ، مؤقتا ، إقليما مجريا ، تحت إدارة أحد الحكام العموميين .

وعلى حدود المجر ، ظلت الحالة ، فى السنوات الأولى من القرن الجديد ، غير واضحة . وكان رودلف قد دعم جيشه بمجموعات وفرق من الفالون ، والاسبانيين ، دون أن يؤدى ذلك إلى التعاون بينهم وقت العمليات . ثم أعطوا

القيادة إلى أحد الفرنسيين ، وهو دوق مير كير ، والذى كان قد احضر معه مجموعة صغيرة من المتطوعين . وهذا التدخل الفرنسى ، والذى سيشكو منه السلطان مراد الملك هنرى الرابع قد قام بأعمال رائعة. ولكن مير كير توفى فى عام ١٦٠٢، وأخذ نجم العثمانيين يسير مع الإنتصار .

وكانت مسألة مولدافيا قد أدت إلى توتر شديد بين البولنديين وبين النمسويين ، وفشلت كل المجهودات من أجل القيام بحرب مقدسة . ومع ذلك فحين قام ملك بولندا ، الذى أصبح أرملا ، بالتزوج من جديد من أرشيدوقة نمسوية ، هى أخت زوجته ، فإن العلاقات تحسنت بين فينا وبين وارسو . وفى عام ١٦٠٥ . كانت انجلترا جيمس الاول مشغوله بشأن مصالح تجارتها فى بحر البلطيق بكسب ودبولندا ، فعملت على أن تحصل لها من حكومة القسطنطينية على شروط مقبولة . ولذلك فإن الحرب على الدانوب سوف تنتهى فى زيفا — (١١ نوفمبر ١٦٠٦) بمجرد هدنة بسيطة ، كما هى العادة . وظل السلطان يحتفظ، فيما وراء بودا بمدينة جران ؛ ولكنه تنازل عن الجزية التى كانت أسرة هابسبورج تدفعها له ، وكانت لهذه الفقرة الأخيرة أهمية كبرى ومدى بعيد من الناحية المعنوية حتى أنه كان يمكن ، رغم المظاهر ، إعتبار أن النمسويين كانوا هم المنتصرين الحقيقيين . ولقد إضطر رودلف إلى أن يترك الاستقلال الداخلى لترانسيلفانيا ينمو من جديد تحت « أمير » جديد ، هو إيتيين بوشكاى ، الذى كان مجلس البلاد قد اختاره . ولكن المعاهدة التى عقدها معه فى فينا ، فى ٢٣ يوليو ١٦٠٦ ، إحتفظت كاملة بتلك العلاقات التى كانت منذ نصف قرن توحد هذه الأمارة مع المجر الملكية .

٥ - الامبراطورية العثمانية وبقية الدول الاسيوية :

فى هذا القرن الذى ظل فى أثنائه العالم المسيحى منقسما على نفسه بالحروب

الدينية ، إستمرت آسيا الاسلامية فى تسجيل النجاح . وبعد أن كان الإسلام قد إستقر ، منذ وقت بعيد ، فى الشمال الغربى لشبه الجزيرة الهندية ، وفى كشمير ، وفى البنجاب ، بدأ الآن فى التوغل فى الهند الصينية ، وحتى إقليم يونان الصينى . وبدت قوة توسعه على أنها سلمية ، رغم أنه كان ، هو كذلك ،قد خضع لعمليات إنشقاق داخلية . وفى مقابل التعارض بين المذهب الكاثوليكى ، والمذهب البروتستانتى ، يمكننا أن نرى ذلك العارض القديم ، ولكنه لا يزال حياً ، بين المذاهب السنية ، وبين المذاهب الشيعية . ولقد أثر ذلك بنوع خاص على مصير فارس .

وكانت دولة « الشاة » هى أهم دولة نتجت عن تقسيم تلك الامبراطورية التى كان تيمور الأعرج قد أسسها فى القرن الرابع عشر . وتحت حكم أسرة الصفويين ، والتى بدأت قرب عام ١٥٠٠ ، مع الشاة إسماعيل ، والتى إستمرت حتى عام ١٧٢٢ ، عرفت فترة كاملة الإزدهار ، وكان الايرانيون ، على العكس من جيرانهم الاتراك ، وهم شعب من المقاتلين وبدون ثقافة ، لهم حضارة كبيرة وقديمة ، يشعر باشعاعها كل جيرانهم . ويمكننا أن نقارن ذلك الدور الذى قامت به فارس فى هذه الفترة فى آسيا الوسطى ، بلغتها وبفنها ، بالدور الذى قامت به إيطاليا فى عصر النهضة فى أوروبا .

وكان الاتراك والايرانيون يكرهون بعضهم ، ولا يتوقف القتال بينهم . ولقد كانوا مسلمين ، ولكنهم كانوا إخوة أعداء . وكان الاتراك يدينون بالمذهب السنى ، ويعلنون أن مذهبهم هو الحق . وكانوا لايثقون فى أبناء المذهب الشيعى . وكانت الدول المسيحية تميل إلى الإفادة من مثل هذا العداء . فكما كانت فرنسا ، فى عهد ملوك أسرة لافالوا تسعى إلى التحالف مع العثمانيين ، لكى تطوق بهم أسرة هابسبورج من الخلف ، كانت أسرة هابسبورج تحاول

عقد علاقات مع الإيرانيين لكي تجبر العثمانيين على البقاء بدون حركة ضدها ، فى آسيا . ومنذ عام ١٥١٨ ، قام الملك لوى الثانى ، ملك المجر ، بالكتابة إلى « الصوفى » الشاة إسماعيل . وبعد موقعة موهاك ، طلب شارل الخامس علنا من خليفته ، الشاة تاماسب ، التدخل . ولكن المسافة كانت طويلة للغاية ، وبشكل لا يسمح بتنظيم عملية تعاون فعالة . هذا علاوة على أن العثمانيين كانوا هم الأكثر قوة . وكان الشاة أسماعيل ، الذى كان قد إنهزم أمامهم فى موقعة جالديران (١٥١٤) بقيادة السلطان سليم ، قد إضطر إلى التخلى عن حوض الفرات الأوسط . وإضطر الشاة تاماسب ، بمعاهدة أماسيا (١٥٥٥) إلى التخلى نهائياً عن الأراضى العراقية .

وبدأت حرب جديدة فى عام ١٥٧٨ . وكانت المفاتحات قد جاءت فى هذه المرة من إسبانيا — إسبانيا فيليب الثانى — ومن أجل عقد تحالف ضد العثمانيين . ومن جانبه ، قام الشاه بارسال سفراء إلى البابا وإلى الأمراء المسيحيين من أجل تشجيع سياسة الحروب الصليبية . ولكن الجيوش الفارسية لم تقدر على الحصول على إنتصار : فتراجعت الحدود فى جورجيا وفى آذربيجان ، وجاء عقد معاهدة القسطنطينية ، فى عام ١٥٩٠ لكى يقرر أمر فقد تبريز . وفى عهد الشاه عباس ، (١٥٨٧ — ١٦٢٨) ، وهو من أعظم ملوك هذه الأسرة ، أعطى كل إهتمام للجيش ، وأحضر ، من أجل إعادة تنظيمه بشكل حديث ، إثنين من الانجليز ، هما الأخوين شيرلى ، واللذان تمكنا من ادخال فن صب المدافع فى إيران . وأرسل أحدهم ، وهو أنتونى شيرلى ، أحد عظماء القصر ، إلى مهمة فى فيينا وفى اسبانيا فى عام ١٥٩٩ . ولكنهم لم يتخطوا ، من جديد ، مرحلة الكلمات الحلوة ، رغم أن الحرب كانت قد اشتعلت من جديد على طول الحدود العثمانية الفارسية ، ورغم أنه كان فى وسع الشاه أن يعلن عن إنتصارات واضحة .

وارسلت سفارة جديدة ، مع روبرت شيرلى ، إلى أوربا ، فى أثناء عام ١٦٠٩ وكانت هذه السفارة استجابة للمفاتحات ، المغلقة ، والتى كان قد تقدم بها أحد مندوبى البابا بول الخامس : وكانت نتائجها ، مثل غيرها ، مخيبة للامال . فعلى العكس مما كان فى وسع الإسيويين أن يتصوروه ، تعد البابوية هى التى تسير السياسة الخارجية للدول الكبرى المسيحية .

وبينما كان الصفويون يبنون فارس الحديثة ، قام الشيبانيون باقامة دولة قوية فيما وراء النهر . وكان محمد شيبانى ، مؤسس الأسرة الحاكمة فيها ، قد هزم حلفاء تيمور ، أو « التيموريين » ، والذين كانوا لا يزالون يحكمون فى خيفا ، وفى هيرات (١٥٠٦ — ١٥٠٧) . وكان بطلا من ابطال المذهب السنى ، ودخل فى حروب مع جاره الشاه إسماعيل ، وتوفى بعد معركة خسرها قرب ميرف ، فى عام ١٥١٠ . وكانت هناك حروب أخرى ، فى أثناء نفس القرن ، بين الايرانيين وأزابكة ما وراء النهر . وغيرت الحدود مكانها أكثر من مرة بين بحر قزوين ، وبين نهر عمور .

وكان أحد الأحداث الكبرى للقرن يتمثل فى ظهور امبراطورية جديدة فى الهند ، وكانت من أصل أجنبى مثل الامبراطوريات السابقة لها . فبعد أسرة أفغانية من أصل تركى ، جاءت فى عام ١٥٢٦ أسرة السلطان بابر ، أحد أحفاد تيمور ، أى التيموريين ، والذى سنسميه « سلطان المغول » . وورث خلفاؤه اللقب : وأصبح إسم « مغولى » ، فى الغرب يدل على السلطان ويدل فى نفس الوقت على بلادة .

وأمضى بابر ، السلطان الوراثى فى فرغانة ، فى التركستان ، حياته فى الحروب . ولما كان محدوداً إلى الغرب بجيران أقوياء للغاية هم الصفويون

والشعيبانيون ، فإنه وجه مجهوداته صوب الشرق ، وصوب الجنوب . وبدأ فى أول الأمر بالسيطرة على أفغانستان ، واستقر فى كابول ، فى عام ١٥٠٦ . ومن هناك ، بدأ فى الإعداد لغزو الهند ، والتى كانت تحكمها أسرة لودى ، والتى كانت تسمى كذلك نسبة إلى إسم قبيلة أفغانية قديمة كانت قد خرجت منها . وبعد أن عبر البنجاب ، اتفق مع أحد كبار أتباع سلطان لودى فى دلهى . ونتيجة للمدفعية القوية التى كان قد تمكن من تزويد جيشه بها ، حصل على إنتصار حاسم فى بانيبات ، فى شهر أبريل ١٥٢٦ . وسرعان مايقيم فى دلهى . وبعد ذلك ، وفى حملة عسكرية استمرت لمدة ثلاثة أشهر ، تمكن من إعادة إنشاء الامبراطورية الهندية السابقة ، من الهمالايا إلى الدكن الشمالية ، ومن أفغانستان إلى البنغال . وقرب حدود المنطقة التى إعترفت بسيطرته ، أصبحت أجرا محل إقامته المفضل . ولكن الهندوس ، فى غالبيتهم العظمى ، لم يوافقوا بسهولة ويقبلوا هؤلاء السادة الجدد . ولم تكن عملية الفتح قد تمت بعد، فى الوقت الذى توفى فيه بابر ، فى عام ١٥٣٠ ، وله من العمر سبعة واربعين عاماً .

وكاد تاريخ الامبراطورية الجديدة أن يتوقف عند موت مؤسسها . ذلك أن أبنه الذى خلفه ، هزمه أمير البنغال فى عام ١٥٤٠ ، وأجبره على ترك الهند ، التى لم يعد إليها بعد خمسة عشرة عاماً إلا بمساعدة الشاه تاماسب ، شاه الفرس والذى كان يحلم بالتحالف معه ضد حكام أزبك ، ويحاول أن يحوله إلى المذهب الشيعى . وبعد أن عاد إلى دلهى فى عام ١٥٥٥ ، توفى فى العام التالى وترك امبراطوريته كاملة لابنه ، السلطان أكبر .

ويعتبر أكبر (١٥٥٦ — ١٦٠٥) أحد الشخصيات الضخمة فى تاريخ الهند . ولقد امضى حياته كلها فى داخل شبه الجزيرة . ومد سيطرته فى كل الاتجاهات ، صوب الشمال على كشمير ، وصوب الشرق على البنغال ، وصوب الجنوب على

جزء من هضبة الدكن حتى جودافيرى ، وصوب الغرب على راجبوتانا ، وكان الإستيلاء على جواجيرات ، فى عام ١٥٧٢ يعطى إمبراطوريته نافذة على البحر ، ويجعله يتصل بالبرتغاليين فى صورات . ولكن طموحات أكبر كانت قارية فقط . فلم يفكر فى أن يعارض الاوروبيين فى ممتلكاتهم البحرية التى سمحت لهم باحتكار التجارة الخارجية للهند . واتبع خلفاؤه نفس السياسة ، وإن كانت صورات قد ظلت هامة بالنسبة لهذه : إذ أنها كانت الميناء الرئيسى لسفر المسلمين للحج .

وبينما كانت للصراعات موجودة فى جنوب غرب القارة ، عرف شرق القارة هدوءاً نسبياً .

فكانت الصين هى أكثر الدول الأسيوية ضخامة والأكثر إتساعا والأكثر عدداً . ولكنهم لم يتحدثوا عنها كثيراً فى مناطق العالم المختلفة . ذلك أنها كانت مسالمة . وإذا كان هناك شعب من الشعوب يمكننا أن نقول بأنه لم يقم أبداً إلا بحروب دفاعية — وعلى الأقل فى فترة التاريخ الحديث — فهو بكل تأكيد الشعب الصينى ، ففيما وراء تلك الحدود الطبيعية من الصحارى وسلاسل الجبال — والتى يؤيدها إلى الشمال الغربى ، وهى الناحية التى كانت التى مهددة أكثر من غيرها ، سور الصين العظيم ، ظل الصينيون مرتبطين بالأرض التى كانوا يزرعونها منذ آلاف السنين ، ولا يطمعون فى الاراضى الموجودة لدى جيرانهم . ولم يكن رؤسائهم قد تعودوا ترك بلادهم ، إلا إذا ماكان ذلك لدفع إعتداء ، أو لضمان وضعية الدول التابعة أو الصديقة ، والتى كانت تكون حزاما حول الصين ، ولكى يحميها .

وكانت دولة الصين قد ظلت لفترة طويلة خاضعة لحكم المغول ، ثم حصلت على إستقلالها عند أواسط القرن الرابع عشر مع أسرة مينج ، التى ستحكم خلال

فترة تقرب من ثلاثة قرون . وتغيرت عاصمتها من نانكين إلى بكين ، وحيث كان من الأكثر سهولة حمايتها ضد الهجمات المتتالية للقبائل المغولية المجاورة . وكانت أكثرها شراسة هي تلك القبائل التي تسكن سهلى أوردو . وفى الربع الثانى من القرن كانت غاراتهم مستمرة . ووصلت فى عام ١٥٥٠ إلى بكين نفسها ، وأحرقوا أحيائها الخارجية . ولم يصلوا إلى صلح دائم إلا فى عام ١٥٧١.

وتحت حكم نفس الامبراطور ، وهو الحكم الطويل للامبراطور وأن لى (١٥٧٣ - ١٦١٩) بدأ اليسوعيون فى التوغل فى الصين ، وتم إستقبالهم كما ذكرنا من قبل فى بلاط بكين .

ورغما عن واجهتها البحرية الطويلة ، المطلة على المحيط ، فإن الصين لم تكن دولة بحرية . وهنا أيضاً ، كما كان عليه الحال بالنسبة للحدود البرية، كانت الصين تأخذ موقف الدفاع : فكانت تحمى قدر طاقاتها تجارتها ضد عمليات القرصنة التى كان يقوم بها اليابانيون أو بحارة ماليزيا . ومن حيث المبدأ لم يكن يسمح بأى صينى بالقيام برحلات بعيدة فى عرض البحر . أما التجار الذين كان الاوربيون يقابلونهم على سواحل الهند الصينية ، وسيام أو ماليزيا فانهم كانوا ، فى نظر القانون مهربين . أما فيما يتعلق بالاجانب ، فإنهم تروغلوا شيئا فشيئاً فى بعض موانى الصين ، وبشرط خضوعهم لكل نوع من إجراءات الحظر . فلأول وهلة لم يكن هناك مايعارض مجىء الاوربيين حين كانوا يظهرون فى بحار الشرق الأقصى . ولكنه بعد ذلك ، ونتيجة لأعمال العنف التى مارسها أول وصل ، وهم البرتغاليون ، إضطر الصينيون إلى تغيير موقفهم بالنسبة للاجانب . ومنذ ذلك الوقت ، أصبح الشياطين الاجانب، ودبابرة الغرب، موضع حذر وخوف وحتى عداء الصينين .

أما اليابان فإنها كانت تعيش حروب أهلية مستمرة ، فأغلقت على نفسها فى عزلة فى جزرها . ولم تتمكن السلطة العامة من أن تجبر القراصنة على إحترامها ، وكان جيرانها الصينيون لايكفون عن الشكوى منهم . وكانت عملياتهم ، وإجراءات القمع التى كانت الصين تتخذها ضدهم ينتج عنها قطع العلاقات لفترات متفاوتة بين الحكومتين .

ولم تأخذ الدولة اليابانية مكانتها بين الدول إلا حينما تمكن أحد قادتها وهو هيديوشى ، فى عام ١٥٨٥ من أن يستولى على السلطة ؛ وكان يتميز بالنشاط ، وبالطموح أكثر من سابقيه ، وبعد أن قام بتأديب سادة الأقاليم ، ونشر السلام فى أرجاء الامبراطورية ، أرسل أولى الحملات ضد كوريا فى عام ١٥٩٢ . وقام سادة كوريا ، الذين كانوا يعترفون بسيادة الصين عليهم بالتوجه إلى بكين . ولقد تم بمساعدة جيش صينى ابعاد الغزاة عن سيول ، ودفعهم حتى الساحل . وكانت الحملة الثانية فى عام ١٥٩٧ أقل نجاحا من الحملة الأولى . وعند وفاة هيديوشى ، تخلوا عن مشروعاته ، وسحبوا القوات اليابانية . وتم عقد الصلح فى عام ١٦١٥ ، واحتفظت اليابان بميناء فوسان .

وكان هيديوش قد فكر فى إنشاء بحرية قوية . وكان قد إعتقد فى أنه سيجد كل معونة من جانب الاوروبين ، البرتغاليين أو الأسبانيين ، الذين كانوا يتاجرون فى موانى اليابان بكل حرية . ولكن سرعان ماخابت أماله فيهم ، فبدأ فترة من إضطهاد المسيحيين وأعوانهم . وكانت سياسيه الخاصة بالتوسع تحركها دوافع تجارية بنوع خاص . وأصبح اليابانيين فى ذلك الوقت على علاقات تجارية مع كل عالم الشرق الاقصى . وفى تنافس مع البرتغاليين ، وبعد ذلك مع الهولنديين ، سيقيمون فى فورموزا ، ثم يجبرون سيام على أن تمنحهم تميزاً فى التعامل .

وكانت الهند الصينية بنفس الطريقة مسرحا لصراعات داخلية فى هذه الفترة . وكان امبراطور آنام يحكم أكثر دولها قوة . وكان مثل غيره من حكام شبه الجزيرة يدفع الجزية للصين ، والتى كانت قد قامت مرات عديدة فى الماضى ، ومرة أخيرة فى القرن الخامس عشر ، باحتلال البلاد وكانت بكين تعتبره خاضعاً لها ، وترسل له المراسيم التى تسمح له بممارسة السلطة . ولكن فى الواقع لم يكن هناك أى شىء يحد من إستقلاله . هذا علاوة على أن البلاد كانت ممزقة بالصراعات الداخلية . وفى عام ١٥٢٧ ، بنوع خاص ، مرت السلطة إلى أيدى أحد المغتصبين ، الذى حكم فى تونكين ، بينما استمرت الأسرة الحاكمة السابقة فى الاحتفاظ بسلطتها على الاقاليم الجنوبية . ولم تنته هذه الأزمة إلا فى السنوات الأخيرة من القرن . وأعادت هذه الاسرة السابقة ، وهى أسرة لى سيطرتها على البلاد . ولكن مثلهم فى ذلك كان يشبه مثل أباطرة اليابان ، ولم تعد سلطتهم إلا إسمية : فتخلوا عن حقيقة السلطة إلى إحدى الشخصيات الكبيرة ، والتى بدأت كذلك فى إعطاء هذه السلطة لأسرتها عن طريق الوراثة . وعلاوة على ذلك ، فقد نشأت إمارة فى أقاليم الجنوب ونجحت فى أن تحصل على إعتراف بإستقلالها الذاتى ، وأصبحت لها عاصمة فى هوى ، بينما ظلت الأسرة الحاكمة ، وبدون سلطة ، تحكم فى هانوى . وفى خلال كل هذه الفترة لم يكن للاوربيين إتصالات كبيرة مع أهالى الهند الصينية . وكانت التجارة البحرية فى أيدى اليابانيين . أما فيما يتعلق بأعمال التنصير ، فإن مناخ الحروب الأهلية لم يكن يسمح بالبدء فيها . ولم يظهر رجال التنصير ، اليسوعيون فى الهند الصينية إلا فى عام ١٦١٥ : ولاشك فى أنهم كانوا ينتمون إلى نفس المجموعة التى كانت قد طردت من اليابان فى العام السابق .

أما بورما ، فانها كانت تمثل مركز دولة متوسعة ، سميت بإسم عاصمتها ،

مملكة آفا . وفى أثناء القرن السادس عشر ، أعطت هذه الدولة نفسها واجهة بحرية إلى الغرب : ولفترة طويلة سيكون هذا الجزء من البلاد هو الذى يعرفه الأوربيون . وفى منتصف القرن ، قام أبناء بورما بحروب متتالية مع جيرانهم من سيام والذين كانوا يكونون كذلك مملكة مستقلة . ولقد ظلت عاصمة سيام فى أيدى أبناء بورما لفترة تقرب من إثنتى عشرة عاما . ومثل اليابان ، ظلت سيام تخضع للاجانب ، يابانيين أو أوربيين ، فيما يتعلق بعلاقاتها الخارجية .

وفيما بين آسيا الشمالية الشرقية وبين أوربا لم تكن هناك ، فى بداية العصور الحديثة ، علاقات تجارية منتظمة عن طريق البر . ذلك أن الطريق الذى كان ماركو بولو قد سلكه فى القرن الثالث عشر قد أغلق بغزوات المغول .

ولم تبق هناك نقط إتصال إلا قرب التركستان : فكانت بخارى ، وهى سوق كبير فى آسيا الوسطى ، تشهد مجىء التجار الروس أو الصينيين . وكان الأوربيون يذهبون اليها لشراء العنبر ، والذى كان يستخلص من حيوان جبلى صغير يعيش فى الشمال ، وكانت هذه المادة تحتل مكاناً هاماً فى هذه الفترة فى تركيب الأدوية فى الغرب ، وبعد أن قام الروس بطرد المغول ، أى بعد منتصف القرن ، ظهرت وزادت أهمية سوق آخر ، سوق روسى تماماً : وكان يقع على بحر قزوين ، وعند مصب نهر الفولجا ، وهو ميناء أستراخان ، والذى كان قريباً من سراى ، المركز التجارى للمغول . وكانت تصل إلى هناك ، وبعد عبور إقليم الإستبس ، القوافل الآتية من وسط ومن شرق آسيا . وهذه الحركة التجارية بالقوافل ستفقد الكثير من أهميتها ابتداء من الوقت الذى يبدأ فيه تيار منتظم للتبادل عن طريق البحر بين الصين وغرب أوربا . ويمكننا أن نقدر أن القيشانى ، بنوع خاص ، لم يكن يتحمل إلا بصعوبة عملية النقل على ظهور الجمال .

وإلى الجنوب ، وصوب حلب بنوع خاص لم يكف طريق القوافل عبر فارس والعراق عن أن يعمل . وكانت تصل عبره وإلى البحر المتوسط الحراير ، والسجاجيد ، والاحجار الثمينة ، آتية من فارس ، ومن التركستان أو من الهند. ومع ذلك ، فحين تشتد الحرب بين العثمانيين وبين الفرس ، فإن سوق الحراير سوف ينتقل إلى الجنوب أكثر من ذلك . وأصبحت جزيرة هرمز ، فى الخليج الفارسى هى مركز هذه التجارة ، وكان البرتغاليون قد إحتلوها فى عام ١٥٠٦ .

وبعد الحديث عن أوربا وآسيا ، كان من الواجب علينا أن نعطى مجالا لاجزاء العالم الأخرى . ولكننا شرحنا من قبل ، وبتطويل ، أوضاع أمريكا ، وشمالى أفريقية فى أثناء الحديث عن البحر المتوسط .

ويبقى أن نذكر بعض الشئ عن الدولة الافريقية ، والتى كانت ، علاوة على دول المغرب ، لها شكل الدولة المنظمة ، وهى إثيوبيا .

ولقد خرجت امبراطورية «النجاشى» فى القرن السادس عشر من الظلال التى كانت تكتنف تاريخها أثناء العصور الوسطى . ولم تعد بالنسبة للأوربيين هى «مملكة يوحنا الراعى» — وهو اسم لايعرف أصله ، وربما يرجع إلى تحريف فى اللغة الوطنية لكلمة تعنى السيد أو الملك . وكانت هذه الدولة تخضع لضرورة وحتمية الدفاع عن نفسها ضد جيرانها المسلمين ، ذلك أن الدين المسيحى كان قد دخلها فى عصر جستنيان ، واستمر هناك فى شكله الارثوذكسى ، ولذلك فإن كنيسة إثيوبيا كانت فرعاً من فروع الكنيسة «القبطية» فى مصر .

وحين ظهر البرتغاليون على السواحل الشرقية الافريقية وأخذوا فى مطاردة الملاحين العرب على المحيط الهندى ، شعروا بأن وحدة المصالح تقرب بينهم وبين هذا الشعب المعزول ، والذى يواجه عداء العثمانيين ، الذين كانوا قد إحتلوا مصر .

وتم الاتصال بينهم عن طريق ميناء مصوع ، على البحر الأحمر . وتم تبادل السفارات . وفى عام ١٥٤١ ، أرسل ملك البرتغال بضعة آلاف من الرجال إلى صديقه الجديد ، النجاشى . ولكن العثمانيين إحتلوا فى عام ١٥٥٧ ميناء مصوع ، فإنقطعت علاقات إثيوبيا بالخارج .

ومنذ ذلك الوقت لم تعد اثيوبيا تهم سوى الكرسى البابوى الذى كان يرغب فى إعادة المسيحيين الآخرين إلى المذهب الحقيقى ، بالنسبة له ، أى إلى اثيوبيا الكاثوليكى . وتمكن بعض اليسوعيين البرتغاليين من الوصول إلى اثيوبيا . وفى الوقت الذى احتل فيه العثمانيون ميناء مصوع ، كانوا قد وصلوا إلى غوندار ، العاصمة . ولقد بقوا هناك لمدة ثلاثة أرباع قرن . وقرب عام ١٦٢٥ ، بدا أن مجهوداتهم قد نجحت : فرسموا فى لشبونة أحدهم «بطريركا للحبشة» . ولكن سرعان ماظهرت حركة رد فعل قومية ودينية ؛ وأجبروا رجال التنصير الكاثوليك على ترك البلاد فى عام ١٦٣٣ .

الفصل العاشر

العلاقات الثقافية

يصعب علينا أن نترك قرن النهضة دون أن نلقى نظرة، حتى وان كانت سريعة، على التطور الثقافى لأوربا ، وبخاصة فيما يتعلق بعمليات التبادل بين الأمم الرئيسية التى تتكون منها القارة . ولاشك فى أنه كانت هناك وحدة ظاهرة للحياة الفكرية للعالم المسيحى فى العصور الوسطى . وكانت النخبة من مختلف البلاد تستقى من نفس منبع الثقافة . وكان الأساتذة والطلاب يتنقلون من جامعة إلى جامعة أخرى . ونتيجة لاستخدام اللغة اللاتينية ، لم يكونوا يشعرون بالغربة فى أى مكان . الأمر الذى يسمح لنا بالحديث عن حياة جامعية عالمية فى العصور الوسطى .

١ – الجامعات والاتجاه القومى :

وحينما قام أحد الكتاب الألمان ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، وهو إسكندر دى رويس ، ومن أجل جعل القوى الكبرى الثلاث الموجودة فى العالم فى ذلك الوقت ، تعيش فى وفاق فيما بينها ، إقترح أن يعطى البابوية القيادة الدينية ولألمانيا الإمبراطورية ولفرنسا المعرفة ، كان يطرح بشكل ضمنى ، ومن حيث المبدأ أنه فى هذه المجموعة فوق القومية والتى كان يحلم بها كل من يفكر ، يحصل التعليم ، مثله فى ذلك مثل السلطه الروحية والزمنية ، على قوة دفع واحدة . وأشاد بطريقته إلى تقدم جامعة باريس الذى كان معترفا به بشكل عام من الجميع .

وإبتداء من القرن الخامس عشر أخذنا نشاهد عملية مستمرة لإدخال الاتجاه القومى فى الجامعات : وهو حدث كبير ، يصطحب أو يسبق ، فى ذلك التطور

العام للمجتمع الأوربى ، عملية نشأة الدول القومية الكبرى وفى كل القطاعات، أظهرت الشعوب فى أكثر الأحيان وبشكل أكثر وضوحاً عن الماضى ، الشعور، وحتى الإعتزاز بفرديتهم ، الأمر الذى سيدعم هنا وهناك ، أمر إنضمامهم إلى عقيدة جديدة ومعارضتهم لكنيسة واحدة فيما مضى . ولم يكن فى وسع الدولة فى العصر الحديث أن تترك خارج سيطرتها تلك المراكز الهامة التى كان ينشأ فيها وينتشر منها الفكر . وكانت تدخل فى عملية تدريسه بطريقة واضحة أو مغلقة . وعلى العكس من الماضى ، لم تكن السلطات التى تعترف بها هناك بجرد حق حماية. ولقد جردوا الكرسى البابوى شيئاً فشيئاً من سلطته العليا التى كان يمارسها فى الماضى . وإستمر هذا التطور خلال القرن السادس عشر . وكان بطبيعة الحال أكثر سرعة فى البلاد التى انتشرت فيها مذاهب الاصلاح الدينى . وخضعت الجامعات القديمة هناك للسيطرة الكاملة للدولة ،ونشأت جامعات جديدة ، بتشجيع من الأمير أو من الدولة ، لكى تكون خداماً متواضعين لهم : وكانت هذه هى الحالة فى جنيف ، أو فى ألمانيا ، فى ماربورج ، وإينا وكونجسبرج .

ونشأت ظاهرات تتمشى مع العصر الحديث . ففى عام ١٥٢٤ قام الملك سيجموند ملك بولندا . بمنع رعاياه من الذهاب إلى الجامعات الأجنبية، إستناداً إلى خوفه من تأثرهم بالهرطقة . ونفس الإجراء أعلنه شارل الخامس فى أسبانيا فى عام ١٥٥٠ ؛ ولم تكن هناك إستثناءات مقبولة إلا من أجل جامعة نابولى .

وكان من نتائج هذه الحركة ذات اللون القومى ، وخاصة إذا ماأخذت شكلا عاماً ، أن تضع حدوداً تقسم أوربا من الناحية الثقافية ، بنفس الطريقة التى أدت بها إنشاء جمارك الدولة إلى التقسيم الاقتصادى الذى حدث فى العالم الأوربى فى نفس هذه الفترة . ولم يكن من السهل تغيير هذه العادات التى إستمرت لمدة قرون طويلة ، فكان حب المعرفة ، والرغبة فى التعلم ، أو رغبة المفكرين فى

نشر أفكارهم لاتتم إلا بدون حدود ثابتة للسيادة . وعلاوة على ذلك فأن اللغة اللاتينية ظلت هى لغة الثقافة وبالتالى لغة التعليم . وظل الطلبة يأتون من كل ناحية إلى تلك الجامعات ذات الاسماء الشهيرة ، أو التى تعودوا الذهاب إليها فى ذلك الوقت . وكانت حياة التنقل لاتزال تحتفظ بإغراءاتها أمام كل أولئك الذين أنهو دراساتهم ، واختاروا لانفسهم العمل فى مجال الآداب . ويمكننا أن نشير هنا إلى ذلك المثل العظيم ، للمواطن العالمى ، إرزم،أحد كبار المفكرين فى عصر النهضة . وكان يحتاج لجهود لكى يتذكر أنه ، نتيجة لميلاده فى روتردام ، يجد نفسه ، كما نقول من ، جنسية هولندية . ولقد أمضى حياته فى السفر ، بين الأراضى المنخفضة ، وانجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا . وظل فى كتاباته مخلصا للغة اللاتينية ، ولم يستخدم أى لغة حية .

ويمكننا أن نذكر مثلا آخر ، وهو مثل ويليام بوستيل ، العالم فى الدراسات اليونانية القديمة والدراسات العبرية القديمة ، والذى قطع أوربا الغربية مسافراً فى كل اتجاه ، مدرساً وناشراً مقالاته فى كل من باريس وروما والبندقية وفينا ، وذهب مرتين فى سياحة إلى شرق البحر المتوسط باحثا عن مخطوطات نادرة .

وحين أنشأ فرانسوا الأول ، على هامش جامعة باريس ، « الدراسات الملكية» والتى ستتحول فيما بعد إلى كوليج دى فرانس ، عين لها أساتذة من داخل المملكة ومن خارجها ، فى نفس الوقت . وكان بعض الاساتذه من لوكسمبورج أو من كولونيا أو تريف أو لوفان ، وكذلك من الفلمنكيين ، أو من الايطاليين ، من روما ، أو ميلانو ، أو فلورنسا . ولم تصبح كل الاماكن مشغولة بالفرنسيين إلا فى الجيل الثالث أو الرابع .

وكان الانتقال ، إلى حد بعيد مرتبط ، من بلد إلى أخرى ، ومن جامعة

إلى أخرى ، بمسألة القرب أو البعد عنها فكانت ألمانيا لا تجتذب إليها مجرد جيرانها من الغرب أو من الشمال . وكان هناك من الفرنسيين فى جامعات منطقة الراين ، مثل جامعة فريبورج بالنسبة للكاثوليكيين ، وجامعة هيدلبرج وغيرها بالنسبة للبروتستانتيين ، وفى عصر شارل التاسع عمل فقيهان شهيران، هما فرانسوا بودوان وفرانسوا هوتمان ، الواحد بعد الآخر فى تدريس القانون فى مدينة إستراسبورج الحرة وفى الأراضى المنخفضة الشمالية، حصلت جامعة ليدن، التى أنشأت فى عام ١٥٢٥ لكى تنافس جامعة لوفان . وبسرعة، على سمعة ضخمة فى العالم الذى تحول إلى مذاهب الإصلاح الدينية : وذهب إليها الكثير من الفرنسيين من أنصار كلفن . أما الألمان ، فإن بعضهم قد خرج من بلاده لكى يتصل بالحياة اللاتينية فى جامعات فرنسا وإيطاليا . وفى بداية القرن ، كانت أعدادهم كبيرة كذلك فى كراكوفيا . أما فيما يتعلق بالفرنسيين فأنهم لم يظهروا إلا نادراً فى أوربا الشرقية ، ولم يكن ذلك راجعاً إلى عدم الرغبة فيهم : ذلك أن ملك بولندا ، إيتيين باتورى ، الذى أنشأ أكاديمية جديدة فى كراكوفيا ، وجامعة فى فيلنا ، أرسل بدون جدوى فى عام ١٥٧٧ إلى أحد أساتذة الدراسات الانسانية الفرنسيين، وهو أنطوان موريت ، والذى كان يدرس فى روما منذ سنوات طويلة ؛ ونجح البابا جريجورى الثالث عشر فى الاحتفاظ به فى خدمته .

وهكذا كانت المبادلات مستمرة بين الأمم واستمرت الصلات الثقافية فى أن تتقاطع مع بعضها باستمرار لفترة من الزمن ، وهى فترة طويلة كانت وحدة التكوين ووحدة ثقافة الطبقات العليا تتدعم بذلك الانجذاب العالمى صوب الاتجاه الانسانى الإيطالى ، أو بدرجة أقوى صوب الحضارة الايطالية .

٢ - ايطاليا والاتجاه الايطالى :

فى الوقت الذى قامت فية القوات الأسبانية والبرتغالية بعملية غزو البحار

والقارات البعيدة ، عملت إيطاليا ، بقوة فكرها ، على توسيع إمبراطوريتها على كل أوربا القديمة . وليس من السهل كتابة تاريخ الفكر . وفى الغالب لايمكن تتبع هذا المصير بسهولة إلا فى المؤلفات المتعلقة بماضى إحدى الدول بنوع خاص أو التى لها علاقة بين دولتين متجاورتين . وحتى فى هذه الحالة ، والفريدة من نوعها ، والخاصة بإيطاليا ، فإن الدراسة لم تتم بعد . ولقد قام بوركهارت فى كتابه الكلاسيكى بعرض «حضارة عصر النهضة فى إيطاليا» . ولكن أحداً لم يقدم حتى الآن على معالجة بمجموع إنتشار الفكر والحضارة الايطالية فى عصر النهضة .

وهذا المركز القوى للثقافة والذى كان يشع صوب كل القارة ، هذه إيطاليا فى القرن السادس عشر ، لم يكن لها مركزاً وحيداً ، ولا حتى مركزاً رئيسياً . مركزاً فى روما . ولاشك أن أحد الكرادلة كتب إلى إرزم فى عام ١٥١٧ : «إن الكتاب يأتون مسرعين من كل ناحية إلى داخل هذه المدينة الخالدة ، والتى تعتبر بالنسبة إليهم جميعاً الوطن ، والمربية ، والحامية» . ولكنهم كانوا منجذبين إليها بواسطة ليون العاشر ، وهو بابا مستنير ، كان يضمن لهم المعاشات ، والحياة البارحة ، وعلى مستوى . وكان أولئك الذين يذهبون إلى إيطاليا من أجل التعلم يتوقفون فى مدن أخرى ، فى فلورنسا ، وبولونيا ، وبادوا ، وفرارا ، وبافيا .

وكانت بادوا ، تلك الجامعة الكبيرة التابعة للبندقية ، هى أكثر ما يجتذب الأجانب وكان ذلك يرجع للمركز الخاص الذى كانت تتمتع به جمهورية القديس مرقس ، وللاستقلال الذى كانت تظهره فى شئون الدين ، وكذلك فى الشئون الدولية . وفى مدينة البندقية ، كان الاتجاه الانسانى يجد ذلك المناخ الذي كان في حاجة إليه ، وكان العلماء يجدون فيها كل التسهيلات التى يرغبونها

من أجل نشرهم النصوص القديمة . وكانت المدينة متخصصة فى الطباعة . وكان آلد مانوس ، الاكثر شهرة قد احاط نفسه فيها بمجموعة من اللاجئين اليونانيين ، وأنشأ فيها مركزا كبيرا للدراسات اليونانية القديمة . ونزل فيها إرزم ضيفاً عليه فى عام ١٥٠٨ . ومن بعده ، إستمر إبنه ، بولى مانوس ، فى الاحتفاظ بنفس التأثير . وفى جامعة بادوا ، كان يتم التعبير بحرية عن كل الإتجاهات الفلسفية المختلفة . وكان إتجاه إبن رشد ، وهو الأب للفكر المتحرر ، يحتل فيها مكانة كبيرة . وإذا كان الطلبة الالمان قد ظلوا يشكلون فيها « جاليه » كبيرة العدد ، ولوقت طويل ، فإن ذلك لم يكن يرجع لمجرد كون طرق أوربا الوسطى الرئيسية تصب فى سهول البندقية . بل كان يرجع بنوع خاص إلى أن الاتجاه الحر الذى كان سائدا فى البندقية كان يحمى غير الكاثوليك ضد رجال الدين ، وضد محاكم التفتيش .

ولم تكن هناك بلاد أخرى مثلها ذات حضارة عالية . وتعتبر أن الدراسة فى الجامعات كضرورة . فمن بولندا ، كان الطلاب الشبان يقدمون إليها منذ القرن الخامس عشر . وكوبرنيكوس أتى إليها ، بعد أن درس فى جامعة كراكوفيا ، وأمضى فيها ثمانى سنوات ، ودرس فى بعض الأوقات الرياضيات فى روما . وسرعان ما تبعت الأرستقراطية كلها هذه الحركة ، تاركة كراكوفيا لأبناء الطبقة الوسطى .

أما بولونيا ، فأنها كانت أكبر جامعة لدراسة القوانين . ولكن الاتجاه الانسانى إزدهر فيها ، كما ازدهر فى كل مكان آخر ، فى بداية هذا القرن وأتى إليها إرزم لكى يعمق دراساته اليونانية القديمة . وكانت « الجاليه » الألمانية و « الجاليه » البولندية ، وكل منها ضخمة ، تتخاصمان مع بعضها هناك .

وتبع المجريون المثل الذى اعطاه لهم جيرانهم البولنديون ، وبخاصة حين أدت السيطرة العثمانية إلى إضعاف أو تحطيم مراكز ثقافتهم الرئيسية . وجاء الكثير منهم إلى بادوا ، وكانوا يحاورون فيها إيتيين باتورى ، ملك بولندا فيما بعد . وأتى كثير من الطلبة الفرنسيين إلى بافيا ، وبخاصة بعد فرض السيطرة الفرنسية على إقليم ميلانو . أما جامعة روما ، فكان طابعها إيطاليا أكثر من غيرها . ولقى فيها مارك أنطوان موريت ، والذى احتل فيها ، وعلى التتالى كراسى عديدة ، وبعد أن كان قد قام بالتدريس فى باريس ، وفى تولوز ، وفى بادوا ، بعض الصعوبات ، سواء من جانب السلطات البابوية،أو من جانب جمهور الطلاب .

ومن انجلترا ، كان يأتى بعض الأفراد ، ولكن بأعداد قليلة ، وكانوا يرغبون فى تعلم اللغة اليونانية ، وفى التمعن عن قرب فى المخطوطات القديمة التى كانت قد وصلت من الشرق :

أما فى فرنسا ، فإن السفر للدراسة فيما وراء البلاد قد أخذ فيها ، وبدرجة أكثر من أى مكان آخر ، شكل « المودة » وسيستمر هذا الانجذاب،والاعجاب صوب إيطاليا وبها ، وبسمائها وسكانها، والذى كان قد بدأ فجأة بعد عام ١٤٩٤ ، طوال كل القرن السادس عشر . وسيتحدث دائماً هؤلاء الوافدين عن شعب ايطاليا « اللطيف » ، و « اللذيذ » ، والذى أمضوا معه جزءا من سنوات شبابهم . وربما يكون من المغالى فيه أن تدعى أن كل أولئك الذين ظهرت أسمائهم فى ميدان الآداب فى هذه الفتره كانوا قد ذهبوا للتزود فى إيطاليا بيتا بيع الدراسات القديمة التى كانت قد بدأت فى التفجر من جديد ، واستمعوا إلى دروس أكبر الاساتذة فيها . وعلى أى حال ، فإن القليل من بينهم هو الذى لم يقم بهذه الرحلة . وكانت هناك حركة جماهيرية حقيقية ، وهى التى جرت

وورائها الطبقات العليا صوب جبال الألب . وكان رجال البرلمانات يرسلون اليها أبنائهم ، وبخاصة إلى بولونيا ، لكى يحصلوا منها على درجة الدكتوراة . أما رجال المجتمع فانهم كانوا يطلبون إلى ايطاليا أن تعلم ابنائهم ، علاوة على المعارف التى تتفوق فيها ، فى كل ما يتعلق بالرقة ، ورشاقة حياة المجتمع .

وبعد أن استمرت حياة الجامعات الإيطالية لفترةطويلة تتزود بمجىء الطلبه الاجانب ، ظهر عليها نوع من التقهقر فى الفترة التى تلت مجمع ترانت . ذلك أن الكنيسة كانت قد اتخذت إجراءات لإبعاد كل من لم تكن عقيدته سليمة وجاء المرسوم البابوى الصادر فى عام ١٥٦٥ لكى يحدد المرشحين للحصول على درجة الدكتوراة ، بإجبارهم على القسم من أجل الدين . وبعد ذلك ، إمتنع الالمان عن الحضور.ولكن الفرنسيين لم يتخلوا إلا ببطء عن تلك العادة التى كانت قد أصبحت عميقة فى تقاليدهم . وتمكن مونستين ، أثناء رحلته فى عام ١٥٨١ ، من أن يحصى مايقرب من المائةمن بينهم فى بادوا .

وأخذ حب إيطاليا فى ذلك القرن مظهراً جديداً . ففى أعجابهم بهذه الأمة المختارة ، أخذت الامم الأخرى فى أن تبحث فيها ، وبين علمائها ورجال حرفها وفنانيها ، عن مرشدين لها ، وأمثلة عليا أمامها . ونعرف أن شارل الثامن ،ولوى الثانى عشر ، قد قاما ، بعد حملاتهم العسكرية إلى ايطاليا ، باحضار اعداد من الفنيين والفنانين ، والنساجين ، وصانعى الفخار ، والرسامين ، والمثالين ، وصانعى الدروع ، المهندسين ، والمعاريين ، وكذلك بعض العلماء ، مثل لاسكاريس ، والذى من أصل يونانى ، وأحد كبار علماء الدرسات اليونانيه القديمه فى هذه الفترة — أحضروهم معهم إلى فرنسا . وتمت عملية غزو من نفس النوع فى عام ١٥١٥ ، وبعد حملة ماريغيان . أما فرانسوا الأول ، فإنه قبل أن ينشىء مكاناً لعلماء الدراسات الإنسانية الإيطاليين ، كما رأينا ، بين الإسبانيوة

الملكيين فى عام ١٥٣٠ ، فإنه اختار أحدهم ، وهو تاليا كارنو، لكى يشرف على تعليم وتربيه أبنائه .

وجاءت الطلبات والنداءات من كل مكان إلى الايطاليين ، من أجل تعلم الآداب القديمة ، وبنوع خاص من أجل تعلم القانون : وجاءت من كراكوفيا وهيدلبرج وفى جامعة بروج ، كان هناك علماء من ميلانو، وكذلك فى اكسفورد ، كان هناك علماء من بيروجا ، عملوا على تدريس القانون الدولى العام .

وكانوا يطلبون بعد رجال القانون ورجال العمارة ، الأطباء الايطاليين ، وكان هناك أحدهم كطبيب شخصى لفرانسوا الأول . وفى النصف الثانى من القرن كان هؤلاء الاطباء الايطاليين موجودين فى فينا ، فى بلاط الإمبراطور رودلف ، وفى كراكوفيا قرب ايفيين باتورى ، وحتى فى موسكو ، فى خدمة بوريس جودونوف .

وساعدت إحدى الظروف الطارئة على زيادة التأثير الإيطالى فى بولندا ، وكان ذلك يتميز فى زواج الملك سيجسموند فى عام ١٥١٨ من بونا سفورزا أبنة دوق ميلانو . ووصلت الملكة الجديدة ومعها عدد كبير من ابناء بلادها ، سرعان ما أعطى تأثيره على البلاط . وحصل ابنها ، سيجسموند أغسطس بعد ذلك ، على تعليم إيطالى أكثر من كونه بولندى ، وساعد تسامح سيجسموند على أن يجذب إلى مملكته الايطاليين الذين كانوا قد إضطروا إلى ترك بلادهم لاعتقادهم فيما يتعارض مع فكرة الثالوث المقدس . وكان من بينهم رجال الدراسات الإنسانية ، وبعض الأطباء ، علاوة على بعض أنصار كلفن .

أما فى نطاق الأدب ، فلقد انتصر فى كل مكان أمر تقليد أشكال وطرق الايطاليين ، أى « الاتجاه الإيطالى » وعلينا أن نذكر هنا أيضا ، وقبل غيره ،

ما حدث فى فرنسا . فأصبح بترارك هو المثل الذى ليس له نظير أمام أعين الشعراء . وأخذوا فى تقليده، أو فى تقليد أولئك الذين كانوا قد جاءوا فى إيطاليا من بعده . وكذلك تأثير الكتاب . وحازت الكوميديا الادبية الايطالية فى بداية القرن إعجاب الفرنسيين . واستقدمت كاترين دى ميدسيس فرقاً مسرحية ايطالية ، وقدمتها فى البلاط إبتداء من عام ١٥٧٤ . وإذا كانت الكوميديا الادبية قد ظلت بالنسبة لفرنسا مادة مستوردة ، فإن انواعاً أخرى قريبة منها أتت فى نفس الفترة من إيطاليا ، وترجمت ، أو إقتبس منها ، وأسهم ذلك فى عملية تجديد المسرح الكوميدى ، وكذلك تأثرت فرنسا بعملية إحياء الفلسفة القديمة ، وبخاصة دراسة فلسفة أفلاطون من جديد ؛ وتأثر العقلانيون الفرنسيون الأول بمدرسة بادوا الفلسفية . أما فيما يتعلق بمكيافيللى ، وهو أشهر الايطاليين فى عصر النهضة ، فإن سمعته كانت مكروهة لفترة طويلة فى فرنسا : إذ انه كان يتآمر على القوانين الاهلية ، ويعمل على إفساد الأمراء . ولذلك فانه لا يمكننا أن أن نفسب إليه أى تأثير حقيقى إلا فى القرن السابع عشر ، على الأقل .

أما اسبانيا ، فلقد كان لها ، هى كذلك اتجاهاتها المحبة لإيطاليا ، فى نفس الفترة الذى كان هذا الاتجاه موجوداً فيه فى فرنسا . وكان كثير من الاسبانيين قد أمضوا بعض الوقت ، القصير أو الطويل ، فى إيطاليا ، وبخاصة فى نابولى . وكان من بينهم المؤلفين المسرحيين ، والشعراء ، وغيرهم .

أما الكتاب الانجليز فأنهم تأثروا بدرجة أقل من غيرهم بهذا التأثير الإيطالى . وكانوا يحتاجون فى أول الأمر إلى أن يتصلوا بالمؤلفات الكبرى القديمة . ومنذ عصر هنرى الثامن ، كان هناك معجبين كثيرين بفرجيل ، وبترارك . وفى النصف الثانى من القرن، إزدهر نوع من الشعر الغنائى ظهرت فيه عمليه تقليد كل من بترارك

وفرجيل فى نفس الوقت ، ولقى نجاحاً يفوق العادة . وفى هذا الوقت ، كانت المترجمات الايطاليه تنافس المؤلفات الوطنيه. أما الطبقات العليا، فلقد إنتشرت فيها العادة للقيام برحلة إلى ايطاليا ، وإقامة فى فرنسا ، من أجل التمعن ؛ وأصبحت هذه العاده جزءاً من التقاليد ، واستمرت كذلك لفترة طويلة .

٣ ـ تأثير الحضارة الفرنسية :

كان إشعـــــاع فرنسا فى أوربا لا يقاس بالدرجة المتوقعة من تلك الهيبة الاستثنائية التى حصلت عليها إيطاليا فى عصر النهضة . وكان ظهور هـذا المركز الجديد قد قلل إلى حد ما من إشعاع المركز الآخر . وإن كان ذلك لم يستمر إلا لفترة قصيره . ولم تكن هناك منافسة بين الحارتين ، والثقافتين ، مادامت فرنسا هى الدولة الأولى التى كانت قد بدأت فى التعلم من إيطاليا .

وفى الميدان الدينى ، كما هو الحال فى ميادين أخرى ، إستمرت العبقرية الفرنسية فى الظهور ، وبطريقة واضحة ، وبكل قوة للتوسع وللإنتشار . وكان الإصلاح على مذهب كالفن، والذى جاء بعده الاصلاح على مذهب لوثر، والذى يمكنه أن يبدو على أنه إبنا له ، قد فاز عليه فى كل مكان كان فيه معه على تنافس. وكانت الإتجاهات العامة لتوسعه وإنتشاره هى نفس الإتجاهات التى كانت قد ميزت توسع وإنتشار الحضارة والفكر الفرنسى ، فى كل عصر . وكانت تلقى بطبيعة الحال مقاومة أكبر فى ألمانيـــا ، وحيث كان الإتجاه اللوثرى قد غرس بقوة لا تسهل مقاومتها لحركة نشأت فى نفس الأرض ، وفى توافق مع بعض الأمانى العميقة للأمة . ومع ذلك ، فإذا كانت البلاد الألمانية ، فى مجموعها ، يمكن إعتبارها على أنها تشكل جزيرة مقاومة لمذهب كالفن ، فإنها لم تكن تضع أمامه كتلة لا يمكن التوغل فيها . فإلى الغرب ، وعن طريق الموزيل ، تسرب إلى وادى الراين الأوسط ، وغزا البلاتينات ، والتى سيجعل منها ، بعد أواسط

القرن ، إحدى قلاعه . ومن هناك ، سيعمل فى أحد الأوقات على تهديد مواقع الكاثوليكية فى الأسقفيات المجاورة ؛ وسيتمركز على الأقل ، وبقوة ، فى دوقية كليف .

وإذا ما وضعنا الكتلة الجرمانية — مع ملحقاتها الاسكندنافية — جانباً ، فإن مذهب كلفن قد إنتشر فى كل أجزاء أوربا التى كانت آراء مذاهب الإصلاح الدينى قد وصلت إليها . وكان مستقبله مزدهراً بنوع خاص فى البلاد المحيطة بالمانيا من الشرق ، وحيث كانت المؤثرات الجرمانية تصطدم دائما بمقاومة تنتج عن الشعور القوى التشيكى ، والبولندى ، أو المجرى . وتشبعت المجر بمذهب كلفن بدرجة أكثر عمقاً من البلاد السلافية . وفى الربع الثانى من القرن ؛ وفى الوقت الذى وصل فيه العثمانيون ، كان لوثر هو الذى قام بغزواته أولا . وبعد ذلك ، وفى السنوات التالية لعام ١٥٦٠ ، كف رؤساء الحركة عن الذهاب والبحث عن الوحى فى ويتنبرج ، واتجهوا صوب جنيف . وفى عام ١٥٦٩ ، قرر مجمع عام ، وكعقيدة رسمية للكنيسة الجديدة ما كان قد كتبه تيودور دى بيز . وظلت ترانسلفانيا وحدها ، وحيث كانت توجد جاليات ساكسونية مهمة ، على ولائها للوثر .

وفى بلاد جان هيس ، فى بوهيميا ، وجدت حركة الإصلاح الدينى أرضاً ممهدة تماماً . وكان إتجاه لوثر قد غرس فيها منذ وقت مبكر . ونجح فى الاحتفاظ بمعظم مواقعه أمام غزو مذهب كلفن . أما فى بولندا ، فإن نجاحه قد تعرقل ، وإبتداء من منتصف القرن ، بمنافسة حركات الهرطقة التى جاءت من جنيف ، وأكثر من ذلك بالعمليات القوية للملكة ، والتى كانت تستوحى من اليسوعيين .

أما فى الغرب ، وفى الأراضى المنخفضة التابعة لآل هابسبورج ، فإن

الأقاليم الأكثر وقوعاً إلى الشمال قد تأثرت فى أول الأمر بعملية إنتشار تأثيرات لوثر فيها ، وكانت هذه التأثيرات قد نزلت إليها مع نهر الراين وكانت أنفرس ، ذلك الميناء التجارى الهام ، والمدينة ذات الخليط المتنوع من السكان ، قد أصبحت ، قبل منتصف القرن ، مركزاً من مراكز المذهب اللوثرى . ولكن ، قرب هذا الوقت ، بدأ ظهور مذهب كلفن هناك ، وكان آتيا من الجنوب . وسرعان ما تفوق على منافسه . وقام رجال دين ، تكونوا فى لوزان أو فى جنيف ، بغزو البلاد من وقت لآخر . وفى الوقت الذى كانت تحكم فيه مارى تيودور ، ساعدهم المنفيون من الوقت السابق ، والذين كانوا ، فى انجلترا ، قد اختاروا مذهب كلفن ، والذين أجبرتهم حركة رد الفعل الكاثوليكى على العودة إلى بلادهم . وصوب عام ١٥٦٠ ، كان إنتصار مذهب كلفن كاملا ، بالتقريب .

وكانت إنجلترا قد إختارت مذهب إصلاح دينى من نوع معين ، فلم يكن يتبع لوثر ، ولا كلفن ، وكان هو مذهب اصلاح هنرى الثامن ، والذى كانت إليزابيث قد عدلت فيه قليلا . وكانت قد دافعت عن نفسها لفترة طويلة ضد الهرطقة ، مدعية أنها تكتفى بأن تكون منشقة على الكنيسة . وكانوا يقتبعون أنصار لوثر ، ويحرقونهم ، حتى وفاة هنرى الثامن . ثم بدأت إنجلترا ، فى أثناء حكم الملك إدوارد السادس ، فى الميل صوب الشكل الأكثر راديكالية من مذاهب الإصلاح الدينى الموجودة على القارة . وكان مذهب لوثر هو الذى يعطى الوحى للإجراءات التى إتخذت سنوات ١٥٤٧ — ١٥٤٩ ، وبخاصة فيما يتعلق باستخدام اللغة الوطنية فى الصلوات . وبعد ذلك ، وحين إستنفد مذهب لوثر قوة إغرائه ، إستبدلوه ، واحلوا محله مذهب كلفن . ومنذ سنوات منتصف القرن ، لم تعد ويتنبرج تنافس جنيف بالنسبة للإنجليز . وفى اسكتلندا كذلك ، أخذت حركة الاصلاح الدينى فى أول الأمر شكل مذهب لوثر ، ثم أخذت

شكل مذهب كلفن . ولكن نجاح مذهب كلفن فيها كان أكثر وبكثير من نجاحة فى إنجلترا ، منذ ذلك الوقت الذى بدأ فيه جون كنوكس يلقى مواعظه ، وكان قد أمضى عدة سنوات فى جنيف . وعملت كنيسة اسكتلندا التى إتبعت مذهب الإصلاح ، وهى الكنيسة البرسبتارية ، على أن تعلن أنها تابعة لكلفن ؛ وأخذت فى تنظيم نفسها على طريقة كنيسة جنيف .

وإذا ما تركنا المشكلات الدينية جانباً ، فإننا نجد أن التأثير الثقافى والمعنوى لفرنسا قد إستمر فى السيطرة فى بلاد الشمال والشرق ، وحيث كان يمارس ، تقليدياً . حقيقة أن موجة الاتجاه القومى ، التى صحبت حركة الاصلاح الدينى فى ألمانيا ، قد تسببت فى حركة رد فعل ضد توغل الأجنبى فى حياة الأمة، وفى أى من الاشكال . وجعلت الرأى العام يقف فى وجه الايطاليين ، الذين كانوا يؤيدون كنيسة روما . ولم تحصل حركة الميل إلى الاتجاه الايطالى ، فى البلاد الألمانية ، وعلى الأقل فى الأقاليم التى إعتنقت مذاهب الإصلاح الدينى ، على نفس الإنتصارات التى كانت قد سجلتها لنفسها فى أماكن أخرى . ولكن هيبة الأدب الفرنسى ، وهيبة حياة المجتمع الفرنسى، لم تقاسى من ذلك بدرجة كبيرة . ومنذ ذلك الوقت كانت تبدأ من فرنسا ما كان الالمان يسمونه « جولة الفارس » ، وهى رحلة التعلم ولإكتساب العادات المهذبة، والتى أصبحت منذ ذلك الوقت ضرورية للشباب الناشىء فى الاسر الطيبة ، والذين كانوا يرغبون فى أن يصبحوا من المهذبين ، و « روح » الفرسان » فى نفس الوقت .

وكانت العناصر الجرمانية كلها — من ألمان وهولنديين واسكندنافيين — تستمر فى المجىء إلى الجامعات الموجودة فى حوض نهر اللوار ، وحيث كانوا يجدون تعليم القانون الرومانى ، والذى كان ممنوعاً فى باريس . وفى بورج وفى أورليان ، كانت « الجالية » الجرمانية هى الاكثر عدداً : وحصلت فى عهد

هنرى الثانى على إمتياز ممارسة عباداتها ، بحرية ، على مذاهب الإصلاح الدينى . وكان فى أورليان حتى بعض الأساتذة الألمان ، مثل فولمار ، الذى كان كلفن قد حضر دروسه . أما فى مونبيليه ، فانهم كانوا يحضرون من كل ناحية ، لكى يتعلموا فى كلية الطب ، والتى كانت من بين أكثر الكليات شهرة فى أوروبا . وكان هذا يعنى أن بلاد اللانجدوك كانت لها قوة جذبها كذلك : وكان لفقيه القانون ، الفرنسى ، جان بودان ، تلاميذ من الألمان فى تولوز . وفى السنوات الأخيرة من القرن ، علينا أن نشير كذلك إلى نجاح الأكاديمية البروتستانتية فى سومور ،والتى كانت تضم عدداً من الطلاب الآتين من الشمال .

ولم يكن الإنجليز يحضرون كثيراً إلى الجامعات الفرنسية ، منذ حرب المائة عام . ومع ذلك ، فإن كل أولئك الذين كانوا من بينهم قد حصلوا على تعليم جيد ، كانوا يمارسون التحدث باللغة الفرنسيه . وفى بداية القرن ، كان الاتجاه نحو الدراسات اليونانية القديمة قد عرف فى بلادهم فترة مزدهرة تماماً . وكان إزرم قد تمكن ، عن طريقهم ، من التعرف على إيطاليا عام ١٤٠٠ وما بعدها . ولكن هذه الحركة لم تستمر لوقت طويل . وسرعان ما تغلب الميل إلى المجادلات الدينية على الميل إلى دراسه الآداب القديمة . وحين يأخذ جورج شابمان ، عند نهاية القرن ، فى ترجمة هومير — وللمرة الأولى إلى الإنجليزية — عمل ، وبنفس الدرجة التى عمل بها على الأصل ، على الترجمة الفرنسيه ، لأحد رجال الدراسات الانسانية القديمة من الهيجينوت ، جان دى سبوند .

أما مع إسكتلندا ، وحيث كانت الصداقة الفرنسية فيما مضى من التقاليد القديمة ، كانت العلاقات الثقافية أشد قوة ، وفى كل أشكالها . فكانت هناك ، فى جامعات أورليان ، وبورج ، وبواتييه ،ومونبيليه ، وجاليات ،اسكتلندية . وكان بعض الطلاب ، بعد حصولهم على الدرجات العلمية ، يستفيدون منها فى

نفس المكان . وكانوا بنوع عام . وفى النصف الثانى من القرن ، وحين ساد مذهب الاصلاح فى اسكتلندا ، من الكاثوليك الذين ظلوا مرتبطين بمذهبهم . وظهر من بينهم عدد من الشخصيات الهامة . فقام وليام باركلاى الذى استدعاه اليسوعيون إلى جامعتهم فى موسون بتدريس القانون فيها ؛ وعند نهاية حياته إحتل كرسى فى جامعة آنجيه . أما آدم بلاكوود فانه عمل فى القضاء :وعمل أكثر من عشرين عاماً مستشاراً لمركز الإقامة فى بواتيية . أما الأكثر شهرة من هؤلاء الفرانكو — اسكتلنديين فهو جورج بوشنان ، والذى عرفه مونتلين ، حين كان تلميذاً ، وهو أستاذ فى إحدى كليات بوردو . وأمضى بعض الوقت فى الجامعات البرتغالية ثم عاد إلى اسكتلندا قرب عام ١٥٦٠ ، وعمل سكرتيراً مترجماً لمارى ستيوارت ، ثم قطع علاقته بها بعد مقتل دارنلى . وأخذ مكانه فى صف خصومها ؛ وحين هربت ، كان هو الذى تكلف بأمر تعليم الملك جيمس المقبل .

ومن بين كل الأسماء فى الأدب الفرنسى فى القرن السادس عشر كان إسم رونسار هو بلاشك الأكثر إنتشاراً فى الخارج . وكانت طريقته الموسيقية تظهر جديدة تماماً ، وتغرى الغير على محاكاتها . وجاء المحاكين لرونسار بعد المتشبهين بيترارك . وإلى جانب رونسار ، حصل بارتاس ، فى عصره على شهرة فائقة . وكانت قصيدته « الأسابيع » أو « الخلقة » ، تحفه ، وبوحى دينى ، وعملا لأحد البرتستانتيين المعتدلين ، والذى رأى فيه أبناء مذهبه إحدى روائع إنتاج النبوغ الفرنسى . ولقد ترجمت أعمال بارتاس وقرئت وعلق عليها فى كل البلاد التى تحولت إلى مذهب الاصلاح الدينى ، وبخاصة فى هولندا وفى إنجلترا . ومنذ عام ١٥٨٤ وحتى عام ١٦٤٠ وصلت الطبعات الانجليزية لمؤلفاته إلى ما يقرب من أربعين طبعة . ولقد استوحى ميلتون من « الخليقة » فى كتابه « الفردوس المفقود » .

اما كتاب النثر الفرنسيين ، فانهم لم يلقوا نفس النجاح فى الخارج. ولم تنتشر كتابات رابليه إنتشاراً له قيمته فى كل البلاد اللاتينية ، وحيث إتهم فيها بانه كان يهدم الاحترام الواجب لرجال الدين ، ويساعد على نشر الهرطقة. وفى إنجلترا ، وفى ألمانيا ، ستساعد نفس هذه الإتجاهات على الاعجاب به ، ولكن بعد فترة من الوقت : ولن يشعر أحد بتأثيره ، ولا بتأثير مونتين ، إلا فى القرن السابع عشر فقط ؛ وستترجم كتابات مونتين إلى اللغة الانجليزية، لأول مرة، فى عام ١٦٠٣ .

٤ – دور إسبانيا فى الحياة الفكرية :

فيما بين إيطاليا فى أوج نفوذها ، وفرنسا التى إستمرت فى تأكيد قوة توسعها على كل طرق الفكر ، كانت إسبانيا تأخذ شكلا محترماً للغاية . ومع ذلك فلم يكن فى وسعها أن تدعى ، فى ميادين أخرى ، تلك المكانة التى أعطتها لها أعمال الغزاة فى العالم الجديد ، وزيادة تفوقها السياسى والعسكرى ، وإخلاصها الأمثل للمذهب الكاثوليكى .

وكانت تشارك فى الحياة الدولية للفكر . ولكنها كانت تأخذ من البلاد الأخرى المجاورة لها ، أكثر مما كانت تعطيها . وكانت لجامعاتها العديدة عملاء ، كلهم تقريباً من سكان شبه الجزيرة الأيبيريه، ولم يكن التعليم فيها له قيمة عالمية . ومع ذلك فإن إسم فرانشيسكو فيتوريا معروف تماماً فى كل الغرب . وكان من الدومينيكان ، وإستاذ لعلوم الدين فى سلامانكا من عام ١٥٢١ حتى عام ١٥٤٦ ، وإستشاره شارل الخامس، وكذلك هنرى الثامن ملك انجلترا، فى وقت مسألة طلاقه ، وحتى البابا ، فى نفس المناسبة . ورغماً عن أنه لم يكن من فقهاء القانون ، إلا أنه جدير بأن يعتبر على أنه أحد مؤسسى القانون الدولى الحديث .

وسيهمل الكتاب الإسبانيون شيئاً على أن يحصلوا على مكان ،

سيزداد أهمية حتى منتصف القرن السابع عشر ، فى الأدب الأوربى — ولنقول ، حتى نكون أكثر دقة ، فى الآداب الغربية ، إذ أن تأثيرهم لن يصل إسعاعه ، مثل إشعاع الفرنسيين والإيطاليين ، حتى الحدود الشرقية للقارة . وكان ملموساً بنوع خاص فى فرنسا ، وليس بتأثير ميل عاطفى يشبه ذلك الذى فتح حدود المملكة لكل ما كان يأتى من إيطاليا ، ولكن بسبب العلاقات الوثيقة التى تم عقدها ، فى السلم وفى الحرب ، بين الاسبانيين والفرنسيين ، الجنود عملت المنافسة بين سادتهم على وضعهم فى مواجهة بعضهم البعض على كل ميادين الحرب ، أو كرجال أعمال كانوا ، فى نانت وفى روان ، وفى قادس وفى إشبيلية ، يتعاونون على تزويد العالم الجديد بما كان فى حاجة إليه . ونشأ تيار دائم من الاتصال ، نتيجة لفترة أسر فرانسوا الأول الطويلة فى مدريد ، فى الربع الثانى من القرن ، من أحد جانبي جبال البرانس ، ومع الجانب الآخر . وإزدادت معرفة اللغة القشتالية فى بلاط أسرة فالوا ، وزاد عدد الكتب المترجمة . وكان ما يجذب إنتباه الفرنسيين ، هو ذلك العدد من المؤلفات والكتابات ، والتى كانت تستخدم الخيال ، مثل « ديانا » لمونتمايور ، و « دون دكيشوت » لسرفانتس ، والتى بدأت فى الظهور فى عام ١٦٠٥ ، والتى سوف يعرفونها بعد وقت قصير فى فرنسا .

وربما لم يحظ أى مؤلف اسبانى آخر بتلك السمعة الواسعة فى الخارج ، والتى حصل عليها أنتونيو دى جيفارا . ولقد ترجمت أعماله إلى الفرنسية ، وبخاصة « ساعة الأمراء » و « إحتقار البلاط » . وإلى جانب هذه المجموعة الكبيرة من محبى اللون الإيطالى ، لا يمكننا أن نجد ، إلا فى أثناء القرن السابع عشر ، مجموعة واضحة من محبى الآداب الاسبانية .

واهتمت إنجلترا ، مع بعض التأخر الزمنى ، بهذه الكتابات . وفى وقت إنتصار الإتجاه الإيطالى ، فى عصر الملكة اليزابيث ، زاد الإقتباس من إسبانيا . وأصبحت لقصصها ، التى تعالج موضوعات الفروسية ، جمهوراً كبيراً . وحتى المسرح الاسبانى — الدرامى والكوميدى — أسهم فى تغذية خيال شكسبير .

الباب الثالث

القرن السابع عشر

(حتى عام ١٦٦٠)

الفصل الحادى عشر

المظاهر الجديدة للسياسة وللتقاليد الدولية

بعد إنتهائنا من دراسة القرن السادس عشر ، نجد أن هناك ملاحظة يجب أن نذكرها،وأنها ستبقى لها قيمتها بالنسبة لكل الفترة التالية،وحتى الثورةالفرنسية: ذلك أنه ، رغم تقدم الفكر الإنسانى، ظلت أشكال الحكومات الموجودة فى الدول المختلفة هى نفس ما كانت عليه منذ قرون عديدة . وظل دور الشخصيات التى تعطيهم فرصة ميلادهم السلطة الملكية ، مقرراً وحاسماً . فكانت السياسة الفرنسية فى القرن السادس عشر ، أولا وقبل كل شىء ، هى سياسة كل واحد من ملوك أسرة فالوا،الأخيرين،وسياسة هنرى الرابع ، وسياسة إسبانيا هى سياسة فرديناند وإيزابيلا ، ثم سياسة شارل الخامس،وأخيراً سياسة فيليب الثانى . وكانت رغبات الرئيس الوراثى ، وربما حتى نزواته ، هى التى تتحكم إلى حد بعيد فى الأحداث . ولا شك فى أن سياسة كل دولة ، فى الخارج وكذلك فى الداخل ، كانت تشتمل على تيارات بدا لنا أنه يمكن تفسير إتجاهاتها العامة بعوامل جغرافية أو سياسية ، إقتصادية أو مالية.ولا شك فى أن هذا يشتمل على عنصر وحدة،بالنسبة لأولئك، على الأقل ، الذين يهتمون بالخطوط العامة. أما بالنسبة للتفاصيل،فإن الأمر يشتمل على أحداث لا يمكن فصلها عن الطموحات الشخصية ، تعمل على قطع هذا التيار، وتحويله ، وتقسمه ، وتحاول إخفائه فى غالب الأمر عن أنظارنا . وفى هذا التشابك المستمر للطموحات ، والأطماع ، والأنانيات القومية ، تسير الدول فى غالب الأحيان فى طرق غير متوقعة، يمكن شرح تعرجاتها بالتنوع الكبيرفى الدوافع التى تؤثر فيها .

١ - رؤساء الدول والرأى العام :

منذ الفترة التى عرفت دكتاتورية كرومويل فى إنجلترا ، وفى فرنسا شبه دكتاتورية ريشيليو ، لم يعد السؤال الوحيد ، فى ذلك الوقت ، يتعلق فقط بالملوك والأمراء الوراثيين . ولا شك فى أن رؤساء الدول من هذا النوع الجديد، والذين وصلوا من وقت قريب إلى السلطة ، كانت تحركهم فى أغلب الأحيان ، ومثلهم فى ذلك مثل من أخذوا مكانهم أو ساعدوهم ، دوافع شخصية . ومع ذلك ، فإنهم أظهروا ميلا أكثر للاهتمام بالمصالح العامة للأمة التى رفعتهم إلى السلطة ، أو التى ساعدتهم على الإرتفاع . ولذلك فإنه من حقهم ، وأكثر من غيرهم أن يحصلوا على لقب ممثل الرأى العام، تلك القوة التى كانت الحكومات لم تهتم بها كثيراً فى الماضى، والتى كان صوتها قد بدأ يسمع ، حتى فى الشئون الدولية . وفى القرن السادس عشر، لم تكن هذه القوة قد لعبت دوراً إلا فى إنجلترا ، وحيث كان لها فى البرلمان مترجماً شرعياً ودائماً : فلم يكن فى وسع هنرى الثامن أن يدفع إلى الحد الأقصى مسألة طلاقه ، إذا لم تكن ، فى هذه الظروف ، سياسته - وهى الأكثر شخصية - تحظى ، وإن كان ذلك ضمنا ، ولأسباب لا تتعلق به ، بموافقة الممثلين المنتخبين للأمة .

وفى فرنسا ، لم يكن لمظاهر الرأى العام نفس قوة الإرغام فكانت السياسة الخارجية ، بنوع خاص ، ميدانا لا يمكن لمجلس طبقات الأمة أن يغامر بالدخول كثيراً إليه ، وعلى إعتبار أنه يتم الإحتفاظ به للملك . ولقد شهدت فترة العصبة إزدهار وإنتشار أدب وكتابات سياسية تبعاً للظروف الموجودة . ولكن الجماعات المشاركة فيها كانت تتناقش ، بنوع خاص ، إن لم يكن بشكل تام ، فى نطاق الشئون الداخلية . ومع ذلك . فإنه عند نهاية القرن ، أصبحت الصلات وثيقة بين المظاهر الخارجية والداخلية للمشكلة الاسروية التى طرحت أمام الأمة

وبشكل جعل ملك إسبانيا ، وكذلك سكان إقليم بيارن ، يصبحون هدفاً لكتاب المقالات . ومنذ ذلك الوقت ، تم إجتياز المنعطف . وسيعطون دروساً ، وفى كل الميادين ، للملك ولوزرائه . ولم يعد الأجانب يحظون بمجرد محاولات كسب ودهم ، كما كان عليه الحال فى الماضى . وفى هذا الشأن ستكون لسنوات ١٦٠٣ – ١٦٠٥ دلالة كبيرة ، وهى السنوات التى تميزت بالتوتر فى العلاقات من جديد بين فرنسا وإسبانيا . ولقد شعروا أن المصالح الاقتصادية الكبرى – وكما نقول الآن – قد مست . وكتبت مقالات ونداءات ، بنفس حبر كتابات العصبة ، مطالبة بالانتقام والتأديب ، وتدفع إلى الحرب . وبعد عام ١٦١٠ ، شهد عصر الوصاية ، وهو عصر غليان فكرى كبير ، زيادة جرأة الكتاب.ولقد صحبت دورة إنعقاد مجلس طبقات الأمة فى عام ١٦١٤ ظهور مجموعة كبيرة من المقالات ، مع الاسبانيين أو معادية لهم . ومنذ ذلك الوقت ، لن تكف المجادلات التى تمس السياسة الخارجية وستكون عنيفة بنوع خاص فى أثناء النصف الأول من القرن ولنفس الفترة الطويلة التى ستمتد إليها مرحلة الحروب الدينية .

ولا شك فى أن هذا كان يمثل نشوء ظاهرة جديدة – إستخدام المطابع فى مناقشة الشئون الدولية – لم تظهر فى فرنسا وحدها . وكان الوقت قد أتى وظهرت ، فيما وراء الحدود ، أولى صفحات الأخبار الاسبوعية ، والتى أعلنت من بعيد ، عن ظهور الصحافة . وظهرت فى خلال نفس العام ، ١٦٠٩ ، وعلى التوالى ، فى ستراسبورج ، وفى أوجزبورج ، وفى أمستردام : الأمر الذى كان يتضمن أن الجمهور الذى كان قلقاً من التطورات الممكنة اللازمة المطروحة بشأن حكم كايف أو جوليير ، والذى كان حريصاً على أن يعلم أخبارها ، كان مستعداً لمساعدة هذه الدوافع من جانب أولئك الذين كانوا يزودونه بأخبارها

بانتظام . ولقى هذا العمل الجديد نجاحاً كبيراً ، وإنتشر بسرعة إلى مدن أخرى فى ألمانيا وفى الأراضى المنخفضة .ولم تتبع العواصم الكبرى هذه الحركة إلا مع بعض التأخر : فلم تحصل لندن على «الجازيت» الخاصة بها إلا فى عام ١٦٢٢ ، وباريس إلا فى عام ١٦٣١ .

وأخذ تأثير الرأى العام ، وهو رأى عام غالباً ما كانت ردود فعله تستوحى من الاتجاهات القومية المكثفة للجماهير ، يمارس بشكل عام ، وبدرجة أقل فى إتجاه التقارب والاتحاد بين الدول ، عنه فى إتجاه زيادة حدة الخلافات التى كانت تضع الدول فى مواجهة بعضها البعض . ولم يكن فى وسعه أن يجد إقتراحات لعلاج فعال لكوارث الحرب ، التى سوف تصيب القارة ، وبقوة لم تشهدها من قبل . وكان على رجال الدولة أن يظهروا بنبوغهم من أجل العثور على مبادىء التنظيم ، والتى يكون فى وسع الجميع ، وفى وسع كل فرد أن ينضم إليها ، دون أن يخاطر بتعريض مصالحه الخاصة للضرر . وكرد فعل ضد الاتجاهات التسلطية ، عملت مبادىء التوازن الدولى الكثير من التقدم فى أثناء القرن السابع عشر .

ولقد رأينا أن فكرة التوازن الضرورى للقوى ، بين الدول الأكثر قوة ، قد ظهرت منذ قبيل أواسط القرن السادس عشر ، وفى وقت حروب فرنسا ضد شارل الخامس . ولقد وجدت لها أنصاراً عند الجيران الأكثر قرباً من الدول المتحاربة ، وفى نفس الوقت فى البندقية ، وفى إنجلترا . ولما كانت هذه الحرب قد تجددت لعدة مرات ، فإنها إستمرت فى إعطاء الوحى ، ولأقصى درجة ممكنة، لسياسة البندقية ، وللسياسة الانجليزية . أما بالنسبة للفرنسيين فى عصر لوى الرابع عشر ، والذين شعروا بأن التفوق الذى كانوا قد فقدوه مؤقتاً فى القرن السابق قد عاد إليهم من جديد ، فانهم نظروا إلى التوازن الدولى على أنه لعبة من جانب البندقية . وفى عام ١٦٤٦ ، وجد مازاران أن عليه أن يشكو من ذلك الإنحياز الذى أظهره الوسطاء فى مونستر ، وكتب إلى

مفوضة الكونت دافو : « إن الدافع الرئيسى للبندقية فى هذا الأمر هو ربما أن تضع الأمور فى مثل هذا التوازن الذى يوجد بشكل قوى فى تفكير الجمهورية . . . » ومع ذلك ، ففى فرنسا نفسها ، عرف أصحاب التفكير السليم مزايا هذا المبدأ ، فكتب بودان ، فى عصر هنرى الثالث : « إن أمن الأمراء والجمهوريات يتوقف على ثقل متوازن للقوى ، بين الدول وبعضها » ، وكتب هنرى دى رومان ، فيما نشر له فى عام ١٦٣٨ : « إن من مصلحة كل الدول الأخرى ، وبشكل رئيسى ، الاحتفاظ بالتوازن ، وبشكل متساوى ، بين هاتين المملكتين الكبيرتين (إسبانيا وفرنسا) ، حتى لا تقوم الواحدة ، سواء بالسلاح ، أو بالمفاوضات ، بالتفوق أبداً على الأخرى بشكل واضح . . . » . وسيستخدم ليسولا ، أحد الصحفيين الامبراطوريين ، هذا النص فى مقالته عن « درع الدولة » ، فى عام ١٦٦٧ ، ويديره ضد فرنسا . ومنذ ذلك الوقت سيكون الشعار العام والمشترك ، ولمدة نصف قرن ، وبالنسبة لخصوم المختلفين للقوة الفرنسية ، هو الاحتفاظ بالتوازن الأوربى ضد أطماع لوى الرابع عشر صوب السيطرة .

٣ ـ الدول العظمى وسكانها :

ويصعب علينا تحديد الأهمية العددية للسكان فى دول أوربا المختلفة فى هذا العصر . ولكن يمكننا أن تكون ، بالنسبة للقرن السابع عشر ، على طريقة تقريبية للغاية فقط .

ومن مقارنة الأرقام التى هى أقرب ما يكون إلى المنطق ، والتى قدمها المؤلفون الجادون ، يمكننا أن نخرج بإستنتاج مباشر ، وهو أن السهول الشرقية فى أوربا لم يكن فيها بعد كثير من السكان . فكانت بولندا الكبرى فى أثناء القرن السابع عشر — وبدون ليتوانيا — ربما لاتشتمل على ما يزيد على خمسة

ملايين نسمة . أما روسيا - والتى لم تكن قد إشتملت بعد إلا على جزء من أوكرانيا ومناطق الإستبس فى الجنوب - فانها لم تكن قد وصلت ، وبكل ترجيح ، إلى عشرة ملايين نسمة ، عند نهاية القرن .

ويؤدى بنا ذلك إلى الاعتراف بالاستنتاج بأولوية الغرب ، وحيث كانت الدول العظمى الثلاث فى ذلك الوقت تشتمل فى مجموعها على ما يقرب من ثلاثين مليونا من السكان . وكانت فرنسا ، وهى الأولى من بينها ، يرتفع عدد سكانها البالغ ثمانية عشر أو تسعة عشر مليونا من السكان ، فى عهد لوى الرابع عشر ، فوق عدد سكان أى من جيرانها . وكانت تسيطر ، ومن أعلى ، على اسبانيا وإنجلترا ، والتى كان فى كل منها ما يقرب من ستة ملايين نسمة ، وكذلك على ألمانيا الامبراطور والأمراء ، والتى كانت تضم فى مجموعها ما يقل على خمسة عشر مليون نسمة . وهكذا نجد أنه كان للسيطرة الفرنسية أساساً قوياً فى علاقات الأرقام والقوى : ويمكننا أن نقول مسبقاً بأن أى من هذه العلاقات كانت مثبتة على خريطة السكان .

٢ - حريه البحار :

لقد تعددت الحروب البحرية ، ولما كانت الدول البحرية قد اخذت فى القيام بدور هام ، فإن القرون الأخيرة من العهد القديم قد اهتمت بدرجه أكبر بقوانين وتقاليد البحر . ولم يكن قرن الكشوف الجغرافية الكبرى وتأسيس الامبراطوريات الاستعمارية قد طرح فى المجال القانونى مشكلة حرية البحار . وفى مواجهة إدعاءات الاسبانيين والبرتغاليين للاحتفاظ بأنفسهم بطرق الوصول إلى العالم الجديد ، كان الفرنسيون والانجليز فى بعض الحالات قد رفعوا احتجاجاتهم ، ولكن دون إستخدام حجج أخرى سوى حجج القانون العام ،أو القانون الطبيعى . وكانوا قد أظهروا غيرتهم من أصحاب الكشوف ، الذين

كانوا قد أعلنوا إدعاءاتهم بأن يمنحوا أنفسهم ، فى تلك الأقاليم التى كانوا قد استولوا عليها ، مزايا استغلال الأرض وما تحت الأرض ، بل وكذلك مزايا تجارتها مع الخارج . هذا علاوة على أنه لم يحدث من قبل أن قام أى أحد بمعارضة قانون المساواة للجميع فى استخدام المساحات المائيه من الكرة الارضية وكانت بعض الشعوب ، التى كانت تحب الملاحة بنوع خاص ، قد أفادت فقط من ميزات مركزها أو من تفوق أساطيلها ، لكى تنتزع سلطات الاشراف على البحار المجاورة ، وتحتفظ بالملاحة فيها لأبناء وطنها ، وتخضع الأجانب لدفع ضرائب ولقد تحدثنا فى مكانها عن إدعاءات البنادقة على بحر الإدرياتيك .

وبعد بدايه القرن السابع عشر بقليل بدأت ، فى شمال القارة ، المجادلات الأولى بشأن حرية البحار وحقوق الدول المطلة عليها . وأصبحت انجلترا فى عهد إليزابيث وجيمس الأول على التوالى فى خصومات مع الدانمركيين ومع الهولنديين . وكان الدانمركيون ، كسادة على النرويج ، يدعون ممارسة حقوق السيادة على كل إمتداد بحر الشمال ، الذى أعلنوا أنه كان بالنسبه إليهم ، « بحرا نرويجيا » . وأظهر الصيادون الانجليز ، والذين كانوا يذهبون بإستمرار إلى المياه القريبة من إيسلندا ، وتجار الشركة الموسكوفية والذين كانت اساطيلهم تسير صوب أركانجلسك والذين كانوا قد قبلوا حتى ذلك الوقت دفع الجزية لكوبنهاجن ، رغبتهم فى أن يتحرروا من ذلك . وبعد بضعة سنوات ، قام الهولنديون بتقليدهم ، وأثار هؤلاء الأخيرون مبدأ « حرية البحار » . وكشعب من الصيادين ، كانوا قد أضيروا بتعليمات عام ١٦٠٩ التى حرمت على كل الأجانب المجىء للصيد على سواحل انجلترا — وحيث توجد الشواطىء الأكثر ثروة فى الأسماك — بدون تصريح من الملك . وحور هذا الاجراء ، وشرعيته ، سيناقشون لعدة سنوات طويلة . أما النظرية الهولندية ، فأنها سوف تعرض

منذ عام ١٦٠٩ ، فى كتاب لجروسيوس يسمى « البحر الحر » Mare liberum .
وبعد وقت ، وفى عام ١٦٣٥ ، وبطلب من الملك شارل الأول الذى أعلن سيادة
تاج انجلترا على « البحار الأربع » التى تحيط بالأرخبيل البريطانى - « بحار
صاحب الجلالة » كما سموها فى لندن - قام جون سيلدين بمعارضة وجهات
نظر « البحر الحر » لجروسيوس ، بمقالاته عن « البحر المغلق » Mare. clausum
والتى نتجت عنها ضجة كبيرة ، وان كان فقهاء القانون لم ينظروا إليها إلا على أنها
كتبت لكى تخدم الظروف التى كتبت فيها .

ولم تكن إدعاءات الإنجليز جديدة تماماً . وعلى الأقل فإنها لم تكن قد
تأكدت من قبل ابدا بمثل هذه القوة . ولقد طرح بشكل خاص موضوع الحق
فى التحيه الأولى فى كل إتساع « البحار الأربع » التى كانت تحيط بالأرخبيل .
وكانت هذه فرصة فريدة للخلافات ، ولقد إنتهزوها . وستجد أولى الحروب
الانجليزية الهولندية فى هذه المسألة أحد أصولها . وفى فترة لوى الرابع عشر
كان عدد من الحوادث بين البحارة الفرنسيين والانجليز ، نتيجة لها . ذلك أن
إدعاءات البوربون كانت تعارض بطريق مباشر إدعاءات اسرة ستيوارت ،
وبخاصة فى بحر المانش . ولقد عمل ريشيليو بكل حكمة على إبعاد كل فرصة
للصدام،وذلك بإعطائه أوامره لكى تتحاشى سفن الملك مقابلة السفن البريطانية.
ولكن لوى الرابع عشر لم يكن يخشى من رفع نغمة صوته ، ومنذ عام ١٦٦٢
كادت لندنو باريس ان تتخاصا بشأن هذا الموضوع .ولقد حاول الدبلوماسيون،
مرات عديدة ، ان يصلوا إلى وفاق على أساس معاملة المثل التامه : ولكنهم لم
يصلوا أبدا إلى تفاهم . هذا علاوة على ان الإدعاءات الفرنسية لم تكن كذلك
مقبولة من جانب الاسبانيين والبرتغاليين . ولهذا فقد وصلوا إلى ضرورة الحرب
من أجل الانتصار لهذه المبادىء : فبدا ان « هيبه الملك » كانت فى الموضوع .

وجاءت لائحة عام ١٦٨٩ الكبيرة عن البحرية ، والتى ظهرت فى الوقت الذى بدأت فيه حرب عصبه أو جزبرج ، مطالبة بشكل واضح أكثر من أى وقت مضى ، بأولوية العلم الفرنسى ، ليس فقط فى المياه القريبة من السواحل ، ولكن فى كل مكان يمكن أن توجد فيه السفن .

وقام الدانمركيون من جانبهم ، والذين كانوا يسيطرون على مفاتيح بحر البلطيق . بتقديم إدعاءات ، فى بداية القرن ، بأن يحصلوا على التحية الأولى من السفن التى تبحر أمام شبه جزيرتهم . ولم يوافق جستاف أدولف على مطالبهم فى هذا الشأن إلا فى أثناء السنوات الأولى من حكمه .

٤ ـ الحدود البرية ، و « فردة » المعارك :

أما على البر ، فإن تقاليد الحرب، كما وصفناها بالنسبة للقرن السادس عشر، لم تقدم الكثير من التجديد . ومع ذلك ، فعلينا أن نشرح نظام مشاركات ، أو ضرائب ، أو « فردة » الحرب ، والتى كانت تفرض بالموافقة المشتركة للطرفين . وكان هذا تجديد مرتبط بهذه الفترة التاريخية . وفى فرنسا ، يبدو أن أصولها كانت تعود إلى بعض مراحل الحروب الدينية والتى كانت تميز النصف الأول لحكم لوى الثالث عشر . وإدعوا ، من هذا الجانب ومن ذاك، أنهم كانوا يجعلون الأهالى المخلصين للعدو يتحملون نفقات صراع كانوا لا يعترفون بمسئوليتهم فيه وفى أول الأمر يلجئون إلى النهب. ثم أصبحت الاجراءات اكثر إنسانية . ولكن يتحاشوا أمر فرض غرامة تعسفيه عليهم ، قامت القرى المهددة باتخاذ موقف التحرك لمقابلة مطالب العدو . فحصل الأهالى على أمان رسمى ، نظير تعهدهم بدفع مشاركات ، أو ضرائب ، أو « فردة » ، كانت قيمتها تحدد مسبقاً . وحسب أقوال رؤساء الجيوش، سرعان ماتحولت إتفاقيات الامان هذه وأصبحت «معاهدات فردة » ولقد انتشر هذا التعبير فى فترة حرب الثلاثين عاماً وسرعان ماسنجدها

فى كل الجيوش . وتحت حكم لوى الرابع عشر ستطبق تقاليد ثابتة ، وفى أشكال قانونية ، كمؤسسة فعليه من مؤسسات القانون الدولى .وفى أثناء حرب هولندا ، مثلا ، تقابل المندوبون الفرنسيون والاسبانيون فى قرية دينز الفلمنكية الصغيرة ، الواقعة على نهر لى . وقاموا هناك — وبصعوبة كبيرة ، إذ أن المؤتمر قد إمتد ، فى ثلاث مراحل متتالية ، من شهر سبتمبر ١٦٧٦ إلى شهر فبراير ١٦٧٨ — بوضع تسوية تطبق على مجموع جبهة العمليات . وهذه التسوية لم تصل أبداً إلى أن تجد شكلها النهائى . ولكنها عملت على أى حال على الاقل على الإسهام فى تخفيف المقاساة التى كان الأهالى يتحملونها فى مناطق الحدود .

وعلينا أن نشير أخيرا إلى إحدى الخصائص التى كان العثمانيون يستخدمونها، والتى بدت على أنها كانت تمس أبناء كل بلاد شرق أوربا . الذين كانوا على علاقة مستمرة مع الدول العثمانية . وكما أن الحرب بين المسلمين والمسيحيين كانت تمثل الحالة الدائمة للعلاقات، فإنهم لم يحاولوا أبدا ، فى استانبول،عقدمعا هدات فعلية للسلم ، مها طالت فترة الحروب ، فكانوا يقنعون بعقد هدنات، كانت مدتها تختلف طولا وقصرا تبعاً للظروف ، وكانت هذه الهدنات تقطع بنفس السهولة التى كانت تعقد بها ، ودون شكليات مضايقه : فكان يكفى لذلك مجرد إعلان أو بلاغ ، لا يحتاج إلى شكليات بروتوكولية مما ينص القانون الدولى على ضرورة ملاحظاتها بين الدول الغربية وبعضها . وبعد مضى وقت طويل ، وفى أثناء القرن الثامن عشر فقط ، سيساير الاتراك فى هذة المسألة تقاليد الدول الغربية .

الفصل الثاني عشر

المحيط وسياسات التوسع الاستعماري

بدت الشعوب التى كانت قد إفتتحت حركة التوسع فيما وراء البحار فى بداية القرن السادس عشر ، وبعد قرن من الزمان ، أى فى القرن السابع عشر ، على أنها قد أنهكتها غزواتها ، وعلى أنها غير قادرة على الدفاع عنها ضد المنافسين الذين ظهروا من كل مكان . وفقد الإسبانيون والبرتغاليون تلك الديناميكية التى كانت قد رفعت من شأنها فيما مضى . وعلى البحار ، وفيما وراء البحار ، تركوا المكان الأول للهولنديين وللإنجليز وللفرنسيين .

١ - الشركات الهولندية :

كانت مشروعات الهولنديين والانجليز والفرنسيين لها صفات مشتركة . فلم تكن السلطة العامة المركزية هى التى تتحمل نفقاتها . بل كان يكلف بها شركات خاصة ، وشركات من التجار ، وتحتفظ معها بعلاقات تتفاوت فى قوتها تبعاً للبلاد وتبعا للأوقات ، ولكنها كانت تتمتع ، فى المجموع ، بإستقلال واسع . وكانت تمارس ، طبقا لقوانين إمتيازاتها ،تفويضا بحقوق الدولة أو الملك ، وكان هذا أحد « الميزات » الرئيسية التى كانت تستند إليها .

وكانت جمهورية الأقاليم المتحدة ، والتى سنتحدث عنها قبل غيرها هى دولة من نوع جديد ، يمكننا أن نقول أنها دولة تجارية ، إذا ما إستعرنا تعبير سيلى الذي طبقه على انجلترا فى عهد كرومويل ووليام الثالث . أو أكثر من ذلك ، وبإستخدام اللفظ الذى يحملها مباشرة تعارض انجلترا في ذلك الوقت ، دولة

رأسمالية ، دولة غنية ، والتى تتزايد ثروتها بدون توقف . ولم تكن لها قواعد ثابتة ، إقليمية ، وديموجرافية واقتصادية ، تبنى عليها تلك المنشآت الضخمة التى نسميها فى الغالب بإسم « القوة » ، وكانت مساحتها بسيطة ، وأرضها منخفضة ، ممتلئة بالمياه ، وجزء منها مليء بالمستنقعات ، ولا تنتج حتى القمح اللازم لإطعام سكانها . وكانت قد فصلت بشكل نهائى عن إمتدادها الطبيعى صوب الجنوب ، عن أقاليم الفلمنكيين والفالون ، والذين إحتفظوا لأنفسهم وحدهم بإسم الاراضى المنخفضة ، فكان عليها أن تذهب بعيداً لكى تحضر كل ما كان ينقصها ، ليس فقط الحبوب اللازمة لخبزها اليومى ، ولكن كذلك المواد الأولية اللازمة لبعض صناعاتها الأكثر إزدهاراً ، مثل صناعة المنسوجات والحراير . ومع ذلك ، ففى أقل من خمسين عاماً بعد ميلادها ، لعبت هذه الدولة فى أوربا ، وفى العالم ، دوراً رفعها تقريباً إلى مستوى أكبر جيرانها . وسرعان ما ستعمل على إثارة غيرتهم ، غيرة إنجلترا فى أول الأمر ، ثم بعـــد ذلك غيرة فرنسا . ذلك أنها ، بأهمية أساطيلها وبالذهب المكدس فى خزائنها ، أصبحت على قدم المساواه معهم ، وسرعان ما تسبقهم . وفى الماضى ، كان صيد وتجارة الرنجة يمثل النشاط الرئيسى للهولنديين ، أما الآن ، وبعد ان أصبحوا خلفاء رجال الهانسا ، أصبح لهم دور الوساطة العادية بين كل البلاد المطلة على بحر البلطيق ، وبحر الشمال والمحيط الأطلسى . ومن كل مكان ، كانوا يجذبون صوب أنفسهم السلع وأنواع العملة . وأصبحت أمستردام ، أكبر موانيهم ، وفى مكان أنفرس ، مخزناً للتجارة العالمية ، والمركز الإقتصادى والمالى للغرب .

ومن بين كل السلع التى كانت تصل بها السفن الهولندية ، كان الأكثر أهمية يتمثل فى منتجات الشرق الأقصى ، وبخاصة التوابل ، والتى كانوا قد بدأوا فى التعامل معها عند نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر . ووجدت

الجمهورية فى ذلك أحد موارد رخائها الرئيسية ، إن لم يكن أول هذه الموارد .

وفى سومطرة ظهرت أول مؤسسة هولندية فى عام ١٥٩٥ ، بعيد عن الأماكن التى كان البرتغاليون يترددون عليها . وكانت شركة الهند الشرقية تجمع وتحت رعاية مجلس الاقاليم المتحدة . رؤوس أموال تقدمها الأقاليم المختلفة . وكان لها حق إحتكار تجارة الشرق الأقصى فى المنطقة الواقعة إلى شرق رأس الرجاء الصالح ، وإلى الغرب من رأس هورن ، والحق فى عقد الصلح وإعلان الحرب ، وعقد المعاهدات ، وأخيراً القيام بعمليات إحتلال إقليمية . وأقامت كذلك ، وبعد قليل ، فى جاوة ، وحيث كان الانجليز قد سبقوها . وكان للانجليز كذلك شركتهم للهند الشرقية : وكانوا قد نزلوا فى بانتام عاصمة إحدى الدول المستقلة . وسرعان ماظهر مركز تجارى هولندى هناك إلى جوار المركز الانجليزى . وفى هذا الوقت كانت الدولتان متحالفتان ضد إسبانيا ، فكانت مصالحها مشتركة ولكن سرعان ماستضح المنافسه التى لايمكن تحاشيها بين تجارهما صداقتهم على المحك . فبعد مايقرب من إثنى عشرة عاماً ، أى فى عام ١٦١٩ ، وقع صدام أدى إلى طرد الهولنديين من بانتام . وكانوا قرب نهاية هدنة السنوات الإثنى عشر . وكان مجلس الأقاليم حريصاً للغاية على الاحتفاظ بود الانجليز حتى لايخضع لتقديم تنازلات أساسية . ولذلك فإنه تم التوصل . إلى عقد إتفاق بين لندن ولاهاى ، يقسم بين الشركتين تجارة جزر التوابل . وهكذا عاد الوفاق من جديد، وتمكنت المراكز التجارية من أن تزدهر . وأنشأت بعد ذلك مراكز أخرى فى ملقه ثم فى سومطرة . وظلت جاوة هى المركز الأساسى لهذا النشاط ، مع المركز التجارى الذى أنشأ فى بتافيا .

وكانت السفن الأوروبية تحتاج إلى ستة أشهر على الأقل ، وفى أحسن

الظروف ، لكى تصل إلى الهند الشرقية . وعلى طول هذا الطريق الطويل ، والذى كان يتبع السواحل الافريقية ، ثم يقطع المحيط الهندى ، نظم الهولنديون مرامى لهم فى معظم المواني التى كان البرتغاليون قد إحتلوها قبلهم ، وفى موانى أخرى ، كانوا أول من وصلها من الأوربيين . وقرب مدغشقر ، كانوا قد إستولوا منذ عام ١٥٩٨ على تلك الجزيرة التى سيسمونها جزيرة موريس ، نسبة للامير موريس من أسرة أورانج . أما غزو سيلان ، والذى بدأ فى عام ١٦٣٨، وبإتفاق مع سيد البلاد ، فإنه لم يتم إلا فى عام ١٦٥٦ . ثم سقطت ملقة فى أيديهم فى عام ١٦٤٠ : وكان هذا يعنى ضمان الإشراف على كل العلاقات بين الصين وبين الغرب. وفى الطرف الثانى لهذه السلسلة الطويلة من المراكز التجارية ، أصبحت رأس الرجاء الصالح ، وحيث تم إنشاء أحد المراكز التجارية بواسطة اثنين من ضباط الشركة فى عام ١٦٥٢ ، بدورها ، إحدى نقط الإرتكاز للدولة الهولندية .

وكانت إحدى دول آسيا التى ، مع جزر التوابل ، تجتذب الاطماع أكثر من غيرها ، هى فارس ، التى كانت تنتج انواعاً شهيرة من الحراير . وكان سوقها فى أول الأمر مركزاً بشكل رئيسى فى هرمز تلك الجزيرة الصغيرة التى تقع فى وسط الخليج الفارسى ، والتى كان البرتغاليون يحتلونها منذ عام ١٥١٥ ، وكذلك فى جومبرون ، وهو ميناء مجاور الشيء على ساحل شبه الجزيرة العربية من أجل السفن الأوروبية التى كانت هرمز لاتعطيها ملجأ كافياً : وأقام الفرنسيون والهولنديون والانجليز هناك ، وبدورهم ، مراكز تجارية . ومع القرن السابع عشر ، كانت سيطرة البرتغاليين تقترب من نهايتها . وفى عام ١٦١٢ قام الفرس بطردهم من جومبرون . وأنشئت قلعة هناك ، وستسمى ، بندر عباس ، تيمناً بإسم الشاه عباس الكبير . وسيبدو هذا الميناء أكثر عنه ، فى أى وقت مضى ، وأمام التجار ، على أنه ميناء إيران : وكان عليهم أن يدفعوا هناك ، فى المستقبل لها الضرائب الجمركية .

وفى هذه المسألة ، ستقوم الشركة الانجليزية للهند ، فى إعطاء معونتها للشاه وبعد بضع سنوات ، حاول البرتغاليون أن يستعيدوا هرمز ، فتجددت نفس اللعبة ، وكانت نتيجتها حاسمة بدرجة أكثر . وبعد أن تم طرد الغزاة الاول بشكل نهائى من هرمز ، إضطروا إلى الذهاب إلى مسقط ، عند مدخل الخليج ، وحيث بقوا حتى عام ١٦٤٩ . أما عن سوق فارس ، فإن الانجليز أخذوا بطبيعة الحال مكانتهم ، وإعترف الشاه للانجليز بماقاموا به ، ومنحهم نصف دخل جمارك بندر عباس . وفى عام ١٦٢٢ تم عقد تحالف رسمى بين إنجلترا وإيران ولكن هذا التحالف تعرض لعقبات إقتصادية . ومنذ عام ١٦٢٣ ، حصل الهولنديون بدورهم على معاهدة صداقة ، ستشتمل فى عام ١٦٣١ ، على ميزات تجارية . وسرعان ماتحولت المنافسة الانجليزية الهولندية ، التى ظهرت هناك ، كما ظهرت على كل البحار ، فى صالح الهولنديين . وسيسطرون بشكل واضح على سوق فارس حتى قرب الربع الأخير من القرن ، أى حتى فترة حربهم مع فرنسا ، فى عهد لوى الرابع عشر .

وفى شبه جزيرة الهند ، وبينما ظلت جوا هى المركز الرئيسى للسيطرة الرئيسية للبرتغال ، نزل الانجليز إلى سورات ، إلى الشمال منها ، فى عام ١٦١٢ . وتبعهم الهولنديون إلى هناك ، بعد بضع سنوات . وكانوا قد ظهروا على الساحل الشرقى ، عندنا بوليكات ، قرب مدراس ، فى عام ١٦٠٩ ، قبل أن يقيموا مركزهم فى هوجلى ، على مصبات الجانج ، فى عام ١٦٦٠ . ولم يكن الهندوس يقبلون التعصب فى الشئون الدينية ، فقابلوا الأجانب المسيحيين بالترحيب ؛ وأظهروا نيتهم لإعطاء كل الحقوق لأولئك الذين كانوا قد أظهروا من البداية رغبة فى العيش إلى جوارهم فى سلام . وبدأ ظهور الانجليز فى دلهى منذ بداية القرن .

وعلى العكس من ذلك ، وعند مداخل الصين ، إصطدم توغل الأجانب بحذر

شديد من ناحية الاهالى . ولفترة من الزمن ، إعتقد الهولنديون ، الذين لم يستقدموا معهم رجال بعثات تنصير ، أنهم سينجحون حيث كان منافسيهم قد فشلوا : فبنوا قلعة فى جزيرة فورموزا فى عام ١٦٣٥ : ولكنهم إضطروا إلى إخلائها فى عام ١٦٦١ . واستمروا فى أن يحصلوا من هناك على المنتجات التى كانوا يرغبون فيها — الحرير الخام ، والمنسوجات الحريرية ، والشاى ، — بوساطة الصينيين ، الذين كانوا ينقلون لهم هذه السلع إلى بتافيا أو إلى الفلبين . وكان النجاح أكثر وضوحاً من ذلك فى اليابان : فلقد قاموا بتنظيم أحد المراكز التجارية ، وبتصريح من السلطات المحلية ، فى جزيرة صغيرة قريبة من نجازا كى .

ودفعت روح المغامرة الملاحين الهولنديين إلى ماوراء جزر التوابل وبحر الصين . فذهبت حملاتهم الاستكشافيه حتى السواحل الشمالية لاستراليا ، ووصلوا إلى أرخبيل ميلانزيا ، واكتشفوا ممر رأس هورن. وترك أحدهم ، وهو تاسمان ، إسمه لتاسمانيا ، التى اكتشفت فى عام ١٦٤٢ .

أما البرتغاليون ، الذين تركوا غيرهم بأخذ مكانهم فى بحار الشرق الاقصى ، فإنهم لم يدافعوا عن أنفسهم بطريقة أفضل عند السواحل الإفريقية ، فإستولى منافسوهم الهولنديون فى أول الأمر على جزيرة حوريه الصغيرة فى عام ١٦١١ ، وحيث بدأوا فى تنظيم تجارة الرقيق الأسود ، ثم الرأس الأخضر وساحل الذهب . وبعد ثلاثين عاماً من ذلك ، جاء دور أنجولا ، وسان تومى ، التى سيعيدوا الحصول عليها فى عام ١٦٥١ .

وفى العالم الجديد ، ألقى المغامرون الأول فى حركة التوسع الهولندى أنظارهم ، وكما كان قد فعل الفرنسيون والانجليز ، على الاقاليم غير المحتلة فى أمريكا الشمالية . وولدت هولندا جديدة قرب مصب نهر الهدسون فى سنوات

١٦١٠ ومابعدها . ولكن بداياتها كانت متواضعة للغاية . ولم يبدأ إزدهارها إلا حين عادت العمليات الحربية إلى الظهور من جديد فى الأراضى المنخفضة . وطبقاً لهدنه السنوات الإثنى عشر ، تمت الموافقة على قبول الهولنديين للمشاركة فى الاحتكار التجارى لاسبانيا . وعند إنتهاء فترة هذه الهدنة ، كانوا غير مستعدين للتنازل عن ذلك . وفى نفس العام ، أى فى عام ١٦٢١ ، قاموا بانشاء شركة الهند الغربية ، كان تنظيمها منقولا عن تنظيم شركة الهند الشرقية . وفى عام ١٦٢٣ ، صحب الاستيلاء على مصبات نهر الهدسون بداية لتوطين الاهالى ، ونشأت مدينة نيوأمستردام فى جزيرة مانهاتن . ثم قاموا بتدعيم حركة التهريب ، التى كانوا يقومون بها منذ سنوات على سواحل البرازيل ، بحملات مسلحة . وكانت المراحل الأولى لعملية غزو البرازيل تتمثل ، فى عام ١٦٢٥ ، فى الاستيلاء على باهيا ، وفى عام ١٦٣٠ فى الاستيلاء على برنامبورج . وفى بضعة سنوات ، ومن بين أربعة عشر إقليما كانت تتكون منها المستعمره ، كانت سبعة فى أيدى الهولنديين : وهكذا نشأت هولندا جديدة فى أمريكا الجنوبية .

وبدا أن مصير البرازيل سوف يسوى فى فترة قصيرة ، حين جاءت أحداث أوربا . لكى تعيد النظر فى كل هذه الأمور . ذلك أن البرتغاليين ، بعد أن إستعادوا إستقلالهم فى عام ١٦٤٠ ، حصلوا من الهولنديين ، الذين كان يهمهم الإحتفاظ بود هؤلاء الأعداء المعلنين لاسبانيا ، على هدنة لمدة عشر سنوات ، وذلك فى ٢٢ يونيو عام ١٦٤١ . وكانوا يأملون حتى فى الحصول على تحالف . ولكن منافسيهم كانوا قد بدأوا فى الاهتمام بالسياسة الإستعمارية ، ولم يكونوا مستعدين لعقد مثل هذا التحالف : وكان هذا هو وقت كاف وطويل يوقفون أثنائه غزواتهم ، إلى الشرق ، وكذلك إلى الغرب . وكانت

الهدنة كارثة بالنسبة للسيطرة الهولندية . فنقصت أعداد قوات الإحتلال ، ونتج عنها نشوب الثورات هنا وهناك ، الأمر الذى أدى إلى تحرير ، شيئاً فشيئاً ، الجزء الأكبر من البلاد . ولم يكن من الممكن إعادة الحالة إلى ما كانت عليه ، بعد مرور فترة الهدنة ، فى عام ١٦٥١ ، إذ أن العلاقات مع إنجلترا فى أوربا كانت قد بدأت فى الفساد فمرت شئون أمريكا من المكان الأول ، وأصبحت تحتل المكان الثانى وفى عام ١٦٥٤ ، لم يعد هناك هولنديون فى البرازيل . وسجلت معاهدة لندن ، التى نتجت عن وساطة انجلترا ، فى ٦ أغسطس ١٦٦١ ، تخليهم عن كل إدعاءات إقليمية . وإحتفظوا بأنفسهم فقط قربها ، وفى هذه البلاد التى كانت بغير صاحب ، وهى بلاد جويانا ، وحيث كانوا قد أنشأوا مركز سورينام ، وفى الجزيرة المجاورة المسماه كوراساو . وستظل سورينام وكوراساو مركز للتهريب النشط للغاية .

٢ — التوسع الانجليزى :

كانت بداية التوسع الانجليزى موازية لبداية التوسع الهولندى. وكانت ترجع إلى نفس الفترة وتتضمن نفس الإتجاه الثنائى . ولكن إذا كان الهدف الوحيد إلى الشرق وفى المحيط الهندى ، هو هدف تجارى ، فإنه إلى الغرب تفوق الاستعمار بمعناه الحقيقى على البحث عن سلع الاهالى . فاصبحت أمريكا الشمالية أرضاً للاستيطان . ورحبت بالرجال الذين لم يعد فى وسعهم أن يعيشوا فى بلادهم ، أو الذين كانوا يعيشون فى بلادهم فى ظروف سيئة ، نتيجة لأن الأراضى تحولت ، وكل يوم أكثر ، إلى مراع لقطعان الخراف ،أو لأن التعصب الدينى كان يحارب المعتقدات الجديدة .

ولم يوجد فى أول الأمر هناك تعارض مصالح بين الهولنديين والانجليز ، هذا علاوة على أنهم كانوا أصدقاء وحلفاء فى أوربا . وكانت أولى الصدامات ،

وبخاصة تلك التى أنشئت فى عام ١٦١٥ فى جافا ، من طبيعة لا تعطى نتائج دائمة .
وبعد باتتام ، وحيث كانت إقامتهم ترجع إلى عام ١٦٠٣ ، أنشأ الإنجليز مركزاً تجارياً فى إحدى جزر ملقة ، فى أمبوان ، وفى عام ١٦٢٣ ، تسبب جيرانهم الهولنديين فى إشعال إحدى ثورات الأهالى ضدهم . وكان حدثاً صغيراً ، ولكنه سيترك آثاراً بعيدة : فلن ينس الانجليز سريعاً « مذبحة أمبوان » .

وعلى سواحل الهند ، كانوا قد سبقوا الهولنديين فى سورات ، ثم مازوليباتام ، فى عام ١٦٣١ . وفى عام ١٦٣٤ ، قامت الشركة ، بالاتفاق مع سيد دلهى ، سلطان المغول ، بالحصول على تصريح بالاتجار فى البنغال ، وحيث ظهرت على التوالى المراكز التجارية فى هوجلى (١٦٤٠) ، ثم فى قاسمبازار (١٦٥٨) . أما قلعة سان جورج ، وهى أصل موقع ما دراس ، فإنها بنيت فى عام ١٦٣٩ . وأخيراً ، جاءت بومباى ، كدوطة لشارل الثانى من زوجته كاترين دى براجانس ، فى عام ١٦٦١ ، لكى تضخم من قائمة المراكز الانجليزية فى الهند . وبعد بضع سنوات من ذلك ، صدر قانون بالتخلى عن هذا الموقع للشركة الانجليزية نظير دفع إيجار سنوى .

وعلى عكس الهولنديين ، حاول الانجليز دائماً أن يستندوا إلى الحكام المحليين . فكانوا قد أسسوا مراكزهم التجارية الأولى هناك بالاتفاق مع بلاط دلهى . وكما كانوا قد عاونوا شاه الفرس على طرد البرتغاليين من هرمز ، فإن السلطان أكبر ، سيتمكن بمعاونتهم ، وبعد عشر سنوات ، من الهجوم على المراكز التجارية البرتغالية على ساحل مالابار .

وفى بداية حكم الملك جيمس الأول ، حصلت إحدى شركات الإمتياز على الحق الشامل على كل أراضى العالم الجديد . وكانت أمامها أهداف عديدة : فأولا العمل على توطين معمرين فى تلك البلاد التى كانت قد سميت باسم فرجينيا بواسطة

ذلك العدد البسيط من السكان الذى جاء إليها فى القرن السابق ، ثم القيام بعملية إستطلاع للأراضى بأمل العثور فيها على المعادن الثمينة ، وأخيراً دفع الكشوف فى إتجاه الغرب ، بحثاً عن ممر صوب بحر الجنوب . ولذلك فإن المثل الإسبانى كان لا يزال يشغل الأذهان . وكانت البداية ، منذ عام ١٦٠٦ ، قليلة التشجيع . وكان إختيار موقع أول مدينة ، وهى جيمس تاون ، غير موفق : فكان غير صحى ، الأمر الذى أثر فى السكان ، ولم يجدوا شيئاً من ذلك الذى كانوا قد حضروا بحثاً عنه . ثم إكتشفوا بعد قليل ، وصوب عام ١٦١٠ ، الطباق ، والذى سينتج عن زراعته إزدهار المستعمرة . ومنذ ذلك الوقت ، أصبح المستقبل مضموناً . وتوسعت المستعمرة ، ولم تتأخر الأيدى العاملة السوداء عن أن تصل ، لكى تعمل فى الزراعة .

أما المستعمرة الثانية فكانت لها صفات مختلفة ، وهى التى سميت بإسم انجلترا الجديدة ، والتى تنسب الولايات المتحـــدة الحالية أصول أمتهم لها . وكان مؤسسوها من المنشقين الدينيين ، من البيوريتان ، أو « المتطهرين » ؛ وكانوا قد وصلوا صوب عام ١٦٢٠ ، على السفينة « ماى فلاور » الشهيرة ، ونزلوا منها ، وبطريق الصدفة ، بعيداً إلى الشمال من فرجينيا ، وفى نقطة سوف تنشأ فيها ، فيما بعد مدينة بليموث . ولـكى تعيش ، إضطرت هذه المستعمرة إلى أن تتاجر فى الفراء ، وتدخل من أجل ذلك فى علاقات مـع الأهالى الوطنيين ، فى منطقة البحيرات العظمى . وزاد حجمها ، فى عام ١٦٢٩ ، بإنشاء مستعمرة مساشوست . ثم ظهرت مستعمرات أخرى فى نفس المنطقة (بروفيدنس ، كونكتيكت ، نيوهافن ، وورود آيلاند) ، وذلك فى الوقت الذى ظهرت فيه إلى جوار فرجينيا مستعمرات ماريلاند ، وكارولينا ، الشمالية والجنوبية . أما الهولنديون ، فى هولندا الجديدة ، فانهم أصبحوا محصورين ، فى ذلك الوقت بين مجموعة الشمال ،

ومجموعة الجنوب .

وكذلك إجتذبت جزر المنطقة الاستوائية أنظار الانجليز . ولقد إحتلوا ، فى عام ١٦٠٢ ، أرخبيل برمودة ، امام سواحل فلوريدا . وفى عام ١٦٢٥ ، وحين بدأت الحرب مع إسبانيا فى أوربا ، توغلوا فى مياه البحر الكاريبى (خليج المكسيك) ، وإحتلوا هناك جزيرة باربادا ، التى أصبحت القاعدة الرئيسية لعمليات قراصنتهم . وإلى الشمال أكثر من ذلك ، إحتلوا كذلك عدداً كبيراً من الجزر الصغيرة ، والتى لم يكن الاسبانيون قد إحتلوها . وسميت هذه المجموعة باسم جزر « ليوارد » ، أى « تحت الريح » . وهى تشتمل أساساً على أنتيجوا ، وسان كريستوف ، (والتى كان جزءاً منها فى أيدى الفرنسيين) ونيفيس ، ومنتسيرات . ولكى يزودوا هذه الجزر بالعبيد ، والتى تحولت إلى جزر تنتج السكر ، تأسست الشركات فى الربع الثانى من القرن . وأنشىء مركز تجارى ، فى عام ١٦٣١ ، على ساحل جامبيا . وهو الذى سيصبح المركز الرئيسى لتجارة الرقيق ، الإنجليزية .

٣ — التوسع الفرنسى :

كانت الضروريات التى دفعت الإنجليز والهولنديين فى طريق التوسع ، لا يشعر بها جيرانهم الفرنسيين . فهنا ، كانت مرسومات نانت قد ضمنت مصير الأقلية الدينية . ومن جانب آخر ، كانت التجارة الخارجية تشتمل على ميدان واسع ، وميدان له ميزاته ، وله إمتيازاته ، نتيجة للعلاقات الودية التى كانت المملكة تحتفظ بها مع العالم الاسلامى : ففى هذا المجال ، كانت المراكز التجارية فى شرق البحر المتوسط تمثل بالنسبة لفرنسا ما يعادل إمبراطورية بحرية واستعمارية . ولا شك فى أنه كان هناك على الخريطة ، ومنذ وقت طويل ، وعند مصبات نهر سان لوران ، « فرنسا جديدة » . كانت مجهودات شامبلان قد

أعطتها الحياة . ولكن ، فيما عدا موانى المحيط الأطلسى ، كان هناك القليل من الناس الذين يتهمون بها ، أو يعتقدوا فى أنه سيكون لها مستقبل . ولقد عبر سولى عن مشاعر الكثيرين من أبناء بلده بالنسبة لمؤسسات ومنشئات ماوراء البحار ، حينما كتب عن إمكانية العمل ضد الاسبانيين فى الهند ، فى عام ١٦٠٨ ، ونصح بعدم البقاء فى أماكنهم التى سوف يطردون منها : « لا يمكننا ان نحتفظ بمثل هذه الغزوات ، إذ أنها بعيدة عنا للغاية ، وبالتالى فإنها غير متناسبة مع الطبيعى ، ومع عقل الفرنسيين » .

ولكن الأمر سوف يتغير تماماً مع ريشيليو . ذلك أن الرغبة فى عرقلة أعمال إسبانيا ، وفى الوصول إلى نفس درجة عظمتها ، دفعت رجل الدولة الكبير هذا بطبيعة الحال إلى أن يوجه أنظاره فى اتجاه المحيط . وكانت فرنسا الجديدة تهمه بنوع خاص ، إذ أن الانجليز كانوا قد بدأوا فى الطمع فيها : فكانوا قد إحتلوا كويبك فى اثناء تلك الأزمة القصيرة التى تعرضت لها العلاقات الفرنسية الإنجليزية عام ١٦٢٨ — ١٦٢٩ ، ولم يعيدوا هذا الموقع إلا بعد ثلاث سنوات وبمعاهدة سان جرمان ، فى ٢٩ مارس ١٦٣٢ . ولقد عمل ريشيليو على تنمية فرنسا الجديدة هذه ، فمنح لشامبلان ذلك التأييد الذى لم يكن قد حصل عليه حتى ذلك الوقت . وقام ، بنوع خاص ، بتشجيع عملية التوطن . وكاف بها جمعية المائة عضو ، التى تأسست فى عام ١٦٢٨ . ومع ذلك فلقد إنتهت هذه العملية الأولى للإستعمار بالفشل : ذلك أن الشركة لم تكن تهتم كثيراً إلا بالتجارة ، والتعامل فى الفراء . وعند وفاة ريشيليو لم تكن هذه المستعمرة تشتمل ، علاوة على رجال التنصير المكلفين بتنصير الاهالى ، إلا على بعض مئات من الاشخاص « المتأقلمين » أى الذين أقاموا هناك بصفة دائمة . ومع ذلك فقد قاموا بتقدم فى إتجاه الداخل : ذلك ان مونتريال كانت قد تأسست فى عام ١٦٤١ .

وكان يبدأ منها سفر التجار للتعامل مع الوطنيين . ونتج عن إقامة البيض فى هذه المنطقة نشوب حرب مع القبائل المجاورة ، قبائل إيروكوا . وإستمرت الحرب الأولى لمدة خمسة وعشرين عاماً من عام ١٦٤١ حتى عام ١٦٦٦ .

وشجع مثل الانجليز ريشيليو على النزول فى جزر الأنتيل ، فى عام ١٦٢٦ ، رغم أن فرنسا لم تكن فى ذلك الوقت ، مثل انجلترا ، على حرب مع أسبانيا . وفيما بين القراصنة الذين كانوا يختبئون بسفنهم فى الجزر التى لم يكن الاسبانيين قد إحتلوها ، كان هناك عدد كبير من الفرنسيين . ولقد استجاب ريشيليو لنداء تلك المجموعة الصغيرة التى أقامت بعد غرق سفينتها على جزيرة سان كريستوف الصغيره ، وقرر أن يستولى عليها بواسطة شركة تشبه شركة المائة عضو ، وهى الشركة التى ستقوم هناك بالتجارة فى الطباق . وكان عليهم أن يشاركوا الانجليز الذين أقاموا هناك فى نفس هذه الفترة نفس هذه التجارة .

وفى عام ١٦٣٥ ، وحين أعلنت الحرب على أسبانيا ، قامت شركة جديدة تسمى شركة جزر أمريكا . بالاستيلاء على جواديلوب وعلى المارتينيك . وكان رد فعل الاسبانيين بنفس ضعف رد فعلهم وقت إحتلال سان كريستوف . فلم يستتبع الأمر سوى الصراع مع الاهالى الوطنيين . ومنذ عام ١٦٢٦ ، كان بعض الفرنسيين الذين أتوا من سان كريستوف قد قاموا كذلك بإحتلال جزيرة السلحفاة ، والتى كانت تابعة لسان دومنجو ، وقاموا بتحصينها ضد الاسبانيين الذين كانوا يحتفظون ، وبأعداد بسيطة ، بالساحل الجنوبى لسان دومنجو . وكانوا يعملون على قنص الحيوانات ، البرية والمستأنسة ، التى يقابلونها فى تلك الجزيرة الكبرى ، لكى يتعاملوا فى جلودها ، وفى لحومها المدخنة . وطردوا منها فى عام ١٦٥٤ ، ولم يعودوا إليها إلا بعد بضعة سنوات . وفى هذا الوقت ، أصبحت جزر الانتيل الفرنسية تشتمل على مايقرب من اثنتى عشر جزيرة ، متفاوتة

الاحجام . أما الشركة ، التى واجهتها صعوبات ، فانها قامت ببيعها لاشخاص عاديين : فباعت جزيرة سان كريستوف ، مثلا لجماعة القديس يوحنا . واتفقوا فقط على الاحتفاظ بالسيادة للملك : فكان كل مشترى جديد يحصل على لقب « حاكم » .

ولقد غيرت بعض هذه الجزر ملاكها مرات عديدة . وكانوا جميعاً قد إشتبكوا مع مقاومة الأهالى ، وعلى الاقل حتى عام ١٦٦٠ ، وهو الوقت الذى وافق فيه من بقى من الاهالى ، وبالاتفاق مع رؤسائهم ، على أن ينقلوا إلى جزيرتين ، وهى الأكثر فقراً فى مجموعة الجزر ، واللتين تم إعطائها لهم ، مع ملكيتها ، وهما جزيرتى دومنيك ، وسان فانسان .

أما فى إفريقية ، فإن النورمانديين كانوا يذهبون منذ وقت طويل إلى سواحل غينيا ، وكان هؤلاء النورمانديون يقومون بتجارة التهريب مع أمريكا الجنوبية . وكانوا فى بعض الحالات ينزلون هناك ويقومون بالتعامل مع الوطنيين . وفى عام ١٦٣٣ ؛ تكونت شركة ، بتأييد من ريشيليو ، من أجل إستغلال ثروات هذه المنطقة وإمتد إمتيازها إلى سواحل السنغال ، والرأس الأخضر ، وجامبيا . وقامت شركتان أخرتان ، تأسستا فى عامى ١٦٣٤ — و١٦٣٥ ، بإعطاء أنفسها قطاعات أخرى من الساحل فيما بين جنوب المغرب وسيراليون ، وظهرت مؤسسة جديدة فى عام ١٦٥٨ عند مصب نهر السنغال ، وفى الجزيرة الصغيرة ، التى ستنشأ فيها مدينة سان لوى بعد فترة قصيرة .

أما مدغشقر ، فإنها جذبت فى نفس هذه الفترة إنتباه سكان دييب ، الذين كانوا قد حضروا إليها باحثين عن خشب الأبنوس ، وقامت شركة شرقية ، تأسست فى عام ١٦٤١ ، بالنزول هناك فى العام التالى . وأسست فوردوفان . وهذه المستعمرة الجديدة ، التى سميت فى أول الأمر « فرنسا الشرقية » ثم جزيرة

«دوفين» ، ظلت تواجه عداوة المنجاش ، وتواجه حياة صعبة . وستظل بنوع خاص — وعلى الأقل مؤقتاً ، وحتى عصر كولبير — مركزاً للقراصنة ، وقريباً من طريق التوابل .

وأخيراً في الشرق الأقصى ، رجعت الحملات الفرنسية الأولى إلى سنوات ١٦١٧ — ١٦١٩ . وكانت ترجع إلى «شركة ملقة» ، والتي كانت تسمى غالباً «أسطول مومورانسي» . ولكن وسائل عملها كانت غير كافية ، ولن تعطى هذه المحاولة شيئاً — إيجابيا .

وفجأة ، سيصبح التوسع الاستعماري أمراً يتعلق بكل الدول الطموحة ، وليس فقط الدول العظمى . فأصيبت الدانمرك في عصر الملك كريستيان الرابع ، والسويد في عصر وصاية أوكسفستيرن ، بهذه العدوى ، وأنشأتا شركات من أجل التجارة فيما وراء البحار . وأصبحت مدينة ترنكيبار ، على ساحل كوروماندل ، مستعمرة دانمركية في عام ١٦٢٤ — وهي مستعمرة ستظل ، مع ذلك ، بدون قيمة . وفي أمريكا الشمالية جاءت بضع مئات من السويديين للاقامة في عام ١٦٣٨ في منطقة ديلاور : وهذه «السويد الجديدة» سيقوم جيرانها الهولنديون ، في عام ١٦٥٥ ، بغزوها ، وبضمها .

الفصل الثالث عشر

حرب الثلاثين عاماً:

أصولها وبداية الأزمة

لقد ظل المناخ العام فى بداية القرن ، هو نفسه ، وإلى حد بعيد ، ذلك المناخ الذى كان موجوداً فى الفتره السابقة . وكانت العواطف التى نتجت عن حركة الإصلاح الدينى لاتزال مشتعلة . وربما فقط كانت أقل وقوعاً تحت تأثير الماضى . ومالت سياسات الدول إلى إستعادة حقوقها . فلم تكن فرنسا وحدها هى التى لم تتردد ، مع ملوكها الكاثوليكيين للغاية فى أواخر حكم اسرة لافالوا ، وفى أكثر من مرة ، فى أن تؤيد المراطقة الموجودين فى الخارج . ذلك أن انجلترا والأقاليم المتحدة ، واللذان كانا قد إنضما تماما إلى المذاهب الجديدة ، واللذان ظهرا على أن الوحدة بينهم قد تدعمت بذلك الصراع الذى قاموا به سوياً إسبانيا ، قد إبتعدتا شيئاً فشيئاً ، الواحدة عن الأخرى ، حتى اليوم الذى وصلنا إليه ، قرب منتصف القرن ، لكى تشتبك فيه الواحدة مع الأخرى .

وكما حدث فيما مضى ، وأكثر من مرة ، نجد أن الحروب الأهلية ، التى نشأت عن تعارض بين المعتقدات ، تتطور إلى صدامات دولية . وكانت هذه هى حالة ألمانيا إبتداء من الربع الثانى للقرن . ولذلك فإن حرب ألمانيا سوف تمثل ، فى منتصف هـذا الفصل ، العصب الأساسى له ، إن لم يكن العمود الفقرى . وبعد قرن من الزمان سنشهد مرحلة جديدة من مراحل التنافر بين فرنسا وبين الأسرة الحاكمه فى النمسا . أما الاختلاف الكبير مع

المرحلة الأولى للحرب ، فإنه يتمثل ، منذ تخلى شارل الخامس عن العرش ، والامبراطورية وأسبانيا ، ورغم أنها ستظل دائماً تحت حكم آل هابسبورج ، لم يعد لها نفس الملك ، وبالتالى أن تقوم كلها بإنتهاج نفس السياسة . ولكن علاقات أسروية وثيقة ، مدعمة بإرتباط مشترك بالعقيدة الكاثوليكية ، كانت توحد بين البلاطين ، وتحتفظ فيما بينها بتضامن لن ينجح خصومها فى تقطيع أوصاله قبل عام ١٦٤٨ .

١ ـ الاسباب :

كانت أحسن الميادين للمناقشة بين البوربون والهابسبورج تتمثل دائماً فى إيطاليا المقسمة ، والمنقسمة دائماً على نفسها ، وحيث كان الاسبانيون يحتفظون بالممتلكات السابقة للامبراطورية ، فى ميلانو ، وتوسكانيا ، ومملكة نابولى . وأكدت المملكة الفرنسية أنها تحمى الدول التى كانت قد ظلت مستقلة . وإنتهزت كل فرصة لكى تظهر إهتمامها بهذا الإستقلال ، رغم أن هذا كان لايخفى رغبتها المستمرة منذ عدة أجيال فى وضع أقدامها على السفوح الغربية لجبال الألب ، وأخذ مكان أسرة سافوا هناك . وكان هذا الخليط من حسن النية ومن الرغبات الرفينة للضم تجعل العلاقات صعبة فيما بين فرنسا وسافوا ، وتجعل الصداقة بينهما غير مستقرة .

وكان هنرى الرابع ، قبيل وفاته مباشرة ، وفى الوقت الذى كان يعد فيه الحرب ضد أسرة هابسبورج ، وقد قام باللازم من أجل ضمان معونة رجال سافوا . وبإسمه ، قام ليديجير بالتوقيع على معاهدة بروسول ، وهى معاهدة تحالف دفاعى هجومى ، أكملت بزواج ابنته الكبرى من وريث الدوق شارل ايمانويل فى ٢٥ أبريل ١٦١٠ . وبعد وفاته ، إعتقد الناس فى تغيير كامل لاتجاه السياسة الفرنسية فقامت الوصية مارى دى ميديسيس ، وبسبب إرتباطها

بالمذهب الكاثوليكي ، بالتقرب من أسبانيا : وطبقاً لمعاهدة سرية تم التوقيع عليها في مدريد في ٣٠ أبريل ١٦١١ ، وعدوا بإحدى الأميرات الاسبانيات للملك الصغير ، الذى كان له عشر سنوات من العمر ، وتم عقد تحالف مع فيليب الثالث . ولكن القطيعه مع سياسه هنرى الرابع لم تكن سوى مسألة ظاهرية فقط . فمسأله «الزيجات الاسبانية» — وهي زيجات لوى الثالث عشر من أميرة أسبانية ، وتزوج أخته من أمير إسباني — لم تكن تمثل ، في الواقع ، إلا ضمان ضد التهديدات الممكنة لقوة كانوا يخشونها دائماً . وكان الأمر كذلك في السنوات الأخيرة من حكم هنرى الرابع . ولقد إضطر وزراء الوصية، والمخلصين لطريقة تفكير الملك المتوفى،ومن أجل طمأنة إنجلتراوهولندا،إلى إعلان أن هذه الصلات الجديدة لن تؤثر على العلاقات القديمة . كما أنه سرعان ما تطلب يد أخت أخرى للملك الفرنسي لأمير ويلز ، وهو الملك شارل الأول فيما بعد .

وكانت العلاقات الودية الفرنسية الأسبانية سبباً على الأقل في أن تسهل ، في عام ١٦١٣ ، تسوية تلك الخصومة التي نشأت في سهل نهر بو بشأن وراثة مانتوا . فعند وفاة الدوق الحاكم ، والذى كان من أسرة جونزاج ، إدعى شارل إيمانويل صاحب سافوا ضرورة وضع يده على مونفيرات ، وعلى أساس أنها منطقة نفوذ أسروى ، عليها أن ترجع إلى إبنته ، أرملة المتوفى . واحتل عسكرياً جزءاً منها ، وذلك في الوقت الذى إلتجأ فيه الوارث الشرعى إلى فرنسا الصديقة . وكان تفاهم حكومتي باريس ومدريد سبباً كافياً لإجبار صاحب سافوا على التخلي عن هذه الأماكن ، والعودة إلى بوده .

وفي نفس العام ، وقعت حادثة صغيرة ، أظهرت اهتمام أسرة هابسبورج النمسوية بالمدن والاسقفيات الموجودة في إقليم اللورين والتي كانت قد فقدت منذ عام ١٥٥٢ . وكانت سلطة ملك فرنسا غير موجودة إلا في بعض

الأوقات فى أراضى اسقفية ميتز ، وهى إمارة متميزه عن المدينة ، والتى كان اسقفها قد ظل هو السيد ، وتحت السيادة النظرية للامبراطورية . ولكن حاكما جديدا من حكام الملك ، وهو دون إبيرنون ، أفاد من فرصة وجود أحد الاساقفة الفرنسيين فى ميتز ، وهو ابن غير شرعى لهنرى الرابع ، وحاول أن يدخل القوات الفرنسية فى المدينة ، عاصمة الاسقفية . وبعد أن علم الإمبراطور ماتياس بذلك ، من رجال الدين ، تدخل فى الأمر . ومنذ تخلى شارل الخامس عن العرش ، لم تكن هناك معاهدة لتحديد أمور السلم ، ولم يكن هناك سفير دائم للامبراطورية فى البلاط الفرنسى . ولذلك فإنهم أرسلوا مندوباً خاصاً ، هو كونت هوهنزلرن ، إلى باريس . وتوقف ، فى سيره ، فى عاصمة الإقليم ، وشجع مقاومة رجال الدين ، ثم ابلغ الحكومة الفرنسية ما يجب عمله ، ليس فقط التبرؤ من عمل دون إبيرنون ، ولكن كذلك التعهد من اجل المستقبل ، بعدم التعرض ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، لحقوق الامبراطورية فى هذه المنطقة . ولقد حاول الوزير فيلروا ، بلا جدوى ، الوصول إلى وسيلة تحتفظ بماء الوجه . وكان متضايقاً من ذلك الاضطراب الذى تسبب فيه أحد الامراء ، والذى كان معادياً لحكومة الوصية ، وإنتهى به الامر إلى أن يوافق على المطالب الامبراطورية . وربما كان قد حصل على وعد بأن تظل المسألة سرية : وعلى أى حال فإن المعاصرين لها كانوا يجهلونها . ومن جانب آخر ظلت هذه العملية دون أن تترتب عليها نتائج . وكانت حدود جبال الألب ، هى من جديد ، التى ستجتذب إنتباه وزراء لوى الثالث عشر فى السنوات التالية ؛ وسيضطرون إلى الدفاع عن مواقع فرنسا وأصدقائها ضد أسبانيا .

ولقد قام شارل إيمانويل ، وكان كثير الحركة ، فى الدخول فى مغامرة جديدة . وكان هدف أطماعه لايزال هو نفس الهدف . ولكن ، لما كانت إسبانيا

هى التى أعلنت بوضوح أنها تحمى دوق مانتوا ، فإنه دخل إلى الحرب ضدها فى عام ١٦١٤ . وتم التوصل إلى صلح فى العام التالى ، بعد عرض الخلاف على إحدى محاكم الامبراطورية . ولكن سرعان ما يطمئنون فى الأمر ، وتبدأ فى عام ١٦١٦ العمليات من جديد . ولقد تركزت حول موقع فيرسيل ، الذى سينتهى الأمر بالاسبانيين إلى الاستيلاء عليه . وقام ياور الملك فى دوفينيه ، ليديجيير ، ورغم التعليمات والأوامر التى كانت قد وصلت ، والتى كانت تفرض عليه موقف حياد تام ـ إذ أن فرنسا كانت رسمياً حليفة لاسبانيا ـ بالاتصال برجال سافوا ، وساعدهم على طرد الاسبانيين . ولكن التبرؤ الرسمى منه لم يعط أية نتيجة ؛ إذ أنه ، فى هذا الوقت بالذات ، تخلص الملك الصغير من مربية العجوز ، كونشين ؛ وبعد ان أصبح حراً فى إختيار طريقه الخاص ، والعودة إلى طريق والده ، هنأ القائد الشجاع ، ووافق على وجهة نظره ، وسمح أخيرا بإعداد حملة جديدة ، وهى الحملة التى ستصل إلى الصلح ، وهو صلح قائم على أساس « الوضع القائم » فى شهر سبتمبر عام ١٦١٨ . وكان فى حاجة بالكاد إلى ان يقرر أن التحالف الفرنسى الأسبانى قد عاش . ولقد عادوا إلى سياسة معاهدة بروسول : فإعترف له شارل إيمانويل بالجميل ، وزوج وريثه من احدى أخوات لوى الثالث عشر ، وهى كريستين دى فرانس .

وكانت كل هذه المسائل صغيرة بالنسبة لما سوف يحدث بعد ذلك . وبدأت أنظار أوربا تتجه صوب أحداث ألمانيا فى هذه الفترة .

٢ ـ الحرب فى بوهيميا وألمانيا :

فى هذه السنوات الأولى من القرن السابع عشر ، لم تكن ألمانيا هادئة إلا ظاهريا . وتحت رماد صلح أوجسبرج ، كانت النيران لاتزال مشتعلة منذ عام ١٥٥٥ (واستخدم هذا التعبير كثيرا ، ولكنه لايزال ضروريا) . ومن عام

لآخر كانوا يشعرون بأنها سوف تشتعل من جديد . ففى عام ١٦٠٨ ، تسبب إنشاء « إتحاد ايفانجيلى » وتحت إدارة منتخب البلاتينات ، وبعد فترة قصيرة ، فى نشأة « عصبة » من الأمراء ومن الدول الكاثوليك ، الذين حذوا حذو دوق بافاريا . وجعلوا العالم يخشى من أن تنشب حرب مذاهب من جديد ، وفى فرصة قريبة . وفى العام التالى ، بدت الأزمة التى نتجت عن موضوع وراثة الحكم فى كليف وجولبير ، على أنها ستعطى إشارة البدء لما كانوا ينتظرونه . ثم جاء التهديد بتدخل فرنسى ، وهو التهديد الذى توقف فى اللحظة الأخيرة بالموت المفاجىء لهنرى الرابع ، وهو الذى عمل على فرملة النيات المحاربة من الجانبين . وأخيرا ، لم تحدث حرب أوربية ، وهى الحرب التى كانوا يخشون منها ، ولا حرب ألمانية ، وجاءت تسوية على أساس الحل الوسط — وهو تقسيم بين المدعين الكاثوليك والبروتستانت لكى تسوى أمر الوراثة المتنازع عليها ، بطريقة ما.

ولقد تسبب التعصب الكبير للامير الجديد ، وهو فرديناند صاحب إستيريا ، وكان إبنا لعم الإمبراطور ماتياس ، وسيخلفه فى عام ١٦١٥ بإسم فرديناند الثانى ، فى إعادة إثارة المشاعر ، وفى التسبب فى أزمة جديدة ، أخطر بكثير من تلك التى كانت قد نشبت فى القرن السادس عشر . ولم يكونوا قد إختاروا فرديناند فى حد ذاته ، بل كانوا قد إختاروه ضد مرشح آخر ، والذى كان كل الألمان يخشونه ، خاصة وأنهم كانوا غيورين على حرياتهم السياسية ، وهو ملك إسبانيا ، فيليب الثالث . وكان فيليب ، بمولده ، له الأولوية على غيره فى المطالبة بالوراثة . ولكنه ، حين علم بالمعارضة التى ستواجهه ، قرر التخلى عن حقوقه نظير تعويض كبير . ولقد نص على هذا التخلى ، سرا فى معاهدة ٢٠ مارس ١٦١٧ ، والتى سميت بإسم معاهدة أونيات ، وهو إسم السفير الذى كان قد وقع عليها : وكانت عبارة عن اتفاقية أسروية ، يتنازل بها عن حقوق آل هابسبورج فى فينا ، عن

بعض الاجزاء من الأراضى الأمروية ، وبخاصة عن « السيطرة » على بعض مناطق الالزاس . ورغم ان هذه الإتفاقية قد تجدد العمل بها ، وتأكدت فى أوقات لاحقة ، إلا أنها لم تنفذ .

اما الأزمة الكبرى التى ستشتعل فى المانيا طوال ربع قرن ، فإنها سوف تبدأ خارج هذه الحدود ، وفى بوهيميا . فمنذ عام ١٥٢٦ كان تاج سان وينسيلاس ، تاجا منتخباً مثل تاج المجر ، وكان مثله فى أيدى آل هابسبورج وكان التشيكيون شديدى الولاء له . ولذلك فإنهم وجدوا ميزات عديدة فى ان يجعل رئيس الامبراطوريه المقدسة من براغ — عاصمتهم — مقرا مفضلا له وجاءت المشكلة العقائدية هناك بمظاهر جديدة ، ونتيجة لبقاء أحد الاتجاهات القديمة ، وهو مذهب هوسى ، وتحوله فى أثناء القرن الخامس عشر إلى نوع من المذاهب القومية. وكان أنصار لوثر أكثر عدداً بكثير من الكاثوليكيين ولكنهم كانوا لا يتمتعون بأية حقوق . وكانوا متسامحين معهم ، أو يتحملون وجودهم ، ولكن نصوص صلح أوجسبرج لم تطبق أبداً فى بوهيميا . وفى عام ١٦٠٩ حصل الدايت ، وبالتفاوض مع الامبراطور ، على نجاح كبير فى هذا الميدان : فإعترفت « خطابات الملك » بنفس الحقوق لاصحاب العقيدتين . ولكن الأقلية الكاثوليكية والتى كانت تستند إلى اليسوعيين ، عملت على تأجج النيران . وتم الشعور منذ ذلك الوقت بأنه هناك مناخ لحرب أهلية . وكان انتخاب فرديناند صاحب إستيريا كملك على بوهيميا منذ عام ١٦١٧ ، أى عامين قبل وفاة ماتياس ، يعمل على إثارة الموقف ، ويقوى من عزائم الكاثوليك . وكانت أعنف الاحداث فى هذه الأعوام الصعبة ، هو ذلك الحدث الذى وقع فى ٢٣ مايو عام ١٦١٨ ، وهو حادث « الإلقاء من النوافذ » الذى وقع فى براغ ، كحادث عنف تم التفكير فى إعداده مسبقاً ضد إثنين من المستشارين الذين كان الملك غير راضى عنهما. وكانت

هذه هي بداية حركة التمرد المسلح . وتشكلت حكومة مؤقتة من ثلاثين « مديراً » أخذت مكان مجلس الملك . وقبل نهاية العـام ، كانت القوات البروتستانتية ، بقيادة كونت تورن ، تسيطر على غالبية البلاد . وبدأت العمليات الحربيـة فى عام ١٦١٩ .

ولم يكن فى وسع البروتستانت فى ألمانيا ان يظلوا محايدين أمام هذا الصدام الذى نشب إلى جوارهم وكان الاتحاد الايفانجيلى قد رفض ، بحذر ، ان يوافق على ضم بوهيميا الثائرة إليه . ولـكنه وجد نفسه ، برضاه أو رغما عنه، وقد إضطر إلى التدخل ، نتيجة لطموحات أحد رؤسائه . منتخب البلاتينات . وكان فريدريك الخامس ، الشاب ، قد تزوج إبنة جيمس الأول ، ملك انجلترا . وكان التشيكيون قد وجدوا انه سيكون من السياسة ان يختاروه ملـكا حينما يقررون أمر خلع فرديناند فى شهر أغسطس عام ١٦١٩ . وإبتداء من هـذا الوقت ، وصلتهم بعض الأموال من الخارج ، أولا من الإتحاد الإيفانجيلى ، ثم من مجلس المقاطعات ، فى الاقاليم المتحدة ، وجاءتهم معونة غير متوقعة كذلك من أمير ترانسيلفانيا ، بيتلين جابور : ذلك أنه غزا المجر « الملـكية » ، ودخل إلى بريسبورج ، وأقام أحد المواقع المتقدمة صـوب فيينـا . واضطر رجال الامبراطورية ، وهم مهددون فى نفس الوقت بجيش كونت تورن ، بمواجهة ناحيتين ، فى نفس الوقت .

وفى اثناء ذلك الوقت ، لم تـكن قضية فرديناند مهددة بشكل خطير . فبينما كان هناك تردد واضح من جانب البروتستانتيين ، وبينما كان الملك جيمس لا يفكر حتى فى إمكانية إرسال معونة لزوج ابنته ، ظهرت روح تضامن كامـــل عند الكاثوليك ، وتم نسج شبكة من التحالف حول الامبراطور . وارسل فيليب الثالث إلى ايطاليا جيشاً صغيراً ، ووعد بجيش آخر ، يأتى من الاراضى المنخفضة

لغزو البلاتينات ، ووضع دوق مكسيمليان ، دوق بافاريا ، ورئيس العصبة الكاثوليكية ، نفسه فى خدمة فرديناند مع كل قواته ، وذلك بأمل الحصول على المركز الانتخابى الذى سوف تحرم البلاتينات منه ؛ أما ملك بولندا ، فإنه تدخل على رأس قوات فرسانه ، صوب الدانوب ، وأجبر تورن وبيتلين جابور على التقهقر . وأخيرا وهو نجاح غير متوقع لسياسة آل هابسبورج - قام منتخب ساكس ، والذى أغراه الوعد بالحصول على أحد الاقاليم التى لا تدخل تحت تاج بوهيميا ، بالموافقة على أخذ موقف فى الحرب ضد البلاتينات ، وضد رئيسها ، وهو من أنصار مذهب الاصلاح مثله ، وان كانت إمارته قد تحولت بعد ذلك إلى مذهب كلفن .

وحين قررت فرنسا فى عهد مارى دى ميدسيس ، وفى عصر حكومة كاثوليكية للغاية ، وبعد ترددات طويلة ، ان تقترح وساطتها ، بدت الإمكانيات ، فى نهاية الأمر ، على أنها فى صالح آل هابسبورج وفى صالح حليفه البافارى . ولم يرفضوا الدافع الفرنسى . ولكنهم كانوا معادين ، من حيث المبدأ ، لكل تدخل فى الخارج ، فعملوا على جعله بدون قيمه ، وكانت ثمرته الوحيدة هى معاهدة أولم ، التى عقدت فى ٣ يوليو ١٦٢٠ ، وبطلب من سفراء الملك ، بين رؤساء الاتحاد الإيفانجيلى وبين رؤساء العصبة فتعهد البروتستانتيين بعدم التدخل فى حرب بوهيميا ، بينما وعدوا الكاثوليك بإحترام دول منتخب البلاتينات . ومنذ هذا الوقت سوى مستقبل البلاتينات : وكان قد عمل هذا الاتفاق من أجل ان تحتلها القوات الاسبانية .

وكانت عمليات عام ١٦٢٠ حاسمة . فانضم البافاريون ، بقيادة تيلى ، وهو أحد البلجيكيين ، إلى القوات الامبراطورية التى كانت تزحف على براغ . ومن جانب تشيكوسلوفاكيا ، لم يكن كونت تورن يتعمد على جيش حقيقى ،

بل على مجموعة غير متناسقة فى تشكيلاتها ، وتنقصها القيادات ، وعملية التنظيم ، وكذلك روح النظام . وكان الكونت إرنست دى مانسفيلد الألمانى قد أتى اليها ببعض فرق المرتزقة ، والتى لم تتمكن من القيام بأى شىء . وكان قد حصل من بيتلين جابور على بضعة آلاف من المجريين . وفى يوم ٨ نوفمبر ١٦٢٠ ، وعلى هضبة الجبل الأبيض ، وبعد معركة دامت مدة ساعة واحدة ، انتهى أمر الدفاع عن براغ وانهارت قضية بوهيميا بضربة واحدة . وصحبت عملية إعادة السلطة الامبراطورية عمليات قمع فظيعة ، تتمثل فى الحكم بالإعدام على الرؤساء الثائرين ، وفى مصادرة أملاكهم . وتلى ذلك حركة رد فعل عامة فى الشئون السياسية والدينية — فهى حرب ضد مذاهب الاصلاح الدينى ، وضد اللغة والقومية التشيكية — وتتوجت ، فى عام ١٦٢٧ ، بفرض الإرغام على كل السكان بالدخول رسمياً إلى المذهب الكاثوليكى ، ومنح دستور جديد زاد بشكل واضح من امتيازات النظام الملكى ، وجعل التاج وراثياً فى اسرة هابسبورج . ولم يعد الملوك يقيمون فى براغ ، ونقلت مستشاريه المملكة (الوزارة) إلى فينا . ولفترة تزيد على قرنين من الزمن ، سيعتبر السادة الجدد بوهيميا على أنها إقليم تمسوى .

ومنذ فترة الجبل الأبيض ، وقعت البلاتينات فى أيدى القوات الاسبانية التى وصلت من الأراضى المنخفضة بقيادة سبينولا . ولم يتحرك أحد من جيرانها . وسيطر الخوف على الجميع حين علموا بالهزيمة الساحقة التى نزلت بفريدريك . لم يفكروا إلا فى أنفسهم . وعمل الاتحاد الإيفانجيلى على أن يخلص نفسه من الموضوع . وبحثت البلاتينات ، بلا جدوى ، عن آخرين يقومون بحمايتها ، فى السويد ، وفى براندبورج ، وفى الدانمرك ، ولكنها لم تحصل إلا على كلمات معسوله : وكانت قد فقدت قضيتها بشكل واضح . وإذا كانت هناك مع ذلك « حرب فى البلاتينات » ، فإن ذلك كان يرجع إلى أن المغامرين قد عملوا على

الإفادة من الظروف لكى ينزلوا عصابات المرتزقة الخاصة بهم إلى أرض المعركة — وكانت عصابات أكثر من كونها جنود — واستغلوا ذلك فى فرض الإتاوات على اهالى الأرياف ، مهددين إياهم بإحراق محاصيلهم ومنازلهم .

وبدعوى الدفاع عن البلاتينات ، والعمل على إثارة قلق الاسبانيين الذين كانوا يحتلون هذه الإمارات ، عاد إرنست دى مانسفيلد من بوهيميا ، وخرب فى عام ١٦٢٢ أسقفية إسبير ، ثم الألزاس السفلى ؛ وقام كريستيان برانزفيج ، وجورج فريدريك صاحب باد بتشديد قبضتهم فى وستفاليا ؛ وقامت القوات الإمبراطورية والبافارية بتعقبهم ، وأجبرتهم على ترك البلاد . أما فى الشرق ، فإن بيتلين جابور ، والذى كان قد نجح فى أن ينتخبه دايت المجر ملكا عليها ، قد عاد مرة ثانية صوب فينا . أما فرديناند ، والذى كان بدون قوات مسلحة فانه إضطر إلى أن يشترى الصلح من هذه الناحية ، حتى يحتفظ بحرية عمله فى ألمانيا : وفى معاهدة نيكولدبرج ، فى شهر يناير ١٦٢٢ ، تخلى بيتلين جابور عن تاج المجر ، فى نظير التخلى له عن بعض أقاليم فى سيليزيا ، وعلى حدود أقاليمه الوراثية . ولم يكن الامبراطور قد قرر تماما تجريد البلاتينات ، التى كانت قد هزمت ، وأصبحت معزولة . ولكنه وعد بإعطاء إمارتها المنتخبة لمكسميليان البافارى ، وكان هذا الأخير لا يكف عن مطالبته بها . ورغم معارضة الاسبانيين الذين كانوا يرغبون أشد الرغبة فى البقاء فى هيدلبرج ، إنتهى به الأمر إلى أن يعطى مكسميليان المرسوم الخاص بذلك فى شهر فبراير عام ١٦٢٣ . ومع ذلك فإنه لم تحدث عملية لنقل السيادة : فلقد وضعت بلاتينات الراين تحت نظام الحجر ، وأصبحت تدار ، جزئياً ، بواسطة الأسبانيين ، وجزءاً آخر منها بواسطه البافاريين . اما مكسميليان فإنه لم يحصل إلا على البلاتينات العليا ، وهو

إقليم متميز تماماً ، وقريب من بافاريا : هذا علاوة على انه احتفظ به كضمان ، أى بشكل مؤقت .

٣ — مصالح هولندا ، وانجلترا ، وفرنسا :

كانت الحرب التى عادت الى النشوب فى الأراضى المنخفضة ، بعد نهاية هدنة السنوات الإثنى عشر ، لاتحتل عند الدول العظمى نفس المكان الذى كانت ستحتله إذا ما كانت قد نشبت قبل ذلك . وكانت الاقاليم المتحدة قد أخذت مكانها بين الدول الأوروبية . وبدا ان إستقلالها الفعلى أمر واقع ، ولا يمكن طرحه للمناقشة . وكان الإهتمام العام يميل إلى تفادى ذلك الصراع ، والذى لم يظهر له مخرجا ، والذى عمل التعنت الاسبانى على إطالة أمده لفترة ربع قرن جديد ، ولكى يعود عليه بما كان قد بدأ فى ألمانيا .

وكان من الصعب على الهولنديين أن يتوقعوا مجىء مدد إليهم من الخارج قبل عام ١٦٣٥ . فكانت فرنسا تتهرب ، وكانت مؤقتا تخضع للتأثيرات التى تأتى إليها من وراء الجبال : وكانت انجلترا البروتستانتية نفسها قد أصابها الملل ، تحت حكم جيمس الأول السلمى ، من ان تبذر قواها فى الخارج ، ومن أجل مصالح لم تكن هى مصالحها بطريق مباشر . وكان تقارب عام ١٦٠٤ مع أسبانيا مصحوبا ببرود تجاه الأقاليم المتحدة . وعلينا ان نبحث عن أسباب ذلك مع هذا التنافس الاستعمارى الحاد الذى كان موجوداً بين الدولتين ، والذى شرحنا بدايته ، ومع ذلك الاختلاف ، وحتى التعارض، بين بعض المصالح الإقتصادية . وجاءت إحدى الخصومات التى سوف تمتد لعدة سنوات ، وجعلتهم يواجهون بعضهم ، بشأن حقوق الصيد . وكان الصيادون الهولنديون يذهبون للصيد منذ وقت بعيد عند السواحل الشرقية لإنجلترا ، وكانت المعاهدات تضمن لهم هذا الحق . وفى بداية القرن السابع عشر ، طالب الصيادون الانجليز بالتخلص من

هذه المنافسة التى كانوا قد بدأوا يشعرون بمضايقتها لهم ، خاصة وان المملكة كانت قد تحولت كلها إلى مذهب الاصلاح الدينى ، وأصبح سكانها لا يتبعون نظام طعام يوم الجمعة بنفس الصرامة ، كما كان عليه الحال فى الماضى ، الامر الذى أدى إلى نشأة صعوبات فى بيع السمك . وصدر مرسوم ملكى فى عام ١٦٠٩ يمنع كل الاجانب من الحضور للصيد عند السواحل الانجليزية بدون تصريح . واضطروا ، امام احتجاجات الهولنديين ، إلى تأجيل تطبيق هذا المرسوم . ثم بدأوا فى المناقشة ، التى امتدت لمدة سنوات وعند بداية هـــذه المناقشة ، قام جروسيوس بنشر مقالته الشهيرة عن البحر الحـــر ، أو البحار المفتوحة Mare liberum . وتم عقد اتفاقية بينهما فى عام ١٦١٦ ، فى نفس الوقت الذى تقرر فيه إعادة فليسنج وبعض المواقع الأخرى فى زيلنده ، والتى كان قد تم التخلى عنها كرهينة لإليزابيث ملكة انجلترا وتعهد الهولنديون بدفع مبلغ كبير ، كانوا سيحصلون عليه من فرضهم ضريبة على كل سفنهم التى تعمل فى الصيد ولكن هذا لن يحل المشكلة ، خاصة وان الصيادين رفضوا دفع الضريبة . واستمر وضع التوتر الانجليزى الهولندى ، وزادت خطورته فى بعض الأوقات . ولن ينتهى إلا بعد عام ١٦٢١ ، وكان الهولنديون فى ذلك الوقت العصيب ، قد وافقوا على تقديم التنازلات الضرورية حتى يحصلوا على التأييد المعنوى لانجلترا ، ضد اسبانيا .

وفيما بين الانجليز والاسبانيين ، وعلى البحر ، لم تكن العلاقات اكثر سهولة عما كانت عليها فى الماضى . وكان الملك جيمس قد مر بهذه التجربة فى عام ١٦١٦ ، حين قام وولتر راليه بعملية استكشاف منطقة الأورينوك ، بأمل إكتشاف الإلدورادو الشهيرة . فقام الاسبانيون بمهاجمته ، ولكى يتخلى الملك عنه ، وعد بمحاكمته بنفسه . وفى اثناء ذلك الوقت ، وفى عام ١٦٢١ ، وحين تم

تجريد منتخب البلاتينات من املاكه التى كان الاسبانيون قد إحتلوها ، فـكر فى ان يتقرب إلى اسبانيا ، التى يمكنها ان تؤدى خدمة لزوج ابنته ، دون ان يضطر إلى امتشاق الحسام . واقتنع باكنجهام ، صديق الملك ، بهـذه السياسة الجديدة : وتبلورت الفكرة حول زواج ولى العهد . أمير ويلز ، بإحدى الاميرات الأسبانيات، وجاء إجابات فيليب الثالث على المفاتحات الأولى غير محدده . ولـكن المفاوضات بدأت بجدية بعد ذلك مع ابنه ، الذى أصبح فيليب الرابع. واقترح باكنجهام على جيمس أمر ارسال المرشح إلى مدريد سرا ، ودون الاعلان عن ذلك : وستكون نتيجة المفاجأة أن يعجز البلاط والقصر عن الرفض . ولـكن الرأى العام الأسبانى كان متردداً، وعلى الأقل بنفس درجة تردد الرأى العام الإنجليزى. ووصلت المغامرة إلى طريق مسدود . وقام بلاط إسبانيا ، وهو الذى يهتم كثيرا بتقاليد الترحيب ، باستقبال ودى لذلك الضيف الذى وصل إليه، ولم يرفض التفاوض . ولكن البلاط الأسبانى طالب بمهله ، متذرعاً بضرورة الحصول على تصريح من روما. وحين وضع أمام الأمر الواقع ، اقترح هذا البلاط شرطاً كان يعرف انه غير مقبول ، ويتمثل فى طلب إلغاء القوانين الإستثنائية ضد الكاثوليك فى انجلترا. ولم يتسبب هذا الفشل فى ضيق وشعور بالمرارة إلا للملك. أما أهالى لندن فقد رحبوا بهذا الفشل كثيرا. وفى البرلمان ، تم التعبير عن اتجاهات الرأى العام بالاصرار على ضرورة تقديم معونة مباشرة لمنتخب البلاتينات . وإضطر جيمس إلى التخلى عن سياسته الشخصية وقرر ان يرتبط بأعداء وخصوم اسبانيا ، وهما الأقاليم المتحدة وفرنسا . وفى عام ١٦٢٤ ، أخذ قرارا فى أحد العروض الذى كان قد جاء له منذ سنوات من فرنسا : فحصل لأمير ويلز على يد هنرييت اخت لوى الثالث عشر. وتم الإحتفال بالخطوبة فى شهر مايو ١٦٢٥ . وفى نفس الوقت الذى خلف فيه شارل الأول الشاب والده على عرش انجلترا .

ولقد ظلت فرنسا ، مثل انجلترا ، وفى اثناء سنوات طويله ، تأخذ موقف المتفرج – وتظهر على أنها غير مهتمة – تجاه أحداث ألمانيا . وفى الوقت الذى كانت تمر فيه حرب البلاتينات ، كانت فرنسا مشغولة بنوع خاص بأمر إقليم فالتيلين . وكان هـذا الإقليم الصغير ، الذى كان الاسبانيون يرغبون فى احتلاله ، يشتمل على وادى الأدا الأعلى ، ويخضع لإحدى الدول الداخله فى الاتحاد السويسرى . ولكى يتم عبور جبال الألب من الجنوب إلى الشمال ومن إيطاليا إلى ألمانيا ، كان ممر فالتيلين هو اكثر ضماناً من برينر ، إذ ان البنادقه كانوا يسيطرون على مدخل هذا الممر الأخير، وكانت جمهورية البندقيه على علاقات سيئه مع إسبانيا : وكانت الدولتان قد اشتبكتا سويا فى حرب ، مرتين ، قبل عام ١٦١٧ .

وقام حاكم ميلانو بترتيب المسألة . وانتهز فرصة الخلافات الموجودة بين حكام هذا الإقليم، وكانوا من البروتستانتيين، وبين رعاياهم، وكانوا من الكاثوليك، وجعل هؤلاء الأخيرين يطلبون منه إرسال قوات فى عام ١٦٢٠ . أما فيليب الثالث فإنه إضطر، ونتيجة لتدخل الحكومة الفرنسية ، وبصفته حامياً للكانتونات السويسرية ، إلى ان يطلب إلى حاكم ميلانو ألا يتحرك ، ولكن هذا الطلب لم ينفذ. وفى عام ١٦٢١ ، إضطر حكام هذا الإقليم إلى أن يوافقوا ، وبمعاهدة تم التوقيع عليها فى مدريد ، على التنازل عن اقليم فالتيلين . ولكنهم لم يوافقوا إلا تحت الضغط : فقد كانوا مستعدين لحمل السلاح إذا ماوجدوا من يؤيدهم فى ذلك. ومر عامان ، دون ان يتمكن الفرنسيون من العمل ، وكانوا مشغولين داخل حدودهم بحرب جديدة مع الهيجونوت . وبعد توقيع الصلح فى مونبيليه فى شهر اكتوبر ١٦٢٢ ، استعادوا حرية عملهم ، وبدأوا فى استخدامها . ورفع سكرتير الدولة للشئون الخارجية شعار اعادة الفالتيلين . ومع ذلك فأنه كان لايرغب فى التدخل ،

ولكنه كان يفكر فى وضعها تحت نظام الحجز ، ويضع هذا الوادى المتنازع عليه تحت إدارة أحد المحايدين . واقترح فى أول الأمر غراندوق توسكانيا ، ثم اقترح البابا . وانتهى الاسبانيون إلى قبول جريجورى الخامس عشر ، وكانوا متأكدين من انه سيأخذ جانبهم فى حالة ظهور مصاعب .

وفى ألمانيا ، إقترح وزير خارجية فرنسا ، ومن أجل معارضة الاسبانيين الموجودين فى البلاتينات ، ضرورة العمل فى صالح مكسميليان ، أمير بافاريا . واشترى لفرنسا مجهودات مانسفيلد ، الذى كان مستمرا فى عملياته العسكرية ضد قوات الامبراطورية فى شمال ألمانيا . ودخل فى مفاتحات مع اهالى استراسبورج حتى يدخلوا تحت حماية الملك . ووافق خلفه فى الوزارة على إعادة عقد الصلات التقليدية مع الهولنديين : وجاءت معاهدة كومبين ، فى ١٠ يونيو ١٦٢٤ ، لكى تضمن لهم من جديد معونات فرنسا . وهكذا ، أخذت السياسة الفرنسية من جديد ، وفى كل الاتجاهات ، الطريق المباشر، فى الوقت الذى وصل فيه ريشيليو إلى السلطة . ولم يكن من الحقيق ان ريشيليو هو الذى عمل على تصويب خط سير هذه السياسة بعد وصوله إلى السلطة ، كما حاول البعض ان يدعى بعد ذلك. كما انه لم ينتهج سياسة جديدة ؛ بل لقد إستمر فى السير على نفس الطريق الذى رسمه سابقيه المباشرين ، وان كان قد زاد عليه فقط زياده تحديد القرارات ، وتزايد الطاقة فى التنفيذ . وكان من بين قراراته الأولى ، فى عام ١٦٢٤ ، هو ان يعمل على أن يجمع فى اقاليم شمبانيا جيشاً صغيرا ، ينفع لأى غرض ممكن . ثم أرسل قوات لمساعدة حكام إقليم فالتيلين : وفى بضعة أسابيع تخلص هذا الإقليم من قوات الاحتلال الأجنبية ، الأسبانية والبابوية ، دون ان يقوم فى هذا الوقت بقطع العلاقات مع روما ، أو مع مدريد .

وظهر غضب الحكومة الاسبانية فى مجرد الإستيلاء على أملاك بعض

الفرنسيين المقيمين فى شبه الجزيرة . وردا على ذلك ، لم يكتف لوى الثالث عشر بمجرد تطبيق معاملة المثل : بل لقد منع كل علاقات تجارية مع اسبانيا . ولقد تمت تسويات كل ذلك بعد بضعة أسابيع ، وبالطرق الدبلوماسية العادية . وكان هذا هو موضوع معاهدة مونسون ، فى شهر مارس ١٦٢٦ ، والتى تعهد فيها الاسبانيون بإحترام إستقلال إقليم فالتيلين ، والذى أجبر بعد ذلك على دفع جزيه لسادته السابقين .

٤ - تدخل الدانمارك والسويد :

ولقد حدث بعد ذلك أن تدخلت دولة جديدة ، هى الدانمرك ، فى حروب ألمانيا،فى عام ١٦٢٥،ولكن دون أن تنجح فى تعديل خط مسارها بشكل واضح.

ويمكن شرح دوافع الملك كريستيان الرابع عن طريق مصالحه الخاصة ، وبصفته دوقا لهولشتاين ،وبهذه الصفة التى يصبح بها أحد أمراء الامبراطورية . وكانت هولشتاين جزءاً من دائرة ساكس السفلى ، وهى احدى مناطق ألمانيا التى كان العداء فيها شديداً بين الاتجاهات الدينية المختلفة ، خاصة وان عملية العلمانية، أى تحويل السلطات إلى الحكومات المدنية ، قد استمرت رغم كل أوامر المنع التى كانت تأتى من روما. وكانت الأقاليم والأراضى التابعة لرجال الدين شاسعة. وبدأ كريستيان بالأكثر قريباً منها إلى هولشتاين ، وهى رئاسة أسقفية بريمن ، والتى كانت تواجهها من الناحية الأخرى من مصب نهر إلب ، وأسقفية فردن الواقعة على مصب الفيزر، وأخيراً أسقفيات هلبر ستاد فى ساكس ، وأوسنابروك فى وستفاليا . وكان يرغب فى الحصول على كل هذه الإمارات لإبنه الثانى ، والذى كان لن يحكم فى الدانمرك . وكان قد حصل له فيما مضى على صفة «المدير» لأسقفية فردن فى الوقت الذى لم يكن هناك أسقفا فيها. ولقد قام رجال الدين فى بريمن من جانبهم بإعطاء هذا الأمير الشاب وعدا ثابتاً بانتخابه فى الوقت

الذى يتوفى فيه الأسقف الموجود . ولذلك فإنه كانت لديه من الأسباب ما يكفى لإخافته من نجاح الحركة المضادة للاصلاح الدينى . ولم يكن ، حتى ذلك الوقت ، قد أظهر سوى بعض العواطف تجاه منتخب البلاتينات المعزول . وكانت نياته للتدخل غير مجسدة، نتيجه لعدم وجود المعونات اللازمة ولكنها تأكدت بوضوح تام فى عام ١٦٢٤ ، وحين قام جيش تيلى ، الذى إنتصر على كريستيان برانزويك بنهب المناطق القريبة من الإلب والفيزر ولقد تعرض كل الأمراء البروتستانتيين لخشونة الجنود الكاثوليك ، وأصبحوا مهددين فى أملاكهم . وبعد أن كانوا فيما مضى قلقين من طموحات جارهم السريع الحركة ، شعروا الآن بأن عليهم أن يمدوا له أيديهم . وكان هناك سبب آخر يدفع كريستيان الرابع إلى العمل السريع فكان يشعر بالتهديد إذا ما تأخر ، بأن يسبقه منافسه الكبير فى بحر البلطيق، وهو جوستاف أدولف ، ملك السويد : وكان هذا الأخير قد أتم عقد هدنة مع البولنديين ، وأظهر إستعداده لإرسال قوات لإمداد أنصار لوثر فى ألمانيا ، بالاتفاق مع نسيبه ، منتخب براندبورج .

ودخل كريستيان الحرب ، فى شهر يونيو ١٦٢٥ ، بشجاعة كبيرة . ولم يكن لديه سوى عدد بسيط من القوات . وإعتقد أن فى وسعه أن يعتمد على فرق حلفائه ، خاصة وأنه كان قد انتخب جنرالا على دائرة ساكس السفلى . ولكنه لم يتمكن من تجميع سوى ٢٠,٠٠٠ رجل بما فيهم أولئك الذين كان مانسفيلد قد أتى بهم من الأراضى المنخفضة . أما الدول البروتستانتية الكبرى ، وهى انجلترا والأقاليم المتحدة ، فإنها إكتفتا بإعلان تضامنها مع القضية التى كان يحارب من أجلها . وكان الاهتمام أكثر من جانب الأراضى المنخفضة ، والتى كانت الحرب قد بدأت فيها ؛ ولكنهم لم يرسلوا له إلا بعض المعونات البسيطة . أما ملك السويد ، ومنتخب براندبورج ، فإنهما ظلا بعيدين عن الحرب .

وربما كان فى وسع كريستيان ، رغم عزلته ، ان ينتصر ، إذا ما وجد نفسه فى مواجهة تيلى ، قائد قوات العصبة الكاثوليكية ، والتى كانت قد إلغيت فى عام ١٦١٦ ، ثم أعيد إحياؤها فى عام ١٦١٩ . ولكن جيشاً جديداً ، وهو جيش إمبراطورى بمعنى الكلمه ، سيقف مواجهته ، وهو جيش فالشتين .

وكان الامبراطور ، وهو يحتاج إلى الاموال ، قد أعطى ثقته لهذا السيد التشيكى الصغير ، والذى كان جنديا ، ومن رجال البلاط ، وله ثراء واضح، نتج فى غالبه عن المضاربات . وكان منذ سنوات عديدة يلتجىء إلى ماليته . وفى هذا الوقت ، وأمام هـــذا الخطر الجديد الذى ظهر فى الشمال ، منحه السلطات اللازمه لتجنيد ولقيادة أحد الجيوش . وفى بضعة أشهر ، أصبح مع فالشتاين ، فى بوهيميا ، ما يقرب من ٣٠،٠٠٠ رجل . وكانت نتيجة غزو أسقفيات مجدبورج ، وهلبرستاد هى إرهاب اعضاء دائرة ساكس السفلى ، وارغامهم على الدخول فى مفاوضات سريعة . ولكنهم لم يصلوا إلى شىء من ذلك : وكان عام ١٦٢٦ غنيا بالمعارك العسكرية . وكان فالشتاين وتيلى ، وهما لايتفقان ، يقوم كل منهما بالحرب من ناحيته . أما تيلى ، الذى أجبره كريستيان ملك الدانمرك فى أول الامر على ان يتقهقر حتى إلى وستفاليا ، فإنه اعاد تنظيم قواته ، ونجح فى معركة ووتر ، فى دوقية برانزويك ، من تحرير كل ساكس السفلى ، ماعدا أسقفية بريمن . ومن جانبه قام فالشتين ، بقياس قوته بقوه مانسفيلد . واعتقد فى بعض الاوقات، أنه قدقرر مصيره، بعد ان ارغمه على ان يلتجىء إلى براندبورج. ولكن مانسفيلد تمكن كذلك من اعادة تنظيم جيشه بهدوء ؛ ثم إتجه صوب الجنوب ، وصوب حدود بحر بيتلين جابور ، الذى كان قد حصل على وعد من ألمانيا بمعونات كبيرة ، وألغى صلح نيكولاسبرج . وتتبعه فالشتين عن قرب . وكان إقترابه كافياً للقضاء على الروح المحاربة عند الخصم : فإضطر

بيتلين جابور إلى ان يلق السلاح من جديد ، وذلك فى الوقت الذى قام فيه مانسفيلد ، وبعد أن سرح قواته ، بالإختفاء من ألمانيا ، ومن التاريخ . وإلى جوار نهر الإلب ، فشل الدانمركيون فى إعادة إصلاح الموقف : ففى عام ١٦٢٧ ، وتحت ضغط الجيوش المتحدة بقيادة تيلى وفالشتين ، إضطر ملك الدانمرك إلى ان يتخلى عن دوقية هولشتاين ؛ وحتى جوتلاند نفسها فإنها خضعت للغزو .

وكان نجاح قوات الامبراطورية على حساب الدانمركيين سبباً فى تغييرات هامة فى خط سير الحرب الألمانية. ومن جانب آخر أظهر آل هابسبورج ان لهم مصالح فى بحر البلطيق ، وفى مشكلاته ، الأمر الذى جعل من المحتوم أن تتدخل السويد ، فى أقرب فرصة .

وحتى إذا كان هذا يبدو مثيراً للدهشة، من الوهلة الأولى ، فإن الامبراطور قد أخذ فى تحويل أنظاره فى إتجاه الشمال تحت تأثير السياسة الأسبانية . وربما كان التضامن الدائم بين هذين الفرعين لأسرة هابسبورج لا يظهر فى أى مكان آخر بمثل هذا الوضوح ، كما كان يظهر فى بولنده ، وبدرجه ان كل من بلاطى مدريد وفينا كان له نفس السفير فى وارسو . ولم تكن الفكرة الدينية وحدها هى التى توحد بينهما ضد دول الشمال البروتستانتية . فكان خلفاء فيليب الثانى لم يتخلوا عن بعض المشروعات الطموحه التى كانت تدور فى مخيلة « الملك الحذر » من أجل إخضاع الهولنديين : إما لإجبار الحكومة البولندية على أن ترفض للهولنديين شراء القمح فى موانيها ، وإما ان تقوم قوة بحرية ، يتم الإتفاق عليها بطريقة مشتركة ، تحرمهم من كل نشاط تجارى فى هذا القطاع .

وكان أوليفاريس ، كبير وزراء فيليب الرابع ، وهو الذى كان يسمونه بالكونت الدوق ، يحظى بكل ثقة ملكه ، وفى نفس الوقت بثقة ريشيليو ، وهو رجل من نفس الحجم ، وسلطوى مثله ، ويحكم فرنسا . وكان قد أخذ

لحسابه وجهات نظر فيليب الثانى الإمبريالية . وكان قد وجد من أجل تنفيذ سياسته الخاصة بالتدخل فى الخارج بعض الدبلوماسيين الذين يتميزون بالذكاء والطاعة ، مثل أونيات ، ذلك السفير فى براغ ، والذى رأيناه يناقش فى فينا أمر حقوق الإمبراطور فرديناند فى إقليم الألزاس .

وكانت سياسة أوليفاريس ، فى بداية حرب الثلاثين عاما ، غير موفقة : فكان قد فشل فى الإفادة من الاستعدادات السلمية التى أظهرها فى انجلترا الملك جيمس . وبعد وصول الملك شارل الأول إلى العرش — وسنعود إلى ذلك — بدأت العمليات الحربية بين الدولتين . ومرة جديدة ، كانت قادس هى هدف الانجليز ، وان كانت الحملة قد فشلت . وفى نفس السنة ، حصل الجيش الاسبانى فى الأراضى المنخفضة على تسليم موقع بريدا ، الذى كان يحاصره منذ وقت طويل . وعمل أوليفاريس على أن يستغل بطريقته الغرور الاسبانى الذى انتشر فى كل طبقات الأمه نتيجة لهذا الإنتصار المزدوج : فجعل الكورتيز يمنح الملك لقب « فيليب الأعظم » . ولم تشهد السنوات التالية مثل هذا النجاح . فاستمر الإسبانيون يسيرون ببطء فى الأراضى المنخفضة ، وكانت هناك دائما خطوطاً محصنة تظهر وراء تلك الخطوط التى كانت تقع فى ايديهم . وعندئذ فكر أوليفاريس فى استخدام السلاح الاقتصادى ، والذى كان سلاحا رهيباً بالنسبة لبلاد مثل هولندا ، والتى كانت قوتها العسكرية والبحرية مرتبطة بنشاطها التجارى . فقاموا فى مدريد ، بدراسة وسائل إغلاق بحر البلطيق أمام الهولنديين وبمساعدة بولندا . وكان من الممكن التذرع بتلك الحرب التى كان الدانمركيون مشغولين فيها . وحاولوا فى نفس الوقت العمل على زيادة قوة الهانسا ، والتى كان انهيارها يتأكد فى كل عام بدرجة أكثر : وكان هذا هو ما يهتمون به فى فينا كذلك . ولكن فيليب الرابع ، وكثمن للتعاون الذى كان مستعداً لمنحه

لإبن عمه ، كان يرغب فى الحصول على تخلى مكسميليان صاحب بافاريا عن البلاتينات، وربما حتى عن تدخل القوات الإمبراطورية فى هولندا . وكانت هذه الشروط كافية لكى تفشل المفاوضات ، وتمكن فرديناند ، فى عام ١٦٢٨ من ان يمنح فالشتين لقب « قائد الإسطول الإمبراطورى ، وبحار المحيط والبلطيق » : وكانت حركة مسرحية ، وبدون قيمة .

أما فى وارسو « فإنهم كانوا يحتفظون ببعض الخيالات . فكانوا يعتقدون فى أن أرمادا سوف تصل إليهم من بحر الشمال إلى بحر البلطيق . ومن أجل استقبالها ، قرروا فى شهر ديسمبر ١٦٢٨ ، ارسال إسطول صغير إلى فيسمار : فقام السويديون بالاستيلاء عليه هناك . وكانت خيبة الأمل كبيرة فى فيينا . وبعد ان كان الامبراطور قد ساورته الأحلام ، فى فترة قصيرة ، بالوصول إلى مستوى القوى البحرية ، إضطر إلى القنوع بأن يحكم على القارة وحدها . وهذه المرحلة الصغيرة ، أعطت نتائجها العميقة والدائمة : فستقوم مسألة بحر البلطيق والتى ظهرت فجأة فى الافق ، بتحديد مصير هذه الحرب ، والتى كانت فى أسبابها وفى أصولها ، حرباً بين العقائد ، نشبت منذ عام ١٦١٨ فى ألمانيا .

أما ملك السويد ، والذى كان محايداً تماماً حتى ذلك الوقت ، فإنه تأثر من هذا التهديد الذى رفعه الامبراطور بغير حكمه . فتقرب إلى ملك الدانمرك ، الذى كان يمر فى ظروف صعبة . وفى نظير بعض التنازلات الاقتصادية ، تعهد بأن يشرف على أمن المضايق . والتفت كذلك إلى مدن الهانسا،وعمل على تشجيع مقاومتهم لمطالب مدريد ، والتى كانت ترغب فى الحصول منها على سفن وعلى إستخدام منشآتهم فى الموانى . وفى عام ١٦٢٨ ، عمل الدانمركيون والسويديون على تموين موقع إسترالسوند ، متفقين فيما بينهم ؛ وكانت من ممتلكات دوق بوميرانيا ، وتخضع لحصار جيوش الامبراطورية . ولقد أسهموا فى فك

حصارها : فإضطر فالشتين إلى الانسحاب بعد مجهودات إستمرت عدة أشهر . وفى الربيع تشجع كريستيان الرابع بهذا النجاح ، وبدأ فى محاولة للنزول على ساحل بوميرانيا . ولكنه إضطر ، عند وصول الأخبار باقتراب فالشتين ، إلى العودة إلى سفنه مسرعا من جديد . وبدت القوات على أنها متعادلة ، من هذا الجانب ومن ذاك . وبدا ان الوقت قد حان من أجل عقد الصلح . وسرعان ما بدأ مؤتمر فى لوبيك ، وتم عقد معاهدة فى شهر مايو عام ١٦٢٩ . ولم يتخلى كريستيان عن أية أراضى : بل لقد تعهد فقط بعدم التدخل فى ألمانيا ؛ وتخلى عن كل أطماع فى أراضى الكنيسة ، المجاوره لدوله ، والتى كان قد إعتبرها ، وفى خلال سنوات طويلة ، على أنها خاضعة له .

وفى الوقت الذى ثبتت فيه عزيمة السويديين ، والتى ستعمل على تخفيف حدة تعنت آل هابسبورج، قام فرديناند باتخاذ إجراء خطير ، كان أنصار الحركة المضادة للاصلاح الدينى ، يطالبون به منذ وقت طويل . ذلك ان مرسوم إعادة التنصيب ، الذى صدر فى ٦ مارس ١٦٢٩ أعاد قرارات صلح أوجسبرج إلى ما كانت عليه من قوة ، وألغى بعملية واحدة كل ما كان قد تم من أجل علمانية ممتلكات الكنيسة منذ عام ١٥٥٥ . وكانت هذه هى العقوبة المتوقعة ، والتى لا يمكن تحاشيها ، لنجاح الكاثوليك . ولكن ، فى الوقت الذى بدا فيه ان نجاح حركة الإصلاح مشكوك فيه ، جاءت أزمة داخلية لكى تعمل على إضعاف مركز الإمبراطور بشكل واضح . وكانت عدم لياقة فالشتين ، ومطالبه، قد عملت على إثارة العداء العام ضده . وأخذوا يتهمونه ، فى كل بلاطات الأمراء ، بأنه يجعل نفسه آلة فى أيدى طريقة الحكم المطلق الإمبراطورى الجديد . وفى دايت راتيسبون ، فى شهر يوليو ١٦٣٠ ، طالب المنتخبون فردیناند باعطاء وعد بفصله ، وفى نفس الوقت بالوعد بتقليل حجم قواته المسلحة، وارتفعت المشاعر

حول هذه النقطة بدرجة جعلت الـكاثوليك يتحدون مع البروتستانت من أجل نزع سلاح الامبراطور ، وذلك فى نفس الوقت الذى وصلت فيه أنباء نزول جوستاف أدولف فى بوميرانيا . ولقد عمل ممثلوا الحكومة الفرنسية لدى الدايت، بحكمة ، على تحقيق هذا الاتحاد فى هذا الموضوع ، بين ممثلى المذهبين .

٥ ـ سياسة فرنسا ، وتدخلها :

كانت السياسة التى اتبعتها فرنسا فى هذا الوقت هى سياسة ريشيليو ، الذى كان قد دخل إلى المجلس فى عام ١٦٢٤ ، وكان مكلفاً بالشئون الدبلوماسية قبل غيره . وفى اثناء السنوات الأولى ، لم تـكن أيدى ريشيليو حره ، فـكان عليه ان يحسب حسابا لخصومه الذين كانوا يراقبونه ، والذين كانوا مستعدين دائما للوشايه به عند الملك . ولقد رأينا كيف قام بانهاء هذا التدخـل ، الذى كان قد أصبح ضرورياً ، فى فالتيلين ، وبنجاح ، وذلك فى الوقت الذى كان عليه أن يواجه نشوب حركة مسلحة من جانب الهيجونوت ، فى غرب المملكة . ولقد طرح هذه المعضله أمام الملك: فاما أن يتفاوض مع البروتستانت من أجل محاربة الاسبانيين ، أو يتفاوض مع إسبانيا من أجل محاربة البروتستانت . أما فيما عدا ذلك ، فانه لم يترك نفسه لكى يصبح محاصراً ، إذ أنه عقد مع هؤلاء وأولئك ، فى عام ١٦٢٦ ، إتفاقات سمحت لفرنسا بأن تستعيد حرية عملها ، مؤقتا .

ولم تكن لديه نيه التدخل فى ذلك الوقت مباشرة فى شئون ألمانيا . فـمن هذا الجانب ، لم تـكن للمشكلات المطروحة نفس الأهمية المباشرة : فلقد كان من الضرورى إعداد الظروف المواتية لعمل فعال ، بدلا من الاصطدام على أساس التسرع فى أخذ موقف . وسيكون شعار السياسة الألمانية لفرنسا ، وكما كان عليه الحال وقت فرانسوا الأول ، هو توحيد كل خصوم الأسرة الحاكمة النمسوية ، سواء أكانوا كاثوليك أو بروتستانت ، وجعل الالمانيين ينسون

خلافاتهم وخصوماتهم العقائدية حتى يتمكنوا من التنبه تماماً لتلك الأخطار التى تتسبب فيها زيادة قوة آل هابسبورج لحرياتهم . أما الوفاق مع بافاريا ، فانه سوف يتجه ضد إسبانيا بدرجة اكثر من كونه موجها ضد الامبراطور . ذلك أنهم لم يكونوا يحبون إسبانيافى ميونخ . وكانوا حانقين عليها نتيجة لتدخلها فى البلاتينات ، والتى كانت لهم أطماعاً محددة فيها ، وكانوا يحتلون جزءا منها . فان رجال بافاريا كانوا إذن مستعدين للدخول فى محادثات. وحاولت الدبلوماسية الفرنسية إغرائهم : فتعرضت إمكانية الحصول للمنتخب على التاج الرومانى وقت الانتخابات القادمة من أجل الامبراطورية . ومع ذلك ، فلم يكن من الممكن الوصول إلى عقد أى شىء ، إذ أن المنتخب كان يشعر بأن عليه أن يحتفظ بحسن علاقاته مع جاره الكبير ، وحليفه من أسرة هابسبورج .

وفى أثناء ذلك الوقت ضعف المركز الدولى لفرنسا، نتيجة لانفصال انجلترا، وفى نفس الوقت نشبت فيه ثورة جديدة للهيجونوت .

ومع شارل الاول ، والذى وصل إلى الحكم بعد وقت قصير من وصول ريشيليو إلى إدارة الشئون الخارجية ، تغير إلى حد كبير موقف إنجلترا من احداث القاره . ولم يكن للملك الجديد نفس شعور التقزز من الحرب الذى كان لوالده . وتحت تأثير باكنجهام الذى كان من أنصار الحرب ، أخذ فى التفكير فيها ، وبترحيب . هذا علاوة على أنه ، باظهار نفسه معادياً لاسبانيا ، كان متأكدا من ان يحصل على تأييد الرأى العام ، وبالتالى تأييد البرلمان . وقام ، منذ بداية حكمه ، باستعدادات عسكرية ، وكما لو كان يرغب فى أن ينتقم لتلك الاهانة الشخصية التى كانت قد نزلت به فيما مضى فى مدريد . وفى خريف عام ١٦٢٥ ، قامت تسعون سفينة بحمل جيش صوب قادس . ولم يتصرف

الخصم والحملة على البحر ، وتمت عملية الإنزال بدون صعوبة على مسافة قريبة من هذا الموقع . ولكن فى أثناء الزحف الذى وقع بعد ذلك ،تسببت قلة التموين فى حركة عدم رضاء وفى نوع من الفوضى وصلت إلى درجة ضرورة الرجوع ، حتى قبل أن يصلوا إلى أسوار المدينة ، وتمت عملية إعادة القوات إلى السفن . وزاد ظهور هذا الفشل نتيجة لهبوب احدى العواصف التى فرقت بين سفن الإسطول فى عودته لإنجلترا فى شهر نوفمبر عام ١٦٢٥ .

وكان الإذلال الذى أصاب شارل وأصاب باكنجهام من هذه المغامرة عاملا مساعداً يجعلها يقبلان فكرة الدخول فى حرب أخرى ، وهذه المرة فى صالح الهيجونوت الفرنسيين ، والذين كانوا يطلبون تأييد انجلترا منذ بعض الوقت . وهنا أيضا يبدو أنه كان هناك دور للرأى العام : فأظهرت الملكة هنرييت وما حولها إرتباطهم بالكاثوليكية بطريقة مثيرة ، حتى ان الانجليز قد بدأوا فى القيام بعمليات طرد . وهكذا تركوا العلاقات تسوء بين لندن وباريس ، وهى العلاقات التى كانت تضطرب من وقت لآخر نتيجة للأحداث التى تقع على البحر من التنافس الدائم بين الدولتين . وربما لم يكن إعلان عقد المعاهدة الفرنسية الاسبانية ، التى عقدت فى مونسون ، هى السبب المباشر للأزمة : ولكنها أعطت على الأقل حجة واضحة لأولئك الذين كانوا فى انجلترا يرغبون فى الحرب ؛ ففضحوا ، وبأعلى الأصوات ، هذا البدء للمصالحة بين الدولتين العظمتين ،وكان هذا هو ما يوصل إلى التدخل الانجليزى أمام لاروشيل ، وذلك فى الوقت الذى أصبح فيه ريشيليو رئيسا للوزراء ، وصحب الملك فى عملية ذلك الحصار الذى سيعطيهم هذا الموقع : أما الاسطول الذى كان باكنجهام نفسه يقوده ، فإنه فشل فى محاولات متتالية،سواء فى الاستيلاء على بعض المواقع الفرنسية ، أو فى فك حصار لاروشيل . ولقد نتج عن ذلك عملية تغيير نظام المحالفات . فلقد إنضم

الاسبانيون إلى جانب الفرنسيين ، شفهيا على الأقل : إذ ان وعودهم بالتأييد كانت قد ظهرت مزيفة ؛ ولم تكن لهم قوات بحرية كافيه . أمـــا تلك السفن البسيطة التى أرسلتها مدريد فإنها وصلت إلى لاروشيل فى وقت غير مناسب ، ولم يكن الانجليز موجودين ، ولم تقم بأى شىء .

وفى هذا الوقت طرحت من جديد تلك المسألة الشائكة المتعلقة بميرات مانتوا ، نتيجة لوفاة الدوق الجديد ، وكانت تحدياً للسياسة الفرنسية إذ أن الإسبانيين كانوا متفقين مع أبناء سافوا ، هذه المره ، على تقسيم مونفيرات وقام الإمبراطور بتقديم الدعم العسكرى لعمليات فيليب الرابع فى إقليم ميلانو . أما ريشيليو ، فإنه قام بأخذ قرار سريع وشجاع ، وأظهر انه لا يتراجع أمام أكبر الأخطار . ورغم أن لاروشيل كانت قد سقطت أخيراً ، وان الهيجونوت كانوا لا يزالون يحملون السلاح ، وان الانجليز كانوا لا يزالون معادين ، فإنه أمر بتوجيه جيش صوب جبال الالب ، وأعاد دوق سافوا إلى صوابه ، وأظهر للاسبانيين بتموينه موقع كازال الذى كانوا يحاصرونه ، أنه كان مصمماً على ما يقوم به . ولقد أثبتت الأحداث بعد نظره . فأولا ، وفى الوقت الذى كان فيه لوى الثالث عشر ، والذى كان قد أخذ قيادة الجيش ، قد قام بإحتلال أحد المواقع ، وصل سفير إنجليزى مزوداً بالسلطات الكاملة من أجل التفاوض ؛ وتم عقد الصلح مع شارل الاول فى ٢٤ أبريل ١٢٦٩ . ثم قام دوق سافوا بعد ذلك بإلقاء السلاح بدوره ، وتخلى عن كل أطماع له فى مونفيرات ؛ ودخل فى عصبة كانت تجمع ، تحت رئاسة فرنسا ، جنوه ، والبندقية ، ودوق مانتوا وأخيرا ، فإن الهيجونوت قد وافقوا على صلح الرحمة فى شهر يونيه ١٦٢٩ .

وكانت هذه اللحظة فى منتهى الأهمية . فيمكننا أن نقول بأن كل الأمور ، فى الغرب ، قد عادت إلى وضعها السابق . وكانت الدول العظمى الثلاث قد

إستقرت من جديد على نفس مواقفها التقليدية . ففرنسا بنوع عام لم تجد فى مواجهتها سوى الخصمين السابقين ، آل هابسبورج ، بفرعيها . أما ريشيليو ، الذى تدعم موقفه بذلك النجاح الذى حصل عليه فى الداخل ضد الهيجونوت ، وفى الخارج ضد الانجليز وابناء سافوا ، فإنه إنتهز هذه الفرصة لكى يحصل على موافقة على ذلك البرنامج الذى كان ينوى بعد ذلك تطبيقه فى «الشئون الخارجية» . أما الفكرة العامة لذلك التقرير الذى قدمه للملك فى شهر يناير ١٦٢٩ ، فإنها تتلخص فى ضمان الحدود بقوة ، ومن ذلك الاحتفاظ بإمكانية إعطاء العون ، إذا ما تطلبت الظروف ذلك ، إلى الجيران المهددين . وفى إتجاه الراين ، كان من الضرورى التفكير فى إقامة التحصينات فى ميتز ، والتقدم إن أمكن حتى إستراسبورج ، وذلك للحصول على مدخل إلى ألمانيا . وكان هذا البرنامج يبدو على أنه متواضع حين نعلم ما حدث بعد ذلك . ومن جانب آخر ، كان من الضرورى الإصرار ، على ذلك التقليد القديم . والذى كان يتطلب من فرنسا دائماً ، وبصفتها حامية الدول الصغيرة ، فى ألمانيا وكذلك فى إيطاليا ، ان يكون فى وسعها دائماً الإجابة على النداءات التى تصل إليها ضد آل هابسبورج . وكان شعار السياسة الفرنسية فى الشرق ، وفى شأن الحدود ، ومنذ ثلاثة أرباع القرن تتمثل فى الحصول على مداخل ، والإحتفاظ بها دائماً مفتوحة عبر حواجز الألب والراين . ولم يكن هذا يعنى أنها كانت تمنع نفسها من طموحات أكبر . فلقد كان من المؤكد — وأثبتت ذلك معاهدات بروسول فى ١٦١٠ وريفولى فى عام ١٦٣٥ — انه كانت لها مشروعات للغزو والضم فيما يتعلق بسافوا : وكانت تعتقد فى أنها ستحصل عليها فى أحد الأيام ، وذلك عن طريق إعطاء دوقها أقاليم ميلانو . ولكن سافوا نجحت فى الاحتفاظ باستقلالها حتى عصر الثورة ، وحتى بعد ذلك ، وذلك فى الوقت الذى ستصبح فيه الألزاس ، والتى لم يفكر فيها الفرنسيون ، فرنسية ، بتقسيم عام ١٦٤٨ .

وبعد أن تم إغلاق الحدود الجنوبية الشرقية بشكل قوى ، حول ريشيليو أنظاره صوب الحدود الشمالية الشرقية وكان الدوق شارل الرابع ،دوق اللورين ، أميراً متعصباً للغاية للكاثوليكية ، مثله فى ذلك مثل كل أمراء أسرته ، وكان يوجه إلى السياسة الفرنسية نفس الاتهامات التى كان حزب المتعصبين الكاثوليك يوجهونها إليها . أى انها متساهله مع انصار لوثر الألمان . وزاد الشعور بالعداء بين باريس ونانسى ، وزادت خطورته . وفى أثناء عام ١٦٢٩ العصيب، استقبل شارل الرابع فى عاصمته الأمير جاستون أمـــير أورليان ، وشقيق الملك ، والذى كان معادياً للوزارة الموجودة ، وترك البلاط . وفى بداية عام ١٦٣٠ ، وبينما كانت قوات آل هابسبورج ، من الفرعين - فرع فينا ، وفرع مدريد - تحاصر فى إيطاليا مواقع كازال ومانتوا ، وفى الوقت نفسه الذى قام فيه أحد الجيوش الفرنسية ، بقيادة ريشيليو نفسه بعبور جبال الألب مرة ثانية ، قامت بعض فرق الجيش الامبراطورى بعبور الفوج ، وقامت بإحتلال مدينتين صغيرتين فى اسقفيه ميتز ، هما فيك وموإينفيك . وكانت شئون ألمانيا وشئون ايطاليا قدأصبحت بهذه الطريقة مرتبطة ببعضها. وأظهر ريشيليو عزيمته على مواجهة الموقف بكل شجاعه واستعد الملك ، على راس أحد الجيوش الذى جمع بسرعة فى شمبانيا ، للتدخل إلى الشرق . أما ريشيليو فإنه أخذ قيادة جيش الألب ، ولم يتوقف أمام احتجاجات أبناء سافوا ، والذى كان يشك فى ولائهم ، وإستولى على بينيرول وسالوس — الأمر الذى كان يعنى وضع مفاتيح الألب الرئيسية فى جيبه . ثم قام بزيادة الضغط على تورينو . وأصبح فى وسعه فى ذلك الوقت أن يمنح الخصم ، ونتيجة لتدخل البابا ، هدنة لمدة ثلاثة أسابيع . وفى أثناء ذلك الوقت كان الملك قد دخل إلى اللورين على رأس قواته، وأعاد إحتلال موإينفيك فى شهر ديسمبر ١٦٣١ ، ثم أجبر الدوق شارل الرابع على ان يسلمه أحد

الأماكن المجاورة ، وعلى ان يعد بالامتناع بعد ذلك عن كل إتصال مع خصوم فرنسا المعلنين .

ولقد تم عقد الصلح بصعوبة ، وعلى مراحل . ففى راتيسبون تم اعداد تسوية بواسطة سفراء فرنسا لدى الدايت : ولكن الكاردينال رفضها ، وعلى أنها تعطى ميزات كبيرة للخصم . ولكن هذا الأمر لم يؤثر على إحترام الوضعية القائمة ، التى عادت بقوة السلاح . أما فى ايطاليا ، فإن ريشيليو نفسه هو الذى قاد المفاوضات . وفى معاهدة شيراز كو فى ٩ يونيو ١٦٣١ ، وسع الاسبانيون تنازلاتهم التى كانوا قد قدموها فى راتيسبون ، موافقين على عودة دوق مانتوا إلى كل أملاكه . وفى أثناء ذلك الوقت ، لم يكن فى وسع دوق سافوا ، والذى كانت كل أراضيه تحت سيطرة الفرنسيين ، ان يرفض التنازل لهم عن بنيرول ، والتى كانت فيما مضى من بين الممتلكات الفرنسية فى أثناء القرن السادس عشر ، وتخلى عنها هنرى الثالث دون تعويض . وهكذا نجد أن ريشيليو قد كسب جولة صعبة : وكان قد أعاد قوة فرنسا على الألب بطريقة مدعمة .

أما دايت رايتسبون ، والذى أثيرت فيه شئون اللورين وشئون سافوا فى نفس الوقت ، والذى عمل فيه الكاثوليك الألمان ، والبروتستانت الالمان ، متفقين فيما بينهما ، على نزع سلاح الامبراطور ، وذلك فى نفس الوقت الذى وصلت فيه أنباء نزول السويديين فى بوميرانيا — كان دايت عام ١٦٣٠ هذا يمثل نقطة تحول في تاريخ حرب الثلاثين عاما . ومنذ هذا التاريخ ، أصبح من الضرورى تحويل الانظار صوب الشمال،وصوب ساحل بحر البلطيق ، وحيث كانت القوات السويدية الأولى قد نزلت على الأرض الالمانية .

الفصل الرابع عشر

حرب الثلاثين عاماً ونهاية التفوق الاسبانى

تطور الازمة وتسوية الصلح

ستقوم السويد الآن بالدور الأول فى حرب الثلاثين عام ؛ وكانت دولة صغيرة حتى ذلك الوقت ، وحتى صغيرة للغاية إذ أن قلة عدد سكانها — بالكاد مليون من السكان — تضعها تقريباً فى نفس مستوى الدانمرك، وإن كانت سوف تثبت ديناميكية متفوقه ، الأمر الذى يؤهلها للصعود إلى مستوى الدول العظمى فى بضع سنوات وفى دراستنا المدرسية ، أى المختصرة ، عن حرب الثلاثين عام ، تعودنا أن نتحدث عن المرحلة « الدانمركية » ، ثم نتحدث بعد ذلك عن سنوات ١٦٢٥ — ١٦٢٩ ، أى عن المرحلة « السويدية » . وليس هناك وجه مقارنة ممكن ، وعلى الأقل وجه للقياس ، بين الواحدة والأخرى من هذه المراحل . ذلك أن تدخل السويد لن يمثل مجرد مرحلة : ذلك أنه سيطول مع عملية التدخل الفرنسى والتى ستعطى للأزمة ، والتى كانت مجرد أزمة ألمانية حتى ذلك الوقت ، صفة الأزمة الأوربية الكبرى .

١ — عمليات جوستاف أدولف فى ألمانيا :

فما هى الدوافع التى دفعت ملك السويد إلى الدخول فى هذه الحرب ، والتى كان فى وسع ما حدث للدانمرك أن يدفعه إلى قياس مخاطرها ؟ وهل كانت الرغبة إلى معونة أبناء مذهبه المهددين بالخطر قد تفوقت على طموحه الخاص بالإفادة من الظروف من أجل أن يمد نظام حكمه على الساحل الجنوبى لبحر البلطيق ؟ لقد حدثت مناقشات ضخمة ، وظهرت آراء مختلفة فى هذا الموضوع . وليس من

الحتم علينا أن نختار فيما بينها . ولم تكن الروح الصليبية فى أى وقت من الأوقات منفصلة أبداً عن الأطماع الإقليمية وكان على جوستاف أدولف أن يقتنع بها كلها فى نفس الوقت ، أو يقتنع بها الواحدة بعد الأخرى . وكانت له وسيلة غزو ممتازة ، تتمثل فى ذلك الجيش الذى قد منحه كل عنايته ، والذى كان قد دربه فى أثناء سلسلة طويلة من العمليات ضد بولندا . فلن يثير دهشتنا أنه قد فكر فى إستخدامه ، فى صالح الحرب الأهلية التى كانت مشتعلة فى ألمانيا ، لكى يمد حكمه إلى تلك الاقاليم التى كانت تدين بنفس مذهبه . وكان قد وقع مع بولندا على هدنة لمدة ست سنوات . وبدت هذه المهلة على أنها كافية لكى يجهز ما كان مصمماً على القيام به فى ألمانيا . فكيف تمكن من عمل حساباته بالنسبة لضخامة النتائج التى سوف تنتج عنه ، فى حياته ، وبعد موته ؟

وكان جوستاف أدولف قد أدخل تعديلات على تنظيم الجيوش وتسليحها ، وترتيب القوات على أرض المعركة ، وإستخدام التنظيم الرفيع بدلا من التنظيم العميق . وكان جيش السويد جيشاً وطنياً ، جمع من الفلاحين السويديين ، من أجل الواجب ، لا من أجل المصلحة . ومع تدريبه ، كان يخضع لنظام صارم . وكانت أسلحته متطورة ، ومن أجل تخفيف النقل على المحاربين ، فكانت كل من الحراب والبنادق ، أقصر فى طولها ، كما أنها كانت قد إستغنت عن فتيل البندقية ، وأصبحت تستخدم الخرطوش ، الذى يجمع بين البارود والطلقة ، كما أن المدافع كانت أخف ، وفوهاتها من النحاس ، ويجرها زوج من الخيل ، الأمر الذى كان يسهل الحركة ، والمناورة ، ويعطى سرعة إطلاق النيران . وكانت هذه ميزة كبيرة للسويديين ، فى كل أرض وفى كل ظروف مناخية ، وبكفاءة نيران (١) .

---

(١) أنظر : د. جلال يحيى : معالم التاريخ الحديث ، الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٦ ، ص ١٨٠ .

وكانت قوات الامبراطورية ، مـــن جانبها تظهر إحتقارها لتلك العشرة آلاف رجل الذى كان جوستاف أدولف سيحضر بها . وأخذ فالشتين يذكر ويردد أن «ملك الثلج» ، إذا ماغامر بالمجىء مع جيشه إلى قلب ألمانيا ، فإنه «سيذوب» فى أثناء الطريق . وهذا يفسر كيف أن المنتخبين فى راتيسبون لم يترددوا فى أخذ قرارهم غير الموفق . وبعد أن ذهب فالشتين ، تم تسريح قواته. ومن الناحية العملية ، سيبقى جيش تيلى بمفرده فى خط النار . وفى العام الأول ، لم تقع مواجهات جادة مع السويديين . وكان جوستاف أدولف قد إستولى على إسترالسوند ، ثم على ستيتن ، عاصمة دوقية بوميرانيا . وتمكن من إرغام الدوق على أن يعترف له بالسيادة ، ويترك له حرية التصرف فى دولة ، التى سيستخدمها كقاعدة للعمليات ثم قام بعد ذلك بإحتلال إحدى الامارات المطلة على بحر البلطيق ، وهى دوقية ميكليبورج . وتضاعف عدد قواته فى بضعة أشهر. ومن أول الأمر ، كان هناك بين جنوده ، ومن اللحظة الأولى ، عدداً من المتطوعين الأجانب ، من الإسكتلنديين ، ومن الألمان الذين كانوا فى عصابات مانسفيلد . وفى وقت تسريح جيش فالشتين ، بدأت عملية نقل دماء جديدة : خاصة وأن فالشتين كان يستخدم الرجال من كل نوع ، وكانت قواته تضم عدداً من البروتستانتين .

ومع ذلك ، فإن الخوف من الجيوش الامبراطورية ، قد إستمر ، وبشكل جعل الامراء البروتستانتيين يجيبون فى أول الأمر بإجابات فاترة على مفاتحات هذا الحليف الجديد ، الذى أتى لهم من الشمال . وكانت تلك التجربة الفاشلة للدانمركيين لا تشجعهم كثيراً . وحتى منتخب براندبورج ، وهو نسيب جوستاف أدولف ، رفض إستقبال السويديين فى قصره الحصين فى سبانداو : ولم يتراجع إلا حينما رأى مدافعهم موجهة صوب برلين . أما منتخب ساكس ،

وهو رئيس تقليدى لأنصار لوثر، فإنه حاول كسب الجولة دون أن يستخدم السلاح ، ويدفعه أحد الخصوم ضد الخصم الآخر . وكان أحد المؤتمرات قد إنعقد فى ليبزج ، فى شهر فبراير ١٦٣١ ، وقرر أن يرفض فى الوقت عروض جوستاف أدولف، فأبلغ إلى فرديناند الأهمية التى يعقدها أمراء الدول الكاثوليكية للبقاء على الحياد ، وشروطهم من أجل ذلك . ولكن عناد الامبراطور إستمر ، ثم حدث فى شهر مايو عملية نهب مجد نهب بورج، تلك المدينة البروتستانتية بواسطة قوات تيلى ، وهو الأمر الذى شجع منتخب ساكس ، وأولئك الذين كانوا يتبعونه ، على أن يقرروا أمر التحالف مع السويد . ومنذ ذلك الوقت سينظر الألمان إلى جوستاف أدولف على أنه رئيس الحزب المعادى للامبراطور .

وإنصب غضب الأمبراطور على منتخب ساكس مع رغبته فى القضاء على محاولاته للمساومة، فقرر أن يجعل من ساكس المسرح الرئيسى للعمليات الحربية. وفى بريتنفيلد ، قرب ليبزج ، أصابت تيلى هزيمة ساحقة فى ١٦ سبتمبر ١٦٣١ . أما جوستاف أدولف ، والذى لم يكن أحد يعرف حقيقة نياته فى هذه الظروف ، فإنه توجه بعد ذلك صوب ألمانيا الغربية ، وصوب أقاليم الراين، وحيث يقوم بإستعراض قوته ويسمح لجيشه بالمعيشة فى ظروف أفضل . وعند حدود البلاتينات ، نشبت معركة قصيرة بين السويديين وبين الإسبانيين . وفى منطقة المين ، قام بدفع جيش صغير ، أرسله الدوق شارل الرابع الكاثوليكى دوق اللورين ، لنجدة تيلى . وفى أثناء ذلك الوقت قام جان جورج ، منتخب ساكس ، مع رجاله ، بغزو بوهيميا ، وإستولوا على براغ . وقضى ملك السويد فصل الشتاء فى إقليم المين ، وقام بطرد الإسبانيين منه . وكان له هناك بلاط فعلى ، يستقبل فيه السفراء الأجانب الذين حضروا لتهنئته ، ويقيم فيه الحفلات . وأنشأ كذلك على نهر المين ، وقرب إتصاله بنهر الراين ، موقعاً عسكرياً يسميه جوستافبورج .

فهل كان ذلك يعنى أنه فى نشوة إنتصاره — وهو إنتصار ناقص مادامت النمسا وبافاريا لاتزالا سليمتين — قد فقد المعنى الحقيقى للأوضاع ؟ لقد إعتقد البعض ذلك حين وجدوه يقطع المفاوضات السارية مع فالشتين الذى كان تشيكياً قبل أن يكون كاثوليكياً ، وكان قد إقترح عليه ، منذ أن تخلوا عن خدماته ، أن يعاونه . وفكر البعض كذلك فيما إذا لم يكن ملك السويد قد أخذت بعض الطموحات الامبراطورية تدور فى رأسه . ولكنه دافع عن نفسه فى هذا الأمر أكثر من مرة ، وعلى أى حال ، فإنه سوف يختفى قبل أن يكون قد حصل على الإنتصار الحاسم الذى كان يحتاجه من أجل السيطرة على ألمانيا .

ورغم مجهودات الدبلوماسية الفرنسية ، التى تدخلت لديه لكى تطلب منه إحترام حياد بافاريا ، قام جوستاف أدولف بغزو بافاريا فى عام ١٦٣٢ . وأصبح عليه الآن أن يواجه فالشتين ، الذى كان الامبراطور قد إضطر ، تحت ضغط الظروف إلى أن يستدعيه من جديد ، والذى وصل إلى بوهيميا ، بعد أن قام بطرد الساكسون منها . وبعد عملية غير حاسمة إستمرت لمدة ثلاثة أيام حول نورمبرج ، تخلى عن عملية الزحف على فيينا ، وعاد بقواته إلى منطقة المين : وكان قد قرر الذهاب للاتصال بالساكسون ، حتى يستعيد التفوق العددى الذى كان قد فقده . ووقعت معركة جديدة وكبيرة قرب ليبزج ، وهو موقعة لوتزين فى ١٦ نوفمبر ١٦٣٢ . وكانت نصراً جديداً للسويديين ، وأن كانو قد دفعوا ثمناً غالياً : فالقائد المنتصر أصابه جرح مميت .

وأظهرت هذه التجربة التى تمت فى الحرب فى فترة هاتين السنتين أنه من الصعب الوصول إلى نصر حاسم . ويبدو أن المستشار ، الذى سيمارس السلطة بإسم إبنه جوستاف أدولف ، كريستين ، وهى ملكة لها من العمر ست سنوات ،

قد فهم ذلك فهما جيدا . فلقد أصر على أن طبيعة العمل الذى قام به السويديون لاتتضمن مصلحة معينة — ولايهدف سوى تدعيم قضية أنصار الانجيل فى ألمانيا — ونشر نداء للالمان حتى يتعاونوا فيما بينهم أكثر عاكان عليه الحال فى الماضى وبإسمه ، قام ممثلوا أمراء عديدين ودول غربيةعديدة، بجتمعين فى ميلبرون فى مارس وأبريل ١٦٣٢ ، بتأسيس إتحاد تكون مهمته الرئيسية إعطاء معونة مالية من أجل الاحتفاظ بالجيوش السويدية ، وكانت هذه الجيوش لم يعد فيها الكثير من السويديين ، إذ أن كانت تواجه خساراتها بإستخدامها للمتطوعين والمرتزقة ، الذين كانوا يأتون من كل جانب ، وأصبح الألمان فيها هم الاكثر عدداً . وبعد أن دخل فى اللعبة ، قرر هذا الاتحاد إعادة البلاتينات ، والتى كانت فى غالبيتها قد خضعت للاسبانيين ، إلى ابن المنتخب فريدريك الخامس ، ووريثه .

وجاءت حملة ١٦٣٣ لكى تزيد من قلق آل هابسبورج . وكان السويديون ، الذين عادوا صوب الدانوب قد إستولوا على راتيسبون : ولم يكونوا قد إقتربوا أبدا من فينا بهذا الشكل من قبل . وفى أثناء ذلك الوقت ، إستمر فالشتين فى العمل فى بوهيميا وقربها ، محاولا التخلص من الساكسون . مرة بالسلاح ، ومرة أخرى بالدبلوماسية . ولكن الامبراطور رفض أن يتبعه فى سياسة التنازلات الذى كان مستعداً لتقديمها للبروتستانت . وعمل خصومه فى البلاط على اتهامه بطموحات شخصية ، وأنه يلعب على الطرفين ، وحاولوا أن يجعلوه مشبوهاً . وحينما فشل عند نهاية العام فى محاولة إستعادة راتيسبون، أخذوا فى مناقشة كفاءته العسكرية علناً . وخضع فرديناند فى آخر الأمر لهذه الحركة التى ارتفعت أصواتها ، وبتزايد : فتقرر أمر إغتياله ، فى شهر فبراير ١٦٣٤ . وربما كان التشيك يفكرون يوماً فى أن يصبح محرراً لهم . وكان للبعض على

الأفل من بينهم قد عقدوا الآمال عليه . ومع ذلك فإن نهايته المأسوية لم تتسبب فى أية حركة فى بوهيميا .

وبعد ستة أشهر ، فقد السويديون كل فرصهم ، نتيجة لهزيمة وقعت فى بافاريا تحت أسوار نوردلنجين فى ٦ سبتمبر ١٦٣٤ . وكان هذا يعنى أن يميل الميزان ، هذه المرة ، فى صالح الامبراطوريين ، خاصة وأنهم كانوا قد أفادوا من معونة أحد الجيوش الاسبانية الذى كان قد عبر الألب ، وزحف صوب الأراضى المنخفضة بقيادة الكاردينال الأمير ، أخو فيليب الرابع . وهكذا ظهر التضامن بين هابسبورج فينا وهابسبورج مدريد فى الوقت المناسب ، وبطريقة حاسمة . ومرة جديدة ، بدت قضية البروتستانت على أنها قد أنهارت . وإنسحب السويديون إلى أمام المين . وحل إتحاد هيلبرون . أما منتخب ساكس فإنه وضع حداً لمفاوضاته المستمرة مع فرديناند ، ووقع على شروط الصلح ، والتى ستخرج منها ، فى ٣٠ مايو ١٦٣٥ ، معاهدة براغ .

وكان الأمر يتعلق ، من حيث المبدأ ، بتسوية المسأله الدينية بالنسبة لألمانيا كلها . ولكن الأمير الذى وافق على تحمل مسئولياتها أعطى لها طابعه الخاص . فتطبيق مرسوم إعادة الحقوق لن يوقف العمل به — خلال فترة أربعين عاماً — إلا فى صالح أنصار لوثر وحدهم . أما فيما يتعلق بأملاك الكنيسة التى خضعت للنظام العلمـــانى ، فسيعود منها فقط إلى أملاكه الشرعيين ، تلك الأملاك التى تم التصرف فيها منذ عام ١٦٢٧ : وكان هذا يسمح للأمير أغسطس ، أمير ساكس ، والذى كان يدير مؤقتاً رئاسة أسقفية مجد بورج ، والتى كانت أملاكها قد نزعت فى عام ١٦٢٨ ، بأن يعود إلى ملكيتها . أما تحويل بلاتينات الراين . وكذلك منصب المنتخب فيها ، إلى دوق بافاريا ، فإنه تم التصديق عليها . هذا علاوة على أن الامبراطور قد منح عفوا عاماً ، يطبق بالنسبة لكل الأحداث التى وقعت

فى المانيا منذ نزول السويديين إليها . وأخيرا فإن الاثنين المتعاقدين قد تعهدا بالحصول على موافقة كل أمراء الامبراطورية ، الكاثوليك والبروتستانت ، على هذه الاتفاقية . ولقد إضطر عدد كبير من البروتستانت ، وهم قلقين على مصيرهم ، إلى الموافقة على هذا الصلح السيء . ولم يبق إلا القليل من أجل إنهاء تاريخ حرب ألمانيا فى عام ١٦٣٥ . ذلك أن المستشار ، الوصى على عرش السويد ، كان قد أفاد من دروسها ، وقدم بدوره لفينا إقتراحات الصلح . ولكن فرديناند أجاب مطالباً بإخلاء كل الأراضى الألمانية . وكان هذا يعنى أن شيئاً لم ينته . ذلك أن السويديين ، بعد أن تخلى عنهم أبناء مذهبهم من الألمان ، سوف يجدون الوسائل لاستمرارهم فى الحرب نتيجة لتحالفهم ، وللمعونة المسلحة التى سيحصلون عليها من فرنسا الكاثوليكية .

٢ ـ العمليات الفرنسية :

كانت الدول العظمى الثلاث فى الغرب قد ظلت فى موقف المتفرج أمام الازمة الألمانية حتى نوردلنجين .

أما فيما يتعلق بأسبانيا ، فإنها كانت ستتدخل ، إذا كان الأمر يتعلق بها وحدها . وكانت المشغولية الكبرى لأوليفاريس ، منذ الوقت الذى وضع فيه الاسبانيون أقدامهم فى البلاتينات ، هى ألا يتركهم يطردون منها . وتسببت له هذه المسألة فى مشغوليات كبيرة ، لم تكن كلها تتعلق بألمانيا ، بنفس درجة تعلقها بإنجلترا : ذلك أن جيمس الأول ، ومن بعده شارل الاول ، كانوا يشعرون بإغراء ، أو بضغط من جانب الرأى العام ، للدفاع عن مصالح نسيبهم ، وهو المنتخب الذى فقد أملاكه . ولذلك فإن كل محاولة للتقرب من لندن سيكون مصيرها الفشل ماداموا يرفضون التفكير فى إعادة البلاتينات إلى صاحبها الشرعى . وكان الامبراطور ، من جانبه ، وحتى إذا كان لايقوم برد فعل ، مؤقتاً ضد

هذا التدخل الاسباني فى الشئون الألمانية، يرفض قبول عروض التعاون العسكرى من جانب أبناء أعمامه ، إذ أن هؤلاء الاخيرين كانوا ينوون، وعلى أساس معاملة المثل ، الحصول على تدخله فى الحرب فى الاراضى المنخفضة .

أما الحكومة الانجليزية ، من ناحيتها ، فكانت تشعر بعواطف طبيعية قوية تجاه البروتستانتيين . وكانت عدم كفاية مواردها بشكل دائم ، أى عدم كفاية قوانها المسلحة ، هى التى تمنعها من الاهتمام بشكل فعال بشئون القارة . وكانت التجارب الفاشلة التى حدثت بعد عام ١٦٢٥ ، مثل الفشل أمام قادس ، والفشل أمام لاروشيل ، هى التى عملت على تهدئة نية شارل الأول للحرب . ثم جاءت وفاة باكنجهام مقتولا فى عام ١٦٢٨ . وابتداء من عام ١٦٣٠ ، دخلت انجلترا من جديد فى تلك العزلة التى كانت موجودة فيها فى عصر جيمس الأول : ولن تخرج منها بعد ذلك قبل فترة ديكتاتورية كروموبل ، ولم تعلن انجلترا حيادها ولكن عواطفها تجاه خصوم آل هابسبورج ظلت أفلاطونية ، وعلى الأقل حتى تدخل السويد فى الحرب. وفى الوقت الذى مد فيه شارل يده إلى جوستاف أدولف أعطاه تحالفاً ، وأرسل إليه الأموال ، وحتى بعض الكتائب .

أما فرنسا فى عهد ريشيليو ، فإنها لم تقم بأى شىء أكثر من ذلك فى بداية الأمر وبمعاهدة باروالد ، فى شهر يناير ١٦٣١ ، التى عقدت لمدة خمس سنوات وعدت السويديين بمعونة سنوية تبلغ مليون جنيه . وحصلت فى نظير ذلك من ملك السويد على تعهد باحترام الاراضى البافارية ، وكذلك أراضى الأمراء الكاثوليك الآخرين فى الامبراطورية ، والذين ، يحتذون مثل بافاريا ، ولا يشاركون فى الحرب .

ومن بين هذه الدول العظمى الثلاث كانت فرنسا هي الأولى التي تخلت عن

حيادها . ولكنها لم تدخل فى ذلك الصراع إلا لكى تدافع عن نفسها ، ومدفوعة بالاحداث التى وقعت ، والتى لم يكن فى وسعها أن تتنبأ بها .

وحين بدأت العمليات الحربية من جديد بين السويديين والإمبراطوريين كانت فرنسا مشغولة بنوع خاص بشئون اللورين . وكانت الصعوبات التى تواجهها من أجل جعل الدوق شارل الرابع يحتفظ لها باحترامها تتجدد ، وتزيد خطورة من عام لعام آخر ، حتى وصلت فى يوم من عام ١٦٢٣ ، وجد فيه ريشيليو نفسه ، يكاد يفقد الصبر ، فقرر إنهاء هذه الوضعية . وكانت قوات من اللورين قد أرسلت إلى الالزاس ، لتنقذ موقع هاجيناو ، وكانت تهدد السويديين حلفاء الملك . وفى هذه المرة لم تقنع فرنسا بالوعود : بل قامت باحتلال عاصمة الدوقيات ، ولحين صدور أوامر أخرى وضاعت هيبة شارل الرابع من جديد وفهم أن الأمر يتعلق باستقلال اللورين ، فقرر التنازل عن الإدارة . فقام الفرنسيون بالإستيلاء على الدوقيات ، بصفة مؤقتة . ولقد إستمر إحتلالهم نتيجة لتطور الأحداث ، لمدة خمسة وعشرين عاماً ، وحتى وقت عقد صلح البرانس .

وفى منطقة أقاليم الراين ، وابتداء من عام ١٦٣٢ ، كان ريشيليو قلقاً من نيات السويديين . وكان مضطراً إلى عمل حساب لذلك الرأى العام الكاثوليكى والحساس إلى درجة بعيدة ، فتردد لفترة طويلة قبل أن يعقد معهم تحالفاً يهدد مركزه . ولكن سرعان ما سأل نفسه عما إذا كان يأمل فى إنتصارهم، أو يخشى منهم . وفى عام ١٦٣١ ، وضع رئيس الاساقفة المنتخب لترييف نفسه تحت حماية الملك وباتفاق معه، وجاءت القوات الفرنسية،وإحتلت قلعة مواجهة لكوبلانس . وفى عام ١٦٣٣ قام أحد قادة الجيوش الذى كان موجوداً فى اللورين ، وهو الماريشال دى لافورس ، باتخاذ قرار لإرسال بعض القوات الصغيرة لإحتلال

بعض المدن الصغيرة فى الألزاس ، وهى المدن التى إستنجدت به لحمايتها ، وهى خائفة من السويديين ، خاصة وأن الجنود السويديين كانوا يستخدمون العنف مع الأهالى .

ومن ناحية الأراضى المنخفضة ، فإن ريشيليو ، فى نفس الوقت الذى وفى فيه بإلتزاماته المالية لمعاهدة ١٦٢٤ ، ظل وقتاً طويلا فى موقف الانتظار . وكان يكفيه أن تستمر الحرب هناك ، وتعمل على شغل الاسبانيين . ومع ذلك فقد بدأ ظهور الحظر بقرب عقد صلح ، كان الأهالى المنهكين يأملون فيه بشكل شبه جماعى . ولذلك فإنه لم يمر وقت طويل إلا ويظهر التدخل الفرنسى هناك على أنه ضرورة . وكانت عملية التدخل مطروحه منذ عام ١٦٣١ ، وحيث كان جزء من النبلاء البلجيكيين غير الراضين قد إلتجأوا إلى الفرنسيين وإلى الهولنديين لمعاونتهم على تحرير بلادهم من السيطرة الأسبانية . ولقد طرح ملك فرنسا بطبيعة الحال شرطاً يتمثل فى أنه سيستعيد ملكية « ميراثه القديم » أى الفلاندر وآرتوا . وقاموا فى لاهاى بالتفكير فى خطة للتقسيم . ولكنها لم تنفذ ، وأن كانت المحادثات الفرنسية الهولندية لم تنقطع منذ ذلك الوقت . واتفقوا فى شهر أبريل عام ١٦٣٤ على معاهدة جديدة للتعاون فقط ، ولم يتوصل ريشيليو إلى أن يقرر أمر التدخل العسكرى : فكان مشلولا بالخوف من أن يقوم جاستون ، دوق أورليان ، بوضع نفسه وقواته فى خدمة الأسبانيين . وتردد هذا الرجل النشط ، والذى كانت عملية أخذ القرارات بالنسبة إليه إحدى الصفات المميزة ، وشعر بالخوف . ووصل من ذلك إلى أنه نظر إلى أمر تقسيم الأراضى المنخفضة على أنها عملية طموحه للغاية : فسيقوم بطرد الاسبانيين ، فهذا أمر متفق عليه ، ولكن فقط بمعونة البلجيكيين ، ولكى يسمح لهم بالحصول على إستقلالهم . وعلى هذا الاساس الجديد تم عقد معاهدة التحالف الهجومى والدفاعى : فلن تقتسم

الأراضى المنخفضة إلا فى حالة غير متوقعة ، وهى أن يرفض البلجيكيون التعاون من أجل تحريرها .

ولكن الوضع العسكرى لم يكن هو نفسه الموجود فى العام السابق فكان وصول الكاردينال الأمير ، الذى إنتصر فى نوردلنجين إلى بروكسل ، ومعه جيشه ، يزيد إلى حد بعيد من إمكانيات مقاومة الإسبانيين . ولذلك فإن العملية لم تبدأ إذن فى تلك الظروف المواتية التى كانوا يأملون فيها إذا ما كانت قد تقررت قبل ذلك .

ولم تبدأ العمليات الحاسمة إلا فى ربيع عام ١٦٢٥ فقط . ففى يوم ٢٨ أبريل ، وبمعاهدة كومبين ، أعطى ريشيليو ، وبعد تردد كبير كذلك ، تحالف فرنسا الكامل لأوكسنتيرن . وتعهد الطرفان على إعادة إقامة الأوضاع السابق لعام ١٦١٨ فى ألمانيا . أى إلغاء كل النجاح الذى كان الكاثوليك قد حصلوا عليه منذ بداية الحرب . واحترست باريس من قطع علاقاتها بعد ذلك مباشرة مع الامبراطورية . ولكن إعلان الحرب وصل إلى بروكسل يوم ١٩ مايو مع مندوب من جانب الملك . ولقد استند ذلك إلى عملية أسر الاسبانيين لرئيس أساقفة تريف ، والذى كان ، وهو خائف من السويديين ، قد وضع نفسه تحت حماية الملك منذ عام ١٦٣٢ ، والذى كان قد إستقبل حاميات فرنسية فى المواقع الرئيسية من إمارته المنتخبة .

ولن يعمل التدخل الفرنسى ، الذى جاء متأخراً ، على تغيير مسار الحرب فى الأراضى المنخفضة بشكل واضح . ولن يكون له سوى تأثير غير مباشر على الحرب فى ألمانيا ، وذلك عن طريق إحتفاظه بالجيوش الاسبانية بعيدة عنها ، لفترة من الزمن .

وكانت سلسلة من العمليات المبدئية قد مهدت للدخول إلى المعارك ، إذ أن

كل تدخل للقوات الفرنسية فى الأراضى المنخفضة كان يتضمن ، مسبقاً ، أخذ إجراءات أمن على جانب هذه الجيوش التى ستبتعد عن الحدود فى إتجاه الشمال . ولم يكن الدخول إلى دوقيات اللورين ، منذ عام ١٦٣٢ ، هو الإجراء الوحيد . وبعد بضعة أشهر ، كان ظهور الفرنسيين فى الألزاس هو نتيجه لوضع قوات اللورين خارج اللعبة . ثم بعد ذلك ، وفى عام ١٦٣٤ ، وبعد الهزيمة الكبرى التى نزلت بالسويديين فى نوردلنجين ، جاء الاحتلال الفرنسى لكى يأخذ ، فى كل هذا الإقليم ، مكان الاحتلال السويدى . وكانت كل هذه الإجراءات لها الصفة المؤقته من حيث المبدأ . وكانت عند ريشيليو فكرة ضعيفه للغاية عن إقامة مستمرة هناك ، حتى أنه سيقوم بعد ذلك مباشرة بعقد معاهدة مع أحد الأمراء الألمان ، وهو برنار صاحب ساكس فيمار ، وأفضل ياوران جوستاف أدولف ، واعترف له بكل الحقوق التى كانت الاسرة النمسوية الحاكمة تمارسها فى الالزاس، وبشرط الدفاع عن البلاد ضد الامبراطوريين ؛ وهى معاهدة سان جرمان فى ٢٧ أكتوبر ١٦٣٥ .

وفى الأراضى المنخفضة ، إنهارت الآمال التى كانت قد نشأت عن التعاون الفرنسى الهولندى ، منذ العام الأول . وكانت حالة ١٦٣٥ ، وهى الوحيدة التى تستحق التمعن فيها ، مخيبه للآمال بدرجه كبيرة بالنسبه لخصوم إسبانيا . فقام الجيش الفرنسى ، مع الجيش الهولندى الذى إنضم إليه عند الموقع الذى كان فريدريك هنرى ، أمير أورانج ، قد إنتصر فيه فى عام ١٦٣٢ ؛ ثم زحفا سوياً على بروكسل . ولكن البلجيكيين، بدلا من أن يسهلوا تقدمهم ، أظهروا عداءهم : فكانوا يخشون من أن يستبدلوا سيطرة الأقاليم المتحدة ، وهى من أنصار كلفن ، بسيطره إسبانيا ، وكانت كاثوليكية . وتسببت هزيمه خطيرة أمام لوفان فى بدايه حركة الإنسحاب العام . وتم الإنسحاب فى اتجاه الشمال . وستضطر القوات

الفرنسية ، بعد أن تقضى الشتاء عند حلفائها الهولنديين ، إلى العودة إلى وطنها عن طريق البحر فى عام ١٦٣٦ . وكانت النتيجة الأكثر وضوحاً لهذه الحملة الفاشلة تتمثل فى عودة مفاوضات الصلح مباشرة بين الإسبانيين وبين الهولنديين .

وكانت هذه الظروف الجديدة تحتم ، وأكثر من أى وقت مضى ، قطع خطوط المواصلات بين فرعى آل هابسبورج : ولذلك فإن مشكلة فالتيلين قد عادت إلى الظهور من جديد . وفى السنوات السابقة ، كان الإسبانيون قد نقضوا المعاهدة ، واستخدموا الممر وكأن شيئاً لم يكن يمنعهم من استخدامه ،وقام جيش صغير ، بقيادة دوق روهان وهو من الهيجونوت ، والخصم القديم لريشيليو . باحتلال طرفى الممر ، منذ إعلان الحرب ؛ وحافظ على مواقعه هناك رغم الهجمات المتتالية من جانب الاسبانيين ، والامبراطوريين ، وكانت البداية مشجعة ، ولكنها أصبحت بعد ذلك أقل تشجيعاً . ذلك أن دوق سافوا ، فيكتور أميدى، نسيب لوى الثالث عشر ، قد أصبح حليفا له بمعاهدة ريفولى ،فى ١١يوليو ١٦٣٥ ، والتى كانت قد وعدته بجزء من أراضى ميلانو حين يتم غزوها،أما الباقى فسيذهب إلى كل من دوق بارما ودوق مانتوا . وبدأ هجوم مشترك على ميلانو فى عام ١٦٣٦ ، من جانب بواسطة روهان ، ومن جانب آخر بجيش فرنسى ومن سافوا فى نفس الوقت ، ولكنه فشل قبل أن يحقق أهدافه . وتميزت الحملة التالية بهزيمة أكثر فداحة : فأدى عدم لباقة روهان إلى ثورة قام بها الأهالى ضد التدخل الفرنسى فى شئون البلاد . وتطلب الأمر العودة إتفاق يرجع إليهم إقليم فالتيلين. وفى هذا الوقت جاء موت فيكتور إميدى ، وكان ذلك يمثل بداية أزمة لتحالف مع سافوا . فعمل بعض أمراء الأسرة على إثارة الرأى العام ضد الدوقه كريستين، أخت الملك لوى الثالث عشر ؛ وتم محاصرة القوات الفرنسية ، لفترة من الوقت، داخل قلعة تورين . وإنتهت الدوقة بكسب الموقف ، ولكنهم أصبحوا فى باريس غير قادرين على الإعتماد على معونة أبناء سافوا .

وهكذا نجد أن العمليات على حدود الألب وفى إيطاليا لم تعط أية نتيجة . أما تلك العمليات التى وقعت فى نفس الوقت على حدود البرانس فإنها كانت محدودة فى أول الأمر داخل أراضى الباسك . ولم تظهر أهميتها ، إلا فى عام ١٦٤٠ ، وحين تنتقل بعد ذلك إلى روسيليون . وحتى ذلك الوقت ظل إهتمام الحـــرب مركزاً فى الشمال ، وفى الشمال الشرقى ، وكان التضامن بين فيناوبين مدريد يعتمد عملياً على هذه المنطقة .

وفى بداية الحملة التالية ، قام الفرنسيون بهجوم على فرانش كونتيه ، وهو الذى أوقفه الأسبانيون بسرعة . ولما كان هذا الإقليم دائماً ، ومن حيث المبدأ ، أحد مناطق الامبراطورية ، فإن الإمبراطور فرديناند قد إستند إلى ذلك وأعلن الحرب ، فى شهر سبتمبر ١٦٣٦ . ووضع تحت تصرف الكاردينال الأمير الاسبانى ، أحد قادته ، بيكولومينى ، ومعه بعض القوات . وبهذه الطريقة تمكن جيش كبير ، فى أثناء الصيف ، من غزو بيكاردى ، ومن التقدم حتى السوم ، الأمر الذى أذهل باريس ، ولكن سرعان مازال هذا الخطر ، خاصة وأن العدو كان قد أنهك قواته فى هذا الهجوم المتهور . وبعد بضعة أشهر ، جاء القلق من حدود برجنديا : فقام جيش إمبراطورى بإحتلال بعض المواقع ، وبمحاصرة غيرها . ومن هذا الجانب كذلك ، إنتهت الحملة بالنجاح الكامل للفرنسيين .

وفى هذا الوقت ، أى فى عام ١٦٢٦ ، ظهر أن مصير الحرب لم يكن مؤكداً . فرغم النجاح المؤقت ، للفرنسيين وللاسبانيين ، فإن أحدا منهما لم يكن قادرا إلا على الاحتفاظ بمواقعه ، دون أن يؤثر على مواقع الخصم وبشكل مشابه لذلك كانت العمليات على حدود ألمانيا لها طبيعة دفاعية . ففى عام ١٦٣٥ ، كان جيش

اللورين الفرنسى ، بقيادة الكاردينال دى لافاليت ، قد ذهب وعاون جيش أمير ساكس فيار ، الذى كان قد طرد منذ بعض الوقت من مايانس ، وعاونه على أن يتمركز من جديد على نهر السار . وفى هذا الوقت ، إختار ريشيليو برنار أمير ساكس فيار ، من أجل الدفاع عن الالزاس ضد الامبراطوريين ، وبمساعدة المعونات الفرنسية . وبدأت هذه العملية فى ذلك الوقت ، على أنها موفقة . خاصة وأن الصعوبات قد تزايدت ، وبدأ أن موقف الفرنسيين ، فى الالزاس ، قد أصبح دقيقاً . وفى عام ١٦٣٦ كان من الصعب تموين حاميات المواقع المحتلة ، عبر الفوج والتى كان الإمبراطوريون يضغطون عليها من قرب . وزاد وضوح الموقف شيئاً فشيئاً ، وحصل برنار ، على تصريح من باريس فى عام ١٦٣٧ ، بعبور نهر الراين ، وبتطويق ومحاصرة برياش . وكان الاستيلاء على برياش فى ١٧ ديسمبر ١٦٣٨ ، والذى حدث فى وقت كانت القوات غير قادرة فيه على السير فى الاراضى المنخفضة كافياً لكى يحتفلوا به فى فرنسا ، وعلى أنه انتصار عظيم .

وعلى العكس من حلفائهم ، فإن السويديين قد نجحوا فى عدم الدخول فى عمليات حصار . وكانوا مخلصين لطريقة عمل جوستاف أدولف ، فاستمروا فى القيام بالحرب ، مع الحركة . وبعد أن إنطلقوا من بوميرانيا كقاعدة لعملياتهم قاموا بجولات فى إتجاه الجنوب ، وحاولوا ، وإن كان ذلك بدون نجاح ، الوصول إلى الامبراطور فى أراضى أسرته . وبعد بضع سنوات ، سترتبط عملياتهم بطريقة أقوى ، بعمليات الفرنسيين . وتم عقد معاهده تحالف جديدة فى هامبورج فى ١٥ مارس ١٦٣٨ . ومنذ ذلك الوقت ستتحدد الأهداف بالإتفاق المشترك وسيتم التنسيق بين العمليات . ومع ذلك ، فان الاعداد البسيطه للقوات الموجودة

مع مارشال جيبريان لم تكن تسمح لفرنسا بالقيام بشيء هام . ولكن هذا الموقع لم يكن ، بالنسبة لفرنسا ، هو أهم مواقع الحرب .

وكان ريشيليو قد دخل الحرب لوضع حد لذلك « التقدم الأسبانى » الذى هاجمه فى مذكرته التى كان قد قدمها للملك فى عام ١٦٢٩ . وكان الأمر يتعلق بصفة أساسية ، وبالنسبة إليه ، بإجبار الخصم التقليدى على أن يرفع أيديه عن تلك القطاعات التى كانت سياسته الخاصة بالغزو فيها تهدد المصالح الفرنسية ، وبنوع خاص فى البلاتينات وفى فالتيلين . ثم حدث بعد ذلك . وبضغط وتطور الأحداث ، أن أعيد طرح مسألة الأراضى المنخفضة من جديد . وكان على السلاح أن يقرر المسألة . ولكن ذلك لم يكن يعنى عدم استخدام الدبلوماسية . فقبيل بداية العمليات الحربية ، وحتى من وقتها ، لم تكف الدبلوماسية عن القيام بنشاط كبير . واهتمت بأن تعد ، ومن بعيد ، أمر التسوية السلمية . وبطرق سرية للغاية ، عمل مندوبى الكاردينال على استغلال أقل نجاح عسكرى . حقيقة أن الخصم لم يكن قد أظهر حتى ذلك الوقت إستعدادات طيبة مماثلة . ولم يكن أوليفاريس هو ذلك الرجل الذى تثبط الهزائم المؤقتة من عزيمته . وكان الصلح الوحيد الذى يبدى إستعداده للتفكير فيه هو ذلك الصلح الذى يعيد إقامة حالة الأوضاع السابقة للعمليات الحربية . واستمر على إتصالاته بلندن ، وحيث كانوا لا يطلبون أكثر من أن يسير صوب تقارب ولكن بشرط إعادة البلاتينات إلى أصحابها الشرعيين . ونتيجة لرفض أسبانيا صراحة قبول هذا الشرط ، فإنها ظلت معزولة . هذا علاوة على أنه ، منذ أن أخذت أحداث انجلترا شكلا ثوريا أصبحت قوة انجلترا فى شبه عزلة كاملة .

وفى هذه الفترة مرت قوة أسبانيا بفترات عصيبة ، كانت تمثل ، من بعيد ، فترة حاسمة فى تاريخها . فبالإضافة إلى الهزائم العسكرية المتتالية ، يمكننا أن

تضيف ، وفى الداخل ، نشوب حركات ثورية لها إتجاه إنفصالى ، عملت نتائجها على تقليل طاقة مقاومة الأمة وكان النجاح الأخير ، الذى إحتفلوا به فى مدريد وبمظاهرات حماسية ، يتمثل فى شهر سبتمبر عام ١٦٣٨ فى الدفاع الناجح عن فونت أرابى ضد الجيش الفرنسى الذى كان بقيادة أمير كونديه وبعد شهرين ، جاءت أنباء فقد بريساش لكى يعم الوجوم : إذ أنه منذ ذلك الوقت أصبح مرور القوات من ميلانو إلى الأراضى المنخفضة عن طريق الالزاس غير ممكناً. وفى شهر أكتوبر عام ١٦٣٩ ، أى بعد أقل من عام جاءت أنباء سيئة من جديد ، وأقوى من السابقة : ففى هذه المرة ، انغلق طريق البحر المؤدى إلى الأراضى المنخفضة . فإضطر أحد الاساطيل الذى كان يعبر بحر المانش ، ويحمل أكثر من عشرة آلاف رجل ، كمدد ، وأرغم بواسطة أمير البحر الهولندى ،تروب، إلىأن يلتجىء إلى دوفر،وحيث تمت مهاجمته وتحطيمه بعد عدةأسابيع من مراقبته أما ملك إنجلترا فإنه ، رغم النداءات التى وصلت إليه ، لم يتدخل ، إذ أنه كان مرةجديدة لم يحصل من مدريد على أى تعهد فى صالح منتخب البلاتينات . وهكذا أصبحت الأراضى المنخفضة معزولة ، وليست فى حالة تمكنها من أن تستمر فى المقاومة لفترة طويلة . ولذلك فإنها لن تتأخر كثيرا فى أن تفهم ، وفى أوساط الحكومة ، عدم جدوى الاستمرار فى حرب لن تؤدى إلى شىء ، ضد الاقاليم المتحدة .

وكان عام ١٦٤٠ عاماً عصيباً بنوع خاص فى شبه الجزيرة . ففى الشرق أولا ، بدأت ثورة كتالونيا ، والتى كانت من ممتلكات تاج أرجوانة . ولم يكن الفرنسيون غرباء عنها ، رغم أن أسبابها كانت داخلية بنوع خاص . وقامت أحد جيوشهم . بالفعل ، بغزو كونتيه روسيليون ، التى كانت خاضعة لكتالونيا . وكان الكتالون ، الحريصين الغاية على إمتيازاتهم ، يشكون من الأعمال التى كانت تقوم بها القوات التى كانت مدريد ترسلها إليهم ، ووصل بهم الحال إلى أن

يرفضوا السيادة الاسبانية فى شهر يونيو ١٦٤٠ . وفى العام التالى، وبعد أن ضمنوا التأييد الفرنسى ، أعلنوا عزل فيليب الرابع ، وتولية الملك لوى الثالث عشر كونتا على برشلونة وسرعان ماوصل جيش فرنسى صغير عبر جبال البرانس ، وأن كان قد توقف أمام مدينة تراجونة . وكانوا قد قنعوا إذن بعملية إنهاء إحتلال روسيليون . وسيجىء لوى الثالث عشر بعد ذلك ، مع وزيره ، للاشراف على عملية محاصرة بربينيان . وسيكون الملك هناك لكى يحصل رسمياً على عملية تسليمها ، فى الوقت الذى سيعود فيه ريشيليو ، وهو مريض للغاية ، صوب العاصمة ، وحيث يموت بعد بضعة أسابيع .

وبعد فترة بضعة أشهر شهدت ثورة كتالونيا ثورة أخرى مشابهة لها على الطرف الآخر من شبه الجزيرة ، وهى ثورة البرتغال . وكان أحد خلفاء الملوك السابقين ، وهو دوق براجنس قد إنتخب ملكا بإسم جان الرابع ، وأعترف به معظم ملوك أوربا فيما عدا الامبراطور . وأسرعت فرنسا بأن عقدت معه معاهدة تعاون مشترك ، فى أول فبراير ١٦٤١ . وأرسلت إليه الأموال ، كما أمرت بإرسال أسطول إلى لشبونة ، ثم تدخلت بعد ذلك من أجل أن يقوم الهولنديون، والذين كانوا منذ وقت طويل مشتبكين مع البرتغاليين فى البرازيل ، بمنحهم هدنة لمدة عشر سنوات ، وذلك فى ٢٢ يونيو ١٦٤١ . وتبعت المستعمرات البرتغالية السابقة ، المثل الذى أعطاه الوطن الام ، وطرحت عن كاملها السيطرة الأسبانية .

ولم يكن فى وسع هيبة أوليفاريس أن تتحمل كل هذه المصائب . وكان قد تأثر بنوع خاص من فشل بعض المؤامرات التى كانت قد تمت حياكتها، بتأييد منه ، ضد ملك فرنسا ، وفى صالح جاستون دوق أورليان . وكان مشروع المعاهدة الذى وضع فى مدريد من أجل الصلح ، والذى كان قد حظى بموافقة

المتآمرين ، يقوم أساساً على إعادة تثبيت الأوضاع القائمة . وكان إلقاء القبض ثم تنفيذ الأعدام فى جاستون ، بعد إكتشاف المؤامرة ، قد جعل الوزير الاسبانى غير قادر على الاحتفاظ بالوزارة ، وبعد أن كان مركزه قد إهتز فيها كثيراً . وتبرأ منه الملك فى مدريد بعد فقد بربينيان ، فى شهر يناير ١٦٤٣ .

وكان فيليب الرابع ، بتخليه عن وزيره ، وتضحيته به غير بعيد عن فكرة الصلح ، والتى كانت تفرض نفسها فى ذلك الوقت وبقوة الضرورة : فكان مستعداً للقيام باللازم من أجل التخلص من الهولنديين ، أى من أجل منحهم أخيراً الاعتراف بإستقلالهم ؛ ولن تتأخر المفاوضات عن أن تبدأ وعلى هذا الأساس . ومن جانب آخر ، فإنه سيتخلى عن دوق اللورين ؛ ويتركه يلقى مصيره ؛ أو على الأقل لن يطالب له بإعادة كل ممتلكاته إليه ومنذ عام ١٦٤١ ، قنع شارل الرابع ، الذى علم بذلك التغيير فى السياسة الاسبانية ، بالبحث عن إتفاق مع فرنسا ، التى كانت قد جردته من أملاكه . وذهب يقدم فروض الولاء فى سان جرمان ؛ وحصل على وعد بإستعادة دوقياته ، فيما عدا نانسى ، وإضطر إلى أن يقطع على نفسه كل تعهدات ممكنة تجاه الملك ، والتى لم يكن ينوى الوفاء بها . ولذلك فإن معاهدة عام ١٦٤١ لن تعتبر لها قيمة لوقت طويل .

ولم تكن هناك أى رغبة فى الإسراع إلى الصلح موجودة فى أوروبا ، إلا فى لاهاى وفى مدريد . وفى كل مكان ، كان الملل قد أصاب النفوس وفى ألمانيا ، كان مكسميليان صاحب بافاريا هو الذى يعمل من أجل الصلح بنوع خاص ، ويدافع من عداوته تجاه الحزب الأسبانى ، والذى كان نفوذه مسيطراً فى فينا . ونتيجة لمجهوداته، أجبر دايت عام ١٦٤٠ الامبراطور الجديد ، فرديناند الثالث، على أن يدخل فى محادثات من أجل الصلح . وفى العام التالى ، وفى يوم عيد الميلاد ، قرر ممثلو فرنسا والسويد ، والامبراطورية ، المجتمعين فى هامبورج ،

فتح المحادثات الرسمية — فى مونستير بالنسبة للدول الكاثوليكية ، وتحت وساطة البابا ، وفى أوسنابروج بالنسبة للبروتستانت . ولم يفكروا فى وقف العمليات العسكرية . ولذلك فإن العمليات العسكريه سوف تستمر وحتى الوقت الذى يتم فيه الاتفاق على شروط السلم أى لمدة ست سنوات أخرى .

٣ — الحرب الفرنسية الاسبانية ومعاهدات وستفاليا :

فى الوقت الذى بدأ فيه أمر تسوية الشئون الالمانية بحكمه وبطء ، استمر الفرنسيون والاسبانيون فى مواجهة بعضهم بعضاً فى الأراضى المنخفضة ، وفى كتالونيا ، وفى إيطاليا .

وعند وفاة ريشيليو ، كانت نتيجة الحرب لاتزال تبدو على أنها غير مؤكدة . فكان النجاح مقتسما بين الطرفين . وكانت أراس قد سقطت فى عام ١٦٤٠ . ولكن هزيمة هوتكور ، فى شهر مايو ١٦٤٢ أظهرت أن الاسبانيين كانوا مستمرين فى العمليات . ومن جانب آخر ، كانت المحادثات بين باريس ومدريد التى قطعت وأعيدت مرات متتالية ، لم تصل إلى شئ .وكان أوليفاريس، بعد أن طرح من حيث المبدأ أمر إعادة الاقاليم التى كانت قد احتلت من هذا الجانب أو ذاك ، لم يكن قد بدأ فى عملية إعطاء التنازلات إلا مؤخراً . وكان يتقدم فيها خطوة بخطوة ، وبحذر ، آملا ، وأن كان ذلك بلا جدوى ، فى أن الصعوبات الداخلية ، بعد إختفاء ريشيليو ، سوف تعمل على شل الخصم الفرنسى. ولذلك فإن المفاوضات لم تنجح إلا مع الهولنديين . وستنتهى المحادثات ، والتى كانت مستمرة سراً منذ عدة سنوات ، فى مونستير فى عام ١٦٤٨ ، بينما يتأخر الصلح مع فرنسا حتى عام ١٦٥٩ .

وسيتجه إهتمام مازاران بنوع خاص إلى إيطاليا ، وطنه ، بعد أن يحظى

بثقة الملك ، وكذلك بثقة الملكة الوصية بنوع خاص ، ويأخذ مكان الكاردينال الكبير . وكان ريشيليو قد إكتفى بالتدخل فى سهل بو ؛ ولم يرجع ذلك إلى إهماله أهمية المشكلات التى كانت مطروحة فى بقية أنحاء شبه الجزيرة . وكتب فى وصيته السياسة أن إيطاليا تعتبر على أنها قلب العالم ؛ وفى الحقيقة تعتبر أهم مكان لإسبانيا فى إمبراطوريتها . ولكنه كان حتى النهاية لا يستند إلى قوات بحرية كافية ، تسمح له بالقيام بأى عمل . ونتيجة لمجهوداته المتواصلة فى ميدان المنشآت البحرية، تحسن الموقف . وأفاد من ذلك خليفته . ومع تأكد التفوق الفرنسى فى المعارك ، على البر وفى البحر ،عملت دبلوماسية الوصية لدى بلاطات وسط وجنوب إيطاليا ، الصغيرة ، ومن أجل فشل النفوذ الأسبانى . وفى عام ١٦٤٦، قرر مازاران أخيراً أن يستخدم السلاح . ونزل جيش من ٢٠٫٠٠٠ جندى أمام ميناء أورتوبيلو التوسكانى ، وبدأ عملية الحصار . ولم يتمكن من إتمام العملية ، نتيجة لمجيء أسطول أسبانى ، وتفريقه لسفن المعاونة ولـــكن حملة ثانية ضد هذا الموقع نجحت ، بعدقليل ، وإستولت على جزيرة إلبا . وكان هذا يمثل بداية العمليات: وكان الأمر يتعلق بتقطيع المواصلات بين الممتلكات الاسبانية المختلفة فى شبه الجزيرة وفى ميلانو .

وبعد وقت قصير ، نشبت ثورة كان يتم الإعداد لها منذ وقت طويل فى مملكة نابولى — وهى الثورة التى سميت بأسم ماسانيللو ، بإسم ذلك الواعظ الشاب الذى عمل على تحريكها وإثارتها فى الأيام الأولى . وتم إعلان «الجمهورية» وإلتجأ الثوار إلى أحد الأمراء الفرنسيين ، وهو من الممثلين الباقين القلائل لأسرة دى جيز ، والذى كان مقيما فى روما فى ذلك الوقت ؛ وإختاروه رئيساً لهم ، ومنحوه لقب « حامى الحرية » . وكان هذا الإختيار ، وكذلك إعلان الجمهورية ، لا يعجب الملكة الأم . ولذلك فإن مازاران رشح ضد الامير هنرى

دى جيز أحد أعمام دوق سافوا الشاب ، وهو الأمير توماس الذى كان فى حالة نجاحه سيتنازل عن حقوقه عن سافوا ، فى مقابل حقوق فرنسا على نابولى . ولكن تدخل الاسطول الأسبانى أمام نابولى عمل على إفشال المشروع . واضطرت القوات الفرنسية إلى الإنسحاب . وتعقبوا دوق دى جيز ، ثم ألقوا عليه القبض . وزاد ثقل السيطرة الإسبانية على نابولى أكثر من أى وقت مضى .

وفى إسبانيا ، وكذلك كما كان عليه الحال فى إيطاليا ، كانت سياسة مازاران مستعدة لعمل حساب للخيالات . ففى عام ١٦٤٦ إحتلت القوات الفرنسية الجزء الأكبر من كتالونيا . وفكر مازاران فى إمكانية التفاهم المثمر مع مدريد : إعادة الأقاليم المحتلة فيما وراء البرانس نظير التنازل عن الأراضى المنخفضة . ومن سوء الحظ ، أن هذا الارتباط المغرى لم يتوقف إلا فترة قصيرة . وأصابه ذلك النوع من الدوار الذى يصيب تلك السياسات المفاجئة . ثم أصبح يخشى بعد ذلك من أن يدفع ثمناً غالياً فى الحصول على ذلك الشىء الذى يمكن لحلة مقبلة أن تضمنه لفرنسا .... وهذه الفرصة التى أفلتت لن يحصل عليها من جديد ، إذ أن مشكلات وإضطرابات «العصبة» سوف تبدأ بعد قليل ، وسيضطر إلى التخلى نهائياً عن كتالونيا دون أى تعويض عنها .

وكان النجاح العسكرى الذى تم الحصول عليه فى الأراضى المنخفضة يساعد على شرح هذا التغير البائس فى السياسة الفرنسية ففى عام ١٦٤٣ ، وبعد بضعة أيام من وفاة الملك ، شهد العالم هزيمة المشاة الإسبانيين فى روكسروا على يدى دوق دانجان الشاب : ذلك الفقد الكبير لهيبتها ، والذى لن تتمكن من الوقوف بعده على أرجلها . ثم كان بعد ذلك أمر الاستيلاء على توانفيل التى فتحت أمام الفرنسيين الطريق الموصل إلى لوكسمبورج ، وجعلتهم فى مواقع أفضل من أجل تهديد وسط الأراضى المنخفضة . ومنذ ذلك الوقت تمت عمليات الحصار المتتالية

فى الفلاندر وفى هينوت بسرعة وبنجاح ؛ وانتهت هذه السلسلة فى شهر اكتوبر عام ١٦٤٦ بالإستيلاء على دنكرك .

وكنتيجة غير متوقعة لهذا النجاح ، هو أن الهولنديين قد أصابهم الخوف : التخلص من إسبانيا الضعيفة بشكل واضح كجارة لهم ، وترك هذا الجوار لفرنسا المتزايدة القوة وبإستمرار . ولذلك فإنهم بدأوا يرددون فى لاهاى وفى أمستردام ، فى هذا الوقت شعاراً جديداً للسياسة الهولندية : « أصدقاء غاليون ، لاجيران» . ولذلك فإنه كان هناك عدم إتفاق بين الحلفاء فى الوقت الذى تبدأ فيه مفاوضات مونستير . وستكون النتيجة هى أن يقوم الهولنديون بتوقيع الصلح، بدون الفرنسيين ، وقبلهم . وساعدهم ملك أسبانيا على أن يتخلصوا من ترددهم الأخير ، وذلك بمنحهم ماكان قد رفض لهم حتى ذلك الوقت ، وهو الإعتراف الرسمى بإستقلالهم ، ولم تنجح كل التدخلات التى قام بها المفاوضون الفرنسيون ، ولاحتى تهديداتهم ، أمام الرغبة الواضحة من جانب حلفائهم لإنهاء الحرب . وتم التوقيع على المعاهدة الهولندية الأسبانية فى لاهاى فى ٣٠ يناير ١٦٤٨ ؛ وسيتم التصديق عليها فى مونستير وحصلت الاقاليم المتحدة على قطع كل علاقات التبعية التى كانت تربطها بسادتها السابقين . كما حصلوا على قطاع من الأرض كانوا قد قاموا بغزوه ، خطوة بخطوة ، فى أثناء الحرب ، وأصبح تحت سيادتهم الكاملة : وكان يشتمل على قطع من برابانت ، ومن الفلاندر ، ومن ليمبورج ، دخلت فى الدولة بإسم البلاد العامة . وأخيرا فان مصبات نهر الإسكوت قدظلت مقفلة فى وجه التجارة . وهكذا ظلت انفرس تعيش عيشة الخمول التى كان جيرانها قد فرضوها عليها منذ مايزيد عن نصف قرن .

وفي ألمانيا ، كان إعداد معاهدات وستفاليا مصحوباً بعمليات عسكرية

عديدة . ولم تكن هذه العمليات تؤثر كثيراً على المفاوضات ،إلا من حيث التأخير ، خاصة وأن كل فريق كان يعتقد بسهولة أن فرصه ستزداد فى حالة نجاحها وبالتالى تقل فرص العدو .

وحتى قبل أن يبدأ المؤتمر أعماله - وسيناقشون لمدة عامين مسائل الإجراءات والبروتوكولات - قام السويديون من جانب ، والامبراطوريون من جانب آخر بالإنفصال مؤقتاً وبتحويل أنظارهم عن ألمانيا ، لمواجهة خصوم جدد ، ذلك أن كريستيان الرابع ، ملك الدانمرك ، كان حاقداً على نجاح السويد ، فعمل على حياكة المؤامرات فى ستوكهولم مع خصوم المستشار أكسنستيرن . وأدى رد فعل هذا الأخير إلى أنه قد إرتبط بالهولنديين ، الذين كانوا يشكون من زيادة دفع الرسوم الجمركية فيما بين بحر الشمال وبحر البلطيق : وإنتهى الأمر بإعلان الحرب ضد الدانمرك عند نهايه عام ١٦٤٣ . وتم غزو شيلزفيج وهولشتاين ، وقام السويديون بتحطيم الإسطول بشكل شبه كامل ، وأخيراً تم إحتلال المضايق وأقفلت فى وجه الهولنديين ، فإضطر كريستيان إلى طلب الصلح وحصل عليه نتيجة لتدخل فرنسا . وتخلى فى عام ١٦٤٥ للسويد عن جزيرتين كبيرتين فى بحر البلطيق ، هما أوسلى ، وجوتلاند . ثم منح الهولنديين . بمعاهده تالية . إعادة العمل بالتعريفات السابقة فيما بين بحر الشمال وبحر البلطيق .

وعلى حدود المجر قام أمير جديد من أمراء ترانسيلفانيا ، وهو جورج راكوكس ، وبالإتفاق مع فرنسا ، والسويد ، وهولندا ، بحمل السلاح فى عام ١٦٤٤ ضد الامبراطوريين . ولكنه إضطر من ناحية أخرى ، إلى أن يلقى السلاح بعد بضعة أشهر ، خاصة وأن علاقاته كانت قد توترت ، فجأة مع السلطان .

ولقد أصابت الإمبراطورية ضربة شديدة حينما تخلى عنها منتخبي ساكس وبراندبورج،واللذان كانا منذ صلح براغ قد وضعا نفسيهما فى خدمة الامبراطور ، ولكن هذا الشعور تناقص بعد ذلك نتيجة لطول فترة الحرب . فمنذ عام ١٦٤٠ وقع فريدريك ويليام ، منتخب براندبورج على إتفاقية لوقف العمليات الحربية مع السويد : وستتجدد مرات عديدة . وعرف جان جورج ، منتخب ساكس ، فى عام ١٦٤٥ ، كيف يحصل منهم على إعتراف بمزايا الحياد . وكانت الأراضى الساكسونية تشتمل على بوهيميا وكذلك على ملحقاتها فى سيليزيا ومورافيا ، وأصبحوا بعد ذلك لا يحاربوا،وان كانت هذه الأراضى سوف تستخدم كقاعدة للعمليات السويديين . وشعر فرديناند بالخطر . وفى مونستير ، وحيث كانت الامور تسير ببطء منذ أن افتتح المؤتمر أعماله رسميا فى شهر مايو ١٦٤٤ ، قرر أن يبدأ فى الدخول فى طريق الموافقة على التنازلات . فوافق على رغبة فرنسا فى أن يظهر ، أمام أو فى مواجهة ممثلى الإمبراطور ، ممثلين ، عن كل جماعات الإمبراطورية ، والمنتخبين ، ورؤساء الأقاليم ، والمدن الحرة . وكان لهذا التنازل نتائج ضخمة : إذ أن اعداء الامبراطور العديدين سيتمكنون من معونة القوى المعادية . وظهر مسبقاً أنه لن يكسب الجولة .

وأخيراً ، فإن إنسحاب بافاريا سيكون وصمة كبيرة فى جبين الامبراطورية ، وسببا فى ضعفها ، لا يمكن علاجه . ومنذ عام ١٦٤٥ فقد مكسميليان الأمل فى المستقبل ، وبدأ المفاوضات . ورغم عدم رغبة السويد فى المحافظة على دولة كاثوليكية ، فإن المفاوضات انتهت ، فى ١٤ مارس ١٦٤٧ ، إلى هدنة أولم : فحصلت الأقاليم البافارية على حيادها . وحصل المنتخب على وعد بإستعادة كل دولة .

أما الفرنسيون والاسبانيون ، فإنهم لم يتمكنوا من التفاهم سويا : وعاند

فيليب الرابع فى أن يطالب ، ورغم كل الهزائم الحربية التى نزلت بقواته ، بإعادة كل الاقاليم التى أصابها الغزو . ولذلك فإن أسبانيا لن تدخل فى المناقشات الكبرى . وفيما بين الامبراطورية ، وفرنسا والسويد سيتم توقيع المفوضين فى مونستير فى ٢٤ اكتوبر ١٦٤٨ ، أما تبادل تصديق الملوك فإنه سيتم فى ١٨ فبراير ١٦٤٩ ، فى مونستير كذلك .

وكانت الدبلوماسية الفرنسية ، والدبلوماسية السويدية ، قد إقترحتا من حيث المبدأ ، ومنذ سنوات ، ألا ينسحب التاجان من الحرب دون أن يكونا قد حصلا على تعويض عن الخسائر التى نزلت بها ، من أجل المعاونة على تسوية المسألة الألمانية . ولذلك فإنه كل منهما قد عرض على المؤتمر منذ عام ١٦٤٦ ، قائمة بالإرضاءات التى كان يدعيها لنفسه . فطالب تاج فرنسا ، علاوة على التنازل الرسمى عن الثلاث أسقفيات ، والتى كانت محتلة منذ عام ١٥٥٢ ، بالتخلى عن حقوق آل هابسبورج فى الألزاس ، وعلى أساس كونها حقوقاً وراثية . ولقد رأينا ، فى عام ١٦٣٥ ، أن الملك كان قد اعتقد أن فى وسعه أن يعد بالتنازل عنها إلى برنار ، صاحب ساكس فيمار ، حليفه وعميله . ولكن الأمير الشاب توفى فجأة فى عام ١٦٣٩ . ومنذ هذا الوقت إعتبر الفرنسيون أنهم فى هذا الاقليم . ولقد ناضل ممثلو الامبراطور فترة طويلة قبل الموافقة على التخلى عن الألزاس . ودفعوا بشدة أكثر ضد التخلى عن بريساش ، التى تقع على الضفة اليمنى لنهر الراين ، والتى كان الفرنسيون يعتبرونها مفتاحاً للألزاس العليا . ومع ذلك ، فقد تم الاتفاق على هذه النقط المختلفة ، وطبقاً للمطالب الفرنسية ، قبل نهاية السنة .

وفى أوسنابروج ، كانت النقاشات أقل مرارة وكانت مقاومة الإمبراطوريين أقصر ؛ إذ أن الأقاليم التى كانت السويد تطالب بها لم تكن من صلب ملكية

آل هابسبورج . أما بومير أنها ، والتى كان لمنتخب براند بورج مطالب قديمة فيها ، فإنها سوف تقسم — وبغير مساواة — بين الدولتين المتخاصمتين عليها . وأعطى الجزء الأفضل مع إسترالسوند ، ومصبات نهر أودير للسويد.التى حصلت كذلك على ميناء فيسمار ، ورئاسة أسقفية بريمن ، وأسقفية فردين فى هانوفر ، وستظل كل هذه الأقاليم تدخل فى نطاق الامبراطورية ، بينما كانت ممتلكات الالزاس الخاصة بآل هابسبورج قد تم التنازل عنها لملك فرنسا مع كل حقوق السيادة عليها . ولذا . فإنه سيكون على ملك السويد أن يرسل ممثلين عنه إلى الدايت .

ولقد كانت معاهدات ويستفاليا هدفاً لعمليات تقييم مختلفة ، تبعاً للأوقات . فبالنسبه للمعاصرين ، كانت الحرب قد إستمرت لفترة طويلة ، وبدرجة أن الشعور العام كان يتمثل فى تنفس الصعداء وقت التوقيع على معاهدة السلم فى آخر الأمر ، ومع ذلك ، فإن الكثيرين من بين رجال السياسة ، وبخاصة فى فرنسا ، قد أبدوا بعض التحفظات ، وسيظهر الكثيرين من الأعداء ، لمازاران ، الذى تحمل مسئوليتها أمام التاريخ . وكان المأخذ الرئيسى الذى وجهوه إليه أنه لم ينجح ، بعد كل هذا التأخير ، فى أن يدخل اسبانيا إليها . وكتب أحد الوزراء السابقين فى عصر ريشيليو ، فى عام ١٦٤٩ ، وبدون إنفعال : « أن السنوات التالية ستظهر لنا ماإذا كانت هناك ميزة فى أن نترك تدعيم السلم فى الامبراطورية وأن نظل فى حرب مع أسبانيا ، التى ستحظى دائماً ، وبطريق غير مباشر ، ومهما أخذنا من إحتياطات ، بكل قوة الامبراطور ضدنا ، وهى التى ستدعمهم وتدعم بجهودهم دون أى معونة من جانب حلفائنا ، خاصةوأن سياسة الكاردينال مازاران قد جعلتنا نفقد الهولنديين . . »لقد كانت هذه بلاشك هى لغة المنطق.

وفى وقتنا الحالى ، على العكس من ذلك ، هناك ميل إلى التهويل فى مزايا وفى أهمية مجموع التسويات التى حدثت فى عام ١٦٤٨ بين أسرة آل هابسبورج وبين خصومهم الفرنسيين والسويديين والألمان . وليس من النادر أن يروا فيها نقطة إنطلاق صوب نظام أوربى جديد : وكما لو كان مصير أوربا قد تداخل فى هذا الوقت وإرتبط بمصير ألمانيا . وإلى أولئك الذين يحولون إعتبار ذلك ، بطريقة علنية أو بطريقة ضمنية ، علينا أن نلاحظ أن معاهدات عام ١٦٤٨ هى مختلفة تماما عن تسويات الخلافات الكبرى بين الأمم التى أنهت فترة الحروب النابوليونية ، أو أنهت الصدامات العالمية فى القرن العشرين . وكانت نتيجتها الوحيدة ، فى الواقع ، هى إنهاء حرب ألمانيا . ولم يكن لألمانيا فى هذه الفترة أى صفة لتمثيل أوربا بأكملها . وكانت هناك دولتان كبرتان رئيسيتان فى ذلك الوقت ، وهما أسبانيا وانجلترا ، لم تدخلا فى عدد الدول المتعاقدة . وإذا كان عدد الدول الممثلة فى مونستير وفى أوسنابروج كان أكثر مما سيكون عليه فيما بعد فى مثل هذه المحافل الدولية من نفس النوع ، فإن ذلك كان يعود فقط إلى أنه ، طبقاً لطلب فرنسا ، دعيت كل الامارات الالمانية ، سواء أكانت خاضعة أو غير خاضعة للامبراطورية — وكان هناك مايقرب من مائة وخمسين — وشاركوا جميعاً فى إرسال المندوبين ، وفى أعمال المؤتمر .

ولذلك فإن الشئون الالمانية كانت هى وحدها ، تقريبا موضع مناقشات المؤتمر . وفى ذلك الاطار التقليدى — والذى كان قد إنتهى — للامبراطورية المقدسة ، إنشغلوا كذلك بمصير الكانتونات السويسرية ، والتى كانت قد تحررت عمليا منذ قرن ونصف قرن من إرتباطاتها بالامبراطورية ، وحصلت على إستقلالها التام . وكان من الضرورى كذلك تسوية مصير بينيرول ذلك الموقع فى سافوا الذى كان الفرنسيون قد غزوه ، وكانت الامبراطورية والامبراطور مستمران

فى المطالبة ببعض الحقوق فيه . وإعترف بملكيته الكاملة لملك فرنسا .

أما المظاهر الألمانية للغاية لماهدات وستفاليا ، فإنها كانت بلاشك أكثر أهمية : وهذا مايشرح لنا الأهمية التى أعطيت فيما وراء الراين لعام ١٦٤٨ ، وجعله تاريخا هاماً . ولنقل فقط أن تكوين الإمبراطورية قد تغير ، وأن سلطات الامبراطور قلت إلى أبعد حد ، وزادت سلطات الأنظمة بدرجة كبيرة: وهكذا أعترف بحق رؤساء الاقاليم فى الاحتفاظ بعلاقات دبلوماسية ، وحتى فى عقد المحالفات مع الدول الاجنبية ، دون الرجوع فى ذلك إلى الامبراطور . ومن وجهة النظر الاقليمية ، أعيد تكوين البلاتينات فى منطقة الراين ، مع منصبها الرئاسى الانتخابى . ولكن دوق بافاريا إحتفظ بالبلاتينات العليا ؛ وأنشئت له منطقة إنتخابية ثامنة ، ولصالحه . وزاد إتساع دول منتخب براندبورج . فحصل على جزء من بوميرانيا ، وعلى أسقفيات ميندين ، علاوة على تطلعه إلى رئاسة أسقفية مجدبورج . وجاءت تعديلات أخرى ، نتيجة لتحويل بعض الاقاليم من سلطة رجال الدين إلى السلطة العلمانية ، وأسهمت فى تعديل الخريطة السياسية لشمال ألمانيا ، وأخيراً ؛ وبالنسبة للشئون الدينية ، تدعمت نصوص صلح أوجسبرج مرة جديدة ، مع إختلاف بسيط ، يتمثل فى أن كل مايطبق على أنصار لوثر سيطبق الآن على أنصار كالفن كذلك . وأعلنت كل الدول المتعاقدة أنها تضمن المعاهدة : وهكذا أصبح فى وسع فرنسا والسويد أن يستخدما حق التدخل فى الشئون الالمانية فى حالة حدوث تهديد من جانب الامبراطور ضد « الحريات الجرمانية » .

ومن أجل تسوية المشكلات العديدة التى تطرحها مسألة تنفيذ المعاهدة ، إحتاج الأمر إلى عقد مؤتمر الدبلوماسيين : ولقد جمع فى عام ١٦٤٩ وعام ١٦٥٠ ، فى نورمبرج ، ممثلى الدول ذات المصلحة الرئيسية .

٤ – تأثير أنجلترا فى عهد كرومويل :

إن الحدث الذى يسيطر على تاريخ الفترة التى تأتى مباشرة بعد المعاهدات يتمثل فى دخول الدولة البريطانية إلى مسرح الأحداث .

وكانت انجلترا لا تشارك فى أمور أوربا ، منذ مايقرب من إثنى عشرة عاماً ، أى منذ الإجتماع الطويل للبرلمان ، والحرب الأهلية التى تلتها . وكان بعض البريطانيين قد إشتركوا فى هذه الحرب ، ولكن بصفة فردية ؛ وكانت أحداثهم وأعمالهم لانرجع إلا لأشخاصهم . وكان الأمر يتعلق بعدد من المرتزقة الذين كانوا يجندون فى الجزر البريطانية بواسطة الدول المتحاربة . ولقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى ، وإلى وجودهم فى جيوش جوستاف أدولف . وكان منهم كذلك عند الهولنديين . بما كان يكفى لشرح التمسك المشترك بمذاهب الاصلاح الدينى . ولكن نجدهم كذلك خارج الجيوش البروتستانتية ؛ الأمر الذى كان يطرح بعض المشكلات . ولا يمكننا أن نستند هنا ببساطة ، كما كان عليه الحال فى ألمانيا فى القرن السابق ، إلى ذلك العدد الكبير من الأفواه التى تطالب بالغذاء ، ونسبتها إلى كمية وسائل المعيشة ، إذ أن بلادهم أصبحت تنتج الآن من القمح مايزيد على ماكانت تستهلكه ؛ وكانت حتى قد شاركت ، بعد أن أصبح التصدير حراً ، فى تموين هولندا والأراضى المنخفضة ولذلك فإنه علينا أن نبحث عن سبب آخر لهذا الشكل الخاص من أشكال الهجرة ، والمعاصره لتلك الهجرة التى إستمرت فى توطين الأهالى فى مستعمرات أمريكا وعلينا أن نذكر على الأقل أن هذه الحركة كانت قد بدأت منذ القرون السابقة : ذلك أنهم فى روسيا ، ومنذ وقت إيوان الرهيب ، كانوا يشاهدون البريطانيين ، وبنوع خاص الإسكتلنديين ، فى خدمة القيصر . ومنذ ذلك الوقت إستمرت أعدادهم فى الزيادة . وفى هذا الوقت الذى نتحدث عنه ، أصبحوا يشاهدون هناك كتائب بأكملها ، وعلى

رأسها قادتها ، تصل من إنجلترا إلى روسيا . فلقد أصبحت بريطانيا العظمى سوقا للجنود ، ومفتوحا أمام الجميع . أما الأيرلنديين ، وكانوا من الكاثوليك ، فإنهم كانوا يوافقون بسهولة على الخدمة فى اسبانيا . ولكنهم كانوا يشاهدون كذلك كثيراً فى فرنسا ، مثلهم فى ذلك مثل الإسكتلنديين ، وكانوا يفضلونهم على الإنجليز ، الذين كانوا يكثرون فى مطالبهم ، ويقلون عنهم فى الإنضباط .

وفى سنوات ١٦٥٠ وما بعدها ، تمكنت انجلترا ، التى يحكمها برلمانها ومجلس الدوله ، من ان تنتهى من الحرب الاهلية . وكانت قد أصبحت دولة عسكرية ، وقوة حربية . فكان لها جيش وبحرية أثبتا قيمتهما فى الحرب ضد الملكيين . وكان قائدها العام ، أوليفر كرومويل ، قد إنتصر على الايرلنديين ، وعلى الاسكتلنديين فى نفس الوقت . وكانت هيبته قد إزدادت ، واقتربت الايام من ان يصبح ديكتاتورا . وفى إنتظار ذلك ، كان نفوذ الاوساط الاقتصادية ضخما ، وحتى مسيطراً ، على المجالس . وسنشاهد ذلك فى عام ١٦٥١ .

وتحت تأثير « موجة الدولة » ويليام الثانى ، اعادت الاقاليم المتحدة علاقات الصداقة القديمة مع فرنسا ، والتى كانت قد تأثرت نوعاً ما منذ عام ١٦٤٨ ، فى مونستير . ولقد تحدثوا عن وساطة بين باريس ومدريد ، وكذلك عن عملية مشتركة فى صالح أسرة ستيوارت : ذلك ان ويليام كان قد تزوج ، فى عام ١٦٤٧ ، الإبنة الكبرى للملك شارل الأول . ولكن الاختفاء المفاجىء لموجه الدوله ، فى ٦ نوفمبر ١٦٥٠ ؛ سيكون له نتائج خطيرة للغاية . فسيجد الهولنديون الوقت الكافى للتفكير فى أنه كانت لهم أكثر من علاقة مع جيرانهم الإنجليز ، رعايا كرومويل : وعلاوة على أنهم كانوا يجدون ، الاولين والآخرين ، فى معسكر الإصلاح الدينى ، ألم تكن حكوماتهم هنا وهناك ، ترفع الشعار الجمهورى ، الذى لا يقبله الملكيون ؟ ولقد جاء سفراء الانجليز يعرضون على

لاهاى اتحادا سياسياً عميقاً ، يغلف فى شكل معاهدة تحالف دائمة .

وكان الهولنديون متمسكين كثيراً بإستقلالهم ، وبشكل يمنعهم من قبول مثل هذا العرض . ولكن لندن غضبت من رفضهم الموافقه على وجهات نظرها والتى كان الهولنديون يخشون من أنها ستؤدى إلى إستعبادهم . ولذلك فإن المصالح الاقتصادية الكبرى هى التى ستظهر أكثر من غيرها ، وسيؤدى الاتجاه القوى الكبير للأوساط المالية فى « المدينة » عمله ، الذى يمكن شرحه بنشر « قانون الملاحة » فى نفس هذه السنة ، فى شهر إكتوبر ١٦٥١ . ومنذ ذلك الوقت ستمنع من الدخول إلى انجلترا أى سلع تأتى من دول أخرى على القارة — مثل الأنبذة الفرنسية والملح البرتغالى — إلا إذا ما كانت تأتى على سفن بريطانية ، أو سفن من البلاد التى تنتج السلعة نفسها . أما فيما يتعلق بالسلع الافريقية ، والتى تأتى من آسيا أو من أمريكا ، فقد كان عليها أن تصل على سفن انجليزية ، ويكون غالبية بحارة هذه السفن من الانجليز ، ولا شك ان نصيب السفن الهولندية فى التجارة الخارجية لإنجلترا لم يكن ، ومن بعيد ، ما كان عليه منذ بعض الوقت : فكان عدد السفن الانجليزية قد تضاعف أربع مرات منذ نهاية القرن السادس عشر . ومع ذلك فقد شعر الهولنديون بأنهم مقصودين مباشرة بهذه الاجراءات . ولذلك فانهم إستمروا فى الابتعاد عن انجلترا . وجاءت أحداث وقعت فى المستعمرات لكى تجعلهم يعتقدون فى ان جيرانهم قد صمموا على العمل ضدهم . وجاءت أحداث أخرى ، نتجت عن إدعاءات الانجليز فى الحصول على « التحية الأولى » فى مياههم الاقليمية ، لكى تنتهى بنشوب الحرب بين الطرفين ، فى شهر مايو ١٦٥٢ .

ولم يكن موقف انجلترا قد ضعف فى أوروبا . بل إننا نميل حتى إلى أن نقول بأنه قد تدعم : ذلك أن نجاحهم فى العمليات الأولى أثبت ان الجمهورية

الجديدة قد أصبحت تستند الآن إلى قوات بحرية لها تدريب كاف ، وتتفوق فى مجموعها على قوات الخصم . وكانت الحكومة الاسبانية هى الأولى فى اعترافها الرسمى بذلك ، فى عام ١٦٤٩ ، وفى إرسالها أحد السفراء إلى لندن . وتلتها فرنسا فى عهد مازاران ، بدورها ، فى شهر ديسمبر ١٦٥٢ ، رغم عداوة الأوساط الحاكمة ، ورغم وقوع إشتباكات كثيرة على البحر بين رعايا الدولتين . ومن وقت قريب كذلك ، كان احد الأساطيل الفرنسية ، الذى أرسل لإمداد أبناء دنكرك الذين يحاصرهم الإسبانيون ، قد قام بتفريقة أسطول الإنجليز بقيادة بليك . ومع ذلك ، فإن سفير الملك سوف يقدم أوراق إعتماده للبرلمان ، وسوف يناقشون من جديد أمر عقد معاهدة تجارة . وفى فترة حياة كرومويل ، كانت سنوات الحرب مع هولندا حاسمة : ففى عام ١٦٥٢ إنتهى من أمر البرلمان ، ودفع مجلس الدولة إلى التنازل بشكل ما عن سلطته ، وأخذ هذه السلطة لنفسه ، كما منح نفسه لقب « حامى » وكل السلطات الفعلية ، كدكتاتور .

ولم يكن الهولنديون معزولين تماما : فكان الدانمركيون يؤيدونهم ، نتيجة لعدائهم لهذه القوة الإنجليزية التى تأكدت كل يوم أكثر على البحار ، وبخاصة فى بحر البلطيق . ولذلك فانهم أقفلوا الممرات الموصلة بين بحر الشمال وبحر البلطيق فى وجه السفن البريطانية . وتميزت الحرب ، فى أول الأمر ، ببعض النجاح للاميرال ترومب على سواحل الأعداء ، ثم تحولت شيئا فشيئا فى صالح الانجليز ، بعد أن قتل ترومب ، وهو يحاول تخليص جزءا من سفنه التى كان الخصم قد حاصرها فى تيكسيل . ولم يشارك كرومويل فى هذه العمليات . ولكنه تفاوض من أجل الصلح . وتم التوقيع عليه فى وستمنستر ، فى شهر أبريل سنة ١٦٥٤ . وكانت شروطه معتدلة إلى حد كبير . فعلاوة على غرامة حربية ، لم تفرض كثيراً على الهولنديين إلا بعض التضحيات التى تتعلق بالكرامة : التعهد

بطرد أفراد أسرة ستيوارت وأعوانهم ، والإعتراف بحق الانجليز بالتحية الأولى في مياههم الاقليمية . أما الدانمركيون ، فقد كان عليهم أن يدفعوا غرامة محترمة،ويضمنوا للتجارة الانجليزية فى مضايقهم نفس الميزات التىكانوا يمنحونها للتجارة الهولندية .

وإبتداء من ذلك الوقت الذى إعترف فيه الفرنسيون والاسبانيون بحكومة الجمهورية فى انجلترا ، استمروا فى التنافس لديها ، وحاول كل منهم الحصول على ودها وتأييدها . ذلك ان الحرب التى كانت قد بدأت فى عام ١٦٣٥ كانت مستمرة دون توقف ولا هدنة منذ عام ١٦٤٨ . وكانت إسبانيا فى أول الأمر راضية على أنها لم تتفاوض فى مونستير . وكانت الظروف قد ساعدتها خلال بضع سنوات. فكان مازاران وآن النمسوية مشتبكين مع الفروند،وكان الانقسام فى كل مكان فى فرنسا ، بين أنصار الحكومة وخصومها . وقام بعض قادة الجيش ، مثل تورين ثم كونديه ، بالاتفاق مع العدو . وإذا كانت إسبانيا لم تتمكن من الافادة اكثر من ذلك ، فان هذا الأمر كان يرجع إلى أن جيوشها لم تعد لها نفس القيمة التى كانت قد أثبتتها فى القرن الماضى ، وحتى روكروا . وجاءت الهزيمة الخطيرة التى نزلت بها فى لانس ، فى شهر أغسطس ١٦٤٨ ، لكى تنتزع منها ثقتها فى نفسها. ولم يعودوا يطلبون فى ذلك الوقت سوى تحرير المناطق التى كان الخصم يحتلها،وهى كتالونيا،وجانب من الأراضى المنخفضة. ومع ذلك فقد نزلت بها الهزائم . وحتى مع تأييد قوات تورين ، انهزم جيش إسبانى فى عام ١٦٥٦ تحت أسوار ريفيل . ومع ذلك فقد تم فى عام ١٦٥٢ الاستيلاء على دنكرك . وفى نفس العام ، ومع جيش كونديه الثائر ، دخلت بعض الفصائل إلى باريس . ولكنه كان الوقت الذى تنتهى فيه الحرب الأهلية في فرنسا . ولن يمكثوا فيها إلا لمدة ستة أسابيع.

وكان دوق اللورين ، شارل الرابع ، وكأمير كاثوليكي تماماً ، قد ربط مصيره بمصير أسبانيا ، ولذلك فإنه لم يوقع على الصلح فى عام ١٦٤٨ : ولم يحصل حتى على تصريح بإرسال ممثل له إلى مونستير ولم تذكر المعاهدة أى شىء يتعلق بدولة ، والتى كان الفرنسيون يحتلونها دائماً . وفى الوقت الذى كان يخدم فيه الامبراطور ، أنشأ جيشاً صغيراً ، نصفه من اللورين ونصفه من الألمان ، تمكن به فى عام ١٦٥٠ من أن يعيد غزو جزء من دوقياته ، ويحارب ، وعلى صلة بتورين وبكونديه ، أو مع الأسبانيين ولكن طباعه كانت سريعة التقلب ، فتخاصم مع من يقومون بحمايته فى عام ١٦٥٤ وسيدفع ثمن تقلب طباعه السريعة خمس سنوات من الأسر فى طليطلة .

٥ ـ نهاية الحرب وصلح البرانس :

فيما بين الدولتين اللتين ستعملان لعدة سنوات على التنافس من أجل التحالف معه ، وهما فرنسا وأسبانيا ، سيميل كرومويل بطريقة غير قابلة للمناقشة صوب الثانية . فكانت انجلترا الجمهورية قد ظلت مخلصة لإتجاهات انجلترا الملكية . وكانت حكومة شارل الأول قد أمضت وقتاً طويلا فى أن تجد فى الوفاق مع بلاط مدريد حلا لمشكلة البلاتينات الدقيقه . وكانت قد سادها القلق من دخول الفرنسيين إلى الألزاس . وبعد روكروا ، وبعد معاهدات وستفاليا ، كان يهمها ألا تقوم بأى شىء يمكنه أن يساعد الدولة المجاورة ــ والمنافسة لها دائما ــ على أن تقيم هناك نفوذها بدلا من نفوذ أسبانيا وإذا كان فيليب الرابع قد وافق على دفع الثمن ، لحصل دون صعوبة كبيرة على تأييد الفرق الانجليزية ، وبنوع خاص تأييد البحرية الأنجليزية ولكن الحكومة الانجليزية ، التى كانت مخلصة للمصالح الماركنتيلية لرعاياها ، طالبت من أجلهم بحق حرية التجارة مع جزر الهند الغربية . وكانت هذه المسألة يصعب على الكرامة الأسبانية أن تتنازل

فيها : فكانت مدريد غير مستعدة أبداً للتفكير فى فتح أية ثغرة فى نظام الإحتكار الذى كانت أسبانيا تربح منه دائماً . ولذلك فإن كروموويل قرر منذ نهاية عام ١٦٥٤ أن يقطع العلاقات : ودون أن يعلن الحرب ، أرسل أسطولا إلى جزر الأنتيل ، فى كل سرية ، وكانت جزيرة سان دومنجو هى هدفه الأول . وفشل الهجوم ، ولكنهم إستولوا على جامايكا المجاورة . وكان من الممكن فى هذا الوقت الوصول إلى تفاهم بشأن المشكلات الاستعمارية . ولكن فيليب الرابع رفض ذلك ، وقام بإعلان الحرب فى شهر ديسمبر التالى . ولذلك فإن كروموويل قد وجد أنه من الضرورى أن يقوم رغماً عنه ، بتفاهم مع فرنسا . وكانت الخطوة الأولى فى سبيل ذلك ، تتمثل فى معاهدة ٣ نوفمبر ١٦٥٥ ، التى سوت المشكلات القائمة بين الدولتين . وبعد ذلك بدأت المفاوضات التى سينتج عنها التحالف العسكرى .

وفيما بين انجلترا وأسبانيا ، ولم يكن الأمر يتعلق فى البداية إلا بحرب بحرية . ورغم الاتفاقيات التى عقدت مع لشبونة ، فإنهم لم يفكروا فى لندن فى القيام بعملية إنزال . ولكن سواحل شبه الجزيرة خضعت لنظام حصار دائم . وكان بليك ، المكلف بذلك ، يراقب بنوع خاص عملية نزول السفن إليه . وفى ربيع عام ١٦٥٧ ، قام بتحطيم أسطول كامل كان راسيافى جزيرةتين الريف ، واحتفلوا بهذا الإنتصار فى مظاهرات كبيرة . وبدأت العمليات البرية قرب هذا الوقت : وكانت نتيجة التحالف العسكرى الذى تم التوصل إليه أخيراً مع فرنسا ، فى ١٣ مارس ١٦٥٧ .

ولقد كانت المفاوضات طويلة . ولكى يتمها ، إضطر مازاران إلى تقديم بعض التنازلات التى ستؤثر فى شعبيته : وتتمثل فى الوعد بعدم المطالبة بدنكرك ولابيارديك ، حتى يتم الاستيلاء من جديد على هاتين المدينتين ، وبنفقات مشتركة . وكانت مسألة دنكرك مسألة صعبة بالنسبة لفرنسا . وكان الضعف العسكرى

الذى نتج عن نشوب إضطرابات الفروند قد أعطى إسبانيا منذ وقت بعيد فكرة الاستيلاء على هذا الموقع . وفى الوقت الذى كانوا يستعدون فيه لمحاصرتها ، طرحت فى باريس مسألة منحها للانجليز كثمن لمعونتهم . ولكن هذا العرض جاء متأخرا ، خاصة وأن المحاصرين كانوا قد إستولوا عليها فى شهر سبتمبر عام ١٦٥٢ . وبعد خمس سنوات من ذلك ، طرحت المشكلة وفى شروط مشابهة ؛ ولكن الأمر كان يتطلب طرد المحتلين الجدد منها . واتفق الحليفان عـــلى القيام معاً بالاتفاق على عملية الحصار ، وأن يعمل الانجليز براً وبحرياً فى نفس الوقت. وبعد شهرين من ذلك نزلت الكتائب الانجليزية فى بولونيا . أما تورين ، فإنه كان مشغولا فى مكان آخر ، ولذلك فإنهم قد إضطروا الانتظار ؛ فقنعوا ، فى هذه السنة الأولى بالاستيلاء على مارديك . وفى الصيف التالى ، بدأت العمليات أمام دنكرك حين وصلت الأنباء بإقتراب أحد الجيوش الاسبانية ، والذى كان معه قوة كبيرة من الانجليز الملكيين . وتقدم تورين لمقابلة الخصوم ، وأنزل بهم هزيمة ساحقة فى موقعة دون فى ١٤ يونيو ١٦٥٨ . وإستسلم الموقع بعد عشرة أيام ، ودخله الملك رسميا قبل أن يسلمه للقائد الانجليزى .

ومنذ ذلك الوقت أصبح مصير الحرب ثابتاً . فمنذ ماقبل عقد المعاهدة الفرنسية الانجليزية ، كان فيليب الرابع مصمماً على البدء فى مفاتحات من أجل الصلح . وكان مازاران مستعداً للدخول فى مفاوضات ، وبشرط أن تكون سرية . وأرسل إلى مدريد فى عام ١٦٥٦ أحد وكلائه القديرين وهو هيج دى ليون ، متخفياً ، وكان قد شارك ، وبصفته أحد ممثلى فرنسا، فى مؤتمر مونستير . ونجح دى ليون فى أن يجعل الاسبانيين يوافقون على ماهو أساسى فى المطالب الفرنسية ، أى على التنازل عن روسيليون وآرتوا . ولكن الحجر الأساسى فى هذا العقد كان يتمثل فى بعض التعهدات التى كان فيليب الرابع قد قطعها رسمياً

على نفسه تجاه أمير كونديه ، بألا يتفاوض دون أن يكون قد ضمن له إرضاء عادلا ، وأميناً ودائماً . ولكن حكومة الوصية لم تكن توافق على أن تعوض أحد الثائرين . وكان المتفاوض مع دى ليون ، وهو دون لويس دى هارو ، وزير فيليب الرابع ، جعل من أمر الاحتفاظ بكلمة ملكه مسألة شرف ، الأمر الذى أدى إلى الانفصال فى الوقت الذى كان من الطبيعى أن يتفقوا فيه .ولذلك فإن الأمر كان يتعلق بجعل الاسبانيين يعيدوا النظر فى تعنتهم . ولكى يوافقوا على تنازلات جديدة ، كان من الضرورى أن تحدث لهم خيبة أمل جديدة ، أما فى الميدان الدبلوماسى ، وإما على أرض المعركة : ذلك الأمر الذى سيتطلب أكثر من عام جديد .

وكان تطور الموقف فى ألمانيا يسمح ببعض التفكير . فمنذ عام ١٦٤٨ ، كان الالمان قد أظهروا أنهم شديدى الرغبة فى السلام . وبعد أن دفعوا ثمنا كبيراً له ، أصبحوا يخشون من كل ماقد يؤدى إلى اضطرابه ، وكانوا مستعدين للتفكير فى كل محاولة من طبيعتها أن تدعمه . وكانت هذه هى الصفات الأساسية لتلك الرابطة الدفاعية التى تكونت بين أمراء الغرب ، وتحت إشراف واحد منهم كان يتمتع بسلطة معنوية كبيرة ، وهو جان فيليب صاحب شونبورن ، رئيس الأساقفة المنتخب عن مايانس . وكان هدفها هو إقامة حاجز أمام الحرب ومايتسبب عنها من تخريب وذلك بمعارضة إرسال أى قوات إمبراطورية إلى الأراضى المنخفضة. إذ أنه كان ، رغم أن بعض شروط معاهدة مونستير كانت تمنع الامبراطور من إرسال دعم إلى خصوم ملك فرنسا سيكون من غير المعقول ألا يفكر بلاط فيننا فى معونة الأسبانيين : وكان هذا البلاط قد أرسل بعض الكتائب لهم فى عام ١٦٥٠ . فكيف يمكننا أن نعجب ، منذ ذلك الوقت من أن تهتم فرنسا عن قرب برابطة السلم، وتعلن أنها مستعدة للاشتراك فيها ؟ وكان إنضمامها إليها ، والذى

لم يطلبه أحد ، قد تأجل نتيجة لموت الإمبراطور ، والحملة الانتخابية التي كانت تسبق انتخاب خلفا له وتم إنتخاب أحد أخوة فرديناند ، وهو ليوبولد آل هابسبورج . ولكن مرشحين آخرين كان يتم التفكير فيهم ، ولو بطريقة شبه رسمية ، وبخاصة أمر ترشيح لوى الرابع عشر . وكان « الإتفاق الانتخابي » في عام ١٦٥٨ يمنع من جديد الإمبراطور من تقديم العون لملك أسبانيا طوال فترة الحرب الموجودة . وعندئذ تم قبول ملك فرنسا داخل الرابطة ، التي أسماها رعاياه بإسم رابطة الراين ، رغم أنها كانت تشتمل على وحدات أخرى بعيدة عن هذا النهر . وسيقوم كل واحد منهم بتقديم فرقة إلى الجيش الفيدرالي ، ويكون عليه أن يعاون الآخرين في حالة وقوع إعتداء .

وحين بدأت المفاوضات الفرنسية الاسبانية من جديد ، كان موقف فرنسا قد بدأ أكثر قوه ، نتيجة للتقدم الذى حققه جيشها فى الأراضى المنخفضة (تحرير برج ، وفورن ، وديكسمود ، بعد تحرير دنكرك) ونتيجة لإنشاء رابطة الراين . وأعطى التعاون العسكرى مع إنجلترا ثمارا قيمة ؛ وأصبح الوفاق قوياً بين لندن وباريس . ولذلك فقد أصبح من الواجب التفكير فى سبب عدم إفادة حكومة مازاران من الإمكانيات المطروحه — خاصة وان الموقف الداخلى كان يسمح لها بحرية العمل — من أجل الوصول إلى تسوية نهائية لمسألة الأراضى المنخفضة . وبعد بضعة سنوات سيكتب جان دى ويت : « إذا لم تكن فرنسا قد وافقت على الصلح ، فإن كل ما بقى لملك أسبانيا فى الأراضى المنخفضة كان يمكن غزوه بحملتين .... » .

وعلينا ان نتحدث هنا عن بعض المسائل ، حتى وأن كانت قليلة الصلة بمصالح الأمه ، وبخاصة إذا مـــا نظرنا إليها بعد مرور الوقت . ففى وجهات النظر ، بالنسبة للمستقبل ، المتعلقة بهذا التفكير الواقعى عند مازاران ، كان هناك جزء ا

هاماً من الخيالات . وكان ذلك يتمثل فى إمكانية الوصول . وكأمر مرغوب فيه للغاية ، إلى إتحاد وثيق بين ملكية فرنسا وملكية إسبانيا ، واللتان كانتا حتّى ذلك الوقت على نفس درجة القوة ، وعلى الأقل من الناحية الظاهرية . وكان التنافس بينهما فى صالح الدول البروتستانتية ، وبخاصة إنجلترا وهولندا . وكانت أفضل الطرق للعمل من أجل الوصول إلى مثل هذا الإتحاد ، وطبقاً لتقاليد هذه الفترة، تتمثل فى تزويج الملك الشاب ، الذى كان قد وصل فى ذلك الوقت إلى سن الرجولة ، بإحدى الاميرات الأسبانيات ، إبنة فيليب الرابع . ومنذ وقت طويل قبل ذلك كانت مسألة زواج لوى الرابع عشر من إحدى الإسبانيات مطروحة . وكانت الفكرة قد طرحت فى باريس منذ عام ١٦٤٥ . وكانت عندئذ وسيلة تصوروها لكى يحصلوا بها على الاراضى المنخفضة ، التى كانت ستصبح بطريقة ما دوطة للأميرة الأسبانية وفى عام ١٦٥٨ لم تذهب الإدعاءات الفرنسية إلى مثل هذا التفكير البعيد . وكان المرض الخطير الذى أصاب الملك الشاب قد جعل من الضرورى الإسراع فى تسوية مسألة الوراثه ، الأمر الذى جعل الوزير يصبح أقل تشددا فى طلباته . فكان الاساس منذ ذلك هو أن يصلوا إلى إتفاق ، وفى أقرب وقت ممكن . وكان هذا التغيير فى الموقف واضحاً: فلم يتردد مازاران فى ذلك الوقت فى أن يبلغ سفيره أن « الملك يتقدم لطلب يد الأميرة ، فى حد ذاتها » ولقد علقوا طويلا على هذا التصريح المثير للدهشة . وكان الأمر الاكثر ترجيحاً هو ان مازاران قد تأثر من تشدد السياسة الأسبانية . وعلى أى حال ، ولكى يرغم فيليب الرابع ، فإنه تصور أنه يمكنه أن يدفع المفاوضات إلى الأمام ، والتى كانت قد بدأت لتوها ، من أجل زواج الملك بإحدى أميرات أسرة سافوا . وكانت النتيجة سريعة بعد هذا النوع من المساومات : فتم الحصول على موافقة ملك أسبانيا فى شهر نوفمبر عام ١٦٥٨ . ومنذ ذلك الوقت

أصبح فى وسع المفاوضات أن تسير فى طريق سليم . وتمت فى المفاوضات الأولى فى باريس ، فى سرية تامة . ولم ينزع عنها النقاب إلا فى شهر مايو عام ١٦٥٩ ، وحين إتفقوا على وقف العمليات الحربية لمدة شهرين . وتم توقيع المفوضين الاسبان يوم ٤ يونيو على إتفاق أول ، من حيث المبدأ . وبعد ذلك إنتقلت المفاوضات إلى منطقة الحدود .

ولقد إتفق مازاران مع دون لويس دى هارو ، ممثل فيليب الرابع ، منذ المقابلة الأولى ، على الذهاب للمفاوضات فى إحدى الجزر الصغيرة ، وهى جزيرة الطاووس . وسيتم التوقيع على معاهدة البرانس بعد ثلاثة أشهر من ذلك ، فى ٧ نوفمبر ١٦٥٩ . ومن بين كل شروطها ، كان أمر زواج الملك من الأميرة الأسبانية ماريا تريزا ، هو الذى يجذب إنتباه كل المعاصرين . وكانت الفكرة الكبيرة لرجل الدولة الاسبانى تتمثل فى الإعداد لإتحاد تاجى فرنسا وأسبانيا ، وأثارت أصداء لها عند الرأى العام . ولكن الحكومة الأسبانية ، رغم المظاهر ، لم تكن مقتنعة بذلك تماماً : فطالبت بأن تتنازل الأميرة الاسبانية ، وكما حدث فى الماضى مع آن النمسوية ، فى ظروف مشابهة ، ومقدماً ، عن كل حقوقها فى التاج . ولكى يحتفظوا بماء الوجه ، نص الفرنسيون فى المعاهدة على أن تطبيق هذا التنازل سيكون مشروطاً بالدفع الكامل للدوطة . وكان الأمر يتعلق بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه : وكانت عملية فوضى المالية الاسبانية تدفع إلى الاعتقاد بأن فيليب الرابع سيجد بعض الصعوبة فى الحصول عليه .

ولقد تناقشوا طويلا بعد ذلك بشأن حالة أمير كوندية ، والذى أكد فيليب الرابع رغبته فى عدم التخلى عنه لكى يلقى عقابه من لوى الرابع عشر . وإنتهى الامر بمازاران بأن يوافق على رغبته وأن يتنازل له عن جزء من الأرض . أما الربح الواضح لفرنسا فكان يتمثل فى حصولها على كونتيه

روسيليون ، على كونتيه آرتوا ، وفى الفلاندر على مواقع جريفلين ، وبوربور ، وبرج ، وسان فينان ، وعلى جزء كبير من هينوت يشتمل على لاندرس ، كيسنوا ، وأفين ، وفيليب فيل ، وأخير فى لكسمبورج على توانفيل ، ومونميدى ، دمفيليه .

ولقد إعتبر مازاران وآن النمسوية هذا الزواج على أنه الحجر الأساسى فى التسوية التى ستحمل فى التاريخ إسم معاهدة البرانس . ولذلك فإن السلم كانت تتوقف قيمته على قيمة الزواج . ولكن الزواج لم يكن ينهى أى شىء ، ولم يكن يعنى التعهد بأى شىء . وشبت ذلك بعد قليل وسنرى ذلك بعد فترة ، حين ندرس ، بعد عام ١٦٦١ ، الحكم «الشخصى» للملك لوى الرابع عشر .

ولقد كان حكم بعض المعاصرين على هذه المعاهدة شديدا منذ عام ١٦٥٩ . ويظهر ذلك من الخطاب الذى كتبه سان إيفرموند ، والذى وقع فى أيدى الحكومة ، الأمر الذى إضطره إلى أن ينفى نفسه حتى لايسجن فى الباستيل . «لقد كانت من ميزة الكاردينال أن يسامح الإسبانيين ويعاقب الفرنسيين .. ولقد رأى أن فرنسا ستحتفظ لنفسها بدرجة أفضل ، متحدة كما هى ، ومضغوطة على نفسها ، أكثر من كونها فى مساحة أوسع . وكان هذا حذر لايقدر على إظهاره الكثير من الوزراء أن يفكر فى تغطية حدودنا . وذلك فى الوقت الذى كان فيه غزو الأراضى المنخفضة فى أيدينا تماماً .... » .

وكانت للورين ولسافوا مصالح مباشرة فى هذه التسوية للصدام والذى كان منذ ربع قرن قد وضع الفرنسيين فى مواجهة الإسبانيين . وكان شارل صاحب اللورين ، قد ربط مصيره ، وقت مفاوضات عام ١٦٤٨ ، بمصير أسبانيا . ولذلك فإنه بقى بعيداً عن مؤتمر مونستير . ولم تذكر المعاهدة أى شىء عن دوقياته ، التى كان الفرنسيون يحتلونها . وطبقا لنصوص معاهدة

البرانس ، والتى عقدت كذلك دون أن يشارك فيها ، لم يكن له سوى أن يأخذ إلا اللورين ، خاصة وأن فرنسا كانت ستحتفظ . بإقليم باروا : فرفض الموافقة على التسوية ولم يشارك فى مناقشته . وسيحصل بعد عامين من ذلك ، وعن طريق التفاوض المباشر مع فرنسا ، بمعاهدة فانسين فى ٢٨ فبراير ١٦٦١،على شروط مناسبة أكثر ، وإن يحتفظ الملك إلا بشريط ضيق من الأرض عبر الدوقيات يسمح له بحرية مرور قواته بين فردان وميتز ، وبين ميتز والألزاس . أما فيما يتعلق بدوق سافوا فإنه كان ، بعد معاهدات عام ١٦٤٨ التى أخذت منه بينيرول، قد ترك مؤقتاً الكثير من مواقعه فى أيدى الفرنسيين . ومنذ ذلك الوقت كان قد تم اخلاء موقع تورينو . وسمح له صلح البرانس بالعودة إلى إمتلاك مواقع أخرى .

أما انجلترا فإنها مرت بأزمة داخلية جديدة بعد وفاة كرومويل فى شهر سبتمبر ١٦٥٨ . ولم تمثل فى مؤتمرات جزيرة الطاووس إلا عن طريق أحد المراقبين . ولم تعقد معاهدة صلح معها . وتم مد عملية توقيف الحرب - ضمنا - والذى كان قد إتفق عليه منذ يوم ٨ مايو ، ودون تحديد أجل لذلك .

أما البرتغال ، فإن مصيرها قد ظل معلقا . ولم تكن الدبلوماسية الفرنسية قد تمكنت من إدخالها فى المعاهدة . ولذلك فإن العمليات العسكرية قد إستمرت فى هذا القطاع وحده . وإستمرت القوات الإنجليزية فى المشاركة إلى جانب البرتغاليين . وكذلك فرنسا فإنها لم تتمكن من أن تنسحب من هذه العملية ، ولكنها كانت ترسل المعونات فى السر : خاصة وأنها قد تعهدت فى عام ١٦٥٩ بعدم معونة أى من حلفائها السابقين . ولكى يمنعوا أى شكوى محكمة من الأسبانيين ، وافق تورين على أن يتحمل كل مسئوليات هذا الموضوع .ورفض فيليب الرابع بإصرار أن يعترف بإستقلال البرتغال ، ولذلك فإن الصلح أن يتم

إلا فى عهد الملك التالى ، وبعد عشر سنوات من ذلك ، بمعاهدة لشبونة ، فى ١٢ فبراير ١٦٦٨ .

وكما أن معاهدات وستفاليا تمثل نقطة تحول كبيرة فى تاريخ ألمانيا ، فإنه يمكن إعتبار معاهدة البرانس على أنها تمثل تاريخا هاما بالنسبة لأسبانيا . هذا علاوة على أنها تعتبر دلالة واضحة فى التاريخ العام لأوروبا ، من وجهة النظر السياسية والعسكرية . فلقد إنتهت فترة التفوق الأسبانى . أما قوة آل هابسبورج فى مدريد ، ورغم أنها كانت لاتزال كبيرة ، فقد أصبح من الصعب وضعها فى نفس مستوى قوة فرنسا .

وعند أصول هذا الضعف ، كان هناك إنخفاض فى الطاقة الديموجـــرافية ، والتى كانت نتائجه خطيرة بنوع خاص بالنسبة للميدان العسكرى . فلم تعد أسبانيا تشتمل إلا على أربعة ملايين ونصف مليون من الأهالى ، فى الوقت الذى بلغ فيه سكان فرنسا ١٤ أو ١٦ مليونا . وهذا الانخفاض فى عدد السكان كان على علاقة وثيقة بالقوة الاسبانية ، ونموها . فصوب الهند الغربية ، كان هناك تيارا منتظما من الهجرة ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه الممتلكات الأوروبية للتاج ، وبخاصة الأراضى المنخفضة ، وحيث كانت العمليات العسكرية قد إستمرت حتى عام ١٦٤٨ ، تتطلب الاحتفاظ بقوات ضخمة . وظل الإسبانيون يحتفظون بمزاياهم العسكرية التقليدية . ولكن جيوش فيليب الرابع لم تعد تتشكل فقط من الاسبانيين ، بل لقد أصبحت تضم الكثيرين من الايطاليين ، وبخاصة من أبناء إقليم نابولى ، وكذلك الانجليز ، والاسكتلنديين ، والايرلنديين ، ورجال من كل المعتقدات ، كانوا ينجذبون إليها بالمستويات المرتفعة نسبياً لأجورهم .

ومن جانب آخر ، تأثرت الانشطة الإقتصادية لاسبانيا بشكل خطير من تلك الحرب العنيفة التى قام بهـــا الهولنديون ضد أساطيلهم ، وبخاصة ضد

الاساطيل التى كانت تضمن المواصلات مع أمريكا ومع مناجمها . وكانوا قد نظموا حصارا فعلياً لشبه الجزيرة الايبيرية ، واحتفظوا به طوال نصف قرن ، وانزلوا خسائر فادحة بالتجارة ، محاولين خنقها ، وذلك فى الوقت الذى أثروا فيه مما نهبوه منها .

وكان معنى إنخفاض عدد السكان ، وقلة الأنشطة الاقتصادية بالتالى ، هو تقليل الإمكانيات المالية للدولة . فكانت الضرائب لاتعطى ماكانت المملكة ، التى كانت تواجه مشكلات تتزايد فى ثقلها ، مضطرة إلى أن تطلبه من رعاياها . ولم تكن حرب الأراضى المخفضة التى لاتنتهى بجرد حرب تتطلب الأموال الضخمة ، بل إن فيليب الرابع ، حتى إذا لم يكن قد تدخل بطريق مباشر فى حرب ألمانيا ، فإنه كان يسهم فيها بمعونات لإبن عمه الإمبراطور . وهكذا كانت حصيلة الضرائب تنفق بطريقة منتظمة ، ومقدما ، ثم ينتظرون بفارغ الصبر ، وأكثر من أى وقت مضى ، وصول أساطيل أمريكا ، وبأمل ألا تكون قد أسرت فى أثناء الطريق .

ونحن لو نقول أن الحياة قد إنسحبت شيئاً فشيئاً من هذا الجسم الضخم الذى أصابه الضعف والذى هو الإمبراطورية الاسبانية . بل إنه سوف يستمر فى الاحتفاظ بمكانه ، وفى بعض الاحيان بمكان من الدرجة الأولى فى حياة أوربا . ولكنه ، فى مواجهة فرنسا التى تستمر فى الصعود ، بدت قواه على أنها تتراجع بشكل واضح . وبدت هيبته على أنها قد أصيبت .

ومن بين النتائج العديدة لهذا التقهقر الواضح علينا أن نذكر أن عدداً كبيرا من الفرنسيين ، ومن الطبقات العليا قد تعلم وتحدث بلغة سير فانتيس وكالديرون ، ودى فيجا . وكان ذلك قد أصبح إحدى العادات ، أو إحدى المودات ، التى شجعتها وصاية آن النمسوية ، وهى أميرة أسبانية سابقة . ولكنها ستختفى شيئاً فشيئاً ، فى أثناء الفترة التالية .

الفصل الخامس عشر

بحر البلطيق وأوربا الشمالية الشرقية

منذ الأزمنة البعيدة للفايكنجس لم تكن سواحل بحر البلطيق ، وهى خاضعة لدول ضعيفة ، مسرحا ، لعمليات أو لأحداث لها مدى أوربى . وفى أثناء القرن السادس عشر ، شاهدنا منافسات بين أمم متاجرة — رجال الهانسا،والهولنديون، والإنجليز — من أجل السيطرة على الطرق البحرية وعلى الأسواق . وفى أثناء القرن السابع عشر ، وفى الوقت الذىظهرت فيه الهانسا الألمانيةعلىأنهاقدخسرت ، وأصبحت غير صالحة للدخول فى صراع ، لم يكن الأمر قد إنتهى بشكل كامل . وإن كان الأمر سوف يتعلق الآن بالدول المطلة على بحر البلطيق أكثر من كونه يتعلق بالبحر نفسه : فالمناطق الساحلية ستخضع لعملية منافسة من جانب الدول الأكثر قوة والأكثر قدرة على الحركة .

١ - الدانمرك ومضايق بحر البلطيق :

من بين الدول المطلة على بحر البلطيق — والتى أنضمت إليها الدولة المسكوفية أخيرا — كانت هناك واحدة ، هى السويد ، التى ستقوم فى أثناء القرن السابع عشر ببناء مستقبلها بسرعة ، وبنفس الطريقة المثيرة للدهشة والتى كانت البرتغال قد عملت بها منذ قرن مضى ولا يمكننا أن نقوم بالمقارنة بينها . ففى الحالتين ، كانت الاسس الديموجرافية التى تسمح بصعود إحدى الدول إلى مصاف الدول العظمى ، غير موجودة فى كلتا الحالتين . فكانت السويد فىعهدجوستاف أدولف لها تقريباً من السكان نفس العدد الذى كان للبرتغال فى عصر النهضة .ومع ذلك، فإنها تتمكن فى أثناء بضع سنوات من الحرب من أن تنتشر على كل ألمانيا تقريبا،

فى إنتظار أن تصل مع شارل الثانى عشر إلى إحتواء بولندا مؤقتاً ، وإلى تهديد روسيا ، فى عصر بطرس الأكبر ، داخل بلادها . وإذا كنا نميل إلى أن نصف تاريخ البرتغال المثير للدهشة فى بداية العصور الحديثة بأنه مغامرة ، غنية بالاحداث بالنسبة لمستقبل العالم القديم والعالم الحديث ، فيبدوا أن نفس الصفة يمكنها أن تطبق ، فيما يتعلق بالفترة التالية ، على حالة السويد . فهذه المغامرة السويدية المزدوجة فى وسط وفى نهاية القرن ستسيطر ، خلال هذه الفترة على تاريخ بحر البلطيق .

وحين يبدأ القرن لم يكن هناك مايدل على ذلك الدور الكبير الذى سوف تلعبه السويد فى أوربا . فلم تكن هناك دولة مسيطرة فى بحر البلطيق . أو بمعنى أصح ، كانت هناك دولتان فى الشرق بولندا ، القوية بكتلتها القارية وبسكانها ، وفى الغرب الدانمرك الصغيرة ، التى كانت تسيطر على المضايق التى تتحكم فى العبور صوب المحيط . وكانت الملاحة والتجارة قد تزايدت بشكل واضح أثناء النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وكانت مملكة الدانمرك ، التى كان لها حق إستلام الرسوم فى المضايق ، قد تضاعفت إيراداتها بشكل واضح ولذلك فإنها، رغم ضعف عدد سكانها — نصف مليون نسمة تقريبا — كانت خزائنها دائما عامرة .

وكان الدانمركيون ، رغم موقعهم المتفوق ، والذى كان على إتصال ببحرين، وقاموا بتنظيم العبور فيما بينها ، لم يشعروا بعد بضرورة تنمية مواهبهم البحرية . وكان المثل الهولندى هو الذى سيعطيهم الوحى ، فى بداية القرن السابع عشر ، للقيام بالمحاولات الأولى فى ميدان التجارة البعيدة . وحين تعود الحروب فيما بين أسبانيا والاقاليم المتحدة ، فى عام ١٦٢١ ، سيحاولون الحصول على نصيبهم فى العلاقات التى كانت قد بدأت أثناء القرن السالف ، فيما بين أوربا المطلة على

البحر المتوسط وبين بحر البلطيق، والتى كان الهولنديون قد تخصصوا فيها. وأثروا منها . وكان ملكهم فى ذلك الوقت هو كريستيان الرابع . وفى فترة حكمه الطويلة (١٥٨٨ — ١٦٤٨) أظهرت المملكة ، وفى كل الميادين رغبة فى العظمة كانت نتائجها قد تستمر طويلا ، إذا لم يكن ظهور السويد المفاجىء قد جاء لكى يحكم عليها بالفشل .

ومنذ أن بدا أن انهيار الهانسا قد أصبح لاعلاج له ، كان الهولنديون هم المنتفعين الأساسيين بالمضايق ، وكانوا يحقدون عليهم فى كوبنهاجن ، ويحاولون إستغلالهم ؛ وإن تطلب الأمر ، يقومون بتقليدهم . وفى عام ١٦١٦ ، وتشبها بالأقاليم المتحدة ، أنشأ كريستيان شركة للهند الشرقية ، منحها حق الاحتكار لمدة أثنتى عشرة عاما ، فى نفس الوقت الذى إحتفظ فيه لنفسه، شخصياً ، بثلث الأرباح وأعطى إدارتها لبعض الهولنديين ، الذين كانت لهم معرفة طويلة بشئون الشرق الأقصى . ولقد ذكرنا فيما مضى النتيجة الرئيسية لهذا المجهود . والذى يتمثل فى إنشاء مركز تجارى فى خليج ترانكبار ، وعلى مسافة قريبة من المكان الذى ستنشأ فيه فيما بعد بونديشيرى . ولكن هذه الشركة الدانمركية لن تتمكن من القيام بأى عمل آخر نتيجة لقلة رؤوس الأموال .

وفى أوربا ، عمل كريستيان الرابع على أن يعيد ، على سواحل مياه بحر البلطيق ، ذلك المركز المتفوق الذى أفلت بالكاد من الدانمرك فى أثناء القرن السالف . ونشبت حرب أولى ، تسمى حرب كالمار ، مع أعدائه الدائمين ، السويديين . وكانت أسبابها ترجع إلى محاولة سويدية للسماح للسفن التجارية الآتية من الغرب ، وخاصة سفن الهولنديين ، بتحاشى عقبات الممرات . وعلى بحر الشمال ، وفى تلك النافذة الصغيرة التى كانت السويد تمتلكها من هذه الناحية ، مضغوطة من الشمال ومن الجنوب بواسطة سكانيا النرويجية (وكانت مملكة النرويج دائماً هى إحدى

الممتلكات الدانمركية) عمل الملك شارل الرابع على أن يؤسس فى عام ١٦٠٧ ميناء جوتنبرج . وكان الفربيون يأتون إلى هناك بالسلع التى تقصد بلاد شرق بحر البلطيق . وكانت تنقل من هناك ، ومن جديد ، على سفن سويدية ، إذ أن هذه السفن السويدية كانت معفاة منذ عام ١٥٧٠ من دفع الرسوم فى المضايق . ورأى الدانمركيون أنه بصعب تحمل هذه الحالة، والتجأوا إلى السلاح لوضع حد لها . وفى أول الأمر ، رأى السويديون أقاليمهم وقد خضعت للغير ؛ فإضطروا إلى التقهقر صوب الداخل ، وأحرقت جوتمبرج . ولكن ، بعد موت الملك شارل الرابع ، ووصول إبنه جوستاف أدولف إلى العـــرش ، تغير الموقف العسكرى فى صالح السويديين . وتم عقد الصلح فى عام ١٦١٢ ، وبثمن تنازلات إقليمية بسيطة ، وضمانات ضد تفاقم حركة التهريب ، حصل السويديون على إعتراف بحقهم فى إعادة ميناء جوتمبرج . وفى نظير ذلك ، وافق جوستاف أدولف على أن يستمر ملك الدانمرك فى وضع الثلاث تيجان الأسكندنافية فى شارته الملكية : وكانت مجرد مسألة تتعلق بالكرامة ، إذ أن كريستيان أعلن أنه يتنازل عن كل إدعاءات فى تاج السويد .

ومن ناحية ألمانيا ، كان إنهيار الهانسا يعطى الدانمرك إمكانيات ، حاول كريستيان أن يستغلها . فكان يمتلك دوقية هولشتاين ، التى كانت تعطيه صفة أمير من أمراء الامبراطورية . وتعطيه الحق فى الاشتراك فى الدايت وكان هولشتين المجاورة للدانمرك ، تطل على مصب نهر إلب ، وأمام هامبورج . وحاول الملك إبتداء من عام ١٦١٧ أن ينمى هناك ميناء جلوكستاد الصغير ، والذى كان يرغب فى جعله منافسا لهامبورج . وبعد عشر سنوات من ذلك . فرض هناك نظام دفع الرسوم ، وإدعى إلزام كل السفن التجارية الآتية من هامبورج أو الذاهبة إليها، بدفع الرسوم هناك . ونتج عن ذلك صدام عنيف مع رجال هامبورج ؛ إنتهى

فى صالح الدانمرك ، واعترف الإمبراطور نفسه لكريستيان بحق إستلام الرسوم الجديدة . وهكذا تقدم الدانمركيون بترشيحهم لأمر خلافة أحد الموانى الكبرى الهانسا . وكانت تجارة إيسلند ، وهى إحدى ممتلكات تاج الدانمرك ، وبنسبة كبيرة منها ، فى أيدى من رجال هامبورج . وعمل كريستيان على أن ينتزعها منهم ، وأعلن فى عام ١٦٢٢ أن جلوكستاد ستكون بعد ذلك هى المحطة الإجبارية لهذه التجارة . وفى نفس العام ، أبلغ مدن الهانسا أنه يلغى الإمتيازات التى كان تجارها يتمتعون بها فى مملكته منذ وقت طويل ، وكما كانت إنجلترا قد فعلت من قبل .

ونتيجة لتدخلها فى حرب الثلاثين عاما ، إلى جانب البروتستانت الألمان ، حصلت الدانمرك على مكانها فى التاريخ العام لأوروبا . ومع ذلك فإن هـــذه المرحلة ليست هى أحسن المراحل لاظهار رغبة كريستيان الرابع فى الوصول إلى القوة . ولـكنها أثرت بنوع خاص ، إن لم يكن بشكل كامل ، على مصـالحه ، وبصفته دوقا لهولشتاين ، وأمير من أمراء الأمبراطورية . وكانت أهميته ترجع إلى أنه يمثل نوعاً من المقدمة للتدخل السويدى ، وكانت المشروعات الطموحة التى فكر فيها فالشتين والامبراطور فى إطار الصراع ضد العدوان الدانمركى ،هى أثارت قلق جوستاف أدولف ، وجعلته يحمل السلاح .

٢ - السويد ، وحرب بولندا ، وحرب ألمانيا :

كان من الضرورى بالنسبة للسويد ، من أجل أن تحافظ على نصيبها فى تلك الملاحمة الدولية . التى سوف تتحول شيئاً فشيئاً إلى حرب ألمانيا ، أن تفيد هى كذلك ، وبصفتها دوله ناشئة مثل الدانمرك من صيغة إقتصادية تعمل فى صالحها بنوع خاص ، فى الربع الثانى من القرن السابع عشر . وبينما كان تاج الدانمرك

يحصل على الجزء الأساسى من موارده من رسوم العبور فى المضايق ، كان تاج السويد يحصل على موارده من إستغلال الثروات المعدنية — النحاس وخام الحديد بنوع خاص — والتى كانت صناعة المدفعية تضمن لها سوقاً يزداد أهمية منذ أن كانت حالة الحرب قد نشبت من جديد فى هولندا وإمتدت منها على الجزء الأكبر من ألمانيا .

وحتى بداية القرن السابع عشر ، كانت المعادن السويدية لاتصدر إلا بكميات بسيطة ، وبخاصة ، وإن لم يكن كلها ، صوب إنجلترا وإستقدم جوستاف أدولف من لنيج ، وهو المركز الأوربى الكبير للصناعات التعدينية ،الخبراء الذين كان يحتاج إليهم من أجل تنمية الصناعة السويدية . وكان لوى دى جير هو أحد ممو ليه ومستشاريه المقربين ، وكان من لييج . ومن بعده ، جاءت بضع مئات من أسر لييج ، تجذبهم ظروف العمل فى التعدين ، وأقاموا فى السويد .

ولقد ذكروا إن جوستاف أدولف قد وجد طريقة فريدة لتصدير المعدن السويدى ، بإرساله القذائف إلى أرض المعارك فى أوربا الوسطى . ولكنه لم يكن قد قام بالحرب بنفسه ، وإن كان قد وجد بسهولة المناسبة التى يبيع فيها منتجات مناجم المملكة إلى المتحاربين العديدين فى هذه الفترة . ومع ذلك فقد قام بالحروب من أول فترة حكمه حتى آخرها ، وعود رعاياه على الحرب .ولقد وصل به الحال إلى أن يذكروا عنه أنه جعل الحرب إحدى المهن الوطنية فى السويد .

وفى نفس الوقت الذى بدأت فيه السويد فى العمل فى ميدان المبادلات الدولية دخلت كذلك ، مثل جيرانها الدانمركيين ، فى طريق التوسع الاستعمارى . وهنا كذلك ، كان أصحاب المحاولات الأولى من الهولنديين . وأسس أحد

أبناء أنفرس ، وعلى الورق على الاقل ، شركة سويدية للتجارة مع آسيا وإفريقية وأمريكا . ومنعته صعوبة الحصول على رؤوس الأموال الضرورية من أن يستمر، وصفوا المشروع حتى قبل أن يتحقق ، ومع ذلك ، فلقد تأسست «سويد جديدة» فى عام ١٦٣٨ على الساحل الشرقى لامريكا الشمالية عند مصب نهر ديلاور . وعاشت عيشة بسيطة حتى اليوم الذى سقطت فيه فى أيدى الهولنديين ، بعد منتصف القرن بقليل .

وكان جوستاف أدولف قد وصل إلى الملك وله من العمر سبعة عشر عاما ؛ وكان جندياً فى طبيعته ، فأعطى للسويد جيشاً من الدرجة الاولى ، جيشاً وطنياً يزوده بالرجال بنظام تجنيد محدد . وكانت المشاه فيه تحتل مكاناً يساوى على الأقل ، إن لم يكن يزيد ، عن مكانة الفرسان ، والذين كانوا حتى ذلك الوقت هم أحسن الأسلحة . وكذلك المدفعية ، فإنها تدربت على خصائص البلاد ، وسيصبح كذلك من المستوى الأول .

ومنذ وصوله إلى الحكم ، ورث الحروب الثلاث التى سيشارك فيها : ضد روسيا ، وضد الدانمرك ، وضد بولندا . ولكى يتمكن من أن يعمل بحرية صوب الشرق ، إضطر إلى عقد الصلح مع كوبنهاجن . وبعد وقت قصير ، إستلم ميشيل رومانوف السلطة فى موسكو ، ووضع حداً للفوضى التى كان جيران روسيا يفيدون منها منذ سنوات وبعد بضعة عمليات بدون نتائج، فهم جوستاف أدولف أن الحكمة تفرض عليه أن يوقع الصلح هنا أيضاً . وتم عقد الصلح فى عام ١٦٤٧ فى ستولبوفا : وأعطى للسويد نافذة على البلطيق كان الموسكوفيون قد إحتلوها فى القرن السابق (إنجرمانيا ، وكاريليا) ، وتبعها مباشرة تقريباً تحالف روسى سويدى ، موجها ضد بولندا .

ومنذ محاولة سيجسموند فازا ، ملك بولندا ، والتى فشلت ، من أجل أن

يحمل كذلك تاج السويد ، كميراث لخلفائه ، إزداد العداء بين الدولتين ، والذى كان قد نتج عن المعارضة بين الإتجاه الكاثوليكى وإتجاه الاصلاح الدينى ، وأصبحت حالة الحرب مستمرة تقريباً ، وإن كانت تقطعها من وقت لوقت آخر هدنات قصيرة المدى كما حدث من عام ١٦١٧ حتى عام ١٦٢٠ ، وحين قرر جوستاف أدولف القيام بسياسة قوة صوب الشرق ، كان عليه أن يقيس قوته بقوة بولندا .

وحتى عام ١٦٢٩ ، وفى الوقت الذى كان يتتبع فيه بإهتمام تطور أحداث ألمانيا . وضع كل مجهوده من أجل الحرب ضد بولندا . وكان قد تزوج فى عام ١٦٢٠ بأخت منتخب براندبورج ، وكانت من نفس مذهب الأصلاح الدينى . وكان على علاقات ودية مع نسيبه ، الذى حدد فى عام ١٦١٨ مشروع توحيد دوقية بروسيا مع إقليمه المنتخب ، وكانت بروسيا موروثة من أحد أبناء عمه، من نفس أسرة هوهنزلرن . ولكن بروسيا التى كانت خاضعة للكنيسة ، كانت تابعة لبولندا ، وكانت تطل على بحر البلطيق ، وإضطر جوستاف أدولف إلى أن يغزوها فى عام ١٦٢٦ ، بعد أن كان قد إقتطع منها إقليم ليفونيا فى السنوات السابقة . ودعم حكمه فى الموانى . أما هوهنزلرن ، فإنه حين طلب إليه ملك السويد القيام بواجبه كتابع له ، فإنه لم يتحرك ، وعرض حتى على نسيبه أمر إتفاقية حياد ، وأن كان ذلك سينزل عليه توبيخ الإمبراطور ، ويتسبب بعد ذلك فى غزو قوات فالشتين الانتخابية فى براندبورج وهكذا نجد أن تدخل ملك السويد فى حرب الثلاثين عاماً مرتبط بحملاته فى بولندا ويمكن إعتبارها على أنها النتيجة المباشرة . فالإمبراطور ، من أجل إرسال المدد لحليفه ملك بولندا، كلف فالشتين ، وفى نفس الوقت الذى تخلص فيه من الدانمركيين ، بأن يتقدم حتى ساحل بحر البلطيق .

وفى عام ١٦٢٩ ، ونتيجة لوساطة الدبلوماسية الفرنسية ، والتى أيدتها حكومة لندن ، تم عقد الصلح فى نفس الوقت تقريباً بين السويديين والبولنديين ، وبين الامبراطوريين والدانمركيين . أما من جانب بولندا فإن الأمر لم يكن ، يتعلق وطبقاً للتقاليد السائدة فى شرق أوروبا فى ذلك الوقت ، إلا بهدنة من الهدنات . وتركت إتفاقية الدانمرك ، السارية لمدة ست سنوات ، السويديون يحتفظون بالجزء الرئيسى من غزواتهم ، وهو ليفونيا ، فى شهر سبتمبر ١٦٢٩ .

ولقد ذكرنا فيما سبق نجاح جوستاف أدولف فى ألمانيا منذ نزوله هناك فى عام ١٦٣٠ حتى موته فى عام ١٦٣٢ . ولقد ذكروا الكثير عن أنه كان يحلم بجعل بحر البلطيق بحيرة سويدية . وكان قد نجح فى ذلك إلى حد بعيد ، ولكن علينا ألا نتشبث كثيراً بهذا التعبير فكانت السويد بعيدة وبكثير عن أن تصل إلى مثل هذه الدرجة من القوة التى تسمح لها بالطموح فى ممارسة السيطرة على بحر البلطيق والتى كانوا يتنازعون عليها . أما أنها قد حصلت على إعتراف بنفسها كقوة مسيطرة فى بحر البلطيق الشرقى ، أو أنها قد إصطدمت بالطموحات المنافسة من جانب بولندا وروسيا ، فإن ذلك كان كافيا لتحقيق حلم جميل . ولكن السيطرة على بحر البلطيق كانت شيئاً يختلف عن ذلك تماما . وكان لا يمكن لأحد أن يحصل عليها ، بطبيعة الحال ، إلا ذلك الذى كان يسيطر على المضايق . وكان من الضرورى منازعة الدانمرك عليها . ولقد رأينا أن جوستاف أدولف كان منذ بداية حكمه قد إختار إنهاء حالة الحرب بين البلدين وكان ملك الدانمرك يعتبر نفسه ، وطبقا للتقاليد على أنه سيد مياه بحر البلطيق . وإدعى ضرورة أن تحصل السفن التى ترفع علمه على التحية الأولى ، وفى جميع أنحاء هذا البحر . ولم يكن فى وسع جوستاف أدولف أن يعلن ثورته مباشرة ضد مثل هذا الإدعاء . وحينما أرسل فى عام ١٦٢٠ لإحضار خطيبته من القارة ، وهى أخت منتخب براندبرج ،

سمح لمستشاره فى حالة مقابلتهم مع سفن حرب دانمركية ، بإرضاء الدانمركية فى هذا الموضوع ، ذاكر أنه كان يرغب فى تحاشى كل حادث مؤسف « بسبب وجود السيدات » . وليس هناك ما يسمح بتأكيد أنه تخلى عن هذا الحذر بعد ذلك .

وبعد نزول جوستاف أدولف على الأرض الألمانية ، تأكدت سياسته من أجل الغزو .فأجبر دوق بوميرانيا على الاعتراف بسيادته ،وليس بإسمه الشخصى، ولكن كذلك بإسم خليفته من بعده . وهكذا بدأت القوة السويدية تستقر فى قطاع جديد من السواحل الجنوبية لبحر البلطيق : وستؤكد رسمياً حقوقها فى عام ١٦٤٨ ، ولن تتركهم يخرجونها من هناك إلى الساحل المقابل فى عام١٨١٥ . وكان من مضار هذا الإمتلاك الجديد هو وضع السويد فى تعارض مع دولة براندبورج — بروسيا الشابه ، والتى كان أمر الرغبة فى إمتلاك بوميرانيا يمثل بالنسبة إليها الوصول إلى البحر . وكان الأدواق المنتخبون ، رغم أنهم كانوا قد حصلوا منذ عام ١٦٤٨ على جزء من الدوقية ، لايسامحون السويد فى أنها قد حرمتهم من الباقى . ستؤثر العداوة المستمرة ، مختفية أو معلنة والتى سوف تنتج عن ذلك بين الدولتين ، اللتان تتشابهان فى وقى شبابها ديناميكيتهما ، فى التاريخ المقبل لمنطقة بحر البلطيق .

وحين تقترب فترة الست سنوات التى عقدت من أجلها هدنة الدانمرك من نهايتها ، تساءل المستشار أوكسنسترن ، الخليفة الفعلى والحقيقى لجوستاف أدولف على رأس دولة السويد ، عما إذا لم يكن من الأوفق لبلاده ان تنسحب من حرب ألمانيا ، حتى تتمكن أن تتفرغ بحرية أكثر الدفاع عن مصالحها كدولة ، فى القطاع البولندى . وكانت فرنسا فى ذلك الوقت ، فى عهد ريشيليو ، تستعد لقطع العلاقات مع أسبانيا وعملت الدبلوماسية الفرنسية ، وبمعونة الهولنديين ؛

وبنجاح ، من أجل الحصول على تجديد الهدنة . وأمدت إتفاقية ١٢ سبتمبر ١٦٣٥ من أمدها لفترة ستة وعشرين عاما ، وفى نظير إعادة السويد لموانى بروسيا الشرقية .

ولم يكن هذا يعنى ، مع ذلك ان سواحل بحر البلطيق قد عرفت السلم . ذلك ان الإمبراطور إستخدم كل سلطته وقوته فى ان يهيج ضد السويديين خصومهم التقليديين ، وهم البولنديين والدانمركيين . وطبقا لتوجيهاته ، إتحدوا فى عصبة دفاعية ، دعوا القيصر إليكسيس للانضمام إليها فى شهر سبتمبر ١٦٤٣ . ووجد أوكسنسترن أنه مضطر إلى ان يتجه صوب الغرب فتفاهم مع الهولنديين ، الذين كانوا غير راضين عن قيام الدانمرك بزيادة الرسوم فى المضايق ، وأعلن الحرب على كوبنهاجن ، فى نفس الوقت الذى أعلنه فيها الهولنديون . ولم يكن لدى كريستيان جيش ولا حلفاء . وفى فصل الشتاء ، وإحتل الجنرال السويدى ، تورستنسون إقليم شليزوفيج ، وهولشتاين ، وتوغل حتى داخل جوتلند ، وأجبر القوات التى كان الإمبراطور قد أرسلها لمعونة كريستيان على القبـاء بعيـدا . أما الهولنديون فقد قنعوا بتوصيل بعض المعونات لحلفائهم ؛ هذا علاوة على أن أحد أساطيلهم قد ظهر ، مهددا ، فى مياة المضايق . وإعترف كريستيان بأنه قد فقد الجوله : فطلب الصلح ، مستنجدا بوساطة فرنسا . ومن جانب الهولنديين ، خرج منها دون أن يتأثر : فأعادت معاهدة كريستيانستاد بساطة تعريفه الرسوم السابقة . وضمنت الحكومة الفرنسية ذلك ، وسويت المسألة لفترة طويلة . أما السويديون فكانوا فى وضع يسمح لهم بأن يطالبوا بما هو أكثر من ذلك . وبمعاهدة برومسيبرو ، فى ١٢ أغسطس ١٦٤٥ حصلوا على جزيرتين كبيرتين فى بحر البلطيق : أوسل التى كانوا يحتلونها بالفعل منذ عام ١٥٧٠ ، وجوتلند ؛

ومن ناحية أخرى ، إعترفت الدانمرك بأنهم كانوا يتمتعون ، منذ أقدم العصور ، بحق العبور فى المضايق ، دون دفع أية رسوم .

وبعد ذلك ، حصلت فرنسا فى عهد مازاران على ثمن وساطتها ، ووقعت مع الدانمرك على معاهدة تحالف فى ٢٥ نوفمبر ١٦٤٥ . وأخذت فى هذه المعاهدة موقفاً واضحا ضد إلغاء الرسوم فى المضايق ، والذى كان السويديون يطالبون به . ولقد نصت إحدى المواد الرئيسية للمعاهدة على ما يلى « لما كانت حرية التجارة تتمثل بشكل رئيسى فى الإحتفاظ بالامور ، فى المحيط الغربى ، وفى بحر الشمال ، وفى بحر البلطيق ، فى نفس الحالة التى كانت عليها حتى الآن ، فإن الملك الأول والملك الثانى سيعملان من أجل أن يكون هذا التوازن السابق محتفظاً به فى كل مكان دون أى تغيير .

ولأول مرة تذكر السياسة الفرنسية فى وثيقة رسمية ، مبدأ التوازن : وان كانت تحدد تطبيق ذلك على المساحات البحرية .

٣ — بولندا وروسيا والسويد ، وحرب الشمال :

بعد التوقيع على معاهدات وستفاليا ، ومرور نصف بوميرانيا إلى السويد مع مصبات نهر إلب ، هل سيسود السلم على سواحل بحر البلطيق ؟ لم يكن ذلك فى الحقيقة يمثل سوى فترة راحة لمدة بضع سنوات . وسيكون مثيرا للدهشة أن السويديين ، الذين تشجعوا فى إنتصاراتهم فى ألمانيا ، لا يبحثون فى مكان آخر عن فرص للغزو . ولن يتأخروا فى ان يجدوها فى بولندا .

وعاد الروس والبولنديون من جديد إلى الاشتباك مع بعضهم . وفى الحقيقة ، لم يكن هناك صلح حقيقى بينهما منذ وصول رومانوف إلى الحكم . وكان ميشيل رومانوف قد قبل ، بعد قليل من عقد هدنه ستولبوفو مع السويد ، أمر تسوية

مشابهة مع بولندا : فهدنة دورينو والتى عقدت فى عام ١٦١٨ ، ولمدة أربعة عشر عاما ، كانت قد تركت سمولنسك للبولنديين . وعند وصول هذه المدنة إلى نهايتها ، كانت بولندا تعيش إحدى أزماتها المتتالية لميراث العرش . وأسرع الروس للافادة من ذلك . ولكنهم ، ومرة أخرى ، لم يحالفهم الحظ فاضطروا بعد ثمانية أشهر إلى رفع الحصار الذى كانوا قد فرضوه على سمولنسك ، وكذلك بالتخلى عن كل إدعاءات فى ليفونيا ، وإستونيا ، وكورلاند . ولكن ملك بولندا قبل فى آخر الأمر ان يعترف لجاره بلقب القيصر . ولم يكن ذلك يمثل نجاحاً بسيطاً بالنسبة لمؤسس الأسرة الجديدة الحاكمة فى روسيا .

ومرت عشرون سنة ، ثم بدأت الحرب مرة جديدة بين الروس وبين البولنديين . وفى هذه المرة ، كانت بسبب القوزاق . وكان هؤلاء السكان ، نصف الرحل ، والذين يعيشون فى إقليم الإستبس فى جنوب أوكرانيا ، على جانبى نهر الدنيبر ، لا يكونون أمة . وكانوا قد إلتجئوا هناك من أصول مختلفة — موسكوفية ، ومن البغدان ، أو من بولند — راغبين فى الفرار من دفع الضرائب أو من تأدية خدمة الأمير فى البلاد التى كانوا قد ولدوا فيها ، وكانوا قد تجمعوا هناك صوب نهاية القرن الخامس عشر ، فى قبائل تحت إشراف رؤساء . منتخبين ، يسمون هتمان أو أتامان . وكانوا يقضون حياتهم على ظهور الخيل ، ويعيشون من الصيد ، وصيد الأسماك ، وتربية البهائم ، أو حتى من نهب جيرانهم ، الروس فى الشمال ، والتتار فى الجنوب . وكان التتار هم الذين أعطوهم هذا الإسم ، أى القوزاق ، والذى عرفوا به من بعد ؛ خاصة وأنهم قد لعبوا دوراً هاماً فى تاريخ زحف الإمبراطورية الموسكوفية صوب الشرق . وكانوا مستعدين دائماً لكى يتبعوا رئيس الحرب ، ومهما كان مادام يدفع لهم ، ويمنحهم الفرصة لإرضاء نزعاتهم للنهب . وبينما كانت روسيا تمر فى فترة مصاعب

وإضطرابات ، فى بداية القرن ، وجدوا فرصاً عديدة لتقديم خدعاتهم الأعداء ، ومنذ ذلك الوقت ، عملت بولندا على أن تجتذب إليها بعض قبائلهم ، من أجل إمكانية إستخدامهم كمعاونين لها ضد العثمانيين . ودون ان تدخلهم بمعنى الكلمة فى خدمتها — وكانوا يعتزون بإستقلالهم للغاية — كانت تقدم لهم من وقت لآخر الخيول والذخائر ، وتعاونهم على بناء المواقع المحصنة . ولم يسهموا فقط فى الدفاع عن الحدود ضد التتار ، بل كانوا يركبون زوارق خفيفة ، ووصل بهم الحال إلى النزول حتى البحر الأسود ، عن طريق نهر الدنيبر ، وبممارسة غاراتهم على المدن المجاورة . ولقد وصل بهم الأمر كذلك إلى الوصول أمام إستانبول ، وإلى الاشتباك مع السفن العثمانية .

ولقد نشبت الصعوبات منذ وقت مبكر بين القوزاق وبين البولنديين . وكان المذهب الدينى هو السبب الرئيسى ، إذ ان هؤلاء كانوا من الارثوذكس ، والآخرين من الكاثوليك . وكانت سياسة الاتجاه المضاد للاصلاح الدينى ، والتى ميزت السياسة البولندية بشكل خاص عند نهاية القرن السادس عشر ، قد زادت من حدة الصعوبات الناشئة عن المذاهب المختلفة ونتجت عن ذلك ثورات قام البولنديون بقمعها بشكل شده . وفى أثناء بعض الوقت ، أعتقدوا أنهم أعادوا ووطدوا سيطرتهم نتيجه للاجراءات العسكرية التى تمكنوا من فرضها فى عام ١٦٣٨ : وكانوا قد بنوا على نهر الدنيبر ، وفى بلاد زابوروج ، إحدى القلاع التى إحتفظوا لنفسهم بحراستها . ولكن الصعوبات عادت من جديد بعد عشر سنوات من ذلك . وكان القوزاق قد ضموا إلى صفوفهم أهالى أوكرانيا . وكانوا من الأرثوذكسيين كذلك ، وكانوا غير راضين عن ذلك التشدد فى الشئون الدينية والذى كانت بولندا الكاثوليكية للغاية ، تمارسه . ولم يتراجع رئيسهم الأتمان شميلنـكى عن التحالف مع تتار القرم وبمساعداتهم ،

تمكن من الحصول على بعض الإنتصارات . وفى معركة زفوروفو كاد الملك جان كازمير أن يقع أسيرا فى أيديهم . وتم عقد معاهدة أولى للصلح فى عام ١٦٤٩ ؛ ولكنها لم تعش طويلا . وكانت عودة العمليات الحربية فى صالح البولنديين فى هذه المرة ، الذين فرضوا رغباتهم بمعاهدة باليه — تشيركوف فى عام ١٦٥١ .

ولكى يتخلصوا من السيطرة البولندية ، إتجه القوزاق ، ودائمـــا بقيادة شميلنسكى، صوب موسكو : فكان القيصر سيحترم على الأقل المذهب الأرثوذكس، الذى كان البولنديون يحاربونه علناً أو سراً . وفى عام ١٦٥٣ ، وطبقاً لنصوص معاهدة بير ياسلاف، أصبحت بلاد القوزاق، مع احتفاظها بتنظيمها وبتقاليدها ، جزءا لا يتجزأ من الإمبراطورية الموسكوفية ، وتحت الإسم — التقليدى — لروسيا الصغرى وسرعان ما عادت العمليات الحربية من جديد بين البولنديين وبين الروس .وتمكن هؤلاء الأخيرون ،والذين كانت تدعمهم قوات فرسان القوزاق، من أن يحصلوا على سلسله من الانتصارات فوقعت سمولنسك بين أيديهم ؛ وتم غزو ليتوانيا ؛ كما سقطت فى أيديهم فيلنا وجرودنوف من بعد . وفى ذلك الوقت ، دخلت السويد إلى مسرح العمليات .

وكانت هدنة ستومتدورف التى كانت قد إنهت مؤقتاً العمليات العسكرية مع بولندا فى عام ١٦٣٥ ، قد نقضت فى عام ١٦٥٥ عن طريق الملك الجديد ، شارل جوستاف ، وهو أحد أبناء أخ جوستاف أدولف ، والذى كان خطيبا لإبنته ووريثته كريستين ، والذى إستدعى للعرش بعد أن أرهقت كريستين من إلتزامات السلطة وقررت التخلى عنها ، وكان هو كـذلك يتمتع بطبيعة الجنود وكان قد خدم فى ألمانيا مع أحسن جنرالات حرب الثلاثين عاماً . ولم يكن عليه أن يبحث طويلا عن الجهة التى سيحاربها . وبدون توفيق ، أحتج ملك بولندا ضد وصول أحـد الأمراء من سلالة فازا إلى الحكم فى ستوكهلم : وكان ذلك

كافيا لإعطاء ذريعة للخصم ، كان يحتاجها ، من أجل قطع العلاقات . ولقد إستمرت الحرب التى بدأت بهذا الشكل لمدة خمس سنوات (١٦٦٥ — ١٦٦٠). وإحتفظ لها التاريخ بإسم حرب الشمال ، وهو الإسم الذى أعطوه لها المعاصرون لها فى غرب أوربا .

ونتيجه لإنتصاراتها فى حربها الطويلة ضد آل هابسبورج وحلفائهم ، إحتلت السويد مكانتها فى الصف الأول من الدول العسكرية ، إلى جانب أسبانيا وفرنسا . وأدى تدخلها فى بولندا إلى إثارة أصداء فى كل شرق أوربا ، وحتى حدود الإمبراطورية العثمانية ، متسبباً هنا فى ظهور الخوف ، وهناك فى الآمال . اما فيما عدا ذلك . فإن أصدقائها وأعدائها انتظروا بعض الوقت قبل أن يحددوا مواقفهم . وفى أثناء العام الأول من الحرب ، كان فى وسع شارل جوستاف أن يتصرف كما يرى .

وبدأ ذلك بأمل خفى للاستيلاء على تاج بولندا . وكان هذا ، بشكل ما ، هو نفس موقف نهاية القرن الماضى بطريقة تقريبية : فكان الاتحاد بين السويد وبولندا قد أصبح مطروحاً ، ولكن هذه المرة كان سيتم فى صالح ملك السويد . وبعد ان دخل بسهولة إلى وارسو ثم إلى كراكوفيا ، أعلن المنتصر أنه عــدو لذلك ، ولكن ليس عدوا للجمهورية . ولم يتردد حتى فى أن يلقب نفسه بلقب « الحامى » ، مؤكدا رغبته فى إحترام أملاك وإمتيازات النبلاء . ولذلك فإنه وجد فى أول الأمر ، عددا كبيرا من الأعوان . وكان عام ١٦٥٥ بالنسبة إليـه عام نجاح دون إنقطاع . فالملك جان كازيمير إنهزم فى عدة مواقع ، وإلتجأ إلى الأراضى النمسوية . أما الجيش البولندى الرئيسى فإنه سلم قرب حدود روسيا البيضاء . وتمكن قائد جيش شارل جوستاف ، وهو الجنرال لا جاردى ، من أن يجعل ممثل ليتوانيا يوقع على إتفاقية كيدانى التى سوت مصير الدوقية الكبرى :

وبدلا من الإتحاد مع تاج بولندا وضع إتحاد مشابهة تماما مع تاج السويد. أما الروس، فإنهم كانوا قد وصلوا فى ذلك الوقت حتى فيلنا.

ولكن كل ذلك لم يمنع من أن ينظروا، فى موسكو، نظرة خاصة لهذا النجاح الأول للملك السويد، وأخذوا يتحدون السويديين، ومنذ هذه الفترة بدأوا يعتبرون بولند على أنها أرض صيد محجوزة لهم. ولذلك فإن القيصر اليكسيس إمتنع عن أخذ اليد التى أظهر شارل جوستاف أنه يمدها له وإستدعى قواته إلى ما وراء نهر الدنيبر، وأعاد العلاقات مع جان كازيمير، ووعد بالتخلى عن ليتوانيا، ومن أجل إظهار حسن نيته، حصل على ثمنها، فحصل على وعد بوراثة التاج البولندى. وهذا التبديل فى المواقـــع الأساسية سيؤدى سريعاً إلى قطيعة بين الروس وبين السويديين.

ومن جانب آخر، أدى التقارب البولندى الروسى إلى أن يتفاهم وشميلنسكى مع السويديين، وإلى أن يربط عمله بعمل خصم بولندا الجديد، وهو جورج راكوكس، أمير ترانسيلفانيا. ومن جانب آخر لم يحصل السويديون على الميزة المتوقعة: إذ ان الأول سيحجز بصعوبات داخلية فى أوكرانيا، بينما يستدعى الثانى إلى ترانسيلفانيا، نتيجة لهجوم العثمانيين المفاجىء.

وهكذا فإن الانتصارات الباهرة التى حصل عليها شارل جوستاف فى عام ١٦٥٥ سوف تظل بدون نتيجة. وكان التشدد البروتستانتى، والعنيف لجنوده سيؤدى، بعد وقت قصير أو طويل، إلى إنفضاض الجماهير البولندية، والتى كانت متشبثه بمذهبها الدينى. وبعد بضعة أشهر خسر الجولة أمام الرأى العام: ولم يمض وقت طويل حتى خسرها كذلك فى ساحة المعركة. وكان هذا نتيجة لإحدى الهزائم التى نزلت به أمام زينستوشوفا، إحدى المدن البولندية. وكانت السيدة العذراء تتمتع فى هذه المدينة «بعبادة» معينة، ولذلك فإن

الجميع إعتقدوا فى أنها أخذت البلاد تحت حمايتها . وبعد قليل ، عاد الملك الذى كان لاجئاً ، وظهر من جديد . وعرف كيف يلعب على الأوتار الحساسة ، وأعلن أن كل مملكته تحت حماية السيدة العذراء . ووجد بسرعة الجنود الذى كان فى حاجة إليهم لإعادة سلطته .

ومنذ بداية الحرب ، لم يكن منتخب براندبورج ، فريدريك ويليام ، قد طلب ماهو أفضل من أن يأخذ جانب بولندا ضد السويديين ، والذى كان يكرههم منذ أن كانوا قد أخذوا منه فى عام ١٦٤٨ أفضل جزء فى بوميرانيا . ولكن إدخال دولة براندبورج البروسية المتواضعة فى حرب ضد هذه الدولة العسكرية التى هى السويد كان يمثل الجنون المطبق ولذلك فإنه قنع بالإعتذار عن التحالف الذى عرضه عليه شارل جوستاف ، وفى اليوم التالى لانتصاراته ، عاد هذا الأخير إلى نفس الموضوع . وإضطر فريدريك ويليام ، وهو فى شدة الخوف ، إلى أن يوافق على التوقيع على معاهدة كونيجزبورج فى ١٧ يناير ١٦٥٦ ، والتى وافق بها على الاعتراف بالسيادة السويديه على دوقيته بروسيا ؛ بدلا من السيادة البولندية وبعد ستة أشهر من ذلك ، جـــدد السويديون الضغط ، وزادوا فى قوته ، وحصلوا على معاهدة جديدة تم التوقيع عليها فى مارينبورج ، فى ٢٥ يونيو ١٦٥٦ ، وفى هذه المرة ، وضع جيش براندبورج تحت تصرف السويد ، وفى نظير ذلك وعد ملك السويد حليفه بأربعة «بلاتينات» بولندية ، وبكل بوسنانيا .

وعند نهاية ١٦٥٦ كانت السويد تحتفظ بكل ميزه ، رغم أن قوة دفعها الأول كانت قد تحطمت . ولسوف يتغير كل شىء بعد بضعة أشهر وكانت الدانمرك ، هذا الخصم التقليدى للدولة السويديه ، قد أخذت حتى ذلك الوقت موقف المنتظر . وفى بداية عام ١٦٥٧ ، رأى الملك فريدريك الثالث أن الذى إنتصر بالأمس قد

أصبح على درجة من الضعف تسمح له بمواجهته : فقام باحتلال دوقية بزيمن التى كانت معاهدة أوستبروج قـــد تنازلت عنها للسويد . وسرعان مابدا أن أخذ هذا الموقف سيكون كبير الفائدة بالنسبة لبولندا . إذ أن المنتخب فريدريك ويليام قد أفاد منه وخاطر بعملية تغيير إتجاهاته ، الأمر الذى كان يفكر فيه منذ أن دخل الحـــرب . وبعد أن تأثر بدبلوماسية الامبراطورية ، وإستجاب لها ، شعر بأنه مط ّن على ظهره . فإنضم إلى خصمه بالأمس : وحصل من البولنديين على بضع مساحات من الأراضى ، وعلى التخلى عن السيادة البولندية على دوقية بروسيا . ومن جانب أخر ، كانت معاهدة ويهلاو فى شهر سبتمبر عام ١٦٥٧ سرية . الأمر الذى كان يسمح بأن يجعل السويديين يعتقدون ،خلال بعض الوقت ، أن أسرة هوهنزلرن قد أخذت موقف الحياد فقط .

وكان دخول الدانمرك إلى مسرح العمليات ، وتغيير المعسكر الذى تنتمى إليه براندبورج ، فى أثناء عام ١٦٥٧ ، يعتبر نقطة تحول . ولذلك فإن الصطدام تغير معناه . ولم يعد محدوداً بحدود بولندا المباشرة ، وإنضم الآن إلى مجموع قطاع بحر البلطيق . وكان يؤثر على مصالح هذه المجموعة الجديدة من الدول ، وهى الدول العظمى المتاجرة فى الغرب : الأقاليم المتحدة ، وفرنسا وإنجلترا . وكانت هذه الدول مستمرة فى الاهتمام بذلك منذ البداية ، وفى قياس المخاوف التى يمكن أن تحدث لمصالحها التجاريه . ولكن تدخلاتها ، الموزعة على سنوات ، كانت لها طبيعة هادئة . وكانت هذه الدول كلها معادية ، ثلاثتها ، للأسرة النمسوية الحاكمة ، بناء على عقيدة دينية أو على تقليد سياسى . فأبلغت منذ البداية ثمن نياتها للسويد ، بينما عبرت أسبانيا عن مشاعر تضامنها مع بولندا الكاثوليكية للغاية وكانت فرنسا هى الوحيدة التى تدخلت بطريق مباشر ، وعلى الأقل بالطريق الدبلوماسى . وحاول ممثلها فى برلين أن يتغلب على تردد

فريدريك ويليام وكان هو الصانع الرئيسي لمعاهدة كونيجزبورج وكانت النتيجة ، بطبيعة الحال ، هي فتور العلاقات الفرنسية البولندية . وأفاد السفير الامبراطوري من ذلك من أجل أن يحصل من حكومة وارسو على معاهدة تحالف ، في ٢٧ مايو ١٦٥٧ . ووصل التوتر مع فرنسا إلى حدالتفكير في بعض اللحظات في قطع العلاقات .

وكان تغيير المواجهة المفاجيء لفريدريك ويليام في عام ١٦٥٧ يولد في باريس بطبيعة الحال الدهشة والقلق . إذ أن ذلك كان يمثل نجاحا لدبلوماسية آل هابسبورج ، خاصة وأن المنتخب لن يتأخر في الانضمام إلى التحالف النمسوي البولندي . ومع ذلك فإن دبلوماسية مازران لم تتخل عن الأمر . وإستمرت عمليه المنافسة الشديدة بين السفيرين ، الفرنسي والنمسوي،فيوارسو حتى نهاية الأزمة . وفي أثناء ذلك الوقت ؛ تركزت مجهودات دبلوماسية الدول الغربية على الدانمرك ، وهي التي دخلت أخيرا إلى مسرح العمليات أما شارل جوستاف ، فإنه بعد أن إتخذ مؤقتاً موقف الدفاع في بولندا ، قد ألقى بنفسه ضد الدانمرك : وفي حملة شتاء صاعقة ، وصل حتى أبواب كوبنهاجن . وإنتزع من الملك فريدريك معاهدة روسكيلد في ٢٧ فبراير ١٦٥٨ . وحصلت السويد على سكانيا ، التي كانت تقع على المضايق بين بحر الشمال وبحر البلطيق من الناحية الشرقية ، وكذلك على جزيرة بورنهولم .

وكان هذا النجاح الجديد للسويد يثير القلق بنوع خاص في فينا . فحتى ذلك الوقت ، كان الامبراطور فرديناند الثالث ، رغم إرتباطه بمعاهدة تحالف مع بولندا ، قد قنع بأن يدفع لها بعض المدونات . وكان قد أفاد حتى من الصعوبات التي تواجه جان كازيمير ، من أجل أن يحتل ، وقرب حدوده ، مدينة كراكوفيا ، وملاحات فيليشكا . ولكن فرديناند توفي في عام ٥٨-١ .

وسيظهر خليفته ، ليوبولد الأول ، ميولا سياسية أكثر منه : فربط نفسه بطريقة وثيقة بهولندا وبراندبورج ، وتعهد بأن يعطيها المؤنات والأسلحة . وهذا التحالف الثلاثي كان يثير تفكير السويديين . ولكن شارل جوستاف ، الذى ثمل بنشوة إنتصاراته الواسعة ، لم يهتم بذلك . وأمام سوء نية الدانمركيين فى تنفيذ معاهدة روسكيلد ، دخل إلى الحرب ، وعمل على حصار مدينة كوبنهاجن . وكان هذا عبارة عن تحدى ألقى به فى وجه الدول البحرية ، فكيف يمكنها أن تظهر عدم إهتمامها بمثل هذا الصطدام الذى يهدد بأن يؤثر فى وضعية المضايق ؟ لقد رأينا أن فرنسا فى عصر مازران كانت مصممة على الإحتفاظ بالتوازن فى بحر البلطيق . وسيكون موقفها نفس ما كان عليه منذ عشر سنوات مضت .ورغم التحالف الذى يستمر فى ربطها بالسويد ، فإنها ستترك أولئك الذين تخيفهم مشروعات شارل جوستاف يعملون ، فى أولهم أصدقائها فى أمستردام وفى لاهاى. وسيتحدث مازاران فى يوم بعد ذلك عن تلك « الغيرة الكبيرة التى كان الهولنديون يشعرون بها من أن تسيطر السويد سيطرة كاملة على تجارة بحر البلطيق» وظهر الأسطول الهولندى ، بقيادة رويتر ، قرب المضايق ، لكى يضعها تحت حمايته . وسرعان مايتفق المدافعون عن الدانمرك لتقديم وساطتهم ، فى نفس الوقت الذى يفهمون فيه السويد قرارهم الثابت بالاحتفاظ للمملكة الصغيرة بملكية المضايق .

أما إنجلترا ، فكانت من ناحيتها ، تميل إلى التدخل فى صالح شارل جوستاف وأظهرت هذه النية فى الوقت الذى توفى فيه كرومويل . وفى ذلك المناخ من عدم الثقة فى المستقبل الذى بدأ أمامها ، إضطرب إلى إستدعاء أسطولها .

٤ ـ الغربيون وصلح أوليفا :

بالطريقة التى شرحناها ، أصبحت الحرب الآن أوربية .: ولذلك فلا يمكن

أن يكون حلها إلا أوربى ، وسيمر أكثر من عام قبل أن يوافق السويديون على التحدث بشأن الصلح . ولذلك فقد كان من الضرورى أن يستند عرض الوساطة الغربية إلى بعض التهديدات المحدده ففى أحد الايام ، جاء أسطول إنجليزى وألقى مرساه أمام المضايق ، وفى مرة أخرى ، كان الهولنديون هم الذين يموتون كوبنهاجن المحاصرة ؛ ثم يقوم أميراً لهم ، رويتر ، بنقل جنود دانمركيون وجنود من حلفائهم ، إلى إحدى الجزر التى كان السويديون يحتلونها .

وفى الطرف الآخر من مسرح العمليات ، كان شارل جوستاف قد حصل على نجاح ، وذلك عن طريق إبعاده مؤقتاً الخصم الروسى ، حين وقع على هدنة فاليسار فى عام ١٦٥٩ . ولكن الضغط زاد شدة عليه من جانب البولنديين والنمسويين ، الذين إتفقوا على غزو بوميرانيا : فكانوا قد إحتلوا الجزء الأكبر من الدوقية وفرضوا الحصار على ستيتن . وتحت الضغط المزدوج للسلاح وللدبلوماسية ، سيضطر عزيمة ملك السويد إلى التفاهم . هذا علاوة على أن فرنسا تعهدت صوب حليفها القديم بألا يضار بأى شكل فى أقاليمه الوراثية .

ولقد تم الصلح على مرحلتين واجتمع مؤتمر أوربى حقيقى ، فى أول الأمر ، فى أبروشيه أوليفا ، قرب دانزيج وعملت فرنسا كوسيطة وتم التوقيع على المعاهدة هناك ، بعد مفاوضات صعبة ، فى ٣ مايو ١٦٦٠ . ولم تحتفظ السويد بأى إقليم كان يخضع فيما مضى لسيادة بولندا ، سوى ماغزته أخيرا فقط ، وهو ليفونيا . وبالنسبة إليهم كان المنتصر الكبير هو منتخب براندبورج : فقبل البولنديون الإعتراف بالأمر الواقع ، وحرروا نهائياً دوقية بروسيا من سيادة التاج .

وفى كوبنهاجن ، قامت الدول الغربية ، بعد ذلك بقليل بفرض حلها بالنسبة للصدام السويدى الدانمركى . وأعادت معاهدة ٤ يونيو ١٦١٠ إلى الدانمرك

هاتين الجزيرتين اللتين كانت السويد قد حصلت عليهما من قبل فى روسكيلد . وأعلنت أن بحر البلطيق مفتوح ، فى جميع الأوقات ، وأمام كل الدول .

وهكذا نجد أن حروب الشمال قد إنتهت دون أن تؤثر بشكل واضح فى الوضعية الإقليمية للمنطقة الخاصة بها . وحصلت السويد ، التى كانت قد تسببت فى هذه الحرب على ميزات لاتتناسب مع المجهود الذى قدمته . وفى خلال خمسة عشرة عاما ، وحتى الوقت الذى تعطيها فيه فرنسا فى عهد لوى الرابع عشرالفرصة للانتقام من براندبورج ، ستحاول الحصول على نصيب من مناجمها بطرق سلبية فقط .

ولم يكن المستقبل الكبير للدولة الروسية قد ظهر بعد . وظلت إمبراطورية القياصرة حبيسة فى عزلتها التقليدية ، وعمليا خارج أوروبا هذه ، والتى لم تكن تشعر بعد معها ، ورغم الجوار ، بوجود مصالح مشتركة . ولم تكن مرتبطة بعلاقات دائمة مع أى دولة من الدول العظمى الموجودة فى ذلك الوقت . وحدث لها فقط أن قامت بتبادل بعض السفارات مع فينا وفى بعض الحالات كذلك كان يتنابها إغراء عابر بالدخول فى بعض المفاتحات مع إسبانيا ، كلما كانت تشعر ، من طرف القارة الأخرى ، بذكرى فيليب الثانى .

ومع فرنسا ، لم تعقد العلاقات إلا فى وقت متأخر ، فى أثناء الربع الأخير من القرن السادس عشر . ولذلك فإن المبادلات التجارية قد ظلت لوقت طويل ضعيفة ، ومحددة تقريبا بإستيراد الملح والنبيذ الفرنسى وكان أول إتصال رسمى قد حدث فى عصر فيدور ، خليفة إيوان الرهيب . وحصل سفير أرسله هنرى الثالث فى عام ١٥٨٦ — ولاندرى بسبب أى مناسبة — على فتح ميناء خولموجورى ، فى البحر الأبيض ، أمام السفن الفرنسية . وسرعان ماأفاد

تجار باريس من ذلك ، وحصلوا على إتفاقية تجارية فى عام ١٥٨٧ .

وبدت هذه المرحلة الأولى من العلاقات الفرنسية الروسية على أنها لن تكون لها مراحل أخرى . ومرت أربعون سنة بعد ذلك ، ولانجد خلالها إلا ، فى عام ١٦١٥ ، إرسال أول ملوك أسرة رومانوف لخطاب رسمى إلى باريس يعلن فيه وصوله العرش . ثم ، فى عهد ريشيليو ، كانت فرنسا هى التى تأخذ الدافع ، وفى تفكير الوزير ، كان الأمر يتعلق بالتقدم على حطام الإنجليز ، وإنشاء إتصالات ، عبر إمبراطورية القياصرة مع فارس الشاة عباس . وأرسل أحد السفراء ، دى هايس كورمينان ، فى عام ١٦٢٩ إلى البلطيق ، وكان هدفه الأول كوبنهاجن ، وحيث طلب إمتيازات من أجل السفن التى تعبر المضايق : وتسجل الإتفاق الذى تم التوصل إليه فى معاهدة ١٤ يوليو ١٦٢٩ .

وفى ١٢ نوفمبر من نفس العام ، منح القيصر ميشيل فيودورو فيتش فى موسكو بدوره الفرنسيين بعض التسهيلات للتنقل داخل إمبراطوريته ، ولكن دون أن يمنحهم الحق فى الذهاب بأنفسهم إلى استراخان لإحضار الحراير الفارسية، والتى كانت مطلوبة للغاية .

وظلت استراخان من ناحية ، وأركانجلسك من ناحية أخرى ، ولوقت طويل ، هى الثغور الرئيسية لدخول ولخروج التجارة الموسكوفيه . ولم يكن فى وسع الأجانب أن يصلوا إليها بطريق آخر ، طوال الوقت الذى كان فيه البولنديون والسويديون ، كلاهما ، واقفين ضد جيرانها . ولذلك فإن الإمتيازات التى حصلوا عليها ظلت دائما معرضة لتقلب ونزوات الحكومات. ومر الإنجليز بهذه التجربة فى عام ١٦٤٩. وفى الوقت الذى وصل فيه النبأ إلى موسكو بأن الملك شارل قد حكم عليه بالإعدام ، وان الحكم قد نفذ ، طلبوا إلى كل

رعاياه الموجودين والمقيمين فى العاصمة الروسية ، الخروج منها ، وإن يعودوا: إذ أن الهولنديين سوف ينتهزون هذه الفرصة لكى يحصلوا لأنفسهم على مكانة تتناسب مع طموحهم . وسرعان ما ستصبح لهم مراكز تجارية ، ليس فقط فى أركانجلسك ، وعلى طريق موسكو ، فى فولوجدا ، وفى إياروسلاف ، بل كذلك فى نوفجورود وفى بسكوف .

الفصل السادس عشر

البحر المتوسط والدول المطلة عليه

إن حياة دول البحر المتوسط فى أثناء القرن السابع عشر لا تمثل ، بالنسبة للفترة السابقة ، نفس ذلك التجديد ، كما حدث فى منطقة بحر البلطيق . وفى هذا القطاع ، ظلت المشكلات الكبرى الدولية هى نفسها . وكانت الأولى من بينها هى التى يطرحها تقدم المسلمين فى الشرق وفى الجنوب ، والتى كانت قد ظلت بلا حل ، كما ذكرنا ، بعد ذلك الإنتصار ، الذى لم تستغل نتائجه ، والذى حصلت عليه الدول الغربية على الاسطول العثمانى فى ليبانتو . ولقد توقف بعد ذلك زحف العثمانيين ،وشعر الأهالى الايطاليون بأنهم قد تحرروا من التهديد المستمر لعمليات الانزال والغارات . ولكن قوة مد الأعداء لم تكن قد تحطمت إلا لفترة مؤقتة : ذلك أنهم كانوا يسيطرون على كل بحر إيجه ، فأتموا عملية إقامتهم فى الاماكن التى استولوا عليها أخيراً ، وأخذوا فى إعادة بناء قواتهم على مهل .

١ ـ العثمانيون والحرب على جبهتين :

إن فترة الهدوء النسبى التى ميزت الربع الأخير من القرن السادس عشر سوف تستمر مع ذلك خلال كل النصف الاول تقريبا من القرن السابع عشر . ويمكننا أن نبحث عن الاسباب ، وبدرجة أقل ، فى ضعف روح محاربة المسيحيين ، عنها فى التطور الداخلى للإمبراطورية العثمانية . وكانت الدوافع المختلفة للتوسع العثمانى قد إنكشفت كلها فى نفس الوقت ، فأولا نلاحظ هبوطاً عاما فى العنصر العثمانى :فلم يظهر أى من الخلفاء المباشرين للسلطان سليمان،نفس صفاته العسكرية ولا نفس ديناميكيته التى كانت تدفعه إلى الغزو . فكانوا قد أصبحوا سلاطين

آسيويين بالفعل ، وتميزوا بالكسل ، واللامبالاة ، والقسوة . وكانت الأحداث الكبرى والرئيسية فى التاريخ العثمانى . فى هذه الفترة ، تخضع لمؤامرات السراى وثورات القصر التى يحيكها الوزراء ، ثم يعملون على إيجاد حل لها . ولا شك فى أن القوة العسكرية للدولة قد قاست بالضرورة ، من ذلك ، وأكثر منها القوة البحرية ، والتى لم تكن قد وصلت من قبل إلى مستوى مماثل . أما فيما عدا ذلك ، فاذا كانت العمليات على البحر قد قامت فعلا بهدنة لمدة تزيد على نصف قرن ، فإن المجهودات التى كانوا يطلبون إلى القوات البرية القيام بها قد إستمرت وبشكل كامل .

ولقد استمر العثمانيون يحاربون على جبهتين ، فى أوربا ، وفى آسيا . وكانت الجبهة الاوربية فى تماس لفترة طويلة ، إبتداء من هدنة سيتفاتوروك فى عام ١٦٠٦ . وكان الصلح الذى رفضوا ، لفترة طويلة ، منحه للمجر ، قد ضمن لها وبشكل تقريبى ، خلال الجزء الاكبر من فترة حرب الثلاثين عاماً . ورغما عن النداءات التى كان الفرنسيون يرسلونها إلى أصدقائهم الاتراك — ولا نقول حلفائهم ، إذ أنه لم يكن هناك ، ولا يمكن أن يوجد هناك تحالف رسمى بين المسيحيين وبين المسلمين ، من وجهة نظر المسيحيين — فإن إستانبول قد انتهجت طريق الحياد فى ذلك الصراع الذى كان ناشباً بين آل هابسبورج وبين رعاياهم الألمان ،وحلفاء هؤلاء الأخيرون . ولذلك فإن الحرب كانت تدور دون تعقيدات خطيرة ، أو على الأقل دون تعقيدات طويلة المدى ، على الحدود الجنوبية الشرقية للإمبراطورية .

وعلى العكس من ذلك ، كانت الحدود الآسيوية فى حركة مستمرة . ففى إمبراطورية الفرس ، كان الربع الأول من القرن لا يزال يتعلق كله بفترة حكم الشاه عباس الكبير . وكان قد قام ، ضد البرتغاليين ، المتمركزين فى هرمز

ـ وكما رأينا ـ بعقد علاقات مع الإنجليز . ولقد تمكن بمساعدتهم ،من الإستيلاء على الجزيرة وعلى المواقع الأخرى القريبة . وساعده هذا النجاح على أن يزداد جرأة ، خاصة وأنه قد نجح ، ونتيجة لمساعدة التقنيين المرسلين من لندن ، فى أن ينشىء لنفسه مدفعية قوية . ولقد شعر ، منذ ذلك الوقت ، بأن فى وسعه أن يقيس قوته ، وبنفس السلاح ، مع خصومه القدماء ، مع الأتراك العثمانيون . وللمرة الثالثة فى أثناء حكمه ، إشتعلت الحرب من هذه الناحية ، فى عام ١٦٢٣ ، وبضربة واحدة ، تمكن جيش الشاه من إعادة غزو بغداد . وكان وقع الحدث أليما ، على إستانبول . وسيضطر السلطان الجديد ، مراد الرابع ، إلى استخدام كل الإمكانيات من أجل استعادة عاصمة الخلفاء العباسيين . ولقـــد استولى عليها فى عام ١٦٣٢ ، وبعد عملية حصار طويلة ، إنتهت بعملية قتل جماعى لسكانها : وقدر المعاصرون عدد الضحايا بما يقرب من ٣٠٫٠٠٠ ؛ وفى العام التالى ، ضمنت معاهدة ، من جديد ، تبعية بغداد للدولة العثمانية .

٣ ـ الحوض الغربى للبحر المتوسط :

أما فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، فإن الحالة كانت تختلف نوعا مـا . فلقد كانت هناك دائما ، ومن فترة لأخرى ، إصطدامات بين المسيحيين وبين أهالى شمال إفريقية . وفيما بين عامى ١٦٢٥ و ١٦٥٩ كان للحرب الناشبة بين فرنسا وإسبانيا أحد ميادينها الرئيسية ، هناك .

وحين قامت الحكومة الفرنسية ، بعد وفاة هنرى الرابع ، وأثناء فترة وصاية مارى دى ميديسيس ، بتغيير سياستها فجأة ، ومالت صوب التحالف مع إسبانيا ، أصبحت علاقاتها سيئة للغاية مع الجزائر . ولقد فاوضوا ، بلا جدوى ، من أجل الحصول على إستعادة مواقع « حصن فرنسا » ، ورأس العبيد ، التى كان محتلوها قد طردوا منها فى عام ١٦٠٤ . وإستمروا فى مهاجمة سواحل أهالى شمال إفريقية

ومع ذلك فإن فترة العمليات العدوانية لم تفتتح من جديد إلا فى عام ١٦٢٠ . واقد لقى مندوبان من نيابة الجزائر ، وهما اللذان كانا قد ذهبا إلى باريس ، ثم عاد إلى سفينتهما ، مصرعهما بواسطة أهالى مرسيليا ، الذين كانوا قد فقدوا شعورهم نتيجة لإعدام بحارة سفينة كانت قد وقعت ، منذ وقت قصير ، فى أيدى رجال الجهاد البحرى . وزاد الغضب من هذا الجانب ومن ذاك ؛ إلى درجة أنهم تركوا التفاهم بينهم للمدافع . وذهب أسطول فرنسى صغير إلى سواحل إفريقيه ، وقام بتحطيم عدد من سفن رجال البحر من شمال إفريقية ، وقام حتى بمحاصرة ميناء الجزائر لعدة أيام .

ولقد وصلوا إلى الصلح فى عام ١٦٢٨ ، وبواسطة أحد أبناء كورسيكا ، الذى أصبح من أهالى مرسيليا ؛ وهو سمسون نابوللون ، والذى كان قنصلا سابقاً للملك فى أزمير ، والذى كلفوه بالذهاب إلى القسطنطينية والدفاع عن قضية فرنسا ، ونجح فى الحصول على تدخل السلطان مراد الرابع : وسيصبح من حق الفرنسيين أن يقيموا من جديد فى الأماكن التى كانوا يحتلونها فى القرن السابق ، وأن يعيدوا بناء المنشآت التى تحطمت . وهكذا سوف يتم بناء « حصن فرنسا » من جديد ، ويصبح نابوللون « قبطاناً وحاكماً » عليه . ونتيجة لأموال الملك ، سيتمكن من تحويله إلى قلعه حقيقية . وبعد بعض الوقت ، عادت الحياة إلى رأس العبيد من جديد . ولكن هذين الموقعين ، سوف يقعان ، من جديد ، فى أيدى الجزائريين فى عام ١٦٣٧ ، وحين تصبح فرنسا مشاولة بتلك الحرب التى كانت قد نشبت على القارة من جديد . وكان فى وسع ريشيليو على الأقل أن يدعى أن إسبانيا كانت ، من جديد ، فى صف العدو . وحصل ، بعد مفاوضات طويلة ، فى عام ١٦٤٠ ، على إعادة الإقامة فى « حصن فرنسا » من جديد : أما فى رأس العبيد ، فإن الفرنسيين لن يعودوا اليها إلا فى عصر

لوى الرابع عشر ، وبعد خمسة وعشرين عاما من ذلك .

وإذا كان ريشيليو قد تمكن ، وفى مناسبات عديدة ، من أن يتحدث عالياً وهو يضمن أن صوته سوف يسمع فى الجزائر وفى تونس ، فإن ذلك كان يرجع إلى أن القوة البحرية لفرنسا كانت قد إستعيدت فى أثناء السنوات الأولى من وزارته . وكانت قد تردت إلى مستوى منخفض للغاية ، عند نهاية القرن السابق ، وفى فترة الحروب الدينية . ولم يكن هنرى الرابع قد وجد الموارد الكافية لعلاجها . وكان أهالى مرسيليا يشكون من قلة الأمن التى كانت تقاسى منها تجارتهم : فكان رجال الجهاد البحرى هم سادة البحر ، ووصل بهم الحد ، فى بعض الحالات ، إلى أن يأتوا وينهبوا سواحل إقليم بروفانس . ولقد شعر الكردينال الكبير ، وبعمق ، بعدم لياقة هذا الموقف ، بالنسبة لمصالح التجارة ، وبالنسبة لهيبة الملك ، فى نفس الوقت . وعمل بكل جد من أجل تحسينه ، فى الداخل ، بسياسة الإنشاءات البحرية ، وفى الخارج ، بالإلتجاء المستمر لصداقة السلطان . وكلما تطلب الأمر ، كان سفير الملك يطلب « توجيهاً » يوجه إلى إحدى النيابات ، أو الأخرى ، فى شمال إفريقية . ورغم أن خضوع سلطات تونس والجزائر لهذه التوجيهات كان غير مؤكداً ، إلا أنهم كانوا يفضلون عدم الإلتجاء إلى استخدام القوة إلا بعد أن يحاولونها .

أما تجاه رجال البحر من المغاربة ، فقد كان من الأكثر صعوبة التصرف عن الطريق الدبلوماسى ، وكانت الإمبراطورية الشريفية تظهر دائماً إستقلالا كاملا تجاه إستانبول . وكانت حركة الجهاد البحرى فيها قد شهدت نمواً جديدا تماماً منذ عام ١٩٠٩ ، ومنذ أن قام عدد من الموريسكيين ، الذين طردهم فيليب الثالث من اسبانيا ، بالمجىء للاقامة على سواحل سلا ، فى مدينة جديدة عملت على زيادة أهمية الرباط . ولما أصبح رجال البحر ، أكثر عددا وأكثر

قوة ، فإنهم قد توصلوا إلى أن يتحرروا من سلطة «المخزن» ، والتى كانوا لا يعترفون بها فيما مضى إلا من وقت لآخر ، وبطريقة غير تامة . فكان من الضرورى إذن التفاوض معهم . واستخدم ريشيليو ، من أجل ذلك ، اسحق دى رازيلى ، وكان أحد المتخصصين ; فكان قد كلف من قبل ، وفى سنوات ١٦٢٠ ، بعدة بعثات فى المغرب . وسمحت له ثلاث مظاهرات بحرية ، قادها فى أعوام ١٦٢٩ ، و ١٦٣٠ ، ١٦٣١ ، بالحصول على إعادة شراء الأسرى الذين كانوا ينتظرون ، منذ سنوات ، فى سلا وفى مراكش ، أمر خلاصهم . ومع ذلك فإن حركة الجهاد البحرى لم تتوقف إلا لفترة قصيرة . وأعطت المعاهدة التى تم التوقيع عليها فى مراكش ، فى عام ١٦٣١ ، الفرنسيين ، على الأقل ، إمتيازات تجارية جديدة ، وكذلك الحق فى تعيين قناصل فى المدن الرئيسية . وكان هذا ، بالإجمال ، هو نظام الإمتيازات الأجنبية ، الذى نقل إلى المغرب الأقصى . وستحكم معاهدة عام ١٦٣١ ، التى تأكدت فى عام ١٦٣٥ ، العلاقات الفرنسية المغربية ، لوقت طويل .

وحين بدأت الحرب مع إسبانيا ، فى عام ١٦٣٥ ، كان الفرنسيون متأخرين ، من وجهة النظر البحرية ، تأخيرا واضحا عن خصومهم . ولذلك فإن العمليات قد دارت فى أول الأمر إلى صف هؤلاء . وكبداية للعملية ، إستولى الاسبانيون بسرعة على جزيرة أيران ، وظلوا يقيمون فيها مدة عامين ، وبنوا فيها بعض التحصينات ووضعوا فيها عددا من الجنود تحت أعين الحامية الفرنسية الصغيرة ، التى أرسلت بسرعة إلى كان . ولكى يتمكنوا من التفكير فى إجلائهم عنها ، كان من الضرورى أن يرسلوا ، فى العام التالى ، إلى البحر المتوسط ، كل قوة بونان البحرية ، والتى كانت تبلغ ما يقرب من أربعين سفينة . ومع ذلك ، فلقد كان من الصعب القيام بعمليات فى ذلك الوقت ، ونتيجة للخلافات التى وقعت بين

قيادة الجند وبين قيادة الاسطول . وان يتم إستعادة جزر ليران إلا فى عام ١٦٣٧ ، ونتيجة لعمليات إستمرت أكثر من ثلاثة أشهر .

ومنذ ذلك الوقت ، أصبح الخصمان يتصارعان،على البحر ، بأسلحة متعادلة . ودارت المعركة التى إشتبكوا فيها ، فى مياه جنوا ، فى عام ١٦٣٨ . إلى نجاح واضح للفرنسيين . ومنذ ذلك الوقت ، لن يحاول الاسبانيون أبدا أن يظهروا من جديد على سواحل إقليم بروفانس . وسوف يتحول ميدان العمليات صوب خليج ليون . وسرعان ما ينتقل بعد ذلك ، ونتيجة لثورة كتالونيا ضد فليب الرابع ، صوب سواحل إسبانيا نفسها . ولأول مرة إتحد الاسطول الفرنسى لشرق البحر المتوسط مع أسطول بونان . تحت رئاسة واحدة ، وكانت لشاب ، هو مابيه — بريزيه ، وهو إبن أخ ريشيليو ، وسيظهر أنه من رجال الحرب الفعليين . وفى عام ١٦٤٢ ، وبينما كان الملك وريشيليو يراقبان عملية حصار بيربينيان ، وقعت أمام برشلونه معركة بحرية كبرى ، ومرتبة ، عمل بعض المؤرخين على تسميتها موقعة « روكروا البحرية » : إذ أن الاسطول الاسبانى هزم فيها ، وإضطر إلى الانسحاب السريع منها . وبعد ذلك ، إستمر مابيه — بريزيه فى أن يدعم ويحمى جناح جيش الغزو ، الذى كان يقوم بعملياته فى كتالونيا . وكان ، فى كل مرة يحاول فيها الاسطول الاسبانى أن يقترب منه ، يدفعه وينزل به خسائر .

وإبتداء من عام ١٦٤٦ أصبحت أكثر العمليات أهمية تدور عند السواحل الإيطالية . وكانت الإنتصارات والهزائم مقتسمة بين الطرفين . ولقد نجح الفرنسيون ، كما رأينا ، فى إعادة وضع أقدامهم فى بيومبينو ، أحد مواقع توسكانيا ، وفى جزيرة إلبا . ونتيجة الضعف الذى أصابهم من طول أمد الازمة

الداخلية ، سيطردون من هناك ، فى عام ١٦٥٠ . ولنفس الاسباب ، لم يعد فى وسعهم ، فى هذه الفترة أن يظهروا كفاءتهم فى حراسة سواحل كتالونيا ، ولن ينجحوا ، فى عام ١٦٥٢ ، فى رفع الحصار المنظم من ناحية البحر أمام برشلونة المحاصرة : ولذلك فإن برشلونة قد وقعت بعد ذلك بقليل .

أما الفترة التى سبقت صلح البرانس فإنها قد تميزت بظهور السفن الانجليزية، وبقوة ، فى مياه البحر المتوسط . وفى عام ١٦٥٤ ، أرسل كرومويل بلاك مع أسطول لإظهار العلم البريطانى فى تلك المناطق التى كانت ، وحدها ، أعلام فرنسا وإسبانيا ، تظهر فى العادة فيها . وكان هدف هذه الحملة هو ، فى المكان الأول ، الذهاب وطلب بعض التعويضات من أهالى ليفورنو ، عن كوارث نزلت ببعض التجار ، فى وقت الحرب الأهلية . ومن هناك . إتجه الاسطول إلى تونس ، واحرق كل السفن التى كانت راسية هناك . ثم ذهب إلى الجزائر ، حيث إستخلص ، بالقوة ، كل الأسرى الذين كانوا موجودين هناك ، وأصلهم من الجزر البريطانية .

ولم تكن هذه الظاهرة المهمة منفردة بنفسها . فالهولنديون ، والذين كانت منافستهم على البحر للانجليز تنمو بشكل خطير ، ظهروا بدورهم ، فى عام ١٦٥٦ وفى عام ١٦٥٧ . وقاد أمير بحرهم ، رويتر ، حملتين ضد بلاد شمال إفريقية ، وهما حملة سلا أولا ، ثم حملة الجزائر وحملة تونس بعد ذلك . وقام الواحد والآخر ، الهولنديون والإنجليز ، بتأكيد الإهتمام المتزايد ، بهذه الطريقة ، بحماية مصالحهم التجارية فى هذه المنطقة .

٣ - التجارة فى شرق البحر المتوسط :

كانت الحركة فى البحر المتوسط دائماً ، وفى أساسها ، وظيفة العلاقات التجارية

التي كان الغربيون يحتفظون بها مع مراكز التجارة فى شرق البحر المتوسط . وفى بداية القرن ، كان الفرنسيون ، أو بتحديد أكثر أبناء مرسيليا ، هم الذين يحتلون المركز الأول فيها . ولكن الإنجليز والهولنديين دخلوا على الخط فى هذه الفترة، وحققوا تقدماً سريعاً .

وفى البلاد التي كانت تسمح بإقامة المسيحيين فيها ، كان على المسيحيين أن يعملوا ، من أجل القيام بأنشطتهم ، طبقاً للقواعد التي تحددها الحكومة ، والتى تعرف عامة باسم « الإمتيازات » . وكانت الامتيازات التي منحت لفرنسا فى القرن السادس عشر هى الأولى . وتجددت من وقت لآخر ، فى عام ١٦٠٤ مثلا. وكانت تمثل نموذجا لتلك التى نجحت الدول الأخرى فى الحصول عليها . وكانت الجاليات الفرنسية تمثل، فى كل مركز كان من حق سفنهم أن تصل إليه، جمهوريات تحكم نفسها بنفسها ، تحت حماية الباشا الموجود هناك ، وتحت إدارة قناصلهم ، الذين كان يعاونهم ، من وقت لآخر مجلس عام للجالية. وكانت مساكنهم ومحالاتهم التجارية ومخازنهم تكون حياً قائماً بذاته ، وله سور يفصله عن محل سكن المسلمين. وهكذا كانت العلاقات مع أهالى البلاد تسمح بأقل أحداث أو صدامات ممكنة . وكانت هذه الجاليات ، فى المراكز التجارية فى شرق البحر المتوسط تعيش حياة سلم ، إن لم تكن هناك مسألة «الإتاوات» . وهذه الكلمة تعنى نوعاً من الضرائب، تفرض بالطريق التعسفى ، والتى كان الحكام ، أو موظفى الدولة يطالبون بها التجار الأجانب فى مناسبات مختلفة ، وإستناداً إلى ادعاءات متنوعة ، وأصبحت هذه العادة شبه تقليد منذ أن أصبحت طريقة تفكير الحكومة ، فى عصر السلاطين الضعفاء عند نهاية القرن السادس عشر ، وكذلك الإدارة ، تعمل بشكل مختلف عما كانت عليه فى السابق . وكان كبار الموظفين فى الدولة مضطرين إلى تقديم هدايا بإستمرار للسلطان وللصدر الأعظم حتى يتمكنوا من الإحتفاظ بمناصبهم.

ولكى يملئوا جيوبهم ، سمحوا لأنفسهم بفرض ضرائب ، فى الموانى ، على تجارة «الروم» ، أى الأجانب . وفى بعض الحالات ، كانت عملية طلب النقود تغلف فى شكل الحصول على سلفة : ولكن المقترض كان ينسى ، بإنتظام ، أن يدفع ديونه وكان يحدث فى بعض الحالات أن يستولى رجال الباشا على إحدى السفن التى تصل ، بدعوى كاذبة بأنها كانت تعمل فى القرصنة : وكان على قبطانها ، فى هذه الحالة ، أن يطلب إلى القنصل أن يتدخل ، إذا ماتمكن من ذلك . وكان عليه ، دائما ، أن يصل إلى تفاهم ، ويدفع ، حتى يستعيد ماله . وكان القناصل يدافعون عن أنفسهم ، وعن أعضاء جالياتهم قدر مايستطيعون ، أمام مطالب الباشا ورجاله . وإذا كانت هذه الأحداث تتكرر ، فإنهم يضطرون إلى رفع الشكوى إلى إستانبول ، مطالبين بتدخل السفير . وهذا السفير لن يتمكن فى غالب الأحيان من الحصول على أى شىء ، خاصة وإذا ما كان الباشا تحظى بحماية الصدر الأعظم . وكانت المراكز التجارية الأكثر بعداً عن عاصمة الدولة العثمانية هى التى تتعرض أكثر من غيرها لهذه «الإتاوات» ، خاصة وأنه كان من الأكثر صعوبة توصيل الشكوى إلى الباب العالى ، كما أن الباشوات هناك كانوا أكثر إستقلالا . وكانت هذه هى حالة مصر بنوع خاص .

وكانت التجارة التى تتم فى شرق البحر المتوسط ، جزئياً ، هى تجارة عبور « ترانسيت » ، وبخاصة تلك التجارة التى كانت تتم فى موانى سوريا ومصر . وكانت حلب ، فى النصف الأول من القرن ، واحدة من أكبر أسواق كل شرق البحر المتوسط ، وكانت أقل فى أهميتها التجارية من إستانبول بقليل . وكانوا يأتون إليها لشراء المواد اللازمة لصناعة النسيج : القطن الذى كان يصل إليها من مادراس ، والحرير الذى كان يصل إليها من إيران . أما الاسكندرية ، ذلك السوق التقليدى لتوابل ، فإنها كانت قد قاست ، قبل ذلك ، من تحول الطرق

التجارية التى كانت تصل حتى إندونيسيا . وفى أثناء القرن السابع عشر ، تعرضت هذه التجارة ، التى كانت قد ظلت لوقت طويل وفى إزدهار واضح ، لخسارة جديدة : فلقد قل أوربا التعود على تناول المشروبات التى تعتمد على التوابل ، ونمت صناعة وإستهلاك المشروبات الروحية . وفى أسيا الصغرى ، وفى أزمير بنوع خاص ، كان الاوربيون يأتون لشراء الصوف الخام ، والشمع ، وجلود الماعز ، المدبوغة على طريقة قرطبة . ولقد ظلت تجارة الفرنسيين مع أزمير ومع إستانبول أقل بكثير من تجارتهم مع سوريا ومع مصر :ففى بداية القرن، كان هناك ، فى مقابل ثمانية وعشرين سفينة فرنسية تتعامل سنوياً مع الموانى السورية ، وخمسة عشر سفينة تتعامل مع الاسكندرية ، إثنى عشر سفينة فقط تذهب إلى أزمير ، وعشرة سفن تتعامل مع إستانبول . وعلى العكس من ذلك نجد أن الإنجليز والهولنديين كانوا ، فى أزمير ، أكثر عدداً عنهم فى أى مكان آخر .

وكانت ممارسة التجارة الإنجليزية والهولندية فى البحر المتوسط لاتشبه ، من كل الوجوه ، ممارسة التجارة الفرنسية . ومع ذلك فإن القاعدة كانت تتمثل ، بالنسبة للأجانب ومن كل الجنسيات ، فى أن يتم الشراء ، ويدفع الثمن كله نقداً. وكان الإنجليز يأتون «بالقروش» الإسبانية من قادش. أما الهولنديون فلم يكن لهم هذا المورد ، خاصة وأنهم كانوا يعتبرون — وحتى عام ١٦٤٨ على الاقل — على أنهم رعايا ثائرين ، وإن كانت خزائنهم مليئة بالمعادن النفيسة، فقاموا بصك عملة خاصة بهم كانت تحظى بقبول كبير فى موانى شرق البحر المتوسط . ومن ناحية أخرى ، وبالنسبة للشركات صاحبة الإمتيازات والتى حصلت على إحتكار العلاقات التجارية مع شرق البحر المتوسط منذ السنوات الأولى من القرن ، كان التضامن بين التجار الإنجليز والهولنديين أوثق ، وبكثير عما كان موجوداً بينهم

وبين التجار الفرنسيين . وطبقاً للاتفاق مع الحكومة . كانت السفن لاتسير إلا في مجموعة وكان عليها أن تقلع في وقت محدد ، وتصحبها إحدى أو بعض السفن الحربية ، الأمر الذى كان يشكل قافلة . ولكن روح الفردية الفرنسية كانت ترفض شراء أمنها بمثل هذا الثمن . ولقد عمل كولبير على أن يشرح لرجال مرسيليا مزايا هذا النظام ، ولكنه عجز عن أن يوطن في فرنسا أمر إستخدام القوافل ، وعلى الأقل خارج فترات الحروب .

وفي ذهابهم إلى موانى شرق البحر المتوسط كان الهولنديون والإنجليز يتوقفون ، بإنتظام ، في ليفورن . وكانت هناك مخازن ، وحيث كان في وسعهم أن يضعوا السلع ، مادامت ليفورن كانت ميناءاً حراً . وكانوا يقومون ، من هذا الموقع ، بتجارة هامة ، فكان الإنجليز يأتون بالصوف الذى كانت تحتاجه الصناعة في فلورنسا ، كما كان الهولنديون يأتون بالحرير الذى كان هناك سوقه الرئيسي وكانت ليفورن تلعب كذلك دوراً آخر ، وخاص للغاية ، حتى أنه من الواجب الإشارة إليه . فنتيجة لاتجاهها الليبرالى الكامل ، وللتشريعات الموجودة فيها ، كان بعض من رجال شمال إفريقية يحتفظون فيها بسوق للرقيق ، وكانت تحدث فيها ، وفي غالب الأحيان ، عمليات شراء الرقيق ، أو تبادلهم . وكان الكثيرون من بين المسيحيين الذين وقعوا في أيديهم قد عاد إلى بلاده ، من هناك ودون أن تكون أقدامه قد وطأت أرض شمال إفريقية .

وكانت التجارة الفرنسية مع شرق البحر المتوسط قد قاست كثيراً من أعمال القرصنة ، ومن جانب أبناء شمال إفريقية ، منذ وفاة هنرى الرابع ، وذلك بسبب تقليل القوى البحرية للمملكة ، وبسبب ذلك التقارب مع إسبانيا ، وهو الأمر الذى كان قد ميز فترة الوصاية . وعلى العكس من ذلك ، نجد أن الحرب التى أعلنت بين باريس ومدريد ، في عام ١٦٣٥ قد أدت إلى المحافظة على المصالح الفرنسية .

وكاد الأمر أن يصل برجال البحر فى شمال إفريقية إلى أن يعرضوا معونتهم ضد الدولة التى كانوا يعتبرونها على أنها أشد أعدائهم . وإبتداء من هذا الوقت ، أصبح على الفرنسيين أن يدافعوا عن أنفسهم ضد القراصنة الإسبانيين وحدهم ، وكانوا يصلون من جنوا ، ومن مسينا ، وبخاصة من ميورقة . وكان القراصنة من هذه الجزيرة الأخيرة يبثون الفزع على سواحل إقليمى بروفانس ولانجدوك . وأخيراً ، ولكى ننتهى من القرصنة ، علينا أن نشير كذلك إلى أن الانجليز ، أولئك القادمون الجدد فى البحر المتوسط ، قد بدأوا كذلك فى ممارسة ذلك النوع من النشاط الذى لم يكف جيرانهم فى بحر المانش وفى المحيط، من أن يشكوا منه فى أثناء القرون السابقة . ومنذ عام ١٦٠٣ ؛ كان أبناء مرسيليا قد فاض بهم الكيل ، فتحدثوا عن أمر قيامهم أنفسهم بتطبيق العدالة، وأسر كل سفينة انجليزية تظهر قرب مينائهم . أما أسلابهم فكانت توزع بسهولة فى أماكن أولئك التجار من كل جنسية ، وبخاصة من اليهود والأرمن ، والذين كانوا يعملون فى ميناء ليفورن .

وهكذا كانت التجارة الفرنسية مشتبكة مع الكثيرين من الخصوم؛ فتدهورت أحوالها ببطء . وفى بداية الحكم الشخصى للوى الرابع عشر ، وفى الوقت الذى وصل فيه كولبير إلى السلطة ؛ لم يتمكن إلا من عمل قائمة بالهزائم والفشل ، دون غيرها تقريبا ، فى هذا الميدان : فكانت تجارة شرق البحر المتوسط تستخدم قرب عام ١٦١٠ ، مايقرب من ألف سفينة ؛ فلم يعد لها إلا خمسين سفينة تقريباً ومن حيث القيمة ، كانت قد هبطت من ثلاثين إلى مجرد أربعة ملايين جنيه فى السنة ، ولم تكن قد وصلت أبداً إلى مثل هذه الدرجة من التقهقر منذ بداية الصداقة الفرنسية العثمانية . أما الأجانب ، الذين كانوا فى الماضى يسافرون فى مياه شرق البحر المتوسط فى حماية العلم الفرنسى فإنهم حرروا أنفسهم شيئاً فشيئاً

من هذه التبعية . ووجد البعض من بينهم ميزة فى حصولهم على حماية الإنجليز أو الهولنديين . ولقد أفاد أهالى ليفورن ، من جانبهم ، من تلك الإمتيازات التى إعترف بها لآل هابسبورج فى الإمبراطورية العثمانية ، بنظام الإمتيازات الأجنبية منذ عام ١٦١٥ . ورفعوا العلم الإمبراطورى .

٤ ـ فرنسا وحماية اللاتين فى فلسطين :

وبينما كانت العلاقات بين الدول المسيحية وبين الإمبراطورية العثمانية ، وعلى كل السواحل وفى الجزر ، محكومة بمشغولية مصالحهم التجارية ، كانت المسائل الدينية لاتزال تحتل المكان الأول ، فى فلسطين . وكانت المشكلات التى تطرحها مسألة حماية الأماكن المقدسة تتطور ببطء . ونشأت صدامات فى غالب الأحيان بشكل متزايد بين الدول . وكان العثمانيون ، بطبيعة الحال ، هم الحكم فيها.

وفى هـذا الميدان ، وكما كان الحـال فى ميدان التجارة ، كانت فـرنسا ، التى كانت مطالبها تستند إلى إمتيازات تقليدية ، تمارس نفوذاً متفوقاً . وبدت على أنها هى الحامية لرجال الدين اللاتينيين فى الأراضى المقـدسة ، والذين كانوا دائما مشتبكين مع منافسيهم من رجال المذهب اليونانى .

ومنذ القرن الثالث عشر ، كان قد تم الإعتراف للمسيحيين بحراسة أماكن العبادة الموجودة فى فلسطين وكان الـكرسى البابوى قد عهد بهذه العملية ، بنوع خاص ، إلى إحدى المنظمات . وكان التفاهم موجوداً مع العثمانيين على أنه يمكن للمسيحيين أن ينفذوا فى كنائسهم كل إصلاحـات ضرورية ولازمة لصيانتها ، ولـكن دون إضافة أى شيء إلى الأبنية الموجودة .وكان للاتين خصوم ومنافسين، يتمثلون فى الأرمن ، الذين كانوا يكونون كنيسة لها إستقلالها الذاتى ، وكذلك فى اليونانيين بنوع خاص ، والذين كانت أعدادهم كبيرة وعلاوة على اليونانيين

واللاتين والأرمن ، كانت هناك طوائف أخرى ، مثل أقباط الحبشة، والنساطرة، والجرجوريين ، والموازنة ، يمتلكون أديرة فى بيت المقدس ؛ وكان من حق ممثليهم الدخول إلى مبانى الكنيسة المقدسة . وكانت كل مجموعة مشكلة فى كنيسة لها إستقلال ذاتى ، تخدم كنيسة خاصة بها هناك . ولكن أمر حراسة المجموع كان موكولا به ، وبالكامل ، للفرنسيين. فكان الفرنسيون ، وبصفتهم أصحاب المنظمة التى أعطاها الكرسى البابوى حق الحراسة ، هم الذين يحتفظون بمفاتيح الكنيسة المقدسة ولكن اليونانيين كانوا يطمحون إلى أن يجردوا اللاتين من هذا الإمتياز فإدعوا أن كنيسة بيت المقدس ، والتى كانت الأكثر قدامة فى كل العالم المسيحى ، كانت إحدى منشآت القديسة هيلين ، وأن القديسة هيلين كانت أم الإمبراطور اليونانى قسطنطين الأكبر . ولقد فشلت إدعاءاتهم فى أن تحصل على إذن صاغية فى إستانبول . ولكن اليونانيين تمكنوا بالمؤامرات ، وبالرشاوى ، وبشراء ذمم بعض رجال السلطة فى بيت المقدس ، ومن وقت لآخر ، من أن يجوروا على إمتيازات اللاتين .

ولقد أعطى ملك فرنسا نفسه ، وبكل رضاء ، صفة الحارس والوكيل للكرسى البابوى ولمصالحه فى الشرق.ولم يتردد سفراءه فى إستانبول فى التدخل كلما كان رجال الدين اللاتين ، وفى أى مكان من السلطنة ، يرفعون الشكاوى أو يتقدموا بمطالب الى السلطان . وفى وقت مفاوضات عام ١٦٠٤ من أجل تجديد الإمتيازات الأجنبية ، حصل السفير الخاص بالملك هنرى الرابع على أمر وضع فقرة ، فى الوثيقة الجديدة ، يفهم منها (رغم أنها لم تذكرها صراحة) أن رجال الدين اللاتين ، الذين يحرسون الأماكن المقدسة وكذلك الحجاج من كل جنسية ، والذين يأتون إلى بيت المقدس ، يمكنهم إذا ما دعت الضرورة أن يطالبوا بحماية الملك . ولقد إعتبروا هذا النص فيما بعد على أنه يؤسس ما يمكننا أن نسميه —

مع بعض المغالاة — بالحماية الكاثوليكية لفرنسا فى الشرق . أما المجهودات الذى بذلت من أجل الإفادة المباشرة منه ، فإنها ظلت بلا نتيجة .

وبدأت فقط ، منذ عام ١٦٢١ ، فكرة الحقوق العليا التى أعترف بها السلطان الملك فرنسا ، فى الدخول فى التقاليد الدبلوماسية الفرنسية . وكانت المناسبة لذلك قد بدأت بالمعارضة التى قام بها سفير لوى الثالث عشر لبعض المحاولات التعسفية للأرمن فى كنائس بيت لحم وبيت المقدس . وبعد أن صدر فرمان سلطانى يعيد تأكيد ، ويطلب من السفير ، لحقوق الفرانسيسكان ، إنتهزت حكومة لوى الثالث عشر الفرصة ، وأرسلت إلى بيت المقدس مندوباً وممثلا فوق العادة ، مكلفاً بأن يظهر ، وبكل وضوح، قوته، وبأن يقيم هناك بصفته «قنصلا للأمة الفرنسية» . ولكن سرعان ما وجد القنصل نفسه مشتبكاً مع حاكم المدينة ، الذى أبلغ عنه السلطان ، على أنه قد تآمر مع أحد الأمراء الثائرين فى المنطقة ، ونجح فى تأليب الأهالى ضده : وبدرجة أن السفير نفسه قد نصح بعدم الإستمرار فى هذه التجربة، وألغيت القنصلية بعد ما يقل عن عامين .

ومع ذلك ، فإن عام ١٦٢١ كان يدل على تاريخ مميز وهام فى زيادة حماية الكاثوليك ، التى كانت فرنسا تدعيها لنفسها فى الشرق . حقيقة أن الأحداث والصدامات بين رجال الدين من المذاهب المختلفة قد إستمرت بعد هذا التاريخ. ولكن الدبلوماسية الملكية كانت تنجح فى العادة وبقوة صبرها ، فى جعل قضية اللاتين ، الخاضعين لحمايتها ، تنتصر . ولقد تم تسجيل تقدم واضح فى عصر لوى الرابع عشر ، وقت مفاوضات عام ١٦٧٣ من أجل تجديد الإمتيازات . فاعترفت الوثيقة الجديدة ، وإن كان ذلك بطريقة غير واضحة تماما . بحق فرنسا فى حماية رجال الدين اللاتين الذين يقيمون فى الامبراطورية العثمانية، وكذلك كل الأجانب

الذى يعلن الفرنسيون وضعهم تحت حمايتهم ، مهما كانت الأمــة التى ينتسبون إليها .

٥ — الحرب بين العثمانيين والبنادقة ، والاستيلاء على كريت :

كانت حروب العثمانيين قد سكنت فى البحر المتوسط ، أو قامت بهدنة ، خلال فترة طويلة ، حتى أن المعاصرين للملك لوى الثالث عشر وlريشيليو قد حسبوا أنها كانت أمرا يتعلق بالماضى ، الذى تطور ، وتقريباً بنفس صفة الحروب الصليبية . ومع ذلك ، فإن روح الحروب الصليبية لم تكن قد ماتت . بل لقد كانت حتى أكثر حيوية عما كانت قد وصلت إليه منذ وقت طويل ، فى فرنسا هذه ، والتى كانت قوة التجديد الكاثوليكى ، التى تلت فترة الحروب الاهلية ، تظهر فيها فى أشكال متنوعة . فكان التمسك الذى أظهرته السياسة الملكية بالنسبة للصداقة العثمانية ، وفى صالح التجارة الفرنسية وهدوء الأماكن المقدسة ، لا يمنع النفوس المؤمنة من أن تأمل فى أن تأخذ بلدها يوماً مكانها على رأس الامــم المسيحيــة فى الصراع ضد الإسلام . ولكن السياسات لم تغير طرقهــا . وذلك « المشروع الكبير » الذى نسبه « سولى » فى « مذكراته» لهنرى الرابع ، لا يستند إلا لتصوراته .

ومع ذلك ، فلقد سنحت الفرصة ، قبيل منتصف القرن بقليل ، من أجل العودة إلى الحرب المقدسة . وكان العثمانيون هم المسئولين عن القطيعة ودخلوا إلى المسرح فى عام ١٦٤٥ ، أى فى الوقت الذى كانت ستنتهى فيه حرب ألمانيا . وكان السلطان مراد الرابع قد توفى بعد التوقيع على المعاهدة التى كانت تضمن له حكم بغداد ، بقليل . وفى غمرة ونشوة إنتصاره ، أظهر فى أول الأمر طموحه فى حمل السلاح ضد المسيحيين ، وبخاصة ضد جماعة فرسان مالطة ، والتى كانت

عمليات قرصنتهم ، والتى كانت فى بعض الاحيان تصل قرب سواحل الاناضول، تعتبر إهانة لكرامة العثمانيين . أما أخاه الذى خلفه فى عام ١٦٤٠ ، فإنه كان جديرا بأن يلقب بابراهيم المعتوه . فكان لا يعيش إلا لملذاته ، كما كان غير قادر، ولم يتمكن من وقف مؤامرات السراى . ولكن الاسطول ، الذى كان قد تجدد نتيجة لإهتمام السلطان مراد به ، كان مستعدا للحرب . ولم يقدر على أن يرفض له المغامرة التى كان يطالب بها ، ولم تكن تتعلق بمشروع جـــديد ضد مالطة — إذ أن هزيمة عام ١٥٦٥ كانت قد تركت ذكريات أليمة — ولكن بغزو جزيرة كريت .

وكانت كريت هى آخر الممتلكات الجزرية التى كانت قد بقت للبندقيه ، فى خارج بحر الادرياتيك . وكانت حضارة أصيلة قد ترعرعت فيها ، نصف يونانية ، ونصف إيطالية . وكان تجار المدن الكبرى فيها ، مثلهم فى ذلك مثل تجار قبرص ، على علاقات أعمال مع كل الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، ومع البلقان ، وحتى مع بولندا . وكان نبيذ المورة والارخبيل ، الحلو ، والذى كان سوقه الرئيسى تحت سيطرتهم ، يتمتع بسمعة أوربية .

وكان البنادقة قد بقوا بعيدين عن الشئون الدولية ، منذ أن كان تدخلهم ، فى عام ١٦٣٠ إلى جانب الفرنسيين فى مسألة وراثة مانتوا ، قـــد دار فى غير صالحهم : فكانوا سعداء للغاية لأن يوقعوا على الصلح دون أن يفقدوا شيئاً ، وكانوا مصممين على أن يحتفظوا بعد ذلك بموقف الحياد — وهو الأمر الذى سمح لهم فى وقت بدء حرب كنديا بأخذ موقف الوسطاء بين الطرفين المتحاربين، والمستعدين لفتح مفاوضات السلام. وكانوا دائما يسرعون إلى مراضاة العثمانيين ، ولم يكونوا قد قاموا بما قد يعطى ذريعة لصدام مسلح . ولكن قراصنة جماعة

فرسان مالطة هم الذين جروهم إليها ، ورغماً عنهم . فني شهر سبتمبر عام ١٦٤٤ جاء أسطول عثمانى من الاسكندرية ، يحمل حمولة من سبائك الذهب ، وقامت سفن مالطة بمهاجمته ونهبه فى مياه رودس . وكانت الحركة الأولى فى إستانبول، هى إعداد حملة تأديب ضد مالطة . وبعد تفكير ، ظهر أن المخاطر كانت ضخمة ، وبشكل جعل وجهات نظر أخرى هى التى تسود . فإستنادا إلى أن سفن مالطة كانت ، بعد العملية ، قد وصلت إلى أحد موانى جزيرة كريت ، وتاجرت هناك فيما كانت قد نهبته ، أصبح الهدف الجديد الذى أعطوه للحملة هو جزيرة كريت ولم ينتظر العثمانيون حتى أن يقوم البنادقة بالرد على طلب التفسيرات الذى قدموه لهم . ونشر الأسطول أشرعته فى شهر يونيو ١٦٤٥ ،وتمت عملية الإنزال بطريق المفاجأة ، فى غرب الجزيرة ، قرب كانيه . ولم يصدر إعلان الحرب ضد البندقية إلا بعد بضعة أسابيع ، وبعد أن كانت القوات العثمانية قد إستولت على عاصمة المدينة ، بينما كان السفير قد ألقى به ، وكما هى العادة ، فى السجن .

أما البنادقة ، الذين فوجئوا تماماً بهذه العملية ، والتى لم يتنبؤا بها مسبقاً أى شىء ، فإنهم لم يتمكنوا من القيام بأى عمل من أجل الدفاع عن الجزيرة ولكنهم سرعان ما ظهر تصميم فأجابوا ، إستنادا إلى قوتهم البحرية ، على الخصم ، بالذهاب بدورهم إليه ، وأنزلوا به بعض الضربات ، فى المناطق التى كان يسهل عليهم أن ينالوا منه فيها . فنى دلماشيا ، بنوع خاص ، تمكنوا من الحصول على بعض الإنتصارات ، وبمعونة الأهالى السلاف . وكانت المرحلة الأكثر أهمية للحملات التى قاموا بها ، خلال سنوات ، هى فى عام ١٦٤٨ ، وتتمثل فى تحرير كليسا ، والتى كانت عاصمة الحكم العثمانى فى البوسنة . أما على البحر ، فانهم بدأوا بالاستيلاء على مدينة باتراس ، فى المورة . ثم قاموا ، إبتداء من عام

١٦٤٦ ، بمحاصرة الدردنيل ، وعلى الأقل فى الفصول المناسبة من السنة ، ومنعوا إرسال المعونات والنجدات والإمدادات صوب كريت. وفى عام ١٦٤٨، مرت الكثير من سفنهم الحربية فى المضايق ، وتقدمت فى بحر مرمرة ، حتى وصلت إلى مرأى من إستانبول .

ولا شك فى أن كل هذه لم تكن سوى عمليات جانبية . أما المصلحة الرئيسية فى تلك الحرب فقد ظلت مركزة حول حصار كنديا . وكانت قد تمت بقوات غير كافية ، ولكن بعزيمة وتصميم لا يمل ، إلا من وقت لآخر ، وإستمرت طوال فترة عشرين عاماً (١٦٤٩ — ١٦٦٩) . ولا تمثل تفصيلاتها أية أهمية خاصة . ولكن أصداءها فى الخارج عملت على إيقاظ الرغبة فى التدخل ، والذى قررته الدول فى آخر الأمر ، وهو ما يستحق أن نتوقف عنده .

وكان البنادقة قد أرسلوا ، منذ بداية الحرب ، نداءا إلى العالم المسيحى . وأعلن البابا إستعداده لكى يعمل من أجل إنشاء « عصبة مقدسة » ، تشبه تلك التى كانت قد أدت ، فى عام ١٥٧١ ، إلى معركة ليبانتو . ولكن الدول كانت ، فى هذه الفترة ، منقسمة ضد بعضها وبدرجة لا تسمح بالتفكير فى إمكانية القيام بعمل جماعى له قوته . ومع ذلك ، فلقد تم ، فى عام ١٦٤٦ ، تسليح أسطول صغير ، وبنفقات مشتركة من الكرسى البابوى ، وجماعة مالطة ، وغراندوق توسكانيا . ثم تحركت الدول العظمى : ففى العام التالى ، قامت فرنسا وإسبانيا ، رغم كونهما فى حرب الواحدة ضد الأخرى ، بدورهما بإرسال بعض الوحدات . وكان مزران يتهم بعدم إغضاب العثمانيين ، فقام بتجهيز السفن خارج فرنسا ، فى توسكانيا وفى هولندا ، وذهبت إلى البندقية تحت حماية علم القديس مرقس . وكانت عملية لإظهار حسن النيات ، وستظل بدون نتائج ، ولن تتكرر قبل مضى

وقت طويل . ولقد إستمر البنادقة يدافعون عن أنفسهم ، وحدهم . ولمدة تقرب من عشر سنوات .

وسيصبح عملهم أكثر صعوبة ، نتيجة لزيادة قدرة العثمانيين تحت سلطان جديد ، هو محمد الرابع (١٦٤٨ — ١٦٨٧) الذى ستعاونه مجموعة من رؤساء الوزراء من أسرة كيبرولو . وظهر تصميم حكومة إستانبول ، منذ ذلك الوقت ، على تحقيق النصر . فكان القادة الذين يهزمون ، يحكم عليهم بالإعدام ؛ أما ثورات الإنكشارية فانهم كانوا يقضون عليها ، بإغراقها فى الدماء . وفى عام ١٦٦٧ ، تقابلت القوات البحرية العثمانية مع القوات البحرية للبنادقة ، وإنتهت الموقعة فى صالح العثمانيين . أما الجزر التى كان البنادقة قد إحتلوها فى أثناء الحملات السابقة ، وهى تينيدوس ، وليمنوس ، وساموتراس ، فإن العثمانيين إستعادوها . ومع ذلك فإن البندقية قد رفضت ، فى هذا العام عرضاً بالصلح ، كان سيترك لها جزيرة كريت ، فيما عدا مدينة كنديا .

وعلينا أن نوقف هنا تاريخ مصير البحر المتوسط ، والدول المطلة عليه فى القرن السابع عشر . ولاشك فى أنه ليس هنا ما يفرض مثل هذا القطع . فلا يوجد هنا شيئاً مماثلا للسلام العام الذى أعطته معاهدة أوليفا للدول المطلة على بحر البلطيق . وليس هناك ، فى تاريخ الدول المطلة على البحر المتوسط ما يعادل فى أهميته ، من وجهة النظر الدولية ، إعادة حكم أسرة إستيوارت إلى إنجلترا . وأخيرا ، فإن معاهدة البرانس ، إذا ما كانت قد عملت على نشر السلم فى الغرب ، لم تكن تهم ، بطريق مباشر ، إلا جزءا بسيطا من الدول المطلة على البحر المتوسط . ولكننا نسير مع النطاق الزمنى ، وحتى تجعل هذا الفصل يأخذ مكانه ، فى

النطاق التاريخى ؛ مع بقية الفصول ، سنعود فيما بعد إلى نهـــاية حرب كنديا . وهى تحدث مع بداية الحكم الشخصى للملك لوى الرابع عشر ، وهناك فائدة من ربط روايتها بدراسة عصر هذا الملك الكبير ؛ وهو الذى سيبدأ به دراسة الجزء الثانى من هذا الكتاب ، والذى يحمل إسم « العالم الحديث ؛ حتى عصر الثورة الفرنسية » .

القسم الثاني

من لوي الرابع عشر الى عام ١٧٨٩

الباب الرابع

القرن السابع عشر

(بعد عام ١٦٦٠)

(عصر لوى الرابع عشر)

الفصل السابع عشر

فرنسا فى عصر لوى الرابع عشر

الملك ، وأهداف ووسائل سياسته الخارجية

لعبت شخصية لوى الرابع عشر دوراً هاماً فى تاريخ عصره ، وأثرت بشكل واضح فى مستقبل فرنسا ، وبالتالى فى مستقبل أوربا ، حتى أننا نجـد أنفسنا مضطرين إلى أن نفرد لها مكاناً لائقاً فى هذا الكتاب ، حتى وإن كنا نراها،ومع البعد التاريخى ، على أنها غير هامة . وكلمة غير هامة هى تعبير سان سيمون فى « التوازى بين الثلاث ملوك البوربون الأخيرين » . وأضاف إلى ذلك فى أثناء كتابته « لمذكراته » : « شخصية فوق العادية » ، وربما كان ذلك فى موجه من الحماس الخطابى . ولنوافق على أن « فوق العادية » كان فيها تجاوزاً ، وأن « غير الهامة » هى التى تبقى . فليس فى وسع دراسة السياسة الخارجية أن تجعلنا نقف ، وبدون أساس ، ضد هذا التقييم لأحد المعاصرين الشهيرين .

١ – السياسة الشخصية :

علينا أن نتساءل أولا عما إذا لم يكن هناك ، فى تفكير لوى الرابع عشر ، شيئا يشبه ما نسميه الآن ببرنامج السياسة الخارجية . ونحن نعرف ، عن الفترة السابقة، وعن طريق « مذكرة للملك فى عام ١٦٢٩ » ، ما كان ريشيليو يرغب فيه ، وهى المشروعات التى كان يرغب فى أن ينفذها بشكل أساسى فى الخارج . ولـكن لوى الرابع عشر لم يترك أية وثيقة من هذا النوع ، أو أية وصية موقعة، فى هذا الميدان لخلفائه . وعلينا أن نلاحظ أنه كان يحتفظ بحرية كاملة فى أخذ القرارات ، وفى تنفيذها وكان صولجان الحكم والسيطرة الإسبانية قد أخذ فى الإهتزاز. أما ملوك

هابسبورج فى فينا ، وهم كبار الخصوم السابقين ، والذين مزموا فى حرب الثلاثين عاما ، فإنهم ظهروا أقل خطراً حتى من أبناء أعمامهم فى مدريد . ولذلك فان الإمكانيات المختلفة تفتحت بهذا الشكل أمامه. وليس هناك مايسمح لنا بأن نفترض أنه قد تردد طويلا قبل أن يأخذ القرار ، أو أنه فكر فى أشياء كثيرة ممكنة ،وأخذ وقتا فى تقدير ووزن فرصه . وكان الصراع ضد إسبانيا فى الأراضى المنخفضة قد أصبح أحد تقاليد السياسة الفرنسية : وكان مزران قد ورثه من ريشيليو،وورثه ريشيليو من هنرى الرابع . ولا يبدو أن لوى الرابع عشر قد فكر لحظة واحدة فى أنه يمكنه التنازل عن هذا الإرث ، رغم زواجه الإسبانى .

ومن ناحية أخرى ، لا يمكننا أن نؤكد أن لوى الرابع عشر ، وبصفته تلميذاً مخلصا لمزران ، قد فكر منذ اللحظة الأولى فى أن يمنح نفسه فى يوم من الأيام ميراث أخو زوجته الصغير ،والذى ولد فى عام ١٦٦١، والذى كان الوارث الذكر الوحيد لفيليب الرابع ، وبالتالى وريثه وخليفته المعلن. وإن الفكرة التى إنتشرت فى وقتنا ، عن أن مسألة الوراثة الإسبانية كانت تمثل ، فى الخارج ، الهدف الأساسى للحكم وهو تعبير مينيه Mignet — لا يمكنها أن تثبت على المحك . وحتى لا نتوقف كثيراً عند هذه النقطة ، علينا ألا ننسى أحد المشروعات الكبرى فى عصره ، والتى لها دلالات كثيرة ، وهى الحرب التى إمتدت من عام ١٦٧٢ إلى عام ١٦٧٨ ضد الهولنديين ، الحلفاء التقليديين ، والحلفاء الطبيعيين للفرنسيين ، ضد المنافس الإسبانى .

ولذلك ، فانه لم يكن هناك نظاما متكاملا ،بل كانت هناك رغبة عامة للسيطرة لا تعرف حدود ، وعزيمة قوية لفرض النفس على كل الجيران ، وعلى كل أولئك الذين كانت رغبتهم فى الاستقلال ، السياسى أو الإقتصادى ، تمس غرور الملك . ولقد ذكر أحد مؤرخى دبلوماسية لوى الرابع عشر أنه لم يكن ذلك الرجل الذى

كانت له أهداف كبيرة : « فكان يتصرف حسب الضرورة ، وفى بعض الحالات باندفاع » . ويتمثل مبدأ الوحدة فى سياسته — إذ أنه يمكننا كذلك أن نكشف عن هذه السياسة — فى الحالة النفسية لهذا الملك ، وعلينا أن نبحث عنها فى هذا النطاق . وتعتبر « المذكرات من أجل تعليم الدوفان Dauphin » ، والتى أشرف على كتابتها عن قرب ، كبيرة الأهمية لنا فى هذا المجال . وهى تعبر بوضوح تام عن تلك المسألة التى تهمنا . وبخاصة فيما يتعلق بأحداث ١٦٦٧ —١٦٦٨ . وكان الهدف الأول للوى الرابع عشر — ويمكننا أن نقول هدفه المستمر — فى مشروعاته الخارجية ، هو الحصول على « المجد » . وكان البحث عن « المجد » يمثل نوعا من « القوة المحركة » لحكمه . ولقد أعلن لوى الرابع عشر ذلك فى أكثر من مناسبة . فكتب مثلا ، بعد بضع سنوات ، إلى أعضاء « الأكاديمية الصغيرة » ، والتى كان كولبير Colbert قد أنشأها : « يمكنكم ، أيها السادة ، أن تفهموا تقديرى لكم ، ما دمت أعهد إليكم بما هو أثمن مالدى فى العالم ، وهو مجدى » . ومن ناحية أخرى لم تكن لهذه الكلمة تلك القيمة التى تشبه تماما ، وبالتأكيد ، نفس المعنى الموجود لها فى وقتنا . بل أنها أخذت مكان كلمة « السمعة » réputation ، التى كانت كثيرة الإستخدام فى أثناء القرن السادس عشر ، والتى نجدها فى بعض الحالات كذلك مكتوبة بريشة لوى الرابع عشر .

وإن « القيام بأعمال مميزة » ، تستحق « الإعجاب العام » ، وغيرها من التعبيرات الموجودة فى « المذكرات » ، والتى تتفوق على غيرها ، ليست لها ، فى الحقيقة ، أى معنى آخر . وإذا كان لوى الرابع عشر قد أشار ، عام ١٦٦٧ ، إلى ذلك الضغط الذى كان النبلاء يمارسونه عليه ، وذلك فى نفس الوقت الذى ضاق فيه صبره إلى فرص يعمل فيها ، ويظهر فيها ، وفى نفس الوقت الذى قام به بممارسة الرياضة كل الوقت ، فان ذلك لم يكن يعنى بالتأكيد أنه كان يبحث عن مبرر لميوله إلى الحرب ،

ولكن بمجرد أن يظهر نفسه فى شكل ملك حريص على رغبات رعاياه . وليس أكثر من ذلك دلالة تلك الإشارات التى إستخدمت بالنسبة لأحوال أوروبا والعالم؛ ولذلك فان إتجاهات الملك هى التى تسمح بشرح سياسته الخارجية وبنوع خاص رغبته غير المحدودة فى الحرب ؛ وهو الأمر الذى إتهم به بنفسه بعد ذلك وحين أصبح على فراش الموت . وبالنسبة للملك كان يرغب فى أن يكون «عظيماء» كانت الحرب هى أولى ما يطرق على البال ، كوسيلة لقتل الوقت ؛ وكانت فى نفس الوقت أكثر الأمور حباً لنفسه : وكانت هذه هى الحالة النفسية الدائمة لوى الرابع عشر ، أو على الأقل فى أيام شبابه ، وأيام نضجه وإذاً ، كانت الحرب مستمرة على جدول الأعمال ، - وعلينا ألا نصر على حالة تفكير قد تكون غريبة علينا - أى أنها كانت العمل الأساسى بالنسبة للملك فى الخارج - ونكاد نقول أن هذا العمل كان يتمثل فى اساسه العميق - فى تلك الفترة ، فى أن يقوم بالحرب . ولم يكن الملوك يقومون بالحرب من أجل ضمان السلام، ولكن من أجل الغزو ، ومن أجل زيادة رقعة الأراضى . ولذلك فان لوى الرابع عشر لم يكن مختلفاً فى أساسه عن غيره من الملوك الموجودين فى عصره . وحين أشار فى « مذكراته » لذلك الإختيار الذى طرح نفسه عليه فى عام ١٦٦٦، بين حربين الأولى ضد إنجلترا ، والثانية ضد الأقاليم المتحدة ، كتب بكل بساطة معروفة : « إنى أرى ، وبكل سرور ، إمكانية هاتين الحربين . . . » وكان له من العمر فى ذلك الوقت ثمانية وعشرين عاماً . ويبدو أن طريقة تفكيره ، فى هذه الحالة ، قد ظلت هى نفسها حتى وقت الأزمات العظمى التى حدثت عند نهاية حكمه .

وعلينا أن نضيف إلى ذلك أن الحرب التى كان يفكر فيها كان من الواجب أن تكون حربا « عادلة » . وكانت رسالة أخلاقية ، عبر عنها الجميع منذ قرون ، وعلى الرغم من رجال العقيدة ، ومؤسسى علم القانون العام .

وعلينا أن نكون عادلين مع لوى الرابع عشر ، ونقول أنه كان يرغب فى أن يظل مخلصاً لذلك . ولن يتراجع أبداً بالنسبة للتفكير فى تنفيذ أية معاهدة . وكان يهتم كثيراً فى أن يعطى على الأقل مظهراً خارجيا ، فى كل الظروف ، على أن الحق فى جانبه . وكان فى وسعه أن يكتب ، فى أحد الأيام ، وفى أثناء الجزء الأخير من حكمه ، ومع إلقائه نظرة مطمئنة على الماضى : « إن كل العالم يعتقد تماما بدقة الإيمان التى أحافظ بها على كلمتى » . ولذلك فإنه لا يقبل الدخول فى أية حرب . وأعلن فى عام ١٦٦٧ . وفى « موضوع حقوق الملكة ، والتى كانت الهدف شرح وتبرير تدخله المقبل فى الأراضى المنخفضة ، أنه « يفضل أن يخسر ويفقد لقب الملك ، على أن يفقد لقب العادل » . ويمكننا أن نعترض على ذلك بأنه كان يقنع بالقليل . من أجل حماية ضميره : خاصة وأن « الحرب العادلة » كانت لها مرونة واضحة . ومع ذلك ، فانه كان دائم الحرص على عدم التشبث بمبدأ قد يظهر ، مع إعتماده على رؤساء الكنيسة ، على أنه يرغب فى إعطائه صفة القدسية.

ولقد إتهمه بعض معاصريه ، وبخاصة فى ألمانيا ، بأنه كان يرغب فى أن يطمح إلى ملك العالم . ولكنها كانت تهمة بدون أساس ، ومثلها فى ذلك مثل تلك التى وضعها المعاصرون ، بدلا منها ، والتى تتهمه بالإمبريالية . حقيقة أنه لا يمكننا أن ننفى أن سياسة لوى الرابع عشر كانت مليئة بالطموحات الإمبريالية . ولكن هذا التعجيز فريد فى نوعه . هذا علاوة على أن هذه التهمة ، وفى شكلها المحدد ، لا يمكنها أن تمتد إلى أية موضوع حقيقى ، خرج من ريشه أو من كلمات ذلك الملك العظيم . ولسوف نكون أكثر إتجاما ، بلا شك ، إلى أن ينسب إلى لوى الرابع عشر ، ذلك الميل — والذى كان أليفا لأسلافه المباشرين — فى أن يصبح ، وبثقل قوة فائقة ، هو الحكم فى شئون أوربا : الأمر الذى يمكننا من أن نشرح به تلك السمعة ، والتى أظهر رغبته القصوى فى أن يسير عليها ، كأمير خاضع

لمعنى العدالة . وعلينا أن نذكر أن الوثائق والنصوص غير موجودة كذلك لإثبات عكس ذلك .

وعلينا ألا نتوقف كثيراً عند شخصيات الرجال الذين أداروا ، على التوالى ، أمور وزارة الخارجية ، بريين Brienne وهيج دى ليون Hugues de Lionne وبومبون Pomponne ، وكولبير دى كرواسى Colbelr de Croissy ، وأخيراً ، إبن هذا الأخير ، ماركيز دى تورسى Torcy . ولن بذكرهم ، الواحد والآخر ، إلا بشكل عابر . فلم يكونوا أكثر من منفذين . وهذا لا يعنى أن لوى الرابع عشر لم يقم فى هذه الأمور بإتباع رأيه وحده . بل كان يخضع ، وبدرجة قوية ، كما سوف نذكر ، لسيطرة إثنين من هؤلاء الرجال ، كولبير ولوفوا Louvois ، اللذين يجب أن نعتبرهما على أنهما الموجهان للسياسة الخارجية ، فى خلال الجزء الأول من حكمه . ولكنهما لم يشغلا ، الواحد والآخر ، تلك الوظيفة الوزارية التى كانت ستعطيهما ، وبشكل مباشر ، السيطرة على مندوبى الملك فى الخارج ، وعلى السفراء ، وعلى المكلفين بمهمات .

٢ ــ الدبلوماسية ، واستخدام الاموال فى انجلترا وفى ألمانيا :

قبل الفترة المعاصرة ــ وهى فترة التلغراف ــ كانت السياسة الخارجية للدول تدار بواسطة الممثلين الدبلوماسيين الموجودين فى مراكزهم ، بنفس القوة إن لم يكن أكثر من إدارتها بواسطة الملك ووزيرة المسئول . وكانت مزاياهم ونقائصهم تؤثر فى نجاح المفاوضات التى كانت تدور فى العواصم البعيدة ، وحيث كانت عزلتهم كاملة ، وكانت حرية تصرفاتهم عملياً بدون حدود ، وعلى الأقل فى خلال تلك الفترة الزمنية التى تقع بين وصول المراسلات وكان لوى الرابع عشر قد تأثر لفترة طويلة بذكريات الفروند ، وكان يحس بخوف كاد أن يصبح شبه غريزى ، من كبار السادة . ولذلك فإنه لم يكن يوافق من نفسه على أن يمنحهم الوظائف ذات

الفاعلية . ومن أجل حبه للعظمة ، وحرصه على المظاهر ، وافق على أن يستعين بهم فقط ، ويعينهم فى السفارات الرسمية ، وهى تلك السفارات التى كانت تهدف بنوع خاص إشعار البلاد البعيدة بعظمة ذلك الأمير ، وعظمة دولته . أما فى الشئون العادية، فإنه كان يثق بدرجة أكبر فى رجال من نبلاء الرداء ورجال كانوا قد حصلوا فى وظائف أخرى على التمرس على الخدمة. وكذلك فانه كان يرسل إلى الملوك الكاثوليك بعض رجال الكنيسة ، من أساقفة ، أو كرادلة . ولذلك فانهم كانوا ، فى مجموعهم ، موظفين متباينين ، وبعضهم لم يكن متوقعاً، كما أن قيمتهم كانت متفاوته ، حتى أنه ظهرت عند بعضهم ، وفى بعض الظروف ، أفكاراً غير معقولة .

أما الخارج ، فانه كان يرسل إلى باريس ، أو إلى فرساى ، شخصيات من الدرجة الأولى . وفى كل من الإتجاهين ، كان عدد السفراء الفعليين محدوداً : ففى بداية حكمه ، كان الملك لا يتبادلهم إلا مع إسبانيا ، وإنجلترا ، والبندقية ، والأقاليم المتحدة ، وسافوا ، وأخيراً مع روما . وكان الكرسى البابوى ممثلا ، وبشكل دائم ، بواسطة « مندوب » monce . وفى غالب الأحيان لم يكن لقب الممثل الأجنبى سوى « وزير مقيم » ، أو « مقيم » . أما إذا كان الأمر يتعلق بمجرد بعثات مؤقتة ، فانهم كانوا يسمون « مبعوثين » ، وبكل بساطة . وكانت هذه هى مثلا حالة أولئك الذين كانوا يحضرون من أجل التفاوض باسم الأمراء الإيطاليين ، والأمراء الألمان ، أو المدن الحرة فى ألمانيا . ولم تكن المراسم هى نفسها ، بطبيعة الحال ، بالنسبة للمستويات المتباينة للمندوبين . فكانت هناك مراسم معينة بالنسبة لأولئك الذين كانوا يمثلون الرؤوس المتوجة . وسمح لمبعوثى دوق سافوا بالإفادة من نفس هذه المراسم ، بمنحة خاصة فى عام ١٦٩٦ . وتم إعطاء نفس المنحة ، وقت معاهدة أوترخت ، لمطالب الهولنديين . ولم يكن الملك

يستشار، كما هو الحال الان ، فيما يتعلق باختيار الشخصيات التي سوف تحتل منصب السفير ، أو المقيم ، في عاصمته . ولا نجد هذا التقليد في هذه الفترة إلا فيما يتعلق بالعلاقات مع روما : فكانت الحكومة البابوية تضمن مقدماً حسن إستقبال «الممثل» أو «المندوب» . وكان الأمر ، من الناحية الأخرى ، يتم بنفس الطريقة مع فينا ، وكذلك في نفس الوقت مع باريس .

ومهما بدا لنا دور الدبلوماسيين هاما ، فلم يكن في كل الأوقات هو الدور الرئيسي . ولقد إعتمدت حكومة لوي الرابع عشر ، وبدرجة أكبر ، على تأثير إستخدام الذهب أكثر من إعتمادها على مواهب ممثليها في الخارج . ونجحت عمليات الرشوة في حالات كثيرة كانت مجهودات الإغراء ، بمساعدة الكلمات المنمقة أو الوعود ، قد فشلت فيها . ونحن لا نعرف كل شيء عن هذه التجاوزات الفرنسية تجاه الأمراء ، والوزراء ، وسفراء الدول المسيحية المختلفة طوال فترة حكمه . ولكن لدينا في نفس الوقت فكرة كافية عن أهميتها ، وبخاصة في ألمانيا ، وبشكل يسمح لنا بتحديد المكانة التي كانت تحتلها في نطاق الدبلوماسية . ويبدو أن الذهب الفرنسي قد لعب في هذه الفترة دوراً مماثلا لذلك الذي سوف يقوم به الذهب الإنجليزي في أثناء القرن الثامن عشر . وفي كل البلاد ، أصبح ملك فرنسا معروفا بأنه يكافىء ، وبسخاء ، على تلك الخدمات التي تقدم له . ولذلك فانه كان يجد ، وبسهولة ، الرغبة والاستعداد ، الذي كان في حاجة إليها . وفي لندن ، لم يكن يدعم فقط الحاجات الشخصية للملك إستيوارت : بل إن سخاءه قد ظهر كذلك تجاه عدد من أعضاء البرلمان ، من ذوي النفوذ .

أما ألمانيا ، وهي بلاد الأمراء ذات الموارد المحدودة بواسطة مجالس الدول ، فانها لم تكن الأخيرة في أن تمد أيديها صوب هذا العطاء المنهمر . وكانت من ناحية أخرى قد تعودت ، ومن فترة طويلة ، عليه ، وقبل فترة حكمه الشخصي .

وفى وقت الانتخابات الامبراطورية فى عام ١٦٥٨،قام كل من منتخب براندبرج الكبير ، ورؤساء الأساقفة المنتخبون عن تريف ، وكولونيا ، والبلاتينات ، ببيع أصواتهم . أما منتخب ساكس،فانه باع تحالفه إلى لوىالرابع عشر بمعاهدة عام ١٦٦٤ ، والتى كان عليها أن تجدد فى عام ١٦٨٠ . أما منتخب البلاتينات ، والذى كان قد دخل منذ وقت بعيد فى نطاق الزبائن الفرنسيين ، فانه قد إستمر فى الظهور فى ميزانية المملكة ، مثله فى ذلك مثل رئيس الأساقفة المنتخب عن كولونيا، وأسقف مونستر ، واللذين كانت علاقاتهما مشدودة،بشكل شبه مستمر، مع جيرانهم الهولنديين . وأخيراً ، وبنوع خاص ، فان ممثل الملك فى راتيسبون Ratisbonne ، وحيث كان دايت الامبراطورية يجتمع فى هذه الفترة بشكل دائم ، قد قام بعمل اللازم من أجل الاحتفاظ بحسن ود أكبر الأمراء نفوذاً .

وإبتداء من عام ١٦٨٠ أصبح ملك الدانمرك يستلم بدوره نصيبه من الأموال السرية التى كانت تحت تصرف وزير الدولة للشئون الخارجية . وهناك حالة تظهر لنا مشابهة لذلك ، فى عام ١٦٨٢،مع منتخب براندبرج ، والبلاتينات،ورؤساء أساقفة ماينس وكولونيا ، واساقفة مونستر واستراسبورج ، ودوق مانتوا ، ودوق سافوا ، وملك إنجلترا . وهذه على وجه الترجيح هى الفترة التى انفق فيها لوى الرابع عشر أقصى إنفاق ، من أجل دعم أصدقائه فى الخارج وبعد عام ١٦٨٨ ، وبعد طرد أسرة إستيوارت من إنجلترا ، أخذت المانيا كلها تقريباموقفا ضد فرنسا ، وكانت الأموال المتاحة قد قلت فى اهميتها كثيرا . وعلى أية حال فانهذه الرشاوى قد سمحت للملك بأن يضمن ولاء وصداقة الكثيرين خلالفترة من الوقت . ولن يتمكن ، مع مرور الوقت ، من أن يحتفظ بتحالف أولئكالذين كانت مشاعرهم القومية، أو مشاعرهم الدينية ، وغالبا ما كان الواحدة تغطى الثانية لا تمنعهم من ان يأخذوا موقفا ضده ، فى نطاق رابطة اوجسبرج ، والتى كانت

هى الخطوة الأولى صوب ذلك التكتل العام ، الذى سوف يتسبب ، بعد إثنى عشر عاما ، فى حرب الوراثة الاسبانية .

٣ ـ وسائل القوة : الجيش والبحرية :

وكانت الوسيلة المثلى لسياسة لوى الرابع عشر — وهى سياسة قوة ، وسياسة هيبة وعظمة ، إذا ما اردنا تسميتها — هى الجيش . ونميل إلى القول بأنها كانت بطبيعة الحال ، هى الجيش . إذ ان فرنسا لم تظهر ذلك الاستعداد البحرى الذى سيبنى عظمة جيرانها فيما وراء بحر المانش . فرغم عدد رجالها البحريين ، ورغم نشاطهم ، والذى إستمر فى إظهار الكثير من العمليات البعيدة ، فانها لم تحصل بشكل دائم إلا على اهمية تخضع للسيطرة على البحار ، وبالتالى المحافظة على قوات بحرية قوية . وكان هناك ما يشبه الاستمرارية فى تاريخها . فمنذ نصف قرن قبل ذلك ، فى عام ١٦١٥ ، ذكر انطوان دى مونشرستان Antoine de Montchrestien فى مذكرة عن « الاقتصاد السياسى » ، وجهها مخاطبا بها ولى العهد لوى الثالث عشر ، وفى كلمات كان عليها ان تصل إلى قلب لوى الرابع عشر مباشرة : « امامكم يامولاى ، طريقان مفتوحان للحصول على المجد ، الأول يوصلكم مباشرة ضد الاتراك والمفسدين . . . والثانى ينفتح واسعا امام الأهالى الذين تسمحون بارسالهم إلى العالم الجديد ، بحيث يمكنكم ان تقيموا وان ترعوا فرنسات جديدة » ولم يستمع احد لهذه النصيحة . وايضا نجد ان ريشيليو Richelieu ، والذى كان من بواتييه ، وولد فى وسط يهتم بالشئون البحرية ، قد بذل مجهودات ، وحصل على بعض النتائج — ملموسة وان لم تعش لفترة طويلة — فى شئون الاستعمار والتجارة مع المناطق البعيدة . اما فيما يتعلق بلوى الرابع عشر ؛ فانه كان « بريا » بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانى . فلم يشاهد ابداً ، وهو يظهر إهتماما حقيقيا بشئون البحر . كما انه لم يذهب لاستعراض سفنه الحربية ، كما كان يفعل مع

وحدات جيشه . وذهب فى عام ١٦٨٠ ، وعن طريق الصدفة ، إلى أحد الموانى الرئيسية فى المملكة ، إلى دنكرك . ولم يكن هدف الزيارة هو الإتصال بحريته وبحارته ، ولكن لكى يشاهد الإستحكامات الجديدة التى كان فوبان Vauban قد أتمها . ومع ذلك ، فإنه حين وجد نفسه أمام إحدى البوارج ، أبدى سروره لزيارتها . ويبدو أنها كانت المرة الوحيدة فى حياته التى شاهد فيها إحدى الحربية عن قرب .

وعلى العكس من ذلك ، نجد أن الجيش كان موضوع كل إهتماماته ، وكانت الحرب التى كان يحلم بها باستمرار هى الحرب التى تدور معاركها على البر . ولقد أظهر إهتماما خاصاً بعمليات الهجوم، والدفاع عن المدن ، وهى العمليات الوحيدة التى سوف يشارك فيها شخصياً. ومع ذلك فانه كان يزور ، وهو فى عفته المحمولة خنادق الجنود ، ومواقع بطاريات المدفعية .

وفى خلال عشرين سنة ، ومنذ وقت حرب « التنازل » حتى حرب رابطة أوجسبرج، تضاعف أعداد قوات الجيش أربع مرات،ووصلت إلى حدها الأقصى مع ما يقرب من ٢٨٠٫٠٠٠ رجل تقريباً . وذلك دون ذكر الميليشيا الإقليمية ، والتى أنشئت فى عام ١٦٨٨ ، من أجل مواجهة أية صعوبات غير متوقعة . وكما كان عليه الحال فى الماضى ، كان هذا الجيش يضم رجالا من جنسيات مختلفة . وكان عدد العناصر الأجنبية فيه يقل بالكاد عن عددهم فى زمن ريشيليو ومزاران . فهناك ، أولا ، السويسريون . وتمكنوا ، مع الوقت، من أن يخلقوا لنفسهم مكانا خاصاً : فكانوا لا يخضعون إلى لقائدهم ، الكولونيل جنرال ، كما أن أحكام مجالسهم العسكرية كان يستحيل على المحاكم الفرنسية نقضها . أما الألمان ، والذين كانت أعدادهم كبيرة قبل عام ١٦٤٨ ، نتيجة لأنهم كانوا يجندون بنوع خاص فى الألزاس ، فقد أصبحوا أقلية صغيرة ، منذ أن تم فى عام ١٦٥٣ إنشاء « لواء

الألزاس ، — كوحدة فرنسية عسكرية : وكانوا يأتون من الأجزاء المختلفة للامبراطورية المقدسة ، وكذلك أيضا من مورافيا ، وكورلاند ، وحتى من الدانمرك ومن هولندا . وعند منتصف حكم لوى الرابع عشر، تكون لواء أيرلندى من أنصار جاك الثانى (جيمس الثانى) ، الذين إصطحبوه إلى منفاه . وفى نفس الفترة ، بدأ الفرسان المجريون يلعبون دوراً هاماً، وذلك بإسم « الهوسار ».وكان ريشيليو ، قبل ذلك ، قد إستقدم منهم عدداً هاما . وبعد عام ١٦٩٠ ، تم تشكيل لواء ، وإن لم يعش سوى بضع سنوات ، من الجنـــود الفارين من الجيش الإمبراطورى . ونشأت وحدتان أخرتان ، فى عام ١٧٠٦،وعاشتا لوقت أطول ، وحتى أواسط القرن الثامن عشر ؛ وكانتا تضمان الكروات والمجريين . وعلينا أن نفرد مكانا خاصا للسويديين ، نتيجة لأهمية عددهم . فمنذ عام ١٦٤٨ ، ومنذ أن إنتهت حرب ألمانيا ، كانوا يحضرون للتطوع للخدمة فى فرنسا ، ودون حاجة للذهاب إليهم وإحضارهم . وكان الآلاى الذى سيصبح فى أثناء القرن الثامن عشر أول « آلاى السويديين الملكى » ، قد أنشىء فى عام ١٦٦٧ ، وبطلب من تورين Turenne ، بواسطة أوتو ولهلم فون كونجسمارك Von Konigsmark . ولقد زادت اعداد السويديين ، مثل أعداد المجريين ، بعد عام ١٦٩٠ . وأصبح أحد رؤسائهم ، وهو الماركيز كونراد دى روزن de Rosen ، وأصله من ليفونيا، ماريشال المعسكر فى عام ١٦٧٧ ، ثم تحول إلى الكاثوليكية، وأصبح بعدها مفتشا عاما للجيوش الملكية .

٤ — الخوف من طموحات السيطرة ، ونمو روح التكتل فى الخارج :

ويعتبر التاريخ الخارجى لفرنسا ، فى عصر لوى الرابع عشر ، وفى أساسه ، تاريخ سلسلة من الحروب . وتعتبر سنوات السلم فيه سنوات إستثنائية . وكانت أولى هذه الحروب ، وأقصرها ، هى الحرب الموجهة ضد العدو التقليدى لفرنسا،

أى ضد إسبانيا : وكانت أسبابها ودوافعها تتمثل فى الأمل فى إصلاح النقط الضعيفة الموجودة فى معاهدة البرانس . أما الحروب التالية ، والتى كانت أطول مدى ، فإنها جمعت ضد الدولة ، والتى ظهرت طموحاتها شيئا فشيئا على أنها بلا حدود ، كل تلك الدول ، الكبيرة والصغيرة ، التى شعرت بأنها مهددة ، بطريق مباشر ، أو بعد وقت معين . ولذلك فان علينا أن نجمع ، حول هذه الحروب المختلفة ، كل ما يمكننا أن نقوله عن العلاقات بين الأمم الاوروبية — وعلى الأقل الأمم الغربية — وطوال عهد لوى الرابع عشر .

وفى الصفحات السابقة ، حاولنا أن نظهر الصفحات العامة للسياسة التى سارت عليها فرنسا لوى الرابع عشر ، وأن نشرحها ، مرجعين ذلك إلى روح العصر — وهو عصر بعيد تماما عن عصرنا ، رغم أننا لا زلنا نتذوق مسرحيات موليير Molière ومآسى راسين Racine . ولنفس السبب حاولنا أن نفهم طريقة تفكير الملك وأن نعطيه حقه . ولن نعود إلى ذلك وحينما نجد أن علينا أن نصدر حكما على أى مشروع من مشروعاته ، فلن تكون لهذا الأمر علاقة بالنيات التى ترتبط به ، ولكنه سيكون فى ضوء الأحداث ذاتها ، والنتائج — والتى كانت فى غالب الأحيان غير متوقعة — التى نتجت عنها .

وكانت هذه التكتلات ، التى كان على فرنسا أن تواجهها ، تجمع بين دول كثيرة الإختلاف عن بعضها ، ليس فقط فيما يتعلق بطاقتها الإقتصادية والعسكرية ، بل وأيضا فيما يتعلق بدوافعها ، وخلفياتها ، ونظرتها للمستقبل . ولن نفرق ، فى غالب الأحيان ، بل هؤلاء الذين نسميهم ، ومن أجل الإختصار ، «بالحلفاء» أو «المتكتلين» . ولكن علينا أن نشير هنا إذن ، وقبل أن ندخل فى التفصيلات ، إلى أن هؤلاء المتكتلين سوف يكونون فى كل مرة ، وفى أثناء كل حرب ، كتلة غير متماسكة ، وانه لن يكون بين أعضائها رابطة سوى الخوف ، وهو رباط

دقيق ويمكن أن ينفصل ، أو على الأقل أن يرتخى ، كلما زاد الشعور بقلة ضغط الخصم . وبين هولندا الصغيرة وبين إنجلترا ، سيكون الإتحاد أكثر قوة ، إذ أن الهولنديين ، الذين كانوا يشعرون بضعفهم العسكرى ، قد إختاروا وبشكل نهائى تلك الاستحكامات التى يحتمون بها من أجل الدفاع عن أنفسهم ، ومن أجل قيامهم بعمليات الهجوم . ولكن الوضع كان مختلفا عن ذلك كل الإختلافات فيما يتعلق بالنمسا ، التابعة لآل هابسبورج . فكانت النمسا قوية ، من النواحى الديموغرافية والعسكرية ، وكانت لا تزال تعيش فى فكرها على ماضيها . وكانت تتصور دائما إمكانية العودة إلى عصر مجد شارل الخامس (شرلكان) . وأضيف التأسف على الماضى ، وكذلك الآمال غير المحدودة ، إلى الخوف ، لكى يجعلوا من النمسا العدوة الدائمة للوى الرابع عشر،والتى تدفع إلى الحرب حتى النهاية، وتحتفظ دائما بأمل فى نصر كامل ، وتحلم بالقضاء على قوة فرنسا .

وسوف لانرى فى هذه التكتلات ، التى تتتالى والتى تتشابه ، سوى مشاعر الأنانية القومية أو الأسروية ، ومجرد ردود فعل دفاعية ، دون أن تتضمن أى ظل لفكرة بناءة . وسوف تقوم كل من هذه الدول وحدها بلعب دورها ، إذا ما شعرت بأن لها أقل فرصة لكى تتمكن ، ودون معونة الآخرين ، من أن تثبت وأن تنتصر . وكانت لكل منها أهدافها الخاصة بها ، ولا تحاول إلا بالكاد أن تغير ، بالإلتفات إلى الأملاك العامه،أو مستقبل أوربا ، أو العالم . وهكذا سوف ينتهى عصر لوى الرابع عشر دون أن يأتى بتغيير واضح فى البنيان السياسى لأوربا، ولا حتى فيما يتعلق بالتكوين الفكرى ، وعلى كل دون اية فائدة لفكرة تجتمع فوق اممى ، بأى شكل من الأشكال .

الفصل الثامن عشر

فرنسا وحرب «أسبقية النسب» (١٦٦٧ — ١٦٦٨)، وحرب هولندا (١٦٧٢ – ١٦٨٧)

شعر لوى الرابع عشر، فى الوقت الذى دخل فيه شخصيا إلى المسرح، بحاجة إلى أن يؤكد نفسه أمام فرنسا وأمام أوربا. ورغب فى أن يثبت – بطريقة تشتمل على الكثير من المخاطر – أن القوة الفرنسية، بعد إبعاد بقايا الحرب الأهلية بشكل نهائى، قد إستعادت كل قوتها، وأنها تطالب بأحد الأمكنة الأولى فى المجتمع الدولى، وحتى بالمكان الأول. وأدى ذلك إلى تلك المجموعة من الأحداث السياسية والدبلوماسية، التى ميزت السنوات الأولى من حكم لوى الرابع عشر الشخصى، والتى يسميها لافيس Lavisse «أعمال العظمة». ويمكننا أن نقول بكل بساطة بأنها «مظاهر الهيبة».

وتستحق إثنتان على الأقل من بين هذه الأحداث العامة أن تذكرا باختصار، وهما ما وقعا فى عواصم أجنبية، فى لندن وفى روما. ففى لندن، وقعت مشاجرة، فى شهر أكتوبر ١٦٦١، بين حرس السفير الإسبانى، وحرس السفير الفرنسى؛ وكان كل من السفيرين فى عربته. وكانت المسألة مدبرة فكان الإسبان يرغبون فى أن يتفوقوا فرنسا فى الأولوية التى كانت تتمتع بها تقليدياً، لدى ممثل الإمبراطور. ولما كانت الاهانة علنية، فإن لوى الرابع عشر طالب مدريد بتقديم الإعتذار، وكذلك بوعود بالنسبة للمستقبل. ويمكننا أن نتصور مدى «الرسمية» التى عملت فى باريس «لجلسة إعتذارات إسبانيا»، (٢٤ مارس ١٦٦٢).

أما مع الكرسى البابوى، فإن العلاقات كانت، ولأسباب دينية مختلفة، دقيقة

منذ بضع سنوات ، ومنذ مجيء البابا إسكندر السابع . وحدثت وقت وصول سفير جديد ، هو دوق كريكى Créqui . فى شهر أغسطس ١٦٦٢ ، مشاجرة بين الحرس الفرنسى وبين حرس الفاتيكان من أبناء كورسيكا،وكان هناك جرحى وأحد القتلى من بين الفرنسيين . وسرعان ماخرج كريكى من المدينة ،وأعلن أنه لن يعود إليها إلا حينما يتم الإعتذار عن هذه الاهانة الموجهة إلى سيده وإهتم مجلس الملك بالموضوع ، وإهتم لفترة طويلة بالمطالب التى يتقدم بها ، وإرسلت قوات فرنسية إلى أفينيون . ووافقت الدبلوماسية البابوية ، فى أثناء عام ١٦٦٣ فقط ، على مناقشة «الترضيات» المطلوبة . ولم يتم الإتفاق عليها إلا فى شهر فبراير ١٦٦٤ . ولم يكن على البابا فقط أن يكلف أحد السفراء الخاصين بالذهاب وتقدم الإعتذار ، بل كان عليه أن يتعهد بأن ينشىء فى روما أثراً تذكارياً،أحد الأهرامات، الذى يهدف تخليد الانتقام الذى رأى لوى الرابع عشر ، ولحرصه على مجده ، أن يخرج به من هذا الحادث .

أولا :- فرنسا وحرب «أسبقية النسب» (١٦٦٧ - ١٦٦٨) :-

١ - الفرنسيون فى خدمة الصليب فى النمسا وفى البحر المتوسط :-

ولقد مرت سنوات عديدة ، قبل أن يتمكن لوى الرابع عشر من أن يحصل على حرية كاملة للحركة فى أوربا . وكان عليه فى أول الأمر أن يكرس جهده من محاربة العثمانيين ، الأمر الذى كان من أبغض الأمور إلى نفسه . ذلك أنه قد إعتبر ، ومنذ الأيام الأولى ، وحتى نهاية حكمه ، أن الصداقة العثمانية هى إحدى الأسس الأكثر قوة للسياسة الفرنسية فى أوربا . وكانت الحرب التى بدأت منذ مايقرب من خمسة عشر عاماً ، نتيجة لمحاولة العثمانيين إنتزاع كريت من رجال البندقية ، لاتزال مستمرة فى مناطق مختلفة . وكانت نتيجتها معلقة بمصير كنديا ، التى كانت محاصرة منذ عام ١٦٤٩ . وكان من الضرورى ،وسواء رضاءاً

أو كرهاً ، مساعدة دولة البنادقة ، التي كانت تمثل الحرس الأمامي للمسيحية وكان مزران قد قرر ، في السنة الأخيرة في حياته ، إرسال بجرد «متطوعين» ، ٤٠٠٠ من المشاة ، و ٢٠٠٠ مـــن الفرسان ، والذين قامت سفن توسكانيا والسفن البابوية بنقلهم إلى كريت ، حيث قاموا بالحرب تحت علم البندقية . وكان من اللازم ، من ناحية أخرى ، إعادتهم بسرعة ، وخاصة بعد أن إنتشر الطاعون بينهم : وإن كان ذلك لم يمنع سلطات إستانبول ، وطبقاً لتقاليدهم ، من سجن ممثل الملك في سجن القلعة . وفي أثناء ذلك الوقت ، كان مزران قد زاد من حدة خطورة الحالة ، وذلك بإسناده أمر القيام بمظاهرة على سواحل شمال إفريقية إلى ضابط بدون جدارة ، وهو أحد رجال البحر الذين إشتهروا بالتهور ، والذي كان يدعى «الفارس بول» : ولقد أظهر بول في طرابلس أولا ، ثم في تونس وفي الجزائر ، مع سفنه الخمسة عشر ، رغبة الملك في أن يحصل على كل إحترام لإسمه ولمصالحه ، حتى وإن كان ذلك بقوة الحديد والنار . وكان من الممكن أن يبدو الأمر على أنه السير في طريق تكوين تكتل جديد للدول المسيحية ، تحت إشراف الكرسي البابوي . ولكنه لم يكن هناك أي شيء من ذلك . فلقد أظهر لوي الرابع عشر ، حين إستلم السلطه شخصياً ، أنه كان أقل ميلا من موجهه المتوفى في أمر قبول مطالب روما . ونصح سفيره بألا يتفق على أي شيء في هذا الموضوع ، وبأن يثير «مشاكل» تعمل على عرقلته .

وكان يستند في ذلك إلى أسباب قوية ، في تلك الظروف . وسواء أكان برغبتة أو رغما عنه ، فإنه وجد نفسه في ذلك الوقت مشغولا في مكان آخر في حروب ضد العثمانيين . فكانت الحرب قد بدأت بالفعل عند حدود المجر . ومن بلجراد ، قام الصدر الأعظم بالتجهيز لهجوم في إتجاه فينا . ولم يمكن في وسع الملك «المسيحي» أن يظهر قلة إهتمامه بتلك الأحداث ، والتي كان ، في قرارة نفسه ، يغتبط بها كل الاغتباط ، مادامت تثير الصعوبات أمام آل هابسبورج في

فينا ، وهم خصومه التقليديون فى النمسا . ولذلك فإنه عمل على أن تمثله فى الجيش النمساوى وحده من ستة آلاف جندى ، تحت قيادة الكونت دى كوليني Coligny . ولقد تميز الفرنسيون فى المعركة التى وقعت على ضفاف نهر راب Raab ، قرب دير سان جوتار ، (فى أول أغسطس ١٦٦٤)،وكان نصراً واضحاً للمسيحية ، أجبر الغزاة على التقهقر .

ولم يكن فى صالح الملك أن يشترك فى مشروع آخر — هو حرب كريت — والتى كانت لها رائحة الحرب الصليبية ولذلك فإنه أبلغ إستانبول برغبته فى عودة العلاقات الودية السابقة معها . وكان ذلك من سوء حظ البنادقة . ولن يعود الاهتمام بمصير كريت من جديد إلا حينما تكون هدنة فارسار (١٠ أغسطس ١٦٦٤) ، التى أتت بعد إنتصار راب بقليل ، قد أوقفت العمليات العسكرية لمدة عشرين سنه بين العثمانيين وبين النمساويين ، وتركت كل من الطرفين فى مواقعه ،وأعلنت حياد ترانسلفانيا ، والتى ظل أميرها خاضعاً للسلطان .

ولقد بدأت المرحلة الحاسمة لحرب كريت فى البحر المتوسط بعد عدة سنوات من هدنة فارسار . وفى ربيع عام ١٦٦٧ ،تم إمداد الجيش الذى يحاصرها من أجل القيام بالهجوم النهائى . وإستعد المحاصرون لبذل مجهود أخير من أجل كسر النطاق الذى يزداد ضغطه عليهم . وقام موروسيني Morosini ، الذى كان يدافع عن كنديا ، بالخروج من هذه المدينة ، وتمكن من قيادة الأسطول ، وقام فى عام ١٦٦٨ ، بإنزال هزيمة واضحة بالأسطول العثمانى . وعادت الملاحة ، والتى كانت قد اوقفت منذ مايقرب من عشر سنوات ، فى مياه الأرخبيل ،مرة أخرى. وقام أمــراء جمهورية جنوا ، ورئيس أساقفة كولونيا المنتخب ، وأسقف استراسبورج ، ودوق برنزويك — لونبورج بإرسال وحدات إلى الجيش البابوى وجيش البندقية . أما الفرنسيون ، فإنهم أثبتوا وجودهم بالحملة البحرية

التي قادها تورفيل Tourville بين جزر الأرخبيل .

ولما إنتهت الحرب مع إسبانيا ، والتي كانت قد نشبت في أثناء ذلك الوقت ، تكونت فرقة من الفرنسيين ؛ وبموافقة من الملك ، بقيادة ماركيز دى لافياد de la Feuilladde . وقام متطوعون من اللورين ، وعلى نفقة الدوق شارل الرابع ، باللحاق بالفرنسيين ؛ ونزلوا معهم في نفس الوقت من السفن في ميناء كنديا . ولقد كبدتهم عملية الخروج التي شاركوا فيها ، قرب نهاية العام ، خسائر فادحة ، حتى أنهم تركوا مشروعاتهم ، وعادوا بعد ذلك إلى بلادهم . وسيساعد هذا الفشل لهذا المجهود المتأخر على الوصول إلى حل . ومع ذلك فإن لوى الرابع عشر لم يكن يقبل السكوت على هذه الهزيمة ، أو الفشل فإستمر في القيام باستعداداته البرية والبحرية ، ووافق على إعطاء بعض الترضيات لاسبانيا ، التي كانت تخشى من هجوم جديد على الأراضي المنخفضة ، وتفاوض لفترة طويلة حتى لايظهر أمام العثمانيين بأنه هو المسئول عن المشروع . ورفض أن يحارب الجنود تحت العلم البابوى : فكان العلم الذى يرفعونه يحمل مجرد شارة الصليب . وسيقوم البابا بتعيين القائد العام للقوات البحرية ؛ ولكن دوق بوفور Beaufort ، الذى سيقوم بقيادة الواحدات البرية الفرنسية ، سيحتفظ بدرجة من الاستقلال ، في نفس الوقت الذى يحمل فيه لقب «جنرال الكنيسة المقدسة» . ورغم أن هذا التدخل الفرنسي الجديد كان قد تم الاعداد له بكل عناية ؛ إلا أنه لم يكن أحسن حظاً من التدخل السابق . فلقد قتل بوفور إثناء إحدى عمليات الخروج . وإنتهت عملية ثانية ، رغم تأييدها بقوة بنيران الأسطول . بفشل مشابه . وعند نهاية شهر أغسطس ١٦٦٩ ، أقلع الأسطول الفرنسي ، وأخذ معه من بقى من رجال الحملة ، وكانوا نصف عددها .

وكانت خيبة الأمل حادة في فرنسا وفي كل أوربا . ولقد حاول لوى

الرابع عشر ، والذى تأثر تماما بهذا الفشل غير المتوقع ، وبلا جدوى ، أن يقوم بعد ذلك باستعدادات جديدة فى طولون . ولكن البنادقة كانوا غير قادرين على الانتظار لوقت أطول من ذلك من أجل أن يعترفوا بالخضوع .هذا علاوة على أن موروسينى كان قد سلم المدينة بعد بضعة أيام من سفر الفرنسيين .فظهرت بشائر السلم . وسرعان مايتم الاتفاق على شروط الاتفاقية بين الحكومات . فيتم التخلى عن الجزيرة كلها للسلطان ، باستثناء ثلاث مواقع صغيرة محصنة، ومن بينها موقع لاسود . وفى نظير ذلك ، يحتفظ البنادقة بالمناطق التى إحتلوها فى البوسنة وفى دلماشيا ، بما فى ذلك كليسا . وبعد كتابة معاهدة الصلح ، إضطرت الدول إلى الانتظار عامين جديدين . وسيتم تبادلها فى ٢٤ أكتوبر ١٦٧١ . وفى ذلك التاريخ يمكننا أن نقول بأن دور البندقية كدولة عظمى فى البحر المتوسط ، كان قد إنتهى .

وفى أثناء ذلك الوقت ، كانت الحرب قد إتسعت فى البحر المتوسط. فإمتدت من المناطق المجاورة لكريت إلى سواحل إفريقية .وكان هدف حملة الفارس بول Paul ، فى عام ١٦٦٠ ، هو منع أبناء شمال إفريقية من إرسال قواتهم لكى تنضم إلى قوات العثمانيين : ولكنها لم تحل أية مشكلة أساسية . وفهم لوى الرابع عشر بسهولة أنه من الواجب عليه أن يكتفى بمجرد إظهار القوة إذا كان يرغب فى أن تكون كلمته مسموعة على هذه السواحل: بل كان عليه أن يكون مستعدا لاستخدام هذه القوة . ولم يكن من الحكمة أبداً أن يتصل باستنابول بهذا الخصوص . هذا علاوة على أنه ، فى ذلك الوقت ، قام بعض الرؤساء الوطنيين ، باعطاء أنفسهم لقب الداى ، ووضعوا أنفسهم فى مكان الباشوات العثمانيين، أو فوقهم، ومارسوا السلطة الفعلية فى النيابات ، وإن كانوا لم ينفضوا عنهم سلطة السيادة العثمانية. وتم ذلك فى الجزائر بالفعل فى عام ١٦٧١ .

وكان الهدف الأول للملك الشاب فى هذه المنطقة يتمثل فى الاستيلاء على قاعدة للعمليات على الساحل، وبشكل يمكنه من إستخدامها ضد الجزائر ، أو ضد تونس، تبعاً للظروف . ووقع إختيار أميرال الاسطول الفرنسى على جيجللى ، بين الجزائر وعنابة . وتم إحتلال الموقع ، بدون صعوبة كبيرة ، فى عام ١٦٦٤ . ولكن صعوبة الإقامة هناك كانت كبيرة ، كما جاء إنتشار الطاعون ، علاوة على ذلك ، الأمر الذى إضطر الفرنسيين إلى إخلاء هذا الموقع بعد بضعة أشهر . وفى العام التالى ، كان تحطيم عدد كبير من السفن الجزائرية ، والتى كانت قد إلتجأت إلى تونس ، وتحت نيران قلاع حلق الوادى ، مقدمة لمفاوضات إنتهت بعقد معاهدات صلح مع النيابات . وفى عام ١٦٦٦ ، أصبح فى وسع الفرنسيين أن يقيموا من جديد فى مركزهم التجارى فى الرأس السوداء Cap Négre والتى كانوا قد هجروها فى عام ١٦٣٧ . وحين إنتهت حرب كريت ، فى عام ١٦٦٩ ، ساد الهدوء، لفترة من الزمن ، فى البحر المتوسط .

٣ ـ التنافس البحرى بين الانجليز والهولنديين :

كنا قد أجلنا ، ولكى ننتهى من عملية حصار كنديا ، والتغيرات التى أحدثتها هذه المسألة فى العلاقات بين الصليب والهلال فى البحر المتوسط ، أمر عرض الأحداث التى دارت فى الغرب منذ صلح البرانس حتى صلح إكس لاشابيل Aix - la - Chapelle . وعلينا الآن أن نعود إليها .

ولقد كانت مسألة الأراضى المنخفضة هى أولى المسائل التى طرحها لوى الرابع عشر. أما العالم،والتى حسمها بقوة السلاح . ويبدو أنه كان هناك،فى قرار الملك، شيئاً لا يمكن تفاديه . وكانوا قد إقتربوا كثيراً من الهدف ، قبل الفروند ، وفى أثناء الحرب التى إنتهت بعقد معاهدة البرانس ، وبشكل لايسمح لهم فى باريس ، وبعد أن إنتهت الحرب الاهلية بشكل نهائى ، بإعادة وضع الحديد فى النار.وربما

كان شخص آخر ، غير لوى الرابع عشر ، قد تصرف بطريقة مختلفة . ولكنه كان على الأقل سيشعر بالرغبة فى تبنى المشروعات القديمة ، والتى كانت لاتزال تحتفظ بجدتها : مد السيادة الفرنسية على جميع المناطق التى ظلت إسبانية من دولة برجنديا السابقة . ولكن كل الغرب كان قد أصبح الآن يهتم بالمسألة . ولذلك فإن التدخل المسلح فى عام ١٦٦٧ سوف يجعل كل الغرب ، تقريبا ، يقف فى وجه فرنسا .

وبين كل الدول التى سوف تجندها ـ وعلى الأقل من الناحية المعنوية أن لم يكن من الناحية العسكرية ـ الحرب المسماة بحرب «أسبقية النسب» علينا أن نعالج على إنفراد تلك الدولتين التى سرعان مانسميها بشكل شبه دائم على القارة « بالقوى البحرية» ، وهما إنجلترا والأقاليم المتحدة .

والواقع أن كل من هاتين الدولتين كانت تعيش من البحر ،ومن أجل البحر . وكانت تحصل منه على مواردها ، وبخاصة الأقاليم المتحدة ، التى كانت تحصل منه على كل مواردها ، إذ أنه قل أن توجد أراضى غير منتجة مثل أراضيها . وأما انجلترا ، فإنها كانت قد وجدت ميولها فى البحر . ولذلك فإنها كرست نفسها ؛ وبشكل متزايد ، للنشاط التجارى والإستعمارى . وزاد الشعور بنتائج ذلك على قوتها الحربية والبحرية ، وبتزايد مستمر . وتظهر السنوات التالية لإعادة السلطة فى عام ١٦٦٠ على أنها هامة بنوع خاص فى هذا الشأن . وفى البداية ، ومنذ عام ١٦٦١ ، كان هناك زواج الملك شارل الثانى من إحدى أخوات ملك البرتغال . وكانت بائنة الملكة الجديدة لاتشتمل فقط على مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى نقداً ، ولكن كذلك على تحويل قاعدتين بحريتين كبيرتى الأهمية إلى الدولة البريطانية : هما طنجة وبمباى.وبعد ذلك نجدأن الوزير كلاراندون Clarendon يمارس سياسة مستمرة لتشجيع التجارة البحرية : فيعقد مع مدريد إتفاقيات مختلفة تؤكد الميزات والضمانات الممنوحة للتجار الإنجليز

الذين يقيمون فى شبه الجزيرة الأيبيرية ؛ ويحاول أن يضمن أمن السفن على مياه البحر المتوسط . وذلك عن طريق التفاوض مع طرابلس ، والجزائر ،وتونس؛ وأخيراً يمنح إعانة لصناعة الإنشاءات البحرية ، ويعطى منح لكل سفينة جديدة تنزل إلى الماء : وأدى ذلك ، وفى فترة ربع قرن ، من عام ١٦٦٠ إلىعام١٦٨٨، إلى مضاعفة عدد وحدات البحرية التجارية . ومن ناحية أخرى ، كان الصوف الانجليزى لايخرج من البلاد ؛ وعلى الأقل كان هناك فى هذا المجال ، وفى ذلك الوقت ، منعاً كاملا ، وإن كان مختلطاً بشىء من التهريب . وفى نظير ذلك ، كانت المنتجات المصنعة ، من الأصواف ، تصدر بكميات تتزايد بإستمرار . وكان جزء هام منه يمر عن طريق المصانع الهولندية ، لكى تخضع هناك لعمليات الصقل والصباغة ؛ وسينتهى الأمر بالصناعة الانجليزية ، ومع تطويرها لوسائلها ، إلى أن تتحرر من هذه التبعية .

ولم تكن السياسة الإنجليزية ترسم من القارة ، بل كان الأمر يختلف عن ذلك كل الإختلاف . ولكنها كانت تهتم بالقارة بطريقتها هى ، ولكى تراقب فيها تحركات الدول الأخرى ، وتضمن عدم التعرض لمبدأ التوازن التى كانت أولى الدول فى تنظيمه فى القرن السابق ، والذى ظلت حريصة عليه ، وبمفردها ، مع البندقية . ولذلك فإن عداوتها لفرنسا قد تأكدت بشكل نهائى منذ أن تحددت طموحات لوى الرابع عشر من أجل السيطرة . وفى الفترة الأولى من حكمه ، كانت العلاقات الانجليزية الفرنسية تتميز بالصداقةوحسنالرغبة المتبادلة،ويبدو أن الملكين كانا يتذكران أنهما أقرباء . وفى شهر مار ١٦٦١ ،تزوجفيليب أورليان Philippe d'Orlèans أخو لوى الرابع عشر ، الأميرة هنريت Henriette الانجليزية ، أخت شارل الثانى ، وحفيدة هنرى الرابع . ثم قام ملك فرنسا بمساعدة إبن عمه حتى يتمكن من إتمام زواجه البرتغالى ؛ فوعده فى هذه

المناسبة بأن يقدم له معونة تبلغ مليونى جنيه ، وطلب منه أن يسهم هذا المبلغ فى مساعدة البرتغاليين ، والذين كانوا فى حرب شبه مستمرة مع جيرانهم وكان شارل الثانى قد وجد نفسه ، وأكثر من سابقيه ، مقيداً بالبرلمان ، والذى كان يدين له باعادة تاجه إليه . وكانت كل تصرفاته محكومة بعدم وجود المال ، وبرغبته المستمرة فى الحصول على المال . ومنذ عام ١٦٦٢ ، أشارت الحكومة الفرنسية إلى أنها مستعدة لاعادة شراء دنكرك ، فأسرع شارل الثانى ووافق على بدء المحادثات ، رغم علمه بالقيمة التى يقدرها رعاياه للاحتفاظ بموقع أصبح بعد قرن يعوض أمر فقد كاليه . وأخذوا فى المساومة ، وانتهى الأمر بالاتفاق على البيع وبمبلغ خمسة ملايين جنيه .

أما الأقاليم المتحدة ، والتى كان سكانها أقل بكثير ، فانها كانت تلعب دوراً ، ونظراً لقوتها الاقتصادية والمالية ، لايقل عن الدور الذى تقوم به إنجلترا . ولكن الدولتين كانتا ، فى ذلك الوقت ، متعاديتان ، وتقسم بينهما تعارض المصالح على البحار ، وفيما وراء البحار . وكان الهولنديون ، رغم الاختلافات التى كانت تفصلهم عن فرنسا فى عام ١٦٤٨ ، قد ظلوا محافظين على صداقتهم لفرنسا . وعقدوا فى شهر فبراير ١٦٦٢ ، مع الملك الشاب ، تحالفاً ، كانوا يرغبون فى إستخدامه ، حينما تحين الفرصة ، ضد إنجلترا ، وذلك فى الوقت الذى كان لوى الرابع عشر يفكر فيه بنوع خاص فى الخدمات التى يمكن لمثل هذا التحالف أن يؤديها له ضد إسبانيا . وكانوا ، فى بداية نشأة دولتهم ، يعترفون بالفضل للانجليز . ولكن المشاركة فى المصالح السياسية والدينية عجزت عن أن تسيطر ، ولوقت طويل ، على نتائج التنافس الاقتصادى الذى إشتد حدة وباستمرار . ومنذ فترة بعيدة ، زادت المشاعر فى أمستردام ولاهاى بعدم الثقة فى جيرانهم القريبين منهم للغاية ، وكانوا قد بدأوا ، هم كذلك ، فى السير على

طريق التوسع ، وأصبحوا ، ونتيجة لطبيعة الأمور ، منافسين ومتنافسين. وكانوا قد تواجهوا سوياً ، فى مرة سابقة ، فى عصر كرومويل ، وفى أثناء حـــرب بحرية ، إستمرت لمدة عامين .

ورغم أن هذه الحرب كانت صعبة ، إلا أنها لم تقلل من الأنشطة الهولندية فى الخارج . وكانت هناك فى العالم مواقع استراتيجية وتجارية أخرى يمكن إحتلالها ، غير تلك التى كان الإنجليز يحرصون عليها. وكانت الممتلكات البرتغالية متتالية على الطرق البحرية ، وكانت البرتغال خصماً يقرب فى الحجم من الأقاليم المتحدة . ومنذ سنوات ، كان البرتغاليون والهولنديون قد دخلوا فى صراع ، فى البرازيل ، وعلى الساحل الغربى لإفريقية . وتم فى آخر الأمر عقد الصلح بينهما فى عام ١٦٦٣ . ولقد ظلت البرازيل ، وجزر الرأس الأخضر ، وأنجولا ،وبشكل نهائى ، للبرتغال . ولكن ساحل الذهب خرج من أيديهم ، وكان مصدراً ممتازاً للعبيد السود . وتمكن الهولنديون من أن يحصلوا على إعتراف ، علاوة على ذلك، بإمتلاك جميع المواقع الأخرى التى كانوا قد إحتلوها على التوالى منذ عشرين عاماً على طول طريق التوابل : فأولا ملقا (فى عام ١٦٤١) ، ثم كولومبو ، فى جزيرة سيلان (فى عام ١٦٥٠) ، ومستعمرة الرأس (فى عام ١٦٥٢) ، وأخيراً كانانور وكوشين ، على ساحل الملابار (فى عام ١٦٦١) .

ولقد ظهرت الميول البحرية للأقاليم المتحدة ، كما هو الحال بالنسبة لانجلترا، فى نشاط دور صناعة وبناء السفن ، وفى إمتياز الوحدات البحرية التى تخرج منها. وكذلك الحال بالنسبة لعدد من رجال البحر فيها ، مثل رويتر Ruyter الشهير ، الذى عرفته كل أوربا وعرفت ماقام به من عمليات وكان فى الجزء الأول من حياته مجرد رئيس من رؤساء القراصنة ، وكان يشتبك باستمرار مع رجال البحر والقراصنة الإسبان فى بحر المانش وفى بحر الأنتيل . وهو الذى سيقوم ؛ فى

أثناء الحـــرب الثانية ضد الانجليز ، بتولى القيادة الرئيسية .

وكانت الصعوبات قد زادت خطورة مع لندن ، منذ عام ١٦٦٥ . وكان شارل الثانى ، حينما جدد قانون الملاحة ، قد أثر إلى درجة بالغة على التجارة الهولندية فى الطباق ، وذلك بمنعه دخول منتجات المستعمرات ، ومهما كان مصدرها ، إلى إنجلترا ، إلا على سفن بريطانية . ومن ناحية ثانية كانت عودة آل ستيوارت ، والذين كانوا متصاهرين عن قرب مع آل أورانج ، قد أثارت بعض المخـــاوف السياسية ، خاصة وأن شارل الثانى أظهر إستعداده لتأييد إعادة مركز « صاحب الدولة » Stathouder ، والذى كان الحزب الجمهورى قد ألغاه فى عام ١٦٥٠ ، وذلك فى صالح قريبة الشاب ، وليام أورانج . وإنتهى التوتر بين الدولتين بالوصول إلى عمليات حربية فى عام ١٦٦٤ . وقام أحد الأساطيل الانجليزية بإحتلال مواقع هولندية مختلفة على الساحل الإفريقى . وبعد ذلك ببضعة أسابيع تمت ، فى أمريكا ، عملية غزو « هولندا الجديدة » . وكانوا قد تعودوا على النظر إلى الصدامات من أجل المستعمرات على أنها غير رئيسية ، حتى مر عام قبل أن تقوم الأقاليم المتحدة ، ونتيجة لفشل مطالباتهم بالطريق الدبلوماسى ، بتقرير إعلان الحرب (مارس ١٦٦٥) .

ودارت الحرب فى أول الأمر ، كلها تقريباً ، فى بحر المانش ، وذلك حتى الوقت الذى تدخل فيه الفرنسيون . ولقد إعترف لوى الرابع عشر ، فى مذكراته ، أنه قد وجد نفسه فى ضيق بالغ يوم أن طلبت منه حكومة الأقاليم المتحدة معونة أسطوله ، طبقاً لإلتزامات عام ١٦٦٢ . وكان يفضل عدم الإشتراك . ولذلك فإنه بدأ يتردد . ثم جاءت وفاة فيليب الرابع ، ملك إسبانيا ، وصهره (والد زوجته) فى ١٧ سبتمبر ١٦٦٥ . وقبل وقوع ذلك الحدث ، كان قد وضع خططاً ، منذ وقت طويل . وكان يحتاج ، من أجل تحقيقها ، إلى التمكن من الإعتماد على الأقاليم

المتحدة ، أو على الأقل الإعتماد على حيادها . ولذلك فإنه سيقوم بتنفيذ ما تعهد به . أو على الأقل سيظهر على أنه ينفذها ، وذلك بتوجيه أساطيله صوب الشمال . ولكنه سيصدر لها الأوامر بتحاشى الإشتباك فى المعارك . وفى شهر يناير ١٦٦٦، وفى الوقت الذى كان يبلغ فيه إعلان الحرب لقريبه ملك إنجلترا، كان هناك إعتذار شبه رسمى . وفيما عدا ذلك ، تم تكليف السفير الفرنسى لدى بلاط شارل الثانى ، ومنذ اليوم الأول ، بعرض وساطته بين المتحاربين .

وكانت نتيجة هذا التكتيك أنه ، فيما عدا إشتباك قصير المدى قرب مصب نهر التاج مع بعض السفن الانجليزية التى إنسحبت نحو الشمال ، لم تحدث مواقع بين القوى البحرية للدولتين . ولم يكن الأميرال الفرنسى ، دوق بوفور Beaufort ، يجرؤ على الدخول إلى بحر المانش. فقنع بإرسال بعض سفنه مع السفن الهولندية التى كانت قد تبعته منذ طولون ، أما المعركة التى وقعت عند رأس دونجينيس Dungeness فكانت فى صالح الانجليز . ومع ذلك ، فإن الحرب أخذت منعطفاً أكثر خطورة فى الأنتيل : فدارت الحرب فى جزيرة سان كريستوف ، والتى كان جزءاً منها إنجلزيا والجزء الآخر فرنسى ، ثم فى جزيرة سان نيفيس ، وفى المارتينيك ، وأخيراً فى جويانا . وإعتقد لوى الرابع عشر أنها فرصة فريدة على القارة لأن يقوم أحد صغار الأمراء الألمان، برنار دى جالن Bernard de Gallen ، وهو أسقف مونستر والذى كانت إنجلترا تنفق عليه ، بمهاجمة الهولنديين . وكان مسروراً لكى يتدخل ضده ، وبكل قوة . وأرسل فيلقاً من ستة آلاف جندى إلى وستفاليا ، وكان مجرد إقترابه يكفى لكى يجبر الأسقف على إلقاء السلاح .

ومع مرور الوقت ، وضح أن تفوق إنجلترا يتأكد على البحار . وزاد القلق فى الأقاليم المتحدة ونجح أمير البحر الهولندى . رويتر ، فى شهر يونيو ١٦٦٧ ، فى أن يدخل فى منصب نهر التاميز ، ويصعد فى النهر إلى أن يقترب من لندن .

وإستغلت حكومة هولندا النتائج النفسية لهذه الغارة ، لكى تصل إلى مفاوضات الصلح ، والتى كانت قد بدأت مع وساطة سويدية . وقضت معاهدة بريدا Bréda (٣١ يوليو ١٦٦٧) ، بفقدان الأقاليم المتحدة لمستعمرتهم الرئيسية فى أمريكا : « هولندا الجديدة » ، التى سوف تدخل فى نطاق جارتها ، « إنجلترا الجديدة » . ومنذ هذا اليوم ، أصبح إسم نيو أمستردام هو نيويورك ، تكريما لدوق يورك قائد الأسطول البريطانى . أما فى الأنتيل ، فقد تم الاحتفاظ بالوضع القائم Status quo . ولكن فى إفريقية ، رأى ساحل الذهب ،وموقع رأس الساحل ، تبديل السلطة .

وبعد تسوية هذا الخلاف ، ستجد المشاركة فى المصالح ، التى تجمع بين إنجلترا وهولندا ، فرصة فى أن تدعم نفسها ضد فرنسا ، فى عصر لوى الرابع عشر ، وفى أثناء الحرب التى تسمى بحرب « أسبقية النسب » ، وستقوم الدولتان بدور « الفرملة » لوقف حمل ثقيل من الانزلاق على منحدر خطير .

٣ — حرب « أسبقية النسب » :

كان لوى الرابع عشر قد صمم ، منذ وفاة فيليب الرابع ، على أن يبحث عن فرصة له من هذه الناحية . وكان يعرف إستعدادات الحكومة الإسبانية . فمنذ السنة الأولى من حكمه الشخصى ،وكما كانت مدريد قد مهدت له من أجل الدخول فى تحالف ضد إنجلترا ، كان قد طلب — وبلا جدوى — أن يتم إلغاء تنازل الملكة ، زوجته ، والمنصوص عليه فى معاهدة البرانس . وهذا الالغاء ، فى حالة الوصول إليه ، لم يكن يعطى نتائج مباشرة ؛ خاصة وأن فيليب كان قد ترك مولوداً ذكراً ، هو شارل الثانى . وكان طفلا رقيق الصحة ، ولم يقدروا له أن يعيش طويلا . ولكنه فى الواقع لم يمت إلا بعد أربعين عاماً . وفى أثناء هذه

السنوات الأربعين عاش الغرب كله فى إنتظار وقلق لما سيحدث ، وكان مستعداً لتحمل نتائج ذلك مقدماً .

ولقد تصوروا فى باريس سبباً وجيها من أجل أن يحاولوا الحصول على الأراضى المنخفضة من ملك إسبانيا الجديد ، رغم تنازل أخته الكبرى . وكانت ماريا تريزا قد ولدت من زواج أول . وكان هناك مبدأ فى كثير من أقاليم الأراضى المنخفضة عن حق تقليدى ينص على أن أملاك الأب تورث لأبناء الزوج الأول ، ويحرم منها الآخرون . وأعلن لوى الرابع عشر حق « أسبقية النسب » هذا لكى يبرر فى أعين العالم سياسة القوة التى كان يستعد لها . ولكن مدريد لم تأخذ بعين الاعتبار « موضوع حقوق الملكة المسيحية للغاية » والتى شرحت هذه النظرية بإفاضة ، فعبر الجيش الملكى حدود الأراضى المنخفضة ، فى نهاية ربيع ١٦٦٧ . وجاء إعلان الحرب من جانب إسبانيا فى شهر يوليو التالى .

وبدت الظروف العامة على أنها موانية . ويبدو أن الحرب التى إنتهت كانت تبشر بأن تكون لها نتائج طويلة المدى على العلاقات الإنجليزية الهولندية . وكان الملك قد طلب من لندن بعض الضمانات . وكان قد حصل من شارل الثانى — والذى كان يعيش على حسابه ، ولا يمكنه أن يرفض له طلباً — على وعد بحرية العمل الكاملة فى الأراضى المنخفضة . ولكنه لم يشعر بضرورة القيام بعملية موازنة مع الاقاليم المتحدة . أو على الأقل لم يتوقف ، بعد أن أبلغ حكومة لاهاى بنواياه ، عند الرفض الذى شعر به تمثلوه عند من يتحدثون معهم ، ومع ذلك ، فقد كان من المعروف أنهم كانوا فى هولندا لا يخشون من شىء أكثر من رؤيتهم الفرنسيين يصلون إلى مصب الأسكوت . وكتب ويليام تمبل William Temple ، السفير الإنجليزى فى لاهاى . « حينما تصبح الفلاندر تحت سلطة لوى الرابع عشر ، فإن الهولنديين يشعرون أن بلادهم لم تعد سوى مقاطعة بحرية لفرنسا . . . » وكانت

هناك وسيلة لطمأنتهم ، وربما لكسبهم، تتمثل فى العودة إلى مشروعات ريشيليو، مشروعات عام ١٦٣٥ ، وإعطاء وعد لسكان الأراضى المنخفضة بأن خروجهم من تحت السيطرة الإسبانية يسمح لهم بالحصول على الإستقلال . ولكن لوى الرابع عشر كان شديد الوثوق فى قوته ، وبشكل لا يسمح له بالتفكير فى مثل هذا الحل . ونصح جان دى ويت Jean de Witt أبناء بلده بأن يتركوا الأمور تسير ، وأن يرقبوا الأحداث ويحتفظون لأنفسهم بإمكانية المطالبة ، وقت عقد الصلح ، بحقهم فى الحصول على تعويض .

ومن الناحية الألمانية لم يكن الموقف يبدو على أنه مضمون ، أو مطمئن . ذلك أن رابطة الراين ، والتى كان هدفها الرئيسى ، بل سبب وجودها ، هو ضمان حياد البلاد فى منطقة الراين فى حالة وقوع صدام جديد بين آل هابسبورج وبين فرنسا ، كانت قد دخلت فى سبات عميق . وكان لوى الرابع عشر ، الذى كان « حاميها » ، قد أصبح مشكوكاً فيه ، فى عام ١٦٦٤ ، حين قام بمظاهرة للقوة ، وبشكل أكثر وضوحاً من اللازم بالنسبة لبعض الألمان : فكان قد أرسل فيلقا من ستة آلاف رجل ، إلى إرفورت ، فى قلب ساكس ، لكى يعيد الرعايا الثائرين ضد أميرهم ، رئيس أساقفة مايفس ، إلى صوابهم . فبدأ ملك فرنسا يظهر بمظهر سيء فى الأوساط الأكثر تشبعاً بروح الوطنية الجرمانية . ورفضوا أن يعترفوا بفضله فى الخدمة التى كان قد قدمها للامبراطور ولألمانيا ، حتى أرسل إحدى الوحدات العسكرية — رغم أنها كانت متواضعه للغاية — لمعونة ذلك الجيش الذى كان يدافع عن حدود المجر ضد الأتراك . فكان من الضرورى إذن التفاوض مع كل من هؤلاء الأمراء ، الذين كانت سواء نيتهم قد أصبحت تثير الضيق : منتخب كولونيا ، ومنتخب مايفس ، ودوق نيوبرج ونجح المال فى أن يحصل منهم على وعد بعدم التدخل .

وكان مسرح العمليات الحربية فى أول الأمر هو حدود الأراضى المنخفضة، وحدها تقريباً. ومع ذلك، فقد تم إرسال أحد الأساطيل إلى ساحل إسبانيا، حتى يتم منع أية إمكانية لإرسال إمدادات. وبمساعدة البرتغاليون، تم تنظيم حصار للساحل. وعلينا أن نذكر أن البرتغاليين، والذين كانوا فى خصومه مع جيرانهم منذ سنوات طويلة، لم يكونوا قد عقدوا الصلح، فى نفس الوقت الذى عقدته كل من فرنسا وإنجلترا، فى عام ١٦٥٩. وكانوا قد إستمروا فى عملياتهم وبمفردهم، من حيث المبدأ — إذ أن حلفائهم بالأمس كانوا قد تعهدوا بعدم تأييدهم . ، وبالفعل بمعونة بعض الوحدات الفرنسية، والتى كان تورين Turenne قد وافق على إرسالها إليهم تحت مسئوليته. ولذلك فإن جيشاً صغيراً، وتحت قيادة من سيصبح ماريشال شومبرج فى المستقبل، كان موجوداً فى البرتغال، فى المنطقة المجاورة لمدينة بيخا Beja . وكان قد إشترك وإنتصر فى كثير من العمليات. وبعد تغير الملك، سيتم عقد الصلح، فى أثناء حرب «أسبقية النسب»، وذلك بمعاهدة لشبونة (١٢ فبراير ١٦٦٨)؛ وكان التاج الإسبانى قد قنع أخيراً — وبعد سبعة وعشرين عاما — بضرورة الإعتراف باستقلال البرتغال.

وامتدت الحرب كذلك إلى جزر الأنتيل، كما حدث فى أثناء حرب إنجلترا وهولندا عام ١٦٦٦. ومرت أيام جميلة على قراصنة سان دومنجو، وهم مختبئون فى جزيرة لاتورتى Tortue ؛ وكانوا مغامرين من أصول مختلفة، ويحتمون بالعلم الفرنسى، وظلوا يعرفــون باسم فليبوستيه(١). وجاءت بعض سفن

---

(١) تحريف لكلمة Vrijbueter الهولندية، إلى Freebooter الانجليزية، ثم إلى Flibustiers الفرنسية.

الأسطول ، فى بعض الأحيان ، لمساعدتهم .

ولم يكن الألمان هم الذين تسببوا ، كما كان هناك خوف من ذلك ،فى وقت مسيرة الإنتصارات الفرنسية فى الأراضى المنخفضة . بل لقد ظهر الخطر من جانب لم يكن أحد يخشى منه ، من جانب الأقاليم المتحدة . فمنذ نهاية عام ١٦٦٧، وبينما كان الفرنسيون ، والذين سيطروا على الجزء الأكبر من الفلاندر ، فى معسكراتهم الشتوية ، وينتظرون العودة إلى الزحف فى إتجاه بروج وجاند ، كانت مشاعر عنيفة قد بدأت فى الظهور فى لاهاى . وقرر مجلس الأقاليم المتحدة أن يطلب إلى ملك فرنسا تحديدات وضمانات تتعلق بحجم الفتوحات التى كان يرغب فى القيام بها . وسرعان ما وصلت هذه المشاعر إلى لندن ، وحيث كانت وزارة جديدة ، فرضها البرلمان على شارل الثانى بعد صلح بريدا ، قد أعلنت أنها توافق على تقارب سريع مع خصوم الأمس . ولذلك فإن « المقيم الكبير » فى هولندا ، جان دى ويت ، والمكلف بالشئون الخارجية ، إتفق فى نهاية شهر يناير ١٦٦٨ ، مع لندن على القيام بعمل دبلوماسى سريع : فتقوم الحكومتان بالتدخل المشترك لدعوة ملك فرنسا إلى وقف فتوحاته ، وتعرضان نفسها كوسيطتين للصلح السريع مع إسبانيا . وكان هذا هو المعنى العام للمعاهدة التى عقداها سويا فى لاهاى فى ٢٣ يناير ١٦٦٨ . وكان إنضمام السويد ، الذى طلب بعد ذلك ، وتم الحصول عليه بعد مفاوضات لعب فيها الفلوران والجنيه الاسترلينى دورهما ، مما أدى إلى ظهور « تحالف لاهاى الثلاثى » بعد ذلك بقليـــــل .

أما عن لوى الرابع عشر ، فإنه كان يرفض سلفاً أمر تخويفه ، وإستعد لغز فرانش كونتيه . وتم ذلك فى أثناء فصل الشتاء ، فى شهر فبراير ١٦٦٨ . وكان الملك فرحاً بمراقبة حصار دول Dôle وعملية الاستيلاء عليها . وإنتهت المقاومة

تماما بعد ثلاثة أسابيع . وبعد قليل ، وفى وسط شهر ابريل ، تم التوقيع على مقدمات الصلح فى سان جرمان ، وقرروا عقد مؤتمر من أجل السلام فى إكس لاشابيل . وكان مؤتمر إكس لاشابيل قصير المدى . ولم تطرح فيه مسألة حق « أسبقية النسب » . ونصت المعاهدة ، التى تم التوقيع عليها فى ٢ مايو ١٦٦٨ ، على أن يعيد لوى الرابع عشر فرانش كونتيه ، ولكنه يحتفظ بكل المواقع التى تم إحتلالها فى عام ١٦٦٧ : وكانت ، مع ليل ، عاصمة الفلاندر الفالونية ، هى برج ، وفيرنيس ، وآرمينتيير ، وكورتراى ، ومينان ، ودواى ، وتورينه ، وأودينارد ، وآت ، وبينش ، وشارلروا .

وأصبح فى وسع الهولنديين أن يتنفسوا بسهولة أكثر . ولم يكونوا مستعدين للتخلى عن شعار ظهر منذ ربع قرن مضى ، وكان علاوة على ذلك هو الذى وجه سلوكهم . « صداقة فرنسا ، دون الخصوم لها » . ولكنهم كانوا قد تسببوا فى إثارة عاصفة فى نفس الملك الكبير ، ولن تتأخر الصواعق فى النزول عليهم .

* * *

ثانيا : حرب هولندا (١٦٧٢ - ١٦٧٨) :

١ - أهميتها ، وأسبابها الاقتصادية والنفسية :

كان المشروع الكبير الثانى فى عهد لوى الرابع عشر ، وهو حرب هولندا ، يبدو على أنه إكمال ، ونتيجة للمشروع الأول . ولسوف يستمر لفترة أطول بكثير — ست سنوات بدلا من سنتين — ويهم عدداً أكبر من الدول ، وبخاصة فى ألمانيا ، مثل منتخب براندبورج أولا ، ثم الامبراطورية المقدسة كلها .

وكان الإتجاه الوطنى الجرمانى قد إستمر فى غليانه ، منذ أن أخذ لوى الرابع عشر مظاهر أحد الغزاة ، وأحد الطغاة . وفى ذلك الوقت ، كانت رابطة الراين قد حكمت على نفسها بالموت ، لأن بعض أعضائها كانوا قد أظهروا تمسكا متطرفاً بالتحالف الفرنسى ، ذلك التحالف الذى كان من الممكن ، وبالطريقة التى كان

كان الملك يمارس بها ، أن يظهر على أنه حماية : فكانت المعاهدة قد تم عقدها فى عام ١٦٥٧ ولمدة عشر سنوات، ولذلك فانها ستصل بالتحديد إلى إكمال مدتها ؛ ومع ذلك فان أحداً لم يتحدث عنها . وبعد ذلك ، ساد القلق فى عام ١٦٦٧ ، من كتاب صغير كان قد ظهر فى ذلك الوقت فى باريس : « مطالب الملك العادلة بشأن الإمبراطورية» . وكان المؤلف أنطوان أوبرى Antoine Aubery ، غير معروف ؛ وكان محامياً أمام البرلمان ولكنه كان من الصعب عدم الاعتقاد فى أن الملك نفسه هو الذى كان يوحى إليه . وما أثار الفضيحة ، لم يكن هـــو ما يتعلق بالنظرية ، والتى كانت قد طرحت أكثر من مرة فى الماضى ، والتى تقول بأن تاج فرنسا هو الأكثر قدماً من بقية التيجان ، وأن له حقوق مميزة على ميراث شارلمان ؛ بل كان بتوع خاص ذلك التأكيد ـ وهذا الأمر جديد — بأن لفرنسا حقوق لا يمكن مناقشتها فى الاستيلاء على كل ألمانيا الواقعة إلى غرب نهر إلب ، وعلى أساس أنها كانت فيما مضى جزءاً من إمبراطورية شارلمان . ولقد إضطر الملك ، ولكى يقضى على الشكوك الألمانية ، إلى أن يرسل أوبرى إلى مكان يفكر فيه قليلا ، ولمدة بضعة أسابيع ، فى الباستيل . ولقد إستمر الجدل بين كتاب البلدين لمدة سنوات وزادت الحرب بين فرنسا وإسبانيا من حدة هذا الجدل : ذلك أنه ، ومن حيث المبدأ ، كانت الأراضى المنخفضة مستمرة فى تبعيتها للامبراطورية ، وكانت تمثل فيها « دائرة » مميزة ، هى دائرة برجنديا .

وفى عام ١٦٧٠ ، تسببت أحداث اللورين ، بدورها ، فى إثارة قلق كبير . فكان الدوق شارل الرابع مستمراً فى جذب الانتباه إليه . وكان قد تصور ، منذ السنة التالية لإعادة دوقياته ، أن يبيع حقوق سيادته عليها ، وكان فى حاجة ملحة للمال ، إلى لوى الرابع عشر . وتفاوض ، عن طريق أبناء أعمامه دى جيز Guise ، الأمر أثار الأمل فى أن يحصلوا ، وفى نظير معونتهم ، على لقب أمراء

من العصب . وجاءت المعاهدة ، التي تم التوقيع عليها عند قريبته ، مدموازيل دى جيز ، في مونمارتر . يوم ٦ فبراير ١٦٦٢ ، لكي تحدد يوم وفاته ، لإتحاد اللورين وباروا مع المملكة . ولكن نانسى نظرت إلى هذه الصفقة المخجلة بكل إحتقار ، وقدمت كل أنواع الإعتراض إلى باريس — بسبب قلة إعتبار روابط الدم التي تظهر في الفقرة الخاصة بآل دى جيز — وبدرجة أنهم إعتبروا هذا الاتفاق ، وبعد ذلك مباشرة ، على أنه ملغى . ولكن هذا لم يمنع الملك ، في العام التالي ، من أن يذهب ويستلم موقع مارسال ، الذى كانت معاهدة مونمارتر قد منحته له . وفي عام ١٦٦٧ ، نشأ صدام بشأن الجيش ، الذى كان شارل الرابع يرغب في أن يحتفظ به مستنداً إلى صعوبات ، كانت في ذلك الوقت قد إنتهت ، مع جاره منتخب البلاتينات . وكانت حرب حق و أسبقية النسب ، قد سمحت بتسوية المسألة مؤقتاً ، وسمح لفيلق صغير من اللورين بأن ينضم إلى جيش تورين .

وبعد صلح إكس لاشابيل ، أخذ الدوق يتهرب ، ومن جديد ، من تنفيذ الدعوات الموجهة إليه من باريس ، لتسريح جنوده . وكان إصراره العنيد والسيء يسمح بأن ينسبوا إليه بعض الخلفيات . ولم يكن في وسع مثل هذا الموقف أن يستمر إلى مالا نهاية . وبينما كانت فكرة إعلان الحرب على هولندا تتبلور ، شيئا فشيئا ، قرر الملك أن يعمل ضد هذا التهديد الذى كان في وسعه ، من واقع اللورين ، أن يؤثر على ميمنة الجيش الذى سيزحف صوب الشمال . وفتحت عملية الاحتلال المفاجيء لنانسى مرحلة جديدة لاحتلال الدوقيات ، سيكون لها تماما نفس فترة الاحتلال السابقة ، أى ثمانية وعشرون عاماً (١٦٧٠ - ١٦٩٨) . وحين عرض الأمر على الدايت إذ أن الدوقيات كانت من أراضى الامبراطورية — ، أظهر مرة جديدة عجزه عن إتخاذ أى موقف .

ومن بعيد ، تبدو الحروب التى سيقوم بها لوى الرابع عشر ضد الهولنديين إبتداء من عام ١٦٧٢ ، على أنها الأصعب فهماً من بين الحروب التى قرر الدخول إليها ، برغبته وليس من السهل فهم الأسباب التى أثرت فيه فى هذه الظروف ، إلا إذا ما أعددنا فكرياً تكوين طبيعة أوضاع — وكذلك طريقة تفكير — خاصة للغاية .

ولا شك فى أن العنصر الرئيسى للشرح يتمثل فى تلك المشاعر التى وجدت عند هذا الشعب الصغير ، والذى كان قد أثبت صلابة وحية كبيرة ، فى عام ١٦٦٨ ، من أجل وقف تقدم وزحف جيوش الملك المنتصرة ، وذلك بمعونة إنجلترا والسويد . وكان هذا الشعب الصغير ، هذا الشعب من « المراطقة » وبعد أن تحرر من مدريد فى القرن السابق ، قد منح نفسه دستوراً جمهورياً . وكان مجرد وجود جمهورية لأتباع كالفن Calvin تجرح المعتقدات الملكية والكاثوليكية عند عدد كبير من الفرنسيين . فكانوا يتحدثون عنها بكل إحتقار ، كما كانوا قد تحدثوا باحتقار عن جمهورية إنجلترا فى عهد « الحماية » . ولكنه كان هناك شيء آخر فى تلك الفترة التى وصلنا إليها فى هذا القرن . فلم يكن الأمر يمثل فقط مجرد إعطاء درس للهولنديين . بل إن لوى الرابع عشر قد وجد أنه من المصلحة العليا للدولة تحجيم دولة صغيرة وصلت إلى مثل هذه الدرجة من الغرور ، وبعد أن قاست نفسها بانجلترا ، سمحت لنفسها بأن تتحدى فرنسا .

وكانت العظمة الفائقة لجمهورية الأقاليم المتحدة — هذا النجم الجديد الذى كان قد ظهر فجأة فى سماء أوربا — قد وصل إلى قمة صعوده وكانت عظمة من نوع معين ، ومن أصل إقتصادى بشكل أساسى ، ويشبه إلى حد بعيد عظمة الأراضى المنخفضة فى القرن السابق — كانت أمستردام قد أخذت مكان أنفرس فى كثير من وظائفها — ، ولكنها كانت تستند إلى إمبراطورية إستعمارية ظهر

نموها على أنه يتمشى تماما مع تقلص وتفتت إمبراطورية البرتغال . ولقد أخذ الهولنديون مكان البرتغال ، فى كل مكان تقريباً ، وفى المحيط الهندى بنوع خاص ؛ وفى الشرق الأقصى بالذات ، لم يتركوا لهم سوى جوا Goa على ساحل هندستان ، ومكاو Macao على ساحل الصين.وأخذت شركة الهند الشرقية توزع أرباحاً على حملة الأسهم يتراوح بين ٢٥ر٧٠٪ . وكانت تمثل رمز القوة التجارية الهولندية ، كما أن بورصة أمستردام ، والتى كانت توجد فيها أسهم الشركة ، كان من الممكن إعتبار أنها تتقمص القوة المالية الجمهورية .

وكان المصرف ، أى البنك ، مؤسسة بلدية ، أنشىء فى عام ١٦٠٩ . وكان مركزه الرئيسى فى دار البلدية . وكان يقوم بكل عمليات التبادل ، تحت إشراف العمدة Bourgmestre ومجلسه . وكان لكل تاجر حساباً فيه . كما كانت كل التسويات التجارية تتم عن طريق أوراق على البنك . وكانت الأهمية الإستثنائية للعمليات التى تمر عن طريقه تجعل من بنك أمستردام أكبر مركز أعمال موجود فى العالم . وكان يحمى فى كهوفه ودائع كل التجار الذين يتعاملون معه . وكان مخزونه المعدنى هو أكثر وأكبر ما وجد حتى ذلك الوقت . وكان المنع التقليدى لتجارة المعادن النفيسة موجوداً فى إسبانيا ؛ ولكنهم لم يطبقوه . وفى كل عام ، فى الخريف ، كان أسطولا يتكون من ثلاثين إلى خمسين سفينة ينقل من قادس إلى أمستردام شحنة من الفضة والذهب ، فى شكل سبائك . ولذلك فان هذا المصرف كان لديه دائما مبالغ ضخمة ، تحت تصرفه . وكانت القروض متوفرة فيه دائماً وبأرباح بسيطة بالنسبة لذلك العصر ، من ٣ إلى ٤٪ . وفى كل أوربا ، كانت أنظار رجال الأعمال مركزة دائماً على هولندا . وكانوا يقرؤن صحفها ، جريدة هولندا Gazette de Hollanda ، وأنباء ليـــدن Nouvelles de Leyde وكانت أكثر صحفها إنتشاراً تكتب بالفرنسية . فيمكنها بذلك أن تصل إلى عدد

أكبر من القراء . ومن كل مكان، كانوا يستفسرون عن حالة سوق الذهب والفضة، أو عن سعر العملة ، إذ أن أكثر أنواع العملة تنوعاً كانت تستخدم هناك .

وهؤلاء الهولنديون ، الذين كانوا قد « كسحوا البحار » ، لم يكونوا قد أثروا فقط من حركة الوساطة التى جعلتهم على إتصال بكل بلاد أوروبا . بل كانت لديهم صناعات مزدهرة ، ومعظمها صناعات تحويلية ، مثل تقطير السكر، وكذلك صناعة نسيج قديمة ، أصبحت تستخدم الآن ، وبنوع خاص ، الحرير الذى يأتى من الصين . وكانت لدور صناعتهم البحرية سمعة عالمية : وكان كولبير Colbert قد إستخدمها ، مرات عديدة ، من أجل أن يحصل منها على تجارين للعمل فى دور صناعة سفن الملك . وكان الانجليز ، مثلهم فى ذلك مثل الفرنسيين ، يبنون فى هولندا جزءاً من سفنهم اللازمة للملاحة فى أعالى البحار . ونعرف ، أخيراً، أن بطرس الأكبر ، فى السنوات الأخيرة من القرن ، سوف يحضر إلى ساردام ، لكى يستوحى من طرق الانشاءات البحرية .

وبين القطاعات المختلفة للتجارة البحرية ، التى أصبح الهولنديون بالفعل فيها بدون منافسين ، علينا أن نفرد مكاناً خاصاً لقطاع بحر البلطيق ، ذلك القطاع الذى كانوا قد بدأو فيه . فلقد إنتهى بهم الأمر إلى إحتلال مكان جامعة الهانسا، والتى كانت أنشطتها قد تدهورت إلى درجة حل هذه الرابطة فى عام ١٦٦٩ . وكانت السفن التى تعبر إلى ، أو من ، بحر البلطيق ، تحت العلم الهولندى . هى أكثر السفن عدداً ، ومنذ وقت طويل ؛ وكانت تقوم فى غالبيتها بعمليات تبادل بين بلاد غرب أوروبا وجنوبها ، وبين بلاد شمال شرق أوروبا . وكان منافسوهم الوحيدون ، وعلى مستوى ، هم الإنجليز ، والذين كانت موانيهم مقفلة تقريبا فى وجههم منذ إصدار قانون الملاحة ، والذين كانوا ، نتيجة لذلك ، قد قاموا ، فى وقت إعادة النظام ، بالإلتجاء إلى الموانى الهولندية . ومنذ عام ١٦٤٨ ، ومنذ أن

قامت الجمهورية بعقد الصلح مع إسبانيا ، إستعاد الهولنديون ، فى تجارة البحر المتوسط ، تلك المكانة التى كانوا قد حصلوا عليها هناك أثناء هدنة السنوات الإثنى عشر ، أى المكانة الأولى : فكانوا يأتون بمنتجات الشمال ، ومنتجات بلاد المحيط الهندى ، ويعودون بمنتجات الشرق الأوسط . وكانوا حتى قد خلقوا لنفسهم مكاناً على سواحل فرنسا المطلة على المحيط الأطلسى، نتيجة لعلاقاتهم التى إحتفظوا بها مع أبناء مذهبهم الدينى (البروتستانتى) فى بواتو وفى سانتونج . ونفهم من ذلك أن الرأى العام الفرنسى — أو على الأقل جزء من ذلك الرأى العام — قد بدأ فى القلق. ومنذ عام ١٦٥٩، وتحت وزارة فوكيه Fouquet ، أخذ أول إجراء للحماية : ضريبة ٥٠ سو عن كل طن ، تدفعها كل سفينة أجنبية تقيم فى موانى المملكة ، وكانت هذه الضريبة موجهة بنوع خاص ضد الهولنديين .

وهكذا نجد أن ضرورة وضع سياسة دفاعية ضد هولندا كانت قد ظهرت قبل الحكم الشخصى للوى الرابع عشر . وسوف يستمر كولبير فى تطبيقها ، وبطريقة تلقائية . ولن يكتف بحرب فى نطاق التعريفات الجمركية ، وهى التى بدأت فى عام ١٦٦٤ . وسينتهى به الأمر إلى أن ينصح بتنفيذ عملية حربية ؛ لم يكن هو ، ولا سيده يتنبأ بآثارها ومضاعفاتها .

وكان كولبير يؤمن برأى — كان يشاركه فيه الكثيرون من معاصريه — يقول بأن حجم تجارة العالم ، فى فترة معينة ، لم يكن قابلا للزيادة،أو على الأقل أن زيادته لن تحدث إلا ببطء كبير . فإذا كانت الدولة ترغب فى أن تثرى ، وتزيد من طاقتها الاقتصادية والمالية ، فعليها إذن أن تحصل من الهولنديين على جزء من التجارة التى تمارسها . ومن بين عشرين ألف سفينة تقلع فى البحار ، إعتقدوا أن خمسة عشر أو ستة عشر ألفا من بينها كانت هولندية : وكان تقديرا مبالغاً فيه،إلى درجة أنهم قد أنقصوه فى وقتنا الحاضر إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة،

أو أربعة آلاف سفينة ، غير سفن الصيد. وتخرج من ذلك نتيجة تتمثل فى حتمية الضرورة بالنسبة لفرنسا، لكى تنتزع من الدولة الهولندية ذلك التفوق الذى كانت قد أتت لكى تمارسه حتى فى البحار الفرنسية .

وكانت الإجراءات الأولى المستوحاة من ذلك — مثل التعريفة الجمركية لعام ١٦٦٤ — ذات صفة دفاعية. وكانت عبارة عن إظهار لإتجاه حماية مدعم،وموجه فى نفس الوقت ضد التجارة البريطانية ، وضد التجارة الهولندية . وبالنسبة لمواد كثيرة ، كانت الضرائب تصل إلى ١٠٠ ٪ . وقدم الهولنديون الشكاوى ، ولكن فى لهجة معتدلة . ولكن الأمر إختلف عن ذلك فى عام ١٦٦٧ ، وحين جاءت تعريفة جمركية جديدة، وواضحة المنع، لكى تحل محل تعريفة عام ١٦٦٤ . وكانوا فى فترة الحرب الانجليزية الهولندية،والتى وجد فيها لوى الرابع عشر حليفاً للأقاليم المتحدة . وإحتجت حكومة الأقاليم المتحدة ، مع قلة تقدير ، ولوحت بإجراءات إنتقامية . ثم قامت ، بعد حرب «أسبقية النسب» وصلح إكس لاشابيل، بالدخول فى مفاوضات . ولكنها لم تجد لدى الطرف الآخر إلا سوء النية : فكان كولبير مصمماً على التمسك ، ولم يكن يعتقد فى جدية التهديد المقبل بقطيعة تجارية . ومع ذلك ، ففى ٢ يناير ١٦٧١ ، أعلن مجلس الأقاليم المتحدة ، وبعد تردد طويل ، تلك الاجراءات التى تراجع عن تطبيقها لمدة أعوام: فالكحول الفرنسى eaux-de-vie والذى كان جمهور البحارة يستهلكون الكثير منه ، بنوع خاص ، منع منعاً باتاً ، كما زيدت رسوم الدخول زيادة كبيرة على المنسوجات . وكان رد الفعل الفرنسى مباشراً وسريعاً : فقرر المجلس ، يوم ٧ يناير ، ومن بين إجراءات أخرى ، رفع كبير فى الرسوم التى تدفع على دخول الرنجة و « التوابل » . والتى تصل على سفن هولندية .

ومنذ ذلك الوقت ، أصبح مناخ الحرب واضحاً .

وكان كولبير يدفع الملك إلى الدخول فى هذه الحرب ، وكتب إليه : « من المستحيل أن يقدر صاحب الجلالة على المقاساة لوقت طويل من تحدى وإهانة هذه الأمة » . وليس من الضرورى أن نضيف إلى هذه الأسباب المتعددة التى دفعت إلى قبول هذه الفكرة شعور الملك تجاه هذه الأمة التى كانت تحترم الحرية فى التعبير إلى حد بعيد ، حتى أن عدداً من المعارضين الفرنسيين للنظام المطلق للحكم وجدوا فيها أماكن يطبعون فيها ما كانوا يكتبون . ولا شك فى أن كل هذه المقـــالات الفاضحة لم تكن تعرض كلها على لوى الرابع عشر : ولكنه كان يعرف على الأقل وجودها ، وأصلها .

٣ ـ الاستعدادات الدبلوماسية ، والعمليات الحربية :

ولقد بدأت الاستعدادات الدبلوماسية والعسكرية منذ عام ١٦٧٠ واستمرت طوال العام التالى . وكانت المسألة الأكثر صعوبة هى تلك التى يطرحها الموقف الممكن لانجلترا . ففى شهر يناير ١٦٧٠ ، حصل مجلس الأقاليم المتحدة ، من لندن ومن إستكهلم ، على تجديد للتحالف الثلاثى ، الذى أنشىء فى عام ١٦٦٨ . فكان فى وسع هولندا أن تشعر بالحماية من هذه الناحية ، خاصة وأن مجلس العموم كان يحتج على التعريفة الجمركية الجديدة لعام ١٦٦٧ ، وكان يطالب بإعادة النظر فى الاتفاقيات التجارية مع فرنسا . ولكن شارل الثانى كان قد تعود «تجاوزات» لوى الرابع عشر ، ولكى يظهر نفسه بأنه أكثر هيبة ، أبلغ السفير الفرنسى ، فى أثناء عام ١٦٦٩ ، أنه كان ينوى التحول إلى المذهب الكاثوليكى . وكان يفكر فى نفس الوقت فى عقد تحالف سياسى . وإن كان ذلك مشروطاً بأن يسبقـه عـقـد معاهدة التجارة ، التى كانت الأمة تطالب بها . وبدأوا فى التحدث عن الرسوم الجمركية ، بين لندن وباريس ، ولكن بدون نجاح كبير ، خاصة وأن وجهات النظر بين الجانبين كانت متعارضة . وفى أثناء ذلك الوقت، تم التوصل إلى «وفاق»

فى النطاق السياسى . وفى أثناء صيف ١٦٧٠ ، كلف لوى الرابع عشر زوجة أخيه، دوق أورليان ، وهى هنريت Henriette d'Angleterre ، بالتفاهم مع أخيها ، ملك إنجلترا . وهذا اللقاء فى دوفر نتج عنه عقد معاهدة سرية للغاية (أول يونيو ١٦٧٠) ، وقع عليها ، من الجانب الانجليزى ، ملك إنجلترا وحده. وبعد ذلك تم التفاوض وعقدت معاهدة أخرى ، لكى تعرض على البرلمان ، وذلك فى باريس، وبواسطة وزراء شارل الثانى (٥ فبراير ١٦٧١) : فأصبح على إنجلترا أن تعاون فرنسا ضد الأقاليم المتحدة ، على البر وعلى البحر فى نفس الوقت . وأمام المنافس الهولندى ، لم تعط عمليات المنع الانجليزى للسلع ، والموجهة ضد فرنسا ، نتيجة لها قيمتها ، فى هذه المرة .

وكان هذا هو قرار وفاة التحالف الثلاثى فى لاهاى.وتم التفاهم مع السويد بدورها ، مع دفع مبالغ بكرم كبير ، فعادت ، وإن كان ذلك بعد تردد ، إلى تحالفها التقليدى مع فرنسا . وكان هـذا التحـالف قد ظـل سلبيا منـذ معاهـدات وستفاليا : فكان قد تجدد فى عام ١٦٥١ ، وآخر مرة فى ١٩ سبتمبر ١٦٦١. وفى أثناء ذلك الوقت، كانت حكومة إستكهلم قد تعهدت مرتين بالدفاع عن الأراضى المنخفضة ، وخاصة بمعاهدة ٣١ يناير ١٦٧٠ . ولم يتم الاتفاق مع السويد إلا فى اللحظة الأخيرة ، وفى الوقت الذى كانت العمليات فيه وشيكة الوقوع : فتعهد شارل الحادى عشر بأن يعارض، بقوة السلاح من يحاول،من بين الأمراء الألمان، أن يقوم بمعونة الهولنديين (١٤ أبريل ١٦٧٢) .

أما من ناحية النمسا ، تلك الدولة الكاثوليكية الكبرى ، فلم يكن هناك شىء يخشى منه . وكانت العلاقات قد عادت ودية ، بين فينا وباريس ، منذ أن إتفق الملك والامبراطور ، وكان كل منهما متزوجاً من أميرة إسبانية ، بالنسبة لامكانية فتح مسألة الوراثة الاسبانية فى أى وقت متوقع،وبمعاهدة سرية للغاية تم التوقيع

عليها فى فينا فى ٢٠ يناير ١٦٦٨ ، على شروط التقسيم الودى. وكان الجزء الأكبر منها قد خصص للفرع النمسوى لآل هابسبورج ، فيأخذ ، أو يرث ، إسبانيا ، ومستعمراتها ، وجزءاً من ممتلكاتها الايطالية ، وذلك فى الوقت الذى تحصل فيه فرنسا على الأراضى المنخفضة ، وفرانش كونتيه ، ومملكة نابولى وصقلية . وفى اللحظة الأخيرة ، وفى عام ١٦٧١ ، بدأ موقف الامبراطور ليوبولد Leopold ، رغم كل شيء ، على أنه غير مضمون،فشعروا فى باريس بالحاجة إلى ربطه بمعاهدة حياد (أول نوفمبر ١٦٧١) ، وكانت سرية كذلك .

وكانت مسألة التحالفات تمثل أهمية خاصة فى منطقة حوض نهر الراين . خاصة وأن جمهورية الأقاليم المتحدة لم تكن لها حدود مشتركة مع المملكة.وكان أقصر الطرق،من أجل غزو منطقة حوض نهر الراين،يمر فى نفس الوقت جنوب الأراضى المنخفضة ، وإمارة ليبج ، المستقلة عن الأراضى المنخفضة، والتى تشكل بروزاً داخل أراضيها ، وكان صاحب السيادة الزمنية فيها هو رئيس أساقفة كولونيا المنتخب.ولم يكن القانون الدولى فى تلك الفترة قد تخلى عن «حق العبور». ولذلك فإنه كان على الجيش الرئيسى أن يمر عن طريقها ، حتى يصل إلى إكس لاشابيل ، وإلى حدود هولندا . وستقوم إحدى الوحدات ، فى نفس الوقت ، بحماية ميمنته ، وتسير ، إبتداء من ميتز ، مع ضفاف الموزيل ، ثم مع ضفاف الراين. ولذلك فإنه كان من الضرورى التفاوض مع الأمراء المنتخبين فى حوض الراين . ولكن هذه المفاوضات جاءت مخيبة للآمال . وإعتقدوا فى أنه من الممكن الاعتماد على منتخب البلاتينات ، وهو عميل سابق للسياسة الفرنسية ، وكانت إبنته ستتزوج ، فى شهر يناير ١٦٧١ . دوق أورليان ، الذى توفيت زوجته ، هنريت الانجليزية . ولكن هذه الظروف المؤقتة قللت من حرارة هذه الصداقة إلى حد ما،وعجزوا حتى عن أن يحصلوا منه على وعد بالحياد . وحدث نفس الشيء

مع رؤساء الأساقفة المنتخبين فى نويف وفى ماينس . وبعد أن كانوا قد تعاونوا مع فرنسا فى رابطة الراين،وبعد أن كانوا قد أسهموا فى عملية تقاربها مع النمسا، إبتعدوا عنها شيئاً فشيئاً ، ورفضوا الدخول فى أية تعهدات ، ووصل الأمر إلى ضرورة محاولة إخافتهم حتى يمنعوهم من إتخاذ موقف معادى . وكان رئيس أساقفة كولونيا وحده — وهو الأكثر أهمية من بينهم جميعاً لأنه كان جاراً مباشراً للأقاليم المتحدة ، وكان يسيطر على لييج — هو الذى فتح حدوده ووافق على عقد معاهدة تحالف : وكان على بعض جنوده حتى أن ينضموا إلى جنود الملك أثناء عملية العبور :

أما فى خارج منطقة الراين ، فنجد أن منتخب بافاريا ، قد إنضم للجانب الفرنسى ، فوافق فى ١٧ فبراير ١٦٧٠ على عقد معاهدة تحالف دفاعى ، كانت مادتها الأساسية تمثل وعداً بزواج إبنته من ولى عهد فرنسا . وبمادة سرية تعهد بأن يصوت فى صالح لوى الرابع عشر فى الانتخابات الامبراطورية المقبلة ، بينما يحتفظ له لوى الرابع عشر ، فى حالة وصوله إلى الامبراطورية ، وكتعويض ، بلقب ملك الرومان . ونتيجة لمنح معونات جديدة،تدعم هذا الحلف مرة أخرى، فى عام ١٦٧٤ .

وكان منتخب براندبورج ، هو الأكثر إعتماداً ، من بين كل المنتخبين ، على قوة عسكرية هامة . وكانت معونته مرغوب فيها،خاصة وأنه كان يمتلك دوقيتى كليف وجوليير ، المجاورتين للأراضى الهولندية . وفى ٢١ ديسمبر ١٦٦٩ ، وافق على أن يرتبط مع ملك فرنسا لمدة عشر سنوات،ويضمن له إمتلاك المناطق الجديدة التى يغزوها فى الأراضى المنخفضة . وكان لا يشك فيما كان يحدث ذلك أن الإعتداء على الأقاليم المتحدة وضعه فى موقف دقيق : فكان الأمر يتعلق هذه المرة بدولة بروتستانتية ورغم المجهودات التى بذلها ممثلو الملك،أعطى الهولنديين،

وبمعاهدة ، وقت بدء العمليات ، وعداً فى ٦ مايو ١٦٧٢ ، بمعونتهم عسكرياً .

وهكذا نجد أن الدبلوماسية الفرنسية لم تنجح فى عزل الأقاليم المتحدة. وحتى أعدائهم القدماء ، الاسبان ، وعدوهم بعدم معونة ملك فرنسا .

وأعلن الفرنسيون والانجليز الحرب فى الأيام الأخيرة من شهر مارس . وأعطتهم العمليات الأولى ، وهى تلك التى وقعت على البحر . خيبة أمل عنيفة . وكانت أساطيلها راسية فى يارموت ، قرب سولباى،حينما تعرضت لهجوم رويتر (٧ يونيو ١٦٧٢) . وبلغت الخسائر حداً فرض اتخلى عن مشروع للنزول على سواحل العدو.ولم يكن أحد يتوقع أن الهولنديين،الذين ظهر تفوق الانجليزعليهم فى الحربين اللتين كانوا قد إشتركوا فيها ضدبعضهم فى مدة عشرين عاماً،سيظهرون مثل هذا التفوق البحرى . وكان نجاحهم الأول ، فى عام ١٦٧٢ ، حدثا له نتائج خطيرة . فمنذ ذلك الوقت ، أصبح عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم على البر فقط .

ولقد إنقسم الجيش الفرنسى الرئيسى إلى فيلقين رئيسيين ، تحت قيادة كل من تورين وكونديه ، وكان على الفيلق الأول أن يسير من شارلروا ، وإلى جوار السامبر ، ثم الضفة اليسرى للميز ، بينما كان على الفيلق الثانى أن يسير مع الضفة اليمنى . وأخذ الملك نفسه أمر القيادة العامة . ولذلك فإن المجد سوف ينسب إليه فى أنه هو الذى إقتحم الراين ، يوم ١٢ يونيو،فى مكان عبور سهل بنوع خاص ، عند مخاضة « مبنى الجمرك » Zollhaus . وتم بعد ذلك الإستيلاء على مجموعة من المواقع ، من الهولنديين ، بما فى ذلك أوترخت ونيمبيج . وكان الفرنسيون قد شعروا بأنهم قد أصبحوا فى قلب هولندا،حين إلتجأ الهولنديون إلى وسيلة بطولية، وهى فتح الأهوسة ، أى إغراق البلاد تماما . فإضطر الغزاة إلى التوقف فى الحال. وكانت هولندا قد نجحت بقوات تقل بكثير عن قوات الغزاة : فعلى البر ، وأمام ١٢٠,٠٠٠ تحت قيادة تورين وكونديه ،لم يكن فى وسع الأقاليم المتحدة أن تجند

سوى ۲۷٫۰۰۰ تقريباً . وأدى ذلك إلى مضاعفة التأثير ، وإلى أقصى حد ، على أوروبا . وأظهر لوى الرابع عشر حنقه ، بإحتلاله لمدينة أورانج ، التى كانت ملكا شخصياً لخصمه ، « صاحب الدولة » . وتم تدمير القصر فى الحال .

ولقد عرف الملك ، عند نهاية عام ١٦٧٢ ، أوقاتاً حرجة . ففى الوقت الذى إنشغل فيه بمحاصرة مايستريشت ، قام خصمه ، ويليام أورانج ، وبحركة بطولية غير عادية ، بالهجوم السريع على جانب الفرنسيين ، وتقريبا من خلفهم ، وهدد موقع شارلروا ، أحد المواقع التى كانت فرنسا قد حصلت عليها فى عام ١٦٦٨ . ومع ذلك ، فإن قواته كانت غير كافية ، الأمر الذى إضطره إلى رفع الحصار بعد بضعة أيام . ولكن هذا الحادث الخطير أجبر الملك على أن يفتح عينيه ، وعلى أن يفهم عدم جدوى الآمال التى إعتقد بها فى التفوق الساحق لقواته . ولذلك فإنه قبل ، وبعد وقت قصير ، ومع وساطة السويد ، أن تفتتح مؤتمرات فى كولونيا من أجل الصلح . ومن ناحية أخرى ، لم يكن قد إستعد بعد لكى يتراجع عن مطالبه لعام ١٦٧٢ ، ولم يعط مؤتمر كولونيا ، الذى إفتتح فى شهر يونيو ، أية نتيجة . وفى أثناء ذلك الوقت ، نجحت دبلوماسية هولندا ، وعن طريق التفاوض المباشر مع مدريد ، فى أن تحصل على المعونة العسكرية الإسبانية (٣٠ أبريل ١٦٧٣) . وفى نفس اليوم ، وافق دايت الإمبراطورية على رغبة ليوبولد — الذى إعتبر إتفاقيات عام ١٦٦٨ مع لوى الرابع عشر على أنها ملغاة — ووافق على الإنضمام إلى ذلك التكتل الذى كان تحت التكوين . وقبل نهاية العام ، كان أمر الجلاء عن هولندا قد تقرر فى باريس .

٣ ـ التحول الدبلوماسى ، وإتساع ميدان العمليات :

كانت الدلالة الأولى للتحول الدبلوماسى الذى سيميز عام ١٦٧٣ هذا ، قد أعطاها منتخب براندبورج ، فردريك ويليام الأول ، وهو الشخص الذى نعته

المؤرخون الألمان بأنه المنتخب العظيم.وكان حاقداً على السويديين لانهم قد نازعوه بوميرانيا ، ولأنهم منحوا أنفسهم بمعاهدات عام ١٦٤٨ النصيب الأكبر. ولذلك فإنه وافق من حيث المبدأ على التحالف مع أعداء السويد.وكان قد إضطر فى أول الأمر إلى الإنتظار نتيجة لإتفاقية لوى الرابع عشر مع السويد . ولكنه لم يتمكن من أن يعرف مقدماً النيات العدوانية للملك تجاه الأقاليم المتحدة . ومع ذلك ، فقد كان يحتفظ بإستلطاف خاص تجاه الهولنديين،أبناء المذهب الدينى الذى يدين به . هذا علاوة على أنه كان قد تزوج من أسرة أورانج ، وكان ويليام الثالث ، «صاحب الدولة» ، إبناً لأخ زوجته . ورغم المعاهدات التى كانت تربطه بفرنسا — وكان من بينها من يعترف بالمذهب الفرنسى ويقدره — فإنه كان قد وقع مع الأقاليم المتحدة على تعهدات بالمعونة المتبادلة . ولذلك فإنه وجد نفسه أمام مفاجأة ، مع الحرب الفرنسية الهولندية . وما أن بدأت العمليات العسكرية حتى قرر التراجع ؛ ولكى يسهل عملية تغيير موقفه ، إلتجأ إلى فينا : فنجح فى ٢٩ يونيو ١٦٧٢ فى أن يحصل على تحالف مع الإمبراطور من أجل إعطاء معونة سريعة للهولنديين . والواقع أن ليوبولد كان قد أظهر بعض التردد وكان يخشى من أن يقضى نهائياً على نتائج إتفاقياته السابقة مع لوى الرابع عشر ، ففكر فى ضرورة الإقتصار على مجرد مظاهرة عسكرية. ولكنه تخلى عن هذا التردد حين أعلنه دايت الإمبراطورية ، الذى أثر فيه منتخب براندبورج ، بموافقته . ومع ذلك فقد اشتكى فردريك ويليام من سوء نيته فى أثناء العمليات الأولى التى قامت بها جيوشهما سوياً ضد تورين ، والتى لم تعط نتيجة ومع ذلك،فإنه سرعان ما يدخل فى مفاوضات مع الفرنسيين ، ويوافق على معاهدة فوسيم (٢١ يونيو ١٦٧٣) .

ويمكننا أن نضيف إلى نقض الحياد ، عدم تنفيذ الالتزامات ، وبخاصة فى عام ١٦٧٤ . وفى المقام الاول ، كان هناك الموقف الانجليزى ، والذى كانت له

نتائج ضخمة . وكان الرأى العام الانجليزى لا يفهم هذه الحرب ، والتى لم ير فيها سوى مكاسب ممكنة لفرنسا وحدها، وقام البرلمان ، الذى أظهر إحتقاره للهزائم التى وقعت على البحر ، بإجبار الملك على التراجع عن سياسته الشخصية ، وعلى عقد الصلح مع الأقاليم المتحدة (١٩ فبراير) . وبعد خروج إنجلترا بقليل، جاءت عملية خروج منتخب كولونيا ، الذى رضخ للتهديدات الإمبراطورية . وأخذت ألمانيا كلها فى التحرك وفى شهر مايو ،قام الدايت بإعلان الحرب بإسم الامبراطورية. وقام منتخب براندبورج مرة جديدة بعملية تغيير مواجهة ، وفى إتفاق كامل مع الإمبراطور ليوبولد (معاهدة كيلن فى أول يوليو) .

وهكذا نجد أن حرب هولندا قد تحولت إذن إلى حرب لفرنسا ضد أعدائها التقليديين ، آل هابسبورج فى النمسا وفى إسبانيا ، وإنضمت إليها إنجلترا آل ستيوارت . ومن بين الأمراء الألمان، كان منتخب بافاريا هو الوحيد الذى رفض ارسال قوات إلى جيش الإمبراطور ، وظل مخلصاً للوى الرابع عشر . وأخذت ميادين العمليات فى التغير : فمنذ ذلك الوقت ، لم تعد مجرد منطقة حدود الأراضى المنخفضة فقط ، ولكن كذلك منطقة حدود فرانش كونتيه ، ثم ضفاف نهر الراين . ولما كان منتخب بلاتين هو أول من حمل السلاح، فلقد صدرت الأوامر بتخريب البلاتينات : وكان تخريب عام ١٦٨٨ - ١٦٨٩ يفوق فى قطاعته عمليات تخريب عام ١٦٧٤ ، وإن كان الألمان لم يكونوا قد نسوها بعد .

ولا يحتفظ تاريخ العمليات العسكرية الكبيرة ، فى أثناء السنوات الأربع التالية،إلا بعملية غزو فرانش كونتيه - الثانية - فى عام ١٦٧٤،وبحملة تورين فى الألزاس . ولقد إضطر الفرنسيون إلى إخلاء الألزاس عن طريق الشمال ،تحت ضغط قوات الامبراطورية وقوات براندبورج ، ولكنهم عادوا ودخلوها من الجنوب ، وبعد أن ساروا فى حذاء الفوج ، وإلى المغرب ، وذلك فى الأيام

الأولى من عام ١٦٧٥ . وحرروا الإقليم بنفس قوة الدفع ، وأنزلوا بالخصوم في تركهاليم هزيمة لم يكن الخصوم يتوقعونها في أثناء فصل الشتاء ، وبمثل هذه الجرأة .

ومنذ ذلك الوقت ، لم تعد حدود المملكة مهددة بشكل واضح . وكان الإمبراطور مضطراً إلى الإحتفاظ بالجزء الأكبر من قواته من أجل مواجهة بعض ثورات المجد . وكان المنتخب الكبير يجد نفسه في موقف مشابه ، أو حتى أكثر خطورة وصعوبة ، إذ أنه كان عليه أن يواجه السويديين . وكان الملك شارل الحادى عشر قد رضخ لطلبات لوى الرابع عشر ، وبنوع خاص لنداء الذهب الفرنسى ، فقرر أن يتدخل فى بوميرانيا . ولن يتأخر كثيرا فى أن يأسف لذلك . إذ أن فردريك ويليام لن يحصل على مجرد معونة الهولنديين وحدهم ، بل وكذلك معونة الدانمركيين وتعرض الجيش المهاجم لهزيمة كاملة فى فربلين (٢٨ يونيو ١٦٧٥) ، وذلك فى الوقت الذى قام فيه الدانمركيون بمهاجمة جارهم ، دوق هولشتاين ، والذى كان عماً لشارل الحادى عشر ، ونهبوا أملاكه .

أما الحرب البحرية فكان ميدانها محصوراً ، وكما كان عليه الحال فى عام ١٦٦٨ ، فى بحر المانش والمناطق القريبة منه . ولكنها أخذت فى الإمتداد والإتساع إلى مناطق أخرى ، وخاصة على طريق الهند الشرقية ، طريق التوابل ، والذى كان له تأثيراً على الخيال يشابه الإنجذاب السابق إلى المعادن النفيسة . ومنذ أن كان التراجع البرتغالى قد تأكد ، أصبح الهولنديون والإنجليز هم الذين يقتسمون — ويتخاصمون على — المواقع الرئيسية فيه . أما فى فرنسا ، فإنهم كانوا لايزالون فى مرحلة تحسس مواقع الأقدام . وكانت سياسة التوسع ، ورغم حصولها على تشجيعات من ريشيليو ، لم تحصل إلا على نتائج قليلة القيمة . وحصلت مع كولبير على دفعة قوية . ولما حصل كولبير على تكليف من الملك ، فى عام ١٦٦٢ ، بالإهتمام بهيكل

شئون البحر ، أظهر همة فى التنفيذ ، وأنشأ على التوالى ، وعلى طريقة جيرانه الهولنديين والإنجليز ، شركتين كبيرتين بالأسهم ، واحدة للهند الغربية ، والثانية للهند الشرقية . ونتيجة لجهوداته ، ونتيجة للدعاية التى أثارها ، حصلت هذه الشركات الجديدة على رؤوس أموال تفوق رؤوس أموال الشركات التى أنشئت فى عصر ريشيليو ؛ وسوف تعيش هذه الشركات لفترة أطول ، وبخاصة الشركة الثانية ، والتى سرعان ماتنشأ لها هذه فرنسية . وكان ميناء رسو سفنها ، الذى أنشىء فى عام ١٦٦٤ تحت إسم بورلوى ، سيصبح سريعاً ، بالنسبة للعامة هــو لوريان L'Orient ، ثم Lorient . وتأكد التفوق الهولندى من واقع أن أول مدير للشركة فرانسوا كارون ، كــان من أصل بلجيكى ، وكان قد نقل من الشركة الهولندية ، التى كان قد أقام فى خدمتها ، ولمدة طويلة ، فى اليابان ، ثم فى بتافيا .

وكانت البداية صعبة . ففى أثناء سنوات عديدة ، إمتنعت الشركة ، التى أخذت فى مدغشقر ممتلكات شركة الشرق ، عن القيام بعملية لغزو الجزيرة ، والعمل على توطين الفرنسيين فيها ، وإنشاء مستعمرة حقيقية . ثم تخلت عنها فى عام ١٦٦٩ . وفى ذلك الوقت تحول رسو السفن الذاهبة إلى الشرق الأقصى من فور دوفان إلى جزيرة البوربون ، التى كانت قد أصبحت من بين الممتلكات الفرنسية فى نفس فترة ضم مدغشقر . ثم إضطروا لاخلائها بدورهـا ، بعد بضعة أعوام .

ولكى يتصلوا بسوق الهند ، قاموا بانشاء أول مركز تجارى **Comptoir** فى عام ١٦٦٨ فى سورات ، التى كانت مركزاً للتجارة فى منتجات الهند ، والتى كان الانجليز والهولنديون مقيمين فيها جنباً إلى جنب . وإلى الجنوب أكثر من ذلك ، أصبحت المراكز التجارية الصغيرة تنتشر ، فى السنوات التالية ، على طول ساحل

ملابار . وبعد ذلك ، تم إختيار مازوليباتام فى عام ١٦٧٠، على ساحل كروماندل، وهنا أيضاً ، رغم وجود الهولنديين . وكانوا يمارسون هناك تجارة التصدير بشكل أساسى . وكان القطن والمنسوجات القطنية تحتل المكان الأول فيها . وعرفت المنسوجات المطبوعة رواجاً وإزدهاراً فى الغرب : فنافست ، عند السيدات ، المنسوجات الحريرية . ولما كان الهنود بغير إحتياجات كبيرة ، فإن الواردات كانت محصورة فى مواد قليلة ، مثل الأصواف بنوع خاص ، والأدوات الحديدية .

وهكذا نجد أن الفرنسيين، الذين أرسلهم كارون، قد إستولوا على مازوليباتام، وأقاموا فيها . ولكن الهولنديين قاموا بمحاصرتهم ، فإضطروا إلى الخروج منها، بعد أن قاموا بالدفاع عنها ، وذلك فى عام ١٦٧٤ . ووقعت أحداث من نفس النوع فى جزيرة سيلان . وكانت الشركة قد حصلت من السيد المحلى على تصريح بالاقامة فى خليج ترنكيمال : فاستولى الهولنديون على المركز منذ السنة الأولى للحرب . وتحت ضغط القوات الوطنية ، وبتحريض من لاهاى ،كان من الضرورى إخلاء مازوليباتام كذلك . على العكس من ذلك ، نجد أن أحد المراكز التجارية قد أنشىء فى عام ١٦٧٢ فى بوند شيرى ، وبموافقة سيد بيجابور ، والذى كان عدواً لسلطان جولكوند . وفى هذه المرة ، ستكون المنشأة لوقت طويل . ولم يتواجه الفرنسيون والهولنديون فى البحر إلا فى موقعة وقعت فى خليج سان توما . وحين قامت معاهدة نيمبج بإنهاء العمليات الحربية فى أوربا ، لم تغير من شىء فى أوضاع كل من الدولتين فى المحيط الهندى ؛ حتى أنها لم تشتمل على أى ذكر لمنشآت الهند .

وكان دخول إسبانيا إلى الحرب ، فى عام ١٦٧٤ ، يؤدى إلى إشعال نيران هذه الحرب فى مناطق بحرية أخرى : بحر الأنتيل ، وحيث ستعرف القرصنة فيه

إزدهاراً جديدة لها ؛ والبحر المتوسط . ولم يكن رويتر قد حصل فى بحر المانش وعلى ساحل تكسل إلا على نجاح دفاعى . أما فيما عدا ذلك ، فإن الانجليز كانوا حريصين دائماً على تحاشى مواجهات القوة . وحينما إنسحبوا ، بمعاهدة ١٩ فبراير ١٦٧٤ مع الأقاليم المتحدة ، من الحرب ، شعر الأميرال الهولندى بحرية أكثر فى حركاته . ومع مجىء الصيف ، أقلع إلى بحر الأنتيل ، وذلك فى الوقت الذى قام فيه زميله ترومب Tromp بتوجيه محاولاته — التى سوف تفشل — صوب السواحل الفرنسية الواقعة على المحيط ، الأولى ضد بل إيل ، والثانية أمام بايون .

وفى إفريقية ، كان الساحل الغربى ، ومنذ سنوات ، مسرحاً لمنافسات عنيفة بين الفرنسيين والهولنديين ؛ وكان الأخيرون قد أقاموا فى جزيرة أرجين الصغيرة ، والتى كانت مركزاً رئيسياً لتجارة الصمغ العربى . أما الفرنسيون فكانوا يفضلون المتاجرة مع مصب نهر السنغال ، والتى كانوا قد أنشئوا فيها قلعة سان لوى ، فى عام ١٦٥٩ . وقاموا منذ عام ١٦٦٦ بطرد الهولنديين من أرجين . وبعد عشر سنوات ، قام الأميرال ديسترى d'Estrées بالإستيلاء على جزيرة جوريه ، والتى كانت إحدى الممتلكات البرتغالية السابقة ، ثم إنتقلت إلى الهولنديين فى عام ١٥٨٨ .

وحين تبع لوى الرابع عشر المثل الذى أعطاه مزران ، الذى كان قد فكر فى عام ١٦٤٧ فى غزو نابولى ، وصل من وقت مبكر إلى فكرة أخذ صقلية من الإسبانيين . وكانت الفرصة مثيرة للإغراء . فكان أهالى مسينا ، الذين أثارتهم تضخم الصعوبات فيما يتعلق بالمواد الغذائية ، قد قاموا بالثورة . وقاموا بطرد ممثل الملك ، ثم طلبوا معونة فرنسا . ولكن لوى الرابع عشر لم يتسرع . فكان يخشى مما كان يسميه «سوء طبيعة» أبناء صقلية — ولنقل عدم ثباتهم على موقف.

فإكتفى فى أول الأمر بتموين مسينا ، التى أخذ الإسبان فى الاستعداد لمحاصرتها . وبعد المواد الغذائية ، والذخائر ، أقلع الجنود على السفن ، من مرسيليا . فى بداية عام ١٦٧٥ . وسمحت معركة بحرية قصيرة المدى — هى معركة استرمبولى — لقائد الحملة ، دوق فيفون Vivonne . بأن يقتحم مضيق مسينا، وينزل رجاله إلى صقلية . ولقد إستمرت العمليات بعد ذلك ، على البر وعلى البحر ، خلال ثلاث سنوات . وفى عام ١٦٧٦ — وهذه العملية القائمة بذاتها تعتبر علامة على التغيرات التى حدثت فى الغرب منذ ربع قرن — وصلت قوات هولندية لكى تنضم إلى الجيش البحرى الإسبانى . وكانت بقيادة رويتر ، الذى أتى من الأنتيل ، التى لم يحصل فيها إلا على الفشل . وفى موقعة جزر ليبارى ، تمكن ديكن Duquesne من ردهم . وبعد أن إنضموا إلى القوات الإسبانية ، دخلوا إلى معركة جديدة قرب كاتان ، ونزلت بهم هزيمة جديدة :أما رويتر الذى أصابه جرح خطير فى أثناء المعركة ، فإنه مات بعد وقت قصير فى سيراكوز. وجاء نجاح ثان للفرنسيين قرب بالرمو على القوات الإسبانية الهولندية لكى يتم كذلك عام ١٦٧٦ . ولذلك فإن أساطيل الملك العظيم أصبحت لها السيادة على البحر ، وبلا أدنى جدال . ولكن هذا لم يكن كافياً لضمان إمتلاك صقلية .

وفى أثناء ذلك الوقت لم يوافق لوى الرابع عشر ، ورغم إصرار كولبير ، على تقرير أمر إرسال إمداد بأعداد كافية ، ويبدو أنه كان أكثر إنتباها لما كان يحدث فى بحر الأنتيل ، وحيث كان القراصنة يتنافسون فى النشاط مع الأسطول الملكى ، الذى كان قد وصل هناك عند نهاية عام ١٦٧٦ . وكان الشاغل الأول للأميرال ، كونت ديستري ، هو أن يأخذ كاين من الهولنديين . وبعد ذلك، قام الأسطول الهولندى بالدخول فى معركة غير متكافئة ، قرب سواحل جزيرة تباجو،

خرج منها نصف محطم . وتقوى مركز ديسترى بهذا النجاح ، وعاد إلى فرنسا لكى يطلب أوامر جديدة ، ووسائل جديدة للحرب . وسيصبح هدفه الآن كراكاو ، إلى جنوب خليج المكسيك . وقبل أن يصل إليها ، أصابته ، قرب جزر آف ، على ساحل فنزويلا ، ونتيجة للعناصر غير المنضبطة ، وكذلك لأعمال العدو ، كارثة كبرى : فغرقت ثلاثة عشر سفينة ، مع ٥٠٠ بحار ، وكل قطع المدفعية (١١ مايو ١٦٧٨) .

وتميز القراصنة بنجاح أكثر وضوحاً فى بحر المانش ، عنه فيا وراء المحيط . ولقد تحدثوا علاوة على ذلك ، وفى ذلك الوقت ، عن عمليات الاستيلاء Caprerie أكثر من حديثهم عن التسابق البحرى Course ،وأخذ إسم Capres يحل محل كلمة Coursaires . وكان الأكثر شهرة من بينهم فى ذلك الوقت هو جان بار Jean Bart ، وكان من دنكرك ، وكان قائداً سابقاً لفرقاطة ملكية . وهنا أيضاً نجد أن العلاقات كانت مستمرة ، والتعاون متوالى ، بين سفن الأسطول والسفن التى تقودها عناصر غير نظامية . وفى شهر يوليو ١٦٧٧ ، وقع أسطول هولندى فى قبضة خصومه قرب وسانت ، وتحطم جزء منه .وفى بداية عام ١٦٧٨ ، وبينما كان الدبلوماسيون قد أخذوا بالفعل فى الإعداد للصلح ، كانت هناك مهمة أخرى تنتظر البحاره الفرنسيين : ضمان وتأمين عملية إخلاء صقلية ، وحيث كان التقدم لايذكر ، وحيث كان الملك يشعر بأنه كان يضيع قواته بلافائدة . وكانت عملية دقيقة ، إذ أنها كانت تهدد بإثارة ردود فعل عنيفة عند الأهالى . ولكى يتفادوا ذلك ، إحتفظوا بالأمر الخاص بركوب السفن سراً ، حتى اللحظة . وكانت القوات قد وصلت إلى فرنسا ، فى الوقت الذى توصلت فيه المفاوضات ، التى جرت فى نيميج ، إلى الصلح العام .

٤ - المفاوضات ، ومعاهدات نيميج (١٦٧٨) :

بعد فشل مؤتمر كولونيا ، لم يرجع الدبلوماسية نشاطها إلا فى عام ١٦٧٦ : وإضطر شارل الثانى ، تحت ضغط البرلمان ، إلى قبول الوساطة . وتقرر أمر جمع مؤتمر جديد من أجل الصلح . ولكن مصير العمليات الحربية ظل غير مؤكد - إلا على البحر ، وحيث حصلت البحرية الفرنسية على السيطرة على البحر المتوسط - ولم يكن المتحاربون يرغبون فى سرعة نهايتها . ولقد إستمرت المفاوضات ، ببطء ، أثناء عام ١٦٧٧ كله ، دون وقف العمليات الحربية ، كما كان عليه الحال وقت مؤتمر مونستر . وأظهر لوى الرابع عشر أنه يصعب التفاوض معه ، وأظهر ويليام أورانج ذلك بدرجة أقل . وفى شهر نوفمبر ، ينتشر الخبر عن زواج « صاحب الدولة » من إبنة أخ شارل الثانى ، إبنة دوق يورك . ولم يكن معنى هذا الحدث يسمح بأى شك : فكان ، مباشرة ، يعنى تحالفاً بين إنجلترا والأقاليم المتحدة ، وبالنسبة للمستقبل ، ضمان بأن تولى العرش فى إنجلترا سيستمر فى أسرة بروتستانتية : خاصة وأن شارل الثانى لم يكن قد أنجب ، وكانت مارى ، أميرة يورك ، هى وارثة التاج .

وسرعان ما إستخلص الدبلوماسيون من هذا الزواج النتائج الحتمية . وفى شهر يناير ١٦٧٨ ، تم التوقيع فى لاهاى على إتفاق إنجليزى هولندى ، كان يشبه ، إلى حد بعيد ، إتفاق عام ١٦٦٨ : فوجدت فرنسا من جديد أن أصدقائها بالأمس كانوا يمنعونها من أن تطرد أعدائها الألداء من الأراضى المنخفضة . وهكذا وجد لوى الرابع عشر ، من جديد ، نفس العقبة التى لم ينجح فى التغلب عليها منذ عشر سنوات ، تعود أمامه من جديد . ولما كانت الوسائل تعوزه لكى يتفاداها ، فإنه سيضطر إلى التراجع ، كما حدث فى المرة الأولى ، ويعقد الصلح دون أن ينتظر اكثر من ذلك . وجاءت المقاومة الأخيرة من ويليام اورانج ،

الذى كان مشغولا بتنظيم « حاجز » ضد الطموحات الفرنسية فى المستقبل . ولكن وصول العدو حتى جاند ، فى بداية حملة ١٦٧٨ ، إضطره إلى التراجع إلى مواقف أكثر إعتدالا . وسيتم عقد معاهدات منفصلة فى نيميج ، الواحــــده بين فرنسا والأقاليم المتحدة (١٠ أغسطس ١٦٧٨) ، والثانية بين فرنسا وإسبانيا (١٧ سبتمبر) . وكان على إسبانيا أن تدفع ثمن السلام ، بتركها لهم يقتطعون منها الأراضى المنخفضة ، وللمرة الثانية ، فى مدة عشر سنوات .

وكانت حدود عام ١٦٦٨ لها مساوئها . وكان فوبان Vouban قد أكد ذلك فى خطاب أرسله إلى لوفوا Louvois ، فى شهر يناير ١٦٧٣ ، تستحق بعض فقراته أن تصبح شهيرة : « سيدى ، على الملك أن يفكر جدياً فى تسوية ممتلكاته . وهذه الفوضى فى الأماكن الصديقة والمعادية ، والتى تختلط كل منها بين الآخرين لا تعجب أبداً . . . . » . ولقد إهتم الملك بهذا الرأى . فبعض الأمـاكن ، التى كانت داخلة فى الأراضى الاسبانية ، — مثل كورتراى ، وأودينارد ، وآت بينش ، وشارلروا — أعيد تسليمها . وفى نظير ذلك ، تم إكمال شبكة الأماكن الفرنسية عن طريق الحصول على آير ، وسان أومر آرتوا ، وكـامبراى ، وكامبريسيس ، وفلانسيان،وبوشان . وكونديه،وموبيج فىهاينوت ؛ وأخيرا ، إيبر ، وبوبيرينج ، وبيول ، وكاسل فى الفلاندر . وكانت عملية تحديد الحدود ورسمها ، على أرض الأقاليم التى تم التنازل عنها ، شاقة للغاية : ولم يتمكن ممثلو الدولتين ، الذين إجتمعوا فى كورتراى ، من إبعاد كل أسباب الخلاف . ومن جانب آخر ، أعيدت مدينة أورانج إلى مالكها الشرعى : وإن كانت أسوارها لن تبنى من جديد . وفى إفريقية ، أصبحت جزيرة جوريه من الممتلكات الفرنسية . وكانت النتيجة الأكثر أهمية لهذا الصراع الطويل هى ضم فرانش كونتيه : فإمتدت حدود المملكة مباشرة من السون إلى الجورا .

وكان الإمبراطور قد أنهى الحرب فى عزلة شبه كاملة . وكانت لديه مشغوليات ضخمة فى الشرق ، خاصة وأن المجر كانت تتحرك . وفى عام ١٦٧٧ وعد لوى الرابع عشر باعطاء تأييده لميشيل آبافى Michel Apafy ، أمير ترانسلفانيا ، والخاضع للسلطان . وفى العام التالى ، تفاوض مع ميشيل تيلكى Michel Teleki الذى جاء بعد آبافى ، والذى تولى قيادة جيش مكون من أبناء ترانسلفانيا ومن الثوار المجريين . ولذلك فان حالة الحرب ظلت موجودة ، وبكل عناية ، فى المجر .

ولقد إنتهى الأمر بليوبولد ، هو الآخر ، إلى أن يتفاوض فى تيميج ، ولكن بعد ستة أشهر من الآخرين (٥ فبراير ١٦٧٩) . وتنازل للملك عن موقـــع فريبورج ، مع طريق يصل بريساخ بفريبورج . وبهذا الثمن إستعاد ملكية فيليبسبورج ، وحيث كان الفرنسيون يمارسون حق احتلال منذ ثلاثين عاما ، وإعترفت الدول بذلك فى عام ١٦٤٨ . وفيما عدا مسألة فيليبسبورج ، تأكدت معاهدة مونستر فى جميع فقراتها . وعالجت إحدى الفقرات الخاصة مسألة إعادة اللورين إلى دوقها ، ولكن بدون نانسى ، وبدون لونجوى . ولقد رفض الدوق الجديد — الذى أصبح الآن شارل الخامس — أن يعود إلى بلاده ، بعد أن إقتطعت منها عاصمتها .

ومن بين كل المتكتلين ، لن يبقى شاهراً سلاحه سوى منتخب براندبورج . وشيئاً فشيئاً ، إمتدت الحرب إلى كل المنطقة التى تطل على غرب بحر البلطيق . وقام لوى الرابع عشر ، بعد عقد الصلح ، بإرسال جيش لإنقاذ حلفائه السويديين ، والذين كانوا فى صعوبات . ورأى بعد ذلك ، وبقليل ، أمر إنهيار خصومهم . وتحت ضغط الحاجة ، وعد المنتخب العظيم بالتخلى عن كل الأراضى التى كسبها ، تقريباً . ولم تكن له حرية فى الإختيار : فكان أحد الجيوش الفرنسية قد إحتل دوقية كليف التابعة له ، وتقدم مهدداً داخل وستفاليا . ووافق فى سان جرمان

إن لاى على الشروط التى فرضها لوى الرابع عشر بإسم حلفائه السويديين (٢٩ يونيو ١٦٧٩) . وكانت السويد قد تنازلت له ، من ناحية أخرى ، على عدد من المقاطعات فى بوميرانيا ، الأمر الذى سهل أمر الحصول على موافقته .

ولما كان ملك الدانمرك قد تأخر فى الإتفاق ، قام الفرنسيون كذلك بإحتلال إحدى بلاده ، وهى دوقية أولدينبرج . فوافق هو كذلك ، بالمعاهدة التى تم التوقيع عليها فى فونتنبلو (٢ سبتمبر) ، على صلح يتضمن التنازل ، وكذلك الخضوع .

وهكذا نجد أن الحرب التى أعلنها لوى الرابع عشر ضد الأقاليم المتحدة قد إمتدت بشكل عام . وجاء تسوية عام ١٦٧٨ ، وبسبب كثرة عدد من شارك فيها ، تذكر بتسويات عام ١٦٤٨ : فكانت لكل الغرب مصالح فيها . ولم تكن بلدية باريس تشعر بالحاجة إلى أن توافق على رغبة الحاشية للتقرب من الملك ، حين لقبته ، بعد ذلك بقليل بلقب « لوى الأكبر » .

ومع ذلك ، فإن الخصم الأساسى ـ أو على الأقل خصم البداية ـ لم يظهر على أنه قد إنهزم ؛ بأى شكل من الأشكال . فلم يفقد الهولنديون أى إقليم ، ومن الناحية الإقتصادية ، لم يخسروا شيئاً مهماً . وكان تأييد الإنجليز لهم ، كوسطاء ، له فائدته ؛ إذ أن الإنجليز قد وجدوا أن لهم مصلحة ، هم كذلك ، فى التراجع عن تعريفة عام ١٦٦٧ الجمركية . وكانت كرامة لوى الرابع عشر لا تقبل أمر أن يظهر التخلى عن هذه التعريفة ، أمام العالم ، على أنه مفروض عليه ، فإمتنعوا عن النص على أى شىء يتعلق بذلك فى صلب المعاهدة ؛ وإكتفوا بوعد شفهى . ولذلك فإن المعاهدة لاتشتمل ، فى هذا النطاق ، إلا على صيغ عامة للغاية ، مثل : إعادة حرية التبادل ، والتخلى عن كل ميزات خاصة تحد من حقوق كل طرف . وبعد ثلاثة أسابيع من التوقيع ، صدر قرار من المجلس بإعطاء الهولنديين من

زيادات التعريفة الجمركية التي صدرت في عام ١٦٦٧ .

وكان في وسع الأقاليم المتحدة أن تدعي إذن أنها قد قاومت الإعتداء ، وإنتصرت عليه . وكانت قد نجحت في إضاعة نتائج الصدمة الأولى ؛ ثم نجحت في الحصول على المحالفات التي عملت على شل حركة الخصم ، وعلى منعه من العودة إلى الهجوم . وكانت النتائج هامة،أمام العالم : فذلك الصراع بين الدولة العسكرية الأولى في ذلك العصر ، وبين القوة الاقتصادية الأولى،قد إنتهى في صالح الثانية . وكان في ذلك مايثير تفكير من ظل لايحترم سوى القوة . ولا شك في أن هولندا الصغيرة لم تنتصر على تلك الكتلة الفرنسية . ولكنها كانت قد عملت ، على الأقل على فشلها ؛ ولم تخضع في نهاية الأمر لقوانينها . وبعد أن أدت أحداث غير متوقعة إلى إجهاض مشروعات وآمال فرنسا في عام ١٦٧٢ ، نجد أنه مما يثير الدهشة أن المسئول الرئيسي لم ير فيها درساً يعلمه التواضع ، أو أكثر من ذلك بساطة ، يعلمه الإعتدال . فلم يكن الحال كذلك ، وسوف نتأكد من ذلك بعد قليـــل .

ومع مرور الزمن ، لن يتأخر مؤرخي لوى الرابع عشر عن منع أنفسهم عن أن يروا في حرب هولندا خطأ ، وربما خطأ كبيراً بالنسبة لحكمه ؛ خاصة وأن نتائجها كانت هامة . وليحاولوا أن يتصوروا صداقة هولندا ، أو حتى مجرد حياد هولندا ، وقيمتها بالنسبة لفرنسا ، في ضوء الأحداث التالية ، وفي إطار ذلك الصراع الطويل الذي سوف يبدأ مع الدولة الإنجليزية . ولم يكن هناك أي شيء حتمي في إتحاد هاتين الدولتين البحريتين ؛ بل كان الأمر بعيداً عن ذلك كل البعد : وكان الماضي القريب قد بدا على أنه يحكم عليهما بالعداوة الأساسية . وكان الزواج الذي وحد في عام ١٦٧٧ بين ويليام أورانج وبين وريثة آل ستيوارت ، والذي سمح له فيما بعد بأمر وراثتهم ، هو نتيجة — وكما كان أمر

وصوله فى عام ١٦٧٢ إلى منصب « صاحب الدولة » — لتلك المخاوف التى شعر بها الإنجليز والهولنديون من سياسة لوى الرابع عشر العدوانية . وهذا الأمر وحده يظهر بوضوح تأثير مثل هذه الحرب ، على المستقبل ؛ تلك الحرب التى لم تعلن لأسباب طارئة — فكولبير ، الذى كان صانعها الرئيسى ، لم يكن بكل تأكيد خفيفا فى تصرفاته — ولكن لأسباب كانت أهميتها ، بعد تقييمها جيداً ، لاتبرر أمر الإلتجاء إلى السلاح : فكان لفرنسا ، فى حرب جمركية قد إستمرت منذ سنوات طويلة ، بطاقات كافية تسمح لها بأن تحصل على أكثر مما أعطتها ، فى هذا الميدان ، معاهدة نيميج ، وبعد ست سنوات من مجهودات الحرب .

وكان فينيلون Fénelon ، ذلك المراقب ذا الفكر الصافى ، قد كتب حكم الأجيال التالية عليها ، ودون أية مراعاة خاصة الملك العظيم . فى خطاب مفتوح ، أرسله فيما بعد ، فى عام ١٦٩٤ ، إلى الملك ، ويعتبر إتهاماً مطولا له ، حكم بدون أى تحفظ على حرب هولندا بأنها هى « أساس كل الحروب الأخرى » . « فما أكثر الإضطرابات البشعة التى نزلت بأوربا منذ أكثر من عشرين عاماً ، وما أكثر الدماء التى أريقت ، وأكثر الأقاليم التى تخربت ، والمدن والقرى التى تحولت إلى رماد ، إنها النتائج البشعة لهذه الحرب عام ١٦٧٢ ، التى قمت بها من أجل «مجدك» ومن أجل إرباك يصنعون الجرائد ، ومن يصنعون أنواط هولندا ... » .

الفصل التاسع عشر

فرنسا والصداقة العثمانية ـ والتحادات، عام ١٦٨٠، وحرب رابطة أوجسبورج (١٦٨٨-١٦٩٧)

أولا : فرنسا والصداقة العثمانية :

١ ـ كولبير والتوسع البحرى والاستعمارى :

قبل أن يختفى كولبير ، الذى توفى فى عام ١٦٨٣ ، علينا أن نلقى نظرة سريعة على سياسة التوسع البحرى والإستعمارى التى تمت تحت رئاسته . فكل المشروعات التى أشرف عليها فى الخارج لم تكن لها ــ ومن حسن حظ سمعته ــ نتائج سيئة مثل حرب هولندا . وكانت تستوحى من المصالح التجارية ، كما كان دافعها الرئيسى هو الرغبة فى تدعيم المواقع التى يحتلها الفرنسيون فى أمريكا ، وفى المحيط الهندى ، وفى البحر المتوسط . ونحن نهتم بدرجة أكبر فى هذا الفصل بنوع خاص بالبحر المتوسط ، وفى علاقة بتقدم فرنسا فى مراكزه التجارية ، بعلاقاتها مع الإمبراطورية العثمانية .

ولم يكن قد بقى الشىء الكثير ، فى بداية حكم لوى الرابع عشر ، من المجهود الذى كان قد بذله ريشيليو من أجل تحسين أمر إستخدام ممتلكات التاج الأمريكية . فكان الأجانب ، وبخاصة الهولنديون ، قد حصلوا لأنفسهم على الجزء الأكبر من التجارة مع الأنتيل (السكر ، والبن ، والقطن) . وكانت فراء فرنسا الجديدة تباع فى أمستردام وفى لندن . ولقد بذل كولبير أقصى مجهوده ، من أجل إكمال ذلك العمل الذى توقف، وإن كان لم يجدد، إلا فيما يتعلق بزيادة الإهتمام بالأهالى . وفى كندا ، تزايد عدد المعمرين ، نتيجة لمجهوده ، وتضاعف أربع مرات فى

عشرين سنة ، وارتفع من ٢٫٠٠٠ تقريباً إلى ١٠٫٠٠٠ .

وكما كان عليه الحال فى إنجلترا وفى هولندا،كانوا يعهدون بمشروعات التجارة البعيدة ، فى ذلك العصر ، إلى شركات صاحبة إمتياز . وكانت « شركة السنغال » من بين أوائل تلك الشركات التى أسسها كولبير ، فى عام ١٦٦٤ . وكانت مهمتها تتمثل فى أن تزود جزر السكر فى الأنتيل بالعبيد ، منافسة فى ذلك الهولنديين ، الذين كانوا ، حتى ذلك الوقت ، يقومون وحدهم بهذه المهمة . وحصلت على إحتكار « تجارة الرقيق » فى الممتلكات الفرنسية . أما «شركة الهند الغربية» ، التى نشأت فى نفس العام ، فإنها إصطدمت بسوء نية الكنديين ، الذين رفضوا أن يقتسموا معها ، ومع أبناء وطنهم ، أرباح تجارة الجلود والفراء . وواجهتها صعوبات جسيمة حتى أنها إضطرت إلى أن تحل نفسها بعد إثنى عشر عاماً . وكان من اللازم بعد ذلك الإكتفاء بجعل فرنسا الجديدة تحترم مبادىء الميثاق الاستعمارى : فمن الواجب الإحتفاظ بكل العلاقات التجارية مع الوطن الأم لكى تتم تحت العلم الفرنسى .

أما ميدان عمليات « شركة الهند الشرقية » فكان يشتمل على جزيرة دوفين (مدغشقر) ؛ وعلى شبه جزيرة الهندستان فى نفس الوقت ، وحيث كانت المحققات الأولى ترجع ، كما رأينا ، لفترة حرب هولندا .

وأما « شركة الشمال » ، والتى كانت تهدف المشاركة فى تجارة بحر البلطيق ، وفى علاقته مع موانى براندبورج والموانى البروسية ، فانها وجدت أن مستقبلها قد تهدد ، فى وقت مبكر ، بذلك التقارب الذى تم بين المنتخب فردريك ويليام وبين أعداء الملك . وحصلت شركة جديدة لشرق البحر المتوسط فى عام ١٦٧٠ على حق إحتكار العلاقات مع المراكز التجارية هناك ، والتى كانت ميداناً تقليدياً للتجارة الفرنسية فى الخارج . وتشبها بالشركة الانجليزية وبالشركة الهولندية ،

حصلت لسفنها على إمتياز « إصطحابها » أى أن تحرسها السفن الحربية ، وبشرط أن تتجمع سفنها فى شكل قافلة واحدة ، وتقلع من مرسيليا فى وقت محدد .

٣ - تجديد معاهدة الامتيازات الأجنبية فى ١٦٧٣ :

وكان فى وسع كولبير الكبير ، وكذلك فى وسع أخية كولبير دى كروامى Colbert de Croissy ، والذى أصبح فى عام ١٦٧٩ وزيراً للدولة للشئون الخارجية - ولأنه كان يهتم دائما ، وقبل كل شىء بمصالح التجارة - أن يزيـــد إهتمامه بالمشروعات البحرية ، وبخاصة تلك التى كانت تخدم مصالح فرنسا فى البحر المتوسط . وقبل وفاته ، ترك هـذه النصيحـة لإبنه ، وخليفتـه سينيلاى Seignelay : « فكر دائما فى الوسائل التى تجعل الملك يسيطر على البحر المتوسط » . ولذلك فإن الفترة التى سيطر عليها بنفوذه وبإسمه كانت فى منتهى الأهمية فى قطاع البحر المتوسط ، وبخاصة بالنسبة لعلاقات لوى الرابع عشر بحكومة إستانبول .

وكان إصرار الأتراك على غض النظر عن تدخلات الغرب ، وبخاصة تدخلات الفرنسيين ، فى حرب كنديا ، فى خلال السنوات الأولى من حكم لوى الرابع عشر الشخصى قد أظهرت تمسكهم بالمحافظة على العلاقات الودية مع الدول المسيحية . ولم يبد عليهم فى إستانبول أنهم قد رأوا إرتكاب مخالفات متعمدة ضد الصداقة التى كانت تربط السلطنة تقليدياً مع فرنسا . ولم يخضع سفير لوى الرابع عشر فى أعوام ١٦٦٨ و ١٦٦٩ لإجراءات مشابهة لتلك التى إتخذوها ضد سلفه فى عام ١٦٦٠ . ومن كل من الجانبين ، لم يفكروا إلا قليلا فى أمر قطع العلاقات ، حتى أنه فى الوقت الذى كانت فيه نيران الحرب مشتعلة أمام كنديا ، حضرت فرقة بحرية - ثلاثة سفن تحت قيادة رئيس الفرقة - ورست أمام إستانبول ، لكى تأخذ سفير الملك ، والذى كانت مهمته قد إنتهت . وفى شهر

أغسطس ١٦٦٩ ، وبينما كانت الوحدة الفرنسية لم تترك كريت بعد ، قامت سفينة فرنسية بأخذ مندوب فوق العادة للسلطان ، على ظهرها ، وكان مكلفاً بمهمة ودية للغاية لدى لوى الرابع عشر .

وكان الأمر يتعلق بأمر تجديد معاهدة الإمتيازات الأجنبية . وكان لوى الرابع عشر قد دخل في محادثات بشأن هذا الموضوع منذ السنوات الأولى لحكمه الشخصى . وكانت الحكومة العثمانية قد عملت بعض الصعوبات ، حينما علمت بالمساعدات التى أعطيت لقوات الامبراطور فى المجر ؛ ومنذ ذلك الوقت ، ظل الأمر معلقاً . وإذا ما كانوا قد رجعوا إليه فى مثل ذلك الوقت ، فإن ذلك يظهر على أنه دليل على أنه كانت لديهم الرغبة ، فى إستانبول ، فى منع فرنسا من التورط أكثر من ذلك فى سياسة معادية للدولة العثمانية . ولم يكن هناك ـ قبل ذلك ـ أبداً سفيراً دائماً للسلطان فى باريس . ولذلك فإن عملية وصول مندوب مكلف بأن يحمل للملك خطاباً شخصياً من السلطان كان يمثل حدثاً خارقا للعادة . فاستعدوا لكى يردوا على مثل هذا الحدث بما يليق به . ورغم أن مندوب السلطان كان شخصية عادية ، فانهم قدموا له أعظم التشريفات والمراسم ، وإهتموا به كل الإهتمام . ولكى يتأكد من عدم الوقوع فى خطأ ، قام وزير الدولة للشئون الخارجية ، دى ليون de Lionne برسم إحتفالات الإستقبال مطابقة لتلك التى تمت لممثل الملك لدى الباب العالى . وتلا ذلك موجة من التشبه بالأتراك ، قام موليير Molière ، فى العام التالى باستمداد الوحى منها حين وضع بعض مناظر معروفة من مسرحيته Bourgeois gentilhomme .

ولقد إستمرت المفاوضات ، التى بدأت فى باريس ، فى إستانبول وبرعاية سفير جديد ، هو ماركيز نوانتيل Nointel . وكانت صعبة ، ولم يتوصلوا إلى كتابة إمتيازات جديدة إلا فى عام ١٦٧٣ . وكانت الدبلوماسية العثمانية ،

حسب عادتها ، تماطل ، وتفرض على المفاوض عملية إبطاء غير محتملة ، وتهدد بتثبيط همته ، وتجعله يطلب العودة إلى بلاده . وكانت تهتم قبل كل شيء بمظاهر القوة ، ولم تقرر إنهاء الأمر إلا بعد أن علمت بالانتصارات التي حصلت عليها جيوش الملك في هولندا . وبالنسبة لفرنسا ، كانت الميزة الرئيسية لمعاهـــدة الامتيازات . عام ١٦٧٣ تتمثل في التخفيض العام لرسوم الجمارك على السلع المستوردة . وسيقولون ، بعد ذلك ، أن السلطان قد إعترف ـ بطريقة ضمنية إلى حد ما ـ بحمايه فرنسا على الكاثوليك المقيمين أو الزائرين الإمبراطورية العثمانية . ومن ناحية أخرى ، لم تتضمن هذه المعاهدة أى شيء يتعلق بالإلتزام ، الذى فرض تقليدياً على رعايا الأمم الأجنبية الذين لا يفيدون من الإمتيازات الخاصة ، بأن يضعوا أنفسهم تحت حماية « راية فرنسا » ، وقناصل الملك .

ولذلك فإن الصداقة الفرنسية العثمانية قد ظلت سليمـة . وسوف تستمر في السيطرة على كل التاريخ السياسي للبحر المتوسط ولجنوب شرق أوروبا . وفي عام ١٦٧٦ رفض الملك فكرة إقامة تحالف رسمى موجه ضد أسرة هابسبورج ، والتي كانت حكومة إستانبول قد إقترحتها . وتجدد العرض ، مرة جديدة في عام١٦٧٧ ودائماً بلا جدوى .

وفي هذا العام بالذات ، جاء خلاف بشأن المراسم لكي يعكر صفو العلاقات الفرنسية العثمانية ، ومع إمتداده ، أخذ شكـــلا جعلهم يخشون من الوصول إلى قطيعة . وكانت مسألة « الأريكة » Sofa قد نتجت عن تعديل أدخل ، في أحد الأيام ، على الإحتفال الرسمى في إستقبالات الصدر الأعظم . وبعد أن كان المقعد المخصص للسفير ، يوجد على نفس مستوى مثل السلطان ، أصبح يوضع منذ ذلك الوقت في مكان أكثر انخفاضاً ، وبشكل واضح . وظلت الملاحظات التي قدمت للباب العالي بدون نتيجة ، ورفضت كرامة الملك قبول أى تنازلات ، فأوقفت

هذه الإستقبالات حتى صدور أوامر جديدة ، وحتى اليوم الذى قرر فيه بلاط إستانبول فى عام ١٦٨٣ ، وبعد الفشل الذريع الذى أصاب العثمانيين أمام فينا ، إعادة الوضع القائم .

٣ ـ تخويف شمال إفريقية ، وضرب الجزائر :ـ

إذا كانت سياسة لوى الرابع عشر تجاه العثمانيين قد إستوحت دائماً من فكرة المحافظة على الصداقة التقليدية بين البلدين ، وأن تحافظ على تحالف فريد فى أهميته ضد آل هابسبورج ،فانها لم تعط دليل من ناحية سكان شمال إفريقية على مثل هذه الصداقة الطويلة المدى . بل كان الأمر يختلف عن ذلك كل الإختلاف : فاهتمام الملك « بمجده » أجبره على ان يظهر بمظهر المتشدد أكثر من أى سابقيه . وبعد نيميج ، إعتقد أن الوقت قد حان من أجل وضع حد « لإهانات » سكان شمال إفريقية . فمنذ إتفاقيات عام ١٦٦٦ ، ورغم التعهدات ، إستمرت الصعوبات فى تجددها مع نيابات شمال إفريقية . وكانت عملية فك أسر الأسرى فرصة متكررة لذلك وفى عام ١٦٨١ ، تم تكليف ديكن Duquesn بأن يؤيد ، وبمدافعه ، المطالب التى كانوا قد قدموها منذ بعض الوقت إلى الجزائر .

وكان ديكن فى ذلك الوقت فى شرق البحر المتوسط ، وحيث كان قد قام بعملية تتبع قوات باشا طرابلس (الغرب) ، الذى كان قد رفض تسليم سبعمائة أسير فرنسى . وكان قد وصل أمام جزيرة خيوس ، وحيث كان رجال البحر الطرابلسيين قد إلتجئوا . وقام بعمليات حصار ، إشتكت منها حكومة السلطان ، بطبيعة الحال فى باريس ، فى نفس الوقت الذى ألقت فيه القبض على سفير الملك، وسجنته . وما كادت المسألة تسوى، نتيجة لمظاهرة تهديدية عند مدخل الدردنيل، حتى وصلت الأوامر إلى ديكن بأن يقلع إلى الجزائر : وستكون تحت تصرفه آلات قد إخترعت أخيراً لإطلاق قذائف حارقة ، مجهزة على سفن خاصة

galiotes a bombes ؛ ويمكنه بمساعدتها إحراق المدينة، وتحطيمها تماماً.ورغم قوة الوسائل الموجودة ، لم يحصل على نتائج منذ عمليات القذف الأولى ، التى إستمرت على فترة تقرب من شهر ، من ١٨ أغسطس حتى ١٢ سبتمبر ١٦٨٢ . وكان من اللازم أن يبدأها من جديد فى العام التالى . وكانت عمليات قذف عام ١٦٨٣ ، والتى وصلت إلى أقصى حد من العنف فى الأيام الأخيرة من شهر يوليو، عمليات تمثل نقطة واضحة فى تاريخ البحرية . ولقد تميزت،من الجانب الجزائرى، بعمليات عنف لا داعى لها : فتم تقييد عشرين فرنسيا ، ومن بينهم الأب لى فاشر Le Vacher ، الراعى البابوى وقنصل الملك ، إلى فوهة المدافع ، وتناثرت أشلائهم فى البحر ، وقت إطلاق القذائف . وفى عام ١٦٨٤ فقط ، تمكنت حملة ثالثة ، بقيادة تورفيل Tourville . من أن تحصل من الداى الجديد على التوقيع على معاهدة تتمشى مع مطالب الملك .

وكانت طول فترة مقاومة الجزائريين مثلا سيئاً . فتشجع كل أبناء شمال إفريقية الآخرين من أجل مقاومة الفرنسيين . وكان أبناء طرابلس الغرب، ومنذ وقت بعيد ، من أصعب ما يمكن الإحتفاظ بعلاقات طبيعيه معهم ، فاحتاج الأمر وكما حدث مع الجزائر ، إلى القيام بعمليتين متتاليتين لقذفهم بالمدافع من السفن، حتى يعودوا إلى صوابهم أما أهالى تونس فإنهم فضلوا عدم تعريض أنفسهم لمثل هذه الإجراءات القصوى . وكان لهم كذلك سلوكاً معادياً : فكانوا قد قاموا ، من جديد ، بطرد الفرنسيين من الرأس السوداء Cap Négre ، فى عام ١٦٧٧ ، وتركوا الإنجليز يقيمون هناك ، فى مكانهم . ولقد أجبرهم الخوف من السفن الحارقة على أن يفكروا بعمق . وفى عام١٦٨٥ ، وفى اليوم التالى لعملية طرابلس، وافقوا على تجديد المعاهدات السابقة. فأصبح فى وسع المركز التجارى الموجود في الرأس السوداء أن يعود مرة جديدة إلى فرنسا .

أما المعاهده المعقودة مع الجزائر لمدة قرن ، فإنها لم تضمن فى أول الأمر السلم إلا لمدة تقل عن خمس سنوات. فاحتاج الأمر إلى حملة جديدة منذ عام ١٦٨٨ وكانت عملية ضربها بمدافع الأسطول هى أكثر العمليات عنفاً : فتم إطلاق عشرة آلاف قذيفة على المدينة . وجاءت المعاهدة التى تم التوقيع عليها فى عام ١٦٨٩ لكى تكرر تقريباً بنود معاهدة عام ١٦٨٤ . ولكنها إحترست أكثر من المعاهدة السابقة . وكانت تتضمن فقرة جديدة ، موجهة ضد إنجلترا : فأصبح من حق الجزائريين الذين يقومون بعمليات الجهاد البحرى ضد الإنجليز أن يسمح لهم بقضاء فصل الشتاء والتزود من السواحل الفرنسية . وهكذا رأى الفرنسيون ، فى أثناء حرب رابطة أوجسبورج رجال الجهاد البحرى الجزائريين يستقبلون ويمونون فى الموانى الفرنسية .

ثانيا : « إتحادات » عام ١٦٨٠ :

١ ـ التفكير الجديد ، لوفوا وعمليات « الاتحادات » :

منذ نيمبج ، لم تعد الشخصية المسيطرة فى مجلس الملك هى كولبير . وكانت سياسته المعادية لهولندا قد واجهت ، فى تحليلها النهائى . فشلا ذريعاً ، وأثر ذلك على الثقة فيه . حقيقة أنه لم يعزل ، ولكن مشاعر لوى الرابع عشر حياله أصابها البرود . وهذا الخادم . الذى كان متحمساً لمجد الملك، سوف يختفى فى عام ١٦٨٣ دون أن يأسف أحد عليه ، بشكل واضح .

وكان لوفوا Louvois من زملائه ، وهو الذى حصل على مكانته فى الثقة ، وسوف تؤثر الآن آراءه بشكل واضح . وكان مختلفاً عنه فى كثير من الأمور ، فلم يكن بينهما من الأمور المشتركة سوى الرغبة فى العمل ، والطاقة على العمل . وفى السياسة الخارجية ، كان لوفوا خشناً . وسوف تكون الفترة المقبلة فترة عنف ، وتجاوز مستمر فى العنف . ولسوف يتحدثون بدرجة أقل ، وبكثير ، عن

التجارة وعن الأموال . وسوف تستمر الحرب فى شغل التفكير . وسوف يستمر لوفوا حتى النهاية هو نفس ما كان عليه فى أول حياته، وفى الوقت الذى كان يساعد فيه والده ، أحد وزراء الحرب . وسوف يكون الجيش - البرى بطبيعة الحال - موضع إهتمامه المستمر ؛ ولن يهتم بشئون البحر ، بأيه درجة . وذكر أحد المعاصرين أنه كان « منحرفاً » عن البحرية .

ولم تكن من عادة لوى الرابع عشر أن يفكر بنفسه ، وبعمق . وبعد أن إستمع إلى إقتراحات كولبير المعادية لهولندا ، سوف ينطلق ، بتوجيه من لوفوا فى سياسة عمليات ضم فى وقت السلم ، عمليات ضم بطريق العدالة ، وهى التى إحتفظت فى التاريخ بإسم سياسة « الإتحادات » .

ويمثل موضوع « الإتحادات » مرحلة فريدة فى نوعها ، فليست لها سوابق وليست لها ما يشبهها . وكانت مستوحاة فى المكان الأول من المشغوليات الإستراتيجية . وكانت مشكلات الحدود تستمر فى شغل تفكير لوفوا . وبمساعدة فوبان Vauban ، أخذ يعدد العقبات التى تواجه الغزو على النقط الضعيفة . وفى أثناء حرب هولندا ، إنتهك الأجانب أرض الالزاس مرات عديدة ، وبخاصه فى عام ١٦٧٣ . وفى عام ١٦٧٧ ، رأى إقليم اللورين بدوره وصول طلائع الأعداء، وخشوا ، فى بعض الأوقات ، من أنهم قد حاصروا ميتز . ولقد أقنع لوفوا الملك بأنه من أجل منع مثل هذه الحوادث ، فى حالة تعريض حرب جديدة لمقاطعات الشرق للخطر ، فإنه عليه أن يستخدم وقت السلم ، ليس فقط من أجل تقوية إستحكامات حدود الشمال الشرقى ، ولكنه أيضاً من أجل تحسين خط وسطه فى بعض النقط . وإكتشف الوسيلة بمساعدة أحد رجال القانون الطموحين ، والذى كان رئيس جلسة فى برلمان ميتز ، وإسمه رافو Ravaux : وكانت تتمثل فى أن يقرر ، ومن جانب واحد ، أن يضم إلى المملكة الأقاليم التى يرى أنه لا يمكن

الاستغناء عنها ، طبقا لأحكام قانونية تهدف تفسير بعض مواد المعاهدات السارية ، وبخاصة تلك التى كانت قـــد تنازلت للملك عن أماكن منصوص عليها بالاسم « مع ملحقاتها » . وكان البحث فى الملحقات القديمة سيفتح إمكانيات واسعة ، وفى بعض الحالات غير متوقعة .

وفى شهر نوفمبر ١٦٧٩ ! ، إنشئت دائرة جديدة لهذا الشأن فى برلمان ميتز ؛ وأخذ رجال القانون ، الذين دفعهم رافو ، يعملون بكل نشاط ، حتى أنه أصبح من الواجب ، بعد عدة أسابيع ، تهدئة نشاطهم . وكانوا قد ركزوا ، فى أول الأمر ، على أراض كانت تابعة فى الماضى للأسقف ، أو لمجموعات دينية . ومنذ ١٠ يناير ١٦٨٠ كتب لوفوا إلى رافو : « أرجوك أن تفهم جيداً أن الأمر لا يتعلق أبداً بأن تجمع فى شهر أو شهرين ، وتضم للتاج ، أماكن يعتقد أنه يمكنه أن يثبت أنها تابعة له ، ولكن بأن تعمل بطريقة تجعل أوربا كلها تعرف أن صاحب الجلالة لا يتصرف أبداً بعنف ، ولا يستخدم أبداً حالة التفوق ، التى وضعته فيها صفاته فوق كل أمراء ، لكى يستولى على دول ، ولكنه يرغب فقط فى إعادة الحقوق التى كانت مغتصبة إلى الكنائس » . ورفض بشكل قاطع تلك الفكرة ، التى كان البعض قد تقدم بها ، والتى تتعلق بأن « يوجد » ، ومرة واحدة ، وبعملية واحدة ، دوقية اللورين وباروا والتى « لا تنفصل عن التاج » .

وفى الألزاس ، عهدوا بمهمة مشابهة إلى « مجلس السيادة » الذى كان ينعقد فى بريساش ، وكان يحل محل البرلمان . وهنا ، جاءت قوة الدفع من شارل كولبير Charles Colbert ، ماركيز كرواسى ، الأخ الأصغر لكولبير الكبير ، والذى كان أحد أوائل المفتشين فى هذا الاقليم الجديد ، وتمكن بهذه الصفة ، فى عام ١٦٥٨ ، من أن ينشىء « مجلس السيادة » . وكان كولبير دى كرواسى قد أصبح فى شهر نوفمبر ١٦٧٩ ، وزيراً للشئون الخارجية ، فعضد سياسة « الاتحادات »

بكل طاقته ، وكان مقتنعاً بها . ولما كان الأمر يتعلق بنوع خاص بتفسير بنود معاهدة نيميج ، فإنهم لم ينسوا فرانش كونتيه : فتم تكليف برلدنها ، الذى كان قد نقل دول Dole إلى بيزانسون ، وفى نطاقه ، بنفس المهمة التى كلفوا بها دائرة ميتز ، ومجلس السيادة فى الألزاس .

وكانت النصيحة هى أن يعملوا بسرعة . ولذلك فإنهم لن يتأخروا أكثر من اللازم . وبمجرد صدور قرار ، تحدد المحكمة المالك ، أو صاحب الحيازة على الاقليم المعين ، وتدعوه إلى الحضور للدفاع عن حقه . وفى غالب الأحيان ، يستلم هذا الأخير بلاغاً يعرف أنه لا ينتظر أى شىء منه ، ولا يحضر . ولذلك فإن الحكم فى الموضوع يصدر فى غيابه : فيصدر قرار ، سليم فى شكله ، يعلن أن الاقليم قد « توحد » مع المملكة . وتقوم فصيلة من الفرسان ، تكلف بالبقاء فى الموقع ، بوضع الشارة الملكية على واجهة المبانى العامة .

وسيكون من التطويل الكبير أن تذكر هنا قائمة الاماكن التى « إتحدت » أو « توحدت » فى أثناء عامى ١٦٨٠ و ١٦٨١ . وكان العدد مرتفعاً بنوع خاص بالنسبة للألزاس . ولما كان الملك قد أصبح منذ ذلك الوقت صاحب السيادة على كل من الألزاس العليا والسفلى ، فإن جميع السادة الأجانب عن الإقليم دعوا لكى يعلنوا له الولاء من أجل مناطق نفوذهم فى الألزاس . ومها كانت الأسباب التى تذرعوا بها من أجل الرفض ، فإن هذه الأقاليم أعلنت على أنها قد « إتحدت » مع التاج ، ودعى القائمون على إدارتها لأداء القسم أمام الموظفين الملكيين . وبهذه الطريقة تمت فى شمال المقاطعة عملية «إتحاد» مدينتى لونزبرج وجرمرشيم ، واللتين كانتا من ممتلكات منتخب البلاتينات ، وتم ذلك بصفتها من الملحقـــات السابقة لأبرشيه وسمبورج . واضطر كل السادة ، كبـارهم وصغـارهم ، والذين كانوا لا يزالون يعتزون بميزة « المباشرة » مع الإمبراطورية — وبالتالى لا تعترفون

بالسيادة الملكية — إلى أن يقسموا بالولاء للملك . ولذلك فإنه من حقنا أن نقول بأن « إتحاد » الألزاس مع فرنسا ، والذى بدأ بمعاهدة مونستر ، لم يصبح فعالا إلا فى اليوم التالى لأحداث ١٦٨٠ — ١٦٨١ .

وفى قطاع فرانش كونتيه ، علينا أن نذكر « الإتحاد » — المؤقت — لبلدية مونتبليار ، والتى كانت من ممتلكات دوق فرتنبرج . وعند حدود اللورين ، نزع موقع فراولوترن ، على السار ، من كونت ناسو — ساربروك : وفى مكانه ، سرعان ما يقوم فوبان بإقامة موقع حصين يسمى سارلوى . وأخذ كل الأمراء المجاورون للأراضى الفرنسية، فيما بين الموزيل والفوج، فى الشكوى من إعتداءات مشابهة . وكان الأكثر فى عدم الملاءمة من بين عمليات الضم التعسفى هذه ، هو عملية ضم دوقية ديه بونت ، تلك البلدية الصغيرة التى كانت قد تخربت بطريقة مستمرة فى أثناء الحرب ، بأوامر من لوفوا . وكان أن وعدت وراثة ديه بونت فى نهاية الأمر للملك السويد ، الحليف التقليدى لفرنسا ، والوحيد الذى كان قد ظل مخلصاً لها خلال حرب هولندا. وكان إحتجاج شارل الحادى عشر عنيفاً، وساعدت صيحات سفرائه فى الخارج ، إلى حد كبير ، فى إثارة فزع أوربا ضد لوى الرابع عشر .

وإن من ينظر إلى الخريطة يجد أن أكثر « إتحادات » ١٦٨٠ - ١٦٨١ إثارة للدهشة تتمثل فى ذلك الموقع الحصين الذى يحيط به أحد أفرع الموزيل قرب تريف : شبه جزيرة ترافن، قرب قلعة ترارباك والتى كانت ملحقة بكونتية فالدنز. وهنا أيضا، سوف تبنى قلعة جديدة بسرعة، حسب خطة فوبان . وسوف يعطونها إسم مونت رويال .

٢ — تهديد إسبانيا ، بعد غزو لوكسمبورج :

كان نشاط دوائر عملية « الإتحادات » قد حدث فى نفس الوقت الذى كانت

فيه المحادثات تجرى بين الفرنسيين والإسبانيين، فى شهر ديسمبر ١٦٧٩، فى كورتراى، من أجل تحديد الحدود الجديدة الناتجة عن معاهدات نيميج . وكانت صعوبات تتعلق بالمراسم قد أجلت بدئها حتى شهر سبتمبر ١٦٨٠ . ولذلك فإن قرارات دائرة ميتز نتج عنها وضع المفوضين الإسبان أمام الأمر الواقع : فتم على مراحل أمر إحتلال كل دوقية لوكسمبورج ، وكذلك كونتيه شينى ، وموقع جيفيه وملحقاته ، على الميز . ولذلك فإن الاسبانيين لم يكونوا آخر من إحتج على سياسة « الإتحادات » . ومنذ أول الأمر ، كانوا قد رفعوا صوتهم إلى جانب الشكاوى التى إرتفعت فى ألمانيا : وفى ذلك المجال ، فضح الكتاب الألمان تلك الطريقة التى جعلت من لوى الرابع عشر يظهر فى شكل رئيس عصابة. وكان على الأمة الفرنسية، التى كانت تحب نفسها فى ملكها، أن تتلقى الضربة المضادة لذلك الغضب الذى تزايد فى كل مكان . وعندئذ قرروا ، فى باريس ، وقف نشاط دوائر « الإتحادات » . ووافقوا على أن يعرضوا القرارات التى كانت قد صدرت على لجنـــة مشتركة ، إمبراطورية وفرنسية ، تجتمع فى فرانكفورت . وفى إنتظار ذلك ، يوقف كل إجراء جديد . وسوف تجيء الأحداث التالية لكى تقضى على نتائج هذا التصرف الذى يدل على حسن النية . ففى الوقت الذى تعقد فيه اللجنة أولى جلساتها، جاءت الأنباء بأن عملية قوة مزدوجة قد تمت فى نفس اليوم بواسطة الفرنسيين ، فيما وراء الفوج ، وفيما وراء الألب ، ضد إستراسبورج ، وضد كاسال .

وكانت الدوافع لهذه الإعتداءات الجديدة ضد السلم ، وضد المعاهدات ، دوافع عسكرية . ذلك أن حاكم إستراسبورج قد جانب الحكمة، فى عام ١٦٧٤، وترك الجنود الذين كانوا تحت قيادة منتخب براندبورج يمرون ؛ ومرة أخرى، فى عام ١٦٧٧، تمكن جنود الإمبراطورية من إستخدام قنطرة الراين. وإستنتجت باريس من ذلك أن صداقة إستراسبورج لم تكن سوى كلمة خاوية ، وأنه لايمكن

بناء أى شيء عليها : فإذا كانت الألزاس فى أيدى الملك ، فإن الآخرون كانوا يحتفظون بالمفتاح الذى يوصل إليها . ولذلك فإن لوفوا لم يجد صعوبة كبيرة فى إقناع سيده . بعد أن إنتهت الحرب ، بضرورة السيطرة على المرور هناك ، عن طريق الحصول على الموقع . وتمت الاستعدادات اللازمة فى سرية كاملة ، فكانت المفاجأة كاملة بالنسبة لأوربا — وحتى فى إستراسبورج — حينما علموا بأن الآلايات الفرنسية كانت تتجمع فى الألزاس السفلى. ولم تكن هناك مقاومة، أكثر من تلك التى حدثت فى ميتز فى عام ١٥٥٢ . وذهب وفد من المدينة لكى يطلب تفسيراً من الجنرال قائد القوات : فعرفوا ، ببلاغ رسمى ، أن رغبة الملك هى إحتلال إستراسبورج وقنطرتها ، لكى يحميها من رجال الامبراطور . ووصل لوفوا ، فى الوقت الذى كانوا يتشاورون فيه من أجل الرد على طلب التسليم . وكان هو الذى حصل ، على بعد بضعة كيلومترات من الأسوار، على تسليم الحاكم وإعلان خضوعه : فاعترفت إستراسبورج بالملك على أنه صاحب السيادة عليها ، وحاميها ، وتأكدت كل حقوق وإمتيازات المدينة الحرة ، ولم يحدث أى تغيير فى ظروف ممارسة الدين؛ وكانت الكاتدرائية هى الوحيدة،من بين كل كنائس المدينة، والتى أصبحت فى الماضى معابد بروتستانتية،هى التى عادت إلى المذهب الكاثوليكى. وفى نفس اليوم (٣٠ سبتمبر ١٦٨١) دخلت القوات الفرنسية المدينة . وجاء الملك بنفسه فى الشهر التالى لإستلامها .

وكانت مسألة استراسبورج قد حدثت بعد عمليات «الاتحادات» ، فنتجت عنها مشاعر ضخمة فى أوربا . وفى ألمانيا ، إرتفعت أصوات عديدة لكى تفضح فيها عملية تنتهك السلام .

ولم يكن لعملية كاسال ، المعاصرة لعملية استراسبورج ، نفس أهميتها . ولكن وقوعها فى نفس الوقت جعل أمر تفسيرها على إنها يدلان على أن ملك

فرنسا كان قد صمم ، وأكثر من أى وقت مضى ، على أن يستخدم ، وبلا أى تردد ، حق الأكثر قوة . وكان موقع كازال يحتل بين بيدمونت واقليم ميلانو مكاناً له أهمية استراتيجية . وكانت قد قامت عليه منازعة ، فى أثناء حكم لوى الثالث عشر ، بين الفرنسيين والاسبانيين ، ثم عاد إلى مالكه الشرعى ، دوق مانتوا . وكان هذا الأخير فى أشد الحاجة إلى المال . فإدعى لوى الرابع عشر ، وكان دائماً يرغب فى رد العملة للاسبان ، تهديدهم المستمر لمانتوا ، وأفاد من الصعوبات التى كانت تواجه الأمير فى إعطاء ميراثه لخلفه الوحيد ، وهى بنت ، وذلك لكى يعطى نفسه ، وفى نظير المال ، الحق فى وضع حامية فى القلعة وكان من أهم نتائج هذا الحدث زيادة المرارة بالنسبة للعلاقات الفرنسية الإسبانية .

وربما كان فى وسع لوى الرابع عشر ، فى مؤتمر فرانكفورت ، أن يوافق على تسوية فى مسألة «الاتحادات» . ولكنه لم يكن يقدر على التفريط فيما يخص إستراسبورج . ولذلك فإن المندوبين قد تفرقوا ، دون أن يعملوا أى شىء ، فى أثناء عام ١٦٨٢ . وكان الألمان يخشون من عمليات جديدة لاستخدام القوة ، فبدأوا فى التفكير فى الحرب . ولم يكف ويليام أورانج عن أن يعدهم لكى يتحدوا سويا ، وأن يستعدوا فى نفس الوقت للدفاع عن بلادهم . وكان ، فى نفس اليوم الذى سقطت فيه استراسبورج ، قد حصل على معاهدة «مشاركة» مع السويد ؛ وإنضم إليها الامبراطور فى شهر فبراير ١٦٨٢ ، وملك إسبانيا فى شهر مايو . وزار فى أثناء الأشهر التالية بلاط كثير من الأمراء . وبعد مروره ، تم عقد إتفاقيات دفاعية بين الامبراطور و بين الكثير من الأمراء فى منطقة الراين .وكان منتخب براندبورج — المنتخب العظيم — هو الوحيد من بينهم الذى كان سعيداً لرؤية فرنسا تتخاصم مع السويد ، فحاول أن يحصل على رضاء لوى الرابع عشر ،

الذى إرتبط معه بمعاهـــدات جديدة (١١ يناير ١٦٨١ ، و٢٢ يناير ١٦٨٢)

وباستمرار الملك ، ورغم صيحات اوربا . فى تنفيذ سياسته الخاصة «بالإتحادات» ، حاول ان يحصل من ملك اسبانيا على تخل ، من الناحية الشكلية، عن اقاليم الأراضى المنخفضة ، والتى كانت تهدفها قرارات دائرة ميتز القضائية . وحين فشل ، ارسل قواته لكى تحتل دوقية لوكسمبورج،وتحتفظ بها كرهينة. وهذه المظاهرة الجديدة لاستخدام القوة زادت من حدة المشاعر العامة بعدم الأمان .

٣ ـ محاصرة العثمانيين لفينا :

وفى ذلك الوقت ، كان هناك خطر جسيم ، يهدد النمسا ، وكل أوروبا . وكان من الضرورى ان يحسبوا حسابا للعثمانيين ، الذين عادوا الى سياسة نشطة تحت تأثير رؤساء الوزراء من اسرة كبرولو Koprulu . وفى عام ١٦٦٤، كان جيش مونتى كوكولى Monteccculli ، الذى إنضم اليه فيلق فرنسى بقيادة كونت دى كولينى ، قد اوقف زحفهم فى معركة سان جوتار ، على نفس حدود دولة آل هابسبورج ، واجبرهم على التراجع . ولم تكد هدنة فاسفار ، التى تم التوقيع عليها بعد ذلك ، تنتهى مدتها حتى عاد الخطر العثمانى الى الظهور من جديد .

وكان ذلك نتيجة لأحداث المجر ، تلك المجر التى كانت خاضعة فى غالبيتها العظمى لإستانبول . وكانت ترانسلفانيا بنوع خاص ، والتى كانت من الملحقات السابقة للتاج ، لاتقدر على الخضوع للسيادة العثمانية ، وبذلت كل مافى وسعها من أجل التخلص منها . ومن ناحية أخرى ، كانت المسألة الدينية تجعل كل من المجر وترانسلفانيا تعارض الأخرى ، خاصة وأن جزءاً كبيراً من أهالى ترانسلفانيا

كانوا قد إعتنقوا مذاهب الإصلاح الدينى . وهذه البلاد ، التى كانت مسرحاً للكثير من المشاعر ، السياسية والدينية ، كانت أرضاً خصبة لمؤامرات الدول . وأظهرت الدبلوماسية الفرنسية هناك تسرعها ضد خصومها النمسويين ، وفى صالح أصدقائها العثمانيين . وفى عام ١٦٨٢ ، قررت الحكومة العثمانية ، التى إستندت إلى تأييد الثوار المجريين ، والذين طلبوا معنوية باشا بودا، ضرورة العودة إلى الزحف على فينا . وتشكل جيش أكبر من الجيوش السابقة — وبما ٢٠٠٫٠٠٠ رجل — فى بلجراد ، بقيادة الصدر الأعظم قرة مصطفى .

وفى عاصمة النمسا ، كانوا غير مستعدين لمواجهة ذلك الهجوم الجديد المرتقب. وكان الامبراطور ليوبولد قد طلب ، وبدون جدوى، إطالة أمد هدنة فاسفار . وبعد رفض طلباته ، شعر بخطورة الموقف ، ونشر نداءاً بطلب العون . ولم يكن ملك فرنسا ، أول الملوك المسيحيين ، فى ظروف تسمح له بتجديد ماقام به فى عام ١٦٦٤ ؛ وفى كل بلاد الغرب ، كانت الاجراءات المعادية التى إتخذها ضد إسبانيا بغزوة لوكسمبورج تثير الإنتباه . وحتى لايظهر بمظهر من يضع العقبات أمام الدفاع عن أوربا ، قام برشاقة وعرض على خصمه وفى نفس الوقت على كل من كانوا يرغبون فى أخذ جانب إسبانيا — هدنة لمدة عشرين عاماً . وأعلن ، ودون أن يرى ضرورة لكتابة هذه التعهدات ، وعند نهاية شهر يوليو ١٦٨٣ ، وقف العمليات العسكرية ؛ وأكد رسمياً رغبته فى إحترام الهدنة الفعلية التى قررها . وكان الأتراك قد ظهروا فى ذلك الوقت تحت أسوار فينا، وكان الحصار قد بدأ . وكان جيش النمسا بقيادة دوق اللورين ، شارل الخامس ، الذى ورث عمه شارل الرابع ، والذى كان ، مثل سلفه ، قد رفض العودة إلى بلاده التى حرمت من عاصمتها . وكان يحظى بكل ثقة الامبراطور . ولكن القوات التى كانت

تحت قيادته كانت قليلة العدد: فكان هناك ٠٠٠ر٥٠ رجل فقط يتحركون فى الخارج، وفى الوقت الذى لم يوجد فيه داخل العاصمة مايزيد على ٠٠٠ر١٨ مدافع .

وفى الوقت الذى كانت تدور فيه المعارك ، والتى ظهر أن نتيجتها غير مؤكدة، جاءت أنباء مطمئنة من وارسو . وكانت بولندا ، هى الأخرى ، من الأعداء التقليديين للدولة العثمانية ، فقررت أن تنضم إلى جانب النمسا . وكان الملك جان سوبيسكى Jean Sobieski قد قرر ، ودون أن توقفه الإعتراضات الفرنسية، أن يذهب فوراً لإنقاذ فينا . وأخذ معه كل فرسانه ، وأسرع فى السير حتى وصل أراضى النمسا . وإنضم هناك إلى جيش شارل الخامس دوق اللورين ، والذى كان قد تدعم فى ذلك الوقت بوحدات من بافاريا ومن ساكسونيا . ونجح فى معركة كبيرة ضد القوات المحاصرة عند سفوح كالينبرج ، قرب فينا (١٢ سبتمبر ١٦٨٣) ، فى أن يفرض عليهم رغباته ، ويجبرهم على رفع الحصار ، ويدفعهم بعد ذلك حتى قلب المجر .

٤ - النتائج، وهدنة راتيسبون ١٦٨٤ : -

ولقد فهم الامبراطور ، رغم قلة ذكائه ، الدرس المستفاد من هذا الحدث . فلا يمكن للنمسا أن تهمل الخطر الدائم لهجوم عثمانى عليها ، دون أن يؤثر ذلك فى وجودها ، وفى نفس الوقت تكون قد قصرت فى رسالتها . وبعد شكر سوبيسكى ، وتوديعه ، ستبذل كل الجهود من أجل تنظيم قوات عسكرية ضخمة. وكنا قد لاحظنا من قبل ، وفى الفترة التى تفصل بين الهجومين العثمانيين ، ظهور نواة لجيش دائم . وكانت حكومة ليوبولد ، قد إستوحت من المثل الفرنسى ، ولم تقم بتسريح القوات بعد كل حرب ، وقررت الإحتفاظ الدائم بما يتراوح بين ٠٠٠ر٢٠ و ٠٠٠ر٣٠ رجل تحت السلاح . وكان على هذا المجهود أن يستمر. وسوف تصبح النمسا بدورها دولة عسكرية عظمى ، الأولى ، بعد فرنسا .

وربما لم يحدث تخليص فينا فرحاً فى أى مكان أكثر مما حدث فى روما ، وحيث كانوا يزهون بأنهم قاموا بدور ما بالنسبة للتقارب بين هاتين الدولتين الكاثوليكيتين الكبيرتين ، النمسا وبولندا . وستكون البابوية على حق حين تدعو بصوت البابا إنوسنت الحادى عشر إلى تجميع أصحاب العزيمة الصحيحة . وفى ٥ مارس ١٦٨٤ ، تكون فى لينز تكتلا مقدسا ، وبرئاسة البابا ، بين كل من بولندا ، والنمسا ، والبندقية . أما لوى الرابع عشر ، فإنه تحفظ ، بطبيعة الحال . وكان لديه سببان لشكر الله فكانت أوربا قد نجت من خطر العثمانيين ، دون أن يقوم بالمشاركة ضدهم . وكان الأفق قد أصبح صافياً تجاه الشرق ؛ فكان فى وسعه إذن أن يبدأ من جديد فى العمل ضد الاسبانيين . فعاد إلى عمليات التضييق التى كان قد حاول بها أن يحطم مقاومة لوكسمبورج . وسرعان ما بدأت عمليات الحصار . فردملك إسبانيا على ذلك بإعلان الحرب ، فى ٢٦ أكتوبر . وكان على لوكسمبورج أن تسلم فى شهر يونيو التالى ، وذلك فى الوقت الذى كانت العمليات العسكرية مستمرة فى الفلاندر وفى كتالونيا .

ولقد سمحت الأحداث لفرنسا بأن تعبر هذه الأزمة الأوربية دون خسارة كبيرة لسمعتها ولمصالحها ولذلك فإن لوى الرابع عشر لم يجد أن من الحكمة تعديل مشروعاته ولم يكن قد فقد أى شىء من مزاجه المتقلب والعنيد . ولن يتأخر أهالى جنوا عن أن يمروا بهذه التجربة . وكان قد عدد أخطاءهم . فلم يأخذ عليهم فقط أنهم كانوا ينفذون وباستمرار رغبات إسبانيا فى البحر المتوسط ، ولكن كذلك أنهم كانوا قد أطلقوا ضد السفن الفرنسية قراصنة لهم خطرهم مثل قراصنة مايورقة . ورأى أن الوقت قد حان من أجل معاقبة الجمهورية ، التى إتهمت بأنها تبنى سفن حربية Galères من أجل الإسبان . وأسىء إستقبال الوفد المكلف بطلب تفسيرات وضمانات بالنسبة للمستقبل ، فبدأ ضرب المدينة بمدفعية الأسطول ،

مما أدى إلى إشعال النار فى المدينة ، وتركها ، بعد ثلاثة أيام ، نصف مخربة (مايو ١٦٨٤) . وكان لوفوا قد حضر عملية التنفيذ هذه . وكتب يقول : « هناك دلائل واضحة على أن مثل هذه العقوبة القاسية ستعلم أبناء جنوا أن يصبحوا عاقلين ، وستعطى خوفاً كبيراً لكل الأمراء الذين لهم مدن لها قيمتها على ساحل البحر » . وأعلن الملك بعد ذلك مطالبه عن طريق الكرسى البابوى . فلن يكتفى بطلب غرامة حربية ضخمة . بل كان يرغب فى أن يحضر الدوج بنفسه ، ومعه أربعة من أعضاء مجلس الشيوخ، لكى يقدموا له إعتذارات الجمهورية . أما الدوج، والذى كانت القوانين تمنعه من ترك أراضى جنوا، فإنه إضطر إلى الموافقة والطاعة حين علم أن الصلح قد تم التوقيع عليه بين فرنسا وإسبانيا . وأعدوا له إستقبالا ممتازا فى فرساى .

أما التسوية العامة للمسائل المعلقة بين لوى الرابع عشر وجيرانه فانها تمت فى المؤتمر الذى إنعقد فى راتيسبون ، مدينه الدايت ، ولقد إحتاج الأمر إلى وقت طويل لإنهائها . وكان على ممثلى الإمبراطور أن يتحدثوا فى نفس الوقت بإسم الامبراطور وبإسم ملك إسبانيا ؛ وكان هذا الأخير قد مل ، ورفض إرسال مندوب عنه . أما الأقاليم المتحدة فإنها قد قامت ، ودون أن تحصل رسمياً على صفة الوسيط ، بدور من الدرجة الأولى من أجل الإعداد للانفاق . وكان وليام أورانج ، الذى كان منذ وقت قصير يدفع أبناء بلده إلى حمل السلاح ، قد إنضم إلى وجهات نظر مجلس الطبقات ، والذى كان من أنصار الحلول السلمية . ونتيجة لدبلوماسية هولندا ، تم الإتفاق على أسس المعاهدة حتى قبل أن يبدأ المؤتمر . ووافق سفير الملك على مشروع لاتفاقية ، فى لاهاى ؛ فلم يكن هناك بعد ذلك سوى الإتفاق على الشروط . ولم تعلن العقود التى تم التوقيع عليها فى راتيسبون (١٥ أغسطس ١٦٨٤) إقامة السلم إلا بصفة مؤقتة ، وللمدة

عشرين عاماً ؛ فكان الأمر يتعلق بهدنة ، مفروضة بشكل ما على إسبانيا ، وبضمان من الإمبراطورية . أما الإمبراطورية من ناحيتها ، فإنها قبلت أن يظل ملك فرنسا ، وفى خلال نفس الفترة ، ممتلكا للأقاليم التى كان قد أخذها منذ نيميج . ولذلك فإن كل من إستراسبورج ولوكسمبورج قد ظلت ، مؤقتاً ، بين يديه .

ثالثا : حرب رابطة أوجسبورج (١٦٨٨ - ١٦٩٧) : -

١ - تكوين الرابطة : -

بعد التوقيع على الهدنة ، سيسدل الستار لمدة سنوات بسيطة على ذلك الغرب المسلح . وكان فى وسع هذه التسوية التى وصلوا إليها بصعوبة أن تكون لهـا قيمة دائمة إذا مانجح لوى الرابع عشر فى إقناع خصومه - وأصبحوا الآن كل جيرانه وبدون إستثناء - بأنه لم يعد يفكر إلا فى السلم ، كما كان يحلو له أن يذكر ، وأن يكرر . وكان من الصعب الأمل فى ذلك . وكان قد إستخدم القوة مرات عـديدة حتى أن قلة الثقة فيه أصبحت شبه مؤكدة : وكانوا ينظرون إليه على أنه يقدر على أى شىء .

وجاء إلغاء مرسوم نانت (١٨ نوفمبر ١٦٨٥) ، بعد قليل ، لكى يعيد إثارة مشاعر العداء التى كانت سياسة ملك فرنسا غير الحكيمة قد ولدتها فى الخارج فى سنوات الثمانينات . وأصبحت الدول البروتستانتية منذ ذلك الوقت هى الأكثر شعوراً بالمرارة : فستقوم بالتالى بإنشاء كتلة يصعب تحطيمها . وفى لنـدن ، ورغم مجهودات الملك جيمس ، تم تنظيم عملية جمع إعانات ، شجعها البرلمان رسمياً ، فى صالح المتدينين الفرنسيين الذين هربوا من بلادهم . أما سفير لوى الرابع عشر ، والذى كلف بالتصرف من أجل إعادة أولئك الذين كانـوا قـد

وصلوا إلى الجزر البريطانية إلى بلادهم ، لم يحصل ، وبثمن باهظ الغاية ، إلا على نجاح بسيط . ونتيجة لجهودات ويليام أورانج ، الذى كان دائم الحركة ، توصلت براندبورج والسويد ، وهما دولتان بروتستانتيتان ، تفصل بينهما ذكريات سيئة ، إلى عقد إتفاقيات دفاعية . وكانت براندبورج هى الدولة التى رأت أكبر عدد من « المتدينين» الفارين يقيمون على أرضها . وكان كل هؤلاء المنفيين يشاركون بدرجة كبيرة فى إثارة المشاعر المعادية ،والتى ولدها الخوف من سياسة لوى الرابع عشر ، فى الجزء الأكبر من أوروبا .

وكانت صلابة تلك التكتلات التى كان على فرنسا مواجهتها ، لها طابع صليبى ، نتيجة للمشاعر التى كانت تحرك أعضاءها ، والأكثر نفوذا من بينهم . وسوف يظهر منتخب براندبورج رغبته فى الحرب ، وبشكل مميز . وكان وقت السياسة المرنة ، والتى إتبعها منذ عشرين عاماً ، والتى كان يفكر فيها إلى أى جانب ينضم ، قد إنتهى . ومنذ ذلك الوقت سوف يسير فى غالب الأحيان فى نفس خط الأقاليم المتحدة . ولقد وصل به الأمر إلى أن يعلن ، فى أحد أيام غضبه : « أفضل المعيشة تحت حماية الأتراك على المعيشة تحت عبودية فرنسا » ولا شك فى أن لوفوا كان يفكر بنوع خاص فى أبناء براندبورج ، حين كتب إلى لوفوا ، بعد الإستيلاء على لوكسمبورج بقليل : « يجب النظر إلى الألمان ، منذ ذلك الوقت ، على أنهم أعداؤنا الحقيقيين ، والوحيدين الذين يمكنهم إيذاءنا إذا ما كان لديهم إمبراطور يرغب فى إمتطاء صهوة حصانه » .

وربما كان فى وسع الدول الكاثوليكية أن تأخذ جانب ذلك المدافع الجديد عن المذهب ، والذى كان يحكم من فرساى ، أو على الأقل أن تضمن له ميزة بقائها على الحياد ، إذا لم تكن قد وجدت نفسها الأكثر تعرضاً ، وبطريق مباشر ، لتهديدات طموحاته ، والأكثر تعرضاً ، لعنفه . ووجدت إسبانيا

نفسها ، وهي التي كانت قد رفضت حضور محادثات راتيسبون ، وقد شعرت بأنها غير مرتبطة أو ملتزمة بشكل كامل : فكان على الامبراطور نفسه أن يجبرها على إحترام الهدنة أو ، على العكس من ذلك ، أن يجبرها على العودة إلى حمل السلاح .

وكان الإمبراطور ليوبولد ، والذى كان عليه إذن أن يختار بين الحرب وبين السلام « قد أظهر فى أكثر من مناسبة أنه لم يكن يحب الحرب . وإذا كان قد تخلى عن الأمل فى أن يسوى مسألة الوراثة الاسبانية . الأمر الذى كان دائماً متوقعاً على أنه قريب الحدوث — عن طريق إتفاقية ودية تجدد معاهدة عام ١٦٦٨ فإن ذلك كان يرجع إلى أنه كان قد تأكد من أنه لن يقدر على تقليل شراهية صهرة الفائقة . ووقف الآن بصفته الوريث العالمى لشارل الثانى . ومن ناحية أخرى ، كانت الجيوش النمسوية ، ومنذ رفع الحصار عن فينا ، مستمرة فى إنتصاراتها . فى الشرق ، على العثمانيين . وزاد غرور آل هابسبورج إلى درجة عدم الخوف من مواجهه أخرى مع الدول الفرنسية . وكان قد تم الإستيلاء على بودا فى عام ١٦٨٦ ، كما إضطرت بلجراد إلى التسليم فى عام ١٦٨٨ . وفى خلال ذلك الوقت، كانت كل المجر قد سقطت من جديد فى أيدى هابسبورج . وكيف كان فى وسع الأمبراطور ، ومع شعوره بقوته الجديدة ، أن يضم آذانه على النداءات التى كانت تصل إليه من ألمانيا ، والتى كانت كلها قد هبت ضد التهديدات الفرنسية ؟ وكان المنتخب الأكبر ، بنوع خاص ، يدفعه إلى الحركة . وكان قد أصبح من أنصار هابسبورج : فوعد ليوبولد بمعونة مباشرة ضد العثمانيين ، وبمعونة بعد فترة ضد الفرنسيين . وهذا الإتحاد الذى كان قد وضع فى عام ١٦٧٤ بين أعضاء الامبراطورية ورئيسها عاد إلى الظهور من جديد ،وبدرجه أقوى . وسيعمل لوى الرابع عشر على زيادة توثيق عراه ، بعدم حذره المتكرر ، وحتى بالتحديات .

فمنذ عام ١٦٨٥ ، كان هناك أولا تدخله فى مسألة وراثه البلاتينات . فمنذ وفاة المنتخب ، والذى كان آخر سلالة سيميرن ، مرت البلاتينات إلى حكم أسرة نيوبورج Neuburg ، الكاثوليكى ، والذى كان مصاهراً لآل هابسبورج . فإعتقد الملك (الفرنسى) أن من حقه أن يدافع عن حقوق زوجة أخيه ، دوق أورليان ، وأخت المنتخب المتوفى . فرفع بإسمها إحتجاجاً ضد التنازل عن الميراث لآل نيوبورج . وجعل من المفهوم أنه ، إذا لم يحتل البلاد مباشرة ، فإن ذلك كان لمجرد عدم مضايقة الإمبراطور أثناء ذلك الصراع الذى كان يقوم به فى المجر ضد المسلمين . وفى أثناء ذلك الوقت ، ظلت الخصومة قائمة : فسيحاول أن يحتفظ بإنتباه الألمان يقظاً لمدة عدة سنوات ، وكان تكوين رابطة أوجسبورج يكلفه الكثير .

ولقد تم الإعداد لهذه الرابطة عن طريق مجموعة من الإتفاقيات الدفاعية بين هولندا وانجلترا أولا ، ثم بين السويد ، وهولندا ، وبراندبورج . أما العقد المؤسس فلم يأت إلا فى ٩ يوليو عام ١٦٨٦ . وكان الأمر الأساسى فيه هو مسألة المحافظة على معاهدات مونستر ونيميج ، وهدنة راتيسبون . وكان المتعاقدون هم الإمبراطور ، وملك إسبانيا، وملك السويد ، ومجلس طبقات الأقاليم المتحدة ، ومنتخب البلاتينات ، ودوائر فرانكونيا ، وبافاريا ، وأعالى الراين . وكان الدافع قد أتى من ويليام أورانج : فكان هو الذى دعا ممثلى الدول إلى الحضور إلى أوجسبورج ، وكان هو كذلك الآلة المحركة للرابطة .

ومنذ عامين سابقين ، كانت المواقف قد تحددت بوضوح . وكان لوى الرابع عشر يعلم تماماً أنه إذا دخل الحرب ، فإن عليه أن يواجه كل خصومه السابقين ، مدعمين بعدد كبير من العملاء أو الأصدقاء . ولم يكن هو نفسه يقدر على الإعتماد على أى صديق . ولم يكن حتى يضمن التأييد المعنوى للكرسى البابوى ،

والذى كان معه ، وطول الوقت تقريبا ،فى متاقضات أثناء بابوية إنوسنت الحادى عشر (١٦٧٦ — ١٦٨٩) . فكان هناك ، فى أول الأمر مسألة حقوق «التمتع» والتى إنتهت باعلان عام ١٦٨٢ ؛ ثم حدثت فى عام ١٦٨٧ مسألة الخصوبة المتعلقة « بالإعفاءات » ، بعد أن كان البابا قد قرر أن « حى » السفراء ، فى روما ، لن يتمتع بعد ذلك بميزات الاعفاءات ، وسيخضع لتشريعات السلطات البابوية . ولم تكن المسألة قد سويت بعد ، حتى ظهرت فرصة خلاف جديد ، وأكثر خطورة .

وذلك أن مكسميليان صاحب بافاريا ، ورئيس أساقفة كولونيا المنتخب ، والذى كان حليفاً له فى وقت حرب هولندا، توفى فى شهر يونيو ١٦٨٨ .وإنقسم الناخبون بين مرشحين إثنين لخلافته . وكان أولهما هو ويليام فورستنبرج ، وكان من أسرة أعطت كثيراً من دلائل الود للسياسة الفرنسية ، وكان يؤيده الملك . ولكن البابا إختار الشخص الثانى ، وكان شاباً ، وكان أخاً لرئيس الأساقفة المتوفى . ورأى لوى الرابع عشر ضرورة دعوة أوربا كلها للحكم فى هذا الحدث : فنشر بياناً بهذه المناسبة ، وختمه بضرورة الوصول إلى تصالح . ثم أرسل قواته لكى تجلس مرشحه على العرش المتخاصم عليه . وفى نفس الفرصة، أخذ رهائن من البلاتينات ، فى إنتظار الوصول إلى تسوية أمر الوراثة ، موضع الخصام .

ولم يكن عام ١٦٨٨ قد ولى . ولم تكن مفاجآته قد إنتهت . وكان أشدها ، هى تلك التى لم يكن أحد يتوقع حدوثها ؛ والتى حدثت فى النصف الثانى من شهر ديسمبر ، وهى أخذ ويليـــام أورانج مكان جيمس الثانى على عرش إنجلترا . وسوف يقرر هذا الحدث موقف الدولة الانجليزية من الحرب التى كان يتم الإعداد لها على القارة . والحقيقة أنه لم يكن هناك ، إلا فى فرساى ، من يقدر على

الإحتفاظ بشكوك بالنسبة لهذا الموضوع . فلقد أظهر البرلمان ، وبالتالى الأمة ، مشاعرهم بكل وضوح ، وبنوع خاص منذ إلغاء مرسوم نانت . فهل كان فى وسع جيمس الثانى أن يواجه الموقف ، كما كان شارل الثانى قد فعل أثناء حرب هولندا ؟ وربما تظل الإجابة على هذا السؤال لفترة من الوقت غير مؤكدة وثابتة ، مالم يحدث تحرك غير متوقع ، ويساعد على سرعة الوصول إلى حل ، وضد المصالح الفرنسية .

وكان جيمس الثانى قد تحول إلى المذهب الكاثوليكى بعد وصوله إلى العرش بقليل،فى عام ١٦٨٥ . وكان له ، من زواجه الأول ، إبنتان ، نشأتا على المذهب الانجليكانى . وبعد أن أصبح أرملا ، تزوج مرة جديدة ، وهذه المرة من أحدى الأميرات الكاثوليكيات ، ماريا ديست ، الإيطالية . وولد له منها ولد ، فى ٢٠ يونيو ١٦٨٨ . ولذلك فإن الأمة وجدت نفسها فجأة وقد وضعت أمام إمكانية غير مقبولة بالنسبة إليها ـ أن يكون لها ملك « بابوى » . وبنوع من الغزيرة إتجهت صوب ويليام أورانج ، « صاحب الدولة » فى هولندا ، والذى كان متزوجاً من الإبنة الكبرى لجيمس ، وكان من أتباع مذهب كالفن الواضحين . ومنذ بعض الوقت ، كان ويليام يحاول ، ولكن بدون نجاح ، أن يحصل على موافقة الملك لكى ينضم إلى رابطة أوجسبورج . وما كاد يسمع بمولد الوارث الجديد للعرش حتى قرر الموقف : فسيذهب إلى إنجلترا ، لكى يدافع هناك عن حقوق زوجته ، أو ، وأفضل من ذلك ، أن يدير هناك المعركة فى صالح المذهب الدينى المصلح .

ومنذ هذه اللحظة ، إرتبطت أحداث انجلترا تماماً بأحداث ألمانيا . فعند نهاية شهر سبتمبر ، قرر لوى الرابع عشر أن يقطع العلاقات مع الامبراطور . ونشر بياناً جديداً بشأن نقض الهدنة . وأرسل فى نفس الوقت قواته داخل

كولونيا ، وبدأ فى محاصرة فيليبسبيرج ، وكانت إحدى قلاع الإمبراطورية . وفى منتصف شهر نوفمبر ، وحين علم الدايت بالأنباء السارة الخاصة بنزول ويليام على الساحل الجنوبى لانجلترا ، عند توربای ، قرر ضرورة الخروج عن الحياد . وقرر أن يطرد السفير الفرنسى .

وفى بضعة أسابيع ستتم تسوية المسألة الانجليزية . وكان لجيمس الثانى زهوه ولكنه كان بعيداً عن الواقعية . ونتيجة للغرور ، ولعدم فهم الموقف . إعتذر عن قبول العون الذى جاء السفير الفرنسى يعرضه عليه بإسم سيدة : وذكر أنه واثق من ولاء قواته . . . وحين رى أن جيشه قد إنضم لويليام ، تكون فرصة العمل قد مرت . فلم يكن عليه إلا أن يتخلى عن الحرب . ولقد تم أسره فى أثناء فراره ، ولكنه تمكن من النجاة من الأسر ، وكان ذلك أمراً يثير رضاء ويليام الذى لم يكن يعرف الطريقة اللائقة لكى يتخلص بها منه . وإلتجأ إلى فرنسا ، حيث أعطاه لوى الرابع عشر قصر سان جرمان ، لكى يلتجىء إليه . وحين قامت فرنسا بعد ذلك بقطع العلاقات مع الأقاليم المتحدة (٢٦ نوفمبر) ، ونتيجة لحرب تعريفات جمركية جديدة ، لم يعد فى وسع فرنسا أن توقف أى شىء .

ولقد زها لوفوا Louvois ، المستشار السىء لكل هذه الفترة ، معلناً أمله فى أن الحرب ستكون قصيرة المدى : ولكن الحرب سوف تستمر لمدة عشر سنوات كاملة ، ولمدة أطول من حرب هولندا .

٢ ـ اعلان الحرب :

بدأت الحرب بمرحلة فظيعة ، وهى تخريب البلاتينات . وكان الأمر ، بالنسبة للفرنسيين ، يتلخص فى ضرورة الضرب السريع والعنيف ، حتى يؤدى ذلك إلى إخافة العدو ، إن أمكن وقبل أن تبدأ الحملة فى المعارك ، ومنذ نهاية خريف ١٦٨٨ ، أصدر لوفوا الأوامر إلى الجنرالات بأن يقضوا على كل قيمة للبلاد التى

يمكن أن يستفيد العدو منها كقواعد أساسية للعمليات . فلم يكتفوا بعملية إخلاء الأرياف ، بل أخذوا كذلك فى تخريب المدن : فأحرقت مدن سبير ، وورمس ، ومانهايم وحتى هيلدبرج ، عاصمة الإقليم المنتخب . وكانت النتيجة بطبيعة الحال هى دفع الألمان إلى آخر مشاعرهم . وقام كتابهم بمهاجمة لوى الرابع عشر ، واتهموه بانه « أتيلا » جديد ، فرنسى . وفى عالم الأمراء ، كان كل منهم يعرف أن الحرب الدائرة رحاها هى حرب حتى النهاية ولذلك فإنه لن تكون هناك ، هذه المرة ، أية عملية للخروج من الحرب . وحتى سكان ويتلسباخ أنفسهم تخلوا عن محالفة الفرنسيين ، وكانت مصالحهم قد أضيرت فى مسألة كولونيا ، كما أن المنتخب الجديد شارل إيمانويل ، كان قد تزوج إبنة الإمبراطور ليوبولد .

وفى شهر أبريل ١٦٨٩ ، فتحت إسبانيا حدود الأراضى المنخفضة للقوات الألمانية : فرد لوى الرابع عشر على ذلك بإعلان الحرب . وفى الشهر التالى ، قام ويليام أورانج ، والذى أصبح فى لندن الملك ويليام الثالث ، بدوره بدفع إنجلترا إلى الحرب . ثم تحددت أهداف حرب الحلفاء فى معاهدة تم التوقيع عليها فى فينا بين الإمبراطور والأقاليم المتحدة (١١ مايو ١٦٨٩) : فلم يعد الأمر يتعلق بمجرد المحافظة على معاهدات نيمبج وهدنة راتيسبون فقط، بل وأيضا إعادة أوربا الغربية إلى حالة الأوضاع المحددة فى معاهدات مونستر والبرانس . وكانت هناك ، علاوة على ذلك ، فقرات سرية تعترف بحقوق ليوبولد فى الوراثة الاسبانية المقبلة . أما إنجلترا ويليام الثالث ، فإنها لم تنضم إلى معاهدة فينا إلا بعد ستة أشهر ، وحين تمكن الملك من التغلب على بعض المعارضات من جانب البرلمان .

وأتمت الحلقة إطباقها حول فرنسا فى أثناء العام الثانى من الحرب ، وذلك عن طريق إنضمام إسبانيا وسافوا إلى التكتل ، وكان الملك شارل الثانى قد فقد زوجته ، الفرنسية ، مارى لويز دورليان ، وتزوج مرة أخرى بعد عام (مايو ١٦٩٠) ،

وفى هذه المرة الجديدة من نمسوية . وكان معنى ذلك الإرتباط المسبق بالتكتل الذى كان تحت الإعداد : وأعلن إنضمامه رسميا فى ٦ يونيو التالى . وأخيراً ، فى شامبرى ، ومنذ نصف قرن ، ومنذ معاهدة شيراسكو ، والتى كانت ، فى نفس الوقت الذى حرمت فيه أسرة سافوا بينيرول ، سمحت لها بالحصول على جزء من مونفيرا ، كان الأدواق قد ظلوا فى نطاق العملاء الفرنسيين . وفى عام ١٦٨١ ثار قلق فيكتور آميدى الثانى نتيجة لإستيلاء لوى الرابع عشر على كاسال . ولكنه كان ضعيفاً ، وبشكل لا يسمح له بالتصرف كأمير مستقل ، فقبل معاهدة تجبره على وضع دوقيته تحت تصرف الفرنسيين فى اليوم الذى يقومون فيه بأى عمل ضد إقليم ميلانو (٢٤ نوفمبر ١٦٨٢) . ثم تزوج من إبنة أخ الملك ، إبنة دوق أورليان . والآن ، جاء تكوين التكتل لكى يعطيه الشجاعة الكافية لكى يقرر تغيير المواجهة : فيرتبط سرياً ، فى شهر يونيو ١٦٩٠ ، بالإمبراطور وبملك إسبانيا .

٣ ـ الحرب وعملياتها :

لقد أصبح إسم « حرب رابطة أوجسبورج » ، كلاسيكيا ، ولا يتطابق كثيراً مع الحقيقة ، مثله فى ذلك مثل إسم الحرب السابقة ، حرب هولندا . وإن ما يرجع إليه فى الحالتين هى مجرد أصول الصدام . وهذه المرة نجد ، ومن البداية أن العمليات تتسع على النطاق الأول ، وتمتد إلى الجزء الأكبر من النطاق القارى والبحرى الخاضع للدول الغربية . ولقد ذكر أحد المؤرخين الإنجليز أنها حرب من نوع جديد . وحين ننظر إليها من بعيد ، نجد أنها بلا شك كبيرة الشبه بالحروب الأخرى ؛ ولكنها حرب لها خلفيات مختلفة . ويمكننا أن نسلط الأضواء على رغبة حكومة لندن ، والتى يسيرها البرلمان ، فى الدفاع عن مصالح التجارة البريطانية ، على كل نقط العالم التى يمكن أن تهددها فيها المنافسة الفرنسية . وكان

موقفا من نفس النوع قد وضح عند أصول حرب هولندا . وذكر كولبير كلمة « حرب النقود » . ولذلك فإن عامل الجدة الذى يظهر من الوهلة الأولى ليس كبيراً . ولكن أمر الدفاع عن المصالح الوطنية فى الشئون الاقتصادية ، والرغبة فى جعلها تنتصر على منافس له خطورته ، قد غيرت من إتجاهها . فكانت إنجلترا قد سيطرت على رابطة من الأمم تشعر بالغيرة ، وعملت على تعبئة كل القوى المادية والمعنوية فى نفس الوقت المغرب ، ضد الدولة الفرنسية .

وسوف يصطدم التكتل بأكثر الخصوم قوة فى التسليح ذكره التاريخ حتى ذلك الوقت. وكانت أعمال كولبير وأعمال لوفوا قد أتت ثمارها . فكان الأسطول والجيش ، لا يوجد لهما مثيل . وكانت إمكانيات المستقبل — والتى كذبها سير الأحداث — تسمح بالثقة فى هذه الوسائل العظيمة للحرب ، وفى مداها وفاعليتها وكانت موارد المال والرجال لا تزال وفيرة وعلى البحر، وفى مواجهة الأسطولين القويين لإنجلترا وهولندا ، والذين كانا متحدين كل الاتحاد، لم يكن لدى فرنسا سوى تفوق نسبى . وأكثر من أى وقت مضى ، إضطرت ومنذ البداية إلى أن تطلب معونة القراصنة .

وفى يوم ٣٠ يونيو ١٦٩٠ حصل الأسطول الرسمى على نجاح واضح ضد الإنجليز والهولنديين فى مسألة رأس بيفيز يير،وكان إنتصاراً بدون نتائج كبيرة، وإن كان يسمح للملك بتقديم الشكر لله . وفى نفس الوقت ، كان الملك جيمس ، والذى كان قد نزل فى إيرلندا . والذى كان قد جمع أعوانه ، والذى كان بعض الضباط الفرنسيين قد إلتحقوا به ، قد إنهزم أمام قوات الملك ويليام الثالث فى معركة بوين (أول يوليو) . وبعد عامين من ذلك ستكون هناك كارثة لاهوج (٣ يونيو ١٦٩٢) . وعند أصول المسألة ، كان هناك مجهوداً جديداً من أجل معونة ملك إستيوارت السابق على إستعادة عرشه . وتجمع جيش صغير ، وفى غالبيته

من الأيرلنديين ، عند طرف كوتنتين . ولكن تورفيل Tourville ، الذى كان عليه أن يؤمن المواصلات عبر بحر المانش ، وبالتالى أن يسهر على أمن القوات المتجمعة ، واجه هجوماً من أسطول أنجلو هولندى متفوق عليه عددياً . فالتجأ إلى خليج لاهوج ، رغماً عنه ؛ وإحترق الأسطول بأكمله وهكذا إختفى الجزء الأكبر من القوات البحرية لفرنسا فى بضع ساعات. ولذلك فإن الحرب البحرية الكبرى سوف تتوقف هنا .

أما ما تلى ذلك فلا يزيد كثيراً عن عمليات طارئه أو حسب الظروف ، لعبت سفن القراصنة فيها الدور الرئيسى . ولم تعد حرب السباق البحرى متروكة لهوى رؤسائها العاديين،مثل جان بار Jean Bart فى دنكرك، أو دوجاى تروان Duguay - Trouin فى سان مالو . فلقد أصبحت معظم عملياتها يتم الإتفاق عليها فى باريس ، وفى مكاتب وزير الدولة للبحرية ، سينيلاى Seignoley ، ثم بونشارتران Pontchartrain . ومن الواجب علينا أن نذكر هنا نجاح أخير يحسب للأسطول الحربى : ففى شهر يونيو ١٦٩٣ ، كان هناك أسطول أنجلو هولندى يقوم بحراسة سفن تجارية ، أقلعت إلى شرق البحر المتوسط ، وتمكن تورفيل من تفريق شمله وتحطيمه جزئياً عند الساحل الجنوبى للبرتغال. وفى العام التالى ، حاول العدو أن يقتحم مدخل ميناء برست، وهاجم التحصينات التى كان فوبان قد أمر أخيراً ببنائها ، ونجح فى القيام بعملية إنزال ، ولكن لوقت قصير ، عند نقطة كاماريت (يونيو ١٦٩٤) : ولكن مثل هذه المحاولات لن تتكرر بعد ذلك . ومن وقت لآخر سوف تستخدم موانى بحر الشمال وبحر المانش فقط كأهداف للمدفعية . ومالت مجهودات الأنجلو هولنديين بشكل خاص إلى حماية أساطيلهم التجارية : وكان أحدها قد تفرق شمله ، يوم ١٦ يونيو ١٦٩٦ ، فى معركة قرب دوجر بانك ، وتعود الجدارة فى ذلك إلى جان بار بنوع خاص .

ولم يحدث فى أى وقت مضى أن عرفت حرب السباق البحرى مثل هذا التقدير الكبير . وفى لندن ، وفى أمستردام ، كان أصحاب رؤوس الأموال لايناقشون أبداً فى قيمة الأموال التى كانوا يدفعونها للمتفوقين فى هذه العمليات. وظهر واضحاً أنهم كانوا يحاربون بنوع أساسى من أجل المصالح التجارية . وكان أصحاب المصالح الرئيسية فى ذلك على حق : وكانوا لاينتظرون أن تلح عليهم الدولة من أجل أن يدفعوا الموارد اللازمة لها . وهكذا تحولت إنجلترا المتواضعة ،فى القرن السابق ، والتى كانت مضطرة لعمل ألف حساب حين تعلم أن عليها بذل مجهود حربى وأصبحت الآن قوة مالية من الطراز الاول ، تنفق دون أن تحسب ، إذا ماشعرت بضرورة ذلك . وكانت هى ، مع الأقاليم المتحدة . تمثل أصحاب مصارف التكتل . وكان من الصعب على الإسبان وعلى الألمان أن يظلوا لفترة طويلة تحت السلاح دون أن تصل إليهم معونات مالية ، من وقت لآخر .

وفى البحر المتوسط ، ظهر بعض القراصنة الهولنديين ، مثل فليسنجوا Flessinguois الرهيب ، والذين كانوا يختبئون عند مدخل «قناة مالطة» ، أى بين مالطة وصقلية . وتهددت تجارة مرسيليا مع شرق البحر المتوسط ، وكانت هذه هى إحدى الفترات القليلة التى نجحت فيها ممارسة «القوافل» البحرية فى فرنسا. ومن ناحية أخرى ، جاء أسطول يحمل العلم الانجليزى ، فى عام ١٦٩٥ ، ووصل حتى المراكز التجارية فى شرق البحر المتوسط . وظهرت قوته حتى أن أحداً لم يتجاسر بقطع الطريق عليه .

ولاشك فى أن حرباً تشترك فيها إسبانيا والقوى البحرية ستكون لها بالضرورة آثارها فى أمريكا ، وعلى الأقل فى خليج المكسيك . وكما حدث فى الماضى ، إمتدت العمليات إلى سان كريستوف ، وسان دومنجو ،وإلى جواديلوب وجمايكا. أما المرحلة الأكثر شهرة ، فكانت هى عملية قرطاجنة ، على ساحل كولومبيا .

فتم الإستيلاء على الموقع بواسطة أسطول فرنسى فى عام ١٦٩٧، ثم عاد المتعمرون، بعد مغامرات عديدة، إلى برست، فى الوقت الذى كانت تجرى فيه مفاوضات الصلح.

وعلى خلاف أعوام ١٦٧٠، إمتدت الحرب هذه المرة ووصلت إلى شواطىء سان لوران. ونشعر برغبة فى أن نقول أن الحكومات لم يكن لها فى الأمر شىء. إذ أنه فى الوقت الذى تعددت فيه العمليات، كان هناك إتفاق بين لندن وباريس على أنه، فى حالة نشوب الحرب، تحظى المستعمرات بحالة الحياد. وكان ذلك يرجع إلى تفكير قديم، وهو التفكير الذى سوف يستمر لبعض الوقت كذلك: فيجب على سكان المستعمرات عدم التدخل فى الخلافات المسلحة التى تقع بين الأوطان الأم. ولكن علينا أن نلاحظ فقط أن إتفاق عام ١٦٨٦ بهذا الشأن كان قد عقد بين لوى الرابع عشر وجيمس الثانى. ولم يقم ويليام بالتصديق عليه، إذ أنه كان مصمماً على أن يقوم ضد الفرانسيين المكروهين بحرب لاهوادة فيها، حرب شاملة. ولذلك، فإنه لن يحترم هذا الاتفاق. هذا علاوة على أن أصحاب المصالح الرئيسية، وهم المعمرون، كانوا غير متعاونين. وقد يبدو من الوهلة الأولى أنه من الواجب ألا تكون هناك عداوة رئيسية بين الفرنسيين والإنجليز فى أمريكا. وكانت إنجلترا الجديدة لا تمثل حتى ذلك الوقت إلا شريطاً من الأراضى على ساحل المحيط، أما البلاد الداخلية، وفيما وراء جبال الليجانى، فكانت لا تزال تابعة للقبائل الهندية. وكانت غالبية المعمرين تتكون من المزارعين. أما فى الشمال، وفى بوسطن مثلا، فإنهم كانوا يمارسون تجارة « الفراء ». وكان الذين يقومون بهذه العملية يحقدون على الفرنسيين، والذين كانوا فى وضعية متميزة على وضعيتهم، إذ أنهم كانوا يقيمون فى منطقة البحيرات العظمى، عند « مصادر الكاستور ». وكانوا قد أثاروا، ومنذ وقت بعيد، الهنود ضدهم. وكانوا يعاونونهم، إذا ما سنحت الفرصة.

وأما العمليات الثانوية ، وهى التى شهدتها سافوا وكتالونيا ، فإنها لم تشتمل على أحداث هامة . وفى الجنوب الشرقى ، لم يقم كاتينا ، وهو الذى كان يسيطر على أراضى سافوا الواقعة فيما وراء الألب ، بما فى ذلك كونتية نيس ، إلا بهجوم قصير المدى داخل بيدمونت . وفى الجنوب الغربى ، خضعت كتالونيا لإحتلال جزئى فى الأشهر الأخيرة من الحرب: فخضعت برشلونة لحصار من البر ومن البحر. وحين جاء التسليم (٩ أغسطس ١٦٩٧) ، كانت محادثات الصلح قد قاربت نهايتها .

وفى أثناء عام ١٦٩٦ ، بدا الموقف لفترة من الوقت على أنه قد إستمر على كل الجبهات، وذلك فى الوقت الذى رغبت فيه حكومة لندن ، والتى كانت مشغولة بأزمة مالية حادة ، وتخشى من إمكانية إعلان إفلاسها ، فى أن تصل إلى الصلح . ومنذ ذلك الوقت، بدت نهاية الحرب على أنها قريبة ، ومن جانب آخر ، كان أحد أعضاء التكتل يعد نفسه لكى يخرج منه. وكان هذا هو آخر من إنضم إلى التكتل، أى دوق سافوا . حقيقة أنه لم يكن قد كف أبداً عن التفاوض ، وكان يعرض على لوى الرابع عشر، وبلا جدوى، أمر أن ينضم إليه ، إذا ماحصل على بينيرول، التى كان قد تركها فى عام ١٦٤٨ . وبعد أن تمت الموافقة على ذلك ، تعهد، بمعاهدة تورين السرية (٢٩ يونيو ١٦٩٦) ، على أن يضم قواته إلى القوات الفرنسية، من أجل غزو إقليم ميلانو . وبعد غزو منطقة ميلانو ، قام كل من الإمبراطور وملك إسبانيا بإستدعاء قواتهما . وتعهدا ، فى ٧ أكتوبر ، بأن يعتبرا الدول الإيطالية ، منذ ذلك الوقت ، على أنها أراضى محايدة (معاهدة فيجيفانو) .

٤ ـ صلح ريزويك :

ومنذ السنوات التى تمت فيها المحادثات السرية مع الأقاليم المتحدة ، كانت العقبة الرئيسية تتمثل فى الرفض المستمر من جانب لوى الرابع عشر للإعتراف

الفرنسيون أن يطردوا . ولم ينقذهم سوى مجىء عدد من سفن الأسطول . وفى عام ١٦٩٧ ، أى فى عشية الصلح ، جاء دور الانجليز لكى يفكروا فى التخلى عن الجزيرة .

أما فى شبه القارة الهندية ، وحيث كانت أعداد الاوربيين صغيرة ، فإن الحرب قد إستمرت عن طريق الشركات التجارية ، والتى كانت الحكومات قد فوضتها كل السلطات بشكل نهائى . وكان على الفرنسيين أن يواجهوا الانجليز والهولنديين فى نفس الوقت . وخضعت بوند شيرى ، قاعدتهم الرئيسية ، لعملية حصار منظم ، قام بها الأسطول الهولندى ، الذى دعم على البر بعض القوات التى كانت قد نزلت حديثاً . وكان على المدافع عنها ، فرانسوا مارتان François Martin، مدير الشركة ، أن يسلم الموقع فى شهر سبتمبر ١٦٩٣ . وحصل من ناحية أخرى، وفى الوقت الذى إشتعلت فيه الحرب ، من سلطان المغول ، على فرمان يسمح لرعايا الملك بالإقامة فى شاندر ناجور ، عند مصب نهر هوجلى ، وبأن يتاجروا بحرية فى منطقة البنغال المجاورة ، والتى كانت مركزاً كبيراً لانتاج الحرير ، وسيصبح الفرنسيون فى شاندرناجور ، جيراناً مع كلكتا ، التى إنشىء فيها مركز تجارى إنجليزى فى نفس هذه الفترة .

ولكن علينا أن نعود إلى فرنسا . فعلى الحدود البرية لم يتغير خط المعارك كثيراً . وكان الحلفاء قد بدأوا بالهجوم فى الأراضى المنخفضة . وكان لوى الرابع عشر قد أرسل إلى هناك أقوى جيوشه ، وبقيادة أفضل قادته ، ماريشال لوكسمبورج . وتجمعت أسماء المواجهات الرئيسية داخل منطقة صغيرة ، هى الجزء الجنوبى من الأراضى المنخفضة : فأولا فليروس ، حيث تم وقف تقدم جيوش الحلفاء فى أول يوليو ١٦٩٠ ، ثم ستينكيرك ونيرويندن . أما المواقع الحصينة ، مثل مونس ونامور ، فإنها تشرفت بمحاصرة الملك العظيم لنفسه لها .

بالنظام الملكى لوليام الثالث . وإنتهى الأمر ، فى عام ١٦٩٥ ، بالتخلص من هذه العقبة. ومن تنازل إلى تنازل آخر، تم الإتفاق على النقط الأساسية فى عام ١٦٩٧. وفى شهر مايو ، تم إفتتاح مؤتمر فى ريزويك ، قرب لاهاى ، بعد أن لعبت السويد دور الوسيط . ومرة أخرى ، رفضت إسبانيا أن ترسل ممثلا عنها . وكانت تخشى، كما كان علية دائماً ، من أن يتم عقد الصلح على حسابها . أما دوق سافوا ، فإنه أعلن معاهدة تورين : ولذلك فإنه قطع الصلة بحلفائه .

وكان يعارض وجهات النظر الفرنسية ، فى ريزويك ، وجهات نظر تلك الكتلة المتضامنة بقوة ، والتى كانت تتشكل من « القوى البحرية » . ولما كانت هذه الدول لا تخشىء شيئاً من بقاء سريان شروط معاهدة نيميج ، تم الإتفاق بسهولة على هذه النقطة التى كانت كبيرة الأهمية بالنسبة للدبلوماسية الفرنسية . وكانت المشكلة الأكبر صعوبة فى الحل هى مشكلة التعريفات الجمركية. وكان الفرنسيون قد شعروا بعدم ملاءمة إتباع سياسة جمركية معادية للتجارة الإنجليزية والهولندية ، كما كانوا قد فعلوا فى عهد كولبير . فوعدوا إذن بإلغاء تعريفة عام ١٦٦٧ ، والتى كانت ، منذ نيميج ، لا تطبق إلا على البضائع الإنجليزية . أما التعريفة الجديدة ، والتى سوف تطبق فى عام ١٦٩٩ ، فستكون لها طبيعة الحل الوسط بين تعريفتى عام ١٦٦٤ ، وعام ١٦٦٧ . أما فى المستعمرات ، فإنهم سوف يطبقون المبدأ العام الخاص بعودة الوضع القائم Status quo : فتعود فرنسا إلى ملكية بور رويال ، فى أكاديا ، وملكية بوند شيرى ، فى الهندستان.

ولقد إمتد أمر التوقيع على المعاهدات بين لوى الرابع عشر وبين خصومه العديدين طوال شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٦٩٧. وفهمت إسبانيا ، فى آخر وقت، أنه لم يكن هناك داع لغضبها.وكانت قد أصيبت بهزائم خطيرة فى كتالونيا. وكانت فى منتهى السعادة لكى تحصل ،هى كذلك ، على أمر تطبيق مبدأ عودة الوضع القائم

من الناحية الإقليمية . وتأكدت شروط معاهدة نيمبج ، فى إجمالها . ولذلك فإن فرنسا أعادت لوكسمبورج ، وكذلك الأماكن الأخرى التى كان قد تم إحتلالها فى أثناء الحرب . وبمعاهدة خاصة ، حصل الهولنديون على حق الإحتفاظ بحاميات ، فى المستقبل ، فى الكثير من هذه الأماكن ، مثل كورتراى ، وآته ، ومونس ، وشارلروا ، ولوكسمبورج ،والتى كانوا قد إهتموا بأمر تدعيم إحتلالهم لها مقدماً ، وهى التى سوف يبدأون فى تسميتها «بالحاجز» . وفى الأنتيل ، تم التخلى عن الجزء الغربى من سان دومنجو لفرنسا ، والتى كانت تسيطر على الجزء الآخر من الجزيرة .

ولقد إنفصل الإمبراطور والإمبراطورية عن حلفائهما فى وقت إنهاء الإتفاق ، خوفاً من عدم التمكن من الحصول على موافقة على بعض مطالبهما ، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مستقبل الوراثة الاسبانية . وفى حقيقة الأمر لم تكن الدولة النمساوية حرة فى حركاتها . وكان مصيرها ،فى الفترة الحديثة ،أن تصبح موزعة دائماً ، وحتى مشدودة ، بين الشرق والغرب ، بين الصراع ضد الاسلام الذى كان غازياً ، وبين الدفاع عن الامبراطورية المقدسة ضد الاعتداءات الفرنسية .

وكانت الحرب العثمانية الجديدة ، والتى كانت قد بدأت فى عام ١٦٨٣ مع أمر الدفاع عن فينا ، قد إستمرت منذ ذلك الوقت . وكانت حتى قد إتخذت بشكل لم يسبق له مثيل ، وأخذت الشكل الحقيقى لحرب صليبية : ذلك أن البنادقة ، ومن بعدهم الروس ، قد إنضموا إلى هذه « العصبة المقدسة » التى كان قد تم إنشاؤها تحت رعاية البابوية ،من أجل الدفاع عن المسيحية المهددة .وقامت البندقية بإرسال جيوشها ، والتى كانت تتكون فى غالبيتها العظمى من المرتزقة الألمان ، إلى دلماشيا ، والجزر الايونية ، وإلى المورة ، فى نفس الوقت . وتمكنت من أن تسيطر على مضيق كورنثا ، ثم إستولت ، فى عام ١٦٨٧ ،على أثينا ، وذلك بعد عملية قذف

بالمدفعية هدمت جزءاً هاماً من البارثينون . أما عملية الاستيلاء على بودا ، فقد تبعها إنتصار كبير (فى ١٢ أغسطس ١٦٨٧) ، قرب ميدان معركة موهاق، والذى كان قد شهد من قبل إنتصار جيوش السلطان سليمان ، فى عام ١٥٢١ .

وبعد أن تم أمر إستعادة كل المجر ، ظهرت مشكلات جديدة وطرحت نفسها أمام السياسة النمسوية . فلقد زادت قوة يقظة الاتجاه القومى المجرى ، تحت تأثيرات مختلفة، وعلينا ألا ننسى من بينها تجديد النشاط الحربى من جانب العثمانيين. ومنذ ما يزيد على قرن ، كان المجريون قد تعودوا على أن يديروا شئونهم بأنفسهم تحت السيادة البعيدة للسلطان . وكانوا لا يوافقون تماماً على أن يقعوا من جديد، تحت سلطة آل هابسبورج ، ويقاسوا من نظامهم الضرائبى ، ومن إدارتهم التى كانت تتميز بالشكليات ، وبطء التنفيذ . وأما فى بوهيميا ، فقد حدث فى بداية القرن ، أن ظهرت حركة رد فعل شديدة ضد الاتجاه الجرمانى المتزايد . وإبتداء من سنوات ١٦٧٠ ، تحولت العناصر غير الراضية ، إلى عناصر ثائرة . ومدوا أيديهم إلى جيرانهم فى ترانسلفانيا ، والذين كانوا فى حالة شبه دائمة من الثورة، إما ضد السيطرة العثمانية ، وإما ضد السيطرة المجرية . ولقد تنبه النمسويون، وأظهروا شدة بأسهم لسكان البلاد التى أعيد غزوها . وميزت القسوة العنيفة أمر مرورهم فى بعض المناطق ، كما يظهر من الملاحم التى ظلت شهيرة فى تاريخ المجر ، تحت إسم « مذابح إيبيرى » .

وبعد أن تمت عملية التحرير . حصل ليوبولد من الدايت الذى إجتمع فى برسبورج فى عام ١٦٨٧ ، على إعتراف بوراثة تاج القديس إتين ، وبنفس الطريقة التى كانت قد تمت فى براغ منذ نصف قرن قبل ذلك بشأن تاج القديس وينسيسلاس . وبعد سقوط مدينة بلجراد بدورها (٦ سبتمبر ١٦٨٨) ، بدأت الغزوات فى أراضى الصرب . وتم غزو مدينة نيش (وكانت تسمى فى ذلك الوقت نيسا) ، فى عام ١٦٨٩ ، ثم فقدت من جديد فى العام التالى . وفى الأراضى

البحرية ، ثم فى عام ١٦٩١ إنتصار لقوات لوى صاحب يادن فى شلانكيمين ، ثم سحق جيش عثمانى ، فى عام ١٦٩٧ ، عند جسر زينتا ، على نهر تيزا .

وفى ذلك الوقت ، كانت الحرب وشيكة الإنتهاء . ووافق ليوبولد ، مع حلفائه البولنديين ، والروس ، والبنادقة،على قبول بدء المفاوضات فى كارلوفيتز، قرب نهر الساف : وسوف تنتهى فى العام التالى . وكان آل هابسبورج قد تخلوا عن الإستمرار فى الحرب ضد العثمانيين ، وربما فقدوا بذلك فرصة الحصول على نصر نهائى ، وذلك من أجل مراقبة الغرب بشكل أفضل ، وكان لا يزال تحت السلاح . ولن يتأخر الصلح كثيراً فيما يتعلق بالشرق ، وذلك نتيجة لتوسط الحلفاء الإنجليز والهولنديين (٢٦ ينساير ١٦٩٩) . وتم الإعتراف بملكية الإمبراطور لكل المجر،فيما عدا يانات تامسفار. وتم إعادة إقليم بودولى لبولندا، والتنازل عن المورة للبندقية ، مع جزء من المناطق التى كانوا قد غزوها أخيراً فى دلماشيا وفى ألبانيا . أما الروس ، الذين لم يحصلوا على إرضاءات فيما كانوا يطالبون به ، فإنهم لم يوقعوا على المعاهدة . وفيما بين فينا وإستانبول ، لم يكن الأمر سوى مجرد هدنة بسيطة ، وكما كان عليه الحال دائما ، تحددت لها فترة خمسة وعشرين عاماً .

ولقد إنتهى الأمر ، على مرور الوقت ، بموافقة ليوبولد على الشروط المتفق عليها يوم ٣٠ اكتوبر ١٦٩٧ فى ريزويك . وكانت المناقشات حادة بين ممثليه وبين ممثلى لوى الرابع عشر . وظل مصير إستراسبورج معلقا لفترة طويلة. ولقد وافق لوى الرابع عشر ، فى إحدى اللحظات ، على أمر إعادتها . ثم عاد وتراجع عن ذلك حين أتت ظروف مواتية أكثر . ولذلك فإنهسوف يحتفظ بإستراسبورج، مع كل الألزاس ، والتى لن يناقش أحد بعد ذلك أمر سيادته عليها . وسوف يتخلى ، فى مقابل ذلك ، عن كل الأماكن التى كان قد إحتلها فيما وراء نهر الراين (فريبورج ، وكريساش ، وكيل ، وفيليبسبورج) ، وعلى كل الأماكن تقريباً

التى كانت قد تجمعت بقرارات قضائية فى عامى ١٦٨٠ — ١٦٨١ . وسوف تعود اللورين إلى دوقها ، وفى نفس الوضع الذى كانت عليه فى عام ١٦٥٩ ، أى بما فى ذلك الطرق الإستراتيجية والتى كان قد تم التنازل عنها فى معاهدة فانسين. أما القلعتان ، واللتين كانتا قد بنيتا فى أرض اللورين بعد ذلك ، وهما سارلوى، ولونجوى ، فإنهما سوف تبقيان مع فرنسا ؛ وستحتفظ قوات الملك ، وفى كل وقت ، بحق إستخدام أرض الدوقية من أجل المرور من ميتز إلى الألزاس . وأخيراً فإن حلول وسط سوت ، وفى غير صالح الإدعاءات الفرنسية، المنازعات الخاصة بمنطقة الراين. وتركت رئاسة أسقفية كولونيا المرشح الذى كان يعارضه لوى الرابع عشر ، أما أمر متعلقات ورائتها البلاتينات ، فسيكون موضوع تحكيم من جانب البابا : وجاء القرار فى هذا الموضوع ، فى عام ١٧٠٢، فى غير صالح دوقة أوليان ، والتى سوف تقنع بتعويض يبلغ ٣٠٠,٠٠٠ جنيه .

وبطبيعة الحال ، كانت معاهدة ريزويك تتضمن بعض المواد التجارية : قتم بنوع خاص إلغاء الرسم الشهير ، والذى كان يبلغ ٤٠ سو عن كل طن ، والذى كان قد فرض منذ أربعين عاماً على كل سفينة أجنبية تصل إلى الموانى الفرنسية .

وفى المجموع ، تراجعت السياسة الفرنسية ، ولكن فيما يتعلق بمسائل لم تكن حيوية . وخرجت البلاد سليمة من هذه الأزمة : فلم تفقد تقريباً أى من تلك المكاسب التى كانت قد حصلت عليها من قبل بمعاهدة . ولم يكن ذلك بطبيعة الحال كافياً من أجل التشوق بالنصر ؛ بل إن الرأى العام قد حكم بكل شدة على إتفاقيات ريزويك ، وكان قد أصبح حساساً بدرجة ملفتة للنظر بشأن التخلى عن الاراضى، مهما كانت صغيرة . ومع ذلك ، فقد تم الإحتفال بها فى فرساى ، كحدث مجيد . وظل لوى الرابع عشر دون أن ينهزم : وسوف يحاول أن يعتبر نفسه على أنه لا يهزم .

الفصل العشرون

حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠١ – ١٧١٤) ، وأوج قوة إنجلترا

كانت الأزمة الجديدة ، وهى الأزمة الأخيرة فى فترة حكم لوى الرابع عشر، هى الأكثر طولا ، وكذلك الأكثر تكلفة، من جميع النواحى. وأكثر من الأزمات السابقة ، كان لوى الرابع عشر قد تسبب فيها، وعن عمد . ولا يمكننا ، هنا أيضاً ، إلا أن نعلن عن دهشتنا . وكان من الواجب ، وهو على مشارف الشيخوخة – وكان قد بلغ الستين فى ذلك الوقت – أن يكون عصر الخيالات قد إنتهى بالنسبة إليه . وكان يعرف مدى ذلك العداء الشديد الذى كان يشعر به الإنجليز والهولنديين تجاه كل توسع ، أو حتى زيادة قوة جارهم الفرنسى . وكان أحد حلول هذه المسألة الخطيرة ، والتى كانت هى أمر الوراثة الإسبانية، قد تم الإتفاق عليه معهم . وكانت له ، من الظاهر ، بعض المساوىء . ولكنه كان على الأقل يعطى ميزة ضمان السلم . ولانعرف السبب سواء كان الخطأ أو سوء الحظ ، الذى جعل فرنسا تصل فى النهاية إلى إختيار حل آخر ، كان من المؤكد أنه سوف يستتبع نشوب الحرب .

أولا : أصول حرب الوراثة الاسبانية : –

١ – مسألة الوراثة :

كان الهدف المشترك للدبلوماسية الهولندية ، وللدبلوماسية الإنجليزية ، فى هذه المسألة ، هو تحاشي أمر بعث الحياة من جديد فى إمبراطورية شارل الخامس

(شرلكان) ، بنشأة امبراطورية إسبانية ألمانية من جديد ؛ وكذلك أمس مولد إمبراطورية فرنسية إسبانية ، يوجهها لوى الرابع عشر من قريب أمر مسن بعيد وأعطت مجهوداتهم نتائجها ، بعد عام من ريزويك : وتم تسجيل الإتفاق مع فرنسا فى إحدى المعاهدات ، التى تم التوقيع عليها رسمياً فى شهر اكتوبر ١٦٩٨ . وكان المفاوضون الرئيسيون هم ، من الجانب الفرنسى ، ضابط كبير ضليع فى الدبلوماسية ، تايار Tallard ، ومن الجانب الإنجليزى أحد أقرباء الملك ويليام ، وهو ويليام بنتنك William Bentinck الذى كان قد حضر من قبل إلى إنجلترا معه ، والذى أصبح لورد بورتلاند . وفى باريس ، إقيمت مراسم إستثنائية للورد بورتلاند ، خاصة وأن لوى الرابع عشر كان يرغب فى أن يظهر إهتمامه بملك إنجلترا بعد أن كان قد رفض الإعتراف به رسمياً حتى ريزويك . وكما يذكر سان سيمون ، قام لوى الرابع عشر حياله بما لم يقم به حيال أى سفير آخر ، وحتى إلى حد إستقباله فى حجرة نومه الخاصة ، فى أحد الأيام التى كان فيها تحت العلاج .

وإستمرت مناقشة أمر توزيع أراضى الإمبراطورية الإسبانية لوقت طويل . وكان تأثير التجارة البريطانية واضحاً فى المطالبة بدنكرك ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى فى المطالبة بجبل طارق ، الذى دخل ، فى ذلك الوقت ، فى تاريخ العلاقات الدولية . وكان من الضرورى أن يكون نصيب الإمبراطور أساسياً ، حتى تكون هناك فرصة لكى توافق فينا على الحل النهائى . ولذلك فإنهم قرروا أن يكون أحد أحفاده ، وهو أمير بافاريا المنتخب ، وإبن المنتخب من أرشيدوقة نمسوية ، معتبراً على أنه وارث متميز . وسيحصل ، وبصفة شخصية تماماً ، على إسبانيا ، وجزر الهند الأمريكية ، والاراضى المنخفضة . أما بقايا الولاية ، فيتم إقتسامها بين أفراد الأسرتين المتنافستين فى فينا وفى فرساى : فيحصل أحد أبناء ليوبولد على إقليم ميلانو ، بينما يحصل أحد أحفاد لوى الرابع عشر — لأن ولى العهد لم يكن له

إخوة — على مملكة الصقليتين ، وتوسكانيا ، وجيبوبوشوا ، وبلاد الباسك . وفى هذه المرة ، إستمع لوى الرابع عشر لصوت الحكمة ، وقبل على هذا الأساس عقد إتفاق مع خصوم الأمس . ولم يبلغ نص المعاهدة لمدريد ولفينا إلا بعد ثلاثة أشهر ، أى فى بداية عام ١٦٩٩ . ولكن مضمون المعاهدة تسرب قبل وقته ، الأمر الذى تسبب فى نشأة ردود فعل حادة من جانب أولئك الذين كانوا من أصحاب المصلحة ، وبقوا خارج المفاوضات . وذكر ليوبولد ، وبلا جدوى تلك التعهدات التى كانت قد قطعت حياله ، فى عام ١٦٦٨ ، من جانب ملك فرنسا ، وفى عام ١٦٨٩ من جانب أعضاء «التحالف الكبير» فى فينا . وجاء شارل الثانى وقرر ، وهو فى كامل سيادته ، توريث كل ممتلكاته لأمير بافاريا المنتخب . وعندئذ إختفى فجأة ، فى شهر فبراير ١٦٩٩ ، ذلك الطفل الصغير ، الذى كان له من العمر خمس سنوات — سواء أكان ذلك هو مجرد قدره أو عن طريق حادث مدبر — والذى كان هو الوريث المنتظر . فكان عليهم أن يعيدوا الأمر من أوله .

وتم وضع مشروع جديد ، فى مؤتمرات لندن ، وباريس ، ولاهاى ، فى ١١ يونيو ١٦٩٩ ، ثم تم أمر توقيع الحكومات عليه فى شهر مارس ١٧٠٠ ؛ وكان أقرب مايكون إلى المشروع السابق . وإختار هذا المشروع الأرشيدوق شارل ، الإبن الثانى للامبراطور ، على أنه الوارث المميز ، وذلك مع النص على أنه لن يتم أبداً أمر ضم تاج إسبانيا وممتلكاتها ، للامبراطورية . وكان لآل هابسبورج فى هذا المشروع ميزات لاتقل عن تلك التى كانت لهم فى المشروع السابق ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه هذا التوازن الذى أقاموه بطريقة أو بأخرى فى عام ١٦٩٨ قد تم على حساب البوربون : فيسمح لفرنسا فقط بضم دوقيات اللورين ؛ ويحصل دوق اللورين بدلا عن ذلك على إقليم ميلانو . ومع ذلك فإن المعارضة الجديدة جاءت من فينا : فرفض ليوبولد ، مرة ثانية ، أن يوافق على ذلك .

وكتب الملك ويليام إلى صاحب الدولة فى هولندا : «أنها سياسة غير معقولة» . وكان حلم إعادة إنشاء إمبراطورية شارل الخامس (شرلكان) لايزال يسيطر على تفكير آل هابسبورج فى النمسا . أما فى إسبانيا ، فإن الأمة لم تكن قد نسيت ذكريات عصر شارل الخامس ، ولم تكن تخشى أى شيء أكثر من الوقوع من جديد تحت سيطرة ألمانيا . وكان وجود ملكة نمسوية ، إلى جوار الملك ، أحاطت نفسها بأبناء جنسيتها ، يدعم أمر ذلك التباعد الطبيعى للاسبانيين عند الألمان . وكانت حركة الرأى العام فى منتهى الحدة ، حتى أن الملك ، وهو على فراش الموت . قد شعر بضرورة أخذ قرار يحمى سلامة ممتلكات التاج . وجاء الدافع من مجلس دولته : فطلب إليه أن يكتب وصيته ، وليس فى صالح أحد أفراد أسرة هابسبورج ، الذى سوف يتعرض للعداء المباشر من جانب الدولة الفرنسية ، ولكن فى صالح أحد أفراد أسرة البوربون . ورغم بعض التردد من جانب شارل الثانى — وكانت فى عروقه دماء من آل هابسبورج — إنتهى به الأمر إلى الموافقة على هذه الرغبة . وإتخذ قراره هذا قبل شهر من وفاته . وكان عليه أن يترك مجموع ممتلكاته إلى وريث واحد معين . وكان هذا الوريث هو فيليب ، دوق آنجو ، وهو الحفيد الثانى للملك لوى الرابع عشر ، وذلك فى ٢ أكتوبر ١٧٠٠ .

وأمام مثل هذا القرار غير المتوقع ، ماذا ستكون ردود فعل ملك فرنسا ؟ وإلى أى إتجاه سوف يعمل ، الاتجاه الذى إتخذه ملك إسبانيا ، أو ذلك الاتجاه التى كانت «الدول البحرية» قد وافقت عليه من قبل ؟ وكان عليه أن يعتمد على نفسه فقط فى إتخاذ هذا القرار . وكان فى وسع المؤرخ ، وبالنسبة لما وقع فى خلال الجزء الأول من فترة حكمه ، أن يوزع مسئولية السياسة التى إتبعت فى الخارج مع كولبير أو مع لوفوا ، واللذين كانا ، الواحد بعد الآخر ، مستشارية السيئين . أما فى الفترة التى وصلنا إليها ، فلم يعد هناك وزير يحظى

بالثقة ، ولامعاونين قريبين ، يمكنهم أن يحظوا بكل ثقة الملك ، كما لو كانت زيادة إتجاهه السلطوى قد وصلت إلى مرحلة تثبيط همة أولئك الذين كانت طموحاتهم تزيد على مجرد الحصول على الرضاء الملكى . ومع المشكلة السياسية التى كانت مطروحة أمام لوى الرابع عشر كان هناك مشكلة ضمير : فهل كان عليه أن يتمسك بالإلتزامات التى إتفق عليها مع لندن ولاهاى ، أو يفضل عليها إحترام الرغبات الأخيرة لشارل الثانى ؟ وكانت الحكمة المجردة تشير عليه بعدم الرجوع فى الكلمة التى كان قد أعطاها : فبالإتفاق مع إنجلترا والأقاليم المتحدة ، وبالإعتماد عليها ، لم يكن الملك يخشى من كائن كان . وبعد بضعة أيام من التفكير ، إختار لوى الرابع عشر الإتجاه غير المضمون ، وإن كان فى نظره مليئاً بالوعود . ألم يكن ذلك يمثل الخاتمة غير المتوقعة لذلك الحلم الجميل الذى خلقة مزران منذ خمسين عام من قبل ، عن ضمان السيطرة الفرنسية بشكل نهائى ؟ وكيف كان فى وسعه أن يرفض ، وخوفا من الحرب ومخاطرها ، مثل هذه الهدية الجميلة ، التى ألقى بها الحظ أمامه ؟ وكان الملك لايزال واثقاً من نفسه ، ولم يتمكن من أن يحل المشكلة . وكما لو كان قد رغب فى تحدى كل أولئك الذين كان من مصلحته أن يحافظ عليهم ، قام بعد بضعة أسابيع حتى بإعطاء تصريح ذكر فيه أن ملك إسبانيا الجديد ، وخلفائه ، سوف يحتفظون بكل حقوقهم فى تاج فرنسا (أول فبراير ١٧٠١) .

وهكذا سيصبح دوق آنجو ملكاً لإسبانيا . وتم تقديمه فى فرساى ، يوم ١٦ نوفمبر ، رسمياً للبلاط على هذه الصفة . ثم ذهب إلى مدريد فى فجر اليوم التالى . وأعطيت مهلة لمدة شهرين للامبراطور حتى يعطى موافقته على تسوية كان الجميع يعرفون مقدماً أنه سوف يرفضها . ولم يكن لوى الرابع عشر ، مثله فى ذلك مثل غيره ، يحتفظ بأية أحلام بشأن هذا الموضوع . وكان على علم تام

بالأوضاع . فعلاوة على إنجلترا وهولندا ، واللتين كانتا على نفس درجة قوة الإتحاد السابقة ، كان عليه أن يحارب النمسا من جديد ، وكانت هي القوة العسكرية الثانية في ذلك الوقت . وربما كان قد تصور أن ليوبولد سوف ينشغل مرة أخرى مع الأتراك والمجريين . ولكن فرنسا ، التي سادها الفقر ، لم تعد لديها ، في ذلك الوقت ، تلك الوسائل اللازمة لكي تمد كما يجب حلفائها في الشرق ، حتى تجعلهم يعودون إلى حمل السلاح . وكان الصلح الذي تم عقده مع السلطان في كارلويتز ثابت الأركان . أما الصعوبات التي سوف تظهر عدة مرات في المجر فكان من الممكن التغلب عليها دون صعوبة كبيرة .

٣ ـ تحالف لاهاى والتكتل :

لم تبدأ الحرب في التو . ومر عام بذلت خلاله مجهودات ، من هذا الجانب أو ذاك ، من أجل إنقاذ السلم ، وبدت على أنها قد تعطي ثمارها . وكانت الشعوب في حاجة إلى وقت معين حتى تتعود على فكرة أن الكلمة الأخيرة سوف تترك ، مرة جديدة ، لقوة السلاح . أما المعارضة في الرأي فقد ظهرت قوية بشكل خاص في هاتين البلدين اللتين كانت الأمة فيها تتمتع دائماً بحق إسماع صوتها ؛ في إنجلترا وفي الأقاليم المتحدة . وكان كل شيء يعتمد عليها . ولذلك فإن الآمال كانت ضخمة ، في فرنسا ، حينما علموا (في شهر فبراير — مارس ١٧٠١) ، أنهما كانتا ، وبشكل تلقائي تقريباً ، مستعدتين للاعتراف بملكية فيليب الخامس . وبعد قليل ، سار فيكتور آميدى ، دوق سافوا على نفس النهج . وكانت إبنته الثانية قد وعدت بالزواج من فيليب الخامس . ولذلك فإنه وضع نفسه ، مقدماً ، في خدمة البوربون ، ووعدهما ، في حالة نشأة صعوبات ، بمساندة جيشه ، وبحرية العبور عبر بلاده . وسوف يحمل بكل فخر لقب القائد العام للجيوش الإسبانية والفرنسية في إيطاليا .

وكان الامبراطور ليوبولد ، بطبيعة الحال ، يغلي . وعمل على إثارة ألمانيا ، وكان مستعداً دائماً لاتهام لوى الرابع عشر بأنه كان يطمح إلى إنشاء مملكة عالمية وأقسم ، منذ أن عرف بوجود وصية شارل الثانى ، بأن ملك فرنسا ان يصل إلى مبتغاه . وأعلن أمام وزرائه . «إن أوربا سوف تتحد معى من أجل منع قيام هذه الملكية » . ولذلك فإنه عمل إذن على إعادة تكوين جبهة الحلفاء التى كانت موجودة فى عام ١٦٨٨ . وجاء عدم حرص لوى الرابع عشر لكى يسمح له بالنجاح السريع .

وكان الهولنديون ، عند نهاية الحرب السابقة ، قد حصلوا على حق الإحتلال الدائم لبعض الأماكن فى الأراضى المنخفضة ، والأكثر قرباً من الحدود الفرنسية ، وهى الأماكن المسماة «بالحاجز» . وكان أمر وصول ملك فرنسى إلى عرش مدريد يهدد بإلغاء مثل هذه الوضعية وقام لوى الرابع عشر ، والذى كان يضيف خطأ على خطأ ، بتقرير المسألة بضربة واحدة ، ودون أن يأخذ حذره ويتفاوض : فتصرف بإسم حفيده ، وأرسل قواته لطرد جنود الأقاليم المتحدة (مارس ١٧٠١) . كما قام ، وبدعوى المحافظة على سلامة ميراث فيليب الخامس ، باحتلال مجموع بلاد الأراضى المنخفضة . وكانت هذه فرصة جيدة لخصومه ، لكي يفضحوا فيها إعتداءاً جديداً على السلم : ولم يتركوها . وسرعان ما إنعقد التحالف العسكرى من جديد بين الأقاليم المتحدة ، وإنجلترا ، والنمسا . وجاءت المعاهدة التى عقدتها الدول الثلاث فى لاهاى ، فى ٧ سبتمبر ١٧٠١ ، والتى إحتفظت بإسم «معاهدة الحاجز» لكى تعترف للهولنديين بحق الإحتلال الدائم لإحدى عشر موقعاً كانوا قد خرجوا منها . كما أنها أعلنت عزيمة المتحالفين على إعادة غزو الأراضى المنخفضة ، حتى «يستخدموها»

كخندق ، وإستحكام ، وحاجز ، لفصل وإبعاد فرنسا عن الأقاليم المتحدة ، كما كان عليه الحال فى الماضى» .

ولم يكن «تحالف لاهاى الكبير» يختلف كثيراً عن «تحالف فينا الكبير» . وكانت قد إنضمت إلى أعضائه ، علاوة عليهم ، إحدى الرؤوس المتوجة . وكان فردريك الثالث Frederic III ، الذى خلف المنتخب الكبير ، وهو من أسرة هوهنزلرن Hohenzollern ، قد باع نفسه للامبراطور (١٦ نوفمبر ١٧٠٠) ، لكى يحصل منه على اللقب الملكى ، أى فى خارج حدود الإمبراطورية. ومع ذلك ، فإن دور الملك الأول لبروسيا فى الحرب كان دور التابع ، ودور أمير فقير ، يستمد فى طلب المعونات ، ومجرد مرتزق عند الدول البحرية والنمسا ، علاوة على كونه أكثر إهتماماً بما كان يحدث فى بولندا عن إهتمامه بمصير إسبانيا وملحقاتها .

ولقد وقع حادث ، قبل تبادل إعلان الحرب ؛ وكان قليل الأهمية فى حد ذاته ، رغم أن نتائجه ستكون خطيرة بشكل واضح فى الميدان النفسى : فكان الملك جيمس قد توفى فى مقر إقامته فى سان جرمان ، فقرر لوى الرابع عشر ، ونتيجة لأخلاصه العنيد لصداقة أسرة إستيوارت ، أن يعترف بولى عهده كملك على إنجلترا . وشعروا فى لندن بأنه لم يكن هناك أى شىء يمكنهم أن يأملوا فيه من جانب فرنسا .

وبعد ستة أشهر من ذلك (١٩ مارس ١٧٠٢) ، توفى الملك وليام بدوره فجأة ، وفى سن مبكر ، نتيجة لحادث لركوب الخيل فوصلت الأميرة آن Anne ، أخت زوجته ، إلى تولى العرش من بعده ، ودون صعوبة . وأعلنت الملكة الجديدة فى خطابها الأول فى البرلمان : «إن علينا أن نشجع كثيراً حلفاءنا على تقليل القوة المتحكمة لفرنسا» .

٣ ـ إمكانيات الطرفين ، والاستيلاء على جبل طارق :

مع أخذ كل شيء فى الإعتبار ، كانت فرنسا فى وضع أفضل مما كانت عليه فى وقت رابطة أوجسبرج . فلم يكن فى وسعها فقط أن تستخدم قوات إسبانيا. ولكن حتى ألمانيا لم تكن كلها وبالإجماع واقفة ضدها . وإذا كان الدايت قد قرر ، مرة أخرى ، رسميا أن يدخل إلى الحرب إلى جانب الإمبراطور ، فإن بافاريا قد سارت وحدها ، وكما كانت قد فعلت فى عام ١٦٧٤ . ولم يكتف المنتخب بمجرد الإمتناع عن إرسال فرقة من جيشه إلى الإمبراطورية ؛ بل إنه عاد ، بمعاهدة ٩ مارس ١٧٠١ ، إلى تحالف ويتيلسباخ مع أعداء الأسرة الحاكمة فى النمسا ، وفتح أراضيه لدخول الجيوش الفرنسية . وقام أخوه ، رئيس الأساقفة المنتخب فى كولونيا ، والذى كان فى نفس الوقت أسقف وأمير لييج ، بإتباع نفس المثل الذى أعطاه كبير الأسرة .

وفى لندن ، كانت المنافسة مع فرنسا فى الشئون التجارية ، وكما كانت عليه فى الماضى ، تساير أو حتى تسيطر على التعارض بين المصالح السياسية . وقامت أوساط رجال الأعمال بتوجيه النقد الشديد ، وقت عقد معاهدة التقسيم فى عام ١٦٩٨ ، لإعطاء نابولى وصقلية لفرنسا : فسيكون مرور السفن الذاهبة إلى شرق البحر المتوسط أو التى تأتى من هناك معرضة للتوقف ، وبشكل خطير ، فى حالة نشأة صعوبات كبيرة بين البلدين . ولكن الأمر إختلف عن ذلك منذ الوقت الذى تولى فيه فيليب الخامس مقاليد الحكم فى مملكته . وتم إعطاء إمتياز إستيراد الزنوج إلى أمريكا إلى إحدى الشركات الفرنسية ، وهى شركة غينيا (فبراير ١٧٠١) .

وهذا الإمتياز — المواقع asienfo السوداء — كان ، منذ فترة بعيدة ، موضوع تنافس شديد بين الدول البحرية . وكان البرتغاليون قد إحتفظوا به

من عام ١٦٠١ إلى عام ١٦٤٠ ، وحتى الوقت الذى إستعادوا فيه إستقلالهم .
ثم قامت حكومة مدريد فى عام ١٦٦٢ ، بالتفاهم مع إحدى شركات جنوا ، حتى
لا تقوم بتسليمه إلى أحد المتنافسين الكبار . ولكن الهولنديين فى كراساو ،
والإنجليز فى جامايكا ، نجحوا فى التدخل فى شئون هذه الشركة ؛ ولم يتجدد العقد
عند نهاية فترة الإمتياز . وكان ، منذ ذلك الوقت ، موضوع مساومات مختلفة .
وتمكن البرتغاليون من الحصول عليه لأنفسهم ، بعد عقدهم الصلح مع إسبانيا .
وكانت الأهمية الكبيرة بالنسبة لهذا الموضوع تتمثل فى أن تجارة العبيد كانت
تغطى ، عملياً ، حركة تهريب كانت تخرق مبدأ الميثاق الإستعمارى ، بالنسبة
للحقوق الكاملة التى كان الإسبانيون مستمرين فى المطالبة بها لأنفسهم . ونظراً
لظروف ذلك الوقت ، ظهر أنه من الطبيعى أن تمر ميزة مثل هذا الإمتياز ،
الخاص بالمواقع السوداء ، إلى الحليف الفرنسى . ولكن هذا الأمر أثار مخاوف
حادة فى كل من لندن وأمستردام . وكانوا يخشون من حدوث تغيرات أخرى ،
وبخاصة من أن يمتنع ذهب أمريكا وفضتها بعد ذلك عن الخروج من قادس
صوب موانى هولندا .

ولذلك فإن الميادين الخارجية للعمليات ستشهد أهمية جديدة مثل ميادين
أوربا نفسها . وسيكون نفس الدور فيها ، وكما حدث فى الماضى ، للقراصنة ،
وبخاصة من الجانب الفرنسى ، نتيجة لكون القوات النظامية فى أوضاع أقل من
تلك التى كانت عليها فى الماضى . فكان جان بار Jean Bart قد توفى . ولم يكن
مستقبل دوجواى تروان Duguay – Trouin إلا فى بدايته . وستكون
معونة إسبانيا لا تذكر ؛ ذلك أن الأسطول الإسبانى لم يكن يضم سوى ثلاثة
عشر وحدة ، منها خمس سفن ذات حواف عالية .

وكانت إحدى المراحل الواضحة لتلك الحرب التى ستنشأ على البحر تتمثل فى

شهر سبتمبر ١٧٠٢ فى مسألة غلايين فيجو . فبينما كان شاتو رينو — Chateau Renault ، قائد الأسطول العائد من أمريكا محملا بالمعادن النفيسة قد رسا فى خليج فيجو ، على حدود البرتغال ، حتى يسمح لسفنه بالقيام بالإصلاحات السريعة ،فاجأه الإنجليز ،والذين كانوا قد نزلوا قرب هذا المكان بغتة ، وقاموا ضده بهجوم شديد ، وهم يأملون فى الحصول على غنائم ملكية . وأصبحت كل السبل مسدودة أمامه ، فلم يبق أمامه من وسيلة يعارض بها أمر حصول الخصم على الغنائم سوى إحراق كل شىء . وحتى وقتنا الحاضر ، لاتزال هناك مشروعات كثيرة لإعادة إخراج « غلايين فيجو » بما تضمها من كنوز ؛ ولكنها ظلت دائماً مجرد مشروعات .

وفى ذلك الوقت ، كان تأثير هذه المسألة قوياً للغاية على لشبونة . وكان له تأثيراً مقرراً . ذلك أن البرتغاليين ، الذين كانوا يتساءلون منذ فترة عن الدور الذى يمكنهم القيام به فى تلك الظروف الدولية الخطيرة قرروا فى ذلك الوقت أن ينضموا إلى جانب أعداء فرنسا . وقام السير جون ميثوين John Methuen سفير إنجلترا ، بالتوقيع فى لشبونة ، فى ١٦ مايو ١٧٠٣ ، على معاهدة سرية نصت على أن موانى المملكة ستكون مفتوحة أمام الأساطيل الأنجلو — هولندية ، وأن جيشا من ٢٧,٠٠٠ جندى سيوضع فى خدمة المرشح النمسوى لعرش إسبانيا . وعند نهاية نفس السنة (٢٧ ديسمبر) ، أعطت معاهدة تجارة للإنجليز إحتكار تصدير الأنبذة البرتغالية،فى الوقت الذى ضمن فيه سوق للمنسوجات الإنجليزية فى جميع أنحاء البرتغال وفى مستعمراتها . وأنهت « معاهدات ميثوين » عملية جعل البرتغال دولة تابعة لإنجلترا . ولن يحدث أى شىء يمكنه أن يعكر صفو إتحاد البلدين خلال كل القرن .

وهكذا نجحت الدبلوماسية الانجليزية فى عملية كبيرة . أما الأسطول ،والذى

كان يمهد لها الطريق ، فإنه سيظهر بدوره فى نجاح تتناقل أصداءه جميع أنحاء العالم : فيتمكن من الإستيلاء على جبل طارق . وكان المشروع يداعب الأفكار ، فى لندن ، منذ بعض الوقت . ومنذ بداية الحرب ، كانت التعليمات المرسلة إلى أمراء البحر توجههم إلى الإستيلاء على جبل طارق حين تحين الفرصة . ولكن الهدف الرئيسى ظل دائماً متمثلا فى قادس ، وكما كان عليه الحال دائماً . وبعد إعلان الحرب بقليل ، قام الأميرال روك Rooke بإحضار جيش صغير أنجلو — هولندى إلى هناك ، وبدأ فى القيام بعمليات الحصار ، ثم إضطر إلى التخلى عنها بسرعة . أما بالنسبة لجبل طارق ، فكان الأمر يتعلق بعملية تتم دون صعوبة كبيرة . ذلك أن الإسبانيين لم يكونوا قد إهتموا إهتماماً كبيراً بهذا الموقـــع ، وكانت حاميته تتكون من ٥٦ جندى وما يقرب من المائة من رجال الميليشيا . وكان روك قد قام بمحاولة ضد موقع برشلونة ، الذى إعتقدوا أنه سيحاول التخلص من الإتجاه الفرنسى . وبعد رفض إنذاراته ، إضطر إلى الإبتعاد عنه . ولما كان يرغب فى أن يعوض بعض الشىء عن مثل هـذا الفشل ، إختار هـذه الفرصة لكى يحاول توجيه ضربة لجبل طارق . وقام الأسطول الذى كان يقوده — وهو أسطول إنجليزى هولندى — بالذهاب إلى هناك يوم ٢١ يوليو . وفى اليوم التالى، تم إنزال ١٫٨٠٠ رجل من البحارة، تحت قيادة أحد الألمان ، وهو الأمير جورج صاحب هيس ، والذى كان قد قام بالخدمة فى إنجلترا . وقاموا بالتركز فى ظهر الموقع ، وبشكل يقيم حاجزاً فى البرزخ الذى يوصله بأرض القارة . ثم بدأت عملية الضرب بالمدفعية . وجاءت عملية التسليم بعد يومين . وبعد أن دخل الإنجليز إلى جبل طارق يوم ٤ أغسطس ١٧٠٤ ، لم يخرجوا منها أبداً ، حتى الآن .

وفى فرنسا ، كانوا يعلمون بالأهمية الاستثنائية لهذا الموقع ، وفكروا بعد

ذلك مباشرة فى ضرورة منازعة الأعداء فيه . وبعد ثلاثة أسابيع ، إتصل إسطول شرقى البحر المتوسط بأسطول روك قريباً من مدخل المضيق . وكانت الموقعة التى وقعت بينها ، وهى موقعة فاليز مالقة ، من المواقع الكبيرة : فلقد إشترك فيها ما يقرب من خمسين سفينة من كل جانب . ولكنه لم يكن لها نتائج واضحة . وأعلن كل من الجانبين إنتصاره فيها . وكان فى وسع الفرنسيين على الأقل أن يدعوا أنهم ظلوا مسيطرين على ميدان المعركة ؛ إذ أن الانجلو هولنديين كانوا ، بقيادة روك ، قد إبتعدوا عنه بعد يومين . وكانت هذه هى آخر مرة تحاول فيها القوات الفرنسية أن تنازع فيها الخصم أمر السيطرة على البحر المتوسط . وفى عام ١٧٠٥ ، إنتهت محاولة جديدة لأخذ جبل طارق بفشل ذريع .

ثانيا : الحرب والمفاوضات والصلح :

١ — العمليات الحربية :

بعد أربع سنوات من الحرب ، لم تكن الامكانيات ، بالنسبة لفرنسا ، أكثر بريقاً على البر منها على البحر . وشيء متناقض فى مظهره ، يتمثل فى كون الحرب السابقة ، وهى حرب رابطة أوجسبورج ، والتى كانت تهم ألمانيا فى المكان الأول ، والتى كانت قد نشأت عند حدودها ، لم تكن قد أدت إلى نشوب عمليات هامة على أرضها ، أما هذه الحرب ، والتى كان موضوعها غريباً عنها ، فانها جعلتها تشهد أولى الصدمات التى أصابت جيوشها . وكان هذا نتيجة لقرار منتخب بافاريا . ذلك أن فيلار Villars ، الذى عبر نهر الراين حتى يلحق بأبناء بافاريا ، كسب نصراً أولياً على القوات الامبراطورية فى فريد لينجن ، فى إقليم بادن (١٤ أكتوبر ١٧٠٢) ، وحصل هناك على عصا الماريشالية . ثم تمكن من هزيمة جيش الدوائر فى هوشتاد ، على الدانوب (٢٠ سبتمبر ١٧٠٣) . ودخل إلى فرنسا حين وصل جيش انجلوهولندى ، تحت قيادة دوق مارلبورو Marlborough

والذى كان قــد أعاد صواب منتخب كولونيا . وأسقف لييج ، وإستولى على أملاكه . وبعد معركة بلنهايم (٢٢ يونيو ١٧٠٤) ، نجت البلاد من السيطرة الفرنسية . وإستمروا فى العمليات الحربية قرب الغابة السوداء ، ولكن دون نتائج لها قيمتها .

وكان المستقبل أكثر ظلاماً من ذلك فى إيطاليا : فكان دوق سافوا قد إنسحب منذ عام ١٧٠١ . وكان فيكتور آميدى قد حصل من الإمبراطوريين ، وعن طريق مفاوضات إستمرت لعدة سنوات ، على ميزات لم يكن قد حصل عليها من حلفائه الأول : وبخاصة وعد بالحصول على مونفيرات ، ذلك الإقليم الصغير الخاضع لميلانو ، والداخل فى نطاق أراضى بيدموت ، مع أحد المواقع . وإعتقد ، بعد أن تقوى بهذا النجاح ، فى أنه يمكنه أن يجدد لدى لوى الرابع عشر مطالبته بإقليم ميلانو ، والذى كان قد تقدم به فى عام ١٧٠١ ، وبلا جدوى . وبعد أن رفض الملك ذلك من جديد ، قرر أن يغير من إتجاهه . وأصبح فيما وراء الألب ، القائد العام للقوات الإمبراطورية ، بعد أن كان قائداً عاماً لخصومهم . وإضطر الجيش الفرنسى إلى أن يأخذ موقف الدفاع .

ولم تكن هذه هى النقطة الوحيدة التى سجلها الفرنسيون فى الميدان الدبلوماسى . ذلك أن الأمر إنتهى بالإمبراطور ليوبولد إلى أن يفهم أن من مصلحته أن يوازى بين موقفه ، فى مسألة الوراثة الإسبانية ، وبين موقف حلفائه . ولذلك فإنه أعلن تنازله عن كل حقوقه فى صالح إبنه الثانى ، الأرشيدوق شارل . وسرعان ما إعترف الإنجليز والهولنديون بملكية شارل الثالث على إسبانيا ، وإعتبروا أن من واجبهم مساعدة عميلهم الجديد على غزو بلاده . وتم تنظيم أمر غزو شبه الجزيرة عن طريق البرتغال : وبعد أن نزل شارل الثالث فى لشبونة ، فى ربيع ١٧٠٤ ، بدأ فوراً فى الاعداد للعمليات الحربية فى إتجاه مدريد .

وفى هذا الوقت ، بدت القوة البحرية لفرنسا فى البحر المتوسط على أنها تزداد ضعفاً . وإستلمت أساطيلها ، والتى كانت قد أصابها إستهلاك خطير ، أوامر بتحاشى أى لقاء بعد ذلك . وحينما عاد الانجليز إلى الظهور أمام برشلونة ، فى شهر سبتمبر ١٧٠٥ ، تمكنوا من السيطرة على الموقع ، من البر ومن البحر ، بعد حصار دام خمسة عشر يوماً . وبعد برشلونة وقع كل إقليم كتالونيا فى أيدى المتكتلين . وسرعان ما إتبعت أقاليم بلنسية ، ومرسية ، هذه الحركة . وإضطر لوى الرابع عشر . ونتيجة لتوسل حفيده ، إلى أن يرسل جيشاً ، فى فصل الربيع التالى ، من أجل إستعادة برشلونة . ولكن الأسطول الذى كان يؤيده إنسحب عند معرفته بوصول أحد الأساطيل الانجليزية ، وإضطروا إلى رفع الحصار بعد ذلك بقليل . وإضطر فيليب الخامس ، التى ثبطت من عزيمته هذه السلسلة من الفشل ، إلى أن يترك عاصمته ، ويلتجىء إلى فرنسا . وتمكن جيش إنجليزى ، وصل من البرتغال ، من الدخول إلى مدريد فى شهر يونيو ١٧٠٦ .

وبدت قضية فيليب الخامس على أنها قد تأثرت ، أكثر وأكثر . وبدت على أنها ، حتى فى حالة النجاح فى تأخير الهزيمة ، ليست بعيدة الضياع . وكان مجهود فرنسا يسعى إلى مجرد إنقاذ الحدود ، والتى كانت مهددة فى كل مكان . وفى شهر أغسطس ١٧٠٦ ، وقع غزو لطولون ، برياً بقوات نمسوية وقوات من بيدمونت ، وبحرياً بالأساطيل الانجليزية والهولندية . وتم إنقاذها بوصول إمدادات شقت لنفسها طريقاً عبر خطوط المحاصرين . ولكن العدو عاد إلى الظهور فى العام التالى . وقام الأمير إيوجين Eugéne ، الذى كان يقود القوات الانجليزية البيدمونتية بمحاصرتها لعدة أسابيع (يوليو — أغسطس ١٧٠٧) ، وإن كان قد فشل فى الاستيلاء عليها . وفى أثناء ذلك الوقت ، كان المحاصرون قد فشلوا فى تأمين سلامة أسطولهم ، فأغرقوا جزءاً منه .

ولقد إضطر لوى الرابع عشر إلى أن يتخلى عن إيطاليا ، حتى يتمكن من القيام ببعض المجهود لاسبانيا . وتم عقد إتفاقية هدنة مع فيكتور آميدى، سمحت بسحب جيش سافوا إلى ما قبل جبال الألب (مارس ١٧٠٧) . وفى نفس العام ، تمكن الحلفاء ، الذين كانوا قد غزوا مملكة نابولى وسردينيا ، من تهديد صقلية . أما الانجليز ، الذين كانوا يبحثون عن قاعدة بحرية تحل محل القاعدة التى كانوا يرغبون فى إقامتها فى طولون ، فقد وجهوا أنظارهم صوب مينورقة . وشهد ميناء بورماهون ، المرسى الرئيسى فى الجزيرة ، نزولهم فيه فى عام ١٧٠٨ . وكانت هناك حامية فرنسية . وبعد إلتجائها إلى قلعة فيليب ، لم تتمكن من المقاومة إلا لبضع ساعات . وتم الاحتفال فى إنجلترا بالاستيلاء على مينورقه بإحتفالات تقترب من تلك التى أقيمت وقت الاستيلاء على جبل طارق .

أما فى الأراضى المنخفضة ، فإن إنتصار مارلبورو فى راميلى (٢٣ مايــــو ١٧٠٦) ، قد أجبر الفرنسيين على إخلاء الجزء الأكبر من الأقاليم التى كانوا يحتلونها . ثم قام الأمير إيوجين من سافوا ، فى أثناء شهر أغسطس ١٧٠٨ ، بقيادة جيش نمسوى ، ولحق بالجنرال الانجليزى ، وتعاون معه فى عملية محاصرة موقع ليل . فوقعت فى أيديهم فى أثناء شهر ديسمبر التالى . وإذا كان الموقف قد ظهر ، فى ذلك الوقت ، على أنه كان أقل سوءاً مما كان عليه فى إسبانيا ، فإن ذلك كان يرجع إلى أن الاسبانيين ، الذين كانوا يعادون صراحة أمر سيطرة الألمان عليهم ، قاموا ضدهم بحرب عصابات . ونتيجة لتأثير حرب الكمائن والضربات المفاجئة هذه ، تمكن فيليب الخامس من العودة إلى عاصمته لفترة من الزمن . ولكنه تركها من جديد فى عام ١٧٠٩ ، وبعد عودة هجوم الانجليز . ثم عاد إليها بعد عام ، وبعد هزيمة الأنجلو نمسويين على يد جيش فرنسى إسبانى فى فيلا فيكيوزا (١٠ ديسمبر ١٧١٠) .

٢ ـ المفاوضات :

كان الدبلوماسيون. وكما كان قد حدث فى كل من الحروب السابقة، لاينتظرون أن يعملوا فقط فى الوقت الذى يطلب منهم رسمياً القيام فيه بواجباتهم. فبدأوا، من هذا الجانب ومن ذاك، وبطرق مباشرة أو غير مباشرة، فى القيام بعملية « جسات ». ولقد إتجه الفرنسيون فى أول الأمر صوب لاهاى، بأمل أن يسووا مباشرة، ووحدها، تلك المسألة التى كانت قد تسببت فى نشوب الحرب، وهى مسألة الأراضى المنخفضة. ولكن الإقتراحات التى قدمت فى عام ١٧٠٥ لم تكن كافية بدرجة أخذها بعين الإعتبار. أما إقتراحات عام ١٧٠٦، والتى كانت أكثر إتساعاً، فإنها قد رفضت كذلك نتيجة لتدخل من جانب لندن، وحيث كانوا لا يخشون شيئاً أكثر من إمكانية وقوع تقارب بين الفرنسيين والهولنديين. وظلت العداوة الإنجليزية لفرنسا لا تقل عما كانت عليه. وكانت أسبابها إقتصادية وسياسية. وكانت أوساط رجال الأعمال ترغب دائماً وبشدة فى أن تشارك، بطريقة أو بأخرى، فى تجارة الهند الغربية. ومن ناحية أخرى، إستمرت حكومة لوى الرابع عشر فى مساعدة أسرة إستيوارت. وكان المدعى الجديد للعرش، وهو الذى أسماه أنصاره بإسم جيمس الثالث، قد حاول القيام بمغامرة، بمجرد أن وصل إلى سن العشرين، فى عام ١٧٠٨. ورغم أنه لم ينجح حتى فى النزول على سواحل إسكتلندا، فإن المسألة قد أثارت الذعر فى العاصمة.

ولقد شهد عام ١٧٠٩ نقطة تحول. وظلت ذكراها لفترة طويلة عند الأهالى. ذلك أنه كان عام « الشتاء الكبير »، وأصعب شتاء كانوا قد عرفوه. وكانت مقاساة الأهالى شديدة. وتأكدت المشاعر فى كل مكان بضرورة إنهاء الحرب دون تأخير كبير. وعندئذ تبلورت نتائج المفاوضات التى كانت قد بدأت من أجل الوصول إلى الصلح.

وكان الإنجليز والهولنديون يعتقدون ، ولبعض الأسباب ، فى أنه سيكون فى وسعهم إملاء شروطهم . فكان عليهم إذن أن يتفقوا سوياً ، فى المكان الأول. ووصلوا إلى ذلك فى شهر يوليو ١٧٠٩. ووضعوا سوياً ذلك الإتفاق الذى سوف يعرف باسم « تفاهم لاهاى » ، والذى سوى يعرف، فيما بعد، باسم معاهدة الحواجز الثانية . وكان ذلك يرجع إلى أن مسألة « الحواجز » ضد فرنسا ، وهى التى كانت تشغل الهولنديين إلى حد بعيد ، تم الإتفاق عليها فى هذا التفاهم قبل غيرها : فسوف يحصلون فى وقت السلم العام على حق وضع حاميات بصفة دائمة فى خمسة عشر موقعاً ، كانت فى الماضى تحمى حدود الأراضى المنخفضة صوب الجنوب ، (نيوبور ، فيرنيز ، إيبر ، ليل ، تورناى ، كوندبه ، فالنسين ، موبوج ، شارلروا نامور . . . الخ) ، وكان البعض من بينها قد أصبح منذ بعض الوقت فرنسياً ، بينما ظلت الباقية إسبانية . وسيتم الإتفاق على هذه الحاميات على حساب البلجيكيين. وبهذ الثمن وافق مجلس الأقاليم المتحدة على أن يضمن حقوق منتخب هانوفر وخلفائه ، أى حقوق الأسرة البروتستانتية التى كان الإنجليز قد إختاروها لأخذ العرش ، فى اليوم الذى تختفى فيه الملكة آن .

ووصلت الحالة العامة إلى درجة من السوء ، سواء فى الداخل أو فى الخارج، حتى أن لوى الرابع عشر تنازل عن الكثير حتى يحصل على الصلح . فأرسل تورسى Torcy ، وزير خارجيته ، إلى لاهاى ، حتى يتحادث مع ممثلى الدول البحرية . وتم إعتبار « تفاهم لاهاى » على أنه أساس المناقشات : وكان هذا يعنى أن يقوم الملك بالموافقة على سحب قواته من إسبانيا ، ويترك فيليب الخامس يلقى مصيره. وحين طلب إلى الإمبراطور أن يقدم شروطه ، أجاب بأنه مستعد ، إذا ما لزم الأمر ، لإعادة إستراسبورج . وهكذا بدا أن الصلح سوف يتم عقده دون تأخير كبير . ولكن الحلفاء الذين زاد تصلبهم كلما كانت الكرامة الفرنسية تحنى رأسها،

سوف يؤخرون ذلك ، بتقديمهم مطلباً فى اللحظة الأخيرة ، رفض لوى الرابع عشر أن يوافق عليه. ولما كانوا يعلمون بمشاعر الإسبانيين تجاه السيطرة النمسوية، فإنهم طلبوا أمر تعاون القوات الفرنسية فى تنصيب مرشحهم على عرش مدريد. وهذه المرة ، كان الأمر قد زاد عن كل حد . ورفض الملك أن يصل حتى هذه النهاية . فإنقطعت المحادثات . وفى الإجمال ، لم يكن على فرنسا أن تعلن توبتها .

وعادت العمليات الحربية من جديد ، بعد أن كانت تسير ببطء ، وفى كل القطاعات . وفى الأراضى المنخفضة ، تميزت بوقوع معركة دموية ، هى موقعة مالاكيه (١١ سبتمبر ١٧٠٩) : وكان على فيلار Villars أن يواجه فيها جيشاً أنجلو نمسوى قوى، بقيادة قائدين شهيرين هما مارلبورو والأمير إيوجين. ولم يتمكن العدو ، رغم تفوقه العددى الواضح ، من أن ينتصر فيها إلا بصعوبة كبيرة . ولم يحصل من نجاحه على أية ميزة إستراتيجية .

وبدأت المفاوضات من أجل الصلح من جديد ، فى بداية عام ١٧١٠ ، ودائماً فى هولندا ، ولكن فى جرترويدنبرج . وأضاف لوى الرابع عشر إلى تنازلاته السابقة تعهداً ، بكلمة شرف ، بألا يساعد بعد ذلك ، وأى طريقة، حفيده، وحتى بأن يسهم بمعونات فى الحرب التى سوف تستمر ضده . وكان الحلفاء يشعرون بالحاجة إلى مجرد معونة إيجابية : فكانوا يرغبون فى أن يروا إلى جانبهم كتائب فرنسية ، أو حتى أساطيل فرنسية . ولكنه لن يكون هناك أى شىء من ذلك . وسوف ينفضون من جديد ، بعد بضعة أسابيع ، دون أن يصلوا إلى أى شىء .

وأصبحت العمليات العسكرية أو البحرية الآن أكثر ندرة ، سواء فى أوربا أو فى خارجها. وفى المحيط الأطلسى ، كانت الوحدات الكبيرة ترهق نفسها بحراسة سفن أمريكا ، وذلك فى الوقت الذى أصبحت فيه الرحلات أكثر ندرة . أما فى بحر الأنقيل ، وكذلك فى البحر المتوسط ، فإن القراصنة كانوا يسيطرون على

الموقف . وكانوا يقومون عادة بتسجيل إنتصاراتهم على السفن صغيرة الحمولة . ومع ذلك ، فان حدثين قد ميزا عامى ١٧١٠ و ١٧١١ عند طرفى جبهة أمريكا . فكان أولا ظهور أسطول إنجليزى على ساحل أكاديا ، وضرب بور رويال والإستيلاء عليها . ثم جاء بعد ذلك إقلاع ديجواى تروان إلى البرازيل ، بعد أن كان وزير البحرية قد سلمه أسطولا من السفن الكبيرة ، وقيامه باقتحام خليج ريودى جانيرو ، وقذفه المدينة التى أخلاها سكانها ، وإستيلائه عليها بعد بضعة ساعات . وفى شهر أغسطس ١٧١٢ . إتفق المتحاربون ، باتفاقية تم التوقيع عليها فى فونتنبلو ، على وضع حد لحرب القراصنة . وكانت بشكل ما أول وثيقة للصلح يتم الإتفاق عليها .

وفى العام السالف ، كانت إحدى الأحداث غير المتوقعة قد جاءت لكى تجدد ظروف المشكلة الإسبانية . فكان الامبراطور ليوبولد، الذى توفى فى عام ١٧٠٥ قد خلفه إبنه الأكبر ، جوزيف . ولكن جوزيف الأول توفى بدوره ، وله من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً ، دون أن يترك وريثاً مباشراً (١٧ أبريل ١٧١١) . ولذلك فان التاج إنتقل إلى أخيه الأصغر ، الأرشيدوق شارل السابق ، وملك إسبانيا بالنسبة للمتحالفين ، والذى سيصبح منذ ذلك الوقت الامبراطور شارل السادس . ومعنى ذلك بأن عرش إسبانيا قد أصبح خالياً : فلم يكن هناك أحد فى أوربا يفكر فى إمكانية إعادة تكوين إمبراطورية شارل الخامس (شرلكان) . وظهرت نتائج هذا الحدث بشكل خاص فى لندن ، وحيث كان الملل والرغبة فى الخلاص تزداد وضوحاً فى كل يوم . وجاء القدر لكى يعلن النتيجة : فلقد وافق الانجليز إذن على الاعتراف بفيليب الخامس . . . ومنذ ذلك الوقت إختفت العقبة الرئيسية من أمام إمكانية التفاهم مع فرنسا . وتم تسجيل الاتفاق بين الدولتين فى « تفاهم لندن » (فى ٨ اكتوبر ١٧١١) . وكانت النمسا ، بطبيعة

الحال ، معادية . أما الأقاليم المتحدة فانها وجدت صعوبة فى أن توافق على أن يقوم أمير فرنسى بالحكم فى مدريد وفى بروكسل فى نفس الوقت . ولكن الانجليز كانوا يعرفون الوسائل التى يتغلبون بها على تردد الهولنديين . ولذلك ، فإن الدافع جاء من لاهاى، فى شهر يناير ١٧١٢،موجهاً إلى كل الدول المتحاربة، من أجل إرسال ممثلين إلى أوترخت Utrecht من أجل الاتفاق على السلم .

وكما حدث فى عام ١٦٩٨ ، وجدت النمسا نفسها إذن معزولة . واعتقد الوفد الامبراطورى ، فى أول الأمر ، أن فى وسعه القدرة على نسف المؤتمر ، وذلك بتقديمه مطالب غير مقبولة . وحاور الانجليز حتى لا يضطروا إلى إعلان القطيعة . ولكن الموقف المالى كان دقيقاً فى إنجلترا . وأمام الضرائب التى كانت تتزايد باستمرار ، كان الرأى العام يعلن أنه كان من أجل السلام ، وبكل قوة . وأظهرت الوزارة رغبتها الأكيدة فى أن تنتهى . وذلك بالتفاهم مع الفرنسيين من أجل تطبيق المبادىء التى كانوا قد إتفقوا عليها فى عام ١٧١١ : فسيطالبون فيليب الخامس بشكل خاص بأن يتنازل رسمياً عن كل حقوقه فى عرش فرنسا. وبهذه الطريقة تم عقد هدنة فى آخر الأمر (١٧ يوليو١٧١٢)، تتضمن وقف العمليات الحربية لمدة ستة أشهر.ولم تنه هذه الهدنة العمليات الحربية إلا بين فرنسا وإنجلترا ولم يكن النمسويين هم الذين أظهروا وحدهم شعورهم بالغضب. ذلك أن الهولنديين قد رأوا ، فى اللحظة الأخيرة، أنه لا يمكنهم الموافقة على الشروط ، المتفق عليها. فرفضوا — مؤقتا على الأقل — أمر إجبارهم على ذلك . ولكن الانجليز كانوا مصممين بقوة على الوصول، وتعهدوا بأخذ الخطوات الأخيرة التى كانت تفصلهم عن السلم ، وذلك مع ، أو بدون ، حلفائهم .

ونتيجة لضربة حظ فى المجر،وحيث إضطر فرانسوا راكوزى François Rakocsy إلى الفرار ، وحيث وافق الدايت ، بهدنة زاتمار Szathmar (١٧١١) على

إعادة الوضع القائم ، إعتقد الإمبراطور أن فى وسعه أن يحصل على المزيد فى الغرب ، وأن يفرض وجهات نظره على الحليف وعلى الخصم فى نفس الوقت . فأصر بنوع خاص على ضرورة إعادة التنازل عن إستراسبورج ، والتى كانت وثيقة السلم الأخيرة لا تشير إليها . وفى إنتظار إجابة طلبه ، رفض التوقيع . وسوف يتقرر مصير مطالبه الأخيرة فى ساحة المعركة . وكانت خيبة أمل كبيرة بالنسبة للنمسا : فواجه الجيش الذى يقوده الأمير أيوجين، عند دينان (٢٤ يوليو ١٧١٢) ، جيش فيلار ؛ وكان نصراً حاسماً للفرنسيين . وتحررت أرض المملكة بضربة واحدة ، وتدعم موقف ممثلى الملك على مائدة المؤتمر بشكل خطير . وفى معسكر الحلفاء ، زاد تصلب الإمبراطوريين والهولنديين أمام ضغط إنجلترا ، والتى كانت مستعدة لكى تقوم ، من جديد ، بدور الوسيط . وجاء أول حل فى عام ١٧١٣ . وبعد إنذار حقيقى من لندن ، وافق الهولنديون ، رغما عنهم ، على التوقيع على المعاهدة الثالثة للحواجز (١٩ يناير) ، وهى التى جددت وحددت معاهدة عام ١٧٠٩ ، وإن كانت قد قللت من عدد المواقع التى ستحتفظ فيها قواتهم بحاميات .

٣ ـ صلح أوترخت :

فى هذا الوقت فقط ، أصبح من الممكن التوقيع على معاهدات الصلح . ومن جانب آخر ، كان وقف العمليات الحربية لعام ١٧١٢ قد إمتدت مدته مرات عديدة . وأخذ لوى الرابع عشر ، والذى كان يتحدث عن نفسه وباسم فيليب الخامس ، فى التفاوض فى نفس اليوم (١١ أبريل) مع إنجلترا ، والأقاليم المتحدة ، والبرتغال ، ودوق سافوا ، وأخيرا مع الأمراء الألمان الذين كانوا قد فصلوا مصيرهم عن مصير الامبراطور ، ومنتخب براندبورج (الذى أصبح منذ عام ١٧٠١ ملك بروسيا) . ومن جانب النمسا ، توقفت العمليات الحربية لفترة من الزمن :

فسادت فى الوقت الذى إنفض فيه المؤتمر ، ليس فقط على نهر الراين ، ولكن كذلك فى كتالونيا ، وحيث كان أعوان شارل الثالث لايزالون يحافظون على مواقعهم .

وكان المطلب الرئيسى لفرنسا ، وهو الإعتراف بملكية فيليب الخامس، والذى كان مهدداً ، وتم التخلى عنه فى عام ١٧١١ ، قد إنتهى به الحال إلى أن ينتصر ، وعلى كل معارضة : وسيكون لإسبانيا بالفعل أسرة حاكمة ترتبط بروابط الدم مع الأسرة التى تحكم فى فرساى . وكانت هذه ، فى حقيقة الأمر، الفقرة الوحيدة، تقريباً ، التى كان فى وسع دبلوماسية لوى الرابع عشر أن تهنىء نفسها عليها . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أمر الحصول النهائى على إمارة أورانج ، والتى كان قد تم إحتلالها مرتين فى خلال فترة نصف قرن ، والتخلى عنها مرتين كذلك ، فى نيمبيج وفى ريزويك . وفى المجموع فإن إنتصار المتكتلين ، رغم كونه أقل إتساعاً مما تم الإعتقاد فيه فى بعض الأوقات ، قد ظل ثابتاً .

ويمكننا أن نحكم على ذلك بنوع خاص فى الميدان البحرى والإستعمارى . فلم نتحدث إلا قليلا عن أمريكا الشمالية منذ عام ١٦٩٨ : وكان ذلك يرجع إلى أن الأحداث التى وقعت هناك كانت بسيطة . وكانت الحرب التى سماها الأمريكيون «حرب الملكة آن» ، قد كررت تماما الحرب السابقة ، «حرب الملك ويليام» . وإنتصر الإنجليز فقط بسهولة أقل فى بور رويال ،فى آكاديا. وإبتداء من عام ١٧٠٥ ، جاءت عملية وقف إطلاق النار لكى توقف العمليات العسكرية بين فرنسا الجديدة ، وبين إنجلترا الجديدة . وإستمرت حتى وقت أوترخت . ولذلك ، فإن الموقف العام كان هو الذى ساعد إنجلترا على إرضاء كل إدعاءاتها فى أمريكا الشمالية . فخضعت لها آكاديا ،وسوف تسمى بإسم اسكتلندا الجديدة، وذلك فى الوقت الذى ستأخذ فيه بور رويال اسم أنا بوليس ، تكريما للملكة

آن . ومن ناحية أخرى ، تم إعلان سيادة التاج الإنجليزى فى نفس الوقت على خليج هدسون وعلى نيوفوندلاند : ولم يحتفظ الفرنسيون إلا بمجرد حق الصيد على جوانب الجزيرة ، وهى الأكثر أسماكا من بين كل سواحل العالم . وأخيراً ، فى الأنتيل ، أصبحت سانت كريستوف ، ، كلها ، وبشكل نهائى ، إحدى الممتلكات البريطانية .

وفى أوربا ، تعهدت فرنسا بهدم تحصينات دنكرك ، والتى كان الإنجليز يتخيلون وجود جيش فيها موجهاً ضدهم . وبنوع خاص حصلت إنجلترا على إعتراف بملكيتها لجبل طارق ومينورقة ، وكان هذا هو مكسب بريطانيا الأساسى من هذه الحرب الطويلة المدى .

وفى ميدان مختلف ، منحت مملكة إسبانيا للانجليز حق «مراكز العبيد» الذى أخذ من الفرنسيين . وكانوا يأملون ، وبلا جدوى ، فى أن يقتسموا مع الإسبانيين حق إحتكار العلاقات التجارية مع جزر الهند الغربية ، كما كان الفرنسيون قد فعلوا ذلك ، رغم إحتجاج الأوساط ذات المصلحة ، منذ أن كان فيليب الخامس قد وصل إلى العرش . وإنتهى بهم الأمر إلى أن يقنعوا بأن يشاركوا فى جزء منها ففى كل عام كانت سفينة من حمولة ثلاثمائة طن — وهى التى كانت تسمى بسفينة التصريح - تدخل فى هذه المنطقة بعض السلع الإنجليزية . ولقد حدد العقد أن هذه الميزة قد أعطيت بشرط صريح . وهو عدم الإفادة منه من أجل القيام بتجارة تهريب .

وأخيراً ، فإن الإنجليز قد ربطوا بأمر الإعتراف بفيليب الخامس كملك لإسبانيا ، أمر الإعتراف بملكتهم ، والتى كانت دائماً مهددة عن طريق بعض من يدعون أحقيتهم فى العرش من أسرة إستيوارت ، وكذلك أمر الوراثة البروتستانتية ، المرغوب فيها مقدماً ، بعد وفاة الملكة آن — الأمر الذى سيحدث فى عام ١٧١٤ —

لأسرة مرشحة ، مـــن أصل ألمانى ، وهى أسرة منتخبى هانوفر .

ووضعت الأراضى المنخفضة نفسها تحت تصرف الأقاليم المتحدة، ولكن من الناحية الشكلية فقط ، ولفترة إنتقالية . إذ أنه كان من المتفق عليه أنها ستعوض الأسرة الحاكمة فى النمسا ، والتى إضطرت بطبيعة الحال إلى أن تتنازل عن تاج إسبانيا . وتم الإحتفاظ للهولنديين بحق إحتلال مواقع الحاجز ؛ أما ليل وحدها، مع فلانسيين وكونديه ، فقد عادت إلى فرنسا . وفى نظير ذلك ، تتخلى فرنسا عن بعض المواقع المتقدمة كثيراً ، والتى كانت قد حصلت فى عامى ١٦٦٨ و ١٦٧٨ : مثل فيرنيس ، وإيبر ، ومينان ، وتورناى ، وبوبيرانج .

وكان أمر تحويل الأراضى المنخفضة إلى المملكة النمسوية يعقد الأمر . وكانت النمسا تشعر بأنها على درجة من القوة تكفى لكى تضمن لهاحراسة حدود الأراضى المنخفضة . ولكنها لم تكن قد إنضمت لإتفاقية الحواجز : فتطلب الأمر عقد اتفاقية جديدة — الرابعة — وهى التى كان أمر عقدها صعباً .وسيتم التوقيع عليها ، ونتيجة لجهودات الدبلوماسية الانجليزية ، فى ١٥ نوفمبر ١٧١٥ . ونتيجة لبعض التنازلات الهولندية فى منطقة مصب نهر الاسكوت ، تم تخفيض عدد مواقع الحاجز إلى سبع مواقع ، وسيكون جنود الأقاليم المتحدة فيها نوعاً من القوات المرتزقة للنمسا ، التى ستقوم بدفع نفقاتهم .

وبطبيعة الحال إستلم الأمراء الذين كانوا قد وضعوا أنفسهم ودولهم فى خدمة السياسة الانجليزية ، تعويضات . وحصل دوق سافوا على أفضل معاملة : فتم التنازل له عن صقلية ، وحصل على إعتراف من كل الدول المتعاقدة بأنه «ملك بيدمونت وصقلية» ؛ ومع ذلك ، فإن فرنسا سوف تحتفظ «على حدود دوفينيه» بملكية وادى برشلونيت . وحصل صاحب جلالة جديد ، وهو ملك بروسيا — فقد تمكن هوهنزلرن برلين من الحصول على هذا اللقب من الامبراطور —

على جزء صغير من الأراضى المنخفضة ، والذى كان أسلافه يطمعون فيه منذ وقت طويل ، وهو منطقة جيلدر ، المجاورة لدوقية كليف التابعة لهم . كما حصل على إعتراف بسيادته على إمارة نيوشاتل وفلانجين ، كميراث لأسرة لونجفيل ، والتى كان ميراثها قد أثار نزاعاً مع أسرة فرنسية منذ عام ١٧٠٧ . أما ملك البرتغال ، فإنه لم يحصل على ميزات أكثر من تلك التى كان قد حصل عليها بمعاهدات ميثوين ؛ أو كان عليه أن يقنع بتعديل بسيط فى حدود غيانا،على حساب المستعمرة الفرنسية المجاورة .

ولا شك فى أن الفقرة الرئيسية ، والأكثر أهمية ، فى المعاهدة كانت هى التى تتعلق بالأراضى المنخفضة : ولا شك فى أن إعطاء منطقة مصب نهر الإسكوت للنمسويين كان مبادرة إنجليزية . ولم يعد من السهل قبول أمر تحمل وجود إسبانيا فى الأراضى المنخفضة ، بعد أن أصبح لها الآن ملكاً من أسرة البوربون . فكان من الضرورى التحول صوب تلك الدولة العظمى الوحيدة التى كان فى وسعها أن تحمى هذا الدرع الإنجليزى ضد أية محاولات فرنسية جديدة ، الأمر الذى كانوا يخشون دائماً من إمكانية وقوعه . ومن جانب آخر ، لم يكن أمر تحويل الأراضى المنخفضة للنمسويين مباشراً ، خاصة وأن الإمبراطور كان يرفض أمر التوقيع على المعاهدة،وحتى صدور أوامر جديدة.وكان شارل السادس عنيداً فى آماله الطموحة، ومليئاً بالحقد على حلفائه ، فأبقى قواته تحت السلاح . فتطلب الأمر حملة أخرى، من أجل إجباره على التفاهم : وفى عام ١٧١٣ ، تمكن فيلار من الإستيلاء على لاندو (٢٠ أغسطس) وعلى فريبورج (٣١ أكتوبر) ، على التوالى . وعندئذ كلف الإمبراطور الأمير إيوجين ، القائد العام لقواته ، بأن يطلب من المنتصر شروط ملك فرنسا . وتم عقد مؤتمرات بين القائدين فى راشتاد ، فى إقليم بادن . وهناك تم وضع معاهدة الصلح فى شكلها النهائى (٥ مارس ١٧١٤).وسيتم تصديق

الدايت على الفقرات التى تخص الإمبراطورية بعد فترة من الوقت (٧ سبتمبر) ، فى بادن .

وأعادت فرنسا الأماكن التى كانت تحتفظ بها على الضفة اليمنى ، ولكنها إحتفظت بكل المواقع الموجودة الضفة اليسرى للراين ؛ وإستعادت حتى لاندو ، المدينة القديمة فى الألزاس ، والتى كانت عاطلة بأراضى البلاتينات.وطبقاً للتعهدات التى أعطيت فى أوترخت ، تحدث لوى الرابع عشر بإسم حفيده ، والذى لم يكن ممثلا ، إذ أنه رفض قبول تقسيم ملكيته . وإعترفت المعاهدة للإمبراطور بملكية الأراضى المنخفضة والأقاليم الإسبانية فى إيطاليا ، فيما عدا صقلية . وتعهد ملك فرنسا ، فيما يتعلق به ، بألا يثير أبداً قلق الأسرة الحاكمة فى النمسا فى ملكيتها البلاد التى حصلت عليها . ومن ناحية أخرى ، إتفق المتعاقدون على أن يعلنوا أن إستمرار « حياد » إيطاليا يجب أن يمثل إحدى الثمرات الرئيسية للصلح المعقود.

ولأول مرة كتبت معاهدة بين فرنسا وبين الامبراطورية باللغة الفرنسية ، ولم تكتب باللغة اللاتينية . ولا شك فى أن هذا النجاح كان متواضعاً ، وسوف تفتخر به العزة الفرنسية بعد ذلك بكثير .

أما مسألة إعادة العلاقات التجارية بين المتحاربين ، والتى كانت تشغل كل معاهدات الصلح السابقة ، فإنها لم تعد تمثل ، فى عامى ١٧١٣ و ١٧١٤ ، إلا مجرد بند له أسلوبه . ذلك أنهم كانوا قد أخذوا ، هذه المرة ، ومن وقت مبكر ، توافقاً مع طرق العمل . ففى فرنسا بنوع عام ، كانت هناك قرارات قد صدرت من المجلس ، إبتداء من عام ١٧٠٢ ، تسمح للتجار التابعين للدول الخصمة بالحضور إلى الموانى والقيام بأعمالهم ، وعن طريق الحصول على جوازات **passeports** خاصة . ومن ناحية أخرى ، كانت قائمة السلع التى يمكن أن تكون موضوع هذه التجارة محددة ؛ وسيتم التوسع فيها فى مناسبات مختلفة،فى خلال السنوات التالية.

ولقد تحدثوا فى باريس وفى لندن عن معاهدة تجارة ، وتمت محادثات على هامش مؤتمرات الصلح ، من أجل ذلك . ولكن المفاوضون الانجليز أظهروا أنفسهم على أنهم قليلى المرونة ، وبشكل لم يسمح بإتمام المعاهدة : وهكذا نجد أن العلاقات التجارية بين البلدين ستظل خاضعة للقانون العام حتى سنة ١٧٨٦ .

وكانت نتائج حرب الوراثة الاسبانية تزيد فى أهميتها عن نتائج أية تسوية سابقة . وتعدلت بها كل علاقات القوى فى أوربا الغربية بشكل عميق ، ولوقت طويل .

وأصبح فى وسع فرنسا ، وبعد قرنين من الصراع ضد آل هابسبورج ، من هذا الفرع أو ذاك ، أن تلغى من مشغولياتها خطر العداء الاسبانى . ذلك أنه — وطبقاً للكلمة التى نسبت لملكها فى عام ١٧٠٠ ، والتى ذكرها فى حقيقة الأمر السفير الاسبانى فى باريس — « لم تعد هناك جبال برانس » . وأخذت تفتخر بأن يكون لها فى مدريد ، وبشكل مستمر ، حليف طبيعى ، وحليف دائم . ولن يلاحظ أبداً أن إسبانيا المعتزة بكرامتها لن تكون مستعدة لكى تلعب إلى جانبها دوراً ثانوياً : وستجىء لنا قريباً الفرصة لملاحظة ذلك .

وفقدت الأقاليم المتحدة الحق فى أن تكون لها سياستها الخاصة بها . وكانوا قد مروا بهذه التجربة أكثر من مرة ، منذ عام ١٦٨٨ ، ومنذ أن كان « صاحب الدولة » قد تركها ، وذهب لحكم الجزيرة المجاورة لها . وتحولت وحدة المصالح والادارة التى نتجت عن ذلك بالنسبة إليها إلى نوع من الخضوع البطىء . ثم إنتهى الوقت الذى كانت فيه الدولة الأكثر ثروة فى أوربا : فكانت لندن قد تفوقت على أمستردام . فكان عليها أن تقنع بالمعيشة فى ظل إنجلترا ، أو إذا ما أخذنا تعبيراً له كتابته ، ونسب إلى فردريك الثانى Frederic II ، ألا تصبح « سوى زورق يطفو فى المياه حول إنجلترا » . وكانت أكبر دولة منتصرة فى ذلك الوقت ، هى إنجلترا .

ثالثا : أوج قوة إنجلترا :

١ ـ انجلترا والدول التابعة لها :

إذا ما تخيلنا أن أحد الرسامين قد طلب إليه ، بعد عقد معاهدة أوترخت ، أن يخلد هذا الحدث العظيم ، برسم صورة لأوربا وهى تخرج منه ، فلا شك فى أنه سوف يضع إنجلترا فى مقدمة اللوحة وتحيط بها الدولتان التابعتان لها ، البرتغال ، وهولندا ، وكان الإنجليز قد إعتقدوا ، فى إحدى اللحظات ، فى أنه كان فى وسع إنتصارهم أن يكون أكثر كمالا . ومع ذلك ، فقد نجحوا فى أن يفرضوا ، فى نهاية الأمر ، رغباتهم على كل الدول المتحاربة ، الخصوم منها والحلفاء . ولم تكن الدولة البريطانية قد إرتفعت أبداً ، فى قوتها ، مثل هذا الإرتفاع . ويمكننا أن نقول أنها لن ترتفع أبداً أكثر من ذلك .

وكانت الأوضاع قد تغيرت كثيراً منذ نصف قرن ، منذ بداية الحكم الشخصى لوى الرابع عشر . وفى هذه الفترة ، كانت الاقاليم المتحدة هى التى تجتـــذب الأنظار بنوع خاص . وكانت قد بلغت قمة الثروة الفائقة التى كانت قـد نزلت عليها فى أثناء ذلك القرن ، وكانت أكبر ثروة فى تاريخها . وحتى نهاية العالم المعروف ، كان العلم الهولندى يرفرف على أراضى المستعمرات . وفى الشرق الأقصى ، لم يكن لها منافسين أقوياء . وكان الفرنسيون ، الذين قاموا بإنشاء مركز تجارى فى جاوة فى عام ١٦٧٢ ، قد إضطروا إلى إخلائه بعد بضع سنوات ، نتيجة لإحدى ثورات الأهالى التى غذتها السلطات الهولندية . وحين قام فرانسوا مارتان ، حاكم المنشآت الفرنسية ، قرب هذه الفترة ، بوضع خطط من أجل هـد سيطرة سيده ، ملك فرنسا ، فى المحيط الهندى ، كانت أحلامه موجهة إلى المنشآت الهولندية وحدها ، لكى يستولى عليها ، فى رأس الرجاء الصالح ، وبتافيا ، وملقا .

وعند نهاية القرن ، توقف نمو القوة الهولندية . وظهرت فى كل القطاعات

على أنها كانت قد أخذت فى فقدان السرعة ، وفى بعضها ، على أنها كانت قد أخذت فى التأخر . ولم تعد ورش إنشاءاتها البحرية ، والتى كانت فى الماضى على درجة كبيرة من النشاط ، تعمل إلا ببطء ، وقل عدد سفنها . ولم تعد تهتم بنفس الحية بأمر الدفاع عن ممتلكاتها فيما وراء البحار ، وأمر الإحتفاظ بها. وكنا قد ذكرنا أن المحيط الهندى كان قد أصبح ، قرب نهاية القرن السابع عشر « محيط هولندى بالفعل » . ولكنا نلاحظ ، فى هذا القطاع ، نقصا فى الجهود الذى كان يبذل منذ قرن . ويمكن لحدث معين أن يكون له دلالة واضحة على ذلك . وكانت جزيرة موريس قد ظلت لفترة طويلة مجرد مخابىء يعشش فيها القراصنة . ثم دخلت فى دائرة المبادلات ، نتيجة لإستغلال العنبر (الرمادى) الذى كان متوفراً فيها . وصوب هذه الفترة ، وجدت نفسها مهملة من التجار الذين كانوا يأتون من هولندا . وبعد قليل ، قام حاكم جزيرة البوربون باستكشافها ؛ وفى عام ١٧١٤ أصدر ملك فرنسا أمره بإحتلالها . وهكذا تم ، فى شهر سبتمبر ١٧١٥ ، أى وقت وفاة لوى الرابع عشر ، أمر الإستيلاء الرسمى على الجزيرة . وفى نفس العام ، سميت جزيرة موريس السابقة بإسم « جزيرة فرنسا » .

ومع ذلك ، فإنها لم تكن فرنسا ، بل إنجلترا ، هى التى تحاول أن تأخذ الأماكن التى كانت الأقاليم المتحدة تحتلها فى العالم . وكان صعود إنجلترا ، الذى كان قد بدأ منذ قرن قبل ذلك ، يسير بسرعة تثير الدهشة . فمنذ وصول أسرة إستيوارت إلى العرش ، حتى نفيها ، وفى أقل من ثلاثين عاماً ، تضاعفت أهمية البحرية التجارية : فإرتفع إجمالى حمولتها من ٩٥٫٠٠٠ طن إلى ١٩٠٫٠٠٠ . وإذا كان مثل هذا التقدم قد تحقق فى فرنسا ، فى نفس الفترة ، نتيجة لمجهودات كولبير ، فإنه سرعان ما تغير الحال ، بعد الصعوبات التى نشأت فى الجزء الثانى من حكم لوى الرابع عشر . وظهر تفوق التجارة البريطانية بنوع خاص أثناء حرب

الوراثة الإسبانية . وفى وقت ظهرت فيه قوة فرنسا على أنها مزعزعة إلى درجة التساؤل عما إذا لم تكن ساعة إنهيارها قريبة .

وحلت لندن شيئاً فشيئاً على أمستردام فى العمليات المختلفة التى كانت قد أضفت على عاصمة هولندا صفة المركز الإقتصادى العالمى . فبالنسبة لسوق الفضة، أخذ Stock Exchange يلعب فى ذلك الوقت نفس الدور الذى كان يلعبه بنك أمستردام . وجاءت سيطرة ورفعة الجنيه الإسترلينى بعد رفعة الفلوران. وفى نفس الوقت ، أكد العلم البريطانى سيطرة على كل البحار ، سيتم الإعتراف بها سريعاً وبشكل عالمى . وحتى فى بحر البلطيق، والذى كان منطقة النفوذ الهولندى الواضحة، مال الإنجليز إلى أن يتفوقوا هناك على منافسيهم . ولكنهم لم يصلوا ، من جانب آخر ، إلى إحتلال المكان الأول فيه ، إلا بعد فترة من الوقت . وحينما تفتح سان بطرسبرج ، فى عام ١٧٠٣ ، وهى العاصمة الجديدة لروسيا ، ميناءها، الذى سرعان ما تصل إليه سفن كل الدول ، سيقع إختيار القيصر بطرس على سفينة هولندية ، ويذهب لإحضارها من خارج الخليج ، ويقودها ، وهى تتقدم بقية السفن ، حتى الرصيف .

وتأكد نمو القوة الإنجليزية بشكل خاص فى شئون التوسع الاستعمارى . وإذا ما سمحنا لأنفسنا بوضع الخطوط العامة ، حتى نجعل هذا التاريخ العالمى أكثر سهولة فى الفهم فى مجموعه ، فيمكننا أن نقول أن البرتغاليين كانوا قد أشاروا إلى الطريق ، وفى أثناء القرن السادس عشر ، وفتحوا الطريق : فأقاموا إلى درجة ما فى كل مكان عبر العالم ، وفى مواقع حصينة تسيطر على طرق الحركة التجارية . وبعد ذلك ، وفى بداية القرن السابع عشر ، جاء الهولنديون ، الذين وقع إختيارهم ، فى أغلب الأحيان ، على أماكن أخرى ، وإن كانوا قد حاولوا فى بعض الأحيان أن يأخذوا مواقع البرتغاليين ، وأخيراً ، ومنذ أواسط القرن ،

قام الإنجليز بتشييد أكبر إمبراطورية إستعمارية شهدها تاريخ العصور الحديثة .

وربما لا يظهر تتالى مجهودات هذه الدول الثلاث بشكل واضح فى مكان أكثر من ظهوره فى منطقة الخليج الفارسى . ورأينا هناك الهجوم العنيف على السيطرة البرتغالية فى السنوات الأولى من القرن . وإتحد الإنجليز والهولنديون مؤقتاً ، وكونوا جبهة ضد منافسهم المشترك،وبمعونة حكومة الفرس.وتم طردالبرتغاليين من جزيرة هرمز ، ومن المركز التجارى الذى كانوا قد أقاموه على الساحل المجاور فى جومبرون . ثم قام شاه الفرس بالإتفاق مع الشركة الإنجليزية حتى يقضى على البرتغاليين . وبعد أن فقدوا هرمز ، إضطر البرتغاليون إلى الجلاء عن الخليج الفارسى ، وإنسحبوا إلى مسقط وفى أثناء ذلك الوقت كان الهولنديون قد عقدوا معاهدة صداقة أولى مع شاه الفرس فى عام ١٦٢٣ ، ثم معاهدة ثانية فى عام ١٦٣١ ، مدعمين بذلك منشآتهم فى بندر عباس . وشيئاً فشيئاً، مر الجزء الأكبر من تجارة الخليج الفارسى بين أيديهم. وتدل حربهم الأولى ضد إنجلترا، فىوقت كرومويل ، على ذلك الوقت الذى حاول فيه منافسيهم كسب الموقف. ومع ذلك فإن السيطرة الهولندية لم تتحطم هناك إلا فى وقت الحرب التى كانوا يقومون بها ضد لوى الرابع عشر ، والتى كانوا فيها الحلفاء المؤقتين للانجليز ، فى عام١٦٧٢. وكان عليهم ، فى أثناء الفترة التالية ، أن يتخلوا عن مواقعهم ، بينما أخذ الإنجليز فى تدعيم المواقع الخاصة بهم . وفى أثناء القرن الثامن عشر ، لن تنافس أحد الإنجليز فى إحتلالهم المكانة الأولى فى هذه المناطق .

وفى أماكن كثيرة من العالم ، ظهرت قوة بريطانيا على أنها آخذة فى الزيادة. وقامت، فى عام ١٦٥١ ، بالاستيلاء على إحدى الجزر غير المسكونة،سانت هيلانة والتى سوف تستخدم كمحطة لرسو أساطيلهاعلى طريقها إلى الهند وإلى الشرق الأقصى. وفي عام ١٦٦٧ ، منحت نفسها ، في معاهدة بريدا ، إحدي المنشآت الهولندية

على ساحل الذهب ، وكانت هولندا قد حصلت على هذا الموقع، فى عام ١٦٤١ من إحدى المنشآت البرتغالية . وفى عام ١٦٦٨ ، كانت بومباى ، وهى إحدى الممتلكات البرتغالية ، هى التى جاء عليها الدور لكى تمر إلى أيدى الانجليز ؛ وسوف تصبح أساس منشآتهم فى الهندستان. وفى جزر التوابل، ورغم التحالف الهولندى، أو بمعنى أدق بسبب العبودية الذى فرضها هذا التحالف على الأقاليم المتحدة ، إستقر الانجليز بطريقة أو بأخرى فى مراكز عديدة للحركة التجارية ، وحتى فى جزيرة سومطرة نفسها ، وحيث ظل مركز بنكولان ، الذى أنشىء فى عام ١٦٨٥، إنجليزياً حتى عام ١٨٢٤ . وفى أثناء الحروب الطويلة التى كانت بينهم وبين الفرنسيين، تمكن الانجليز من طرد خصومهم من أكثر من موقع فيما وراء البحار، سواء فى جزر الهند الغربية ، أو فى جزر الهند الشرقية . وفى الحقيقة أنه ، فيما عدا أمريكا الشمالية، وحيث أعطتهم معاهدات أوترخت أمر الحصول على ممتلكات خارجية فى فرنسا الجديدة (خليج هدسون ، وأكاديا ، ونيوفوندلاند) فإن إعادة السلم كانت مصحوبة ، فى كل مرة ، بعودة الوضع القائم .

٣ ـ التجارة والقوة العالمية :

فى الجزر البريطانية ، كانت الوظائف التى تؤديها الموانى قد تجددت قليلا ، بالنسبة لتلك التغيرات التى كانت قد حدثت فى البنيان الاقتصادى للبلاد . فإلى جانب التربية ، والتى ظلت تحتل المكانة الأولى ، نمت الزراعة إلى درجة أن قال احد المؤرخين الانجليز أن إنجلترا قد أصبحت « مخازن الغلال الثانية لأوربا » . وأصبحت زراعة الحبوب تحظى الآن بتشجيع رسمى . وإبتداء من عام ١٦٧٠، أصبحت عملية تصدير الحبوب ، والتى كانت مقصورة حتى ذلك الوقت على سنوات وفرة المحصول ، هى القاعده . ومن الناحية الأخرى ، نجد أن الحرية التقليدية للاستيراد قد أصيبت : فكانت رسوم الاستيراد على الحبوب تختلف ، وفى علاقة مع الأسعار الداخلية .

وكانت المبادلات مع الخارج لا تزال محكومة بمطالب صناعة الأصواف . وفيما بين سلع التصدير، كانت المنسوجات تحتل دائماً مكان الصدارة،واحتفظت الأصواف بأولويتها التقليدية . ولم يكن يسمح بخروج الصوف الخام منذ وقت بعيد ؛ أما المنسوجات الأجنبية فكانت تخضع لرسوم مرتفعة ؛ كما لم يكن فى وسع المستعمرات نفسها أن تصنع الأصواف إلا بالقدر اللازم لاستخدامها . وكانت « المودة » المتزايدة للمنسوجات « الهندية » قد تسببت فى نشأة منافسة ، أدت فى عام ١٦٨٠ إلى إثارة قلق صانعى المنسوجات : وحصلوا فى عام ١٧٠٠ على منع عام لاستيرادها . وأصبحت المنسوجات فى ذلك الوقت دقيقة الصنع، ورقيقة ، وأصبحت تتنافس مع منسوجات فرنسا ، وتميـــل إلى التفوق على منسوجات الشرق . وظل تصدير كورنواليس يحتفظ دائماً بحسن سمعته . أما إستخراج الفحم ، فقد زاد بطريقة منتظمة : وصوب عام ١٧٠٠،كانت أساطيل بأجمعها تذهب لاحضاره من موانى التصدير إلى موانى الأراضى المنخفضة ، وإلى فرنسا ، وهامبورج . أما بالنسبة للواردات ، فإن الأهمية كانت ، وكما كانت عليه دائماً ، للمواد التى كانت أرض إنجلترا غـــير قادرة على إنتاجها : توابل الهند ، وأنبذة فرنسا والبرتغال،وأخشاب وقار البلاد الشمالية ؛ ويمكننا أن نضيف إلى ذلك بعض المواد المصنعة،والتى كانت الصناعات الموجودة فى إنجلترا لاتكفى لسد الحاجة إليها ، مثل منسوجات بريتانى ونور مانديا ، وحرير تور وليون . وهكذا نجد أن العلاقات التجارية الانجليزية الفرنسية كانت دائماً نشطة بشكل واضح . ولكنها ظلت صعبة . فكان التجار الفرنسيون مستمرين فى الشكوى من أنهم كانوا يخضعون لمارسات لم تكن تفرض على التجار الانجليز فى فرنسا . وتسببت الحروب الطويلة فى هذه الفترة فى تدعيم الحواجز الجمركية . ووصلت حالة الرأى العام إلى مرحلة،صعب فيها،فى عام ١٧١٣ ، أن ينجحوا فى أوترخت فى خفض نسبة الضرائب والرسوم التى كانت مفروضة .

ومالت التجارة البحرية لإنجلترا إلى إتخاذ إتساع عالمي . وإتجهت كذلك صوب الشرق — الشرق الأوسط والشرق الأقصى — كما إتجهت صوب الغرب ، صوب العالم الجديد . وكانت المستعمرات التي لها معاملات أكثر مع الوطن الأم هي تلك التي كانوا يحضرون منها السكر والطباق ، وكان الأنتيل في المكان الأول من بينها . وفي أمريكا الشمالية ، إستمرت عملية توطين الأهالي ببطء ، وبواسطة عملية هجرة مستمرة ،وإستمرت أسواق جديدة في الإنفتاح أمام منتجات الصناعة البريطانية .

وفي البحر المتوسط ، كان التنافس دائماً شديداً مع المنافسين الفرنسيين والهولنديين، رغم أن هؤلاء الأخيرين كانوا قد أصبحوا في ذلك الوقت، بدون كبير أهمية . وشيئاً فشيئاً ، تطورت الطرق التقليدية . ووجدت مصر ، بنوع خاص ، ومن جديد ، تلك الأهمية التي كانت لها في الماضي ، وبصفتها سوق دولي. فأصبحت تصدر القمح إلى أوربا ، وبخاصة في أوقات المجاعات ، كما حدث في عام ١٧٠٩ . وكانوا يذهبون إليها لإحضار البن ، بنوع خاص ، والذي كانت عادة تناوله (القهوة) قد بدأت في الإنتشار في باريس في عام ١٦٦٩ ، وحين فكر أحد سفراء السلطان في إذاقتها لزواره . وكان البن يأتي من اليمن . ويشحن في مخا على سفن في البحر الأحمر ، ثم يصل إلى القاهرة وإلى الإسكندرية ، عن طريق القوافل . وحتى الإنجليز ، ورغم أنهم كانوا يميلون بنوع خاص لشرب الشاي ، الذي كان يصل إليهم بأساطيل الشرق الأقصى ، أخذوا كذلك يميلون إلى شرب القهوة . وظهر تجارهم من جديد في مصر ، وحيث لم يعد لهم قنصلا ، ومنذ وقت بعيد . وقرب عام ١٦٩٦، وهو الوقت الذي تم فيه تعيين أحد القناصل في القاهرة، كانت « الجالية » الإنجليزية ممثلة في المدينة بما يقرب من عشرة تجار ، بينما كان عدد الفرنسيين هناك يصل ، من قبل ذلك، إلى خمسين ، وفيما بين المراكز التجارية

فى شرقى البحر المتوسط ، ظلت أزمير دائماً هى المركز المميز بالنسبة التجارة البريطانية . ولهذا فإن الفرنسيين،الذين كانوا يرون مرور السفن البريطانية قرب سواحلهم ذاهبة إلى تلك المراكز أو آتية منها ، كانوا يسمونها « قافلة أزمير » . وكانوا يحضرون من أزمير حراير الفرس،التى كانت تصل عبر الصحراء،وكذلك « الكاميلوت » ، وهو نسيج خشن يصنع فى آسيا الداخلية من وبر الجمال . وكان هناك سوقاً آخر ممتاز المنسوجات الحريرية فى هرمز ،على الخليج الفارسى .

وفى بحر البلطيق، كان تقدم الإنجليز واضحاً بنوع خاص صوب نهاية القرن. وفى الماضى ، وفى وقت صدور « قانون الملاحة » ، كان الهولنديون يرسلون هناك فى كل عام ثلاثة آلاف سفينة ، ويرسل جيرانهم ثلاثمائة.ولكن هذه النسبة إنقلبت ومنذ بداية القرن الثامن عشر ، تأكد تفوق التجارة الإنجليزية ، ولمدة طويلة .

٣ ـ النتائج :

فرضت الثروة الجديدة لإنجلترا ، والعظمة التى كانت تستند إليها ، إحترام إنجلترا على كل جيرانها ، الذين أصبحوا يخشونها كعدو ، ويبحثون عن صداقتها. ولم يتنبه لوى الرابع عشر إلا مؤخراً لحقيقة كان ، نتيجة لكسل تفكيره، وإصراره على آراء خاطئة ، غير مهيء للاعتراف بها . ولكنه إنتهى به الأمر إلى أن يفتح عيونه ، فى اللحظة الأخيرة . وبعد عقد الصلح فى أوترخت ، رأى أن إنجلترا قد عادت من جديد لكى تصبح العدوة الأولى، بالنسبة لفرنسا ، وأنه مادام قد أصبح من المحال العودة إلى صداقة هولندا ، والتى كانت قد فقدت بشكل نهائى ، فمن الأفضل البحث عن تقارب مع النمسا ، القوة العسكرية الثانية على القارة .

ونتيجة لضيق الوقت ، لم يكن من السهل البدأ فى تنفيذ مثل هذا التغيير إلا بالكاد قبل نهاية حكم لوى الرابع عشر . فنى الأسابيع الأولى من عام ١٧١٥ ، تم تكليف البارون ماندا Mandat ، أحد أعوان تورسى Torcy ، والذى كان قد

عصر إلى جانبه فى مؤتمر أوترخت ، وإلى جانب فيلار فى مؤتمر بادن ، بالذهاب والقيام بعملية جس نبض فى فينا ، وذلك فى إنتظار وصول السفير المختار ، والذى كان فى ذلك الوقت فى مهمة لدى كانتونات سويسرا. ولقد تحدث مع رجال البلاط، ووجد أذناً صاغية عند الأمير أيوجين ، وكان من أصـل فرنسى : وفى المجموع كانوا يكثرون القول عن الإنجليز ، ثم جاء بعد ذلك السفير ، الكونت دى لوك Luc ، والذى كانت التعليمات الصادرة إليه ، والمكتوبة بتأنى ، كافية لكى تشرح لنا وجهات نظر لوى الرابع عشر وتورسى.وكانت تتضمن مسألة والعظمة المتبادلة للأسر الحاكمة فى فرنسا وفى النمسا ، و « بتفوقها » ، والميزات التى سيحصلون عنها من تعاونها سوياً . ولم ينسوا بطبيعة الحال المصالح الدينية . . .

وكانت هذه الإمكانية قد فتحت فى وقت متأخر للغاية ، وبشكل لم يسمح بإمكانية الدخول فى هذا الطريق الجديد. والواقع أن لوى الرابع قد توفى فى نفس العام ، فى أول سبتمبر . ولن تبحث فكرة التحالف الفرنسى النمسوى ، وتدرس من جديد ، إلا بعد أربعين عام من ذلك.وسيكون هذا هو تغيير التحالفات الشهير، الذى وقع فى عام ١٧٥٦ .

الفصل الحادي والعشرون

شرق أوربا، السويد وروسيا

رغم أنه من الواجب ، فى هذا الفصل ، وكما كان عليه الحال فى الفصول السابقة ، أن تقوم « الدول العظمى » بالدور الرئيسى ، إلا أننا نجد أنه ، من بين الدول التى نظمت نفسها من أجل الصراع وكانت لها طاقة عسكرية كبيرة ، ظهرت شخصيتان ليس لهما مثيل ، واحتلتا المكان الأول ، واحتفظتا به بشكل مستمر تقريباً : فمن ناحية بجدد دولة السويد ، ومن الناحية الأخرى منشىء دولة روسيا : شارل الثانى عشر Charles XII وبطرس الاكبر Pierre le Grand . ويبدو أن أوربا كانت قد إقتربت ،عند نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، من نمط « البطل » ، بالمعنى الذى أعطاه القدماء لهذه الكلمة . وفى الوقت الذىسوف ينتهى فيه فى الغرب الحكم الطويل للملك الشمس (لم يكن للوى الرابع عشر أى شىء من « البطل » القديم : بل كان شكله يذكر بنوع خاص بفيليب الثانى ، الملك البيروقراطى) ، كانت حياة شارل الثانى عشر ، هـــذا الجوستاف أدولف الجديد ، تقترب كذلك من نهايتها ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه نجم أكبر قياصرة روسيا ، بطرس الأكبر لا يزال له كل بريقه .

وفيما بين مصيريهما ، كان هناك توازى واضح . فكان الواحد والثانى قد وصل إلى السلطة فى وقت مبكر تماماً ، وهو فى سن البلوغ ؛ فكان لبطرس الاكبر سبعة عشر عاما ، فى ١٦٨٩ ، وكان لشارل الثانى عشر خمسة عشر عاما . فى ١٦٩٧ . ولقد فرضا، كليهما، نفسيهما بقوة شخصياتهما الاستثنائية ،وقوة تصميمهما ، والرغبة فى العمل ولم يكن لهؤلاء الرجال الشماليين أية علاقة بدروس مكيا فيللى . وكانا النتاج الفعلى للوسط الذى كانا قد ولدا فيه ، والذى عاشا فيه . وكان كل

منها يفرض نفسه بالوسائل الكلاسيكية للغاية ، بطريقة الحرب . وأعطى كل منها الكثير للأمة التي خرج منها ، ولم يعطوا أي شيء ، أو تقريباً أي شيء ،لأوربا ، وبصفتها موطناً لحضارة كبيرة .

وكما كان عليه الحال من جيلين قبل ذلك ، سنرى مرة أخرى أن مستقبل القارة كان يصنع ويتشكل في الشمال . ولكن هذا الأمر لن يتم بحديد السويد . لم يعمل في هذا النطاق إلا بطريقة غير مباشرة ، وفي ذلك المدى الذي كان يسهم في تكوين هاتين الدولتين العسكريتين المظمتين المستقبل، بروسيا وروسيا. وكان أبناء براندبورج والبروسيون،ونتيجة لقياسهم قوتهم عدة مرات مع السويديين، قد إنتهى بهم الأمر إلى أن يتعلموا منهم أساسيات الفن العسكري . وبنفس الطريقة، إعترف القيصر الأكبر أنه قد حصل عليها نتيجة للدروس الصعبة التي كان خصمه قد أعطاها له في وقت أول موقعة في ميدان معركة نارفا . وبعد عشر سنوات ، وفي اليوم التالي لموقعة بولتافا ، ذكر هذه الكلمات ، أثناء حفله ، وهو يرفع كأسه في شرف خصمه قليل الحظ : « إني أشرب في صحة أولئك الذين علموني فن الحرب » .

١ ـ الاوضاع الموجودة في شرق أوربا ، وفي الشمال :

سوف نهتم أولا بدولة السويد . ولكن علينا أن نذكر ، بإختصار ، وقبل أن نشرح الظروف المحيطة بتاريخها أثناء السنوات التي سبقت وصول شارل الثاني عشر إلى العرش ، ما كان قد حدث منذ الفترة التي كنا قد توقفنا فيها عند دراسة بحر البلطيق ، أي منذ صلح أوليفا ، والتطور الدائم للعلاقات التجارية في جميع أنحاء هذا القطاع .

وكانت الفترة الطويلة للسلم التي كانت قد بدأت في ذلك الوقت ، قد سمحت بوقوع تغير واضح في المبادلات بين غرب أوربا وشرقها بواسطة طريق البحر ،

وكانت تجارتها قد إحتفظت بمستوى معين فى أثناء الربع الأول من القرن . وجاءت حرب الثلاثين عاماً والأحداث التى صحبتها فى بحر البلطيق لكى تعطيها الضربة الأخيرة . وكان ميراث مدن الهانسا قد مر فى غالبيته العظمى إلى الهولنديين . وكانوا هم الذين أصبحوا ، فى ذلك الوقت ، يحتلوا المكان الأول . وفى عام ١٦٦١ كانت ثلاث أرباع السفن المسجلة فى مرورها فى مضيق سوند تحمل على هولندا . ومن ناحية أخرى ، كان الجزء الأكبر من الحمولة يتمثل دائماً ، عند العودة ، فى الحبوب التى نضجت فى سهول بولندا أو فى ألمانيا الجنوبية . كما كانت منتجات غابات روسيا أو فنلندا تحتل فيها كذلك مكاناً هاماً : الخشب اللازم لبناء السفن ، والقار . وعلينا أن نشير أخيراً إلى زيادة واضحة فى كميات حديد السويد . وفى الدخول ، كان الملح يحتل مكاناً كبيراً ، وبخاصة ملح فرنسا . وكانت تأتى من فرنسا كذلك الأنبذة ، وبكثرة ، وكذلك الكحول .

وحتى عصر لوى الرابع عشر ، كان جزء بسيط جداً من تجارة فرنسا مع بحر البلطيق يتم تحت العلم الفرنسى . وبينما كانت السفن الهولندية هى التى تقوم بالإتصال بين موانى فرنسا وبحار الشمال ، كان ما يقرب من عشرين أو ثلاثين سفينة فرنسية تعبر مضيق سوند ، وكانت غالبيتها تذهب إلى دانزيج . وبعد أن إنتهت حرب الشمال ، والذى تم أثناءها إخلاء مياه البلطيق من السفن ، عادت التيارات السابقة للملاحة إلى مجاريها . وكان هذا ، على وجه التحديد ، هو الوقت الذى كان كولبير قد وصل فيه إلى السلطة . ولقد إنشغل من وقت مبكر ، ولكى يحرر التجارة الوطنية من وساطة الهولنديين ، بإقامة علاقات مباشرة مع الموانى الألمانية ، والبولندية أو الاسكندنافية . وتمكن فى عام ١٦٦٣ من عقد إتفاقية جديدة مع الدانمرك ، ضمنت للفرنسيين بعض الميزات بالنسبة للمرور فى المضايق ، ونصت على إقامة قنصل للملك فى إلسنير . كما تم تجديد معاهدة كانت قد عقدت

فى الماضى ، فى عام ١٦٤٣ ، مع دوق كورلاند ؛ وعقدت إتفاقيات جديدة مع مدن الهانسا ، هامبورج ، وبريمن ، ولوبيك .

وتمت كذلك إقامة علاقات وثيقة مع بروسيا ، ودانزيج ، ومع بولندا . ثم عمل كولبير من أجل إنشاء شركة ذات إمتياز ، من نفس نوع تلك الشركة التى كان قد عهد إليها قرب ذلك الوقت بأمر تجارة شرق البحر المتوسط ، وهى الشركة التى سيكون مقرها الرئيسى فى باريس ، وفى نفس الوقت فى لاموشيل ، قرب مزارع العنب ، وبحيرات الملح . وهذه الشركة ، التى إنشئت باعلان ملكى فى عام ١٦٦٩ ، ضعفت بعد بضعة سنوات ، وكان سوء الحظ قد شاء أن تنشب حرب هولندا فى بداية نشأتها . ومع ذلك فقد أسهمت فى تنمية العلاقات بين الموانى الفرنسية وبين موانى الشمال . وأفادت المملكة من ذلك أثناء الحروب الكبيرة فى الفترة التالية . وكان قراصنة دنكرك يحمون على قدر إستطاعتهم تلك السفن التى كانت تستمر ، فى أثناء حرب رابطة أوجسبرج ، فى الذهاب إلى موانى بحر البلطيق ، من أجل إحضار المواد اللازمة لتموين فرنسا ، التى كانت جيوش التكتل تحاصرها . ولم تصبح التبادلات معوقة بشكل خطير ، إلى وقفها تقريباً ، إلا فى أثناء أزمة الوراثة الإسبانية .

وعلينا أن نعود الآن إلى تسلسل الأحداث التى كانت بلاد الشمال مسرحاً لها منذ عام ١٦٦٠ .

أما روسيا ، والتى كان الغربيون لا يرغبون فى أن يعترفوا لها بنفس حقوق الدول الأوربية الأخرى ، فإنها لم تكن موجودة فى أوليفا . وكانت جيوشها ، وقت إشتباكها مع السويد ، قد إحتلت دوربات ، ولكنها فشلت أمام ريجا . ولقد وجد القيصر ، منذ الوقت الذى إستعادت فيه بولندا حرية عملها ، أنه من الحكمة أن يخرج ، هو بدوره من الحرب . وتخلى مرة جديدة ، فى معاهدة كارديس (يوليو ١٦٦١) عن كل ليفونيا .

وفى أثناء ذلك الوقت لم تكن مسألة القوزاق قد سويت بشكل نهائى . وبدأت مرحلة جديدة من الصعوبات مع وفاة شميلنكى Chmielnicki (١٦٥٧) . وكان بعض رجال القبائل ، الذين ثار قلقهم من نيات موسكو الواضحة ، قد مالوا إلى التقرب إلى البولنديين . وتم عقد إتفاق ، فى عام ١٦٥٨ ، يلحق أوكرانيا بمملكة بولندا ، فى نفس الوقت الذى يحتفظ لها فيه باستقلالها الداخلى : وكان هذا هو سبب نشوب حرب جديدة بين البولنديين والروس ، حرب ضروس وشرسه ، من هذا الجانب ومن ذلك ، بعد أوليفا . وتقدم جان كازيمير Jean-Cazimir حتى وسط البلاد ؛ وفقد هناك جزءاً من جيشه ، نتيجة البرد والجوع . وفى ذلك الوقت ، جاء التتار من جديد لنجدة القوزاق . ومع ذلك فإن أحداً من الخصمين لم يكن على مستوى يسمح له بالنصر . ولذلك فانهم قرروا ، فى عام ١٦٦٧ ، أن يعقدوا هدنة لمدة ثلاثين عاماً ، فى أندروسوفو : فظلت الضفة اليمنى لنهر الدنيبر لبولندا ؛ أما الضفة اليسرى ، مع كييف ، فإنها صرت إلى روسيا . وفى نفس الفرصة ، تم تقسيم روسيا البيضاء ، التى كانت تجاور روسيا الصغيرة من الشمال ، وأخذ الروس سمولنسك . وسوف تظل الأوضاع التى تم الإتفاق عليها فى أندروسوفو كما هى ، وبدون تغيير .

وهكذا نجد أن بولندا قد خضعت ، فى مدة عشر سنوات ، لمملق بتر ، فى صالح الدولتين المجاورتين لها ، الدولة البروسية ، والدولة الروسية ، وهما اللتان سوف يتسببان فى أن تنشأ لها ، ولمستقبلها وحتى لوجودها كأمة ، خطراً مميتاً ، بعد قرن من الزمان .

وكانت الدولة البولندية دائماً هى الدولة الأولى فى شرق أوربا . ولذلك فإن حكومتها قد إستمرت موزعة بين الطلبات المتعارضة التى كانت تأتى لها من باريس ، ومن فينا . فكانوا يعرضون عليها ، من ناحية ، عملا مشتركاً ضد آل

هابسبورج ، مع هدف يتمثل فى غزو سيليزيا ، ومع شرط يتمثل فى الصلح مع جيرانها الآخرين ، الأتراك ، والروس ، والسويديين . وكانوا يحمسونها ، من ناحية أخرى ، لمحاربة أعداء الدين ، الأتراك ، والهراطقة السويديين ، واللذين كانا ، الإثنين ، من أنصار السياسة الفرنسية . ومع ملك كاثوليكى للغاية ، مثل سيجسموند الثالث Sigsmond III ، زاد نفوذ النمسا بشكل واضح ؛ وجاءت معاهدة تحالف ، فى عام ١٦١٣ ، لكى توحد بين التاجين . ولكن خليفته لاديسلاس الرابع Ladislas IV ، غير هذا الإتجاه ، وقلبه . وكان متزوجاً فى أول الأمر من إحدى النمساويات ، ثم تزوج بعد ذلك إحدى الفرنسيات وهى مارى لويز دى جونزاج Marie – Loise be Gonzague ، والتى سوف تتزوج ، بعد وفاته من أخية وخليفته ، جان كازيمير Jean Casimir ، سيد حرب الشمال.

وبمجرد ضمان السلم ، فى الغرب ، بمعاهدة البرانس ، وحتى سواحل بحر البلطيق بمعاهدة أوليفا ، بدأ الشعور بضغط الاتراك على حدود النمسا وعلى حدود بولندا . ويصعب فهم . ويصعب فهم زيادة هذا الحماس الحربى عند العثمانيين دون النظر إلى جانب الشرق ، من ناحية آسيا فكان الصراع الطويل المدى الذى وقع ضد الايرانيين منذ نهاية القرن الماضى لم يعط النتائج المرجوة منه إلا فى وقت متأخر : ولم تتم مسألة إمتلاك بغداد إلا فى عام ١٦٣٩ . وبعد تأمين حدود العراق بشكل قوى ، أصبح من الممكن التفكير فى ذلك الوقت فى القيام بمشروعات جديدة فى إتجاه الغرب .

وكان العداء مستمراً بين المسيحيين والمسلمين على طول الخط الكبير الفاصل بينهما : وكان ذلك فى المناطق القريبة من البحر الأسود . وكان القوزاق فى بحث دائم عن أراضى يرعون فيها قطعانهم ، فكانوا يشتبكون دائماً ، ومنذ الماضى ، مع التتار ، الذين كانوا يقيمون فى القرم ، وعلى السواحل المجاورة .

وفى أثناء السنوات الأولى من القرن ، قام البعض من بينهم بتجاوز منطقة الاستبس ، ونزلوا على القوارب على نهرى الدنيبر والدون ، ووصلوا حتى البحر الأسود ، حتى يقوموا هناك بأعمال القرصنة . وتجرأوا شيئاً فشيئاً ، ثم تقدموا بعد ذلك حتى مشارف إستانبول : فأدى ذلك إلى إضطرار الأتراك إلى إنشاء أسطول فى البحر الأسود ، حتى يتمكنوا من حماية تجاراتهم . ومنذ ذلك الوقت ، أصبح العداء بين التتار وبين القوزاق ، وكان الأولون يخضعون إسمياً لاستانبول والثانون لوارسو أو لموسكوا ، عاملا دائماً من عوامل الحياة الدولية . وفى عام ١٦٣٧ ، قام قوزاق الدون بمفاجأة آزوف ، التى كانت من ممتلكات خان القرم . فإضطر السلطان إلى إرسال قوات إلى تابعه ، لكى يساعده على إعادة غزو المنطقة : وإحتاج الأمر إلى خمس سنوات . وقامت قبيلة أخرى ، هى قبيلة زابوروج ، والتى كانت تسكن ما وراء مساقط الدنيبر ، بالتحصن فى إحدى الجزر المنيعة فى النهر ، وإستمرت فى حرب ، أسمتها مقدسة ، ضد جيرانها الأتراك . وكان يحدث ، فى بعض الأحيان ، أن تتحول هذه الحالة الدائمة من الحرب إلى هدنة ، مادام التتار قد حضروا ، قرب أواسط القرن ، لكى يساعدوا جيرانهم ضد البولنديين .

وكانت دولة السويد قد عرفت الضعف قبل نهاية القرن ، وقبل أن تبدأ فى الظهور فى بولندا وفى روسيا . وكان الملك شارل الحادى عشر قد خضع لضغوط لوى الرابع عشر ، ومنحه تأييده ، فى عام ١٦٧٤ ، ضد منتخب براندبورج . وبعد تدخل الدانمرك والأقاليم المتحدة إلى جانب براندبورج ، إمتدت الحرب إلى كل الحوض الغربى لبحر البلطيق . وإنهزم السويديون فى حربهم عند حدود بوميرانيا ، فى موقعة فير بللين (٢٨ يونيو ١٦٧٥) . وكانت هذه الهزيمة مميتة لعزتهم لدرجة كبيرة . خاصة وأنها كانت قد نزلت بهم على

أيدى أحد صغار أمراء ألمانيا . ثم عاد الدانمركيون ، تحت ضغط منتخب براندبورج ، الى الظهور فيأحد الأوقات فى سكانيا،واعتمد أسطولهم فى ذلك على الأسطول الهولندى ، وأكد من جديد تفوقه على مياه بحر البلطيق . وفقدت جزر ولان وأوسيدوم ، عند مصبات الأودير،ثم جزيرة جوتلاند ، فى وسط بحر البلطيق ، وتم احتلال بريمن وفردن مؤقتاً ، أما استيتن ، التى حوصرت ، فإنها اضطرت الى التسليم . وفى أثناء ذلك الوقت ، قام الخصم بعبور السوند ، وجاء شارل الحادى عشر لكى يواجهه . وتمكن من أن يصده ، بعد معركة عنيفة قرب لند (ديسمبر ١٦٧٦) ، ومن أن يجبره على أن يعود الى سفنه .

واحتاج الأمر ، فى اليوم التالى لنيميج ، إلى تدخل من جانب ملك فرنسا ، حتى يتم وضع حد لهذا الصدام . وبينما كانت المفاوضات تسير ببطء فى لندن ، قرر لوى الرابع عشر أن يلقى بثقله العسكرى فى الميزان . فأجبر ملك الدانمرك على عقد الصلح ، وذلك بغزوة دوقية أولدنبرج ، التابعة له : وأعادت معاهدة لند ، التى كانت قد أعدت فى فونتنبلو ، الوضـــع القائم إقليمياً (٢٦ سبتمبر ١٦٧٩) . وبمعاهدة سان جرمان إن لاى (٢٩ يونيو) ، إضطرت براندبورج ، والتى كانت مهددة بدورها فى قلب دولها ، إلى أن تعيد إستيتن ؛ ولم تحتفظ إلا بشريط قليل القيمة من الأرض إلى جوار نهر الأودر . وفى المجموع ،لم يتغير شيئاً بالنسبة لتوازن القوى فى بحر البلطيق الغربى .

ولذلك فإن سياسة السويد كانت قد تطورت حتى ذلك الوقت فى ظل فرنسا. وكان لاجاردى La Gardie ، المستشار الأول لشارل الحادى عشر ، يرجع فى أصله إلى إحدى أسر الهيجونوت من منطقة لانجدوك ، وكان قد أعطى وطنه الجديد سلالة كاملة من أفضل الخادمين ، وكان عليه أن يواجه ، من ناحية أخرى ،

معارضة قوية فى داخل المجلس : وكان خصومه هم الذين نجحوا فى أن يحصلوا ، فى عام ١٦٦٧ ، على إنضمام السويد إلى التحالف الإنجليزى الهولندى فى لاهاى ، والذى كان يهدف وقف الجيوش الفرنسية فى الأراضى المنخفضة . وكان ذهب هولندا وذهب فرنسا يتنافسان فى التعامل مع الضمائر فى إستوكهلم . وفى عام ١٦٨٠ ، جاءت الإهانة غير المتوقعة — والمجانية — التى أنزلها لوى الرابع عشر بملك السويد ، بتركه قرار مجلس لمحكمة ميتز يضم إلى المملكة دوقية ديه بونت ، والتى كانت قد وعدت لشارل الحادى عشر ، بالميراث ، لكى يؤدى إلى التخلص لاجاردى . وكان هذا هو نهاية التحالف الذى كان يوحد بين البلدين ، منذ عصر جوستاف أدولف .

ومنذ السنوات التالية ، إرتبطت السويد بالأقاليم المتحدة . وجاءت « معاهدة المشاركة» الجديدة ، والتى تم التوقيع عليها فى لاهاى فى ٣٠ سبتمبر ١٦٨١ ، وفى نفس اليوم الذى دخلت فيه القوات الملكية إلى إستراسبورج ، لكى تعيد شروط معاهدات ١٦٦٨ و ١٦٧٠ . وجاءت إتفاقات ، بعد ذلك ، مع الإمبراطور ، ومع ملك إسبانيا ، لكى تؤكد هذا التغير فى الإتجاه . ومنذ ذلك الوقت ، ستكون السويد قوة محسوبة بين الأعداء الدائمين لفرنسا . وفى ذلك الوقت ، لم يجد لوى الرابع عشر أية مظاهرة سوى أن يمنح تحالفه للدانمرك (٢٥ مارس ١٦٨٢) . ومن جانب آخر ، نجد أن شارل الحادى عشر ، رغم تعهداته حيال أعضاء التحالف الكبير فى عام ١٦٨٩ ، يمارس حياداً تاماً فى أثناء حرب رابطة أوجسبرج . وتم قبوله كوسيط فى مؤتمر ريزويك . وفى أثناء عقد المعاهدة بين فرنسا والامبراطورية تمكن ممثلوه من أن يحصلوا من الملك على الإعادة الكاملة لدوقية ديه بونت .

ولقد توفى شارل الحادى عشر قبل التوقيع على المعاهدة . وأخذ إبنه إذن ،

فى هذا الوقت ، مقاليد السلطة . وكان هو شارل الثانى عشر Charles XII ، وكان لايبلغ من العمر سوى خمسة عاماً . ومع ذلك فإن الدايت سوف يعلن أنه قد بلغ سن الرشد . ولقد أعطى دلائل بالفعل على نضج يثير الدهشة . وسوف يبدأ ملحمة حروبه قبل أن يمر عامين على ذلك (يناير ١٧٠٠) . ولم يكن هو الذى أخذ الدافع الأول ، بل كان خصمه الكبير ، القيصر بطرس ، والذى كان لايزيد عنه فى السن إلا بعشر سنوات . وكان هو أيضاً «بطلا» جديداً تحت الصنع؛ وكان قد وصل إلى السلطة كذلك فى سن مبكر . وكان قد إضطر إلى الإعتماد على قوته ، إلا أن أخته الأكبر منه ، « الوصية » صوفيا ، لم تكن مستعدة لكى تترك مقاليد الأمور له

ومع بطرس الاكبر ستظهر دولة روسيا ديناميكية لم يكن أحد يعتقد أنها كانت قادرة عليها . وسوف تأخذ دور الدولة العظمى ، دولة أوربية ، فى ذلك القطاع الذى هو لها بشكل خاص ، وهو قطاع شرق القارة . وكان لديها عاملا هاما من عوامل القوة ، وهو الطاقة البشرية المرتفعة ، والذى كان من الصعب بدونه — وعلينا أن نذكر هذه الملاحظة — أن يسمح لها ذلك النجاح الفائق الذى كانت السويد قد حصلت عليه من قبل، بأن تتمكن من أن تنشىء شيئاً يبقى على مر السنوات . ولقد أنشأ بطرس الأكبر روسيا الحديثة ، ومع ذلك ، فإنه لم يكن قد قام بهذا العمل من العدم . فواصل وأكمل ذلك العمل الذى كان أسلافه المباشرون قد بدأوه ، وخاصة والده ، القيصر أليكسيس ميخيايلوفيتش Alexis Nikhailovitch . وعلينا أن نذكر هنا حالة العلاقات بين الإمبراطورية الموسكوفية وبين جيرانها ، ونبدأ بالعلاقات مع بولندا ، والتى كانت تتواجه معها من وقت لآخر ، منذ فترة من الزمن . وستكون هذه فرصة لكى نعود — وكما عملنا بالنسبة السويد — إلى الماضى القريب لبولندا .

٢ ـ بولندا وروسيا والسويد :

فى عرض تفاعلات لوى الرابع عشر مع أوربا ، لم يأخذ البولنديون مكانهم ؛ ذلك أنهم لم يشتركوا فى أى تكتل من تلك التكتلات التى كانت قد نشأت نتيجة لطموحات هذا الملك الكبير . وبشكل مختلف عن السويديين، ومشابه للأتراك ، أظهروا رغبتهم فى أن يظلوا مخلصين للصداقة الفرنسية . وكان هذا لايعنى أن هذه الصداقة قد ظلت دون تعكير أو حتى تهديد ، فى حالات كثيرة . ولكن فرنسا ظلت ، أمام الرأى العام الاوربى ، وبخاصة أمام أنظار روسيا ، على أنها هى حامية بولندا بشكل واضح . وفى عام ١٦٥٤ ، وحين بدأت حرب بولندية روسية جديدة ، أرسل القيصر أليكسيس وفداً إلى باريس لكى يشرح وجهات نظره للحكومة الفرنسية . ويضمن أن فرنسا لن تساعد البولنديين : فأجاب مزران على ذلك ببساطة بعرض وساطة الملك . ولقد استمرت العمليات الحربية ١٦٦٧ ، وحتى الوقت الذى تم فيه ، بعد ثلاث سنوات من المفاوضات ، عقد هدنة أندروسوفو ، التى تركت لروسيا أوكرانيا الشرقيه . وفى هذه الفرصة، أظهر القيصر من جديد رغبته فى ألا ينسوه . فأرسل سفارة رسمية إلى إسبانيا وإلى فرنسا ، هاتين الدولتين العظيمتين فى الغرب ، واللتين كانتا ، تقليديا ، تهتمان بمصير بولندا الكاثوليكية ، واللتين كانتا ، من ناحية أخرى قد دخلتا فى فى حرب ، الواحدة ضد الأخرى . وكان قد رأى ضرورة أن يشرح لهما وجهة نظر روسيا فى الشئون الدولية ، ويعرض عليها فى نفس الوقت صداقة القيصر . وكان الإستقبال مشجعاً للغاية : فتحدثوا عن التجارة ، وتم التفكير فى إنشاء شركة فرنسية .

وسرعان ماتحدث أزمة لوراثة العرش فى وارسو ؛ وذلك نتيجة لتنازل الملك جان كازيمير . وكان لوى الرابع عشر قد قرر منذ وقت بعيد أن يؤيد أمر

ترشيح أمير كونديه أمام الدايت : وفكر حتى فى وقت معين فى أن يؤيده بعشرة آلاف رجل ؛ وكان يعد بتقديم الأموال والمعاشات . ولكن حرب أحقية النسب انشبت فى نفس الوقت ، الأمر الذى تطلب من أمير كونديه تقديم خدمات أخرى، فكان من الضرورى إذن التخلى عن هذا المشروع مؤقتا. وتم إنتخاب مرشح وطنى، هو ميشيل كوريبوت ويسنيووسكى Michel Korybut Wisniawiecki فى عام ١٦٦٩ .

ولقد تميز الحكم الجديد بمواجهته أخطاراً خارجية كبيرة . فكان الأتراك ، فى عام ١٦٧١ ، وفيما بين حملتين موجهتين ضد النمسا ، قد تحولوا ضد بولندا ، مستجيبين إلى النداء الذى كان قد وجهه اليهم كل من القوزاق وأهالى أوكرانيا . وقام جيش ، بقيادة السلطان محمد الرابع ، بإحتلال المواقع الحصينة الموجودة فى الملحقات الجنوبية الشرقية للملكة ، وبخاصة بودوليا . وتقدم هذا الجيش حتى تحت أسوار ليوبول ؛ وكان من الضرورى ، من أجل توقيف هذا الجيش ، الإسراع بالتوقيع على الصلح فى بوكزاك (أكتوبر ١٦٧٢) ، وبثمن تنازل كبير عن أقاليم، ودفع جزية سنوية للسلطان : وكانت شروطاً مذلة إلى درجة رفض الدايت التصديق على المعاهدة . وعندئذ تكون جيش جديد ، وأعطيت قيادته لجان سوبيسكى Jean Sobeiski . وفى هذه المرة ، إنتهت الحملة ، فى ١٠ نوفمبر ١٦٧٣ بانتصار كبير ، هو إنتصار كوكزيم ، أو خوتين ، على نهر الدنيستر . وفى العام التالى ، ١٦٧٤ ، جاءت وفاة الملك ميشيل لكى تتسبب فى هزات جديدة ، وفى مرحلة جديدة من مراحل التنافس الفرنسى النمسوى. وفى هذه المرة، تمكن المرشح البولندى، ماريشال القصر ، جان سوبيسكى ، المنتصر فى كوكزيم ، من أن ينتصر على منافسيه الأجانب . وتزوج من إحدى الفرنسيات ، مارى دى لاجرانج داركين ، وصيفة الملكة السابقة لايز مارى ؛ ولفترة من الوقت، كان النفوذ الفرنسى هو الذى أصبح،

من جديد ، سائداً . وفى شهر يونيو ١٦٧٥ ، تم عقد معاهدة تحالف بين فرنسا وبولندا ، ولكنها ظلت بالفعل دون نتائج ، خاصة وأن الدبلوماسية الفرنسية ، والتى كانت مخلصة لصداقة تركيا ، كانت لاترغب فى إعطاء أى وعد يكون من طبيعته مضايقتها فى علاقاتها مع إستانبول . وكانت النتيجة الرئيسية لذلك تتمثل فى أن يلقى البولنديون أنفسهم إلى جانب النمسا ، والتى كانت كذلك مشغولة ، وقبل كل شيء ، بأمر الدفاع ضد الإسلام .

وكان الأمر على خلاف ذلك فى بودا وفى وارسو . وهنا كانت الثورة مشتعلة ضد آل هابسبورج . وكانت فرنسا تغازل الثوار ، من أبناء المجر وترانسلفانيا مع بعضهم ؛ ولم تبخل عليهم بأى تشجيع . وانتهى بها الأمر إلى أن تمنحهم تأييدها الفعل : فوعدتهم فى معاهدة فوجاراس (٢٧ مايو ١٦٧٧) بمنحهم معونات من أجل الإحتفاظ بجيش من خمسة عشر ألف رجل ، وهم الذين سيحضرون لزيادة عدد المتطوعين البولنديين والفرنسيين . وفى أثناء ذلك الوقت ، تبادل الامبراطور ليوبولد وضوبيسكى — الذى أصبح ملكاً بإسم جان الثالث — وعوداً بالحياد المتبادل ، وذلك فى حالة إتساع العمليات الحربية القائمة . ومن ناحية أخرى تجد أن العمليات الحربية التى كان يقوم بها جيش الثوار فى إتجاه فينا لم تؤد إلى شيء ، خاصة وأن الإمبراطور كان قد إستدعى إليه جزءاً من قواته التى كانت الحرب ضد لوى الرابع عشر قد إحتجزتها على الراين .

وفى كل من موسكو ومن وارسو ، كانت الروح الصليبية هى التى تميل إلى تحريك السياسة الخارجية ، فى ذلك الوقت . وفى عام ١٦٧٢ ، قام القيصر أليكسيس بارسال سفارة جديدة إلى لوى الرابع عشر ، لكى تدعوه لوقف العمليات الحربية التى كان قد بدأها على حدود هولندا ، ولكى يوجه فرقة الحربية ضد عدو المسيحية المشترك ، ضد الأتراك وتمت عروض من نفس النوع على التوالى فى فينا ، والبندقية ،

وروما ، واستوكهلم ، وفي براين ، ولاهاى . ولقد اختفى أليكسيس بعد ذلك بقليل . وتم ابلاغ وفاته الى ملوك الغرب ، طبقاً لما هو متبع فى الغرب ، عن طريق سفير خاص ، يقوم بزيارة عاصمة بعد عاصمة ،فى الدول العظمى ،باريس، مدريد ، ولندن . وفى نفس المناسبة ، بدأت مفاوضات مع فرنسا وطرحت اقتراحات من أجل التوقيع على معاهدة تجارة . ولكن الشكوك الروسية ، جاءت من جديد — وبخاصة فيما يتعلق بالألقاب الممنوحة للقيصر — لكى تمنع اتمامها . وفى مرتين بعد ذلك ، فى خلال السنوات التالية ، ستقدم عروض مشابهة الى لوى الرابع عشر ، بواسطة القيصر فيدور Fedor — الأخ الأكبر لبطرس — ، وكانت أولها فى عام ١٦٨٢ ، وقت وقوع أزمة جديدة بين النمسا وتركيا . ولكنها كلها ستظل ، بلا نتيجة .

ولقد أفاد بطل كوكزيم ، منذ وصوله الى العرش ، من تلك الهدنة الممتدة على الشرق ، لكى يتقرب من موسكو ، ولكى يتفق مع القيصر على العودة الى الحرب فى الجنوب سويا ضد الأتراك . ولقد إضطر سريعاً إلى أن يتوقف،وإلى أن يوقع فى زوراونو ، فى غاليسيا ، عـــلى معاهدة تترك للخصم الجزء الأكبر مـن فتوحـاته فى بودوليـا بمـا فى ذلك مـدينة كامينيتز (أكتوبر ١٦٧٦) .

وفى أثناء ذلك الوقت ، كانت روسيا قد واصلت الحرب على حدود أوكرانيا . وكان مسرح العمليات هو دائماً نفس الميدان . فكانت هى البلاد التى يسكنها القوازق أى منطقة الدنيستر . وكانت شيغيرين ، قلعة القوزاق الرئيسية ، تنتقل من سلطة إلى سلطة أخرى . وهزم الأتراك ، تحت أسوارها ، هزيمة ضخمة فى عام ١٦٧٨ . ولقد تمكن فيدور ، ونتيجة لعدد من الإنتصارات الأخرى، من أن يعقد صلحاً مشرفاً فى رادزين (فبراير ١٦٨١) ، ضمن له السيادة على الجزء الأكبر من البلاد

الواقعة فيما وراء النهر . ولن يشك أحد بعد ذلك فى ملكيته لكييف ، التى كانت بولندا قد إعترفت بها . أما خان القرم ، والذى كان قد أصبح حليف القيصر فى أثناء الحـــرب ، فإنه تعهد ، فى نفس وقت تعهد القيصر ، ومثله ، وفى نظير جـزية سنوية وافقت عليها موسكو ، بأن يتخلى نهائياً عـن صداقة القوزاق .

ولكن الوفاق البولندى الروسى قصير المدى فى سنوات ١٦٧٣ لم يكن سوى عرضاً ، وإن كان له مغزاه . وسوف نراه يعود إلى الإزدهار من جديد بعد عشر سنوات ، وقت محاصرة فينا ، الأمر الذى يتسبب فى أن تهز المخاوف من جديد أنحاء العالم المسيحى : فلم يكن هناك بلد فى أوربا لا تنقبض فيه القلوب لمجرد فكرة إمكانية إنتصار العثمانيين . ومن جانب آخر ، حدث فى ذلك الوقت تجديد هدنة أندروسوفو فى عام ١٦٧٩ . وبعد أن مرت مرحلة الخطر المباشر ، رأت الوصية صوفيا ، والتى كانت تحتل عرش القياصرة مؤقتاً ، أنه لا يمكنها أن تصم آذانها لفترة طويلة عن النداءات التى كانت ترسلها وارسو ، وفى نفس الوقت الذى كانت تصل فيه من فينا والبندقية ، من أجل إقامة رابطة للدفاع، موجهة ضد العثمانيين . فعقدت ، فى أول الأمر ، مع بولندا ، إتفاقاً «لسلام دائم» ، نص على أن تتعهد الدولتين بمساعدة كل منها الأخرى ضد الأتراك (١٦٨٦). ثم أعطت موافقتها على تكوين «الرابطة» . وأبلغت ذلك إلى فرساى ، عن طريق سفارة رسمية .

وبالنسبة لمن ينظر من بعيد ، ساعدت حركة جديدة من الآراء والمشاعر على ذلك الإتجاه الجديد لسياسة روسيا ، كما نراها وقد أخذت فى الوضوح فى تلك السنوات التى كانت قد سبقت وصول بطرس الأكبر إلى العرش . وكانت هذه الحركة قد نشأت وترعرعت فى أول الأمر داخل الكنائس «الارثوذكسية» المختلفة ،

الكنيسة الروسية وكنائس البلاد البلقانية الخاضعة لحكم العثمانيين . وبالنسبة لرجال الدين من الصرب ، أو البلغار ، أو الرومانيين ، مثلهم فى ذلك مثل رجال الدين الروس، كانت إمبراطورية القياصرة هى الحامية الأساسية لكل العناصر الأرثوذكسية الخاضعة للسلطان . وكانت الفكرة قد طرحت ، فى أثناء القرن السالف ، بأنه من الواجب على موسكو ، أن تترأس المسيحية ذات المذهب الشرقى ، وتأخذ ذلك المكان الذى كانت القسطنطينية تحتله فى الماضى ، أى أن تصبح « روما ثالثة » . وانتهى بهم الأمر إلى أن يستنتجوا من ذلك أن قيصر موسكو ، وهو الخليفة المرشح لأباطرة بيزنطة ، سوف يتمكن من أن يعيد مدينة القسطنطينية ، فى يوم من الأيام ، إلى المسيحية . ولكن مثل هذه العقيدة لم توجه السياسة الروسية بطريق مباشر قبل أواسط القرن الثامن عشر ؛ وإن كانت موجودة عند الجذور ، وتحت السطح ، عند الصدامات الروسية التركية الأولى ، التى ميزت الجزء الأخير من القرن السابع عشر .

ولقد إضطرت حكومة صوفيا ، لتنفيذ تعهداتها حيال «الرابطة» ، إلى أن تعد حملتين متتاليتين فى إتجاه الجنوب . ورغم معاونة أبناء أوكرانيا ، لم تنجحا . الواحدة والأخرى ، فى الوصول إلى هدفها الأول ، وهو القرم . وكانت عملية الفشل الثانية ، من بين هاتين العمليتين ، وهى هزيمة عام ١٦٨٩ ، قد حدثت فى نفس الوقت الذى وصل فيه بطرس الأكبر إلى الحكم . وكان القيصر الشاب قد أمضى سن بلوغه يتمرن على لعبة الحرب ، تحت إشراف بعض الأصدقاء من الاجانب، وبخاصة أحد السويسريين ، وأحد الاسكتلنديين ، فى سلوبودا ، ضاحية موسكو التى كان يسمح للأجانب بالإقامة فيها . وما أن سيطر على السلطة حتى أعطى كل إهتمامه للجيش . وقرر ، فى عام ١٦٩٥ ، أن يذهب ويحاصر آزوف. ولكن القلعة كانت قوية ، ودفعت كل المهاجمين . ولكن القيصر لم يتخل عن هدفه .وفتح دور

صناعة على نهر الدون ، من أجل بناء السفن التى كان فى حاجة إليها . وإستدعى مهندسين من ألمانيا ، وطلبوا إلى هولندا أن ترسل إليه نجارين وموا، البناء . وعملوا طوال فصل الشتاء . وتى أثناء ربيع عام ١٦٩٦ ، كان هناك أسطولا جديداً ، يسمح له بأن يفرض إحترامه على أسطول السلطان ، والذى كان قد حضر لكى يدعم مقاومة آزوف . وكان حريق البطاريات البرية هو الذى أدى إلى تسليم الموقع .

وفى الوقت الذى بدأت فيه مفاوضات الصلح ، سافر بطرس فى رحلته الأولى إلى الخارج ، وهى المرحلة التى حاول فى أثنائها أن يتعرف على أوروبا . وكان تحت تأثير تلك الحروب التى كان قد شنها ، وذكرياتها ، فلم يكن يفكر فى شىء أكثر من إنشاء أسطول حرب حقيقى يمكنه ، ليس فقط من أن يجبر العثمانيين على إحترامه ، بل وكذلك من أن يواجههم به . ولذلك فإنه قد إهتم بنوع خاص ، فى هولندا ثم فى إنجلترا ، بفن المنشآت البحرية . وإشتغل حتى بأيديه فى الورش الخاصة فى ساردام . وقرب لندن ، قام بزيارة لدار الصناعة الموجودة فى وولويتش ، بإهتمام بالغ ، وشارك هناك فى تدريبات التصويب . وإذا لم تكن ثورة سترلتسى قد أجبرته فجأة على سرعة العودة إلى موسكو ، لتمكن من أن يتقدم حتى البندقية .

وكانت الحرب مع العثمانيين قريبة الإنتهاء . وفى أثناء المؤتمرات التى وافق حلفائهم النمسويين على عقدها فى كارلوفيتز ، لم يكتف الروس بمجرد المطالبة بآزوف . فكانوا يرغبون علاوة على ذلك فى الحصول على حرية الملاحة على البحر الأسود . ولكن السلطان لم يكن مستعداً حتى ذلك الوقت لكى يمنحهم ذلك . ولذلك فإن المفاوضات سارت فى بطء . وفى آخر الأمر ، لم يتمكنوا من الإتفاق إلا على هدنة لمدة عامين . ولذلك ، فقد كان من الضرورى العودة

إلى التفاوض من جديد ، فى عام ١٧٠٠ ، وفى هذه المرة فى إستانبول . وتجددت الهدنة لمدة ثلاثين عاماً ، ومرت آزوف بالفعل إلى أيدى الروس .

ولم يترك بطرس الجيوش التى كونها تستريح لفترة طويلة . ومادام الأفق قد صفا الآن ومؤقتاً من جانب الأتراك ، فإنه سيوافق على مشروع حرب ضد السويد كان جاره ملك بولندا قد عرضه عليه فى أثناء إحدى المقابلات التى كان قد دعا إليها ، فى راوا . ومادام الهدف كان هو مجرد القيام بالحرب ، فكان أى عدو يساوى العدو الآخر . فلم يكن فى وسعه أن يحتقر السويديين أكثر من إحتقاره للعثمانيين . وكانت النقطة الأساسية تتمثل فى عثوره على حلفاء . ولم يكن بطرس معزولا . وقام فى عام ١٦٩٧ بمقابلة أولى . فى ميناء بللاو البروسى، مع فردريك الثالث ، منتخب براندبورج . ووعد كل من الملكين الآخر بالتعاون المشترك ، رسمياً ، وبكل قواته إذا مادعت الضرورة ، وبخاصة ضد السويد . ومن ناحية أخرى ، كان أوجست الثانى August II المنتخب الملك عن ساكس ،عميلا له: وتمكن نتيجة لتأييد القيصر من أن ينتصر على مرشح فرنسى ، هو أمير كونتى Conti ، وقت إنفتاح أزمة الوراثة الأخيرة فى بولندا نتيجة لوفاة سوبيسكى فى عام ١٦٩٩ . ولم يكن قد إكتفى بمجرد أن يعد القيصر بمعاونته ، ولكن كذلك بمعاونة الدانمرك (نوفمبر ١٦٩٩) . ولذلك فإن الروس كانوا سيحاربون ، هذه المرة ، عند سواحل بحر البلطيق .

وفى إستوكهلم ، كان عرش شارل الحادى عشر قد إنتقل إلى إبنه ، شارل الثانى عشر Charles XII ، وكان فى سن المراهقة . وكان هذا سبباً دفع بأعداء السويد السابقين إلى الإتحاد مرة جديدة ضدها . وشارك فى الحرب التى إشتعلت فى عام ١٦٩٧ نفس الخصوم ، أو تقريبا ، الذين كانوا قد شاركوا فى عام

١٦٥٥ — ١٦٦٠ . ولكنها سوف تستمر لمدة تقرب من عشرين عاماً ، ولن تتمكن القوة العسكرية للسويد من أن تستمر فى الحياه بعدها .

ووجه شارل الثانى عشر جهوده فى أول الأمر صوب أكثر خصومه ضعفاً ، ضد الدانمرك . وفى ذلك الوقت ، قام القيصر بالحصول على معونة باتكول Patkul ، أحد نبلاء ليفونيا . الذى كان حانقاً على السويد لإستعبادها بلاده ، فعقد التحالفات ضدها ، ووضع دبلوماسيته فى المعركة . ونتيجة لطلب باتكول قام السكسون من رجال أوجست الثانى بالبدء فى العمليات العسكرية فى الأسابيع الأولى من عام ١٧٠٠ : فهجموا على ليفونيا ، وتم صدهم أمام ريجا . وبدأ شارل الثانى بمهاجمة الدانمرك . وأخذ بعض الوقت من أجل تعديل الإتفاقيات التى كان تحت الإعداد مع إنجلترا ومع الأقاليم المتحدة . ثم قام، بمعاونة أسطول أنجلو هولندى ، بعبور السوند ، وغزا الجزر ، وحصل بعد ذلك مباشرة، تقريبا ، على خضوع المنهزمين فى ترافندال . وكان المستفيد الرئيسى من الصلح هو دوق هولشتاين — جوتورب ، والذى كان الفرع الذى ينتسب إليه ، ومنذ ما يزيد على قرن من الزمان ، فى منافسة مع فرع هولشتاين — جلوكستاد ، والذى كان له تاج الدانمرك : وسيحصل على ملكية الأقاليم التى كان كريستيان قد صادرها من قبل .

وإتجه بجهود السويد بعد ذلك ضد الروس والسكسون ، والذين كانوا يعملون ، وعلى إتصال ببعضها ، على السواحل الشرقية لبحر البلطيق ، بطرس فى إتجاه نارفا ، وأوجست صوب ريجا . ومنذ هذا الوقت ، أكد ملك السويد الشاب أنه رجل حرب قدير . ولم يكن معه ما يزيد على عشرة آلاف رجل ، بينما كان أربعين ألف روسى مجتمعين حول نارفا . وكانوا فى صميم الشتاء . وقام، بمساعدة إحدى العواصف الثلجية ، بالهجوم على خطوط الأعداء ، وزعزع

خصمه ، وناوءه إلى درجة رفع الحصار بكل سرعة ، بعد ساعة من الإلتحام (٢ ديسمبر ١٧٠٠) . وكانت هذه الهزيمة السريعة والكاملة كبيرة الإذلال لبطرس الذى ثبطت عزيمته ، وتحدث عن عقد الصلح دون أن ينتظر أكثر من ذلك. ولكن شارل الثانى عشر ترك له الوقت الكافى لكى تدب الحياة فيه من جديد . وإستدار ضد السكسون ، وأجبرهم بدورهم على الإنسحاب من المعركة التى كانوا يقومون بها أمام ريجا . وأخذ بعد ذلك فى تتبعهم فى بولندا .

وكانت هذه فرصة فريدة بالنسبة لبطرس . فسوف يتمكن، فى خلال السنوات التالية ، من أن يعيد تنظيم جيشه بهدوء ، ويدربه على عمليات الغزو على حساب أقاليم بحر البلطيق . وجاء أحد السفراء الفرنسيين ، فى عام ١٧٠٩ ، لكى يقترح وساطة سيده بين الروس والسويديين ؛ ولكن أحداً لم يستمع إليه .

وفى بولندا ، كانت الأمة تتبع ملكها السكسونى بدون حماس . وإحتج النبلاء على تلك الحرب التى كانت بلا طائل ، وطالبوا بضرورة البقاء على الحياد . وأمام ريجا ، لم يكن هناك تقريبا سوى قوات سكسونية . ولذلك فإن شارل الثانى عشر وجد هناك بسهولة الكثير من الأعوان حين ظهر أمامها بعد نارفا . وظلت بولندا ، التى كانت منقسمة على نفسها ، وفريسة «للاتحادات» — وهى روابط وإتحادات مسلحة كانت تعضد الإتجاهات المتعادية — ميدانا للمعارك خلال سنوات طويلة. وكان السويديون يحاربون أوجست ملك ساكس ، وتمكنوا فى النهاية من عزله ، فى عام ١٧٠٤ . وفى مكانه ، جعلوا الدايت ينتخب أحد زعماء وحركى المعارضة ، ستانيسلاس ليسكزينسكى Stanislas Lesczinski ، الذى سوف يملك ويحكم، وبصفته مجرد أحد ياوران شارل الثانى عشر .

وضد ليسكزينسكى ومن يحميه ، قام أنصار السكسون بعد أن أصبحوا

المدافعين عن إستقلال بولندا ، بالدخول فى إتصال مع بطرس الأكبر . وتحمس شارل الثانى عشر فى عمله على هزيمة أوجست الثانى ، وتتبعه حتى قلب إقليم إنتخابه السكسونى ، وكبده هزيمة بعد هزيمة ، وأجبره فى آخر الأمر على أن يتنازل عن عرش بولندا (١٧٠٦) . وفى أثناء ذلك الوقت كان أولئك الذين تبعوه قد إتصلوا بمنتخب براندبورج ، والذى كان قد أصبح ملكاً على بروسيا بإسم فردريك الأول ، ثم إتصلوا بعد ذلك بالقيصر : ولم يترددوا فى أن يعدوهما ، كليهما ، ببعض مساحات من بولندا ، فى نظير تدخلهما . وهكذا نجد أن الإتجاه الوطنى البولندى قد خبا ضوءه ، بعد أن وضع على المحك . وكان من الممكن أن نشاهد ، ومن بعيد ، وفى أحداث بداية القرن ، المؤشرات الأولى لتلك الأزمة التى سوف تتسبب فى غرق الدولة ، بعد خمسين عام من ذلك .

٣ ـ حروب شارل الثانى عشر ، وبطرس الاكبر :

يمثل عام ١٧٠٧ نقطة هامة ، ونقطة تحول ، فى ذلك الصراع الذى كان شارل الثانى عشر يقوم به ضد بطرس الأكبر . وذلك القلق الذى ساد فى شرق أوربا ، إنتشر حتى الغرب ، وحيث كانت الدول العظمى ، والتى كانت مشتركة فى صراع بلا نهاية من أجل الوراثة الإسبانية ، قد أظهرت بعضاً من قلة الإهتمام « بحرب الشمال » الجديدة هذه .

وكان شارل الثانى عشر ، ودون أن يقلل من تقدير قيمة عداء روسيا ، يعقد أهميه خاصة على شئون بولندا : فأظهر بذلك حرصاً على تقليد قديم للمملكة السويدية . ولم يكف فى وارسو عن التفاوض مع الأطراف . ونجح أخيراً فى أن يحصل من ستانيسلاس ومن الدايت على وعد بمساعدته . وبعد ذلك ، ولما كان أوجست الثانى مستمراً فى التحرك من أجل إعادة تاجه ، إنتهى به الأمر إلى

أن يعتقد أنه لم تكن هناك من وسيلة ، ولكى ينتهى منه ، سوى أن يذهب ويستولى «لى منطقة إنتخابه . وهذا هو السبب الذى جعله يذهب، فى شهر سبتمبر ١٧٠٦، ويعسكر مع جيشه فى قلب ساكس ، وعلى مسافة بسيطة من ليبزيج ، فى آلت شتاد . وأمضى هناك عاماً كاملا .

ووصل إلى أول أهدافه حين حصل من خصمه ، الذى جاء لزيارته ، على موافقة على كل شروطه . وسجلت معاهدة آلت شتاد (٢٤ سبتمبر ١٧٠٦) تخلى السكسون عن تاج بولندا ، ونقض كل التعهدات التى كانوا قد أعطوها للخارج فى أثناء سنوات ملكيته . لم إتصل شارل بعد ذلك بالامبراطور ، ودافع لديه عن مصير البروتستانتيين فى سيليزيا ، وطاب إليه ، وبإصرار ، تقديم تنازلات فى صالحهم . وبالغ ليوبولد فى إظهار حسن نيته ، خشية أن يتحول البطل ضده . ويقولون أنه أجاب ببرود، وعلى ملاحظات قدمتها له روما: « لتكونوا مسرورين أن ملك السويد لم يقترح على التحول إلى مذهب لوثر . إننى لا أعرف ما كان فى وسعى أن أقرره . . . . . »

وكانوا يتساءلون ، فى كل الغرب ، عن نيات شارل الثانى عشر الممكنة . وكانوا يتساءلون عن معنى هذا السكون الطويل ، وماذا يخدم — كما كان قد حدث منذ ثلاثة أرباع القرن ، قبل ذلك ، فى أثناء شتاء ١٦٣٠ — ١٦٣١ ، وفى الوقت الذى كان جوستاف أدولف ، بعد إنتصاراته الأولى ، قد أقام فيه لفترة طويلة فى ماينس ؛ فكانوا يتساءلون بقلق عن المشروعات التى يمكن أن يفكر فيها . وأرسل الطرفان إليه بمندوبين، حتى يتمكنوا من إستخلاص السر من أبى الهول . وكان لوى الرابع عشر يعلم بالروابط التى كانت تربط السويديين بانجلترا وبهولندا . ولذلك فإنه لم يعقد أى خيال بشأن جذبه صوب معسكره . وفى أثناء المحادثات التى جرت بين شارل وبين المندوب الفرنسى ، لم تطرح إذن

أية مسألة سوى القيام بوساطة . وفى العام السالف ، كانت إمـــكانية الوساطة الفرنسية بين السويديين وبين الروس قد تم التفكير فيها . وذلك فى توافق مع فكرة وساطة روسية بين فرنسا وبين المتكتلين . وقام المتكتلون ، من جانبهم ، بارسال أحسن قادتهم ، مارلبورو ، إلى آلت شتاد . وحين وصل ، بدوره ، فى شهر أبريل ١٧٠٧ ، قوبل أفضل مقابلة . ولكنه لم يحمل ، هو الآخر ، أى شىء مؤكد ، وأى وعد .

وفى الخريف ، قرر شارل الثانى عشر فى آخر الأمر ما كان قد فكر فيه طويلا وبتمعن فى آلت شتاد . فسينتهى مع الروس . ولما كانت الأحداث لها شكل غير مقرر فى الغرب ، كان فى وسعه أن يحصل على الوقت اللازم قبل أن يعود ويلقى بسيفه فى صالح المتكتلين.ومها كان الأمر — ولم يكن يبوح بسره إلى أى شخص ، ونقوم إلا ببعض الإفتراضات بالنسبة لنياته — فإنه يعود إلى بولندا ، ويعبر المملكة مرة جديدة ، وهذه المرة من الغرب إلى الشرق ، ويحصل على نصر أخير قرب موهيليف ، عند كولوزين . وكان الكونت لوينهوت Lewenhaupt ، أفضل معاونيه ، وحاكم ريجا ، يقود فرقة كانت، منذ سنوات، تدافع عن كورلاند ضد البولنديين ، وضد الروس . وأصدر إليه الملك أمراً بأن يأتى وينضم إليه إلى الجنوب أكثر من ذلك ، على الدنيبر . وكان هدفه أن يزحف على موسكو ، وليس بالطريق العادى . الذى يمر بفيلنا وسمولنسك، ولكن عبر أوكرانيا ، وبطريقة تسمح له بأن يحافظ على إتصاله مع القوزاق ، والذين كان مازيبا Mazeppa ، رئيسهم ، قد وعده بتقديم المعونه له . ولكن ليوينهوت، بمجرد تحركه ، واجه هجوم الروس،وخضع فى ليسنا (٢٢ سبتمبر ١٧٠٨) لهزيمة ساحقة ، كلفته فقدان مدفعيته . وجاءت كارثة أخرى ، ولم تكن متوقعة، لكى تعرقل تقدم شارل الثانى عشر. فدون أن يهتم بالبرد — وكان

هذا عاملا لا يعمل السويديون له حساب — حاول أن يعبر الإستبس فى فصل الشتاء . ولكن الشتاء بدأ مبكراً ، فى تلك السنة ، وكان على قسوة لم يسبق لها نظير . فكان من الضرورى وقف العمليات الحربية فى شهرى يناير وفبراير ،عن طريق هدنة قصيرة المدى . ثم واصل الزحف إلى الأمام . وقاسى الجيش مقاساة عنيفة ؛ ولم يكف الجراحون عن بتر الأطراف التى تجمدت .

وفى أثناء ذلك الوقت ، كان القيصر يستعد للدفاع عن بلاده ضد الغزو . وكان لديه الوقت ، منذ نارفا ، لكى يحسن تلك الوسيلة التى سيستخدمها . وكان الجيش قد حافظ ، منذ سنوات ، على مستوى الدخول إلى الحرب . وكان قد إستمر فى العمليات الحربية ، فى كورلاند ، وعلى حدود فنلندا ، وعلى طرفى ذلك الخط الذى كان عليه أن يحميه، وذلك فى الوقت الذى إستمرت فيه عمليات إنشاء سان بطرسبرج ، بين مسرحى العمليات ، بكل هدوء . وكان بطرس لا يقل قلقاً عن غيره . وكان مستعداً لطلب وساطة . فقام بعملية مجسات فى لندن ، وفى كوبنهاجن ، وبرلين ، وعرض أمر إعادة كل الأراضى التى كان قد غزاها من السويد ، وبإستثناء مصب نيفا . ولكنه إصطدم بمطالب كانت لا تسمح له بالوصول إلى غرضه . وبعد أن إضطر إلى الإعتماد على نفسه ، فكر فى فكرة استراتيجية حاولوا إعتبارها على أنها روسية بنوع خاص : إخلاء المجال أمام الغزاة ، وجذبهم إلى أبعد مسافة ممكنة من قواعدهم، وعدم الدخول فى معركة معهم إلا حينما يظهرون عل أنهم قد ضعفوا بشكل واضح ، وفى آخر وقت ، وأبعد مكان ممكن . ولذلك فإنه منذ الوقت الذى قرر فيه شارل الثانى عشر أن يترك الأراضى البولندية ، كان عليه أن يجتاز صحراء فعليه وجاء الجوع علاوة على البرد لكى يعمل عمله فى خفض الروح المعنوية للجنود .

وكانت هناك عدة مفاجآت تنتظر شارل الثانى عشر ، عند موهيليف ، وفى

المكان الذى عبرت فيه قواته نهر الدينبر . فكان ليوينهوت،الذى توقع حضوره مع جيشه سليما ، يواصل سيره بكل صعوبة ، ويهاجمه الروس ؛ وكانت الروح المعنوية لجنوده فى منتهى المعاناة : وسيأخذ عليه الملك أنه لم يتحاشى الإلتحام ، طبقاً للتعليمات التى كان قد أصدرها إليه : أما مازيبا ، من الجانب الآخر ، فقد حضر ومعه جيش صغير للغاية ، من أربعة أو خمسة آلاف رجل . ذلك أن رئيس القوزاق لم يكن صريحاً فى القيام بدوره . ولم يكن شارل الثانى عشر،رجل الحرب قد تعود على خبايا السياسة . ولم يكن قد فهم الأمور المضطربة فى دور مازيبا ، والذى كان رئيساً لشعب يدخل فى نطاق إمبراطورية القياصرة ، وإن كان يمثل عنصراً لم يهضم فيها . ورغم أن رئيس القوزاق كان يحظى بثقة بطرس ، بسبب الخدمات التى كان قد أداها له،فإنه كان يخشى بإستمرار من الإتجاهات الأوتوقراطية لحكومة موسكو . وكانت زيادة الأعباء الضرائبية ، كنتيجة لإستمرار الحرب مع السويد ، قد ولدت حركة عدم رضاءحادة فى البلاد. وكانت هذه هى الأسباب التى جعلت مازيبا يوافق على عروض شارل الثانى عشر،التى نقلها إليه إستانيسلاس ليسزينسكى . وحينما وجد نفسه أمام إصرار القيصر على ضرورة أن يأتى للحاق به مع القوزاق التابعين له ، ولم يتمكن من التنفيذ ، تم إعلان عزله بواسطة سيدة ، فقرر فى ذلك الوقت فقط أن ينفذ تلك التعهدات التى كان قد تعهد بها للملك السويد. وكان يسهل،ونتيجة لسيطرته على الأهالى ، عملية تموين الجيش ، وذلك فى الوقت الذى كان الروس يعملون فيه جاهدين من أجل وقف هذه العملية ، ويستمرون فى عمليات تخريبهم حتى فى أوكرانيا .

وحين جاء الصيف ، إستلم جيش روسيا الأوامر ، فى آخر الأمر ، بأن يقوم بعملية المواجهة . فأخذ مواقعه فيما وراء الدنيبر ، وحول موقع بولتسافا الحصين . وبدأ السويديون عملية محاصرة الموقع . وستقع الموقعة الحاسمة تحت

الأسوار . وبعد عدة أشهر ، وصل القيصر ومعه الإمداد ، وتولى القيادة . وكان لديه ما يزيد على خمسين ألف رجل ، بينما لم يكن لدى شارل الثانى عشر ما يزيد كثيراً على ١٢٫٠٠٠ رجل . وإنتهى هجوم السويديين يوم ٢٨ يونيو بالفشل . وإضطر الملك ، الذى كان قد جرح فى قدمه منذ أيام، إلى إعطاء القيادة لليوينهوبت. أما الجنود الذين كانوا قد تعودوا رؤيته ، فلم يلحوه إلا من بعيد ، وهو على محفة . وتركهم ، وبمجرد أن تيقن من مصير المعركة . وإبتعد صوب الجنوب ، وليس معه سوى حفنة من الفرسان ، فقط .

ومن الناحية الفعلية ، إنتهت « المغامرة » — أو على وجه أدق « المغامرة » الثانية — السويدية هنا ، فى إسقيبس أوكرانيا ، فى منتصف عام ١٧٠٩ . ويمكننا أن نمر سريعاً على ما حدث بعد ذلك . إذ أنه فى اليوم التالى لبولتافا لم يعد الجيش السويدى موجوداً . وإستلم ليوينهوبت الأمر بالإنسحاب ببقية الجيش إلى أمام نهر الدنيبر . ولكنه لم يتمكن من الحصول إلا على جنود إنخفضت روحهم المعنوية بالنسبة للتفكير فى أية معارك جديدة . ولذلك فإنه إضطر فى بيريولنكترنا (٣٠ يونيو) إلى أن يسلم مع أسلحته وأمتعته . وسيذهب الستة عشر ألف رجل الذين كانوا قد بقوا له لكى يقضى عليهم فى مناجم الأورال . وإنتهت السويد ، التى حرمت من جيشها ، من أن تصبح دولة عظمى أوربية: فعادت إلى مكانها، الأكثر تواضعاً، كدولة من دول بحر البلطيق ، بينما أصبح ملكها، الذى إلتجأ إلى الأراضى العثمانية ، فى بندر (بسارابيا) ، ضيفاً رغماً عنه عند الأتراك ، الذين طلب حمايتهم .

وفى بولندا ، ذلك المسرح العادى لإنتصارات شارل الثانى عشر ، أدى خروجه المباغت منه إلى إنهيار كامل . وبعد أن تنازل ستانيسلاس عن تاجها ، إستعاده أوجست ، صاحب ساكس . وسيصبح الخادم المخلص للقيصر، الذى ضمن

له إستعادة حظه . وكانت أولى أعماله تتمثل فى أن يتخلى ، فى مصالح بطرس ، عن حقوق بولندا على ليفونيا .

أما بالنسبة للقوزاق ، فإنها كانت نهاية تلك الحريات التى كانوا قد حصلوا عليها خلال القرون السابقة : فألغيت كل الميزات التى كانت تضمن لروسيا الصغيرة نصف إستقلال داخلى ؛ وتم فرض أحد الحكام ، من موسكو ، كمساعد لرئيسها hetman . وذهب مازيبا مع شارل الثانى عشر فى فراره إلى الأراضى العثمانية . ولم يتحدث أحد عنه بعد ذلك . ولم يتدخل فى العمليات الجديدة التركية فى ذلك الصراع بين شارل الثانى عشر و بطرس الأكبر .

ولقد إمتد هذا الصراع ، الذى إستمر لمدة عشر سنوات ، وبعد فاصل من عامين ، بمرحلة أخيرة . فلم يقتنع من إنهزم فى بولتافا بذلك العار الذى لحقه . ولم يكف عن الإتصال بحكومة السلطان — وهى حكومة السلطان أحمد الثالث فى ذلك الوقت من أجل دفعها ضد الروس. ورأى لوى الرابع عشر يؤيد مجهوداته خاصة وأنه كان قلقاً من ضعف القوى التى كانت تعمل تقليدياً كحلفاء لفرنسا ضد آل هابسبورج : السويد وبولندا . ونتيجة لمعونة صدر أعظم كان يتميز بشراهة خاصة إلى المال ، تم الوصول إلى الهدف فى عام ١٧١١ ،وأعلنت حكومة إستانبول الحرب على القيصر . وفى ذلك الوقت ، كان بطرس الأكبر مليئاً بالثقة فى نفسه ، فذهب لمقابلة الخصم فى إتجاه الدانوب . وكان يحتفظ بإتصالات مستمرة مع الأمراء،أو الموسبودار،فى الأفلاق والبغدان، والذين كانوا خاضعين لإستانبول؛ وكان يأمل فى أن يضمهم إلى الحرب ، وإلى جواره . ولكنه فشل فى إقناعهم ، وسيكون فى نهاية الأمر بمفرده من أجل اللقاء الحاسم ، والذى وقع فى ظروف سيئة للغاية بالنسبة إليه . وترك الصدر الأعظم يوجهه ؛ وكان الجيش الذى يهدد بمحاصرته على ضفاف البروث قد تضخم بأعداد كبيرة من التتار ، وأصبح يزيد

خمسة مرات على جيشه . وإذا كان قد إنسحب فى ظروف مواتية ، فإن ذلك كان يرجع بالتأكيد إلى أن السيدة التى سوف يتزوجها ، وهى كاترين الأولى ، فى المستقبل ، كانت قد نجحت فى شراء القائد التركى . ومهما كان الأمر ، فإن معاهدة بروث (٢٢ يوليو ١٧١١) التى عقدت سريعاً ، لم تأخذ منه سوى آزوف ، التى أعيدت إلى خان التتار . ووعد بعدم التدخل بعد ذلك فى شئون بولندا .

وثارت ثائرة شارل الثانى عشر ضد المعاهدة ، التى أعلن أنها مهينة ، لأنه فقد كل أمل فى أن ينتقم . وأرسل نداءاً إلى السلطان ، وقام بالكثير إلى درجة إضطرارهم إلى أخذ إجراءات ضده ، وإنتهى به الأمر إلى أن يحيا حياة تشبه الأسر ولم يعد إلى بلاده إلا فى عام ١٧١٤ .

ومنذ عام ١٧١١ إلى عام ١٧٢١ ، كانت هناك عشر سنوات كاملة تفصل بين الصلح مع الدولة العثمانية ، وبين الصلح مع السويد . وستكون لدينا الفرصة لكى نعود — عند حديثنا عن القرن الثامن عشر — إلى بعض الأحداث التى ميزت الجزء الأخير من هذه الفترة . وعلينا أن نكتفى هنا بذكر الصفات العامة . فلم يعد الأمر ، مؤقتاً ، يتعلق بالأتراك . ومن ناحية أخرى ، سويت مسألة بولندا ، بصعوبة ، بين أوجست الثانى وبين بطرس الأكبر . وتسببت عودة قوات ساكسونيا فى نشوب حرب أهلية . وإنضمت المجموعات المعادية للنبلاء إلى بعضها داخل إتحادية . وأعطيت الكلمة ، مرة جديدة ، للسلاح : الأمر الذى أدى إلى تدخل جديد من جانب القيصر ، والذى أصدر للساكسون ، وبواسطة الدايت ، أمراً بترك البلاد فى فترة خمسة وعشرين يوماً . وسوف تستقر يد روسيا ، شيئاً فشيئاً ، وأكثر فأكثر ، على بولندا : وسيعطى بطرس الأكبر ، فى عام ١٧١٧ ، ضمانه لدستور جديد .

ومنذ الأيام التالية لبولتافا ، إستعادت السويد مصائرها المتعلقة ببحر البلطيق ،

والتى كانت قد شلت نتيجة لطول أمد الصراع لمـــدة عشرين عام مع روسيا . وعادت بطبيعة الحال إلى صداقة فرنسا ، والتى كانت معروضة دائماً . ووقع لوى الرابع عشر ، قبل وفاته بقليل ، مع ممثلى السويد على معاهدة تحالف جديدة (٣ أبريل ١٧١٥) . وبعد وقت قصير ، ضمن لها الوصى ، وبمعاهدة سرية (١٤ سبتمبر ١٧١٦) ، ملكية موقع إستيتن ، والذى كان رجال براندبورج قدأقاموا فيه ، فى عام ١٧١٣ .

وأظهر الدانمركيون سرعة رغبتهم فى إبعاد تلك السيطرة التى كانت قدفرضت عليهم منذ عشر سنوات . وبدأوا فى سرعة زائدة : إذ أن وسائل الدفاع كانت موجودة فى السويد . وإنتهت عملية نزولهم فى سكانيا بفشل ذريع . وبعدهزيمتهم فى هلسينجبورج (١٠ فبراير ١٧١٠) ، إضطروا إلى العودة إلى عبور السوند بكل سرعة . وعادوا إلى نفس المحاولة بعد عامين ، وهزموا هزيمة أشد فى جادبوش (٩ ديسمبر ١٧١٢) .

أما شارل الثانى عشر ، والذى لم يعد يأمل فى الحرب ، فإنه فكر بنوع خاص بعد أن عاد إلى بلاده ، فى الدفاع عن ممتلكاته الألمانية ضد جيرانه ، والذين كانت مصائب السويد قد أثارت أطماعهم . وأعطى كل وقته للاستعدادات العسكرية ؛ وأقام لمدة عام كامل فى إسترلسوند ، التى كان رجال براندبورج يحاصرونها مع البروسيين . وحينما سلم الموقع (٢٣ ديسمبر ١٧١٥) ، لم يكن هناك ؛ إذ أنه كان قد عبر البحر من جديد .

وفى الوقت الذى مر فيه الساحل الجنوبى لبحر البلطيق إلى أيدى الدانمركيين ورجال براندبورج والبروسيين ؛ عمل بطرس الأكبر عـــلى تنظيف الأماكن القريبة من خليج فنلندا ، وعلى ضمان السيطرة على البحر . وقام أسطوله برفع علم روسيا على جزر آلاند ، وكان يحمله حتى السوند . وتوغلت جيوشه ، فى عام

١٧١٣ ، حتى تافاستيهوس ، فى قلب بلاد فنلندا . وقام ، بالإتفاق مع حلفائه ، بإحتلال موانى بوميرانيا ومكلمبورج ، وجاء بنفسه لكى يقيم فى كوبنهاجن ، ويعد أمر النزول فى السويد .

وعندئذ ، ثار قلق إنجلترا . فرفعت مبدأ التوازن ، وذكرت فرنسا فى وقت الوصى بأنها نفسها كانت قد أظهرت ، وفى أواسط القرن السالف ، رغبتها فى تطبيقه فى منطقة بحر البلطيق . وقامت لندن بتنظيم حملة دبلوماسية كاملة ، من أجل أن تضمن للدولتين الغربيتين ، واللتين كانتا قد أصبحتا صديقتين أخيراً ، مساعدة النمسا : فإقترحوا أن يمارسوا على القيصر ،وأن يهددوه إذا ماتطلب الأمر ، حتى يجبرونه على العودة إلى روسيا . وعارض بطرس . ولكنه سينتهى بالموافقة. وفى أثناء رحلة جديدة فى الغرب أوصلته ، مثل السابقة ، إلى أمستردام فى أول الأمر ، ذهب إلى باريس ، وتوقف لفترة طويلة فى دنكرك وفى كاليه .

ولقد أثار دهشة الباريسيين بشكل مستمر. وبعد أن ذهبوا به فى أول الأمر إلى اللوفر ، ثار لعظمة المكان ، وحصل على موافقة لكى يذهب ويقيم فى فندق ليديجيير Lesdiguières الصغير ، قرب الأرسينال ، وطلب إليهم أن يحضروا له مجرد سرير معسكرات . وإستمر لمدة ستة أسابيع بجنوب المدينة فى كل إتجاه ، مظهراً فضولا لا ينتهى ، وبساطة تامة فى التصرفات . وذهب لزيارة السربون ، وبرلمان باريس ، وأخيراً أكاديمية العلوم ، التى منحته ، بعد سفره ، لقب عضو شرف فيها . وحصل على موافقة لكى يأخذ معه إلى سان بطرسبرج مجموعة ضخمة من الحرفيين ، وبخاصة من صانعى السجاجيد ، والذين إستعارهم من ورش الجوبلان وبوفيه ، وطلب إليهم إدخال هذه الصناعة فى روسيا . أما على النطاق الدبلوماسى ، فإنه لم يحصل على شىء له قيمته . فكان الوصى يخشى من الإقدام على أى شىء قد لا يعجب الإنجليز ، والذين كانوا على علاقات سيئه مع فردريك

ويليام Frédéric - Guillaume ، ملك بروسيا ، والذى كان صديق القيصر .

وإنتهت المحادثات بعد سفر بطرس ، وفى أثناء إقامته الجديدة فى أمستردام : فتعهدت فرنسا ، باتفاقية ١٥ أبريل ١٧١٧ .بألا تجدد معاهدتها الخاصة بالمعونات مع السويد ، وبأن تتدخل كوسيطة،وبالاتفاق مع بروسيا، بين السويد وروسيا . وعلاوة على ذلك ، أعلن الملك والقيصر أنهما مصممان على المحافظة على معاهدات أوترخت وبادن ، وكذلك المعاهدات التى ستوضع لوقف الحرب فى الشمال . وأخيراً ، بأن يدعما ، « الآن ودائماً » ، « صداقة وإتصال » بين البلدين ، وأنهما يتوقعان الإجتماع القادم بين المفوضين ، والمكلفين بعمل معاهدة تجارة . ورغم أن المعاهدة ، التى كتبت على مهل، لم يتم التصديق عليها، إلا أن الفرنسيين والروس قد وجدوا فيها الفرصة لعمل إتصالات مثمرة . كما أن التبادل المنظم للسفراء إستمر دون إنقطاع منذ ذلك الوقت .

وفى عام ١٧١٨ ، قررت أستهوكهلم أن تتحدث عن السلام. ولكن المحادثات التى بدأت لم تستمر لفترة طويلة. وعندئذ قام شارل الثانى عشر باعداد مشروع جديد، كان هو الأخير . فردا على التحدى الذى كان الدانمركيون قد وجهوه إليه ، أعاد من جديد المشروع القديم الخاص بمنازعتهم فى النرويج . ولكنه قتل أمام موقع فردريكشال الصغير (٣٠ نوفمبر ١٧١٨) .

وهذا الإختفاء ، فى نفس الوقت الذى أضعف فيه السويد ، لم يؤد إلى إنهاء الحرب بطريق مباشر . ولم يفاوض أعداءهم الا الواحد بعد الآخر. فكان فى أول الأمر ملك بروسيا هو الذى أعاد التنازل ، فى عام ١٧٢٠،عن ستيتن ، والتى كانت موقعاً بحرياً ممتازاً ، وفى نفس العام ، وافقت الدانمرك على صلح أبيض، وأعادت كل ما كانت قد غزته ، ولذلك فإن روسيا هى التى بقت ، وحدها ، تحت السلاح وقامت الحكومة الإنجليزية بتأييد مقاومة الدايت السويدى الصلح ، حتى لا يقوم

على الأقل بطلبه . وإنتهى بها الأمر إلى أن تقرر القيام بمظاهرة بحرية داخل المياه الروسية ، الأمر الذى إستتبع ، وكرد عليه ، إلقاء القبض على كل التجار الأنجليز المقيمين فى موسكو . وكان على بطرس ، بدوره ، أن يؤكد قوته بتوجيه سلسلة من الضربات الجديدة إلى الخصم ، على البر وعلى البحر : وعندئذ فقط وجد نفسه فى وضع يسمح له بأن يفرض على عناد السويديين تلك الشروط التى كانوا قد رفضوها ، منذ ثلاث سنوات مضت .

وفى أثناء ذلك الوقت كانت فرنسا ، وبصفتها دولة وسيطة توالى تدخلاتها . وقام ممثلها فى إستوكهلم بعدة زيارات لروسيا . وكان يتباحث مع القيصر مباشرة ، مستخدماً فى ذلك اللغة الهولندية . وأعلن بطرس أنه لن يكون هناك صلح ممكن مالم يوافق السويديون على أن يصبح البحر هو حدود سيطرتهم ؛ وكان على روسيا منذ ذلك الوقت أن تحتل فى الشمال نفس المرتبة التى كانت السويد تحتلها هناك فى القرن الماضى . وأخيراً ، تم التوقيع على الصلح فى نيستاد ، فى فنلنـــدا ، (٣٠ أغسطس ١٧٢١) . وترك للروس كل الأقاليم المجاورة للبحر . والتى كانوا قد إمتلكوها : إنجيريا ، وإستونيا ، وليفونيا . وكانت فنلندا ، وحدها ، هى التى لم تخضع لهم .

ومع ذلك فإن الدولة الروسية أصبحت هى الدولة الأولى فى شرق أوروبا ، والتى تمتلك أكبر القوات البرية والبحرية هناك . وكشهادة على الإعتراف بالعمل الذى قام به القيصر فى عصره ، إجتمع مجلس الشيوخ والمجمع المقدس ومنحوا بطرس لقب « الأكبر » ، ولقب « إمبراطور كل الروسيات » .

٤ - التطور فى روسيا فى عهد بطرس الاكبر :

لقد أسهم بطرس الأكبر ، وأكثر من غيره من بقية القياصرة، فى عملية تقريب روسيا من بقية القارة . ولا شك فى أنه لم يقم بكل شىء فى هذا السبيل . ولـكنه

أعطى الدفعة الأساسية . ويمكن إعتبار أن الامبراطورية تستحق أن تعتبر على أنها تشكل جزءاً لا ينفصل عن أوربا ، إبتداء من بداية القرن الثامن عشر . ذلك أن بطرس كانت له رغبة من حديدفى أن يستمر فى مجهودات والده، القيصر ألكسيس: ووصل الحد بذلك إلى درجة أن ما عمله قد أدى إلى تناسى كل ماكانت عملية تطوير روسيا على الطريقة الأوربية تدين به لهـذا القيصر الذى كان تاريخه أقل بريقاً .

وكانت الرغبة فى إعلان القطيعة مع الماضى الخاص بالعزلة قد ظهرت بتلك الحرب التى شنها بطرس ، منذ عودته من الغرب ، فى عام ١٦٩٩ ،على تلك التقاليد الخاصة أو الملابس ، والتى كانت مستعارة ، لامن آسيا نفسها ، كما كان الكثيرون يذكرون — ولكن من هذه المدينة الأم التى كانت بيزنطة . وماظلت عليه بالنسبة للأمة الروسية ، رغم الغزو العثمانى : القفاطين الطويلة التى يرتديها الرجال، واللحى الطويلة التى كانت تحيط بوجوههم ، أو الإقفال على النساء فى الترم terem ،وهى أماكن خاصة بهم ، أو نوع من « الحريم » إذا ما أردنا ، وإن كانت ، كما هو معروف ، غير مرتبطة بتعدد الزوجات . أما الرداء الذى فرضه بطرس عن طريق قرار على المحيطين به ، والذى إنتشر من العاصمة شيئاً فشيئاً فى كل الأقاليم ؛ فكان مقسوخاً من أردية الألمان ، الذين كانوا هم الأكثر عدداً من بين الأجانب الذين كانوا يسكنون فى السلوبودا . وكذلك إنتشر أمر إستخدام الغليون ، ودائماً على طريقة الألمان ، ودون أن يوصى بذلك ، مصطحباً هذا التجديد فى الملابس .

وإستمر الألمان يحظون برضاء السلطة طوال حكمه . ومنذ وقت طويل ، أولئك الذين يقيمون فى السلوبودا قد حصلوا على تصريح بإنشاء معابد لهم ؛ وإتصل بطرس من وقت مبكر بهذه العقيدة التى نبتت مع الإصلاح الدينى.وأظهر لها فى أكثر من مناسبة تعاطفه ، وذلك فى الوقت الذى ظلت فيه الكاثوليكية

ممنوعة ، إذ أنها كانت ديانة البولنديين ، ولذلك فإن العلاقات مع روما كانت مشدودة بشكل خطير. ومع ذلك ، فإن كل الديانات كان من حقها أن يكون لها، فى سان بطرسبرج ، مكاناً للعبادة ، على نهج نيويسكى ، الذى سوف يسمى بعد ذلك « نهج التسامح » .

وكان التجديدفى الملابس وفى العادات يمثل مظهراً صغيراً من مظاهر الإقتراب من الدول الأكثر تقدماً فى أوربا ، وكانت لعملية التصنيع أهمية تفوق ذلك بكثير ذلك أن نتائجها سوف تكتب على خريطة أوربا بكلمة القوة ، فى أثناء القرن الثامن عشر . وقبل بطرس الأكبر لم يكن هناك فى روسيا سوى الحرف ، فى الريف وفى المدن.ولقد وجد نفسه،وفى حاجته إلى التجهيز العسكرى للإمبراطورية، خاضع لجاره السويدى ، والذى كان فى غالب الأحيان عدواً له : فكان يحصل من عنده على كل ما كانت الظروف تسمح به ، وبخاصة الحديد والنحاس اللازمين له ، وبعد نهاية زيارة القيصر الأكبر الأولى للغرب مباشرة ، تم وضع الأسس لإنشاء صناعة تعدينية . وكان منظم هذه العملية هو مهندس سكسونى ، هينان Hennin ، كان بطرس قد إستخدمه أثناء إقامته فى أمستردام ، وجعله يعمل أولا فى بناء الإستحكامات فى مواقع الشمال ، ثم جعله ينشىء فى سان بطرسبرج، بعد ذلك،مصنعاً لبارود وورشة لصب المدافع. وسيكون العمل الأكبر لهينان ، بعد وفاة بطرس ، هو إعادة تنظيم المنشآت التعدينية فى الأورال ، والتى ستكون مدينة إيكاترينبرج الجديدة ، والتى أنشئت فى عام ١٧٢٣ ، هى مركزها الرئيسى . وسوف تولد ، فى هذا الوقت وبنوع خاص ، صناعة النحاس فى روسيا. وشيئاً فشيئاً ، حلت الإطارات الوطنية محل الإطارات الألمانية ؛ وكانوا قد تكونوا فى مدرسه المناجم فى فريبرج فى أول الأمر ، ثم أصبحوا يتخرجون بعد ذلك من تلك المدرسة التى أقيمت فى إيكاترينبرج .

ومن الأقاليم المتحدة ومن إنجلترا ، إستقدم بطرس الأكبر ، أثناء إقامته هناك فى رحلته الأولى ، عدداً من العمال المتخصصين ؛ وذكروا أن عددهم زاد على خمسمائة هولندى . وبعد بولتافا ، أسهم الأسرى السويديون فى عملية تعليم صناعة الصلب للمنتصرين عليهم ؛ ولن يتركوا البلاد إلا بعد عقد الصلح ، فى عام ١٧٢١ .

وكان إنشاء سان بطرسبرج ، وفتح مينائها للحركة الدولية ، لم ينتج عنه خراب التجار الروس ، كما كان يتوقع المتشائمون من بينهم ، والذين كانوا أسرى إرتباطهم بعادات وتقاليد الأسلاف ومع ذلك ، فلقد كان من الضرورى ، ولكى يتحرروا من الروتين ، أن يربطوا نهر لينا بنهر الفولجا بقناة صالحة الملاحة . وعند نهاية حكم بطرس الأكبر ، كان ثلثى الصادرات يمران عن طريق الميناء الجديد . ومع ذلك فإن أركانجلسك قد إحتفظت على الأقل بحركة هامة مع إنجلترا ، ومع هولندا .

وأدى النمو المستمر للمبادلات إلى ضرورة تعيين ممثلين تجاريين فى المراكز الهامة ، باريس ، وأنفرس ، وقادس ، ثم إلى ضرورة عقد معاهدات تجارة . وفى عام ١٧١٧ ، أى نفس العام الذى عقدت فيه المعاهدة ، التى ولدت ميتة ، بين بطرس وفرنسا ، سويت العلاقات مع فارس ، والتى كانت كبيرة الأهمية . وستظل المعاهدة الروسية الفارسية ، لعام ١٧١٧ ، والتى أكملت وأعيد النظر فيها مرات عديدة ، سارية المفعول طوال القرن كله .

أما القناصل والسفراء ، والمندوبين المكلفين بالدفاع عن المصالح الروسية فى الخارج ، فإنهم لم يعودوا يظهرون ، فى أثناء الفترة الأخيرة من حكم بطرس الأكبر ، بنفس المظهر والملبس الذى كان لهم فى الوقت السابق . وأخذت الكسوة الموشاة ، مع الشعر المستعار والجوارب الحريرية ؛ ومعها

السيف على الجانب ، والتي كانت مفروضة على رجـــل البلاط في الغرب ، تحل محل الملابس الوطنية . وكذلك نجد أن عدداً كبيراً من الدبلوماسيين كانوا مستعارين في أول الأمر من ألمانيا . ثم شهدوا بعد ذلك ظهور بولنديين تحولوا إلى روسيا ، وأخيراً رعايا أصليين القيصر . وفي اليوم التالي لبولتافا ، كانت روسيا تجتذب أنظار كل أوربا . وبدأ الممثلين الدائمين لبطرس الأكبر في القيام بدور في العواصم الأجنبية ، لدى الوزراء الرئيسيين للدول .

الفصل الثاني والعشرون
خارج أوربا .

١ - الهند :

كان مصير الهند ، هو الذى يجتذب الإنتباه بشكل عام فى قارة آسيا ، فى القرن الثامن عشر ، وكما كان عليه الحال فى الفقره السابقة . وظهر عهد حكم عظيم مرة أخرى أمام أنظارنا . ومن بعيد ، جاءت شهرة أورانج زب Aureng - Zeb ، المعاصر للوى الرابع عشر ،لكى تطغى حتى على شهرة السلطان أكبر Akbar . فأصبح الأوربيون يسمعون كثيراً عنه.وأصبحت لديهم الإمكانية لمعرفته بدرجة أفضل ، نتيجة لشهادات المسافرين ، وخاصة الفرنسيين منهم ، والذين كانوا ، فى الوقت الذى بدأت فيه الأوساط المتاجرة فى الإقامة قرب الهند قد ذهبوا لجمع كمية من الأنباء الهامة من نفس الموقع .

ومنذ وقت أكبر حتى وقت أورنج زب ، كان سلاطين المغول قد حافظوا على قوتهم ، وزادوها تدعيماً ، ووقفوا فى وجه الثورات ، وفرضوا أنفسهم على الشعوب التى لم تكن قد خضعت بعد . وكانت كل قوتهم تتمثل فى جيشهم ، الذى كان يتكون فى غالبيته العظمى من عناصر تركية ،أى من المرتزقة المسلمين ، الذين لم يكن لهم أى ميل للهندوس أو المسيحيين .

وكان أورنج زب (١٦٥٨ — ١٧٠٧) قد تمرن طويلا على فن الحرب قبل أن يصل إلى الحكم . فتمرن أولا ضد الأفغان ، فى الوقت الذى كان يمارس فيه سلطات نائب السلطان فى غرب السلطنة : ولقد إضطر من ناحية أخرى إلى أن يهزم ، فى عام ١٦٤٧ ، فى معركة فى بلخ ، بعيداً عن حدود الإمبراطورية ، وإضطر إلى أن يقوم بعملية إنسحاب ضخمة عبر ممرات جبال كوش الهندية . ثم

قام بعد ذلك بمهاجمة الفرس،الذين كانوا قد إحتلوا مدينة قندهار،فى أفغانستان؛ ولم يتمكن من غزوها إلا بعد عملى حصار ، متتاليتين ، فى عام ١٦٤٩ ، وفى عام ١٦٥٢ . وقام أخيراً ، فى عام ١٦٥٦ ، وفى قلب الدكن ، بمهاجمة وبمحاصرة جولكوند ، تلك المدينة التى إشتهرت بكنوزها الخرافية . وقام بنهبها ، ثم نفذ أوامر والده، وأعاد إليها حريتها نظير دفع جزية مرتفعة . وعاد إلى نفس المسألة فى عام ١٦٨٧ ، أى بعد ثلاثين عاماً ، وإستولى على جولكوند بعد سبعة أشهر من الحصار ، وقام بتخريبها .

أما تجاه الأوربيين ، والذين كانوا يأتون للمتاجرة فى الموانى ، والذين كانوا يطلقون عليهم إسم « الفرنجى » — وبخاصة تجاه البرتغاليين الذين كانوا جيراناً قريبين لإمبراطورية المغول — فلم يكن فى وسع أورنج زب ، مثله فى ذلك مثل أسلافه ، أن يظهر سوى قلة الثقة ، ويحاول الابتعاد عنهم ، إذ أنهم كانوا مسيحيين ، وبالتالى أعداء الاسلام التقليديين . ولكن مصلحته كانت تملى عليه ضرورة إرضائهم . وفى الوقت السابق له،كان هؤلاء الأجانب قد زودوا سلاطين المغول بالرجال المكلفين بالاشراف على صناعة أدوات المدفعية ، ويتولى بعض القيادات فى الجيش . ومن ناحية أخرى ، كانت عملياتهم التجارية فرصة لتحقيق أرباح مختلفة للخزانة ، من إستلام رسوم جمركية ،أو إعطاء تنازلات بتصريحات مختلفة . ولذلك فإنه لم يفكر فى أن ينتزع منهم تلك المواقع المحصنة التى كانوا قد أنشئوها على السواحل من أجل حماية مراكزهم التجارية . وكانت قوة المغول برية بشكل أساسى،أما الطرق البحرية فكانت عملياً خارج نطاق سيطرتهم . ومنذ أن كان أورانج زب نائباً للسلطان فى الدكن ، كان قد حاول ، فى شبابه ، أن يأخذ من البرتغاليين ، المقيمين فى سورات وفى بمباى ، أحد المواقع الموجودة بينهما ، وهو موقع دمان ؛ ولكنه إضطر إلى سحب قواته بعد ستة أشهر من

محاصرته . ولن تتكرر أية محاولة من هذا النوع خلال حكمه .

وفى البنغال ، كان عليه ان يحسب حساباً لمجموعة من القراصنة الاقوياء . وكان هؤلاء القراصنة،الذين يسمون ماجز،يضمون عدداً كبيراً من البرتغاليين، ويقيمون فى شيتاجونج ، عند مصب الجانج ، ويقومون من هناك بهجماتهم فى المياه القريبة . وكانت عملياتهم من القوة بشكل أجبر أورنج زب ، بعد بضع سنوات من توليه العرش ، على أن يعلن عليهم الحرب . ولكنه سرعان ما وجد أن هذا العمل يزيد عن طاقة القوة التى كانت له على البحر . ولذلك فإنه إستنجد بالهولنديين ،فى بتافيا . وكان هؤلاء الاخيرون قد تعددوا على أمر قياس قوتهم بقوة البرتغاليين ، منافسيهم فى المحيط الهندى ، فإستجابوا له بسرعة . وكان مجىء بارجتين حربيتين كافياً لاخافة القراصنة . وبعد ان ارسل إليهم السلطان إنذاراً ، قبلوا دفع غرامة ضخمة ، وقبلوا الدخول فى خدمته . وبعد قليل ، تم عزل ملك اراكان ، حليفهم ، من حكم بلاده ، التى ضمت إلى إقليم البنغال .

وإذا ما تركنا جانباً اولئك التابعين الكبار غير الخاضعين - وكان احدهم هو ملك آسام ، الذى اظهر قوته بشكل خاص فى عام ١٦٦٣ — نجد انه كان على اورانج زب ان يتعامل بنوع خاص ، وكما عمل سلاطين المغول السابقين ، مع الأفغان . ولقد إستمرت الحرب ضدهم ، وبلا إنقطاع ، من عام ١٦٦٧ حتى عام ١٦٧٨ : وكانت حرباً صعبة،فى بلاد جبلية،ولا توجد فيها طرق مواصلات ؛ ولم يكن للأمير الذى كان يحكم فى كابول سوى سلطة إسمية . وكانت القضية المطروحة هى نفس المشكلة التى كان على الصينيون ان يواجهونها ،هم أيضاً ، على حدودهم الغربية : وهى العمل على فرلك الاحترام ، وإن امكن كسر شوكة القبائل التى كانت تعمل على السلب والنهب ، والتى كان جوارها لبلاد أكثر ثروة واكثر حضارة يثير اطماعها . واخيرا ، تم إرسال احد مندوبى سلطان المغول

إلى كابول ، حيث تمكن من ان يمارس سلطاته فى هدوء نسبى،حتى عام ١٦٩٨ . ورغم ان افغانستان كانت تعتبر على انها منطقة نفوذ لفارس ، إلا انه لم تنشب عمليات عسكرية ضد الشاه ، الذى اظهر عدم إهتمام بالمنطقة الشرقية من البلاد .

ولقد حدث كذلك فى عهد اورنج زب ، وفى المنطقة الشمالية الغربية من شبه القارة الهندية ، ان ظهر اعداء اشداء واقوياء لسلاطين المغول ، هم المهراتا . وكانوا قد حضروا من منطقة غات الغربية ، وتمكنوا من ان يقيموا ، إبتداء من منتصف القرن ، ومع سلطة سيواجى Siwagi رئيسهم النشط ، دولة فعلية ، هى مملكة مهراسترا ، التى سرعان ما سوف تعرف باسم «سلطنة المهراتا» . ولقد ظل سيواجى ، منذ عام ١٦٦٠ تقريباً ، وحتى وفاته (١٦٨٠) ، هو الخصم الأكبر لأورنج زب . وكان له جيش قوى ، ويتعامل معاملة الند للند مع سلطان دلهى . وتتمثل المرحلة الأولى والرئيسية من ذلك الصراع ، والذى سوف تتواجهون فيه لفترة سنوات ، فى إستيلاء المهراتا على سورات . وكانت سورات مدينة عزيزة على المسلمين — فكانوا يسمونها «ميناء مكة» — وإتخذها الغزاة قاعدة لعمليات عنف شديدة ، كان الأوروبيون ، من برتغاليين ، وهولنديين ، وإنجليز ، يشاهدونها كمجرد متفرجين .

وفى عام ١٦٧٧ ، وصل الحال بالفرنسيين فى بوندشيرى ، والذين كانوا معرضين لتهديد بعض جيرانهم ، إلى ان يطلبوا حماية المهراتا ؛ وإحتفظوا بهذه العلاقة ، تحت خلفاء سيواجى ، حتى عام ١٦٩٣ . وفى اثناء الحرب ضد المهراتا ، تمكن اورنج زب من ان يضم ، فى قلب شبه القارة ، كل من مملكتى بيجابور وجولكوندا (١٦٨٦ — ١٦٨٨) . وإعتقد فى انه قد اخضع الكارناتيك ، فى بعض الأوقات ، إلى الجنوب أكثر من ذلك . والواقع ان جنوب شبه القارة ، وفيما وراء كريشنا ، لم يخضع لسيطرة سلاطين المغول بشكل فعال .

وكان السلطان المغولى الذى يحكم فى دلهى يحظى ، فى آسيا ، وفى جميع أنحاء العالم ، بهيبة لامثيل لها . وكانت السفارات تصل تباعاً إلى بلاطه ، وكانت هناك مراسم خاصة ودقيقة لإستقبالهم . وكانوا يتنافسون ، بالهدايا ، فى الحصول على رضاء سيد الهند . فقام الهولنديون ، والذين كانت ثروتهم تثير دهشة أوروبا ، بأن قدموا له ، وعلى سبيل المثال ، تحفاً من الصين ومن اليابان. أما حكام الحبشة ، فإنهم قدموا لممثله هدايا فاخرة من المصوغات المصنوعة فى بلادهم ، علاوة على مجموعة من الخيول الأصيلة ، وعدداً من العبيد السود .

٣ ـ فارس :

وفى فارس ، نرى أن بداية القرن كانت قد تفتحت على حكم هام، هو حكم عباس الأول ، أو عباس الكبير (١٥٨٩ — ١٦٢٨) وكانت هذه هى فترة أوج عظمة الصفويين . وكانوا يحكمون مساحة تزيد على ثلاثة آلاف كيلومتر مربع . ومع هذه الشخصية أصبحت فارس هى قلعة المذهب الشيعى ، وقامت بحروب عديدة ضد العثمانيين ، المدافعين الأقوياء عن المذهب السنى . وكان الهدف الرئيسى لهذه الحروب — والتى ذكرنا الرئيسى من بينها — هو إمتلاك بلاد الرافدين ، والأقاليم المجاورة للقوقاز . ولقد خسر الفرس بغداد مرة أولى فى عام ١٥٣٤ ، ثم فقدوها بشكل نهائى فى عام ١٦٣٩ .

ولم يقصر عباس إرسال حملاته العسكرية على الغرب فقط ؛ فكان عليه أن يواجه ، فى الشمال الشرقى ، خصوماً سنيين ، أقوياء الشوكة كذلك ، هم أوزبك التركستان ؛ فعمل على توسيع مساحة دولته بشكل واضح على حسابهم ، وكان رئيساً لدولة إسلامية ضخمة ، ولكنه لم يظهر أى مشاعر عدائية تجاه المسيحيين . وكان يستقبل رجال البعثات الدينية ، ويسمح لهم بإرتداء الملابس الخاصة بجماعاتهم ، وبالقيام بالوعظ ، وإقامة الصلوات . وكان الفرنسيون هم الذين

أفادوا من ذلك بنوع خاص ، نتيجة لقوة الدفع التى أعطاها الأب جوزيف ، صديق ريشيليو ، والذى كان يعاونه أحد الكابوشيين الآخرين ، وهو الأب باسيفيك دى بروفانس ، والذى كان قد سافر كثيراً فى الهند أعطوها للجهودات الكاثوليكية فى الخارج .

ولقد تميز هذا الحكم الطويل بازدهار عام فى الحضارة .فأصبحت أصفهان، العاصمة ، مدينة من أجمل مدن العالم ، ومن أكثرها سكاناً ، وفى نفس الوقت مركزاً هاماً للتجارة . وأصبحت أكبر سوق للحرير فى الشرق . ومن ناحية أخرى ، أصبحت المنسوجات القطنية والأحجار الكريمة الآتية من الهند (والتى يمكننا أن نضيف إليها الزمرد الإيرانى) ، يتم تبادلها فيها نظير المصنوعات الأوروبية، وبخاصة المنسوجات . وكان فيها الكثير من التجار من كل البلاد ، من يونانيين ، وأتراك ، وأرمن بنوع خاص . وكان الأرمن ، الذين خضعوا لإضطهاد السلطات العثمانية فى بلادهم ، يحضرون منذ بداية القرن ، طالبين اللجوء إلى فارس ، وبأعداد كبيرة . وكانوا يقيمون فى أصفهان ، وسرعان ما أصبح الحى الذى يقيمون فيه من بين أكبر أسواق الشرق الأدنى .

وكان هناك مركز آخر هام للتجارة بين أوربا وبين آسيا ، من قبل ، فى جزيرة هرمز . وكنا قد رأينا البرتغاليين ، الذين أقاموا فيه منذ وقت ألبوكيرك Albuquerque ، قد طردهم الشاه عباس ، بمساعدة الانجليز ، الذين حصلوا ، منذ عصر الملكة اليزابيث Elisabeth على إعتراف الفرس بجميلهم ، بعد أن علموهم فن صب المدافع وإستخدامها . وبعد إخلاء موقع هرمز ، ثم تخريبه ، فى عام ١٦٢٣ ، ستصبح مدينة بندر عباس ، والتى إنشئت على الساحل المجاور ، وبعد وقت بسيط ، وقد ربطت بأصفهان بطريق جديد . فتصبح بدورها

مكان إلتقاء كل تجار منطقة الشرق الأوسط . وبالقرب منها ، كان صيد اللؤلؤ، فى البحرين ، يغذى حركة تجارية مربحة للغاية .

ووجد الخلفاء المباشرون للشاه عباس بعض الصعوبة فى المحافظة على فتوحاته. وساعد ضعفهم على زيادة إظهار قوة الشاه الكبير ، فى بداية القرن . وكان نشاطهم الحربى يتجه بنوع خاص إلى ناحية الشرق ، وحيث كان من الضرورى فرض إحترامهم على قبائل الأوزبك فى التركستان ؛ وحيث كانت مدينة قندهار، فى أفغانستان ، قد أخذت ، ثم أعيد غزوها ، مرات عديدة . وفى بداية القرن، تحرر الأفغان من كل تبعية تجاه أصفهان .

٣ ـ اليابان والصين :

كانت اليابان ، والتى كانت قد إنفتحت قليلا للاوربيين ، عند أواسط القرن السابق ، قد عادت إلى الإنغلاق شيئاً فشيئاً من جديد ، عند بداية القرن السابع عشر . وكان رجال بعثات التنصير ، هم أول القادمين الذين كانوا قد أثاروا عداء السلطات ، نتيجة لتطرفهم فى عمليات دعوتهم : فصدر مرسوم عام ضدهم لتحديد نشاطهم فى عام ١٦١٤ . ونجح التجار فى أن يظلوا هناك لفترة أطول قليلا . وجاء الهولنديون ، ثم الانجليز ، فى بداية هذا القرن ، لكى ينافسوا البرتغاليين والاسبان فى الموانى التى كان قد سمح لهم بالعمل فيها : ونجحوا حتى فى ذلك الوقت ، الذى إنغلقت فيه الامبراطورية ، فى عام ١٦١٦، فى وجه كل الكاثوليك . ولم يعد أمامهم ، منذ عام ١٦٢٤ . سوى مينائين مفتوحين للتعامل ، هما هيرادو ونجازاكى . ونتيجة لثورة مسلحة قام بها اليابانيون الذين كانوا قد تحولوا إلى المسيحية ، صدرت قرارات فى عام ١٦٣٨ بطرد عام لكل الأوربيين . وفى العام التالى ، وصلت سفارات برتغالية لكى تحاول الحصول على تغيير هذا القرار : فتم وضعهم فى السجن ، ثم إعدامهم .

ولمدة قرنين ، سيكون ميناء واحداً صغيراً، ميناء ديشيما ، فى خليج نجازاكى، هو الميناءالوحيدالمفتوح لإستقبال التجارالهولنديين ، وبشرط قاطع يقضى بعدم قيامهم بممارسة أى طقوس خارجية لدينهم .

وإبتداء من الوقت الذى إنتهت فيه ، فى عام ١٦١٥ ، الحرب ضد الصين ، من أجل كوريا ، إستمرت دولة «الشوجون» فى تطورها الداخلى ، بكل هدوء . ولم تعد هناك صدامات دموية تقع بين اليابانيين وبين جيرانهم على القارة . أما بالنسبة لغرب أوربا، فإن سحر الحضارة لم يكن له عليها سوى تأثير بسيط. وكان أمر إستيراد الكتب منها يخضع لقرارات ولوائح فى منتهى الصرامة . وحين تبدأ الحواجز أمامهم فى الإنخفاض ، فى أثناء القرن الثامن عشر ، سيكون ذلك فى صالح الذين يتعاملون مع العلوم التجريبية ، وحدهم .

وفى الصين ، تميز وسط القرن بتغيير فى الأسرة الحاكمة : فأخذت أسرة Tsing مكان أسرة مينج Ming ، فى عام ١٦٤٤ ، وذلك بعد فترة من الفوضى، والحروب الداخلية ، التى إستمرت لمدة ثلاثين عاماً . وكانوا من أصل مانشو . وعند نهاية القرن السادس عشر ، وبداية القرن السابع عشر ، كانت قبائل المانشو قد نظمت نفسها فى شكل دولة مركزية ، أصبحت موكدن عاصمة لها ، فى عام ١٦٢١ . وهذه الدولة الجديدة ، والتى كانت خاضعة للصين لفترة من الوقت، مالبثت أن فكرت فى الإستقلال وفى التوسع . وتم إعلان أحد ملوكها إمبراطورا فى عام ١٦٣٦ . وقام بعد فترة بالهجوم على كوريا ، وكانت أقليما آخر خاضعا للصين كذلك، ونجحت فى فرض سيادتها عليه . ثم قام أحد قادة المانشو بالتدخل بقواته فى الحرب الأهلية التى كانت منتشرة فى الصين ، ورفع نفسه ، فى عام ١٦٤٤ ، إلى المكان الذى كان يحتله آخر أسرة مينج . وكان على أسرة تسينج أن تعيش مدة طويلة ، مادامت قد ظلت تحكم حتى عام ١٩١١ .

وكان الخصم الرئيسى الذى بدأت الصين بتوجيه مجهوداتها ضده ، يتمثل فى بعض القبائل المحاربة ، من أصل مغولى ، والتى كانت تسكن وسط القارة . وقام الإمبراطور كانج هى Kang - hi ، وهو أحد معاصرى لوى الرابع عشر(١٦٦٢ — ١٧٢٢) ، بمحاربتهم لفترة طويلة ، وحاول بلا جدوى أن يفرض عليهم سيادة الصين .

ومن ناحية أخرى ، نجح كانج هى فى أن يضم للامبراطورية جزيرة فرموزا الكبيرة ، والتى كانت قد ظلت مستقلة حتى ذلك الوقت . وبعد أن كانت قد سقطت فى أيدى الهولنديين فى عام ١٦٢٤ ، جاء أحد المغامرين لكى ينازعهم أمر السيطرة عليها ، وجعل منها وكراً للقراصنة ، فى عام ١٦٦١ ، الأمر الذى أغضب الصينيين . وسرعان ما أظهرت القرصنة الصينية أنها على نفس شدة خطورة القرصنة اليابانية فى الماضى . ولكنها لم تستمر إلا لفترة قصيرة : فلقد إضطر كانج هى إلى أن يتخلص من منافس قوى ، فإحتل فرموزا ، وفرض عليها سيطرته .

وإستمر الهولنديون فى المتاجرة مع الصين . وسمح لهم إحتلال فرموزا بأن يحصلوا فى السوق الصينى على ميزات مشابهة لتلك التى كان يتمتع بها البرتغاليون فى مكاو . ولقد إضطروا ، بعد عام ١٦٦١ ، إلى أن يلتجوا إلى طرق غير مباشرة ، حتى يستمروا فى المتاجرة مع الصين ، وكانت طرقاً سرية : فأصبح المهربون الصينيون يحضرون لهم منتجات بلادهم إلى بتافيا . وكان الشعبان قد خلقا من أجل أن يتفاهما ، وأن يقدر كل منها الآخر : فكان الصينيون يعتقدون فى أن كل الأجانب كانوا أعمياء فى شئون التجارة ، إلا الهولنديين ، الذين كانوا مبصرين وبعين واحدة ؛ أما الصينيون أنفسهم فكانت لهم عينان .... ذلك أن الهولنديين كانوا ، وعلى خلاف كل الشعوب الغربية الأخرى ، يتركون جانباً ،

وفى علاقاتهم مع الشعوب الصفراء ، كل مشغولية لها طابع دينى ، ويمتنعون عن القيام بأى عمل فى ميدان التنصير .

ولم يصبح للأمة الفرنسية ممثلين ثابتين على سواحل الشرق الأقصى إلا بعد إقامة منافسيهم هناك بفترة طويلة . وتم إنشاء «شركات صين» عديدة ، وعلى التوالى ، فى الفترة الأخيرة من حكم لوى الرابع عشر . وكانت الشركة الثالثة فقط من بينها ، وهى التى كانت قد أنشئت فى لاروشيل ، فى عام ١٧٠٢ ، هى التى عرفت النجاح . فوضعت أقدامها فى كانتون ، إلى جانب إحدى الشركات الإنجليزية ، وشركة هولندية .

وفى العلاقات بين الصين وبين روسيا ، كان حكم الامبراطور كانج هى يمثل نقطة تحول . فسيتم فى عام ١٦٨٩ عقد معاهدة صحيحة ، والتوقيع عليها بين القيصر وبين إمبراطور الصين .

وشيئا فشيئاً ، وببطء كبير ، تعلم الروس والصينيون كيف يعرفون بعضهم البعض . ولفترة طويلة ظلوا ، فى موسكو ، لا يفرقون بين سيد إمبراطورية الصين القوى وبين صغار الملوك والسلاطين الآسيويين فى الوسط وفى الغرب ، والذين كانوا يدخلون معهم ، فى بعض الأوقات ، فى صلات . فكانوا يسمونهم جميعاً باسم «خان» . ولم تصل عملية التوسع الروسى فى إتجاه الشرق إلى مواجهات مسلحة مع الصينين إلا حينما وصل هذا التوسع إلى نهر آمور ، فى النصف الثانى من القرن ؛ وحتى فى هذا الإتجاه ، لم تكن هناك سوى قوات غير نظامية . ولم تكن الأمة الروسية ممثلة هناك ، وحتى ذلك الوقت ، وفى هذه المناطق السيبيرية البعيدة إلا بعدد من التجار . وكان ما يجذبهم ، وحتى أكثر من الحرير ، هو الذهب والفضة التى كانت تستخرج من مناجم الصين .

أما التوغل العسكرى ، والذى كان قد بدأ مع يارماك Yarmak عند نهاية

القرن الماضى ، فإنه إستمر بكل بطء ، وكان صانعوه الرئيسيون هم دائما القوزاق، أما المستفيدين منه فكانوا صيادى الفراء . ووجد التتار أنفسهم وقد دفعوا ، شيئا فشيئا فى الأستبس ، فى وسط القارة وفى جنوبها . وكانت عملية الإستيلاء على بلاد سيبيريا قد تميزت بنوع خـــاص بإنشاء المعسكرات المحصنة ، أو «أوستروج» ، والتى كانت الحكومة ترسل إليها فى بعض الأحيان عدداً من المعتقلين السياسيين ، أو من مجرمى القانون العام ، لكى يعيشوا فيها . وحين بدا أن أمر عودة هجوم التتار قد أصبح غير متوقع ، تطورت هذه المعسكرات إلى مدن : إينيسييسك فى عام ١٦١٨ ، وكراسنويارسك فى عام ١٦٢٨ ، وإياكوتسك فى عام ١٦٣٢ . وحين وصلوا إلى منطقة لينا ، أخذ التقدم إتجاهين فى نفس الوقت ، صوب الشمال نازلين مع النهر ، وصوب الجنوب ، صوب بايكال ، والتى ظهرت على ضفافه مدينة إيركوتسك فى عام ١٦٥٢ .

وإتجهت حملات عديدة ، وكانت بعضها بقيادة باسكوف Psakov ، حاكم إينيسييسك ، ونزلت نهر لينا ثم عبرت جبل ستانوفوى، صوب البلاد التى تسكنها «الداورى» . وكان أمر تركيز الأقدام فى هذه المنطقة يعنى تسهيل المهمة الدقيقة الخاصة بالتموين : خاصة وأن الحبوب كانت متوفرة هناك . ولكن الصعوبات كانت على درجة من الضخامة حتى أن حملات كبيرة فى سنوات ١٦٥٦ — ١٦٦٠، ظلت بدون نتيجة تقريباً .

وإلى الجنوب أكثر من ذلك ، تكللت مجهودات أوائل المستعمرين بالنجاح . وفى عام ١٦٦٥ تم إنشاء مدينة جديدة على نهر آمور ، بواسطة أحد قادة القوزاق المسمى خباروف Khabarov ، والذى سيعطى إسمه لمدينة أخرى ، أبعد من ذلك ، وتسمى خباروفكا . وإبتداء من سنوات ١٦٧٠ ، أصبح لإقليم ألبازين حاكماً عاماً ، يعينه القيصر . ولكن الحملات التى كان يقودها فى المناطق المجاورة

أثارت قلق حكومة بكين ، وجعلت كانج هي يقرر ضرورة التدخل . وفي عام ١٦٨٥ ، كان على السلاح أن يسوى أمر هذا الخلاف . وقام جيش صيني ، مزود بثمانمائة مدفع ، بمحاصرة الحامية الصغيرة التي كانت قد أقفلت على نفسها داخل مدينة ألبازين ، وأجبرها على التسليم . ولكنه منحها حق الإنسحاب ؛ وسار بها قائدها صوب الغرب ، في إتجاه بايكال ، وإلى موقع نيرتشنسك الحصين . وعاد إلى الهجوم من جديد في العام التالي : فإستتبع الأمر حصاراً جديراً لمدينة ألبازين ، والتي تحولت ، بعد فترة ، إلى مجرد إستحكامات ؛ ثم رفع الحصار ، بأمر من الحكومة ، بعد أن كانت المفاوضات قد بدأت مع موسكو من أجل تحديد خط الحدود ، وعقد معاهدة سلام . أما المعاهدة ، التي تم التوقيع عليها في نيرتشينسك ، في ٢٧ أغسطس ١٦٨٩ ، فإنها كانت ، في نفس الوقت الذي تسهل فيه وتنظم العلاقات التجارية ، تحدد خط الحدود مع مجرى نهر آمور . ولذلك فإن مدينة ألبازين ، والتي كانت قد أنشئت على الضفة اليسرى للنهر ، وسيتم تخلي الروس عنها : وسوف تحرق بعد سفرهم منها . وكان بعض اليسوعيين هم الذين عملوا كوسطاء في هذه المفاوضات . ذلك أن الصينيين كانوا لا يفهمون اللغة الروسية ، بينما كان الروس لا يتحدثون اللغة الصينية ، ولا لغة منشوريا .

وماذا كانت عليه ، في ذلك العصر ، مواد التبادل التجاري بين الصين وبين روسيا ؟ إنه سؤال ليست لدينا مادة موثوق بها للاجابة عليه . وعلى كل حال ، فإن المصنوعات الحريرية كانت تحتل مكاناً هاماً في الإتجاه من الشرق إلى الغرب . أما فيما يتعلق بالشاي فإنه من الصعب الإجابة عنه إجابة مؤكدة . فلقد كتب أحد المؤرخين الروس ، منذ بضع سنوات : « كان أول شاي قد وصل إلى باريس في عام ١٦٣٦ ، وقبل ثلاثة وعشرين عاماً من وصوله إلى موسكو » . وكان هذا التأكيد متناقضاً ويصعب الوثوق فيه : ذلك أن أحد الرحالة الإنجليز في سنوات ١٦١٠

أشار إلى حب الروس لهذا المشروب . وتذكر بعض الوثائق ، بعد التوقيع على معاهدة نيرتشنسك ، طريقا للشاى عبر منغوليا، ماراً بأورجا وكياختا. وفى الحقيقة يمكن أن يتعلق الأمر بمجرد عملية تصدير للشاى فى إتجاه التركستان .

أما مع بلاد أوربا ، خلاف روسيا ، فإن تجارة الصين كانت تتم كلها تقريبا عن طريق كانتون ، والتى كانت الشركة الإنجليزية للهند قد حصلت،فى عام ١٦٣٤ ، على تصريح بأن ترسل إليها السفن،من وقت لآخر. ثم قامت بعد ذلك بانشاء مراكز تجارية لها ، إلى الشمال أكثر من ذلك ، فى آموى ، وفى فوتشيو . أما فى كانتون ، فإنه لن يكون لها مركزاً خاصاً بها ، ومصرح به رسمياً ، إلا فى عام ١٦٨٤ .

ولم تكن لأية حكومة ، ولا حتى حكومة لندن ، علاقات دبلوماسية مستديمة مع بكين . أما حكومة لشبونة ، والتى كان يمثلها نائب للملك فى جوا ، وحكومة لاهاى ، والتى كانت تترك كل السلطات لرجال شركة الهند ، فإنهما كانتا ترسلان سفارات ، من وقت لآخر. وأما لوى الرابع عشر،فإنه كتب إلى كانج هى خطابات بروتوكولية بحتة . ولقد إستمر اليسوعيون يرعون المصالح الفرنسية فى الصين ، وكان كانج هى يظهر لهم كل مظاهر التعاطف . وكان هو الذى طلب إليهم أمر زيادة عدد أعضاء البعثة الدائمة فى بكين ،وهو ما تم فى عام ١٦٨٨ .وكان أحد أعضائها، وهو الأب فيربيست Verbiest من أصل هولندى ، وكان قد وصل هناك فى عام ١٦٥٩ ، وقدروه نتيجة لمعرفته بالفلك ونتيجة لخبرته بصناعة المدافع ، فى نفس الوقت : ذلك أن الصين كانت قد بدأت ، منذ ذلك الوقت ، فى صب المدافع ؛ وإستخدم كانج هى القطع الأولى التى تم صنعها محلياً فى قمع إحدى الثورات .وأصدر فى عام ١٦٩٢ مرسوماً يسمح بالممارسة العامة لشعائر الدين المسيحى فى جميع أنحاء الإمبراطورية .

٤ - المسيحية واليسوعيون فى آسيا :

لقد أشرنا ، أثناء دراستنا للقرن السادس عشر، إلى أن الإسلام كان قد حصل، عبر الزمن ، على مواقع هامة فى جنوب آسيا . ولقد إتسعت هذه المواقع بشكل واضح فى أثناء القرن السابع عشر ، وبخاصة فى الصين ، وذلك بالتوافق الذى تم بين الاسلام وبين معتقدات الأهالى وحاجياتهم .وفى نفس الوقت، إنتشرت المسيحية بدورها . ولم يكن لها حتى ذلك الوقت الكثير من أتباعها إلا فى الهند ،على ساحل مالابار ، وبوجه التحديد حيث كان الاوروبيون قد نزلوا فى أثناء القرن السادس عشر ، وحيث كانوا قد أقاموا مراكزهم الأولى . وكذلك كان الحال فى اليابان. ولكن كل مابقى فى ذلك الوقت قضى عليه ، كما رأينا ، بحركة رد فعل عنيفة ،بعد بداية القرن بقليل .

وإتجهت مجهودات التنصير بعد ذلك صوب جنوب شرقى القارة بنوع خاص . وبعد أن كان الأمر متروكاً حتى ذلك الوقت لمجهودات الجماعات الدينية الكبيرة ـــ وكانت جماعة اليسوع قد قامت فى هذا المجال. ومنذ تأسيسها، بدور متفوق ـــ ، ستقوم روما منذ ذلك الوقت بتوجيهه ؛ وكانوا قد أظهروا هناك بعض الغيرة من ذلك الدور الذى كانت بعض الحكومات قد لعبته ، وبخاصة حكومة البرتغال . ومنذ عام ١٥٣٤ ، حصلت جوا على أسقفية ، ثم تحولت إلى رئاسة أسقفيات فى عام ١٥٥٨ ، ولها مركزان مساعدان فى كوشين وفى ملقا . وبعد ذلك، تم إنشاء أسقفية أخرى ، فى عام ١٥٧٦ ، فى الأراضى التابعة للبرتغال ، فى مكاو ، وهى التى سميت بعد ذلك «بأسقفية الصين» . وتم فى عام ١٦٢٢ إنشاء هيئة خاصة ، أنشأها البابا جريجوار الرابع عشر Grégoire XIV ، وهى هيئة الدعوة الرومانية Congregation romaine de la propagande ، — وسرعان ماسوف تسمى بالدعوة Propagande — والتى كانت تتكون من ثلاثة عشر كادينالا ،

ولها سلطة عالمية على عالم البعثات الدينية التى تعمل خارج أوربا . وكان معنى ذلك ميلاد نظام جديد يأخذ مكان ذلك النظام الذى كان يسمى بنظام المطمين Patronat ، والذى كان يسمح لملوك الدول المستعمرة بأن يشرفوا على البعثات الدينية التى كان رعاياهم يكونونها أو يطلبون حمايتها .

وبدأ حاملو الإنجيل فى النزول فى سيام وفى الهند الصينية ، فى نفس الوقت تقريباً . ولقد إحتفظت لهم سيام باستقبال طيب ، ولم تساوم معهم : فتمكن اليسوعيون الذين أرسلوا إليها من جوا أن ينشئوا لهم ، ومنذ وصولهم ، دوراً وكنيسة . أما فيما يتعلق بالهند الصينية ، فان علينا أن نميز بين دولة ودولة أخرى فيها . فعلاوه على تونكين والكوشين صين — وكان لهما إستقلال داخلى كامل فى النطاق الواسع لإمبراطورية آنام ، التى لم يعد لها ، فى مجموع شبه الجزيرة إلا تفوقاً شرفياً — علينا أن نضيف الكامبودج . والتى كان يسكنها شعب يختلف فى أصله عنصرياً ، والتى كانت معرضة بإستمرار لعمليات الغزو من سيام . وكان أهالى تونكين وأهالى الكوشين صين ، من ناحيتهم ، فى حروب دائمة فيما بينهم . ولقد وافق الأخيرون ، فى عام ١٦١٥ ، على مجىء اليسوعيين الفرنسيين ؛ وتم تنظيم إرسالية (بعثة دينية) الكوشين صين بواسطة الأب إسكندر دى رود Alexandre de Rhodes ، والذى كانت له فترة نشاط دينى خصبة للغاية وبعد ذلك ، وإبتداء من عام ١٦٢٧ ، تمكن كثير من رجال بعثات التنصير من أن يصلوا إلى تونكين أيضاً . وهكذا نشأت مجموعات مسيحية على التوالى فى هانوى وفى سايجون . وفى عام ١٦٤٥ ، وصل إسكندر دى رود إلى روما لكى يطلب المعونة ، وأكد أن عدد المسيحيين فى آنام كان يزيد سنوياً بحوالى ١٥٠٠٠٠ نسمة.

وكان تطور نظام الـ Patronat هو الذى أدى إلى نشأة نظام «الراعى الرسولى» Vicariats rpostoliques ، والمرتبط مباشرة بالكرسى البابوى، منذ عام ١٦٥٨،

وكان الدافع الأساسى لذلك هو رغبة الحكومة البابوية فى التخلص من وصاية البرتغال التى كانت تثقل منذ قرن على كاهل عالم البعثات الدينية فى آسيا . وساعدت ذكريات الخدمات الكبيرة التى قدمها اسكندر دى رود على أن يعهدوا لعدد من الفرنسيين بالإشراف على حركة البعثات الدينية . وكان الأسقفان الأولان فى « بلاد الكفار » Partibus infidelium ، واللذان تم تعيينهما فى الكوشين صين وفى تونكين، فرنسيين. ولما كان من الصعب عليهما الإقامة فى مواقعهما بسبب الحرب الأهلية ، فإنهما إنتظرا تطور الأحداث وهم فى سيام ، التى أقاما فيها لمدة سنوات عديدة ، وعلى الرغم من البرتغاليين الذين كانوا تعتبرون أنفسهم هنـاك وكأنهم فى أوطانهم . ولقد أفادوا من ذلك من أجل تنظيم حلقة دراسة « سنمار » وحتى بعد أن نجحوا فى الوصول إلى مقرهم فى الهند الصينية ، كان عليهم أن يقاسوا من سوء تصرفات البرتغاليين ، وعلى الأقل طوال الفترة التى كانت خطواتهم تثير فيها وباستمرار ، أخطار الحرب الأهلية . وفى نهاية الأمر، كانت النتائج أكثر تشجيعاً فى الكوشين صين عنها فى تونكين . وفى عام ١٦٧٣ ، تم إختيار « راعى رسولى » جديد . له سلطات على الصين على سيام ، ومقر إقامته فى نانكين : وكان أول من شغل هذه المسئولية فرنسى كذلك .

وفى سيام ، وكذلك الحال فى الهند الصينية ، وأيضاً فى كل موقـع فى الشرق الأقصى ، لفت رجال البعثات الدينية ــ واليسوعيون بنوع خاص ــ الأنظـار إلى ثروات البلاد ، وأسهموا فى عملية تمهيد الطريق أمام التجار . وكان هنـــاك أجانب آخرون سبقوا الفرنسيين إلى هذه المناطق . ففى أثنـاء فترة من الوقت ، كان هناك فى أيوتيا ، عاصمة المملكة (والآن كونج كاو) ، مركزاً تجارياً للشركة الإنجليزية للهند . ثم إنتقل الإنجليز بعد ذلك إلى بورما المجاورة ، وحيث أصبح وجود منشآتهم هزيلا ، عند نهاية القرن .

ولقد فكر أحد ملوك سيام ، وهو الملك برانا راين Phra - Narain ، فى أن يعيد رفع مكانته فى أعين رعاياه عن طريق توثيق علاقاته الدبلوماسية مع فرنسا . وفى عام ١٦٨٤، تم إستقبال سفارة رسمية فى فرساى، مع المراسم العادية. وسرعان ما رد لوى الرابع عشر على ذلك . وبعد قليل، تم منح إمتيازات للتجار الفرنسيين ، الذين حصلوا على تصريح بالإقامة فى بانجوك وفى مرجى ، وذلك فى الوقت الذى فتحت فيه كل دولة سيام أمام عملية تعليم الإنجيل ونشره. وأرسلت سفارة أخرى إلى فرنسا ، فى عام ١٦٨٦ ، من أجل مناقشة أمر إقامة تحالف بين البلدين ، وأجابت السفن الفرنسية هناك بالمجىء ، وبتقديمها تحية للملك، فى بلاده. ولكن الأمر إنتهى فى غير صالح اليسوعيين ، والذين كانوا هم أول من عمل من أجله . ذلك أن مجىء جنود الملك تتسبب عنه تشجيعهم على الإستمرار فى القيام ببعض المؤامرات ، الأمر الذى أثار فزع المحيطين بالملك . ونتيجة لإحدى ثورات القصر ، تم إخلاء المواقع الفرنسية ، وطرد كل الأجانب . وإنغلقت سيام ، منذ عام ١٦٨٨ ، على نفسها ، كل الإنغلاق .

٥ ـ إفريقية ، والمغرب ، وإثيوبيا :

بالنسبة لافريقية ، لم نشرح فى الفصول السابقة إلا ما يتعلق بنيابات شمال افريقية ، وعلاقاتهم الصعبة مع الدول الغربية . وتركنا المغرب جانبا ، وهو الذى إستمر ، وعلى عكس النيابات ، يحيا حياته مستقلا تماماً، ومتحرراً من أى خضوع تجاه إستانبول . ومثل النيابات ، كان المغرب بلداً من بلاد القرصنة (١) .

---

(١) المؤلف — وهذه الكلمة صححت الآن ، فى الكتابة التاريخية، وتم التفريق بين ما يسمى قرصنة ، وما يسمى « الجهاد البحرى » — المعرب — أنظر : —
د. جلال يحيى : المغرب الكبير — الجزء الثالث .
والمغرب العربى الحديث والمعاصر . الجزء الاول .

وفى المغرب كان القرن السابع عشر يمثل فترة إزدهار عمليات الجهاد البحرى وبخاصة فى سلا . وكان ميناء سلا هو ميناؤها الرئيسى . وشهدت هذه العملية توسعاً جديداً منذ أن جاءت مجموعة من الاندلسيين ، فى عام ١٦٠٧ ، طردهما من إسبانيا فيليب الثالث ، ودعمت أعداد من كانوا يقومون بها . فأنشئوا إلى جوار سلا ، وعلى الضفة الأخرى لوادى بو رقراق، حياً سمى سلا الجديدة، أصبح فيما بعد أساساً لمدينة الرباط الحديثة . وبعد أن زاد عدد أبناء سلا ، وزادت قوتهم ، تحرروا بشكل تام تقريبا من سلطة سلطان مراكش ، والتى لم يكونوا يعترفون بها من الأصل إلا بشكل غير كامل . وكونوا ما يشبه الجمهورية ذات الإستقلال الذاتى ، والتى كانت خاضعة ، من الناحية النظرية ، للسلطان ، ولكنها كانت ، بالفعل ، لا تأبه كثيراً بأوامره .

ولقد إحتفظ الأوربيون مع المغرب ، وكما كان عليه الحال مع نيابات شمال إفريقية ، بعلاقات صعبة . تقطعها من وقت لآخر مظاهرات بحرية ، تكون الكلمة فى أثنائها المدافع . ولــــا كانت هذه المظاهرات البحرية موجهة ضد أبناء سلا وحدهم ، فإنها لم تتسبب فى قطيعة مع حكومة السلطان، والتى كان فى وسعها دائما أن تتبرأ من رعاياها غير الخاضعين . وكانت كل دولة من الدول التى تهتم بأمن الطرق البحرية تقوم بذلك ، فى دورها . وفى أثناء ذلك الوقت،كانت التدخلات الفرنسية ، هنا وكما كانت أمام الجزائر وتونس ، هى الأكثر حدوثا . كما أن الفرنسيين كانوا هم أول من عقد علاقات تجارية منتظمة مع المغرب.فكانوا يحضرون من الهافر ، ومن روان أو من نانت، لإحضار السكر من مزارع الجنوب (وادى السوس) ، وكانوا يحملون معهم المواد المصنوعة ، وبخاصة المنسوجات.ونتيجة لذلك ، وأيضا نتيجة لانتمائهم إلى دولة كانت بشكل عام عدوة لإسبانيا ، تمتعوا ببعض الامتيازات.وإبتداء من عام١٥٧٨ ، أصبح هناك «قنصلا للأمة الفرنسية» يقيم فى فاس نفسها .

ومع ذلك ، فإن المبادلات ظلت تتعرض لصعوبات كثيرة ، بسبب عدم الأمن في البلاد . وظلت الحرب الأهلية مستمرة هناك بشكل دائم تقريبا،وحتى الوقت الذي وصلت فيه ، قرب عام ١٦٦٠ ، أسرة الأشراف العلويين إلى إحتلال مكان أسرة الأشراف السعديين .

وفي خلال السنوات التي سبقت إستتباب الأمن في البلاد ، تمكن بعض التجار الانجليز من أن يحصلوا لأنفسهم « وعن طريق أحد شيوخ منطقة الريف ، على مكان يقع على خليج الحسيمة ، بين تطوان ومليلة . ولكنهم لم يحتفظوا به لفترة طويلة . ونتيجة لحظوة الفرنسيين عند السلطان الجديد ، تمكنوا من أن يحلوا محلهم هناك في وقت معين ، في عام ١٦٦٥ . وبعد ذلك ، أفاد الاسبانيون ، في عام ١٦٧٢ ، من نشوب الاضطرابات من جديد في منطقة الريف ، لكي يضعوا أقدامهم فيها بدورهم . ودعموا إقامتهم هناك : وسيكون هناك ، ومنذ ذلك الوقت ، موقعا « برسيديوس » إسبانيا جديداً في المغرب ، هو موقع الحسيمة .

وعلى العكس من الفرنسيين ومن الانجليز ، ظل الاسبانيون والبرتغاليون يعتبرون دائما في المغرب على أنهم أعداء . وكثيراً ما كانت العمليات العسكرية تنشب قرب هذا الموقع أو ذاك من تلك المواقع التي كانوا قد أقاموها في القرن الماضي . بل ولقد حدث كذلك أن يمر هذا الموقع أو الموقع الآخر من سيد إلى سيد آخر ، وبشكل مؤقت : ولكنها كانت مراحل بدون أهمية كبيرة بالنسبة لتلك التي كان على المغاربة فيها أن يواجهوا غضب أكبر القوى البحرية في ذلك الوقت .

وحينما إستعاد البرتغاليون ، في عام ١٦٤٠ ، إستقلالهم ، لم تشترك كل مراكزهم الاستعمارية ، بكاملها ، في حركة التحرير هذه ، وكانت مزاغان ، وحدها ، هي التي إعترفت مباشرة بسلطة بريجانس . ولم تنضم طنجة لها إلا في عام ١٦٤٣ ،

وذلك فى الوقت الذى ظلت فيه مليلة إحدى الممتلكات الاسبانية . ثم ظهر أن أمر الإحتفاظ بطنجة شديد الصعوبة بالنسبة للدولة الجديدة ، حتى أنها فكرت ، ومنذ وقت مبكر فى أن تتركه . وبعد أن تم عرض الأمر على فرنسا مزوان ،ولم تنتهز الفرصة ، إستداروا بعد ذلك إلى إنجلترا . وبهذه الطريقة إستخدمت طنجه مع بومباى ، كبائنة (دوطة) ، للأميرة التى سوف تتزوج الملك شارل الثانى . أما الانجليز ، الذين إستلموها فى عام ١٦٦٢ ، فانهم لم يحظوا بفترة هدوء فيها خلال الفترة التى إقتربت من عشرين عاما ، والتى بقوا فيها هناك . وسرعان ماقام أحد الشيوخ القريبين منها ، وأعلن الجهاد ضدهم ، وأصبح جنود حاميتهامعرضون للوقوع فى كمائن بمجرد إبتعادهم عن أبواب المدينة . ولما رفض البرلمان الموافقة على المعونات التى كانت تسمح بتنظيم أمنها،أصبح من الضرورى حسم الموضوع فى عام ١٦٨٤ ، والجلاء عن المدينة .

وفى عام ١٦٧٢ إبتدأ فى مدينة مراكش ذلك الحكم الطويل ، الذى سوف يعمل ، فى الخارج وفى الداخل ، على رفع هيبة سلاطين المغرب . ولقد عمل المولى إسماعيل ، الذى عاصر لوى الرابع عشر ـ وسوف يعيش حتى عام ١٧٢٧ ـ على أن يتعامل مع ملك فرنسا على قدم المساواة التامة . وكان فى وسع سكان باريس ، فى عام ١٦٨٢ ، أن يتأملوا لأول مرة فى سفارة مغربية ، جاءت لكى تجدد رسمياً معاهدة ١٦٣١ . وجاءت سفارات أخرى خلال فترة حكمه الطويلة. ولذلك فإن العلاقات الفرنسية المغربية مالت إلى أخذ مسار أكثر إنتظاما مما كان لها فى الماضى . ومع ذلك فانها كانت تضطرب ، من وقت لآخر ، نتيجة لزيادة نشاط حركة الجهاد البحرى . وأصبح من الضرورى ، فى عام ١٦٨٧ ، الاتجاه إلى مظاهرة قوة جديدة أمام سلا . ثم أظهر لوى الرابع عشر ، وبكل رفعة ،عدم رضائه عن الأضرار التى أصابت بعض الرعايا الفرنسيين: فرفض فى عام ١٦٨٩

أن يقابل مندوب السلطان . وفى اليوم التالى لصلح ريزويك ،تم إستقبال سفارة مغربية ثانية فى فرساى ، أما معاهدة التجارة الجديدة والتى إقترحتها فإنها لم تنفذ . وحتى نهاية حكمه ، كانت عملية إرسال السفن الحربية أمام المواق المغربية أمراً تبادلياً مع عملية تبادل السفراء سلمياً .

وكانت علاقات إثيوبيا مع خارج القارة خاضعة دائماً للمسألة الدينية . ولقد تحول الإمبراطور ، فى عام ١٦٢٢ ، إلى المذهب الكاثوليكى . وضعت الطقوس السابقة ، حتى ذلك اليوم الذى قام فيه أحد الأباطرة الجدد ، بعد عشر سنوات ، بإعادة الوضع القائم ، وطرد رجال البعثات الدينية من اللاتين. وعند نهاية القرن، بدأت مسألة المبادلات التجارية فى أخذ أهمية . وتحدثوا فى فرنسا عن إمكانية إقامة منشأة على سواحل البحر الأحمر . وبعد الإتصال بالعاصمة الجديدة ، غوندار ، عن طريق أحد الفرنسيين المقيمين فى القاهرة ، أرسلت إلى هناك سفارة رسمية ، فى عام ١٧٠٤ . وكانت برئاسة نائب القنصل الموجود فى مصر . ولكنها وقعت فى كمين ، عند سنار ، فى الوقت الذى تركت فيه النيل ، وقتل كل أعضاءها . وسيكون من نتائج هذه المأساة ، التى لم تتم عملية عقاب مرتكبيها،وقف كل محاولة، ولوقت طويل ، للتقريب بين إمبراطورية النجاشى وبين أوربا .

أما عن تاريخ التوسع الإستعمارى فى الأراضى الافريقية،والذى كنا قد وقفنا فيه عند أواسط القرن ، فليس هناك الكثير الذى يمكننا إضافته ، فيما يتعلق بعصر لوى الرابع عشر .

ففى أثناء حرب هولندا ، قامت براندبورج ، تلك الدولة الصغيرة للغاية ، بالدخول بدورها إلى الميدان الإستعمارى ، أو حاولت ذلك على الأقل . وكان مثل الأقاليم المتحدة هو الذى دفع إلى ذلك الطريق المنتخب فردريك ويليام ،والذى كان قد تزوج إبنة أمير أورانج . وبعد أن إستشار الهولنديين ،أنشأ فى عام ١٦٧٥

شركة خليج غينيا . وتم إنشاء مركز تجارى ألمانى فى عام ١٦٨٢ على ساحل الذهب. ولم يقنع الهولنديون بتحمل وجوده إلا لبضع سنوات : فاستولوا عليه منذ عام ١٦٨٨ . ولقد وافقوا بعد ذلك ، على بيع هذا المركز ، ذلك البيع الذى سمح بتعويض الشركة .

٦ – أمريكا ، والمحيط الهادى :–

بالنسبة لأمريكا فإننا قد ذكرنا من قبل كل ما هو أساسى ، وعلى الأقل فيما يتعلق بالمنافسة بين الدول الأوروبية . وعلينا أن نتعرض الآن لذلك الدور الذى قام الأهالى ، من الوطنيين بلعبه ، من وقت لآخر. ولم يكن هؤلاء الأهالى يكونون دولا يمكن مقارنتها بتلك التى كانت الأمم الأكثر تحضرا قد أنشأتها. ولكنها كانت تتدخل فى بعض الأحيان فى الصراع ، وعلى الأقل تلك التى كانت أكثر تنظيما من بينها : فكان هذا هو حال إيروكوا ، والتى كانت قبائلها مرتبطة مع بعضها بنوع من الروابط الإتحادية ، حتى أنهم كانوا يسمونهم فى كندا « بالأمم الخمس» .

وكانت قبائل إيروكوا تسكن المنطقة التى يمر فيها المجرى الأعلى لنهر سان لورنت. وكانت أقل تنقلا من غيرها — قبائل هورون وقبائل ألجونكين مثلا — وكانوا يستغلون الغابات ، ويعملون بالزراعة . ومنذ إنشاء مدينة مونتريال ، وجد الفرنسيون أنفسهم على إتصال بهم : فنشبت أول حرب مع قبائل إيروكوا فى عام ١٦٤١ ، وإستمرت حتى عام ١٦٦٦ . وكانت حرب كمائن ومفاجئات ، وكانت أعداد القوى فيها ضعيفة وبسيطة ، من هذا الجانب ، ومن ذاك ، وتميزت بمصير فظيع للأسرى : فكان سلخ جلد الرأس هو أقل تعذيب ينزل بهم . وكانت فرنسا الجديدة تفقد فى كل عام مايقرب من المائتين من سكانها . وكان عدد الجنود الذين يأتون من الوطن الأم يزيد بشكل بطء ، ولأول مرة ، وصل إلى هناك ،

فى عام ١٦٦٥ ، آلاى بأكمله ، وكان قد حصل على فرصة لإثبات جدارته فى المجر، ضد الأتراك . ولذلك فإن قبائل إيروكوا تركت الحرب ، وألقت السلاح ، فى السنوات التالية . ولم يعودوا للحرب من جديد إلا فى أثناء حرب رابطة أوجسبورج، أى بعد عشرين عاماً .

ولقد حاول الإنجليز ، بعد أن سيطروا على مصب نهر هدسون ، وكما كان السابقين عليهم من الهولنديين قد حاولوا أن يفعلوا ، أن يكسبوا صداقة قبائل إيروكوا ، حتى يحصلوا على تسهيلات لتجارتهم فى الفراء. وأدى ذلك إلى أن يقوم الفرنسيون بحركة رد فعل . وفى عام ١٦٧٠ ، جمع المراقب تالون Talon ممثلى خمسة عشر قبيلة قرب سول سان مارى ، عند نقطة إلتقاء مياه الثلاث بحيرات الكبيرة (ميتشيجان ، وسوبيريور ، وهورون) ؛ وأعلن فى حضورهم إستيلائه رسمياً على المنطقة بإسم الملك . وبعد فترة ، قامت حملة إستكشافية، بقيادة جوليت Jolliet والأب ماركيت Marqutte بالتحرك من بحيرة إيرى ، وتبعت نهر أوهيو حتى نقطة إلتقائه بنهر المسيسبي، وبعد ما يقل عن عشرين عاماً، قام مستكشف آخر ، هو كافاليه دى لاسال Cavalier de la Salle ، بالنزول فى مجرى النهر الكبير ، دون أن يثير الأهالى قلقه ، ورفع العلم الفرنسى عند مصبه : فدخلت لويزيانا فى التاريخ ، فى عام ١٦٨٢ .

وعلى ساحل إنجلترا الجديدة ، كانت محاولات التوغل فى إتجاه الغرب تبدأ من شارلستون ، تلك المدينة التى كانت قد أنشئت حديثاً فى كارولينا الجنوبية . وكانوا يتاجرون منذ سنوات مع القبائل التى كانت تسكن فيما وراء ألليجانى ، وبخاصة مع قبائل شيروكى ، حينما سيطرت فى أحد الأيام روح الثورة على الجنود الجور، ودفعتهم إلى حمل السلاح ، وأفادوا من حركة رضاء خطيرة كانت قد نشأت فى داخل المستعمرة ، وحصلوا لأنفسهم على حلفاء فيها ، ودفعوا جنود

الحكومة حتى ساحل فرجينيا ، ثم قاموا ، قبل إنسحابهم ، باحراق مدينة جيمس تاون . ولن تعود العلاقات السلمية بين البيض وبين الهنود الحمر إلا بعد فترة طويلة . وفى عام ١٦٧٦ ، قام الهنود الحمر بتخريب منطقة حدود مين ، بدورها ، وكان هذا التخريب إلى درجة أن البلاد سوف تقضى مايزيد على خمسين عاماً لكى تنهض منه .

وبدأت حرب إيروكوا الثانية فى عام ١٦٨٢ ، وعند حدود كندا ، وكانت موجهة ضد الفرنسيين وضد القبائل الهندية التى كانت قد قبلت الخضوع لفرنسا ، فى نفس الوقت . وأفادت حكومة لندن من ذلك ، لكى تحصل من قبائل إيروكوا على إعترافها بسيادة ملك إنجلترا ، وبوضع أقاليمها تحت حمايته . وهذه الحرب الجديدة ، التى سهلها فى أول أمرها تأييد الإنجليز ، إستمرت لفترة تقرب من خمسة عشر عاما . وتميزت فى عام ١٦٨٩ بمذبحة فظيعة للفرنسيين فى منطقة مونتريال . فإضطروا إلى إخلاء كل منطقة البحيرات العظمى ، للخصم . وحتى موقع مونتريال نفسه ظهر فى وقت معين على أنه مهدد ، وعن قرب . ولم يؤد عقد الصلح بين الفرنسيين والإنجليز ، فى عام ١٦٩٧ ، إلى إلقاء قبائل إيروكوا السلاح فى التو . ولم يوافقوا على إلقاء «البلطة» ، ودفنها ، إلا فى عام ١٧٠١ . ولم يقوموا بعد ذلك بالوقوف فى وجه الفرنسيين . وسيقومون ، فى أثناء حرب الوراثة الإسبانية ، بمحاولات لمساعدتهم ، وبهجمات كثيرة ومتعددة داخل الأراضى الانجليزية .

أما فى بحر الأنتيل ، فإننا رأينا ، فى عصر لوى الرابع عشر ، دولة جديدة ، وهى من بين أصغر الدول ، تأتى بدورها لكى ترفع علمها هناك . ففى عام ١٦٧١ ، قامت شركة الهند الغربية ، التى كان قد تم إنشاؤها فى الدانمرك ، بالاستيلاء على أكثر جزر الأنتيل الصغيرة وقوعاً صوب الجنوب ، وكانت غير محتلة

لبعض الوقت وهى جزيرة سان توما .

أما فى جويانا ، فكان الفرنسيون قد قاموا ، فى وقت ريشيليو ، بمحاولات عديدة للنزول إلى هناك . وكان الموقع الذى سوف تنشأ فيه مدينة كايين قد تم إحتلاله مرات عديدة. وكان كولبير قد إهتم بهذا المشروع كأساس لإنشاء مستعمرة يمكنهم أن يحصلوا منها على السكر ، وعلى النيلة، وأخذ هذا الإحتلال شكلا مستمراً إبتداء من فترة الحكم الشخصى لوى الرابع عشر . وسيصل عدد سكان كايين، عند نهاية القرن ، إلى مايقرب من خمسمائة نسمة .

أما المحيط الهادى والجزر الموجودة فيه فكان ، عند بداية القرن ، لايزال يحتاج كله إلى أن يكتشف . وبدأت تلك الفكرة الموروثة عن العصور القديمة ، والمتعلقة بوجود «أرض جنوبية» terra australis ، تحظى ببعض التأكيد فى ذلك الوقت ، حينما قام أحد الملاحين الهولنديين ، الذى أتى من الهند ، بالإقتراب من الساحل الغربى لما سوف يكون هو أستراليا ، فيما بعد . وكان آخرون قد عبروا ، فى عام ١٦١٥ ، آخر نقطة أو رأس فى أمريكا الجنوبية ، وهى التى سوف يترك أحدهم ، هورن Horn ، إسمه لها ، وإستكشفوا سواحل غينيا الجديدة ، والتى كانت قد تمت رؤيتها فى أثناء القرن السادس عشر، وكذلك جزر سالومون وجزر ماركيز . وقام أحد الهولنديين ، وهو تاسمان Tasman ، وبتكليف من فاندييمن Van Diemen ، حاكم بتافيا ، باستكشاف حدود القارة الجنوبية ، وأقلع فى عامى ١٦٤٢ - ١٦٤٣ فى محاذاة السواحل الجنوبية لأستراليا ، وإكتشف نيوزيلندا : فسميت الجزيرة الكبيرة المجاورة تسمانيا ، تخليداً له . وفى قطاع آخر ، قام الإسبانيون الموجودين فى الفلبين بضم أرخبيل ماريان ، فى عام ١٦٦٨ ؛ وحصل على إسمه نسبة لمارى آن من آل هابسبورج ، والتى كانت فى ذلك الوقت وصية على العرش فى إسبانيا .

وكان المحيط الهادى ، فى عصر لوى الرابع عشر ، وأكثر من المحيط الهندى ، ميداناً للقراصنة ، الآسيويين ومن الأوربيين وكان القراصنة الأوربيون، والذى تزايد عددهم نتيجة للحروب ، يتخذون مخابئهم الرئيسية على ساحل شيلى، ـ حيث كانوا قد أقاموا من أجل مراقبة السفن الإسبانية المحملة بالمعادن النفيسة ـ ، أو فى أرخبيل جالاباجوس ، فى المحيط عند خط الإستواء . وكان آخرون ،وفى نفس العمل يقلعون من سان دومنجو ، ويعبرون مضيق ماجلان .

وشيئاً فشيئاً ، أخذ التجار مكان القراصنة . وكان تجار إنجلترا وهولندا قد وصلوا إلى تلك المناطق منذ وقت مبكر . أما الفرنسيين فإنهم لم يخاطروا بالنزول إلى هناك إلا بعد ريزويك . وفى سان مالو ، قام أحد رجال الأعمال الجسورين، وهو نويل دانيكان Noel Danican ، بتأسيس شركة «بحـــر الجنوب» ، أو «شركة البحر الهادى» (وإستخدم الإسم الأول مع الثانى) ، وكذلك «شركة الصين» ، على التوالى : وفتحت هذه الشركات ميداناً كبيراً، كان تقريباً لم يكتشف بعد ، فى وجه التجارة . وكما هو الحال مع كل هذه المشروعات ،من هذا النوع، عرفت هذه الشركات الكثير من الإنحرافات . وفى البداية ، كانت سفن الشركة الأولى لاتبتعد كثيراً عن السواحل الامريكية. ثم جاءت حرب الوراثة الإسبانية . التى عملت على زيادة التقارب بين الفرنسيين والإسبانيين ، وتسببت بالتالى فى التغاضى عن «الميثاق الإستعمارى» ، والذى كان دائماً سارى المفعول من الناحية الرسمية . ولقد أدى ذلك إلى إقامة بعض العلاقات بين أعمال أصحاب السفن فى سان مالو ، وأعمال «سفينة أكابولكو»، والتى كانت قد بدأت منذ قرن قبل ذلك، واستمرت فى أن تربط ، كل عام ، بين جزر الفلبين وبين ساحل كاليفورنيا .

وأظهر الإنجليز رغبتهم فى الإعتداء على هذه الحركة ، فكلفوا السفن الحربية بحراسة السفن التجارية . وفى أثناء ذلك الوقت ، كان على لوى الرابع عشر أن

يواجه مطالب التجار الإسبانيين ، الذين أضيروا فى مصالحهم ، ويواجه بالتالى شكاوى حفيده . ولذلك فإنهم بدأوا فى فرض الضرائب والرسوم على الحركة الفرنسية . ثم عادت هذه الصعوبات إلى الظهور من جديد ، فى عام ١٧٠٩ ، وحين قنع الملك بألا يربط بعد ذلك بين مصالحه وبين مصالح فيليب الخامس . وبدأت فى شهر يناير ١٧١٢ مفاوضات الصلح : فكانت الحرب تقترب من نهايتها . ولقد إضطر لوى الرابع عشر ، ونتيجة لطلب الخصم ، إلى أن يمنع كل ملاحة فى بحر الجنوب . وأخيراً ، وفى أوترخت ، حصلت إسبانيا على عودة ميزاتها التقليدية لها فى شئون التجارة مع الهند .

البَابُ الخَامِسُ

القرن الثامن عشر

الفصل الثالث والعشرون

نهاية العصور الحديثة

إن الفترة الجديدة التى نعطيها إسم القرن ـ وبدون دقة كبيرة مادامت قد نقصت إلى ثلاثة أرباع القرن ـ لم تظهر ، ومثلها فى ذلك مثل غيرها ، من أولها على أنها تمثل تحولا واضحاً عن الماضى ، وإذا كان فى وسعنا أن نعتبرها ، بدورها ، على أنها متميزة بشكل واضح ، فإن ذلك يرجع بنوع خاص إلى أنها تنتهى عندما تبدأ التغيرات الكبرى التى أعلنها عام ١٧٨٩ : ولذلك فمن الواجب ألا يعبر « العهد القديم » Ancient Régime عن مجرد حالة الأوضاع المتعلقة بالتنظيم الداخلى للدول .

١ ـ اختفاء القرصنة :

كان علينا أن نلاحظ ، منذ قبيل أواسط القرن ، مؤشرات تدل على تطورات تبشر بنهاية عمليات القرصنة ، والتى كانت قد إستمرت فى الحياة منذ عصور البرابرة ، على بحار نصف الكرة الغربية . وعلينا أن ننتظر بعد ذلك عدداً كبيراً من السنين ، حتى نرى إختفاءها من على سطح الكرة الأرضية . ولكنه كان فى وسعنا ، على الأقل ، أن نتنبأ بالوقت الذى تتحرر فيه منها مناطق مياه المحيط الأطلسى والبحر المتوسط ، وبشكل تام . وسيكون من غير الحكمة أن نربط فى ذلك إنتصار الحق على القوة . وسيكون من الأفضل أن نربط ذلك بالتقدم الذى قامت به الأمم المتحضرة فى ميدان الإنشاءات وتسليح السفن . وكان نوع من السفن الخفيفة قد إنتشر ـ إن لم يكن قد أنشىء ـ فى أثناء القرن السابق ، وهو الفرقاطة Frégate ، وهى التى زادت أبعادها وقوتها ، دون أن تفقد ميزات السهر والمناورة . وكانت أكثر سرعة من السفن الحربية ، فأصبحت أفضل وسيلة

لتعقب السفن الأخرى ، وصيدها ، وفي عملية السباق البحرى .

وكانت القرصنة ، وخليفتها عملية السباق البحرى ، قد عاشت أوجها فى القرن السابع عشر ، نتيجة لحروب عصر لوى الرابع عشر . وكان ميدانها المختار ، فى تلك الفترة ، هى بحر الأنتيل ، مركز القراصنة « أصحاب السفن الأحرار » ، Flibustier . وكان الإنجليز ، فى عصر كروموبل ، قد إستولوا على جمايكا ، ثم إحتلوا شيئاً فشيئاً ، المكان الأول بين هؤلاء القراصنة فى بحر الأنتيل . وتبعوا الهولنديين ، والذين كانوا يعملون إبتداء من كوراكاو ، وقاموا بالهجوم ، هم كذلك ، على نواحى إسبانيا الجديدة . وقام الفرنسيون ، من سان دومنجو ، بتقليدهم ، وإستمروا فى ذلك حتى اليوم الذى تولى فيه حفيد لوى الرابع عشر عرش إسبانيا . وكانت إحدى المراحل الأكثر وضوحاً بالنسبة للقرصنة فى بحر الأنتيل تتمثل ، فى عام ١٦٨٦ ،فى الإستيلاء على كامبيش ، فى يوكاتان ، بواسطة أحد المغامرين ، والذى كان من قبل ذلك قد إشتهر إسمه بعيداً على مياه المحيط . أما أولئك الذين جاءوا بعده فى وكره الجديد ، فإنهم لم يخرجوا منه إلا فى عام ١٧١٧ .

وحين أصبح الفرنسيون والإنجليز حلفاءاً بعد أوترخت ، قامـــوا سوياً بعمليات جعلت حياة القراصنة أكثر صعوبة . وبعد أن إستقر الأمن فى المياه الأمريكية ، إمتد هذا الأمن سريعاً إلى منطقة المحيط الأطلسى بأكملها . وفى فرنسا ، إستمرت المرسومات توجه السفن التجارية إلى ضرورة حمل مدافـع : ولكن أولئك الذين كانوا لا يبتعدون كثيراً عن المناطق التى تكثر فيها الحركة إكتفوا منذ ذلك الوقت بوضع مدافع خشبية على سفنهم . وفى باريس ، ومثلها فى ذلك مثل لندن ، كان نقص نسبة التأمين يدل على تناقص الخطر الذى كان يهدد التجارة البحرية . وشىء أكثر دلالة من ذلك : فقــد ألغــوا ، من جانب

إسبانيا ، فى عام ١٧٣٥ ، ممارسة ذلك التقليد الخاص « بالقوافل البحرية » من أجل حماية الأساطيل التى كانت تقوم بالحركة مع جزر الهند الغربية . وأصبح فى وسع الغلايين (جمع غليون) منذ ذلك الوقت أن تقلع فى الوقت الذى تختاره لنفسها : وكان معنى ذلك ، وبوضوح ، أنها لم تعد مهددة بنفس الأخطار التى كانت تتعرض لها من قبل . ومن ناحية أخرى نجد أن كلمة « غليون » التقليدية سوف تختفى . وسوف يطلقون ببساطة إسم « سفينة السجل » على كل سفينة تعمل فى نقل المعادن النفيسة على طول الطريق العادى صوب المحيط الهادى ، وهو الطريق الذى كان يلتف حول رأس هورن .

وتحرر البحر المتوسط بسرعة أقل من المحيط الأطلسى . وإستمر الجزء الأول من القرن يدوى بإنتصارات القراصنة المغاربة . ولكنهم إجبروا على التوقف أثناء السنوات التى ، بعد عام ١٧١٥ ، إرتبط فيها الفرنسيون والإنجليز بتحالف . ولكن الصراع مال صوب عدم التكافؤ بالنسبة لسفنهم من نوع الجاليو Calèr ، وهى السفن التى لم تتغير صفاتها ، فى الوقت الذى إستمر فيه الخصم فى تحسين نوعية سفنه وقوتها . وفى مدينة الجزائر ، إنخفض عدد رؤساء البحر ، فى أقل من قرن ، من بضع مئات إلى ثمانين . أما الأسرى المكلفين بالتجديف ، والذين وصل عددهم هناك فى بعض الأوقات إلى ٣٠,٠٠٠ عبد ، فلم يصل عددهم فى عام ١٧٢٥ إلا لثلاثة أو أربعة آلاف . وفى المغرب ، إضطر قراصنة سلا ، وهم الذين كانوا أكثر خطراً من الجميع ، التى تحمل ضغط سلطان نشيط ، كان يرغب فى الحصول على ود الدول الأجنبية ، فتخلوا فى سنوات ١٧٧٠ عن طريقة حياتهم وعن مهنتهم التى كانت تدر عليهم أرباحاً طائلة . وفى عصر الثورة ، لم يعد ذلك الفزع الذين كانوا ينشرونه فى المناطق القريبة من مضايق جبل طارق إلا من الذكريات السيئة . أما زملاءهم الذين كانوا يعششون فى موانى الجزائر ، فانهم

لن يضعوا السلاح بشكل نهائى إلا بعد عام ١٨٣٠ ، وحين يجبرهم الفرنسيون على ذلك .

وتبقى عمليات القرصنة المسيحية ، وهى التى كان يقوم بها فرسان مالطة ، والذين إنضم إليهم بعض المغامرين من الجزيرة . ولقد عاشت عصر إزدهارها فى نفس الوقت الذى ضعفت فيه القرصنة التى كان المسلمون يقومون بها منذ وقت طويل . فلم نشاهد أبداً حتى ذلك الوقت سوقاً للعبيد فى لافاليتا على هــذه الدرجة من الإمتلاء والتنوع ، فكان يوجد فيه ، فى بعض الأوقات ، ما يقرب من عشرة آلاف رجل ، وهم من المسلمين ، هذه المرة ، بطبيعة الحال . ولكن عدم الجدوى المالية لعمليات القرصنة ، فى بحر أصبح الآن وقد تمت تهدئته تقريباً ، أدت عند منتصف القرن ، إلى بطء هذه العمليات ، ثم إنهيارها النهائى . وتحولت مالطة إلى مركز تجارى دولى كبير ، وجاء رجال الأعمال من كل الدول للإقامة فيها . وكانت فرنسا ، الحامية التقليدية لفرسان مالطة ، هى المتفوقة هناك ، بعدد رعاياها ، على غيرها من الدول .

٢ ـ التقدم البطىء فى القانون الدولى :

قبل أن نترك ميدان الشئون البحرية ، علينا أن نذكر أن الخلافات بين الدول بشأن حق « التحية الأولى » كانت قد إنتهت . فكان لوى الرابع عشر قد أوصى قادة الأسطول ، فى الجزء الأخير من فترة حكمه ، بتحاشى أى مناسبة للخلاف بهذا الشأن . وهكذا هدأت مسألة « الكرامة » ، شيئاً فشيئاً ، ولم تعد هذه المسألة للظهور ، بعد عام ١٧١٥ .

وفى نظرية القانون الدولى ، وفى تطبيقه ، إنتصرت أخيراً فكرة البحر الاقليمى ، أو «المياه الاقليمية» . فأصبحوا يقبلون الآن ، وفى جميع أنحاء العالم ، أن قوة الدولة المطلة على البحر تمتد على كل الشريط الساحلى الذى تغطيه المدافع .

وكان المدى الأقصى للمدافع ، فى هذا الوقت ، لا يصل حتى إلى ثمانمائة متر .

وكان هناك كذلك بعض التغيير فيما يتعلق بمبدأ حرية البحار ، والذى كان الانجليز قد حاولوا من قبل ، وبلا جدوى ، أن يفرضوه ، وفيما يتعلق بخلافاتهم مع الهولنديين . وكتب أحد كبار فقهاء القانون ، فاتيل Vattel ، والذى كان من نيو شاتل ، فى عام ١٧٥٨ ، وفى كتابه عن « القانون الدولى » : « إن الأمة التى ترغب فى أن تنتزع لنفسها الحق الكامل على البحر ، وتدعم ذلك بالقوة ، تهين كل الأمم » . ولم يقم أحد بمناقضته بشأن هذه النقطة .

وبعد قليل ، طرح مارتين هوبنر Martin Hubner ، الدانمركى ، على الرأى العام مسألة الحقوق التى يرى المحايدون أن من حقهم المطالبة بها ، فى وقت الحرب ، وفى مواجهه تلك المعترف بها للدول المتحاربة . وبعد ذلك ، إتفق السويديون مع الروس على ضرورة إنتصار رغبتها فى أن تظل مياه بحر البلطيق بعيدة عن العمليات العدوانية التى كانت تلتهم أوربا الوسطى . وأخيراً ، سنرى فى عام ١٧٨٠ ، ظهور ظروف مشابهة ، وكرد فعل على مساوىء تمادى قوة بريطانيا ، وبدافع من روسيا ، وذلك الخط الشهير «بالحياد المسلح» . وسوف نتحدث عنه بشكل أطول فى الوقت المناسب .

أما عن حقوق وواجبات الأقاليم المستعمرة ، فى حالة وقوع صدام مسلح بين الأوطان الأم ، فإن عدم التأكد الذى ساد منذ بداية العصر الاستعمارى قد إنتهى . فلم يعد من القبول تحمل عدم مشاركة ملحقاته البعيدة فى تلك الخصومات التى كانت تنشىء بين الدول العظمى . ومنذ الوقت الذى تخلوا فيه عن نظام الادارة عن طريق الشركات التجارية ، أى منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر ، تم طرح المسألة . وكانت قد تقررت بأشكال مختلفة ، وفى علاقة مع الظروف المحلية . وفى القرن الثامن عشر ، أصبح على المعمرين ، مهما كانوا ، أن يتحملوا كل النتائج التى تنجم عن حالة الحرب .

أما فكرة الحياد نفسها ، فإنها ظلت ، وكما كانت عليه فى الماضى ، عائمة : ففى عام ١٦٧٣ ، وفى بداية حرب هولندا ، رأينا أن أحد حكام الأراضى المنخفضة يؤيد محاولة من جانب الهولنديين ضد شالروا ، وذلك قبل أن يصبح سيده ، وهو ملك إسبانيا ، فى حالة حرب مع فرنسا ، وذلك فى الوقت الذى قام فيه تورين Turenne ، من جانبه ، بدفع قوات الإمبراطورية وقـــوات براندبورج فى وستفاليا ، وذلك ستة أشهر قبل أن يقرر الإمبراطور والمنتخب أمر إعلان حالة الحرب . وقرب ذلك الوقت ، نزلت ضربات قوية على نظرية « العبور بدون ضم » ، وذلك عن طريق بيفندورف Pufendorf فقيه القانون الألمانى ، والذى تعتبر كتاباته مرجعاً فى هذا الموضوع . وبشر ذلك بقرب نهاية تلك الحالة ، التى كانت قد طرحت نفسها مرات عديدة . ومع ذلك فإن الساسة سوف يستمرون فى الإشارة والإستناد إلى تلك النظرية المتروكة كلما وجدوا لأنفسهم ميزة فى ذلك : مثل لوى الخامس عشر حين أرسل ، فى عام ١٧٤١ جيشاً إلى بفاريا ، أو مثل ماريا تريزا النمسوية حين كانت تنتظر ، فى عام ١٧٤٧ وصول القوات التى كانت إليزابيث ، قيصرة روسيا ، قد وعدت بإرسالها إليها . ومع ذلك ، ففى نفس هذا الوقت ، نجد أن أبناء جنوا ينادون عالياً بضرورة إحترام أراضيهم ، من جانب الدول المتحاربة ، ما داموا قد حرصوا على إعلان حيادهم . وبعد وقت قليل ، نجح فاتيل فى إقامة حصانة للأقاليم والأراضى المحايدة ، كمبدأ دائم ومطلق ، كمبدأ لا يجرؤ أحد على مناقشته . أما مبدأ العبور « البرىء » ، فهو حق لكل الأمم التى تحتفظ معها بعلاقات سلمية . ولكنه كان على سادة الأقاليم المستفيدة أخذ موقف ، وأن تقرر ، بعد بدء التجربة ، ما إذا لم يكن العبور قد تصحبه نتائج مضرة .

أما فى قطاع العلاقات التجارية فقد بدأ مبدأ « المشاركة » فى الإنتشار ، وهو

الأمر الذى سوف يتطور شيئاً فشيئاً إلى قرب هذا الذى نسميه فى الوقت المعاصر : « شرط الأمة الأكثر وداً » . وترجع أصوله إلى القرن السابق . وفى إسبانيا ، بنوع خاص ، كان الهولنديون قد حصلوا ، فى عام ١٦٠٩ ، ثم فى عام ١٦٤٨ ، على كل الميزات السابقة التى كان قد تم الإعتراف بها للإنجليز . وتمكن الفرنسيون من أن يحصلوا على منحهم إياها ، بدورهم ، فى عام ١٦٥٩ . وهذه المشاركة مع الأمم الأكثر إمتيازا ظهرت فى الشرق فى معاهدة الإمتيازات الأجنبية ، التى منحت لفرنسا فى عام ١٧٤٠ . ثم حصلت روسيا على ميزاتهـا فى معاهدة كوجك قينا ردجى : وبهذه المناسبة ، تحدث الأتراك عن فرنسا وعن إنجلترا بتسميتها « بالأمم الأكثر صداقة » . وهكذا وصل هذا التطور إلى نهايته قبل العصر الثورى بوقت كبير .

٣ ـ زيادة تعقيد الشئون الاوربية :

وفى أوربا ، تميز هذا القرن بنوع خاص بزيادة التداخل بين مصالح وطموحات الدول . وفقد التاريخ الكثير من بساطته ، وفى الماضى ، كانت بعض السياسات التى تميل إلى السيطرة العامة ، مثل سياسة فيليب الثانى ، مثلا ، لها من قبل صفة شبه أوربية : فكان « الملك الكاثوليكى » يهتم عن قرب بما كان يحدث على سواحل بحر البلطيق ، وبدرجة لا تقل عن إهتمامه بهـذا البحر الذى كان نصف إسبانى ، والذى كان هـو البحر المتوسط . وفى أثناء القرن السابع عشر . بحثت السياسة الفرنسية ، من جانبها ، وحاولت أن تستخدم ، ضد الأسرة الحاكمة فى النمسا ، ثلاث دول صديقة ـ تركيا ، والسويد ، وبولندا ـ والتى قام معهـا بعض الرجال من أصحاب التنظيم ببناء ما سموه « حاجز الشمال » فى فرساى . ومع ذلك فقد حدثت إنفصالات مختلفة بين هذه المجموعة الأوربية . فلقد إستمرت حرب الشمال ، وحرب كنديا ، فى توازى ، وبطريقة تلقائية ، دون أن يكون علينا أن نشير إلى أصغر

علاقة بين هذين المسرحين للعمليات الحربية ، الأول على إتصال ببحر البلطيق ، والثانى على إتصال بالبحر المتوسط ، ويفصل بينهما كل سمك البلاد الجرمانية .

وبعد ذلك ، سوف يتغير الحال . فسوف تميل كل الدول العظمى إلى الإهتمام بمشا كل الدول ، مهما كان موقعها ، وحتى إذا ما كان بعدها لا يسمح لهم بالمشاركة بطريق مباشر فى أمر تسويتها . وفى النصف الأول من القرن السابع عشر ، كانت حرب الثلاثين عاماً ، فى أصولها ، أزمة ألمانية ، ولم تزد تطوراتها وتنتشر خارج إطار أوربا الوسطى . وبعد مائة عام من ذلك، لن تبق أية دولة عظمى ، لا إنجلترا ولا روسيا ، غريبة عن الصدامات الجديدة التى سوف تثيرها رغبة بروسيا فى القوة ، فى ألمانيا . ومادامت الأقاليم الإستعمارية لن تكون بعيدة بطريقة تلقائية، فإن هذه الأزمات الكبرى سوف تأخذ صفة ، ليست فقط أوربية ، ولكنها بالفعل شبه عالمية.الأمر الذى يؤدى إلى زيادة تعقيد التاريخ الدبلوماسى والتاريخ العسكرى .

وكان مجموع المحيطات والأراضى الواقعة فيها لا يزال لا يعطى ثقلا كبيراً وبطريقة ملموسة على مصائر العالم القديم . فعلى الرغم من عظم حركة التوسع التجارى والبحرى التى ميزت القرن السابع عشر ، ظلت المصالح القارية هى التى تتحكم فى سياسة الدول الرئيسية . كما أن أوربا إحتفظت،بالنسبة للتاريخ العالمى، بدورها الذى كان لها ، وهو الدور المسير . ومن جانب آخر نجد أن فكرة أوربا قد أصبحت لها قيمة جديدة . فحتى ذلك الوقت ، لم تستخدم كثيراً إلا كبديل عارض لفكرة المسيحية ، حينما كان الأمر يتعلق ، فى بعض الأوقات ، بالصراع المبذول ضد الإسلام . أما الآن ، فإنها مالت إلى أن تنافسه ، أو أن تأخذ مكانه. وكان نمو روسيا الأخير هو الذى يتحكم فى هذا التطور . وبعد أن ظلت لفترة طويلة على هامش أوربا ، دخلت بقدم ثابت فى نطاق أسرة الدول العظمى . ولن

تتأخر كثيراً عن أن تجعلهم يشعرون بتفوقها وسيطرتها فى كل إتساع شرق أوربا وبينما كانت تصل ، من ناحية ، إلى بحر البلطيق ، كانت تستعد ، من الناحية الأخرى ، للخروج إلى البحر المتوسط . ولذلك فإنها وجدت نفسها ذات مصلحة فى كل المسائل تقريبا التى كان فى وسعها أن تشغل السفارات . وسرعان ما تصبح دبلوماسيتها ، هى أيضاً ، موجودة فى كل مكان .

ولم يبتعد ليبنيتز Libniz ، فى مؤلفاته السياسية الأولى ، فى عام ١٦٦٨ ، عن الإيديولوجية التقليدية ، حين نسب إلى بولندا دور الأسوار التى تحمى العالم المسيحى من الأتراك ومن الروس ، وتحدث عن رسالة النمسا « الأوربية » فى الشرق. وفى أثناء السنوات الأخيرة من حياته - توفى فى عام ١٧١٦ - وصل تفكيره إلى تطور واضح . وكان قد رأى بطرس الأكبر ، وتحادث معه ، وشعر بإعجاب شديد بهذا القيصر الذى قام بعملية « محو البربرية » من أمته . وهكذا نراه وقد قام ، الآن ، بإدخال روسيا فى نطاق العالم الغربى . وكان مستعداً لكى يضعها فى أوربا التى كان يتنبأ بها ، والتى كان يبنيها فى تفكيره ، لكى تستخدم كأساس لنظام عالمى جديد — أوربا مسيحية ، بطبيعة الحال، تأخذ مكان العالم المسيحى المفكك . وهكذا تطورت الفكرة . ولم تكن محددة ومعروفة بخطوط جغرافية : فأصبحت أوربا مجموعة ورابطة سياسية وثقافية فى نفس الوقت. ويبدو أن أحد الفرنسيين، وهو آبى سان بيير Labbé de Saint - Pierre ، كان عند أصل تلك الحركة الفكرية ، والتى كانت فى أولها ، وحاولت تنظيم إتحادية من الدول الأوربية . وإقترح ، فى عام ١٧١٣ ، « إتحاد دائم لأوربا كلها » ، و « جمعية دائمة من كل أصحاب السيادة المسيحية » . وكان عمله إمتدادا لذلك العمل الذى كان إمريك كروتشى Emoric Crucé قد أعطاه منذ ما يقرب من قرن مضى ، والذى كان يفكر فى نظام يتعلق بنوع من « عصبة الأمم » ، أو « جمعية الأمم » ، كنوع

من الاتحادات للدول الأوربية ، والتى كان فيها مكاناً محجوزاً حتى للدولة العثمانية ولسوف يشير جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau إلى نوع من آراء آبى سان بيير . وفى عام ١٧٢٦ ، وفى « مشروع السلام الدائم لآبى سان بيير » سوف يدافع بدوره عن فكرة « جمعية شعوب أوربا » .

٤ ـ النمسا ، ماضيها ومستقبلها :

وهكذا كانت أوربا ، بالمعنى الذى نفهمه اليوم ، تأمل فى أن تولد . وعلينا أن نفرد مكاناً خاصاً ، من بين الدول التى كان فى وسعها أن تشرف عليها، للنمسا وكانت أسرةهابسبورج فى فينا قد نجحت فى إبطال نتائج الأزمات التى مرت بها هذه الأسرة فى أثناء القرنين الأخيرين . وبتدعيمهم أنفسهم داخل نطاق دولهم الموروثة ، كانوا قد عادلوا إلى درجة ما عملية تقليل السلطة الإمبراطورية فى ألمانيا : فحولوا التاج المنتخب لبوهيميا بعد ثورة عام ١٦٢٠ إلى تاج وراثى ؛ وخضع تاج المجر لنفس المصير فى عام ١٦٨٧ ، بعد فترة إضطرابات ثورية طويلة . ثم إستعادوا ، فى معاهدات ١٧١٥ ، كل الأراضى التى كانوا قد تخلوا عنها لإسبانيا وقت تنحى شارل الخامس ، وهى الأراضى المنخفضة ، وإقليم ميلانو ومملكة نابولى. وبعملية واحدة إستعادوا إذن مواقع أقدامهم على سواحل المانش وعلى الناحية الأخرى للألب ، فى نفس الوقت . وأصبح وضعهم، كدولة عظمى، بلا منافس . وأصبحوا سادة المناطق التى كانت فرنسا تطمع فيها ومنذ أطول وقت فى أثناء القرون السابقة . وكان فى وسعهم أن يواجهوا إنجلترا ، وأن يكون لهم وزنهم بالنسبة لمصائر عالم البحر المتوسط .

وإذا كان على أوربا أن تختار ، لوجدت عاصمة ممتازة لها فى فينا ، والتى كانت مركزاً مختلطاً بأجلى المعانى ، وعلى آخر صيحة . وحسب شهادة الأمير دى لينى de Ligne ، البلجيكى ، الذى إختار ، عند منتصف القرن ، بلاد حكام

الإمبراطورية لكى يخدم فيها، لم يكن الجيش الذى يخدم فيه نمسوياً إلا من حيث الإسم فكان الجنود يأتون من كل أنحاء المملكة ؛ وكان الضباط على درجة أقوى من الإختلاف ، وبشكل يثير الدهشه : فكان الثلثان من الإيطاليين ، وأبناء اللورين ، والأيرلنديين ، والفرنسيين ، والفالون ، والإسبان .

وبالنسبة للنمسا ، كانت مأساة الفترة السابقة مباشرة للقرن الثامن عشر — وبالإجمال هى فترة حكم ليوبولد (١٦٥٨ — ١٧٠٥) — ، تتمثل فى أنها قد تركت ، وعلى حساب مشاعر التضامن الجرمانى ، الميل صوب الجنوب يسود ، وبخاصة صوب إيطاليا البابوية وإسبانية آل هابسبورج : الأمر الذى لم يكن فى وسعة أن يسهم فى عزة الإنتصارات الأولى ، بعد عام ١٦٨٣ ، فى الصراع ضد الأتراك . وفى أثناء هذه المعارك الجديدة من أجل العقيدة ، وجدت الأمة مايكفى لإرضاء قلبها وخيالها : وشعرت أن هذا كان بالتحديد هو ميلها . ولذلك فإنه ان تكون هناك أوربا دنمسوية، يمكنها أن تمسك الميزان بين الشرق والغرب ،وتكون حكماً فى خصوماتها الممكنة . ومن الممكن التأسف على ذلك ، فى ضوء الأحداث التالية . وكان فى وسع هذه الأمة المبشرة ، والمتأثرة بمظاهر الثقافة الايطالية ، أن تضفى على المستقبل ألواناً أقل قتامة ، وتعطيه وجهاً أقل صرامة ، عن هذه الدولة الأخرى المجاورة ، والتى سوف تضطر سريعاً إلى أن تحنى جبهتها أمامها .

وفى ظلال الدولة النمسوية ، كانت ساكس ، فى نفس الوقت الذى تحتفظ فيه معها بعلاقات وثيقةفى ميدانى السياسةوالثقافة ، تحلم كذلك بالقيام بلعب دوراكبر. وكان ملوكها ، وبعد أن كانوا أثناء أجيال من الاوقات والمنتخبين ، مثل آل هوهنزلون جيرانهم ، قد حصلوا على تاج ملكى ، هو تاج بولندا : فأخذوا ، منذ عام ١٦٩٧ ، يحكمون فى وارسو وفى درسدن فى نفس ألوقت. وأسهموا فى تقريب الوفاق وشد أواصره بين البولنديين وبين النمسويين ،

ولقد حصلت النمسا وجيرانها الأكثر قربا على مزايا من نوع مختلف تماما فى أثناء القرن الثامن عشر ، ولكنها كانت من الممكن أن تبدو من بعيد على أنها تؤكد مواهبها — وهى مواهب لم تكتمل — لكى تصبح مركزاً للتجمع فى وسط أوربا المنقسمة على نفسها كل الانقسام . وعلينا أن نذكر المكانة الكبيرة التى كانت تحتلها فى تاريخ الموسيقى ، ذلك الفن الدولى للغاية ، والأداة المتميزة للتقريب بين النخبة . وكانت المدرسة النمسوية ، ومدرسة سكسونيا ، والمدرسة التشيكية ، كلها إزدهاراً لفكر سامى موهوب ، يثقف العالم بأنغامه ، وتنشر الخيرات على العالم . ومن بين ذلك العدد الكبير من المؤلفين المشهورين الذى شاهد العالم صعودهم فى هذا المركز المتوسط من أوربا ، تتمركز أنظار الخلف بنوع خاص على عملاقين ، لم يكف إسمها عن أن يفرض نفسه على كل بلاد العالم المتحضر : جان سباستيان باخ Jean Sebastien Bach الذى قضى الجزء الأكبر من حياته فى ليبزيج ؛ وفى الجيل التالى ، موزار Mozart ، الذى ولد فى سالزبورج،وعمل لمدة سنوات فى فينا ، حيث توفى وهو لا يزال فى عز شبابه ، وله من العمر خمسة وثلاثين عاما ، فى عام ١٧٩١ .

ورغم أهمية الدور الذى وصلت إليه ، أو عادت إليه ، الملكية النمسوية ، فإن أحدا لم يحاول أبدا أن يتحدث عن السيطرة النمسوية . ولأول مرة منذ بدء بدء العصر الحديث ، خبرت أوربا نظاما يبعد من الناحية العملية عن سيطرة دولة واحدة بعينها ، نظاما للمساواة بين الدول الأكبر ، وبالتالى ، توازنا ، إذا ما أردنا ذلك . ولقد تمت مناقشة فكرة التوازن ، والتى ذكرنا أصولها ، ولفترة طويلة . وإحتاج الأمر إلى وقت حتى تتمكن من أن تفرض نفسها. وفى الوقت الذى مارست فيه فرنسا السيطرة ، لم توافق على أن يتحدث أحد عن ذلك ، كما رأينا ، إلا فى حالة خاصة ، مثل حالة بحر البلطيق . وإذا ما إدعوا مد تطبيق

ذلك على أوربا كلها ، فانها لم تكن تر فى ذلك إلا سلاحا موجها ضد زيادة قوتها نفسها . ولذلك فإن خصومها لم يطالبوا به بصراحة ، إلا حينما إعتقدوا أنها قد إنحدرت إلى أسفل ، أو كانت قريبة من ذلك : فتمت محادثات الصلح فى عام ١٧٠٦ تحت شعار التوازن الأوربى . ثم جاءت معاهدات أوترخت لكى تشير إلى ذلك صراحة .

ولذلك فإن الفرنسيين لا ينسون أن مبدأ التوازن قد إنتصر على حطام قوة لوى الرابع عشر . وأظهروا مزيداً من المعارضة تجاهه ، وطوال القرن الثامن عشر ، خاصة وأن جيرانهم الانجليز كانوا متشبثين به تشبثا خاصا . وهناك نصوص كثيرة تشتمل على أدلة على ذلك . ولنكتفى هنا بأن نذكر هذا الاتهام ، والذى كتبه أحد وزراء لوى الخامس عشر ، ووجه فى عام ١٧٦٨ إلى ممثل الملك فى هولندا : « منذ سبعين عاما ، عمل بلاط لندن بلا إنقطاع لكى تهب كل الدول ضد فرنسا ، وذلك تحت شعار مزيف بأن هذا التاج كان يرغب فى القضاء على حرية أوربا ، وفى تحطيم توازن القوى ، وفى الوصول إلى المملكة العالمية . ويمكننا الآن ، وعلى أسس أقوى أن نثير ، وبنفس الدوافع ، حقد وخوف كل الأمم ضد الانجليز . وبتظاهرهم بالرغبة فى الدفاع عن التوازن على البر ، والذى لم يكن هناك من يهدده ، قضوا نهائيا على التوازن على البر ، والذى لم يكن هناك من يهدده ، قضوا نهائيا على التوازن على البحر ، والذى لم يكن هناك من يدافع عنه » . وبغض النظر عن اللهجة العاطفية التى إستخدمها الكاتب فى هذه الوثيقة ، فإنه من الصعب طرح هذه المسألة بطريقة أفضل . فلقد أصبحت سيطرة إنجلترا ، على البحار ، أمرا لا يقبل الجدل . أما الدول الصغرى ، والذى كان الحظ غير العادى قد رفعها فى أثناء القرن السابق إلى مصاف الدول البحرية الكبرى — مثل البرتغال وهولندا — فانها عادت إلى مكان التابع الذى يتناسب مع أهميتها الفعلية ، وأصبحت الآن دولا تابعة ، أو تدور فى فلك الدول البريطانية .

٥ ـ إنجلترا سيدة البحار ، والذهب الانجليزى :

لقد أصبحت إنجلترا ، وهى الدولة البحرية الأولى ، هى كذلك أولى الدول الاستعمارية . ووجع ذلك إلى مداومتها بذل مجهودات لم يقدر أى من منافسيها على مجاراتها فيها . ولقد إستخلص سيلى Seeley ، أحد المؤرخين الممتازين للامبراطورية البريطانية ، ذلك الدرس الذى أعطاه التاريخ الاستعمارى لأوروبا ، فى بعض كلمات : « من بين الدول الخمس التى كانت تتنافس على العالم الجديد ، توج النجاح مجهودات تلك التى لم تكن منذ أول الأمر قد أظهرت إستعدادا كبيرا للاستعمار ، ولا تفوقت على الآخرين فى الجرأة ، وفى الاختراع أو حتى فى الطاقة ، ولكن تلك التى كانت أقلها فى ترك نفسها تتقيد بمشكلات العالم القديم » .

ومع ذلك فإن التفوق الثابت لانجلترا فى شئون الملاحة البعيدة والاستعمار لا يسمح لنا بأن نتحدث — وكما عملنا دائما — عن السيطرة البريطانية . ذلك أن دولة إنجلترا لم يكن لديها أبدا على البر تلك الطاقة العسكرية التى يمكن مقارنتها بطاقة فرنسا فى عصر لوى الرابع عشر ، ولا حتى بتلك التى كانت للسويد فى عصر جوستاف أدولف ، أو حتى فى عصر شارل الثانى عشر . ومع ذلك فغالبا ماكانت شئون القارة يتقرر مصيرها على البر وليس على البحر .

وفى أثناء القرن التاسع عشر ، وفى قرن القوميات ، سوف يفضحون مثالب ملكية آل هابسبورج : أجزائها المختلفة البعيدة للغاية عن المركز ، وشعوبها الغريبة كل منها عن الأخرى فى اللغة والأصل العرقى . وسوف يشخصون حتمية تفككها على المدى القريب أو البعيد . أما رجال القرن الثامن عشر ، فإنهم كانوا يتأثرون بأسباب الضعف التى ظهرت لهم فى بنيان إنجلترا : ففى مواجهة الدول العسكرية ، التى تسيطر عليها نظم مطلقة ، كانت المؤسسات الانجليزية ، والمشبعة

بالاتجاه الليبرالى ، تعتبر لدى بعض الأوساط التى تحاول أن تفكر ، على أنها تسير بالدولة ، فى يوم من الأيام ، صوب الحضيض .

وفى المجموع إذن ، لم تكن هناك دولة مسيطرة. فلم يكن هناك سوى مرشحين للسيطرة . فنى الغرب ، كانت فرنسا وإنجلترا تمثلان،فى أول الأمر ، وفى أثناء ربع قرن ، جبهة واحدة ووحيدة تواجه غليان القارة ، ثم عادتا إلى معاداتهما الواحدة للأخرى من جديد . وفى الشرق ، إحتلت روسيا ذلك المكان الذى كانت السويد تحتفظ به من قبل . وفى الوسط ، كانت النمسا أكثر أهمية ، عنها كدولة يخشى جانبها ؛ وسوف يعترفون بذلك سريعا .

وسوف تحاول دولة أخرى ، كانت حتى ذلك الوقت تحتل المرتبة الثانية ، أن تفيد من الظروف من أجل أن تثبت لجيرانها أنه عليهم أن يحسبوا ، منذ ذلك الوقت ، حسابا لها . وسوف ترتفع فى خلال بضع سنوات إلى المرتبة الأولى : وستبدل التوقعات ، وتقضى على كثير من الطموحات. وكان إزدهار بروسيا هو أهم أحداث القرن بالنسبة للتاريخ الدولى لأوربا. وستكون نتائجه طويلة الأمد، ما دامت ستستمر بعد قرنين من ذلك .

أما إنجلترا ، وحتى رغم أنها لم تكن قد إحتلت بعد المكانة الأولى إلا على البحر ، فإنها كانت دولة تستمر فى الارتفاع . ويمكن لهذا القرن أن يبدو لنا ، من بعيد ، على أنه خاضع لمنافسة ، خفية فى بعض الأوقات ومعلنة فى غيرها ، بين فرنسا التى كانت تمارس التفوق فى الماضى ، وبين إنجلترا التى كانت تستعد لكى تمارس ذلك بدورها، فى القرن التالى . ولكن المعاصرين يرون ذلك بشكل آخر . ذلك أن فردريك الكبير ، وفى رسالته فى عام ١٧٣٨ التى سبق أن أشرنا إليها ، عن « تأملات على الحالة الراهنة للهيئة الدبلوماسية لأوربا » ، لم ير مرشحا آخر للسيطرة سوى فرنسا والنمسا،ومن ناحيه أخرى تبدو فرنسا وحدها

بالنسبة إليه على أنها قادرة على الوصول إلى ذلك . ثم ، وبعد أن تكون النمسا قد إنهزمت فى خلال حربين متتاليتين على أيدى بروسيا ، ويتم تقسيمها فى صالحها ، لن يفكر أحد بعد ذلك فى أنه يمكنها أن تلعب دورا كبيرا . أما فرنسا ، فإنها سوف تظهر أكثر عظمة ، وبخاصة حينما تنتصر فى تلك الحرب ضد إنجلترا وبمساعدة المستعمرات الأمريكية . وفى شهر اكتوبر ١٧٨٩ ، كتب الكونت دى مونمورانComte de Montmorin ، آخر وزير خارجية للبوربون،فى تعليماته إلى لافايت La Fayette ، الذى كان على وشك ان يذهب إلى لندن ، أن يلاحظ انجلترا يحتفظ بآمال من أجل أن تستمر الاضطرابات الداخلية ، وحتى ينتهى بها الأمر إلى تزعزع أساس القوة التى تجعل من فرنسا الامبراطورية الأولى فى العالم » .

وقبل ذلك بثلاثين عاما ، وفى أثناء حرب السنوات السبع ، كتب فاتيل Vatte ، فى كتابه عن القانون الدولى ، والذى سوف تكون له شهرة ضخمة : « لقد إحتفظت الأسرة الحاكمة فى النمسا بممارسة السيطرة لفترة طويلة . وفى الوقت الحاضر ، هو دور فرنسا . أما إنجلترا فلها مجد فى ان تمسك بالميزان السياسى» . وعلينا ان نفهم ان الدولة الانجليزية، بتحركها من جانب إلى الجانب الآخر ، كان يمكنها ان تجعل إحدى كفتى الميزان تميل حسبما ترغب . ومن هذا نجد إن مسألة الذهب الانجليزى ، وإغرائه ، ونجاحه ، قد اصبحت مطروحة بطريقة أو بأخرى .

ففى الماضى ، وفى عهد لوى الرابع عشر ، كان الذهب الفرنسى هو الذى يتعامل ، وفى كل أوربا، مع ضمائر الأمراء ، ويتغلب على الحرص وعلى التردد وكذلك على سوء النية،ويمهد من بعيد الأمر للتحالفات وعقدها.وكذلك امر الانسحاب منها . والآن ، ولفترة طويلة ، فانه جاء دور الذهب الانجليزى فى ان يظهر

قوته : وكان دوره كبيراً فى وقت حرب الوراثة النمسوية : فلم يكن فى وسع النمسا أولا ، وبروسيا بعد ذلك — وبعد تغيير نظام المحالفات — أن تصمد بدون التأييد المالى من لندن لمثل هذه الفترة الطويلة ، كما قماتا ضد قوى تتفوق عليها بشكل واضح .

ولا شك أنه كان فى ذلك عناصر لأحد أشكال السيطرة.ولكن تاريخ الذهب الإنجليزى وإغراءاته أمراً تصعب كتابته : فمن خصائص شئون الأموال أن تتم مناقشتها سراً، وبالتالى ألا تترك فى وثائق دور المحفوظات الرسمية إلا أقل ما يمكن تركه من آثار . وعلى أية حال ، فإن هذا التاريخ لم تتم كتابته بعد ، فى تفاصيله ؛ وسيكون من غير المجدى حتى أن نحاول رسم الخطوط العامة له .

حقيقة أنه يوجد هناك ميدان وميدان مختلف تماماً — يمكن لتعبير « السيطرة البريطانية » أن يجد فيها ما يعبر عنه . وذلك فى الشئون التى تتعلق بالفكر . وسنعود إلى ذلك ، وبشكل مطول فى الفصل الأخير من هذا المجلد . وعلينا أن نقتنع هنا ، والآن ، بأن نعرف شيئا جديداً يثير الدهشة . ذلك أن أسبقية اللغة وأسبقية الثقافة الفرنسية ظلت واستمرت بلا جدال . ولكن إنجلترا تمكنت من أن تحتل ، فى ميدان الفكر ، مكانة لم ينافسها فيها أحد وعرفت أوربا كلها بذلك ؛ كما يمكننا أن نشهد فى هذه السطور من فيخو Feijoo الكاتب الإسبانى الشهير ، عند منتصف القرن : « يعطى الكثيرون من الكتاب الفرنسيين ورغم التباغض الشديد بين البلدين ، للانجليز درجة أكبر للتوغل ، ودرجة أكبر للتعمق فى ميدان الفكر ، ويحتفظون لأنفسهم بمجد تمكنهم من التعبير بدرجة أفضل . ومما لا شك فيه ، بالنسبة لهذه النقطة ، أن الفرنسيين أكثر سمواً من جيرانهم . وهذا هو السبب الذى جعلنا نتعود أن نقول: فكر إنجليزى فى قالب تعبير فرنسى» . ومن ناحية أخرى ، كتب نفس الكاتب من جديد ، وكأنه يتحدث لنفسه ، مع

عزة واضحة ، وإن كانت مليئة فياضة بوضوح الرؤيا ، هذه العبارات القصيرة :
« منذ قرنين ، كانت أمتك هى الأكثر علماً فى أوروبا، مثل الأمة الفرنسية فى القرن الماضى ، والأمة الإنجليزية فى القرن الحالى » .

٦ ـ سكان الدول العظمى فى أوروبا :

ومنذ وقت بعيد كانت الأمم تتزايد فى أعدادها بسرعة بطيئة للغاية ، ولم تكن هناك وسائل لقياس هذا التزايد ، حتى أن أصحاب الأفكار المبسطة إعتقدوا وكأن شعوب العالم تظل ثابتة فى أعدادها . ولكنهم بدأوا بالشعور ، منذأواسط القرن الثامن عشر ، بهذا التزايد الكبير فى نسبة المواليد ، والتى إستخرج منها مالتوس Malthus ، فى إنجلترا ، تلك النتائج التى نعرفهـــا ، وهى التى سمحت لمؤرخى وقتنا الحاضر بأن يتحدثوا عن « الثورة الديموجرافية » ، أى الثـورة السكانية ، فى العصور الحديثة .

وحينما يدخل منحنى زيادة السكان فى العالم فى هذه المرحلة من الصعود السريع، والتى لا تتوقف حتى وقتنا الحاضر ، تظل علاقات العظمة والقوة هى نفسها، بشكل محسوس ، كما كانت عليه فى الماضى ، بين الدول الأوروبية المختلفة . وكانت آخر الدول العظمى ، وهى روسيا ، قد تزايد عدد سكانها من ١٢ أو ١٥ مليون نسمة فى عهد بطرس الأكبر ، إلى أكثر من ثلاثين مليوناً قرب نهاية القرن : وهذا الإرتفاع الكبير لا يمكن تفسيره إلا جزئياً بالتوسعات الاقليمية . وكان أهالى إمبراطورية القياصرة لا يمثلون فى القرن السابق إلا عشر مجموع سكان أوروبا : فأصبحوا يمثلون السدس . أما فرنسا ، والتى كانت نسبياً هى الأكثر سكانها ، إرتفع عدد سكانها من عشرين إلى ستة وعشرين مليوناً. ورغم أن أراضيها كانت تقل بكثير ، فى مساحتها عن مساحة روسيا ، إلا أنها وجدت نفسها ، فى بداية عصر كاترين الثانية ، تتساوى فى عدد السكان مع روسيا الشاسعة . وكانت النمسا

الكبيرة ، فى عهد جوزيف الثانى ، توجد فى نفس المرتبة تقريباً : فعلاوة على رعاياها فى الامبراطورية ، والذين كان عددهم يبلغ عشرة ملايين نسمة ، يمكننا أن نضيف أربعةعشر مليوناً من المجريين، والسلاف، والايطاليين ، والبلجيكيين. أما إسبانيا فإنها ، فى خلال تلك الفترة التى تعتبر فترة إنهيار بالنسبة إليها ، وهى القرن السابع عشر،قد شاهدت أمر نزولها إلىمستوى إنجلترا. وظلت فىمستواها بشكل ملموس ، وحتى قرب نهاية القرن الثامن عشر ، حين تأثرت بحركة عامة ، وأخذت فى الارتفاع من المنحدر . وكذلك بروسيا ، هى أيضاً ، وبنوع خاص قد تميزت بسرعة صعودها . وكانت المكاسب الاقليمية التى حصل عليها فردريك الكبير وحدها قد زادت عدد سكان بروسيا إلى ما يزيد على الضعف : فمرت فى أثناء فترة حكم طولها ستة وأربعين عاماً من مليونين ونصف مليون نسمة إلى خمسة ملايين ونصف مليون نسمة .

الفصل الرابع والعشرون

الانتفاضات الأخيرة لاسبانيا

مشكلات إيطاليا والبحر المتوسط

تتميز المرحلة التالية لمعاهدات أوترخت — ومثلها فى ذلك مثل كل الفترات التالية لحروب — بملل عام لدى الشعوب، وبرغبة عامة فى السلم. وكان الخصمان الكبيران بالأمس قد قاسوا كثيراً، فرنسا فى جسدها، وإنجلترا فى ثرواتها، وبشكل يدفعها إلى التوافق، وبدون صعوبة كبيرة من أجل عمل هدنة بالنسبة لتنافسها سوياً.

١ ـ التقارب الفرنسى والانجليزى :ـ

وكانت ضرورات السياسة الداخلية تدفع كل من الحكومتين صوب الاقتراب من الأخرى. وكان المسئولون، من هذا الجانب من بحر المانش وكذلك من الجانب الآخر، يشعرون فى ذلك الوقت بأنهم غير مدعمين فى السلطة ؛ وكانوا يرغبون فى أن يوجهوا كل طاقاتهم من أجل تدعيمها. ففى إنجلترا، كانت أسرة هانوفر قد تخلصت من أسرة ستيوارت، والتى كانت الملكة آن Anne آخر من مثلها فى حمل التاج، قد توفيت فى شهر أغسطس ١٧١٤. وفى فرنسا، وبعد وفاة لوى الرابع عشر، (سبتمبر ١٧١٥)، وعلى العكس من الرغبة الرسمية التى عبر عنها الملك المتوفى فى وصيته، قام الدوق فيليب صاحب أورليان بالاستيلاء على السلطة، وهى التى سيمارسها كوصى على العرش، وباسم ولى العهد الذى سوف يحمل اسم لوى الخامس عشر. ولذلك فإنه كان عليه أن يواجه معارضة قوية. وكان عليه، من أجل أن يتمكن من مواجهتها، أن يشعر بحرية حركة يديه، وخاصة فى الخارج.

وفى الوقت الذى كانت فيه الحرب مستمرة فى شرق القارة ، — بين السويديين والروس من ناحية ، وبين العثمانيين والنمسويين من الناحية الأخرى — كانت الشعوب إذن فى الغرب تشعر بحقها ، وفى أثناء فترة من الوقت ، فى أن تتنفس بحرية ، وفى أن تعمل فى سلم . وكانت التسويات الصعبة الحسابات ، والتى تمت فى عام ١٧١٥ ، قد تركت الكل راضياً . وكان من الضرورى وجود حذر كبير ، فى كل من باريس ولندن ، ورغبة شديدة للوفاق ، حتى يبعدوا كل فرصة ممكنة لوقوع صدام ، بدءاً من تلك الصدامات التى كان يمكن أن تنشأ بين الفرنسيين وبين الإنجليز فى المستعمرات . ولكن الحكومتين فإنهما ، رغم إعتماد كل منهما على قوة لامثيل لها ، الواحدة على البر والثانية على البحر ، لم تكونا بضامنتين للمستقبل . ولم يكن فى وسعهما أن يمنعا ، إلا على مسافة قريبة من حدودهما ، وفى خارج ما يمكنهما أن يصلا إليه مباشرة ، أمر إعادة بحث بعض نتائج المعاهدات ، فى يوم من الأيام . فلم يكن أمامهما سوى أن يكتلاجهودهما من أجل طمأنة المتحاربين ، وإن لزم الأمر العمل على تخويفهم ، وحتى التدخل، حتى يندعم السلام دون أن تتم تغييرات هامة فى الوضع القائم .

ولن تأت المشغوليات لها من وسط القارة ،وهوالذى كان مركزاً لصدامات خطيرة فى أثناء القرن الماضى ، والذى سوف يشهد فى خلال هذا القرن نشأة صدامات أخرى ، تكون كذلك طويلة المدى ، وعلى نفس درجة الدموية تقريباً. ولكن إسبانيا هى التى سوف تصبح ، ولمدة خمسة عشر عاماً ، أساس إثارة الإضطرابات فى أوربا .

٣ - التنافس الاسبانى النمسوى على إيطاليا :

كان آل هابسبورج النمسا هم المستفيدون الرئيسيون من تلك المعاهدات التى كان قد فرضها المتكتلون المنتصرون على البوربون فى فرنسا وفى إسبانيا.وكانوا

قد ورثوا ، من أبناء أعمامهم فى مدريد ، الجزء الأكبر من الممتلكات الخارجية لإسبانيا فى أوربا . وأصبحت دولتهم الآن أكثر إمتداداً وأوفر سكاناً من دولة خصومهم القدماء الفرنسيين . وكان هذا هو مارغبت فيه الدول البحرية ، والتى كانت فرنسا قد أصبحت بالنسبة إليها هى أكبر عدو يخشى جانبه ، والذين كانت لهم الرغبة فى أن يجبروها على البقاء فى مكانها بطريقة مستمرة . وما أن تم توقيع الصلح فى الغرب ، حتى قام الامبراطور شارل السادس بنقض الهدنة التى كانت قد عقدت مع العثمانيين فى عام ١٦٩٩ ؛ وقام بالإتفاق مع البنادقة بتحريك قرات الجر وبدأ الزحف . وكما حدث فى الماضى ، وفى الوقت الذى مارس فيه الدوق شارل صاحب اللورين القيادة بإسم الإمبراطور ليوبولد ، نجد أن الجنرال الذى سوف يقودهم إلى النصر هو كذلك أحد الأجانب ، وهو الأمير إيوجين ، والذى كان نصف فرنسى ونصفه الآخر من سافوا . وبعد أن إنتصر فى بيتر فاراد ، بين الساف والدراف (٥ أغسطس ١٧١٦) ، وأصبح بعد ذلك مباشرة مسيطراً على تاميسفار ، تمكن من أن يستولى على بلجراد فى العام التالى . وتم الاحتفال بهذا الحدث فى جميع أنحاء أوربا على أنه إنتصار كبير المسيحية . وكان قد مر مايقرب من القرنين على إقامة العثمانيين معسكراتهم فى هذه القلعة الدانوبية . وعن طريق وساطة إنجلترا وهولندا ، تم عقد مؤتمر الدبلوماسيين قريباً من ذلك ، فى بساروفيتز . وتم عقد الصلح هناك فى ٢١ يوليو ١٧١٨ . وحصل العثمانيون هناك على إستعادة المورة ، التى لم يتمكن البنادقة من الدفاع عنها . ولكنهم تنازلوا للامبراطور عن بانات تاميسفار ، على الشاطىء الأيمن للدانوب ، وكذلك عن جزء من الصرب (مع بلجراد) ، وجزء من الأفلاق (الأفلاق الصغيرة) ، إلى الغرب من آلوتا . ولم يصل النمسويون بعد ذلك أبداً إلى ماهو أبعد من هذا على الطريق الموصل إلى إستانبول ، وإلى المضايق .

وفى حالة النشوة ، التى نتجت عن هذه الإنتصارات العظيمة ، والتى كان بعضها غير متوقع ، فكر الأمبراطور فى طموحات جديدة. وكانت آماله قد خابت من أن صقلية ، التى كانت قد منحت لدوق سافوا فى عام ١٧١٥ ، لم يكن لها نفس مصير نابولى . فأقنع نفسه بفكرة أن اليوم لن يتأخر كثيراً عن المجىء والذى يمكنه فيه أن يعيد غزوها ، وذلك فى نظير إعطاء تعويض عادل لدوق سافوا . وكان يحتفظ فى نابولى بجيش كان يرغب فى أن ينفذ به طموحاته . ولكن هذه الطموحات سوف تصطدم بأسف إسبانيا، وبأفكارها الخاصة بالإنتقام. وكانت هى أيضاً لم توافق تماماً على ترك صقلية للآخرين ، وهى التى كانت لؤلؤة ممتلكاتها فى البحر المتوسط ، وكانت هى أيضاً تحتفظ بآمال من أجل إستعادتها . وكانت العلاقات بين فينا ومدريد بعيدة عن أن تكون ودية . فكان شارل السادس قد رفض دائما أن يعطى موافقة صريحة على نهب أملاك آل هابسبورج إسبانيا وتوزيعها . ولم يكن قد وقع على عقد التنازل الرسمى الذى طالب به منافسه السعيد ؛ وإستمر بعناد فى معاملة فيليب الخامس على إنه مغتصب للعرش ، وحاول أن يعيش ، فى علاقاته مع إسبانيا ، تحت نظام مجرد هدنة .

ومع ذلك فإن دافع القطيعة لم يأت من فينا. بل جاء من الحكومة الإسبانية ، والتى كانت فى ذلك الوقت تحت تأثير إيطالى مزدوج ،هو تأثير الملكة ، الزوجة الثانية لفيليب الخامس ، إليزابيث فارنيز Elisabeth Farnèse ، إبنة دوق بارما ، وتأثير أبناء بلدها ، الذى دفعته فى الأعمال ، والذى نجحت فى أن تجعل منه مايشبه الوزير ، الذى يسير الأمر ، وهو ألبيرونى Albironi .أماالإيطاليين ، والذين كانوا قد تعودوا على الخضوع للسيطرة الإسبانية ، فإنهم أظهروا عدم رضائهم من الوقوع تحت سيطرة الألمان ، وفكر الكثير من بينهم فى ضرورة

التحرر منها . وكان ألبيرونى من بين هؤلاء : فكان يعتقد فى بعض آراء التحرر ، وفى نفس الوقت فى الوحدة الوطنية . وكان يأمل فى أن يتمكن فى أحد الأيام من تحقيق ذلك ، بمساعدة الجيوش الإسبانية . ولم يكن من ناحية أخرى يميل الى التسرع : بل كان يرغب فى أن يترك للمملكة الوقت اللازم من أجل إعادة بناء قواتها ، العسكرية والبحرية . ولكن حذره فشل ، وبطريقة مفاجئة ، بمبادرات الدبلوماسية الفرنسية الإنجليزية .

ولقد عملت كل من لندن وباريس على إيجاد الوسائل اللازمة لتدعيم السلم ، حتى وإن كان ذلك عن طريق إدخال بعد الرتوش على معاهدات ١٧١٥ . وفيما بين ستانهوب Stanhope ، الوزير الأول للملك جورج ، وبين الآبى ديبوا Dubois ، المستشار الذى كان الوصى يصغى له ؛ تم الإتفاق ، فى خلال مقابلتين ، فى لاهاى وهانوفر ، فى صيف عام ١٧١٦ ، على مشروع إتفاقية صرف البرلمان الإنجليزى بعض الوقت قبل أن يوافق على مبدئها . وبعد أن تم الحصول على موافقة حكومة هولندا ، إنتهى الأمر إلى عقد معاهدة لاهاى (٤ يناير ١٧١٧) ، التى أكدت معاهدة أوترخت ، ولكنها منحت بعض الإرضاءات الإضافية للانجليز وبخاصة أمر طرد مدعى العرش من آل إستيوارت ، ووقف فرنسا الأعمال التى كانت تقوم بها فى ميناء مورديك ، والتى حاولت بها أن تنشىء دنكرك جديدة . ومنذ ذلك الوقت ، سوف يتحدثون فى أوروبا عن «تحالف لاهاى الثلاثى» وهو تحالف دفاعى ، ومحافظ ، وهدفه موجه ضد ملك إسبانيا والمشروعات التى كانوا ينسبونها إليه . وإقترحوا دعوة فيليب الخامس لقبول مراجعة البنود الإيطالية لمعاهدة أوترخت : وسوف يعطى إرضاء للامبراطور ، وذلك بالتنازل له عن صقلية ، فى نظير سردينيا . وبهذا الثمن، لم يكن هناك شك في أن شارل السادس

مرسوم يعترف بشركة أوستند على أنها شركة نمسوية ذات إمتياز من أجل التجارة مع الهند الشرقية والهند الغربية . ولكن هذا كان هو الميدان الذى كانت « الدول البحرية » تدعى حق الاحتفاظ به لنفسها . فإحتجت لدى حكومة فينا على ما إعتبرته خرقاً للمعاهدات . وتحدثوا عن سفن الشركة إختفت بطريقة غامضة أثناء سيرها ، وذلك فى الوقت الذى إهتم الدبلوماسيون فيه بالمسألة دون أن يصلوا إلى حل لها .

وكان شارل السادس الذى يرى من بعيد ، ويرى كثيراً ، له آمال أكبر من ذلك وطموحات أهم ، بالنسبة للبحر المتوسط . فكان قد وضع فى رأسه ، ومنذ أول حكمه ، أمر أن يجعل من النمسا ، والتى كانت قـــد عادت من جديد إلى نابولى — وسرعان ما تعود إلى صقلية — دولة بحرية وتجارية كبرى . وتم عقد معاهدة تجارة مع السلطان ، بعد عقد الصلح معه ، فى عام ١٧١٨ ، فى بساروفيتز . ثم صدرت خطابات مختومة تمنح إحدى الشركات الامبراطورية ذات الامتياز ، إحتكار الحق فى المتاجرة مع الدول العثمانية ، عن طريق البحر أو عن طريق البر . وأخيراً ، تم إعلان تريستا وفيومى ، وهما مخرجا النمسا على البحر الادرياتى ، ميناءين حرين ، حتى يسمح لهما بالتنافس ، وبقوة متعادلة ، مع جنوا وليفورنو . وظهر العلم النمسوى فى البحر المتوسط ، وحيث لم يكن معروفاً إلا قليلا . وأعلن الامبراطور حتى أنه سيأخذ تحت حمايته كل مدن إيطاليا التى كانت على علاقات صعبة مع نيابات شمال إفريقية . وهدد عالياً بإعادة القراصنة ورؤساء البحر فى شمال إفريقية إلى صوابهم . ولكننا نلاحظ من ناحية أخرى أنه لن يكون لهذه السياسة الجديدة المعلنة فرصة لكى تحقق ثمارها . ذلك أن شركة الشرق ، الجديدة ، قد واجهت صعوبات مالية إلى درجة أنها إختفت بعد مايقرب من عشر سنوات . ولن تصل تريستا ، تلك المدينة الصغيرة التى يسكنها بضعة

آلاف من السكان ، إلى مستوى المركز الكبير للمبادلات الدولية ، إلا فى أثناء الربع الأخير من القرن .

٤ — تقارب إسبانيا من النمسا :

وقع ذلك الفتور فى العلاقات بين النمسا والدول البحرية فى تلك اللحظة التى كانت فيها إسبانيا ، التى خاب أملها ، قد تركت العلاقات التى كانت تربطها بلندن وباريس تأخذ فى الارتخاء . وجاءت أحداث عام ١٧٢٤ لكى تسرع بالتطور الذى كان يتم . وكان الحدث الأكثر ظهوراً قد وقع فى فرنسا . وحيث كانت حكومة دوق دى بوربون ، والتى كانت ترغب فى تزويج الملك الشاب فى أقرب فرصة ممكنة ، قد أخذت قراراً بقطع الصلة التى كانت قد تقررت مع الأميرة الاسبانية : وكان صغر سن الخطيبة للغاية يؤجل تحقيق الزواج لوقت طويل . ولذلك فإن الأميرة ، التى كانت تربى فى باريس ، سوف ترسل إلى والديها . وتسببت هذه الحركة غير الرشيقة فى نشأة شعور بالمهانة الشديدة ، فى إسبانيا ، فى كل الأوساط ، وبخاصة فى البلاط . وأصبح واضحاً منذ ذلك الوقت أن مؤتمر الدبلوماسيين المنعقد فى كامبراى لتسوية مسائل الخلافات التى نتجت عن المعاهدات ، لن يصل إلى التغلب على الصعوبات التى سجلها فى يومه الأول . وكانت المسألة الأساسية هى مسألة وراثة الدوقيات الايطالية . وكان الامبراطور قد أكد بكل وضوح سيادته على بارما وبليزانس . ورفض إعطاء موافقته على أى وعد بالتوالى يمكنه أن يؤخذ عنوة من الدوق المتولى الحكم . فأظهرت الحكومة الاسبانية ،منذ عوده الأميرة من باريس ، ضيقها ، وإستدعت ممثلها . وإنفض مؤتمر كامبراى فى غام ١٧٢٥ ، دون أن يصل إلى شىء

وسوف يوجد الحل ، حتى وإن كان مؤقتاً ، لتلك الصعوبات ، فى فينا . وظهرت السياسة النمسوية فى هذه الفترة على أنها على درجة كبيرة من عدم

التناسق ، وعلى درجة كبيرة من الخضوع للمشغوليات الشخصية ، مثلها فى ذلك مثل السياسة الاسبانية . ففى اسبانيا ، كانت أعلى مصالح الدولة خاضعة ، ومنذ سنوات ، لسيطرة طموحات ملكة أجنبية ، ورغبتها الجموحه فى أن تضع فى أماكن براقة أبناءها الذين لم يكن لهم أن يحكموا . وفى النمسا ،كانت المشغولية الأولى ، إن لم تكن الوحيدة للإمبراطور ، تتمثل فى أن يضمن وراثة العرش لابنته الكبرى ماريا تريزا — فلم يكن له سوى بنات — وذلك فى غير صالح أبناء عمها ، والذين كان من حقهم وحدهم أن يحكموا ، طبقاً للقوانين السارية . وفى هذا الشأن . أصدر شارل السادس ، منذ عام ١٧١٣ ، قراراً عرف بإسم « الموافقة المصلحية » Pragmatique Sanction . ولكنه كان يخشى من أن خصوم النمسا سوف يعلنون ، فى ذلك اليوم ، أنهم ضد الامبراطورة الجديدة، ويؤيدون أحد المتنافسين ، وينتج عن ذلك نشوب الحرب الأهلية . وكلما مرت السنوات ، كلما زادت الفكرة رسوخاً فى ذهنه بضرورة إبعاد مثل هذا الخطر ، وذلك عن طريق الحصول من الدول الأجنبية على وعد رسمى الاعتراف بملكية ماريا تريزا . ومادامت الفرصة قد حانت ، فإنه سيتجه صوب اسبانيا فى المكان الأول .

وأيضا نجد أن المفاتحات الأولى من أجل التقارب قد جاءت من مدريد . وكانت الملكة ، اليزابيت فارنيز ، لا تزال توجه السياسة الاسبانية ؛ وكان طموحها الكبير هو دائماً ضمان مستقبل ايطاليا وفى نفس الوقت ضمان مستقبل أولادها . وحصلت منذ عام ١٧٢٤ على ضرورة القيام بمفاتحات فى فينا ، بكل سرية ممكنة ، وبواسطة أحد المقربين منها ، وهو بارون ريبردا Ripperda ؛ الذى كان من أصل هولندى ، والذى سوف يلعب بعد ذلك مباشرة فى مدريد نفس الدور الذى كان لألبيرونى من قبل ، وهو دور المستشار المسموع الكلمة.

ودوق رئيس الوزراء غير الرسمى . وهذه المفاتحات دلت على جهل مثير للدهشة بالأوضاع الحقيقية للدولتين ، الواحدة التى كانت تستمر منذ جيل فى الإتساع ، والأخرى التى كان إنهيارها يتأكد كل يوم أكثر . ولذلك فإن حكومة النمسا وجدت بعض الصعوبة من أجل إخفاء دهشتها . ومع ذلك فإنها ، نظراً لرغبتها فى الخروج من العزلة التى كان موقف حلفائها قد فرضها عليها ، وافقت على الإستمرار فى المحادثات . ولم يكن الأمر يتعلق ، فى ذلك الوقت ، إلا بتأكيد أمر الوفاق المتبادل ، والذى يهدف إلى أن يظهروا لأوروبا ذلك التضامن الجديد ، بين فينا ومدريد . ولم يبد ملوك إسبانيا على أنهم يرغبون فى الإسراع فى التوقيع على الوثيقة التى كان ريبردا قد أعدها . وجاء الخبر الخاص بإرسال الأميرة الاسبانية فى ذلك الوقت لكى يجعلهم يكفون عن التردد . فإنضم ملك إسبانيا رسميا « للموافقة المصلحية » (أول مايو ١٧٢٥) . ووعد الإمبراطور ، بعد ذلك بقليل ، بالتدخل فى لندن ، من أجل إعادة التنازل عن جبل طارق .

ولكن ريبردا لم يكتف بذلك . وبعد أن إستقر فى فينا ، إستمر فى القيام بحركاته حتى أنه حصل ، بعد عدة أشهر ، على معاهدة جديدة ، وكانت سرية هذه المرة ، وتعطى إرضاء لإدعاءات الملكة إليزابيث : فسيكون لإبنيها ، دون كارلوس من ناحية ، ودون فيليب من ناحية أخرى ، الحق فى أرشيدوقات ، حين يبلغ كل منهما سن الرشد ؛ هذا علاوة على تبادل الحكومتين الوعد الرسمى بتأييد كل منهما الأخرى ، بكل قوتها ، فى حالة إذا ما تطلب الموقف فى أوروبا ذلك . وسوف تسجل معاهدة ٥ نوفمبر فى التاريخ فيما بعد تحت إسم « معاهدة فينا الأولى » .

وفى لندن ، كان من الطبيعى أن يثير ذلك التقارب ، بين النمسا وإسبانيا ، المخاوف . ولذلك فإن أمر الوفاق مع فرنسا أصبح مطلوباً أكثر مما كان عليه فى أى وقت آخر . وجاءت وزارة جديدة . كان روبرت والبول Robert Walpole

سوف يوافق على الإعتراف بالأسرة الإسبانية الحاكمة الجديدة. أما فيليب الخامس فإنه ، بعد أن يطمئن من هذه الناحية ، لن يتهرب من رغبة الوصى ، والذى كان ينتظر منه تنازلا صريحا جديداً ، بالنسبة له ولذريته ، عن عرش فرنسا : خاصة وأن صحة الملك الجديد كانت تثير بعض القلق .

ولكن المشروعات الأنجلو فرنسية ، بعد أن أبلغت إلى مدريد ، لم تقابل هناك إلا بكل برود : فكان نجاحها يقلل إلى درجة العدم من مشروعات ألبيرونى ومن طموحات سيده . وحاولوا بلا جدوى أن يثبتوا أن الإمبراطور كان يعمل من أجل أن يسيطر على إيطاليا فكان لايخفى وجهات نظره بشأن صقلية ، ولاحتى توسكانيا ، وحيث كانت أسرة مديتشى على وشك الإنتهاء . وإستمرت المناقشات جارية حتى جاءت ، فى شهر مايو ١٧١٧ ، إحدى الحوادث غير المتوقعة — وهى إلقاء القبض على رئيس محاكم التفتيش الإسبانية، عند مروره فى ميلان — لكى تشعل نار الصراع ، والذى كان البعض يخشونه ، والبعض الآخر يأملون فيه . ولقد رأى ألبيرونى أن الوقت كان غير مناسب ، وكان عليه ، لكى يحتفظ بمكانته ، أن يتحمل حركات الغضب الموجودة فى البلاط . وتم إرسال أحد الأساطيل إلى سردينيا ، والتى كان أمر غزوها أسهل من عملية غزو صقلية . وإذا ما تركنا عملية محاصرة كاليارى جانباً ، فإن الإحتلال قد تم تقريباً دون حرب .

وإستمرت فرنسا وإنجلترا فى عملها فى مدريد ، وبرغبة قوية من أجل وقف الصدام فى أقرب وقت ممكن . ومادامت الحكومة الاسبانية كانت عنيدة فى أن تلعب الدور الخطير ، فإنها سوف يمدان أيديها لخصمها . فتمت دعوة الإمبراطور لكى ينضم إلى الحلفاء فى لاهاى ، وسيتحول «التحالف الثلاثى» إلى «تحالف رباعى» . وكلف على صقلية ، بالفعل أن تغير سيدها ، وتعود إلى سادتها القدماء . ولكن الأمر كان لايزال يحتاج إلى الحصول على موافقة مدريد ، الأمر الذى كان

يستتبع أن يجدوا حلا مشرفاً للصدام الموجود . وإتفق الفرنسيون والإنجليز على أن يتقدموا بوعد بإعطاء توسكانيا للابن الأكبر لإليزابيث فارنيز ، وهو الذى كان قد ولد لها من زواج أول . ووصل الحال بوزارة لندن حتى إلى أن تعرض أمر إعادة جبل طارق : وكان فى ذلك مايكفى تماماً لشرح الثمن الذى كانت مستعدة لتقديمه من أجل المحافظة على السلم ، أو إعادته من جديد . وأظهر ألبيرونى إستعداده للموافقة . ولكن الملكة التى كانت متحمسة من أجل تحرير إيطاليا ، أبعدت كل المساومات المقترحة . وبدأت عمليات عسكرية جديدة ، وفى هذه المرة ضد صقلية . ولم تواجهها أية مقاومة منظمة من جانب أبناء سافوا .

وفى أثناء ذلك الوقت ، كان صبر إنجلترا قد نفذ . فسافر أحد أساطيلها ، بقيادة الأميرال باينج Byng ، صوب صقلية وبدأت المعركة عند مدخل خليج مسينا ، عند إرتفاع رأس باسارو ، وبعد بضع ساعات لم يعد الأسطول الإسبانى له وجود (١١ أغسطس ١٧١٨) . وشعرت حكومة فيليب الخامس ، والتى لم يكن فى وسعها بناء أسطول آخر ، أنها مضطرة إلى أن تعلن ، على الأقل ، الحرب على إنجلترا . ولذلك فإنه أصبح على حلفاء لاهاى أن يفرضوا رغباتهم بقوة السلاح . وكان فى وسع فرنسا ، وحدها ، أن تتدخل بفاعلية ، لأنه كانت لها حدود مشتركة مع إسبانيا . ولم يقرر الوصى ذلك إلا بعد تردد طويل . ذلك لأنه كان لايوافق على أن يحارب حفيد لوى الرابع عشر .

وهكذا نجد أن الحرب قد أعلنت ، فى شهر يناير ١٧١٩ ، وتم تكليف دوق بيرويك Berwick بالقيام بالعمليات . وبعد أن خرج من بايون ، إستولى على فونت آرابى ، وسان سباستيان ، ثم إنتقل إلى حدود كتالونيا ، وحاول أن يعيد إحياء ذلك التهديد الذى كان دائماً موجوداً ، والخاص بإنفصال كتالونيا . ثم دعوا فيليب الخامس إلى أن يضحى بوزيره ، والذى إعتبروه على أنه يمثل العقبة الرئيسية على طريق السلم . وتحت ضغط ضرورة حادة ، وافق على ذلك قبل نهاية العام .

وكان هذا إعلاناً عن قرب خضوعه . وانضم ، بمعاهدة مدريد (يناير ١٧٢٠)، إلى تحالف خصومه ، «تحالف لاهاى الكبير» . وسيكون فى وسعه الآن أن يعود أدراجه . فكان عليه فى مايو التالى أن يخلى صقلية وسردينيا ؛ ثم كان عليه فى شهر يونيو أن يرضى مطلب بشأن تنازل رسمى مزدوج ، من ناحية فيما يتعلق بتاج فرنسا ، ومن ناحية أخرى فيما يتعلق بالأقاليم الإيطالية التى كانت قد تركت فيها مضى للامبراطور . وستتم تسوية مجموع الصعوبات القائمة بين النمسا وإسبانيا فى مؤتمر الدبلوماسيين ، ستتم دعوته فيما بعد .

وفى نهاية الأمر ، سيكون دوق سافوا هو الضحية الرئيسية فى تلك الأزمة التى نشأت بين جيرانه : وبعد أن أخذوا منه صقلية لكى يعطوها للامبراطور ، لم يحصل على أية ترضية أخرى سوى أن يرشحوه كوريث لبوربون إسبانيا، فى الحالة التى تنتهى فيها ذرية فيليب الخامس ، وكانت إمكانية قليلة التوقع .

٢ ــ النمسا فى البحر المتوسط :

مرت خمس سنوات ، وكانت إسبانيا ، التى استمرت فى الاحتفاظ بذكريات عظمتها السابقة ، تحاول أن تقف من جديد فى وجه تلك الأوضاع السيئة التى كانت أوربخت قد فرضتها .

وكان فيليب الخامس يميل إلى أن يعتقد ورغم الصلح الذى تم التوقيع عليه فى مدريد ، فى أن العرض الخاص بإعادة جبل طارق ، والذى كانت حكومة لندن قد تقدمت به من نفسها وبكل حرية فى أثناء الأزمة ، لايزال سارياً . وبعد أن أخذ رأى عمه ، الوصى على عرش فرنسا ،حاول أن يدخل من جديد فى مفاوضات بهذا الشأن . وبعد أن علم الرأى العام الإنجليزى بذلك ، وألقت الصحافة النار واللهب، وقعت المقترحات الإسبانية فى فراغ. وتابع الوصى بنفسه هذه المفاوضات بعد عدة أشهر، وبعد تغيير الوزارة فى لندن : وكان رد تاونسند Townshend، الوزير الجديد أقل تشجيعاً من رد ستانهوب Stanhope ، الوزير السابق .

وستحاول مدريد أن تستغل حسن النية التى كانت إسبانيا قد وجدتها لدى باريس فى هذه الظروف ، خاصة وأنها كانت تعتقد فى أن فرنسا كانت تحاول أن تتخلص من تلك الفروض التى اتهم البعض السياسة الإنجليزية بفرضها عليها . وسرعان ما بدأ الدبلوماسيون عملهم . ونتج عن ذلك ، ومنذ شهر مارس ١٧٢١ ، عقد معاهدة سرية بين البلدين ، نصوا فيها على الوعد الإنجليزى الخاص بجبل طارق وكأنه دائماً سارى المفعول ، وكذلك على أمر وراثة إمارتى بارما وتوسكانيا ، واللتين كانتا قد وعدتا من قبل لإبن إليزابيث فارنيز ، وكما لو كانت هذه المسألة الأخرى ،هى كذلك ، من إختصاص السياسة الفرنسية . وكان هذا التصالح الذى بدأ بهذا الشكل سوف يتوج ، بعد قليل بخطبة لوى الخامس عشر لإحدى بنات فيليب الخامس ، وبزواج أمير أستريا ، الإبن الأكبر لفيليب الخامس ، من إحدى بنات الوصى على عرش فرنسا .

وهذا التقارب الفرنسى الاسبانى ، سرعان ما يتبعه وقوع خلاف كبير بين النمسا وبين الدول البحرية ، إنجلترا وهولندا . وكان هذا هو التفكك الكامل لذلك النظام الذى كانت الرغبة السلمية المشتركة لدبوا وستانهوب قد أظهرته إلى الوجود .

وعلينا أن نبحث عن السبب الرئيسى لتغيير موقف النمسا فى مسألة شركة أوستند . ذلك أن الملاحة كانت ممنوعة دائماً على نهر الاسكوت ، وكان ميناء أنفرس لا يستخدم . ولذلك فإن تجار الأراضى المنخفضة وضعوا مشروعاً لكى يجعلوا أوستند تلعب ذلك الدور الذى كانت أنفرس تقوم به من قبل . وقام أصحاب السفن فى أوستند بإرسال بعض سفنهم إلى البحار البعيدة ، وعادت هذه السفن تحمل الشاى والتوابل والحرير . ووافق الامبراطور شارل السادس ، والذى كان يميل إلى آراء التوسع الإقتصادى ، على أن يوقع ، فى عام ١٧٢٢ على

ولذلك ، فإنه إستمر فى المحادثات الجارية مع مدريد ؛ ولكنه أدخل الحكومة الإنجليزية ، وأشركها فيها . وتم إعداد معاهدة ، فى هدوء ، بين الدول الثلاث ، وتم التوقيع عليها فى إشبيلية يوم ٩ نوفمبر ١٧٢٩ . ولم تطرح فيها بطبيعة الحال مسألة جبل طارق. وقام الفرنسيون والانجليز فقط بالموافقة على ضمان الدوقيات موضع الطمع لدون كارلوس ، للإستيلاء عليها؛وأصبح فى وسع القوات الاسبانية حتى أن تذهب وتقيم مسبقاً فى مواقعها الرئيسية . وعادوا ، بالاجمال ، إلى حالة الأوضاع التى كانت موجودة قبل عام ١٧٢٤.ولم يمثل التقارب النمسوى الاسبانى فى هذه المسألة سوى وقتا قصيراً ، ومحصوراً ، يقل عن خمس سنوات .

وبقى بعد ذلك أن يحصلوا من الامبراطور على أمر إعادة الدوقيات،ولم يكن هذا بالأمر السهل فلقد أعلن فى أول الأمر أنه سيعارض بالقوة أمر نزول القوات الاسبانية . ولما كان دوق بارما قد توفى ، فى عام ١٧٣٠ ، فإن أزمة جديدة كانت على وشك الانفجار : فاحتل شارل السادس بارما وبليزانس عسكرياً. فإنفجرت الحكومة الاسبانية فى التهديد . ومرة جديدة عملت فرنسا وانجلترا ، منفصلتين ، وإن كانتا ممتلئتين بالرغبة فى السلم ، ونجحتا فى تهدئة الخصوم . وفى هذه المرة ، كان على الوزارة الانجليزية، برئاسة والبول Walpole،أن تقوم بالعمل الدبلوماسى، وقامت به، فى أول الأمر ، لحسابها وحدها . وإنتهت المفاوضات الطويلة التى دخلت فيها ، عند نهاية عام ١٧٣٠ ، إلى تقارب مع النمسا ، التى وافقت على « معاهدة فينا الثانية » (١٦ مارس ١٧٣١) . ووافقت لندن ، بدورها على « الموافقة المصلحية » ، وذلك فى الوقت الذى أعطى فيه شارل السادس لشركائه أمر الالغاء النهائى لشركة أوستند .

وظلت كل من فرنسا وإسبانيا بعيدتين : فلم يكن فى وسع فرنسا أن ترضى عن هذا الوفاق الجديد بين حليفة عام ١٧١٥ ، وكانت إسبانيا تخشى من حدوث

معارضات جديده لتحقيق المشروعات الإيطالية. ولذلك فإن معاهدة فينا الثانية أثارت قلقاً فى مدريد أكثر مما أثارته فى باريس. وشعروا هناك بأنهم كانوا معزولين، وبشكل خطير. ولقد فكر البعض ، من جديد ، فى ضرورة توثيق العلاقات مع فرنسا . وكان شوفيلان مستعداً لكى يجيب بالموافقة على مفـــاتحات الدبلوماسية الإسبانية . ولكن فليرى فرض وجهات نظره. ولم يعد على إسبانيا إلا أن تحسب حساباً لموضع أقدامها . وأصبح عليها أن توافق على إعادة بناء تسوية إشبيلية ، حتى يخرج منها إتفاق أكثر عمومية ، ومتناسق مع الإتفاق النمسوى الإنجليزى الأخير . وبهذه الطريقة تم عمل ما يشبه الملحق لمعاهدة فينا الثانية ، وكان معاهدة جديدة نمسوية إسبانية (٢٢ يوليو ١٧٣١). ونتيجة لها إنضم ملك إسبانيا بدوره إلى « الموافقة المصلحية » ؛ وأكد شارل السادس حقوق دون كارلوس على بارما وبلعزانس ؛ وإنضم إلى إتفاقية الدول الأخرى بشأن الوراثة المقبلة لتوسكانيا إلى أسره فارنيز .

* * *

وكانت إسبانيا هى المسئولة الرئيسية عن تلك السلسلة من الأزمات التى كانت قد خنقت أنفاس أوربا لمدة خمسة عشر عاماً ، بعد عقد معاهدات أوترخت . وخرجت منها ، إن لم تكن مهزومة تماماً ، فعلى الأقل وقد عزلت لفترة طويلة عن أهميتها السالفة ، ووضعت فى صف الدول الثانوية. ولقد حاولت ، بلا جدوى، أن تثور على هذا التدهور الحتمى لدورها ، والذى يمكننا أن نفهمه ، من بعيد ، كنتيجة لإنخفاض طاقتها البشرية والإقتصادية. وكان عليها أن تنحنى مرات عديدة أمام الرغبات الصارمة لجيرانها الفرنسيين والإنجليز ، والتى كانت تقيس نفسها فى الماضى معهم ، وعلى قدم المساواة .

ومع ذلك ، ففى إيطاليا ، ستكون السياسة الإسبانية ، فى الربع الأول من

القرن ، وهى التى كانت تتطابق مع سياسة فارنيز ، نتائج طويلة الأمد . وفى عام ١٧٣١ ، بدا أن إليزابيث فارنيز قد وصلت إلى أهدافها : فأصبح مستقبل إبنيها من زواجها الأول مضموناً . أما فيما يتعلق بدون كارلوس ، فإن مستقبله كان قد وصل إلى نهايته . فعند نهاية العام ، قام أسطول أنجلو إسبانى بإنزال فرقة من ستة آلاف جندى فى ليفورنو ، من أجل إحتلال الدوقيات . ووصل دون كارلوس بعد قليل ، وأقام لفترة من الوقت فى فلورنسا ، عند الدوق الكبير - الذى لم يرحب به كثيراً — ثم ذهب لإستلام بارما .

ولكن الأمر كان يحتاج ، فى كل القطاع الإيطالى ، لإعادة بناء من جديد . فلقد حدثت ، بعد معاهدة فينا الثانية بعامين ، أزمة الوراثة البولندية. ورغم أنها كانت ، فى أصولها ، لا تهم بلاد البحر المتوسط فى شىء ، إلا أنه سيكون لها نتائج طويلة المدى على إيطاليا ، وذلك بإعادتها طرح مسألة مصير الأقاليم التى كان أمر منحها قد شغلت لحد بعيد كل السفارات ، منذ عام ١٧١٥ .

الفصل الخامس والعشرون

وراثة بولندا، وزيادة العداء الروسى العثمانى

١ ـ ضعف بولندا، وزيادة نفوذ روسيا :

كانت المؤثرات التى نتجت فى أوربا الغربية عن تلك الأزمة الطويلة للعلاقات النمسوية الإسبانية، والتى تلت معاهدات أوترخت، لم تؤثر فى شرق القارة إلا قليلا. وتمكنت بولندا، والتى كانت قد تأثرت فى الماضى إلى حد بعيد بذلك الصراع بين بطرس الأكبر وبين شارل الثانى عشر، من أن تنعم طويلا بمزايا ذلك السلم الذى عاد. ولكن هذه الفترة السعيدة سوف تنتهى فى عام ١٧٢٣ وبعد أن تنتهى أزمة الوراثة التى بدأت فى هذا التاريخ، ستظل المسألة البولندية مطروحة باستمرار أمام أوربا لفترة تزيد على خمسين عاماً. وستكون الطريقة التى سوف تتقرر بها فى نهاية الأمر أكبر مأساة دولية ـ وأكبر خزى ـ فى ذلك القرن الذى سمى بقرن النور.

وكان الموقف فى بولندا قد تغير بعمق منذ أن كان بطرس الأكبر قد مر فيها. فلم تعد تمثل تلك القوة العسكرية الرئيسية فى الشرق. وكان القيصر، فى الوقت الذى أعاد فيه أوجست الثانى إلى صهوة جواده، قد فرض عليه أمر عدم الإحتفاظ بأكثر من ٢٤٫٠٠٠ من الجنود النظاميين. أما السكسون، الذين وصلوا إلى أخذ تاجها، نتيجة لتأييد الحراب الروسية، فإنهم لم يحاولوا التخلص من هذه التبعية حتى بعد وفاة بطرس. وكان الملك السكسونى يعيش للذته ولنزواته. وكان قد قنع بسهولة بأن يكون خيال الملك فى دولة تابعة. وفى عام ١٧٢٧، تمكن أحد أبنائه غير الشرعيين، وهو الذى سيأخذ لنفسه فيما بعد مكاناً فى تاريخ فرنسا

وزير المالية يمارس فيها نفوذاً مسيطراً ، لكى تعمل على تدعيمه ، وبالإتفاق مع الكاردينال فليرى Fleury ، الذى كان الرئيس الفعلى للحكومة الفرنسية بعد سحب الثقة من دوق بوربون . ولقد أثير هذا الموضوع فى المحادثات التى تمت فى شهر سبتمبر ١٧٢٥ فى قصر هرنهوزن ، قرب هانوفر بين الملك جورج ، ومعه الوزير تاونسند Townshend ، وبين دوق بروجلى Broglie ، ممثل الكاردينال فليرى . وبعد قليل ، إنضم فردريك ويليام الأول ، ملك بروسيا ، إلى هذا الوفاق الفرنسى الإنجليزى ، وذلك مع فكرة خفية عن أن يحاول إستخدامه ، وقت الضرورة ، لكى يوقف الروس عند حدهم .

ذلك أن الغيوم كانت قد بدأت فى التجمع على سواحل بحر البلطيق . وكان أحد صغار الأمراء ، الكثير الحركة ، وهو دوق هولشتاين Holestein ، قد قرر أن يطالب ، وحتى بقوة السلاح إن إحتاج الأمر ، بالحقوق القديمة التى كانت لأسرته على شليزفيج ، والتى كان الدول قد إعترفت بإمتلاك الدانمرك لها . وتمكن من الحصول على تأييد السياسة الروسية ، والتى كانت ، ومنذ وفاته بطرس الأكبر مباشرة (فبراير ١٧٢٥) . وتحت تأثير منشيكوف Menchikov ، الوزير المسير للأمور لكاترين الأولى ، قد أخذت فى الإهتمام ، من جديد بشئون المضايق وبدأوا يتحدثون عن حملة بحرية كان يتم الإعداد لها فى ريفال . وأظهر الإنجليز أنهم مستعدون للرد بقوة . وأخذت الأساطيل فى التجمع فى موانيهم . وسيطر الخوف على ملك بروسيا ، ولم يعد يفكر إلا فى الإنسحاب من التعهدات التى كان قد أعطاها فى هرنهوزن : فوقع مع الروس على معاهدة حياد ، وتقرب بإتفاقية سرية من جيرانه النمسويين . وفى أثناء ذلك الوقت ، كانت بعض سفن الأسطول الإنجليزى قد دخلت إلى بحر البلطيق ، حيث إنضمت هناك إلى أسطول الدانمرك ، وأقلعت جميعها حتى إقتربت من ريفال . أما الروس ، فإنهم قد خشوا من ذلك ،

وإستقر رأيهم على ضرورة القيام بتقارب مع النمسا . ووجد شارل السادس أنه سيد الموقف ، وأن فى وسعه أن يفيد من ذلك : فنح فى ٦ أغسطس ١٧٢٦ البروسيين والروس ميثاقاً دفاعيا ، وذلك فى الوقت الذى حصل فيه ، من هذا الطرف ومن الطرف الآخر ، على موافقته على « الموافقة المصلحية » . وسوف يصبح هذا التحالف النمسوى الروسى الجديد أحد العناصر الدائمة للسياسة الاوروبية .

٥ ـ الدبلوماسية الفرنسية (فليرى) ومعاهدة فينا الثانية :

وفى أثناء ذلك الوقت كانت الحكومة الاسبانية قد إنزلقت شيئاً ما صوب القطيعة مع إنجلترا . وكانت مظاهرات مهددة للأساطيل البريطانية قرب سواحل شبه الجزيرة ، وفى أمريكا أمام بورتو بللو ، والتى كانت تخرج منها الأساطيل ، قد تسببت فى القيام باجراءات إنتقامية . وفى شهر ديسمبر ١٧٢٦ ، قرر فيليب الخامس ، ودون أن يعلن الحرب ، أن يرسل جيشاً لمهاجمة جبل طارق . وتم حفر الخنـــادق فى شهر فبراير التالى . وسواء برضاه أو رغماً عنه ، إضطر الامبراطور ، والذى كان مرتبطاً بتعهداته حيال مدريد ، إلى أن يقوم بدوره بطرد السفير الانجليزى . ولكنه كان مصمماً كل التصميم على عدم الاشتراك فى الحرب . وكان مستعداً كل الاستعداد للإستماع لذلك النداء الذى سوف توجهه إليه الحكومة الفرنسية .

وكان الكاردينال فليرى قد وصل إلى السلطة وله من العمر ثلاثة وسبعين عاماً . وسوف يموت ، دون تركها . وله من العمر تسعين عاماً . ولذلك فإنه سوف يدير السياسة الفرنسية فى خلال فترة طويلة ، وجعلها تتشبع بروح سلبية تماماً ، نسبوها بشكل عام إلى كبر سنه ، وإن كانت تدل على الاعتقاد الشديد فى أنه من الضرورى الاحتراس بعيداً عن القيام بأية مغامرة جديدة ، بعد الكوارث التى

كانت قد نزلت بالبلاد فى أثناء الجيل السابق . وكانت إحدى دلائل نجاح هذا المصالح الكبير تتمثل فى مشورة ، وعن طريق المفاوضات المباشرة ، على أسس عقد إتفاق مع النمسا . وما أن وصلوا إلى ذلك ، كان يكفى إعلام مدريد به ، مستخدماً فى ذلك نغمة معينة ، لكى يجد فيليب الخامس نفسه مضطراً إلى عدم التشدد . فتم رفع الحصار عن جبل طارق فى عام ١٧٢٧ . ثم تمت مفاتحات من أجل السلم ، وتم التوقيع عليها على التوالى فى فينا ومع مدريد ، من أجل عقد مؤتمر جديد ، تتم فيه معالجة المشكلات المطروحة ، بدون تسرع : ووافق الامبراطور مقدماً ، على أن يعد بالتناء شركة أوستند . وعلى الرغم من التجربة التى كانت قد حدثت فى كمبراى ، ذهب ممثلوا إسبانيا — وهى اسبانيا التى كانت قد هزمت للمرة الثانية — إلى مقر اجتماع المؤتمر فى سواسون ، وهو المؤتمر الذى سوف ينعقد لمدة عام كامل (من يونيو ١٧٢٨ حتى يوليو ١٧٢٩). وقد وصلوا من خيبة أمل إلى خيبة أمل أخرى . وكانت القطيعة تهدد المؤتمر أكثر من مرة . ولقد تمكنوا رغم ذلك من تحاشى هذه القطيعة ، نتيجة لمجهودات السياسة الفرنسية .

ولقد إصطدمت سياسة فليرى ، وقبل أن تصل الى مدفها ، والتى كانت تسعى الى المحافظة على السلم ، بكل طريقة ممكنة ، بصعوبات كثيرة ، فى الداخل أكثر منها فى الخارج . وكانت تحارب بالفعل ، فى داخل الوزارة نفسها ، برجل كان قد وصل أخيراً إلى منصب وزير الدولة للشئون الخارجيه . وكان شوفيلان Chauvelin من أسرة تعمل فى القضاء والبرلمانات ، وكان يمثل نوعاً من التفكير الذى انتشر فى ذلك الوقت فى البلاط وفى الجيش ، وهو تفكير خصوم النمسا . وكانت حروب القرنين السادس عشر والسابع عشر قد أدت الى هذه النتيجة ، وهى التى كانت تظهر أمام الكثيرين من الفرنسيين عدواً وراثياً ، هو

إمبراطورية آل هابسبورج . وهذا العداء الجديد ، والذى كان يضع الفرنسيين فى مواجهة النمسويين ، لم يكن شبيه مثل العداء الفرنسى الإنجليزى ، تجربة عاشها شعب قام بسلسلة حروب طويلة مع جيرانه ، وخضع علاوة على ذلك لسنوات من الإحتلال الأجنبى . بل كان فكرياً ، بنوع خاص ، وتغذيه كتابات تاريخية ، أو تستند إلى التاريخ دون أن تكون منه ، ولها إتجاه سياسى . ولكن هذا لم يمنعه من أن يلعب دوره ، وطوال القرن بأكمله . وكان شوفيلان ، فى منصبه ، هو البطل الأول العلنى لهذا الإتجاه . وكان عمله ، والذى يستند إلى قاعدة عريضة ، تزيد من دقة عمل فليرى بشكل خاص : ذلك أنه كان علناً من أجل إسبانيا ، وضد النمسا وإنجلترا .

وفى مدريد ، كانت الملكة تمارس،فى ذلك الوقت ، نوعاً من الوصاية . وكان فيليب الخامس ، الذى إزداد تدهور صحته وقدراته بإستمرار ، قد ترك لها السلطة ، عملياً . وكان الترمل التى تشعر بأنه يهددها ، قد جعل منها شخصية أجنبية فى إسبانيا . ولذلك فأنها أظهرت قلة صبر ، وأكثر من أى وقت مضى ، من أجل التوصل إلى ضمان مستقبل إبنيها . وقامت ببذل مجهود أخير ، وبلا جدوى ، من أجل تزويج دون كارلوس من ماريا تريزا ، الوريثة المرشحة لأخذ تاج آل هابسبورج . وحين وجدت نفسها ، فى شهر فبراير ١٧٢٩ ، أمام رفض ، تقريباً صريح ، إتجهت فى هذا الوقت إلى ناحية لندن وباريس . وكانت عملية تغيير المواجهة هذه سريعة ، وعلى درجة من العنف ، كما كان عليه ذلك التحول الآخر ، فى عام ١٧٢٤ ، حين ألقت بنفسها بين ذراعى النمسا .

وكان شوفيلان مستعداً لكى يقوم بدور المدافع عن إسبانيا ، ضد إنجلترا والنمسا،وجاءته الفرصة لذلك.ولم يأخذ فليرى موقفاً واضحاً صريحاً ضد مساعده. فلم تكن هذه هى طريقته. هذا علاوة على أن أعوان وزير الدولة كانوا عديدين .

باسم موريس صاحب ساكس Maurice de Saxe ، من أن يحصل على وراثة لدوقية كورلاند ، بصفة شخصية . ولقد أثار هذا الحدث الكثير من الآمال فى وارسو . ولكن كورلاند لن تصبح بعد ذلك للبولنديين ، ولاحتى للروس ؛ والذين أدى تدخلهم المباشر إلى حصار ميتاو والاستيلاء عليها . وستمر إلى أحد رعايا قيصرة روسيا ، إلى بيرن Biren .

ولقد أظهر أوجست الثانى ، فى إحدى اللحظات ، رغبته فى أن يتقرب من فرنسا ، ولكنه لم ينجح إلا فى إثارة قلق جيرانه ، وأسهم بذلك فى أمر تدعيم التحالف النمسوى الروسى لعام ١٧٢٦ . وبعد بضع سنوات ، أدى هذا التقارب بين الدولتين العظمتين ، واللتين كانتا مهتمتين مباشرة وأكثر من غيرهما بمصير بولندا ، وفى خط موازى لذلك ، إلى انضمام فردريك ويليام الأول ملك بروسيا إلى سياسة وفاق وتضامن فى الشئون البولندية ، ستعطى نتائج لها بعدوقت بسيط والواقع أن وفاة أوجست الثانى ، فى عام ١٧٣٣ ، وضعت هذه السياسة على المحك. وسوف نرى فى أحداث السنوات التالية مقدمة مشابهة لتلك التى سوف تنتهى ، بعد ثلاثين عام من ذلك ، بالتقسيم الأول لبولندا .

٢ ـ أزمة الوراثة والتدخل الفرنسى :

ومنذ مايقرب من قرنين ، ومنذ أن سادت الممارسة الدستورية للنظام الإنتخابى فى بولندا ــ «كجمهورية» فريدة فى نوعها يحكمها ملك ــ كانت تنتج عن كل تغيير حكم ، أزمة داخلية خطيرة . وأصبح أمر منح التاج ، علاوة على ذلك ، موضوع منافسة دولية حقيقية . وفى كل مرة ، كانت السياسة النمسوية والسياسة الفرنسية ، واللتين كانتا ، الواحدة والأخرى ، مهتمتين بصداقة أكبر دولة فى الشرق تواجه كل منها الأخرى . وكان سفراء الدولتين ، والذين كلفوا بتأييد أحد المرشحين المختارين وبكل وسيلة ممكنة ، يتخاصمان ، ويتنافسان فى تقديم الهدايا

والوعود ، الحصول على الأصوات فى الدايت الذى سيقوم بعملية الإنتخاب .
وفى عام ١٧٣٣ سينتج عن الأزمة الجديدة للوراثة صدام مسلح .

وكان أمر الخضوع لموسكو مقبولا بدرجة أقل من جانب الأمة البولندية عن قبوله من جانب ملكها السكسونى . ذلك أن منتخب ساكس ، أوجست الثالث، وإبن أوجست الثانى ، والمتزوج من أرشيدوقة، قد وعدبأن يسيرعلى نفس الخطى التى كان والده قد سار عليها ؛ وكان هناك الكثيرون،سواء نتيجة لإعتزاز قومى ، أو لرغبة فى التخلص من تحكم سان بطرسبرج ، يرغبون فى التصويت فى صالح ستانيسلاس ليسزينسكى Stanislas Lesczinski ، والذى كان ملكاً سابقاً فيما مضى ، بسلطة شارل الثانى عشر . وكان ليسزينسكى يعيش معيشة فراغ ، وشبه بورجوازى ، فى قصر ويسيمبرج، فى الألزاس ؛ وكان يمثل النقيض الحى لمنافسه. ونظراً لعدم وجود أى مزايا أخرى واضحة ، كان من الممكن التوصية عليه لكى يختاره الوطنيون ، إذ أنه كان قد أصبح والداً لزوجة ملك فرنسا.وكانت المسألة ترجع إلى بضع سنوات من قبل ، وفى الوقت الذى كان لوى الخامس عشر لا يزال فيه مراهقاً . فلقد حاول وزيره ، دوق بوربون ، بعد أن حصل على أمر إبعاد الأميرة الإسبانية ، أن يعمل بجد لكى يجد للملك زوجة . وكان قد فشل فى لندن، وحيث كانوا لا يوافقون من حيث المبدأ على أى زواج كاثوليكى. كما أن المباحثات التى بدأت بعد ذلك فى بطرسبرج ، وبدعوة من القيصرة ، فشلت أيضاً لأسباب لم تبد واضحة تماماً أمام الفرنسيين ، وجعلتهم يشكون فى مؤامرات مدام دى برى Mme de Prie ، صديقة دوق بوربون . وفى ذلك الوقت ، وبدلا من أن يلتفتوا إلى فينا ، قاموا فى فرساى بهذا الإختيار وهم بدون أمل ؛ إختيار أميرة لها أصل وتقاليد متواضعة ، إبنة لأحد الملوك المعزولين ، والذى كان قد حضر وطلب حق اللجوء في فرنسا ، ويعيش فى فقر ، منذ سنوات ، من المعاش الذى

كانت الدولة تدفعه له . وتم الإحتفال بزواج ملك فرنسا من « الآنسة ليسزينسكى » كما تقول الأغانى الشعبية — فى إستراسبورج ، بتوكيل فى عام ١٧٢٥ .

وتقدم ستانيسلاس كمرشح لخلافة أوجست الثانى ، فى أول الأمر وحده أمام الدايت الإنتخابى . ورشحته الغالبية العظمى للنبلاء ، والتى كان كرم السفير الفرنسى قد أسهم فى كسبها . وسرعان ما إلتجأت الأقلية إلى قيصرة روسيا ، فتم إرسال قوات روسية إلى وارسو . وإضطر الدايت ، الذى حرم من عدد كبير من أعضائه ، إلى أن يوافق على أوجست الثالث . أما ستانيسلاس ، فإنه إنسحب إلى دانزيج ، لكى ينتظر هناك مجىء المدد من فرنسا .

ولم يكن أحد فى أوروبا يشك فى أن الفرنسيين كانوا مستعدين للدفاع عن مصالح والد زوجة ملكهم . وكان هذا من جانب آخر ، يتمشى مع خط سياستهم التقليدية : ذلك أن السكسونى كان متزوجاً من أرشيدوقة ، وظهرت روسيا ، فى شئون بولندا ، على أنها شريكة لحليفتها النمسوية . وكان شوفيلان ، بطبيعة الحال ، هو رجل الحرب . فتحدث بلهجة عالية ، ووجد له آذاناً صاغية : فكان النبلاء ، ومنذ وقت طويل ، لم يحصلوا على فرصة لخدمة الملك بقوة السلاح . وحاول فلىرى أن يقلل من جموح هذا الهياج من أجل الحروب ، والذى كان قد سيطر على أوساط البلاط والحكومة . ولكنه إضطر . مع الوقت ، إلى أن يترك له مكانه . ولذلك فإن فرنسا سوف تتدخل ، مادام الأمر يستلزم ذلك ، ولكن بتعرضها لأقل الأخطار .

وإستدار الكاردينال فى ذلك الوقت إلى ناحية لاهاى ، وحيث كان قلقهم قد ثار من إمكانية وقوع عمل فرنسى فى الأراضى المنخفضة ، وحيث كانت الفكرة قد ظهرت بضرورة تحييد البلاد المهددة . وستكون من مزايا التصريح المشترك ،

الذى سوف يعلن بهذا الشأن ، طمأنة الإنجليز وكذلك طمأنة الهولنديين . وبعد أن إطمأن فليرى من هذه الناحية،قرر ألا يعطى لحلفائه إلا مجهوداً عسكرياً محدوداً، وفى واقع الأمر ، غير كاف بشكل ملفت النظر وكانت معونة جيش بأكمله لازمة لتنصيب ستانيسلاس ليمزنيسكى : ولكنه أرسل فرقة من ألفى رجل . وحين وصل قائد الحملة أمام دانزيج ، وجد أنه من غير المجدى النزول برجاله إلى البر : فكان الموقع مزدحماً بالروس ، الذين كانوا يستعدون لمحاصرته.فعاد بجنوده إلى كوبنهاجن . وهناك ، تصرف السفير الفرنسى ، الكونت دى بليلو ، وفى ظل مشاعر الشرف ، وطالب بالقيادة ، وقام قبل أن تصله أوامر جديدة بالذهاب بالجنود إلى دانزيج . ودفع بهم بجنون ضد القوات المحاصرة ، وقتل على رأسهم (٢٧ مايو ١٧٣٤) . وما أن عاد الأسطول ، وهذه المرة بشكل نهائى ، حتى فر ستانيسلاس إلى كونيجزبرج ؛ ومرت دانزيج ، التى خضعت أمام القوة ، إلى أيدى قوات روسيا .

٣ — الحرب ومعاهدة فينا الثالثة :

ولقد كانت هذه المرحلة هى مجرد البداية . ومادام الفرنسيون قد قرروا عدم التدخل فى الأراضى المنخفضة ، فإنهم سوف ينقلون عمليات الحرب عند نهر بو وعند الراين .

وكان فليرى لا يحب المغامرات . وكان لا يتبع شوفيلان إلا رغماً عنه فى سياسته المعادية للنمسا تماماً ، والتى كان يتبعها بكل تصميم . وكان قد تم عقد معاهدة مع سافوا ، فى تورينو ، يوم ٢٦ سبتمبر ١٧٣٣ . وكان النص ، الذى كتبه شوفيلان بالكامل ،يظهر فكراً مختلف تماماً عن فكر رئيس الوزراء . ونقرأ فى مقدمتها : « من المعروف عالمياً أن الأسرة الحاكمة فى النمسا تسيء منذ وقت بعيد فى إستخدام القوة الموجودة لديها بدرجة كبيرة . . . ، ولكى يعملوا على

إفشال ذلك، يتمسكوا إذن بفكرة ، هذا التوازن المرغوب فيه للغاية ، والضرورى إلى أقصى حد . . وكان الهدف هو إرجاع إيطاليا للإيطاليين . وفى ٧ نوفمبر التالى : تم عقد معاهدة أخرى ، مع إسبانيا فى الاسكوريال ، من أجل الأعمال العسكرية التى سيقومون بها .

وعلينا أن نذكر فقط أن حاكم سافوا سيكون حليفاً مشكوكاً فيه : فكان فى واقع الأمر يأمل ، ومن أجل نجاح آماله فى العظمة ، فى الاعتماد على النمسا أكثر من إعتماده على إسبانيا . وحين تبدأ العمليات العسكرية ، فضح فيلار — الذى كان فى الثمانينات من عمره — والذى كان يقود الجيش الذى أرسل إلى ما وراء الألب ، سوء نيته المستمرة . ومنذ الأيام التالية لاعلان الحرب ، قامت القوات الفرنسية البيدمونتية بالدخول إلى ميلانو ، ثم تقدمت حتى أمام مانتوا ، بينما قامت القوات الاسبانية بغزو الصقليتين ، وقام رئيسها ، دون كارلوس ، بالاقامة فى نابولى . ولكن الأمور ظلت على هذا الحال . وبعد وفاة فيلار ، أصبح نجاح عمليات الحلفاء فى لومبارديا أكثر ندرة . وقنعوا بالمحافظـــة على الأراضى التى كانوا قد غزوها . أما فليرى ، والذى كان لا يميل إلى أية مغامرات عسكرية جديدة ، فإنه إنتظر بصبر وقت الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح .

ولقد حاول شارل السادس أن يجتـذب كل ألمانيا إلى جانبـه . وحصل من الدايت على أمر بتجهيز قوات للإمبراطورية . ولكنها كانت عملية طويلة ومعقدة إلى حد بعيد ، حتى أن هذه القوات لن يتم إعدادها إلا وقت التوقيع على الصلح. أما الجيش الفرنسى الآخر ، فى الشمال الشرقى ، فإنهم سلموا قيـادته لأحد القـادة العظماء للجيوش فى عصر لوى الرابع عشر كذلك ، وهـو الماريشال دى برويك Berwick ، أحد الأبناء غير الشرعيين للملك جيمس الثانى ، ملك إنجلترا . ولكى يحمى الحدود من خطر أى هجوم يقوم به الأعداء ، إتبع تقاليد القرن العظيم ،

وإحتل دوقيات اللورين . وفى الناحية الأخرى من نهـر الراين ، وفى مواجهـة بروبك ، كان النمسويون تحت قيادة الأمير إيوجين . أجنبي هو أيضاً ، بمولده ، ولحساب الدولة التى كان يخدمها بكل تفوق ، ومنذ وقت طويل . وقام بروبك بالإستيلاء على كبيل، وفرض الحصار على فيليبسبرج : وسوف يموت هناك قبل تسليم الموقع بقليل (يوليو ١٧٣٤) . أما الأمير إيوجين ، والذى كان هو أيضا فى آخر أيامه ، فانه لم يكن على نفس حسن الحظ الذى كان له فى الماضى ضد العثمانيين . وقصر أعماله على مجرد الدفاع عن نفسه ، وبكل صعوبة ، أمام حدود بافاريا . ووصله بعد ذلك المدد من القـوات التى كانت القيصرة قـد أرسلتها للإمبراطور تنفيذاً لمعاهدة ١٧٢٦ : فإتصلت أوروبا الغربية ، لأول مرة ، فى عام ١٧٣٥ ، بالجنود الروس . ومع ذلك فإن التدخل المتأخر للغاية ، والذى قام به الماريشال لاسكى Lascy بعشرين ألف رجل لن يكون له أى تأثير .

ولقد إعتقد الإمبراطور ، عند بداية الحرب ، فى أنه يمكنه أن يعتمد على تأييد بريطانيا ودعمها ، طبقاً لتعهدات عام ١٧٣١ . وبعد أن فقد الأمل بشكل راديكالى من هذه الناحية ، إضطر إلى أن يستعـد سريعـاً للإستماع للنصائح التى كان فليرى قد أبلغها إليه فى صيف عام ١٧٣٥ . وكانت مسألة اللورين تمثل أساسا . والواقع أن السياسة الفرنسية فكرت فى الربط بين هذا الموضوع وموضوع « الموافقة المصلحية » . وكانت قد قبلت أمر الإعتراف بحقوق ماريـا تريـزا فى تولى عرش الإمبراطورية . ولكن الأرشيدوقة كانت قد تزوجت فرانسوا ، دوق اللورين . ووجدوا أنه لم يكن مقبولا أن يتمكن أحد أدواق اللورين ،وهو سيد لدولة صغيرة تتحدث الفرنسية ، وتجاور حدود المملكة ، من أن يضع فى يوم من الأيام تاج شارل الخامس (شرلـكان) على رأسه ، حتى ولو كان ذلك بصفته زوجاً للإمبراطورة . ولذلك ، فإن الفرنسيين طرحوا ، ومنذ بداية

المحادثات ، وكبدأ ، أن عليه أن يتنازل لغيره من حقوقه على الدوقيات . ثم ظهرت فكرة ترشيح ستانيسلاس ليزينيسكي ، والذى كان لوى الخامس عشر يشعر دائماً حياله ببعض الإلتزامات ، كدوق مقبل اللورين . وكانت عملية ربط ذكية : ذلك أنه لم يكن لستانيسلاس من وريث سوى إبنته ، ملكة فرنسا . ولم يعارض بلاط فينا ، ولكن فقط بشرط أن يعوض فرانسوا صاحب اللورين عن ذلك بإعطائه توسكانيا . ووجد فليرى أنه غير مجبر على رفض هذا الشرط ، رغم الوعود السابقة التى كانت قد أعطيت لملوك إسبانيا .

ولذلك فإن الشروط الإيطالية فى معاهدة الصلح لم تكن هى تلك التى كان من الممكن التفكير فيها عند بداية الحرب . وكان شوفيلان قد وعد بأن ملك بيدمونت ، بعد أن يصبح سيداً على ميلانو ، يتنازل عن دوقية سافوا التى كانت له لفرنسا ، ويحصل دون كارلوس على الصقليتين ، ويحصل دون فيليب على دوقية توسكانيا الكبرى ، مع بارما وبليزانس . ولما كانت العمليات العسكرية لم تؤد إلى ما كان منتظراً منها ، فكان من الضرورى التراجع فى ذلك . هذا علاوة على أن شوفيلان ، والذى لم يكف عن معارضة سياسة الكاردينال ، فقد الثقة فيه ، فى بداية عام ١٧٢٧ . ولذلك فإن التسوية النهائية لم يكن فيها ما يمكن أن ينسب إليه . وسيحصل دون كارلوس على الصقليتين : فكان هذا يعنى تخليه عن الدقيات (بارما وبليزانس) . ولكنها سوف يخرجان كذلك من أيدى دون فيليب ، لكى يذهبا إلى آل هابسبورج ، كتعويض عن الصقليتين .

ولقد إحتاجت المعاهدة التى سوف تنهى الأزمة التى فتحت فى عام ١٧٣٣ ، وهى « معاهدة فينا الثالثة » لعدة سنوات أخرى من المناقشات . ومع ذلك ، فإنها سوف تقتصر على أن تقرر ، وفى الأساس ، شروط المباحثات التى كان المفاوضون الفرنسيون والنمسويون قد قرروها فى فينا فى شهر أكتوبر ١٧٣٥ ،

والتى كان ملوك إسبانيا وسردينيا قد وافقوا عليها فى شهر فبراير التالى . ولكن الدبلوماسيين كانوا غير متسرعين . ومن ناحية أخرى ، كانت العمليات الحربية قد توقفت منذ وقت التوقيع على المفاتحات الأولى ، الأمر الذى كان يسمح للمباحثات بأن تأخذ وقتها دون أن يتسبب ذلك فى إزعاج خطير للأهالى . وتم التوقيع على الوثيقة النهائية للصلح فى ٢ مايو ١٧٣٨ ، فقط . وكان من اللازم ، بعد ذلك ، أن تقوم كل من إنجلترا وهولندا ، واللتين كانتا قد دعيتا للإنضمام إليها ، بتقديم موافقتيهما . ولذلك فإن تبادل التصديق لن يتم إلا فى ١٨ نوفمبر . هذا علاوة على أن الحكومة الإسبانية ، والتى كانت قد فقدت الأمل إلى أبعد حد، لم تقرر أن تنضم إلى جانب حلفائها إلا فى شهر أبريل ١٧٣٩ .

ولم يعد أحد فى ذلك الوقت يفكر فى شئون بولندا ، كسبب بعيد لتلك الحرب التى وجدت أوربا أنه كان فى وسعها أن تمولها بكل سهولة . وأكدت معاهدة فينا منتخب ساكس فى وجوده على عرش بولندا . أما ستانيسلاس ، فإنه عارض لفترة طويلة ، ثم قنع فى آخر الأمر بالتنازل .

وكان فى وسع هذا الصلح ، الذى تم التوصل إليه بعد عمل شاق ، أن يصبح نقطة إنطلاق لمرحلة جديدة . وكان فليرى ، وهو يتفاوض من أجله ، يرغب فى أن يرتب عليه نتائج ، هى نفس النتائج التى كان لوى الرابع عشر ، فى عام ١٧١٤، وقبيل وفاته ، يقترح أن يؤسسها ويستخرجها من معاهدات أوترخت ، ألا وهى تقارب ووفاق مخلص بين فرنسا وبين النمسا ، وفى صالح السلم العام . وكان قد أفضى بذلك إلى سفيره فى فينا ، وكلفه بأن يكون «الوسيلة لما يمكنه أن يعمل وكأكثر أهمية لأوربا كلها ، لإقامة تفاهم وإتحاد طويلين ووثيقين إلى آخر درجة بين الملك وبين الإمبراطور ...» وكان برنامجاً مغرياً ، بالنسبة للمستقبل ، فى واقع الأمر ، وبخاصة أمام أولئك الذين ذكروا ، بعد قرنين من ذلك ، أن

دولة بروسيا الجديدة كانت مشغولة ، فى ذلك الوقت ، فى شحذ سلاحها فى صمت .

٤ ـ صعوبة العلاقات الروسية العثمانية ، وتقارب روسيا من النمسا :

وما كادت الأزمة التى نشأت بشأن خلافة أوجست الثانى فى بولندا تنتهى ، حتى أعلنت حرب جديدة على الأطراف الشرقية للقارة ، وكانت بين الأتراك والروس ، فى هذه المرة .

وكانت الدولة العثمانية ، والتى سيطرت فى الماضى على كل الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وكما كانت الدولة الإسبانية قد سيطرت على حوضه الغربى ، قد دخلت فى هذا العصر ، مثل منافستها ، فى فترة من الضعف . ولم يعد الأمر بالنسبة إليها ، وعلى الأقل مؤقتا ، يتعلق بعمل غزوات ، وبمد ممتلكاتها على أراض جديدة ، ولكن بمجرد الدفاع عن المواقع التى كانت لها ، والتى كان يهددها خصوم إستمرت قوتهم فى التزايد . وإذا ما نظرنا إليها من الخارج فقط ، لوجدنا أن السبب الرئيسى فى هذا الضعف كان هو ظهور القوة الأوروبية لروسيا .

وكانت فترة حكم بطرس الأكبر قد غيرت مناخ العلاقات التركية الروسية بشكل أساسى . وهاتان الدولتان ، واللتان كان عدائهما المشترك بالنسبة لبولندا قد قرب بينهما كثيراً فى الماضى ، وقد أصبحتا بعد ذلك عدوتين ، وبشكل دائم . وسوف يسيطر العداء بينهما ، ولعدة أجيال ، على تاريخ أوربا الشرقية .وإبتداء من الوقت الذى أصبح فيه مستقبل روسيا مضموناً على سواحل بحر البلطيق ، كنتيجة للإنتصارات التى تمت على السويد فى عهد شارل الثانى عشر ،سيأخذ إتجاه التوسع لهذه الامة الشابة والنشطة خطه فى إتجاه الجنوب . ومنذ ذلك الوقت ستبدأ الحرب ضد تركيا ، وبشكل شبه مستمر ، ومن وقت لآخر . وسيصبح التحالف مع

الإمبراطور ، وهو العدو الأول للسلطان ، أحد الدعائم الدائمة للسياسة الروسية. وسرعان ما يكتب فيلنيف Villeneuve ،السفير الفرنسى ، أن الأتراك «يتعلمون منذ مولدهم ، أن عليهم كره الألمان والمسكوفيين » .

ولقد رأينا من قبل كيف أن التحالف الروسى النمسوى قد إنعقد مرة أولى ضد العثمانيين فى عام ١٦٨٦ . ولكنه لم يعش بعد فقدان الآمال بالنسبة لصلح كارلوفيتز : ولم يجد بطرس الأكبر ضرورة لإعادة إحيائه إلا حينما نشبت بين الأتراك والنمسويين ، فى عام ١٧١٦ ، تلك الحرب التى سوف تنتهى بعد عامين من ذلك فى بساروفيتز . ولقد رفضت المفاتحات الأولى بشأنه . ثم حصل من السلطان ، فى عام ١٧٢٠ ، على معاهدة « صلح دائم » ، مؤكدة مجموع تعهدات المعاهدات السابقة، وإن كانت قد منحت القيصر بعض التنازلات فى شئون بولندا: فإذا ماقامت السويد أو دولة أخرى بإدخال جيوشها على أرض الجمهورية،وهددت حريات البولنديين ، يمكن لحكومة روسيا أن تتدخل ، بعد أن تتفق على ذلك مع الباب العالى .

وحتى ذلك الوقت ، لم يكن للقيصر سفير يقيم بصفة دائمة فى إستانبول .وتم الاعتراف له بهذا الحق فى إتفاقيات عام ١٧٠١ . ثم جاءت الأحداث لكى تمنع ممارسة ذلك . ثم تعود هذه الممارسة بالاتفاق المشترك بين الجانبين ؛ ومنذ ذلك الوقت ، إستمر التمثيل الدبلوماسى لروسيا موجودا فى عاصمة الدولة العثمانية ، مثل وجوده فى عواصم بقية الدول العظمى .

ولم يكن لدى بطرس الأكبر ميلا حقيقيا إلى النمسا ، والتى كانت إدعاءاتها الدانوبية والبلقانية سوف تؤدى ، فى يوم من الأيام ، إلى وضع العقبات أمام طموحات روسيا . وكان قد أظهر ، أكثر من مرة ، أنه يرغب فى عمل تقارب مع الخصم الكبير لدولة النمسا ، مع فرنسا ، والتى كانت مصالحها لا تتهدد بأن تكون

فى تعارض مباشر مع مصالحه . وكتب سان سيمون Saint Simon عن وصفه للاستقبال الذى أعدوه لبطرس الأكبر فى باريس عام ١٧١٧ ، أن « القيصر كانت له رغبة شديدة فى أن يتحد مع فرنسا » . وبعد وفاته بقليل ، وفى الوقت الذى فشل فيه مشروع الزواج الاسبانى الوى الخامس عشر الشاب ، إقترحت كاترين الأولى بنفسها إبنتها ، ووريثتها إليزابيث لهذا الزواج . ولكن المؤامرات ، فى بلاط فرساى ، أدت إلى فشل هذا المشروع . وفى ذلك الوقت ، قررت حكومة روسيا أخذ تلك اليد التى كان الامبراطور شارل السادس يمدها إليها ، وبكل إصرار .

٥ - إستيلاء الروس على آزوف ، ومعاهدة بلجراد :

فى خلال فترة من الزمن ، فى هذا العصر ، إستدارت روسيا من أوربا وتحولت صوب آسيا . وكان بطرس الأول ، من قبل ذلك ، وفى سنواته الأخيرة ، قد عاد إلى مشروعات فى إتجاه الجنوب . وبعد الشرق العثمانى ، ظهر ميله واضحاً صوب الشرق القوقازى والإيرانى . وكانت بلاد القوقاز مرتبطة بمملكة فارس بروابط غير وثيقة . وكان البعض من بينها ، مثل جورجيا ، وأرمينيا لا تخفى عواطفها بالنسبة لروسيا : إذ إنهم كانوا هناك من المسيحيين . ومنذ وقت طويل ، كان مندوبى موسكو يعملون على إعدادهم . وإستغل بطرس بعض الظلم الذى كان قد نزل ببعض التجار الروس ، وبدأ فى العمل ، فى عام ١٧٢٢ . وتمكن من إحتلال ميناء هام على الشاطىء الأيسر لبحر قزوين ، وهو ميناء دربنت ، منذ الحملة الأولى ؛ وجاء عام ١٧٢٤ دور باكو . وعندئذ إلتفت ذلك القطاع المسلم من الأهالى صوب إستانبول ، وتدخل السلطان عسكرياً فى جورجيا ، حتى يظهر للروس أنه لن يتركهم ينزلقون من هناك حتى سواحل البحر الأسود . ثم تدخلت الدبلوماسية الفرنسية ؛ فهدأت العواطف ، وقربت بين

الخصوم . وتنازل الشاه للقيصر ، بمعاهدة شهر سبتمبر ١٧٢٣ ، عن الجزء الشرقى من المنطقة القوقازية ، مع دربنت وباكو . وفى شهر يوليو ١٧٢٤ ، حصل السلطان ، من جانبه ، على أمر مد سلطته على المنطقة الغربية .

وبينما كانت حرب وراثة بولندا تدور رحاها فى أوربا ، لم يتحرك العثمانيون ، رغم الصعوبات التى كانت تمر بها النمسا . ولقد عملت فرنسا جاهدة ، وبدون جدوى ، على إقناعهم بضرورة إنتهاز الفرصة الموجودة : ولم تنجح فى ذلك أكثر مما كانت قد نجحت فيه من قبل ، عند بداية حرب الوراثة الإسبانية، وحين حاولت ، بكل الوسائل ، أن تسهل العمل أمام شارل الثانى عشر . ولم تكن من طبيعة تلك الثقة التى كانت تتمتع بها فى إستانبول أن تتمكن من أن تستخدم القوات المسلحة العثمانية حسبما ترغب ، وفى الوقت الذى تختاره . هذا علاوة على أن العلاقات لم تعد على تلك الدرجة من الجودة ، التى كانت عليها من قبل . وفى عام ١٧٢٠ أرسل السلطان سفارة رسمية إلى فرنسا ، وكان هذا يمثل بالفعل حدثا إستثنائيا . وإبتداء من عام ١٧٢٦ ، أصبحت حكومة لوى الخامس عشر ممثلة فى الدولة العثمانية بواسطة دبلوماسى مميز ، وهو ماركيز دى فيلنيف Villeneuve . وفى هذا الوقت ، كان أحد الفرنسيين ، الذى كان قد أتى وطلب حق اللجوء إلى الدولة العثمانية بعد مغامرات كثيرة — وخاصة بعد أن كان قد خدم فى الجيش الامبراطورى تحت إمرة الأمير إيوجين والذى كان قد إعتنق الإسلام ، وهو كونت بونفال Bonneval ، قد تمتع بدور المستشار العسكرى للسلطان . وربما كان فى وسع الفرنسيين أن يربحوا إذا ما كانوا ، وكما إقترح فيلنيف ، قد وافقوا فى فرساى على عقد معاهدة تحالف رسمية . ولكنه كان مبدأ ثابتا من مبادىء السياسة الفرنسية بعدم أخذ تعهد مكتوب مع إستانبول : ولم تكن هناك ضروره تسمح بأن يأخذوا على الملك « المسيحى للغاية » أنه وضع

توقيعه أسفل وثيقة رسمية إلى جوار توقيع رئيس الكفرة (١) . ولم يكن فى وسع فليرى ، كاردينال الكنيسة الرومانية المقدسة ، أن ينصح لوى الخامس عشر بأن يقوم بذلك .

ومن ناحية أخرى ، كان العثمانيون مشغولين ، وبدرجة كافية ، فى آسيا . وكانت مرحلة جديدة من مراحل مواجهاتهم مـــع فارس تجتذب من بعيد تلك الجيوش التى كان من اللازم توجيهها صوب الدانوب والمجر . وكانت قد أصابتهم سلسلة من الهزائم عند مشارف القوقاز ، حينما قرر النظام الحاكم فى بولندا ، فى عام ١٧٣٦ ، ومستشار قيصرة روسيا فى ذلك الوقت ، وهى أنا إيفانوفنا Anna Ivanova ، بنت أخت بطرس الأكبر (١٧٣٠ — ١٧٤٠) ، ضرورة إنتهاز هذا الوقت المناسب من أجل أن يحاول الإستيلاء على آزوف ، ودون إعلان للحرب ، تم إرسال جيش إلى الجنوب بقيادة قاهر دانزيج، الفيلد ماريشال مونيخ Munnich . وفى الوقت الذى كانت تتم فيه الإستعدادات من أجل محاصرة آزوف ، قاموا بغزو القرم وتخريبها ، كما خربوا وأحرقوا باكتشى سراى ، مقر خان القرم: وكان هذا عنفاً يزيد عن الحد ، خاصة وإنهم إضطروا ، ونتيجة لنقص التموين ، إلى الإسراع فى الجلاء عن البلاد . وكان المكسب الوحيد الواضح من هذه الحملة هو الإستيلاء على آزوف : هذا مع العلم بأنها كلفتهم ثمناً باهظاً للغاية فى الرجال .

أما النمسويون ، والذين كانوا قــد خرجوا من حرب الوراثة البولنـدية ، وماليتهم فى حالة سيئة ، فإنهم كانوا يتمنون عدم تدخلهم فيها . وعند مفاجأتهم بالإندلاع المباشر والمفاجىء للعمليات الحربية، بدأوا بعدم الإستماع إلى مقترحات

---

(١) المؤلف .

حلفائهم ، مدعين أن معاهدة عام ١٧٢٦ لم تكن تتعلق إلا بتحالف دفاعي،وكانوا قلقين ، علاوة على ذلك ، من مشروعات الروس فى الأفلاق والبغدان . ومنذ ذلك الوقت أصبح الوفاق بين هاتين الدولتين وقد ظهر على أنه ملىء بالمواد الناسفة - كما سيظل عليه دائما - وذلك عن طريق منافسة مستمرة بينهما فى المنطقة البلقانية . وقامت حكومة النمسا حتى بالتقدم باقتراح غريب للوساطة ، حينما إحتجت الحكومة العثمانية على ذلك العدوان الذى تعرضت له . ومع ذلك ، فقد توصلوا إلى إتفاقية عسكرية ، فى شهر يناير ١٧٣٧ . وكان على الإمبراطور أن يحاول كسب البنادقة إلى التحالف،بينما كان على القيصرة أن تقوم من جانبها بمحاولة لكى تحصل من ملك بولندا على بعض القوات .

وكانت حملة عام ١٧٣٧ قصيرة وبدون إنتصارات . فعلى سواحل البحر الأسود ، قام مونيخ ، الذى تحرك فى إتجاه الغرب ، بمحاصرة موقع أوتشاكوف والذى كان محمياً ببساله ، والذى كلفه أمر الإستيلاء عليه ثمناً غاليا . ثم قام بعد ذلك بسحب جيشه بسرعة كبيرة صوب الشمال ، بعد أن تأثر بالمجاعة والحرارة والأوبئة إلى حد بعيد . وفى ذلك الوقت،وافق النمسويون على عقد إجتماع مؤتمر دبلوماسى ، قد يكون فى وسعه أن يجنبهم أمر الدخول إلى المعركة . وبدأت المحادثات فى أرض محايدة ، فى مدينة نيميروف (بودولى) البولندية ، منذ شهر يونيو ١٧٣٧ . ولكن أمر الاتفاق كان مستحيلا.ذلك أن الروس كانوا يطالبون، علاوة على التنازل عن القرم ، بحدود الدنيستر والحماية على «الامارات» الرومانية. ولم يكن النمسويون مستعدين لتأييد مثل هذه المطالب ، التى كانت ستوصل حدود إمبراطورية القياصرة بالفعل حتى الدانوب .

أما الحملتان التاليتان فانهما لم يعطيا للحلفاء إلا خيبة الآمال. فمن جانب الروس كان عليهم التخلى عن أوتشاكوف والتى إنتشر مرض الطاعون فى حاميتها . ومن

جانب النمسويين ، كان عليهم رفع الحصار عن فيدين ، وإخلاء مدينة نيش . وفى أثناء ذلك الوقت ، لم يظهر أى إنفعال على المجر . وكانت بعض المجهودات قد بذلت ، وبمساعدة ممثلى فرنسا ، فيلنيف وبونفال ، من أجل إعادة إشعال الثورة ، والتى كانت قد ضايقت النمسويين كثيراً فى أثناء حرب الوراثة الاسبانية . وكان فرانسوا راكوزكى François Rakoscy ، الرئيس السابق للثوار ، والذى إلتجأ إلى الدولة العثمانية منذ بضع سنوات: قد توفى . وفكر بونفال فى أن يستخدم إبنه ، والذى كان قد هرب أخيراً من أحد السجون النمسوية : فجعله يتصل بالصدر الأعظم ، وحصل على أن تعترف به الحكومة العثمانية ، وباتفاقية ، على أنه أمير ترانسيلفانيا ودوق المجر . ولكن الموت المفاجىء لفرانسوا راكوزكى ، بعد بضعة أشهر ، قضى على تلك المشروعات التى كانوا قد بنوها على ظهوره فى المجر .

وجاء عام ١٧٣٩ بالأحداث الحاسمة ، ذلك أن العثمانيين الذين إنتصروا فى كروتزكا (٢٧ يوليو) ، جاءوا لمحاصرة المعتدين فى بلجراد . وسيتم هنا ، وتحت أسوار بلجراد ، عقد الصلح ، وذلك فى الوقت الذى يقوم فيه الروس ، بقيادة مونيخ ، بعبور الدنيستر ، ثم البروث ، ويدخلون ياسى ، عاصمة البغدان . ولم يكن لدى فينا ، فى ذلك الوقت ، أى أمل بشأن الحليف الروسى. وأفاد فيلنيف ، السفير الفرنسى ، من ذلك ، لكى يصل إلى تحقيق إقتراح الخدمات الطيبة. وذهب لمقابلة الجيش العثمانى قرب بلجراد . وبدأت المفاوضات فى معسكر الصدرالأعظم ، وسارت بسرعة ، وتم التوقيع على معاهدة بلجراد فى ١٨ سبتمبر ١٧٣٩.وتخلت النمسا عن بلجراد وعن شمال الصرب . وستعيد الحدود الجديدة ، وهو حدود نهر الساف ، تقريباً نفس الأوضاع السابقة على معاهدة بساروفيتز . وستظل هى نفسها ، حتى عام ١٩١٤ .

ونتيجة لطلب النمسا ، إلتجأت الحكومة الروسية كذلك إلى فيلنيف ، من

أجل التفاوض للصلح . ولكن موسكو وجدت أن النتيجة كانت مخيبة للآمال لدرجة بعيدة . وكانت قطعة صغيرة من الساحل الشمالى للبحر الأسود ، فيما بين بوج والدنيبر ، هى وحدها التى تخلى العثمانيون عنها . وظلت قلعة آزوف فى أيديهم : وإن كان سلاحها منزوعاً . ولم يكن من حق الروس أن يكون لهم فى البحر الأسود أسطول حربى ، ولا سفن تجارية .

وكادت وثيقة الصلح التى خرجت من محادثات بلجراد ، وعن قرب ، ألا يتم التصديق عليها . ذلك أنه حينما وصلت الأنباء إلى فينا ، بالنجاح الأخير الذى كان الروس قد حصلوا عليه ، تزايد عدد الذين طلبوا من الامبراطور أن يتبرأ من المتفاوض بإسمه . وقام مونيخ ، من جانبه ، بالثورة على المعاهدة ، وإتهم فيلنيف بالخيانة . ولكن قيصرة روسيا ، ومثلها فى ذلك مثل إمبراطور النمسا ، إضطرت إلى عدم التأثر بانفعالات المحيطين بها .

٦ ـ تجديد الامتيازات الاجنبية :

وشهدت الفترة التى تلت مباشرة معاهدة بلجراد أمر تدعيم العلاقات الفرنسية العثمانية . ولقد إنتهز سفير الملك هذه الفرصة لكى يطلب دليلا على الاعتراف بالجميل ، الواجب لسيدة . ومنذ ما يزيد على عشرين عاماً ، كانت مسألة تجديد الامتيازات مطروحة ، بدون نجاح . وفى اليوم التالى لعقد الصلح ، لم يظهر السلطان محمود أية صعوبة أمام العودة إلى المحادثات . وتمت بعد عدة أشهر من ذلك ، فى ٨ مايو ١٧٤٠ . (علينا أن نذكر أن الامتيازات لم تكن لها صفة المعاهدات ، ولكن صفة عقد المنح ، تعطى من جانب واحد ، وعن طريق السلطان) .

وكانت الوثيقة الجديدة ، والأكثر إتساعاً من الوثائق السابقة ، لا تتضمن

تحديدات كبيرة . وكانت تؤكد المميزات التقليدية المعترف بها لفرنسا ولرعاياها فى السلطنة . وكانت بعض الضمانات قد منحت التجار ضد الزيادة التعسفية للرسوم الجمركية . هذا علاوة على حصولهم على ميزة عدم دفع رسوم معينة كانت تدفع فى إستانبول من جانب كل التجار الأجانب .

أما فيما يتعلق بالمصالح المسيحية فى السلطنة ، فإن إمتيازات عام ١٧٤٠ لم تكن أكثر تفصيلا من السابقة عليها . وكانت الحكومة العثمانية لا توافق فى هذه المسألة بنوع خاص على تقييد أيديها بشأنها . ومع ذلك ، فإن الفرنسيين كانوا يعقدون عليها أهمية كبيرة ، خاصة وأن خصومهم النمسويين كانوا قد نجحوا ، منذ نصف قرن ، فى كارلوفيتز ثم فى بساروفيتز ، فى أن يحصلوا على بعض الوعود ، أو ما يشبه الوعود ، والتى إدعوا ، بناء عليها ، هم أيضاً ، ممارسة نوع من الحماية على المواقع المقدسة ، وبشكل عام ، على كل الكاثوليك الموجودين فى السلطنة . أما الروس ، من جانبهم ، فإنهم كانوا قد تمكنوا من أن ينصوا فى معاهدة عام ١٧٢٠ على بعض التعهدات فى صالح أبناء وطنهم من الأرثوذكس . وإن ما نلمحه فى هذا النص الذى جاء بطبيعته غير محدد فى إمتيازات عام ١٧٤٠ ، هو الامكانية التى أعطيت للفرنسيين ، فى حالة وجود صعوبات أو صدام ، بأن يرجعوا إلى سوابق قديمة ، يمكنها أن تكون فى صالحهم ، ما دامت هى سابقة على تلك النصوص التى أصبح فى وسع النمسويين والروس الآن أن يتمسكوا بها . وعلى أى حال ، فإننا نبحث ، بلا جدوى ، فى هذه الوثيقة عن الأسس التى بنى عليها ما يمكن أن يسمى ، بعد ذلك ، بحماية فرنسا فى الشرق . ولقد ذكر ذلك فى أحد الأيام أحد السفراء الأخيرين للنظام الملكى ، وهو كونت سان بريست Saint - Priest : « إن لقب

حامى الكاثوليك فى تركيا موجود بالنسبة لملوك فرنسا فى ضميرهم ، أكثر من وجوده القانونى » .

ومع ذلك ، فإن إمتيازات عام ١٧٤٠ سوف تظل إحدى أسس الحماية التى أكدتها فرنسا مرات عديدة على المسيحية الشرقية . وكان عليها أن تبقى سارية حتى وقتنا ، وحتى الالغاء العام لنظام الامتيازات فى الامبراطورية العثمانية ، فى عام ١٩٢٣ .

الفصل السادس العشرون

الصدامات الكبرى فى وسط القرن
وصعود دولة بروسيا

أولا :- حرب الوراثة النمسوية

١ - ألمانيا وبروسيا :

أصبحت البلاد الألمانية ، فجأة ، وإبتداء من عام ١٧٤٠ ، موطناً ومركزاً لأحد هذه الخلافات التى لم تكن الدول العظمى وأوروبا قد عرفتها منذ معاهدات أوترخت . وسوف يصبح دورها أكثر أهمية وبكثير عن أى وقت كان عليه فى الماضى . وفى أثناء القرن السابع عشر ، وأثناء حرب الثلاثين عاماً ، كانت هذه البلاد قد إستخدمت كميدان للعمليات . وفيما عدا وقت تسوية الحسابات فى عام ١٦٤٨ ، كانت غائبة نوعاً ما عن ذلك الجانب الذى كان قد تمتع على أرضها ، والذى كان مصيرهم يمثل هدفه الرئيسى .

وكانت معاهدات وستفاليا قد مثلت نقطة هامة فى تاريخ هذه البلاد . ذلك أن المسألة الدينية وجدت فيها ، فى نهاية الأمر ، حلا سيعيش لفترة طويلة، وكفت الخلافات بين المعتقدات عن أن تكون مسيطرة فى العلاقات التى لهم ، فيما بينهم . ومن ناحية أخرى ، أفاد الأمراء والدول ، من إستخدامهم الوضعية الإتحادية Jus Faederis التى تم الإعتراف بها لهم، وبشكل سريع ، لكى يشتركوا فى شئون القارة . ووجد القليل من بينهم فرصة للتدخل فى أثناء الحرب التى دارت ضد فرنسا لوى الرابع عشر . وكانت الذكريات الفظيعة لحرب الثلاثين عاماً لاتزال شديدة القرب ، وبشكل لايسمح للكثيرين من بين قادتها بالمغامرة ،

وإتخاذ مواقف أو عمل حركات يمكنها أن تزيد إشعال اللهب من جديد .

وفى عام ١٧٤٠ ، كان السلام قد عاد من جديد ومنذ قليل إلى قطاع البحر المتوسط ، حينما شاهدت أوربا نشأة أزمة جديدة فى وسطها . وهذا المشهد الجديد الصعوبات كان قد ظهر على سواحل بحر البلطيق ، كدولة جديدة نشأت من لاشىء ، وإن كانت قد عقدت العزم على أن تبنى مستقبلها على الحرب . وكان للتاريخ بداية نبدأ بها .... فلقد شاهدنا فى القرون السابقة ما إعتقدنا أن فى وسعنا أن نسميه «المغامرة البرتغالية» و «المغامرة السويدية» . وبدأت «مغامرة» من نفس النوع فى القرن الثامن عشر . ومرة جديدة ، ستقوم دولة صغيرة للغاية ، وعن طريق مجهود طويل المدى ، بأن تضع نفسها فى مساواة مع الدول الأكبر منها، وتفرض رغباتها على كل جيرانها . ولكن، بينما إنتهت المغامرة البرتغالية والمغامرة السويدية فى وقت سريع ، عاشت المغامرة البروسية خلال أجيال ، حتى أن أواسط القرن العشرين نفسه شاهد مرحلتها الأخيرة . ولذلك فإن بروسيا ستكون فى مركز هذا الفصل الجديد الذى يبدأ فى تاريخ العلاقات الدولية فى أوربا. وقبل أن نشرح ذلك عملياً ، سيكون من الضرورى أن نذكر ماكان قد أصبح عليه هذا العالم الصغير الذى إنفتح كثيراً على الخارج ، وهو عالم ألمانيا بعد عام ١٦٤٨ .

ولقد كان دورها ، على مر العصور ، يمثل المركزى الديناميكى للامبراطورية المقدسة — ذلك الأثر الباقى من العصور الوسطى ، والذى أصبح يعيش ، فى الفتره التى وصلنا إليها ، وبشكل غريب على أنقاض إيديولوجية ملغاة تماماً . ولم يكن يسمح بأية إشارة لها منذ معاهدات وستفاليا . ولم يعد الإمبراطور ، كما لم يكن فى وسعه أن يكون ، أكثر من شهير عالى المقام . ومرت كل السلطات الفعلية والحقيقية التى كان يمارسها فيما مضى إلى الجماعات الدينية . وإقتربت حالة

ألمانيا من حالة إيطاليا . والتى لم يتمكنوا فيها أبداً من إنشاء سلطة مركزية ، يمكنها أن توحد الأمراء والدول لمهام مشتركة ، أو حتى أكثر بساطة من ذلك ، تقوم بدور الحكم فى الخلافات التى تنشأ بينهم . وكانت الفوضى الألمانية ، ومثلها فى ذلك مثل الفوضى الإيطالية فى الماضى ، تثير كل أنواع الطمع فى الخارج . وكان فى وسع الحنين إلى الوحدة الضائعة — وهى وحدة لها مكانتها — وهذه الوحدة وحدها ، أن تفرمل من زيادة روح الإستقلال التى كانت قد إنطلقت فى ذلك الوقت .

وكان أمر الحصول على «الوضعية الإتحادية» ، ومن بين كل إنتصارات الجماعات الدينية ، هو الأمر الأكثر أهمية ، بنتائجه على تطور الشئون الدولية . وكان حق عقد المحالفات ، يتضمن بالضرورة حق القيام بالحرب : وكان التحديد الوحيد المفروض على إستخدام هذا الحق الآخر ، والذى كانت له نتائج خطيرة ، هو أنه لا يمكن لأى عضو فى الإمبراطورية أن يدخل فى حرب ضد الإمبراطور أو ضد الامبراطورية . وبعد أقل من قرن بعد ذلك سنرى أنه لم يكن فى ذلك ما يكفى لايقاف أمير نشط وله أطماع عن المضى فى تحقيق مآربه . وكيف كان يمكن التفكير فى القيام بحروب إذا لم تكن هناك قوات محاربة دائمة ؟ وليس هناك حاجة للاعتراف الصريح بهذا المطلب الآخر حتى تتمكن الإمارات الأكثر أهمية من أن تصبح دولا عسكرية ، متشبهة فى ذلك بنمسا آل هابسبورج .

وفى أثناء النصف الثانى من القرن ، إستخدم أكثر من أمير ألمانى حق عقد معاهدات مع الخارج ، وأصبح فى وضع يسمح له بأن يلعب ، إن أمكن ، دوراً فى تلك العملية الكبرى التى كانت تسير ضد إمبريالية لوى الرابع عشر . وكان الجيران الأكثر قرباً من النمسا ، وهما منتخب بافاريا من الغرب ، ومنتخب ساكس

من الشرق ، يعقدان وبشكل تقليدى على سيطرتها ، ولم يكونا آخر من طالب باستقلال سياستها الخارجية . وإتجها ، بنجاح ، صوب الذهب الفرنسى . وفى أثناء حرب هولندا ، وبينما كانت ألمانيا كلها تقريباً تتبع الاوامر التى كانت تصدر من فينا ، إحتفظ منتخب بافاريا ، مستنداً فى ذلك إلى جيشه وعلى المعونات الفرنسية التى سمحت له بالاحتفاظ به ، بموقف حياد متعزز . وإتخذ من جديد موقفاً خاصاً به وحده ، فى أثناء حرب الوراثة الاسبانية ؛ ولكنه أرتبط هذه المرة رسمياً بالاتجاه الفرنسى ، وقامت جنوده بالحرب ضد النمسويين .

أما منتخب ساكس فإنه قام بمناورات من أجل قبوله فى رابطة الراين ، ثم ربط نفسه بالتحالف الفرنسى بمعاهدات عام ١٦٦١ وعام ١٦٦٥ . وبعد ذلك، ثار قلقه من المزايا التى كانت السياسة الفرنسية تنعم بها على جاره ومنافسه، منتخب براندبورج ، فتقرب إلى السويد ، فى عام ١٦٦٦ . ومع ذلك فإنه طلب إلى الملك ، وحتى لايفقد عطف فرنسا ، ميزة أن يكون له تمثيل دائم عنده. وأصبح هناك ، إبتداء من ذلك الوقت ، تبادل منظم لسفراء «مقيمين» بين بلاط فرساى وبلاط درسدن ، كما كان هذا الأمر قد إتبع من قبل مع ميونيخ ومع برلين . ومن ناحية أخرى ، كانت العواطف الدينية لاتزال على درجة من القوة حتى أن مثل ملك فرنسا — وكذلك الحال بالنسبة للمقيم الامبراطورى لم يكن له الحق فى عمل الصلاة فى منزله . وكان المنتخب لايشارك ، بطبيعة الحال ، هذا التعصب اللوثرى الموجود عند رعاياه . وفى وقت الانتخابات الامبراطورية فى عام ١٦٥٦ ، سرت الإشاعات بين السفارات بأنه ، فى حالة نجاحه ، لن يتردد فى أن يتحول ، مذهبياً : فكان التاج الرومانى يساوى ماهو أكثر من صلاة !

والواقع أنه لن يكون هذا التاج بالذات هو الذى سوف ينتهى به الأمر إلى أسرة

ساكس . فبعد أربعين عام من ذلك ، تم إختيار المنتخب أوجست الثانى ملكا على بولندا بعد وفاة جان سوبيسكى . وكان فى حاجة إلى ترك المذهب البروتستانتى حتى يتمكن من أن يحكم فى وارسو . وأظهر رعاياه ضجرهم ، فنح لمذهب لوثر مزايا جديدة ، تسمح للساكسون ، فى الوقت المناسب ، بأن يقاوموا أعمـــال الرومانيين .

وفى ألمانيا ما بعد معاهدات وستفاليا ، مال كثيرون من أصحاب الجلالة الجدد إلى أن يتنافسوا أمام رأى صاحب الجلالة الإمبراطورية، الذى أصبح الآن محصوراً تقريباً داخل نطاق الدول الوراثية لآل هابسبورج ، والذى أصبح نمسوياً أكثر منه ألمانيا . ورغم أن اللقب الملكى الذى كانوا يحبون الظهور به لم يكن سارياً إلا فى خارج حدود الإمبراطورية ، فإن هذا لم يكن يقلل كثيراً من هيبته الإستثنائية. وفى مواجهة صاحب الجلالة البولندية ، الذى كان يقيم فى درسدن أكثر من إقامته فى وارسو ، ظهر صاحب الجلالة البروسية ، بعد بضع سنوات، فى عام ١٧٠١ ، وكان يفضل على كونجزبرج عاصمة مملكته والمدينة المقدسة ، برلين ، التى كانت المقر التقليدى لمنتخبى براندبورج . وأخيراً ، فى الغرب ، كانت هناك إمارة هانوفر المتواضعة ، والتى رقيت فى عام ١٦٩٢ إلى مستوى الإنتخابية ، وكانت هى مقر مولد الأسرة الجديدة متى جاءت لتأخذ مكان أسرة إستيورات على عرش إنجلترا. وكان جورج الأول ، أول ملوك أسرة « هانوفر » (١٧١٤ — ١٧٢٧) ، لم يترك إلا فى النادر عاصمة أجداده ، وحيث كان يحب عرض حظه غير المتوقع .

ومن بين كل هؤلاء الملوك ، المحدثين ، سيكون ملك دولة براندبورج بروسيا هو الذى سوف يشغلنا بطريقة شبه مستمرة . ولقد وصل تاريخ أوروبا إلى نقطة حاسمة ، فى عام ١٧٤٠ ، وذلك مع وفاة الملك الجاويش، ومرور التاج

إلى إبنه . وكذلك الحال بالنسبة لتاريخ العلاقات الدولية والذى يدخل فى مرحلة جديدة من مراحله . وسوف تستبعد ولفترة من الوقت تلك الطريقة الأمينة فى معالجة مسائل الخلافات بين الدول . ذلك أن الملك الجديد ، فردريك الثانى ، الذى كتب عن « ضد مكيافيللى » فى شبابه وكان فى وسعه أن يبدأ به فترة حكمه ، لم يكف عن أن يستوحى من أعمق المبادىء المكيافيللية — أو على الأقل ما تعود العالم المتحضر أن يسميه بهذا الاسم . وكان النجاح الباهر الذى يفخر به مهدداً بأن يتحول لتمجيد ألعن وسائل النجاح ، وهى تلك التى لم يكف عن إستخدامها ، من مكر ، وقسوة ، وسوء نية .

وإذا ما نظرنا إليها من وجهة النظر البشرية ، أو الديموجرافية ، نجد أن الصعود المفاجىء لدولة براندبورج ـ بروسيا إلى مصاف الدول العسكرية العظمى لم يكن أقل إثارة للدهشة عما كان قد حدث مع السويد فى الماضى . وكان عدد سكانها تقريبا نفس الشىء ، أى أقل ، ولا يصل إلى مليونى نسمة فى عام ١٧١٥ . ومع ذلك فقد تضاعف فى أثناء نصف القرن الأخير . الأمر الذى أسهم فيه المجىء المتكاثر للبروتستانتيين الفرنسيين ، والذين طردوا نتيجة لإلغاء مرسوم نانت . وكانت الموارد هى موارد إقتصاد لا يزال زراعياً تماماً تقريباً ، وكانت البلاد فى غالبيتها فقيرة : فلم تكن هناك ، فى ألمانيا كلها ، مناطق أكثر فقراً من هذه السهول المليئة بالرمال ، أو المستنقعات ، فى منطقة بحر البلطيق . وعلاوة على ذلك ، لم تكن هناك منطقة فى ألمانيا أظهرت فيها جيوش حرب الثلاثين عاماً مزيداً من الخراب : فكانت براندبورج من بين أكثر الدول التى خربت بشكل فظيع .

ونتيجة لهذا التوزع الكبير للاقاليم التى تتكون منها ، كانت الدولة التى ورثها فردريك الثانى تقاسى من صعوبات أخرى : فكانت معرضة بشكل خطير لكل

عدوان ، ومفتوحة فى وجه الغزوات . وكانت هى أقرب — كما لاحظنا فى أكثر من مرة — إلى مجموعة من الدول عن كونها دولة بمعنى الكلمة . ولكى نعطى لها وصفاً دقيقاً ، علينا أن نبدأ بتجميع أجزائها ، الموزعة على الخريطة . وفيما عدا براندبورج وبروسيا ، واللتين كانتا تكونان وحدات صلبة ، علينا أن نمر على بقية الأقاليم حسب أهميتها : فإلى الشمال نصف بوميرانيا ، وصوب الغرب إسقفيتين قديمتين ، تحول نظام الحكم فيهما إلى نظام علمانى ، دوقية ممدبورج ، وإمارة هالبرستاد ؛ وفى وستفاليا إمارة مندن وكونتية دافنبرج ؛ وفى منطقه الراين كونتيه لامارك ودوقية كليف ، وزاد عليها فى عام ١٧١٣ جزء من جيلدر ؛ وفى الجنوب الغربى ، فى سواب ، إمارة هوهنزلرن ؛ وأخيراً ، وعند الكانتونات السويسرية وفرانش كونتية ، إمارة نيوشاتل البعيدة ، والتى كانت إحدى الممتلكات الشخصية للملك ، وضمنتها له معاهدات أوترخت .

وكان المنتخب الكبير ، وهو من معاصرى لوى الرابع عشر ، قد قام بعملية إستعمار فعلية فى داخل البلاد . فاستقدم ، منذ عام ١٦٤٨ بعض الهولنديين ، وجعلهم يقيمون فى وادى هافل ، واستخدمهم فى عملية كسب وإستصلاح أراضى من مياه مناطق المستنقعات . وبعد قليل إمتدت هذه المزايا إلى كانتونات أخرى . وكانت هذه البلاد التى تؤمن بمبدأ لوثر ، ويحكمها أمير من أنصار كلفن ، بالضرورة تسير على إتجاه التسامح الدينى منذ وقت بعيد . وكان اللاجئون من كل مذهب يضمنون أن يجدوا فيها ملجئاً . ولذلك فإن البروتستانت الفرنسيين إتجهوا إليها فى وقت الإضطهاد الكبير ، ودون حتى أن يستمعوا النداءات التى كان الملك يوجهها إليهم . وفى وقت بسيط ، زاد عدد سكان برلين من ستة آلاف إلى عشرين ألف نسمة : وفى نهاية حكمه ، كان ربع سكانها من أصل فرنسى .

ولما كان على المنتخب الكبير أن يقوم من وقت لآخر بالحروب ، لذلك فإنه أتم هذا العمل الضخم ، والذى يتمثل فى أن يعد ويحتفظ بجيش يقرب من ٣٠٠٠٠ جندى . ولم يكن مضطراً إلى أن يجدد أن جزءاً بسيطاً منه كان من أبناء براندبورج وبروسيا . وكانت الطريقة العادية ، فى أول الأمر ، هى إستخدامهم من الخارج ؛ ثم تطورت الظروف إلى درجة جاءت لخدمة مشروعات المنتخب الطموحة . فحصل بعض الضباط الفرنسيين من اللاجئين ، إبتداء من عام ١٦٥٦ ، على رتبة كولونيل ، وتم تعيينهم ، للقيام بعملية التنظيم . وبعد ذلك ، فى أثناء حرب هولندا وبعدها ، إستمرت الحركة ، وأصبح حتى مجرد الجنود البسطاء يصلون . وحصلت الإمارات الألمانية الأكثر قرباً على زيادة بعض المتطوعين البروسيين : وكان هؤلاء يعملون فى بعض الأحيان بدون تصريح من سلطات البلاد ، الأمر الذى أدى إلى نشوب بعض الحوادث . وحينما إقتنع المنتخب بأمر عقد إتفاقيات مع جيرانه بهذا الشأن ، نصوا فيها على حق إمكانية طلب وإبعاد الفارين من الجيش .

وبالنسبة لهذا البنيان المختلط ، الذى كان هو دولة براندبورج بروسيا ، بعد عام ١٦٤٨ — وبنوع خاص بعد عام ١٧٠١ ، وبشكل مركز بدرجة أكبر على بروسيا — كان مركز الثقل يتمثل فى العاصمة ، والتى كانت موجودة على مسافة بسيطة من المجرى الأدنى لنهر أودر . ومن هذا الطريق ، كانت المنتجات الزراعية والمدنية لسيليزيا تنزل وتتجه صوب بحر البلطيق . وسيكون من المبالغ فيه أن تذكر سلفاً أن نهر أودير كان يقوم بدور النهر الذى يقدم الطعام لدولة براندبورج بروسيا . ومع ذلك فإن هذه الوسيلة لمرور الثروات التجارية أسهمت إلى حد كبير فى أن تزود مالية الإنتخابية بما كان يفرض عليها من رسوم . وستكون سبباً فى أن تولد ، لدى الأمير الذى وصل إلى السلطة ، رغبة كبيرة فى

الإمتلاك ، وتمتد فى وقت قصير عـــلى سيليزيا كلها .

٢ - أوضاع أوربا وتدخل فرنسا :

إستمر فردريك الثانى ، أكبر ملوك هوهنزلرن ، فى الداخل ، فى المجهودات التى كان قد بدأها أسلافه : وذلك من أجل أن يعمل من هـذا المجموع المخلط ، والذى كان يكون الأجزاء المختلفة للمملكة ، بنياناً ، إن لم يكن متناسقاً ، فعلى الأقل متوازناً . وكان هو المؤسس الفعلى للدولة البروسية . وكان يتميز بذكاء خارق للعادة ، وأيضاً بطبيعة المقامر ، التى كان فى وسعها أن تنزل به إلى الحضيض؛ ولكنه أظهر عزيمة من حديد ، ووضعها فى خـدمة معنى سياسى واضح . وكانت له تحت تصرفه علاوة على ذلك — وعلينا أن نذكر ذلك — مادة بشرية ذات صلابة نادرة ، ظهرت صفاتها للتحمل والتماسك ، مثل صفاته عـــلى أنها بطولية .

وكان فردريك قد وصل إلى العرش (٣١ مايو ١٧٤٠) ، حين جاءت وفاة الإمبراطور شارل السادس (٢٦ أكتوبر) لكى تمنحه الفرصة التى كان ينتظرها حتى يظهر . وكان له من العمر ثمانية وعشرين عاماً . وشعر بأن عليه أن يلعب دوراً كبيراً . وكتب يقول . «لقد حان الوقت للتغيير الكلى للنظام السياسى القديم» . وسوف يقوم بالتدخل ضد النمسا ، ويقوم فى نفس الوقت بإشعال النار فى أوربا . لم يكن قراره من بين تلك القرارات التى يعد لها من بعيد ، المشروعات المدروسة لفترة طويلة ، والناضجة فى صبر . ففى العام السابق ، وحين فكر فى المستقبل ، فكر بطبيعة الحال فى إمكانية الحصول على ممتلكات جديدة : ولكنها كانت بروسيا البولندية ، وبوميرانيا السويدية ، وماكلمبورج ، ودوقيات برج وجولييه ، ولم يكن بينها أى إقليم يخص النمسا . وإذا كان قد غير إستعداداته فجأة ، فإن ذلك كان على علاقة بحادث مفاجىء ، كان فى وسعه أن يتأخر عن ذلك:

فلقد توفى شارل السادس وله من العمر خمسة وخمسين عاماً . وستجد المملكية النمسوية نفسها وقد ضعفت تحت حكم إمرأة شابة وليست لها خبرة ،الأمر الذى قد يؤدى إلى منازعتها التاج الإمبراطورى ؛ فكان من الضرورى عدم التردد ، وإنتهاز الفرصة .

وكانت سيليزيا هنا ، مجاورة لبراندبورج ، ومرتبطة بها بمجرى أودير . ولم تكن الصعوبة تتمثل فى الإستيلاء عليها ، بل فى أمر الإحتفاظ بها : خاصة وأن النمسا كانت دولة عسكرية كبرى، ويزيد عددسكانها سبعةأو ثمانية أضعاف على عدد سكان مملكة هوهنزلرن الصغيرة ، وكانت لها موارد من الرجال ومن الأموال أكثر منها وبمراحل . وكان أمر إنتزاعها منها يبدو على أنه من الجنون. وكان الكثيرون ، فى الخارج ، يعتقدون فى ذلك . ولكن فردريك كان يحب المخاطرة ، وكان واثقاً فى نفس الوقت ، فى نجمه ، فقام ، بعد شهرين من وفاة الإمبراطور ، وبدون إعلان حرب، بإدخال قواته فى سيليزيا (١٦ديسمبر ١٧٤٠). ثم طلب إلى فينا أن تتنازل له عن الإقليم ، عارضاً ، فى نظير ذلك ، أن يعطى صوته لفرانسوا صاحب اللورين ، زوج ماريا تريزا ، فى يوم الإنتخابات الإمبراطورية . ورفضت «ملكة المجر» ، وبكل إحتقار فكرة عقد صفقة من هذا النوع .

وكان فردريك يعرف جيداً أوربا التى كان يعيش فيها . وكان له الوقت الكافى ، ودرسها فى أثناء سنوات الإنتظار التى كان قد قضاها بعيداً عن والده، والبلاط والأعمال ، فى وحدته فى رينزبرج . وكان يعرف أن هناك إمكانية كبيرة لكى تظل النمسا فى عزلة . أما حليفتها الروسية فإنها مرت فى أزمة كادت أن توصلها إلى الشلل . وكانت الوصية، أنا ليوبولدوفنا **Anna Leopoldvna** ، مشغولة بصعوبات ضخمة فى الداخل ، فكانت بالتأكيد لن تتمكن من المشاركة

فى الحرب ، وحيث لم تكن مصالح الامبراطورية مهددة بطريق مباشر . وكانت إنجلترا ، وهى حليف آخر لآل هابسبورج ، من جانبها ، فى حرب على البحار مع إسبانيا منذ السنة السابقة ، ولصالح خارج النطاق الأوربى . أما فرنسا ، والتى كانت تجارتها تقاسى أكثر فأكثر من المنافسة الإنجليزية ، فكانت تظهر تعاطفاً مع إسبانيا ؛ وبدت ، هى كذلك ، على أنها على وشك الإشتراك فى العمليات الحربية ؛ وكانت قطيعة دبلوماسية قد وقعت بين فرساى وبين لندن . ولذلك فإنه لم يكن فى وسع الإنجليز أن يواجهوا ، إلا بكل ضيق ، أمر ظهور تعقيدات جديدة فى أوربا . وكان تحالفهم لعام ١٧٣١ مع النمسا لايزال سارياً . ولم يكن فى وسعهم بطبيعة الحال أن يحرروا أنفسهم منه فى وقت تكون العلاقات فيه مشدودة مع فرنسا . ولكنهم سوف يبذلون كل ماهو ممكن من أجل إيجاد حل وسط بين فينا وبرلين . وسوف يصلون إلى ذلك فى مدة عام .

ونادراً ماكانت السياسة الفرنسية على هذه الدرجة من عدم التأكد بالنسبة لأهدافها ، وأيضا غير ضامنة لوسائل عملها ، كما كانت عليه فى ذلك الوقت . وفى القرن الماضى ، كانت لم تنجح ، رغم الظروف المواتية — ضعف الدولة الإسبانية ، وطول مدة إنغلاق إنجلترا على نفسها — فى القضاء على دولة الشمال ، قضاء نهائياً ، وذلك بضمها الأراضى المنخفضة إليها : فلقد ترك ريشيليو نفسه يقع تحت تأثير المغناطيسية ، بعظمة دولة السويد ، ذلك الكائن الضخم الذى كانت أرجله من الصلصال ، وفقد مازران جولته لأنه أراد أن يكسب الكثير ، وفجأة . ولذلك فإن المشكلة الكبرى التى كانت قد طرحت نفسها بين فرنسا وإسبانيا منذ عهد شارل الخامس لم يوجد لها إلا بداية لحل فى عصر لوى الرابع عشر . وعند نهاية القرن السابع عشر ، تم ترحيل هذه المشكلة إلى القرن الثامن عشر : فلم تكن الظروف قد تغيرت إلا قليلا حينما تدعمت معاهدات أوترخت السيادة على الأراضى

المنخفضة من إسبانيا لكى تعيدها إلى آل هابسبورج النمسا . ولمدة ربع قرن ، ومادام التحالف الإنجليزى قد ظل قانون تلك السياسة التى كان ينفذها الوصى ، ومن بعده فليرى ، لم يكن هناك مجال لإعادة طرحها على مائدة المفاوضات . ولذلك فإننا رأينا الوزير الفرنسى يعرض من جانبه أمر تحييد الأراضى المنخفضة وقت أزمة الوراثة البولندية.

ولكن الظروف أصبحت الآن ،وقد إختلفت شيئاً ما.فكانت إنجلترا جورج الثانى إلى جانب النمسا . فهل سيتركون ، مرة جديدة ، فرصة تسوية المسألة تمر؟ ولم يعد شوفيلان فى السلطة . ولكن روح سياسته كانت لاتزال موجودة ، ومستمره فى التأثير على قطاع هام من الرأى العام . وأصبحت باريس وفرساى يميلان إلى بروسيا خاصة بعد أن حصل فردريك على سمعته كملك محب الفلاسفة . وأصبح رؤساء الحزب المعادى للنمسا الآن سيدان كبيران وأخوان ، كونت بل إيل ، وفارس بل إيل Bellé Isle . وكان يقف خلفها كل النبلاء العسكريين ، وكما هو الحال دائماً ، متشوقين للمغامرات . ولكن فليرى كان لايزال فى السلطة ، ويظهر أنه كان أكثر حباً للسلم عنه فى أى وقت مضى — وعلى الأقل فيما يتعلق بشئون القارة ؛ إذ أنه على البحر ، كان يفكر فى الموافقة على التدخل ضد إنجلترا إلى جانب بوربون مدريد . وعلى أى حال فإنه لم يكن ذلك الرجل الذى يمكنه أن ينتهز الفرصة التى عرضت نفسها لكى يحصل ، إما على الأراضى المنخفضة عند إعطائه معونته للنمسويين ، وإما على الأقل على جزء من الأراضى المنخفضة ، وذلك كثمن لحياده . وسيكون سياسته ، وبعد تمعن ، هى سياسة إمتناع مؤقت . ومع إستثناء واحد ، وكما حدث فى أثناء الأزمة السابقة ، فإنه لن يتمكن لفترة طويلة من أن يقف فى وجه إنطلاقة الرأى العام . وسرعان مايجد نفسه مضطراً الى أن يقدم له التنازلات ، مع نفس النيات السابقة ، وبنيته على أن

يشترك فى الحرب بأقل درجة ممكنة ، وبأن ينسحب منها عند أول إمكانية لذلك . وستكون النتيجة الوحيدة لمقاومته الطويلة هى أن يضر وبشكل خطير بالنتائج التى يمكن توقعها من عملية دخول سريعة وقوية فى الحرب .

ولقد تمكنت العناصر المعادية للنمسا ، وبمساعدة لوى الخامس عشر ، والذى نجحوا فى كسبه إلى وجهات نظرهم ، من ان يجبروا فليرى على أن يقبل التفاوض مع فردريك من أجل الإنتخابات الامبراطورية ، التى كانوا يعدون لها . وكانت نية الوزير تتلخص فى عدم إعطاء بروسيا او بافاريا إلا إتفاقيات دفاعية بحتة . ولكن الحزب المعادى للنمسا طغى عليه ، وكان رئيسة كونت بل إيل ،قدحصل على رتبة ماريشال فرنسا ، وتم إختياره كسفير فوق العادة لدى الدايت الانتخابى وفى ألمانيا ، ظهر بل إيل على أنه الموجه الحقيقى للسياسة الفرنسية،وليست سياسة الانتظار التى كان فليرى يتمسك بها بعناد ، ولكن سياسة تدخل فعالة ونشطة ضد النمسا . ولم يكن الأمر يتعلق بمجرد مساعدة منتخب بافاريا ، شارل ألبرت ، على أن يقتصر على فرانسوا صاحب اللورين : بل كان من الضرورى عمل كل شىء من أجل وضع ماريا تريزا فى عزلة تامة .

وكان من الطبيعى أن يلعب فردريك الثانى دوراً هاماً فى ذلك التكتل الذى كان تحت التكوين . ولقد جعل نفسه مهماً ، وجعل نفسه وكأنه لا يمكن الاستغناء عنه ، وجعلهم يطالبون به ، وظهر على أنه غير متسرع فى أمر إعطاء تعهدات . وإستمرت تسويفاته حتى بعد الانتصار الساحق الذى حصل عليه ضد النمسويين فى ملويتز ، قرب برسلاو (٥ أبريل ١٧٤١) . ولكى يوافق على أن يرتبط مع السياسة الفرنسية ، كان من الضرورى أن يتأكد،فى مفاوضاته مع فينا ، من إستحالة زحزحة عناد ماريا تريزا عن أن تتنازل له عن أي شيء . وعندئذ

فقط ، وافق على التعهدات التى طلبها بل إيل. فتم التوقيع على معاهدة أولى ، فى نيمفنبورج ، فى بافاريا (مايو ١٧٤١) . ضمنت تأييده لترشيح شارل ألبرت ، وذلك فى نفس وقت تأييد ملك إسبانيا ومنتخب ساكس . ثم تعهد بعد ذلك ،فى برسلاو ، فى شهر يونيو ، بالتحالف مع فرنسا .

وهكذا تم إرسال جيش فرنسى ، بقيادة بل إيل،ضد القوات الامبراطورية وستنضم إليه ، فى أثناء الطريق . وحدات من بافاريا. ولم يكن هدفه فينا، ولكن براغ . وكانوا يعتقدون أن فى وسعه ، بعد أن يدخل إلى بوهيميا ، أن ينسق وبسهوله هذه العمليات سيقوم بها ضد العاصمة مع تلك العمليات التى يقوم بها ملك بروسيا فى سيليزيا . وسرعان ما يظهر فردريك قـلة إعتباره لتعهداته التى إرتبط بها . فكان قد حصل ، وبوساطة إنجلترا ، على مالم يكن عقد التحالف مع فرنسا قد تمكن من أن يعطيه له ، وهو وعد رسمى بالتنازل له عن سيليزيا السفلى. وكان فى هذا مايكفى لارضائه،وعلى الأقل مؤقتاً.وستتم عملية «إخراج» بكل ذكاء يموهوا بها على الفرنسيين أمر ذلك الوفاق الذى تم على حسابهم،وذلك فى الوقت الذى ستأتى هدنة ، وطبقاً لاتفاقية كلاين شيلندورف السرية (٩ أكتوبر ١٧٤١)، لكى توقف العمليات الحربية بين بروسيا والنمسا .

وبعد ستة أسابيع من ذلك ، قام الجيش الفرنسى البافارى بالاستيلاء على براغ . وقام شارل ألبرت ، منتخب بافاريا ، بتتويج نفسه ملكاً على بوهيميا . وفى نهاية شهر يناير ، تم إنتخابه إمبراطوراً . فى فرانكفورت ، بإسم شارل السابع . وفى هذا الوقت ، وبخ فردريك نفسه ، وبعد أن تأثر بنجاح جيوش ودبلوماسية ملك فرنسا ، على أنه لم يقدر المزايا التى كانت ستعود عليه من التحالف معه ، حق قدرها . فتذرع ببعض الذرائع الواهية لكى يخرق هدنة العام السابق . ثم قام ، وبدون أقل ضيق،بفتح المحادثات مع الفرنسيين من أجل الدخول

فى حملة جديدة . ولكنه أظهر حذره ، وصعوبة إحتوائه . فلم يصلوا إلى إتفاق . أما العمليات التى بدأت بدون تفاهم سابق فإنها لم تؤد إلى شىء . وعندئذ قام ملك بروسيا بالالتفاف من جديد ، وعاد إلى سياسة كلاين شيلندورف ، وسار فيها حتى نهايتها المنطقية ، وعقد إتفاقيات ضمنت له كل سيليزيا ، السفلى والعليا : مفاتحات برسلاو ، التى تأكدت بمعاهدة برلين (٢٨ يوليو ١٧٤٢) . وبدوره ، قام منتخب ساكس بإلقاء السلاح فى شهر سبتمبر : ولم يتأخر كثيراً عن المرور إلى المعسكر النمسوى ؛ وأكد النمسويون أنهم كانوا الأقوى ، وبلا جدال .

ومنذ التوقيع على معاهدة برسلاو ، دخلت قوات ماريا تريزا إلى بوهيميا. وسارت فى إتجاه براغ ، وحيث كان الماريشال بل إيل ، مهدداً بالحصار،وليس لديه تموين كاف ، فقرر العودة بقواته إلى فرنسا ، ولم يترك فى الموقع سوى أربعمائة رجل . وهذه الحامية الصغيرة ، تمكنت من الصمود لعدة أشهر، ثم عادت إلى بلادها فى بداية شهر يناير ١٧٤٣ ، وهى مكللة بغار الحرب . وتبعت بافاريا مصير بوهيميا . وفى نفس اليوم الذى تم فيه تتويج شارل السابع ، كإمبراطور منتخب ، فى فرانكفورت ، دخل أحد الجيوش النمسوية إلى ميونيخ : وسرعان ماتم إحتلال الانتخابية كلها .

ولكن ، هل كان فى وسع آل هابسبورج أن يكسبوا الجولة؟ كان هذا هو السؤال المطروح فى كل مكان فى أوربا . وفى لندن ، على أى حال ، كانوا قد بدأوا يسيرون كل شىء من أجل مساعدتهم على ذلك . ومنذ أن كان والبول قد ترك السلطة (فبراير ١٧٤٢) ، لم يعد هناك أى إحتمال للتدخل كوسيط فى الخلاف . وتحت دفع كارتريت Carteret ، رئيس الوزراء الجديد ، تخلص الانجليز من تمنعهم عن الدخول وبدون أسباب سريعة فى شئون القارة. وقرروا

أن يساعدوا ، عسكرياً ، حليفهم النمسوى ، وذلك بعد أن يضمنوا التأييد المسبق من جيرانهم الهولنديين . وتم فضح ذلك الاتفاق الذى كان قد تم التوقيع عليه فى هانوفر (٢٥ نوفمبر ١٧٤١) ، والذى كان قد منح الفرنسيين كل حرية للعمل فى الامبراطورية . ووافق الملك جورج على تكوين جيش صغير ، إنجليزى ألمانى ، سوف يسمى جيش«المصلحة» ، لأنه سيكلف بشكل أساسى بتنفيذ « قرار المصلحة » لعام ١٧١٣ .

وفى لندن ، أصبح الشعار العام هو أن يخلقوا لفرنسا ، ومنذ ذلك الوقت ، كل الصعوبات الممكنة فى أوربا ، وفى خارج أوربا . وأظهر كارتريت أنه كان معادياً لفرنسا ، أكثر من كونه صديقاً للنمسا : ففكر فى وقت معين ، وفى مؤتمر هاناو (يوليو ١٧٤٣) ، فى أن يتم إحتفاظ شارل السابع بالتاج الامبراطورى وذلك فى نظير أن تستعيد النمسا دوقيات اللورين والألزاس : ولكن فينا رفضت مثل هذا الاقتراح ، وبكل ترفع . ولكنه نجح بدرجة أكبر فى إيطاليا . وكان شارل إيمانويل الثالث ، ملك سردينيا ، قلقاً من مشروعات وأطماع إسبانيا فى إقليم ميلانو ، وكان لا يأمل فى الحصول على شىء من فرنسا فليرى، ففير مواجهته: وذهب إلى النمسا . وبمعاهدة ورمس (سبتمبر ١٧٤٣) ، والتى تم عقدها تحت ضمانة إنجلترا ، تعهد بخدمة قضية وأهداف آل هابسبورج، وذلك نظير الموافقة على التنازل له عن جزء من إقليم ميلانو ، إلى الغرب من تيسن،ومن جانب آخر، وعد الهولنديون ، والذين كانوا قد علموا بوجهات النظر التى نسبت إلى فرنسامن ناحية الأراضى المنخفضة ، بإعطاء معونات لخصومها: وهكذا نجد أن الدبلوماسية الإنجليزية كانت تحاول إقامة تكتل كامل ضد فرنسا. ولذلك فإننا نجد أن الحرب فى أوربا سوف تصبح منذ ذلك الوقت مرتبطة كل الارتباط بتلك التى كان تدور ومنذ سنوات عديدة على المحيط ، بين الاسبان وبين الانجليز .

٣ ـ تدخل انجلترا وإستمرار الحرب فى أوربا :

كانت أصول أزمة العلاقات الانجليزية الاسبانية ، فى عام ١٧٣٨ ، تعود إلى حركة التهريب الانجليزية ، والتى إستمرت فى التزايد فى أمريكا نتيجة للميزات التى وافقت إسبانيا على منحها لمنافستها وقت التوقيع على معاهدات أوترخت ، من إحتكار للتجارة فى العبيد السود ، وسفينة التصريح . وأدى هياج الرأى العام، ونتيجة لشكاوى التجار المستمرة ، إلى إعادة إحياء ذلك العداء القديم بين البلدين؛ فوقعت الحوادث وتكررت ، وإضطر والبول بشكل معين إلى أن يصل إلى إعلان الحرب . وكان مسرح العمليات العسكرية فى أول الأمر هو ساحل كولومبيا ، وحيث تم إحتلال بورتو بوللو فى عام ١٧٤٠ ، ومحاصرة كارتاجين . ولم يكن هناك أى شىء حاسم قد تم ، حتى الوقت الذى بدأت فيه العمليات الحربية فى أوربا، وهى التى منعت بذل أى مجهود جديد فى العالم الجديد .

وكان عام ١٧٤٣ ، الذى شاهد تدخل الانجليز بنشاط فى شئون القارة ، هو أيضاً عام وفاة فلبرى . ولذلك فإنه كان ، بالنسبة لفرنسا، نهاية التردد، وأنصاف الحلول ، والتسويف . ولم يعين لوى الخامس عشر خلفاً لهذا المستشار الدائم ، والذى كان قد حاول ، وبلا جدوى ، ان يتخلص من سيطرته فى السنوات الاخيرة . وتشبه بجده لوى الرابع عشر ، واعلن انه سوف يحكم بنفسه منذ ذلك الوقت . ولكنه كان ضعيفاً ، وسوف يصبح لعبة فى ايدى المحيطين به . وفى ذلك الوقت ، كان الحزب المحب للحرب ، حزب بل إيل ، هو المتغلب . فتمكن من ان يحصل على إتمام مشروع التحالف مع إسبانيا،وهو الذى كان تحت المناقشة منذ سنوات عديدة . وجاءت معاهدة فونتنبلو (اكتوبر ١٧٤٣) لكى توحد فرعى أسرة البوربون فى الحرب ضد إنجلترا والنمسا . ولذلك فانه يمكننا إعتبارها على انها أول ميثاق للأسرة .

وكان من الطبيعى ان تمر شئون اوربا الوسطى إلى المرتبة الثانية ، وأن تظهر مسارح عمليات جديدة : الأراضى المنخفضة ، وإيطاليا ، والبحر المتوسط ، واخيراً المحيط والمستعمرات . وكانوا حتى ذلك الوقت قد عاشوا فى فرساى على ذلك الخيال بأنهم لم يكونوا فى حالة حرب مع الانجليز ، ولا حتى مع النمسويين وكانوا يعتبرون أن الوحدات العسكرية التى كانت قد أرسلت إلى بوهيميا فى عام ١٧٤٠ تتبع جيش شارل السابع ، وبصفتها مجرد قوات مساعدة . ولذلك فإنهم أبلغوا رسميا إعلان الحرب إلى لندن ، فى شهر فبراير ١٧٤٤ ، وإعلاناً آخر إلى فينا ، فى شهر أبريل .

وبعد أن تحررت السياسة الفرنسية من ذلك الحجز ، الذى كانت قد فرضته عليها رغبة فلهرى المسالمة للغاية ، عادت بطبيعة الحال إلى هدفها التقليدى ، وهو غزو الأراضى المنخفضة . أما النمسويون ، والذين كان تهديد روسيا لهم عند حدود بوهيميا قد أفقدهم أنفاسهم ، فإنهم عجزوا عن أن تكون لهم قوة كبيرة هناك . ولذلك فإن حملة قد أخذت تستعد من أجل العمل فى ربيع ١٧٤٤ . وفى الوقت الذى سوف يهددون فيه الانجليز فى جزيرتهم — تم تجميع أسطول وحملة إنزال فى دنكرك — سيعبر الجيش الرئيسى الحدود فى إتجاه بروكسل ، تحت قيادة موريس ، صاحب ساكس ، والذى كان من بين أفضل قادة عصره . وإتبعوا تقليد لوى الرابع عشر ، فكان الجيش يتقدم ، فى وجود الملك ، لحصار المواقع التى كانت تقطع عليه الطريق ؛ فتم الاستيلاء على كامبراى ، ومينان ، وإيبر ، وفورين ، على التوالى . وعلى البحر ، أدت إحدى العواصف فى الربيع إلى تفريق الأسطول ، وقذفت بجزء منه على الساحل : فلم يؤجل مشروع الانزال فقط ، بل تم التخلى عنه .

ومن ألمانيا ، سرعان ما جاءت أنباء سيئة . فكان الجيش الإنجليزى الهانوفرى قد حصل فى شهر يونيو على إنتصار ديتنجن ،وتمكن من عمل إتصال مع النمسويين الذين وصلوا من الجنوب . وبعد شهرين من ذلك ، لم يعد هناك فرنسيين فيما وراء نهر الراين . ولم يترك النمسويون أنفسهم ينزلقون إلى ميدان العمليات الجديد الذى كان الخصم قد إختاره . فإستمروا ، بعد عبور الراين ، فى الإتجاه صوب الغرب . وفى أثناء الصيف ، قام فرسانهم — من الكرواتفى غالبيتهم — باقتحام ، خطوط، لوتير ، وإنتشروا فى الألزاس السفلى ، وإستولوا على المواقع والممرات التى كانت توصل إلى اللورين . هذا علاوة على أن قائد الجيش كان هو الأمير شارل ، صاحب اللورين ، وأخو زوج ماريا تريزا ، وكان مرشحاً لتاج الدوقية فى حالة نجاح أخيه الأكبر فى أن يستبدله بتاج الإمبراطورية . وأجبر خبر وصول العدو إلى سافيرن القيادة الفرنسية على أن توقف العمليات فى الفلاندر ،وتسحب جزءاً من القوات فى إتجاه الفوج ، وكانوا يتوقعون مواجهات عنيفة من أجل السيطرة على الممرات الجبلية ، حين بدأت قوات الإمبراطورية فجأة عملية الإنسحاب .

وذلك أن فردريك كان قد دخل إلى المسرح . ولم يكن قد قدر ضخامة النجاح العسكرى الذى سوف يحصل عليه النمسويون ، ولا أن الإنجليز سوف يتدخلون بكل قوة . وأصبح يرى بكل وضوح : فإذا ما نجحت ماريا تريزا ، فإنها لن تتأخر عن أن تنازعه أمر سيليزيا من جديد . ولذلك فإنه عاد إلى حمل السلاح حتى يواجه خطراً يهدده . فنقض معاهدة برلين . ثم قام ، وبالإتفاق مع الفرنسيين ، بالدخول إلى بوهيميا ، وحيث تمكن من الإستيلاء على بوهيميا بدون صعوبة كبيرة . ولما كان جيش الأمير شارل صاحب اللورين قد أنفق أقل وقت ممكن للعودة إلى قواعده ، فإن البروسيين إضطروا إلى التراجع بسرعة .

ومن هذا الجانب ، ومن ذاك ، عاد الطرفان إذن إلى موقعها الأولى : فعدنا إلى نفس الوضع الذى كنا فيه عند نهاية عام ١٧٤٢ .

وفى إيطاليا ، وفى أثناء ذلك الوقت ، تمكن خصوم النمسا من أن يسجلوا بعض النقاط . وكان قطاعاً لم يلعب ولن يعلن فى هذه الحرب إلا دوراً ثانوياً . ففى عام ١٧٤١ ، قام أسطول بريطانى ، خرج من بورت ماهون ، بمحاولة غير مجدية لوقف تقدم قافلة لإرسال قــوات إسبانية إلى شبه الجزيرة تحت حراسة قوات فرنسية . ولكنا نجد ، فى عام ١٧٤٢ ، أنه كان يكفى أن تظهر أمام نابولى فرقة بحرية إنجليزية ، لإجبار الملك على استدعاء قواته التى كان قد أرسلها ضد النمسويين فى إقليم ميلانو . وأصبح الانجليز ، إبتداء من ذلك الوقت ، يسيطرون على السيادة على البحر : وأصبح الاسبانيين مضطرون إلى أن يرسلوا الامدادات إلى إيطاليا عن طريق البر . ولكنهم كانوا لايقدرون على استخدام ممرات الألب ، والتى كان يسيطر عليها رجال بيد مونت بكل قوة . وظلت قواتهم أمام الألب ، ومنفصلة لمدة عدة أعوام عن تلك القوات التى كانت ، منذ البداية ، قد نزلت فى توسكانيا .

ولقد أسندت قيادة هذا الجيش إلى دون فيليب ، الذى كان قد أصبح همزة وصل بين فرنسا وإسبانيا ، منذ أن كان قد تزوج ، فى عام ١٧٣٨ من إبنه لوى الخامس عشر الكبرى ، لويز إليزابيث . ولكى يقوم بعمل ما ، قرر دون فيليب أن يذهب بقواته صوب الشمال ، وذلك القيام بغزو سافوا . وسيقوم فى شهر يناير ١٧٤٣ بالدخول منتصراً إلى شامبيرى ، التى سيحتلها الفرنسيون حتى نهاية الحرب . وفى أثناء ذلك الوقت كانت القوات النمسوية السردينية قد أتمت السيطرة على سهل نهر بو . وفى العام التالى ، وصلت القوات الفرنسية بدورها ، بقيادة أحد أمراء الدم ، وهو أمير دى كونتى Conti ، وهو شاب آخر . وتمكن

الاسبانيون ، بمساعدتهم ، من عبور جبال الألب ، والنزول على السفوح الايطالية منها ، حتى كونى . ولكنهم إضطروا ، عند نهاية الصيف ، وفى الوقت الذى عبر فيه جيش الشمال الشرقى الفرنسى نهر الراين ، إلى العودة إلى سافوا .

وإستمر هذا التطور البطىء للأحداث ، وزاد تحديده ، فى إتجاه حرب فرنسية إنجليزية ، بحرية وإستعمارية بشكل رئيسى ، فى أثناء عام ١٧٤٥ . وفى لندن ، ترك كارتريت السلطة . ولمدة عشر سنوات ، من عام ١٧٤٤ حتى عام ١٧٥٤ ، سيكون الدور الرئيسى داخل الحكومة لهنرى بلهام Henry Pelham ، والذى سيبدأ معه ويليام بيت William Pitt مستقبله الوزارى . ومال جهود الوزارة الجديدة بنوع خاص إلى تدعيم الوفاق العسكرى مع الهولنديين . وسيكون على جيش إنجليزى هولندى ، بدلا من النمسويين ، أن يحاول فرملة التقدم الفرنسى فى الأراضى المنخفضة .

أما لوى الخامس عشر ، فإنه ما أن تماثل للشفاء من المرض الذى كان قد نزل به فى ميتز ، وفى الوقت الذى كان الأعداء يهددون فيه بعبور الفوج ، حتى إختار مرشحاً آخر اشغل منصب وزير الدولة للشئون الخارجية ، وهو ماركيز أرجنسون Argenson ، أخا وزير الحربية . وكان هو كذلك ، مثل شوفيلان ، معادياً للنمسا ، وبشكل معلن . وأظهر تعاطفاً واضحاً مع الأمة الايطالية . وكان يحلم بايطاليا ، يتم تحريرها ، من النمسويين والاسبان فى نفس الوقت ، وحيث يتم تجميع الدول الحرة فيها Stati liberi ، وهم الأنصار التقليديون للنفوذ الفرنسى ، فى إتحادية يوجهها ملك بيدمونت ، الذى سوف يحصل قبل ذلك على ملكية كل لومبارديا : وكانت خطه مليئة بالتناقض فى ذلك الوقت الذى كانت فرنسا فيه حليف إسبانيا ، وحيث كانت الجيوش الإسبانية الفرنسية مشتبكة فى معارك ضد جيوش النمسا وسردينيا .

وعلى أى حال ، فإن مشروعات أرجنسون لم تؤثر فى شىء على تطور الأحداث ،

والتى كان يسيطر عليها، وكما هو الحال دائما ،الموقف الحربى . ووجد البيدمونتيون أنفسهم فى صعوبات . ورجع ذلك إلى تدخل جمهورية جنوا التى قررت ، بعد تردد كبير ، أن تتفاوض مع فرنسا وإسبانيا ، وتعهدت ، وفى نظـــير بعض الضمانات ، بأن تترك قواتها تمر من أراضيها . ولذلك فإن المتحالفين حصلوا على إمكانية الخروج من كونتية نيس ، ومن اللحاق قرب جنوا بالجيش الإسبانى الصغير الخاص بإيطاليا الوسطى ، ومن أن يتقدموا مع هذا الجيش حتى ميلانو ، وحيث كان دون فيليب قد وصل منذ شهر ديسمبر .وعندئذ طلب شارل إمانويل وقف العمليات الحربية . وكان مستعداً لكى يتخلى بسهولة عن النمسا . فى حالة مقابلته باقتراحات مفيدة ، وهى التى كان يأمل فى أن يحصل عليها من أرجنسون . ولكن المعارضة الشديدة التى قامت بها إسبانيا لهذه المشروعات ، والتى وصلت إلى حد الاتهام بالخيانة ، أدت إلى فشل المحادثات ، وتم نقض الهدنة . وعندئذ، تحول الموقف إلى صالح النمسا : فتمت هزيمة المتحالفين مع فرنسا ، وطردهم من سهل بو ، ثم من جنوا التى تم الاستيلاء عليها بعد عمليات حصار شارك فيها الانجليز من ناحية البحر . وسيبدأ تهديد خطير فى فرض نفسه على الحدود الفرنسية . فتم إحتلال نيس ، وكادت دراجينيان أن تسقط حين جاءت ثورة أهالى جنوا ، التى حرمت جيش الغزو من مركـــز تموينه الرئيسى ، وأجبرته على أن ينسحب . وفى هذا الجانب ستظل الأوضاع كما هى عليه تقريباً ،فى ذلك الوقت، وحتى نهاية العمليات الحربية .

وفى ألمانيا ، بدأ عام ١٧٤٥ بالوفاة المفاجئة للإمبراطور شارل السابع . ولم تظهر فرنسا أى حرص على القيام بترشيح إبنه ، ومساعدته على الفور : فكانت قد أصبحت لا تهتم إلا بالحرب مع إنجلترا . وكان جيشها الرئيسى قد عاد إلى الفلاندر ، حيث إستعد الملك ، من جديد ، لمصاحبته . وسرعان ما فهم منتخب

بافاريا الجديد أنه لن يجد ، من هذا الجانب ، التأييد الذى كان يحتاجه . ولذلك فإنه وجد أن من الحكمة أن يتصالح مع جيرانه النمسويين . فتنازل بمعاهدة فلوسن (ابريل ١٧٤٥) عن المطالبة بالتاج الامبراطورى ، ووعد باعطاء صوته لفرانسوا صاحب اللورين ، وإستلم إنتخابيته . وفى فرساى ، إعتقد ماركيز أرجنسون أن يضع فى مكانه منافسه أوجست الثالث ، منتخب ساكس وملك بولندا : ولكن المسألة لم تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، إذ أن أوجست الثالث كان بالفعل يستعد لتغيير المواجهة ، وعلموا فى شهر مايو أنه قد تفاوض مع ماريا تريزا ، وأنه قد وعد بإعطاء صوته لفرانسوا صاحب اللورين . ومن ناحية أخرى ، وجد فردريك الثانى ، وقد ثار غضبه لمواجهته بترشيح أمير يعتبره فى ذلك الوقت على أنه من بين أشد أعدائه ،أنه يمكنه أن يقوم بعملية تغيير مواجهة جديدة : فحاول ، عن طريق وساطة إنجلترا ، أن يبيع صوته لماريا تريزا ، فى نظير إعتراف جديد وأكثر رسمية لغزوه سيليزيا .

وفى أثناء ذلك الوقت،وقعت فى الأراضى المنخفضة المعركة الوحيدة الكبرى فى هذه الحرب . فعند فونتنوا ، قرب الحدود ، تمكن ماريشال ساكس من أن ينزل بالجيش الانجليزى الهولندى ، تحت قيادة دوق كمبرلاند Cumberland ، هزيمة فادحة (١١ مايو ١٧٤٥) . ووقعت كل الفلاندر تحت سيطرته . وفى بداية العام التالى ، وصل بغتة إلى أمام بروكسل ، وحصل على التسليم السريع للموقع ، ودخل إليه دخولا رسمياً . وحيا الرأى العام الفرنسى هذا الحدث السعيد وكأنه نهاية وهــــدف لخطط ثابت . ولكن فردريك لم يكن مستعداً للمشاركة فى أفراح حلفائه . وكان قد طلب إليهم معاونته فى ألمانيا : فلم يجد سوى قلة اهتمام برغباته . فإضطر الى أن يستمر فى القيام بالحرب بمفرده تقريباً فقام بمناورات من أجل ان يجتذب النمسويين الى داخل سيليزيا : وهزمهم فى

فريدبرج فى شهر يونيو . وسمح له ذلك بأن يعرض الصلح ، وبكل كرامة.ومرة أخرى نجد أن مقترحاته تنقل عن طريق إنجلترا .

وتشجعت ماريا تريزا بنجاحها العسكرى والدبلوماسى وبإمكانية تقوية التحالف الروسى عن طريق القيصرة الجديدة ، إليزابيث ، والتى كانت قد وصلت إلى السلطة فى عام ١٧٤٢ ، والتى بدت الآن على أن سلطتها قد أصبحت مدعمة .وكانت لاتوافق على فكرة فقدان سيليزيا بشكل نهائى . وأخذت تعارض أمر تدخل حكومة لندن، حتى ذلك الوقت الذى قررت فيه هذه الأخيرة أن تستخدم حجة لهـــا وزنها : لامعاهدة مع فردريك ، لامال ؟ وكانت الإمبراطورة فى أشد الحاجة إلى معونات إنجلترا ، وستصل سريعاً إلى الخراب ، إذا مافقدتها . وهكذا نجحت المساومة الإنجليزية . هذا علاوة على أنها لم تتغلب على مقاومة النمسا إلا نتيجة لعملية إلتفاف : فكان البروسيون والإنجليز قد وضعوا سوياً ، فى مؤتمر هانوفر (٢٦ أغسطس ١٧٤٥) أسس الإتفاق الذى سوف يفرضونه على النمسا .

وحين إستلمت ماريا تريزا نص الإتفاق الإنجليزى البروسى بدأت بإعلان إحتقارها . وأعلنت أنها لن تقبله أبداً .وعندئذ،تم إنتخاب زوجها فى فرانكفورت، وبدون صعوبة : الأمر الذى أرضى كرامتها وأكد من شعورها بالقوة . ولكن خزائنها كانت لاتحصل على مال كثير ، وكانت جيوشها تلقى هزائم فى سيليزيا : فتمت هزيمة جيش الأمير شارل ، صاحب اللورين ، فى لور ، رغم تفوقه العددى الكبير . وجاءت محاولة أخيرة من أجل إصلاح الموقف ، وهذه المرة بمساعدة الساكسون ، ولكنها إنتهت بسرعة . ذلك أن فردريك ، الذى علم فى الوقت المناسب بأمر الإعداد لهجوم على برلين ، سبق خصومه ، وتوغل فى ساكس ، وطرد الملك المنتخب من عاصمته . وعن طريق وساطة إنجلترا ، حصل أوجسمتى

الثالث على صلح سريع ، نظير إنضمامه إلى إتفاقية هانوفر (معاهدة درسدن فى شهر ديسمبر ١٧٤٥) . وعندئذ قررت ماريا تريزا ، ودون أن تتأخر أكثر من ذلك، أن تعطى بدورها توقيعها على إتفاقية هانوفر . وكان هذا يعنى أنها تخلت عن سيليزيا من جديد ، ولكن دون تحديدات هذه المرة ، وبدون الرغبة فى إستعادتها .

ومنذ ذلك الوقت لم تقع أحداث عسكرية لها قيمتها فى ألمانيا، ولا على حدود ألمانيا . وأصبحت الحرب ، فى المكان الأول ، حربا فرنسية إنجليزية، وأصبحت ميادينها تقع فيما وراء البحار . أما فى أوروبا ، فإن مسارح العمليات الوحيدة ، التى لاتزال لها حساب ، كانت هى الأراضى المنخفضة ونهر بو .

وحاولت ماريا تريزا ، والتى أجبرت على أن تضحى بسيليزيا بشكل نهائى ، أن تجد فى إيطاليا تعويضاً عن خسائرها فى ألمانيا . وأخذت إنجلترا تدفعها إلى بذل مجهود كبير ، حتى تشغل هناك القوات الفرنسية التى كان فى وسعها أن تستخدمها فى الأراضى المنخفضة . وكان فى وسعها ، بعد أن تتحرر من كل مشغولية ، فى خلفها بتفاهمها فى درسدن مع فردريك ، أن تدعم جيشها فى لومبارديا ، وأن تقوم ، بعد بضعة أشهر ، بتحرير كل وادى نهر بو . وفى ربيع عام ١٧٤٦ ، وقعت جنوا مرة أخرى فى أيدى القوات الإمبراطورية ، فلم يعد هناك ، منذ ذلك الوقت ، فرنسيين أ إسبانيين ، فيما وراء الألب . وساعدت الهزائم التى نزلت بالمتحالفين على زيادة خطورة الخلافات التى كانت قد نشأت بينهم نتيجة لسياسة أرجنسون المحبة لايطاليا . ومع ذلك ،ففى الوقت الذى تبدأ فيه مفاوضات الصلح ، ستقع حادثتان غير متوقعتان ، وتسهمان فى تدعيم الروابط ، التى كان قد أصابها إرتخاء . فجاء أولا إختفاء فيليب الخامس (يوليو ١٧٤٦) . فإنتهى حكم

إليزابيث فارنيز فى ذلك الوقت : ذلك أن الملك الجديد ، فيليب السادس ، كان إبنا لفيليب من زواج أول ؛ وسوف تفقد معه المطالب الإسبانية فى إيطاليا ، قوة تشددها . ومن ناحية أخرى ، فقد أرجنسون الثقة فيه، فى شهر يناير ١٧٤٧، وأخذ مكانه الماركيز دى بويسيو Puisieux . وهو أحد الدبلوماسيين ، والذى سوف يحصل على ثقة مدريد .

وفى أثناء ذلك الوقت ، بدأ الإهتمام يزداد تركزاً على إنجلترا ، وحيث أدت عملية نزول تشارلز إدوارد ، وريث آل إستيوارت ، فى أثناء صيف ١٧٤٥ ، إلى نشأة موقف صعب . ولقد تمكن نتيجة لمساعدة أعوانه الاسكتلنديين ، من أن يدخل إلى أدنبره ، وحيث أعلن والده ملكا بإسم جيمس السابع . وتمكن فى بريستون بانز من أن ينتصر على جيش أرسلته لندن لكى يستولى على العاصمة. ثم تمكن من أن يستغل سريعاً إنتصاره، فأخذ فى الزحف صوب الجنوب، واحتل مانشستر . ولكن فرنسا لم تتمكن ، لسوء أحوالها الخاصة ، من أن تقدم له معونتها. فأصبح عليه أن يعتمد على نفسه فقط ، واضطر إلى أن ينسحب . وجاءت هزيمته فى كللودين ، فى اسكتلندا (٢٧ أبريل ١٧٤٦) لكى تضع حداً لهذه المغامرة . ومع ذلك ، فإن وصول تشارلز إدوارد نتج عنه إجبار الإنجليز على إستعادة جزء من قواتهم التى كانت موجودة فى الأراضى المنخفضة ، أى إلى إضعاف مراكزهم هناك. فاضطر الإمبراطور إلى أن يؤيدهم بجيش تحت قيادة الأمير شارل ، صاحب اللورين . أما ماريشال ساكسن ، فانه إستمر من ناحيته ، فى إستغلال إنتصاره فى فونتنوا . فتعقب جيش الأمير شارل فى إتجاه الشمال ، ودفع به على حلفائه الأنجلو هولنديين ، وحصل بذلك على إنتصار جديد وكبير ، فى روكو ، قرب حدود هولندا (١١ أكتوبر ١٧٤٦) .

٤ ـ امتداد الحرب إلى المستعمرات :

فى المرحلة للحرب ، لم تعد هناك أية صلة بين هذه الحرب ، وبين الوراثة

النمسوية ، التى ظل إسمها ملتصقاً بها . وإمتدت العمليات الحربية شيئاً فشيئاً إلى المحيط ، وإلى سواحل أمريكا وسواحل الهند . وفى القارة الأمريكية ، كانت فرنسا الجديدة مجاورة لإنجلترا الجديدة . ولم تكن هناك إجراءات مشتركة من هذا الجانب أو ذاك ، وبدا أن نتيجة الحرب التى كانت قد بدأت هناك كانت معروفة مقدماً ومسجلة على خريطة السكان : فمن جانب ، الجانب الفرنسى ، كان هناك ما بين أربعين وخمسين ألف متوطن ؛ ومن الجانب الآخر ما يزيد على خمسمائة ألف ، قادرين على إنشاء جيش بمعنى الكلمة .

وكان الميدان الرئيسى للمواجهة بين المتصادين ، إن لم يكن الوحيد ، فى فى بداية الأمر ، هى الجزيرة الصغيرة المسماة كاب بروتون ، أو « الجزيرة الملكية » ، والتى كانت قريبة من شبه جزيرة آكاديا ، والتى كانت فرنسا قد إضطرت إلى التخلى عنها فى معاهدة أوترخت . وكان ميناؤها لويسبورج ، قد أصبح مركزاً هاماً ، ومن بين أكبر أسواق كندا . وكان بعض المعمرين من إنجلترا الجديدة قد عقدوا العزم على أن يستولوا عليه ، وذلك عن طريق نقل بضعة آلاف من الرجال إليه ، تؤيدهم أربع سفن حربية أرسلتها لندن . وبعد دفاع مجيد ، إستمر لمدة خمسين يوما ، إضطرت حامية لويسبورج إلى أن تسلم (يونيو ١٧٤٥) . وقام الأسطول الإنجليزى بارسال بقية جنودها إلى أوروبا ، وألقى بهم على ساحل بريتانى . وعندئذ تم إعداد حملة صغيرة ، من جانب فرنسا ، من أجل إستعادة الموقع . ولكن إحدى العواصف فرقت الأسطول ؛ وإنتشر مرض الإسقربوط بين من نجح من الرجال فى الوصول إلى البر .

أما فى الهند ، فإن الموقف الخاص بكل من الدولتين كان أكثر تعقيداً . ولقد تميز بتعدد أماكن التمركز ، وبتداخل المصالح . وكانت المراكز التجارية الإنجليزية قد ظلت هى نفسها التى كانت موجودة فى أثناء القرن السابق . وحصل المركز الذى أقيم على هوجلى على إسم كاليكوتا . وفى نفس المنطقة ، وإلى الجنوب

أكثر من ذلك ، تم الحصول على بالاسور فى عام ١٦٤٢ . أما فيما عدا ذلك ، فإن موقع سان توما البرتغالى السابق ، والقريب من مادراس ، قد إنتقل إلى أيدى الفرنسيين ، ثم إلى الهولنديين ، الذين أخلوه تماماً فى عام ١٧٤٩ . وكان الفرنسيون قد أظهروا الكثير من النشاط فى أثناء حكم لوى الرابع عشر : فأقاموا فى أول الأمر ، كما رأينا ، فى سورات وفى مازوليباتام (١٦٨٧) ، إلى جانب الإنجليز والهولنديين ؛ ثم فى بوندشيرى ، التى أصبحت فى عام ١٦٨٦ عاصمة لمراكزهم فى شبه القارة ؛ ثم فى نقط مختلفة من البنغال ، والتى كانت مركزاً كبيراً لإنتاج الحرير — وبخاصة فى شاندر ناجور ، وحيث منحهم سلطان المغول بفرمان خاص فى عام ١٦٨٨ حق إنشاء مؤسسة تجارية ، وحيث سيكونون جيراناً للانجليز فى كاليكوتا — ؛ وعلى ساحل التوابل فى قاليقوط فى عام ١٧٢٧ ؛ وفى ماهى ، إلى الشمال أكثر من ذلك بقليل ، وفى ياناون على ساحل شيركار ، قرب هذه الفترة ؛ وأخيراً ، فى عام ١٧٣٩ ، فى كاريكال ، إلى الجنوب من بوندشيرى .

ومن هذا الجانب ومن ذاك ، كانوا يأملون ، ولفترة طويلة — ومثل ذلك مثل الصدامات السابقة بين لندن وبين باريس — فى الإحتفاظ بالحياد . ومن بوندشيرى ، قام دوبلكس Dupleix ، الحاكم الجديد ، بالتحدث بهذا الأسلوب مع جيرانه فى مادراس ، ورحبوا هناك بهذه المفاتحات . ولكن الحوادث التى وقعت بين السفن الحربية للدولتين قضت على هذا الأمل ، وكان من الضرورى الوصول إلى إشتباك ، سواء رضوا أو أرغموا على ذلك . وحاول دوبليكس أن يجد عوناً من جانب حاكم مجموعة ماسكارين (جزيرة بوربون وجزيرة فرنسا) ؛ ماهى دى لابوردونيه Mahé de la Bourdonnais ، الذى كان يقود بضعة سفن ، والذى كان قد حضر ، فى أثناء السنوات السابقة ، لكى يتعاون فى بعض

العمليات العسكرية ضد صغار الحكام القريبين ، من الوطنيين . وعند نهاية عام ١٧٤٤ ، كانت الحرب قد أعلنت بين باريس ولندن ، وأخذت السفن الحربية البريطانية تمر على سواحل شبه القارة ، فتم وضع فرقة بحرية صغيرة تحت أوامر لابوردونيه .

وجاء القرار ، فى العام التالى ، بمحاصرة مادراس . وكانت هناك تحت قيادة دوبليكس بضع سرايا كانت تمثل حامية بوندشيرى ، هذا علاوة على فرق من الأهالى ، «سيباى» ، كان قد دربها وشكلها على الطريقة الأوربية : وسيكون له تحت قيادته ، عند نهاية الحرب ، مايقرب من ثلاثة آلاف رجل ، كان من بينهم ألف ومائتين تقريباً من الجنود من الأهالى . وتم فى شهر سبتمبر ١٧٤٦ فرض الحصار أمام مادراس ،وسلم الموقع بعد بضعة أيام . ورغماً عن لابوردونيه ، الذى وافق على مبدأ فدية ودخل فى صدام بهذا الشأن مع دوبليكس ، ظل الفرنسيون محافظين على ماإستولوا عليه . وقاموا فى العام التالى بدفع الخصوم، والذين جاءوا ، بدورهم ، لمحاصرة بوند شيرى، تحت قيادةالأميرال بوسكاوين Besawen وفى نفس اليوم الذى يرون فيه إبتعاد الإنجليز (١٨ أكتوبر ١٧٤٨) سيكون الصلح قد تم التوقيع عليه فى إكس لاشابيل .

٥ ــ التهديد الروسى وصلح إكس لاشابيل :ــ

لم يكن هناك مايدفع لوى الخامس عشر إلى التفاوض ،فى ذلك الوقت. وكان ماريشال ساكس يواصل تقدمة فى الأراضى المنخفضة . وكان جيش الحلفاء ، بقيادة كمبرلاند ، قد هزم من جديد ، فى عام ١٧٤٧ ، فى لوفلت قرب ميستريش . إلا أن الرأى العام الفرنسى كاد صبره أن ينفذ ، وأخذ يطالب بعقد الصلح ، بإنهاء الحرب . ورأت الوزارة أنه من الواجب الإهتمام باقتراح هولندا ، والتى كانت تعرض نفسها كوسيطة . وسرعان ماتم وضع مشروع ،

يشتمل على الإعادة المتبادلة لكل الأراضى المغزوة فى أثناء فترة الحرب . وكان هذا تنازلا غريباً من جانب المنتصر ، مادام فى وسعه وحده أن يقدم الخريطة التى تتمشى مع مصالحه ! ومـــع ذلك فإنهم سوف يقدمون تنازلا للحلفاء : فتصبح بلجيكا أرضاً محايدة ، تحت حماية الهولنديين . ومن ناحية أخرى ، سيصبح دون فيليب جراند دوق لتوسكانيا . وفى أثناء ذلك الوقت ، كان الإنجليز قد كونوا فكرة ضخمة عن قوتهم حتى أنهم رفضوا المقترحات الفرنسية : ورأى نيو كاسل Newcastle أنه من الضرورى الإنتظار. ورغم أن آماله فى تحسن الموقف العسكرى لم تتحقق ، إلا أنه سوف ينجح ، مستعينا فى ذلك بعدم تمسك وتشدد المتحدثين معه ، فى أن يحصل على أكثر مما كان قد عرض عليه فى أول الأمر . ولكى نقدر على فهم طريقة تطور موقف كل من الدول ، علينا أن نتبع تاريخ مفاوضات إكس لاشابيل فى كل تفاصيلها الصغيرة ، ولكننا لا نتمكن هنا إلا من أن نعطى الخطوط العريضة لها .

وكان هذا التاريخ محكوماً بالتدهور المستمر للتحالف الإنجليزى النمسوى. ورأت ماريا تريزا أنه لا يمكنها أن تعتمد بطريقة مضمونة على معونة إنجلترا ، والتى كانت لا تهتم أبداً بسيليزيا ، والتى لم تقدر حتى على الدفاع عن الأراضى المنخفضة . ومن الناحية الأخرى ، كانت تنظر فى غالب الأحيان إلى ناحية روسيا ، وحيث كان حكم إليزابيث ، إبنة بطرس الأكبر ، لا يزال مستمراً (١٧٤٠-١٧٦٢). فرغماً عن الميول الواضحة تجاه فرنسا ، والتى كانت القيصرة قد أظهرتها منذ توليها العرش ، وكإعتراف بالجميل تجاه لاشيتاردى La Chétardie ، سفير لوى الخامس عشر ، الذى كان قد سهل عليها أمر الوصول إلى العرش ، كان عليها أن تحتفظ بنفسها ، فى أول الأمر ، فى حالة حياد صارمة ، خاصة وأن السويديين كانوا قد أفادوا من الصعوبات ، التى كانت حكومة روسيا فى داخلها متأثرة بها ، لكى يعلنوا الحرب . ولذلك فإن هذا التحالف ، الذى كان يربط ،

منذ عام ١٧٢٦ ، بين إمبراطورية آل هابسبورج ، قد ظهر أنه مهدد للغاية . ولم تستعد دولة روسيا حرية عملها إلا فى شهر أغسطس ١٧٤٣ ، حين جاءت معاهدة آبو ، لكى تنهى الحرب ، وتركت لروسيا الأقاليم الفنلندية الأكثر وقوعاً صوب الجنوب . ومنذ ذلك الوقت ، ثارت مسألة المنافسة بين فرنسا والنمسا فى بلاط سان بطرسبرج . أما لاشيتاردى ، فإنه أرسل فى مهمة جديدة فى عام ١٧٤٤ ، ولكن مؤامراته أثرت فيه ، فتم طرده . وظهر فى عام ١٧٤٦ من جديد أمر إحياء التحالف النمسوى الروسى ، فجأة . وأثارت إليزابيت مسألة إمكانية الإلتجاء إلى السلاح : فوعدت فينا بمعونة جيش من ثلاثين ألف جندى مـــن أجل حملة عام ١٧٤٨ .

وكانت ماريا تريزا ، فى حالة حصولها على ضمانات بشأن مسألة سيليزيا، تفكر بكل رضى فى أمر تقارب مع فرنسا . وظهر أن الفرصة قد سنحت من أجل ذلك فى عام ١٧٤٦ . ذلك أن الدبلوماسية الفرنسية ، تحت إدارة ماركيز آرجنسون Argenson ، كانت مستمرة فى الإهتمام بالملك المنتخب أوجست الثالث ، رغم أنه كان قد فشل ، فى وقت الإنتخابات الإمبراطورية ، فى أن يتقدم بترشيح نفسه ضد فرانسوا صاحب اللورين . فبذلت كل مجهوداتها من أجل تخليصه من نفوذ سيطرة لندن ، وفينا ، وسان بطرسبرج . وانتهى بها الأمر إلى الفوز . فتم فى أول الأمر عقد إتفاقية حياد ، فى درسدن فى ٢١ من أبريل . ثم جاءت فى شهر اكتوبر المفاوضات من أجل زواج ولى عهد فرنسا من مارى جوزيف دى ساكس، إبنة أوجست الثالث . وسيتم الإحتفال بزواج المصلحة هذا فى شهر فبراير ١٧٤٧ . وستحصل فرنسا منه على لوى السادس عشر السىء الحظ ، والذى كانت تقاطيعه البسيطة تظهر دماءه الجرمانية .

وهكذا نجد أن ماريا تريزا تبلغ نياتها إلى فرساى ، عن طريق حكومة

ساكسونيا . ولانعرف كيف أن هذه المفاتحات والتى وصلت فى الوقت المناسب ، وفى الوقت الذى كانت فيه مسألة الأراضى المنخفضة قد حسمت على ميدان المعركة ، كان يمكن الحكومة الفرنسية أن ترفضها . فلقد قررت ، وبعد مداولات طويلة ، ألا تجيب عليها . ويبدو أن ذلك كان من باب الولاء لذلك الحليف البروسى ، والذى كان رغم ذلك قد دفع بالرغبة فى الإستقلال إلى حد الخيانة . ولاشك فى أنه من الضرورى أن نشير إلى تأثير بعض أصحاب العقائد على طريقة أرجنسون ، والذين كانوا يخشون من أن تتمكن فرنسا ، وفى عصر النور ، من أن تجد فرصة تؤثر فيها ، مرة أخرى ، وتعطيها روح الغزو .

أما الإنجليز فإنهم ، بمجرد معرفتهم بطلب النمسا ، لم تعد لهم سوى فكرة واحدة فى ذلك الوقت : اللحاق بمنافسيهم فى السرعة . وكان كل شىء يدفعهم إلى عقد الصلح دون إنتظار . وكانت المجهودات من أجل فصل إسبانيا عن فرنسا قد فشلت ؛ وكانت القوات النمسوية السردينية ، التى صدت عن إقليم بروفانس ، تحافظ على خط جبال الألب بكل صعوبة ؛ وأخيراً كان الهولنديون على وشك أن يفقدوا مايسترتش ؛ فلم يعد هناك أى أمل فى تحسن الموقف . وفى شهر أبريل ١٧٤٨ ، إستلم المفوض البريطانى فى مؤتمر الصلح أمراً بالإسراع . وكان المشروع الذى سيدافع عنه مستوحى فى خطوطه العريضة من مشروع أرجنسون فى عام ١٧٤٦ . ولكن فرنسا تبرأت تماما من أية نية للغزو حتى أنهم صدقوها ؛ ولم يفكروا فى إدخال أى تعديل على وضعية الأراضى المنخفضة . وعلى هذا الأساس ، تم التوقيع على الأسس العامة فى ٣٠ أبريل . وعند وصول هذا الخبر إلى لندن ، كتب أحد أعضاء الوزارة الإنجليزية : « لقد مررنا بالكاد » .

ولم تتم كتابة معاهدة إكس لاشابيل والتوقيع عليها إلا بعد ستة أشهر من ذلك (٢٨ إكتوبر ١٧٤٨) . وفيما بين فرنسا وإنجلترا ، تم الإتفاق على الإعادة

العامة الوضع القائم . وأعادت كل من الدولتين للأخرى ما كانت قد حصلت عليه منها فى غزواتها البعيدة ، فكانت مادراس بالنسبة لواحدة ، وجزيرة كاب بريتون بالنسبة للأخرى . أما فى العالم القديم ، فإن الخريطة السياسية لإيطاليا هى التى لحق بها التعديل ، بنوع خاص . فنزعت دوقيات بارما وبليزانس من آل هابسبورج وأعطيتا للأمير دون فيليب ، أخى ملك إسبانيا ، ونسيب ملك فرنسا ، وسيضيف إليها إمارة جاستالا ، والتى كان النمسويون قد إحتلوها أخيراً كمركز لهم فى إقليم ميلانو . أما ملك سردينيا فإنه لن يحصل إلا على أقاليم صغيرة كانت معاهدة ورمس قد وعدته بها . أما فيما يتعلق بأبناء جنوا ، والذين كانوا قد قاسوا كثيراً من الحرب ، فإن الموقعين على المعاهدة قد أرضوهم بضمان جماعى لإستقلال جمهوريتهم. وفى ألمانيا ، تم إعتراف كل الدول بإنتخاب فرانسوا صاحب اللورين للامبراطورية ، وذلك فى الوقت الذى نصت فيه إحدى بنود المعاهدة على التخلى عن سيليزيا ، وحصول ملك بروسيا عليها ، رغم أنه لم يكن ممثلا فى إكس لاشابيل . ووافقت فرنسا على هذه المراضاة لحليفها القديم . ويكفى هذا لكى يفسر لنا سبب الدهشة التى ظهرت على الرأى العام الفرنسى ، والذى أخذ على حكومة ملكه العزيز أنها قد «عملت من أجل ملك بروسيا» .

أما النمسويون فكانوا ، رغم تحفظهم ، أو حتى إحتجاجاتهم ، لايقدرون إلا على التصديق . وكانت ماليتهم قد حطمتها الحرب ، فأصبحوا فى حالة تبعية كاملة ، فى هذا الميدان ، لإنجلترا ، ولمعوناتها . أما حكومة إسبانيا ، التى لم تحصل على جبل طارق ولا مينورقة ، والتى إضطرت حتى إلى أن تعيد لإنجلترا ، ولمدة أربع سنوات ، ميزات تجارة العبيد ، وسفينة التصريح ، فإنها لم تعط موافقتها إلا لكى لاتظل معزولة . وبالإجمال فإن صلح إكس لاشابيل قد ترك وراءه الكثير من عدم الرضى .

الفصل السابع والعشرون

الصدامات الكبرى فى وسط القرن وصعود دولة بروسيا .

ثانيا : حرب السنوات السبع .

خضعت السياسة الأوربية ، فى خلال السنوات العشر التى تلت صلح إكس لاشابيل ، للأزمة الدبلوماسية التى يسمونها « تغيير نظام التحالف » . وهذه الأزمة لا تثير دهشة من تتبع باهتمام تاريخ الفترة السابقة لعام ١٧٤٨ . وكانت تحت الإعداد من فترة طويلة ، حتى أنها كادت تحدث قبل ذلك ، وفى عشية التوقيع على المعاهدة . وكانت السياسة الفرنسية ، برفضها التفكير فى ضرورة (أو حتى فى مجرد إمكانية) وقوعها فى هذا التاريخ ، قد تركت فرصة تمر ، لن تجدها بعد ذلك ، حين تقرر ، فى عامى ١٧٥٥ و ١٧٥٦ ، أن تعطى رداً على المقترحات النمسوية الجديدة .

١ ـ تغيير نظام التحالف :

وليس من السهل أن نبحث عما يحيط بهذا الموضوع فى فرساى . فلم تكن فرنسا هى التى تحرك الأمور ، وبأكثر مما كانت عليه فى الفترة السابقة ، وكانت تقوم بمجرد إستنباط النتائج، فى مدة لاحقة قصرت أو طالت ،عن تلك المبادرات التى كانت تقع فى أماكن أخرى ، فى فينا ، أو فى برلين ، أو فى لندن . وكانت قد رضيت وقنعت فى آخر الأمر بقبول التحالف المنشود من جانب النمسا حتى تواجه العزلة التى كان عدم تثبت دبلوماسيتها قد وضعتها فيها . وكانت آخر من يغير إتجاه سياسته .

ويمكننا أن نحدد نقطة بداية الأزمة فى عقد إتفاقية ، فى شهر سبتمبر ١٧٥٥،

بين إنجلترا وروسيا . وكان إختفاء قوة روسيا، وقت حرب الوراثة النمسوية، قد أسهم فى أدخال الخلل على العمل الدبلوماسى والعسكرى : ذلك أنه ضمن لفردريك حرية غير عادية فى حركاته . وسوف يتغير كل شىء إبتداء من اللحظة التى ستقوم فيها الدول العظمى ، والتى أصبحت من جديد مشغولة فى أوربـــا الوسطى ، بعمل حساب لها ، مع جيوشها . وبدأ التطور فى الوقت الذى إنتهت فيه مفاوضات إكس لاشابيل . وطبقاً لتعهدات عام ١٧٤٦ ، أرسلت فرقة روسية لنجدة ماريا تريزا : فإضطروا إلى إستدعائها قبل حتى أن تصل إلى الحدود الغربية لبولندا .

ولذلك فإن روسيا كانت موجودة رسمياً فى معسكر أصدقاء النمسا . وفى خلال السنوات التى تلت صلح إكس لاشابيل ، كاد الأمر أن يصل إلى إشتباك مسلح بين الروس وبين البروسيين . وكانت شئون السويد هى دائماً أساس المشكلة . فلقد فتحت أزمة لوراثة العرش فى استكهلم فى عام ١٧٥١ ، ورشحت القيصرة إبناً لأحد أخوة الملك المتوفى — والذى كان فى نفس الوقت متزوجاً من إبنة جورج الثانى ، ملك إنجلترا — ، بينما أيد فردريك مرشحاً آخر ، وهو الوريث الشرعى للتاج ، والذى كان متزوجا من أخته . وكان ملك بروسيا مصمماً ، وبكل عزم ، على ألا يترك أحداً آخر يحصل على النفوذ الذى كان يمارسه فى استكهلم ، فأظهر وجهة نظره بكل وضوح ، فى نفس الوقت الذى إتخذ فيه إجراءات عسكرية . ولكن الإنجليز كانوا مسالمين . وعملوا على تهدئة قيصرة روسيا ولذلك فإن لويز أولريك البروسية تمكنت من أن تصعد بهدوء على عرش السويد ، مع زوجها .

وإحتفظت إليزابيث بضيق شديد من جارها البروسى . فقابلت بفرح مفاتحات حكومة جورج الثانى لها بشأن إيجاد ضمان عسكرى بالنسبة لهانوفر .

وفى الوقت الذى كانت فيه النمسا تتفاوض فى لندن من أجل تجديد تحالفها ، رفض الملك أن يعطى تعهداً جديداً بالدفاع عن الأراضى المنخفضة فى حالة نشوب حرب . ذلك أن الأمة كانت قد تأثرت كثيراً بتلك الهزيمة التى كانت قد وقعت فى فونتينوا : وشعرت بها كإذلال ، وحتّى كدرس فى نفس الوقت . ولذلك فإنها صممت على ألا تقوم بعد ذلك بدور الجندى ، وبدون فائدة ، لإحدى دول القارة . ولكنها شعرت الآن بالحاجة إلى حليف ، حتى تتمكن من أن تضمن من بعيد أمن هانوفر . ولما كانت الوزارة الإنجليزية ، برئاسة نيوكاسل ،لا ترغب فى أن تحصل على الضمان النمسوى بالثمن الذين كانوا يطالبون به فى فينا ، توجهت إلى روسيا إليزابيث . وطبقاً للإتفاقية التى تم التوقيع عليها فى شهر سبتمبر ١٧٥٥ ، تعهدت القيصرة بأنها ، فى حالة نشوب حرب بين بروسيا وإنجلترا ، تقوم بغزو إقليم بروسيا الشرقية ؛ وتعهدت إنجلترا بأن تدفع لها نفقاتها . ولم يكن هذا يعنى أن يستغنى الإنجليز عن معونة النمسا ضد بروسيا . وظهرت لهم أن الضمانة الإضافية التى حصلوا عليها كانت تتوافق تماماً مع تعهداتهم السابقة تجاه النمسا .

ولكن مخاوف فردريك ثارت بمجرد شعوره بوجود المحادثات بين لندن وبطرسبرج . وقرر أن يعمل على تحييد إنجلترا ، وذلك عن طريق إعطائها كل الضمانات التى كانت ترغب فيها بشأن هانوفر . وكان قد تقدم فى الماضى باقتراح لذلك ، فى عام ١٧٤٨ ؛ ولكنه كان قد وجد بعض الفتور فى لندن . ووصل به الحال إلى مهاجمة الملك جورج ووزرائه ، حتى أنهم وصلوا تقريباً إلى قطيعة : فتم إستدعاء السفراء ، من هذا الجانب ومن ذاك ، أو حصلوا على عطلة . أما فى عام ١٧٥٤ ، فإن الإنجليز هم الذين رأوا ، وقد زادت خلافاتهم على البحر مع فرنسا ، أن يأخذوا المبادرة لإقتراح الوفاق : فوجدوا أنه لم يكن هناك شيء

أفضل ، لضمان هدوء القارة ، من عمل إتفاقية حياد مع بروسيا . وبدوره ، أهمل فردريك الأمر ، لفترة من الوقت ؛ وكان يتفاوض فى ذلك الوقت من أجل تجديد وتدعيم التحالف الفرنسى .

وهذا التحالف ، الذى كان يمارسه منذ سنوات عديدة ، والذى ضمن له الكثير من النجاح ، بدا له على أنه يمثل إحـــدى الضرورات الدائمة لسياسته الخارجية . وكان مستعداً لكى يؤيد فى كل وقت ذلك الحليف المختار ، والذى كان عداءه الدائم لدولة النمسا يخدم تماماً مصالحه فى ألمانيا . ولقد جعلنا نفهم أنه لن يجد أية غضاضة فى أن يمد سيطرته حتى نهر الراين ، والذى بدا أن يجراه ، كما كتب فى عام ١٧٤٦ فى « تاريخ فترتى ، قد خلق عمداً من أجل أن يفصل فرنسا عن ألمانيا . وهذه الفقرة من « وصيته السياسية » لها نفس الوضوح : « إن مصالحنا الحالية ، وخاصة منذ الحصول على سيليزيا ، تتمثل فى أن نبقى متحدين مع فرنسا ،وكذلك مع كل أعداء الأسرة الحاكمة فىالنمسا . إنسيليزيا واللورين أختان ، تزوجت بروسيا الكبرى ، وتزوجت فرنسا الصغرى . وهذا التزواج يجبرهما على أن يتبعا نفس السياسة . ولن ترضى بروسيا عن نزع الألزاس أو اللورين من فرنسا . . . » . ويا حسرة ، فالأشياء الجميلة لا تعيش طويلا ! فنعجب بها ، ولنمر .

وظهر كذلك ، فى ربيع عام ١٧٥٥ ، أن الحرب كانت وشيكة الوقوع بين فرنسا وانجلترا ، فمنح فردريك حلفاءه تعاوناً مائعاً بالنسبة لهانوفر . ثم تم فجأة إكتشاف التقارب الإنجليزى الروسى — أو شكوا فى وجوده — ، الأمر الذى دفعه إلى أن يعيد النظر فى موقفه . ولقد غير موقفه تماماً ، فى خلال عدة أسابيع : فأعطى الضمانة المطلوبة بالنسبة لهانوفر ، وشرطها بالحصول على ضمانة أخرى بالنسبة لممتلكاته ، فى حالة وقوع إعتداء روسى ، وعلى هذا الأساس تم ،

فى شهر يناير ١٧٥٦ ، عقد معاهدة وستمنستر . وفى جميع أنحاء أوربا ، وبخاصة فى فرساى وبطرسبرج ، كان لوصول هذا النبأ وقع القنبلة ، خاصة وأنهـــم كانوا لا يعرفون تماماً المناخ السائد فى لنـــدن . وسرعان ما قامت السفارات باستخراج النتائج المترتبة عليه . وسوف يتم تغيير الكثير من المواقف الدبلوماسية ، وبشكل سريع .

وكانت فرنسا هى التى شعرت بالنتائج المباشرة للاتفاق الانجليزى البروسى ، وكان عليها أن تأخذ قرارات كبيرة الأهمية : فمن ناحية القطيعة النهائية للعلاقات التى كانت لا تزال توحد بين بلاط فرساى وبين فردريك ، ومن ناحية أخرى موافقة الحكومة على تلك السياسة الجديدة التى أصبحت لا يمكن التخلص منها ، والتى كانت ضرورتها قد ظهرت فى فينا منذ وقت طويل ، والتى لم يتمكنوا حتى ذلك الوقت من أن يكسبوا لها الرأى العام ، فى فرنسا ، ولا الحكومة التى كانت خاضعة لهذا الرأى العام .

وكانت الدبلوماسية النمسوية تفكر دائماً فى هذا الموضوع ، منذ أن كان كونت كونتز Kaunitz ، يمثل ماريا تريزا فى إكس لاشابيل ، قد ذكر إمكانيته لمن تحدث معهم من الفرنسيين . وفى عام ١٧٥٠ ، إختارت الملكة الإمبراطورة كونتز سفيراً لها فى فرنسا ، من أجل أن يهىء أوساط البلاط والحكومة . وحين عاد فى عام ١٧٥٢ ، لكى يشغل منصب مستشار الإمبراطورية ، لم يكن فى وسعه أن يفتخر بأنه قد كسب الجولة . ولكنه كان قد نجح على الأقل فى إبعاد بعض الموانع التى كانت موجودة ضد النمسا . ولقد إدعوا ، لفترة طويلة ، أنه كان قد أدخل فى هذه اللعبة ، مدام دى بومبادور ، المحظية ، وأنها قامت بمحاصرة الملك ، وأقنعته شيئاً فشيئاً بالتحالف النمسوى . وهذه الرواية ، فيها خيال ، والكثير منها غير صحيح بالنسبة لما حدث . فمنذ عام ١٧٥١ كانت الماركيزة

تحضر جلسات المجلس بإنتظام ، ولذلك فإنها كانت على علم بأسرار السياسة ؛ وكان السفراء الأجانب الذين يعرفونها يتنافسون فى معاملتها بلطف زائد . وربما كانت فى أساسها أقل « بروسية » عن بعض أعضاء هذا الحزب « الفلسفى » ، والذى كانت مشاعرها توجهها إليه . ولذلك فإنه لم يكن من المستغرب أنها كانت قد تمكنت من أن تساعد ، بدرجة معينة من الفاعلية ، أولئك الذين كانوا يرغبون فى وضع التحالف النمسوى فى مكان التحالف البروسى . ولكننا إذا فحصنا الأمر جيداً ، نجد أنها لم تتمكن من أن تلعب دوراً كبيراً فى هذا الموضوع ، وأن دورها فيه كان ثانوياً . ذلك أن لوى الخامس عشر ، مهما يمكن أن يقال عنه ، لم يكن يتركها تسيره . وكان هذا هو الوقت والتى كانت فيه سياسته الخاصة به — والتى نسميها « سر الملك » — هى التى تعمل فى كثير من العواصم ، وتعرقل فى بعض الحالات سياسة وزرائه ، مثلما حدث فى وارسو ، وحيث حاولت أن تفتح الطرق أمام أمير فرنسى فى ذلك اليوم الذى تبدأ فيه أزمة جديدة لوراثة العرش. ومنذ صيف عام ١٧٥٥ ، قدم العرض النمسوى إليه فى شكل مفاوضات سرية . وكان راضياً بأن يقوم بالدور الذى يلعبه ، فوافق دون صعوبة . وكانت الوزارة معروفة بأن لها ميول تجاه بروسيا . ولذلك فإنه كان على المتحدثين بإسم ماريا تريزا أن يصلوا إلى الملك نفسه ، والذى كان من المفروض أنه أقل صعوبة فى ذلك من غيره . وكان هذا هو السبب فى أن يطلبوا إلى مدام دى بومبادور أن تعمل كوسيطة خاصة. وبدأت المحادثات فى شهر أغسطس ١٧٥٥ : وسارت ببطء كبير قبل الوقت الذى عرفت فيه فى فرنسا أمر معاهدة وستمنستر .

وكان المتفاوض شبه الرسمى ، الذى إختاره الملك ، وهو الأب دى برنيس Abbé de Bernis ، وهو صديق لمدام دى بومبادور . مرشحاً لتولى منصب السفير الفرنسى فى مدريد . ورغم أنه كان خاضعاً لإغراء الإمكانيات التى كانت

المقترحات النمسوية لفتحها أمام الدبلوماسية الفرنسية ، فإنه بدأ بإبعادها ؛ وكان لايرغب فى أن يفكر فى التخلى عن التحالف البروسى : وإذا ما إعتقدنا فيما ذكره، فإنها كانت مسألة شرف بالنسبة للملك ! وكان كل طموحه يتمثل فى مجرد الحصول على حياد النمسا ؛ الأمر الذى كان يستبعد أى تفاوض بشأن الأراضى المنخفضة ، ما دامت فرنسا هى التى ستكون صاحبة الطلب فى هذه الحالة. ولذلك ، فإن شيئاً لم يكن قد عقد،أو على وشك أن يتم،حينما إنفجر خبر معاهدة وستمنستر الجديدة. وفى البلاط ، بدأت الأعين ترتفع إلى السماء : وظهر فردريك ، وكما كان ، بأنه لا يؤمن بشىء . ورغم تأكيداته الكاذبة ، فلم يكن من الممكن النظر إلى التحالف البروسى إلا كخرافة ، وفجأة أصبح التحالف النمسوى ضرورة . وتم التوقيع على معاهدة فرساى الأولى بعد مايقل عن ثلاثة أشهر (أول مايو ١٧٥٦) . وطبقاً لوجهات نظر برنيس ، كانت المسألة الأولى فيها تتعلق بأمر حياد النمسا فى حالة نشوب حرب فرنسية إنجليزية . ولكن الفقرات التالية كانت تتعلق تماماً بنظام تحالف : ففى حالة تعرض إحدى الدولتين لهجوم فى أوروبا من جانب دولة ثالثة ، تقوم الدولة الأخرى بنجدتها بجيش من ٢٤٫٠٠٠ رجل .

وفى تفكير واضعيها ، كان هدف معاهدة فرساى هو أن تكون أداة السلم . ولم يكن فى وسع أحد أن يعتقد فى أن فكرة التعاون بين أكبر دولتين حربيتين على القارة لن تكون كافية لإخافة فردريك ،فى حالة رغبته فى أن يخضع من جديد لشيطان الحرب الذى كان فى داخله . وكان ما لم يشعر به المسئولون عن السياسة الفرنسية ، أو يتنبؤون حتى به ، هو أن الإمبراطورة الملكة ، والتى كانت شغوفة باستعادة سيليزيا ، سوف تتحرك بطريقة تجعل فردريك يأخذ مسئولية الدخول فى العمليات الحربية ، وأنه سيكون من حقها ، بالتالى ، أن تطلب إلى حلفائها الجدد تنفيذ الوثيقة الدفاعية التى قبلوا التوقيع عليها . وهذا هو ما سوف نشاهده بعد مضى أقل من ستة أشهر .

ولقد أثار هذا التغيير فى نظام المحالفات المشاعر فى أوروبا ، خاصة وأنه أصبح يمثل نهاية لذلك العداء التقليدى بين فرنسا وبين الأسرة الحاكمة فى النمسا : وتسبب فى إثارة الإهتمام الشديد عند رجال الحكم فى كل عاصمة ، وفى كل بلاط . ولم يحدث فى مكان آخر أن كان التأثير بهذه القوة ، ولفترة طويلة ، مثلما حدث فى الدولة العثمانية، وحيث رأوا أن الصداقة الفرنسية ، والتى كانت مبنية على العداء المشترك لأطماع النمسا ، قد طرحت التساؤل . وكان فى وسع الوعد بالنجدة المتبادل بين الحكومتين أن يلعب ويستخدم ضد أى خصم . وكانوا مندهشين فى إستانبول من أن الباب العالى لم يتم إستشارته صراحة من جانب الفرنسيين. وقدمت المطالب الشديدة اللهجة بهذا الشأن إلى دى فيرجن Vergennes ، سفير الملك هناك .

وزاد القلق حينما علموا أن تقارب فرنسا من النمسا قد أكمل بتقارب آخر مع روسيا . وكانت العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا وروسيا ، والتى كانت قد قطعت منذ بعض الوقت بسبب سوء الإجراءات التى كان حكومة موسكو قد إتخذتها ضد بعض ممثلى فرنسا ، قد عادت من جديد ، ونتيجة لطلب فرساى . وفى هذه المناسبة دخل إلى المسرح أحد الشبان الشقر ، والذى قبل أن يحيط نفسه بمجموعة نسائية حتى يضمن حسن إستقباله فى بطرسبرج ، والذى كان قد قام بمهمته ، فى ظل هذا التنكر ، بالحصول على موافقة ضمنية من القيصرة . ولما كان الفارس إيون Eon قد مهد الطريق ، جاءت شخصية أكثر منه وزناً ، وعادت إلى فرنسا بنص المعاهدة التى تم التوقيع عليها فى ٢١ نوفمبر ١٧٥٦ : فاصبحت فرنسا وروسيا منذ ذلك الوقت مرتبطتين بتحالف هجومى ودفاعى . وأخذوا فى التفكير فى عقد إتفاقية تجارية .

ومن كل هذه الأحداث ، نشأ بين باريس واستانبول نوعا من التوتر ،

كانت له نتائج مباشرة على الأوضاع فى الأراضى المقدسة . وكان فيرجن قد حصل منذ وقت قصير على فرمان يسمح للاتين بأن يصلحوا ويرمموا القبر والكنيسة الخاصة بالسيدة العذراء والموجودة تحت الأرض جتسمانى . فشعر اليونان بضيق شديد . وفى أحد أيام العيد لعام ١٧٥٧، هجم بضعة آلاف من الحجاج على مذبح كان الفرنسسكان قد أقاموه أمام مدخل الكنيسة المقدسة . وجاء إحتجاج السفير فى وقت كانت فيه النفوس ثائرة ضد فرنسا ، فوقع فى فراغ . وأكثر من ذلك، صدر فرمان نزع من اللاتين ، علاوة على قبر السيدة العذراء ، الكنيسة المقدسة الصغيرة ، والكنيسة الكبيرة، ومفتاح كهف بيت لحم . ورداً على مطالب فيرجن، أجاب الصدر الأعظم بعنف أن السلطان هو سيد كل المنشآت الموجودة فى الأراضى المقدسة ، ويمكنه أن يمنحها لمن يرغب . وحتى أواسط القرن التاسع عشر ، ظل اللاتين ، وبلا جدوى ، يرجعون إلى الأوضاع الملغاة. وظلوا يحتجون على ما حل محلها فى عام ١٧٥٧ .

ولقد تزايد الإنفعال الذى أحدثه تغيير نظام التحالف عند الرؤساء العثمانيين، حين وصلتهم الأنباء بأن القيصرة إليزابيث قد إنضمت إلى المعاهدة الفرنسية النمسوية . وذكر فيرجى فى إحدى رسائله : « إننا نميل إلى حد ما إلى أن نحافظ على النمسويين ، الذين ليست لدينا أية شكوى ضدهم . إن كل عداء هذه الأمة موجه ضد روسيا » . ومها كان الأمر ، فإن موقف السفير الفرنسى قد أصبح كل يوم أكثر صعوبة. أما الصدر الأعظم، الذى حاول أن يجد رداً مناسباً على الإبلاغ الفرنسى ، فإنه لم يتأخر عن أن يكتشف ذلك فى عملية تقارب مع روسيا ، والتى كانت تبحث منذ بعض الوقت ، وعلى وجه التحديد ، عن الصداقة العثمانية . وظل الأمر فيما عدا ذلك عند مرحلة التهديد : خاصة وأن الدخول المفاجىء لفردريك إلى الحرب سيجعل العثمانيين يخشون من أن ينزلقوا إلى مغامرات جديدة، فإضطروا

إلى وقف الحادثات . وفى ذلك الوقت، سيتم الإكتفاء بتبادل التحيات . وسرعان ما يأتى سلطان جديد ، هو مصطفى الثالث ، والذى كان من بين كبار المعجبين بالعبقرية العسكرية البروسية، ويعلن نياته ابرلين، وينتهز ملك بروسيا هذه الفرصة لكى يرشح أحد السفراء لكى يقيم فى إستانبول . ومنذ ذلك الوقت ، سيتم ، ومن وقت لآخر ، تبادل وجهات النظر بين العاصمتين . وسوف تنتهى بعقد معاهدة صداقة فى عام ١٧٦١ ، دون التفكير ، من ناحية أخرى ، وبأى شكل ، فى إمكانية تدخل عثمانى فى الحروب التى كانت دائرة .

وظلت العلاقات الفرنسية العثمانية صعبة طوال كل فترة حرب السنوات السبع . وفى أحد الأيام ، أدت عملية الإستيلاء على سفينة عثمانية ، تحمل بعض المساجين المالطيين ، إلى شدة غضب السلطان مصطفى،الذى هدد بطرد سفير الملك وكل القناصل الفرنسيين الموجودين فى المراكز التجارية فى شرقى البحر المتوسط. وكانوا قلقين فى فرنسا من تلك الإستعدادات التى كانت تتم فى الموانى العثمانية،والتى بدت على أنها من أجل هجوم مقبل على مالطة . وعملت الحكومة الفرنسية ، بعد أن تركت كل أمور الكرامة جانباً ، وبكل نشاط ، على إعطاء التعويضات المطلوبة من المالطيين .

٢ ـ الحرب :

إذا ما نظرنا إلى حرب الوراثة من أعلى ومن بعيد نجد أنها حرب لا تشتمل على عظمة . وكان سببها هو رغبة أحد الملوك فى الغزو ، وفى أن يظهر كفاءاته العالية فى ميدان المعركة ، وإن كان يظهر ، فى علاقاته مع أصدقائه ومع أعدائه ، بلا عقيدة ولا دين . وليست فيها سوى عمليات عسكرية صغيرة . أما نتائجها فهى أقل صغر من ذلك : فهى تتلخص ، تقريباً ، فى حصول بروسيا على إحدى المقاطعات النمسوية ، ومع ذلك فإن الدول العظمى الأوروبية ، وباستثناء بروسيا،

قد واجهت بعضها البعض على البر وعلى البحر لمدة تقرب من سبع سنوات .

وكانت الأزمة الجديدة ، التي نشبت في عام ١٧٥٦ ، قد عاشت لنفس المدة تماماً . وكانت ، في أصولها ، إمتداداً لحرب الوراثة النمسوية ؛ فيتحدث المؤرخون الألمان عن « حربي سيليزيا » . ولكن مداها كان أبعد في كثافته الدرامية ، كما أن موضوعها كان أخطر . فلم يكن الأمر الآن يتعلق بمجرد مصير مقاطعة نمسوية وتقريره في ميدان المعركة ؛ بل بمستقبل كل أوربا الجرمانية ، وبكل أوربا الوسطى . وإذا ما سقط فردريك في ذلك الصراع غير المتساوي ، الذي تسبب بعدم حكمته في نشأته ، فمن المضمون أنه كان سيفقد جزءاً من أراضيه ، وسيعود آل هوهنزلرن إلى ما كانوا عليه منذ قرن مضى ، مجرد أمراء ألمان صغار ، بين الكثيرين من غيرهم : فكانت « المغامرة » البروسية ستنتهي .

وإشتركت في هذه الحرب خمس دول أوربية ، بدلا من أربع . وقامت روسيا ، هذه المرة ، بدور من الدرجة الأولى . وأخذ الصراع صفة المرارة الفائقة ، التي نجدها عبر العصور كلها ، وفي كل الصدامات بين الروس وبين الألمان . وعلى العكس من ذلك ، نجد أن إيطاليا قد ظلت خارج اللعبة . ولم تعد مسرحا ثانويا للعمليات الدبلوماسية والعسكرية . وأخيراً ، فنجد أن إسبانيا لا تتدخل إلا في اللحظة الأخيرة . ولذلك ، فإن تاريخ حرب السنوات السبع هو أكثر بساطة في خطوطه العريضة ، وأكثر سهولة في عرضه ، عن تاريخ حرب الوراثة النمسوية .

فلقد كانت هناك في حقيقة الأمر حربان واضحتان تدوران في نفس الوقت ، الأولى بين فرنسا وإنجلترا ، على البحار ، وفي المستعمرات وفي ألمانيا الغربية ؛ والثانية بين فردريك الثاني وبين تكتل أعدائه ، في ألمانيا الشرقية ؛ وفي سيليزيا ، وعلى حدود بوهيميا وفي بولندا . وسوف تنهيها معاهدتان منفصلتان ؛ في

نفس السنة . وكانت الحرب البحرية وفى المستعمرات ، بنتائجها ، هى بدون شك الأكثر أهمية .

وكما كان قد حدث فى الأزمة السابقة ، لم تبدأ القطيعة الرسميه إلا بعد بداية العمليات الحربية . وفى الهند ، وكذلك الحال بالنسبة لأمريكا ، لم يكن صلح عام ١٧٤٨ يعتبر إلا كهدنة . ولقد إستمرت الصعوبات ، والحوادث بين المعمرين . وكانت الشكاوى المستمرة تصل إلى الحكومات . ولكن هذه الحكومات عجزت عن تهدئة المشاعر ، وتم إنشاء لجان مشتركة من أجل ذلك فى لندن وفى باريس ، ولكن عملهم كان بلا جدوى . وتحت ضغط رأى عام حريص كل الحرص على مصالح المستعمرات ، بدأت الرغبة السلبية للحكومة الإنجليزية فى التداعى فى عام ١٧٥٤ . وأخذ الفرنسيون والإنجليز،إبتداء من صيف ١٧٥٥ ، فى محاربة بعضهم بعضاً على البر وعلى البحر .

وكانت أحداث أمريكا تحتل المكانة الأولى بالنسبة لكل شىء . فهنا ، كان موضوع الصراع بالنسبة لفرنسا يتمثل فى ملكية أحدى المستعمرات ، التى زاد عمرها على قرن من الزمن ، وكانت قد أصبحت لها فى الأرض جذور قوية ، ومرتبطة بالوطن الأم بروابط شديدة،إقتصادياً وجنسياً ، بينما كان الأمر بالنسبة للهند لا يتعلق إلا بعدد من المراكز التجارية المعزولة، تقع على هامش بلاد مزدحمة بالسكان ولها حضارة قديمة ، وحيث كانت عملية « زرع » الأوربيين تصطدم بكل أنواع الصعوبات .

وإلى جوار فرنسا الجديدة ، كانت إنجلترا الجديدة مجرد هامش رقيق من المنشآت على حافة الساحل ، بين الليجانى والمحيط. وكانت كل داخلية البلاد لاتزال ملكاً للهنود . وفيما بين المعمرين . والتى كانت غالبيتهم العظمى تعمل فى الزراعة، كان هناك البعض من الذين يمارسون تجارة الفراء ،كطريقة حياة كالية القساية ،

وإن كانت قد وضعتهم ، وفى أثناء فترة طويلة ، فى منافسة مع الفرنسيين ، الذين كانوا قد إستقروا فى المنطقة المشهورة بكونها « موطن الفرو » ، وهى منطقة البحيرات العظمى . ومنذ وقت بعيد ، كان المتعاملون فى الفراء يثيرون قبائل إيراكوا الهندية ضد منافسيهم. وكان هذا هو السبب الرئيسى للحروب التى وقعت، إبتداء من عام ١٦٨٧ ، وبشكل متكرر ، بين الفرنسيين وبين قبائل إيراكوا . ومنذ ذلك الوقت ، أخذت عملية تجارة الفراء تفقد أهميتها ، مع نمو الزراعة وإنتشارها من هذا الجانب وذاك من الحدود . وكانت منطقة البحيرات العظمى وأوهايو ، والذى كان الوادى الذى يفتح أمام الفرنسيين طريق الوصول الوحيد صوب بلاد المسيسبى ، وبالتالى صوب لويزيانا ، قد ظلت منطقة حساسة للغاية . وكانت هذه هى المنطقة التى بدأت فيها الحرب فى عام ١٧٥٤ .

وتميزت البداية ، فى شهر يونيو ، بحادث حدود مهم ، إشتباك بين فصائل فرنسية بقيادة جومونفيل Jnmonville ، من قوات المستعمرات ، والإنجليز من فرجينيا ، بقيادة جورج واشنطون،ضابط الميليشيا المحلية : وفقد فيها الفرنسيون رئيسهم وجزء كبير من أعدادهم . ونتيجة لذلك أرسلت إليهم إمدادات هامة ، وجاء الدور على الانجليز ، والذين كانوا متحصنين فى قلعة منيعة ، لكى يتركوا مكانهم ، بعد هزيمتهم الكاملة . ولقد حاولوا ، من الجانب الفرنسى ، الإسراع بمعالجة الحالة ، وتحاشى نتائجها ، ولكن بلا جدوى. أما الحكومة الإنجليزية ، فإنها قررت من جانبها ، إعطاء كل معونة ممكنة للمعمرين ، حتى يتمكنوا من أن ينتقموا.وأوصلت إليهم الإمدادات بقيادة الجنرال برادوك Braddock . وكان سبباً فى حاجة فرساى لأخذ إجراءات مماثلة:فسافر ماركيز دى فودرى de Vaudreuil ، والذى كان قد صدر أخيراً قرار من الملك بتعيينه حاكماً على فرنسا الجديدة،وأخذ معه الإمدادات ، وتعرضت سفنه ، من ناحية أخرى ،لهجوم قرب نيوفوندلاند،

من جانب أسطول الأميرال بسكاوين Boscawen (أكتوبر ١٧٥٥) . وبعد قليل ، ولما كانت لندن قد أعطت أوامرها بتوقيف كل سفينة تجارية فرنسية ، فى أى مكان توجد فيه ، ردت الحكومة الفرنسية على ذلك بإنذار،وسرعان ماتلاه إعلان الحرب .

ولذلك فإن العمليات التى شاهدها مسرح الأوهايو فى عام ١٧٥٥ لم تكن تمثل سوى مدخل إلى الموضوع. وكانت القوات،من هذا الجانب وذاك ، قليلة العدد، والمواجهات بينها نادرة ، والنجاح موزع . وكانت أكثر النقط تميزاً للمرحلة السابقة للحرب تتمثل فى طرد الأهالى الفرنسيين الذين كانوا قد ظلوا فى آكاديا بعد معاهدة أوترخت،والذين شاهدوا مجىء مهاجرين جدد،من الأنجلوساكسون، لكى يستغلوا أراضيهم : فصدرت الأوامر بنفى ثمانية آلاف شخص ، إلى مناطق أخرى من إنجلترا الجديدة ؛ فالتجأ نصفهم تقريباً إلى جزيرة كاب بريتون،والتى إضطروا إلى أن يتركوها بدورها ، حينما أصبحت فى عام ١٧٥٨ ، من الممتلكات البريطانية .

ولم تتميز الحملة الأولى إلا بعمليات ليست لها نتائج كبيرة،وبدأت بالإستيلاء على موقع متقدم للدفاع الكندى ، هو قلعة أوسويجا . وكان الفرنسيون فى ذلك الوقت تحت قيادة ماركيز دى مونتكالم Montcalm ، نائب حاكم المستعمرة . وكان قد وصل مع بعض مئات من الجنود ، الأمر الذى أوصل عدد الوحدات النظامية إلى ثلاثة آلاف . وفى حقيقة الأمر سوف يحارب إلى جانبهم مايقرب من إثنى عشر ألف من رجال الميليشيا ، أى تقريباً كل ما يمكن لكندا أن تقدمه من الرجال الصالحين لحمل السلاح. وفى عام ١٧٥٧،وقع نجاح آخر للفرنسيين، يتمثل فى الإستيلاء على قلعة ويليام هنرى ، عند نهاية بحيرة سان ساكرمنت، والتى كانت تمثل إمتداداً لبحيرة شامبلان . وكما حدث فى العام السابق،قام الهنود الحمر، الذين

كانوا يخدمون كمساعدين ، باصطحاب الأسرى الانجليز عندهم ، بعد أن كانوا قد قتلوا عدداً من بينهم ؛ وكان من الضرورى التفاوض مع القبائل من أجل الحصول عليهم؛وكان إنقاذ رأس واحدة. من بينهم يتكلف برميلين من المشروبات الكحولية .

وبدأت مرحلة العمليات الحربية الكبيرة فى عام ١٧٥٨ فقط . وكان ويليام بيت ، الذى إستلم لتوه وزارة الحرب ، يعلق أهمية خاصة على شئون المستعمرات. ولذلك فإنهم بدأوا فى الاعداد للقيام بهجوم ثلاثى ، على البر وعلى البحر . ووصل الأميرال بوسكاوين أمام لويزبورج على رأس أسطول كامل ، يحمل جيشاً من إثنى عشر ألف جندى ؛ وتم تسليم الموقع بعد حصار دام أربعين يوماً . وفى إتجاه شامبلان ، سار أحد الطوابير صوب قلعة كريون : فتحمل أربعة آلاف فرنسى هجوم ما يتراوح بين ١٤٠٠٠و١٥٠٠٠ إنجليزى،وأجبروهم على الانسحاب وعلى العكس من ذلك ، نجد أنه إلى الغرب أكثر ، تمكن الانجليز من الاستيلاء على قلعة فرونتناك، على بحيرة أونتاريو،من حيث يمكنهم أن يهددوا مونتريال ، وكذلك قلعة ديكين ، على الأوهايو ، والتى كان الانجليز قد بدأوها ، ثم أتمها الفرنسيون . أما القرية التى سوف تبنى على أنقاض قلعة ديكين فسوف تسمى بيتزبورج ، تيمنا بإسم الوزير .

أما فى الهند فإن العمليات العسكرية لم تبدأ قبل إعلان الحرب . ولم يكن دوبليكس هناك . وكانت الشركة قد إستدعته فى عام ١٧٥٤ ، ولم تعين غيره بعده مباشرة فى وظائفه،كحاكم وقائد عام . وكانت القوات قد ظلت تحت قيادة مساعده، ماركيز دى بوسى Bussy ، والذى كان يقوم منذ ست سنوات بالحرب فى الدكن، مع بضعة آلاف من الجنود الوطنيين ، وبضعة مئات من الفرنسيين ، مؤيداً بضع

أمراء من الأهالى ، وهم الذين إنضموا إلى مصالح الملك ، وحاربوا غيرهم . وحتى عام ١٧٥٨ ، ظل تاريخ المنشآت الفرنسية فى الهند مليئاً ، وكما كان فى الماضى، بالحوادث التى كانت تنشأ عن سياسة التدخل هذه . ومنذ وصول نبأ الحرب مع الإنجليز ، أعلن بوسى نيته على أن يبتعد منذ ذلك الوقت عن الخصومات الموجودة بين الوطنيين ، وأن يذهب إلى الساحل مع قواته . ولقد طلب منه رسمياً من جهة أخرى ، وعن طريق الحاكم الجديد ، أن يعود إلى إستلام عمله ، فى شهر يوليو ١٧٥٨ . وكان هذا الحاكم الجديد هو كونت لالى Lally ، بارون تولندال Tollendal ، والذى كان من أسرة أيرلندية ، إلتجأت إلى فرنسا فى القرن السابق .

وكان لالى قد وصل وأعلن عزيمته على طرد الإنجليز من الهند . وكان هذا هو التوجيه الذى حصل عليه من الحكومة ؛ ولن يشغل نفسه بشىء آخر قبل أن ينفذه ، وكان قد أحضر معه بعض القوات ، ستة كتائب . وهكذا نجد أنه منذ وصوله قد أخذ فى إعداد حملة ضد مادراس ، وهى التى قام بتنفيذها بعد بضعة أشهر ، ولكنها لم تعط نتيجة ، بسبب نقص الوسائل اللازمة للقيام بعملية حصار. وكان لكل مشروعاته نفس المصير . وفقدوا كل المواقع المختلفة التى كان قد تم إحتلالها فى عهد دوبليكس ، أو تخلوا عنها برغبتهم ، وذلك فى الوقت الذى دخل فيه الانجليز ، بقيادة روبرت كلايف Robert Clive ، فى حرب ضد الغزاة من المور ، والذين كانوا قد إستولوا على كلكتا ، وإنتصروا عليهم إنتصاراً كبيراً فى بلاسى (٢٣ يونيو ١٧٥٧) . أما الفرنسيين الموجودين فى شاندرناجور ، والذين كانوا قد رفضوا التعاون مع جيرانهم فى مثل هذا الوقت العصيب ، فإنهم رأوا إحتلال مدينتهم بدورها ومنذ ذلك الوقت أصبح إقليم البنغال كله تحت النفوذ الإنجليزى .

وفى أوربا أيضا ، كان النجاح موزعاً ، وكان مسرح أولى العمليات الهامة هو البحر المتوسط . وكان الفرنسيون ، بعد أن كانوا قد قاموا بمظاهرات على بحر المانش ، وكأنهم كانوا يعدون لعملية إنزال ، قد أرسلوا فجأة ، جيشاً صغيراً ، بقيادة الماريشال ريشيليو ، إلى مينورقة . وكانت المفاجأة كاملة . وجاء أسطول إنجليزى ، بقيادة الأميرال باينج Byng ، لمحاربة هذه القوات أمام بورت ماهون المحاصرة . ولكن الفرنسيين إحتفظوا بتفوقهم ، وسلم الموقع بعد وقت قصير (يونيو ١٧٥٦) .

وعلى القارة ، بدأت حرب ألمانيا فجأة ، وكما كان قد حدث فى المرة السابقة ، بالدخول السريع للبروسيين فى الحرب (أغسطس ١٧٥٦) . ولكن هذه الحرب سوف تكون بالنسبة لفردريك حرباً دفاعية بشكل أساسى . ورأى أنه قد أخذت تحيط به مجموعة من التحالفات ، كانت ماريا تريزا قد عقدتها . وكان الأمر بالنسبة له ، وكرجل عليه أن يأخذ القرار ، يتركز فى أن يهاجم ، ويختار وقت ومكان اللقاءات الأولى ، حتى يتحاشى أمر مفاجآتهم له . وإذا كان قد إشتبك دون حذر كاف ، فإن ذلك كان يرجع إلى أنه كان قد حسب أن القوات الروسية لن تتمكن بأى حال من الأحوال أن تأتى للنمسويين قبل الشتاء .

وكانت القيصرة ، التى أثار إحتقارها نبأ الوفاق الذى تم بشأن هانوفر بين لندن وبرلين ، قد نقضت إتفاقها نفسها مع فردريك ، ودعمت تحالفها مع ماريا تريزا : فتعهدت بأن تدعم عملها ضد بروسيا بستين أو سبعين ألف رجل . ولم يكن فردريك قد تعلم كل شىء . ولكن الأنباء التى كانت تصل إليه عن تسليح النمسا وروسيا زعزعت ذلك التفاؤل الذى كان غارقاً فيه فى العام السابق . ويبدو أنه قد طار صوابه إلى حد ما . ورأى أنه سوف يواجه هجوماً ، وفى وقت قريب ، ومن الشرق ومن الجنوب فى نفس الوقت ولما كانت ماريا تريزا قد

رفضت أن تعطيه ضماناً رسمياً بأنه ليست لديها نيات عدائية ، فى هـذا الوقت أو فى المستقبل ، قرر أن يبدأ هو نفسه ، وأصدر أوامره بالدخول فى العمليات . وبدون إعلان حرب ، كعادته ، هجم على الساكسون ، والذين كانوا يحرسون الممرات المؤدية إلى بوهيميا : وكان يهدف إخراجهم سريعاً من المعركة . ولقد حاول أوجست الثالث ، بلا جدوى ، الدخول فى مفاوضات . والتجأ مع الغالبية العظمى من قواته إلى معسكر بيرنا المحصن ، وحيث أتى البروسيون لكى يحاصروهم فيه . وانتهت المسألة بعد شهر ، وعلى أساس التسليم بلا شروط (١٥ أكتوبر) . وأخلى سبيل المنتخب الملك ، فإنسحب إلى عاصمته البولندية . وسمح لضباطه بأن يلحقوا به ، أما الجنود فإنهم أدخلوا رسمياً فى وحدات الجيش البروسى . واضطر جيش نمسوى ، كان يقترب من جبال بوهيميا ، إلى أن يتقهقر بمجرد عبوره الحدود .

وبطبيعة الحال لم تنه هـذه الحملة الخاطفة أى شىء . وكانت نتيجتها الواضحة تماماً هى التسبب فى القطيعة المباشرة مع فرنسا ، وربط السياسة الفرنسية بطريقة أقوى بخصوم فردريك : فقرر لوى الخامس عشر أخيراً أن يستدعى سفيره من برلين . أما ماريا تريزا فإنها لم تقنع بمجرد أن تطلب إلى حليفها تلك المساعدة العسكرية التى يمكنها أن تعتمد عليها طبقاً لنصوص إتفاقيات العام السابق .فعادت إلى المحادثات عند النقطة التى كانت قد بقيت عندها وقت التوقيع على « معاهدة فرساى الأولى» ، والتى رأوا فى فينا أنها كانت غير كافية.وهكذا نجد أن التحالف الفرنسى النمسوى سوف يتحول من تحالف دفاعى كما كان ، إلى تحالف هجومى. وتم التوقيع على « معاهدة فرساى الثانية» ، بعد تردد طويل ، فى يوم عيد ميلاد المعاهدة الأولى (أول مايو ١٧٥٧) . وكان ما يميزها عن الأولى هو بشكل خاص تلك الروح التى عقدت بها : فظهرت فيها عزيمة فرنسا على أن تستمر فى تلك الحرب

التي فرضت على حليفتها حتى النصر ، وقامت بدورها بتمويل ماريا تريزا ، ووعدتها بمعونات ، وتبادلت معها الوعود بعدم التفاوض المنفرد . وكإعتراف بخدماتها ، الحاضرة والمقبلة ، حصلت على وعد بالحصول على قطعة من الأراضى المنخفضة ، والتى سوف تحول فى أول الأمر إلى إمارة شبه مستقلة ، فى صالح دون فيليب ، إبن أخى الملك ، وكما كان قد حدث قبل ذلك ، وفى ظروف مشابهة ، بالنسبة لدوقيات اللورين .

ولم يفكر أحد ، وفى أية لحظة ، فى أنه يمكن لبروسيا الصغيرة هذه أن تقاوم وبإنتصار ، ذلك الحشد الضخم من خصومها . وفى بطرسبرج إعتبروا ، وكأمر ممكن ، عملية تقسيم دولة بروسيا . ومن الناحية الفرنسية، كان تنفيذ الوعود المعطاة من الحكومة النمسوية فى الشئون الإقليمية خاضعاً ومشروطاً بإستعادة سيليزيا . وإذا حدث ، وعكس كل ماكان متوقع ، ألا تعود سيليزيا للنمسا ، فإن كل التضحيات التى وافقت عليها فرنسا من أجل القضية المشتركة سوف تظل إذن بلا نظير .وكان هذا هو ماسوف تنتهى إليه تلك الحرب الدموية التى نشبت .

٣ ـ فردريك وإستمرار الحرب :

سرعان ماحسب فردريك مقدار قلة الحذر الذى إرتكبه فى الإلتجاء إلى السلاح . وأصبح عليه أن يواجه تكتلا حقيقيا . وكان قد ساعد بنفسه على تكوين هذا التكتل ضده فأولا ، نجد أنه كان باعتدائه قد أيقظ معنى التضامن بين أعضاء الإمبراطورية : فصوت الدايت على أمر إنشاء وحدات نظامية، سوف تكون جيشاً إحتياطياً بالنسبة للقيادة النمسوية (يناير ١٧٥٧) .ثم وعدت السويد باعطاء معونتها ، بعد أزمة داخلية نتج عنها نوع من فرض وصاية البرلمان على الملك . وكان الملك صهراً لفردريك الثانى . وكرد فعل ، إنضم البرلمان إلى التحالف الموجود بين فرنسا والنمسا وروسيا ، وحصل على وعد بذلك الجزء

من بوميرانيا الذى كان قد ظل ، منذ عام ١٦٤٨ ، من ممتلكات منتخب براندبورج .

وفى مواجهة القوات المشتركة لفرنسا والنمسا والسويد وروسيا ، سيجد فردريك نفسه بمفرده تقريباً . ولم يكن فى وسعه أن ينتظر معونة كبيرة من الإنجليز . وكان توغله فى ساكس قد أثار الوجوم فى لندن ،وحيث كانوا مشغولين إلى أقل درجة عن الماضى بأمر الحرب على القارة.و بطبيعة الحال ستكون المشاركة البريطانية فى ذلك المجهود المشترك من النوع المالى بنوع خاص . وكانت عملية حقن بعض الذهب الإنجليزى ، فى حالة إقتصاد بلاد فقيرة مثل بروسيا ، ذات قيمة كبيرة . وكان فردريك ، علاوة على ذلك ، ومنذ ماقبل الحرب ، قد تصور هذه الوسيلة لملء خزائنه،حق حساب جيرانه الذين كانوا عملياً منزوعى السلاح: فأغرق بولندا بعملة مزورة ، صنعها فى ورش وكونجزبرج . وطوال فترة الحرب ، سوف يحصل بهذه الطريقة على موارد تقرب من أن تساوى فى قيمتها تلك التى سيحصل عليها من الصداقة الإنجليزية .

وعلى النطاق العسكرى ، لن يبتعد الإنجليز ، فى بداية الحرب ، كثيراً عن هانوفر . وفى الفترة التالية ، سوف تقتصر عملياتهم على منطقة نهر الراين الغربية . أما الوزارات المختلفة التى تتالت فى لندن فإنها كانت تعتبر أن مسألة هانوفر كانت ككرة حديدية تجرها إنجلترا بكعبها عند سيرها ؛ وتزايد هـــذا الشعور وباستمرار . أما الآن ، وكانت أنظار الأمة كلها مركزة على المستعمرات ،فكانوا يرغبون فى أن يتحرروا من الإشراف على هذه الزائدة الأوروبية لبريطانيا العظمى، والتى كان الملك . وحده تقريبا ، هو الذى يهتم بها . ولما كان جورج الثانى يعارض دائما فى أمر التفاوض مع فرنسا بشأن حياد هانوفر ، إضطر البرلمان إلى أن يضع

تحت تصرفه الأموال اللازمة لإنشاء جيش ، مطابقاً لجيش والمصلحة، فى عام ١٧٤٣ .
ومنذ الحملة الأولى تم دفع هذا الجيش الصغير ، والذى كان بقيادة دوق كمبرلاند Cumberland ، من جانب قوات دوق ريشيليو ، قاهر بورت ماهون . ولما كانت هانوفر قد تم غزوها بعد هذه المعركة ، وقـع كمبرلاند على التسليم فى كاوسترسفن (سبتمبر ١٧٥٧) ، وهو التسليم الذى تعهد فيه بأن ينسحب مع قواته إلى ماوراء الإلب . ولكن إستقبال هذا الإتفاق كان سيئاً فى لندن ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه ويليام بيت قد وصل فيه إلى السلطة . وفى شهر نوفمبر ، قام الملك ، وبتحريض من وزيره ، بالتبرؤ من كمبرلاند ، ومزق التعهدات التى كان قد قطعها على نفسه تجاه ريشيليو . ومنذ ذلك الوقت ، سيعهدون بمصير الحرب إلى ملك بروسيا وحده : ووعدته معاهدة جديدة بمعونات تصل إلى مبلغ ضخم ، هو ٦٧٠،٠٠٠ جنيه فى السنة . وسيقوم بإختيار الجنرال دوق فرديناند برنزويك Brunswick لتولى قيادة الجيش الإنجليزى الهانوفرى . وكانت معركة واحدة ، عند كريفيلد ، وعاد الفرنسيون حتى نهر الراين . وإبتداء من ذلك الوقت ، سيظل الخصوم مشتبكين فى المنطقة الواقعة بين مجرى الراين وبين ماينس السفلى . أما مدينة كاسيل فإنها قد مرت من جانب إلى جانب آخر . ولكن الموقف الخاص بكل من الجيشين ظل إلى حد بعيد كما هو ، فى مجموعة ، وحتى وقت الصلح .

ومن عام ١٧٥٧ حتى عام ١٧٦٢ تتالت ست حملات فى ألمانيا الشرقية . ومن وجهة النظر البروسية ، كانت كبيرة الإهتمام بالنسبة للدراسة الخاصة برجال الحرب ، والذين لم ينقطعوا عن إستغلال مصادرها . ولكننا لانستطيع أن نعطى هنا إلا خطوط عامة عنها ، ومختصرة ، ومحددة بمعالمها الرئيسية .

وكانت حملة عام ١٧٥٧ هى الأكثر أهمية من بينها . وبدأت فى وقت مبكر ،

فى شهر أبريل . وكان على فردريك أن يحسب حساباً للوقت كعامل مساعد له ، ذلك أن كل خصومه تقريباً كانوا يبدؤن من قواعد بعيدة . وكان قد أخرج الساكسون من اللعبة فى عام ١٧٥٦ ، ورأى أن فى وسعه أن يقوم بنفس الطريقة بتسوية حسابه مع النمسويين ، قبل أن يبدأ عملية قياس القوة مع حلفائها . وفى بوهيميا ، وقعت معركة أولى ضد قوات الأمير شارل صاحب اللورين تحت أسوار براغ . وبعد أن إنهزم النمسويون ، أغلقوا على أنفسهم ، فى داخل الموقع . ثم جاء جيش جديد ، بقيادة جنرال شاب ، كان لايزال غير معروف ، هو داون Daun . ثم معركة جديدة ، على بعد مسافة ما من الموقع ، عند كولين : وهذه المرة ، هزم فردريك ، وأصبح عليه أن يخلى بوهيميا . ودخل فى بروسيا لكى تتوالى عليه الأنباء السيئة . فبينما كان الجيش الفرنسى يتقدم ببطء إلى قلب ألمانيا ، من ميمنته ، علم بهزيمة تلك القوات التى كان قد تركها لحماية بروسيا الشرقية ، على أيدى الروس ، عند جروس ياجرسدورف ، ثم دخول السويديين فى بوميرانيا ، وسريعاً الوصول إلى برلين ، وفى ظهره — لم يكن قد ترك سيليزيا — لوحدة من الجيش النمسوى الذى كان قد إحتل إقليم ساكسونيا . وبدأت عزيمته تخور . وراودته بعض أفكار عن الإنتحار ؛ وعلى الأقل ذكر ذلك بنفسه وقام بمجسات فى بلاط فرساى من أجل عقد الصلح .

وكان فشل هذه المحاولة ، الذى أجبره على ضرورة الحرب مهما كانت الظروف ، قد أعاد إليه روح إتخاذ القرار الذى كان قد بدا ، منذ بضعة أسابيع ، على أنه كان قد تركه . فسيعمل على مواجهة الخصم الذى كان أكثر تهديداً له ، وبطريق مباشر ، وهو جيش الفرنسيين والإمبراطوريين ، والذى كان تحت قيادة ماريشال سوبيز Soubise وأمير ساكس هيلد برجهوزن Saxe - Hildberghausen .

فوصل إليه عند ضفاف نهر سال ، عند روسباخ ، وفاجأه ، وهو فى تشكيلات السير ، وحصل على إنتصار كبير (٥ نوفبر ١٧٥٧) . ومنذ ذلك الوقت ، بدا أن سوء الحظ قد إنقشع. فوصلته أنباء أفضل : فلقد ترك النمسويون برلين ؛ أما الروس فإنهم أخذوا فى الإستعداد للعودة إلى قواعدهم ، مع إقتراب الشتاء . فعادت إلى فردريك ثقته فى نجمه ، كما عادت إليه كل قوته . وبهجوم سريع ، دفع بقواته إلى سيليزيا ، وحيث كان الأمير شارل صاحب اللورين قد إستعاد برسلاو . ووجده متحصناً قرب هذه المدينة ، عند لوثن ، فهاجمه فى الحال ،وبعد شهر من روزباخ (٥ ديسمبر) ، هزمه وأجبره على أن يجلو عن الإقليم من جديد . ولذلك فان حملة عام ١٧٥٧ الخطيرة إنتهت فى صالحه .

ولن يقابل فى السنوات التالية نفس المخاطر . وسيكون أكثر سهولة عليه أن يجبر خصومه على إحترامه،خاصة وأنهم كانوا ، من الناحية العملية ، قد نقص عددهم إلى إثنين . وكان الفرنسيون بعد هزيمتهم فى روزباخ ، قد تخلوا عن مواجهة البروسيين ، وقنعوا بأن يقوموا بعملياتهم العسكرية ضد الإنجليز فى وستفاليا وفى هيس . وكان جيش الدائرة يمثل خصماً ليس له وزن ، أما جيش ملك السويد فلم يكن يخشى جانبه . ولذلك فإنه كان عليه الآن أن يواجه الروس والنمسويين فقط . وكان عليه أن يبدأ بمواجهة الأولين ، وذلك بسبب عددهم ، وكتلهم،وقوة صدمتهم التى يمكن أن تصبح صعبة المقاومة . ولقد ركز على بطئهم فى تحركهم ، وحاول أن يمنعهم من أن يقدموا العون لحلفائهم . وفى عام ١٧٥٨ ، كان يستمر فى الذهاب من الواحد إلى الآخر . وقرب كوسترين ، والتى كان الروس يقومون بحصارها ، كسب معركة زورندورف الدموية (٢٥ أغسطس). ثم عاد صوب الجنوب ، بعد أن إستنجد به أخوه ، الأمير هنرى ، والذى كان داون يهدده فى ساكس . وإنتصر النمسويون فى هوشكيرش (١٤ أكتوبر) .

ولكن إنتصارهم كلفهم كثيراً حتى أنهم ظلوا ثابتين فى أماكنهم . وقام كل من الطرفين بإعداد مواقع الشتاء فى أماكنه .

وفى أثناء شتاء ١٧٥٨ — ١٧٥٩ ، كان كل شىء ينبىء بأن الحملة المقبلة سوف تكون حاسمة . فكان التحالف المعادى لبروسيا يستمر فى تضييق الخناق حول فردريك وجيوشه : فكان لا يشك فى أن الإنتصار قد أصبح الآن تقريبا .

٤ — فرنسا تفقد كندا :

وفى المستعمرات لم يكن الأمر ، إذا ما كان يجب ، مشجعاً . ولم يكن هناك شىء فقد بشكل نهائى . وكان يكفى ، من أجل تحسن الإمكانيات ، وخاصة فى أمريكا ، أن تقوم الحكومة الفرنسية بمجهود عسكرى يمكن مقارنته بمجهود الإنجليز . ولكنها رفضت القيام بمثل هذا المجهود : فكانت الإمدادات التى طلبها فودرى ومونت كالم من فرساى ، بمندوب خاص هو بوجانفيل ، لم تمنح . ومنذ ذلك الوقت سيزداد عدم التناسب فى القوات بين الفرنسيين والإنجليز خطورة وبسرعة .

وفى الربيع ، أخذوا فى الإعداد فى إنجلترا الجديدة للقيام بهجوم ثلاثى من قواعد أكثر قرباً عن القواعد السابقة . وكان الهجوم الرئيسى سيستخدم طريق البحر . فقام جيش من ٩٫٠٠٠ رجل ، بقيادة الجنرال ولف Wolfe ، بالنزول فى لويزبورج ، ووصل عن طريق سانت لورانس ، إلى قرب كويبك . وكان الموقع الذى تحتله المدينة ، على رأس حالق يسيطر على النهر ، يجعل منها قلعة طبيعية . وبدلا من أن ينتظر الهجوم ، فضل مونت كالم أن يذهب لمقابلة العدو فى الريف المكشوف . وفى السهل المجاور لإبراهام دخل فى معركة دموية ، إنتهت بهزيمته ، وجرح جرحاً بليغاً . وذلك فى الوقت الذى توفى فيه ولف . وحين أخذ فودرى القيادة، قرر التخلى عن كويبك . وسلم الموقع بعد قليل (٨ سبتمبر).

ومنذ شهر مضى ،كانت بحيرة شامبلان قد فقدت،وكان هناك طابوران إنجليزيان يتقدمان من الجنوب الغربي . ومع ذلك فستكون هناك حملة أخيرة . ذلك أن دوق ليفي Levis ، خليفة مونت كالم،وصل فى عام ١٧٦٠ ، لكى يحاول إستعادة كويبك ، وقام بمعركة قرب المدينة ، فى سانت فوا ، وبدأ فى محاصرة المدينة . ولكنه إضطر إلى رفع الحصار بعد خمسة عشر يوماً . وتأتى عملية تسليم مونتريال، فى شهر سبتمبر ، لكى تضع بشكل نهائى حداً للعمليات العسكرية .

وفى الهند ، شهد عام ١٧٥٩ القضاء على ذلك العمل الذى كان بوسى قد حققه فى الدكن ، بإتفاقيات معقودة مع الأمراء المحليين ، وفى خلال تلك السنوات الست التى كان قد قضاها ، فى فترة دوبليكس وما بعدها . وبعد أن تخاصم مع لالى ، ترك قيادته فى عام ١٧٥٨ . ولم يأخذ خلفه سوى إهتمام قليل بتلك الصراعات التى كانت مستمرة فى وضع الأمراء المحليين بعضهم فى مواجهة البعض الآخر . فأصبح الإنجليز ،مع كلايف Clive ، هم الذين يتدخلون الآن ، عن طريق الدبلوماسية ، أو عن طريق القوات . ولم يعد للنفوذ الفرنسى الفرصة ولا حتى الوسائل لكى يشعرهم بوجودة . هذا علاوة على أن المنشآت الفرنسية فى الهند سوف تتدهور . وفى عام ١٧٦٠ ، قام الإنجليز بالهجوم على ساحل كورو ماندل . وبعد الإستيلاء على كاريكال ، بدأت محاصرة بوند شيرى فى شهر يناير ١٧٦١ . أما ماهى،الواقعة على ساحل مالابار ، فإنها سقطت بدورها ، بعد بضعة أسابيع .

٥ — تطور الموقف الدولى والصلح :

فى أوروبا ، وعند حدود براندبورج ، وبولندا وسيليزيا ، كان فردريك ، الذى أصبح مضطراً إلى القيام بالعمليات الدفاعية ، ولكن فى ظروف متزايدة

الصعوبة باستمرار ، يحارب بطاقة من ليس له أمل . ولم يكن فى وسعه أن يمنع الروس من أن يتقدموا من جديد حتى نهر أودر ، فى منطقة كومسترين ، وحيث كانت وحدة نمسوية قد إنضمت إليهم . وكان عليه ، لأول مرة ، أن يدخل إلى معركة مع جيش مشترك ، نمسوى روسى . وهذه المعركة ، وهى معركة كونرسدورف (١٢ أغسطس ١٧٥٩) ، كانت أقسى معارك الحرب : فواجه فيها ٥٠،٠٠٠ بروسى عدداً يماثلهم من الروس مع ١٨،٠٠٠ من النمسويين . وكان الخصم يحتل موقعاً حصيناً للغاية . وفشل فردريك فى زحزحته منه . وإنتهى الأمر بقواته إلى أن تنسحب فى فوضى وتتفرق : فكانت كارثة . فكتب إلى أحد وزرائه : « لم تعد لى موارد ، وحتى لا أكذب ، أعتقد أنى فقدت كل شىء » . ولكن هذه الموجة من الفقدان الكبير للشجاعة لم تدم طويلا . فسرعان ما يلاحظ أن المنتصرين عليه ظلوا بدون نشاط ، فعادت إلية ثقته فى نفسه . والواقع أن قادة الحلفاء كانوا غير متفاهمين ، فكان داون يرغب فى الزحف على برلين ، بينما كان سولتيكوف Soltykov ، الروسى ، يطلب فترة راحة يتمكن فيها من إعادة تنظيم قواته . وهكذا نجد أن برلين قد نجت ، هذه المرة أيضا . ولكن جيوش الدائرة كانت قد إحتلت ساكس ، وأقام فيها النمسويون معسكراتهم الشتوية .

وبالنسبة لعام ١٧٥٩ هذا، فان من يتتبعه يجد أنه فقير فى أحداثه العسكرية. وكان أكثر أحداثه وضوحا هو وصول الروس حتى برلين . فنهبوا الضواحى ، وفرضوا غرامة حربية ضخمة ، ثم عادوا كما كانوا قد حضروا . وفى ساكس ، إنهزم جيش بروسى ، بينما تمكن فردريك ، فى سيليزيا ، من أن ينتصر عند ليجنيتز ومنع النمسويين من أن يعطوا ، من جديد ، معونة للروس .

وفى ذلك الوقت نجد فى غرب أوربا ، أن الملل كان قد زاد ، فى فرنسا وفى إنجلترا فى نفس الوقت . ففى فرنسا ، كان الرأى العام قد تأثر من الحجاج

المتتالية للعدو على سواحل المحيط . فكان قد تمكن فى عام ١٧٥٧ من أن يستولى على جزيرة إكس ، عند مصب الشارانت ؛ وفى عام ١٧٥٨ كان من الضرورى الذهاب لمواجهته عند سان كاست ، فى برتيانى ، ولم يكن أمر دفعه سهلا ؛ وفى عام ١٧٥٩ سقط أسطول فرنسى أخير فى معركة قرب بل إيل . وأخذوا يتساءلون عن جدوى الإستمرار إلى ما لانهاية فى هذا الصراع غير المتكافىء .

وفى أثناء ذلك الوقت ، قام لوى الخامس عشر باستدعاء الكونت دى شوازيل Choiseul ، سفيره فى فينا ، لتولى الوزارة (ديسمبر ١٧٥٨) ؛ وكان رجلا يعرف ما يريد ، ، كما كان مصمما على دفع العمليات الحربية بقوة ضد إنجلترا . ووضعت من جديد مشروعات من أجل الذهاب والبحث عن العدو فى جزيرته . وتم عقد إتفاق مع قيصرة روسيا من أجل إمكانية إقفالها لبحر البلطيق فى وجه الإنجليز ، مع موافقة الدانمرك .

وفى إنجلترا ، ورغم حالة النشوة التى كانت قد تولدت عن الإنتصار ، كان السؤال يطرح دائما ، وحتى فى الأوساط الحاكمة : فما هو السبب للإستمرار فى الحرب فى ألمانيا ؟ وأمام الرغبة التى سرعان ما أظهرتها الحكومة للدخول فى مفاوضات ، جاءت رغبة شوازيل لكى تعرقلها لفترة من الزمن . ولكن سرعان ما إضطر الوزير الفرنسى ، الذى شلته المؤامرات التى نشأت حوله ، إلى أن يتراجع عن ذلك الصراع غير المتكافىء الذى كان قد بدأه ضد الانهزاميين ، وحتى ضد الملك نفسه . ووافق على أن يعد من أجل الصلح دون إضاعة للوقت. ولذلك فإن المحادثات سوف تبدأ فى لاهاى ، فى شهر ديسمبر ١٧٥٩ ، وبوساطة الحكومة الهولندية . ولكنها فشلت بسرعة ، وذلك نتيجة لخطأ الامبراطورتين ، ماريا تريزا واليزابيث ، واللتين أسكرتهما إنتصاراتها ، وإعتقدتا فى أنهما قد أصبحتا تمسكان بالنصر منذ ذلك الوقت . ولكى لا تخاطرا بترك نفسيهما تنزلقان

إلى صلح سابق لأوانه ،عقدنا إتفاقية جديدة ،تبادلنا بها الضمانات المتعلقة بتحقيق أهداف الحرب خاصة بها . وفى مواجهة سوء النية النمسوية والروسية ، وجد شوازيل أن الطريقة الوحيدة للخلاص كانت هى أن يتفاوض تفاوضاً منفرداً بشأن الصلح ، على القارة وفى قطاع المحيط . وأخذوا فى المناقشة الطويلة بين العواصم . فتم الإتفاق بشأن إقتراح تبادلى : فسوف يتركون لندن وباريس فى مداولات ثنائية ولكن مع تبادل وجهات النظر بينهما ، وبشكل تلقائى ، تتم محادثات أخرى بين جميع الدول المتحاربة .

ورغم أنهم كانوا قد بدأوا فى العمل من أجل الصلح ، فإن بعض العمليات الحربية سوف تستمر حتى عام ١٧٦١ . ذلك أن فردريك قد إستمر فى محاربة خصومه الذين كانوا يحيطون به فى شكل دائرة ، والتى كانوا يضيقونها عليه كل عام أكثر . وأنزل بهم الهزائم . ونزلت به هزائم أخرى . ولكنه لم يتمكن ، على أى حال ، من أن يعيد غزو أية مساحة من الأرض كان قد فقدها فى السنوات السابقة . وفى شهر ديسمبر ، أقام الروس معسكراتهم الشتوية فى أراضى بروسيا . وكانت سيليزيا كلها فى أيدى النمسويين . وكان جيش الدائرة يحتل ساكس .

ولقد خابت تلك الآمال التى كانوا قد عقدوها على المفاوضات المتوقعة لعام ١٧٦١ . ذلك أن الفرنسيين والإنجليز ، كانوا قد أعيدوا ، وقت الوصول إلى الإتفاق ، ونتيجة لتدخل غير متوقع من جانب إسبانيا ، إلى طريق الحرب .

وكانت إسبانيا ، منذ بداية الحرب،قد أعلنت حيادها .وكان إتجاه سياستها، تحت حكم فرديناند السادس ، محكوماً بالرغبة فى المحافظة على العلاقات السلمية مع كل الدول ، بما فيها النمسا . وفى خلال ذلك الوقت ، لم تكن فرنسا ، ولا إنجلترا ،قد تخلت عن طلب الحصول على معونتها ، فى يوم من الأيام . وتنافست

الدولتان فى أظهار ودهما لدى بلاط مدريد . ومنذ عام ١٧٥٦،ومنذ أن إستولى الفرنسيون على مينورقة ، أسرعت حكومة لوى الخامس عشر بمنح ما غزته إلى ملك إسبانيا،جارها . وردت الحكومة الإنجليزية على ذلك ، ووعدت الإسبانيين بإعادة جبل طارق إليهم إذا ما أرادوا الإسهام فى عملية إعادة غزو مينورقة . وأمام «الخطيبين» ، إحتفظت إسبانيا بتحفظها . ثم،حينما توفى فرديناند السادس ، فى عام ١٧٥٨ ، قام نصف أخاه ،دون كارلوس ، بالتخلى عن تاج نابولى إلى أحد أبنائه ، حتى يتمكن هو من أن يضع تاج إسبانيا على رأسه .

ومع الملك الجديد ، شارل الثالث ، إنتهت إسبانيا من أن تخلص نفسها من تلك المشغوليات الإيطالية القديمة . ونتيجة لانشغالها بالمصالح البحرية للبلاد ، عادت ببطء إلى التحالف الفرنسى . ولما كانت لندن تتهرب من المحادثات بشأن المسائل التى كانت منذ عام ١٧٤٨ تفصل بين الإنجليز والاسبانيين ، قرر شارل الثالث أن يقترح على فرساى أمر تجديد الاتفاقيات القديمة . وعندئذ تم التوقيع فى باريس على معاهدة إحتفظ لها التاريخ (وأكثر من تلك المعاهدات الأخرى التى كانت قد سبقتها) باسم « ميثاق الأسرة » (١٥ أغسطس ١٧٦١) . وهذا التحالف بين فرعى أسرة البوربون أضيفت إليه فقرات عديدة تبعاً للظروف الموجودة : فتعهد لوى الخامس عشر بألا يدخل فى مفاوضات قبل أن يتم إرضاء المطالب الاسبانية ، ووعد شارل الثالث بأن يدخل الحرب ضد إنجلترا إذا لم يتم عقد الصلح قبل أول فبراير ١٧٦٢ . وتوقفت المحادثات الفرنسية الانجليزية فى شهر يوليو ١٧٦١ ؛ ولن تعود من جديد إلا بعد عام . وفى أثناء ذلك الوقت تكون إسبانيا قد دخلت الحرب .

وهذا التغير فى علاقات القوى بين دول الغرب المختلفة كان أقل أهمية وبكثير من تلك التغيرات التى وقعت فى شرق القارة ؛ فى شهر يناير ١٧٦٢ ،فى العلاقات

بين بروسيا وروسيا . فتوفيت القيصرة إليزابيث عن إثنتين وخمسين عاماً ، دون أن تترك وريث من دمها ، فتركت العرش لأحد أبناء أحدى أخواتها ، الجراند دوق بطرس دى هولشتاين ، ذلك الأمير الألمانى الذى كان يشعر بإعجاب بلا حدود بالنسبة لفردريك الثانى . وكان هذا بداية لتغيير جديد فى نظام التحالفات، وهو الأمر الذى كان من الممكن التنبؤ به منذ بضع سنوات — والمراسلات الدبلوماسية لا تترك أى شك بشأن هذا الموضوع . ومنذ عام ١٧٥٨ ، بدا بلاط بطرسبرج منقسماً بين مجموعتين ، تتنازعان بطبيعة الحال أمر الحصول على النفوذ لدى هذا القيصر ، والذى كانت سذاجته الطبيعية تزداد خطورة بالمرض . ولما كان الوريث المرشح بدون شخصية ، وبشكل عام لا يحظى بالاحترام ، فإن أصحاب الطموح أخذوا فى نسج مؤامراتهم حول زوجته ، كاترين . وفى الوقت الذى كان فيه ضعف الميزانية يجعل أمر الاستمرار فى العمليات الحربية غير ممكناً ، إزداد باستمرار عدد أنصار عقــد صلح منفرد . ولا شك فى أن الإنحراف لعب دوره فى المسألة . وأعلن سفير لوى الخامس عشر فى أحد الأيام: « إن كاترين مباعة بالكامل للإنجليز » .

وسرعان ، بعد وفاة إليزابيث ، أن أعلن القيصر الجديد إلى فردريك أن مشاعره حياله ، والمعروفة من الجميع ، لم تتغير . وكان من بين أول أعماله أن إستدعى من سيليزيا ذلك الفيلق الذى كان قد أقام معسكراته الشتوية هناك . ثم تمت مقاطعة ممثلى الدول المتحالفة فى سان بطرسبرج ، وبدأت المفاوضات مع برلين . ولقد تمت بسرعة ، خاصة وأن القيصر لم يكن يطلب شيئاً . وتم التوقيع على الصلح ، فى ٥ مايو ١٧٦٢ : وكان على الروس أن يخلوا كل الأماكن التى كانوا قد غزوها ، ودون أن يحصلوا على أقل تعويض .

ولذلك فإنه أصبح فى وسع فردريك إذن أن يستمر فى القيام بالحرب ضد

النمسويين ، ودون أن يخشى على جوانبه . وبعد بضعة أسابيع من ذلك ، سيتم بنفس الطريقة ضمان مؤخرته ، وذلك نتيجة لعقد الصلح مع السويديين : صلح آخر أبيض ، كذلك ، كان شرطه الوحيد مجرد إعادة بوميرانيا البروسية . وفى نفس الوقت جاءت معاهدة جديدة مع بطرس الثالث لكى تجعل فردريك يحصل ، بالنسبة للحملة المقبلة ، على وعد بمعونة عشرين ألف جندى روسى .

ولم يكن تاريخ العلاقات الدولية قد سجل فى أى وقت مضى مثل هذه الإنقلابات المسرحية ، ولا إتساع نتائجها ، كما كان قد حدث فى عام ١٧٦٢ . وفى عشية حملة جديدة ، كان من المتوقع أن تكون حاسمة ، تحول مركز ملك بروسيا ، والذى كان بدون أمل ، وأصبح فجأة مدعماً ، حتى أن كل الامكانيات أصبحت الآن إلى جانبه . وكان فى العام الماضى قد رفض أن ينضم إلى مجهودات حلفائه الإنجليز من أجل الصلح . وبعد وصول بطرس الثالث إلى العرش أصبحت مقاومته واضحة ومؤكدة لوجهات نظر حكومة لندن . وربما كنا سنصل إلى قطيعة ، إذا لم تكن أحداثاً جديدة قد وقعت فى سان بطرسبرج ، وعملت مرة جديدة على أن تغير فجأة تلك الامكانيات التى كانت قد تفتحت على المستقبل القريب .

ذلك أن بطرس الثالث ، بعد ستة أشهر من الحكم ، عزل بواسطة زوجته ، التى عاونها حزب من النبلاء غير الراضين ، وأيدها جزء من الرأى العام فى أن تعطى نفسها التاج ، باسم كاترين الثانية . ورغم أنها كانت من أصل ألمانى هى كذلك — ذلك أنها كانت أميرة أنهالت زربست — إلا أنها كانت معادية لفردريك . ولذلك فإنها سحبت القوات التى كانت تستعد للإنضمام إليه . وعقدت كل العزم على تنفيذ المعاهدة الثانية ، ولكنها احترمت المعاهدة الأولى : ذلك أن الأمة كلها كانت تأمل فى السلم . ولما لم تنجح فى الحصول على موافقة على

عرض بالوساطة ، أعلنت أن روسيا سوف تحتفظ ، إبتداء من ذلك الوقت ، بالحياد بين البروسيين وبين النمسويين . وكان فردريك قد بدأ حملة جديدة،فأصبح عليه أن يعدل من خطط عملياته ؛ وإن كان هذا لم يمنعه من الحصول على النجاح الذى كان قد تعود عليه حين كان يتعامل مع النمسويين .

ومع كل ذلك ، فإن بروسيا كانت على آخر أنفاسها . وبعد أن حرمت من المعونات الإنجليزية،لم يعد فى وسعها أن تستمر لفترة طويلة. فكان من الضرورى أن تقرر الإنتهاء من ذلك . وكانت النمسا ، من جانبها كذلك ، لها تقريباً نفس الحاجة إلى السلم : وكان إنسحاب روسيا قد حرمها من كل أمل فى النصر . ولذلك فإنها إقترحت أن تدخل فى محادثات عند نهاية حملة ١٧٦٢.وحصل هذا الإقتراح فى برلين على أذن صاغية .

وكان المنتخب الملك ، أوجست الثالث ، قد قبل كوسيط ، فعاد إلى بولندا ووضع قصره فى هوبرتسبورج تحت تصرف المتفاوضين : وهذا هو المكان الذى سوف يتم فيه التوقيع على الصلح،فى ١٥ فبراير ١٧٦٣ . وبالنسبة لما هو أساسى، تركت المعاهدة سيليزيا لبروسيا . وهذه الحرب الجديدة ،والتى إستمرت لمدة سبع سنوات ، إنتهت إذن بأن تقوم بمجرد تأكيد لنصوص وشروط إكس لا شابل. وكما كان قد حدث فى عام ١٧٤٨ ، حين وعد فردريك بإعطاء صوته لفرانسوا صاحب اللورين فى يوم الإنتخابات الإمبراطورية ، وعد به مسبقاً ، فى حالة خلو الإمبراطورية من جديد ، إلى إبن الإمبراطور و والإمبراطورة بالملكة — وهذا هو الإسم الذى وضعوه بدون دقة لماريا تريزا .

وكان عظم أهمية الدور الذى قامت به دولة روسيا قد أعطاها فى ذلك الوقت إرضاء لكرامتها كانت تتوق إليه ، وبلا جدوى ، منذ وقت بعيـــد . وقررت الحكومة الفرنسية فى عام ١٧٦٢ ، والحكومة البولندية فى عام ١٧٦٤ ، الإعتراف

باللقب الامبراطوري لملكها (فى فرنسا ، كانوا قد تحدثوا فى عام ١٧١٧ عن « صاحب الجلالة القيصرية ») . وكان آل هابسبورج فى فينا قد أعطوهما المثل لذلك فى عام ١٧٤٤ .

وخمسة أيام قبل أن يتفق النمسويون والبروسيون فى هوبرتسبورج ، كان المتفاوضون الإنجليز والفرنسيين ، المجتمعين فى باريس ، قد إتفقوا على نصوص معاهدة أخرى ، للصلح ، تضع نهاية للحرب البحرية والإستعمارية (١٠ فبراير ١٧٦٣) .

وكانت السياسة الانجليزية هى التى بدأت فى العمل على إعادة السلم ، رغماً عن الحرب الجديدة التى كانت تقوم بها ضد إسبانيا، أو ربما بسبب هذه الحرب نفسها. ومنذ وقت بعيد كان الرأى العام قد عارض بقوة فى أمر إستمرار هذه الحرب . وكان بيت قد رفض فى أول الأمر أن يتراجع أمام ضغط البرلمان ، وضغط زملائه فى الوزارة . ولكن الملك جورج الثانى توفى فى خريف عام ١٧٦٠ . وجاء إبنه جورج الثالث ، وكانت شخصيته أكثر وضوحاً من شخصية والده ، فلم يتأخر كثيراً عن أن يظهر الرغبة فى أن يفرض وجهات نظره الخاصة على وجهة نظر وزيره. وبعد عام من ذلك ، إستقال بيت . فبدأت السياسة الشخصية للملك فى العمل ، وعن طريق رئيس وزرائه الجديد ، وصديقه ، لورد بيوت Lord Bute . فساد الإعتقاد فى فترة من الوقت فى أن نهاية الحرب كانت قريبة .

وفى أثناء ذلك الوقت كان تغييراً آخر فى الحكم قد تم فى إسبانيا ، منذ عام . وكان وصول شارل الثالث إلى العرش يقضى على آمال الإنجليز فى أمر عقد صلح ثابت . ذلك أن الملك الجديد كان قد قاسى فى نابولى ، وحيث كان يحكم من قبل ، من بعض الإهانات التى كان الانجليز قد أنزلوها به ، فكان يشعر حيالهم بمشاعر عداوة أدت به إلى الحرب منذ عام ١٧٦١، حين رأى أن عروضه من أجل الوساطة

قد أبعدت فى أثناء المؤتمرات التى عقدت فى لاهاى. وكان عقد « ميثاق الأسرة » الجديد فى باريس يعلن عن إمتداد العمليات العسكرية بعد ذلك. وفى نفس الوقت تقريباً ، الذى إرتبطت فيه إسبانيا مع فرنسا ، قطعت علاقاتها مع البرتغال ، التى كانت قد رفضت الاشتراك فى الاجراءات المقررة ضد التجارة البحرية لانجلترا.

ومع ذلك ، فى نفس العام ، جاءت إقتراحات جديدة للوساطة،وهذه المرة من ملك سردينيا ، ووجدت أخيراً آذانا صاغية فى لندن أولا ، ثم فى باريس ، وحيث كانوا قد سجلوا هزائم جديدة على البحر . وكانت جزر الأنتيل الفرنسية قد سقطت الواحدة بعد الأخرى فى أيدى الخصم ، الذى أخذ الآن مهاجمة الجزر الاسبانية. وكانت لندن قد إحتفلت بالاستيلاء على هافانا كحدث وإنتصار كبير. وسرعان ما إمتدت العمليات إلى المحيط الهادى ، وسيكون الدور على مانيلا لكى تعرف الاحتلال الانجليزى: ولكى تشترى نفسها ، كان على المدينة أن تدفع فدية كبيرة .

وهكذا نجد أن فرنسا وإنجلترا قد إتفقتا بسهولة على التوقيع على المفاتحات (فونتنبلو ، فى شهر نوفمبر ١٧٦٢) . ولكنه كان من اللازم إقناع إسبانيا ، والتى كانت قد فقدت كوبا ، بأن توافق على الشروط الانجليزية. ورفض لوى الخامس عشر أن يفكر فى عقد الصلح بدون أبناء عمـــه فى مدريد . وكان عليه أن يمر بتضحيات باهظة حتى يصل إلى ذلك .

وطبقاً لمعاهدة باريس (١٠ فبراير ١٧٦٣) ، لم تعد هناك فرنسا الجديدة . فرت كندا وما حولها إلى أيدى إنجلترا . ولم يحتفظ الفرنسيون إلا بحق الصيد فى مصب نهر سان لورانس وعلى سواحل نيوفوندلاند، مع ملكية جزر سان بيير وميكلون الصغيرة ، لكى تستخدم كملاجىء للصيادين . ومن لويزيانا ، ظل الجزء الواقع إلى غرب المسيسبى فقط فى ملكيتهم. أما النصف الآخر،مع نيو أورليانز،

فإن إنجلترا لم تطالب به ؛ ولكن ، لما كان ملك إسبانيا قد أصبح مجبراً ، من ناحيته ، على التخلى عن فلوريدا ، فإن لوى الخامس عشر وجد أنه من الشهامة أن يعوضه ويتنازل له عن حقوقه على هذا الجزء المتواضع مما نسميه الآن «الامبراطورية الفرنسية فى أمريكا» . وفى جزر الأنتيل ، لم تتنازل فرنسا إلا عن أصغر جزء من ممتلكاتها : جزر مارى جالانت ، ولا ديزيراد ، وسان مارتان ؛ وإحتفظت بالمارتينيك ، وجوادلوب ، وسانت لوسى .

أما فى الهند ، فإن الانسحاب الفرنسى قد إمتد على كل ما كانت قد حصلت عليه بعد أول يناير ١٧٤٩ . وكان هذا يعنى أنها قد إحتفظت فقط بالمراكز التجارية التى كانت فى ملكيتها وقت التوقيع على صلح إكس لا شابيل : شاندرنا جور ، ويانااون ، وبوند شيرى ، وكاريكال ، وما هى . وكان من الضرورى عدم تحصين أى منها ، أما ضواحيها فتضغط إلى أقصى حدود .

وجاءت معاهدة باريس كوثيقة للإعتراف بالانتصار الانجليزى ، كما كانت معاهدة هوبرتسبورج بالنسبة للانتصار البروسى . ولكنا نجد ، من الناحية الجغرافية ، أن نتائجها كانت مختلفة عن بعضها تماماً . فبالمعاهدة الأولى ، مرت أقاليم شاسعة من سيد إلى آخر فيما وراء البحار ؛ فأبعدت الدولة الفرنسية بشكل شبه كامل من الهند ، وأكثر من ذلك من أمريكا . أما المعاهدة الثانية فإنها كانت تتميز ، على العكس من ذلك ، بأن صفتها الرئيسية كانت هى أن تعيد إلى أوربا «الوضع القائم السابق» statu quo ante . وتأكدت بها البنود الرئيسية فى معاهدة إكس لاشابيل . وكان عجز آل هابسبورج عن أن يحصلوا ، حتى مع تأييد فرنسا ، على إعادة النظر فى هذه الاتفاقية ، والتى كانوا قد قبلوها بكل صعوبة ، يبدو واضحاً على أنه يضمن ثباتها .

الفصل الثامن والعشرون

التقسيم الأول لبولندا
ووصول الروس للبحر الأسود

كانت أحداث حرب السنوات قد وضعت بحق دولة بروسيا الصغيرة في مصاف الدول العسكرية العظمى على القارة . وشعر فردريك بأنه لا يواجه بخصم كي يحطمه هو ، وأن من حقه أن تكون له أية طموحات . وستكون مبادراته محك لاقتراف هذه الجريمة الدولية التي ارتكبت في عام ١٧٧٢ ، بمساعدة روسيا والنمسا ، وهي تقسيم بولندا .

وكان عام ١٧٦٣ قد بدأ مع وقوع تغيير في الحكم في ألمانيا بطرد برامج ومقترحات ماذهبت أصداء انتصار فردريك ، ثم السلم . وفي شهر أكتوبر ، حدث تغيير لحكم آخر ، في وارسو ، الأمر الذي سيكون نقطة بداية لقوة جديدة بين المتنازعين ستشعله بسرعة حرب جديدة . ولم يكن قد حدث أبداً قبل أواسط هذا القرن الثامن عشر ، وفي الوقت الذي كان فيه النظام القديم Ancient Régime قد اقترب من نهايته ، أن كانت أمور الأشخاص قد لعبت مثل هذا الدور الرئيسي في حياة الأمم الاوروبية .

وفي الماضي ، كانت الأزمات التي تنشأ ، من وقت لآخر ، عند فتح مسألة وراثة تاج بولندا ، تتصف بشكل أساسي بتعارض بين السياسة الفرنسية والسياسة النمساوية ، والتي كانت كل منها تسرع من أجل الحصول ، وبواسطة ملك يتم اختياره ، بحكمه على تحالف هذه المملكة الكبيرة في الشرق . ولكن الأمر يتعلق بأحلام المرأة بعد قوتها يختلف عن ذلك كل الاختلاف . ذلك أن فرنسا والنمسا تبدوان كأنهما متفقتين على

منذ وقت بعيد ، قد أصبحتا منذ بضع سنوات داخل نفس المعسكر .ومن ناحية أخرى ، نجد أن بروسيا آل هوهنزلرن ، والتى كانت تتوق إلى الغزو ، قد دخلت إلى اللعبة ، وهى مصممة على أن تستخدم أقصى نفوذ تمنحه لها إنتصاراتها العسكرية ، وكذلك حظها الوافر الذى أفادت منه : فلن تترك الفرصة المعروضة أمامها لكى تتوسع صوب الشرق تفلت من أيديها ، كما كانت قد فعلت بالنسبة للجنوب . وأخيراً ، فإن دولة روسيا ستترك جيرانها يغرونها على التخلى عن سياستها التقليدية فى بولندا ، ولكن تشترك فى عملية إقتسام لمناطق النفوذ ، تتمشى مع عملية التقسيم الأولى .

١ ـ روسيا ونفوذها فى بولندا :

كانت روسيا قد قطعت الصلة تماما مع ماضيها الخاص بالعزلة. ولقد إستمرت فى التقدم على الطريق الذى كان بطرس الأكبر قد رسمه لها، حتى تلتقى مع الغرب. وكانت صناعتها وتجارتها الخارجية قد أخذت على التوالى فى النضج ، قبيل أواسط القرن بقليل ، وذلك فى علاقة مع مجهود التسليح الذى فرضته عليها حرب ألمانيا .

وفى منطقة الأورال ميزت دفعة صناعية أولى سنوات ١٧٣٥ — ١٧٤٠ : فكانت فرقة من الساكسون قد وصلت ، بعد أن إستدعاها بيرين Biren ، الصديق الألمانى للقيصرة أنا إيفانوفنا Anna Ivanovna . ولكن المرحلة الحاسمة جاءت فى نفس وقت حكم إليزابيث . وزادت المبادلات مع إنجلترا، أما معاهدة التجارة، التى عقدت فى عام ١٧٣٤ ، فإنها سوف تجدد مرات عديده ١٧٤٢ ، و١٧٥٥ ، و١٧٥٦ . ومنذ ذلك الوقت ، إستمر السوق الإنجليزى يزداد فى الأهمية. وذلك الوقت التى لم تأخذ فيه العلاقات التجارية مع فرنسا فى النمو إلا مع فتح البحر المتوسط للسفن الروسية ، بعد عام ١٧٧٤ . وكان الروس يصدرون بنوع خاص

خـام حديدهم إلى إنجلترا . وكان الإنجليز يحضرون لهم أنسجتهم وأصوافهم . وقرب عام ١٧٥٠ ، وفى وقت «الثورة الصناعية» ، أضيفت إلى ذلك آلات مصنعة ، سيستخدمها عمال إنجليز خلال فترة من الوقت . وبعد عام ١٧٧٠ ، مالت كمية الحديد الروسى الذى كان يصل إلى السوق الإنجليزى إلى الزيادة عن كمية حديد السويد : وكانت صناعة المنسوجات الروسية بنوع خاص هى التى أفادت من إدخال التقنيات الحديثة : فزادت صناعة المنسوجات والأصواف . وحتى فى هذا الميدان ، إحتفظ المتخصصون الألمان بالمكان الاول ، ولفترة طويلة .

ومنذ الأيـام الأولى لحكمها ، شعرت كاترين تماماً بالقوة التى أصبحت إمبراطورية القياصرة تمثلها فى أوربا . وأعلنت نيتها فى ألا تترك أى دولة من الدول توجه سياستها . وحتى ذلك الوقت ، كان الأجانب حينما يطالبون معونة روسيا ، يفعلون ذلك من أجل إستخدامها لمصالحهم . ومنذ ذلك الوقت ، لن تعمل إلا من أجل إرضاء آمالها الخاصة . وكتبت تقول : «إن الزمن سوف يظهر أننا لم نعد نجرى بعد وراء أى شخص» . ففرنسا ، الحليفة التقليدية للدولة العثمانية ، ولبولندا والسويد — والتى كانت فى أثناء حرب السنوات السبع ، قد أعطت إنطباعا فى بعض الأوقات بأنها سوف تتوب بعد أن وضعت يدها فى يد روسيا — سوف تتأكد فرنسا هذه أنه مع القيصرة الجديدة ، وحتى إذا كان تأثير أدبها وأفكارها يتزايد باستمرار فى سان بطرسبرج ، من أن نصائحها فى الميدان السياسى قد إنخفضت إلى درجة الصفر .

ومنذ مايقرب من ثلاثين عاماً ، كانت بولندا تمثل ، بالنسبة لإمبراطورية القياصرة ، دولة تابعة . وكان المنتخب الملك ، أوجست الثالث ، الذى دان بعرشه إلى صداقة النمسا وروسيا ، قد حكم تحت سلطة ونفوذ الأكثر قرباً والأكثر قوة من جاراته ، وهو من كان فى موسكو . وإستمر أحد نواب الملك فى تمثيل السلطة

القيصرية فى وارسو ؛ ولم يكن وزراء الملك الساكسونى سوى مجرد موظفين عنده. وفى أثناء حرب السنوات السبع ، تسببت الضرورات العسكرية فى إستغلال منتظم لموارد البلاد : وأقام جيش الإحتلال كما لو كان من المفهوم أنه لن يبتعد أبداً . وفى عام ١٧٦٣ ، كان إبن أوجست الثالث بطبيعة الحال مرشحاً لخلافة والده . وكان فى وسعه أن يحصل على ذلك بسهولة إذا ماكانت النمسا وروسيا ، وكما كانتا منذ ثلاثين عاماً ، متفقتين على تأييد ترشيحه . ولكن ظروفاً مختلفة كانت تواجهه . فأولا ، ومنذ أن أصبحت النمسا حليفة لفرنسا ، أصبحت موضع شك فى سان بطرسبرج ، وحيث كانوا يخشون بشكل خاص من النيات التقليدية لفرنسا بالنسبة لتاج بولندا . ومن ناحية أخرى ، كان بلاط درسدن قد أثار عداء حكومة روسيا بالمطالبة بحقوقه فى وراثة دوقية كورلاند . ولذلك فإن كاترين الثانية ، القيصرة الجديدة ، كانت لها إذن مرشحها الخاص ، وهو عشيقها الأخير ، ستانيسلاس بونياتويسكى Stanislas Poniatowski ، والذى كان من أسرة بولندية كبيرة .

ومرت حملة إنتخابية طويلة قبل تصويت الدايت . وإنتهز فردريك هذه الفرصة لكى يظهر مواهبه : فكان سياسياً داهية ، كما كان رجل إستراتيجية من الطراز الأول . ولقد رأى أن كاترين الثانية كانت فى حاجة إليه ضد النمسا . ولذلك فإنه لن يعطيها تأييده مجاناً . ورحب بمفاتحاتها ، ولكنه شرط أمر عقد إتفاقية بعقد تحالف رسمى يشتمل على ضمانة عامة لممتلكاته ، بما فيها سيليزيا . وفى بطرسبرج ، تمتموا قليلا. ذلك أنهم كانوا متمسكين كثيراً بالتحالف النمسوى ، والذى كان أساساً لكل سياسة معادية للدولة العثمانية فى الشرق ؛ وكان من الطبيعى أن يترددوا ، فى نفس الوقت الذى يغضبون فيه النمسا ، فى أن يغضبوا كذلك حليفتها الجديدة فرنسا . ومع ذلك فإن المفاوضات إنتهت فى شهر أبريل ١٧٦٤ .

فتم التوقيع على معاهدة دفاعية عامة بين بروسيا وروسيا ، أضيف إليها إتفاق خاص بشأن ترشيح ستانيسلاس بونياتوسكى: فترعى الدولتان أمر المحافظة على «الحريات البولندية » ، أى على إستمرار الفوضى الداخلية التى كانت قد تردت فيها . وعلى هذا الأساس ، تم إنتخاب بونياتويسكى تحت حماية الحراب الروسية وإتخذ لنفسه إسم ستانيسلاس أوجست : وسيكون آخر ملك لبولندا .

وهكذا كسبت كاترين الجولة . ولكنها سوف تضع، بقلة حذرها، هذا النجاح الكبير فى عرضة للخطر . فأعطت لنفسها هدفاً أن تحصل الرعايا الأرثوذكس لملك بولندا ، والذين كانت تطالب عاليا بحمايتها لهم، على نفس الحقوق السياسية الموجودة للكاثوليك . ولكن ستانيسلاس أوجست ، الذى لاحظ معارضة الرأى العام، رفض الموافقة على ذلك . فتشبثت كاترين . وأعطت تأييدها لحزب معارضة، وهو حزب لكبار السادة ، الذين كانوا معادين للملك الجديد ، لأنهم كانوا يخشون من بعض التعديلات التى كان يقترح إدخالها على الدستور البولندى . وبعد أن أثيرت المسألة الدينية بهذه الطريقة ، أثارت هياجاً عاماً فى جميع أنحاء البلاد . وكانت نتيجة ذلك هى تكوين رابطة من العناصر غير الراضية ، فى عام ١٧٦٦ ، وكانت مستعدة للدفاع عن آرائها بقوة السلاح ، وهى « إتحادية » رادوم . ومع ذلك فإن المساواة بين جميع المعتقدات فى الحقوق تم التصويت عليها من الدايت ، الذى لم يكن يقدر على رفض أى شىء للسفير الروسى . ووافق هذا الدايت على عمل ميثاق مع روسيا ، يجعل من القيصرة الضامنة للقوانين والحريات فى بولندا . وكانت هناك مواجهات بين الإتحاديين وبين القوات الروسية . وتم دفعهم من الحدود صوب داخل البلاد . وعندئذ ، إلتجأوا إلى الخارج ، طالبين العون .

٢ ـ فرنسا والدولة العثمانية :

وكان الخارج ، فى مثل هذا الموضوع ، بالنسبة للبولنديين هو أولا فرنسا .

ففى أثناء كل الأزمات التى أثرت فى الماضى ، أو هددت بأن تؤثر ، فى الوضعية الإقليمية لشرق أوربا ، لعبت فرنسا ، وكصديقة تقليدية للبولنديين والعثمانيين ، وكما رأينا ، دوراً من الدرجة الأولى . ولسوف تحاول القيام بذلك مرة جديدة . وكانت لاتزال تشعر بضيق من نتائج تغيير المحالفات . وفى أثناء ذلك الوقت ، كان وصول كاترين الثانية إلى العرش ، وإقامة علاقات ودية بين بروسيا وروسيا ، وإبعادها فرساى عن سان بطرسبرج ، قد نتج عنه الوصول إلى تحسن فى العلاقات الفرنسية العثمانية : فالأزمة التى بدأت فى عام ١٧٥٦ يمكن إعتبارها على أنها قد إنتهت فى عام ١٧٦٢ . ومما لاشك فيه أنه لم تعد هناك نفس الثقة التى كانت موجودة فى الماضى بين الحكومتين . ولكن الأتراك كانوا على الأقل يعترفون لأصدقائهم القدماء بأنهم لم يعودوا فى نفس معسكر أشد أعدائهم وهم الروس فى ذلك الوقت .

ولم تكن فرنسا فى مناخ يسمح لها بالتدخل حين وصلت النداءات الأولى «للإتحاديين» إليها : فكانت مصائب حرب السنوات السبع لاتزال قريبة للغاية وبشكل لايسمح للأمة بقبول فكرة الدخول فى مغامرات جديدة . فإكتفوا ،فى أول الأمر ، بإرسال بعض الأموال للاتحاديين . ثم حاولوا أن يستخدموا ذلك القدر البسيط من النفوذ ، والذى كان لايزال لهم فى إستانبول ، من أجل دفع العثمانيين ضد روسيا . ولم يكن العثمانيين بعيدين عن أن تعتبروا إستقلال بولندا كوضع أساسى — وحتى حيوى — بالنسبة إليهم . وكانوا قد غضبوا حين علموا بإنتخاب ستانيسلاس أوجست . ورسموا الخطوط العامة لحركة تقارب مع خصومهم القدماء ، النمسويين . وهذا هو الأمر الذى حاولت الدبلوماسية الفرنسية بطبيعة الحال أن تساعد على تحقيقه . ومرت سنوات فى مفاوضات غير مجدية .

ومع ذلك ، فلقد تهيأ الأمر لقطيعة ، فى عام ١٧٦٧ . وفى وارسو ، تم التصويت على دستور جديد ، وهو الذى وضعه الدايت تحت ضمان القيصرة . وبدا أن عملية إبتلاع بولندا بواسطة جارتها لم تعد إلا مسألة وقت . وكانت البلاد بالفعل فى أيدى الروس . وتمت سيطرتهم على إتحادية رادوم . وفى العاصمة ، كان كونت ربنين Repnin ، سفير كاترين الثانية ، يظهر بمظهر الدكتاتور .

وعندئذ قررت باريس أخذ خطوة أخرى : فأمرت بارسال مدربين ومعلمين للجيش العثمانى . وسيكون أشهرهم هو البارون دى توت Tott ، الذى كان من أصل مجرى ، وإبن لأحد رفقاء فرانسوا راكوكسى Francois Rakocsy فى النضال ، والذى كان قد عاش لمدة سنوات عديدة فى إستانبول ، ودرس فيها ، وتعلم لغة البلاد . وكما كان قد حدث فى الماضى مع بونيفال باشا Bonneval - Pacha ، فإنه سوف يلعب دور المستشار العسكرى للسلطان ؛ وسوف يهتم بنوع خاص بتنمية الصناعات الخاصة بالمدفعية .

٣ - حرب بروسيا ضد الدولة العثمانية :

ولن تتأخر حكومة سان بطرسبرج كثيراً عن أن يثور قلقها من الأنباء التى وصلت إليها عن الإستعدادات العسكرية العثمانية . وأشاروا إلى تجمعات للقوات فى بودوليا ، عند حدود الإمارات الرومانية وبولندا . وطلب السفير ، فى إستانبول ، إيضاحات عن ذلك ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه القيصرة تبرر فيه أمر تدخلها فى الشئون البولندية . وزادت خطورة الموقف . وكانت غالبية البولنديين ، وهى فى قرارها كاثوليكية ، حانقة على تلك الحماية التى كان الروس قد منحوها لهؤلاء «المنشقين» الدينيين . وتجاوبت ، وبكل قلبها مع «إتحادية» جديدة ، هى إتحادية بار (فى بودوليا) ، والتى كانت قد أنشئت لكى تحارب ضد إتحادية رادوم وحلفائها المسكوفيين ، والتى كانت ، بدورها ، تجمع قوات لها . فتهيأ الأمر لحرب أهلية .

ومع ذلك فإن الحزب الذى يؤيده الروس سوف ينتصر . واعترف الدايت لغير الكاثوليك بالحقوق المساوية لحقوق الكاثوليك : فكان ذلك نجاحاً كبيراً للسياسة الروسية ، وإن كان بعيداً كل البعد عن إيجاد حل للمشكلات . وفى شهر أكتوبر ١٧٦٨ ، أدت أحدى حوادث الحدود إلى إشعال نار الحرب مع الباب العالى . ذلك أن بعض القوزاق ، والذين كانوا فى خدمة القيصرة ، إستولوا على مدينة صغيرة تابعة لخان القرم ، وأحرقوها . وكما لو كان العثمانيون لاينتظرون سوى هذا الأمر ، فإنهم أرسلوا السفير الروسى إلى قلعة الأبراج السبعة . واعتقدت الدبلوماسية الفرنسية أنها قد إنتصرت : ولكنها كانت فى واقع الأمر قد نفذت ودون أن تعلم ماكان ملك بروسيا يرغب فيه .

وفى بداية الأزمة كان الإهتمام موكزاً على الحرب الروسية العثمانية بدرجة أقل من تركيزها على المكاسب التى سوف يخرج بها فردريك منها . وكان يهنىء نفسه لأن يجد حلفاءه مشغولين فى صعوبات خارجية . وكتب إلى أخيه ، الأمير هنرى البروسى ، كما كان يحدث دائماً : « لم يحدث أبداً أنهم كانوا قد تحدثوا بمثل هذا الأسلوب المؤدب مثل الآن » . ويبدو أن القيصرة قد أصبحت الآن تعلق أهمية كبرى على هذا التحالف البروسى الذى عقدته فى وقته ، مهما كانت درجة إقتناعها به : فكان هذا الوقت الذى يبيع فيه لها ، وبأغلى ثمن ، تلك المساعدة والتأييد التى كانت فى حاجة لهما . ولذلك فان جولة عنيفة سوف تتم بين الدبلوماسية البروسية وبين الدبلوماسية الروسية .

وكانت منافستهم قد ولدت ، فى السنوات السابقة ، وبالنسبة للسويد ، إلى ضعف المملكة هناك ، وإلى تنافس حزبان كبيران على السلطة ، دون إلتفات للمصالح الوطنية . وطرح فردريك على مائدة المفاوضات فكرة تقسيم الأقاليم السويدية المطلة على بحر البلطيق . ثم جاءت للإستعدادات العثمانية لكى توجه الإلتفات العام

صوب الجنوب . ولذلك فإن الأمر سوف يتعلق الآن بأمر تقسيم بولندا . ولقد طرحت الفكرة من جانب ملك بروسيا . وبدأ الروس بإظهار بروداً بالغاً . فلم يجيبوا : فكانت بولندا تمثل دائماً بالنسبة لهم نطاق صيد عجوز . ومع ذلك ، فإن عزيمة ملك بروسيا لم تثبط . وسيحاول أن يرفع العقبات الموجودة على الطريق. ولن تتأخر الظروف عن أن تعطيه الفرصة المناسبة .

ولم تبدأ الحرب الروسية العثمانية بالفعل إلا فى ربيع ١٧٦٩ . ووقعت عملياتها الرئيسية على الدنيستر ، وحول موقع شوتيم . وبدت فى أولها على أنها غير محددة حتى أنها أثارت إستهزاء فردريك . فأعلن أنه « من الضرورى ، لتكوين فكرة عن هذه الحرب ، تخيل قوات أفرادها مصابون بالعور ، وبعد أن يهزموا العميان ، ينتصرون عليهم إنتصاراً كاملا » . والمصابون بالعور هم ، بطبيعة الحال ، الروس. وكانوا قد إمضوا وقتاً طويلا يتحسسون فيه مواقع الخصم ، وذلك فى الوقت الذى كان خان القرم يرسل فيه بعض الجماعات لكى تقوم بعمليات التخريب المعتادة فى أوكرانيا . وبعد إبعاد التتار ، وإحتلال مواقع آزوف وتاجانروج ، بدأ جيش الدانوب ، بدوره يتصل بالأعداء فى شهر سبتمبر . أما الصدر الأعظم ، والذى واجه فيضاناً غير متوقع لنهر الدنيستر ، والذى كان يفصله عن جزء من قواته ، فإنه قد إضطر إلى أن ينسحب بسرعة حتى الدانوب متخلياً بذلك ، وفى عملية واحدة ، عن الأفلاق والبغدان . وكان التأثير ضخماً فى أوربا . وثارت المشاعر ، فى فينا على وجه الخصوص : فكانوا لا يطيقون تصور أن الروس سوف يقيمون فى الإمارات الدانوبية .

أما بالنسبة لفردريك ، فكانت لديه فرصة فريدة للتحكم فى النمسا ، عن طريق إثارة مخاوفها . وكان هذا هو الوقت الذى أتم فيه تكوين مشروعاته البولندية . وسوف يدخل النمسا فى العملية ، ويستخدمها من أجل إحتواء روسيا ، ويدفعها ، برغبتها أو رغماً عنها ، إلى قبول فكرة التقسيم . وشاءت الظروف

أن تأتى السياسة النمسوية نفسها لمقابلة رغباته.وكان الرجل الذى يدير هذه السياسة، كاونتز Kaunitz ، لايخفى إعجابه بملك بروسيا . ومنذ صيف ١٧٦٩ ، إقترح عليه مقابلة مع جوزيف الثانى ، والذى كان ، كامبراطور ، قد خلف والده فى عام ١٧٦٥ ، والذى كانت ماريا تريزا قد أشركته معها فى سلطتها فى الدول الأم مع لقب Mitregent . أما مكان المقابلة فقد إختاروه فى نيسا ، فى قلب سيليزيا . وأعلنوا أنهم قد تصالحوا ، وإعترفوا ، باسم الوطنية الألمانية ، بضرورة أن يراقبوا ، وباتفاق مشترك ، كل من فرنسا وروسيا . ولم يكن ذلك سوى مدخل للموضوع . وسوف يشهد عام ١٧٧٠ تتالى الأحداث وبسرعة ، سواء على النطاق العسكرى ، أو على النطاق الدبلوماسى .

وفى سان بطرسبرج ، وضعوا خططا واسعة المدى ،فى أثناء الشتاء . فقرروا أن يدفعوا العمليات إلى ما وراء الدانوب ، وكذلك أمر إرسال أسطول إلى البحر المتوسط.وكانت شعوب مسيحية قد تحررت فى الأفلاق والبغدان . وكانت شعوب أخرى تستمع إلى مندوبين من طرف القيصرة ، يعطونهم الأمل فى تحرر قريب . وكانت هذه بنوع خاص هى حالة الأهالى الذين كانوا يسكنون تشرناجورا (الجبل الأسود) . وكانت صلاتهم ، منذ بعض الوقت ، منتظمة مع موسكو ، وكان الأمير الأسقف فى شتينيا يحصل على معاش من القيصرة . وكانوا قد أفهموهم أنهم يعتمدون عليهم لكى يقدموا عند الضرورة نقطة إرتكاز للاسطول الروسى . ذلك أنهم كانوا يعدون حملة بحرية ، وهدفها هو البلقان .

وترك الأسطول الأول كروتستاد قبل بداية العمليات العسكرية . ثم سافر أسطول ثان بعده بشهرين ، ولحق به فى موانى انجلترا . وكان إستقبالها هناك ودياً ، خاصة وأن الدولتين كانتا لاتزالان مرتبطان ببعض المصالح المشتركة فى

بحر البلطيق وفى البحر الأبيض . وفى شهر فبراير ١٧٧٠ ، مر الأسطول الروسى ودون صعوبة من المحيط إلى البحر المتوسط ، وقد فكروا فى فرساى فى إمكانية مهاجمته أثناء مروره . وقبل أن يصل إلى سواحل اليونان، حدثت بعض الأحداث مع راجوزا . فلقد أعلنت الجمهورية حيادها فى تلك الحرب بين الروس والعثمانيين ، كما كانت وتفعل دائماً فى مثل هذه الحالات . وكانت تدفع دائماً الجزية للسلطان . وكان من الصعب عليها بالتالى أن تصم آذانها عن نداءات إستانبول ، وخاصة فيما يتعلق بتقديم سفن النقل . ولذلك فإن الروس كانوا يقابلون فى بعض الحالات ، وعلى طريقهم ، سفناً تحمل علم راجوزا ، وفى خدمة الدولة العثمانية . وسوف يترجمون غضبهم بعد اللقاء البحرى الكبير الذى وقع فى الصيف مع العثمانيين . وعندئذ سوف يبلغون الجمهورية أنهم يعتبرونها كدولة معادية . واحتاج الأمر إلى ثلاث سنوات من المفاوضات حتى تعود العلاقات العادية بينهم وبين سان بطرسبرج .

وفى الموره ، عمل الأخوان أورلوف Orlov (أحدهما كونت جريجورى، الذى كان فى ذلك الوقت حظياً للقيصرة) ، على الإعداد للثورة. وتقابل الكسيس أورلوف فى بيزا مع ممثلى الأهالى اليونانيين ، وتبادل معهم وعوداً بالتأييد المتبادل . وما أن أعلن وصول الأسطول ، حتى بدأ الثوار عملهم ؛ فإضطرت القوات العثمانية إلى الانسحاب ، وهناك إستمروا فى المقاومة فى مواقعهم ، حتى ذبح الكثير من بينهم . ولقد إشتركت وحدة روسية صغيرة جاءت مع الأسطول ، وتولى قيادتها الاكسيس أورلوف ، فى هذه الحرب . ولكن الوفاق بين الثوار وحلفائهم لم يستمر لفترة طويلة ، وخاصة مع مجىء الهزائم : ذلك أن عملية حصار مورون ، والتى قاموا بها سوياً ، إنتهت بكارثة ، أما ميناء نافارين ، والذى كان الأسطول قد رسا فيه ، فإنهم إضطروا إلى إخلائه بعد بضعة أشهر . ولما كان

أميرى البحر على غير وفاق بالنسبة للعمليات ، إستند ألكسيس أورلوف إلى الثقة التى كانت تبديها له القيصرة ، وتولى القيادة العليا ، رغم أنه لم يكن من رجال البحر . وتركز الهدف الآن فى البحث عن الاتصال بالأسطول البحرى للعدو . ولقد قابلوه عند ساحل آسيا ، وقرب جزيرة خيوس ، قرب شسمة. ولقد أجبر على الدخول فى المعركة ، ثم إلى الالتجاء إلى داخل الميناء ، حيث تحطم كله نتيجة لاستخدام القذائف الحارقة (٤ يوليو ١٧٧٠) . ومع هذه المعركة التى وقعت فى شسمة ، والتى ذكرت بما كان قد حدث فى ليبانتو منذ قرنين ،وكانت لها نفس الضجة فى أوروبا ، إنتهت الحملة البحرية لعام ١٧٧٠ . وكانت القيادة دائماً مقلقلة ، كما كان الاختلاف واضحاً بين مختلف القادة ، فقنعوا بالاستيلاء على بعض الجزر فى الأرخبيل . ولكنهم لم يتمكنوا من القيام بمحاولة للمرور فى الدردنيل ، خاصة وأنه كان قد أحسن تحصينه ، وبعناية ، من البارون دى توت .

وعلى البر كذلك ، تمكن الروس من أن يحصلوا على إنتصارات كبيرة ، على حساب خان القرم والتتار الخاضعين له ، ثم على حساب الجيش العثمانى. وكما حدث فى السنة الأولى ، كان العثمانيون هم البادئين بالهجوم . وبعد أن قام الصدر الأعظم بإعادة تنظيم جيشه فيما وراء نهر الدانوب ، عبر النهر مع قوات تبلغ خمسة أو ستة أضعاف قوات الروس . ولكن حركاته كانت أقل من حركتهم ، وسرعان ما إضطر إلى أن يحارب وهو يتقهقر بسرعة ، تاركاً كل مدفعيته فى أيدى الخصوم. وبعد هذه الحملة السريعة والصاعقة ، إمتد الاحتلال الروسى إلى كل بسارابيا وإلى مصب نهر الدانوب .

٤ — بروسيا وفكرة تقسيم بولندا:

وكان فريدريك الثانى يتبع أحداث الشرق باهتمام كبير . وكانت هذه الأحداث قد ساعدته على إكمال الخطة التى كان قد كونها منذ بعض الوقت :

أى ربط المسألة البولندية بالمسألة العثمانية ، وعدم منع روسيا من أن تحصل على نصيب كبير على حساب العثمانيين،وبشكل أن تظهر فيها بعد تفاهما بالنسبة لطموحات بروسيا فى بولندا ، وعلى أن يكون البدء بضمان الحصول على معونة النمسا ، والتى كانت إمكانية تدخلها يمكنها أن ترجح كفة الميزان فى هذه الناحية أو الناحية الأخرى. وبعد بداية العمليات العسكرية بين الروس والعثمانيين بقليل ،إقترح على جوزيف الثانى أن يتفاهم معه بشأن وساطة . وشيئاً فشيئاً سارت هذه الفكرة . وإنتهت عملية إقامة الروس فى ياسى وفى بوخارست إلى أن تجعل الامبراطور يوافق. وتم الاتفاق بين الملكين فى مقابلة نيوستاد (سبتمبر ١٧٧٧). وهكذا نقل العرض من الجانبين إلى إستانبول وإلى موسكو . وكانت حكومة كاترين تفضل عدم الموافقة عليه ، والتفاوض مع السلطان بطريق مباشر . ولكن مجهوداتها فى هذا السبيل فشلت ، فإضطرت إلى الموافقة . ولكن الشروط المعروضة كانت متطرفة ، حتى أنه لم يكن هناك كبير أمل فى الموافقة عليها : فلقد أعلن فريدريك أنه لن يجرؤ حتى على إبلاغها إلى إستانبول . وأضاف أنه حتى فى حالة إدعاء موسكو بالموافقة عليها ، فإنهم سيصلون لامحالة إلى حرب مع النمسا ،وربما حتى إلى حرب مع فرنسا والنمسا . ولم يكن ذلك مجرد خيال : ذلك أن حكومة شوازيل قد رفضت التفكير فى أن تعقد معاهدة رسمية للتحالف مع السلطان ؛ ولكنهم أخذوا يتساءلون فى فرساى ، ولمدة طويلة عما إذا كانوا سيرسلون سفنهم الحربية إلى بحر إيجه .

ولكى يصل البروسيون والنمسويون إلى أهدافهما ، عملوا على إخافة كاترين . وسرعان ماجاءت الأنباء بوقوع حشود لقوات ضخمة على حدود ترانسلفانيا . وأبلغ بلاط برلين إلى سان بطرسبرج أن السلطان قد عرض على الامبراطورة الملكة أن يتنازل لها عن الصرب فى نظير إمكانية مساعدته . وهكذا وصلت

القيصرة ، وكما لو كانت من نفسها ، إلى تلك النقطة التى كان فريدريك يرغب فى أن تصل إليها . وفى الأيام الأولى من عام ١٧٧١ ، إقترح فى أثناء إحدى المحادثات مع الأمير هنرى البروسى أنه هناك إمكانية بالنسبة للدول الثلاث ، التى إنقسمت على نفسها نتيجة للمسألة العثمانية، أن تقيم فيما بينها وفاقاً جيداً: وذلك عن طريق تقديم للمطالب التى ترغب كل منهم فى تقديمها على حساب بولندا . ووافق البروسيون على الكلمة التى أعطتها القيصرة . وهكذا بدأت المفاوضات التى ستؤدى إلى التقسيم فى عام ١٧٧٢ .

وفى بولندا ، وحيث كان الموقف الداخلى قد إزداد خطورة منذ إنشاء إتحادية بار ، كانت الفوضى ضاربة أطنابها . وكان السفير الروسى ، كونت ربنان ، قد أسهم بتدخلاته فى إشعال العواطف الدينية وإثارتها . وإستمر فى القيام بهذه اللعبة باسم القيصرة . أما الحكومة الفرنسية ، فإنها قلقت بالنسبة لمستقبل نفوذها فى بولندا ، فقررت الظهور . وهكذا نجد أن شوازيل قد أرسل إلى الثوار تشجيعات ، ومبالغ من الأموال ، وأخيراً مجموعة من الضباط المتطوعين تحت قيادة «دوموريه Dumouriez » ولكنه ترك السلطة بعد بضعة أشهر من ذلك ، ولم يكمل خليفته هذه المجهودات . وكان إختفاء فرنسا سيسهل الوفاق بين الثلاثة، وهو الأمر الذى كانوا يعدونه من أجل التقسيم. أما الشروط التى سوف يتفقون عليها فإنها سوف تتحدد شيئاً فشيئاً فى أثناء ذلك العام الملىء بالأحداث ،وبخاصة على النطاق الدبلوماسى .

٥ ـ النمسا وتقسيم بولندا :

وكانت ماريا تريزا هى التى تقوم بعملية تسيير اللعبة ، ظاهرياً ، فى عام ١٧٧١ . وكان الخوف فى فينا من روسيا ومن مشروعاتها البلقانية لايزال على تلك الدرجة ، فى ذلك الوقت ، التى تشعر بإمكانية أخذ قرار بإعلان

الحرب عليها : ألن تطلب الامبراطورة ، فى أحد الايام ، حياد ملك بروسيا بالنسبة لمثل هذه الإمكانية ؟ أما فريدريك الذى عرف أسرار السياسة البولندية لكاترين فإنه أجاب بثقة بأن الروس قد وصلوا إلى نقطة إعادة النظر فى سياستهم تجاه الدولة العثمانية ، وأنه من الواجب ألا تقع حرب جديدة . ثم قام ، وبكل حذر ، ببدء المحادثات ، بدوره ، بشأن بولندا . وأظهرت ماريا تريزا تقززاً كبيراً عن أن تتبعه ، وذلك لأسباب تتعلق بالأمانة ، علاوة على أنها كانت لاترغب فى أخذ ممتلكات الغير — وكتبت الى سفيرها فى برلين : « لنظهر كضعفاء ، بدلاً من أن نكون لصوص» — وأيضا لأنها كانت لاترغب فى أن تقوم بدور مخلب القط لموسكو ، حتى وان كانت بلادها سوف تربح من ذلك . وكانت معادية لروسيا إلى أبعد حدود ، ولسياستها البلقانية الخاصة بالتدخل وبالغزو . حتى أنها وصلت إلى حد التوقيع على معاهدة تحالف مع إستانبول (٦ يوليو ١٧٧١) : وكان حدثاً ليست له سابقة ، ورداً حقيقيا على تغيير نظام المحالفات الذى كان قد حدث فى عام ١٧٥٦ ، أو بمعنى أدق نتيجة منطقية لتغيير نظام المحالفات . ووعدت النمسا بمساعدة السلطان على إستعادة الأقاليم متى إحتلها الروس ، وعلى الإسراع بعقد صلح يضمن سلامة «الحريات البولندية» . وتعهدت الدولة العثمانية ، من جانبها ، بأن تتخلى لها ، وقت التوقيع على الصلح ، على جزء من الأفلاق .

وكان هذا نجاحاً كبيراً بالنسبة لحكومة استانبول . فظهر أنه يمكنها الآن أن تواجه المستقبل بثقة . ولم تقع فى هذه السنة تقريبا أية عمليات حربية فى منطقة الدانوب . وكان الروس قد بذلوا بجهودهم ضد التتار ، سقطت القرم كلها بين أيديهم . وفر نجمان إلى إستانبول ، أما خليفته الذى إنتخبته القبائل فإنه وافق

على عقد معاهدة صلح أعلنت أنه مستقل ، ولكن تحت حماية القيصرة . وتمت بهذه الطريقة تسوية مسألة القرم .

وفى أثناء ذلك الوقت إستمرت عملية المقاوضات البولندية رغما من التمنعات الأولى لكاترين ، وسوء نية ماريا تريزا . وبطريقة تناقضية للغاية ،كانت السياسة النمسوية ، ودون أن ترغب فى ذلك ، ومع ظهورها بإتخاذ موقف سلبى ، هى التى أوصلت المفاوضات إلى إمكانية النجاح . ذلك أنها قد أخذت الدافع ، ولكى تدعم سياسة تخويف موسكو ، لإحتلال كونتية زيب ، تلك الاماره الكاثوليكية الصغيرة ، والتى خضعت فى الماضى لتاج المجر ، ثم دخلت بتعهد بسيط داخل حدود بولندا . ورأت كاترين فى ذلك الاستيلاء على أرض بولندية ، ورتبت على ذلك ضرورة حصولها على شيء ، بدورها ، ودون إنتظار . وفى شهر يناير ١٧٧٢ ، إستغلت كاترين هذه العملية النمسوية ، وإقترحت علناً أمر التقسيم على فردريك .

وإضطرت ماريا تريزا ، تحت تأثير إبنها جوزيف ، ومستشارها كاونتز إلى عدم إظهار وخزات ضميرها ، ولا حتى ترددها . وتم نشر تصريح مشترك من الدول الثلاث فى شهر فبراير ١٧٧٢ ، خاص بمبدأ التقسيم . فجاءت كل الفرص إلى فريدريك : فإذا كانت كاترين قد عملت بأمر التقارب بين النمسا وبين العثمانيين ، لما سارت مع فكرة الوصول إلى تسوية ثلاثية بشأن بولندا . ولكن معاهدة شهر يوليو ١٧٧١ كان قد تم الاحتفاظ بها فى سرية كاملة . ولن تنتشر أبنائها إلا فيما بعد ، وفى الوقت الذى يتم فيه أمر الاتفاق بشأن بولندا .

وجاء الآن دور كاترين لكى تعتقد أنها قد خدعت.فأظهرت غضبها . وقامت أثناء فترة من الوقت باستعداداتها الحربية . وأعلنت أنها ، بعد الصلح ، تعارض

العثمانيين إذا ماكانوا يرغبون فى الحصول على تعويض على حساب النمسا . وأسرع فريدريك لتهدئة المشاعر الثائرة فى سان بطرسبرج .

٦ ـ عملية التقسيم وردود الفعل :

تم التوقيع أخيرا فى ٢٥ يوليو ١٧٧٢ على المعاهدة : فوجد مشروع التقسيم أخيراً صيغته . وبعد أن إستعطفوا ماريا تريز كثيراً ، إضطروا إلى أن يتركوها تأخذ أكبر قطعة ، غاليسيا بأكملها ، ويسكنها مليونين من السكان ؛ وسوف تشكل مملكة جديدة ، شبه مستقلة ، وعاصمتها لمبرج . أما روسيا فإنها حصلت على كل روسيا البيضاء (مدنها الرئيسية فيتبسك وموهيليف) ، وفيها مليون ونصف مليون نسمة . وأما دولة براندبورج — بروسيا فإنها توسعت فى الإقليم المسمى « بروسيا البولندية » فيما عدا المدينتين الكبيرتين ، دانزيج وتورن ، وفيه ما يقرب من ستمائة ألف نسمة . وكان نصيبها هو الأصغر ؛ ولكن ميزته الكبيرة كانت تتمثل بنوع خاص فى أنه كان يربط بين جزئى المملكة اللذين كانا منفصلين حتى ذلك الوقت ، براندبورج وبروسيا الشرقية : ومنذ ذلك الوقت سوف يتمكنون من أن يذهبوا من برلين إلى كونيجز برج دون أن يتركوا أراضى آل هونزلرن . ولم تقتصر مكاسب بروسيا على مجـــرد المكاسب الاقليمية . فكتب فريدريك بعد ذلك بقليل إلى أخيه : « لقد أصبحنا مسيطرين على كل منتجات بولندا وكل وارداتها . وتتمثل الميزة الكبرى فى أننا قد أصبحنا مسيطرين على تجارة القمح ، فلن نصبح فى يوم من الأيام معرضين للمجاعة » . وفى مرة أخرى لم يتردد فى أن يصف تلك العملية التى أتمها بأنها عملية « لصوصية » .

وحاول الشركاء بعد ذلك أن يحصلوا على ما يشبه الموافقة من البولنديين . وعملوا لذلك مدة سنوات . ولقد رفض الدايت، رغم إحاطته بالحراب الروسية،

ولفترة طويلة ، التصديق على ما كانوا يطلبونه منه . فإستدعى الأمر تطهيره بكل عناية من عدد كبير من النواب الموجودين فيه . وأخيراً تم فى عام ١٧٧٥ تكوين ذلك « الوفد » الذى وافق على مطالب الدول الثلاث ، وفى نفس الوقت الذى أعطى فيه هذه الموافقة المطلوبة للغاية ، وافق فيه على دستور جديد ، جاء مرة جديدة ، لكى يضعه تحت ضمانة روسيا .

وهذا التقسيم البولندى — أو التقسيم الداخلى كما أسمته ماريا تريزا التى لم تقنع أبداً باشتراكها فى هذه العملية — إعتبره العالم أجمع ، وحتى وقتنا هذا ، كجريمة ارتكبت فى حق القانون الدولى . وفى القرن الثامن عشر ، لم يكن الرأى الواضح إلا من صنع بعض أصحاب الآراء العامة . وكان أكبرهم ، مثل فولتير ، وديديرو قد حبسوا أنفسهم داخل ذلك الرأى الذى كونوه عن فردريك وكاترين ، فلم يترددوا فى إمتداح هذه العملية . فقال البعض : « لقد إنتهينا من الفوضى » وقال الآخرون : إن ضربة حاسمة قد نزلت بهذا الموطن للتعصب وللخرافات،والذى كان هو بولندا . ومن بين القضاة المحايدين ،وبالتالى العنيفين، كان هناك واحداً من المشهورين ، هو روسو ، والذى عرض فى « تأملاته » بشأن هذا الموضوع ما أراح ضميره حين إعترف بالإحتقار العام لعملية التقسيم ولمن قاموا بها . وظهرت أفكار ناقدة ، وبأعداد كبيرة ، ورفعت صوتها فى إنجلترا . وأثرت إحدى المقالات ، والتى كانت بدون توقيع ، تأثيراً كبيراً . وترجمت إلى معظم اللغات الأوربية .

٧ - روسيا ومعاهده كوجك قينارجى :

وفى اليوم التالى للتسوية البولندية كان على ماريا تريزا وجوزيف الثانى ، وقد شعرا بخجلهما من هذه العملية ، أن يتركا مرة جديدة كل فخارهما من أجل

أن ينفصلا من تعهداتها المكتوبة فى العام السابق ، تجاه العثمانيين . وكان قد تزرعا بذرائع مختلفة لعدم تنفيذ المعاهدة ، وذلك فى الوقت الذى قام فيه العثمانيون ، وكانوا أكثر ولاءاً لتعهداتهم ، بالبدء فى دفع معوناتهم التى وعدوا بهـا . وتم تكليف كاونتز بأن يجد الادعاءات ، الجيـــدة أو الرديئة ، والتى تسمح للنمسا بالإنسحاب والإحتفاظ بماء وجهها . أما حججه فإنها تسببت فى إعطاء حكومة السلطان إنطباعات مرة عن حسن نية المسيحيين .

ولقد وجد العثمانيون أنفسهم فجأة ، وبكل عنف ، وقد تخلى عنهم حلفاؤهم الجدد ، فإضطروا إلى بدأ المحادثات المباشرة مع خصومهم . وفتحت المؤتمرات من أجل الصلح فى فوكسانى ، تلك المدينة الصغيرة فى البغدان ، وفى اليوم التالى للتوقيع على معاهدة تقسيم بولندا . وإنقطعت هذه المحادثات بعد ثلاثة أسابيع ، نتيجة لعدم الوصول إلى إتفاق بشأن إستقلال التتار . ولكن هذه القطيعة كانت قصيرة ، وما أن بدأت العمليات الحربية حتى جاءت هدنة جديدة لكى توقفها .

وإجتمع مفاوضوا فوكسانى من جديد فى بوخارست فى شهر نوفمبر . وعجزوا مرة أخرى عن الاتفاق ، وإضطروا إلى الانصراف بعد أربعة أشهر . وكانت النقطة الأساسية لا تزال هى مصير دولة التتار . وكان هذا الطرف وذاك لا ينظرون بنفس النظرة إلى مسألة الإستقلال الذين كانوا قد إتفقوا على مبدأ الاعتراف به . وكان العثمانيون يرغبون فى أن يحتفظوا السلطان ، وبصفته خليفة المسلمين ، بحق تعيين الخانات الجدد . وكان الروس يطالبون ، من أجل الموافقة على ذلك ، بالتخلى عن مواقع كيرش وإنيكالى ، واللذين كانا يتحكمان فى مدخل البحر الأسود . ولذلك فانهم إضطروا إلى التخلى مؤقتاً عن مجهودات عقد الصلح . وإحتاج الأمر إلى حملتين جديدتين — وبالتالى إلى عامين — حتى يستأنفوا عملهم من جديد .

واحتفظ الروس بالتفوق . وإذا كانوا قد فشلوا فى الوصول إلى حل فى عام ١٧٧٣ ، فإن ذلك كان يرجع إلى سوء الأحوال الداخلية بالنسبة إليهم بشكل واضح فى هذا العام . وكان أمر قمع ثورة بوجاتشيف قد تطلب منهم مجهوداً عسكريا ضخماً ، جاء على حساب العمليات الحربية التى تقع على الحدود . وتم عبور الدانوب، وتواجهت القوات قرب سيليستريا. ولكن الجنرال رومیانتسوف Roummiantsov ، قائد القوات الروسية إضطر ، وبسبب عدم تناسب القوات ، إلى أن ينسحب بسرعة . ولذلك فان الحملة الحاسمة كانت هى فقط حملة عام ١٧٧٤ . وعبر روميانتسوف من جديد الدانوب ، وتقدم بثقة هذه المره . وما أن عبرت طليعة قواته الممرات إلى البلقان ، حتى طالب الصدر الأعظم بالهدنة ، وبعقد مؤتمر جديد من أجل الصلح . ولم يوافق المنتصر على التوقف حتى وصل إليه ، فى أحدى القرى القريبة من سيلستريا سفيران عثمانيان ، ومزودان بكل السلطات . وهنا ، فى كوجك قينارجي ، تمت فى بضعة أيام كتابة نص الاتفاقية التى كانوا يتناقشون بشأنها منذ عامين .

وتمثل معاهدة قينارجي (٢١ يوليو ١٧٧٤) تاريخاً هاماً بالنسبة للمسألة الشرقية . فلقد تم فيها إرضاء كل المطالب الروسية الخاصة بالعام السابق . فتم اعلان التتار على أنهم أحرار ومستقلين تحت سيادة خانهم . وحصلت إمبراطورية القياصرة على كيرش وإينيكالى ، وكذلك على آزوف وعلى كل الاراضى الواقعة على سواحل البحر الأسود هناك ، بإستثناء القرم وموقع أوتشاكوف ؛ ومنذ ذلك الوقت ستكون الحدود مع الامبراطورية العثمانية هى نهر الدنيستر . وأخيرا ، وبنوع خاص ، تم إعلان الملاحة على مياه البحر الأسود حرة بدون أية قيود . وهذا التنازل . الذى كانت روسيا ترغب فيه منذ زمن بعيد ، يعطي

معنى واضحاً لصلح عام ١٧٧٤ . ولم يحدث أى تغيير ، من الناحية القانونية ، بالنسبة لوضعية الامارات الرومانية ، والتى ظلت خاضعة للسلطان ، أى تدفع له الجزية ، ولكن المعاهدة سجلت نيات الروس لكى تمد عليها يد الحماية . وسيكون من حق السفير الروسى أن يتحدث فى صالحها مع السلطات العثمانية اذا ما تطلبت الأمور ذلك ، وتعهد السلطان بأن يكون عادلا تجاه المطالب الحقة ، التى سوف تقدم له فى هذا الشأن . وأخيراً فان فقرة معنية، وهى الفقرة السابعة ، والتى سوف يرجعون إليها كثيراً فيما بعد ، كانت تجبر السلطان على أن يهتم بما قد يقدمه اليه السفير الروسى بشأن الكنائس المسيحية ، ومن يتعبد فيها .

وتتمثل الأهمية الخاصة لهذه المعاهدة فى أنها تعطى إمكانيات لتدخلات جديدة من جانب روسيا فى الدولة العثمانية ، وفى أنها كانت تمهد لذلك . وسيكون على السياسة الروسية أن تواجه ، حين تريد الحصول على شىء ما ، أقل صعوبة ممكنة عما كانت تجد فى الماضى إذا ما إختلفت الدوافع . ولن تتأخر كثيراً عن إستخدام هذه التسهيلات التى حصلت عليها فى قيناريدجى .

٨ — فرنسا تضم جزيرة كورسيكا :

وفى الوقت الذى كانت فيه أحداث بولندا والبلقان تجذب الإنتباه صوب الشرق ، كانت الإضطرابات التى شهدتها جزيرة كورسيكا منذ بعض الوقت قد أدت إلى ضم فرنسا لهذه الجزيرة .

وكانت علاقات أبناء كورسيكا مع سادتهم ، أبناء جنوا قد زادت صعوبة مع مرور الوقت . وإبتداء من عام ١٧٢٩ ، كان عدائهم الدفين قد تطور إلى ثورة . وكانت جمهورية جنوا فى أوضاع لا تسمح لها بقمع الاضطرابات بوسائلها وحدها ، فطلبت وحصلت على معونة الامبراطور شارل السادس: فنجح جيش نمسوى صغير ، فى حملة إستمرت لمدة عامين (١٧٣١ — ١٧٣٢) ، فى

إخضاع الجزيرة : ومع ذلك فان الإنسجام لم يرجع من جديد ويتلخص تاريخ كورسيكا فى خلال السنوات الثلاثين التالية فى تاريخ شعب فى ثورة شبه مستمرة ضد سيطرة يكرهها . وكانت أجمل صفحاته هى التى وقعت فى عام ١٧٣٩ ، مع إنشاء ملكية ضعيفة بواسطة أحد المغامرين من أصل ألمانى ، وهو تيودور دى نيوهوف Théodore de Neuhof ، الذى نجح فى أن يجمع حوله وحدة من رجال العشائر ، وإن كان قد فشل فى البقاء فى السلطة أكثر من عدة أشهر ، نتيجة لنقص الأموال . وبعد نهاية هذه المغامرة ، وذهاب الملك تيودور ، شعر أبناء جنوا بضرورة بذل مجهود جديد لإعادة سلطتهم . وبناء على طلبهم ، جاءت قوات فرنسية بدورها لكى تساعدهم على السيطرة . وكانوا يستخدمون هذه القوات بطريقة أو بأخرى . وحاول رؤسائها بلا جدوى أن يجدوا وفاقاً مع خصومهم . وفى عام ١٧٤٠ بدا أن أمر التهدئة قد تم . ولكن ، ما أن تم سحب القوات الفرنسية من الجزيرة، لإرسالها للاشتراك فى العمليات الحربية التى كانت قد بدأت فى ألمانيا ، حتى بدأت الاضطرابات من جديد .

وفى خلال هذه الحرب الأوروبية الكبرى ، التى كانت هى حرب الوراثة النمسوية ، لم يهمل المتحاربون أمر كورسيكا . فقام الانجليز ، الذين أصبحوا فى عام ١٧٤٣ حلفاء النمسا وبيدمنت ، بإرسال أسطول أمام باستيا التى ضربوها بالقنابل ، وذلك فى الوقت التى جاءت فيه بعض الفصائل من سردينيا ، والتى جاءت لتأييد الثوار،وتمكنت من الحصول على تسليم الحامية لها . وفى عام ١٧٤٧، وفى عشية عقد الصلح ، نزل الفرنسيون من جديد إلى الجزيرة . ولم يخرجوا منها بعد ذلك . وكان قائدهم الفارس كوزراى Curzay قد أعلن مثل سابقيه أنه صديق أبناء كورسيكا ، وأبناء جنوا فى نفس الوقت : وكان طموحه الوحيد يتمثل فى أن يوفق بينهم ، ويمنع أى تدخل أجنبى فى الجزيرة (وكان يقصدون

بطبيعة الحال الانجليز) . ولكن أبناء الجزيرة كانوا يعارضون ، ويقاومون كل فكرة التصالح ، وكما كانوا دائماً .

وهكذا طال وقت الاحتلال ، بالضرورة . وفى عام ١٧٥٢ ، أصبح من الضرورى تنظيم طريقته . وكان هذا هو هدف إتفاقية سان فلوران : فتم تسليم الادارة لأبناء جنوا ، وذلك فى الوقت التى تظل فيه الحاميات الفرنسية مؤقتاً فى الموانى . وفى العام التالى ، ونتيجة لإرتفاع صوت أحد الرؤساء النشطين ، بسكال باولى Pascal Paoli ، الذى أظهر أنه قائد حربى ممتاز ، إتحد أبناء كورسيكا ، والذين كانوا منقسمين على أنفسهم حتى ذلك الوقت ، وطالبوا بالإستقلال . وهذه الدولة الجديدة سوف تحتفظ بعلاقات ممتازة مع الفرنسيين ، وذلك حتى السنوات السبع وفى أثناء كل فترة هذه الحرب . ولكن ذلك لم يمنع حكومة فرساى من عقد إتفاقية جديدة مع جنوا ، والتى كانت دائماً فى حاجة إلى مساعداتهم العسكرية والمالية ، من أجل سياستها فى إيطاليا نفسها .

وكان من الممكن أن يبدو صلح عام ١٧٦٣ على أنه ينهى هذه الفترة الطويلة للإحتلال . ولكننا نجد على العكس من ذلك أن الفرنسيين قد أخذوا إبتداء من ذلك الوقت فى تدعيم مركزهم فى كورسيكا . ولم يكونوا قد فكروا كثيراً فى البقاء هناك . ولكنهم كانوا قد مروا بتجارب عنيفة فى أوربا ، وفى أمريكا ، وفى آسيا . وكانت عزتهم الوطنية قد قاست من تلك التنازلات التى أجبروا على الموافقة عليها لإنجلترا فيما وراء البحار : فكانوا يرغبون فى أن يجدوا نوعاً من التعويض فى إمتلاك الجزيرة التى كان الانجليز قد أظهروا مرات عديدة أمر إهتمامهم بها .

وجاءت الفرصة من نفسها . ذلك أن أبناء جنوا ، والذين كانوا دائماً فى حاجة إلى الأموال ، وافقوا أخيراً ، ومن أجل الحصول على معونات ، على أن

يسلموا للملك ، ولمدة أربع سنوات ، المواقع الرئيسية فى الجزيرة ، ومن بينها كالفن وأجاكسيو . وهكذا جاءت الاتفاقية التى تم التوقيع عليها فى كامبن ، فى عام ١٧٦٤ ، لكى تمهد — ودون أن تذكر — أمر ضم الجزيرة : ذلك أن أبناء جنوا كانوا يواجهون إستحالة مطلقة لدفع هذه الديون ، وبالتالى لإستعادة المواقع المتفق عليها . وليس من المؤكد أن شوازيل كان ينظر إلى ذلك من بعيد ، فى الوقت الذى وقع فيه على الاتفاقية الجديدة . ولكنه كان قد فكر منذ فترة سابقة على الأقل ، وفى حالة رفض أبناء كورسيكا كل ولاء تجاه جمهورية جنوا ، أن يكون من جزيرتهم إحدى الامارات الخاضعة لملك فرنسا .

وفى نهاية السنوات الأربع المنصوص عليها ، وجد أبناء جنوا ، والذين كانوا دائماً غير قادرين على دفع ديونهم ، أنهم مجبرين على التخلى لفرنسا عن حقوق سيادتهم على الجزيرة ، وعلى الأقل لفترة عشر سنوات . وكان ذلك هو موضوع المعاهدة التى تم التوقيع عليها فى فرساى فى ١٥ مايو ١٧٦٨ . وسوف تنتهى مدتها دون أن يطرح أمر الرجوع فى حالة الأمر الفعلى هذه ، والتى لم يكن هناك أحد يفكر فى الاحتجاج عليه . وتعودت كورسيكا بهذه الطريقة ، وشيئا فشيئاً ، على ظروفها الجديدة ، كأحد الأقاليم الفرنسية .

الفصل التاسع والعشرون

ثورة المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا وتخاصم فرنسا وإنجلترا

على خلاف معظم الأزمات الكبرى التى وقعت فى هذا القرن ، كانت الأزمة الأخيرة زمنياً من بينها ، والتى وقعت قبل الثورة الفرنسية، لا تهم إلا عدداً صغيراً من الدول . وكانت تمثل أزمة جديدة فى العلاقات الفرنسية الانجليزية ، وكانت محدودة ومحددة بسواحل العالم الجديد والمحيطات .

١ - فرنسا وانجلترا :

وكانت انجلترا، التى كانت قد لعبت دوراً هاماً وقت حرب الوراثة النمسوية، وحرب السنوات السبع، قد ظلت غائبة فى الوقت الذى كانوا يعدون فيه ويتمون عملية التقسيم الأولى لبولندا. وحتى فى ذلك الوقت كانت تمارس «عزلتها اللامعة» والتى لم يصلوا إلى إسم لها إلا فى أثناء القرن التالى. ذلك أن المصالح التى كانت قادرة على أن تدافع عنها فى أوروبا كانت محددة ببعض المناطق التى لم تلمسها تطورات الأزمة البولندية بطريق مباشر . وكانت تحتفظ ، فى البحر المتوسط وفى بحر البلطيق ، بتجارة مزدهرة ومستمرة النمو . وكانت لا تترك أى فرصة تمر من أجل تدعيم المواقع التى كانت قد حصلت عليها . وكانت تهتم بنوع خاص بالمميزات التى كانت تتحكم فى الغرب فى الوصول إلى هذه العوالم البحرية . وكانت موجودة بشكل دائم فى جبل طارق منذ عام ١٧٠٤، كما كانت تشرف من بعيد على السواحل المطلة على منطقة « سوند » . ولكنها كانت تظهر وبتصميم ،هنا وهناك ، أنها كانت مصممة على المحافظة على الوضع القائم ، ومستعدة دائماً للتدخل فى حالة ظهور

خطر يهددها وعلى العكس من ذلك نجد أنها ، وعلى المحيطات وما وراءها ، كانت تستوحى من الرغبة فى التوسع .

وفى مواجهة الدولة الانجليزية ، والتى كانت غنية بحيويتهـا وديناميكيتها ، سوف تقف من جديد الدولة الفرنسية ، والتى كانت قد أعطت ، وبعد عصر حكم الملك الكبير ، بعض مظاهر الضعف ، والتى كانت منذ معاهدة باريس قد بدت على أنها تنغلق على نفسها منتظرة تلك الأحداث الجسام التى كان المستقبل القـــريب مشحوناً بها.وسوف تكون من المغالاه البسيطة أن نقول بأن كل سياستها السابقة، فى أثناء القرن الثامن عشر،كانت مستوحاه من مبادىء وإتجاهات تتعارض بشكل أساسى مع مبادىء وإتجاهات جيرانها فيما وراء بحر المانش . ولم يكن التوسع الاستعمارى قد وجد فى أى وقت مضى الكثير من الأنصار فى فرنسا . وحتى هذه الكتابات الشهيرة لفولتير عن كندا ، وثلوجها ودببها ، كانت تدل على حالة فكرية أظهرها آخرون ، وكانت منتشرة إلى حد كبير . وحين يقوم المعمرون الانجليز فى أمريكا ، والذين ثاروا ضد الوطن الأم ، بدعوة الفرنسين إلى إعادة غزو كندا بمساعدتهم ، سيعارض وزراء لوى السادس عشر ويرفضون ذلك بشكل قاطع . وفى عشية الثورة ، كتب فولنى Volney ، ذلك الكاتب الشهير ، والذى كتب «تأملات عن حرب الروس والأتراك» ، وهاجم كل سياسة إستعمارية، إستند فى ذلك على الأمثلة المقدمة من البرتغال ، واسبانيا ، وهولندا : فنى هذا التاريخ الذى يحلوا للبعض أن يرويه بطريقة خاصة ، لم يرغب فى أن يرى فيه سوى « حالة عابرة وكاذبة » ، يتلوها بلا جدال حالة أخرى ، ومختلفة عنها .

ومن أول قرن النور إلى آخره ، كانت فكرة السلام تحرك قطاعاً هاماً ، إن لم يكن هو الأكثر أهمية ، بالنسبة للرأى العام . ولقـد تأثرت الأوساط الحاكمة تأثيراً كبيراً بذلك . ولا شك فى أن إتجاهاً سلبياً لأحـد رجال الكنيسة مثل

فليرى Fleury ليس له نفس الأساس الموجود لدى كبار السادة المتشبعين بالفكرة « الفلسفية » ، والتى سادت فى ذلك العصر ، عند أرجنسون Argenson مثلا . ومع ذلك فانها لا تعبر عن نفسها بطريقة مختلفة . ونجد من ناحية أخرى أن هذه الفكرة لم تتوصل إلى أن تخلص نفسها من ذلك الشعور القديم المعادى للانجليز، الذى يبدو أن رجال هذا العصر كانوا قد ورثوه عن أسلافهم القدماء،فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وكانت فرنسا على درجة من العظمة والقوة تسمح لها بأن تتخلى عن كل روح للغزو ، وبأن تطالب فقط بنوع من التفوق المعنوى ، والذى يسمح لها تمسكها بآراء النظام والعدالة أن تدعيه لنفسها : فكانت صياغات من هذا النوع ، وهى التى تعبر عن فكر ماركيز أرجنسون هى نتاج أيديولوجية تحمل سمة عصرها ، والوسط الذى نشأت فيه . ومع ذلك فليست هناك فجوة بين فكر رجل مثل أرجنسون،وفكر آخر مثل فليرى.ولا يختلف مصدر الإلهام، عند الواحد والآخر عن بعضها بشكل واضح.وحين نقرأهم ، يبدو أن الفرنسيين قد تخلوا عن رغبتهم القديمة فى القوة . وكتب فريدريك الثانى المقبل ، فى عام ١٧٣٨ : « من المحال إرجاع الطموح إلى هذه الأمة » ، وتأسف على ذلك فيما بعد . ولم تتمكن أحداث حرب الوراثة النمسوية ، ثم حرب السنوات السبع ، من أن تتغلب على حالة الخمول هذه التى تركوا أنفسهم يغرقون فيها.وكانت روح السلم — وهى روح سلم ليست فى وقتها ، نظراً للفترة التاريخية والظروف — قد إستمرت فى توجيه الأوساط الحاكمة . وكانت تهدد بأن تجعلهم يهملون الفرص التى تعرض نفسها لإعادة إنشاء قوة الأمة فى الخارج ، أو لتحسين حدودها .

وهكذا ظهر من التناقض تقريبا أنه فى هذا الوقت بالذات ، وفى الربع الثالث من القرن ، أن تحقق المملكة وفيما وراء حدودها من الشمال الشرقي ومن

الجنوب الشرقى، عمليتين واضحتين للحصول على أراضى ؛ هى عملية الحصول على كورسيكا ، وعملية الحصول على دوقيات اللورين . وفى واقع الأمر ، لم تتطلب هذه العمليات أى مجهود : فكانت هى النتيجة المباشرة ، والتى توقعتها المعاهدات ، لعمليات إستانيسلاس ليسزنيسكى، التى حدثت فى عام ١٧٦٦. وبالنسبة لكورسيكا شرحنا فيما سبق تلك الظروف التى سبقتها ، وتلك التى جاءت مع عملية ضمها، بعد ذلك بعامين .

وما دمنا نعالج هنا أمر العلاقات الفرنسية الانجليزية فى هذه الفترة ، فعلينا أن نذكر أنهم قد إعتبروا فى لندن هذه المسألة على أنها تمس مسألة توازن القوى فى البحر المتوسط الغربى . وتأثرت الوزارة ، وإحتجت فى باريس ، وذكرت أن أخذ فرنسا للجزيرة يمكنه أن يكون أمرا خطيرا بالنسبة للمحافظة على حسن العلاقات بين البلدين . ولم يتمكن شوازيل إلا أن يعلن أنه لم يكن من الممكن بالنسبة له أن يتراجع وأضاف بلباقة، التعبير عن تأسفه . ووجد الانجليز أنه من الأفضل أن يقنعوا بذلك ، فى نفس الوقت الذى قدموا فيه إحتجاجا عرفوا أنه سيظل أفلاطونيا . أما باولى ، والذى أجبر على ترك الجزيرة فى العام التالى ، فإنه ذهب وطلب حق اللجوء إلى انجلترا ، التى ستصرف له معاشا سنويا. وإستمر فى إثارة المؤامرات فى كورسيكا ضد السيطرة الفرنسية ، وبمعونة أو فى صالح الانجليز .

ومنذ أن إنتهت حالة الحرب بين فرنسا وإنجلترا ، منذ عام ١٧٦٣ ، ظلت العلاقات التى تحتفظ بها كل دولة تجاه الدولة الأخرى تتميز بالتباعد ، وبعدم الثقة المتبادلة . ولقد حاولوا فى بعض الأحيان أن يروا فى هذه الأزمات التى وقعت فى أواسط القرن بداية لحرب مائة عام جديدة : ذلك أن المرحلة الجديدة للصراعات الفرنسية الانجليزية كانت تتميز بميلها إلى طول الأمد ، وعن طريق

الثورة والامبراطورية ، عبر جزء كبير من القرن التاسع عشر . وليس هناك مجال للتوقف عند مثل هذه الفكرة . ولا تزيد قيمتها عن قيمة أية عملية ربط أخرى من هذا النوع . فالتاريخ ، ورغم الكثير من المظاهر ، لايبدأ أبداً من جديد. وحين تجد هاتين الدولتين نفسيهما فى تنافس أو فى عداوة،سيتعلق الأمر الآن بمصالح تقع خارج أوربا أكثر من وقوعها فى أوربا. ولذلك فإن التنافس الفرنسى الانجليزى فى القرن الثامن عشر كان بالفعل تنافسا عالميا .

وإذا كان لفظ التنافس هو الذى يكتبه قلمنا ، بدلا من لفظ المعاداة ، ومن أجل تحديد المعارضة الدائمة بين الفرنسيين والانجليز فى القرن الثامن عشر ، فإن ذلك يعد مؤشراً على أن المصالح الاقتصادية أخذت منذ ذلك الوقت تتفوق على المصالح السياسية البحتة ، مصالح القوة والكرامة . وبهذا الشأن علينا أن نظهر ، وفى تاريخ العلاقات الدولية ، تلك الأهمية التى دان بها الانجليز من قبل لجيرانهم الهولنديين ، منافسيهم السابقين،والذين أصبحوا الآن مرتبطين بسلاسل شروط تحالفهم ، أى التابعين .

وفى أول الأمر ورثت انجلترا من قوتهم المالية . فأصبحت لندن ، بعد أمستردام ، السوق الدولى للنقود ، وذلك منذ أن قامت مجموعة من أصحاب رؤوس الأموال الانجليز ، والمؤيدين من رجال أموال يهود وصلوا بعدويليام أورانج ، بتأسيس بنك إنجلترا فى عام ١٦٩٤ على نفس نمط بنك إمستردام. ومنذ ذلك الوقت ، وفى كل المراكز التجارية الكبيرة فى أوربا،كانت خطابات الدفع على لندن تجد من يشتريها . وذكر أحد المؤرخين الانجليز : « إنهم يسحبون على لندن ، حتى إذا كانت البضائع الضامنة لاتقترب من أوربا أبداً» . ومن جانب آخر ، نجد أن ذلك الانحدار الذى تم لتجارة الهولنديين البحرية ، في أثناء فترة الحروب ضد فرنسا ولويس الرابع عشر ، قد سمح بازدهار جديد

وحاسم للتجارة البريطانية . وهكذا يمكننا أن نميل — بتجسيم الأحداث ، إلى أن نشبه القوة التجارية لإنجلترا ، عند نهاية العصور الحديثة ، على أنها قد أنشئت على حطام عظمة هولندا . ففى فترة تقترب من قرن ، من أواسط القرن السابع عشر إلى أواسط القرن الثامن عشر ، إرتفعت أرقام الصادرات البريطانية حتى الضعف. ولم تكن البضائع الانجليزية — وفى مقدمتها الفحم — هى التى توجد وحدها فى القائمة. فكانت لندن — وحتى لا نذكر إلا الميناء الأول فى بريطانيا — تلعب دور الموزع على القارة لعدد ضخم من المنتجات الأجنبية .

ويمكننا أن نأخذ مثل الأنبذة الفرنسية ، وخاصة أنبذة بوردو ، كمثال له دلالته . وكان الهولنديون فيما مضى قد حصلوا ، وبصفتهم مشترين ، على أولوية ثابتة ، حتى الوقت الذى كان لويس الرابع عشر قد قرر فيه أن يحاربهم . وعندئذ إضطر أولئك الذين كانوا ، من بينهم ، قد جاءوا وإستقروا فى بوردو إلى أن يعودوا إلى بلادهم.وحدث بعد ذلك أمر التصالح بين الأقاليم المتحدة وبين إسبانيا: فأدى ذلك إلى الثروة التى أصابت المتعاملين فى أنبذة إكسيريس ، والذين سرعان ما إنضم اليهم من كان يتعامل فى الأنبذة البرتغالية ، بورتو . ومع القرن الجديد ، أصبحت الدول الأيبيرية هى المنتجة الرئيسية للأنبذة الممتازة وبعد عام ١٧١٥ ، وبزيادة جهود إقليم بوردو —وكذلك أقليم شارانت الذى كان ينتج الكحول — تمكن الفرنسيون من إصلاح موقفهم ، نتيجة لتغيير وسائل الانتـــاج وتحسين المنتجات . وبدلا من الأنبذة القديمة،أصبحت أنبذة بوردو تصدر بكميات ضخمة إلى الموانى البريطانية،وأصبح فى وسعها أن تتنافس وعلى قدم المساواة مع الأنبذة الاسبانية والبرتغالية . وعند نهاية القرن سيأخذ الكحول الفرنسى ، والذى أصبح هو كذلك من نوعية رفيعة ، إسمه «كونياك» وتفوق فى الدول الشمالية على ما كانوا يسمونه هناك « براندوين » .

وكانت هذه الأنبذة الأجنبية ، مثلها فى ذلك مثل « توابل » الهند ، والتى كان كل منها يوزع عبر أوربا ، تدخل بدون ضرائب . وعلى العكس من ذلك نجد أن دخول المنسوجات المسماه « الهندية » ، والتى كانت رغبات الموذة قد جعلتها منافسة للمنسوجات الانجليزية ، كانت تخضع لرقابة شديدة، تصل فى بعض الأحيان إلى حد المنع . وكانت منسوجات فرنسا ، وقطنيات الشرق ، توقف كذلك عند الحدود ، أو تدفع عليها رسوم مرتفعة . ولقد ذكرنا فى موضع آخر أن تصدير المنسوجات الانجليزية كان يلقى تزايداً مستمراً فى المراكز التجارية فى شرق البحر المتوسط، وبشكل هدد بخطورة تفوق المنسوجات الفرنسية. أما فيما يتعلق بالحبوب، فإن صادراتها قد إرتفعت إرتفاعاً مستمراً حتى أواسط القرن . وأصبحوا يشجعونها منذ عام ١٦٨٩ ، بنظام حوافز يختلف فى علاقة مع الأسعار . وبعد عام ١٧٦٧ ، زادت الواردات على الصادرات : وكان هذا هو أحد مؤشرات أساسية تظهر الزيادة غير المتوقعة فى عدد السكان .

وفى تاريخ انجلترا كان هذا التزايد السريع للسكان حدثاً ليست له سابقة . فمنذ عام ١٧٠٠ حتى عام ١٧٦٠ ، زاد عدد السكان بنسبة ٢٣٪ ، وفيما بين عام ١٧٦٠ وعام ١٨٠٠ زاد بنسبة ٣٢٪ . وهذه الأرقام تسمح لنا بفهم أفضل لهذا التقدم الجديد — أو التقدم المقبل — لقوة الانجليز فى أثناء القرن التاسع عشر .

ولم تكن الزراعة مستعدة لإطعام أهالى يتزايدون بمثل هذه النسبة . وكان عليها أن تبذل مجهودات ضخمة حتى تصل إلى ذلك: وهذا يوصلنا للإهتمام الجديد الذى أخذه الرجال المفكرون بالنسبة للمسائل الزراعية . فمنذ نهاية القرن السابق كانوا قد أفادوا فى إنجلترا من ذلك المثال الذى قدمه الهولنديون ، كشعب من البحارة ، ولكن أيضاً كمزارعين دقيقين وصبورين . أما التجديدات التى تمثل أساس ما نسميه تقليدياً « بالثورة الزراعية » فى القرن الثامن عشر، فإن للزارعين

الانجليز كانوا قد أخذوا فكرته من المزارعين الهولنـديين . وكانت تتمثـل أولا وقبل أى شىء آخر فى بوار الأرض ، وهو الأمر الذى كان ينص عليه كل نظام زراعى ، سواء أكان لعامين أو لثلاثة أعوام لكل دورة . وحـل محـل ذلك أمر زراعة الأرض ، كل عامين أو ثلاثة أعوام بنباتات رعى الماشية — البرسيم وما شابهها — والذى كان أمر التوسع فيه يسمح بالاحتفاظ بقطعان أكثر عدداً ، ويسمح بالتالى بزيادة واضحة فى إنتاج اللحوم واللبن .

أما التغيرات التى مر بها فى نفس الفترة العمل الصناعى ، فإنهـا أعطت ضجـة أكبر فى تاريخ العالم عن تلك الضجة التى أحدثتها الزراعة . فعلى البحـار وكذلك على الأرض شهدت هذه الأنشطة التى نسميها الآن — ومع تغيير عميق فى المعنى — «بالصناعة» تجدداً عن طريق المخترعات التقنية، كانت أهمها تتمثل فى الآلة التجارية، التى أوصلت إسم جيمس وات إلى الشهرة. وكان هذا العامل فى الآلات، المتواضع، ومن أصل أسكتلندى ، سبباً فى تغيير عميق أصاب نظام العمل الانسانى، وبالتالى فى تغيير الانسانية إلى حد بعيد وترك عمله بصمات على التاريخ عاشت أكثر بكثير من بصمات نابليون ، والذى كان ولد بالتحديد فى عام ١٧٦٩ ، وهو نفس العام الذى أكمل فيه جيمس وات صنع آلته .

فإذا كانت الآلية المعاصرة، وبالتالى «الصناعة الكبرى» مستخرجة من إختراع وات ، فإن أحداً لا يقدر على رفض ذلك . ولكن ما هـو أقل تأكيـداً من ذلك هو أننا ندين لانجلترا بكل التقدم التقنى الذى ظهر على التوالى فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . ولقد أظهر أحد المؤرخين الأمريكيين أخـيراً أنه فى تلك الفترة كان التطور فى فرنسا يتوازى مع التطور فى إنجلترا ، وأنه من الواجب أن ننسب الدور الأول بالأفضلية للذكاء الفرنسى: وعلى وجه الخصوص بالنسبة لصناعة التعدين وحيث كان التقدم أكثر وضوحاً فى فرنسا مع إنشاء مركز هام فى كريزو.

ولنكتفى بتسجيل هذا التأكيد دون أن ندعى إيجاد حل لتلك المشكلة التى يثيرها، ودون أخذ موقف فى المناقشات التى نشأت بعد ذلك . وعلينا أن نذكر فقط أنه مادامت الأنشطة الصناعية لانجلترا قد تقدمت، فقد كان على الفرنسيين أن يواجهوا منافسة متزايدة : وظهرت النتائج الخاصة بذلك بنوع خاص فى الأقاليم المطلة على البحر ، والأكثر قرباً ، والتى كانت أكثر تهديداً بسبب إستعداداتها الخاصة للعمل فى المنسوجات ، مثل نورماندى .

٢ ـ صعوبات إنجلترا مع المعمرين فى أمريكا :

فى الماضى، كانت الحكومة الانجليزية تدفع بدون حساب لكى تحصل فى أوربا على صداقات كانت تكلفها الكثير : فكان الأمراء الألمان، إبتداء من أمير بروسيا ، يفيدون من ذلك . ثم جاء وصول ملك جديد إلى السلطة مع مجموعة وزارية جديدة لكى يزيد من الاهتمام بالمبادىء الاقتصادية. ولذلك فإن المشغوليات المالية السريعة ميزت السنوات التى جاءت بعد معاهدة باريس مباشرة. وأظهرت حكومة جورج الثالث رغبتها المؤكدة فى أن تشرك فى عملية دفع الديون ، التى تراكمت فى أثناء سنوات الحرب، هذه المستعمرات والتى كان مصيرها هو أحد موضوعات هذا الصراع . ونتجت عن ذلك أزمة فى العلاقات بين الوطن الأم وبين ملحقاتها فى أمريكا . وتطورت هذه الأزمة بعد فترة معينة إلى ثورة معلنة من جانب المعمرين . وستتسع فيما بعد إلى أبعاد صدام دولى ، خاصة وأن الفرنسيين ، كانوا قد أخذوا علانية جانب الثوار . وإبتداء من هذا الوقت، أى إبتداء من عام ١٧٧٨، يمكننا أن نعالج الموضوع .

ونمر سريعاً على البدايات . فلقد بدأ الصدام فى أول الأمر حول مبدأ طرق دفع الضرائب المطلوبة . وإستمر بشكل سلمى خلال سنوات : فناقشوا الحجج القانونية . وبعد ذلك تشبثت حكومة جورج الثالث ، فجاءت حوادث عنف

لكى تميز عام ١٧٧٣ فى أمريكا . وثارت النفوس شيئاً فشيئاً ، وتولى المتطرفون السيطرة على الموقف ، وبدأت العمليات العسكرية فى شهر أبريل ١٧٧٥ نتيجة لمواجهة حدثت بطريق الصدفة بين وحدة إنجليزية وبين رجال الميليشيا الذين سلحهم المعمرون (معركة ليكسنجتون) . وبعد قليل ، إختار مجلس مندوبى المستعمرات الثلاثة عشر، جورج واشنطون ، قائد ميليشيا فيرجينيا ، لممارسة القيادة العامة . ووقعت العمليات الهامة أمام بوسطن، التى إستمرت عملية حصارها إحدى عشر شهراً : وإضطرت الحامية الانجليزية إلى الانسحاب وإستقلت السفن فى شهر مارس ١٧٧٦ .

وكان عام ١٧٧٦ هذا حاسماً. ذلك أنه كان أول عام للاستقلال وكانت أصواتا متفرقة وحدها هى التى تحدثت، حتى ذلك الوقت، عن الإنفصال وكان الكونجرس قد أظهر ، فى مجموعة ، عداوة لفكرة القطعية مع لندن . ثم أصبحت هذه الحركة أكثر وأكثر ، وتحت تأثيرات مختلفة ، مثل تأثير رجال عنيدين بنوع خاص مثل صامويل آدمز، وبنوع خاص تحت تأثير أحداث الحرب، فكرة تصعب مقاومتها. وفى بداية الصيف ، نزل جيش بريطانى ، بقيادة الجنرال هاو ، إلى نيويورك . وكان يتألف فى غالبيته العظمى من المرتزقة ، وجاءوا كطريقة لتمويل حكومة لندن لبعض صغار الأمراء الألمان . ومن بين ما يقرب من ثلاثين ألف رجل ، كان هناك تقريباً ثمانية عشر ألف من إقليم هيس ، أرسلهم حاكم الاقليم . وسيعطى الأمريكيون اسم هيس لكل الألمان الذين يحاربون تحت العلم الانجليزى . وكان إستخدام الأجانب فى مثل هذا الصراع الذى وقع بين رعايا الملك جورج، يخدش الشعور الوطنى للمعمرين، ويسهل عملية إنتشار فكرة الاستقلال. وقادت فيرجينيا هذه الحركة ، بقطعها كل العلاقات التى كانت تربطها بحكومة لندن ، وبمنحها لنفسها دستوراً . ثم إقترح مندوبى فيرجينيا فى الكونجرس إصدار تصريح بالإستقلال ،

عهدوا بكتابته إلى جيفرسون ، أحد الأعضاء ، وتمت الموافقة عليه بالاجماع فى ٤ يوليو .

وفى أثناء هذا الوقت ، كان واد هدسون مسرحاً لعمليات تميزت فيها بنوع خاص معارك ترنتون وبرنستون . وتمكن جورج واشنطن فيها من أن يبنى سمعته كرجل حرب . وشهد له قاضى مميز ، وهو فريدريك الكبير ، حين تحدث عنه بإعجاب ، وعن مواهبه التى استخدمها فى أثناء هذه الحملة .

٣ — التعاطف الفرنسى مع الثوار :

منذ البداية ، أخذوا يتبعون فى فرنسا ، وباهتمام ، تطور أحداث الصدام . وكانوا متعاطفين مع الأمريكين ، أولا لكونهم قد وقفوا فى وجه الانجليز ، وبعد ذلك لأنهم قد أصبحوا المدافعين عن مبدأ مشترك بالنسبة لكل الشعوب ؛ وهو الصراع ضد القهر . وطبقاً لفرنسين من نهاية القرن الثامن عشر ، كان من من حق الثوار أن يلقوا تعاطفاً كبيراً فى صراعهم الذى قاموا به باسم الحرية . وعلى ضفاف نهر هدسون ، لم يكونوا مستعدين بلاستجابة لهذه الدفعة من العواطف . وكانت ذكريات حرب السنوات السبع لاتزال حية . وعلاوة على ذلك ، بدت فرنسا من بعد وعلى أنها أحدى البلاد « البابوية » ، أن لم تكن دولة الإلحاد ، وهما فكرتان غير وديتان . وكانت الصحف تصف وبسخرية تلك الصعوبات التى كانت الحكومة الملكية تصارع وسطها ، وترى فيها دلائل على الضياع الكبير ، والذى كان يبشر بنشوب الثورة . ومع ذلك فإن اللغة الفرنسية إستمرت فى التمتع بهيبتها التقليدية : فكانت المدارس والجامعات تترك قطاعاً عريضاً لتعليمها . وكانت مؤلفات العباقرة من الفرنسين ، وبخاصة الكلاسيكيين ، وحتى الملاسفة ، لها جمهور عريض .

وفى الوقت الذى تحولت فيه الأزمة إلى صدام مسلح ، كان عهد لوى السادس

عشر قد بدأ . وكانت الوزارة الأولى برئاسة موروباس Maurepas ، والتى كان المسئول فيها عن الشؤن الخارجية هو فيرجين Vergennes قد فكرت بسرعة فى عملية تدخل ممكنه وكان عداء تيرجو Turgot المشرف العام على المالية ، وعملياً وزير الشؤن الاقتصادية،قد نتج عنه إتخاذ موقف للانتظار الطويل . ولكن هذا لم يمنع فيرجن من أن يذكر للامريكين أنه يمكنهم أن يعتمدوا على معونة فرنسا حين يتم إنفصالهم عن انجلترا . وتكن هذه المقترحات الفرنسية غريبة عن ذلك التقدم الذى تم فى أوساط الكونجرس بالنسبه لفكرة الاستقلال . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن حسن النية الفرنسية قد وضح،وبأكثر من وجهة نظر لوزير ، عن طريق تلك المعونه الفعالية التى قدمها أحد الرجال الذين كانوا بلامسؤلية ؟ رسمية ، والكاتب بومارشيه Baumarchais ، مدفوعاً فى ذلك بحماسة من أجل قضية الحرية . ففى بداية عام ١٧٧٦ ، ورداً على بعثة لأحد الممثلين غير الرسميين للوزير ، جاء أول مندوب للكونجرس الأمريكى ، وهو سيلاس دين Silas Deane ، ذلك التاجر الثرى من كونكتيكت ، لقضاء بضعة أشهر فى باريس ، من أجل أن يحصل على معلومات دقيقة شأن المعونة التى يمكن للحكومة الفرنسية أن تقدمها . وعندئذ إضطر فيرجين ، ولم يكن فى وضع يسمح له بأن يعد بأى شىء ، إلى أن يرسله إلى بومارشين ، والذى كانت عروض خدماته قد أثارت إنتباهه . وقام بومارشيه ،بالاتفاق مع دين،بانشاء شركة تجارة كانت ، وتحت أسم التعامل مع جزر بورمودا ، ستبيع إلى الأمريكيين الأسلحة ، والذخائر ، ومعدات المعسكرات .

وفى اليو التالى لاعلان الاستقلال وصل سفير جديد ، من طرف الكونجرس ، إلى باريس،فى مهمة رسمية هذه المرة.وكان بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin، وهو هذه الشخصية المعروفة فى العالمين لجديد والقديم ، والصحفى القديم ، الذى

عمل فى العلوم وإكتشف مانعة الصواعق . ومنذ بداية الصعوبات مع إنجلترا ، إستخدم مواهبه الدبلوماسية فى مهمات عديدة فى لندن وفى باريس ، وحيث تم الإعتراف به كمفكر متزن ، ومفاوض لبق ومنذ وصوله إلى باريس ، ضمته العواطف الغريزية التى أحاطت به ، وشعبيته لبساطته الشديدة، وبنوع خاص لعدم تقديره « للباروكة » التى كان الرجال ذوى المراكز يضعونها على رؤوسهم . ولمدة أشهر ، كان وجوده يمثل إهتماماً حقيقياً لسكان المدينه ، وبالنسبة لرجال البلاط . وذهب لمقابلته الكثيرون من الضباط ، الذين كانوا يرغبون فى العمل فى الناحية الأخرى من المحيط . وكان يعرف نوعيتهم : فكان الجميع يرغبون فى الحصول على رتبة جنرال دفعة واحدة . ولذلك فانه عمل على تثبيط هممهم ، كما كان سيلاس دين قد فعل من قبل . ولكن هناك واحداً من بينهم ، وجد من الحكمة أن يحسن استقباله بسبب إسمه ومركزه الاجتماعى ، وهو ماركيز دى لافايت de La Fayette الشاب ، والذى كان ملازماً ثان ، وله من العمر عشرين عاماً ، وكان فى نفس الوقت زوجاً لإبنة ماركيز دى نواى ، وكان إبناً لأخ سفير ملك فرنسا فى لندن . ورغم أن الأمريكين وافقوا على ذلك ، فلقد إضطر لافايت إلى أن يسافر من فرنسا سراً ، خاصة وأن أوامر الملك كانت تمنع سفر رعاياه الفرنسيين القادرية على الحرب من الذهاب إلى العالم الجديد . وفى فيلادلفيا ، ضد الكونجرس على وعود فرانكلين ، وذلك فى الوقت الذى أجبروا فيه زميلين من زملاء لافايت ، واللذين كانا مصاحبين له ، على أن يعودا إلى بلدهما وحين وصل جورج واشنطن ، سرعان ماصادقه ، وألحقه ضمن قيادته ،وقام بمعالجته كما لو كان إبناً له حين أصيب بأول جرح وسوف يرتبط الرجلان بمشاعر ود متبادلة، طوال حياتهما . وحصل لافايت منذ نهاية عام ١٧٧٧ على قيادة إحدى الفرق .

وزاد سرور الرأى العام الفرنسى من ذلك الاحتفال الذى إحتفظوا به للافايت ، والذى سرعان فاظهرت كفاءاته . ووجد فيرجن فى ذلك تشجيعاً للمضى فى مشروعة الخاص بالتدخل المسلح.ولكنه كان مضطراً من أجل الوصول إلى ذلك ، إلى إقناع موورباس ، رئيس الوزراء ، وحتى الملك نفسه . وكان فى حاجة إلى أن يأتى أحد إنتصارات الثوار لكى يظهر أنهم قادرون على الاستمرار فى الحرب حتى النهاية . وجاء ذلك الإنتصار الباهر الذى حصلوا عليه فى ساراجوتا ، فى ١٧ أكتوبر ١٧٧٧ ، فى وقت مختار لكى يخرجه من هذه الأزمة .

وكان الانطباع الناتج عن ذلك كبير التأثير، خاصه وأن الحملة قد بدأت بداية سيئة . فكان الجنرال هاو الانجليزى قد نقل قواته من مصب نهر هدسون إلى مصب نهر ديلاور ، هادفاً بذلك فيلادلفيا ، وهى المدينة التى يوجد بها مقر الكونجرس ، وإستولى عليها فى شهر سبتمبر . وفى أثناء ذلك الوقت ، وصل طابور إنجليزى آخر ، من كندا، عن طريق بحيرة شامبلان،ونزل وادى هدسن : وكان قائده الجنرال بورجيون Borgoyne يواجه صعوبات ضخمة بالنسبة للتموين ، كما إن إتصالاته مع هاو كانت رديئة . وحين إصطدم بالجيش الذى كان عليه أن يسد أمامه الطريق، كانت قواته فى غاية التعب،وبعد معارك دموية ، إضطرت إلى أن تنسحب إلى موقع ساراتوجا وعندئذ ، تمكن العدو من أن يقطع عليهم خط الرجعه ، ومن أن يجبرهم على تسليم السلاح . فتم أسر سبعة آلاف جندى . وفى هذا الوقت تصور الثوار بسهولة أنهم قد إنتهوا من الانجليز . ودون أن ينتظروا أكثر من ذلك ، عاد الآلاف من رجال الميليشيا إلى قراهم ومزارعهم .

وفى فرنسا كان تأثير هذا الحدث من الضخامة ، وبشكل شجع فرجين على

أن يدافع صراحة عن قضية الثوار ، وعلى أن يحمل المجلس يوافق على فكرة التدخل . وبدأت المفاوضات مباشرة مع فرانكلين . وسوف تنتهى ، فى شهر فبراير التالى ، بعقد معاهدة تحالف ، سياسى وعسكرى ، ومعها إتفاقية تجارية . ودون أن يكون هناك إعلان للحرب ، تبدأ العمليات العسكرية على البحر فى شهر يونيو . وكان الانجليز هم الذين بدأوا بها .

وكان الشتاء شديد القسوة على الجزء الرئيسى من جيش واشنطن، والذى كان قد إضطر ، بعد طرده من فيلادلفيا ، إلى إن يلتجىء إلى أحد الوديان القريبة . وكانت البلاد شبه مهجورة ، وكانت قد قاست الكثير. وكسبت هذه القوات هناك أمر التعود على التعب وعلى الحرمان .وكان الاقليم محروماً من كل شيء . وفى أثناء الحملة التالية ستظهر قوات واشنطون جدارتها . وفى بداية عام ١٧٧٨ ،سيضطر الانجليز ، وبأمر عال ، إلى إخلاء فيلادلفيا . ولم تكن لهم سوى مواجهة قصيرة واحدة مع الثوار قبل أن يصلوا إلى نيويورك، بطريق البر فى هذه المرة. وسوف يبقى الجيشان هناك ، وكل منهما يراقب الآخر ، أحدهما فى المدينة ، والثانى قريباً منه ، ولمدة ثلاث سنوات كاملة .

٤ ـ التدخل وحرية البحار :

منذ الوقت الذى دخلت فيه فرنسا الحرب ، أصبحت الجولة تلعب على البحر بشكل أساسى وفى العام الأول لم يكن للتحالف الفرنسى أى تأثير سوى وضع البحريه الانجليزية فى مواجهة صعوبات ، وزيادة إرسال الأموال ، والمهمات الحربية والذخائر. وكانت الحكومة الفرنسية ترغب،قبل أن تشترك بدرجة أكبر ، فى أن تتأكد من أنها ستحصل ، وكما حدث فى أثناء الحرب السابقة مع انجلترا ، على معونة إسبانيا . ولكن المفاوضات ستكون طويلة .

وكانت أسباب سوء نية الأسبانيين تجاه إنجلترا لاتزال هى نفسها التى كانت

موجودة فى الماضى : فكان الاسبانيون لايتمكنون من جعلهم يحترمون ذلك الإحتكار الذى كانوا لايزالون يطالبون به من أجل المبادلات مع الأراضى التابعة لهم فيما وراء البحار . وكان المتنافسون يتحاشون عمليات المنع التقليدية ، وليس فقط عن طريق التهريب ، والتى كانت جزر الأنتيل تستخدم كقواعد له ، ولكن أيضا نتيجة لتوسط بعض التجار الأسبانيين فى الوطن الأم نفسه. ومنذ عام ١٧٧٨ ، كان إمتياز قادز قد إنتهى بالفعل ، وألغى ، وأصبح من حق كل موانى شبه الجزيرة — ما يقرب من إثنى عشر ميناء — أن يتعاملوا مع العالم الجديد . وجاءت إصلاحات أخرى لكى تشهد برغبة حكومة شارل الثالث فى إعادة الحياة إلى نظام إقتصادى مهلهل. وأفادت الصناعة من ذلك كما أفادت التجارة وجاءت آمال ضخمة مصطحبة المجهودات التى بذلها الكونت آراندا ، الذى كان من تلاميذ الفلاسفة ، ورئيس الحكومة من عام ١٧٦٥ حتى عام ١٧٧٣ .

ولم تظهر حكومة مدريد، والتى كانت تعلم جيداً بالقيمة التى كان فرجين يعلقها على أمر الحصول على معونتها، أى دلالة على الرغبة فى الإسراع والوصول إلى هذا الهدف : فكانت تعتقد أنه فى وسعها ، وفى نفس الوقت ، أن تستعيد جبل طارق ومنيورقة ، وأن تحصل فى أمريكا على الاشراف على الملاحة فى نهر المسيسيبى ، والتى كانت مصباته قد أصبحت إسبانية فى عام ١٧٦٣ . وإستمرت المساومات بعد ذلك لشهور طويلة ، حتى إنتهت بإتفاقية آرانجوريز ، التى تم التوقيع عليها فى ١٢ أبريل ١٧٧٩ وكما لو كان الفرنسيون يتنبأون بأنهم لن يوافوا بوعودهم ، فإنهم (الفرنسيون) قد إنتهوا بقبول تقريباً كل ماكان قد طلب منهم . وتم الاحتفاظ ببنود المعاهدة سرية: الأمر الذى سمح للامريكين بالدخول فى مفاوضات مع مدريد ، بأمل الحصول على المال. ولكنها كانت مفاوضات فى طريق مسدود . فكانت إسبانيا، وكدولة إستعمارية قديمة، لاتأمل فى أن ينتصر المعمرون فى ثورتهم ضد الوطن الأم .

وكما حدث دائما فى مثل هذه الحالة ، فكر الفرنسيون ، ومنذ أن حصلوا على تأكيد بالمعونة الاسبانية ، فى أمر الاعداد لعملية نزول فى إنجلترا : فاعتقدوا فى فرساى فى أن أفضل وسيلة لضمان الاستقلال الأمريكى هى فى حزب قوة الانجليز فى القلب . وحرص لافايت على ألا تفوته مثل هذه الفرصة، فطلب إلى الكونجرس أن يسمح له بالبقاء فى فرنسا من أجل أن يحصل على إحدى القيادات فى هذه العملية ، فتم ضمه إلى أركان حرب الماريشال دىفو de Vaux ، الذى ستكون له مسؤلية العملية. ولكن الخطة المشتركة التى وضعت لصيف عام ١٧٧٩ لم تشهد أية بداية للتنفيذ ووصلت القوات الاسبانية إلى مكان الإلتقاء بعد الموعد المحدد بكثير . ثم جاءت الرياح المعاكسة لكى تؤجل الإقلاع. وجاءت بعد ذلك سوء الاحوال الجوية فى الخريف ، فإستقر الرأى فى النهاية على التخلى عن فكرة عبور المانش .

وفى أثناء هذا الوقت، ظلت العمليات راكدة فى أمريكا . ولم يكن أى من الخصمين متأكداً من تفوقه بشكل يسمح له بالهجوم . فاكتفى الانجليز بأمر إثارة القبائل الهندية فى الداخل ضد عدوهم ، ونتجت على ذلك مذابح ، وخاصه فى بنسلفانيا ، فى وادى وومنج . وفى عام ١٧٧٩ قاموا بمحاولة لنقل الحرب إلى ولايات الجنوب . وإعتقدوا فى أنه يمكنهم هناك أن يأخذوا رهائن تسمح لهم بالدخول إلى مفاوضات الصلح فى ظروف أفضل. فأنزلوا قوات فى سافانا ، وإحتلوا شيئاً فشيئاً الجزء الاكبر من جورجيا، وقاموا من هناك بهجمات الفرسان عبر كارولينا . وعلى البحر ، جاء أسطول فرنسى ، بقيادة ديستان d'Estaing ، لكى يرسو فى جزر الأنتيل ، وحيث تمكن من أن يحتل تباجو، وسان فانسين ، وجرانادا ، وهدد وسائل النقل الانجليزية على سواحل العالم الجديد . وحاول ، بمساعده فرقة صغيرة من الجنود ، ولكن بلا نجاح ، أن يستولى على موقع نيوبورت (جزيرة رود أيلند) .

وشهد عام ١٧٨٠ نـزول القوات الفـرنسية على الأرض الأمريكيـة . وكان عددها ٧,٥٠٠ رجل ، يكونون قوات حملة ، عهدوا بقيادتهـا ، لا للافايت ، والذى كان لا يزال صغير السن من أجل تولى مثل هذه القيـادة ، ولكن إلى الكونت روشامبو Rochambeau ، والذى كان من قادة حرب السنوات السبع . وسنجد أنهم سوف يقضون كل عامهم الأول، فى نيوبورت ، وهو الميناء الذى كانوا قد نزلوا فيه ، وليست لهم مشغولية سوى ضمان حماية الأسطول الذى كان قد حضر معهم ، والذى أصبح فى ذلك الوقت محاصراً . وفى أثناء ذلك الوقت ، عرف الأمريكيون أوقاتاً صعبة . فعلاوة على الصعوبات المادية ، والذى كان من الضرورى عليهم أن يصارعوا ضدها وبلا توقف ، أضيف إختبار أخـلاقى ، يتمثل فى خيانة قائد من أحسن قادتهم ، وهو الجنرال بندكت آرنولد Benedict Arnold الذى دفعه حبه للمال والحياة السهلة إلى أن يبيع نفسه للإنجليز ، والذى مر إلى معسكرهم فى نفس اليوم الذى إكتشفت فيه مؤامرته صدفة . وفى الجنوب، تتالت الهزائم : ففى شهر مايو ، فقدوا ميناء شارلستون مع السبعة آلاف رجل الذين كانوا يدافعون عنه . وفى شهر أغسطس، وبعد معركة كامدن ، أتم الإنجليز غزو كارولينا الشمالية والجنوبية . ولم يتمكنوا من وقف زحف العدو إلا عنـد نهاية الحملة فقط .

وفى الميدان المالى،لم تكن الإمكانيات أكثر إزدهاراً عنها فى الميدان العسكرى. وكانت الأسلحة والذخائر ، والتى كانوا يحضرونها بكميات متزايدة من إقلـيم لبيج ، غالية الثمن . وفى الكونجرس ، أشار بعض الرجال من ذوى المسئولية إلى إمكانية ، وحتى ترجيح ، وقوع إفلاس . وبدأت المفاوضات وإستمرت مع إسبانيا ، والتى كانت دائماً متمنعة ، لكى يحصلوا منها على الأموال على الأقل ؛ شيئاً من هذه الأموال التى لم تكف منذ ما يزيد على القرنين عن السريان إلى

خزائنها . ولكن حكومة مدريد إستمرت فى إظهار عدم رغبتها فى التسرع . وكانت إسبانيا كذلك ، تعرف صعوبات مالية . وكانت الروح المعنوية للأمة قد تأثرت إلى حد كبير بفشل المحاولات التى كانوا قد قاموا بها ضد جبل طارق : فكان الأميرال البريطانى الذى أرسلوه لنجدة هذا الموقع قد دخل إليه دون صعوبة كبيرة ، بعد أن هزم الجزء الأكبر من الأسطول الإسبانى فى خليج قاديز .

وفى وقت وقوع هذه الأحداث فى أمريكا ، حدث لها ، فى هذا العام ، ردود فعل هامة فى شمال أوربا . فكان الإنجليز قد تخلوا عن التقاليد العامة المعروفة والمتعلقة بحقوق المحايدين ، وإدعوا توسيع معنى المهربات الحربية ، ومدوه ، كإجراء دفاعى ، على كل المواد المستخدمة فى إنشاء السفن ، وحتى إلى الحبوب . ولما كانوا هم بالفعل سادة البحار ، أصبحت حقوق الزيارة والاستيلاء التى مارسوها فى هذه الظروف الجديدة ، وبسرعة ، غير محتملة . وبالغريسزة ، إتجهت الأمم المتاجرة صوب فرنسا ،وحيث كان فيرجن قد أكد ، منذ البداية، إحترامه للتقاليد ، ومحافظته بكل قوة على مبدأ حرية البحار ، وإقترح حتى على عواصم الشمال ، منذ شهر يناير ١٧٧٨ الإنضمام إلى تصريح مشترك يتعلق بحقوق المحايدين . ولكن الخوف من القوة البحرية لإنجلترا كان من العنف حتى أن الدول التى تم الإتصال بها — هولندا ، والدانمرك ، والسويد — إعتذرت فى بداية الأمر . وكانوا قد إتصلوا بحكومة روسيا بحذر خاص ، وذلك بسبب علاقاتها مع لندن . ولم توافق على المناقشة إلا بعد صلح تيشن ، فى عام ١٧٧٩ . وإبتداء من ذلك الوقت ، جاءت المبادرات من بطرسبرج ، عرض للوساطة من جانب القيصرة ، تجدد عدة مرات ، بعد رفضه من جانب لندن . وجاءت أعمال العنف التى مارسها الإسبانيون ، بعد دخولهم الحرب ، ضد السفن الروسية المحملة بالحبوب والتى كانت تسهر قرب بلادهم ، لكي تلعب دوراً حاسماً . وصدر

تصريح روسى ، فى ٢٧ فبراير ١٧٨٠ ، وعلى أساس أن توقع عليه الأمم المتاجرة ولكنه خنق فى كوبنهاجن بعد ذلك فى ٩ يوليو ، وخرج فى شكل المبادىء التى كان فيرجن قد تقدم بها من قبل . وتمت الموافقة عليه ، على التوالى ، من جميع العواصم الشمالية ، ثم من جانب باريس ، وبرلين ، ومدريد ، ونابولى . وسينتهى الأمر بالبرتغال ، والتى كانت مرتبطة بروابط وثيقة مع إنجلترا ، باعطـاء موافقتها كذلك ، فى آخر وقت ، فى شهر يونيو ١٧٨٣ . ومن هذه المفاوضات الصعبة ، التى تمت فى أثناء السنوات العصيبة لحرب أمريكا ، خرج إذن ما سوف يسميه المؤرخون،فيما بعد ، مستخدمين فى ذلك تعبيراً إستخدمته القيصرة «رابطة الحياد المسلح» .

أما الإنجليز ، والذين أصيبوا بشدة بهذا الإجماع من جانب الدول المحايدة فى حكمها على ممارساتهم ، فإنهم إتجهوا إلى الهولنديين وحدهم : فأعلنوا عليهم الحرب فى شهر ديسمبر ١٧٨٠ . وهكذا سيتمكنون من الاستمرار فى إساءة التعامل مع سفنهم .

٥ — الحرب وإتساع مداها :

تميزت الفترة التى تلت عام ١٧٨٠ بوقوع أحداث هامة فى صالح الثوار . ففى ربيع عام ١٧٨١ ، إصطدم الإنجليز بقيادة الجنرال كورنواليس Cornwallis ، فى ذهابهم من كارولينا الشمالية لغزو فيرجينيا ، بقوات لافايت ، الذى كان قد أخذ من جديد قيادة فرقة ، ونازعهم فى أمر التركز ، ثم تتبعهم خطوة بخطوة ، حتى تمكنوا من تنظيم قاعدة قوية للعمليات على الساحل ، فى يوركتاون ، فعسكر على مقربة منهم . وفى ذلك الوقت ، قرر الأسطول البريطانى الذى كان يحاصر الفرنسيين فى نيوبورت أن يتخلى عن الحراسة . ولذلك فإنه أصبح فى وسع روشامبو وجيشه أن يتحركا ، وتم وضع خطة جديدة ، بالاتفاق مع جورج

واشنطون ومع الأميرال دى جراس de Grasse ، الذى كان يقود أسطـــول الأنتيل ، من أجل القيام بهجوم مشترك على قوات كورنواليس . وقام الجيش الفرنسى الصغير بالالتفاف حول نيويورك ، وقام بعملية زحف لمسافة ثمانمائة كيلو متر حتى وصل أمام يوركتاون ، وذلك فى الوقت الذى قامت فيه قوة فرنسية أخرى — تقرب من أربعة آلاف رجل — والتى كان أسطول دى جراس قد نقلها ، بالانضمام إلى فرقة لافايت . واضطر كورنواليس ، الذى أصبح محاصراً من البحر ومن البر ، وهاجمته قوات يزيدها مرتين على عدد قواته ، إلى أن يسلم بعد ثلاثة أسابيع ، وبعد أربعة أعوام تماماً ، ويوماً بيوم ، من سراتوجا (١٧ أكتوبر ١٧٨١) وتسببت هذه الواقعة فى حزن عميق فى لندن . ورغم أن نيويورك كانت دائما محتلة بشكل ثابت ، إلا أنه كان هناك إنطباع بأن الموقف لن ينصلح،وأن الصلح لن يتأخر كثيراً عن أن يفرض نفسه . ومنذ نهاية السنة ، رأى روشامبو أن مهمته قد إنتهت ، فركب السفن ، ومعه جيشه .

وهكذا نجد أن قوة إنجلترا قد أصيبت إصابة خطيرة فى أمريكا ، وحيث نجح الاسبانيون ، علاوة على ذلك ، فى أن يستولوا على فلوريدا . وفى الهند ، أخذت تدافع عن نفسها بكل صعوبة ، لأنها لم تكن قادرة على إرسال القوات اللازمة إلى هناك . ومع ذلك ، فإنها سوف تنجح فى الاحتفاظ بكل مواقعها .

وفى الوقت الذى كانت قد بدأت فيه الصعوبات فى أمريكا أصبحت إدارة شركة الهند معرضة لانتقادات حادة ومتزايدة . ووضع لها نظام جديد عن طريق قانون التنظيمات Regulating Act لعام ١٧٧٣ . وعهدوا بسلطات الادارة الرئيسية إلى حاكم البنغال ، الذى رقى إلى وظيفة حاكم عام ، وأصبح يعاونه مجلس يتشكل من أربعة أعضاء ، يتم تعيينهم عن طريق لندن . وكان أول من شغل هذا المنصب هو وارين هاستنجس Warren Hastings ، والذى سوف يظل فيه حتى

عام ١٧٨٥ . وكان عليه أن يتعامل فى نفس الوقت مع كل الخصوم الأوربيين ، والذين كان الوكلاء الفرنسيون يثيرونهم ضد الخصم الإنجليزى . وكان المهراتا ، كحالهم دائماً ، هم أشد الخصوم خطورة . وحاول أكثر من أمير من الدكن أن يمد لهم يد العون . وفى أقصى الجنوب ، فى ميسور ، وتحت قيادة السلطان حيدر على النشط ، بدأ دور هام لمقاومة توغل الأوربيين .

وتدعمت حركات الأعداء فى الداخل ، فى عام ١٧٨٢ ، بواسطة أسطول فرنسى بقيادة دى سوفرن de Suffren . وإنتهت المعارك المختلفة التى وقعت مع الانجليز فى صالحهم . وإحتاج الأمر إلى كل نشاط هاستنجس من أجل إصلاح حالة كادت أن تكون بلا أمل : فنقضت معاهدة كان تجار بمباى قد عقدوها بدون تصريح منه ، كما أن حاكم مادراس الذى تحدث عن التسليم فإنه تم عزله . وأخيراً ، تمكن الانجليز من أن يأخذوا من خصومهم مراكز تجارية عديدة : من الفرنسيين بوندشيرى وماهى ؛ ومن الهولنديين نيجاباتام . أما القوات الفرنسية التى نزلت فى وقت متأخر مع بوسى Bussy فإنها حوصرت فى موقع جوندلور ؛ ولم تتمكن من أن تركب سفنها إلا بمساعدة سفن سوفرن .

وفى البحر المتوسط إستمرت العمليات الحربية أمام جبل طارق . وكانت إسبانيا قد حصلت ، منذ عام ١٧٧٩ ، على المساعدة العسكرية من جانب حلفائها: فتم تدعيم الـ ٢٥٫٠٠٠ رجل الذين يكونون جيش الحصار بـ ١٥٫٠٠٠ جندى فرنسى . ولكن الحصار لم يكن دقيقاً من ناحية البحر ، ونجحت قوافل تموين فى العبور من وقت لآخر . ولذلك ، فإنهم مالوا فى مدريد ناحية فقدان الأمل . وأظهر الأميرال ديستان d' Estaing ، الذى أرسلته الحكومة الفرنسية فى مهمة لدراسة الموقف ، أنه كان غير متفائل . ونصح بأن يحاولوا بدلا من ذلك شيئا ما ضد مينورقة ، التى ربما يمكنها أن تنفع فى عملية مبادلة . وبناء على هذا

الرأى ، قررت الحكومة الإسبانية القيام بعملية فى البليار .

ولذلك فإن أسطول قاديز أقلع فى شهر يوليو ١٧٨١ إلى مينورقة . وكان على إحدى الوحدات الفرنسية أن تشترك فى عملية حصار بورت ماهون ، وسلمت قيادة الحملة إلى أحد الفرنسيين ، وهو دوق كريون Crillon . وتم الإستيلاء على حصين سان فيليب ، الذى يتحكم فى مدخل الميناء ، بعد حصار دام سبعة أشهر . وولد هذا الإنتصار ، عند الإسبانيين ، الأمل من جديد فى أن ينتصروا عند جبل طارق . فكلفوا كريون ، قاهر مينورقة ، بأن يقود عملية جديدة ، بمساعـــدة سلاح جديد ، كان نوعاً من «البطاريات العائمة» ، والتى كانوا شديدى الإعجاب بها . ولكن هجوم ١٢ سبتمبر ، ورغم الوسائل المادية القوية التى كـدسوهـا ، كان فشلا جديداً :

وجاء نجاح بحرى واضح ، فى بحر الانتيل ، وحيث تمكن رودنى Rodeny من هزيمة دى جراس ، ومن أسرة (أبريل ١٧٨٢) ، لكى يساعد الإنجليز على أن يفكروا بهدوء أكثر فى أمر عقد صلح يضمن الاستقلال للأمريكيين . وبدأت المفاوضات بعد ذلك بقليل .

٦ ـ الصلح ومعاهدة فرساى :

كان من الممكن أن تنتهى المفاوضات سريعاً ، إذا لم يكن هناك الإسبانيين ، الذين كانوا متمسكين بالمطالبة بجبل طارق ـــ والذى لم ينجحوا فى الاستيلاء عليه ـــ وكذلك بجمايكا ، والتى لم يعرفوا كذلك كيف يخرجون الخصم منها . أما فرنسا ، والتى كانت مرتبطة بالمعاهدات التى كانت قد وقعت عليها ، فإنها أيدت بطبيعة الحال مطالب إسبانيا . ولكن الامريكيين ، أنفسهم ، أظهروا نوعـاً من الرغبة فى السرعة فى عقد الصلح، منذ الوقت الذى قبلت فيه لندن مطالبهم الرئيسية، بشأن الاعتراف الرسمى بالإستقلال . ورغم التعهـدات المأخوذة تجـاه فرنسا ،

وافق مندوبهم جون آدم على عدم الإلتفاف لذلك : ووضعوا فى شهر نوفمبر توقيعهم على معاهدة منفصلة مع لندن .

أما الإحتجاجات التى رأى فيرجن أن عليه أن يرفعها بعد ذلك مباشرة ، فإنها ظلت بلا نتائج . وعرف فرانكلين كيف يدافع عن قضية أبناء وطنه أمام الوزير ، وتمت الموافقة على منحهم قرض جديد بعد ذلك مباشرة . ولم يبق سوى إقناع إسبانيا بالاعتدال فى مطالبها . وإتفقت حكومة لوى السادس عشر مع حكومة شارل الثالث على نص معاهدة مبدئية فى شهر يناير ١٧٨٣ . أما العقد النهائى ، وهو معاهدة فرساى ، فقد تم التوقيع عليه يوم ٣ سبتمبر التالى من جانب كل الدول المتحاربة .

وإعترفت إنجلترا بالمستعمرات الثلاثة عشر فى أمريكا على أنها دول حرة ، مستقلة وذات سيادة ، وتنازلت لها عن كل الأراضى الواقعة إلى الجنوب من كندا . وفيما عدا منطقة مين ، فإن الحدود سوف تكون ، فى مجموعها ، هى تلك التى تفصل حتى اليوم بين البلدين . ورغم إصرار المفاوضين الانجليز ، فلم تكتب أية ضمانة فى المعاهدة فى صالح أولئك المعمرين الذين كانوا قد ظلوا مخلصين للتاج : فإكتفوا بالوعد الذى أعطاه الكونجرس بأنهم سوف يعاملون بعدالة وبكرم . أما فرنسا ، فإنها خرجت وأيديها خاوية تقريباً ، رغم كل الخدمات التى كانت قد قدمتها للقضية الأمريكية . حقيقة أنه لم يكن عليها أن تتجه إليهم ، كدينين ، بل لانجلترا . ولذلك فإنها حررت نفسها من فقرات معاهدة أوترخت ، التى كانت تحد من سيادتها على دنكرك (منع تحصين المدينة، والالتزام بتحمل الوجود الدائم لمندوب إنجليزى) . ومن ناحية أخرى أعيدت إليها المراكز التجارية فى السنغال ، والتى كانت قد أجبرت على التنازل عنها فى عام ١٧٦٩ ، وكذلك المراكز التجارية التى كانت قد إحتفظت بها فى الهند فى عام ١٧٦٣ . ويمكننا أن نضيف

إلى ذلك أيضا أمر التنازل عن جزيرة تاباجو ، الصغيرة للغاية فى بحر الأنتيل .
أما إسبانيا ، التى لم تقم تقريباً بأى شىء ، فإن معاملتها كانت أفضل : فعادت إليها ملكية جزيرة مينورقة ، والتى كانت قد فقدتها فى أثناء الحرب ، وفلوريدا ، التى كانت قد تخلت عنها فى عام ١٧٦٣ . وفى نفس الوقت ، وطبقاً للمعاهدات السابقة ، كان على لويزيانا ، من حيث المبدأ ، أن تعود إلى فرنسا .

وهذه الأزمة الكبيرة الأخيرة فى العلاقات الفرنسية الانجليزية فى القرن الثامن عشر تتضمن خاتمة غير متوقعة إلى حد كبير ، من الوهلة الأولى ، وهى أمر عقد معاهدة تجارية بين الدولتين . وعلينا أن نتذكر هنا أن المفاوضات التى كانت قد بدأت فى هذا الشأن فى عام ١٧١٥ لم تصل إلى نتيجة ، أى أنهم كانوا قد ظلوا إذن مع ممارسات عصر لوى الرابع عشر . وكان الأمر يتعلق بضرورة الخروج من وضعية غير طبيعية . وكان الرجلان السياسيان اللذين سوف يعملان من أجلها ، وهما فيرجن من ناحية ، وبيت Pitt ، بيت الكبير ، من الناحية الأخرى ، متشبعان بالرغبة فى جعل بلديهما تقترب الواحدة من الأخرى ، بطريقة يمكنها أن تعيش ، وذلك عن طريق دفعها إلى الاتفاق على المشكلات التى يمكن التغلب عليها بسهولة نسبية عن تلك التى كانت تعتمد على إعتبارات الكرامة الوطنية .

وكان فيرجن هو الذى أخذ الدافع الأول . وكان فى حاجة إلى كثير من العناد حتى يتغلب على ترددات بيت . وكان بيت مكتوف الأيدى بالمعارضة الموجودة فى البرلمان . ولقد أشار خصمه الرئيس فوكس Fox ، فى أحد الأيام ، ومن أعلى منصة المجلس ، إلى الصفة الدائمة والتى لا يمكن تحاشيها ، لتلك العداوة السياسية بين البلدين . ورد عليه بيت : «إن تفكيرى يرفض هذا التأكيد كما يرفض أى شىء فظيع . أنه من الضعف والطفولة أن نفترض أنه يمكن لأمة أن تكون دائماً عدوة لأمة أخرى» . وكان فيرجن ، من ناحيته ، لا يجد من يتبعه إلا بكل

صعوبة ، فى الأوساط الحاكمة فى فرنسا ، خاصة وأن الموانع المعادية للبريطانيين ـ ورغم الرغبة السائدة فى التقرب من إنجلترا ـ كان يشترك فيها السفير الموجود فى لندن . ولم تتقدم المفاوضات إلا حينما قرر بيت إرسال أحد المندوبين الخاصين إلى باريس . وكان هو ويليام إيدن William Eden ، وهو لورد أوكلاند Aukland فيما بعد .

وتم التوقيع على العقد فى ٢٦ سبتمبر ١٧٨٦ . وكانت خصائصه الرئيسية تتمثل فى أن يخفضوا ، من هذا الجانب ومن الجانب الآخر ، الحواجز الجمركية. وبعد بضع سنوات من ذلك ، سوف تقوم كراسات مطالب مجلس طبقات الأمة بإتهامها ، وعلى أنها قد أدت إلى خراب الصناعة الفرنسية ، وبخاصة صناعة المنسوجات ، والتى كانت تمر بأزمة فى ذلك الوقت . وهذه الحاكمة ، والتى كانت تستوحى من الاتجاهات السياسية فى ذلك الوقت ، لا تبدو على أنها تقف على أسس أبداً . فلا شك فى أن الصناعة البريطانية ، والتى كانت فى عز إزدهارها ، قد وجدت فيها بعض التسهيلات الجديدة لكى تنتشر منتجاتها على السوق الفرنسى . ولكننا نجد ، من الناحية الأخرى ، وفى نظير ذلك ، أن إنجلترا قد إنفتحت بدرجة أكبر فى وجه إستيراد المواد الغذائية الفرنسية : وهذه النتائج لاتفاقية عام ١٧٨٦ ، كان الوزراء المسئولون قد تنبئوا بها سلفاً . وإذا كانت بعض قطاعات الفرنسيين قد رأت أنها لم تكن فى صالحهم ، فإن ذلك لا يسمح لنا بأن نستخرج من ذلك نتائج عامة . وفى إنجلترا كذلك ، قام المعارضون بفضح بعض مثالب المعاهدة ، حين وجدوا الفرصة لذلك . وكما يحدث دائماً فى مثل هذه الحالات ، كانت بعض المصالح ، هنا أو هناك ، تضار . ولكن الظروف سمحت للشكاوى الفرنسية فقط بأن يكون لها صدى طويل الأمد .

وبعد ذلك ، علينا أن نعترف بأن هذا العقد ، الذى يمثل الحكمة السياسية

والاقتصادية ، كانت له بالنسبة الفرنسيين نتائج أقل سعادة من تلك التى كانت لجيرانهم .

فكانوا قد بذلوا مجهودات ضخمه ، فى قطاع المنسوجات ، من أجل التواؤم مع الطرق الجديدة فى الصناعة . وكنا قد لاحظنا بعض التأخر فى هذا الفرع : فطبقاً لتقرير أحد المراقبين ، فى عام ١٧٩٠،لم يكن هناك فى فرنسا سوى٩٠٠٠ مغزل ، فى مقابل ٢٠٠٠٠ مغزل على الأقل فى إنجلترا . ولذلك فإن فتح الحدود فى وجه منتجات الصناعة الإنجليزى كانوا سيشعرون به وبقوة . وظهرت أزمة فى عام ١٧٨٨ ؛ ووصلت إلى أقاليم شمبانيا ، ونورماندى ، وحتى دوفيليه . وما دام قد إصطحبتها البطالة ، فإنها سوف تغذى روح الثورة . وفى أثناء شتاء ١٧٨٨ — ١٧٨٩ ، كانت هناك عمليات تمرد ، هنا وهناك ، هاجم فيها العمال المسرحون ، الميكانيكية ، أو الآلية الإنجليزية .

أما إنجلترا ، فإنها إجتازت ، على العكس من ذلك ، وفى أثناء السنوات التالية ، فترة تنمية إقتصادية لم يسبق لها مثيل . ونلاحظ ذلك بنوع خاص فى ميدان الأنشطة الصناعية ، والتى لم تجعلها حرب الإستقلال الأمريكية تبطء من تقدمها إلا بدرجة بسيطة الغاية : وأتمت آلة النسج ـ آلة كارترايت Cartwright ـ عملية إدخال الثورة فى صناعة النسيج . وأدى الإستخدام الأخير للآلة البخارية إلى تركيز كبير ومتزايد فى هذه الصناعة . وستصل قيمة المنسوجات القطنية المصدرة ، والتى كانت تقدر بمبلغ ٢٠٠٠٠٠ جنيه فى عام ١٧٤١ ، إلى مبلغ ١٦٦٠٠٠٠ جنيه فى عام ١٧٩٠ . وشهدت الصناعات التعدينية إزدهاراً مماثلا : فتضاعفت كميات الحديد المصنع فى بريطانيا العظمى ، أو كادت ، فيما بين عامى ١٧٨٨ و ١٧٩٦ ، وإرتفعت من ١٢٦ إلى ٢٤١ مليون جنيه . وكانت هذه هى دلائل تفوق صناعي سوف يتأكد فى أثناء العصر التالى .

الفصل الثلاثون

طموحات السياسة النمسوية وفشلها .

فى الوقت الذى كانت فيه الدولة الفرنسية والدولة الانجليزية مشتبكتين فيه بعيداً عن القارة الأوربية ، على البحار وفى أمريكا ، شعرت الدولة النمسوية بأنها أكثر حرية فى حركتها فى أوروبا . وخضع جوزيف الثانى لتلك الرغبة التى سيطرت عليه من أجل القيام بعمل مهم فى الخارج . وفى أثناء سنوات عديدة، وحتى وقت قيام الثورة الفرنسية ، كان هدوء أوربا مهدداً بشكل دائم وخطر، بمشروعاته .

وكان دائم القلق ، وغير راض بإستمرار ، وبخاصة بعد أن كانت روسيا قد حصلت على ميزات من معاهدة قيناريدجى . وكان قد قاسى من الحركات الماكيافيلية التى كان فريدريك الثانى قد أوحى بها إلى سياسة النمسا فى الشرق ، أثناء أزمة حرب الوراثة البولندية ، ولذلك فإنه كان يرغب فى الانتقام . وهكذا نجد أنه ، منذ عام ١٧٧٥ ، أى العام التالى لمعاهدة قيناريدجى ، قد دخل إلى المسرح . فأبلغ أستانبول أن البلاد الواقعة عند منابع سيريت وألبروت ، أى البوكوفين ، كانت فى الماضى خاضعة لبودوليا ، أحد الأقاليم البولندية التى تم ضمها فى عام ١٧٧٢ ، وأن القوات النمسوية قد صدرت إليها الأوامر نتيجة لذلك بالإقامة هناك . وكانت هذه المسألة غير ذات كبير أهمية أمام الروس ، والذين كانت قد انفتحت أمامهم كل إتساعات البحر الأسود . ولذلك ، فإنهم لم يجدوا من المناسب أن يتدخلوا ، وتركوا إحتجاجات السلطان بدون إجابة . ولذلك فإن كاونتز نجح فى أن يحصل من إستانبول على التوقيع على

إتفاقية رسمية (إتفاقية بالاموتا فى ٤ مايو ١٧٧٥) ، وهى التى إعترفت بهذا التغيير . وكانت بوكوفين بلاداً سلافية ورومانية فى أساسها . وكانت ترقدفيها ، وفى دير بوتنا ، رفات إيتين الكبير ، بطل البغدان . ولقد ظل هذا الاقليم أقليا خاضعاً لمملكة آل هابسبورج حتى عام ١٩١٨ .

وفى نفس عام ١٧٧٥ ، وصلت مطالب من تورينو لجوزيف : ذلك أن الملك فيكتور آميدى كان يفكر فى غزو جنوه ، وفاتح فى ذلك حكومة البندقية وإقترح عليها تقسيم الجمهورية . ولكن الامبراطور لم يترك نفسه ينزلق فى هذا الاتجاه : فلم يكن هناك فى إيطاليا مايغريه : فكانت السياسة النمسويةهناك قد حصلت وقت الجيل السابق على نتائج لها قيمتها : فكان ليبولد ، أخو جوزيف وخليفته من بعد ، يحكم فى توسكانيا ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه كل من ملك نابولى ودوق بارما متزوجين من أختيها . فلم يكن هناك سوى البندقية التى إتساعها المستمر يمكنه أن يضايق النمسويين ، خاصة وأن تريستا ، القريبة منها للغاية ، كانت تعيش فى ظروف سيئة . ولم يفكر جوزيف فى التعامل مباشرة مع البندقية خاصة وأنه كان يعتقد أن كل المسائل التى يطرحها أمر السيطرة على بحر الادرياتيك كانت مرتبطة كل الارتباط بمشكلات الحرب ضد الدولة العثمانية . ولن يمر وقت طويل قبل أن نعود للحديث عن ذلك .

أما فى ذلك الوقت بالذات ، فإن أنظار جوزيف كانت مركزة على الأماكن المجاورة بطريق مباشر للنمسا . ولقد شعروا بأنه كان يعد للحرب حتى أنهم فى سويسرا نفسها بدءوا يشعرون بالخوف . وتم عقدإجتماع لممثلى ثمانية عشر كانتون وتقرر فيه أمر تجديد معاهدة الصلح الدائم مع فرنسا ، والتى كان قد تم عقدها فى فريبورج فى عام ١٥١٦ . وكانت فقرات هذه الاتفاقية الجديدة ، التى تم التوقيع عليها فى ٢٨ مايو ١٧٧٧ ، هى تقريباً نفس الفقرات السابقة .

واحتفظ الملك بنوع خاص بحقه فى تجنيد الجنود على أرض الاتحادية ، وحتى ستة آلاف جندى .

١ ـ وراثة بافاريا :

حدث فى ذلك الوقت بالتحديد أنهم كانوا مشغولين فى كل مكان بالتفكير فى أمر وراثة بافاريا فى القريب العاجل . ولم يكن لدى المنتخب مكسيمليان ـ جوزيف أبناء أو أقارب مباشرين . وكان وريثه الشرعى هو إبن عمه، منتخب البلاتينات ، والذى كان يمثل فرعاً أصغر من أسرة ويتلزباخ . ولكن جوزيف الثانى كان متزوجاً من أخته . ولكى يطالب بخلافته ، كانت لديه بعض الوثائق القديمة التى كانت تعطيه حقوق ، مثل تلك التى نصادفها دائماً تقريباً فى مثل هذه الحالات : وبالإجمال ، فإنه سار على نفس المثال الذى كان فريدريك قد أعطاه من قبل من أجل الحصول على سيليزيا . وهكذا نجد أنه قد أخذ فى الاتصال بمنتخب البلاتينات ، شارل تيودور . وعمل على إخافته من ملك بروسيا ،وأظهر له أنه مستعد لكى ينازعه بالسلاح أمر دوقيات برج وجوليير.ونجح فى الحصول على موافقته بشأن أمر تقسيم بافاريا ، والذى كان من الصعب الا نرى فيه رداً على عملية تقسيم بولندا الأخيرة . ولكنه كان على المتآمرين أن ينتظروا وفاة المنتخب: وجاءت قبل أمر التوقيع على إتفاقية التقسيم (يناير ١٧٧٨) بقليل . وإستولت القوات النمسوية بسرعة على البلاد،وأدى ذلك إلى نشأة خصومة حادة بين جوزيف الثانى وبين والدته ماريا تريزا ، التى أظهرت رفضها كما كانت قد فعلت دائماً ، لطريقة الفروسية هذه فى الاستيلاء على أملاك الغير .

وكان التحالف الفرنسى ، الذى ظهر أنه قد تدعم فى عام ١٧٧٠ عن طريق زواج مارى أنطوانيت من ولى عهد فرنسا ، يمثل نقطة هامة وثمينة فى لعبة جوزيف الثانى ، وأصبح عليه أن يحصل من ذلك على كل ميزة ممكنة وكان قد قام أخيراً

بقضاء بعض الوقت فى فرساى ، وتحت إسم مستعار وتحدث هناك بكل وضوح : فلكى يحصل على موافقة فرنسا على عملية بافاريا ، وإذا ماتطلب الأمر تأييدها ضد بروسيا ، أعلن أنه مستعد لكى يتنازل لها عن جزء من الأراضى المنخفضة . مرمرة جديدة تركت السياسة الفرنسية هذه الفرصة الفريدة من أجل الانهاء على مملكة الشمال تمر من بين أيديها . وفى هذه المناسبة قال فيرجين أحدى الجمل التى ، مع البعد ، كانت تثير الدهشة : «إن فرنسا بتكوينها الحالى ، عليها أن تخشى من التوسعات ، أكثر من خوفها من الطموحات» .

وكان شخص آخر غير جوزيف لا يسعه إلا أن يتخلى عن مثل هذه العملية التى كانت ، وبدون المعونة النشطه من جانب فرنسا ، تتضمن الكثير من المخاطر ؛ أو كان عليه على الأقل ، أن يؤجل تنفيذها . ولكن الامبراطور كان متفائلا ، ومتفاؤل بكل عزم وتصميم ، وكما كانوا عليه فى فينا . ولذلك فإنه قرر ألا يلتفت لهذا . وكان لفريدريك الثانى فى ذلك الوقت سبعين عاماً . وكان يقضى أغلب أوقاته ممدداً ، وهو يقاسى من مرض الإستسقاء . ولاشك فى أن جوزيف العنيد قد فكر فى أنه يمكنه أن يشترى حياده ، وذلك نظير أن يتخلى له عن بعض أجزاء من وراثة البلاتينات ، على الراين الأدنى .

وكان جوزيف قد أخطأ فى حساباته ، من ناحية برلين ، وكذلك من ناحية باريس . ذلك أن فريدريك لم يكن بالفعل قد فقد نشاطه . وكان مصمماً على ألا يترك نفسه يقاسى من توسع الدولة النمسوية الذى سوف يقضى على هذا التوازن الجديد الناتج عن فتوحاته ، ويعيد إلى فينا الأمل فى الانتقام . وبمجرد علمه بدخول القوات النمسوية إلى بافاريا ، بدأ إستعداداته ، وعمل على الحصول على تأييد له ، فى ألمانيا وفى الخارج . ولكنه سرعان ما إقتنع بأن الدول العظمى لن تتحرك : فكانت فرنسا مشبعة إلى حد كبير بالاتجاهات السلمية ، ومرتبطة من

ناحية أخرى بتحالفها الرسمى مع النمسا،أما إنجلترا فكانت مشغولة للغاية بمعاركها مع رعاياها فى أمريكا ؛ وروسيا فمشغولة بتنمية سياسية توسعها فى البحر الأسود، وكان التأييد الوحيد الذى يمكنه أن يعتمد عليه — وعلى أساس مجرد تأييد معنوى — هو تأييد وريث منتخب بافاريا الجديد، دوق ديه بونت ، والذى إحتج رسمياً ، فى فينا وفى راتيسبون لدى الدايت حين علم بالاتفاقية النمسوية البافارية . وبدأ فريدريك بأن أردف إحتجاجه لإحتجاج هذا الأمير . ثم توصل بعد ذلك إلى أن يقوم منتخب ساكس ،والذى كان قد تخاصم أخيراً مع جوزيف الثانى ، بنفس العملية . وأخيراً ، أصر على ضرورة أن يأخذ بلاط فرساي موقفاً: فكان يعرف أنه رغم التحالف فإن السياسة الفرنسية لاتوافق على أن يسيرها جوزيف الثانى ، ولا على أن تسهل له ، وبأية طريقة هذا النشاط المعقد . ولقد قاوم فيرجين ماوسعته المقاومة . وأعلن فى شهر مارس أن فرنسا سوف تحتفظ بالحياد فى حالة نشوب حرب فى ألمانيا . ولكنه إضطر ، وبطلب من فينا ، إلى أن يوافق على عدم إبلاغ هذا التصريح لملك بروسيا . ولذلك فإن ملك بروسيا قد إقتنع بأنه يجب عليه ألا يعتمد على الوسائل الدبلوماسية العاديةمن أجل إجبار الخصم على التراجع ، فتوجه مباشرة إلى فينا ، وطالب بإخلاء بافاريا السفلى . وحاول النمسويون المساومة ، وطرحوا إمكانية منح بروسيا تعويضاً إقليمياً ولكن فريدريك رفض الدخول فى مفاوضات من هذا النوع . وفى شهر يوليو ، أعلن الحرب .

وبدأت الحرب ، كما كان يحدث فى الماضى فى ظروف مشابهة، بعملية بوهيميا. وأظهرت ماريا تريزا ، متى كانت دائماً لاتوافق على المبادرات الخطيرة التى يقوم بها إبنها ، تأثرها الشديد من بدء العمليات العسكرية ، وإلى درجة أنهاقامت ، بمجرد بدء هذه العمليات ، وبالاتفاق مع كاونتز ، بالإتصال بفريدريك ، وطلبت إليه،

وهو فى فى مركز قيادته ، العودة إلى التفاوض : وكان من الطبيعى ألا يؤدى هذا الطلب إلى شىء ، سوى وضعها مرة جديدة فى صدام مع جوزيف . كما أن نداءاً آخر إلى فرنسا الحليفة ظل كذلك بدون نتائج : فكان من الطبيعى أن يجيب فرجين بأن التحالف كان دفاعياً ، وأن النمسا ، باحتلالها بافاريا السفلى ، قد قامت بعمل عدوانى .

وفى أثناء ذلك الوقت لم يحصل فريدريك فى بوهيميا على الميزات المباشرة التى كان يأمل فيها . ذلك أن النمسويين كانوا قد إتخذوا موقف الدفاع ،فلم يتمكنوا من زحزحتهم . ولذلك فإن القوات البروسية لم تحاول ذلك إلا بالكاد .وأمضوا أوقاتهم فى البحث عن مواد التموين من الخصم ، وفى القيام بعملية نهب معسكراته . فنشأت من ذلك كلمة «حرب التموين» Kartoffelkreig ، التى أعطاها الجنود لهذا النوع الغريب من الحرب . ولم تكن مواجهة دموية قد حدثت بين الطرفين حين وصلت الأوامر فى الخريف بالإنسحاب إلى القواعد فى سيليزيا .

ونتيجة لطلبات ماريا تريزا ، والتى كانت تكتب بانتظام لإبنتها ، وتشرح لها مخاوفها ، وخصوماتها مع جوزيف ، ورغبتها فى الوصول إلى صلح سريع ، أبلغ فيرجين إلى كل من فينا وبرلين عرضاً بالوساطة . أما فريدريك ، الذى خابت آماله بنتائج حملته فى بوهيميا،فإنه وافق ، وبشرط وحيد يتمثل فى إنضمام روسيا، والتى كان مرتبطاً معها بمعاهده تحالف ، إلى فرنسا . وإحتاج الأمر إلى بعض الوقت حتى تتمكن الامبراطورة من أن تحصل على موافقة إبنها . وعندئذ أخذ ممثلوا الدول الوسيطة ، وعن طريق مفاوضات مباشرة مع الخصمين ، فى محاولة لإيجاد عناصر حل وسط بالنسبة لمسألة بافاريا . ولما كان المتحاربان قد أعطيا موافقتهما ، تم التوقيع على هدنة فى شهر يناير ١٧٧٩ . وبعد ذلك بقليل ، عقد مؤتمر فى تيشن ، وهىَ مدينة بعيدة تماماً عن العاصمتين ، فى سيليزيا النمسوية .

وعملت الدبلوماسية الفرنسية ، التي كان يمثلها بارون دى بريتى de Breleuil وبذلت مجهودها من أجل التقريب بين وجهات نظر فينا وبرلين ، حتى تم التوقيع على المعاهدة فى ١٣ مايو .

ولم تحصل النمسا إلا على جزء بسيط من الأراضى التى كانت قد إستولت عليها ، وكان الجزء الأكثر قرباً من حدودها . وهكذا نجد أن فريدريك قد نجح فى أن يقلل وبشكل ملموس من الميزة الرئيسية التى كان جوزيف الثانى يمنى بها نفسه من هذه العملية . وسجل فى نفس الوقت نجاحاً آخر ، وكان إيجابياً ، وذلك بالحصول على إعتراف بحقوقه فى الوراثة — والتى كانوا يشعرون أنها سوف تطرح قريبا — لمقاطعتى آنسباخ وبايروت فى فرانكونيا ، واللتين كانتا من الممتلكات القديمة لأسرة هوهنزلرن ، وكانتا فى ذلك الوقت فى أيدى أمراء فرع أصغر .

وأعلنت الدول الوسيطة ، فرنسا وروسيا ، أنهما تضمنان هذه الوضعية الجديدة التى تم الاتفاق عليها فى كيشن : فكانت فقرة مشابهة لتلك التى كانت ، فى عام ١٦٤٨ ، قد وضعت تحت ضمان فرنسا والسويد الحالة التى كانت قد نشأت من معاهدات وستفاليا .

٢ ـ النمسا وروسيا والبلقان :

كانت السياسة النمسوية ، وتحت رئاسة إمبراطور نشط ، قد بحثت بلا جدوى عن فرصة للتوسع فى إتجاه الغرب . ولن يتخلى جوزيف الثانى طوال حياته ، عن هذه المجهودات . ولكنا سنراه الآن يعمل فى الشرق ، وفى إتجاه البلقان . وهنا أيضا ، لن يصل إلى نجاح أكبر .

وكانت الجغرافيا السياسية لأوروبا قد زادت ثراءاً منذ بعض الوقت بدولة جديدة ، ظهرت من تحت السيطرة التى كانت تفرضها عليها الدولة العثمانية .

فكانت معاهدة قينارجى ، بسماحها لروسيا بالإحتفاظ بقناصل فى الإمارات الرومانية،قد منحت بشكل معين لهذه الامارات ـــ الأفلاق والبغدان ـ وجوداً رسمياً . وبعد ذلك بقليل ، طالبت دول أخرى بنفس الميزة : فحصلت عليها النمسا من إستانبول فى عام ١٧٧٤ ، وفرنسا فى عام ١٧٧٥ .

وكان لكل من الإمارتين أميرها الخاص ، الذى يعينه السلطان. وكان لايبقى فى موقعه ، الواحد والآخر ، إلا فى الوقت الذى يتمكن فيه من الإحتفاظ برضاء سيده . وذلك يعنى أنهما كانا تحت رحمة أية مؤامرة فى القصر . وأدى ذلك إلى تغييرهما بإستمرار . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يحكم الواحد منهما فى بوخارست ، ثم يحكم فى إياس ، أو العكس ، أو يحكم كليهما ، وذلك فى بضع سنوات فقط ، فيما بين عامى ١٧٤٩ ، ١٧٦٩ .

وكانوا فى غالبيتهم من أصل يونانى،ومن الذين بدأو حياتهم فى إستانبول، ومارسوا وظيفة رئيس التراجمة فى الباب العالى . وكان أسكندر مافروكورداتو Alexandre Mavrocordato ،مؤسس الأسرة أعطت سلسلة من الأمراء للأفلاق والبغدان ، وكان قد منح لقب المستشار الخاص للسلطان فى عام ١٦٩٨ ، أى قبل معاهدة كارلوتيز بقليل ، وهى المعاهدة التى شارك إلى حد بعيد فى إتمامها . وكان أفراد من أسر جيكا Ghika ، وبرنكوفان Brancovan ، يتبادلون مع سلالته حكم هذه الإمارة أو الإمارة الأخرى . وكانوا جميعاً من رعايا « الفنار » ، أى البطريركية الأرثوذكسية فى أستانبول ، وعاشوا فى حى الفنار الذى توجد فيه هذه البطريركية ، ولذلك فإن اللغة اليونانية أصبحت لغة مستخدمة فى هاتين الإمارتين،وعلى الأقل لدى الطبقات العليا. وكان هناك إتجاه فى بوخارست،وكذلك فى إياسى، للاستناد إلى الجار الروسى ،والذى كان رجال الدين يحافظون دائماً على علاقات معه ، والذى كانت ديناميكيته فى وقت إزدهار حكم القيصرة كاترين قد

إتجه بنوع خاص صوب البلقان . ووصل كنتاكوزين Cantacuzène إلى رتبة جنرال فى روسيا أثناء الحرب ضد الدولة العثمانية نفسها بين عامى ١٧٧٠، ١٧٧٤.

ولم تستمر فترة السلم التى رسمتها معاهدة قيناريدجى بين العثمانيين والروس إلا لبضع سنوات.فبدأت منذ عام ١٧٧٧ صعوبات فى القرم ،وتجددت،وأصبحت تشكل تهديداً دائماً للسلم . فبعد طرد الأهالى لأحد الخانات ، إحتل مكانه آخر ، هو شاهين جراى،الذى كان تحت حماية روسيا،وإستلم معونات من سان بطرسبرج. ولكن سرعان ما عرف بدوره نفس مصير سابقه، بعد أن منح اليونانيين والأرمن حقوق المساواة مع المسلمين . وعندئذ شعر السلطان بضرورة التدخل ، وبصفته خليفة ، ولكى يحمى مصالح الإسلام . وكان الأسطول قد ترك إستانبول مع قوة نزول،حينما طلب السفير الفرنسى ضرورة العمل من أجل الوصول إلى حل وسط. فتم التوقيع على إتفاقية جديدة ، مستقاة من معاهدة قيناريدجى ، على ضفاف البوسفور،فى عين على قواق ، يوم ٣١ مارس ١٧٧٩ وتبادل الروس والعثمانيون فيها الوعود بعدم التدخل فى شئون القرم . وبنوع خاص — وكانت هذه هى الفقرة الأساسية — حصلت السفن التجارية الروسية على حق عبور البوسفور والدردنيل،وبشرط ألا تزيد عن حمولة معينة،أى ألا تهدد بأن تستخدم لأغراض عسكرية .

ولم يجد جوزيف الثانى فرصة لكى يقول كلمته فى مفاوضات هذه الاتفاقية . ولكنه كان يتتبع الأحداث عن قرب ، وإعتقد أنه يرى الضعف المتزايد لحكومة إستانبول . ولذلك فإنه قرر ، وفى أثناء الشتاء التالى ، أن يمهد بواسطة المحادثات مع كاترين لتسوية لمجموع المسألة العثمانية . فأبلغ بطرسبرج برغبته فى أن يتقابل مع القيصرة . وبالموافقة الايجابية من جانب الروس قرروا موعداً فى عام ١٧٨٠ فى موهيليف ، فى روسيا البيضاء ، على الدنيبر . وبطبيعة الحال ، لم يعلنوا مارياً

تريزا بذلك . وكانت هذه البورجوازية لا تحمل سوى التقزز بالنسبة لأخلاق وعادات الامبراطورة جارتها ، وأظهرت عدائها لهذه المحاولة الجديدة التى يقوم بها إبنها . ولكن ذلك لم يكن كافياً لجعل جوزيف الثانى يتراجع عن مشروعه . ولذلك فإن اللقاء قد تم فى الوقت المحدد . وكان لقاءاً مليئاً بالود . ومع ذلك فقد ترددوا ، من هذا الجانب ومن الجانب الآخر ، فى معالجة المشكلة التى كانت فى مركز المشغوليات المشتركة ، المشكلة العثمانية . وكانت كاترين تحاول معرفة ما يدور فى رأس الخصم ، وتطلب إليه بسذاجة واضحة، وهى تعرف الصعوبات الموجودة بينه وبين روما ، عما إذا كانت الدولة البابوية لا تدخل فى هذه المحاولة. وأجابها جوزيف بأن إستانبول ، وروما الأرثوذكس ، كانت بطبيعة الحال أكثر سهولة فى غزوها . ولم تبدأ المحادثات بالنسبة للمسائل الأساسية إلا فى بطرسبرج، التى وافق جوزيف بكل تسرع على أن يصحب كاترين إليها. وإستمرت المحادثات لمدة ثلاثة أسابيع ، ولم تنتج عنها أية نتائج واضحة سوى تبادل الوعود الودية . ومع ذلك ، فإن جوزيف كان مصمماً على العمل . ولما أجبره موقف والدته على أن يخفى لعبته ، إستمر فى المفاوضات بحذر ، وعن الطريق الدبلوماسى .

وجاءت وفاة ماريا تريزا فى ذلك الوقت (٢٩ نوفمبر ١٧٨٠) ، لكى تحرره، وتسمح له بالتحدث بعلانية أكثر . وأصبح من الممكن فى ذلك الوقت عقد الاتفاقية فى بطرسبرج بين الأمير بوتمكين Potemkine وبين كوبنزل Cobenzl ، ولم تكن هناك معاهدة رسمية : فكانت إعتبارات المراسم لا تسمح ، خاصة وأن كل من الشخصيتين الإمبراطوريتين كانت لا ترغب فى أن تترك الأولوية للطرف الآخر . فتم تبادل خطابات ، فى شهر مايو ١٧٨١ ،تم فيها تسجيل الوعود المتبادلة. وبالإجمال ، فإن الأمر كان يتعلق بتحالف عام دفاعى ،معقوداً لمدة ثمان سنوات، ومرتبطاً بوعد بالمساعدة الممكنة فى حالة وقوع صعوبات مع الإمبراطورية

العثمانية . وبطبيعة الحال لم تبلغ البلاطات الأوروبية الأخرى بذلك .

وكانت كاترين أكثر واقعية من زميلها ، وتعرف جيداً ما كانت ترغب فى أن تحصل عليه. وكانت قد أتمت أعمالا عظيمة : فكانت مصممة على عدم الوقوف فى منتصف الطريق . وكانت قد فكرت، وأعينها مركزة على إستانبول، فى مشروع ضخم لتوطين الأهالى ولزراعة الأراضى فى جنوب الامبراطورية ، وفى المناطق التى كانت ترويها أنهار فولجا السفلى ، والدون والدنيبر. وقامت بتنظيم الهجرة، ورحبت بالمعمرين من كل الجنسيات ، وبخاصة من ألمان البلاتينات .

وكان هناك ما هو أفضل من ذلك . فحين حصلت فى شهر مايو ١٧٧٩ على حفيد ، أسمته قسطنطين ، وضربت أحد الأنواط فيما بعد باسمه ، قسطنطين باسيليوس ، الهلينى . وهكذا أكثروا الحديث ، فى الوسط المحيط بها ، عن عملية إعادة إحياء الإمبراطورية اليونانية . وكان يسعدها ، هى نفسها ، أن تحتفظ بهذه الفكرة ، وخاصة إذا ما كان الطفل سيكون له مستقبل باهر : وأحاطته بمجموعة من الأصدقاء ومن رجال الحرس الشخصى إستحضرتهم من بين الشبان اليونانيين ، وشكلت منهم سرية خاصة . فكان من حق فريدريك الثانى ، وكان دائم السخرية، أن يتحدث عن الأعمال الطفولية التى تقوم بها القيصرة . وكان نفوذ روسيا قد إستمر فى التزايد فى الشرق منذ أحداث عام ١٧٧٠، وأخذت القوميات المسيحية فى البلقان تتجه بأنظارها ، أكثر وأكثر، صوب سان بطرسبرج . وكانت دبلوماسية القيصرة تحتوى على آمالهم ، وتحافظ عليها .

وفى عام ١٧٨٢ منحت شئون القرم فرصة لصدام مرغوب فيه ضد العثمانيين. وكما حدث فى الماضى ، واجه الخان ، والذى تحميه روسيا ، ثورة من رعاياه ، الذين قاموا بعزله. فظهر تصميم كاترين على أن تنتهى من ذلك الاستقلال المزيف

للتتار، والذى كانت إستانبول قد ضمنته.وفى إنتظار ضمان موقف جوزيف الثانى، إستعدت لكى تتدخل بالسلاح . وفى ذلك الوقت بالذات ، أى فى شهر سبتمبر ١٧٨٢ ، أفضت إلى حليفها بتلك الخطة التى إحتفظ لها التاريخ بإسم « المشروع اليونانى » . فيتم إنشاء دولة مستقلة من الإمارتين الرومانيتين ومن بسارابيا : وسوف يسمونها إسماً مشتقاً من التاريخ القديم : « داسيا » . وتأخذ النمسا ، كما ترغب ، الأقاليم المجاورة لحدودها ، الصرب ، ودلماشيا ، والبوسنة ، والهرسك، وحتى ألبانيا واليونان فى حالة الضرورة . أما روسيا فإنها لا تطالب تقريبا بأى شىء لها ، بمجرد قطعة من الأرض أمام حدود الدنيستر . ومع ذلك فإذا ماوصل إنتصار أسلحتها إلى حد تسليم إستانبول ، فإن كاترين تعتمد على أنها ستحصل من جوزيف على كل معونة ممكنة من أجل إعادة إنشاء الإمبراطورية اليونانية القديمة ، مع حفيدها قسطنطين ، كملك عليها .

وكان فى ذلك الكثير بل وأكثر مما كان جوزيف قد فكر فيه فى أى وقت مضى . وكان فى وسع كاترين أن تعد بأن الدولة الجديدة لن تتحد أبداً مع إمبراطورية القياصرة : ولكنه أظهر أن المشروع قد أغراه وأنه يخاف منه فى نفس الوقت . ذلك أنه كان لا يجهل أنه ، فى حالة وقوع صدام مع العثمانيين ، سيكون هناك خطر يتمثل فى تدخل فريدريك الثانى،وربما حتى مؤيداً من جانب فرنسا . وكان فيرجن ، وزير خارجية لوى السادس عشر،فى شدة الانتباه بطبيعة الحال لكل ما يمكنه أن يحدث ضد العثمانيين . ولكنه كان واثقاً من إمكانيات مقاومتهم ، وكان يعرفهم جيداً ، خاصة وأنه كان قد عاش بينهم لفترة طويلة . وكان خليفته فى إستانبول سان برست Saint - Priest ، على نفس درجته فى القسوة في أحكامه : « إن جيشهم وأسطولهم هى مجرد مظاهر ، نتيجة للجهل العام

لفنون الحرب ، والضعف الجسدى والمعنوى للسلطان ، ولخراب ماليتهم والتعفن الذى لا يمكن إصلاحه عند كبار ضباطهم » . وكانت طلباته فى عام ١٧٨٣ هذا أكثر تسرعاً من أجل عقد الصلح مع إنجلترا .وأعلن بكل قوة أنه ضد كل سياسة لإستخدام العنف مهما كان مصدرها ، سواء من فرساى أو فينا،للتحدث عن إمكانية إنهاء التحالف . وأظهر تصميمه مع حكومة إستانبول ، وأوصاها بكل وضوح، وبكل إصرار ، بضرورة إرضاء روسيا .

وهكذا أجاب جوزيف على القيصرة بضرورة الحصول على حياد فرنسا ، أو حتى إشراكها بطريقة نشطه . ونصح بمنحها نصيباً من الحلوى ، مصر ، التى كانوا يعلمون بميلها اليها . فوافقت كاترين . ولذلك فإنه كان من الممكن البدء فى العمل قبل نهاية العام . وعاد الخان إلى القرم على رأس فيلق روس ، وإستعاد عاصمته دون أن يقوم بالحرب. وترددت الحكومة العثمانية فى الرد على هذا التحدى،خاصة وأنها قد حذرت من أن النمسا سوف تأخذ جانب روسيا ، فى حالة وقوع حرب. وفى مثل هذه الظروف ، كانت فرنسا هى التى ستلعب دور الحكم . ولقد قام سفير الإمبراطور بإختبار مواقع الاقدام،ورد عليه فيرجين بصراحة كاملة : «لا توجد فى أوروبا دولة واحدة لن تضحى بآخر رجل منها وآخر مليم منها لمنــــع تحطم الامبراطورية العثمانية » . ورفض الاستماع حين حاولوا أن يتحدثوا إليه بشأن مصر . وفى هذه الظروف سوف تنقشع الأزمة مؤقتاً ، فى الأيام الأخيرة من عام ١٧٨٣ ، بخضوع العثمانيين لمطالب الروس . وطبقاً للاتفاقية التى تم التوقيع عليها من إستانبول ، فى ٨ يناير ١٧٨٤ ، ونتيجة لتدخل السفير الفرنسى لدى السلطان، أصبح خان القرم خاضعاً لقيصر روسيا .

وكانت كاترين ، فى واقع الأمر ، قد خاب أملها : فكانت تبحث عن سبب

لإعلان الحرب ، ولم تجده . فلم توافق على ذلك إلا بشكل مؤقت ، وأدخلت سيفها فى غمده . ولكنه لم تمر خمسة أشهر على موافقة العثمانيين حتى أشهرته من جديد : ذلك أن أحد الضباط التتار ، والذى كان مكلفاً بمهمة من طرف الخان ، تم إغتياله فى الأراضى العثمانية . فهددت ، وجمعت قواتها ، وسلمت قيادتها لعشيقها ووزيرها بوتمكين . وتم إحتلال كل أقليم القرم فى عدة أسابيع . وعندئذ إستقال الخان ، ووضع نفسه تحت تصرف القيصرة ، التى أبعدته عن اللعبة ، ومنحته معاشاً . ولن تعين خلفاً له . ولذلك فإن إحتلال بلاده سوف يتحول إلى مجرد عملية ضم بسيطة . وإبتداء من هذا الوقت لم تعد القرم خاضعة لسيادة السلطان ، مثلها فى ذلك مثل قوبان ، الاقليم الواقع على الساحل الأيمن لبحر آزوف ، إلى الشمال من القوقاز .

وشعر جوزيف بأن عليه أن يبحث ، ودون أن يشهر سيفه ، وكما كان قد حدث بعد فيناريدجى ، على نجاح يعوضه أمام الرأى العام ، عما كان الروس قد حصلوا عليه لأنفسهم . وكان يكفيه فى شهر فبراير ١٧٨٤ مجرد القيام بمظاهرة عسكرية لكى يحصل من حكومة السلطان على نفس الميزات التى كانت كاترين قد حصلت عليها منذ خمسة سنوات ، وهى حرية المرور فى المضايق لسفنها التجارية . وكان نجاحاً من أجل الكرامة فقط : خاصة وأن النمسويين لم يكونوا يشتركون فى التجارة البحرية لشرق البحر المتوسط إلا بدرجة ضعيفة. وكانت فرنسا، رغم العواطف التى كانت تتمتع بها فى إستانبول ، لا تزال تطمع للحصول على مثل هذه الميزة . وحين تحدثت ، بعد ذلك بوقت ، عن مثل النمسا وروسيا ، أجابوها بإبتسام: «إذا كان اللصوص قد أخذوا منا ردائها، فليس هذا سببا يسمح لأصدقائنا بالمجيء لسرقتنا كذلك » .

٣ — الاراضى المنخفضة ومضب الاسكلوت :

كلما زاد فشل جوزيف الثانى ، وفقده آماله ، كلما زاد شعوره بالرغبة فى ضرورة عمل شىء : زيادة قوة المملكة بشكل أو بآخر ، وأن يترك ، فى أية حالة كانت أثراً واضحاً لحكمه . وكما كان بعد المسألة الفاشلة لوراثة بافاريا ، قد إستدار صوب الشرق ، نجده الآن ، وبعد « المشروع اليونانى » وإجهاضه ، قد عاد إلى إتجاه الغرب . ولكى يحصل على بافاريا ، وضع خطة جديدة تماماً ، وإعتقد أنها لاتشمتل على مخاطرة بالحرب : وكانت تتمثل فى أن يعرض على المنتخب مبادلة بلاده نظير الأراضى المنخفضة — هذه الأراضى المنخفضة التى كانت ملكيتها ، بالنسبه إليه ، تمثل ضعفاً لدولة النمسا ، بسبب بعدها وصعوبة الدفاع عنها . أما المنتخب شارل تيودور ، الذى علم بهذا العرض ، فإنه لم يرفضه : فكانت فكرة الذهاب لكى يحكم فى بروكسل ليست سيئة بالنسبة إليه . ولكنه كانت هناك عقبة ، وهى نفس العقبة التى كانت موجودة فى المرة الأولى : ذلك أن وريثه ، دوق ديه بونت ، قد أكد أنه ، بالنسبة إليه ، متمسك كل التمسك ببافاريا . وكان فى وسعه أن يثير ضد جوزيف بلاط فرساى ، والذى كانت له مكانته وسمعته فيه . حقيقة أن الإمبراطور كان يعتقد فى أنه يعرف الطريقة التى يجعل بها الحكومة الفرنسية تتخلى عن الموضوع : فيتنازل لها ، إذا ما إقتضت الضرورة ، عن المقاطعتين الأكثر قرباً من حدودها ، أى الأكثر قرباً بالنسبة لرغبتها ، هينوت ولكسمبورج .

فهل ستترك فرنسا نفسها تخضع لمثل هذا الإغراء ؟ لقد تحدثوا عن ذلك كثيراً فى فرساى . ولم تكن مارى أنطوانيت هى الأخيرة من بين من عبروا « بنعم » التى سوف تخدم مصالح فرنسا ومصالح النمسا فى نفس الوقت . ولذلك فإن فيرجن ، والذى كان دائماً معارضاً ، من حيث المبدأ ، لسياسة الغزو والضم ،

بدا على أنه أكثر تردداً عما كان عليه فى المرة الأولى . وشعر باستحالة الرد على الإقتراح النمسوى برفض مجرد . ورغم أنه كان فى أعماقه ضد كل محاولة تتضمن مخاطرة بالحرب — مهما ظهرت درجة إغراء الموضوع — فانه وجد أن من الضرورى أن يجد ذريعة قبل أن يجيب بالنفى . ولذلك فإنه فرض شرطاً بضرورة موافقة الهيئة الجرمانية وملك بروسيا على المشروعات النمسوية . ولم يكن هناك أحد ، فى فرنسا أو غيرها ، يجهل عدم الثقة الواضحة التى كانت مستمرة فى التحكم فى العلاقات بين فينا وبرلين . وكان فردريك قد عقد لتوه فى ذلك الوقت إتفاقيات مع أمراء ألمان آخرين ، كانوا يخشون من وقوع تغييرات فى الوضع القائم ، وكانوا قد كونوا منذ بضع سنوات،ونتيجة لنداء حاكم بادن ، «رابطة الأمراء» كنوع من الإتحاد ،له ميل معاد للنمسا بشكل واضح . وفيما بين الأمراء وبعضهم، وبخاصة بين منتخب ساكس ومنتخب هانوفر ، ملك إنجلترا ، سوف تعقد فى القريب معاهدة مشاركة ، فى برلين .

وفى هذا الوقت (٢٣ يوليو ١٧٨٥) ، إنتهت تلك الأزمة التى كانت قد بدأت بالمبادرة الجديدة لجوزيف الثانى . ووجد فيرجن أنه لا يمكنه أن يتغاضى عن معارضة ذلك الجزء من الرأى العام ، والذى كانت تدعمه الإحتجاجات العالية لدوق ديه بونت . أما الإمبراطور فإنه تراجع أمام تلك الضجة التى كان فردريك قد أثارها فى ألمانيا ضد مشروعه . وكانت النتيجة الواضحة لتلك العملية هى أنها قد وجهت الضربة الأخيرة لذلك التحالف الفرنسى النمسوى ، والذى كان بالفعل قد تزعزع بشكل خطير بتهربات فرنسا فى عام ١٧٧٨ . ولذلك فإن أوساط العاصمة النمسوية سوف يظهرون منذ ذلك الوقت تشككهم فيه ، مثلهم فى ذلك مثل أولئك الموجودين فى فرساى ، وفى باريس .

ولم يكن جوزيف الثانى قد عرض السلم المخاطر فى أثناء عامى ١٧٨٤ و

١٧٨٥ بمشروعات البافاريه وحدها . بل إنه قد أثار القلق بدرجة أكبر عنـــد حلفائه فى الغرب ، بإعادة طرحه لمسألة الوضعية الدولية للأراضى المنخفضة، والتى كانت قد تحددت بمعاهدات مونستر وأوترخت . فمنذ شهر نوفمبر ١٧٨١ ، وبدافع من جانبه وحده ،وبدون إستشارات مسبقة مع الأقاليم المتحدة ، أنهى نظام «الحواجز» . وأبلغ بذلك حكومة لاهاى الذى جعلها تقرر أن تهدم مواقعها الحصينة الخاصة بالأراضى المنخفضة . وحاول مجلس الأقاليم المتحدة أن يناقش ، ولكن بلا جدوى : فكانت اللهجة التى إستخدمها وزراء الإمبراطور على ذلك الشكل حتى أنهم لم يجدوا طريقاً آخر سوى الموافقة وسحب حامياتهم .

وفى شهر أغسطس ١٧٨٤ كانت مشكلة الاسكوت وأمر إغلاقه هى التى جاءت مبادرة من جانب جوزيف لكى تثيرها بشكل عنيف . فتم إبلاغ الهولنديين أن النهر سوف يصبح،من ذلك الوقت على أنه «مفتوحاً تماماً وحراً» وأن أى إعتداء على العلم النمسوى سيجر إلى الحرب مباشرة . وكان الإنفعال ضخماً فى لاهاى وفى أمستردام ،وأقل من ذلك شيئاً ما فى فرساى ، خاصة وأن ملك فرنسا كان هو الضامن لمعاهدات وستفاليا ، والتى كانت قد جعلت من أمر إغلاق الأسكوت أحد فقرات القانون العام . وبالرغم من التحالف النمسوى ، فإن فيرجن أعلن بوضوح أنه فى جانب الهولنديين ، ووعده فردريك بتأييده الكامل . وأصبحوا يخشون ما هو ألعن،فى شهر اكتوبر ١٧٨٤ ؛ فوقعت حادثة حدود جعلتهم يفكرون فى قطيعة دبلوماسية،وتم تجميع قوات فرنسية فى الفلاندر وفى الألزاس . وقام جوزيف الثانى ، من جانبه ، هو أيضا ، باتخاذ إحتياطات عسكرية : ولكن سرعان ما ظهر على أنه لا يفكر فى حقيقة الأمر إلا فى وسائل التراجع ، دون أن تتأثر هيبته بذلك تأثراً كبيراً . وبعد قبول وساطة فرنسا ، تم التوقيع على معاهدة فى فونتنبلو (٨ نوفمبر ١٧٨٥) ، تخلى بها الإمبراطور،

وفى نظير تعويض ، عن بعض حقوق مدعاة ، كان قد أعلن نيته على المطالبة بها ، بشأن مدينة مايستريش . ولن يتحدثوا عن الأسكوت ، الذى سوف يظل دائماً مغلقاً ، وكما كان فى الماضى .

٤ — مشروعات تقسيم الامبراطورية العثمانية :

بعد ذلك الفشل بشأن بافاريا وبلجيكا ، إستدار جوزيف مرة أخرى صوب الشرق . وعملت كاترين الثانية ، التى تعلمت كيف تتعرف عليه ، على إغرائه من جديد: فدعته إلى مقابلة يتباحثان فيها فى أمر المشكلة العثمانية الأزلية . وإختارت للقاء ميناء خرسون الذى كان قد أنشىء أخيراً على ساحل البحر الأسود ، والذى كان عليها أن تزوره فى نهاية رحلة لها فى تلك الأجزاء التى كانت قد إنتزعتها من التتار والاستبس ، وضمتها إلى إمبراطوريتها ، فكانت هذه الرحلة الشهيرة التى أحاطتها بكل مظاهر الفخامة لكى تظهر لشعبها تصميمها على أن تسير على « طريق بيزنطة » . وفى أثناء الطريق ، تمت لها مقابلة مع إستانيسلاس أوجست ، ملك بولنده ، وتباحثت معه فى كانياو ، وقت عبورها لنهر الدنيبر ، وأكدت بذلك وفاقها الكامل معه أمام أعين أوربا .

وفى خرسون ، تحدث المتآمران ، النمسوى والروسى ، بشأن « المشروع اليونانى » . ولكن جوزيف أظهر تردده . وكان هذا الهائج الكبير قد تعب من أن يقوم بدور « منشط الحفلات » . وجاء بنفسه هذه المرة ، وبعد أن كان قد هدد أوربا بإشعال النار فيها ، ونصح بضرورة الحذر . ثم قام بعد ذلك ، ونتيجة لوصول أنباء سيئة من الأراضى المنخفضة ، وحيث كانت الثورة مشتعلة ، بالعودة إلى فيينيا بسرعة . أما العثمانيون ، فقد تنبهوا لهذه المقابلة ، وكانوا قد تعلموا من تجربتهم السابقة ، فعرفوا ما كان ينتظرهم . وكانوا يفضلون هذه المرة ، أن يسبقوا الخصم . فجاء دورهم لكى يقدموا للروس إنذاراً : وطلبوا

فيه بنوع خاص التخلى عن الحماية التى كانت كاترين تمارسها منذ بضع سنوات على خان جورجيا ، التابع للسلطان . وبعد رفض هذا الإنذار ، سجن السفير الروسى فى قلعة الأبراج السبعة (أغسطس ١٧٨٧) ، وبدأت الحرب سريعاً .

وسيكون دور فرنسا ، فى أثناء هذه الأزمة الجديدة ، باهتاً للغاية . وكان فيرجن قد توفى للتو . وأخذ مكانه لإدارة الشئون الخارجية الكونت مونموران de Montmorin ، والذى كان حريصاً ، ورعديداً . ولم يكن من السهل التفكير فى أمر التدخل فى الشرق ،خاصة وأن العلاقات الفرنسية الروسية كانت قد دخلت منذ بعض الوقت فى مرحلة صداقة . وكانت هيبة القيصرة الصديقة للفلاسفة قد تزايدت فى تلك البلاد التى كانت روح الثورة المقتربة تتزايد فيها ، ولم يكن من المطروح بالنسبة للحكومة أن تتخذ موقفاً معادياً لطموحاتها الشرقية . وكان سفيراً جديداً ، هو الكونت دى سيجور de Ségur ، على وشك الذهاب إلى بطرسبرج من أجل التفاوض فى شأن معاهدة تجارة ، تحل محل معاهدة ١٧١٧ ، والتى كانت قد ظلت بدون نتائج . وكانوا قلقين من ذلك التقدم الذى حققه الانجليز ، والذين كانوا ، كنتيجة للإمتيازات والميزات التى حصلوا عليها ، قد وصلوا إلى حد التمتع فى الإمبراطورية القيصرية بإحتكار تجارى فعلى . وتم عقد الاتفاق فى نفس الوقت الذى بدأت فيه العمليات العسكرية على ضفاف البحر الأسود . وكانت التسهيلات الجديدة التى منحت للتجار الفرنسيين ، وفى كل من بحر البلطيق والبحر الأسود ، بمعاهدة ١١ يناير ١٧٨٧ ، محكومة بتطبيق فقرة الأمة الأكثر وداً .

وبدا هذا الاتفاق على أنه يمهد الطريق لتقارب سياسى بين فرنسا وبين روسيا . أما سيجور ، الذى صحب القيصرة فى رحلتها إلى القرم ، فإنه تحدث معها بشأن تحالف رباعي — فرنسا ، وبولندا ، والنمسا ، وروسيا — ضد بروسيا وانجلترا .

ولكن الصعوبات ظهرت فى فرساى ، وحيث لم يكونوا مستعدين لكى يضمنوا للنمسويين وللروس أمر إمتلاك الأجزاء التى حصلوا عليها من بولند . وهذا المشروع للتحالف الرباعى لن يتقدم خطوة واحدة ، حين يستدعى سيجور إلى فرنسا ، ويترك مركزه فى شهر اكتوبر ١٧٨٩ .

ورغم هذه المغازلة الفرنسية الروسية ، ظل المدربون العسكريون الفرنسيون دائماً فى إستانبول ، ويعملون لحساب الحكومة العثمانية . وكان سلاح المدفعية قد أوسل إلى أوتشاكوف أحد الضباط ، وعدداً من ضباط الصف والجنود والعمال المتخصصين . وسيشرف على الدفاع عن الموقع أحد الضباط المهندسين ، الكابتن لافيت Laffitte ، الذى كان قد نظم فى إستانبول مدرسة للتحصينات ، وأمام إحتجاجات كاترين ، إضطرت الحكومة الفرنسية إلى أن تحل المشكلة ، وقامت فى شهر يناير ١٧٨٨ بإستدعاء كل أولئك الفرنسيين الذين كانوا قد تعاقدوا على خدمة السلطان . ولقد قام فرنسيون آخرون ، ومن النبلاء الفقراء — نتيجة لترتيبهم فى أسرهم بين أخوتهم وعدم حصولهم على ميراث فى الأرض — والذين كانوا يبحثون عن المغامرات ، بالذهاب ووضع سيفهم فى خـــدمة القيصرة : وإستمر عددهم فى الزيادة ، وبخاصة حين جاءت أحداث عام ١٧٨٩ و ١٧٩٠ وتسببت فى حركة الهجرة .

أما فيما عدا ذلك ، فان الأفكار كانت منقسمة للغاية فى فرنسا بشأن روسيا وطموحاتها . وكانت مشكلة إمكانية تقسيم الامبراطورية العثمانية قد نوقشت هناك ، كما كان قد حدث فى القرن السابق ونجد أن أحد الكتاب الشهيرين ، وهو فولنى Volney ، وكان من المتخصصين فى شئون الشرق ، يعتنق وجهة النظر الروسية فيما كتبه فى عام ١٧٨٨ . « تأملات فى الحرب بين الروس والأتراك » . ولكنه سرعان ما يواجه المتناقضات . ذلك أن السياسة التقليدية ، والخاصة

بمصادقة السلطان ، وحتى فى حالة رفض البعض لها ، ستظل هى دائماً القانون الأساسى لدبلوماسية البوربون .

ولقد فوجىء الروس بتلقائية الهجوم العثمانى وعنفه ، فواجهتهم فى أول الأمر صعوبات ضخمة ، خاصة وأن جيرانهم السويديين ، كانوا قد دخلوا ، وباتفاق مع العثمانيين ، فى الحرب فى نفس الوقت .

وكانت السويد تمر من جديد فى مرحلة صعوبات ، وإن كانت مختلفة تماماً عما كانت عليه فى أوقات جوستاف أودلف أو شارل الثانى عشر. وفى وقت جوستاف الثالث ، الذى كان قد وصل إلى العرش فى عام ١٧٧١ ، كانت الحالة الداخلية هى المسيطرة . وكانت حالة من الفوضى الفعلية قد سيطرت على المملكة ، والتى كانت مهابة فيما مضى ، وجعلتها الآن مهددة بنفس مصير بولندا . وكانت روسيا ، وبروسيا ، والدنمرك تراقب تطور الأزمة عن قرب . وقام جوستاف ، مثل الكثير من أسلافه ، بالإستناد التى تأييد فرنسا ، والتى إستمرت منذ توليته العرش فى منحه المعونات ، وفى مساعدته بقوة على أن ينتصر على خصومه الداخليين ، وعن طريق إتصالاتها العاجلة فى بطرسبرج وبرلين وكوبنهاجن ، منعت فى عام ١٧٧٣ تدخلا عسكرياً مهدداً . أما السياسة الانجليزية فإنها ، حين وجدت نفسها من جديد فى معارضة مع فرنسا ، إختارت بطبيعة الحال موقفاً ضد الحكومة الموالية لفرنسا . ولعب الذهب الانجليزى دوراً ، فى إستوكهلم ، كاد أن يكون حاسماً. وكتب سفير لوى السادس عشر ، فى شهر يناير ١٧٧٦ : « إن خصمى الرئيسيين ، الوزيرين الانجليزى والبروسى ، يوزعان كميات ضخمة من الأموال ، تعجز أموالى عن أن توازنها . وسرعان ماتزيد الحكومة الفرنسية من جهودها المالى .

وبعد بضعة أشهر ، قام جوستاف الثالث ، وفى أثناء إحدى رحلاته للغرب ،

بالتوقيع فى باريس على ميثاق تمكنت دولة السويد به من أن تعطى إنطباعاً بأنها تتفاوض من جديد مع فرنسا مفاوضة الند للند . فحصلت على وعد بالمعونة العسكرية والبحرية فى حالة وقوع حرب ضد روسيا أو الدنمارك ، وتحصل علاوة على ذلك على إحدى الجزر الصغيرة فى بحر الأنتيل ، وهى سان بارتيلوميو ، ودون التحدث عن المعونات السنوية ، والتى كانت قيمتها تتزايد بإستمرار ؛ وفى نظير ذلك ، تم الإتفاق على أنه إذا كانت فرنسا تواجه صعوبات وتطلب المعونة من حليفتها ، فان السويد تضع تحت تصرفها أثنتى عشر سفينة حربية (١٩ يوليو ١٧٨٤) . وتدعم موقف جوستاف بهذا النجاح الدبلوماسى ، وأفاد من ذلك الصدام الذى نشب بين العثمانيين وبين الروس على نهر الدانوب ، ودخل بدوره فى الخط فى أثناء صيف ١٧٨٨ . وأدى ذلك إلى حرب إستمرت لمدة عامين ، بدأت بهزائم سويدية فى فنلندا ، وتعقدت وزادت خطورة بتدخل الدانمركيين إلى جانب الروس ، ثم إنتهت ، بعد خروج الدانمركيين بسرعة خارج اللعبة ، بصلح أبيض ، تم التوقيع عليه فى فوريلاى فى ١٤ أغسطس ١٧٩٠ . وعلى أية حال ، فقد شعرت كاترين فى إحدى اللحظات بأنها مهددة فى عاصمتها بعملية إنزال قوات سويدية .

أما بريطانيا ، فإنها ظلت ، وبكل تصميم ، مبتعدة . وكانت علاقاتها مع روسيا قد أصبحت أقل ترابطاً ، منذ أن كان قد نتج عن زيادة منتجاتها التعدينية تقليل واضح فى عملية إستيراد حديد الأورال ، أى منذ سنوات ١٧٨٠ . ومن ناحية أخرى ، كانت غير مرتاحة لأمر عقد معاهدة تجارية فرنسية روسية . وكانت قد وصلت إلى مرحلة من تاريخها مالت فيها إلى أن تهتم بشئون البحر المتوسط أكثر من إهتمامها بشئون بحر البلطيق ، خاصة وأن طريق الهند بدا لها منذ ذلك الوقت على أنه هو الشريان الحيوى لإمبراطوريتها . وسوف تشعر بذلك

كل الشعور ، مع بيت ، على رأسها . ولن يتأخر الوقت كثيراً عن أن تظهر فى سماء الشرق الدلائل الأولى على تلك المنافسة الانجليزية الروسية ،والتى سوف تملأ القرن التاسع عشر .

وفى أثناء ذلك الوقت ، كانت الحرب الجديدة التى دخلت فيها روسيا ضد الدولة العثمانية قد بدأت بداية سيئة : فكانت القوات البحرية التابعة لكاترين فى البحر الأسود قد تحطمت كلها تقريبا بعاصفة قبل أن تقدر على القيام بأى شىء . وعلى البر ، كان المجهود مركزاً بالدرجة الأولى ضد موقع أوتشاكوف . وإستمر الحصار ، الذى قاده فى أول الأمر بوتمكين ، لمدة تزيد على ستة أشهر . وإنتهى فى شهر ديسمبر ١٧٨٨ بعمليات قسوة وفظاعة : وسيتحدثون عن عشرة آلاف جندى وستة آلاف من المواطنين ذبحتهم القوات المنتصرة .

ولقد علم جوزيف الثانى ، من سان بطرسبرج ، بأنهم كانوا على مستـــوى مواجهة الأحداث ولذلك فإنه لم يضطر إلى التدخل . هذا علاوة على أنه كان عليه أن يواجه مشكلات أخرى ، وسريعة للغاية ، وأن يجد حلا لها . وكانت زيادة إتجاه الإصلاح الذى أعلنه الامبراطور قد أدت إلى أن تقف فى مواجهته قطاعات من الأهالى غير النمسويين فى الامبراطورية . وأخذت الإضطرابات شكلا يثير القلق بنوع خاص فى الأراضى المنخفضة .

ولم تكن مسألة مواقع « الحاجز » ومسألة فتح مصب الاسكوت . فى واقع الأمر،هى وحدها التى كانت تجتذب الإنتباه إلى هذه المنطقة الحساسة من أوربا، فى عشية نشوب الثورة الفرنسية.وكانت الأزمة الجديدة التى نشبت فى عام١٧٨٨، فى حد ذاتها ، قليلة الأهمية ؛ ولكن تطورها كان كبير الدلالة . فلقد رأوا فيها بوضوح قلة ثقة الانجليز فى التابعين لهم الذين يظهرون بعض الاتجاهات التحرر، وكذلك فى نفس الوقت تلك الديناميكية البروسية ، والتى بدت قوة فرنسا ، حين

ضعفت بصعوبات داخلية متزايدة ، على أنها غير قادرة على إحتوائها .

وفى لاهاى ، كان الحزب « الجهورى » فى صراع مع أنصار صاحب الدولة ويليام الخامس ، والذى كان يميل إلى أن يستند إلى بروسيا ، نظراً لكون ملك بروسيا ، فريدريك ويليام الثانى ، صهراً له . ووصلت الأحداث إلى تلك النقطة حتى أنه نتيجة لنداء صاحب الدولة تم إرسال قوات بروسية إلى حدود هولندا. وشعروا فى فرساى بضرورة أخذ إجراءات مضادة : فتم تنظيم معسكر فى جيفيه، وأعلنوا أنه فى حالة وقوع تدخل بروسى ، سيتلوه فى التو تدخل فرنسى . ولكن فيرجن كان قد توفى ، وكانت وزارة بريين Brienne ، بدون سلطة ، ولذلك فإنها لن تقوم بشيء بعد هذا التهديد . أما البروسيون ، فإنهم دخلوا إلى هولندا ، وساعدوا صاحب الدولة بالتالى على تدعيم سلطته . وتم بعد ذلك عقد إتفاقية بين لندن وبرلين (١٣ أغسطس ١٧٨٨) إنتهت ، وتحت إدعاء ضمان الإستقلال الهولندى ضد أى تهديد ، إلى تحالف فعلى إنجليزى بروسى . وكان هدفه موجهاً ضد النمسا — بكل تأكيد — ولكن كذلك ضد حلفائها الفرنسيين .

وبمجرد تسوية هذه المسألة ، أصبحت الأراضى المنخفضة هى التى تحتل فى عام ١٧٨٩ مكان الصدارة على المسرح الأوربى . فوجد البلجيكيون أن الظروف مناسبة لكى يتقدموا بمطالبهم إلى سادتهم النمسويين : ويبدوا أنهم قد أصابتهم عدوى روح الثورة التى كانت قد بدأت فى الظهور فى فرنسا فى تلك الفترة والتى كانت قد سبقت إجتماع مجلس طبقات الأمة . وتم التفاهم ببطء بين العناصر غير الراضية ، والتى كانت أصولها مختلفة : وسرعان ما يعترف الجميع بأحد المحامين ، فونك Vonck كرئيس لهم . وكان الشعار العام هو تحرر الوطن ، ودون الإلتجاء إلى فرنسا ، التى سيكتفون بمجرد حصولهم على عواطفها . وتم إنشاء جيش من الوطنيين ، وبدأت المواجهات تحدث مع القوات النمسوية إبتداء من

شهر سبتمبر . وجاءت الإنتصارات الأولى لكى تسحر الرأى العام . وشيئاً فشيئاً ، أصبحت البلاد كلها فى لهيب النيران ، وقامت السلطات النمسوية بتحريك القوات ، وأخلت بروكسل والمواقع الرئيسية : وكانت أنفرس آخر من سلم فى شهر مارس ١٧٩٠ . ولكن الخلافات سوف تظهر سريعاً بين صفوف الوطنيين. وسوف ينتج عن ذلك نوع من الفوضى . وسيستفيد الامبراطور من ذلك ، فى أثناء خريف ١٧٩٠ ، لكى يعيد سلطته من جديد .

وعلينا أن نعود الآن إلى بلاد الدانوب الأدنى ، وحيث كان النمسويون بدورهم مشتبكين ضد العثمانيين فى شهر فبراير ١٧٨٨ . ففى نهاية العام ، ذهب جوزيف وتولى قيادة جيشه . ونتيجة لمغامرته بدون حكمة فى أرض الصرب ، هزم هناك . فإضطر إلى أن يعود إلى بلاده . وفى عام ١٧٨٩ كان الماريشال لودون Laudon ، الذى تولى القيادة بعده ، أكثر منه حظاً . فسلمت بلجراد فى شهر اكتوبر بعد ثلاثة أسابيع من الحصار . وتم غزو الصرب مــــن جديد ، وذلك فى الوقت الذى تقدم فيه جيش آخر ، بقيادة الأمير كوبورج de Cobourg ، فى راضى رومانيا ، وعلى إتصال بالروس ، وإحتل بوخارست فى أحد الأوقات . أما الروس ، فإنهم سجلوا إنتصاراً أكثر وضوحاً — وبخاصة على الفرع الأعلى للدانوب ، وهو مهاجمة قلعة إسماعيلوف القوية والإستيلاء عليها — إنتشرت أصداءه إلى ماوراء حدود الامبراطورية .

وكانت النمسا ، التى تحركت بعد غيرها ، هى أول من يعقد الصلح منذ عام ١٧٩٠ . وستكون مضطرة إلى ذلك بتلك الأزمة الداخلية التى هزت أجزاء مختلفة من الامبراطورية — فكانت المجر وأبناء ترانسلفانيا يزأرون بالثورة فى نفس الوقت الذى كان البلجيكيون فيه فى ثورتهم المعلنة وفى نفس الوقت بتهديد جديد بتدخل بروسى فى الأراضى المنخفضة

وفى شهر يناير ١٧٩٠ ، بدأ جوزيف ، وبموافقة من القيصرة ، أمر الدخول فى محادثات صلح مع الأعداء ، وتم التوقيع على هدنة فى شهر سبتمبر . ثم سيكون الصلح فى سيستوفا فى شهر يوليو ١٧٩١ ، وهو الذى ستعيد به النمسا بمجموع ماغزته تقريباً . أما الروس فإنهم سوف يستمرون ، من جانبهم ، فى الحرب حتى شهر يناير ١٧٩٢ (معاهدة إياسى) .

ولقد أنهى جوزيف ، سيء الحظ هذا ، فترة حكمه فى عشية الصلح (٢٠ فبراير ١٧٩٠) ، وهو حكم لم يكن ، فى الخارج أو فى الداخل ، إلا سلسلة من الحركات غير الموفقة ، والإجهاضات ، وسوء الحسابات . وكانت حسن النية ، ولاحتى الذكاء ، قاصرة لديه . وكان أعتماده على فرنسا — فرنسا التى كان فى وسعها بالفعل أن تمارس التحالف النمسوى — يمكنه أن يكون أملا رائعاً لأوروبا ، والتى كان فريدريك الثانى ، الذى إختفى بضع سنوات قبله ، يمثل فألها السيء . وفى الإجمال ، لم يتمكن إلا أن يكون غير موفق ، وغير ذى حظ ، بين الذين إشتركوا فى تأسيس قوة بروسيا . وكان قد كتب بنفسه ، وبكل صفاء ذهنه فقرة ، سبق بها حكم من يأتى بعده ، والتى على التاريخ المحايد أن يتذكرها : «هنا يرقد أمير كانت نياته خالصة ، ولكنه شقى برؤيته كل مشروعاته تفشل» .

الفصل الحادي والثلاثون

خارج أوربا

علينا أن نميز، وبشكل منفصل عن الهند، وحيث رأينــا الفرنسيين والإنجليز يتواجهون فى أواسط القرن، وجود مركزين مهمين جديرين بالإهتمام فى قارة آسيا فى ذلك العصر: إمبراطورية الشاة، وإمبراطورية إبن السماء، أى فارس والصين.

١ - فارس:

ولقد ذكرنا، فى حديثنا عن بداية العداء الروسى العثمانى فى الشرق الأوسط، أصول الخلافات بين فارس وروسيا. وكانت عملية غزو روسية أولى قد ميزت، فيما وراء القوقاز، وبحر قزوين، عام ١٧٢٢، والذى كان أحد السنوات الأخيرة من حكم بطرس الأكبر. وكانت قد سهلتها، وتسببت فيها إلى حد كبير، تلك الإضطرابات التى كانت مضطرمة فى إيران منذ عدة سنوات: إضطرابات داخلية، زادت من خطورتها تلك الصعوبات الخارجية، مع أهالى شبه رحل فى أقاليم الإستبس القريبة من بحر قزوين، الأوزبك، وكذلك مع الأفغان. وأفاد العثمانيون من هذه الظروف. فدخلوا، هم كذلك، فى حرب ضد جيرانهم الفرس، ومزقوا معاهدة زوهاب، والتى كانت منذ ثلاثة أرباع القرن (٢٧ مايو ١٦٣٩) قد أنهت فترة طويلة من الحروب. ولقد أدت أحداث ١٧٢٢ — ١٧٢٣ إلى تفكك فعلى فى الإمبراطورية، وإلى سقوط الدولة الصفوية، وإنتهاء حكم تلك الأسرة، التى سيرثها أحد القادة المحظوظين، نادر شاه.

وكانت أصول الغزو الروسى هى دوافع إقتصادية، وعلى الأقل فى جزء منها؛ فكانت إحدى الشعارات التى أعطاها بطرس الأكبر: «رؤية إذا ما كان من

الممكن عن طريق فارس المتاجرة مع الهند ، وعاد السلم بسرعة ، وبعد أن وافق الشاه على التنازل عن مدن دربنت وباكو . وأخذوا فى التحدث عن تحالف موجه ضد العثمانيين — الأمر الذى أدى إلى تدخل هؤلاء الاخيرين . ولسوف تستمر المرحلة الجديدة للحرب العثمانية الفارسية حتى عام ١٧٤٧ . وكان أحد موضوعاتها الرئيسية هو إمتلاك تبريز ، ذلك المركز التجارى الكبير بين آسيا الداخلية ، وآسيا الوسطى : فدخلها العثمانيون فى عام ١٧٢٥ ، وبعد عامين من المجهودات ، وبعد أن كانوا قد إحتلوا تفليس وجزءاً من جورجيا .

وقبل ذلك ، وفى حياة بطرس الأكبر ، كان قد تم التوقيع على الصلح بين إستانبول وبطرسبرج (٨ يوليو ١٧٢٤) . وكانت فرنسا قد أسهمت فى ذلك إلى حد بعيد ، وذلك عن طريق سفيرها فى إستانبول ، الذى عمل كوسيط ، وشارك فى كل مراحل المفاوضات . وإنتهوا إلى الإتفاق على تقسيم الأقاليم الإيرانية المتنازع عليها ، وإحتفظت روسيا بدربنت وباكو . وتحدثت الوثائق عن « صلح دائم » .

وفى ذلك الوقت ، إستمرت الحرب فى آسيا ، وجاءت إنتصارات الأفغان فى الشرق لكى تغرى الأتراك على العودة إلى السلاح فى عام ١٧٢٦ . وفى هذه المرحلة الجديدة للحرب إنتصر المعتدى . فمنحته المعاهدة التى تم التوقيع عليها فى معسكر همدان ، يوم ١٣ أكتوبر ١٧٢٧ ، تنازلات إقليمية جديدة ، وإعترف الشاه الجديد فيها بالسيادة الروحية للسلطان ، وبصفته خليفة ، أى « أمير المؤمنين » . وحدثت بعد ذلك تعقيدات داخلية فى إيران ، حيث تنازع إثنان أن الوصول العرش . وفى عام ١٧٣٠ مزق المنتصر المعاهدة المعقودة مع العثمانيين ، وإستعد من جديد للحرب ، وأعاد غزو تبريز ، وذلك فى الوقت الذى كان الروس والنمسويون يهددون فيه الإمبراطورية العثمانية فى أوربا . وجاءت معاهدة همدان

الجديدة (١٠ يناير ١٧٣٢) لكى تعيد حدود القرن السابق بين الإمبراطوريتين الإسلاميتين . وبعد قليل ، بدأت نفس القصة من جديد ، حين وصل نادر بدوره، فى عام ١٧٣٣ ، إلى السلطة : فرغم المعاهـــدات ، أمر الشاه الجديد قواته بالتحرك . وفى هذه المرة ، إنتصر الفرس إنتصاراً كبيراً .

وكان التهديد بتدخل روسى فى صالح الشاه قد أسهم إلى حد بعيد فى ضمان هذا الإنتصار له . وكانت القيصرة أنا إيفانوفنا Anna Ivanovna ترغب فى أخذ ضمان ضد العثمانيين ، فوقعت فى جنجة (٢١ مارس ١٧٣٥ ، على معاهدة صلح وصداقة مع الفرس ، نصت على إعادة أقاليم بحر قزوين التى كان قد تم التنازل عليها منذ إثنى عشر عاماً . وهكذا إستعادت إمبراطورية الشاه تلك الحدود التى كانت لها قبل بدأ أزمة عام ١٧٢٢ . وفى ذلك الوقت ، حصل القائد المنتصر ، نادر ، على تاج إيران . وفيما بين العثمانيين والفرس تمهد الطريق للصلح . ولكنه تأخر انيجة لبعض العوامل المذهبية . وكانت الفرصة قد ظهرت مناسبة ، لدى هذا الجانب وعند الجانب الآخر، للتفكير فى توحيد المذهبين، السنى والشيعى . ولقد أظهر نادر حسن إستعداده ، وبدأت مناقشات طويلة . ولكنهم إعتقدوا فى إستانبول أن فى وسعهم أن يجعلوا الفرس يقبلون السيادة الزمنية والروحية للسلطان فى نفس الوقت . وأدى تطرف المطالب العثمانية إلى فشل المحادثات ؛ وإنقطعت لفترة طويلة .

ذلك أن نادر كان قد دخل فى مشروعات كبيرة فى إتجاه الشرق . ففى أفغانستان ، عاد إلى تخريب قندهار (مايو ١٧٣٨) . وبعد ذلك ، وحين علم بضعف قوة سلاطين المغول ، أخذ فى مهاجمة إمبراطوريتهم ، ولم يجد عند الحدود سوى مقاومة ضعيفة ، وتمكن بعد إنتصار باهر فى بانيبات ، من الدخول إلى دلهى ، التى تم الإستيلاء على ثرواتها ، والقضاء على جزء كبير من سكانها

(١٧٣٩) . وعند إنسحابه ، حصل على معاهدة تنازلت له عن كل الأراضى الواقعة إلى الغرب من نهر السند .

وبعد أن دفع نادر بهذه الحملة المنتصرة صوب الجنوب الشرقى ، أخضع لسلطته خانات خيوا وبخارى ، وحيث كانت تقتهى ، كما ذكرنا ، طرقاً تجارية هامة بين أوروبا وآسيا . وكانت خراسان ، بلاده الأصلية ، قد زادت أهميتها . ونقلت عاصمة الإمبراطورية مؤقتاً إليها ، فى مدينة مشهد .

وخمدت الحرب فى آسيا الصغرى ، خاصة وأن العثمانيين كانوا ، فى ذلك الوقت ، فى حرب جديدة مع الروس والنمسويين فى بلاد البلقان . ولكن الحرب عادت من جديد حين رجع نادر ، بعد إنتصاراته الكبرى فى الشرق ، مرة أخرى وإستدار إلى ناحية الغرب وحصل على إنتصارات جديدة ، وإنتصارات حاسمة . وفى عام ١٧٤٥ وافقت حكومة السلطان على أن تأخذ دوساً من الأحداث . وبعد التخلى عن مشروع الوحدة المذهبية ، إتخذوا أمر إعادة تطبيق معاهدة عام ١٦٣٩ كأساس للمفاوضات . وأشارت إلى ذلك بوضوح معاهدة السلم الجديدة ، التى تم وضعها فى عام ١٧٤٧ . وهكذا إنتهت فترة خمسة وعشرين عاماً من الحروب بين العثمانيين وبين الفرس . وستظل معاهدة عام ١٧٤٧ محترمة طوال بقية سنوات القرن .

وفى نفس هذا العام ، ١٧٤٧ ، تم إغتيال نادر . وأخذ التفكك الداخلى يهدد الفرس ، كما كان قد هدد الهند بعد أورنج زيب . وفى الخارج ، كان من الضرورى الإستمرار فى محاربة الأفغان ، الذين حاولوا التحرر من سلطة فارس . ولن تبدأ فارس تلعب دورها ، كدولة ، إلا بعد نصف قرن من ذلك ، وحين تصل أسرة قاجار إلى السلطة .

وأخذت الحروب وقلة الأمن العام تقلل من أهمية هذه الأسواق ، والأماكن

المميزة للتبادل التجارى بين أوربا وآسيا . وأصبحت الطرق التى أنشأها عباس أقل إستخداماً عما كانت عليه فى الماضى ؛ أما تلك التى كانت تربط منطقة الخليج بالمراكز التجارية ، فقد هجرت تقريباً . وعلى العكس من ذلك ، نجد أنه ، إبتداء من ذلك الوقت ، والذى عادت فيه حسن العلاقات مع الروس ، أخذ طريق بحر قزوين والفولجا أهمية جديدة تماما . وفى منتصف القرن ، إنشئت شركة فى لندن لكى تدخل من هناك الأقمشة التى كانت جيوش الشاة فى حاجة إليها . وجاء الحرير بعد ذلك ، وفى إتجاه مضاد ، وعلى نفس الطريق الذى تسير فيه الأقمشة الإنجليزية . وظل الحرير الخام دائما من منتجات فارس الممتازة . وكان الأرمن هم الذين يتاجرون فيه بنوع خاص . وكانوا يصدرونه إلى كل البلاد الأوربية . وكان الإنجليز ، والهولنديون ، والبنادقة ، الذين يرسلون أصوافهم ، يستقدمون فى نفس الوقت ، ومع الحرير ، بعض الأصواف الممتازة ، وبخاصة أصواف كرمان .

ومن ناحية آسيا ، كانت العلاقات التجارية أقل أهمية نسبياً . فكانت الهند تستورد الفواكه ، المجففة أو المسكرة ، والأنبذة ، والطباق ، والجلود ، والسجاجيد الخ . وكانت الصين ترسل منتجاتها بالقوافل ، التى تصل إلى بغداد وإلى حلب ، ثم إلى أوربا . أما طريق البحر فإنه لم يستخدم إلا فى مبادلات نادرة كانت تتم عن طريق وساطة الشركات الأوربية التجارية .

٢ ــ الهند وبورما والهند الصينية :

وكنا قد توقفنا ، فى القسم الأول من هذا الكتاب ، عند أواسط القرن السابع عشر ، فى دراستنا للتقدم الذى تم فى المحيط الهندى ، بواسطة الدول البحرية الأوربية المختلفة . ثم إنشغلنا ، بالنسبة للقرن الثامن عشر ، بتلك

المنافسات التى كانت قد نشأت فى الهند ، بين آخر من وصل إلى هناك ، فرنسا وإنجلترا .

وكانت البرتغال ، أكثرها قدماً هناك ، لم تعد تمتلك ، فى ذلك الوقت سوى جوا ، وديو ، ودامان ، إلى الشمال من بمباى . وكان الهولنديون عثاون فى جميع أنحاء شبه القارة .وكانوا قد إستقروا ، فى أول الأمر فى كوشين (ساحل ملابار)، ثم فى نيجاباتام ، وسادراس ، وبوليكات (ساحل كوروماندل) ، وأخيراً فى جزيرة سيلان ، وحيث كانت أكثر مراكزها التجارية أهمية هو ترنكومالى ، فى الشمال الشرقى منها . وتاريخيا ، كان آخر مراكزها التجارية هو شنسورا ، فى البنغال ، الذى أنشىء فى عام ١٦٥٦ ، وأكثر منه إلى الجنوب مركز مازوليباتام ، الذى أنشىء فى عام ١٦٦٠ ؛ وكان جيرانهم هناك هم الإنجليز منذ عام ١٦٦١ ، والفرنسيين منذ عام ١٦٦٩ ،ولقد تنازلوا للإنجليز عن الموقع بعد معاهدة باريس، فى عام ١٧٦٥ .

وكانت لحرب السنوات السبع نتائج فيها وراء شبه القارة الهندية ، وعلى بورما بنوع خاص . فىعام ١٧٥٩ ،ونتيجة لتزويد الفرنسيين للأهالى بالأسلحة ، تم تخريب المركز التجارى البريطانى فى رأس نيجريس، كا تم قتل كل من كان فيه . وفى السنوات التالية التالية ، نشبت الإضطرابات بين أهالى بورما وبعضهم ، وأضيرت فى ذلك المصالح الصينية . فإنتهز إمبراطور الصين هذه الفرصة وقام بإرسال أحد جيوشه إلى هناك . وإضطر أهالى بورما ، بعد هزيمتهم فى معركة على ضفاف نهر سلوين ، إلى الإعتراف بتبعيتهم وبدفعهم الجزية فى عام ١٧٦٨ .ومع ذلك فإن الهدوء لم يستتب فى البلاد . ونشبت ثورة عند أهالى بيجو ، الذين كانوا يسكنون المنطقة الساحلية،والذين كانوا لا يزالون يذكرون أيام إستقلالهم. وحين تمكن ملك بورما من السيطرة على الموقف ، قام بغزو سيام ،والتى كانت قد عاونت الثوار . وإستولى على أيوتيا ، بعد عامين من حصارها . وعندئذ نقلت

العاصمة إلى بانجوك ؛ وذلك فى الوقت الذى تم فيه عزل الملك . وظـل الخلاف على وراثة عرشه مستمراً لعدة سنوات : وفى عام ١٧٨٢ سيقوم أحد جنرالات الجيش المنتصر بتأسيس أسرة حاكمة ، سوف تحكم طوال كل القرن التاسع عشر .

وإستمرت شبه جزيرة الهنـد الصينيـة ، منذ القرن السادس عشر ، مسرحاً لصراعات بين الأسر الحاكمة المتنافسة والتى كانت تحكم فى تونكين أو فى آنام ، تحت السيادة الإسمية لأسرة لى .وحصل حكام نجوين من وقت مبكر على مساعدة البرتغاليين . وفى بداية القرن السابع عشر حصلوا منهم ، وفى مناسبات عديدة ، على الأسلحة والذخائر ، وفى نظير ذلك أعطوهم تسهيلات لتجارتهم .وكما حدث فى أماكن أخرى — وبخاصة فى الخليج الفارسى — مهدوا الطريق أمام الهولنديين ، والذين سرعان ما جاء وراءهم الإنجليز . ولكن محاولات إقامة هؤلاء أو أولئك كانت فاشلة . وإنخفضت العلاقات التجارية إلى الصفر ، أو قريباً منه ، فى بداية القرن الثامن عشر .

وبمساعدة الفرنسيين، تمكن ملك شاب ، هو نجوين — آن **Nguyen-Anh**، فى السنوات الأخيرة من القرن ، من أن يضع حداً للفوضى ، ومن أن يؤسس إمبراطورية تعيش . ولم تكن حكومة لوى السادس عشر هى التى أخذت المبادرة بشأن التدخل ، ولكن أحـد الأساقفة **in Partribus** ، بينيو دى بيهن **Pigneau de Béhaine** المعين راعياً لكوشين صين ، منذ عام ١٧٧١ .وكان قد تحمس لقضيـة نجوين — آن ، وذهب إلى بونـد شـيرى للدفاع عنهـا ، ثم إلى باريس ، وحصل فى ٢٨ نوفمبر ١٧٨٧ ، على معاهدة رسمية ، تمنح لمن يخضع لحمايته عوناً مسلحاً ، وفى نظير وعد بالتنازل عن بولو كوندور وهاينان ، وكذلك منح إمتيازات تجارية فى كل شبه الجزيرة . ومن جانب آخر ، سيكون لهذه المعاهدة قيمة كبيرة من الناحية المعنوية ، خاصة وأن قائد قوات الهند لم ير

ضرورة فى إعطاء المعونة العسكرية المنصوص عليها . ولكن ذلك لم يثبط من مجهودات الأسقف . ونجح فى أن يزود من خضع لحمايته ، وعلى حساب الملك ، بالأسلحة والذخائر والتموين ، التى كان فى حاجة إليها . ولقد رأوه حتى يشارك فى بعض العمليات العسكرية ، إلى جانب عدد من المتطوعين الذين تمكن من جذبهم، حين بدأت ، فى عام ١٧٩٠ ، حركة الهجرة فى بلاط فرنسا . ولقد إستمر الصراع لمدة ثلاثة عشر عاماً . وبعد الحصول على النصر بشكل نهائى فى عام ١٨٠٢ ، أعلن نجسوين — آن نفسه إمبراطوراً فى هوى . وصوف يحكم ، بإسم جيا لونج Gia-Long ، ولأول مرة ، على كل إتساع بلاد الهند الصينية ، من خليج سيام حتى الحدود الصينية .

٣ ـ الصين :

فى اليابان لم يحدث أى تغير فى تلك العزلة التى أغلق بها الأباطرة على الأمة فى عام ١٦٣٨ — إلا أنه ، بالنسبة لأصداء الاستكشافات العلمية التى رددها العالم قرب منتصف القرن ، بدأت الحدود فى الإنفتاح أمام بعض الكتب التى كانت تأتى من الغرب .

وفيما بين الصين واليابان ، لم تحدث صدامات أخرى بشأن كوريا ، ولا بين الروس والصينيين عند حدود منغوليا .

ولقد ظلت معاهدة نرتشنسك تحكم العلاقات الصينية — الروسية . وكانت حكومة بطرس الأكبر قد بذلت مجهودات من أجل الحصـــول على تمثيل دائم فى بكين : وكانت سفارة خاصة قد قدمت طلباً بذلك منذ عام ١٦٩٢ . وكانوا مستوحين من السابقة التى كانت قد قدمتها الدول الكاثوليكية ، بأن يقيموا فى العاصمة الصينية ، فى عام ١٧١٦ ، بعثة دينية . وذهبت بعثة جديدة إلى بكين فى عام ١٧٢٠ : وقابلها الإمبراطور ، ولكنها إنسحبت كذلك دون أن تحصل

على أى شىء . وفى عام ١٧٢٧ فقط ، إنتهت الصعوبات الموجودة بين البلدين بإتفاقية مكتوبة ، أكدت معاهدة نرتشنسك ، وعدلت من بعض فقراتها ، وهى معاهدة كياختا (١٤ يونيو) . وأعطيت فيها تسهيلات جديدة لتجارة الغرب . وحددوا فيها بنوع خاص أنه ، كل ثلاثة أعوام ، يسمح لقافلة تضم عشرين تاجراً روسيا بالإقامة فى بكين . ورأى القيصر فيها إعترافاً بحقه فى أن يحتفظ هناك ببعثات دينية ، تتمتع فى نفس الوقت بدور الممثلين الدبلوماسيين . ولقد إضطروا ، من أجل الوصول إلى نجاح المفاوضات ، إلى الاستعانة مرة جديدة باليسوعيين . أما فيما بعد ، فمن الممكن الإستغناء عن معونتهم ؛ إذ أن البعثة الكنسية المنصوص عليها سوف تضم تراجمة ومترجمين .

ولذلك فإن العلاقات المستمرة أخذت فى تنظيم نفسها ، والإنتظام ، فيما بين الإمبراطورية الروسية وإمبراطورية الصين . وحضرت سفارة صينية كبيرة إلى موسكو فى عام ١٧٣١ ، بعد وفاة بطرس الثانى بقليل . وكانت تضم ما يقرب من مائة شخص ، وأقامت هناك ستة أشهر . وجاءت غيرها ، وعلى فترات ، منظمة بشكل أو بآخر . وفى أثناء ذلك الوقت تعرقل تطبيق معاهدة كياختا بحوادث متتالية : وكان الصينيون يستمرون فى فضح تحايل الروس . وكان الروس لا يفيدون دائماً من التسهيلات الجديدة التى كانت تمنح لتجارتهم ؛ ولا نجد فى المدة التى تقرب من الثلاثين عاماً سوى ست قوافل روسية فقط وصلت إلى بكين . ومع ذلك ، فإن معاهدة عام ١٧٢٧ ظلت سارية حتى أواسط القرن التاسع عشر . وأصبحت كياختا ، تلك البلدة الهامة التى تقع على طريق بنى منذ بعض الوقت عبر منغوليا ، هى المركز الرئيسى للمبادلات الصينية والروسية .

وعلى سوق سيبيريا ، أصبح الراوند الصينى يلقى منافسة من جانب الراوند الذى كان يصل من أوربا ، وبخاصة من سيليزيا . كما أن الطباق كان يرسل بكميات

متزايدة من المستعمرات الأمريكية لإنجلترا . وكانت العلاقات التجارية مع الغرب أقل أهمية وبكثير بطريق البر عنها بطريق الموانى ، طريق كانتون ومكاو . وكانت كل دولة من الدول العظمى الغربية التى تمتلك إحـــدى الشركات ذات الإمتياز للتجارة مع الشرق الأقصى ، ممثلة فى كانتون بواسطة وكلاء خاصين بها . أما الحقوق الكاملة والشاملة للمتاجرة مع الأوربيين فإن الإمبراطور قد منحها لمجموعة من التجار يسمون كو ـ هانج وحين قامت حكومة لوى السادس عشر فى عام ١٧٧٦ بوقف إمتياز الشركة الفرنسية ، تم إنشاء قنصلية ملكية فى كانتون .

وكان الروس ، منذ وقت بطرس الأكبر ، قد وصلوا إلى سواحل المحيط الهـــادى . وجاء المساحين السويديين لبناء السفن فى أوخستوك . وقام بيرنج الدانمركى Bohring ، والذى كان فى خدمة القيصر ، بالأقلاع بحراً على طول السواحل المطلة على ذلك المضيق الذى سوف يعطونه إسمه فيما بعد ، وتمكن فى عام ١٧٣٠ من أن يشهد بعدم وجود أى إتصال برى بين قارتى أمريكا وآسيا . وسمحت له رحـلة أخرى ، قام بها فى عام ١٧٤٠ على طول السواحـل ، وأيضا إبتداء من أوخستوك ، بأن يستكشف كامتشكا .

وفى آسيا الوسطى ، إستمر الصينيون فى التصادم مع عناصر إليوط ، الذين وصل بهم الأمر إلى إنشاء دولة فعلية . وإلى الغرب أكثر من ذلك ، كانت تعيش عناصر القلموق ، وهى تشكيلة أخرى من القبائل ، من نفس العنصر ، أو من عنصر مشابه . وكانوا بنوع خاص على علاقة وإتصال بالروس ، والذين كانوا يتوغلون ببطء فى التركستان منذ عهد بطرس الأكبر . وفى عام ١٧١٦ ، كان أحد الجيوش القيصرية الذى يصعد نهر إرتيش قد أصابته هزيمة ساحقة ، فأصبح شعار موسكو هو التصالح مع هؤلاء الجيران الخطرين ، أو على الأقل ضمان حيادهم فى حالة نشوب مشروعات فى الخارج . ثم قام عدد كبير من خانات أوزبك ، فى سنوات

١٧٣١ — ١٧٣٣ ، وفى فترة حكم أنا إيفانوفنا ، بالموافقة على القسم بالطاعة للقيصر . ومنذ هذه الفترة ، أصبح النفوذ الروسى والنفوذ الصينى فى منافسة معلنة فى هذه المنطقة .

ونشأت أزمة حكم عند إليوط ، فى أواسط القرن ، وأدت إلى تدخل صينى ، بعد أن كان أحد مدعى العرش قد طلب مساعدة جاره القوى ، الإمبراطور كيان لونج Kien-Long (١٧٣٦ — ١٧٩٩) . وإنتصر فى عام ١٧٥٤ . ولكنه لم يتحمل السيطرة الصينية التى نتجت عن ذلك ، وحاول التخلص منها ، ولم ينجح إلا فى أن يتسبب من جديد فى عملية غزو لبلاده . وإضطر بعد بضع سنوات التخلى عن السلطة ، ونفى نفسه . وتسببت عملية الإنهاء على دولة إليوط فى عملية إستقلال القلموق . وأصبحت المنطقة باكلها — دزونجاريا — خاضعة للصين . وسيصبح الروس والصينيون ، نتيجة لذلك ، متجاورين ، على طول نهر إرتيش ، وفى منطقة سميرشيا ، فى الإستبس ، قرب بحيرة بلخاش . وسرعان ما تظهر خصومات هناك بشأن خط الحدود .

وشهد حكم كيان لونج كذلك إمتداد السيادة الصينية على التبت . وكان ذلك نتيجة مباشرة لأحداث التركستان : ذلك أن دلاى لاما Dalai-Lama كان معتبراً حتى ذلك الوقت على أنه يخضع لسادة إليوط .

وكانت مجموعات أخرى من أصل مغولى ، وهم قبائل تورجوت ، والذين كانوا جزءاً من دزونجاريا فى السنوات الأولى من القرن ، قد جاءت وإستقرت ، وبتصريح من بطرس الأكبر ، على سواحل بحر قزوين وقولجا السفلى . وتحت حكم كاترين الثانية ، طلب هؤلاء التورجوت من كيان لونج أن يقبلهم ، إذ أنهم كانوا قد قرروا العودة إلى بلادهم الأصلية : فقبل الإمبراطور ذلك بسرعة ، خاصة وأن هذه العملية كانت تساعد على زيادة هيبته . وهكذا بدأت خمسين ألف

أسرة كما يقولون ، أى ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ شخص ، فى السير ، قرب عام ١٧٧١ ، وعبرت كل آسيا الوسطى . وتركت عملية « الخروج » الشهيرة هذه ، ذكريات عديدة فى الأدب الصينى ، وكذلك فى الأدب الروسى .

٤ — علاقات آسيا بأوربا :

منذ القرن السابع عشر بدأ روح الفضول ، لشئون آسيا ، فى الظهور فى أوربا . وكان قد ساعد على ذلك تلك الروايات الأولى من رحلات الاستكشاف ، مثل تلك الرحلة التى قام بها ، فى عام ١٦٦١ ، الأبان اليسوعيان ، اللذان عبرا القارة من جانبها إلى الجانب الآخر ، وعبرا من الصين إلى الهند ، ووصلا إلى التبت . وسوف يهتم القرن الثامن عشر بجغرافية القارة وبحضاراتها القديمة ، فى نفس الوقت . وتم فى باريس نشر أطلس كامل لإمبراطورية الصين ، فى عام ١٧٢٧ . وشاهدوا ، فى فرنسا وفى إنجلترا ، نشأة ذلك العلم الجديد الذى سوف يسمى ، بعد وقت ، « الإستشراق » Orientalisme وبدأ رجال باحثون يأخذون طريق الهند ، مثل أنكتيل دوبرون Anquetil-Duperron ، والذى قام فى عام ١٧٧١ ، وبعد عودته ، بأن نشر فى باريس ترجمة كاملة لزند آفستا . وأصبحت أوساط رجال البعثات الدينية بنوع خاص تميل إلى تعلم السنسكريتية .

وفى مناطق الإتصال اليومى بين أوربا وآسيا ، وفى المراكز التجارية لشرق البحر المتوسط ، قلت أهمية الحركة التجارية بشكل ملحوظ فى أثناء هذا القرن . ويمكننا أن نرى فى ذلك نوعاً من الجانب الآخر لذلك التأثير المتزايد على التجار من كل البلاد ، من جانب الأقاليم التى خضعت بالفعل للإستعمار ، فى الهند الشرقية ، والهند الغربية .

وكان الفرنسيون قد تراجعوا فى أثناء القرن السابع عشر ، أمام الهولنديين والإنجليز ، والذين كانت أصواقهم قد أكدت أنها من نوعية أكثر ارتفاعاً وبشكل واضح . ثم جاءت مجهودات كولبير ، سواء فى الشئون الصناعية أو فى الشئون

التجارية ، وأعطت ثمارها ، واستعادت فرنسا كل زبائنها وخسرت البندقية ، وأخذت الأقاليم المتحدة فى الضعف، وتوقف التقدم الإنجليز منذ ما قبل منتصف القرن . وحتى فى المراكز التجارية فى شرق البحر المتوسط ، وحيث كان الانجليز فيما مضى قد حصلوا على المكانة الأولى، فى أزمير مثلا ، أو حتى فى حلب، استعاد إبناء مرسيليا شيئاً فشيئاً هذه الميزة ، نتيجة لتفوق صناعة المنسوجات الفرنسية .

وكانت الموانى التى يمكن للأوروبين أن يصلوا إليها دائماً ، فى أثناء القرن الثامن عشر ، هى موانى بحر إيجة كلها . ولم يكن يسمح ، حتى ذلك الوقت ، لأية سفينة مسيحية بأن تعبر البوسفور . وكان الأتراك يذكرون أن السلطان كان مستعداً لـــكى يفتح للأجانب أبواب الحريم أكثر من السماح لهم بفتح مدخل البحر الأسود .

٥ ـ المحيط الهادى :

وعبر منطقة المحيط الهادى الشاسعة ، لم يكن البحث عن أسواق جديدة أمراً يجتذب الجشع ، كما حدث بالنسبة لآسيا ، المليئة بالسكان . ولم يكن فى وسع المنشئات الثابتة هناك أن تكون مثمرة ؛ ولم نشاهد نشأتها . ومن جانب آخر ، لم تكن مرحلة الاستكشافات قد تمت بعد : بل يمكننا حتى أن نقول بأنها كانت قد بدأت بالكاد .وكانت المعلومات التى ذكرها ذلك العدد البسيط من الرحالة مبعثرة بشكل غريب . وسيحاول النصف الثانى من القرن الثامن عشرأن يتم هذا القطاع. وفى بعض النواحى ،كان عمل القادمين الجدد مكملا للأعمال التى كانت مستمرة فى صمت فى مراكز الدراسات الفلكية والكونية .

وبدأت سلسلة كبار الرحالة ، برحلة أحد الإنجليز، وهو الكومودور بايرون Byron ، عبر بولينيز ،وسرعان ما جاء بعده إثنان من بلده، هما والس Wallis

وكارتريت Carteret : فقـــام واليس بزيارة تاهيتى فى عام ١٧٦٧ . ثم جاء بوجانفيل Bougainville ، ذلك الضابط الذى كان قد خدم فى كندا فى أركان حرب مونتكالم Montcalm ، ثم تحول إلى البحرية وذهب، بعد معاهدة باريس، لكى يستكشف جزر مالوين . إلى الجنوب من رأس هورن ؛ وقام الفرنسيون برفع علمهم على جزر مالوين ، حيث أقامت بعض الأسر التى كانت قد طردت من آكاديا . وحين ترك بوجانفيل جزر مالوين ، إتجه صوب تاهيتى . وإستكشف ساموا وهبريدة الجديدة، ثم عاد إلى أوربا، ماراً عن طريق الهند الهولندية (١٧١٩). أما جزر مالوين التى تم التنازل عنها لإسبانيا فى عام ١٧٦٣ ، فإن إنجلترا طالبت بها بعد إنتصارها . وكانت باريس ومدريد لاترغبان فى المخاطرة بتعرض رعاياهما لمخاطر حرب جديدة ، فتركوا منافسيهم يستولون عليها، فى عام ١٧٧٠؛ فأصبحت تسمى ، منذ ذلك الوقت ، جزر فولكلاند .

وبعد بوجانفيل، جاء من جديد أحد الإنجليز ، وهو الأكثر شهرة ، الكابتن كوك Cook ، والذى كان ملاحاً وعالماً فى نفس الوقت . وكانت المهمة المكلف بها فى تاهيتى فى عام ١٧٦٨ ، لها هدف أساسى يتمثل فى الأرصاد الفلكية . وفى أثناء ثلاث رحلات متتالية قام بها فى هذه المناطق فى فترة تقرب من عشر سنوات ؛ أتم تحديد خريطة الجزر . وبعده ، لم يتم إكتشاف شىء كبير القيمة . هذا علاوة على أن سياسة الدول لن تهتم إهتماماً كبيراً بهذا الجزء من العالم قبل القرن التاسع عشر . وكان شرق جزيرة إستراليا وحده هو الذى دخل فى حياة العالم المتحضر . وفى عام ١٧٨٧، حصلت نيوساوث ويلز، والتى دانت بهذه التسمية لكوك ، على حاكم إنجليزى . وفى العام التالى ، قدروا عدد الرواد الأوائل المعمرين الذين جاءوا للإقامة هناك بألف شخص .

٦ ـ أمريكا :

لقد تحدثنا طويلا عن أمريكا — وعلى الأقل أمريكا الشمالية ، والتى كانت منطقة صدام بين الدول العظمى ، ثم مسرحاً «لثورة» لها مدى عالمياً ، نتيجة لوقوف المعمرين الإنجليز فى وجـــه الوطن الأم ، وإنشاء جمهورية الولايات المتحدة .

وعلينا أن نفكر الآن فى مصير الشعوب البدائية ، والقبائل الهندية ، والتى تم دفعها ببطء من الشرق إلى الغرب ، وصوب الداخل . وبطبيعة الحال أثر التنافس الفرنسى الإنجليزى على العلاقات التى كانت بين كل مجموعة من هاتين المجموعتين من المعمرين وبين الهنود . وكان أولئك الموجودين فى الجنوب قد عقدوا علاقات ود مع الفرنسيين المقيمين فى لويزيانا . وأفادوا من ذلك ضد الإنجليز الذين حاولوا ، من كارولينا ، أن يتقدموا فى إتجاه المسيسبى ، وفى المنطقة التى كانت تسكنها عناصر كريك . وبعد أن نجحت كارولينا الجنوبية وجورجيا ، وهى مواقع متقدمة للاستعمار الانجليزى ، فى طرد الهنود من أراضيها ، إنسحب الهنود الحر فى إتجاه فلوريدا الإسبانية ، التى إستضافتهم : وتمكن الإسبانيون بمساعدتهم من إعادة إحتلال ميناء أبلاشى ، ومن بناء قلعة سان ماركوس ، بالقرب منه . وإلى الغرب أكثر من ذلك ، وعلى طول نهر المسيسبى ، والذى كان يخدم المواصلات بين كندا ولويزيانا ، أقام الفرنسيون كذلك عدداً من القلاع ، والتى كانت القبائل المجاورة تهاجمها من وقت لآخر مثل قبائل فوكس وشيكاساو . أما المنطقة التى خضعت لعملية التنازع أكثر من غيرها فكانت هى منطقة نهر إلينوا ، والذى كان يوصل إلى البحيرات العظمى . وقامت مجموعة من القبائل المجاورة ، وأنشأت نوعاً من الإتحاد ، قام بحرب عنيفة وقاسية بشكل خاص ، ولمدة ثلاثين عام تقريباً ، إبتداء من عام ١٧٢٧ . وفى كل هذه المناطق ، كانت فترات السلم قصيرة للغاية وبعيداً

فيما وراء النهر الكبير قام الفرنسيون ببناء قلعة أورليانز ، وكأول قلعة ، على نهر مسوري في عام ١٧٢٢ . وبعد فترة من الزمن بدأت العلاقات التجارية مع الإسبانيين في المكسيك عن طريق منطقة سانتافي .

وإلى أبعد من ذلك صوب الغرب ، لم يكن الأوروبيون يزورون كاليفورنيا إلا في النادر ، حينما جاء عدد من اليسوعيين في عام ١٦٩٧ من إسبانيا الجديدة ، وأقاموا في موقع من شبه الجزيرة سموه لوريتو . وجاء أعضاء بعثات دينية أخرى من بعدهم ، ومكلفين كذلك بنشر الإنجيل ، في أثناء القرن الثامن عشر ، وبخاصة من الفرنسسكان . وحاولوا ، من هناك ، وشيئاً فشيئاً أن يعبروا المنطقة شبه الصحراوية التي سوف تصبح فيما بعد الـ «فار وست» . وفي أثناء ذلك الوقت ، إستمرت غلايين مانيلا في الوصول بإنتظام ، وفي كل عام ، لميناء أكابولكو . وبعد ذلك ، وفي النصف الثاني من القرن ، تسبب تهديد روسي غير محدد فيما وراء مضيق بيرنج بدفع الإسبانيين إلى إحتلال كاليفورنيا : ذلك أن بعض الصيادين من سيبيريا كانوا قد وصلوا ، في عام ١٧٦٣ ، إلى أرض ألاسكا . وعندئذ نشأت منشآت جديدة على الساحل ، وكان من بينها ، في عام ١٧٧٦ ، سانفرانسسكوا . ورغم أن رجال البعثات الدينية كانوا يحتلون المكان الأول هناك ، فإن التجار بدأوا في العمل . وعلى هذا الساحل كذلك ، كانت تجارة الفراء هي السائدة . وعند نهاية القرن ، أصبح خليج نوتكا ، قرب فانكوفر ، يشهد مجيء الانجليز والروس في نفس الوقت . وأظهر الإسبانيون رغبتهم في ألا يضيعوا حقوقهم ، ونتجت عن ذلك خصومة مع لندن ، في عام ١٧٨٩ ، إستمرت لمدة عام كامل ، وإن كانت قد ظلت في النطاق الدبلوماسي ، وكانت أحداثاً خطيرة تجتذب في أماكن أخرى إنتباه الدول في ذلك التاريخ .

وبعد معاهدة باريس ، نشبت حركة ثورة عند الأهالي في منطقة البحيرات

العظمى وأوهايو ، والذين كانوا يعتقدون ، ولبعض الأسباب ، أنهم سوف يجدون عند سادتهم الجدد تفهماً أقل من ذلك الذى كانوا يجدونه عند الفرنسيين، والذين كانوا يأنسون دائماً لتأثير عدد من رجال الدين، والذين كانت عملية التحول إلى المسيحية تحتل المكان الأول بالنسبة إليهم. واحتفظ لهذه الحركة بإسم مؤامرة بونتياك، وذلك نسبة لذلك الرئيس الذى تولى قيادتها. وكان رجال قبيلته، قبيلة ألجونكين، يكونون غالبية جنوده ، وكانوا يشنون هجمات مفاجئة ، فنجحوا فى الاستيلاء على المواقع الإنجليزية المتقدمة ، وذبحوا حامياتها . واحتاج الأمر إلى وقت طويل لإجبارهم على العودة إلى مناطقهم ، ولإرغامهم على الصلح . وتم إغتيال بونتياك، بعد أن أعلن خضوعه .

وفى نفس العام (١٧٦٣) ، صدر «بلاغ» ملكى يمنع سكان المستعمرات الإنجليزية من أن يتعدوا صوب الغرب خط أبلاش . وكانت كل الاقاليم التى تقع فيها وراء هذا الخط تدار بالسلطة العسكرية . وجاءت ثورة بونتياك لكى تظهر ضرورة أقامة العلاقات مع القبائل الداخلية على أساس تعاقدى. وبعد ترددات كثيرة ، تم عقد معاهدة فى عام ١٧٦٨ مع الإتحاد المسمى «القبائل الست» : وتم الإعتراف فيها للاوروبيين بإحتلال كل الأراضى الواقعة بين مجرى أوهايو ومجرى تنسى . وبعد حرب الإستقلال ، إضطرت هذه القبائل الهندية ، فى مناسبات عديدة ، إلى أن تعترف بوجودها تحت الحماية الكاملة للولايات المتحدة .

ومنذ الوقت الذى أصبح فيه للجمهورية وجود رسمى ، أصبحت مبادىء الميثاق الإستعمارى لاتطبق عليها . وعندئذ أخذت العلاقات التجارية فى النمو بحرية ، وفى كل الاتجاهات ، وبخاصة مع آسيا الصفراء . وكان الأمر لايزال فى بدايته . ومن قبل ، وقرب منتصف القرن ، كان المعمرون من إنجلترا الجديدة وكذلك من فرنسا الجديدة ، قد بدأوا فى أن يصدروا ، عبر المحيط الهادى ، أحد منتجات أرضهم ، وهو أحد النباتات ذات المزايا الطبية وحتى كانت لها أهمية

خاصة فى الصين ، والتى كانوا يسمونها هناك «جين سنج» . وعادت هذه التجارة بأرباح لها قيمتها حتى اليوم الذى قرر فيه الصينيون ، قرب حرب الاستقلال وحرمانهم من الجين سنج الأمريكى ، أنه كان أقل درجة فى جودته من ذلك الذى كانوا هم أنفسهم يزرعون . وعند نهاية الحرب،أخذت الحركة التجارية الصينية الأمريكية حجماً وأهمية حتى أن الكونجرس إختار قنصلا للعمل فى الصين .

وفى أمريكا الأيبيرية ، كان رجال البعثات الدينية ، وأكثر من التجار ، هم الذين يظهرون فى مقدمة حركة التوسع والاستعمار . وكان الأهالى الذين يتمون تحويلهم إلى المسيحية يتجمعون داخل مناطق خاصة، أو زرائب reducciones ، حيث يتمون تعليمهم ، دون أن تكون لهم أية صلة بالأهالى البيض ؛ وكانوا يقسمونهم إلى أبرشيات تدير نفسها بنفسها ، تحت إدارة كنسية.وكانت المجموعة المجموعة الرئيسية من هذه الحظائر أو الزرائب هى تلك التى كانت قد نمت فى أثناء القرن السابق عند قبائل جارانيس ، على نهر بارجواى .

ومنذ أن كانت البرتغال قد تركت نفسها تخضع لإنجلترا ،تعددت الصدامات على الحدود بين المستعمرات الإسبانية والمستعمرات البرتغالية .وكانت مسارحها الرئيسية هى ضفاف الأمزون . وفى وقت الوراثة الإسبانية ، كانت المنافسة بين رجال البعثات الدينية من البلدين فى الحوض الأعلى للامزون ، أو على بارانا ، تتضمن فى بعض الحالات عمليات حربية . وبعد ربع قرن من ذلك ، كانت الحروب البحرية بين الإنجليز والإسبانيين كذلك ردود فعلها فى أمريكا.ونتج من ذلك ، فى عام ١٧٥٠ ، معاهدة تلغى ، وفى صالح البرتغاليين ، خط تقسيم توردسيلاس القديم . ولكن هذه المعاهدة لن تنفذ أبداً.وبعد أن قام ملك إسبانيا ، شارل الثالث ، بالغاء كل بنودها فى عام ١٧٦١ ، نشبت العمليات الحربية فى العام

التالى ، ولم تنته إلا بمعاهدة باريس . وهذا الصدام المسلح الجديد ، والذى نشب فى عام ١٧٧٥ ، مكث لمدة عامين ؛ وإنتهى بمعاهدة سان إيلديفونسو (١١ مايو ١٧٧٧).

فى أثناء هذه الحروب ، مرت الدولة التى كان يديرها اليسوعيون فى بارجواى، من تحت سيطرة هذا الجانب ، لتقع تحت سيطرة الجانب الآخر . فمرت مؤقتا إلى البرتغاليين ، الذين أعادوا تسليمها مع سان إيلديفونسو . ولكن ، فى أثناء ذلك الوقت ، تم التخلى عن التنظيم الثيوقراطى الذى كان اليسوعيون قد أقاموه هناك ، وذلك بعد أن طردت جماعة اليسوعيين على التوالى من البرتغال ، ثم من إسبانيا ، وفى إنتظار أن تقرر روما نفسها أمر إلغائها . ولذلك فإن الهنود من رجال البعثات الدينية، قد عادوا إلى طريقة حياتهم التقليدية .

وكان عدد كبير من الأهالى يقاسى دائماً من نظام العمل الإجبارى — السخرة Mita — والذى كان قد فرض منذ وقت الغزو من أجل إستغلال المناجم، والذى كان إذن فى غاية الأهمية بالنسبة لبيرو . وكان هذا النظام القاتل قد أسهم فى عملية إضعاف الجنس البشرى ؛ وإن كان لم يقض عليه تماماً ، كما ذكر البعض ، فى بعض الحالات . وعند نهاية العصور الحديثة ، كانت العناصر البيضاء لا تمثل حتى النصف من بين ثمانية عشر مليون (تقريبا) من سكان أمريكا اللاتينية . فيمكننا أن نضيف ثلاثة ملايين ونصف مليون من المخلطين إلى ما يقرب من سبعة ملايين ونصف مليون من الهنود . ويدل عدد المخلطين على إختلاف سلوك وميول الأوربيين من جزء إلى جزء آخر من القارة الأمريكية . فتخليط الدماء ، وتداخل الأجناس ، والتى كانت غير مقبولة فى الشمال ، أخذت إتساعاً كبيراً فى الجنوب . وعلينا أن نضيف كذلك ، إلى هذه اللوحة الجنسية المتداخلة ، أولئك الزنوج ، الذين كانوا قد تم إحضارهم بحمولات كاملة إبتداء من منتصف القرن ، من أجل قطع أشجار الغابات، والمساعدة على تنمية المزارع البرازيلية للسكر والقهوة .

وفى العلاقات مع أوربا ، لم تكن التجارة البحرية تستخدم طريق رأس هورن ، والذى كان كبير الصعوبة . وظل المركزان الرئيسيان للتبادل هما ذاتها دائماً ، قرب برزخ بنما ، فيراكروز على ساحل المكسيك ، وإلى الجنوب أكثر من ذلك بورتو بوللو ، والتى كانت تصل إليها السلع الآتية من بيرو أو من شيلى عن الطريق التقليدى للمعادن النفيسة . ولقد ذكرنا أن مبدأ الميثاق الاستعمارى قد ألغى فى عام ١٧٧٨ . فنشأت عنه حرية تبادل تجارى كاملة مع الوطن الأم . ونتجت عن ذلك زيادة ضخمة ومباشرة ، للمبادلات .

٧ ـ شمال افريقيا :

وأخيراً ، فى إفريقية كانت رحلات الإستكشاف قد بدأت بالكاد . فكانوا يصعدون مجارى الأنهار الكبرى التى كانت قد أنشئت عندمصباتها المراكز الأولى: فبدأ البرتغاليون فى إستكشاف مناطق موزمبيق ، كما بدأ الفرنسيون فى إستكشاف مناطق السنغال .

وظلت المنافسة على أشدها وحامية بين الدول على طول ذلك الساحل الذى كانوا قد سموه من قبل «ساحل الذهب» ، وحيث كان التعامل فى المعادن الثمينة قد فقد تقريباً كل أهميته . وكان الهولنديون والفرنسيون والانجليز والدانمركيون على التوالى موجودين هناك . وكانت منطقة سيراليون هى التى يضمن التموين الخاص بشركات التجارة فى العبيد قبل غيرها . وحصلت إحدى الشركات الإنجليزية ، ذات الأهداف الإنسانية ، فى عام ١٧٨٧ ، على حق إنشاء أول مركز هناك للجوء والإلتجاء ، للسود ، الذين خرجوا عن نطاق العبودية . ومن ناحية أخرى ، نجد أن « الرابطة الإفريقية » African Association ، والتى تأسست فى لندن فى عام ١٧٨٨ ، اعطى نفسها ، وكهدف أول ، أن تضع قائمة بامكانيات القاره السوداء .

ولذلك فإن تاريخ نيابات شمال إفريقية بنوع خاص، تقريباً وحده، هو الذى سوف يجتذب إنتباهنا، فى تعاملهم مع الدول البحرية.

وفى الحياة الخارجية للنيابات، مالت إنجلترا، وقد أصبحت الدولة البحرية الأولى فى العالم، إلى أن تلعب دوراً هاماً. وقامت، فى أثناء حرب، الوراثة الإسبانية، بتزويد الجزائر بالأسلحة والذخائر: وهكذا حصلت على تسهيلات لتجارتها كانت ترفض بالنسبة للدول الأخرى.

وكان من الصعب المقارنة بين ظروف معيشة الأوروبيين المقيمين فى مدن الجزائر وتونس، وبين ظروف معيشة الأوروبيين الآخرين فى موانى ومراكز شرق البحر المتوسط. ولقد كتب أحد الفرنسيين الذين أمضى عدة سنوات فى الجزائر، فى السنوات السابقة لعام ١٧٨٩، يقول: «إنهم ينظرون إلى قناصل كل الدول هنا على أنهم رهائن»؛ فكان لا يمكنهم الذهاب إلى الميناء إلا بتصريح، وليس لهم حق حمل السيف... الخ. وبالنسبة للدول الثانوية، مثل السويد، والدانمرك، والأقاليم المتحدة، لم يكن الجزائريون يشعرون بأنهم مقيدون بأى إرتباط؛ فكانوا حتى يطلبون منهم، كل عامين، «هدايا قنصلية»، كانت تشتمل فى الغالب على معدات حربية،أو مواد للإنشاءات البحرية. أما بالنسبة للبنادقة، فإنهم كانوا يفضلون أن يدفعوا جزية فعلية، من الأموال؛ وكانت بعض الصعوبات التى نشأت، إبتداء من عام ١٦٧٦، بين الجمهورية وبين النيابات، تعود فى أصولها إلى مسألة الهدايا هذه، والتى كانوا يسمونها «المنح».

وفى خلال هذا القرن، دخل الجزائريون مرات عديدة فى حروب مع المغاربة، جيرانهم من الغرب، ومع التونسيين، جيرانهم من الشرق. وفى مرتين، زحف جيش جزائرى حتى مدينة تونس، وأجبر الباى على الهرب، وشارك فى تنصيب آخر فى مكانه. وإبتداء من عام ١٧٥٦، أصبحت تونس تدفع حتى للجزائر جزية سنوية.

وكان الإسبانيون كذلك يجدون فى بعض الحالات صعوبة فى التعامل مع الجزائر . وساءت العلاقات بينها ، وبخاصة فى أثناء الربع الأخير من القرن . وعندئذ قررت حكومة مدريد ، وتبعاً لنصيحة حلفائها الفرنسيين ، أن تتفاهم مع إستانبول . وحصلت على مفاهدة سمحت لإسبانيا بأن يكون لها قناصل فى كل موانى الإمبراطورية ، مثلها فى ذلك مثل بقية الدول المسيحية . ولكن الداى لم يوافق بسهولة على إطاعة إقتراحات السلطان ، من نفسه . فوضع أمام إسبانيا صعوبات كثيرة ، وإلى حد أنهم قرروا القيام بعملية حربية ضده فى شهر يوليو ١٧٨٣ . وقبل كل من ملك نابولى ورئيس جماعة فرسان مالطة أن يشترك فيها . ولما فشلت هذه المحاولة فى إعطاء النتائج المطلوبة ، إضطروا إلى تجديدها فى عام ١٧٨٤ ، ودون الحصول على نجاح أكبر . وأخيراً ، فى عام ١٧٨٥ ، وحين علموا فى الجزائر بأنهم يقومون باستعدادات فى قادير من أجل حملة ثالثة ، زاد ضغط الرأى العام إلى درجة إضطر معها الداى إلى التفاوض .

أما نيابة تونس ، فإنها كانت أقل ثورة من نيابة الجزائر ، بالنسبة للنفوذ الأوربى ، وخاصة بالنسبة للنفوذ الفرنسى . وكان كثير من الأجانب يقيمون بشكل دائم فى مدينة تونس ، ولم يكونوا يخضعون لنفس الشعور بقلة الثقة . كما أن الميليشيا هناك لم تكن كلها من أصل تركى ، كما كان عليه الحال فى الجزائر : فكان عدداً كبيراً من المتحولين عن المسيحية ، من أجل الحصول على أمر تحررهم بعد بضع سنوات أمضوها فى الأسر أو فى السجن ، قد خدم فى هذه القوات . كما أن التجارة الأوربية كانت فى تونس أكثر نشاطاً عنها فى الجزائر . وكانت الصادرات صوب أوربا لاتشتمل على مجرد القمح والشعير ، والزيت والشمع . فكانت هناك صناعة تونسية ، وكانت بعض منتجاتها تصدر ، وخاصة الطرابيش الحمراء ، التى كان المسلمون يضعونها تحت العمامة على رؤوسهم فى جميع أنحاء

حوض البحر المتوسط . ومن ناحية أخرى ، إستمرت تونس فى أن تكون محطة للتجارة الافريقية : فكان يصلها بإستمرار ريش النعام وتبر الذهب ، بالقوافل من السودان .

وبعد عام ١٧١٥ ، وكما كان يحدث فى كل مرة تكون فيه فرنسا وإسبانيا متحالفتان ، فترت العلاقات بين بلاط فرساى وبين النيابات . وبدت حتى أنها تسير صوب الحرب ،فى نفس اليوم الذى نجح فيه الإمبراطور شارل السادس فى عقد إتفاقيات مع تونس ومع الجزائر . وتمت القطيعة فى عام ١٧٢٨ . ولكن سرعان ماخضع باى تونس للمطالب الفرنسية . أما بالنسبة لطرابلس فإن الأمر كان يتطلب إستخدام المدافع . وتم ضرب المدينة بالمدفعية طوال أسبوع ، دون الحصول على النتيجة الموجودة . ولم يخضع الباشا هناك إلا فى العام التالى ، وحين علم بأمر إعداد أسطول جديد .

وعادت العلاقات بين تونس وفرنسا من جديد ، وأصبحت مشدودة ، قبل حرب الوراثة النمسوية بقليل . وكان ذلك بشأن مشروع الحصول على جزيرة تبرقة ، والتى كانت إحدى ممتلكات جنوا ، قرب الرأس السوداء . وكان الباى قد علم بالمفاوضات الجارية،فأمر بإحتلال الجزيرة .وإحتجت الحكومة الفرنسية، واستعدت للحرب . وبعـــد ذلك ، ونتيجة لنشوب الحرب فى أوروبا وافقت الحكومة الفرنسية على صلح يقوم على أساس الحل الوسط ، وهو صلح أعاد لها الرأس السوداء ، والتى كان قد تم احتلالها فى نفس وقت إحتلال تبرقة .

وبعد عشرين عام من ذلك ، كان أمر ضم فرنسا لجزيرة كورسيكا سبباً فى صدام جديد . وكانت حكومة الباى تهتم دائماً بمصير الجزيرة ، التى كانت تقدم ملاجىء مناسبة لرجال البحر التونسيين . وحين علمت بأمر معاهدة فرنسا مع جنوا ، أعلنت عدم رضائها . فطلبت حكومة لوى الخامس عشر تفسيرات ،

وبلهجة شديدة ، ثم أرسلت أحد الأساطيل لكي يدعم مطالبها . وتم قصف بنزرت وسوسة على التوالى بالمدفعية ، فى عام ١٧٧٠ . وتم عقد الصلح فى نفس العام ، وجاءت سفارة تحمل إلى فرساى تأسف الباى .

ومن تونس ، نمر إلى المغرب . فمنذ الوقت الذى كف فيه الفرنسيون عن أن يصبحوا خصوم الإسبانيين ، لم يحاولوا فى فاس أو فى مراكش أن ينظروا إليهم على أنهم حلفاء ولا حتى كأصدقاء . وأصبحت الحياة صعبة بالنسبة لئولئك الذين كانوا يعملون فى التجارة .وإضطرت الحكومة إلى أن تستدعى قناصلها من سلا ومن تطوان ؛ ولمدة تقرب من أربعين عاماً ، لم يعد هناك قناصل لفرنسا فى جميع أنحاء السلطنة الشريفية . ولقد أفاد الإنجليز من هذا الموقف الجديد . فجعلوا من جبل طارق ، عزناً تجارياً كبيراً ، فى نفس الوقت الذى كان فيه قلعة حربية . وحصلوا من السلطات المغربية على بعض التسهيلات من أجل تموين الموقع ، والذى كانت توجد فيه أساطيل حربية . وفى ميناء سلا ، أصبح عدد السفن الانجليزية عشرة أضعاف عدد السفن الفرنسية . ومن ناحية أخرى،أصبح القمح المغربى يصدر الآن إلى إنجلترا ، بينما أخذت الأصواف الانجليزية مكان الاصواف الفرنسية فى السوق المحلى . وفى خلاف ذلك ، أصبح العلم الوحيد الذى يحترمه رجال البحر المغاربة هو العلم البريطانى .

وبدأت فى عام ١٧٥٧ مرحلة جديدة مع حكم المولى محمد . وكان معادياً للإنجليز ، الذين أخذ عليهم مساعدة منافسه على العرش ؛ فأظهر رغبة فى التقرب إلى فرنسا . ولذلك فإن المفاوضات بدأت ، بعد عام ١٧٦٣ ، وبعد إنتهاء الحرب فى أوروبا وفى أمريكا .وتبع الاسبانيون حلفاءهم الفرنسيين،وتم التوقيع على معاهدتين فى مراكش فى نفس اليوم (٢٨ مايو ١٧٦٧) .ورغم المشابهات العديدة ، فإن هاتين المعاهدتين كانت بينها بعض الاختلافات : فن ناحية إسبانيا ،

كانت مسائل الحدود مطروحة حول الأراضى التى تحيط بالمراكز Présides المحتلة. أما فرنسا فإنها حصلت ، لحسابها ، على فقرة الأمة الأكثر وداً فى الشئون التجارية . ومنذ التوقيع على المعاهدة ،تم إفتتاح القنصلية الفرنسية ، والتى كانت شاغرة منذ وقت طويل ؛ وكان أول مرشح لها هـــو الأب أندريه شينييه André Chénier .

وفى وقت حرب أمريكا ، والحصار الذى فرضه الاسبانيـون عـلى جبـل طارق ، إمتنع المولى محمد من أن يظهر أقل ميل إلى الانجليز . وكانت عمليته الخاصة بالتصالح مع الدول المطلة على البحر المتوسط قد تمت بطريقة جيدة للغاية ، حتى أنه وافق فى عام ١٧٨٠ على عقد معاهدة جديدة مع إسبانيا توسع من مدى حسن الوفاق الذى كان قد تم فى عام ١٧٦٧ ، وتجعل منه تحالفاً فعليا : فتعهد المالكان بأن يعطى كل منهما الآخر معونته وحمايته فى حالة نشوب حرب ، وضد أعداء كل منهما .

ومن جانب فرنسا ، حدثت أزمة فى أحد الأوقات . فكان السلطان قد غضب من أن الملك كان قد رفض أن يرسل إليه ، فى عام ١٧٧٤،أحد السفراء ، كما كان قد طلب ، بدلا من مجرد قنصل . ولكى يظهر غضبه ، حذف ، من خطاب الاعتماد المسئول عن البعثة لدى لوى السادس عشر ، فى عام ١٧٨١ ، لقب « سلطان فرنسا » ، والذين كانوا قد تعودوا ، مرات عديدة أن يضيفوه للملك ، سواء فى المغرب أو فى الدولة العثمانية . وبناء على ذلك،لم يتم إستقبال المندوب فى فرساى ، وقام المولى محمد بإهانة شينييه علناً . ومع ذلك فإن التوتر لم يستمر بين البلدين لفترة طويلة ، وعادت المحادثات بعد قليل ، وجاءت معاهدة جديدة لكى تجدد وتكمل معاهدة عام ١٧٦٧ . كانت أهم نتيجة لسياسة التقارب مع الدول المسيحية ، والتى سار عليها المولى محمد ، هى إختفاء عمليات القرصنة

(الجهاد البحرى) من سلا ، وهى التى كنا قد أشرنا إليها فى بداية دراستنا القرن الثامن عشر .

٨ ـ مصر تجتذب الانتباه :

ولم تكن روح الإستعمار ، التى كانت قد أدت إلى الكثير من عمليات التوطن المختلفة فيما وراء البحار ، قد ظهرت بعد عند نهاية العصور الحـــديثة ، وفى علاقات الدول العظمى بالبلاد المطلة على البحر المتوسط .

وكانت مصر هى أول من أثار الأطماع . وتاريخ هذه الأطماع ، التى تملأ الربع الأخير من القرن ، وتنتهى بحملة بونابرت Bonaparte ، هو على إرتباط وثيق بصعوبات ومآسى الدولة العثمانية . وعلى خلاف نيابات شمال إفريقية ، كانت مصر تعترف بالفعل بسيادة إستانبول . وكان السلطان هو الذى يختار الباشا الذى يحكمها . ولكن سلطته أصبحت ، أكثر فأكثر ، محدودة بالضباط الذين كانوا يحيطون به . ولم يكونوا يعرفون غالباً ، وبشكل واضح ، أن كان هو الباشا ، أو معاونوه ،الذين يمارسون السلطة الفعلية . وكان القناصل الأجانب يجدون صعوبة فى التعرف عليهم . ولذلك فإنهم إستخدموا التعبير الجماعى من أجل الإشارة إلى الحكومة ؛ كانوا يقولون : « الحكام » .

وبعد قناريدجى ، وحينما أصبحت الإمبراطورية العثمانية مضطرة إلى أن تقوم بمجرد الدفاع عن نفسها وعلى كل الحدود ، بدأ مصير مصر يثير إهتمام الفرنسيين والإنجليز ، والذين كانوا يتنافسون على النفوذ هناك . وكانت فرنسا قوية بنوع خاص فى مصر ، وذلك بسبب أهمية تجارتها ، وعدد تجارها ، الذين كانوا يقيمون فى القاهرة ، وفى الإسكندرية ، وفى دمياط ، وهى المدن الثلاث التى كانت توجد بها جاليات فرنسية منظمـة . وفى ذلك القرن الذى أتمت فيه القهوة أمر غزوها لأوربا ، أخذ الفرنسيون ، والذين كانوا من بين أكبر

مستهلكيها ، دوراً هاماً فى تجارتها التى كانوا يمولون الجزء الأكبر منها . ومن جانب آخر ، كان العثمانيون والمصريون لا يسهلون لهم عملهم ، وكان عليهم أن يجددوا دائماً مجهوداتهم من أجل تحاشى معوقات التصدير . وفى أثناء سنوات ١٧٧٠ ،عمل الإنجليز من أجل فتح طريق البحر الأحمر ، والذى كان ممنوعاً منعاً باتاً على الأوروبيين ، بسبب قربه من الأراضى المقدسة الاسلامية .

وفى أثناء هذا الجزء الأخير من القرن ، زاد عدد المذكرات ، فى مكاتب وزارة الشئون الخارجية فى فرساى ، والتى تشتمل على دراسات للوسائل اللازمة لقطع الطريق ، فى وجه الانجليز ، المؤدى إلى الهند ، وكذلك بشأن حفر قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر . وسرعان ما أصبح الأمر يتعلق بمسألة إرسال حملة عسكرية إلى مصر . ولم يكن هناك شك فى أن فيرجين ليس هو الرجل الذى سوف يقوم بتنفيذ ذلك . ولكن الفكرة أخذت طريقها . وبعد أن إنتهت حرب أمريكا ، وجدت لها أنصاراً ، وبأعداد متزايدة . وأخيراً حصل أحد المشروعات الخاصة بحفر قناة فى برزخ السويس على القبول . وحصل أحد ضباط البحرية ، الذى تم إرساله سراً إلى القاهرة ، على إتفاقيه هناك ، وعد بها المصريون بضمان أمن القوافل التى تنقل السلع من السويس الى الاسكندرية (يناير ١٧٨٥) . ونتيجة لذلك ، أظهر السلطان غضبه ، وكلف قائد الأسطول العثمانى ، القبطان باشا ، بأن يحمل إحدى الحملات وينقلها إلى مصر . وفى شهر يوليو ١٧٨٦ ، نزل ما بين ألف و ١،٥٠٠ جندى فى الاسكندرية ، وإحتلوا الدلتا ، وتقدموا حتى القاهرة . وتم إختيار أحد البكوات المطيعين كباشا لمصر ، وذلك فى الوقت الذى قام فيه الباشا السابق بالاتجاه إلى صعيد مصر ، وإدعى أنه سوف يبقى بالقوة ، وبدأ الحرب الأهلية .

وهكذا تبدو لنا حملة بونابرت على مصر ، ومن بعيد ، على أنها تدخل فى خط تلك السياسة الجديدة ، والتى لم تتمكن حكومة لوى السادس عشر ، والتى إجتذبها الرأى العام ، ومع مرور الزمن ، من أن ترفض الموافقة عليها .

خاتمة الكتاب

فى أثناء هذه القرون الثلاثة التى درسناها ، قرون ثلاثة كبرى إذا ما نظرنا إليها من وجهة نظر الفكر ـ قرن النهضة ، وقرن ديكارت Descartes ، وقرن النور — لم تتغير الصفات العامة للعلاقات الدولية بشكل ملموس .ولقد لاحظنا أثناء عبورنا تغيرات لها دلالتها الحقيقية : ولكنها كانت قليلة فى عددها وليس لها مدى بعيد . وإذا كانت روح الحرب ، عند الأمم الأكثر تطوراً ، قد أظهرت بعض الميل إلى التراجع ، فإن الحرب ، وبصفتها أداة مميزة للسياسة الخارجية ، قد إستمرت رغم ذلك فى التحكم فى علاقات الدول مع بعضها ، وفى علاقاتها مع الدول غير الأوروبية .

وفى هذا العالم الذى كرس نفسه للحرب ، فإن مايعطى صفة خاصة للعصور الحديثة — ولإستمراريتها المباشرة ، الفترة المعاصرة — هو إستخدام وسيلة القتل الهائلة هذه . وهو المدفع ، والذى كان قد ظهر عند نهاية العصور الوسطى ، وإستمرت عملية تحسينه باستمرار . وإن قرننا العشرين وحده هو الذى سيجعله يفقد هذه السيادة ، والتى لم يجرؤ أحد من قبل على منازعته إياها ، وذلك بأن أحل عله أسلحة أكثر قطاعة منه — ودون أن ينقله من ناحية أخرى إلى مصاف المعدات التى فقدت أهميتها تماماً .

وكان المدفع ، منذ ظهوره ، أحد المعدات المكلفة . ولذلك فإنه بدا أن إنتصار القوة ، فى مثل هذه الظروف ، وكأنه يتطابق مع إنتصار الأموال.وعند نهاية العصور الحديثة ، كانت أكبر دولة عسكرية وأكبر دولة بحرية — فرنسا وإنجلترا — هما كذلك الدولتان الإقتصاديتان الأولتان فى العالم . ونتيجة للمكاسب التى كانتا تحققانها الصناعة ومن التجارة ، كان فى وسعها أن يصففا

عدداً متزايداً من قطع المدفعية ، الواحدة لكى تدعم بها واجهات المعركة التى يقوم بها المشاة ، والثانية من أجل بتحميل جوانب سفنها الحربية .

وفى العصور السابقة ، كنا قد رأينا دولا صغيرة — البرتغال أولا ثم الأقاليم المتحدة ، والتى أثرت من التجارة مع الهند الشرقية والهند الغربية ، ترتفع إلى المراكز الفعلية للدول العظمى - وتتعامل ، ولفترة من الوقت ،معاملة الند للند مع أكبر الدول . ولكن الواحدة والأخرى عادت إلى المركز التابع الذى كان يكرسه لها عدد سكانها غير الكبير . وتركتا نفسيهما تمران إلى الخضوع لإنجلترا.وسيعمل المستقبل على تأكيد وتقوية وضعية خضوعها هذه .

ولقد إعتقدنا أن من حقنا أن نقول « المغامرة البرتغالية » ، وذلك عندما كنا نذكر بذلك المصير الذى يبهر الدهشة لهذه الأمة الصغيرة ، والتى كانت هى البرتغال ، فى القرن السادس عشر . وجاءت « مغامرات » أخرى بعد ذلك ، وإن كانت مختلفة عنها شيئاً ما : المغامرة السويدية فى القرن السابع عشر ، والتى أسهم إلى حد كبير فيها وجود مواد أساسية ، لصناعة المدفعية فى أرض السويد ؛ وكذلك المغامرة البروسية فى القرن الثامن عشر وهى التى تشرح السلوك الإستثنائى لأحد الملوك ، أكثر من شرحها لسلوك أمة وسوف نرى دولة بروسيا تستمر فى نموها فى أثناء القرن التاسع عشر ؛ وإن كان ذلك لن يحدث إلا بعد أن تنجح فى أن تربط مصيرها بمصير ألمانيا كلها .

وربما ليس لنا الحق فى أن نقدم أن عصر « المغامرات » قد إنتهى ، فى ذلك الوقت الذى سوف يبدأ فيه فى فرنسا عصر الثورة الفرنسية ومع ذلك، فإن هناك شيئاً قد تغير فى العالم فلن نجد بعد ذلك دولا غنية بالمعادن النفيسة ، ولكن فقيرة فى الرجال ، تشارك فى القاءات العسكرية الكبرى . ولن تحدث الصدامات ذات الصدى الكبير ، منذ ذلك الوقت ، إلا بين دول عظمى معينة،وهى التى أصبحت

قائمتها من ذلك الوقت محددة تقريباً . وفى هـذه المرحلة الأخرى من التاريخ العالمى ، وإلى جانب الضرورات الإقتصادية ،ستظهر ضرورات أخرى متحكمة . هى الضرورات الديمغرافية ، أو السكانية . وسوف يكون وزن أكبر عدد من الجنيهات فى ميزان القوى التى سوف تتواجه أقل من وزن كبر عدد الرجال . والدول الوحيدة التى أصبح لها وزن ، منذ ذلك الوقت ، هى تلك الدول التى كان فى سعها أن تصفف على أرض المعركة عدداً هاماً من الوحدات ، إذ أنها لا تمتلك الثروة فقط ، ولكن تمتلك كذلك طاقة سكانية مرتفعة .

وهكذا أصبح قانون العدد ملموساً الآن فى عملية تطور المجتمعات الإنسانية ، مع تأثير قاهر . ووجد فى أول الأمر تعبيراً عنه فى عملية التنظيم الداخلى للدول . وسرعان ما نرى تذايد عدد المجالس التمثيلية المنتخبة ، والتى تتمكن الحكومات عن طريقها من معرفة ميول الشعوب التى تتحدث بإسمها : وسوف يحدد النظام البرلمانى ، والذى قامت إنجلترا شيئاً فشيئاً بإتمام صياغته ، والذى سوف يعرف نجاحاً تزايداً فى أثناء القرن التاسع عشر ، بتكريس سيادة مبدأ الغالبية .

وفى ميدان العلاقات الدولية ، ليست آثار قانون العدد أقل وضوحاً ، ولا أقل أهمية . وسوف يعبرون دائماً وبدرجة أكثر وضوحا عن قوة الدول بأرقام عن أعداد قواتها العسكرية . وهذه الأرقام تتمشى مع أرقام تعداد السكان ، وبخاصة منذ ذلك الوقت الذى سوف تصبح فيه ، وعلى سبيل تقليد مملكة آل هوهنزلرن ، الخدمة العسكرية العامة والإجبارية ، تنظيماً أساسيا ، ومشتركا بالنسبة لكل الدول . ومنذ ذلك الوقت سيصبح مستوى القوى الديمغرافية (السكانية) عاملا له أهمية قصوى فى الحياة الدولية . وسوف يمثل هذا سبباً إضافيا ، وسببا حاسما ومقرراً ، لكى لا نرى بعد ذلك دولا قزمة تفرض رغباتها على دول أكبر ، حتى وإن كانت أقل تنمية وجهة النظر الإقتصادية .

ولما كانت إقامة النظام البرلمانى تعنى إضعاف — إن لم يكن نهاية — النظام الملكى المطلق ، فإن ذلك يعطى نتائج معينة على الحياة الدولية . فمنذ الوقت الذى أخذت فية سلطة الملوك تصبح محددة ومحدودة بسلطة الممثلين المنتخبين للامة ، أخذ صفتها الشخصية فى الخفوت . وفقدت عمليات الإتحاد بين الأسر الحاكمة ، والتى دعمتها الزيجات ، فى فقدان أهميتها . وعلينا أن نذكر هنا تلك الظروف الطارئة — أو غير المتوقعة — والتى أدت ، فى بداية القرن السادس عشر ، إلى الجمع بين تاجين عظيمين على نفس الرأس ، وهما تاج الإمبراطوريه المقدسة ، وتاج المملكة الأسبانية . وبعد نهاية القرن الثامن عشر ، ستصبح مثل هذه الأحداث فى أوربا بعيدة الاحتمال للغاية . ولن تصبح مصائر الشعوب ، وكذلك مصائر الأراضى التى يسكنونها ، تحت رحمة مثل هذه الإرتباطات ، أو مثل هذه الصدف .

ولكن ، علينا ألا نسبق الزمن.فذلك التطور الذى نحاول رسم خطه البيانى ، لم يكن واضحا حينما جاء تاريخ ١٧٨٩ ، تاريخ الثورة الفرنسية ؛ والذى هو فى نفس الوقت نهاية العصور الحديثة . وعلينا أن نتساءل فقط ،وقبل أن ننتهى ، عن الإتجاهات التى سوف تتوجه إليها فى ذلك الوقت السياسة الخارجية للدول الرئيسية ، وهى التى تتحكم مبادراتها فى التاريخ بعد ذلك .

أما السياسة الفرنسية فإنها تخلصت من الميراث الخطير للوى الرابع عشر . ومع فيرجن ، أدارت حتى ظهرها لأحد أهدافه الرئيسية ، وهى هضم الأراضى المنخفضة . ووافق البوربون ، بعد ترددات كثيرة على عملية تقرب مع أكبر خصومهم فى الماضى ، وهم آل هابسبورج النمسا . وبالتأكيد ، أنهم لم يقوموا بإعطاء أنفسهم لهذا التحالف النمسوى الجديد دون تمنع . وكانت الصداقة العثمانية قد أصابها ، على الأقل ، شىء من النعاس ، وإنفتح الطريق أمام عقد إتفاقيات

مع روسيا . وكان الأمر فى حاجة إلى الثورة ، لكى تذكر الفرنسيين بضرورة إتمام ذلك العمل ، والذى إنقطع أكثر من مرة ، بشأن الوحدة الإقليمية .

أما السياسة الانجليزية فإنها كانت متفرغة ، من جانبها ، لإعطاء أولوية للدفاع عن المصالح البحرية والتجارية للامة . وكانت قد أصبحت سياسة إمبراطورية ، كانت الأجزاء التى تتكون منها موزعة ، عبر الكرة الأرضية ، على مجموع القارات والمحيطات . وأعلنت أنه ليس لها مصالح فى أوربا . ولكنها إهتمت بمسألة إحترام مبدأ التوازن ، والتى كانت هى نفسها البطل المدافع عنه ، منذ أن كان لوى الرابع عشر قد إستوحى من مبادىء واضحة للسيطرة .

وأما السياسة النمسوية فإنها ظلت فى أساسها موجهة فى إتجاه الشرق ، وبالتالى مخلصة للوفاق مع روسيا ، طوال الوقت الذى لا تتصادم فيه مصالح الدولتين فى البلقان . وإستمرت فى تقليل أهمية تلك المهالك الخطيرة التى يمكن أن يولدها لها أمر صعود بروسيا ، تلك الدولة المحدثة .

وأما السياسة الروسية فإنها ظلت دائماً مخلصة لذلك الإتجاه المزدوج والذى كان قد أعطاه لها بطرس الأكبر ، والذى كان معادياً للسويد ومعادياً للعثمانيين فى نفس الوقت ، وبالتالى يقوم على أساس الوفاق مع دول بحر البلطيق من ناحية ، ومع النمسا من ناحية أخرى . ويبدو أن اليقظة البطيئة للقوميات البلقانية قد ساعدت على أن تفتح أمامها إمكانيات عمل واسعة فى إتجاه البحر المتوسط .

وأخيراً ، فى بروسيا ، فإن آل هوهنزلرن ، قد أكدوا كذلك إنصياعهم للتوصيات التى كان قد تركها لهم الأكبر من بينهم . وإذا كانت هناك نقطاً سوداء فى أفق أوربا هذه ، والتى كانت الميول السلبية تبدو على أنها تتزايد فيها ، فإن ذلك كان يرجع بنوع خاص إلى قدرتهم على رؤيتها . وكان بمجرد

وجـود هـذه الدولة المفترسة يمثـل تهـديداً دائمـاً لمستقبـل وسط وشـرق القارة .

ولكى نظل مخلصين فى تفكيرنا لهذا القرن الثامن عشر ، الذى ننتهى عنـده ، أليس علينا أن نترك مكاناً لفكرة التقدم ، والتى كانت هذه الفترة ، وبقلم تيرجو Turgot أو كوندورسيه Condorcet ، قد وضعتها فى نطاق «المودة» ، والتى سوف تزداد قيمتها فى أثناء القرن التالى ؟ ألم يعمل الرجال بكل رؤية واضحة من أجل تمهيد الطريق لسعادة هذه الإنسانية التى كانت قد تصالحت فى نهاية الأمر مع نفسها ؟

ونشعر إلى أى مدى يمكن أن تصل إليه صعوبة الإجابة على مثل هذا السؤال ، إذا ما افترضنا أنها تتضمن إجابة موضوعية . ولم يكن إغـراء الحـرب قـد تناقص عند الحكام ، كما أن وسائل الحرب كانت قد أصابها التعديل ، كما ذكرنا . ويبقى أن القانون الدولى العام . فيما يتعلق بالسلم ومايتعلق بالحرب ، قد أصبح أكثر تحديداً ، وكان قد طهر نفسه بأن تخلص من بعض الممارسات المعينة ، والتى كانت موروثة من ماض بعيد ، وأصبحت الآن مرفوضة ، وعلى أنهـا تساير البربرية . ولذلك فإننا نجد أن روح «الحضارة» قد مارست ، مع ذلك ، نفوذها وتأثيرها : «الحضارة» civilisation ، ككلمة جديدة ، أو على الأقل كان قد بدأ إستخدامها — قرب عام ١٧٦٠ — وبالمعنى الذى نعطيه لها اليوم . وأما فيما يتعلق ، بالنسبة للعلاقات الدولية — وبخاصة فى الحرب — بأن تتم الحضارة الحديثة أمر إنتصارها على البربرية ، فمن الواجب علينا ، وكرجال أواسـط القـرن العشرين ، أن ننتظر وقتاً طويلا فى المستقبل ، لانعرف مداه .

وعلى أى حال فإنه من الواضح أن سكان أوربا قد مالوا ، وأكثر من الماضى ،

إلى تشكيل مجموعة أكثر إتساعاً ، بواسطة الثقافة وبواسطة العادات الاجتماعية فى الوقت . وكانت الحياة التى تحياها ، هنا وهناك ، الطبقات العليا، تمثل بعض ملامح التشابه . ولكى نأخذ مثلا واحد فقط ، نقول أن أوقات الفراغ بالنسبة لكل البلاد كانوا يرغبون ويميلون إلى قضائها فى البندقية . فكانت البندقية المغرية هذه ، والتى أسماها موتتسكيو فى أحد الايام «الفندق الاوربى المرح» تجتذب إليها كل أولئك الذين كانوا ، ومن أى بلد ، يتمتعون بأوقات الفراغ وبالمال فى نفس الوقت: فكانت تمنحهم ملذات سهلة تحت سماء بهيجة . وكان الإنجليز ، قبل غيرهم ، هم الذين يعطون لها هذا الطعم . فكانوا يسكنون بلاد مليئة بالضباب ، ويشعرون بالتالى بأنهم منجذبين بنوع خاص إلى السواحل المشمسة على البحر المتوسط . وكانوا لايشعرون بالغربة فى البندقية ، وخاصة أبناء لندن ، والذين تعودوا إستخدام الطريق المائى لكى يصعدوا نهر التاميز أو ينزلونه ، أو حتى يعبرونه على قواربهم .

وفى بعض الحالات ، وفى أثناء النصف الثانى من القرن كان هؤلاء الأثرياء من الإنجليز قد بدأوا فى النزول فى نيس ، وهو ساحل آخر بهيج ، ومرتبط بسافوا ، وحيث وجد كرنفال البندقية ، فيما بعد ، منافساً خطيراً له . وكانوا يتوقفون هناك ، فى مرورهم ، قبل أن يكملوا طريقهم إلى البندقية ، أو فلورنسا، أو روما . وهكذا بدأت ، قرب نهاية القرن ، وقرب نهاية العهد القديم ، حركة «سياحة» دولية . أما الإنجليز الذين إخترعوا هذه الكلمة ،فإنهم لن يستخدمونها بكثرة إلا فى فترة تالية . ولكنهم بدؤا ، منذ ذلك الوقت ، فى ممارستها . وكانوا حتى ذلك الوقت قد إقتصروا على إرتياد المحطات الخاصة بالمياه العلاجية الشهيرة ، مثل إكس وبلومبيبه . أما الآن ، فإن «الموضة» قد إنتشرت بالمعيشة فى المراكز الصغيرة على سواحل البحر ، وسيتلوها ، عند نهاية القرن ، بالإقامة فى

الجبال : فأخذ مستقبل شامونيكس فى الظهور فى سنوات ١٧٨٠ . وزاد عدد الأدلاء والمضيفين والرحلات عند نهاية القرن .

وفيما بين هؤلاء الذين كان الفضول يدفعهم إلى الخروج من بلادهم ، نجد الانجليز ، ونجد كذلك الألمان . وكانوا فى غالبيتهم من الشباب . وكان هدف تنقلهم لايقتصر على مجرد التمتع بالمناظر والمواقع ، بل يتعداه كذلك إلى زيادة تعليمهم . ومنذ قرن مضى ،كان ليبنيتز Leibniz قد أخذ على أبناء وطنه هذا التعلق الشديد بالتجوال ، والذى إتهمه بخيانة الروح الوطنية .

وهكذا كانت هناك تجديدات كثيرة تنمو فى هذا القرن المضطرم بالآراء الجديدة ، والمشاعر الجديدة . وفى ميدان السياسة الدولية ـ والتى علينا أن نعود إليها فى الختام ـ علينا أن نتذكر ظهور (وقد أشرنا إلى ذلك فى الصفحات الأولى)، فكرة عن المستقبل ، هى فكرة إتحاد ، أو رابطة ، أو « عصبة » للأمم المتحضرة : ظهور بسيط وبالكاد ، حتى أن وقت نجاحها لم يكن قريب .

وسوف تدير الثورة الفرنسية ظهرها لهذا المثل الأعلى الجديد ، وذلك بتنميتها الروح الوطنية ، وكمصدر للانانيات القومية . وستعمل على أن تؤخر ولمدة تزيد على القرن ، تلك المجهودات البناءه التى كانت تتجه إلى هذا الإتجاه. ومن وجهة النظر الدولية ، فإن هذه الحركة الكبرى للتحرر الإنسانى والتجديد سوف تسير ـ ونجد ألماً ونحن نقررها ـ فى ألعن مسارب الماضى ، منذ ذلك الوقت بنوع خاص الذى ستسمم فيه الديناميكية التى نشأت فى الأمة ، فى أمر تحقيق هذه «المغامرة» النابوليونية الكبيرة .

بعض مراجع الكتاب

ALTMEYER, J. J. ;
Histoire des relations commerciales et diplomatiques des Pays — Bas avec le Nord de l'Europe pendant le XVIe Siècle. 1840.

AMEROSI, Ch.;
La Corse insurgée et la seconde intervention française, 1950.

BASCHET, A. ;
La diplomatie vénitienne. Les princes de l'Europe au XVIe Siècle 1863.

BEDARIDA;
Parme et la France de 1748 à 1789, 1929.

BELLOT, H. H ;
American History and American Historians. 1952.

BLACK, J B ;
The Oxford history, t. 8. The reign of Elizabeth (1558 — 1603).
Oxford, 1945.

BONSEL, S ;
Soldats de la liberté, 1952.

BOURGEOIS; Emile.;
Manuel d'histoire de politique étrangère. 2e Ed.
Paris, 1897.

BANDRILLART, A. ;
Philippe V et la Cour de France (1700 —1715). 1889.

BRAUDEL, F. ;
De l'or du Soudan à l'argent d'Amérique.
Paris, 1946.

BRAUDEL; F. ;

La Méditerranée et le monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II.

Paris; 1949.

BROGLIE, duc de ;

Le Secret du Roi, 2 Vols. 1878.

————; L'alliance autrichienne. 1895.

CLARK, G. N.;

The Anglo — dutch alliance and the war against frensh trade (1688—1697). 1923.

CANU, J.; CIGNOUX, C. J.; GOBERT, A.;

Histoire du Commerce, Tome IV, du XVe au milieu du XIXe Siècle.
Paris, 1951.

CARMAN et SYRETT;

A history of the american people. 2 Vols. 1953.

CORDIER, H. ;

Histoire générale de la Chine et de ses relations avec les pays étrangers.

2 Vols. 1920 – 1924.

COTTERILL, R.S. ;

Histoire des ameriques. 1946.

DAVENPORT, F. G.;

Europaan treaties bearing on the history of the United States and its dependencies.

London, 1917.

DE BONNAULT;
Histoire du Canada Français. 1950.

DEHERAIN,

Histoire de la nation égyptienne : t. 5 : l'Egypte turque.

————, Les rapports entre la france et la perse de XVII au XXe siècle 1931.

ESSEN, Van Der;

Alexandre Farnèse. duc de Parme.
5 Vols. 1933 — 1939.

ESSEN, Van der;

Le Cardinal — infant et la politique européenne de L'Espagne. T. I. (1609—1634).
Paris, 1944.

FEILING, K. ;

British foreign Policy (1660—1672) 1930.

FEITO; Joseph II. 1953.

FRACOIS, Michel;

Le cardinal de Tournon, homme d'Etat' diplomate, mécène et hummaniste (1489—1562).
Paris, 1951,

GAXOTTE; Pierre; Le Frédéric II. 1939.

GIGNOUX, C.-J.; Monsieur Colbert. 1942.

GILLE, B.;

Histoire économique et sociale de la Russie 1949.

GIPSON, L H.;

The British Empire before the american Revolution,
7 Vols. 1939 — 1946.

GIRAUD, H.;

Histoire de la louisiane française, 1950.

GODECHOT, J. ;

Histoire de l'Atlantique.

Paris, 1947.

GOWEN, H.;

Histoire de l'Asie. 1929.

__________ ; Histoire du Japon. 1933.

GROSSET, René;

Histoire de la Chine. 1942.

GRUNWALD, C. de;

Trois siècles de diplomatie russe. 1945

HANOTAUX, G et MARTINEAU, A;

Histoire des colonies française, et l'expansion de France dans le monde.

Paris, 1929—1933. 6 Vols.

t. 2 : L'Algesie,

t. 3 : le Maroc et La Tunisie,

t. 4 : L'Afrique Occidental et Equatoriale,

t. 6 : Madagascar.

HARDY, G. ;

Histoire de l'Afrique 1921.

HAUSER, Henri,

La prépondérance espagnole, (1559—1660).

Paris, P. U. F., 1949.

HAUSER, H. :

La pensée et l'action économique du cardinal de Richelieu.

Paris, 1944.

HAUSER, Henri et RENAUDET, A.
Les débuts de l'âge moderne.
Paris, P. U. F., 1946.

HEGEMANN, Werner;
Le grand Frédéric, 1934.

HILL, D. J. ;
A History of Diplomacy in the international
dévélopment of Europe.
London, 1905—1914. 3 Vols

HUME, M. ;
La Cour de Philippe IV et la décadance de l'Espagne.
Paris, 1912.

IORGA, N. ;
Histoire des Etats balkaniques à L'époque moderne.
1925.

JARAY, G. L. ;
L'Empire Français d'Amérique. 1938.

JULIEN, CH.—A. ;
Histoire de l'Afrique du Nord.
Paris, 1931.

JULIEN, CH.—A. ;
Les débuts de l'expansion et de la Colanisation
Française (XVe—XVIe Siecles).
Paris, P. U. F. 1947.

JUSSERAND.
Histoire litéraire du peuple anglais.
2 Vols. 1894.

KAMMERER, Albert.

La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie.
Le Caire, 1929—1949. 3 Vols.

LA FERRIERE, H. de ;

Le XVIe siècle et les Valois. 1879.

LANNOY, de, et LINDEN, Van der;

Histoire de l'expansion coloniale des peuples européens.
t. I : Portugal et Espangne, 1907.
t. II : Hollande et Danemark, 1911.
t. III : Suede, 1921.

LA RONCIERE;

Histoire de la matine française. t. I., II, III, IV et V.
Paris, 1909—1911—1918—1920.

LEFAIVRE, A :

Les Magyars pendant la domination ottomane en
Hongrie (1526—1722),
2 Vols. 1902.

LEFRANCE, Abel,

Histaire du collège de France. 1893.

LEGRELLE,

La diplomatie française et la Succession d'Espagne.
4 Vols. 1895—1899.

LEMÀN,

Richelieu et Olivares.
Paris, 1939.

LUBIMENKO, J. ;

Les relations commerciales et politiques de l'Augleteure
avec la Russie avant Pierre le Crand. 1933.

MACKIE, J. D. ;

The Oxford history, t. 7. The earlier Tudors

(1885 -1558).

Oxford, 1952.

MALO, Henri; La grande guerre des corsaires (1702—1725).

2 Vols. 1925.

MABCH, J. M. ;

La batalla del Lepanto y don Luis de Requesens.

1944.

MASSON, Paul;

Histoire du commerce français dans le Levant au

XVIIe Siecle.

Paris; 1896

————, Histoire du commerce français dans le levant au

XVIIIe siècle. Paris, 1911.

MERRIMAN, R. B. ;

The rise of the Spanish Empire.

London, 1925—1934. Tome 3 et 4.

MERRIMAN, R, B. ;

Suleiman the magnificent.

London, 1914.

MEUVRET, J. ;

Histoire des pays baltes. 1934.

MILLER, J.C. ;

Triumph of freedom (1775—1783). 1948.

MITCHELLI, M. ;

Histoire martime de la Russie. 1952.

NOLHAC, P. de ,

Louis XV et Madame de Pompadour. 1948.

NYS, Ernest,

Le droit international.

3 Vols. 1904—1906.

OLIVER, D.L. ,

Les îles du Pacifique 1952.

PADOVER,

L'Empséreur Revolutionnaire, 1934.

PAGES, G. ,

La Guerre de Trente Ans (1618—1648),

Paris; 1939.

PARES, B ,

History of Russia. 1948.

PARES, Richard ,

War and trade in the West Indies 1739—1763. 1939.

PASTOR, L. ,

Histoire des Papes depuis la fin du Moyen—age.

5 t. à 16. (Trad)

Paris, 1898 — 1934

PICAVET, C. G. ,

La diplomatie fançaise au temps de Louis XIV

(1661—1715). 1930.

PIRENNE, Henri,

Histoire de Belgique. t. 3 et 4.

PORTAL, R.,

L'Oural au XVIIIe siecle. 1950.

__________, une route du fer au XVIIIe siecle. 1954.

POTIEMKINE, Vladimir;

Histoire de la Diplomatie.

Paris, 1946.

PRECLIN, E., TAPIÉ, V.—L.;

Le XVIIe Siècle.

Paris, 1943.

PRZCZDZIECKI,

Diplomatie et protocole à la Cour de Pologne

1934—1937, 2 Vols.

ROBERTSON, Grant,

Chatham and the British Empire, 1946.

ROTT, Edouard,

Histoire de la représentation diplomatique de la France

aupres dés Cantons suisses. t. 1—2.

Paris, 1900—1902.

RUTKOWSKI,

Histoire économique de la Pologne avant les partages.

2 Vols. 1946 — 1947.

__________, Les bases économiques des partages de la

Pologne, 1932.

SALOMON, R.,

La politique orientale de Vergennes. 1935.

SEE, H., REBILLOM, A., PRECLIN, E.,

Le XVIe Siecle.

Paris, 1942.

SEMIENOY,

La cönquete de la Siberie. 1938.

SOREL, A.,

La Question d'Orient au XVIIIe siecle. 1878.

STAHLIN ,

La Russie, des origines à la caissance de Pierre le Grand. 1946.

STORMBERG, A. ,

A history of Swepen.

London, 1932.

SUMNER, B H.,

Peter the Great and the Ottoman Empire. 1949.

TAPIE, V.—L.;

La France de Louis XIII et de Richelieu.

Paris, 1952.

The Cambridge History of the british empire.

t. I : The O'd Empire, 1929.

TOUSSAINT—BERTRAND, J.,

Histoire de l'Amérique Espagnole 2 Vols, 1929.

TRAMOND

Manuel d'histoire maritime de la France.

Paris, 1916.

WADDINGTON. R.,

Louis XV et la senversement du alliances, 1896.

TREVELYAN, G.M ,

England under the Queen 3 Vols. 1936. Revolution. 6 Vols. 1899—1917. Anne. , the american.

WELTER, G.;

Histoire de la Russie, 1946.

WILLIAMSON,

A short history of the british expansion.
London, 1936. 2 Vols.

WOLF, J.B.;

The emergence of the Great powers (1685-1715).
1951.

ZELLER, G. ,

Politique extérieure et diplomatie sous Louis XIV.
Rev. Hist. Mod. et Con. 1931.

ZELLER, G. ,

Saluces, Pignerol et Strasbourg, La politique des
frontieres au temps de la prépondérance espagnole.
Paris, 1942—43.
(Revue historique, t 193).

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

الباب الثانى

صفحة

صفحة

الباب الثالث

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

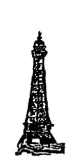
الباب الخامس

صفحة

صفحة

صفحة

رقم الايداع ٣٩٩٠ / ٨٢
الترقيم الدولى ٢ - ١٤٧ - ٠٢ - ٩٧٧



المطبعة العصرية
• شارع كافور ـــ الحضرة القبلية اسكندرية

١ / ١٢٢١٦٣

الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول الاسكندرية